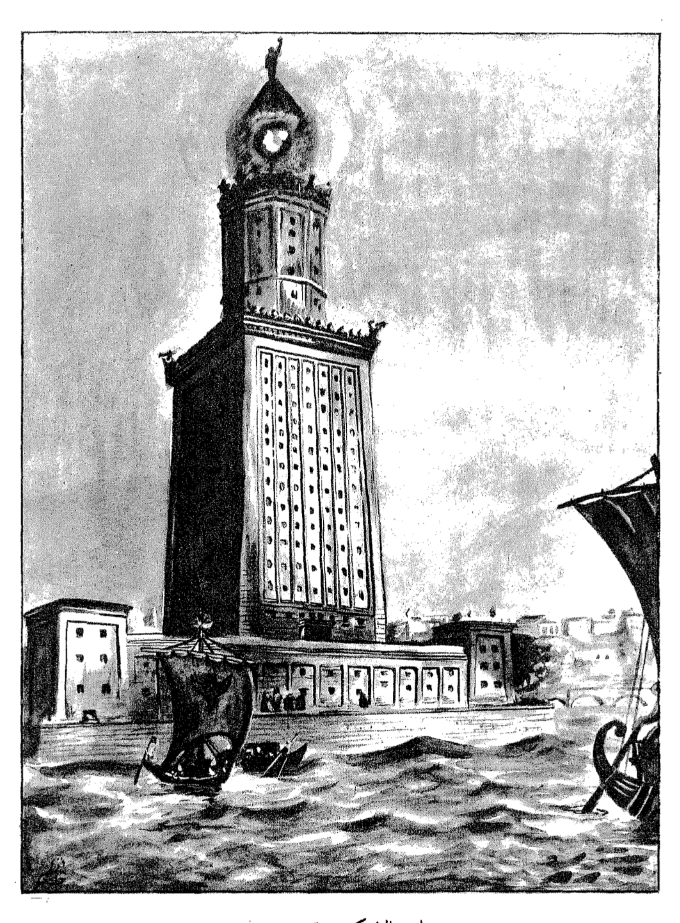




منارة الاسكندرية

The Pharos of Alexandria

نقلا عن كتاب « عجائب الماضي » والصورة وضع تيرش

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد السادس والثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٥ — ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٣

كشف الايدروجين الثقيل

وجائزة نوبل في الكيمياء

صلتهُ بعلمي الكيمياء والطبيعة وأثر الماء الثقيل في الاحياء

لعلَّ كشف العلماءِ الاميركيين للايدروجين الثقيل والماء الثقيل اعظم أثر علمي لهم بعد تجربة ميكلصن مورلي التي نهضت على اساسها نظرية النسبية، وقياس ملكن للشحنة الكهربائية على الالكترون، وبحثهِ هو وكمطن وصحبهما في الاشعة الكونية. بل لعلَّ كشف الايدروجين الثقيل يفوق هـذين البحثين الاخيرين لانهُ فتح ميداناً جديداً في علوم الطبيعة والحياة حالة ان قياس الشحنة الكهربائية على الالكترون والبحث في الاشعة الكونية، مع ما ينطويان عليهِ من ابداع وتدقيق، لم يكونا الاَّ اضافة جديدة الى موضوعين سبقهم الى العناية بهما غيرهم من العلماءِ. فمنح جائزة نوبل الكيمائية عن سنة ١٩٣٤ للدكتور هارولد يوري Urey استاذ الكيمياء الطبيعية في جامعة كولومبيا جزاءً لهُ على كشفهِ هذا، بعد فوز طائفة من علماءِ الولايات المتحدة الاميركية بعدد من جوائز نوبل في الطبيعة والكيمياءِ (هؤلاء العلماء هم بحسب ترتيب نيلهم للجوائز المذكورة ميكلصن وملكن ورتشردز وكمطن ولنغميور) دليل على ان اميركا التي كانت الى عهد قريب عالةً في علمها على اوربا معنية في الغالب بتطبيق مبادىءِ العلوم التي كشفها الاوربيون، قد اخذت تقوم بنصيبها في ترقية العلم بالاضافة الى بحوثهِ الاساسية، وتجني ثمرة الاموال التي انفقت في

ربوعها على انشاء الجامعات ومعاهد البحث العلمي في الشركات الصناعية الكبيرة . على ان الاستاذ يوري ليس العالمَ الاميركيّ الفردَ الذي عني بهذا البحث الجديد بل يجب ان نذكر معهُ الاساتذة برج Birge ومنزل Menzel وبريكودْ Brickwedde ولوِس Lewis ويستطيع القارىء ان يتبيّنَ أثر كلٍّ من هؤلاء العلماء في هذا الكشف من خلال هذا المقال

* * *

اطلق على الضرب القديم المعهود من الايدروجين اسم ايدروجين ١ وعلى الضرب الجديد اسم ايدروجين ٢ . والرقمان يشيران الى وزن الضربين او الى الوزن النسبي لذرتيهما بالمقابلة مع وزن ذرة الاكسجين . فقراء المقتطف يعلمون ان الايدروجين أخف المواد المعروفة على الاطلاق وان ثقله واحد ، اي اذ اتخذنا الاكسجين اساساً للمقابلة ، وجعلنا وزنهُ الذري ١٦ فوزن الايدروجين الذري على هذا القياس واحد . وهذا الايدروجين هو الضرب الاول المعروف الآن بايدروجين١ اما الايدروجين٢ فثقله اثنان بالقياس الى ثقل الاكسجين . فاذا فرضنا ان ذرة الاكسجين ثقلها ١٦ فذرة الصنف الاول من الايدروجين ثقلها ١ وذرة الصنف الثاني ثقلها ٢ . وقد اقترح المكتشفون اطلاق اسمين يونانيين على هذين الضربين من الايدروجين ، يعنيان ١ و ٢ وهما بروتيوم ودوتيريوم[١]

لا يخفى ان المواد التي تحيط بنا ، المنوعة في أشكالها وأوزانها وألوانها وروائحها وقساوتها ولينها انما هي مركبة اصلاً من مواد اولية تدعى عناصر وعددها اثنان وتسعون عنصراً . فالعنصر في عرف الكيمياء هو المادة التي لا نستطيع ان نحلها بما نملكه من الوسائل الكيمائية من دون ان تفقد خواصها

وفي سنة ١٨٠٢ قال دلتن الكيماوي الانكليزي ان المادة مركبة من دقائق صغيرة دعاها ذرات Atoms وكان المفروض في نظريتهِ ان ذرات كل عنصر متشابهة جرماً ووزناً وتصرفاً كيمائيًّا . ثم كشف علماء الكيمياء وسائل تمكنهم من معرفة اوزان هذه الذرات بالمقابلة بينها . وفي سنة ١٨١٥ بين الطبيب پروت Prout الانكليزي ان الاوزان الذرية ليست الاّ اضعافاً مختلفة لوزن ذرة الايدروجين . فوزن الكلسيوم ٤٠ مثلاً وهو ٤٠ ضعف وزن الايدروجين . فاذا سلمنا بهذا القول وجب ان تكون الاوزان الذرية كلها اعداداً صحيحة ، لان وزن الايدروجين عدد صحيح . واقترح حينئذٍ نظرية عجيبة مؤداها ان ذرات العناصر انما هي مركبة من ذرات ايدروجين محشوكة معاً . ولكن لدى وزن ذرات العناصر بالأساليب المعروفة ، تبين ان اوزان كثير منها ليس بالعدد الصحيح واذاً فلا يمكن ان تكون اضعافاً لوزن ذرة الايدروجين . فصرف النظر عن مذهب پروت في أواخر القرن التاسع عشر . ولكنهُ بعث من مرقده الآن . والقول بأن ذرات العناصر مبنية من ذرات الايدروجين ، له صلة دقيقة بما للايدروجين الثقيل (الايدروجين ٢) من المكانة عند علماء الكيمياء والطبيعة

---

(١) يفضل علماء بريطانيا اسم دبلوجين للايدروجين الثقيل وذرته تعرف عندهم باسم دبلون

لنلتفت الآن الى ناحية اخرى من هذا البحث جديرة بالاهتمام . ففي اواخر القرن التاسع عشر كشف الباحثون عن ظواهر الاشعاع . فوجدوا ان هنالك عناصر تتحول من تلقاء نفسها من عنصر الى آخر . فالراديوم يتحول بعد زمن طويل ينقضي عليهِ الى رصاص . وكانت النتيجة التي أسفر عنها البحث في تحول العناصر بعضها الى بعض ، ان بعض العناصر التي تنتهي اليها العناصر المشعة — كالرصاص مثلاً — تشبه عناصر اخرى في خواصها الكيمائية ولكنها تختلف عنها في وزنها الذري . فالرصاص الطبيعي يشبه الرصاص الناشىء من تحوّل الراديوم بالاشعاع ولكن أحدهما يختلف عن الآخر في وزنهِ الذرّي . كذلك الراديوم والميزوثوريوم، لا يمكن ان يفصل احدهما عن الآخر من ناحية الخواص الكيمائية ، ولكن الراديوم يحتاج الى ١٨٠٠ سنة لكي يتحول الى عنصر آخر وأما الميزوثوريوم ، فيحتاج الى سبع سنوات فقط ليتحوّل التحوُّل نفسهُ . ثم ان وزن الراديوم الذري ٢٢٦ واما وزن الميزوثوريوم ، الذرّي فـ ٢٢٨ والذرات التي تتشابه من حيث خواصها الكيمائية ولكنها تختلف من حيث وزنها تعرف بالنظائر Isotopes وقد عثر بين العناصر المشعة على أمثلة عديدة من النظائر

***

والخطوة التالية في تطوُّر هذا البحث انما تمّت لما ثبت ان العناصر العادية كالنيون والكلور وغيرها مؤلفة من ذرات متشابهة في صفاتها الكيمائية وانما تختلف في اوزانها . ولعلَّ اشهر الباحثين في هذا الموضوع هو الاستاذ استن Aston الانكليزي الذي اثبت ان اكثر العناصر مؤلفة من نظائر . وقد اقتفى الباحثون الاميركيون خطوات استن فأثبتوا ان للاكسجين والنتروجين والكربون نظائر كذلك . وقد ظهر ان اوزان ذرات النظائر تكاد تكون اعداداً صحيحة مما يعيد الى الذهن نظرية بروت ، وهي ان ذرات العناصر مبنية من ذرات الايدروجين وقد حشكت معاً

واذا كان هـذا صحيحاً فيجب ان يعثر الباحثون على ذرة مؤلفة من ذرتي ايدروجين فتكون أبسط الذرات المركبة بحسب نظرية بروت وحلقة بين ذرة الايدروجين وذرات العناصر الاخرى المركبة منها . فعني بدرس هذا الموضوع الاستاذ برج Birge أحد اساتذة جامعة كاليفورنيا والدكتور منزل Menzel احد علماء مرصد هارفرد فأقاما الادلة على ان ايدروجين ٢ يوجد في الايدروجين العادي بنسبة ١ الى ٤٥٠٠ . واذا بلغت ندرة أحد النظائر هـذه المرتبة (١ : ٤٥٠٠) تعذّر الكشف عنهُ الاَّ اذا امكن تركيزهُ . لذلك عمد الدكتور بريكود Brickwedde الى تقطير الايدروجين السائل على درجة واطية جدًّا من البرودة — ٤٦٦ بميزان فارنهيت تحت درجة الجمد . وبذلك زادت نسبة ايدروجين ٢ الى ايدروجين ١ حتى بلغت ١ : ١١٠٠ فتمكن الدكتور هارولد يوري Urey أحد اساتذة الكيمياء في جامعة كولومبيا ومعاونهُ مرفي من كشفهِ بواسطة طيفهِ . ثم كشفت طرق

اخرى لاستحضاره منها طريقة الحلّ الكهربائي . والمتوقع ان يكون هذا الضرب من الايدروجين مداراً لمباحث خطيرة في الكيمياء والطبيعة ، لذلك نذكر في ما يلي اشهر ما يعرف عن خواصهِ وما قد يفضي اليهِ درسهُ من النتائج العامية

***

لقد تبحّر العلماء في درس بناء الذرات في العهد الحديث فوصلوا الى ان الذرة مبنية من جزئين. اولاً من كتلة مركزية مشحونة شحنة كهربائية موجبة وحولها دقائق من الكهربائية السالبة تعرف بالكهارب او الالكترونات . فاذا تعيَّن لدينا عدد الالكترونات حول نواة ذرة ما تعيَّنت كذلك خواصها الكيمائية. فاذا كان في الذرة الكترون واحد فهي ذرة ايدروجين . واذا كان فيها الكترونان فهي ذرة هليوم . واذا كان فيها ثلاثة الكترونات فهي ذرة ليثيوم . او اربعة فهي ذرة بريليوم . او خمسة فهي ذرة بور . او ستة فهي ذرة كربون . او سبعة فهي ذرة نتروجين . او ثمانية فهي ذرة اكسجين . او اثنان وتسعون فهي ذرة اورانيوم وهو آخر سلسلة العناصر . والعناصر الباقية متوسطة بين الاكسجين والاورانيوم تزيد ذرة كلّ منها الكتروناً واحداً عن ذرة العنصر السابق

ولكن كتلة الذرة مركزة في النواة المركزية ، ووزنها يختلف باختلاف عدد الدقائق التي تتركب منها النواة . فنواة ذرة الايدروجين ، (او البروتيوم) تحتوي على دقيقة واحدة وتعرف بالبروتون .اما ذرة الايدروجين، (او الدوتيريوم) فمؤلفة من بروتون ونوترون — والنوترون دقيقة وزنها وزن البروتون مؤلفة من بروتون والكترون ومتعادلة الكهربائية—فذرة الايدروجين الذي وزنهُ الذري ٢ (اسمها دوتون او ديلون) هي بعد ذرة الايدروجين، ابسط الذرات المعروفة . واذا شاء العلماء ان ينفذوا الى سر تركيب النوى في الذرات وجب عليهم ان يقفوا على ترتيب ابسط الذرات وأبسط النوى ثم ما يليها فما يلي ذلك . ودرس نواتي البروتيوم والدوتيريوم انما هو خطوة اولى في هذه الناحية

ثم ان الليثيوم الذي وزنهُ الذري ٧ يتفاعل مع البروتيوم لتوليد الهليوم . والليثيوم الذي وزنهُ الذري ٦ يتفاعل مع الدوتيريوم لتوليد الهليوم كذلك . وهذا النوع من التفاعل يفيض طاقة عظيمة تفوق مليون ضعف الطاقة التي تسفر عنها التفاعلات الكيمائية العادية . هذا اهم ما يقال عن البروتيوم والدوتيريوم من حيث مكانتهما في علمي الطبيعة والكيمياء

اما من ناحية خواصهما الكيمائية فثمَّة فروق بينهما . فعالم الكيمياء يهمهُ ان يعرف لماذا تتصرف العناصر الكيمائية تصرفها المعروف . كيف يحترق الايدروجين وكيف تحصل التفاعلات الكيمائية في اجسادنا ؟ ونحن نعلم ان الجواب الشافي عن هذه الاسئلة وأشباهها يتناول عوامل كثيرة منوعة . ولكننا نعلم كذلك ان لوزن الذرات في المواد المتفاعلة شأناً كبيراً . او نحسّ أن ذلك يجب ان يكون . والظاهر ان احساسنا هذا صعب التحقيق فالعلماء يقولون ان وزن الذرات ،

اذا كان لهُ اثر في التفاعلات الكيمائية فانهُ اثر لا يكاد يكشف بالكواشف المعروفة . ولكن الفرق الكيمائي بين تفاعل ذرة البروتيوم وذرة الدوتيريوم يسهل كشفهُ بنسبتهِ الى وزني الذرتين . فالماء الذي يصنع من الايدروجين ١ يختلف في درجة غليانهِ عن الماء المصنوع من الايدروجين ٢ . ثم ان تفاعلاً كيمائياً يدخل فيهِ احد الصنفين يختلف سرعةً عن نفس التفاعل اذا أبدل فيهِ احد الصنفين بنظيره . وقد يكون هناك فروق بيولوجية ناتجة عنهما . فالفئران التي تحتوي اجسامها على مواد يكثر فيها ايدروجين ٢ في تركيبها قد لا تستطيع الاَّ ان تكون بطيئة او لا تستطيع ان تعيش قط فهو في جسمها بمثابة السم . فهذا الايدروجين الثقيل كأكثر المكتشفات العلمية في استهلالها لا يمكن ان نحكم عليهِ حتى يتعمق العلماء في درسهِ وكشف احواله وخواصهِ

***

لما كشف الايدرجين الثقيل في اميركا ، بدأ العلماء يتكهنون بخواص الماء الذي يصنع منهُ . وقد قال الاستاذ يوري Urey احد مكتشفيهِ ان الماء يهمنا من الناحية الكيمائية لانهُ افضل المواد المذيبة المعروفة . وكثير من التفاعلات الكيمائية تحصل في الماء . ثم ان الايدروجين يلي الكربون في عدد المواد التي يدخل في تركيبها . فالمعروف ان الايدروجين يدخل في تركيب نحو ٣٠٠ الف مركب عضوي او اكثر ، علاوة على الكربون والنتروجين والاكسجين . ولما كانت المواد التي يدخل الايدروجين الثقيل في تركيبها تختلف في خواصها عن نفس المواد اذا كان ايدروجينها عادياً فاكتشاف هذا النظير للايدروجين يفتح امامنا باباً لتركيبات كيمائية جديدة

وقد ثبت من تجارب جرّبت في احدى كليات اميركا ان الماء الثقيل (اي المركب من اكسجين وايدروجين ثقيل) يفتك بحياة بعض الحيوانات المائية. ثم ان الخمائر لا تنمو فيهِ بنفس السرعة التي تنمو بها في الماء العادي. ووجد الكيماوي الاميركي الاستاذ غلبرت لوِس ان بزور التبغ لا تنتش بعد نقعها في الماء الثقيل . ثم اذا نقعت في ماء عادي ، تنتش انتاشاً ضعيفاً غير سويّ . اما الديدان المسطحة فتكاد تموت اذا نقعت ثلاث ساعات في ماء ثقيل ثم تعود الى الحياة اذا نقلت الى ماء عادي . وقد وجدت طائفة من اساتذة جامعة برنستن ان دعاميص الضفدع الخضراء لا تستطيع ان تعيش في الماء الثقيل اكثر من ساعة

وقد عاد الاستاذ لوِس حديثاً الى تجربة اثر الماء الثقيل في حياة الفئران . فأخذ فأرة وسقاها الماء الثقيل بقطَّارة لان ثمن الرطل منهُ يبلغ ١٥٠٠ جنيه لندرة الايدروجين الثقيل ولشدة العناء في تحضيره . وسقى فأرين آخرين ماءً عادياً . وكانت النتيجة ان الفأرين اللذين سقيا الماء العادي ظلاّ يتصرفان تصرفاً سوياً في اليقظة والمنام . اما الفأر الاول فتصرَّف تصرُّفاً غريباً . اذ جعل يقفز قفزاً عجيباً ويلحس الجدار الزجاجي في قفصه . وكان كلما سقي الماء الثقيل يزداد ظمأً . ولو لم ينفد الماء عند الاستاذ لوِس لمضي هذا الفأر يشرب وهو لا يرتوي

مكتبة الاسكندرية ومدرستها

وطرفٌ من آثار بعض علمائها في عهد البطالسة *

اذا ذكرت الاسكندرية بين حواضر العلم في العصر القديم كانت في فريق الطليعة . فلعلمائها في ميادين العلم النظري والعملي مكتشفات ومخترعات كانت ولا يزال بعضها آيةً في الابداع والابتداع. ولأدبائها وفلاسفتها في نواحي الادب والفلسفة القدح المعلّى والذكر الخالد . ولعلّ مدينة في التاريخ لا تستطيع ان تباهي بكوكبة من العلماء كالكوكبة التي تستطيع ان تباهي بها الاسكندرية وتفوقها . حتى ولا اثينا في اوج عزها [1] . وان مدينة تستطيع ان تنظم في عقد عظمائها ، علماء من طبقة اقليدس وارخميدس وابولونيوس وهيرو وهبّارخس وبطلميوس وهيروفيلوس واراستسترتس وغيرهم ، ويقرن اسمها في تاريخ العلم بأصول الهندسة المسطّحة وقواعد التشريح ومبادىء الطبيعة المحققة المجرّبة وقياس محيط الارض ومعرفةميل دائرة البروج ووضع نظام كونيّ ظلّ سائداً حتى خاتمة القرون الوسطى ، لمدينةٌ يخلق بنا ان نلتفت الى تاريخها واثرها في العمران . ونحن نفعل ذلك الليلة ، لا لنشيد بماضٍ غابرٍ مجيد ، او لنبكي على علم مضاع ، مكتفين بالإشادة والبكاء ، وانما لندلّ على ان البلاد التي اظلّت اولئك العلماء والفلاسفة وأنجبت بعضهم ، تستطيع اليوم بما تلقاهُ ، من تشجيع جلالة مليكها العالم ، المحبّ للعلم ، ان تعيد من ذلك العهد الزاهي سيرتهُ المجيدة الاولى ، فتنتظم هذه البلاد في الموكب العلمي السائر بقواعد تفكيره ونتاج ذلك التفكير — رغم بعض المساوي التي تبدو في أفقهِ — نحو المُثُل الانسانية العالية

***

بعد وفاة الاسكندر المقدوني الفاتح العظيم ، كانت مصر نصيب القائد بطلميوس ، أحد قوّادهِ الاربعة الذين اقتسموا مملكتهُ المترامية الاطراف . وكان لموقع مصر الجغرافي اكبر أثر في بلوغها في القرون التالية ارفع رتبة بين أمم ذلك العصر . ذلك ان بُعدها عن القبائل الاوربية الغازية التي اكتسحت اوربا ، وتحطيم اسطول الفينيقيين بعد حصار صور وافتتاحها عنوة ، جعلها في مأمن من هجمات الاعداء فتمتعت ردحاً من الدهر بسيادة بحرية واتسعت الاسكندرية حتى ساوقت قرطاجنة ونافستها في التجارة غرباً واتصلت ببلاد العرب والهند من طريق البحر الأحمر . ووقع

---

* من محاضرة لرئيس تحرير المقتطف في جامعة القاهرة الاميركية .

(١) ولز : موجز التاريخ : صفحة ١٩٧ طبعة كاسل ١٩٢١

أهلوها في بحبوحةٍ من العيش والرخاءِ ، فتسنى لهم ان ينصرفوا عن الاهتمام بشؤون العيش وامور الدفاع الى إنشاء المدارس والاندية العلمية . فأصبحت الاسكندرية ، الثغرُ التجاريُّ العظيم ، محطّـا لرحال العلماءِ والفلاسفة ، ومقرًّا للادباء والكتّاب فأمَّها طلاّب المعارف من جميع البلدان المجاورة لبحر الروم . وأصابت فيها المباحث العلمية والطبية والفلسفية قسطاً عظيماً من التقدُّم . وأُسبغ على جماعة علمائها اسم مدرسة « الاسكندرية » فصارت علماً لهم في أسفار التاريخ

لما انتهى الاسكندر من أمر الشام ودخل مصر وطرد الفرس منها أراد ان يبني فيها مدينة تقوم مقام صور وتكون محطًّا لتجارة المشرق والمغرب . وكان في مقدونية مهندس شهير اسمهُ دينوقراطس كان قد بنى هيكل ارطاميس في أفسس بعد ان حرقهُ هرّوستراتس الاحمق طلباً للشهرة وخلود الذكر وإن جاءَه من سبيل التدمير . فلما طبّقت شهرة الاسكندر الخافقين وذوّى اسمهُ في الاقطار رأى هذا المهندس ان يصنع لهُ تمثالاً لم يصنع مثلهُ لملك من ملوك الزمان . فلما مثل بين يديهِ قال لهُ إني عزمت ان أنحت لك جبل أتوس واصنعهُ تمثالاً لك وأبني الى يساره مدينة تتسع لعشرة آلاف من الناس واحوّل جميع الانهار التي تنبع منها الى يمينهِ فتجري منها الى البحر سيلاً متدفقاً[٢]. فسرَّ الاسكندر بهِ وصرفهُ ولعله قال في نفسهِ ان هذا الرجل قد فاقني في حب الشهرة فطلبها من حيث تتعذّر . ولكنَّ الاسكندر تذكره لما أراد بناءَ تلك المدينة على شواطيء وادي النيل فاستدعاه اليهِ ووكل اليهِ بناءَها في سنة ٣٣٢ ق . م

وقد اطلعت في ما كتبهُ ياقوت الحموي عن انشاءِ الاسكندرية على هذه الروايه[٣] قال : وقيل ان الاسكندر لما همَّ ببناءِ الاسكندرية دخل هيكلاً عظيماً كان لليونانيين فذبح فيهِ ذبائح كثيرة وسأل ربّهُ ان يبين لهُ أمر هذه المدينة هل يتمُّ بناؤها أم هل يكون أمرها الى خراب فرأى في منامهِ كأن رجلاً قد ظهر لهُ في الهيكل وهو يقول لهُ ، انك تبني مدينة يذهب صيتها في أقطار العالم ويسكنها من الناس ما لا يحصى عددهم وتختلط الرياح الطيبة بهوائها ويثبت حكم أهلها وتُصرف عنهم السموم والحرُّ وتطوى عنها قوة الحرّ والبرد والزمهرير ويكتم عنها الشرور حتى لا يصيبها من الشياطين خبلٌ وان جلبت عليها ملوكُ الارض بجنودهم وحاصروها لم يدخل عليها ضرر ... فبناها وسماها الاسكندرية . . . . وفيها قبرهُ . . . . ومن ألطف ماروواه ياقوت ان الاسكندر والفَرَما أخوان بنى كل منهما مدينةً بأرض مصر وسماها باسمهِ ولما فرغ الاسكندر من مدينتهِ قال قد بنيت مدينة الى الله فقيرة وعن الناس غنيّة فبقيت بهجتها ونضارتها الى اليوم . وقال اخوه لما فرغ من مدينتهِ قد بنيت مدينة عن الله غنية والى الناس فقيرة فذهب نورها . . . . .

وقد اشتهرت الاسكندرية في ناحية العلم والثقافة بمكتبتها او بمكتباتها الشهيرة من ناحية وبمدرستها الخالدة الذكر في تاريخ تقدم العلم من ناحية اخرى ولكن قبل ان نأتي على ذكر المكتبة

---

(٢) المقتطف مجلد ١٧ سنة ١٨٩٣ صفحة ٧١٣ (٣) معجم البلدان ج ١ ص ٢٣٧

والمدرسة ومن اتصل بهما من أعاظم العلماء وأثر هؤلاء في ترقية العلم نريد ان نورد لكم نبذة عن منارتها التي كانت تحسب من عجائب الدنيا السبع

بنيت المنارة في عهد بطلميوس الثاني — ويقال ان بطلميوس الأول شرع فيها — بناها سستراتس الكنيدي وتمت سنة ٢٨٠ ق . م . وكان ارتفاعها على ما جاء في بعض الروايات ٤٠٠ ذراع وهو بعيد الاحتمال . ولكن لا يبعد انها كانت عالية جدًّا وثيقة البنيان حتى بقي برجها الاسفل الى سنة ١٣٥٠ للميلاد لما جاء ابن بطوطة الاسكندرية وقال انها بناء مربّع ذاهب في الهواء داخله بيوت كثيرة وعرض الحائط (يريد سماكة الجدار) عشرة اشبار وعرض المنار من كل جهةٍ من جهاته ٤٤٠ شبراً وهو على تلٍّ مرتفع . ثم قال قصدت المنار عند عودي الى بلاد المغرب سنة ٧٥٠ هـ (١٣٢٩ م) فوجدتهُ قد استولى عليهِ الخراب بحيث لا يمكن دخولهُ ولا الصعود الى بابهِ

وقال ابن جبير في رحلتهِ سنة ٥٧٨ هـ انهُ قاس احد اضلاع المنارة فوجدهُ يزيد على خمسين ذراعاً وان الارتفاع يزيد على ٥٠ باعاً . اما ياقوت الحموي الذي شاهد المنارة قبل ابن بطوطة بنحو مائة وخمسين سنة فقال انها حصن عالٍ على سنِّ جبلٍ مشرفٍ على البحر في طرف جزيرة بارزة في ميناء الاسكندرية بينها وبين الشط نحو شوط فرس وليس اليها طريقٌ الاَّ في ماءِ البحر وهي مربَّعة البناءِ ولها درجة واسعة يمكن الفارس ان يصعدها بفرسهِ . وقد سُقّفت الدرج بحجارة طوالٍ مركبة على الحائطين المكتنفي الدرجة فيرتقي الى طبقة عالية يشرف منها على البحر[٤]

وقال المقريزي في خططهِ نحو سنة ١٤٠٠ ان منارة الاسكندرية احد بنيان العالم العجيب. . . وطولها في هذا الوقت تقريباً ٢٣٠ ذراعاً بعد ان كان ٤٠٠ ذراع فتهدمت من ترادف الامطار والزلازل. . . وقال علي باشا مبارك في خططهِ التوفيقية انمحل هذه المنارة الآن البرج الزفر الذي هو محل طابية قائد بك الذي في النهاية البحرية الشرقية من جزيرة فاروس

***

ان مكتبة الاسكندرية ، في تاريخ المكتبات القديمة ، ليست اقدمها ، ولكنها في الغالب اشهرها على الاطلاق . فلوك الشرق كانوا قد انشأوا المكتبات قبل ذلك بقرون . والاغريق انفسهم كانوا قد انشأوا اول مكتبة للدولة قبل انشاءِ مكتبة الاسكندرية بقرن على الاقل . انشأوها في هرقلية على الشاطىء الجنوبي من البحر الاسود قبل سنة ٣٥٠ ق . م . لما كان الاسكندر لا يزال طفلاً يحبو[٥]

بل يقال ان ارسطو طاليس معلم الاسكندر ومثقفهُ في الحكمة والفلسفة اول من جمع مكتبة في اليونان ، وان مكتبتهُ اصل مكتبة الاسكندر ، وان كتبهُ جميعاً كانت فيها ، وان البطالسة اكثروا من جمع الكتب اقتداءً بهِ واكراماً لذكره لانهُ هو الذي هذّب الاسكندر قائدهم الاعظم . ويقال

(٤) تاريخ البطالسة ، المقتطف مجلد ٣١ سنة ١٩٠٦ صفحة ٥٩٠ و ٥٩١

(٥) مجلة Antiquity يونيو ١٩٢٨ صفحة ١٩٦

كذلك انهُ بلغ من غرامهم في جمع الكتب انهم كانوا يستعيرون المؤلفات من اصحابها ويعهدون الى من ينسخها فيحفظون الاصول عندهم ويردّون النسخ الى اصحاب المؤلفات . وكانت المكتبات في ذلك العهد تعتمد على نسخ مكتبة الاسكندرية ، فكأن مكتبة الاسكندرية علاوة على كونها خزانة لحفظ المؤلفات وناديًا لمراجعتها كانت دارًا للنشر كذلك . بل يقال ان بطلميوس رفض ان يمنح الاثينيين ما يحتاجون اليهِ من الطعام في اثناء مجاعة اصابتهم الاَّ اذا اباحوا له نسخًا معتمدة من مآسي اسخيلوس وصفوقليس ويوربيدس وانهُ لما فاز ببغيتهِ سخا في توفية ثمنها علاوة على ارسال مقادير الطعام المتفق عليها .

ومما يدلك على عناية بطلميوس بجمع الكتب في مكتبة الاسكندرية ان دمتريوس فاليريوس كان امينًا على المكتبة في ذلك العهد — الرواية ليوسيفوس المؤرخ — فطلب الامين الى مليكهِ في رسالة اثبتها يوسيفوس ان تجمع نسخٌ موثوقٌ بها من كتب التشريع العبراني لما تنطوي عليهِ من الحكمة الخفية وان تنقل وتفسَّر فامر الملك بارسال رسالة الى اليازار رئيس الكهنة العبرانيين في هذا الصدد . ثم يروي يوسيفوس ان هذه النسخ جمعت ونقلت واطلع دمتريوس الامين على ترجمتها ووافق عليها ثم رفعها الى الملك فاعجب بها وامر بأن توجّه اليها عناية خاصة حتى لا يُدخل فيها[٦]

ولعلَّ اشهر رجل تولّى ادارة مكتبة الاسكندرية عالم يدعى كاليماخس ، وهو باعتراف اولي الرأي، اعظم امناء المكتبات في العصر القديم . ففي عهدهِ وضع فهرست للمكتبة ملا مائة وعشرين مجلّدًا وكان فهرستًا تامًّا مرتبًا بحسب اسماء المؤلفين وموضوعات الكتب التي كانت ذات قيمة خاصة في نظر كاليماخس . ويجب ان نشير في هذا المقام الى ان الكتب في ذلك العهد لم تكن سوى لفّات من الرقّ نسخت عليها المؤلفات القديمة ، وكان المطالع يضطرُّ عند المطالعة ان يتناول المؤلفات التي ينوي ان يطالع فيها لفّةً لفّةً ويبسطها ليطلع على محتوياتها ولا يخفى ما في ذلك من الضرر على اللفَّة لما يمحى او يتلف منها بالنشر والطيّ . وفطن كاليماخس الى ذلك فقسم المؤلّفات الكبيرة كتاريخ هيرودتوس الى لفّات صغيرة ودعا كلّ لفة منها كتابًا او مجلّدًا

وقد اختلفت آراء الثقات اختلافًا كبيرًا في عدد الكتب او المجلدات التي كانت تحتوي عليها مكتبة الاسكندرية . فجورجيوس قدْرينوس يقول انها كانت ١٠٠ الف . وسنكا الحكيم ٤٠٠ الف . ويوسيفوس المؤرخ يذهب الى انها كانت ٢٠٠ الف ثم زيدت حتى بلغت ٥٠٠ الف . وزعم أَوْلوس غاليوس Gallius انها كانت ٧٠٠ الف . وجاراهُ اميانوس . وفي ذلك اقوال اخرى

ولعلَّ منشأ الاختلاف في التقدير اختلاف الكتَّاب في النقل والرواية اولاً وفي حسبان احدهم لفّات المؤلف الواحد كتبًا مختلفة حالة ان الآخر لم يحسبها الاَّ كتابًا واحدًا . فاحد كتب اوقيدوس كان في ١٥ لفة ويروون ان كتابًا لديدموس كان في ٣٥٠٠ لفة . وكذلك الاختلاف ناشيء عن ان مكتبة

(٦) مجلة Antiquity يونيو ١٩٢٨ صفحة ١٩٧

الاسكندريةلم تكن مكتبة واحدة بل ثلاث مكتبات على الاقل الاولى مكتبة الموزيوم (ندوة الادباء والعلماء) وقد جاء في اوروسيوس ان ٤٠٠ الف مجلد منها احترقت لما حاصر يوليوس قيصر الاسكندرية والثانية مكتبة السرابيوم احترق اكثرها في عهد الملك ثيودوسيوس سنة ٣٩١ للمسيح والثالثة مكتبة برغامس اضيفت الى الثانية واحترقت معها وما بقي تلف على تمادي السنين

وهذا يصل بنا الى الرواية التي تتهم القائد العربي عمرو بن العاص بحرق مكتبة الاسكندرية بناءً على رغبة امير المؤمنين الامام عمر بن الخطاب

فالمؤرخون متفقون على ان النار شبَّت في مكتبة الاسكندرية غير مرة قبل القرن الثالث للميلاد . ولذلك لا يسع المؤرخ ان يفهم كيف يعزى حرقها الى العرب بعيد فتح مصر . وقد اطلعتُ في جواب عن سؤال في هذا الصدد ورد على المرحوم الدكتور صرّوف(٧) قال فيه : واما ما قيل من ان الامام عمر امر باتلاف هذه المكتبة فرواية مطعونٌ فيها وعندنا انها كاذبة . وقد ايّد البحث الحديث هذا الحكم الذي حكم بهِ الدكتور صرّوف . بل ان حكمهُ كان يجب أنْ يدركه الباحثون عقلاً ، لان ديناً يجري على لسان رسولهِ الكريم « اطلبوا العلم ولو بالصين » لا يمكن ان يستبيح اتلاف ثمرات الحكمة والعلم المتجمعة في مخلّفات العقل البشري

فقد قيل في هذه الخرافة ان يوحنا النحوي جاء الى عمرو بن العاص بعد دخوله الاسكندرية وتوسل اليهِ ان يقطعهُ نصيباً من الأغنام . فسأله عمرو ايّ نصيب يطلب فأجاب يوحنا كتب الفلسفة في خزانة الملوك اي المكتبة . فقال عمرو انهُ لا يستطيع ان يفصل في ذلك من دون ان يسأل فيهِ امير المؤمنين ، فكتب الى أمير المؤمنين في ذلك فجاءه الردّ : اما الكتب التي تشير اليها فاذا كانت محتوياتها تتوافق وكتاب الله فلا حاجة اليها . واذا كانت على الضدّ من ذلك تعارضهُ فلا فائدة في حفظها وارغب في ان تدمر . فأمر عمرو بأن توزع الكتب في حمامات الاسكندرية وان تحرق . ولم يبقَ اثر منها بعد انقضاءِ ستة أشهر على ذلك

بيد ان الحقيقة لا تطمس الى الابد . فما لبث البحّاث ان تبينوا الخطأ الفاضح في الرواية . ذلك ان يوحنا النحوي الذي اسند اليه هذا الحديث الموهوم كان قد توفي قبل تاريخ الحديث المذكور . وقد عني غير واحد من العلماءِ بتفنيد الخرافة ، ولعلّ احدث وأتم بحث في هذا الصدد للمستشرق المعروف في هذا القطر الاستاذ كازانوفا رحمة الله عليهِ في رسالة تلاها امام اكاديمية الآثار والآداب بباريس في ٢٨ مارس سنة ١٩٢٣ (٨)

***

اما اشهر مدارس الاسكندرية فكانت المدرسة المعروفة باسم الموزيوم . وكلمة الموزيوم في اللغات الاجنبية تعني الآن داراً للتحف والآثار . ولكن معناها الاصلي « هيكل لربّات الفنون »

---

(٧) المقتطف مجلد ١٧ صفحة ٦٠ (٨) مجلة Antiquity يونيو ١٩٢٨ ص ٢٠٣

والاسم مركب من لفظين يونانيين الاول «موزيون» ومعناهُ هيكل والثاني «موز» ومعناهُ ربّة او إلاهة . فالموزيوم الاسكندري كان داراً للعلم والتعليم وندوة للعلماءِ والمفكرين وعلى ذلك يمكن حسبانه اول جامعة في التاريخ (٩) . وكان مبنيًّا حيث بورصة الاسكندرية الآن . اي ان الاقدمين من سكان الاسكندرية كانوا يطلبون الغنى العقلي حيث يطلب المحدثون الثروة المادية الآن . ولهذه المدرسة الفضل الاول في حفظ علوم اليونان وبثّها في الشرق والغرب وترقيتها في نواحٍ عديدة . وينقسم العلماء الذين اتصلوا بمدرسة الاسكندرية الى فريقين بوجهٍ عام : فريق المشتغلين بالعلوم الطبيعية . وفريق بالعلوم الطبية

فمن الفريق الاول العالم الرياضي الاشهر اقليدس واضع الاصول الهندسية ، التي لا تزال تدرَّس الى عهدنا هذا . ومما يؤسف لهُ ان التاريخ لم يدوِّن شيئاً مفصلاً عن سيرتهِ . وكلّ ما يعرف منها مستمدّ من كتابات پاپوس وبروكلوس عنهُ . ويؤخذ من كتاباتهما ان اقليدس ولد في الاسكندرية حوالي سنة ٣٠٠ ق . م وعاش في خلال حكم الملك بطلميوس لاغوس . وقد كانت تعاليمه مصدر وحي والهام لطائفة من عظماء الرياضيين والطبيعيين جاؤا بعدهُ (وسيجيء ذكرهم) . ويقول بروكلوس ان اقليدس كان دمث الاخلاق حسن المناقب مقرَّباً من الملك الذي كان يحبّ العلم ويقرّب العلماء . ويُروَى عنهما حكاية طريفة خلاصتها انهُ كان للملك قصر تؤدي اليهِ طريق سلطانية واسعة ممهَّدة يسلكها هو ورجال بطانتهِ والمقرَّبون اليهِ . اما عامة الشعب فكان عليهم ان يسلكوا اليه طريقاً وعرة . وكان الملك سائراً ذات يومٍ مع اقليدس في الطريق المهيع ، فالتفت المليك الى العالم وسألهُ هل ثمة طريق مختصر لتعلم الهندسة غير الاصول التي وضعها ونظمها فكان ردّ العالم : « ليس للهندسة طريق سلطانية يا مولاي »

ويجب ألّا يتبادر الى الذهن ان اقليدس اول عالم في التاريخ عني بوضع الاصول الهندسية لان طاليس وفيثاغوراس وأبقراط الكيوسي (وهو غير ابقراط ابي الطب) سبقوه الى ذلك . وانما كتاب اصوله يشتمل على المبادىء التي وضعها هؤلاء مضافاً اليها ما وضعهُ هو ، مرتباً ترتيباً منطقيًّا أسبغ عليها سمة الكمال وجعلها معتمد الطلاّب هذه القرون العشرين او تزيد

ومن علماءِ مدرسة الاسكندرية الاعلام ارخميدس . ولارخميدس في ميادين العلوم الرياضية والطبيعية مكانة تفوق مكانة ارسطوطاليس المعلم الاول . وكثير من الآراءِ والنظريات التي أبتدعها ارخميدس واقام الدليل عليها بالبرهان والتجربة لا تزال جزءًا لا ينفصل عن التراث العلمي العظيم الذي يدرسهُ الطالب في مدارس اليوم

ولد ارخميدس في سيراقوسة بجزيرة صقلية حوالي سنة ٢٨٧ ق . م . لما كان الملك هيرو ملكاً عليها . وتلقى العلم في الاسكندرية ، وقد لا يبعد انهُ تلقى العلم على اقليدس نفسهِ . وفي هذا وحدهِ

(٩) ولز : موجز التاريخ : صفحة ١٩٧

دليل على مدى الشهرة التي ظفرت بها مدرسة الاسكندرية في ذلك العهد ، لان السفر من صقلية الى الاسكندرية في ذلك العهد لم يكن بالامر الميسّر وخاصّة في طلب العلم . وعاد ارخميدس الى مسقط رأسهِ ، ولكنهُ ظلّ متصلاً بعلميه واقرانهِ في مدرسة الاسكندرية ، ولذلك يصحُّ ان يسلك في عداد عظمائها . وقد اشتهر ارخميدس بمباحثهِ في الرياضة المجرَّدة وعلم السوائل والميكانيكا . ولهُ فيها مبتدعات لا تزال معروفة في عصرنا مسندةً الى اسمهِ . ولعلَّ اشهر ما اشتهر بهِ ارخميدس بحثهُ في الاجسام الطافية والغاطسة في الماء والحادثة التي جرت لهُ مع الملك هيرو من ابدع ما يروى عنهُ ولذلك لست اعتذر عن اعادة ذكرها

كان ارخميدس لشدة تفكيره في مسائل الطبيعة التي تسترعي نظرهُ ذاهلاً شارد الذهن . فدعاهُ الملك هيرو في احد الايام وقال لهُ انهُ يبغي ان يقدم للآلهة تاجاً من الذهب وان احد الصوَّاغ كان قد صنع التاج . ولكن الملك يريد ان يتحقق من ان التاج ذهب خالص لم يدخل فيهِ بفضة . وطلب الملك الى ارخميدس ان يحلَّ لهُ هذا المعمى من دون ان يصاب التاج بتلف او اذى

فخرج ارخميدس من حضرة المليك شارد اللب ، ولم يفق الاَّ وهو في حمامهِ . ذلك انه دخل الحمَّام فكان الحوض ملآناً بالماء حتى حافته العليا ، فلما دخل ارخميدس الحوض فاض الماء على جوانبه . فانتبه عندئذٍ الى ان هذا الفيضان يحل مشكلة التاج ، فخرج من حمامهِ عارياً في الشوارع وهو ينادي «يوركا . يوركا» اي وجدتها وجدتها

وكيف حل المشكلة ؟ اخذ كرتين احداها من الذهب . والاخرى من الفضة . وجعل وزن كل منهما وزن التاج تماماً . ولاحظ ان حجمي الكرتين مختلفان فكرة الفضة اكبر من كرة الذهب لان الفضة اخف وزناً من الذهب . وأتى بحوض مستوٍ ووضع فيهِ مقداراً من الماءِ ورسم خطًّا عند مستواهُ الأعلى . ثم جاء بكرة الذهب وغطَّسها في الماءِ فارتفع مستواهُ في الحوض فرسم خطًّا عند مستواهُ . ثم اخرج كرة الذهب وغطس كرة الفضة فارتفع مستوى الماءِ في الحوض فوق ارتفاعهِ عند تغطيس كرة الذهب لان حجم كرة الفضة اكبر من حجم كرة الذهب . ورسم خطًّا للدلالة على ارتفاع الثاني . ثم اخرج كرة الفضة . واتى بالتاج وهو يقول في نفسهِ اذا كان التاج ذهباً خالصاً وجب ان يرتفع مستوى الماءِ بقدر ما ارتفع عند تغطيس كرة الذهب . ثم غطس التاج فارتفع مستوى الماءِ ولكن جاء ارتفاعهُ بين بين ، اي بين ارتفاع المستوى الخاص بكرة الذهب وارتفاع المستوى الخاص بكرة الفضة . فعرف ان التاج ليس ذهباً خالصاً

وقد افضت تجربتهُ هذه — وهي من التجارب العلمية الخالدة — الى بحثهِ في الاجسام الطافية والنواميس المسيطرة على هذه الظاهرة مما هو مثبت في كتب الاصول العلمية

ولما فتحت سيراقوسة عنوةً سنة ٢١٢ في الحرب البونية الثانية اصدر القنصل مارسلوس الروماني الى الجند امراً مشدداً بعدم التعرض للعالم ارخميدس ، اعترافاً منهُ بفضلهِ ونبوغهِ ، مع انه

كان قد استنبط وسائل مختلفة لدفع هجمات الرومان عن مسقط رأسهِ . وكان ارخميدس عند افتتاح المدينة قد رسم دائرة على الرمل وجعل يقلب النظر في مشكلة يحاول حلها فهجم عليه جندي روماني وطلب اليه اسمهُ . فقال لهُ ابعد عني فانك تكاد تطمس دائرتي . فطعنه الجندي وكان في الطعنة حتفه

ومن علماءِ مدرسة الاسكندرية اراتوستين — وكان أحد امناء المكتبة — الذي حسب محيط الكرة الارضية ، فجاء حسابهُ حينئذ لا يبعد الاً خمسين ميلاً على التقدير المسلَّم بهِ الآن ، وانشأ مرصداً في الاسكندرية لرصد الافلاك وكشف ميل دائرة البروج

وابولونيوس الذي كتب كتابات رياضية في الطبقة الاولى . وخاصة ما كتبه في المخروطات الهندسية . وهيرو الذي كان عالماً رياضيًّا ومستنبطاً بارعاً في الوقت نفسهِ . فرسائله الهندسية تشتمل على بيان لاستخراج مساحات السطوح الهندسيـة واحجام الاشكال المجسمة . وقد وضع كتاباً في مسح الاراضي واستنبط لذلك آلة اشبه ما يكون بآلة المهندس الحديث المعروفة باسم « ثيودوليْت » ، ولهُ كتاب في السوائل وقد بنى على علمهِ بالسوائل آلات مختلفة تعتمد على قوة السوائل وحركتها مثل السيفون ومضخة الاطفاءِ وابتدع اساليب لاستعمال قوة البخار حتى لنستطيع ان نقول ان هيرو اول من صنع آلة بخارية في التاريخ . ويروى عن السر تشارلز بارسنز مستنبط التربين البخاري ، انهُ لمـا ذهب الى مكتب الباتنتة لتسجيل اختراعهِ ، اسف انهُ لم يرَ فيهِ اسم هيرو مخترع اول آلة بخارية في التاريخ . ولهيرو علاوة على ذلك مباحث في الميكانيكا نقلها العرب باسم « في رفع الاجسام الثقيلة » ورسالة في السطوح العاكسة ، وتعليقات على اصول اقليدس ورسالة في الساعات المائية

ومن علماءِ مدرسة الاسكندرية هبَّارخس واضع ازياج النجوم وبطلميوس الذي ابتدع نظاماً كونيًّا ظلَّ سائداً حتى عصر كوبرنيكوس وغليليو . وقد كان بطلميوس في نظر اهل عصره والعصور التي تلته بمثابة آلهٍ لذلك دعوا كتابهُ الذي اودعهُ ذلك النظام الكوني « المجسطى » اي « ذو الجلالة » ولا يزال يعرف بهِ الى يومنا هذا في اللغة العربية واللغات الاجنبية على السواء

اما مدرسة الاسكندرية الطبية فقد امتازت بعلم التشريح . ولعل عادة استخراج امعاءِ الميت بعد الموت عند المصريين لغرض التحنيط شجع على ذلك . وثمة أدلة على ان بعض الاعضاء كانت تشق في اجسام الاحياءِ بقصد درسها . وكان المجرمون المحكوم عليهم بالاعدام يقدَّمون للعلماء لهـذا الغرض . وقد اختلف العلماءُ في موضوع تشريح الحيوانات الحية في سبيل دراسة تركيب اجسامها. ولكن الدكتور تشارلز سنجر اكبر ثقة في تاريخ العلم القديم يقول انهُ مطمئن الى ان علماء مدرسة الاسكندرية الطبية كانوا يعمدون الى تشريح الحيوانات الحية — واحياناً بعض اعضاء الناس — المجرمين — في سبيل توسيع نطاق علم التشريح [١٠]

(١٠) ولز : موجز التاريخ : هامش صفحتي ١٩٧ و ١٩٨

وقد برز في مدرسة الاسكندرية الطبية اسم عالمين عظيمين احدهما هيروفيلس والثاني اراسستراتس

اما هيروفيلوس (٣٣٥ — ٢٨٠ ق . م) فأغريقي من خلقيدون اشتهر بمباحثهِ في التشريح وكذلك في معارفهِ الطبية بوجهٍ عام وبممارسة الطب كذلك . وكان من اتباع ابقراط ولهُ مباحث واسعة النطاق في العقاقير والفصد . مما يؤيد شهرتهُ العظيمة ان اربعة من كبار الاطباء كتبوا عنهُ وعن مؤلفاته ، واليهِ يشير جالينوس باحترام واعجاب . ورأيُ الطب القديم مجمع على جعل هيروفيلوس في المقام الثاني بعد ابقراط

اما اراسستراتس فكان معاصراً لهيروفيلوس ونداً لهُ . وما يعرف عن حياته نزر يسير لا يروي ظمأً . وانما يعلم انهُ قضى شطراً من حياته في بلاط سلوقس نيقاتور في انطاكية قبل مجيئه الى الاسكندرية وانهُ عني بالتشريح في النصف الثاني من حياته بعد ان توطن الاسكندرية . اما مؤلفاته فقد فقدت جميعها الاَّ بقايا حفظها جالينوس . على ان اراسستراتس بدلاً من ان يجاري ابقراط كما فعل هيروفيلوس كان ينتقصه . ويظهر انهُ كان رجلاً مستقلاً في رأيهِ معتزاً به ، وكان في خلقه حب المناوأة والكفاح . ويقال انهُ كان يميل الى تفسير الاعراض تفسيراً طبيعياً

وعلى ذلك نشأت في الاسكندرية مدرستان طبيتان . الاولى تضم اتباع هيروفيلوس وهم يجلّون ابقراط ونشأ بينهم علماء كبار في التشريح . والثانية تضم اتباع اراسستراتس فلم يشتهر رجالها اشتهار رجال الاولى في التشريح بل انتبهوا خاصة لاعراض المرضى واستعملوا عدداً كبيراً من العقاقير واخرجوا النظرية التجريبية في الطب القائمة على ملاحظة المريض ودراسة تاريخ مرضهِ والحكم بمقابلة الاصابات المتماثلة . وقد ادركوا نجاحاً عظيماً في ممارسة العلاج واستعمال العقاقير

ويلخص اثر مدرسة الاسكندرية الطبية في قول دائرة المعارف البريطانية[١١] : اذا نظرنا الى اثر مدارس الاسكندرية الطبية تحتم علينا ان نسلم بأن التقدم الذي تمَّ على ايدي اركانها كان عظيماً وخالداً . ولعلَّ اعظم خدمة قاموا بها هي درس علم التشريح درساً منظماً . ولكن درس الوظائف لم يجارِ درس التشريح ولعل هذا هو السبب الذي حمل اتباع اراسستراتس على اهمال العناية بالتشريح

وكان يتصل بمدرسة الاسكندرية بستان للنبات تزرع فيهِ النباتات المختلفة الاقاليم وتتخذ العقاقير الطبية منها ، وبستان للحيوان او حديقة للحيوان ، تربى فيها الحيوانات الكثيرة البرية والاهلية وتدرس طبائعها

اما الآن وقد انقضت قرون تليها قرون على مدرسة الاسكندرية ، وتقدم العلم تقدماً عظيماً في جميع نواحيه ، باستنباط الاُسلوب العلمي القائم على الاستقراءِ والتجربة فيجب ان نعترف لاولئك القوم في فجر المعرفة العلمية ، بأنهم فطنوا الى الاستقراء والتجريب[١٢] وأُخذوا انفسهم بهما فجاءَ كثير من علمهم راسخاً على الدهر ، يشهد لعقولهم بالتفوق ولسلاح الاسلوب العلمي نفسهِ بالمضاء

(١١) مادة Medicine (١٢) كتاب Heroic Age of Science

شخصية شهر يناير — ١

پيراندللو ومسرحياته الوجيعة

الآنسة مي

[تفضلت كاتبة الشرق الكبيرة الآنسة « مي » فوعدت ان تتحف المقتطف كل شهر بدراسة شخصية عالمية كبيرة وآثارها الفكرية او الفنية . وقد بدأت بالكاتب الايطالي الكبير لويجي بيراندللو على ذكر فوزه بجائزة نوبل الادبية لسنة ١٩٣٤]

بين ما وضعهُ پيراندللو للمسرح روايات ذات مغزًى خاص . ومن اخص تلك الروايات رواية « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف » (Sei Personaggi in Cerca d'Autore) . فقد مهّد لها — على غير عادته — بمقدمة مسهبة ذات سبع عشرة صفحة بسط فيها بعض آرائه في الانتاج الادبيّ الفنيّ وكشف عن البواعث التي تستحثهُ على الكتابة . ونستخلص من تلك المقدمة فقرات جوهرية قد تمكننا من ادراك بعض غاية پيراندللو في ما يخطّه قلمه . قال :

« ... ايُّ مؤلف يستطيع ان يقول كيف ولماذا تولّدت شخصيةٌ من الشخصيات في مخيلتهِ ؟ إن سرّ الانتاج الفني هو سر الولادة الطبيعية بعينهِ » .. « وعليّ ان اعترف بأني لا ارضى برسم صورة رجل او امرأة او غلام لمجرد الرسم ، كائنةً ما كانت خصائص تلك الصورة ومميّزاتها . ولا استطيع ان اروي حادثة مفرحة او محزنة لمجرد الرغبة في الرواية ، او ان اصف مشهداً لمحض الميل الى وصفهِ

« ... من الكتّاب (وهم غير قليلين) من لهم هذه الرغبات يقنعون بها فلا يبحثون عن غيرها . فهم بطبيعتهم ذوو نزعةٍ تاريخية او تقريرية . وعند كتّاب آخرين — وراء تلك الرغبات — شعور اعمق باحتياج روحيّ يجعلهم لا يكتفون بالصور والحوادث والمشاهد ، فلا يقفون عند معنىً محدود خاص من معاني الحياة . وهم ذوو نزعةٍ اقرب الى ان تكون فلسفية . وأنا لتعاستي من هؤلاء . . . من هؤلاء الذين ، في الصورة المحسوسة التي يجب ان تبقى حيةً تتمتع بتمام حريتها الخاصة ، انما يبحثون في صميمها عن معنى آخر ينيلها قيمة ومغزى

« . . . على غير ارادة مني وعلى غير معرفة ، في ازدحام نفسي القلقة الجائشة ، كلٌّ منهم (اي اشخاص الرواية) يردُّ عن نفسه التهم التي يرميه بها الآخر ، بالتعبير عن نكاله وانفعالاته وشهواته العنيفة . امورٌ خبرتها كلها اعواماً طويلة خلال غمومي الروحية : من تبادل التفاهم الخادع لارتكازه على فراغ الكلام السلبي ، الى تعدد الوجدانات في الشخصية الواحدة وفاقاً لممكنات الوجود الكامنة في كلٍ من البشر ، الى العراك المفجع المحتوم بين مادة الحياة التي تتحرك وتتغير في اطراد وبين الصورة التي تتجمد بها مادة الحياة فتجعلها غير قابلة للحركة والتغيُّر ...

« ... كلُّ شبحٍ ، كل مخلوق فنيّ ، ليكون موجوداً يجب ان يكون دراماتيكيًّا ، ذا دراميةٍ يكون هو الشخصية المكوَّنة بها والشخصية المكوَّنة لها في نفس الوقت. الدراما اي المأساة هي علة وجود الشخصية الفنية وهي الوظيفة الحيوية المحتومة لوجود الشخصية ... المأساة اي العراك المحتوم بين حركة الحياة في باطن الصورة وبين الصورة نفسها هو الشرط الذي لا غنى عنهُ ليس في النظام الروحي فقط ، بل في النظام الطبيعي ايضاً . ان الحياة التي — لتضمن لنفسها الوجود — ثبتت في الصورة الجسدية ، انما هي التي تفتك بصورتها شيئاً فشيئاً » . . . « والمأساة المتكررة بتعدد الشخصيات ، ذلك العراك الملازم الذي لا تفلّت منهُ ، انما يجد في الكوميديا (المهزلة) بيانه الا كمل ...

« . . . فان قال قائل ان مثل هذه الرواية لا تظفر بكل قيمتها الممكنة لأن بيانها غير واضح بل هو سديميٌّ مبهم (caotico) يفتقر الى العنصر العاطفي ، فذلك القول يحملني على الابتسام . من هذا الابهام السديمي بطبيعتهِ عليَّ أنا ان أُخرج وأُمثّل (rappresentare) . واخراج الابهام السديمي وتمثيله لا يعني مطلقاً التأليف على طريقة مبهمة سديميــة اي على الطريقة العاطفية (Sentimentale) . وتأليفي ليس مبهماً ، بل هو جلي بسيط متسق يعلن لجماهير العالم ما فيه من التشابك والارتباك وتعدد الطبائع كما يوضح الميادين والاوضاع التي يختلط فيها الخيال والحقيقة والفجيعة والمهزلة . ولمن كان اجلى بصيرة تتكشف القيم الغير المألوفة المستودعة فيه

« ... وبينما تلك الشخصيات تحيا في ذاتها حياة المادة الحيوية العاملة فيها وحياة الصورة التي تجمدت عليها وحياة العراك المستمر بين الروح والصورة ، الشاعر الذي يشهد كل ذلك عن بعد وعلى غير معرفة من الشخصيات إبان نكالها وعنائها — الشاعر الذي انتظر ورأى يكون قد خلق من كل ذلك روايته ... » اهـ

***

تتحتم مراجعة هذه الفقرات اكثر من مرة واحدة لاستجلاء ما اراد كاتبها بها . فهو ذو نزعة فلسفية كما يقرر ، وهو ذو نزعة علمية كذلك وإن فقدت الاصطلاحات العلمية من كتبه وكانت لغته ـ على ابهامها الفلسفي أحياناً ـ لغة ادبية تجردت من الغلو والتفخيم والزركشة . وتجردت في مجموعها من الطلاوة العاطفية ايضاً وان لم تخلُ من العواطف رغم ما يعصف بها من انواء الشهوات والانفعالات وتضعضع الشخصيات بين المأساة والمهزلة والتباس الميول بين تعدد الوجدانات . قال قوم ان پيراندللو كاتب ظريف وصاحب نكتة . وما أبعد هذا الرجل الوجيع عن الظرف والنكتة ! انه لا يرى الاّ المأساة ولا يستهويه غيرها . على انهُ مقتنع بأن فواجع المأساة لا يصدق تبيانها الاَّ بما يحسبه الجمهور هزلاً . وذلك منتهى الكآبة . . .

ويلوح لي ان پيراندللو صنع في الشخصية الانسانية بمسرحيَّاته ما صنعهُ العلمُ بالمادة . فقد كان

العلم قبل زمننا هذا يجزّىء المادة حتى يصل منها الى الذرّة فيقف عندها كأنما هو قد انتهى إلى الجزء الادقّ . ولكنهُ اليوم قد جزّأ الذرّة الى ما لا نهاية له ، إلى ما وراء الإليكترون ، فصارت أضأل ذريرةٍ قابلةً للتجزئة بلا حدّ ولا نهاية . وكلّ جزءٍ من هاتيك الاجزاء التي لا يدرك العقلُ دقتها ، إنما هو عالم قائم بذاته ، ونواة السلب ونواة الايجاب تامتان فيهِ مكتملتان

ذلك شأن پيراندللو في الشخصية الانسانية الواحدة التي ألفنا اعتبارها جسداً وروحاً وكفى ، وللروح والجسد منها نزعات وعادات يتيسر تثقيفها وتدريبها وتكييفها في صيغ تثبت طول الحياة . فهو قد جزّأ الشخصية الواحدة شخصيات متعدّدة كلٌّ منها مطّردة الحركة والتغيُّر وكلٌّ منها مكتملةٌ في ذاتها اكتمالها الشاذ الخاص . ولست أصدّق ان أية مسرحية پيراندللّية تلقى بالتمثيل من النجاح ما يتوازى وقيمتها الادبية الصحيحة . لأن الجماهير تحتاج إلى طلاوةٍ اخرى في الروايات المسرحية والسينمية وإلى ذلك المزيج من الرونق والروعة الذي يسيطر على الوعي الفنّي ويستأثر بهِ . أما حيال روايات پيراندللّو فعليك ان تنتزع ، على نوع ما ، من خفيّ وجداناتك وجداناً دفيناً تستطيع بهِ ان تشرف على ذلك العالَم الغير المألوف وتدنو قليلاً قليلاً من ذلك الابداع الخاص

هو ابداع خاص ، بلا ريب . وان كان پيراندللو في تكوين فنّـه قد تأثر حتماً بفن إيبسن النروجي وبخاصة برواية «الأشباح» حيث تنقلب شخصية البطل ميداناً لعوامل الوراثة وتياراتها الجارفة . كما تأثر بنظرية العقل الواعي والعقل الغير الواعي عند فرويد وزملائهِ من علماء هذا العصر ، دون ان يقتصر پيراندللو على لغز الغريزة الجنسية التي يستوحيها دون سواها كثيرون من أدباء اليوم عند مختلف الشعوب

وقد باشر حياته الادبية بالقصص الصغيرة ، فله منها ما يزيد عن الاربعمائة . وصف فيها الكثير من عادات وطنه ، صقلّية ، وأساليبه وتقاليده واضطراباته الاجتماعية خـلال حرب الاستقلال الايطالي (Risorgimento) . وقد اشترك والده في تلك الحرب بالتطوُّع في جيش الثوار الجاريبالديين وكانت والدته إبنة أحد زعماء تلك الثورة في صقلية وشقيقة احد المجاهدين . وتعمَّـد القيام بمجهود خاص في القصص وفي نوع اخراجها فوضع سلسلة منها قصة لكل يوم من أيام السنة ، ووسمها في عدة مجموعات متتابعة باسم واحد وهو « قصص لعام واحد » (Novelle per un Anno)

كذلك نشر نحو عشر روايات من أهمها رواية « الشيوخ والشبان » (I Vecchi ei Giovani) و « المرحوم ماتيا بسكال » (Il fù Mattia Pascal) وهذه لفتت النقّـاد والجمهور اليهِ سنة ١٩٠٤ . وجرّب نظم الشعر في شبابه . وفصوله النقدية وغيرها في مختلف الموضوعات ، كثيرة . ولكن كلّ هذا يتقهقر ازاء فنه الاكبر الذي جعل لطريقته اسماً شائعاً في الآداب العالمية وهي « الپيراندللسمو » (Pirandellismo) . وفنّـه الاكبر والأوفى هو في تلك المسرحيات التي يجب ان تقرأ

كلاًّ مشاهدة مرّات لتفهم او لتفهم انك لا تفهم ولماذا لا تفهم . أو على الأقل لتفهم ان بعض صنوف الفن يتملّص من قبضة يدك ومن موهبتك النقدية ومن قوتك الروحية جميعاً . وكل ما تستطيعه حياله هو التبصّر في معرض هاتيك الشخصيات البسيطة المألوفة من الناحية الواحدة ، والشاذة التي تضعضع العقل من الناحية الاخرى . وقد اطلق على مسرحياته الاربعين اسماً عامّـاً تجده على كلٍ منها فوق اسمها الخاص . وذلك الاسم العام هو «مساخر عارية» (Maschere Nude) . وكلمة « مساخر » جمع « مسخرة » ليست قاموسية فيما أعـلم ، ولكنها تؤدي المعنى الايطالي على وجه التمام . وهي مستعملة باللغة العامية في سوريا ولبنان وفلسطين ، تُـطلـق على الوجوه الصناعية التي تُـرى في مهرجانات المرفع (Carnaval) الممهّـد للصوم الكبير عند المسيحيين . ولا بدَّ ان تكون مقتبسة عن الكلمة الايطالية التي أخذ عنها الفرنسيون كلمتهم Masque

واهاً لتلك المساخر التي يعرّيها بيراندلّـو ! مساخر الحياة الاجتماعية ، مساخر الأوضاع المحتومة ، مساخر المصادفات والظروف ، مساخر الاقدار التي لا تحصى ! مساخر الاحتياجات التي لم نخلقها ، مساخر الغرائز التي لم نسع اليها ، مساخر القيود والحدود والتبعات التي ما إن ولدنا حتى وجدناها مفروضة علينا ! عبثاً تبحث عند بيراندلّـو عمّـا يُـشبع فيكَ عاطفةً او يروي ظماً أو يُـظفرك بمتكأٍ او يُـلطف من وقدةٍ او يخفف من لوعة : هناك عالم الاتاويه ، ما إن بلغتَ عتبتهُ حتى صرتَ فريسة الحيرة والتضعضع . . .

***

كيف يصبح الفنان فنّـاناً ؟ وما هي العلاقة بين الفنان والعالم المحيط بهِ ؟

المقررون من الكتَّـاب يعنون بسرد الحوادث والطوارىء في حياة الاديب ويحرصون على تدوين تاريخ مولدهِ واسم بلده واسم أبيهِ وأمه وجدوده وعدد اخوته واخواته ، دون إهمال ذكر اسفاره والبلاد التي هبطها والبقاع التي شاهدها سواء اكتب عنها ام لم يكتب

والواقع ان كل ذلك لا أهمية لهُ الاَّ إذا كان ذا أثر في حياة الشخص الداخلية الخاصة وذا دويٍّ في محيط نفسه . والعلاقة كلّـها بين الشخص الواحد والعالم المحسوس تتلخّـص في الحساسية ، في مقدرة الشعور والتأثر تأثراً إيجابيّـا بما يقع للفنان او يقع حواليه . وانما يصبح فناناً عند ما تصل الحساسية بين قرارة نفسه وبين العالم المحسوس حواليه فيترجم الوقائع والحوادث والاختبارات النفسية بطريقته الخاصة إلى عالم الفن باداة الفنّ ، قلماً كانت أو ريشةً أو وتراً أو إزميلاً

يستهل بيراندلّـلو المقدمة التي ذكرناها في مطلع هذا المقال ، بالبيان التالي : « في خدمة فني منذ أعوام طويلة (وكأني بها منذ البارحة فقط) خادمة جدّ رشيقة وهي غير جديدة في صناعتها . اسمها المخيّـلة . هي عائبة بعض الشيء ، ومهاّرة . ولئن راقها ان تتشح بالسواد أحياناً فليس من ينكر انها إنما تفعل جرياً وراء الغرابة والشذوذ في الغالب . ولا يُـظنّـن انها تصنع ما تصنع جادّةً وعلى

وتيرة واحدة . . . وتتفكّه بأن تجلب اليَّ في بيتي احياناً رجالاً ونساءً وغلماناً هم اكثر الناس استياءً في العالم . اشتبكوا في أحوال غريبةٍ من التعقد والارتباك ولا يجدون منفذاً للخروج منها : قوم منكّدون في امانيهم ، معاكَسون في رغباتهم ، مغلوبون على آمالهم ، والتفاهم معهم من أعسر الأمور حقًّا في اكثر الأحيان . هي تجلبهم اليَّ لأستخرج منهم الاقاصيص والروايات والكوميديات » . اهـ

هذا ما يقوله . ولكني اعتقد ان اولى روابطه بالعالم هي حساسية عميقة مضطربة مرهفة تحمله على التوغل في كلّ نفس وفي كل كائن وفي كلّ شيء . تصحبها وتسايرها تلك التي يسميها خادمة ، وما هي في الواقع إلاّ سيدة مسيطرة مستبدَّة منوَّعة القدرة تتناول تأثيرات الحساسية وخلاصة الملاحظات الدقيقة وسائر تلك المؤهّلات الخاصة فتكيفها لاهية كما تشاء وتخلق منها عالماً جديداً

وكأنَّ الظروف التي هيأتها الحياة لپيراندلّلو إنما تناسقت كلّها وحفزت لتهاجم تلك الحساسية الشاذة بالدغدغة والتعذيب بلا رحمةٍ ولا مهادنة . فقد ولد قبل موعد مجيئهِ إلى العالم باسابيع . ومع ان الحبّ كان الباعث على زواج أبويهِ، فقد عرف في حياتهِ المنزلية شقاء الوحدة بين والدين متنافرين ، والفضائح الخلقية والاجتماعية والخسائر المالية والانهيار من الأَوج إلى الحضيض . وشهد وهو بعد في سن الرابعة عشر ، فجيعة عائلية نجمت عن عنف والده واستهتارهِ كان أثرها في نفسه اثر الحديد المحميّ وتجد لها أصداء عدة في مسرحياته . وبعد ان أتم دراسته في روما وبونّ بألمانياء اختار له والده زوجةً ،لا لعنايتهِ بهِ ، ولكن لانهُ كان في حاجةٍ إلى بائنة الفتاة يدعم بها حالته المالية المتداعية. ولم يطل ان غارت تلك البائنة كلّها في هاوية الخراب فاضطر پيرندلّلو إلى البحث عن عمل يكفل بهِ حياة زوجته واطفاله الثلاثة . فعين مدرساً للآداب الايطالية في معهد الدراسات العليا بروما ، براتب ٩١ ليرا ايطالية شهريًّا !

ولكان يهون كلّ ذلك رغم الفاقة والضنك بين العمل العنيف المضني وإرهاق الفكر والجسد ، لولا تلك المصيبة التي جعلت حياته مأساةً لا تنتهي . . . زوجته لم تكن مريضة فحسب بل أخذت تبدو عليها أعراض الجنون . فكانت في بادىء الأمر غيرة صاخبةً ليل نهار . تغار من تلميذاته ، تغار من النساء المارات بهِ في الطريق ، تغار من جميع النساء الموجودات في العالم . فلزم البيت ليطمئنها ولم يكن يخرج إلاّ ومعهُ أحد ولديه . وجرّد نفسه من النقود فكان يطلب منها يوماً فيوماً ثمن السجاير واجرة الترام . فلم يجدِ ذلك نفعاً . ثم صارت تعتقد ان أبناءها يمقتونها ويضطهدونها ويتآمرون على دس السمّ لها فأمست لا تتناول طعاماً أو شراباً إلاّ بعد تناول أحد افراد البيت منهُ قبلاً . ومضت ترمي ابنتها بأشنع التهم فلم تحتمل الفتاة وحاولت الانتحار فأُدركت بالعلاج . على انها أبت البقاء قرب والديها وفرّت إلى الدير تطلب الخلاص . وعند ما نشبت الحرب ذهب ولدا پيراندللو إلى القتال فوقع أحدهما أسيراً بيد الاعداء ومرض الآخر مرضاً خطراً . فاذا بوالدة پيراندللو تموت

في صقليـَّة واذا بوالده ، وقد أصبح أصمَّ وشبه ضرير ، يقبل عليهِ في روما وينزل في بيته فيملأهُ بأمراضهِ وشكاياته وفظاظته . وپيراندللو المسكين بين زوجته ووالده ، وسط العمل المرهق والغمّ الملازم ، يتنازعهُ القلق على ولديه والحزن على ابنته ...

عندئذٍ ، وللاعصاب حدٌّ تأبى بعده الاحتمال — عندئذٍ شعر الأديب بالاحتياج إلى حيـاة أخرى يفرّج فيهـا من كربته ويحيا عندها على هواه . فعمد إلى مسرحياته يخلق بها عالماً جديداً يسبغ عليهِ أطياف مخيلته وصخب انفعالاته ، مثيراً فيهِ النكبات والمحن بالعرض لمناقضات الدنيـا وفواجعها واحزانها

وهل استخلص من كل ذلك درساً ما يعينهُ على احتمال الحياة ؟ يخيل إليَّ اني أجد الجواب على هذا كلمة أرسلها في احدى رواياته[1] على لسان شخص يخاطب مدرساً فيقول : « أليس اننا جميعاً في بعض الاحيان نشعر وكأن نوراً يتفتح ويتألق في داخل نفوسنا ، نوراً ينسكب علينا من سماوات أخرى لا نعرفها فيمكننا من النظر إلى أقصى خفايانا باعثاً فينا ابتهاجاً لا نهاية له نشعر معهُ لحظةً بأننا نحيا خالدين ؟ تلك اللحظة التي هي أبدية في ذاتها تكفينا . هذا ، يا استاذ ، ما عليك ان تُدرّب تلميذاتك عليهِ : إدراك تلك الابدية في لحظة — »

***

انتهت الحرب فتوفي والد پيراندللو ، وعاد ولداه سالمين ، واضطرته حالة زوجته الى ارسالها الى مستشفى الامراض العقلية وزوّجت ابنتهُ . وطار اسمه على أجنحة الذيوع واخذت مسارح العالم تعجُّ بنجاح مسرحياته . وتعين عضواً بالاكاديمية الايطالية فصار — پيراندللو ! — يرتدي الكسوة المزركشة بالقصب ويحمل السيف الاكاديميَّ ويلقّب بصاحب السعادة (Sua Eccellenza) !

بأرباحهِ الاولى شاد لنفسهِ منزلاً في روما ، ولكنهُ مضى يطلب منزلاً متنقلاً في منفى العالم الرحيب . وهو الذي لم يكن يتغيب عن روما إلاّ ليتفقد وطنه بصقلية ، أصبح دائم الرحيل من لندن ، الى باريس ، الى برلين ، الى نيويورك ، الى البرازيل ، الى مصر ، ليستقر أياماً في بلاد الشمال حيث يتلقى الآن جائزة نوبل ! ورفيقته في جميع اسفاره ورحلاته هي تلك « الخادم » التي اسمها المخيلة . ورفيقة اخرى لا غنى عنها : آلة الكتابة التي يؤلف عليها مسرحياته الجديدة في غرفة الفندق التي سيغادرها عما قريب . وكأني بهِ عند ما يبعث في عالمه بعثاً جديداً ، إنما يفعل وهو يبارك الله مع بودلير الشاعر الفرنسي ، لانهُ تعالى خلق الالم [2] . . .

---

(١) رواية « ليس الامر بذي بال » (Ma non è una cosa seria)

(٢) Soyez béni, mon Dieu, qui donnez la souffrance
Comme un divin remède à nos impurités,
Et comme la meilleure et la plus pure essence
Qui prépare les forts aux saintes voluptés !

. . . .

[Baudelaire]

دقائق الاحياء في قطرة ماء

حيوان كالمبذل — حيوان كالجرس — حيوان أخضر له عين حمراء

﴿ بين النجوم والاحياء الدقيقة ﴾ يجد محب الطبيعة المعني بدرس شؤون احيائها عالماً حافلاً بالغرائب في قطرة من الماء الراكد . فاذا كان من المطبوعين على ريادة المجاهل والبحث عن الجمال وجد في درس هذه القطرة على شريحة المكرسكوب خير ما ينيله بغيته ويفتن لبه

فالعالم ومحب الطبيعة والفيلسوف ، يجدون جميعاً في هذه القطرة ميداناً واسعاً للدرس والتأمل . وبفضل المكرسكوب يتاح لنا ان ننفذ الى عالم كله جمال رائع ولكننا رغم كل قدرتنا وحكمتنا لا نستطيع ان نزور الاماكن السحيقة التي نرودها بعين التلسكوب . بهذه العين الكشافة نرصد الكواكب والسيارات فينتقل العقل من التأمل في روح الانسان الحقير الى ريادة رحاب الفضاء ثم ينكفيء الى الارض فيدخل عن طريق المكرسكوب المركب عالماً عجيباً من الاحياء الدقيقة رائحة جائية في قطرة دقيقة من الماء فيرى نباتات زاهية الالوان تسترعي النظر وفي جمال تنسيقها ما يفوق الجمال الهندسي الأخاذ في رقعة الثلج ويشاهد حيوانات صغيرة لها من عجيب التركيب ما يحير العقل

وكل ما يحتاج اليه الباحث في الرحلة الى هـذا العالم الغريب مكرسكوب مركب وبضع شرائح زجاجية (الواح) وانبوبة دقيقة وزجاجة صغيرة وبركة من الماء الراكد . املأ زجاجتك بماء من البركة وأنا الكفيل لك بأنها تحوي اصنافاً لا تحصى من الكائنات العجيبة

واذ تدخل غرفة البحث حاملاً في يدك ملايين الاحياء الدقيقة لا يسعك الاّ التأمل في « نسبية » الحياة . فقد كنت قبل هنيهة ترى الانسان حقيراً صغيراً اذ كنت تتأمل الكواكب والسدم المنثورة في الفضاء الرحب ثم اذ بك تراه جباراً يحمل في كفه الوف الوف من الكائنات الحية

﴿ حيوان كالمبذل (البانتوفل) ﴾ وتأخذ بأنبوبتك قطرة صغيرة من ماء الزجاجة فتضعها على شريحة المكرسكوب وتحكم وضع الشريحة تحت العين المكبرة وتضبط النور فينجلي أمامك عالم غريب تستطيع مراقبته ولا تستطيع دخوله . واذ تنظر الى هذه الشريحة من قمة المكرسكوب ترى كائناً شبيهاً بالمبذل (Pantoufle) . هذا هو « البراميسيوم » وهو من أبسط الاحياء تركيباً ليس له عظام ولا اعضاء خاصة ولكنهُ خلية واحدة تقوم بجميع الاعمال اللازمة لحفظ الحياة . ان سطح جسمه مغطى باهداب دقيقة تتحرك حركة منتظمة في جهة معينة فتنتقل بها الخلية من مكان الى آخر في قطرة الماء وهكذا تتمكن من الحصول على ما يغذيها . وهذا الغذاء انما هو من الحيوانات والنباتات الدقيقة جدّاً السابحة في قطرة الماء

والبراميسيوم يتكاثر بالانشطار الى خليتين لا تلبث كل خلية منها بعد الانفصال عن شقيقتها ان تنمو وتكبر حتى تصير مثل الخلية الاصلية في حجمها وهذه العملية — الانشطار فالانفصال فالنمو — قد تحدث من مرتين الى خمس مرات كل اربع وعشرين ساعة فسرعتها تزيد او تنقص بحسب ارتفاع حرارة الماء او انخفاضها. فهذه الاحياء من الوجهة النظرية خالدة لا تموت. وكل شطر يمضي حيًّا الى ان تحل به كارثة فتقتله

﴿ حيوان كالجرس ﴾ ويمر امام عينك احياء دقيقة اخرى تشبه « البراميسيوم » في معظم صفاتها ولكنها تختلف عنهُ قليلاً. هذه ذرات كبيرة من الرمل او قطعة منحلّة من ورقة او نبتة. ولدى التدقيق ترى حيواناً غريباً يشبه الجرس معلقاً بساق طويلة تشبه اسلاك العرائش. هذا هو حيوان «الفورتيسلا» وهو احد الحيوانات الدوّارية. فمه واسع يحيط بهِ شعر غزير قوي يتحرك حركة منتظمة فيحدث في فم الحيوان وحلقه تياراً مستمرًّا من الماء. وهذا التيار يحمل طائفة كبيرة من الحيوانات والنباتات الدقيقة الى معدة « الفورتيسلا » لتغتذي بها. واذا لاحظت هذا الحيوان فقد ترى في الماء حركة عنيفة نشأت عن حركة الشعر الذي يحيط بالفم وترى الحيوانات والنباتات وغيرها من محتويات الماء قد حملت قسراً الى الفم المفغور. وحيث ان التيار قوي فان قدراً كبيراً من ذرات التراب التي يحتوي عليها الماء ويصيب جسم « الفورتيسلا » الحساس فتنكمش ساقها فيبتعد الحيوان من منطقة الخطر. فاذا فحصت الحيوان حينئذٍ وجدت ان جسمهُ قد انكمش حتى اصبح مثل كرة وترى ان شعر فمه قد نام وفمه قد اقفل وبعد انقضاء ثوان على هذا ترتخي الساق ثانية ويعود الحيوان الى مكانهِ

﴿ حيوان اخضر ذو عين حمراء ﴾ ثم تحدق قليلاً فترى كائناً اخضر يتصف بصفة تجعله متفرداً بها. وما زال الباحثون في طبائع الاحياء الدقيقة في ريب من حقيقة هذا الكائن أهو حيوان شبيه بالنبات او نبات شبيه بالحيوان. وقد دعوه « يوغلينا » ولكن مكانهُ في شجرة الاحياء لا يزال يحيط بهِ الريب. ان لونهُ الاخضر الأخاذ يضارع لون ازهى النباتات الغريبة الطافية في هذه القطرة من الماء ولكن « اليوغلينا » لا تطفو على غير هدى فان جسمها يدور على محوره الطويل وفي مقدمتها « لسان » طويل يتحرك حركة موجية منظمة في الماء ليساعد جسم « اليوغلينا » على الانتقال. فاليوغلينا اذا قابلتها بالبراميسيوم تبدو كأنها سائرة دائماً الى هدف معين في خط مستقيم. ونحو مؤخرة الجسم « عين » حمراء زاهية يتبين بهِ الحيوان النور من الظلام. و«لليوغلينا» خصم تركيب جسمه شبيه بتركيب جسمها، الاَّ انهُ اقصر جسماً واقتم لوناً، ورؤيتهما في الماء بجسميهما الاخضرين وعينيهما الحمراوين ولسانيهما الطويلين من اغرب مشاهد الطبيعة

ثم هناك حيوان « الاميبا » وهو حيوان نهم خبيث يسعى الى فريسته في تؤدة وحذر ثم يطوقها باذرعه الممتدة من جسمه ويلتهمها. وهو شبيه بكتلة من الهلام الرخو يستطيع ان يمدَّ من جسمه أذرعاً تحيط بالحيوانات والنباتات الدقيقة فلا تفلت

السمّ

لبشر فارس

جُرْحٌ بَغَى حتى تَمِلْ وسال يُنكِرُ المَلَلْ
لا طَفْتُهُ وكلَّما أتيتُ آسوهُ ثَقُلْ
لَمَّا عَصَى عليَّ فارْفَضَّتْ أساليبُ الحِيَلْ
شَدَدْتُهُ من فَرْطِ يأ سي بِضِمَادَةِ الأَمَلْ
ثمَّ طَوَيْتُ أمرَهُ حتّى حسِبْتُهُ اندَمَلْ

***

واليومَ هبَّتْ ذِكَرٌ الى المُمِضَّاتِ رُسُلْ
عاصِفَةً يُهيجُها سمٌّ غوابِرِ القُبَلْ
لافِحَةً تزاحَمَتْ بينَ ثناياها شُعَلْ
هَوَتْ على جُرحي فَذَابَتْ فوقه ، على مَهَلْ
فانتَفَضَ الجُرحُ وجاشَ في مَطاويه النَغَلْ

ايـن شوكتك يا موت !

مينو وصحبه

يقهرون الانيميا الخبيثة بالـكبد ومستخلصاتها

قصة رائعة لفتح علمي حديث

لولا انسولين بانتنغ [1] لما عاش مينو حتى استطاع ان يقهر الانيميا الخبيثة الفتاكة ويمدّ في آجال المصابين بها . ففي سنة ١٩٢٥ كانت الاصابة بالانيميا الخبيثة اقوم السبل الى القبر ، لانهُ اذا حكم الاطباء بأنك مصاب بها كان ذلك اقرب الى حتفك من توقيع الحاكم على وثيقة اعدامك

ولـكن في سنة ١٩٢٦ اعلن الدكتور جورج مينو Minot والدكتور وليم مرفي ، انهما عالجا خمسة واربعين مصاباً بالانيميا الخبيثة بادخال الـكبد في غذائهم اليومي . كان نخاع العظام في هؤلاء القوم مريضاً لا ينجب كريات الدم الحمر فأصبحوا وهم على حافة القبر ولـكن التغذّي بالـكبد انقذهم جميعاً من الموت المحتوم . ايصدقهما العلماء والاطباء الذين تعوّدوا ان يأخذوا المكتشفات من معامل البحث الطبي والعلمي ، ممهورة بطابع التجربة والامتحان موسومة بسمة الاسماء اللاتينية والاغريقية الطنّانة ؟ ان في هذا التصريح من البساطة ما يدعو الى الريب فيهِ . ولو انهُ كان صحيحاً لما خفي عن اعلام البحّاث وبصرهم النافذ . فلا تدهش اذا علمت ان المصابين بالانيميا الخبيثة مضوا يموتون بها حتى بعد التصريح الذي اذاعه مينو ومرفي في سنة ١٩٢٦ [٢]

***

اذا تتبعت حياة مينو وهو طـالب طب في جامعـة هارفرد لم تلقَ فيهـا ما ينبئك بأن الرجل مقبل على كشف طبي خطير يحتاج الى جرأة في التفكير واقدام على طَرْق السبل غير المعبّدة في البحث والتجريب . فقد كان الشاب مينو من اسرة قديمة ميسّرة الحال في بوسطن جرى اقطابها على دراسة الطب فاشتهر منهم والد مينو وعمه في ممارستهِ وتفوّق ابن عمه في علوم الحياة وصلتها بالنمو والموت . لذلك كانت طريق النجاح المادي ممهدة امام مينو من دون عناء كبير ، وليس ذلك مما يستثير النفوس ويحفز الهمم

ولـكنهُ كان نحيف البنية ضعيف الصحة ، فكان توقّد ذهنه ووفرة نشاطهِ ، باعثاً على القول

(١) راجع مقتطف فبراير ١٩٣٤ ص ١٤٤ (٢) مما يغتبط له المقتطف انه نشر خلاصة تصريح مينو بعد صدوره فأنقذ نشره سيدة سورية في مجاهل البرازيل من مخالب الموت (راجع مقتطف يناير) ١٩٢٩ صفحة ٩٩

بأنهُ لابدَّ ان يصاب قبل قليل بمرض خطير لانهُ

واذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الاجسام

فكيف بك اذا كانت النفوس كباراً والاجسام ضعافاً

ولو انهُ اكتفى بممارسة الطب ممارسة لا ترهقهُ لادرك مقاماً لا بأس بهِ بين اقرانهِ في بوسطن . وانما لسبب ، هو من خفايا اغراض الحياة في الناس، عني هذا الطبيب عناية مفتتنٍ مندفعٍ بامراض الدم على انواعها في الانسان . فاذا رجعنا الى مدوَّنات المستشفى العمومي بماستشوستس حيث كان مينو يمارس سنة ١٩١٢ وجدنا تعليقات كثيرة مكتوبة بخط يده على الاوراق الخاصة باصابة امرأة فقيرة جرفها تيار الموت فيمن جرف . كان مينو يمرُّ بها كل يوم فيرى وجهها شاحباً تعلوهُ صفرة الموت، وما كان طبيبٌ يشكُّ حينئذٍ في انها مصابة بالانيميا الخبيثة وانها سائرة الى حتفها لا محالة. كان رقم هذه الاصابة في المستشفى ١٩٠١٨٢ وقد كتب مينو على هامش الورق الخاص بها ما يأتي :— « مع انها كانت جالسة في سريرها ومع انهُ يبدو عليها انها تتمتع بالهواء والنور خارج الحجرة الآ انها لا تزال ضعيفة ودمها لا يتغير . . . ومن المؤكد ان ما نحتاج اليه هو معرفة علاج للأنيميا الخبيثة »

كان جميع الاطباء يتوقون الى معرفة هذا العلاج . ولكن مينو كان يختلف عنهم في انهُ لم يخطر ببالهِ قط ان تلك المعرفة مستحيلة . فانهُ ما كان يستطيع ان يؤمن بما أشار اليه ذلك الطبيب العظيم السر وليم اوسلر من ان بعض الامراض مستعصية لا يمكن شفاؤها

لم يُضِر مينو انهُ لم يحترم رأياً خبيراً كرأي السر وليم ولا حكماً مبنيًّا على الخبرة الطويلة كحكم أديسن Addison الطبيب المشهور ذلك ان أديسن نفسهُ كان قد اكتشف قبل ٦٣ اي سنة ١٨٤٩ هذا الداء الذي يعتري دم الانسان فتنقص كرياته الحمر حتى يصبح دمهُ وكأنهُ سائل شفاف او يكاد يكون شفافاً. وقد وصف أديسن اعراضهُ وصفاً دقيقاً اذ قال: « يشحب الوجه ويصبح بياض العينين لؤلؤيًّا ويتهدل الجسم ويهزل ويحسُّ المصاب برغبة في انفاق الجهد ولكن الاعياء وضيق النفس يصحبان كل جهد يبذله».

ومن اقوالهِ في وصفهِ :— « يصاب المريض بتراخٍ عظيم وبالاغماء احياناً وبضيق التنفس لاقل عاطفة عنيفة تنتابه ، ويعجز عن النهوض من سريرهِ ويشرد عقله ثم يصاب بسكرة الموت ويلفظ نفسهُ الاخير »

[منحت جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٤ لثلاثة اطباء اميركيين هم مينو ومرفي وهوبل جزاء لهم على بحثهم في الانيميا الخبيثة وكشف علاج شاف لها هو الكبد وما يستخلص منها]

وتناول الاطباء مدى ٦٣ سنة اعراض الداء من أديسن الى اوسلر وهم عاجزون عن صدّ شبح الموت عن المصابين بهِ . وكلّ ما كان يعزيهم في ذلك ان الطب لم يكشف عن مرض كهذا المرض

يؤيد فيهِ التشريحُ بعد الموت تشخيص الطبيب قبله . فكأن الاطباء كانوا على ثقة من اصابة المرضى ومصيرهم ولكنهم كانوا عاجزين عن كشف أية وسيلة لانقاذهم . ويشهد اقران مينو في مستشفى ماستشوستس العام انهُ كان يدقق في فحص كل مريض يعهد اليهِ في علاجهِ كأنهُ المريض الوحيد في المستشفى ، وانهُ كان في حالات الانيميا الخبيثة يبحث ويستقصي كأن شيئاً لم يعرف عن ذلك الداء الفتاك . وكان من العلم حينئذ ان تحسب الدم في اولئك المصابين يحتوي على سمٍّ زعاف يبيد كرياتهِ الحمر فيشفُّ الدم ويشحب المريض ويصاب بسائر الاعراض . ولكن مينو لم ينظر الى الداء النظرة العلمية السائدة بل قال ألا يمكن ان يكون الباعث على ذلك اصابة نخاع العظام فلا تنجب كريات الدم الحمر ؟

لم يكن مينو مبدع هذا السؤال ؟ ولكن النظر الى الموضوع من هذه الناحية لم يكن متفقاً مع اتجاه التفكير الطبي في ذلك العهد . وكان مينو لا يني عن وخز اذرع المرضى بالانيميا الخبيثة لاستخراج دمٍ من عروقهم وفحص محتوياتهِ بالمكرسكوب فيرى الكريات الحمر اقراصاً صغيرة على شريحتهِ . ولاحظ انَّ المصابين بالانيميا تتحسَّن حالهم احياناً فيرى في نماذج دمائهم كرياتٍ حمراً تختلف عما ألف رؤيتهُ . فصبغها بصبغ ازرق زاهٍ وتبيَّن خواصَّها التي تختلف بها عن سائر الكريات . ثم لاحظ ان هؤلاءِ المرضى الذين بدأ التحسُّن في حالتهم الصحية قد اخذوا يضعفون ففحص دماءهم بدقتهِ المعتادة فوجد هذه الكريات التي كشفها عند التحسُّن قد اخذت تقلُّ رويداً رويداً حتى ادركَ الموت المصابين بعد انقضاءِ سنتين او ثلاث سنوات على ظهور اعراض الانيميا الخبيثة

وسخر بعض الخبثاء في بوسطن من مينو لتدقيقه في دراسة مرضٍ فرغ الطب من تقرير اعراضهِ

وبعد ما قضى مدة في كلية الطب بجامعة جونز هبكنز وقفها في الغالب على دراسة الدم عاد الى بوسطن واتصل بطبيب باثولوجي يدعى ريط . كان هذا الرجل بارعاً في عمله نافذ البصر في الامراض المختلفة واثرها في نُسُج الجسم . ولكنهُ كان قليل الصبر يغضب لاقل سبب . وكان مينو يفحص كريات الدم الحمر بمكرسكوبهِ ويرهق ريط بالاسئلة يوجهها اليهِ فيفوز منهُ بعبارات قصيرة تتخللها الفاظ القسم واللعن . ولكن مينو فاز من ريط بملاحظات جديرة بالتدبر ، فاز منهُ بقوله ان الكريات التي تظهر عندما تتحسن حالة المصاب بالانيميا الخبيثة ثم تزول بزوال التحسُّن انما هي كريات حديثة السن ، وان نخاع العظام حافل بهذه الكريات ولكن لسبب ما لا تستطيع ان تنمو وتصبح كريات حمراً تامة النمو . فلما سأله مينو ولكن لماذا لا يستطيع النخاع ان يفعل ذلك اجابه ريط : —

لماذا ! لماذا ! يا ليتنا نعلم لماذا !

ولكن مينو لم يقنط فمضى في توجيه السؤال ومضى ريط في الردّ عليه ، مغضباً ، محنقاً ، وفي ردوده كلمات كانت كأنها شذور الذهب في نظر مينو وخاصة اذ قال له ريط في احد الأيام ان نخاع العظام التي لا تستطيع ان تولد الكريات الحمر تامة النمو ، اشبهُ شيء بنمو خبيث او نمو سرطاني .... فتأصل هذا القول في فكر مينو .... الانيميا الخبيثة نموٌّ خبيث في نخاع العظام ..!

وكان مينو قد بدأ يمارس الطب في بوسطن فاشتهر بين المرضى الذين يترددون عليه ، بأنهُ صديق لمرضاه ، مدقق كل التدقيق في ما يصفه لهم من وسائل العلاج او اساليب المعيشة . فكان اذا وصف لاحدهم المشي قليلاً قبل العشاء يعين له المسافة والوقت والسرعة . او اذا وصف لهم الغذاء يتحرّى كل الدقة في اوزان الاغذية التي يصفها . وكان قوي الذاكرة يتذكر ما يبوح به مرضاه عن أفراحهم واتراحهم فيشاركهم فيها جميعاً ولا ينسى ان يسألهم عنهـا عند ما يلقاهم . ولو انه مضى في سبيل ممارسة الطب لاصبح من اغنى اطباء بوسطن . ولكنه في ساعات فراغه كان يعود الى بحثهِ القديم في الانيميا الخبيثة

وكان المصابون بها يجيئون اليه متوسلين ألا تستطيع ان تفعل شيئاً يا دكتور ؟ كانوا جميعاً في حالة من الضعف والاعياء يرثى لها . فكان يقول : «اترضى يا فلان ان تعمل لك عملية جراحية ؟ ولكننا لا نستطيع ان نعد بشيء . العملية تجربة لك ان تقبلها او ترفضها » . وكذلك ذهب ١٧ مريضاً من مرض مينو الى جرّاحي بوسطن فعملت لهم عمليات استئصال الطحال . فبدت عليهم على اثرها علامات التحسّن فكثف الدم وكثرت كرياته الحمر مدة من الزمن ... ثم عاد الدم فشفّ والكريات الحمر فقلّت ، وعاد الاعياء والشحوب السمة الغالبة على اولئك المساكين ، في طريقهم الى القبر

وجرب هو وصديقهُ الدكتور لي Lee حقن الدم من اجسام قوية في عروق اولئك المساكين ، فظهر تحسن في خمسين في المائة من الاصابات التي عولجت كذلك . ولكن التحسن لم يدم اكثر من بضعة اسابيع . وكان الموت نهايتهم جميعاً

ألم يخطىء مينو يوم رفض ان يسلّم من دون وعي باشارة ابقراط العصر الحديث السر وليم اوسلر ، اذ قال ان بعض الامراض مستعصٍ لا يمكن شفاؤهُ ؟ !

***

بعيد ذلك رقي مينو في مدرسة هارفرد الطبية وعهد اليهِ في ادارة الخدمة الطبية في مستشفى هنتنغتن التذكاري حيث عني بدرس المصابين بالسرطان او بامراض الدم الخبيثة . وكان متصلاً كذلك بمستشفيين آخرين علاوة على عيادتهِ الخاصة . ولكنهُ في كل ذلك لم يغفل عن الانيميا الخبيثة ولم ينفكّ يفكر ويتأمل في سرّ نمو الخلايا ، او في سرّ عجزها عن النموّ في بعض الاجسام

وكانت سنة ١٩٢١ سنة خطيرة في تاريخ حياتهِ . اذ احسّ بضعفٍ عام في جسمهِ وبنَهَم غير مألوف في غذائهِ ، وبهمة تفوق همتهُ العظيمة العادية في انجاز ما عليهِ . فواجه الحقيقة ذات مساءٍ في عيادتهِ اذ وقف بوجههِ الشاحب الهزيل امام المرآة واخذ في انبوب قليلاً من بوله واضاف اليهِ الكواشف الكيماوية اللازمة وامسك بهِ فوق لهب المشعال ، فثبت له انهُ مصاب بداءِ البول السكري

كان مينو حينئذٍ في الرابعة والثلاثين من عمره . والرجل في الرابعة والثلاثين اذا اصيب بداءِ البول السكري كان في حكم المقضيّ عليهِ . فعهد الى احد الاختصاصيين في معالجتهِ فوصف لهُ غذاءً

معيّناً ، فاقبل عليهِ مينو ، رغم ما كان يحسُّ بهِ من الجوع الشديد ، يزن كلَّ كسرة خبز وكلَّ قطعة طعامٍ من الطعام الذي سمح لهُ بهِ .كان يعلم انهُ بدأ يتدهور على سلّم الحياة المودي الى القبر رغم العناية بغذائهِ . ولكن ذلك لم يقعدهُ عن مواصلة البحث بهمةٍ فيها سمة من حماسة القديسين

ولكن لم يطل المطال حتى كشف بانتنغ عن الانسولين لعلاج البول السكري . فاقبل عليهِ مينو فنجا من الموت المحقّق ، وعاد اليهِ نشاطهُ وصفاءُ ذهنهِ . ولكن عنايتهُ بغذائهِ قبل الانسولين كانت قد حملتهُ على العناية بتوجيه الاسئلة الكثيرة الدقيقة المختلفة الى مرضاه ، عن غذائهم ، وما يحبون وما يكرهون ، حتى لكان صغار الاطباءِ في المستشفى الذي يديرهُ يقولون هازئين : « ان الدكتور مينو قد اكتشف اليوم ان السيدة فلانة لم تأكل الاسبانخ قبل ان تبلغ العاشرة من العمر » ثم يقلبون شفاههم إشفاقاً منهم على عقلهِ

ولكن مينو ما كان يدري حينئذٍ انهُ على وشك ان يكشف كشفهُ العظيم من هذه السبيل . وكيف يستطيع ان يدري ذلك ؟ الم يقل احد الحكماءِ : « كيف تستطيع ان تدعو الكشف كشفاً اذا كنت تعلم ما توشك ان تكشف »

كانت عناية مينو بالغذاءِ ، وتوجيههِ الاسئلة الخاصة بهِ الى المصابين بالانيميا الخبيثة قد هدتهُ الى حقائق مختلفة غريبة عن اولئك القوم

واذا بهِ يجمع في عقلهِ الباطن طائفة متفرقة متناثرة من الافكار تواردت بعضها في اثر بعض من دون رابط منطقي علمي يربطها .... في البلدان الشمالية تكثر الانيميا الخبيثة .... في البلدان الشمالية تكثر منتجات المواشي من لبن وجبن وزبدة وغيرها . . . . ولكن سكان تلك البلدان لا يقصرون طعامهم على منتجات اللبن . . . . الاّ يمكن ان نعطي المصابين بالانيميا الخبيثة غذاءً نصيب اللبن فيهِ قليل . . . هه ! الأنيميا الخبيثة تشبه البلاغرا في اعراضها — التهاب في الفم وتلبك في الهضم واضطراب في الاعصاب .... ولكن جولد برغر اثبت ان اصل البلاغرا الامتناع عن اكل مقدار كاف من اللحم ، او البروتين . . . . . لقد ذكر احدهم ان غذاءً غنيًّا بالكبد افاد في مرض القلاع (وبعض اعراضه شبيهة ببعض اعراض البلاغرا) .... وهكذا

واذ كانت تتوارد هذه الخواطر على ذهنه متفرقة ومجتمعة، طالع كتاباً في الغذاء وقع فيهِ على بعض الفوائد التي تجنى من بروتينات الكبد . فالكبد زادت معدل النموّ في الجرذان البيض . وكبد الجرذان البيض اذا أعطيت لخنازير الهند المصابة بالاسكربوط زادت مقدار الهيموغلوبين في دمها

وما علاقة الأنيميا الخبيثة بالهيموغلوبين، ألم يقل الباثولوجي ريط ان نخاع العظم هو النسيج المريض ؟

وكذلك ظلّت هذه الالفاظ وهذه المعاني تتوارد على ذهنهِ متفرقة ومرتبطة — أنيميا خبيثة — نخاع العظم — الكريات الحمر — الهيموغلوبين — الجرذان — خنازير الهند — الكبد —

وكانت كلمة الكبد اظهرها والمعها ، فصار لا يقرأ كتاباً طبيًّا الاّ ويرى كلمة الكبد مكتوبة أمامهُ

ومضى في قراءة كتاب الغذاء فرأى فيهِ ان مديري حدائق الحيوانات اذا اكتفوا بتغذية الاشبال باللحم الاحمر ، نشأ الاشبال ضعافاً ونشأت عظامهم لينة ... فقال مينو: ماذا ؟ عظامهم لا تنمو . . . انيميا خبيثة... كبد . . . ولكنهُ ما أتمَّ القراءة حتى رأى انهُ اذا اضاف مديرو الحقائق الكبد الى اللحم الاحمر في غذاءِ الاشبال نشأت قوية صلبة العود

ثم اطلع على بحث علميّ للدكتور هويل Whipple ومساعديهِ . ذلك ان هؤلاءِ كانوا قد فتحوا عروق كلبٍ واستنزفوا مقادير من دمهِ ثم خاطوا الفتحة وغذوا الكلب بالكبد فعاد دمهُ طبيعيًّا . ولكن الانيميا التي تنشأ عن فقد الدم ليست أنيميا خبيثة ، وعلماء الطب يعرفون ان شتان بين نوعي الانيميا هذين. وهويل نفسهُ لم يدّعِ بعد تجربتهِ العلمية ان الكبد تشفي من الانيميا الخبيثة وان كانت تشفي من الانيميا العادية الناشئة عن نزف الدم. وكلّ ما قاله هويل ان قلب الثور وعضل الثور يشفيان الكلب الانيميّ . ثم قال : والكبد المطبوخة تشبه العضل المطبوخ في هذا

وكان مينو يعلم من بحثه الدقيق في غذاءِ مرضاه ان لا قلب الثور ينجح في شفائهم ولا عضل الثور . بل كانوا قد اطعمهم كلّ هذا ، فلم يدفع عنهم عادية الموت

وكذلك قال في احد الايام لنغذّ هؤلاءِ المرضى بالكبد !

***

لم يجرؤ في البدءِ ان يغذي مرضى المستشفى بالكبد ، فبدأ بأحد المرضى في عيادته الخاصة . ومن حسن الطالع كان هذا الرجل المصاب بالانيمياء الخبيثة ، لا يزال قويّ الشهية للطعام ، وكان كمينو ، ينفّذ تعليمات الطبيب تنفيذاً دقيقاً كلَّ الدقة

فقال مينو لهذا الرجل في احد الايام ارجوك ان تدخل الكبد في غذائك مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع. واشار عليهِ كذلك بأن يكثر من اكل اللحم الاحمر والخضراوات والفواكه وان يقلل من الزبدة والقشدة والنشويات ما استطاع

ولكنهُ قال بعد ما فرغ من كل هـذا : إيّاك ونسيان الكبد . يجب ان تأكل الكبد مرتين في الأسبوع

وعاد هذا الرجل الى بيتهِ . وكأن يد القدر ارادت ان تجعله المثل الحي على فعل الكبد في شفاء الانيميا الخبيثة ، فجعلتهُ يستطيب الكبد حيث يتقزّز منها اكثر الناس . فأكل منها اكثر مما طلب اليهِ . ونسيه مينو في خلال ذلك لشدة عنايتهِ بغيره من المرضى الذين كانوا اقرب الى الحتوفهم منهُ

وكان مينو في عيادتهِ في أحد الأيام اذ قيل لهُ ان فلاناً ينتظر فقال في نفسهِ ، لا بدَّ ان يكون مصيرهُ مصير سائر المصابين بهذا الداء الخبيث . فأمر بادخالهِ ، وهو يشفق ان يرفع رأسهُ خوفاً من ان يرى شحوبهُ قد زاد وهزالهُ قـد استفحل . ولكنهُ ما كاد ينظر اليهِ حتى صاح دهشاً

— هالو ! فقال الرجل : لا ريب يا دكتور في انني أحسّ بنشاط عجيب

فقال مينو : وأنا اعلم ذلك . انني أقرؤه في وجهك

قال مينو ذلك وهو مرتاب مضطرب . لانهُ رأى جماعة من المرضى بالانيميا الخبيثة تتحسن احوالهم خلال فترة قصيرة ، ثم تسوء رويداً رويداً . ولكنه لم يشأ ان يثير مخاوف الرجل بل اكتفى بان قال له « امضِ في الغذاء الذي وصفتهُ لك ولا تنسَ الكبد »

كان ذلك في سنة ١٩٢٣ وفي الخريف جاءتهُ سيدة حالها اسوأ من حال الرجل الذي تقدم ذكرهُ . فوصف لها الوصفة نفسها . وهو يعترف انهُ فعل ذلك وهو لا يؤمن بفائدة الغذاء ، بل كان معتقداً ان هؤلاءِ القوم مقضيٌ عليهم بالموت قضاءً لا رادَّ لهُ

وجاءَ بعد المرأة ثالث ورابع وخامس ، فوصف لهم جميعاً الغذاء نفسهُ . واكبَّ هو على مباحثهِ العلمية . فلما عادوا اليهِ بعد شهر وشهرين وثلاثة اشهر ، وفي خدودهم توردُ الحياة ، وفي مشيتهم نشاط الصحة، اخذ نماذج من دمائهم واحصى كرياتها الحمر فوجد الكريات الحمر آخذة في الازدياد ، وعلى اثر ذلك كان يلتفت اليهم ويقول « جربوا ان تأكلوا الكبد كل يوم . زنوا ما تأكلونه منها . وليكن نحو ربع رطل — كل يوم ... » . وعادوا اليهِ بعد اسابيع فقال احدهم لقد عادت شهيتي للطعام . وقال الآخر : لقد زال التقرُّح من لساني . وقال الثالث : احسُّ بالقوة في ركبتيَّ

وكذلك مضى مينو خلال سنة ١٩٢٤ يعالج المصابين بالانيميا الخبيثة ، بغذاءٍ يحتوي على الكبد . . . . « تذكر يا فلان يجب ان تأكل ربع رطل من الكبد كلَّ يوم »

ومع ذلك ظلَّ ايمانهُ ضعيفاً بفائدة هذا العلاج فائدة تامّة ، بل ظلَّ يخشى ان يكون التحسُّن البادي في صحتهم تحسناً وقتيًّا . ولكن جاءَ شتاء سنة ١٩٢٥ ، فوجد مينو انهم كانوا لا يزالون جميعاً على قيد الحياة ، بعد ما كانوا على شفا الموت ، وان القطرة (ملمتر مكعب) من دمائهم في حالة المرض كانت لا تحتوي على اكثر من ٥٠٠ الف كرية حمراء (وعدد الكريات فيها يجب ان يكون ٥ ملايين) اخذت تعجُّ من جديد بهذه الكريات الحمر . فهذه قطرة من دم فلان تحتوي على ثلاثة ملايين كرية ، وهذه قطرة من دم فلان تحتوي على ثلاثة ملايين كرية ونصف مليون ، بل هو ذا قطرة من دم هذا الرابع تحتوي على ٤٥٠٠٠٠٠ كرية حمراء ، فحالة دمهِ تكاد تكون طبيعية

ولكن هذا الظفر لم يبطرهُ فختَّم على مرضاهُ بان يمضوا في تناول الكبد كلَّ يوم ربع رطل منها ومضى هو في مراقبتهم ، حذراً من التمادي في التفاؤل ، ولم يفه بكلمة عن كلّ هذا لاحد من الناس

واتصل مينو في ذلك العهد بطبيب حديث التخرج من مدرسة الطب يدعى مرفي ، كان يعنى مثله بامراض الدم . فاحبّهُ . فلمَّح له في احد الايام ان يغذّي المصابين بالانيميا الخبيثة في المستشفى الذي يشتغل فيهِ بغذاءٍ مؤلفٍ من عناصر خاصة ، وذكر الكبد فيما ذكر من عناصر الغذاء

فلقي مرفي في طليعة الامر عقبة كؤوداً في سبيل هذه التجربة . ذلك ان متعهّد المستشفى لم يأتهِ الاّ باكباد الثيران ، وكانت قاسية جافّة تعافها نفس السليم ، دع عنك نفس المريض . ولكن

مرفي كان يحب اكل الكبد، ويتلذذ بهِ، فكان في حماستهِ هذه خير من يحاول اقناع الغير بتناوله. ومضى مرفي ثمانية اشهر يغذي مصابي الانيميا الخبيثة بغذاءٍ خاص يحتوي على الكبد بحسب تعليمات مينو، فلما انقضت الاشهر الثمانية، وشاهد مرفي الذين كان يتوقع لهم الموت، وقد اصبحوا يرتعون في بحابح الحياة، تحمّس للامر حماسة الشباب، وعدّتهُ حماستهُ الى صديقهِ ومرشدهِ مينو

بيد ان مينو ظلّ لا يفوه بكلمة عن الموضوع، حتى تتجمع لديهِ الحقائق وتبوّب. ومما يؤثر عنهُ في هذا الصدد انهُ كان عضواً في جمعية من الاطباء تجتمع مرة كل شهر لتناول الغذاء معاً، وفي فبراير سنة ١٩٢٦ كان ميعاد اجتماعهم في دار مينو، فتناولوا العشاء وجلسوا بعده يتحدثون، فالتفت احد الاطباء الى مينو وكان من اقرب اصدقائهِ اليهِ وقال اسمعتَ بذلك العمل العجيب الذي يقوم بهِ احد الاطباء في هذه المدينة؟ انهُ يعالج الانيميا الخبيثة بغذاء يحتوي على الكبد.. فصرفهُ مينو عن الموضوع بكياسة حتى تجتمع لديهِ الحقائق الكافية للتصريح

وفي احد الايام جاءت امرأة مصابة بالانيميا الخبيثة متبرمة بطعم الكبد وسألت مينو في بساطةٍ: ايلزم ان تكون الكبد مطبوخةً؟ الا يمكن ان تهرس حتى تصير مثل الرُّبِّ، ثم تمزج بعصير البرتقال فيتناولها المريض شرباً؟

وما كاد المصابون بالانيميا الخبيثة يسمعون بأن مينو ومرفي شفيا مصابين مثلهم حتى تقاطروا على المستشفى حيث كان مرفي وعلى عيادة مينو الخصوصية، تقاطروا عليهما ضعافاً هزالاً، دماؤهم تكاد تكون شفافة لقلة الكريات الحمر فيها، وركبهم تكاد لاتقوى على حملهم فجاؤهما محمّلين فاقدين الرشد أحياناً. فكان مينو ومرفي يلازمان اسرّتهم ويسقيانهم هريس الكبد في عصير البرتقال بأنابيب ومضوا على ذلك اياماً لا يعرف القنوط الى نفسيهما سبيلاً بلغ المريض من ضيق التنفس او ضعف النبض مابلغ .... وفي نهاية اسبوع على الاكثر كانت ترتد ألقة الحياة الى العينين وقبل نهاية أسبوعين كان المريض يستطيع ان يقف على قدميه ويسير. وفي سنة ١٩٢٦ اجتمع مؤتمر علمي في مدينة اتلانتك ستي فبسط فيهِ مينو كيف انقذ مصابي الانيميا الخبيثة من الموت بالكبد!

اما باقي القصة فمن شأن الاطباء والبحاث الاختصاصيين. لقد استنبطت كواشف خاصة لاحصاء كريات الدم الحمر الحديثة السن فيقاس بعددها مدى التحسّن الذي يصيبهُ المريض. وابتدعت اساليب لاستخراج مستخلصات الكبد فيتناولها العليل غير متقزز ولا مشمئز. وجرب كاسل تجارب بنفسهِ اثبتت ان معدة الخنزير المجففة تفعل فعل الكبد في الانيميا الخبيثة. وعمد اطباء شركة بارك دايفس الى تجربة كاسل فبنوا عليها مادة الفنتريكولين التي توازي الكبد على الاقل في علاج الانيميا الخبيثة. والمباحث في هذه الناحية لمّا تبلغ نهايتها

ولكن المهمّ في كل هذا ان رجلاً كمينو استطاع ان يتنكّب الطريق التي رسمها العلم، ببداهةٍ فيها سمة من الالهام فكشف عن فعل الكبد في شفاء هذا المرض الخبيث— انَّ مرفي ولاريب من الروّاد!

مصرع بلبل

لابراهيم عبد الفتاح طوقان

حكاية رمزية تمثل الواقع في حياة المدن الكبرى حين يدخل غمارها الشاب قادماً من البلدة الصغيرة او القرية البسيطة ... هذه الحياة الصاخبة تخلب ذلك الشاب بزخرفها وفنون لهوها والوان عبثها . تجتذبه فيرتمي بين أحضانها ويلقي بقياده اليها ، فتذهب به في مزالق الضلال كل مذهب

ثم تسفر هذه الحياة عن وجه كالح ، وتنقشع نشوتها عن صحو مضى اوانه ... فاذا هنالك افلاس في احد ثلاثة : في المال ، او الصحة ، أو المستقبل ، وكثيراً ما أعلن الافلاس في الثلاثة جميعاً وهناك الفاجعة الابدية . . . أما (البلبل) في هذه الحكاية فيرمز عن الشاب المخدوع ، وأما (الوردة) فترمز عن بائعة اللهو والعبث . . . . . ، وأما (الروض) فهو رمز الحانة او الملهى

قَدَرٌ ساقهُ فآواهُ روضاً   لم يكن طار فيهِ قبلاً وغنّى
فاستوى فوق أيكة ورمى عيـــــنيه فيما هناك يُسرى ويُمنى
واذا الروض بهجةُ الروح طيباً   وظلالاً ، وفتنةُ العين حسنا
وكأنّ الغدير بين ضلالٍ   وهدًى ، كلما استوى او تثنّى
تنحني فوقه كرائم ذاكَ الدوح منها الجنى ، وكم يتجنّى ...
مطمئنٌّ يسير تيهاً ، فان رامَ عناق الصخور صدّت فجُنّا
هكذا يصبح الحبيب المعنّي   بعد حينٍ وهو المحبُّ المعنّى

***

ومضى البلبل الغريب يطوف الروض حتى انزوى محيّا النهار
راح يأوي الى الغصون ولكن   كيف يغفو مشرّد الافكار
كان في الروض فوق ما يتمنى   من فنون الاثمار والازهارِ
غير أنْ ليس فيهِ طيرٌ يغني   أيّ روض يحلو بلا أطيارِ
وسرَت فيه رعدة حين لم يلـــق سوى دارسٍ من الاوكارِ
وبقايا نواقفٍ رخم المو   ت عليها ، مخضب الاظفارِ
اي خطبٍ اصابكم معشر الطير ...؟ وماذا في الروض من أسرار ؟

***

طلع الفجر باسماً إثرَ ليلٍ   دونهُ وحشةً كهوف المنيه

تتنزى اشباحه صاخبات ، عاريات ، اكفها دمويه
ورجوم تفري الغيوم وتهوي كل رجم من الجحيم شظيه
وخسوف تحدث البدر فيه بفم الحوت منذراً برزيه
ذاك ليل قضى على البلبل المنـكود لولا يد تصدت عليه
ملكة عرشها المشارق والـتاج سناها ، أعظم بها شرقيه
انقذته فهب يشدو شكوراً مرحاً ، هاتفاً لها بالتحيه :

تحية البلبل الشمسي

《١》

مليكة النيرات آلهة المشرقين
الناس في الغابرات اليك مدوا اليدين
وأحرقوا في الصلاة نضارهم واللجين
وقربوا الاعناق
زلفى تراق

*

《٢》

يا ليل ان الصباح رمز حياة الورى
انفاسه في البطاح وروحه في الذرى
أما رأيت الأقاح أفاق بعد الكرى
وضوع الآفاق
لما أفاق

*

《٣》

هناك راعي الغنم جذلان ، حي الفؤاد
يرتع بين الأكم يهيم في كل واد
والناي صب النغم وبثه في الوهاد
كزفرة الأشواق
غب الفراق

*

نسي الطير همه حين غنى قلما يستقر هم الطروب
ألف الروض مفرداً وتولى عنه في دوحه شعور الغريب
مستقل في الملك ، لا من شريك طامع يتقى ، ولا من رقيب
مطلق ، يستقر عند غدير تارة او يقيل فوق رطيب

. . . .

واذا (وردة) تفيض جمالاً تتهادى مع النسيم اللعوبِ
قد حمتها اشواكها مشرعات حولها دون عابثٍ أو غصوبِ
تمنح العين حين تبدو وتخفى من ضروب الإغراء كل عجيبِ

***

كل قلب لهُ هواهُ ... ولكن ليس يدري متى يجيء زمانُهْ
وهو إمّا في ظلّ جفنٍ كحيل كامنُ السحر ، راقدٌ افعوانُهْ
أو وراء ابتسامةٍ حلوةِ الـــثغر ، نقيّ ، مفلّج أقحوانُهْ
أو على الصدر يستوي فوق عر شين . . مكيناً مؤيداً سلطانُهْ
فاذا كان لفحةً من جحيم الـــرجس ... أملى أحكامهُ شيطانُهْ
واذا هبّ نفحةً من نعيم الـــطهر ... قامت ركينة اركانُهْ
هو ذا الحبُّ فليكن حين يأتيـــك ، بريئاً من كل عيبٍ مكانُهْ

***

صارت الوردة الخليعة للبلـــبل همّاً ومأرباً يُشقيهِ
حسرتا للغرير أصبح كرباً ما يلاقيه من دلالٍ وتيهِ
شفّهُ السهد واعتراهُ من الـــحبّ سقام مبرّح يُضنيهِ
مَن رآها وقد تحامل يهفو نحوها ، كيف أعرضت تغريهِ
مَن رأى روحَهُ تسيل نشيداً لاهباً ، لوعةُ الأسى تُذكيهِ
هي (حوّاء) ذلك الخلد فاحذر لا تكوننّ أنت (آدمَ) فيهِ
لا تهب قلبك الكريمَ لئيماً تحت رجليهِ عابثاً يلقيهِ

***

هل يرى في ظلال وردته الحمـــراء سرّاً بدا وكان خفيّا
هل يرى للطيور فيها قلوباً نبذتهنّ يابساً وجنيّا
هل يرى اليوم ما الذي جعل الروض كئيباً من الطيور خليّا
كم نذيرٍ بدا لعينيه حتى قام شخص الردى هناك سويّا

سامهُ حبُّهُ شقاءً ولكن نعمة الحبّ ان يكون شقيّا
والهوى يطمس العيون، ويُلقي في قرار الأسماع منهُ دويّا
هكذا يسلك المحب طريق الـخوف أمناً ويحسب الرشد غيّا

***

مَنْ ترى علّم البخيلة حتى سمحت ان يقبّل الطير فاها
لم يصدّق عينيه حتى اطلّتْ واطالتْ في ختلهِ نجواها
زلزل الروض عند ذلك بالألحان ... فاسمع روايتي عن صداها

نشيد البلبل للوردة

أَنشدي يا صَبا وارقصي يا غصونْ
وأسقني يا ندى بين لحظ العيونْ
فيك يا وردتي قد حلا لي الجنونْ
انا مني الهوى انت منك الفتونْ
انشري ما طوت من غرامي السنونْ
كان في أضلعي فروتهُ الجفونْ
أقربي من فمي لخديكِ شجونْ...

***

ضمّها الطير مطبقاً بجناحيه ، وهمّت بثغره شفتاها
لم يمتّع بنشوة الحبّ حتى اشرعت شوكةً تلظّى شباها
اوردتها قلباً ، اذا رفّ يوماً خافقاً للهوى فذاك هواها
كرعت في الدم البريء فلما عكستهُ وهّاجةً وجنتاها
نظر الطير نظرةً اعقبتها روحه طي شهقةٍ معناها :
وردة ... تبهر العيون ... ولكن ... كثرة الشم ... قد اضاعت ... شذاها

نابلس — فلسطين

بحثان علميان لغويان

١ - ألفاظ الغيوم[1] . . . . . للامير مصطفى الشهابي

٢ - الذرة واسماؤها . . . . للفريق امين المعلوف باشا

الفاظ الغيوم

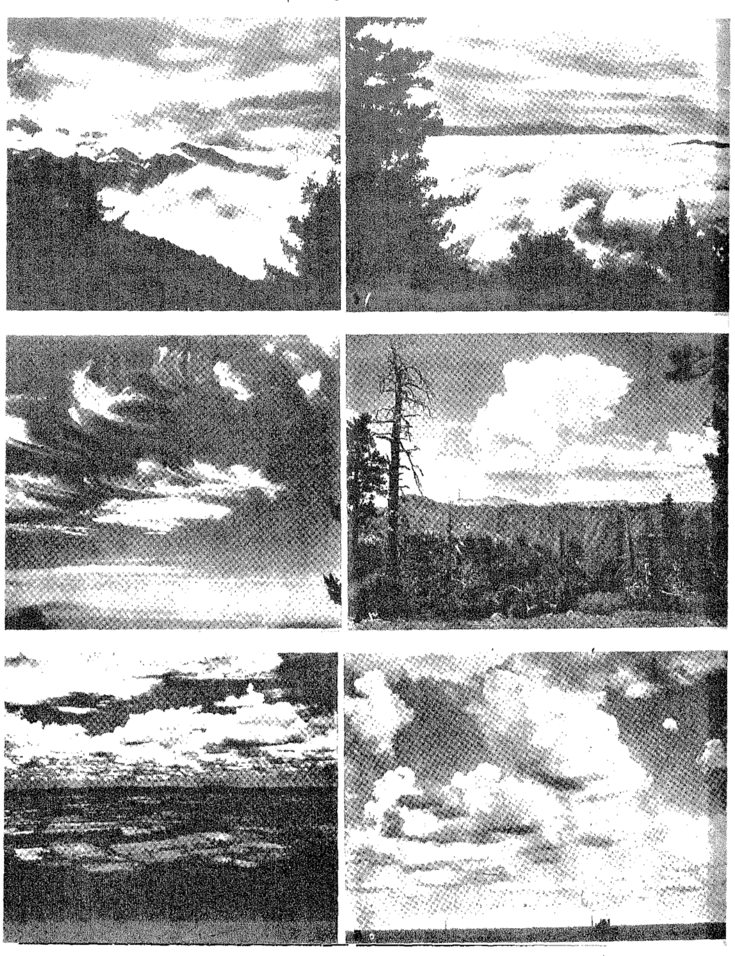
اذا تكاثف بخار الماء في الجو انقلب ضباباً او سحاباً. ولا فرق بين الضباب والسحاب الا في كون الاول يكون على مقربة من سطح الأرض والثاني يكون في طبقات من الجو مختلفة الارتفاع. وكلاهما مركب من ذرات مائية معلقة حجمها صغير جداً قلما يتجاوز قطر واحدتها اثنين في المائة من المليمتر. وربما كان عدد هذه الذرات او النقيطات كبيراً جداً لصغرها، فغرامان منها يكون حجمهما متراً مكعباً، وفيهما نحو نصف مليار ذرة. واشكال الغيم مختلفة كما هو معلوم. وكذا لونه ومقداره وارتفاعه. ومن الغريب ان منظر الغيوم واحد تقريباً في مختلف الاصقاع. ويقول البحارة ان انواعها لا تختلف في اختلاف البلاد. ولهذا تمكن العلماء من تصنيف الغيوم تصنيفاً يصلح اتخاذهُ في انحاء العالم

ويفيد، قبل ذكر السحب والفاظها، تنبيه القارىء الى ان مبحث الغيوم جزء من اجزاء العلم الذي يسمونه بالفرنسية ميتيرولوجيا Météorologie. وهذا العلم قد وضعت له لفظة «الجَـوِّيَّات» كالمعدنيات والطبيعيات. ويمكن أيضاً ان نسميهُ «علم الجو» و «علم الاجواء» واذا اردنا التطويل «علم الاحداث الجوية». ولكن اللفظة الاولى هي أصلح الألفاظ لأنها لفظة واحدة يسهل نعتها والاضافة اليها والنسبة اليها وغير ذلك فيقال «الجويات الزراعية» لما يسمّى Météorologie agricole و «موقف الجويات» مقابل Station de météorologie وجـوياتي او أجوائي مقابل Météorologiste وهكذا

ولنعد بعد هذا الاستطراد الى الغيوم واشكالها فنقول: أول اشكال الغيوم يسمونهُ سيروس Cirrus وهي سحب خفاف بخارية المنظر تبدو كأنها مركبة من خيوط بيض قطنية متشابكة ومتشعبة على اشكال شتى. وهي أعلى السحب. فأما كنها اذن باردة جداً تجعل ذراتها قطعاً صغاراً من الجليد. ويتضح ان الصفات البارزة لهذا الضرب من الغيوم هي اولاً ارتفاعه ثانياً لطافته ثالثاً تشابكه. ولهذا رأيت ان اصلح لفظ عربي يقابله هو الطَّخَاف والطُّخْرُور. فالأول السحاب المرتفع والثاني السحاب الرقيق. واللفظتان تردان ايضاً بالحاء المهملة

(١) هي الالفاظ التي وضعتها لاسماء السحاب الاعجمية في «معجم الالفاظ الزراعية» وهذا المعجم لا يزال لدي مخطوطاً

اشكال بعض الغيوم



(١) رهل من الصنف العالي وتحته ضباب (٢) معصرة (٣) كنهور (٤) طخرور : صنف شبيه بالريش (٥) قزع
(٦) قزع : فوقه وتحته نوعان آخران (راجع صفحة ٣٨)

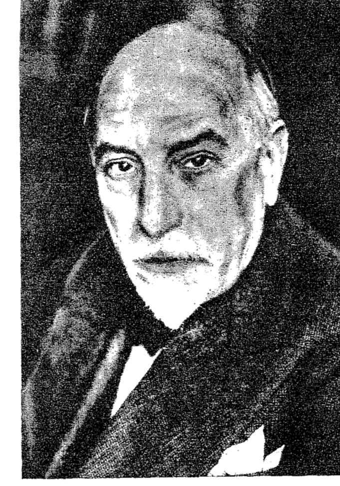
جوائز نوبل في العلم والادب عن سنة ١٩٣٤



الاستاذ هارولد يوري
Harold Urey
الفائز بجائزة نوبل الكيميائية



الدكتور جورج مينو
Dr. George Minot
زعيم الفائزين بجائزة نوبل الطبية



الكاتب الايطالي لويجي بيراندللو
Luigi Pirandello
الفائز بجائزة نوبل الادبية

والضرب الثاني يسمى Cumulus وهي سحائب بيض كأنها مركبة من كرات متتابعة . يشبهونها بزم القطن المعلومة او بالدخان الابيض الذي يتدافع من مدخنة القاطرة في بدء سير القطار . وهي تمحي في شماريخها اي اعاليها بتأثير حرارة الشمس وتزداد في اكفّتها أي اسافلها ولهذا يكون اندفاعها قويّاً كما يكون شكلها وحجمها في تبدل مستمر . وقلما يكون فيها مطر بل تظهر في أيام الصحو وفي الخريف . وربما امّحت سريعاً بعيد تكوينها . وأُسميتُ هذا السحاب القزَع فقد جاء في المخصص ان القزِع سحاب صغار يتطاير في السماء وقيل هو السحاب المتفرق ومنهُ قزع الخريف . وأُسميته ايضاً الحَيّر والنفّاض لانك تراه يتحرك بعضه في بعض متحيراً ولا يسير

والضرب الثالث يسمونه Nimbus وهي سحائب شهب قاتمة واطئة مَطِرة . وأُصلح ماتسمى بهِ بالعربية « مُعْصِرة ودُجُنّة » ومعناها معروف وهو مقارب لمدلول اللفظة الاعجمية

والضرب الرابع يسمى Stratus وهي غيوم قريبة من الارض كأنها ضباب مرتفع . ويقابلها بالعربية « الرَهَل» و « السديم » قال ابن سيده ، الرهل السحاب الرقيق شبيه بالندى يكون في السماء . وقال السديم هو ما كَثُف من الضباب حتى كاد يكون غيماً

هذه هي اهم اشكال الغيوم وهنالك اشكال بَيْنَ بين أقرَّها علماء الجويّات في مؤتمراتهم منها الآتية:

السحاب المسمى Cirro-stratus وهي طخارير متداخلة بعضها ببعض حتى يكاد يصعب تمييز اجزائها . وتكون كالرداء الابيض لوناً . وهنّ مرتفعات وكثيراً ما يسبقنَ العواصف والأمطار . ولعل لفظة سَمَاحيق (مفردها سِمْحاق) تصلح للدلالة عليها

ومنها السحاب المسمى Cirro-cumulus ويكون امواجاً طوالاً في السماء شبيهة بأمواج البحر. وكأن تلك الأمواج تحصل من تماس ريحين احداهما فوق الثانية كما هي الحال في موج البحر تماماً . ولما كان الهواء الطف من الماء كانت امواجه اطول . فالموجة البحرية التي طولها متر يقابلها موجة جوية طولها كيلو متر . والزبد حاشية موج البحر . اما حاشية موجة الجو فضبابٌ صَقِع . وعلى هذا يكون هذا السحاب كالبحر الجوي منظراً او كصوف الضأن المتماوج . وهو كالسابق من امارات الغيث. والنَمِرَة على ما رأيت اصلح لفظة لهذه السحابة. وفي المخصص النَمِرُ من السحاب قطع صغار متدانٍ بعضها من بعض . وفيهِ : النمرة ان تراها كجلد النمر من غيم صغار تكاد تتصل. وقالوا أرِنيها نمرةً أُرِكَها مَطِرة . قال وقد بلونا ذلك كثيراً فوجدناه كذلك . انتهى

ومنها المسماة Cumulo-nimbus وهي سحائب متراكمة بعضها فوق بعض كالجبال .ويكون لونها ثلجيّاً في اعاليها والسواد في اسافلها .والغيث والعاصفة من اماراتها.اسميتُ هذا السحاب المكفهرّ والركام . قال ابن سيده المكفهر الذي يغلظ من السحاب ويركب بعضه بعضاً .وقال في مكان آخر المكفهر من السحاب الذي امتلأ ماءً وقيل هو الذي يسوادّ ويصهابّ وتعرف فيهِ المطر . انتهى. وارى ان لفظة الكَنَهْوَر تصلح ايضاً لهذا الضرب من الغيوم

وثمة ثلاثة اشكال اخرى من الغيوم اقل شأناً مما ذكر لم نذكرها . ومن البديهي ان في العربية الفاظاً عديدة تدل على السحائب في مختلف اشكالها واوضاعها يراها الانسان في المخصص وفي غيره . وليست الغاية من هذه المقالة تعدادها بل الغاية منها ذكر اصلح الالفاظ العربية لاسماء الغيوم العلمية وهو ما عرضتهُ على القراء في هذه الكلمة . ويمكننا اختصارها على الصورة الآتية :

جويّات	Météorologie
جويات زراعية	Météorologie agricole
موقف الجويات	Station météorologique
جوياتي . أجوائي	Météorologiste
طُخرور . طخاف	Cirrus
قَزَع . حَبير . نفّاض	Cumulus
مُمْصِرة . دُجُنَّة	Nimbus
رَهَل . سَديم	Stratus
سِمحاق	Cirro-stratus
نَمِر	Cirro-Cumulus
مُكفهِرّ . كَنَهوَر	Cumulo-nimbus

الذرة الافريقية والذرة الاميركية

اي الذرة البيضاء والذرة الصفراء

في مقتطف اكتوبر الماضي مقالة ممتعة في تاريخ الذرة ونشوء زراعتها وهي تلخيص بحث للاستاذ ايست بجامعة هرفرد وهو يريد بالذرة الذرة الاميركية المعروفة في الشام بالذرة الصفراء وفي مصر بالذرة الشامية وهي دخيلة في الشرق منشأها اميركا الجنوبية كما يقول الاستاذ . اما الذرة المعروفة بهذا الاسم العربي فشرقية نشأت بأفريقية في عهد راسخ في القدم فاذا ذكرنا هذين النوعين من الذرة ارى ان نسمي الذرة المعروفة بهذا الاسم في كتب اللغة العربية بالذرة الافريقية او الذرة البلدية او الذرة البيضاء ونسمي الاميركية بالذرة الاميركية او الذرة الصفراء دفعاً للالتباس. وسيأتي ذكر الاسماء العلمية والاسماء الانكليزية والعامية في آخر هذا البحث وانما نبدأ في ايراد بعض ما جاء عن الذرة في المؤلفات العربية ثم بعض ما جاء عنها في المؤلفات الاوربية

قال ابن سيده ١١ : ٦٣ «الذرة وهذا الحب يسمى الجاورس الهندي وقيل هي التي مثل رؤوس الأرضة فاذا طالت قيل اخرفت الذرة ويقال لسَبَل الذرة المُسطر ويقال للذرة المحجَن وهو حيث

انحنى من السُّنبول والساق » انتهى . قلت الذرة هي ما يسمى عند العلماء Sorghum وسيأتي ذكره أما قول ابن سيده انها تسمى الجاورس الهندي فهو عين ما يقوله الانكليز على ما جاء في معجم وبستر في مادة Durra ومادة جاورس هندي Indian millet . وأما قوله هي مثل رؤوس الأرَضة فان حب الذرة البيضاء مثل رؤوس الارضة المعروفة عند الافرنج بالنملة البيضاء لذلك يسمون الذرة في الشام بالذرة البيضاء تمييزاً لهـا عن الذرة الصفراء وهي الذرة الاميركية المعروفة في مصر بالذرة الشامية وهذه اميركية الاصل كما تقدم ولم يعرفها العرب . أما قول العامة في مصر ذرة شامية فليس معناه انها شامية الاصل بل لانها نقلت اولاً الى الشام ثم الى مصر . واما تسمية ابن سيده لسبل الذرة بالمطر فيراد سبل الذرة البيضاء لا سبل الذرة الصفراء فسبل الذرة الصفراء لا اسم له بالعربية وعامة أهل مصر تسميه كوزاً وعامة أهل الشام تسميه عرنوساً وهي كلمة دخيلة او تحريف عرناس ذكرها دوزي بمعنى ساق الذرة والذي اعلمه ان عرنوس الذرة الصفراء عند عامة أهل الشام هو سنبولها وهو الكوز عند عامة اهل مصر . وقد ذكر العرنوس بهذا المعنى الأمير مصطفى الشهابي في كتابه الزراعة العملية الحديثة اي ان عرنوس الذرة الصفراء هو الكوز في مصر ولا بأس باستعارة المطر له ولكن المطر سنبول الذرة البيضاء . ثم ان قول ابن سيده انهُ يقال للذرة المحجن فلعله يراد بذلك الذرة المعروفة عند العامة بالعويجة وهي صنف من الذرة البيضاء

وقال صاحب التاج « الذرة كثُبَة حب معروف اصلها ذُرَوٌ او ذُرَيٌ بالياء والهاء عوض كما في الصحاح وفي التهذيب . يقال للواحـدة ذرة وللجماعة ذرة ويقال لهُ ارزن » . انتهى . قلت اما صاحب التهـذيب فتوفى سنة ٣٧٠ للهجرة وصاحب الصحاح سنة ٣٩٠ اي بعده بقليل اي ان اقدم ذكر للذرة بهذا الاسم في ما وقفت عليهِ هو في القرن الرابع للهجرة اي قبل اكتشاف اميركة بزمن طويل فلا يمكن ان تكون الذرة التي عرفها العرب اميركية الاصل فهذه زرعها المصريون في زمن عريق في القدم كذلك العبرانيون فقد ورد ذكرها في سفر حزقيال باسم الدخن ويرى علماء التوراة انهُ الدخن المعروف بهذا الاسم في ايامنا او نوع من الذرة البيضاء وكلاهما قديم في الشرق

ونقل لاين في معجمه بعض ما ورد عن الذرة في كتب اللغة العربية وقال انها نوع من الدخن اي الجاورس وقال ان اسمها في ايامهِ Sorghum وعند العامة ذرة صيفي وذرة قيظي تمييزاً لها عن الذرة الاميركية وقال هذه اسمها ذرة شامي وذرة كيزان ويريد بقوله العامة عامة اهل مصر لان لاين الَّف معجمهُ في مصر . وقوله هذا صحيح فانهم يسمون الذرة تارة بالذرة الصيفي وتارة بالذرة الصيفية اما الذرة الصفراء اي الاميركية فيسمونها ذرة شامي او ذرة شامية وليس معنى ذلك انها شامية الاصل ولعلها نقلت الى الشام اولاً ثم الى مصر لذلك يسمونها الذرة الشامية

والدكتور شوينفورث رحلة في قلب افريقية وصف فيها الذرة وصف عالم خبير وقال عن الذرة البيضاء انها قديمة هناك وذكر اسمها العلمي وذكر اسماءها العربية وسيأتي بعضها في آخر هذا البحث

اما كلمة Corn فيريد بها الانكليز الحب الذي يصنع منهُ الخبز او الذي هو قوام طعامهم واصلح تعبير له بالعربية حبٌ او طعام او عيش وجميعه وارد في اللغة فاذا قالها الانكليزي في بلاد الانكليز فانهُ يريد بها الحنطة اي القمح واذا قالها في ارلندة او اسكتلندة فانهُ يريد بها الشوفان واذا قالها في السودان فانهُ يريد بها الذرة البيضاء واسمها في السودان عيش اما الذرة الصفراء فاسمها عيش الريف واذا قالها في اميركة فانهُ يريد بها الحنطة اما الذرة الصفراء فاسمها الانكليزي في اميركة الحب الهندي نسبة الى هنود اميركة الحمر لانهُ طعامهم

ولنذكر في ما يلي الاسماء العلمية لبعض انواع الحب او الطعام وبعض اسمائها الانكليزية والعربية

دُخن . جاوَرس . ذُرَة . ثُمام Millet

نبات من الفصيلة النجيلية يعرف منه اجناس وأنواع كثيرة منها الدخن المعروف بهذا الاسم في البلاد العربية . والدخن هو الجاورس او ان الجاورس نوع منهُ لذلك قالت العرب ان الدخن الجاورس الهندي كما تقدم وهم يسمون الذرة بالدخن في بعض انحاء اليمن

ثمام Panic grass. (Panicum)

جنس من الفصيلة النجيلية يعرف منهُ انواع كثيرة منها الدخن الآتي ذكره

دُخن Panic millet or common millet. (Panicum miliacaum)

حب صغير املس وهو المشهور في البلاد العربية فارسيته جاورس . اما ما جاء في محيط المحيط وغيره من ان الدخن خلاف الجاورس ففيه نظر لان الدخن انواع كثيرة منها الذرة ومنها الحب المعروف في الشام ومصر بالدخن وهو قديم جدًّا فيهما

دخن ايطالي Italian millet or Bengal grass. (Chaetochloa italica)

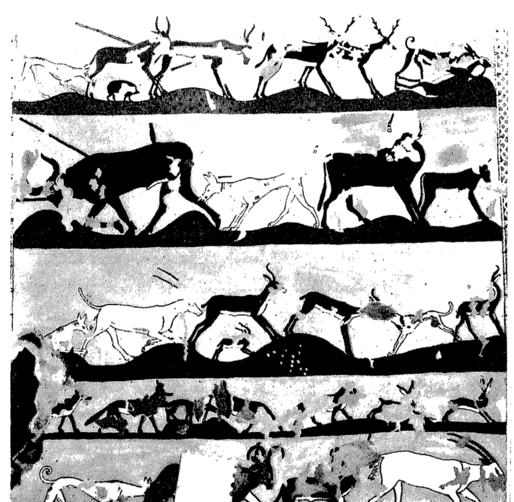
نوع من الدخن لعله الجاورس وهو من جنس آخر خلاف الجنس الذي تقدم ذكره وكلاهما من حبوب البلاد العربية في ايامنا

Sorghum. Syn. Durra. Indian millet. Guinea corn. Kaffir corn. Millo maize Egyptian rice. Jerusalem corn. Brown corn. Negro cane. Bushel maize. (Andropogon sorghum.)

ذرة نوع من الحب اسمه في العراق والشام وجزيرة العرب ومصر ذرة ولكن العامة تسميه في مصر ذرة بلدية لانها اصلية في مصر وفي الشام ذرة بيضاء فانهم سموها بذلك بعد دخول الذرة الاميركية اي الذرة الصفراء وهذا النوع من الذرة اي الذرة البلدية اصناف او ضروب منها صنف يعرف في مصر بالعويجاء

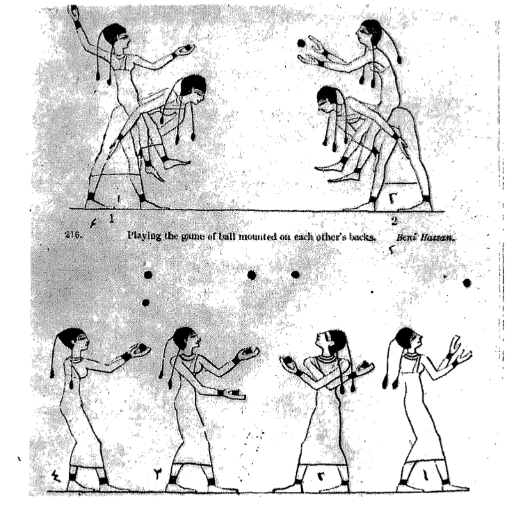
ذرة اميركية Maize or Indian corn. (Zea mays)

اسمها في الشام ذرة صفراء وفي العراق ذرة مصرية وفي اليمن ذرة رومية وفي مصر ذرة شامية وفي السودان عيش الريف اي مصر وجميعه يدل على انها دخيلة في البلاد العربية فكانت كل بلاد عربية اللسان تسميها باسم البلاد التي يظن انها جاءت منها لان الذرة قديمة عند العرب واسمها بالعربية ذرة كما تقدم



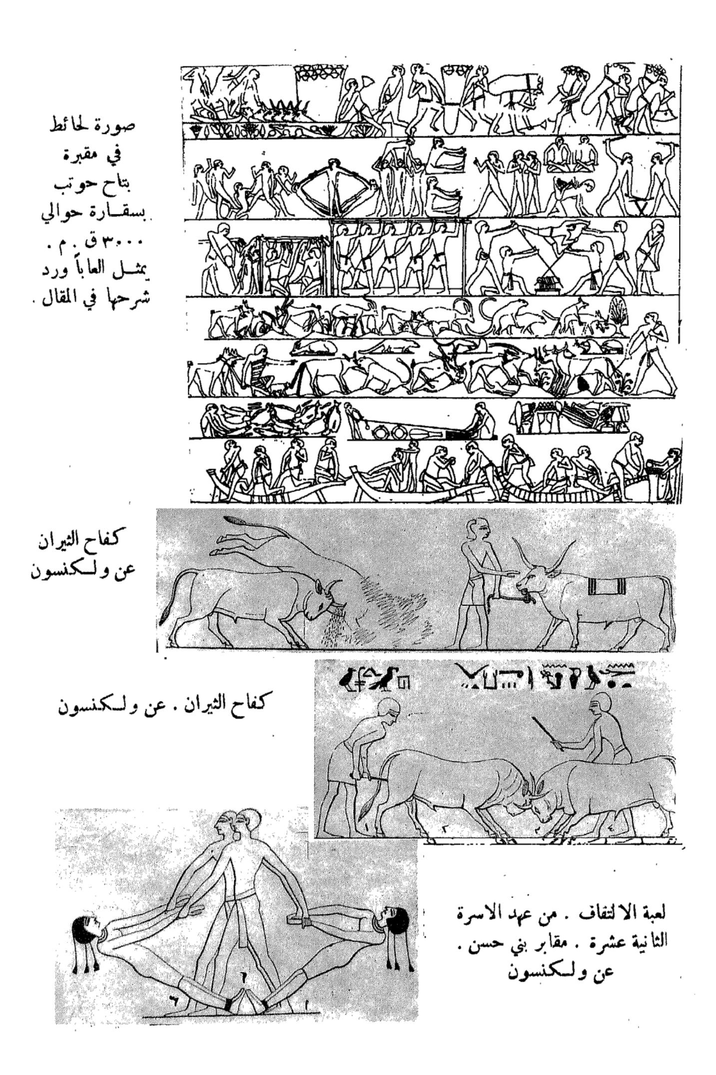
القنص في الصحاري

مقبرة (انتفوكر)
بالاقصر . من عهد
الاسرة الحادية عشرة
عن كتاب انتفوكر
لجمعية العاديات
المصرية



لعبة الكرة
بأنواعها

وهي خمسة ورد
شرحها في المقال



صورة لحائط
في مقبرة
بتاح حوتب
بسقارة حوالي
٣٠٠٠ ق . م .
يمثل العاباً ورد
شرحها في المقال .

كفاح الثيران
عن ولكنسون

كفاح الثيران . عن ولكنسون

لعبة الالتفاف . من عهد الاسرة
الثانية عشرة . مقابر بني حسن .
عن ولكنسون

الرياضة البدنية

عند قدماء المصريين

للدكتور حسن كمال

أخذ شأن الرياضة البدنية ينمو ويعظم في مختلف بلدان العالم حتى صار لها مكانة كبيرة في جميع النفوس . والمعروف ان هـذه الرياضة ظهرت وترعرعت في احضان قدماء المصريين الذين سلموها وديعة الى أهالي اليونان . وهناك ظهرت فائدتها وبَدَا خطرها ببلدة اولمبيا . ثم انتقلت الى الرومان حوالي عام ١٨٦ ق.م . ثم عمّت اوربا واميركا وسائر انحاء العالم بعد ان نسي القوم منشأها وأصحابها الاصليين . شأنها في ذلك شأن كل عمل جليل اهمله أهله وذووه . فيأتي الغير وينسبه الى نفسه إدّعاءً وبهتاناً . ولا عبرة الآن بالقول والمجادلة بل بالرجوع الى المراجع الأثرية التي لا تزال حافظة لنا اعمال أجدادنا وتعاليمهم . تلك الاعمال التي نحمد المولى جلّ وعلا على انها نقشت على الصخور فلم يتمكن الدهر من طمسها ولا الغير من سرقتها . بل بقيت ولا تزال قائمة برهاناً ساطعاً على ما قدّمه القديم للحديث من درر ولآلىء

الوجهة الصحية

ان الباحث في هذا الموضوع يتحتّم عليه فحصه من الوجهتين الطبية والتاريخية معاً . لأن الرياضة البدنية لها مكانتها الصحية خصوصاً عند ذوي المهن القليلة او العديمة الحركة . لكن هـذا لا يعني ان الرياضة في الصغر وسن الشباب لا تقل فائدة عنها عند البالغين . فالتجارب الحـديثة اثبتت ان الرياضة البدنية اذا بدىء بها في سن التلمذة وثابر عليها الشخص بعد ذلك في الحدود الصحية فانها تساعد جسمه على النمو وتقوي مناعته ضد الامراض . فيجد اللذة في الكدّ والعمل والنعيم في قدح الذهن وبذل المجهود

الرياضة البدنية تحدث انقباض العضلات وانبساطها . وهـذه الحركة تستهلك بعض الانسجة وتتطلب ايجاد أنسجة جديدة بدلاً منها . وكلما استعمل العضل ضخم حجمه . وبديهي ان العضلة اذا انقبضت ضغطت على الشرايين والاوردة الدموية والليمفاوية . واذا انبسطت سببت ارتخاءها . فتزداد بذلك سرعة الدورتين الدموية والليمفاوية . او بعبارة اخرى تزداد سرعة حمل الغازات والمواد المحللة الناجمة من المجهود الى الرئتين والقلب والكليتين فتنبّهها للقيام بنصيب أكبر للعمل كي يتخلص الجسم منها . وبذلك تحدث الرياضة البدنية اصلاحاً عامّاً

ثم اننا اذا نظرنا الى تأثير الرياضة البدنية في الحجاب الحاجز وعضلات البطن نجدها تفيد الكبد والمعدة والامعاء وذلك بالتدليك وبالضغط فيسهل افراز الصفراء من الكبد والكيس الصفراوي . وينعدم تلبك المعدة والامعاء فلا يصاب الشخص بعسر الهضم ولا الامساك المزمن مثلاً

وقدّر بعضهم ان الانسان الذي يزن حوالي ١٥٤ رطلاً يقوم بمجهود يعادل رفع ما وزنه طن الى قمة جبل متوسط الارتفاع . واقل من عشر هذا المجهود تصرفه الاحشاء الداخلية كالقلب وعضلات التنفس والمعدة والامعاء للقيام بوظائفها الطبيعية . وعشر آخر يصرفه الجسم في القيام بأعماله المعاشية . والثمانية الاعشار الباقية تصرف في حفظ حرارة الجسم عند الحد الطبيعي . هذه باختصار نسبة تصريف المجهود في العامل . أما الكتّاب وارباب الحرف الفنية والسراة فلا يقومون بمجهود يماثل مجهود العامل . وعليه فيجب ان يعمدوا الى الرياضة البدنية بشكل من الاشكال حتى يمكنوا اجسامهم من القيام بمجهود يعادل مجهود العامل الاعتيادي

والاحجام عن القيام بالرياضة البدنية يحدث تأثيراً سيئاً في الجسم . ففي الاطفال والشبان تمتنع العضلات والعظام عن نموّها الطبيعي . نعم انهم قد يبلغون احياناً الطول الاعتيادي لكنهم يكونون عادة نحافاً ضعافاً . ثم ان عضلات الظهر تتعب بسرعة فيتقوّس العمود الفقري . ولما كانت الاعمال المعاشية تجعل أحد جانبي الجسم يتعب قبل الآخر فان أحد الكتفين ينحط في مستواه عن الآخر محدثاً تقوّساً بالعمود الفقري الى أحد الجانبين . وعدم تمدد الصدر ينجم من عدم النشاط في التنفس . وهذه الحالة تهيء صاحبها للاصابة بالدرن الرئوي . وعدم استعمال عضلات خاصة بالجسم كما يشاهد مثلاً في الشلل يحدث تحللاً دهنيًّا في العضلات وتيبساً بالمفاصل المتصلة بها واذا تقدم الانسان في السن وحبا الى الشيخوخة وكان ممتنعاً عن الرياضة البدنية اعتراه الضعف وفقر الدم وعسر الهضم والامساك . والاشخاص الذين لا يروّضون أجسامهم يصابون في متوسط أعمارهم بالبدانة وانحلال عضلة القلب وجدران الاوعية الدموية ورخاوة العضلات

الوجهة التاريخية

والآن وقد ألمعنا الى مكانة الرياضة البدنية من الوجهة الطبية يجدر بنا ان نبحث في تاريخها القديم ابتداءً من العهد اليوناني لمكانة هذا العهد من وجهة خاصة لان الغربيين ينظرون اليه كمبدأ عهد الالعاب الرياضية لذلك تجدهم ينسبون الى اليونان فخر ابتكار الرياضة البدنية وتشجيعها. وسنرى ان جميع هذه الآراء خطأ . لان الدعاية الكبيرة التي قام بها اهالي اولمپيا باليونان طمست فضل المصريين الذين كانوا قد انحطوا وقتئذٍ ودخلوا في دور الخمول والاستعباد

وعبارة الرياضة البدنية « يقابلها بالانكليزية » Athletic Sports وهي مشتقة من كلمة Athlete التي تعني الشخص الذي يتبارى في الالعاب الرياضية قصد الحصول على جائزة الشرف . وقد اطلقت

اولاً على كل شخص يشترك في مباراة موسيقية او رياضية او خلافها ثم حصرت بعد ذلك في هواة الرياضة البدنية فقط . واقتصرت الرياضة البدنية اولاً في بلاد اليونان على أهالي الطبقة الراقية والمراكز السامية الذين كانوا يتبارون لا لقصد الحصول على جوائز مادية . لكنها بعد ذلك عممت ثم انحصرت في الطبقة الوضيعة

وكان الفلاسفة والاطباء الاقدمون من يونانيين ورومانيين يمقتون هذه الالعاب ويعتبرونها ضارّة بالذهن والجسم كما يستدل على ذلك من كتابة Euripides لمقالاته في Autolycus . وعني اليونانيون وقتئذٍ عناية عظيمة بغذاء الرياضيين حتى كانوا يقصرونهُ على الجبن والتين المجفف وخبز القمح . وتتلخص العاب القوم حينذاك في التمرينات الرياضية المعتادة ورفع الاثقال وثني الاقواس الحديدية والعدو والقفز والمصارعة والملاكمة .وكان القوم يقومون بذلك وهم عراة ويدهنون اجسامهم بالزيت. قال ليفي (جزء ٣٩ — ٢٢) ان الالعاب الرياضية اليونانية أُدخلت الى روما بواسطة فولفياس نوبليير Fulvius Nobilier وذلك عام ١٨٦ ق . م . وكانت هذه المهن تعتبر ارقى من مهنة التمثيل لكنها كانت معتبرة مشينة لمقام الروماني .والالعاب الرياضية اليونانية والرومانية كانت ممزوجة بروح دينية في اوائل امرها . ويرى الأثريون ان هذه الالعاب كان لها نصيب وافر في تحسين الاجسام والاذهان ببلاد اليونان كما يستدل على ذلك من كتاباتهم وعاداتهم . واستمرت الالعاب الاولمبية مرعية في اليونان الى اوائل تاريخهم القديم . واولمبيا هو اسم لبقعة في سهل باليونان يقال له إليس Elis . والالعاب الرياضية فيها ابتدأت عام ٧٧٦ ق . م .

عند قدماء المصريين

نعود الآن الى قدماء المصريين فنقول ان عناية اليونان والرومان بالالعاب الرياضية لم تظهر فجأة بل كانت نتيجة تلقينهم بواسطة المصريين الذين كانوا شديدي العناية بها منذ اقدم العصور قصد المحافظة على صحتهم وتحسين اجسامهم . فالباحث في آثار عهد الاهرام واواسط التاريخ المصري واواخره يجد ان المصريين اتقنوا منذ اقدم العصور المصارعة والمبارزة بالعصي والحركات الجسمانية الرياضية والعاب الكرة وانواع الصيد والقنص ومبارزة الثيران وغير ذلك.وانهم كانوا يجدون في ذلك لذةً وسروراً حتى نقشوها على جدران مقابرهم محافظة عليها للدار الآخرة كما نقشوا الدعوات والصلوات الدينية بالقرب منها جنباً الى جنب . والباحث في هذا الموضوع من الوجهة المصرية يجد فيهِ سروراً كبيراً لانهُ يدلهُ بطريق غير مباشر على كثير من احوال البلاد المعاشية في تلك العصور المتغلغلة في القدم ويظهر له الغامض من جغرافية الاراضي وقتئذٍ وعادات اهلها وما بلغت معارفهم وفنونهم خاصةً بالصيد والالعاب الرياضية

ولما كانت مصر تروى بالحياض وكانت ايضاً تحوي الكثير من البرك والمستنقعات الكثيرة الطيور

والاسماك على اختلاف انواعها كما كانت الصحاري تفيض بالحيوانات المفترسة المختلفة فاننا نجد ان المصريين كثيراً ما كانوا يهتمون بالصيد والقنص في الفيافي والمستنقعات ويصطحبون معهم أسرهم كي يشتركوا في ذلك السرور وتلك المغامرات . وسنبدأ بحثنا في الصيد والقنص ثم الالعاب الرياضية التي كانوا يقومون بها داخل منازلهم ثم خارجها

الصيد في البرك

وان تعجب بشيء فاعجب بطباع الانسان الذي كلما زادت حضارته وارتقت مدنيته وكلما زاد في رفاهية حياته ونعيم مسكنه، زاد حنينهُ الى الطرق المعاشية التي تربى فيها اجداده بالرغم مما تتطلبه من ضنىً وتقتضيه من نصب . وفي كثير من الاحوال يعمد الانسان وقت سروره وفرحه الى التسلي بألعاب تلك الازمنة القديمة وملاهيها . وليس بين بلدان العالم ما يظهر قيمة هذا الرأي بجلاء اكثر من القطر المصري . فمن اقدم العصور التاريخية نجد السيد المصري مرسوماً على الآثار يصطاد السمك بالحربة ذات الرمحين والطيور بالعصاة الملتوية . هذا بالرغم من ان صيادي تلك العصور كانوا يستعملون في مهنتهم شباك الاسماك ومصائد الطيور . ومعلوماتنا عن مصر القديمة تبدأ من عصر قد وصلت فيه الى درجة كبيرة من المدنية والحضارة . فالغابات الكثيفة المملوءة بالمستنقعات التي اكتظت بها الوادي قبل ذلك صارت في تلك العصور اثراً بعد عين . واصبحت ترى الحقول الزراعية المنظمة . لكن في كثير من الجهات تتخلف البرك والمستنقعات بعد زوال الفيضان النيلي وهناك ينمو شجر البردي بغزارة ويكثر حصان البحر والتمساح والطيور المائية العديدة . وهذه البقاع كانت دائماً مجال حبور وانبساط لأن جمالها الطبيعي جذب قلوب المصريين فصاروا يذهبون اليها كثيراً للصيد والقنص ولم يقتصر الامر على ذلك بل وضع الشعراء والكتّاب في جمالها ورونقها القصائد الرنانة والنثر الفياض

ففي المستنقعات وبين سيقان البردي الجميلة كان السيد المصري يتروّض في قارب صغير قاطفاً أزهار اللوطس صاعقاً الطيور العديدة بالعصاة الصغيرة الملتوية وقاتلاً بالرمح الطويل حصان البحر او سمك النيل . هكذا كان يحلم السيد المصري في تمضية اوقات سروره

ففي مقبرة رقم ٣ ببني حسن التي يرجع تاريخها الى الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠—١٧٩٠ق.م) من حكم الملك اسرتسن الثاني تشاهد رسوم واضحة واشكالها الآدمية لا تزال محافظة على نسبها — وكذلك صور الطيور والحيوانات . ولا يجد الباحث تعباً في معرفة انواع السمك والحيوانات الواردة بالصورة لدقة الرسام ومهارة الحفار . ويشاهد تحت الافريز بيان باسماء والقاب صاحب المقبرة (خنوم حوتب) رئيس اقليم الوعل ورئيس الامراء . وهذا مكتوب في الجهة اليسرى للصورة . وفي اسفل ذلك يشاهد الامير المذكور يصطاد الطير وهو في قارب صغير مصحوباً

بزوجته وابنه وسيدة اخرى من عائلته وتابع له . ويشاهد (خنوم حوتب) هذا قابضاً بيده اليمنى على العصاة الملتوية وبيده اليسرى على ثلاثة طيور . وفي المياه اسفل القارب تشاهد عدة اسماك وحصان بحر وتمساح. وتحت ذلك تشاهد جماعة من الصيادين يصطادون السمك وحصان بحر بالشباك تحت ملاحظة رئيس الصيادين (منتوحوتب)

اما القسم الايمن للصورة فيحوي نقوشاً اسفل الافريز هذا تعريبها « الامير الجليل الكثير الاسماك الغني في الطيور المحب لمعبودة الصيد » . وتحت ذلك يشاهد منظر يمثل (خنوم حوتب) يصطاد سمكاً وهو في قارب صغير مصحوباً بابنه البكر وخادم وقابضاً بيديه على حربة ذات رمحين اصطاد بهما سمكتين معاً . واسفل ذلك تشاهد اسماك وحصان البحر وتمساح . اسفل ذلك تشاهد جماعة من الناس في قوارب على سطح المياه . واليك ترجمة النقوش فوق (خنوم حوتب) « التنزه في مستنقعات البردي وبرك الطيور البرية والبحيرات والانهر بواسطة (خنوم حوتپ) كبير المتنزهين في القوارب بمستنقعات البردي وبرك الطيور البرية يصطاد الطيور والاسماك . وهو يجلس مختبئاً ويطبق الشبكة الطابقة ويصطاد بالحربة ذات الرمحين ثلاثين سمكة . ما احلى يوم صيد فرس البحر بواسطة (خنو محوتپ) » . والرجل الصغير امامه هو الخادم (خنوم حوتپ) سميه . والذي خلفه هو ابنه الكبير (نخت) كما يستدل عليه من النقوش اعلا كليهما

هذه الصورة تظهر للقارىء الصيد والقنص في المستنقعات والانهر وهي من ألذ انواع الرياضة التي كان يهتم بها القوم وقتئذٍ . والذي شاهد الفلم السينمائي المعروف باسم (اسكيمو) يكون قد حظى برؤية طريقة استعمال الرماح في صيد الاسماك باجلى مظاهرها وايضاً صيد الطيور بالرماح على النمط المتبع عند الاسكيمو سكان منطقة القطب الشمالي والتي تقرب جداً من الطريقة المرسومة بالصورة سالفة الذكر

أما الصيد في الصحارى فيرى بوضوح في الصورة المأخوذة من مقبرة (انتفوكر) بالاقصر (أسرة ١١) وهي مكوّنة من خمسة صفوف وتمثل الحيوانات الوحشية محاطة بالشباك والسهام مصوّبة اليها من الخارج بواسطة صيادين وبعض الحيوانات الحبالى يضعن صغارهنّ من شدة الولع . ويمكن الباحث معرفة انواع هذه الحيوانات كالظباء والوعول والتيتل والثيران الوحشية . ويشاهد استعمال الكلاب السلوقية في هذا الصيد (شكل ١)

الالعاب المنزلية

اما الالعاب المنزلية فعلى عدة انواع أهمها لعب الكرة . وهذه تلعب ايضاً خارج المنازل ويشترك فيها الاطفال والنسوة والرجال ، لكنها ترسم عادة خاصة بالنساء وتلعب الكرة على عدة طرق كما يشاهد في الرسم المأخوذ من مقابر بني حسن (اسرة ١٢) ، الطريقة الاولى وهي العليا تتلخص في سيدتين راكبتين فوق ظهري سيدتين أخريين تتبادلان ثلاث كرات بسرعة

بالتوالي . والتي تخفق في التقاط احدى هاته الكرات تركع لتمتطيها الاخرى وهكذا ، وهناك طريقة ثانية وهي الممثلة في اول رسم على اليمين من أسفل وفيهِ سيدة تقذف بكرة الى أعلا على عدة دفعات مع الاتيان ببعض الحركات الى الامام او الخلف . والطريقة الثالثة وهي الممثلة في الطريقة الثانية من اليمين في أسفل الصورة وتتلخص في تقاطع الذراعين وتبادل قذف ثلاثة كرات بالتناوب بسرعة . وهـذا الوضع صعب المراس للغاية . الطريقة الرابعة وتتلخص في قذف ثلاث كرات بالتناوب والذراعان ممدودتان الى الامام . ويشاهد هذا في رسم السيدة الثالثة السفلى من اليمين . ويشترط في هذه الطريقة ان يكون في كل يد كرة والكرة الثالثة في الهواء . الطريقة الخامسة وهي المرسومة في الرسم الأول من اليسار في الصف الثاني وتتلخص في قذف ثلاث كرات بالتناوب الى أعلا والذراعان ممدودان الى الامام واليدان متقابلتان بشرط ان يكون كرتان في الهواء وكرة في اليدين وهذه حركة ليست بالهينة . والطريقة الاولى أخذها اليونان ولعبوها ضمن ألعابهم واطلقوا على السيدة الراكعة «الحمارة الخاضعة لاوامر الفائز» واخذ اليونان ايضاً عن المصريين لعبة قذف الكرة الى أعلى مسافة ممكنة والتقاطها في حركة قفز قبل ان تلمس الرجلان الارض وقد ذكرها (هوميروس) وقال انها لُعِبت في اليونان بواسطة هاليوس Haluis ولاوداموس Laodamus

ويلاحظ ان السيدة التي تجلس على ظهر الاخرى في الطريقة الاولى تكون رجلاها مرسلتين الى جانب واحد ، وان الرداء وقتئذٍ يتكوّن من قميص بدون كمّ . ولا يبعد ان يكنّ قد خلعْنَ جلبابهنّ الخارجي خصيصاً للقيام بهذه اللعبة

والكرة وقتئذٍ كانت تصنع من الجلد المخيط رأسيًّا قطباً الى قطب كالكرات الحديثة . وكان حشوها الدقيق او التبن . ويقرب قطر الواحدة منها من عشرة سنتمترات . وهناك كرات اصغر حجماً من هذه اجزاؤها متباينة الالوان كما هي الحال عندنا في بعض الاحيان

***

﴿لعبة الكوبات﴾ : تتلخص في وضع كرة تحت كوبة من اربعة كوبات . ويراهن احد اللاعبين زميله على اية كوبة تحتوي الكرة . كما يشاهد ذلك في الرسم الذي اورده (روزلليني)

﴿لعبة « الجديد »﴾ هي لعبة قديمة تتلخص في تخبئة حصاة او ما شابهها في احدى اليدين وتخمين احد اللاعبين على اليد الحاوية للحصاة . اما لعبة « الضامة » فكانت معروفة ومنتشرة لكن طريقة لعبها وقتئذ لم يتأكد منها بالضبط

ومن الالعاب التي كان القوم يقومون بها داخل منازلهم وخارجها هي ان يجلس شخصان على الارض ملتصقي الظهرين وان يمد كل منهما احدى ذراعيه الى الامام ويؤخر الآخر للخلف . ثم يبدأ في القيام من الارض بدون لمسها باحدى اليدين والفائز في هذا التمرين هو طبعاً الاول في اتمام هذه الحركة . وتعمل الحركة ايضاً معاكسة بأن يقف الرجلان ملتصقي الظهرين حافظين ذراعيهما

في الوضع نفسهِ ثم يجتهدان فيمن يسبق زميله في الجلوس على الارض . وقد وردت هذه اللعبة منقوشة على مقابر بني حسن (اسرة ١٢)

ومن اجمل العابهم التي يشترك فيها الجنسان وتجتمع فيها الرشاقة والنظام والسرور هي لعبة الالتفاف وتتلخص في ان يقف شابان احدهما الى جنب الآخر ويمدان احدى الذراعين الى الامام والاخرى الى الوراء . بعد ذلك تأتي غادتان رشيقتا القوام قصيرتا الملبس فتضعان ايديهما في ايدي الشابين ويلقيا بجسميهما الى الوراء بشكل رشيق مستقيم بشرط تقابل ارجلهما بعضها ببعض . وبالطريقة الاخيرة يمنعان انفسهما من الانزلاق . فاذا ما تم هذا التوازن بدئت حركة الالتفاف الدائري اولاً تدريجاً ثم تزداد بسرعة حتى تبلغ لمح البصر . وغني عن البيان ان هذه الحركة تتطلب مهارة من الجنسين لكنها في الرجلين اكثر منها في السيدتين . فالرجلان يحافظان على التوازن بأيديهما ويراقبان حركة الالتفاف فيبدلان ارجلهما بتناوب لا يتعارض مع سيقان السيدتين . وضفائر الشعر في هذه اللعبة تعطي اثناء الوقوف شكلاً بديعاً اذ كلما زاد الالتفاف سرعة ازداد تطاير الشعر عن الرأسين . واساس هذه اللعبة الاستمرار في بقعة واحدة مستديرة مركزها نقطة تقابل رجلي السيدتين

وهنالك العاب اخرى منزلية مثل لعبة الضامة وهي قديمة العهد جداً لا يبعد ان تكون طريقة لعبها قريبة من طريقتنا الحديثة . ولعبة اخرى تتلخص في ركوع شخص وقعود آخرين بالقرب منه قابضين بأيديهما على عدد من ظهر الطاولة . وعلى الراكع تخمين العدد الموجود في يد مخصوصة . ويتحتم عليه المكوث في تلك الهيئة الى ان يصيب الحقيقة مرة ما . وهنالك لعبة اخرى تتلخص في استخلاص طوقٍ بواسطة عصاة ملتوية يحملها شخصان

الالعاب الخلوية

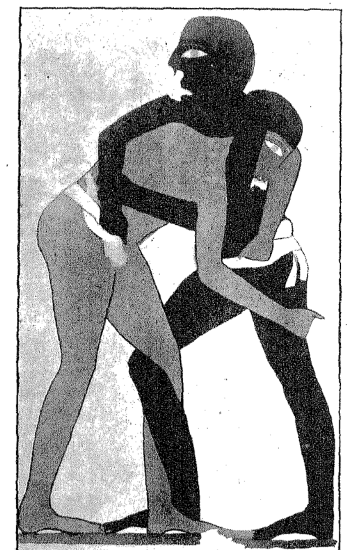
ولنترك الآن الالعاب المنزلية ونبحث في الالعاب الخلوية التي كان القوم يقومون بها في العراء ويأتون فيها بكل نوع وحركة . وليست هذه الالعاب وليدة عصر مخصوص اهتدينا اليهِ بل الغريب انها وجدت منقوشة على مقابر عهد الاهرام اي من عهد المملكة القديمة وذلك حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد او ما يسبق الالعاب الاولمبية بالفي سنة وخمسمائة سنة تقريباً . وسأورد للقراءِ هنا صورة للحائط من مقبرة الفيلسوف العظيم (بتاح حوتب) بسقارة تلك المقبرة ذات الرسوم البارزة البديعة والنسق الجميل والتي جمعت من مناظر حياة القطر المصري الزراعية والمنزلية ما يأخذ الالباب ويبهر العقول . هذه المقبرة هي ككل مقابر سقارة يرجع تاريخها الى عهد الاهرام وهو العهد الذي بدأت فيهِ المباني الحجرية تأخذ شكلها الضخم ومتانتها العديمة المثال . ففي الصف الاول او الاعلى من الصورة ترى مناظر جمع البردي من المستنقعات وعبر البهائم للمستنقعات حيث توجد التماسيح في انتظار فرائسها . اما الصف الثاني فتشاهد فيهِ عدة ألعاب يقوم بها الشبان

يظهر انها كانت تقام في موسم العنب وصنع الخمور . واول هذه الالعاب هو القاء العصي او السهام المدببة الى الارض احتفالاً بالمعبود (شسمو) معبود الكروم على الارجح ثم شابان جالسان على الارض مربعي الساقين وقابضين بيديهما على اقدامهما واسفلهما شاب يحمل فوق ظهره طفلين يمسك كل منهما قدمي الآخر فيشبهان قفصين لحمل المحاصيل . وبديهي ان هذا الشاب يقوم بدور دابة كالحمار . بعد ذلك يشاهد شابان واقفان معاً كلٌّ منهما يطوّق عنق الآخر باحدى ذراعيهِ ويقبض ذراع الآخر بيديهِ . يظهر من امرهما انهما يقومان بحركة دوران متعاكس يتبادل فيهِ كل منهما عنق زميله ثم يده . بعد ذلك يشاهد شاب يحمل معطف على كتفيه يتقدم بخطوات واسعة نحو شابين جالسين على الارض مادين ارجلهما الى الامام وواضعين كعب قدم فوق اطراف اصابع القدم الاخرى . وتشاهد فوق ذلك اليدان في حالة البسط موضوعتين فوق القدمين . ولا يبعد ان تكون هذه الالعوبة هي المتداولة الآن بين اطفال الفلاحين وهي القفز على ارتفاعات مختلفة تبدأ اولاً بارتفاع يعادل قدماً واحدة ثم قدمين ثم قدمين ويد ثم قدمين ويدين . وان الشخص الذي يعدو أمامهما هو الذي يقوم بحركة القفز على الارتفاعات المذكورة بالتوالي . بعد ذلك يشاهد شاب يعدو على الاربع فوق اكتاف ثلاثة شبان يظهر من أمره انهُ يستمر في هذا العدو كلما تخلص الشاب الثالث واخذ محله امام الشاب الاول وبعد ذلك تشاهد حركة الالتفاف الدائري بشكل غير السابق شرحه مع ملاحظة ان هذه النقوش يرجع تاريخها الى القرن الثلاثين ق . م . والصورة السابق عرضها يرجع تاريخها الى حوالي القرن العشرين ق . م . وتتلخص هذه اللعبة في عمل دائرة من ستة شبان مثبتين اقدامهم بعضها في بعض وملقين بأنفسهم الى الوراء قليلاً ثم قائمين بعملية الالتفاف . وفي هذه الحالة يكون الستة أشخاص مشتركين في حركة الالتفاف غير الحركة السابق شرحها تحت رقم ٧ حيث يقوم بالالتفاف سيدتان دون الشابان . وفوق هذه الرسوم نقوش تعريبها « لف اربع مرات » واخيراً بعد ذلك يشاهد شاب راكعاً فوق الارض يجتهد في القبض على قدم لأحد زملائه الاربعة الذين يشغلونه بوكزه دفعة واحدة في كل الجهات من جسمه . أعلا ذلك نصوص هذا تعريبها : اتركني الكزك . انني اتألم من جانبي . أنا أحسست بك ! »

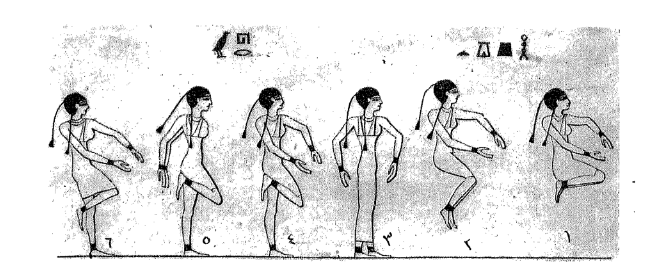
وفي الصف الثالث يشاهد رجلان يقومان بعملية ري شجرة عنب . وآخران يقتطفان الثمار ويطؤونه بأرجلهم لعصره

وفي الصف الرابع يوضح الصيد والقنص في الصحارى . فالمنظر الاول هو لكلب سلوقي يهجم على كلبين وحشيين . ثم كلب يهجم على وعل . ثم غزالة ترضع صغيرها . ثم سلوقي يقبض على تيتل . ثم نمران ثم ابن آوى . وفي القسم السفلي يشاهد رجل قابضاً بحبل على كلبين من النوع السلوقي ويشير بيديه الى اسد يفترس ثوراً وحشياً من انفه . ثم كلب يفترس غزالا وآخر يشد وعلاً بعد ذلك يشاهد نوع من التيتل وثوران وحشيان اقتنص احدهما رجل بطريقة الحبل والانشو

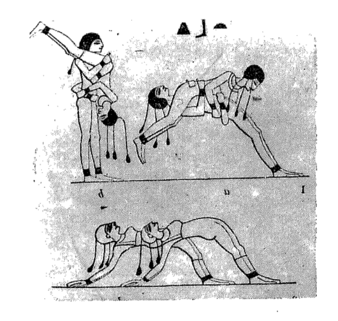
المصارعة
عن ولكنسون . راجع شرحها في مقال
الرياضة البدنية عند قدماء المصريين



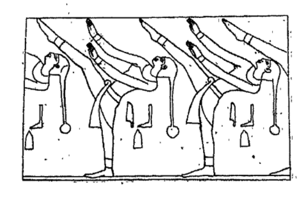
مسكة من مسكات المصارعة عند
قدماء المصريين من رسوم مقبرة باكث
بني حسن . عن الاسرة الحادية عشرة

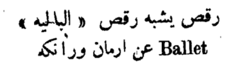


الرقص البهلواني
ست حركات عن ولكنسون
في عهد الاسرة الثانية عشرة



لعبة بهلوانية





رقص يشبه رقص « الباليه »
Ballet عن ارمان ورانكه

المسماة عند الافرنج Lassso . ويشاهد الحبل مطوقاً للقرنين والجسد . وعلى بعد من هذا المنظر يشاهد غزال جالساً مختفياً . ثم غس يصطاد . ثم يربوع لاجئاً الى اكمة . ثم قنفذ قابضاً بفمه على صرصار

ويشاهد في الصف الخامس مناظر المعيشة على ضفاف النيل . فالمنظر الاول من اليسار . يمثل شق الاسماك وتجفيفها في الشمس . ويعمل ذلك باستخراج الاحشاء الداخلية ثم القاء السمك على الارض للتجفيف . ثم منظر لرجل وشاب يقومان بلف الحبال اللازمة لصناعة السفن . ثم مناظر صناعة السفن . ويشاهد في الصف السادس صيد الطيور بالشباك الطابقة

الالعاب البهلوانية

اول هذه الالعاب هي الواردة ببني حسن (اسرة ١٢) وتتلخص في ان يحني احد اللاعبين ظهره راكعاً ثم يأتي ثانٍ ويقوم بحركة القفز والانقلاب على ظهر زميله وهذه الحركة موضحة الرسم بمقابر بني حسن وهي عبارة عن رفع الذراعين الى اعلا والتهيؤ للانقلاب ثم حني الظهر الى الخلف بعد وضع اليدين على الارض ثم الانقلاب ثم وضع اليدين على زميل وسط الانقلاب والوقوف على ظهر الزميل ثم القفز الى الارض ورفع الذراع الايسر والقبض على القدم الايمن علامة النجاح وبالقرب من هذا المنظر يشاهد شخص قابض على الجائزة وهي قلادة

وهناك لعبة بهلوانية تقوم بها سيدتان تنحني احداهما الى الخلف وتقبض على جسم زميلتها بيديها بحيث تكون رأس الزميلة مقابلة لرجلي الأخرى . ثم تبدأ حركة الدوران فتطأ الراكبة الارض بقدميها جاذبةً جسم الاخرى معها فينجم عن ذلك ان يكون رأس السيدة المحمولة الى اسفل وقدماها الى اعلى . ثم تتكرر الحركة تباعاً وبسرعة . واقل ما يقال في هذه الالعوبة انها مدهشة وتحتاج الى كثير مران وقوة عضلات

وكان ثمة لعبة بهلوانية ثالثة يشترك فيها اكثر من سيدة لكنها في الحقيقة قاصرة على واحدة فقط وتتلخص في انحناء الجسم الى الوراء بشكل نصف دائرة بشرط ان يكون مرتكزاً على الارض بقدميهِ ويديهِ على ما هو واضح بالصورة

حركات الرقص البهلواني الرشيق الذي كانت تقوم به السيدات احياناً وهو عبارة عن مزيج من القفز والخيلاء . والصورة المرفقة المأخوذة من بني حسن (اسرة ١٢) تمثل ست حركات لهذا النوع . «الحركة الاولى» تتلخص في القفز الى اعلى مع ثني الساقين على الفخذين والفخذين على الجسم وتحريك الذراعين الى الامام بشكل جذاب ثم «الحركة الثانية» وهي عبارة عن الرجوع الى هيئة الوقوف على الارض في دلال واضح . ويلاحظ ان قامة السيدة في كل حركة حافظة على الاستقامة والنشاط ثم «الحركة الثالثة» وهي حالة الوقوف مع الرقص بالاذرع و«الحركة الرابعة» عبارة عن ثني الساق اليمنى على الفخذ والوقوف على الرجل اليسرى مع تحريك الذراعين الى الامام بشكل تعريجي او

تقوُّسي . و«الحركة الخامسة» وتختلف عن سابقتها بارسال الذراعين الى الخلف بشكل فتان بديع ثم «الحركة السادسة» وهي الختامية وفيها يتجلى الجمال والرقة والخفة فتقف السيدة على القدم اليسرى وتنعطف بجسمها قليلاً الى الوراء ثانيةً ساقها اليمنى على نخذها وباسطة ذراعيها الى الامام بكيفية تظهر بها جمال كل جزء من جسمها الفتان ولعمري ماذا كان ينتجه قلم ذلك الرسام في مثل هذا الموقف اذا كان رسمه على الورق بدلاً من نقشه على الحجر . لكنه رغم ذلك قد تمكن من اثبات رغبته حفراً في جلمود الصخر وأتى لنا بالعجاب فأورد لنا صوراً آية في الجمال والكمال . انظر ايها القارىء الى اللبس التي تلبسه السيدات في هذا المقام فقد روعي فيه اظهار كل محاسن الجسم قدر الطاقة مما يتناسب مع ظروف الحظ والسرور ساعتئذ . فالرداء في كل المواقف ما عدا في الحركة الثالثة لا يصل الى الركبتين بل اعلى منهما بقليل مظهراً جمال الساقين والقدمين العاريتين وهو ملتصق ما امكن بالفخذين والبطن واسفل الصدر ومعلق بشريطين رفيعين بالكتفين . والثديان عاريان والذراعان عاريان املسان والمصاغ قاصر على قلادة بالجيد وخلخال في كل ساق مجيد . اللهمّ ارزقنا بمختار ثانٍ يظهر لنا بدائع اجدادنا ومفاخر آبائنا مما يطمس بلا شك نخر الغربيين في الرقص واللباس والرشاقة على السواء

ولكن ما لنا ولهذا الرسم فقد اورد لنا هؤلاء الفراعنة رقصاً آخر يقول عنهُ الاستاذان ارمان ورانكة انهُ من ادهش الانواع وأقربها الى الحيوية واجملها منظراً واحلاها رونقاً بل وافتنها للنفس وأجذبها للقلب . هذا الرقص هو الوارد بمقبرة بدير الجبراوي ويرجع تاريخه الى الاسرة الخامسة (حوالي ٣٠٠٠ ق . م .) . قال الاثريون ان هذا الرقص لا يبعد كثيراً بل قليلاً جدًّا عن الرقص المعروف عند الغربيين باسم Ballet . وفي هذا الرقص تشترك النسوة في صف طويل مثنى مثنى او رباعي رباعي . وفيه تحني كل فتاة جسمها الى الخلف وترفع ذراعيها واحدى رجليها الى اعلا بشكل خطوط متوازية . فاذا ما انتهت هذه الحركة بدّلن الارجل المرفوعة بالاخرى وهكذا والشعر في كل حالة مصنوع بشكل ضفيرة واحدة مثقلة في آخرها بكرة القصد منها جعل الخصلة عمودية ما امكن محافظة على النظام واتماماً للرونق والجمال . وبعد الفراغ من هذا الرقص كنَّ يتقدمنَ الى المتفرجين ويحنينَ اجسامهنّ برشاقة قصد التحية . ثم يأتي غيرهنّ للقيام بدورهنّ كما هي العادة الآن عند الافرنج

﴿ الرقص التوقيعي ﴾ وهو الوارد بمقبرة (خيتي) ذات الرقم ١٧ ببني حسن (اسرة ١٢) ويشاهد فيها ثلاثة رجال يرقصون امام ثلاثة آخرين يصفقون لهم بنظام وتؤدة والرجال الراقصون يقومون بحركات اشبه كثيراً بالحركات الجمبازية التي يلقنونها بالمدارس الآن . وهي اولاً مد الذراعين الى اعلا والوقوف بنشاط ثم ثني احدى الساقين الى الوراء عند الركبة . ثانياً بقاء الذراعين ممدودتين الى الامام والمحافظة على حركة الوقوف السابقة مع مدّ الساق الايمن الى الامام ورفعه الى

مستوى الخاصرة . ثالثاً هو ضم الساقين الى جانب بعضهما وبسط الذراعين بشكل افقي للجسم . بعد ذلك يشاهد ثلاثة رجال يصفقون لزميل لهم يقوم بحركة رقص تتلخص في رفع الذراعين الى اعلا بشكل رشيق مع المشي بشكل مخصوص الى الامام او الخلف

﴿ رفع الاثقال ﴾ هذه الالعاب الرياضية البديعة اول من اسسها بشكل نظامي هم قدماء المصريين. وقد أورد الاستاذ روزلليني صورة لذلك يشاهد فيها شخص يتهيأ لرفع الثقل بيده اليمنى. وهذا الثقل عبارة عن كيس محشو رملاً او ما شاكله . وكمية الرمل بطبيعة الحال تقلل وتزاد حسب البداية او التقدم في المران . وشخص ثانٍ يمثل نفس الحركة ولكن بالذراع الايمن . وشخص رابع يمثل الحركة النهائية في رفع الثقل . ويشاهد رافعاً الثقل الى اعلا باسطاً ذراعه الايمن ما استطاع مراقباً توازن الثقل . بعد ذلك تنوعت الاثقال طبعاً الى ان وصلت في عهدنا هذا الى القضبان الحديدية التي تضاف اليها الاثقال في الاطراف تدريجاً . لكن النظرية واحدة والغرض واحد

﴿ المبارزة بالنبوت ﴾ كان هذا النوع من المبارزة ذائعاً بين المصريين الاقدمين كما هو الحال الآن . وكثيراً ما كانت المشاحنات والمنازعات بين القرى يفصل فيها في تلك العصور بالرجوع الى هذا السلاح العظيم . لكن ذلك لا ينفي انهُ كان يستعمل للرياضة البدنية ايضاً خصوصاً وقد وردت لنا صور كثيرة على الآثار تظهر ذلك بوضوح. منها الصورة المأخوذة من مقابر المملكة القديمة (اي عهد الاهرام) . وفيها تشاهد السفن الصغيرة المصنوعة من سيقان البردي وبعض الملاّحين يدفعون القوارب الى بعضها ليتمكن الآخرون من المبارزة . وبعد التغلب على الخصم بالنبوت كان الغالب يقذف بالمغلوب في الماء

قال هيرودوت ان رؤوس المصريين اصلب مادة من رؤوس سواهم من الامم. ولا يبعد ان يكون قد استنتج هذا الاستنتاج بعد مناظرة مبارزة النبوت . والحق يقال ان كل من يشاهد معركة حامية يستعمل فيها هذا السلاح لا يبعد كثيراً من الصواب اذا ما وصل في النهاية لمثل هذه النتيجة . وقد اوردت ذكر الصورة لانها تمثل المبارزة في السفن وهي اشد مراساً من المبارزة على اليابسة كما هو بديهي لمن مارس هذه المهنة

﴿ المبارزة بالعصي ﴾ هذه المبارزة اقرب ما يكون من المبارزة الاوربية المعروفة بالشيش او السيف . وهي الاصل بلا مراء في ذلك النوع من الرياضة . ويشاهد ذلك في صورة ذكرها الاستاذ روزلليني . وفيها يقف الخصمان وقفة المبارزة الغربية التي تتلخص في استقامة القامة والميل بها قليلاً الى الامام مع ثني احد الطرفين السفليين والاتكاء على اطراف اصابع القدم الاخرى استعداداً للكرّ والفرّ مما يتطلبهُ هذا الصراع البديع . ويقبض كل فريق عصاه التي يقرب طولها من السبعين سنتمتراً ويلبس في الساعد الآخر درعاً مثبتة بعدة اوثقة مستعرضة . وهذا الدرع يمتد من مفصل الكوع الى اطراف الاصابع . القصد منهُ توقّي الضربات بهِ وحماية الطرف المذكور

والرداء القصير يمنع عرقلة الكفاح . ودلائل الانتباه الشديد تبدو في وجهي المصارعين وتكفل اظهار شدة اهتمام القوم بهذا النوع من الرياضة . ويلاحظ ان اليد القابضة على العصاة لابسة قفازاً او ما شاكله حمايةً لها ايضاً من اصابات الخصم كما هو الحال في مبارزة الاوربيين

﴿ كفاح الثيران ﴾ ولع القوم كثيراً بهذا النوع من الرياضة واحتفلوا به امام معابدهم الرئيسية كمنف وغيرها وقدّموا الجوائز لصاحب الثور الفائز . لذلك كانوا يصرفون زمناً طويلاً ومجهوداً عظيماً في تمرين هذه الحيوانات بما يتعادل مع عنايتهم بالخيل كما رواه استرابون المؤرخ الشهير وكثيراً ما اشترك الرعاة والفلاحون في هذه المهرجانات لازدياد تحمس الناس والاكثار من افراحهم. ولم يرغم قدماء المصريون اسرى الحروب على كفاح الحيوانات الوحشية والقتال معها كما كان يفعل اهل روما مثلاً . ولم يسمحوا للمبارزين بقتل احدهما الآخر لانهم لم يروا في ذلك سروراً ولا جذلاً . بل اعتبروه امراً مخالفاً للانسانية . والصورة الواردة هنا عن هذا النوع من الرياضة تمثل تمرين الثيران لهذا الكفاح ويشاهد فيها المدرّب يشجع دابته على المضي في النطاح تارةً بالكلام كما هو واضح بالصورة وطوراً بالضرب والعصاة كما هو واضح بمناظر اخرى

﴿ المصارعة ﴾ كانت هذه الرياضة البدنية من ألذ الالعاب عندهم . وقد وردت بمقبرة (بتاح حوتب) (مملكة قديمة حوالي ٣٠٠٠ ق . م .) منـاظر لهذه الرياضـة . لكن مقابر بني حسن (اسرة ١٢) تحوي رسوماً لكل وسائل الدفاع والهجوم مبينة اوضح بيان . وزيادةً في الايضاح رسم الشخصان المتبارزان بلونين مختلفين (احمر واسود) . ويجد القارىء في الصورة الواردة هنا مصارعة واحدة توضح دقائق الامور تساعده بعد ذلك على تطبيقها على سائر المناظر المماثلة.وعلى كل حال فهذا الصراع لا يقدره تماماً الاَّ المصارعون . ولا يعرف الفضل الاَّ ذووه . ففي الصورة يرى القرّاء المصارعين عراة الاجسام . اللهمَّ فيما يتعلق بوضع منطقة صغيرة حول الوسط . ولا يبعد ان يكون المصارعان قد دهنا جسميهما بالزيت او مادة اخرى مشاكلة قصد ازلاق ايدي الخصم وقت القبض على جسم زميله ولكل مصارع الحق في القبض على اي جزء من جسم خصمه سواء كان الرأس او العنق او الرجلين وان يستمر في الكفاح على الارض مدة كما كانت الحالة عند اليونان . وفي مقبرة ببني حسن لأمير يقال له (باكت) رسمٌ يمثل ثلث الحائط الايسر وهو عبارة عن افريز اسفله القاب صاحب المقبرة ودعوات ثم ستة صفوف عليا تمثل مائتين وعشرين حركة مصارعة بين مصريين احدهما ملون باللون الاحمر الفاتح والآخر باللون الاحمر القاتم تمييزاً لاجزاء جسم كل من الخصمين

واختلف الناس في العالم الحديث في تحديد ماهية المصارعة . واختلفوا ايضاً على المباح من المسكات منها والمحرّم لذلك كثرت انواع المصارعة وتعددت قوانينها . لكن الشائع منها الآن هو الذي تمسكت به اوربا نقلاً عن الاغريق والرومان وهو المعروف حالاً باسم «Greco-Roman» ويستعمل في الدورات الاولمبية لطبقة الهواة . لانه في نظرهم الطريقة التي ينجو بها المصارع من

الخطر لانها تقيد المسك فيما فوق السّرة بشرط عدم مسّ الاعضاء الرخوة التي لا تقاوم الضغط لطبيعتها البشرية

اما آسيا فقد تمسكت فيها اكثر اممها بطريقة عدم التقييد في المسك . وعدّت اليابان والهند وتركيا على الخصوص المصارعة الحرة من ضرورة الدفاع عن النفس . فاطلقت للمصارعين الحرية في كل انواع الضغط والليّ وما اليهما بجميع اجزاء الجسم . وقد دعى تمسك اليابان بالاباحة المطلقة وانتشار المصارعة فيها على هذا النحو الى الاجماع على تسمية هذا النوع « بالمصارعة اليابانية » وقد كان يعرف باليابان باسم « Ju-Jutso » وعند الانكليز نوع من هذه المصارعة يعرف باسم« Cornish»

والثابت من الرسوم المنقولة من بني حسن ان المصارعة الحرة بكل اوضاعها وانواعها مصرية الاصل . وان الانصاف تسمية « المصارعة اليابانية » باسم « المصارعة المصرية » والاسم الذي يطلق احياناً على المصارعة وهو « Catch-as Catch-can » لا يحوي معنى النسبة لموطن ابتكار هذه المصارعة

والاوضاع المبينة في رسم مقبرة بني حسن عبارة عن المصارعة الحرة المعروفة بـ Catch as-Catch can ويظهر ان الفوز كان يتم وقتئذٍ بالقاء الخصم على ظهره فوق الارض بشرط مساس كتفيه لها في آن واحد . وان المصارع وقتئذٍ كان يستعين برقبته قبل مصارع اليوم في الدفاع عن كتفيه : والحركات المعروضة هي مجموعة لمسكات عدة تتعدى بالتأكيد ما هو موجود الآن مما يدل على ان المصارعة وقتئذٍ كانت اوسع فنًّا وحرية منها الآن

والآن وقد اتضح للقارىء ما قام بهِ سلفنا المجيد الصالح من العاب رياضية شاملة وحركات جسمانية متباينة اقل ما يقال عنها انها اشبه بالحديث ومنتهى ما بلغه القديم . بدأوها واتقنوها . ثم اتى اليونان فاخذوها وفي اوليمبيا عرضوها . فادّعى اهل الغرب ان هذه الالعاب يونانية الاصل ونسوا ما لاجدادنا من فضل . والسر في ذلك اضمحلال القطر وزوال مدنيتهِ بعد زهوّها . وغزو الاجانب له واستبدادهم به بعد نشوته وعزته . فصار للاجنبي اليد اليمنى والكلمة الاولى . وصار المصري مستأجراً مستصغراً فنسى هذا الاخير ثروة اجداده ومخلفاتهم . واخذ هذا الاول لب اخلاقهم واعمالهم . لكن صخور مصر وما تحويه من نقوش جبابرتها صمدت كما صمد ابو الهول حوالى الخمسة آلاف سنة . فلما اكتشفت وفحصت ظهر منها العجب العجاب من مدنية عالية واخلاق فاضلة . وبدا لنا نحن الاطباء عجائب الطب والجراحة بكل انواعها . وفوق هذا وذاك ظهرت لنا شدة ولع القوم بتنمية اجسامهم نموًّا صالحاً سليماً لا تشوبهُ علة ولا ينقصهُ كمال . بانت لنا انواع الالعاب الرياضية منزلية وخلوية مما جعلتنا نؤمن ونسلّم بان هؤلاء القوم ما بلغوا تلك الذروة في المدنيــة والحضارة والعلم الاّ بعد ان اصلحوا اجسامهم واينعوها وعرفوا مقــدار الحيــاة وقيمة الصحة . واثبتوا لنا باوضح صورة صدق المثل القائل بان « العقل السليم في الجسم السليم »

كلمة عن حضارة

جزيرة كريت القديمة

هل هي اطلانتيد الاساطير ؟

لشارل عيساوي

ورد ذكر كريت غير مرة في الالياذة والاساطير اليونانية فقد تحدَّث هوميروس عن « كريت ومدنها البائدة » وكان اليونانيون يزعمون ان الاله زفس نشأ في تلك الجزيرة وأقام ابنهُ مينوس حاكماً عليها فكان يقابل الاله والده مرة كل تسعة اعوام ليأخذ عنهُ الحكمة ويعود الى رعيتهِ فيسنّ لهم الشرائع والقوانين. وقد ورد في الاساطير ايضاً ان اثينا كانت ترسل الى كريت سبع فتيات وسبعة فتيان على سبيل الجزية كل تسع سنوات فيبتلعهم مينوتور (الثور الخرافي ذو الجسم البشري) وظلت تدفع هذه الجزية حتى تغلب ثيسيوس البطل الاثيني على مينوتور وقتله

ويقول هيرودوتس ان مينوس (والراجح ان هذا الاسم كاسمي قيصر وفرعون لا يشير الى ملك معين بل كان لقباً يلقب بهِ كل من جلس على العرش) جرَّد على كاميكوس في صقلية اسطولاً كبيراً وجيشاً جراراً فانتهز بعض القبائل اليونانية فرصة غيابه عن كريت ففتحوها واستولوا عليها وانتهت بذلك المدنية الكريتية العظيمة

ويُستَدلّ مما ذكرناه انهُ كان لكريت تاريخ قديم مجيد غير ان الناس لم يكونوا يعرفون شيئاً عنهُ حتى العهد الحديث لما أخذ هنري شليمان الاثري الالماني الشهير يبحث عن آثار المدنية اليونانية في أسيا الصغرى والموره واخذ غيره ينقب في جزيرة كريت ولعلّ أشهرهم السر آرثر جون افانس . وقد رفع هؤلاء الأثريون النقاب عن ادوار الحضارة اليونانية القديمة وتحوُّلها فاتضح منها ان المدنية اليونانية التي كان يعتقد كثير من الناس انها قد نشأت فجأة ، متصلة بالحضارة الكريتية كما ان النهضة الاوربية Renaissance متصلة بالحضارتين اليونانية والرومانية . وهذا مما يثبت ان الطبيعة لا تعمل قفزاً بل يكون عملها تدريجيًّا كما يقول الرومانيون

﴿سكان الجزيرة وتاريخهم﴾ كان سكان كريت قصار القامة طوال الرؤوس نحاف الخصور سود الشعر والعيون سراع الحركة وبالجملة كانوا ينتمون الى الفرع الذي تتألف منهُ الشعوب القاطنة حول بحر الروم اي انهم كانوا يشبهون كل الشبه اهالي سردينيا وكورسيكا وبعض اقاليم ايطاليا . واللقب الذي لقبهم به اليونان وهو «الرجال ذوو الجلود الحمر» يدل بكل وضوح على انهم كانوا سمر الالوان

وأما تاريخهم فليس عندنا ما يساعد على شرحه شرحاً وافياً لاننا لما نتوصل الى قراءة كتابتهم التي كانت ارقى من الكتابة المصرية . ويرجع ذلك العجز الى اننا لم نعثر حتى الآن على اية وثيقة في اللغتين الكريتية والمصرية او الكريتية والفينيقية وعسى ان نظفر فيما بعد بمثل هذا المستند فنتمكن من الاطلاع على اسرارهم . الاّ انهُ في وسعنا ان نقول ان الجزيرة لم تخضع لسلطة كنوسوس اكبر المدن الكريتية الاّ بعد ردح طويل من الزمن يعاصر طرد الهيكسوس من مصر . اما من الخارج فكانت الجزيرة في غاية المناعة . وابلغ دليل على هذا عدم تحصين المدن فيها . ففي كنوسوس مثلاً لم يجد المنقبون سوى برج صغير لا تزيد قيمته الدفاعية عما يكفي لسدّ غارات القرصان . والواقع ان كريت كبريطانيا العظمى كانت تعتمد على اسطولها العظيم وهي اول من اسس دولة بحرية في التاريخ

ولا نعرف حتى الآن كيف انتهت الدولة الكريتية غير ان آثارها تدل على حدوث ذلك عقب كارثة فجائية . والراجح ان « ميكينا » اكبر المستعمرات الكريتية تبرّمت بحكم مينوس المستبد فخرجت عليه وهزمت اسطوله او على الاقل تملّصت منه فاغارت على كنوسوس وحرقتها الاّ ان مصباح الحضارة الكريتية لم ينطفىء حتى فتح الجزيرة الاغريقيون «الدوريون » في سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد

***

﴿ الزي والنساء ﴾ كانت ثياب الرجال في كريت تشبه ثياب معاصريهم اي انها كانت عبارة عن منطقة للحقوين وحذاء من الجلد ولفة على الساق كلفّة الجنود . وكانوا يرتدون في فصل الشتاء لفاعاً واسعاً ويحمون رؤوسهم بعمامة او قبعة تشبه البيرية (beret) . اما النساء فكنّ يلبسنَ ثياباً تشبه كل الشبه ثياب الاوربيات كما يظهر لك في الرسوم التي تصحب هذا المقال

وكان اسلوبهم في البناء يختلف كل الاختلاف عن الاساليب المصرية والاغريقية . فبينما كان المهندسون المصريون والاغريقيون يبنون البيوت طبقاً لطراز معين كان الكريتيون يستغنون عن الانسجام ويتوخون الراحة وكثرة النور والهواء الطلق فلم يكتفوا بطبقة واحدة بل كانوا يجعلون البيت من طبقتين او ثلاث طبقات فيبلغ علوه عشرة أمتار او خمسة عشر متراً . وكانت المنافذ مغطاة بالرق الشفاف

واذا ما تأملنا قصر كنوسوس الكبير الفيناه مؤلفاً من عدة غرف مبنية حول فناءٍ واسع يفصل بينها ممرٌّ مسقوف وعلى ذلك كان البناء شبيهاً بخلية النحل . وكانوا يضيئونه بواسطة مساقط نور (مناور) . وليس هنالك ما يدل على ان الكريتيين كانوا يفصلون غرف النساء عن غرف الرجال مما يدل على حرية المرأة واختلاط الجنسين عندهم . ولكنّ هناك شيئاً اجدر بالشرح من اسلوبهم في البناء وهو انتظام مجاريهم الذي دهش له المنقبون لانهُ فريد في نوعه لا في تاريخ الشرق القديم فقط بل

في اوربا حتى القرن التاسع عشر . فاذا فحصنا ارض الطبقات العليا في قصر كنوسوس وجدناها مثقوبة في غير مكان واحد وليست هذه الثقوب الاّ آبار صغيرة محفورة في الجدران لجمع الماء وصبه في مجارٍ واسعة مبنية من الحجر ومبطّنة بالاسمنت تؤدي الى خزانين كبيري الحجم يسيل الماء منهما الى نهر صغير كان يجري بالقرب من القصر . وكان هذا النظام عينه ينطبق على المراحيض « فكان مينوس يتمتع بميزات صحية لم يعرفها لويس الرابع عشر في فرسايل »

***

وبلغ المهندسون الكريتيون نصيباً وافراً في علم حركة السوائل (الهيدروليكا) بدليل ان الترعة الصغيرة المنحدرة بجانب سلم القصر الكبير ليست مستقيمة بل ملتوية مما يمنع الماء من الجريان بسرعة زائدة والطغيان على السلم . وكانوا ينقلون الماء الى القصر في انابيب من الطين المحروق طرفها الواحد اعرض من الآخر بحيث يمكن ادخال البعض في البعض الآخر. ولكي لا تضغط الانبوبة الضيقة على الواسعة كانوا يلفونها بحلقة خارجية وكانوا يلتقطون طرف الانبوبة العريضة كما (يتضح من الرسم) ثم يلحمونها بالاسمنت

وكانت طرقهم في غاية الاتقان ولم يشهد العالم ما يشابهها حتى ادخل المهندس الشهير مك آدم Macadam طريقته المعروفة في انكلترا ، ويكفي دليلاً على إتقانهم مد الطرقات ان توازن بين الطريق الكريتي الذي يصل قصر كنوسوس الكبير بالقصر الصغير والطريق الروماني على مقربة منهُ . فان الطريق الكريتي يظهر بوضوح امتن واكثر اتقاناً مع ما كان للرومان من شهرة في تعبيد الطرق . ولا تقل شوارع المدن اتقاناً من هذا الطريق اذ كانت محفوفة برصيفين وترعة صغيرة لجمع الماء وتصريفه

﴿ مقام النساء ﴾ كان للنساء مقام سامٍ في كريت وكنّ يتمتعنَ بحرية لم تعرفها الافريقيات والرومانيات . وحسبك دليلاً ان الكريتيين كانوا يعبدون الهة وابنها الصغير ويرمزون بذلك الى خصب الطبيعة . وكانت هيا كل هذه الالهة مكتظة بالكاهنات

اما عن حياتهنّ الاجتماعية فكنّ يشتغلنَ في الحقول ويمارسنَ الصناعات كالرجال ويخرجنَ معهم الى الصيد ويتنزهنَ في العربات دون رفيق او رقيب . واغرب من ذلك انهنّ لم يكتفين بمشاهدة الالعاب الرياضية بل كنّ يشتركنَ فيها فيصارعنَ ويتلاكمنَ ويكافحنَ الثيران مثل الرجال!

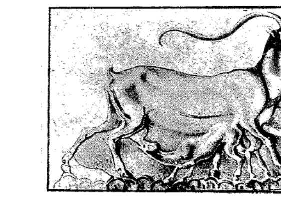
﴿ كريت ومصر ﴾ لم تعش مصر منعزلة عن جيرانها — على الضدّ مما يعتقده الجمهور — بل كانت متصلة كل الاتصال ببلدان الشرق الادنى ولاسيما جزيرة كريت

ولعلّ بعضهم يظن ان المسافة بين البلادين وهى خمسمائة كيلو متر كانت فوق طاقة سفن ذلك العهد . ولكن لا يفوتنا ان فراعنة الاسرة الثالثة ارسلوا اسطولاً الى سوريا وبعثوا حملة تجارية الى الصومال . أوليس معقولاً اذاً ان شعباً بحريًّا كالشعب الكريتي لا يحجم عن قطع المسافة بين

بعض آثار الفن الكريتي



تمثالان من القاشاني للربة ذات الثعبان وجدا في كنوسوس
(عن دائرة المعارف البريطانية)



لوحة من القاشاني وجدت في كنوسوس
(عن دائرة المعارف البريطانية)



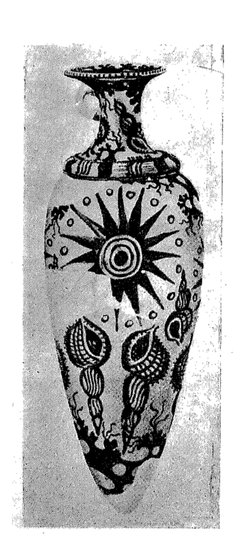
ثوب كريتي قديم للنساء
يشبه ملابس الاوربيات




نموذجان من صناعة الخزف الـكريتية



وعاء عثر عليه في
كنوسوس Cnossus
(عن دائرة المعارف البريطانية)



وعاء وجد في زكرو Zakro
في كريت
(عن دائرة المعارف البريطانية)

جزيرته ومصر وعن ممارسة القرصنة تارة والتجارة البحرية الشريفة اخرى . والظاهر ان التجارة بين البلادين ترجع الى عهد قديم جداً فقد وجدت عدة اوانٍ من النوع الكريتي في قبور بعض رجال الاسرة الاولى . ومن جهة اخرى عثر المنقبون في كريت على عدد يذكر من الطاسات المصرية المصنوعة من الحجر القاسي المسمى بالديوريت . والمعروف عن تلك الطاسات انها لم تصنع الاّ في عهد الاسرتين الاوليين وليس من المحتمل انها نقلت الى كريت فيما بعد لان الشعوب القديمة لم تعلق شأناً كبيراً بتراث اسلافها

وظلت التجارة رائجة بين البلادين حتى انقضاءِ المملكة المصرية القديمة وابتداء الفوضى التي سادت مصر زمناً طويلاً . ولما زالت الفوضى وجلس ملوك الاسرة الثانية عشرة على عرش مصر استؤنفت العلاقات واخذ كلاهما يتبادل السلع . فقد وجد اناء كريتي في ضريح ابيدوس بالقرب من لوحة عليها اسما «امنمحت» و «سنوسرت» وقد سمع الجميع عن الهيكل العظيم الذي بناه امنمحت والمعروف بالتيه المصري labyrinth ومن دواعي الاسف انهُ لم يبق لهُ أثر فلا نستطيع ان نوازن بينهُ وبين الدور الكريتية بيد ان وصف هيرودوتس وغيره من المؤرخين والسيّاح يحملنا على الظن بأن منشئهُ اقتبس رسمه مما بلغه من وصف التيه الكريتي

ولما اراد امنمحت وسنوسرت ان يشيدا هرميهما أنشآ القرية المعروفة بقاهون واستدلّ بعض المنقبين من كثرة الخزف الكريتي في بعض احياء هذه القرية على ان عدداً ليس بالقليل من الصنّاع الكريتيين الماهرين كانوا يشتغلون في بناء الهرمين ووجد في كريت تمثال مصري من النوع الذي يوضع في الرموس يدل على وجود مصريين في الجزيرة

ولما فتح الهيكسوس مصر نقص مقدار التجارة بين البلدين الاّ ان المنقبين وجدوا في كريت غطاء صندوق من المرمر منقوشاً عليهِ اسم « خيان » اشهر ملوك الهيكسوس ويزعم بعضهم ان الهيكسوس فتحوا كريت كما فتحوا مصر ولكن هذا الرأي غير معقول ولا ريب لان مصر لم يكن لها أسطول كافٍ لغزو كريت ولا سيما في ذلك الزمن لما كانت دولة مينوس في اوجها

واخذ المصريون في عهد الامبراطورية يكثرون من الاشارة الى اسم « الكيفتي » . وكثيراً ما تساءل الباحثون ما عسى ان يكون الكيفتي ، ويقول العلامة بيكي ان معنى الكلمة « سكان البلاد التي وراء . . . » وان ذلك يرمز الى كريت التي تقع في آخر « الخضراء الكبيرة » كما كان المصريون يسمون بحر الروم . ومما يرجح هذا الرأي ان الكيفتي كما نراهم مرسومين على جدران قبر «سنموت» وزير الملكة حتشبسوت يشبهون الكريتيين كل الشبه ، وخدم الكيفتي طاحوتمس الثالث خدمات جليلة أهمها نقل الخشب السوري الى مصر . ويقول بعضهم ان اسلوب ميناء الفاروس الشهيرة يدل على انهُ كان للكريتيين نصيب كبير في انشائه وانهم اوحوا بهذه الفكرة الى المصريين . بل ان جميع المهندسين والملاحظين كانوا ولا شك من كريت، وغني عن البيان ان تلك الميناء كانت تعود بالفائدة

على التجار الكريتيين دون غيرهم . لكنهم لم يتمتعوا بها الاّ قليلاً لان كنوسوس حرقت ودمرت في ذلك الحين فانقطعت جميع العلاقات بين مصر وكريت ولم يرد ذكر هؤلاء الآمرة واحدة في التاريخ المصري القديم اذ يقول رعمسيس الثالث انهُ هزم حملة كبيرة وجهت الى مصر وان « الزكارو » — وهم ولا ريب سكان زكرو احدى مدن كريت — كانوا من أنشط العناصر في جيش العدو

﴿ أثر المكتشفات الكريتية في آرائنا ﴾ لقد احدثت التنقيبات التي أظهرت مدنية كريت انقلاباً كبيراً في ما كان العلماء ينسبونهُ الى الفينيقيين من نصيب في تقدم الحضارة اذ كان الجميع يزعمون انهم هم الذين نقلوا المدنية من مصر الى اليونان. ويقول غيرهم ان الفينيقيين استنبطوا الكتابة الحديثة ولم يكن احد يشك انهم اول من صبغ الاقمشة مستندين في ذلك الى ان صبغة مدينة صور كانت مستعملة في جميع بلدان البحر المتوسط . واما الآن فاتضح ان الكريتيين كانوا يزاحمونهم في جميع هذه الميادين . اما فيما يخصّ بالكتابة فقد ظهر ان دور الفينيقيين لم يزد عن تكييف كتابة الكريتيين وجعلها اسهل واقرب منالاً . وهذا مع أنهُ يستحق التقدير إلاّ انهُ ليس بذي شأن خطير اذا ما قابلناهُ بما كان ينسب اليهم

وقد اكتشف في كريت ثلثة مخازن من الصدف الذي كان الفينيقيون يستخرجون منهُ صبغاتهم مما يدل على ان صناعة الصباغة كانت رائجة في تلك الجزيرة ويستنتج مما سبق ان نصيب الكريتيين في تمدين اليونان كان أكبر من نصيب الفينيقيين فيهِ . وهكذا قلبت المكتشفات الحديثة آراءنا رأساً على عقب

﴿ هل كريت هي الاطلانتيد ؟ ﴾ وقبل ان نختم بحثنا هذا لا نرى بدًّا من الاشارة الى نظرية طريفة لا يستطيع الباحث ان يهملها من دون ان ينظر فيها وفي اسانيدها . لقد سمع الجميع عن القارة المسماة بالاطلانتيد التي يقال انها غارت في المحيط الاتلانتيكي . ويقول افلاطون ان صولون تحدث عنها مع كاهن مصري فوصفها له الكاهن وصفاً دقيقاً ينطبق كثيرٌ منهُ على كريت . فمن قرأ وصف الكاهن لغرف الحمام ومكافحة الثيران الخ يتذكر الحمامات الكريتية والالعاب الرياضية فيها واليك وصف الكاهن لموقع القارة المفقودة : —

« انها كانت تقع بيننا وبين عدة جزائر اخرى واذا ما اجتزت تلك الجزائر وصلت الى القارة التي تحيط بالبحر » فهل يمكن ان يكون وصف كريت ادق من هذا ؟ ولكن يعترض البعض ان الكاهن قال ان الاطلانتيد تقع فيما يلي اعمدة هرقل (اي مضيق جبل طارق) فكيف ينطبق هذا الوصف على كريت

والردُّ على ذلك ان كنوسوس زالت من الوجود قبل ان ابتدأ الفينيقيون يرودون البحار ، وقبل ان طاف بحارة «فرعون نكو» حول افريقيا فكانت كريت اقصى ما يعرفونهُ غرباً اذ ذاك . اما في زمن الكاهن اي بعد هذه الرحلات فقد اصبحت أعمدة هرقل اقصى البلاد التي يعرفونها ولما كان اسلافهم يعتقدون ان الاطلانتيد اقصى بلدان الغرب زعموا ان تلك القارة تقع بعد أعمدة هرقل

العلم والسلاح

نظرات في اسلحة الحرب القادمة

نقلها بتصرف : عوض جندي
[عن مجلة العلم العام الاميركية]

صوّر كثيرون من الكتّاب اسلحة الحرب المقبلة وويلاتها صوراً مروعة فتمثّلوا مدناً ضخمة ينهال عليها من الجوّ صيّبٌ من القنابل فيدكها دكاً ، ووصفوا ضحايا الحرب من فريقي المتحاربين وغير المتحاربين على السواء ، يلقون حتفهم بغازات تفوق سمومها مئات اضعاف سموم غازي الخردل والفوسجين[1] . ومثّلوا اهوالها في جراثيم خبيثة تبذر سرًّا وسْطَ جند الأعداء ، وفي دبابات هائلة تسحق تحت اطواقها الدوّارة الوفاً مؤلفة من الخلق

وتخيلوا الاساطيل الجوية الضخمة ، تحسم الحرب قبل ان يتاح لجندي واحد اجتياز الحدود الى بلاد عدوه . وان المتحاربين سيعولون على جنود صناعية (وهي الاجهزة الكهربائية التي تعمل عمل البشر) لكي تقاتل في الخطوط الحربية الامامية بدلاً من الجنود البشرية . ووصفوا الاسلحة الكهربائية البديعة التي تدحر المدرعات الضخمة وتسحق الجيوش قبل اطلاق اية طلقة نارية دفاعاً عن انفسها : فهل اذا نشبت الحرب كانت حقيقةً كما يتصورون؟

يندر بين خبراء وزارة الحربية في واشنطون من يؤيد تلك التخيلات ، ولكنهم يزعمون بان الحرب المقبلة ستكون ، أساليبها ومعداتها مختلفة عنها في الحرب العالمية الغابرة ، ممتازة بالسرعة والمباغتة . ويتوقعون ان تكون الجيوش في الحرب المقبلة اصغر منها في الحرب السابقة مع شدة تدريبها وتزويدها بالاجهزة العلمية من أدوات وأسلحة تيسّر لها زيادة السرعة في تنقلها والشدّة في ضرب عدوّها عند هجومها عليه . اما نصيب الطيارات الحربية في الحروب القادمة فسوف يكون عظيماً

وقد تشعبت آراء الخبراء الحربيين الامريكيين تشعباً كبيراً في موضوع الطيارات ، فضباط اركان الحرب في القيادة العليا يقولون ان الطيارات سلاح خطير مفيد جدًّا بحسبانه سلاحاً واحداً من اسلحة حربية شتّى يراد بهِ مساعدة المشاة على الزحف والظفر ، ومع ذلك فان ضباط الطيران الحربي لا يشكّون في كون تحسن الطيارات المطّرد قداحدث انقلاباً تامًّا في مصير الحرب ، وجعل الجيوش والاساطيل بازائها قليلة الخطر وسوف يكون عليها دون سواها فصل الخطاب في الحروب القادمة

وكان للآراء التي اذاعها الجنرال دوهيه الايطالي الجندي العالم الذي توفي سنة ١٩٣٠ بشأن الحرب الجوية صدًى عظيم عند رجال الحرب الاميركيين الذين يعنون بالجو ، كما كانت موضع اهتمام

---

(١) الفوسجين مزيج من اوكسيد الكربون وغاز الكلور وقد استعمل هذان الغازان في اواخر الحرب الكبرى

غيرهم من اقطاب الحرب في الدول الأخرى . أدرك دوهيه ، لمّا كانت الطيارات لا تزال في دور الاختبار، انها سوف تصير عاملاً جوهريًّا من عوامل الحروب القادمة . وما وضعت الحرب العالمية اوزارها حتى اخذ يبثُّ فكرة استقلال القوة الجوية وتحررها من سيادة القواد البريين والبحريين قائلاً «متى نشبت نيران الحرب ، وجب على كل دولة حشد قواتها الجوية واستخدامها توًّا دفعة واحدة لكي تكفل لنفسها السيادة الجوية . وينبغي تسليح قاذفات القنابل لتستطيع حماية نفسها حينما يهاجمها العدو . أما قوات العدو الجوية فيجب تدميرها بقذف القنابل على حظائرها ومصانعها وهذا خير من مقاتلة طياراته . ومتى احرزت اية دولة السيادة في الجو ، تمكنت من قذف القنابل على مدن عدوها وعلى مراكز تدريب جنوده وعلى طرق النقل فتوهن عزيمة الشعب حتى تحمله على التمرد على الحرب». ومع ان الدول لم تتبع ارشادات دوهيه برمتها . بيد ان ايطاليا وبريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا والمانيا قد نفذت رأيه الخاص باستقلال القوة الجوية عن السلطتين البرية والبحرية. اما الولايات المتحدة واليابان فهما الدولتان الوحيدتان الحربيتان اللتان تخضع قواتهما الجوية لسلطتي الجيش والاسطول وتدل الانباء الواردة من عدة دول على ان خبراءها الحربيين يخشون الهجوم الجوي على حواضرهم . وقيل ان في مدينة لندن مكمناً عميقاً انشىء تحت سطح ارضها في مكان سري محظور البوح به ، لا تؤثر فيه القنابل ولا الغازات الخانقة ، سيجعل مقرًّا لوسائل الدفاع التي تتخذ لحماية الحاضرة البريطانية من هجوم الاعداء . وقد شرعت السلطات الحربية والبلدية في طوكيو وغيرها من المدن اليابانية في اتخاذ الوسائل الكفيلة بصون مصانع توليد القوة الكهربائية وموارد المياه ونحوها من المرافق الوطنية الجوهرية من الغارات الجوية . وتجدُّ فرنسا في اختراع احكم الاساليب لحماية سكانها من الغارات الجوية . ولا يرتاب ضباط سلاح الطيران في كون الغارات الجوية الشعواء على الحواضر ستكون مظهراً من مظاهر الحرب القادمة في مطلعها . ويؤكدون ان باريس وبرلين ولندن وروما وطوكيو جميعاً قريبة المنال ممن يناوئها من قواعده الجوية . ويرون ان اية غارة جوية على مدينة من المدن الكبرى قد لا تدمرها بأسرها بوابل من القنابل الشديدة الانفجار وربما لا تعدو مناطق محدودة . ولكنها تتوخى في الغالب شلَّ الحركات الحربية التي تدور فيها . ويصرّ ضباط أسلحة الطيران على القول ان الغارات الجوية التي من هذا القبيل اذا شُنَّتْ على منطقتين او ثلاث مناطق منعزلة في مدينة كنيويورك او لندن لا بدّ أن تثبط عزائم السكان تثبيطاً تامًّا ولا يبعد ان تضرم النار في المدينة برمتها وتحرقها حرقاً

وما من خبير حربي يرتاب في امكان حشد الطيارات للغارات الجوية في كثير من الاحوال على المدن العظمى، ويندر منهم الذي يظن انذلك لن يحدث. بيد ان كثيرين من المعنيين بدراسة الحرب الحديثة يستبعدون تحقق نبوءات الخبراء الذين يؤولون التأويلات الخاصة بالحرب الجوية وما يعقبها من الخراب وينكرون شدة تأثيرها في عزائم الجمهور غير المحارب ، تأثيراً يوجب اهتمامهم بها مستندين

في ذلك الى ان الغارات الجوية في الحرب العالمية مع عنفها أثبتت ان غير المحاربين قلما يذعرون منها

ومع ذلك فقد زيدت أحجام القنابل الجوية منذ الحرب العالمية زيادات مفرطة . والمعروف ان أضخم قنبلة القيت فيها على مدينتي لندن وباريس لم تزد على ٦٦٠ رطلاً . اما الآن فان خبراء الذخائر الحربية يجربون صنع قنابل زنة الواحدة طنان . وذلك عقب ظفرهم بجعل الوزن القياسي للقنبلة طنًّا واحداً . فاذا سقطت قذيفة منها على الارض فانفجرت ، حفرت فوهة قطرها ٥٧ قدماً وعمقها ١٩ قدماً . ولكنها لاتستطيع التغلغل في المباني الحديثة المشيدة بالفولاذ والبرقاء (الاسمنت المسلّح) . على ان الرعب الذي يستولي على سكانها من صدمة القنابل قد يقضي عليهم جميعاً ، وان بقيت الصروح قائمة . ومما لا جدال فيه انهُ ليس لدولة من الدول في الحالة الراهنة طيارات حربية كافية لحمل القنابل الشديدة الانفجار التي تستطيع بها تدمير مدينة كبيرة بحذافيرها . الاّ ان القنابل المحرقة ولا سيما المحتوية منهــا على « الترميت » اعظم خطراً من سواها . والترميت خليط من مسحوق الاليومنيوم واوكسيد الحديد . فاذا رفعت درجة حرارة جانب صغير من حشوة القنبلة بوساطة الكبسولة التي تشعل البارود في الخرطوشة ، تولد تفاعل شديد يصهر الحديد فيسيل كأنهُ سائل متوهج . واذا خلط الترميت بمادة شديدة الانفجار ، استطاعت القطرات المصهورة المنطلقة منهُ ، اختراق الفولاذ ، فالطيارات التي تلقي قنابل ترميت من زنة ١٠٠ رطل على احدى المدن ولا سيما في يوم عاصف تحدث حرائق شتى تعجز جميع مضخات الحرائق فيها عن مكافحتها

اما استعمال الغاز السام في القتال فمحظور وفقاً للاتفاقات الدولية .فاذا خطر لاحدى الدول نقض عهدها والاقدام على استعماله كان سلاحاً خطيراً جدًّا في الحروب المقبلة

ولكن يظهر ان الفائدة المعزوّة اليهِ مبالغ فيها،لان خبراء الحرب في الولايات المتحدة الامريكية يقولون إنهُ لم يخترع غازٌ سامٌّ جديد من عهد انتهاء الحرب العالمية الى الآن ، وما زال غاز الخردل اشد انواع الغازات الفتاكة التي يحتمل استعمالها كسلاح كيميائي في ميادين الوغى

ومما لاريب فيهِ أن غاز الخردل سيستعمل في الاغارات الجوية على المدن . فتتمكن طيارة واحدة من حمل مقدار منهُ يكفي مثلاً لقتل سكان مدينة نيويورك على بكرة أبيهم اذا استهدفوا لاستنشاقه وذلك متعذّر بفضل الاحتياطات التي شرعت الدول في اتخاذها على ما جاءَ بهِ الانباء العامة

وقدّر الباحثون غاز الخردل الذي استهلك في الحرب العالمية باثنى عشر الف طن ، قتل بها ٦٠٠٠ نفس واصيب ٣٥٠٠٠٠ نفس باصابات مختلفة . اما الآن فلا يمكن قتل جندي واحد بأقل من طنين من اجود انواع ذلك الغاز الفتّاك في المتوسط . لأنهُ اذا دُرِّب اهل مدينة من المدن على ملازمة ثبات الجأش عند غزوهم من الجوِّ ، واستعمال الوسائل الواقية — والمعروف ان سكان معظم المدن الاوربية يُدرَّبون كل يوم على اساليب توقّيها — كانت نتائج الغاز الخردلي الذي تطلقه الطيارات من قنابلها طفيفة ، وضحاياه يسيرة . وذلك بأن يختبيء السكان في الطابق الثاني من

دورهم لان غاز الخردل يستقر على مقربة من سطح الارض فلا يلحقهم منه ادنى ضرر ولا يخرجوا حتى يُغسَل عن سطح الارض وينزح الى المجاري العامة وذلك بصب المياه الغزيرة

وثمة غول آخر طالما وجف منهُ الكتّاب الذين يبحثون في احوال الحرب القادمة ، ونعني بهِ جراثيم الامراض التي تنثرها الطيارات على عدوها . وفيها يقول اطباء الجيش الذين توفروا على درس هذا الموضوع « ان الدولة التي تتسلح بهذا السلاح لا تجني منهُ سوى نتائج زهيدة لان الحرارة تقتل البكتريا بسهولة فلا يتيسر ادخالها في القنابل او القذائف. ثم ان الوسائل الصحية الحديثة قد تقضي على تلك الجراثيم . واذا اصبحت الامراض وبائية عادت بالوبال على قاذفها لا محالة اذ يستحيل حينئذٍ وقف انتشارها بين قوات الدولة التي سبق أن اطلقتها من عقالها — والجراثيم لا تعرف العدو من الصديق»

وزعموا ان الطيارات في وسعها قذف السموم الزعافة على مدن الاعداءِ وهذا معقول . وسمّ النقانق (بوتيلينس توكسين) هو من اشدّ انواع السموم المعروفة فيتسنى لطيارة كشافة واحدة حمل مقدار كاف منهُ لقتل كل مخلوق على سطح البسيطة بشرط ان يوجَّه وسقها الفتاك الى ضحاياهُ وهذا مستحيل في خلال الحرب لشدة احتياط الاعداء فان اطلق خبط عشواء على احدى المدن كان تأثيره ضعيفاً

ولما كانت دولة الولايات المتحدة الامريكية تبعد ٣٠٠٠ ميل عن اقرب الدول المرهوبة الجانب التي قد تنابذها من ناحية المحيط الاطلنطي و ٦٠٠٠ ميل من ناحية المحيط الهادىء ، فمشكلة دفاعها الجوي عن كيانها بازاء اعدائها الاقوياء اسهل بمراحل منها عند سائر الدول التي يستطيع عدوها الاغارة على حواضرها ومراكزها بعد طيرانه ثلاث ساعات من بلاده . ويرى بعض ضباط سلاح الطيران انهُ ستصنع طيارات تقطع ٧٠٠٠ ميل حاملة طنًّا من القنابل . هذا مع العلم بأن اقصى ما تقطعهُ الطيارة الحربية الآن ٩٠٠ ميل . فاذا سوّلت لاية دولة اسيوية او اوربية نفسها مهاجمة دولة الولايات المتحدة الامريكية من الجو ، وجب عليها في تلك الآونة نقل طياراتها ببواخر نقالة على مقربة من شواطئها ، بيد انها لا تتمكن من ذلك الاّ اذا تيسّر لها تدمير الاسطول الاميركي او حصره على الاقل

ويرى خبراء الخدع الحربية الجوية امكان تعطيل قناة پنَمَا بغارة جوية بحرية قبيل اعلان الحرب رسميًّا على دولة الولايات المتحدة . وبذلك يسهل ترك اسطولها عاجزاً لتعذر الاتصال بين قسميهِ الغربي والشرقي . وهذا مما جعل ضباط سلاح الطيران في دولة الولايات المتحدة يصرون على انشاءِ وزارة ثالثة للدفاع الوطني خاصة بالطيران . ويقولون انه يكفي لحماية ساحلي دولتهم من الغارات الجوية ومن اي جيش بري يهاجمهم ، قوة جوية مستقلة ذات قاعدة برية تؤلف من ٦٤٠ طيارة قاذفة للقنابل و ٦٤٠ طيارة طوافة (عسس) و ٢٠٠ طرادة جوية مدججة بمدافع ضخمة يديرها عشرة رجال

ومع ان خبراء الجو يكادون يحتقرون الدفاع البريّ ضد الهجوم الجوي ، نرى جنود القوة البرية واثقين بكون المدافع المحسنة التي اخترعت في بضع السنوات الغابرة لمقاومة الطيارات لتسقطنّ كثيراً من الطيارات عند ما تصوب اليها قذائفها . ومنها احدث انواع المدافع المقاومة للطيارات

وهي من عيار ٣ بوصات وتطلق مقذوفاتها رأسيًّا الى ارتفاع ٩٠٠٠ ياردة ، وأفقيًّا الى مدى ١٠٠٠٠ ياردة . فاذا وضعت بطارية مؤلفة من اربعة مدافع من ذلك النوع ، وقام بتسديد نارها مدفعي كهربائيّ robot كان ميسوراً لها اطلاق وابل من النار مؤلف مائة قنبلة في الدقيقة زنة الواحدة ٢٦ رطلاً وتشعل بفتيل ميكانيكي . ومن المرجح ان كل طيارة تحوم في دائرة خمسين ياردة من موضع انفجار احدى هاتيك القنابل ، لا مناص لها من التعطيل — ذلك لأن المدافع آنفة الذكر تسدد مقذوفاتها بالقوة الكهربائية بجهاز بعيد هو كناية عن آلة ستيريوسكوبية stereoscopic (مجسمة للصور المزدوجة) مضبوطة جدًّا يتمكن بها المراقبون من اتباع مجرى الطيارات السريعة في كبد السماء . وما على المدفعية (من البشر) الاّ تركيب القنابل وحشو مدافعهم بقنابلها . فاذا عسعس الليل استعان المراقبون بالمصابيح الكهربائية (الكشافة القوية جدًّا) على رؤية الطيارات المحلقة في الجو على ارتفاع ١٥٠٠٠ قدم . ثم ان (اجهزة الاصغاء) تمكن الجنود المناهضين للطيارات من سماع اصداء الطيارات المغيرة عليهم وهي على بعد عشرة اميال عنهم[1] . فتهيئ الفرصة لحاملي المصابيح الكشّافة وللمدفعية لاعداد القوة لمناوأتها . وقد اخترعت مدافع رشاشة (مدافع آلية سريعة الطلقات) كبيرة العيار (قطر الفوهة) للدفاع ضد هجوم الطيارات المنخفضة الارتفاع

ولا جرم ان المدافع العصرية المقاتلة للطيارات تؤثر تأثيراً أشد منهُ في الحرب العالمية التي كانت تصيب الهدف اصابة واحدة من كل ٦٠٠٠ طلقة . وأيًّا كان تأثيرها ، فما من دولة يتسنى لها اعداد المدافع الكافية لدحر الطيارات عن كل مدينة تستهدف لغاراتها . لأن معظم تلك المدافع سيخصص للدفاع عن القواعد الجوية الخطيرة وغيرها من مواقع الحركات الحربية المهمة

ويكاد يكون محققاً ان السيادة الجوية هي أولى الغايات التي تتوخاها الدول القوية المتحاربة عند نشوب الحرب ، فان فازت بها ، سهل عليها اطلاق القنابل على مطارات عدوها اطلاقاً عنيفاً وقذفها على مصانع ذخيرته ووسائل نقل جنوده ومعداته ثم على مدنه . فاذا أمكن للعدو اعداد قوة جوية تضارع قوة الدولة المسيطرة على الجو من قبل ، فقامت بينهما ملحمة ، فلا بدّ ان تكون نتيجتها حدوث هدنة وقتية بين المتحاربين ، يعقبها ادوار القوات البرية حتى تضع الحرب أوزارها

أما ضباط الجيش البري الذين لايشاركون البتة رجال الاسطول الجوي في نزعاتهم القاضية باستقلال الاسطول الجوي فينوهون بفوائد الطيارات كمساعد للجيش البري اذ تقوم بالاستطلاع والدلالة على مواقع نيران مدافع العدو وبمهاجمة الطيارات المنخفضة وذلك بالمدافع الرشاشة والقنابل الصغيرة التي تطلقها على الفرق البرية وبقيامها أيضاً بالقاء القنابل على المراكز الخطيرة للمواصلات في منطقة مساحتها ٢٥٠ ميلاً

وما من قائد عام لجيش من الجيوش البرية يقتحم القتال الاّ اذا كان تحت امرته طيارات كافية للهجوم ، واخرى لاقتفاء آثار عدوه ، وغيرها للمراقبة ، وسواها لقذف القنابل

(١) راجع مقالنا « احدث معجزات الصوت » في مقتطف اكتوبر ١٩٣٤

وقد احدثت المحركات الميكانيكية التي يتولد بخارها من احتراق البنزين ، انقلاباً في حرب الجو كما احدثتهُ في غيرها ، فاصبح الخبيرون موقنين بان الحرب القادمة سوف تكون حرباً قوامها السرعة وعتادها المحركات الميكانيكية . فلن تكون فيالقها وئيدة الحركات بل جيوشاً شديدة السرعة بديعة الحركات ، تقلها سيارات سريعة الى ميدان القتال حيث تقوم باطلاق المدافع اطلاقاً عاجلاً مركبات ذات محركات ميكانيكية وحينئذٍ يبطل استعمال مركبات النقل التي تجرها الخيل والبغال . اما الفرسان اذا استخدموا وقتئذٍ — وهذا امر مشكوك فيهِ — فينقلون وخيولهم في سيارة الى المواقع التي يجب ان يمتطوا فيها جيادهم

واذ ذاك يتيسر للجنود مهاجمة بعضها بعضاً مهاجمة أشد منها في الحروب الغابرة لان الاسلحة التي اخترعت أو تم تحسينها منذ سنة ١٩١٨ تمكن الوحدات الحربية الضئيلة من اطلاق نيران حاصدة . وقد اشتهرت في دولة الولايات المتحدة منذ سنوات بندقية (سبرنجفيلد) بكونها اصلح بندقية حربية في العالم . اما الآن ففقدت نسياً منسيًّا لانها تطلق على الهدف ١٥ طلقة في الدقيقة . وهذا لا يحسب اطلاقاً سريعاً في الحروب العصرية . ولذلك اخترع الاميركان سلاحاً جديداً لمشاة جيشهم وهو بندقية جرند وعيارها ٣٠ ./٠ من البوصة وهي نصف اتوماتيكية وتطلق ٦٠ طلقة في الدقيقة . وقد سلحت سائر الدول جنودها المشاة بمثل هذه البندقية نصف الاوتوماتيكية . وتبذل الدول الآن جهدها في اتمام صنع المدافع الرشاشة الخفيفة التي تبرّد بالهواء لتحل محل المدافع الثقيلة المستعملة للآن التي تبرد بالماء

وقد تبين ان الخبراء الذين تنبأوا بأن الدبابات سوف تصير بمثابة مدرعات برية رهيبة كانوا مخطئين في مزاعمهم خطأً فاحشاً . وكان ثقل الدبابة في الحرب العالمية ٣٥ طنًّا . وكانت سرعتها لا تزيد على ثلاثة اميال في الساعة . وكانت اطواقها الدوارة تتكسر بسهولة وكان ما يضيع منها في الخنادق وتتعطل محركاته اكثر مما كانت تعطله نيران الاعداء . اما الدبابات العصرية فأخف بكثير من العتيقة واقوى منها على اطلاقها للنيران وسلاحها افضل من سابقاتها ثم ان استخدام الراديو مما يجعل قوتها الحربية ذات شأن عظيم . فاذا استعملت الدبابات عجلاتها في سيرها على الارض ، قطعت اربعين ميلاً في الساعة . واذا سارت على اطواقها الدوارة التي يمكن تثبيتها فيها في دقائق قليلة ، كان في مكنتها قطع ٢٥ ميلاً في الساعة في الريف . ولا بدَّ من تسيير الدبابات مسرعة لكي يتاح الانتفاع بها والمعروف انهُ اذا اطلقت الجنود المشاة القنابل التي تزن رطلاً مباشرة من مدفع نصف اوتوماتيكي ، تسنى لها تعطيل اية دبابة من الدبابات المألوفة . وان الرصاص الذي يطلق من المدافع الرشاشة عيار ٥٠ ./٠ من البوصة (وهي ايضاً من سلاح المشاة) يخرق درعها . وما زال الخبراء يتنبئون بأن الاجهزة الكهربائية التي تعمل أعمال البشر، سوف يكون لها قسط عظيم في الحروب القادمة

[البقية في باب الاخبار العلمية]

السيكلوجية الحديثة

التحليل النفساني — تقدير عام

ليعقوب فام

لقد امعنا في نقد نظريات فرويد حتى انهُ قد يتبادر الى ذهن البعض اننا لا نرى عليها مسحة من الحق والصواب ، والواقع بخلاف هذا على خط مستقيم ، لاننا نزعم ان فرويد من اركان السيكلوجية الحديثة ، وان هذا العلم لا يستقيم لانسان مطلقاً قبل ان يدرس الفرويدية دراسة عميقة منظمة ويضعها في المكان اللائق بها بين المذاهب الاخرى

فكما ان النظرية المسلكية فتحت امامنا الابواب لتربية اطفالنا ، وبينت لنا الطرق التي نتحكم بها في تصرفات الافراد ، كذلك اعانتنا سيكلوجية فرويد على فهم مشكلات الفرد النفسية ، ونشوء التعقيدات في الحياة العقلية ، وكيف نتجنب كل هذا قبل ان يحدث ، ثم كيف نعالجهُ بعد ان يصاب بهِ الانسان

***

قلنا في مقالاتنا السابقة ان التحليل النفساني نبت في الاصل في ميدان الطب ، اي انهُ ظهر على انهُ علاجٌ بعض الامراض المعينة التي لم تنجع فيها الادوية والعقاقير لانها لم تكن تتصل باعضاء الجسم او بوظائف تلك الاعضاء ، وانما هي عقد ومشكلات نفسية انتابت نفس الانسان ففقدته توازنهُ وجعلت سلوكه مغايراً لسلوك الآخرين ، مغايرةً جعلت الناس ينظرون الى ذلك الفرد على انهُ غريب عنهم في تفكيره ، لا ينظر الى الاشياء كما ينظرون ولا يستجيب لها كما يستجيبون ، بحيث ان الفرق بينهُ وبينهم لم يكن يعتبر لمزية له بل لنقص فيهِ ، وبحيث ان الناس لا يستريحون الى الجلوس اليهِ ولا هو يستريح الى الحديث معهم، هو يظن بهم السوء ، ويحمل تصرفاتهم معهُ على غير محملها ، فكل حركة منهم تكون موجهة اليهِ بشكل من الاشكال ، وكل تصرف منهُ لا ينظرون اليهِ على انهُ تصرف انسان مالك لزمام نفسه يقصد ما يقول ويعني ما يفعل

شخصٌ هذه حاله كان من الصعب فهم اصل الداء فيهِ ، هل نشأ من اختلال في احد اعضاء جسمهِ ، او من عجز بعض تلك الاعضاء عن القيام بوظيفتهِ خير قيام ؟ هل مسَّهُ جن ، ام ارتجَّ

عليهِ مخه ، وانحرف عقله فصار بعيداً عن ان يفهمهُ الناس وبعيداً عن ان يفهم الناس ؟ ومم نشأ هذا المرض ؟ هل هو شيء وراثي منطوٍ في خلايا الجسم يظهر عند سن معينة ، او قد نشأ من الطعام ، او العمل او الاجهاد ؟ ثم كيف علاجه وما السبيل الى التغلب عليهِ ؟

***

ففضل التحليل النفساني على السيكلوجية الحديثة هو انهُ انار لها الطريق في هذا الموضوع بالذات . فوجهها الى السبب الاصلي في نشوء هذه الحالات النفسية المعقدة ، وكيف ان تعدد الدوافع والمنازع في النفسية الانسانية ، وتسابقها الى السيطرة والتفوق ، وكبتها بعضها لبعض ، واستعانة بعضها على البعض بالاوضاع الاجتماعية ، وعجز الانسان عن حفظ التوازن بينها مع مراعاته للعرف ولما تتطلبه منهُ الحياة الاجتماعية ، كيف ان جميع هذه العوامل مجتمعة تفقد الانسان توازنه العقلي ، فيصبح عاجزاً عن وضع كل شيء في موضعه من النظام النفسي ، ويفلت من يده زمام نفسه فتتبوزع عواطفه ونوازعه ويمرض وتنتابه تلك الحالات التي قدمنا ذكرها

وبعبارة اخرى استطاع هذا المذهب السيكلوجي ان يفتح امامنا باباً واسعاً للاحتمالات . نعم قد يخطىء هذا المذهب في تشخيص حالة بذاتها ، قد يأخذ بأسباب وفروض بعيدة الاحتمال متعذرة الوقوع لسبب من الاسباب ، قد يزعم ان الاصل في مرض هذا الفرد شيء معين ، وقد يكون هذا ابعد الاشياء عن ان يكون السبب الحقيقي لمرض ذلك الفرد ، ومع ذلك فان الاتجاه العام لهذهِ النظرية في تشخيص الامراض النفسية اتجاه سليم قريب من الصواب القرب كله ان لم يكن هو عين الصواب ، وبعبارة اخرى ان التحليل النفساني كشف لنا عن حقيقة ثابتة وهي ان منشأ العقد النفسية انما يكون من الالتواء في النوازع والاختلاط في المشاعر ، وان حوادث معينة في حياة ذلك الفرد هي السبب الاصلي في هذه المشكلات النفسية

***

لقد كشفت هذه النظرية عن اصل الداء بوجه عام ثم تقدمت بالعلاج الصحيح بوجه عام ايضاً . صحيح انها تزعم ان الاصل في هذه الامراض انما هو المسائل الجنسية وصحيح ايضاً اننا نختلف معها في هذا ، ولكنه صحيح ايضاً انها سعت الى الداء في منبت الداء ، اي انها دخلت الى قرارة النفس لتكشف عن علل النفس ، فهي قد اتجهت الاتجاه الصواب وان كانت اخطأت في بعض التفصيلات بعض الخطأ لا الخطأ كله

ذلك لاننا مهما حاولنا لا نستطيع ان نقلل من خطر المسائل الجنسية في حياة الفرد ، لا بل قد نغلو نحن في ثورتنا على هذه النظرية فنقع في شر مما وقعت فيه ، اي اننا نذهب من النقيض الى النقيض فنتعامى عن خطر هذه المسائل في حياتنا جميعاً ، فالاصل في العقد السيكلوجية مشكلات نفسية قد

تكون جنسية قبل ان تكون شيئاً آخر فلا نستطيع ان نعطي حكماً عامًّا شاملاً ينطبق على جميع تلك المشكلات ، وانما نستطيع ان نبحث كل حالة بحالتها ، وقد نرى أثر المشكلات الجنسية في كثير من الحالات وقد لا نجد لها هذا الأثر في غيرها

وملخص القول في هذا ان هذه النظرية قد خدمت السيكلوجية الحديثة خدمة جليلة . خدمتها في الاتجاه العام الذي اتجهته للكشف عن الاسباب والعلل . ثم خدمتها في توكيدها المسائل الجنسية ، التي كدنا ان نتعامى عن أثرها تمشياً مع الاوضاع الاجتماعية ، الى حد غير معقول

***

لم تقف خدمة هذه النظرية عند حدّ الكشف عن الاسباب المباشرة في المشكلات النفسية وانما تقدمت ايضاً برأي في علاج هذه الحالات . علاج أقل ما يقال فيه انهُ صواب في اتجاههِ العام ، وان كان خاطئاً في بعض الحالات بذاتها . وشأن فرويد في هذه المسألة شأن الطبيب الذي يفحص المريض ، ويشخص المرض ويعطي الدواء . قد يخطىء هذا الطبيب في تشخيص المرض وقد يخطىء في وصف الدواء ، ومع هذا كله وبرغم هذا كله فالنظرية الطبية سليمة في اتجاهها العام ، سليمة في فلسفتها ؟ وان كانت تخطىء في التفصيلات

اذا اختلطت النوازع النفسية في الانسان ، فقد توازنه الى حدّ معين ، وأصبح عاجزاً عن ان يأخذ بزمام هذه النوازع والدوافع ويوجهها الى مصلحة الكائن كله ، وبمعنى آخر يخرج الأمر في نفسه عن ارادته فيتصرف بنفسه تصرف انسان غير مسئول من جهته وعاجز عن توجيه مشاعره توجيهاً منظماً مقصوداً يرمي الى غاية معينة ، ولا يهم سواءٌ أكان هذا العجز عامًّا ام مقصوراً على ناحية بذاتها من نواحي النفس

هذا الانسان بالطبع مصاب بمرض نفسي ، ووظيفة السيكلوجية ان تكشف عن أصل الداء ، ثم تحصره في دائرته ، وتبين موطنه على التحقيق ، وبعد ذلك تتقدم بالعلاج . فالنظرية التحليلية (الفرويدية) تزعم ان منشأ الداء او موطنه هو المسائل الجنسية في معظم الحالات ونحن بالطبع نعترض على هذا ونزعم ان منشأه قد يكون شيئاً آخر

ثم تصف الفرويدية الدواء على هذا الوضع . من حيث ان الاصل في الداء هو اصطدام الدوافع الجنسية بالاوضاع الاجتماعية ، ولما كان الفرد يسقط أمام هذه التجربة ويستكين ويغلب على أمره ، فالمشكلة لا تنشأ من السقوط وانما تنشأ من الشعور الحاد بالذنب وبالخطيئة وثبات الانسان على هذا الشعور واستمراره في التشبث بهذا الاحساس — الاحساس بالخطيئة — وأخذه نفسه باللوم والتعنيف ، واحساسه بأنه هالك لا محالة وان السماء والارض تألبتا عليهِ — هذا الاحساس في مجموعه هو منشأ الداء وليس الاستجابة للغريزة الجنسية نفسها

وبعبارة اخرى تزعم هذه المدرسة ان الاوضاع الاجتماعية والخلقية والدينية تضغط على نفس الانسان وتقف في وجه هذه النفس فتزحزحها عن موضعها وتحدث خللاً في توازنها وتفقدها الثقة والاطمئنان بأنها مثل باقي النفوس الآدمية ، والعلاج في هذه الحالة بالطبع يكون في إرجاع الثقة الى النفس وفي تمكينها من استرجاع توازنها والاطمئنان الى انها بخير وانها تستطيع ان تتصرف في شؤونها مثل النفوس الأُخرى

***

بغض النظر عن الخلافات في المسائل الجنسية فان التحليل النفساني فتح لنا باب العلاج على مصراعيه ، فأصبح من السهل على كل مدرسة ان تتبع وسائلها في العلاج ، والوسائل جميعها متشابهة وهي الوصول بالمريض الى حالة معها يرى الداء كما يراه الطبيب ، يراه على حقيقته من غير التواء او تشويش في التقدير والحكم . يراه على حقيقته لا كما كان يراه بعين المريض المضطرب المشوش الفكر الموزع القوى

هذه النظرة في ذاتها نظرة سليمة بغض النظر عن منشأ الداء وهل هو من الغرائز الجنسية او من غيرها . المهم في الأمر ان ينظر المريض الى دوافعه النفسية نظرة سليمة ، عاقلة لا تشوبها الاضطرابات النفسية ، فاذا كان سبب الداء حادثة معينة تغيب عن عقله ، يحسن بهِ ان يعرف تلك الحادثة الاحوال المحيطة بها جميعاً ، واثر هذه الحادثة في اضطرابه النفساني

وهنالك خدمة اخرى قدمتها نظرية التحليل النفساني للسيكلوجية في مجموعها وهي انها كشفت لنا عن السبيل الى تجنب الارتباكات النفسية اذا ما اهتم المربون بالتطور النفسي في اطفالهم ، فحموا هؤلاء الاطفال من الاختبارات القاسية الشديدة التي تترك اثراً عميقاً في زوايا النفس ، كأن يعرّضوا لما لا قبل لهم باحتماله من الاضطرابات النفسية ، كالخوف الشديد ، او الحزن العميق المكتوم ، او التعرض للحوادث الجسام التي قلما تمضي دون ان تترك وراءها آثاراً لا تمحى

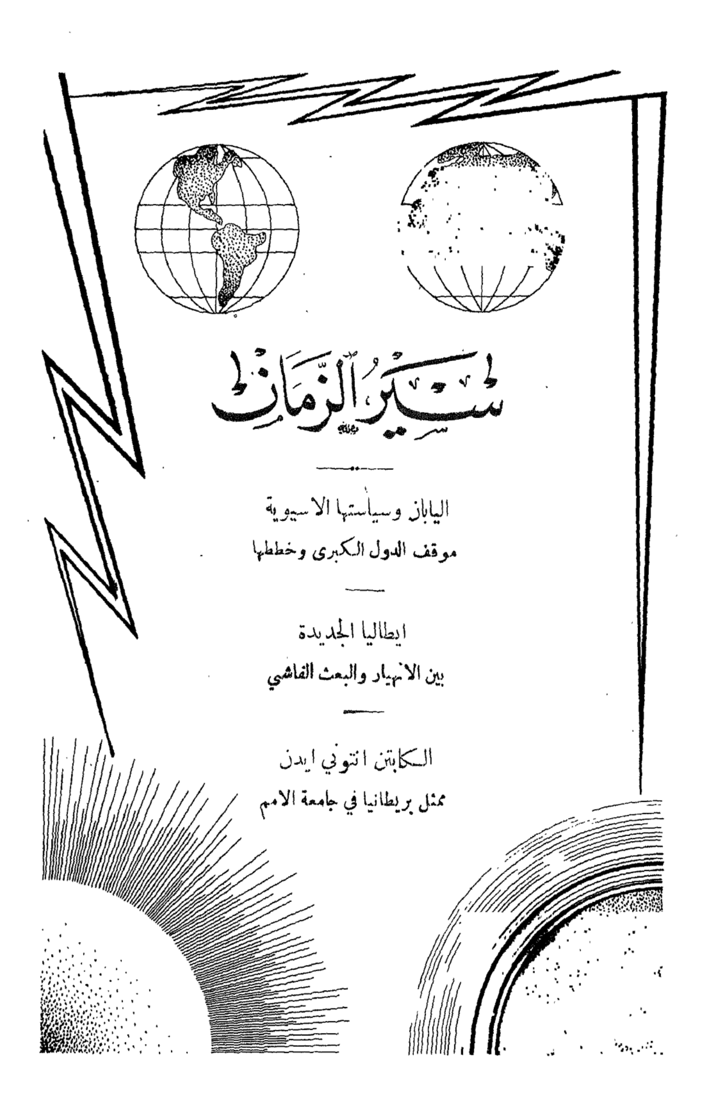
***

وملخص القول ان النظرية التحليلية قدمت للسيكلوجية ثلاث حقائق مهمة لهذا العلم

(١) كشفت عن العلة في كثير من الامراض النفسية ، ووجهت السيكلوجية الوجهة الصحيحة في هذا الميدان

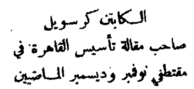
(٢) تقدمت بعلاج نافع لبعض تلك الحالات فتقدم العلم خطوات واسعة في هذه الناحية

(٣) اعانتنا الى حد كبير في الكشف عن طرق الوقاية من بعض الامراض النفسية —

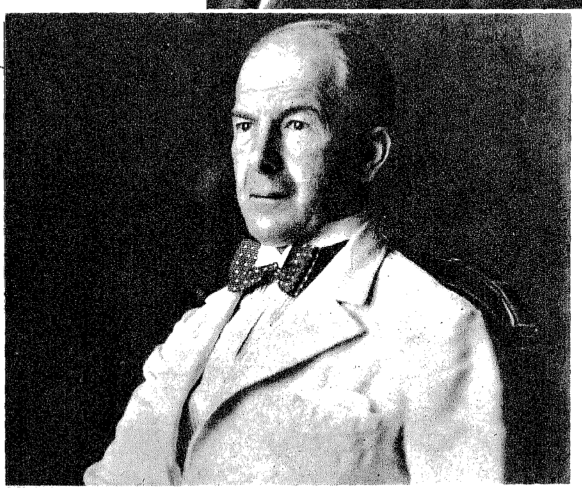

سير الزمان
اليابان وسياستها الاسيوية
موقف الدول الكبرى وخططها
ايطاليا الجديدة
بين الانهيار والبعث الفاشي
الكابتن انتوني ايدن
ممثل بريطانيا في جامعة الامم



صاحب السعادة امين باشا يحيى .
احد كبار رجال المال والاعمال في
مصر راجع « صورة قلمية » من
صدر باب المراسلة



الكابتن كرسويل
صاحب مقالة تأسيس القاهرة في
مقتطفي نوفبر وديسمبر الماضيين



اليابان وسياستها الاسيوية

موقف الدول الكبرى وخططها

اعلنت اليابان خطتها الاسيوية الجديدة بلسان احد ممثلي وزارة الخارجية فيها في ١٧ ابريل سنة ١٩٣٤ وتلا ذلك تصريحات في هذا الصدد لممثلي اليابان الرسميين في وشنطن وبرلين وجنيف . وهذه التصريحات تنطوي على القواعد الآتية :

اولاً : تعتبر اليابان نفسها الدولة ذات الشأن الاول في المحافظة على السلام في شرق آسيا وبوجه خاص في الصين

ثانياً : لقد انقضى العهد الذي كانت فيه الدول او جمعية الامم تستطيع ان تمارس خططها بقصد استغلال الصين

ثالثاً : ان اليابان تنوي ان تقاوم في المستقبل اي عمل في الصين تحسبهُ ينطوي على خطر وتقرير ذلك يعود اليها وحدها

وطوكيو تعلق شأناً خطيراً بالقاعدة الثالثة ولذلك عني سايتو سفير اليابان في وشنطن بتفسيرها فقال : «ان اليابان يجب ان تفصل فيما هو خيرٌ للصين» ثم اقترح على اصحاب المصالح الاجنبية الكبيرة في الصين ، «ان يأخذوا رأي اليابان قبل اقدامهم على مشروعات جديدة هناك»

وما كادت هذه التصريحات تذاع حتى اجمع رجال السياسة وكتّابها في مختلف اقطار العالم على انها اهمّ تصريح خاص بالصين صدر من عهد طويل فدهشوا لما انطوى عليهِ من القواعد الشاملة وللقالب الذي افرغ فيهِ

***

وفي ٢٩ ابريل سلّم السفير الاميركي في وشنطن مذكرةً من حكومتهِ في صدد هذه التصريحات الى هيروتا وزير خارجية اليابان . وقد بينت الحكومة الاميركية في مذكرتها ان علاقة الولايات المتحدة الاميركية باليابان ، بل ان علاقة الصين باليابان وبسائر الدول ، خاضعة لمبادئ معترف بها في القانون الدولي ولاتفاقات خاصة تتضمنها معاهدات مبرمة ، وان هذه المعاهدات تنصُّ على طرق تعديلها او الغائها بوسائل اتفقت عليها الدول المتعاقدة . ثم بيّنت المذكرة الاميركية ان الحكومة الاميركية تتوخى في علاقاتها الدولية ان تحترم حقوق البلدان الاخرى ومصالحها المشروعة وتنتظر ان تفوز من حكومات البلدان الاخرى مثل هذا الاحترام لحقوقها ومصالحها المشروعة

وكانت بريطانيا العظمى الدولة الكبيرة الاولى التي طلبت من اليابان تفسيراً لهذه الخطة الجديدة التي اعلنتها . فاستفسر سفير بريطانيا في طوكيو « استفساراً وديّاً » عن مآل هذه الخطة ولفت نظر اليابان الى ان مبدأ « تساوي الحقوق » في الصين مضمونٌ صراحة في معاهدة الدول التسع ،

وان اليابان وقّعت هذه المعاهدة وأبرمتها ، وان حكومة بريطانيا تنتظر ان تبقى متمتعة بجميع الحقوق التي تتمتع بها سائر الدول التي وقعت هذه المعاهدة . وصرّح سفير بريطانيا لوزير خارجية اليابان ان الحكومة البريطانية لا تستطيع ان تسلّم بحق اليابان في ان تحكم بأن عملاً معيّناً — كالمساعدة المالية او المشورة الفنيّة — ينطوي على خطر للصين ووجّه نظر اليابان الى ان المادتين ١١ و ١٧ من معاهدة الدول التسع تفرضان عليها ان تنبه موقعي المعاهدة الى اي عمل فيهِ خطر على سلامة الصين

وقد اقتضى « الاستفسار الودّي » الذي افرغ فيهِ السفير البريطاني ملاحظاتهِ على خطة اليابان الجديدة ، جهداً من الوزير الياباني في الرد عليه ، مع ما هو مشهور عنهُ من البراعة السياسية . ولما كانت اليابان قد قرّرت ان لا تنشر هذا الردّ فيجب ان نعتمد على الخلاصة التي اوردها السر جون سيمون وزير خارجية بريطانيا في خطبة القاها في مجلس النواب البريطاني يوم ٣٠ ابريل ١٩٣٤ . وخلاصة هذا الردّ ان اليابان ايّدت رأي الحكومة البريطانية في حسبانها ان حكومة اليابان لن تعتدي على حقوق الدول الاخرى في الصين ولا تنوي ان تضرب بالعهود التي قطعتها في المعاهدات القائمة عرض الحائط ، ثم اكّدت بأنها تنوي ان تحترم معاهدة الدول التسع وانها سوف تمضي في تعليق اكبر الشأن بسياسة الباب المفتوح . وكذلك استعملت اليابان تأكيد احترامها لمعاهدة الدول التسع ولسياسة الباب المفتوح ستاراً لتغطية مطالبها الواسعة النطاق . ولكن الحكومة البريطانية اكتفت بتصريحات حكومة اليابان لان حكومة بريطانيا ، على ما قال السر جون سيمون في البرلمان — لا يسعها ان تقول لدولة صديقة : « اننا لا نصدق ما تقولين »

اما دول البر الاوربي فقد اختلف موقفها في تصريحات اليابان . فايطاليا استفسرت من حكومة اليابان على نحو ما استفسرت حكومة بريطانيا وفازت بالتأكيدات التي فازت بها بريطانيا . اما المانيا فلم ترَ ان مشكلات الشرق الاقصى تهمها بوجهٍ خاص وان حلّها خاص بالدول ذات الشأن في تلك المنطقة . وأما فرنسا فلم تُعنَ عناية خاصة بموقف اليابان الجديد ، مع اتساع ممتلكاتها في الشرق الاقصى . وأما روسيا فلم تعترض على خطة اليابان ولا طلبت منها تفسيراً لتصريحات رجالها المسؤولين لانهُ سبق لها ان احتجت في مواقف مختلفة احتجاجاً شديد اللهجة فلم يجدِ احتجاجها شيئاً

ولما كانت الصين هي المقصودة بالذات في تصريحات رجال اليابان ، كان موقفها مشوباً بالامتعاض الشديد . وقد اصدرت مفوضية الصين في لندن بياناً قالت فيهِ ان الشعب الصيني الذي يعرف ما له وما عليهِ كدولة مستقلة ذات سيادة لا يسلّم ببسط سيادة اليابان على الصين وانهُ واثق من ان الدول الاخرى لا يمكن ان تساق سوقاً الى التسليم بهِ

***

فبعد التأكيدات التي نالتها بريطانيا وايطاليا ، تفضل الدول المختلفة ان لا تثير هذه المسألة الآن

ولكن الحادثة نفسها كان من شأنها ان ذكرت امم العالم بالاتجاه الملموس في سياسة اليابان الاسيوية

وأول اثر من آثاره تحفز الامم لتعزيز سلاحها ، وخاصة سلاح الطيران . فتقدمت اليابان سائر الدول في تعزيز سلاح الطيران وتبعتها بريطانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا . اما حكومة الولايات المتحدة الاميركية فلم تفه بكلمة بعد احتجاجها الاول . ولكن الرئيس روزفلت لم يلبث حتى طلب من الكنغرس ان ينفق جانباً من الاموال المرصدة للاعمال العامة على تعزيز الاسطول الاميركي وحجة الرئيس في ذلك انهُ اذا لم نجد وسيلة لمقاومة اليابان الا بالحرب، وهي حرب لا يرغب فيها احد، فما علينا الا ان ننتظر تطور الحوادث وان نعزز الاسطول في خلال ذلك

وكذلك نرى ان هذه الحادثة افضت الى تنافس في التسلح لا يعلم احد الى اين ينتهي

ويهمُّ العالم بوجه خاص ان يعلم الى اي مدى تستطيع اليابان ان تحقق خطتها الاسيوية وما تكون النتائج التي يسفر عنها هذا التحقيق

ولا بد لنا في الرد على هذين السؤالين من ان ندرك ان اليابان ، بعد مهزلة جنيف ووقوف الامم موقفاً ضعيفاً ازاء غزوة اليابان للصين في حرب لم تشهر ، اصبحت لا تعنى اية عناية بالتقريع واللوم او بالامتناع عن اعتراف الدول بدولة منشوكو صنيعتها . فالذي تحتاج اليهِ الدول لقمع اليابان هو حجة العمل لا حجة الكلام . فلننظر الآن في الموضوع نظرة مجردة عن الهوى مقابلين بين العوامل التي تؤاتي اليابان في خطتها والعوامل التي تقاومها

***

يرى الثقات ان روسيا السوفيتية هي الدولة التي تستطيع ان تقاوم توسع اليابان على بر آسيا الشرقية لانها تعرف خطط اليابان في سيبيريا الشرقية وانها قد اعدت معداتها لذلك . فارسال جيش ياباني عدده ٥٠ الفاً الى سيبيريا سنة ١٩١٩ ، وتأييد اليابان لسيمينوف في اعتراضه تقدم السوفيت سنة ١٩٢٠ ، واحتلالها نيكوليفسك سنة ١٩٢١ ، حوادث اقنعت ولا ريب زعماء الروسيين بأن اليابان لن تقف عند حدود منشوريا وجيهول . فروسيا تعلم ان اليابان بعد ان توطد قدمها في منشوريا ، وبعد ان تقبض على سكة حديد منشوريا بابتياعها من روسيا او بامتلاكها عنوة ، وبعد ان تنتهي من انشاء السكك الحديدية العسكرية التي تبنيها هناك ، تصبح في مقام عسكري ممتاز يمكنها من محاولة تحقيق احلامها بالامتداد غرباً . وان نظرة واحدة الى الخريطة لتبين ان ممتلكات روسيا الى الشرق من شيتا تصبح حينئذٍ تحت رحمة اليابان

ومن الطبيعي ان تمانع روسيا في التخلي عن ممتلكاتها الواسعة في الشرق الاقصى لانها غنية بالمعادن والحراج وغير ذلك من مصادر الثروة الطبيعية . ولكنها في الوقت نفسهِ تدرك المخاطر التي تتعرض لها اذا غامرت في حرب مع دولة عسكرية كبيرة كاليابان . وقد لا تكون حكومة السوفيت الآن واثقة من تمام الوحدة الداخلية في بلادها اذا طال امد الحرب علاوة على موقف الدول الاخرى

نحوها ونحو نظامها الجديد .لذلك يبدو للباحث ان زعماء السوفيت يدركون ان التخلي عن ممتلكاتهم في سيبيريا الشرقية لا بدَّ ان تكون ذا اثر سيء في مكانتهم بوجهٍ عام . ولكنهم يدركون كذلك ان هزيمتهم في حرب مع اليابان قد يكون باعثاً على انهيار نظام السوفيت . فهم واقفون بين شرين وقد بدا منهم حتى الآن انهم يفضلون اختيار اهونهما . ولذلك نراهم يحاولون اجتناب الحرب مع اليابان بالغاً ثمنهُ مابلغ . والاَّ فلسنا نستطيع ان نفسر تفسيراً معقولاً ، صبرهم العجيب على حوادث منشوكو وحدودها وسكة حديد الصين الشرقية ، التي قصدت منها اليابان ، في الغالب ، ان تثير روسيا وتحملها على مناجزتها. بل لما استطعنا ان نفسّر رضا روسيا ببيع سكة حديد الصين الشرقية اللازمة لمصالحها في منشوريا لزوم الرصاص للقلم

والنتيجة التي نخرج بها من هذه الناحية ، ان روسيا لن تقدم على مناجزة اليابان الآن اذا فازت بتأييد دولة اخرى من الدول الكبرى . اما ان تفعل ذلك وحدها فليس محتملاً

اما البواعث التي تبعث الولايات المتحدة على مقاومة اليابان فقوية ، لاتفوقها في ذلك الاّ روسيا وقد تتساويان . فاليابان قد اخلَّت بمعاهدة الدول التسع وبعهدة كلوج ، وكلتاهما من المواثيق الدولية التي ابدعها ساسة اميركا . فالاخلال بها بعد ابرامها من جانب اليابان طعنة ادبية قوية . ثم ان للولايات المتحدة الاميركية مصالح عظيمة الشأن في المحيط الهادىء. فشواطئها على المحيط الهادي اطول من شواطئها على المحيط الاطلنطي ولها في المحيط الهادي جزائر هواي وهي من ممتلكاتها وجزائر فيلبين وهي تحت حمايتها . والاسكا وهي اقرب الى اليابان من ممتلكات اكثر الدول الغربية . نعم ان الولايات المتحدة قد قرَّرت ان تنسحب من جزائر الفيلبين ، ولكن هذا الانسحاب قد لايتم قبل بضع سنوات على الاقل ، وفي بضع سنوات قد تقع حوادث كثيرة خطيرة لايمكن التكهُّن بها الآن . ثم ان اميركا بعد انتزاع جزائر الفيلبين من اسبانيا ، حكمتها حكماً طيباً افاد البلاد فائدة كبيرة فهي لذلك لا يسعها ان تسمح لليابان بالسيطرة عليها بعد خروجها منها . يضاف الى ما تقدم ان تراجعاً كهذا يضعف من هيبتها في الشرق الاقصى ، ويعزز من هيبة اليابان ، حتى لقد تصبح هواي و بعض بلدان اميركا الجنوبية معرضة للخطر . اما شؤون التجارة في بلدان المحيط الهادىء فتهمُّ اميركا بوجهٍ خاص ، وقد قال الرئيس السابق ثيودور روزفلت من سنوات ان مقام المحيط الهادىء لابدَّ ان يفوق مقام المحيط الاطلنطي من هذا القبيل

ولما كانت الولايات المتحدة احدى الدول الكبيرة في المحيط الهادىء فانهُ لايسعها بوجهٍ من الوجوه ان تسمح بتوسع اليابان المطلق في هـذا المحيط . وما اقترح ساستها سياسة الباب المفتوح وحتموا المحافظة على سلامة الصين ووحدتها ، الاّ بقصد حماية مصالح اميركا السياسية والتجارية . ولما كانت خطة اليابان تهدد هذه المصالح ، فاميركا بحكم الطبع والمصلحة تجد كلَّ مسوّغ في سعيها لمقاومتها وإحباطها . ولكن الخطر الذي يهدّد مصالح اميركا في المحيط الهادىء ، لا يبدو

عظيماً في نظر الجمهور الاميركي ،حتى يسوّغ المخاطر التي تتعرّض لها حكومته في سبيل هذه المقاومة . ولذلك فالراجح ان الولايات المتحدة ،وهي معنية الآن بتنظيم حياتها الاقتصادية على اسس جديدة ، تؤثر ان تترك لغيرها من الدول البدءَ في مقاومة اليابان او مناجزتها

اما مصالح بريطانيا العظمى في الشرق الاقصى فعظيمة وواسعة النطاق . فاموالها وسفنها مسيطرة على الحياة الاقتصادية في وادي نهر الينغتسي وعلى شواطىء الصين ولبضائعها القطنية والصوفية ومصنوعاتها الحديدية مكانة ممتازة في السوق الصينية الآخذة في الاتساع . وهذا بصرف النظر عن هنغ كنغ والهند وسائر ممتلكاتها في جزائر البحار الجنوبية . فهذه المصالح البريطانية العظيمة في الشرق الاقصى بوجهٍ عام ، او في الصين بوجهٍ خاص ، تهدّدها خطة اليابان الجديدة . ومن المشهور ان اليابان تستعدُّ لتحلَّ محلَّ بريطانيا في اسواق الشرق الاقصى ، بل ان اتساع تجارة اليابان الخارجية يجعل هذا امراً لا ندحة لليابان عنهُ . وقد فازت حتى الآن بمنافسة بريطانيا في نواحٍ مختلفة في الصين بالرغم عن مقت الصينيين لليابانيين الناشىء عن احتلال اليابان العسكري لمنشوريا . ولا يخفف من وقع هذه المنافسة الآن الاَّ هيبة بريطانيا في الشرق الاقصى التي بنتها في خلال القرن الماضي، وعزّزتها حديثاً بافعال ساستها امثال اوستن تشمبرلين ولورد ولنغدن ولورد لتون. فاذا ضعفت هذه الهيبة — والدلائل تدلُّ على انها آخذة في هذا السبيل — استطاعت اليابان ان تملي على الصين ممن يحق لها ان تبتاع ما تحتاج اليهِ . وعندئذٍ يصبح اسم لانكشير في الصين نسياً منسيًّا

ومما يجب ان يحمل بريطانيا على مقاومة خطة اليابان ، ان احترام المعاهدات الدولية بصرف النظر عن ناحيتهِ الادبية ، لا ندحة لها عنهُ . وهي الدولة التي لها ممتلكات ومصالح في جميع انحاءِ الارض

ولكن يظهر ان طائفة من البريطانيين لم يدركوا حتى الآن خطر خطة اليابان الجديدة ، او انهم على الاقل يرون ان الاخطار التي يتعرضون لها في اوربا اعظم من الخطر الياباني . ولذلك فالمرجح ان تنهج بريطانيا نهج الانتظار لترى ما تفعله روسيا والولايات المتحدة الاميركية في هذا الصدد اولاً

وكذلك نرى ان الدول الغربية التي لها مصالح سياسية واقتصادية كبيرة في الشرق الاقصى قد هالتها خطة اليابان الجديدة وترغب رغبة شديدة في صدّها ، ولكنها لم تحرك ساكناً حتى الآن في هذا السبيل . بل على الضدّ من ذلك نرى بينها تخاذلاً بادياً في موقفها من هذه الخطة ، اذ تميل كلّ امة منها الى القاء العبء على الامة الاخرى . وعلاوة على ذلك كان للحرب الكبرى اثر في نفسية الجماعات الاوربية ، فهي اجنح الى السلم مما كانت ، وخشيتها من الحرب حملتها على الجري على خطة سلمية في التنديد بعمل اليابان في الصين لئلاَّ تشهر اليابان الحرب عليهم جميعاً ! ومن الغريب ان لا تستطيع الدول الغربية ان تتّفق في موقفها حيال ازمة الشرق الاقصى ، وبوجهٍ خاص ان اليابان بعد حكم جمعية الامم ونفور الرأي العام الدولي من عملها ، كان يتعذّر عليها ان تنال تأييداً في ناحية من النواحي. ومما يخشاهُ الكتّاب السياسيون ان تعجز الدول الكبرى عن ذلك في المستقبل فتستطيع اليابان

ان تفوز بما تريد . وقد ظهرت اليابان في السنتين الاخيرتين بمظهر أُمّةٍ مقتنعة بان الاقدار تسوقها الى البسطة والتوسع الامبراطوري . وكان غلاة الوطنيين والعسكريين فقط يحسّون بقوة هذا الدافع من وراءِ الغيب ، وكان يعارضهم رجال المال والاقتصاد من اليابانيين الذين يرغبون في انتظام اليابان عضواً محترماً في مجامع الدول الاوربية . ولكن هؤلاءِ اصبحوا يرون الآن ، ان مصير مصالحهم مرتبط بمصير الامبراطورية اليابانية وتبسطها ، ولم يبق امام اليابان حائل يحول بينها وبين تحقيق هذا الحلم الزاهي ، الاَّ مصالح الدول الغربية في الشرق الاقصى

وقد كانت الخطوة الاولى التي خطتها اليابان في هذه السبيل ، احتلالها منشوريا وجيهول . وكان من شأن هذا الاحتلال ان تغلب رأي العسكريين في اليابان حتى اصبح من المتعذر على أية حكومة يابانية الآن ان تفكر في النكوص ذراعاً واحدة ، وحتى ارتدَّ الجمهور الياباني عن تقليد الغرب أي الاقتناع بأنهم أسيويون وانهُ أسهل عليهم ان يفوزوا باحترام الغرب من ان يفوزوا بودّهِ

ومما تحتاج اليهِ اليابان الآن ، هو فترة راحة وسلام تستطيع في خلالها ان ترسخ قدمها في منشوريا وتنظم شؤونها المالية والاقتصادية والعسكرية هناك وتذيع في انحاء العالم رغبتها في السلام وفي ترقية البلاد التي احتلتها وما لرجالها من المآثر فيها . فاذا اتيحت لليابان هذه الفترة — وطولها لا يزيد على خمس سنوات ولا يقل عن ثلاث — فنجاحها في نهايتها لا ريب فيهِ

والعقبة الوحيدة التي تعترض سبيل نجاحها الآن هي ضعفها المالي . فالدين القومي قد زاد زيادة فاحشة . ونفقاتها على السلاح كبيرة جدًّا ، ورجال الصناعة والزراعة متبرمون بفداحة العبء الواقع على عواتقهم . ولكن هذه المصاعب ، على فداحتها لا ينتظر ان تثني حكام اليابان عن عزمهم ، بل قد تكون على الضدّ من ذلك باعثاً جديداً لهم على الاندفاع في مغامرة جديدة محاولين السيطرة على الصين وما وراءها من البلدان ، سيطرة فعلية ان لم تكن سيطرة شرعية ، آملين ان يجدوا فيها منفذاً للتبرُّم في داخل البلاد ، ومصدر قوة لمواجهة الامم الغربية . ولعلَّ عسكريي اليابان يقولون في ذوات نفوسهم ، اذا استطعنا ان نستولي على منشوريا رغماً عن تنديد الدول الكبرى بعملنا وضعف حالتنا المالية ، فماذا يمنعنا بعد فترة الراحة والاستجمام من السيطرة على سوق الصين الواسعة ؟

لابدَّ للصين ان تقاوم ولكن الصين من دون مساعدة الدول الاخرى لا تستطيع ان تقاوم اليابان مقاومة فعالة . والتاريخ يعلمنا ان للهيبة اكبر مقام في الشرق الاقصى فتحدّي اليابان للعالم في جنيف سنة ١٩٣٢ وتحديها له في ابريل سنة ١٩٣٤ لابدَّ ان يرفعا هيبة اليابان في الصين فتستطيع ان تقنعها بأن الدول المسيحية دول مرائية لا تعرف غير الكلام ، وان الصين لا اصدقاء لها بينهم ، وانهُ من الخطأ ان تقاوم الصين اليابان التي تستطيع ان تأمر الدول الكبرى بكفّ ايديهم عن الصين فلا يقاومون

وفي هذا تتحقق نبوءة قائد ياباني قالها سنة ١٩١٥ : متى ادركت الصين انها لا تستطيع ان تفوز بمساعدةٍ ما ضدّنا هرعت الينا وارتمت في احضاننا

ايطاليا الجديدة

بين الانهيار والبعث الفاشيّ

كنا الى عهد قريب نحسب ايطاليا بلاد مجد قديم واطلال كريمة ومشاهد طبيعية رائعة ، لا دولة من دول العالم الكبار . ولكننا نرى فيها اليوم امة متحدة الكلمة فتيّة العزم مسموعة الرأي في مجامع الدول حتى لقد وصف احد الكتّاب احوال اوربا السياسية ومكانة موسوليني في حسمها او توجيهها بتكريره القول المأثور : « جميع الطرق تفضي الى روما » . ففي الاثنتي عشرة سنة الماضية شهد العالم في ايطاليا بعثاً قوميًّا قد لا يفوقهُ بعث قومي آخر في التاريخ وان ساواهُ في عصرنا بعث الامة التركية على ايدي مصطفى كمال. ولا بدّ لنا في تلخيص قصة هذا البعث من الارتداد الى سنة ١٩١٤

كانت ايطاليا حينئذٍ امة ملكية دستورية ، على رأسها ملك (هو ملكها الحالي فيكتور عمانوئيل الثالث) ولها برلمان دمقراطي على مثال البرلمان البريطاني . ولكن وحدة ايطاليا السياسية كانت قريبة العهد فلم يكن لها في سنة ١٩١٤ تقاليد يرعاها رجال السياسة او رجال الجيش ، وهذا بطبعهِ افضى الى تقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ولذلك كانت حياة ايطاليا العامة قبيل الحرب حياة يشوبها الفساد والارتكاب

فلما نشبت الحرب الكبرى وقعت ايطاليا في مأزق . فقد كانت مرتبطة بالنمسا بمعاهدة ولكن ساستها كانوا لا ينوون الانضمام الى النمسا الاّ اذا تبيّن لهم ان كفة النصر راجحة في جانبها . حتى اذا كانت كفة النصر راجحة في جانب النمسا فماذا تجني ايطاليا من ثمار النصر ؟ ان جلّ ما يمكن ان تتنازل عنهُ النمسا هو مقاطعة الترنتينو . حالة ان دول الحلفاء كانت تمنيها باكثر من ذلك اذا خاضت الحرب في صفوفهم ضد النمسا . وكذلك مضى ساسة ايطاليا يساومون هذا الفريق وذاك مدى شهور . ولكن الرأي العام في ايطاليا كان قد اخذ ينقلب ضد النمسا عدوة ايطاليا التاريخية . وفي اوائل سنة ١٩١٥ طالب احد المحررين في جريدة اشتراكية بان تخوض ايطاليا الحرب ضد النمسا ، فطرد هذا المحرر من الحزب الاشتراكي ومن ادارة الجريدة فانشأ جريدة دعاها الـ « بوبولو ديطاليا » فاحرزت في الحال نجاحاً صحفيًّا عظيماً . وقد كان ذلك المحرر يدعى بنيتو موسوليني

وفي خلال هذا كان رجال الدولة قد اتخذوا قراراً حاسماً . ذلك ان وزير الخارجية البريطانية ، ادورد غراي ، كان قد وعدهم بضم التيرول النمسوية وشواطىء دلماتيا على البحر الادرياتيكي (ما عدا ميناء فيومي) الى ايطاليا اذا هي خاضت الحرب في صفوف الحلفاء . فقبلت ايطاليا ما عرض عليها فوقّعت معاهدة سرية في لندن في شهر ابريل (وتعرف باسم لندن ١٩١٥) وفي مايو شهرت

الحرب على النمسا . وقد ابلى بعض الايطاليين بلاءً حسناً في الحرب الكبرى واحرز بعضهم شهرة عالمية بشجاعتهم واقدامهم . وفي مقدمة هؤلاء الشاعر دانزيو الذي تعلّم الطيران وانتظم في سلاح الطيران وحلّق بطائرته فوق ڤينا والقى عليها بدلاً من القنابل ، نشرات حث فيها النمسويون على طلب الصلح . ولكن الجيش الايطالي خذل في كابورتو في اكتوبر سنة ١٩١٧ فتقدم الجيش النمسوي على اثره زاحفاً نحو البندقية ولكن لم تنقض سنة على ذلك حتى كانت المانيا قد عجزت عن المضي في الحرب فتراجع النمسويون واقتفى الايطاليون اثرهم ثم اشتبكوا معهم في معركة احرزوا فيها نصراً باهراً

فلما اجتمع مؤتمر الصلح في باريس كان ممثل ايطاليا فيهِ السنيور اورلندو فقال ان هذا النصر الباهر الذي احرزه الايطاليون جدير بالمكافأة وطلب ان يضاف مرفأ فيومي الى المقاطعات التي قطعت لايطاليا في معاهدة لندن سنة ١٩١٥ . ولكن الرئيس ولسن تصدى لهُ . قال : لتمنح ايطاليا التيرول والترنتينو وشاطىء دلماتيا حتى مدينة تريستا . اما فيومي فميناء سلافي ويجب ان يمنح ليوغوسلافيا (وكانت تعرف حينئذٍ باسم دولة الصرب والكروات والسلوفين) ولما تعذّر الاتفاق استدعي اورلندو من باريس فخرج من مؤتمر الصلح غاضباً

وكان في ايطاليا رجالٌ قد وطّنوا العزم على ان ينالوا بالقوة ما عجزت حكومتهم الضعيفة عن نيله بالمفاوضة . وكان في مقدمة هؤلاء جبرائيل دانزيو الشاعر الجندي . كان شعره الملتهب واقدامه في خلال الحرب ، قد جعلاه الزعيم الطبيعي لجماعة الشبان الايطاليين . ففي سبتمبر سنة ١٩١٩ جمع كلّ طائرة استطاع ان يلقي يديهِ عليها وطار الى فيومي فطرد منها جيش الحلفاء المحتلّ واعلن فيومي مرفأً ايطاليًّا وحجتهُ في ذلك حجة الشاعر اذ قال : ان فيومي ايطالية بحق المشابهة بين مشاهد الطبيعة فيها ومشاهد الطبيعة في ايطاليا ! وجعل يلقي خطباً نارية على طريقة خطباء الرومان والاغريق القدماء . واعلن ان فيومي دويلة دمقراطية على مثال أثينا ، وجعل يجمع الجماهير كل يوم امام دارهِ فيطلّ عليهم من الشرفة ويسألهم : ما هي رغباتكم أيها المواطنون . وكان جنوده شباناً ثملين بمجد روما القديم ويحلمون بانشاء مستقبل مجيد على غرار المجد الذاهب . وكان بين انصاره رجال قد خاضوا غمار الحرب وخرجوا منها أبطالاً تلهبهم النزعة الوطنية فاقدم احدهم — كلر Keller على القاءِ قنابل من البنجر على وزارة جيولتي في روما . وكان هنالك سفنٌ انفصلت عن الاسطول وانضمت الى دانزيو في فيومي وفي مقدمتها السفينة المعروفة باسم « دانتي » . فظلّت فيومي ثلاثة أشهر في قبضة دانزيو وصحبهِ ، بلاداً خليقة بالابطال . وفي ليلة عيد الميلاد سنة ١٩١٩ ارسل جيولتي الاسطول الايطالي الى فيومي — وهو يعلم ان الصحف تعطل اربعة أيام — فأخذها عنوةً وفرَّ دانزيو واتباعهُ وانتهت على ذلك مغامرتهُ ولكن لما ذاعت الانباء اقفلت ايطاليا مسارحها وارتدت ملابس الحداد

ولكن حكومة جيولتي التي كانت على جانب كافٍ من القوة لطرد دانزيو من فيومي عجزت عن حفظ النظام في طول البلاد وعرضها . ذلك ان ايطاليا كانت متبرمة بنصرٍ حربيٍّ لم يحقق لها جميع

رغائبها فلا هي فازت بجانب من مستعمرات المانيا ولا بشواطىء دلماتيا بل رأت على الضدّ من ذلك دولة جديدة كبيرة تنهض على شواطىء الادرياتيكي الشرقية تعرف باسم يوغوسلافيا. وكانت الامة تنتظر عودة الرخاء بعودة السلام فخاب فألها. فامتدت الحركة الاشتراكية امتداد النار في الهشيم. وفي يناير سنة ١٩٢٠ اضرب عمال البريد والتلغراف وسكك الحديد. وفي الصيف بدأت مجالس العمّال (السوفيت) تحتلّ المصانع. على ان الجماعة الاشتراكية لم تكن الجماعة الوحدة التي تقاوم الحكومة بل نشأت جماعة قليلة بدت في افق جيولتي السياسي اولاً كغيمة صغيرة لا تزيد عن مساحة الكف. ذلك ان بنيتو موسوليني كان قد انشأ في ميلان حزباً مناوئاً مؤلفاً من ١٥٠ عضواً ودعاه «فاشو» والاسمُ مشتقٌ من لفظ لاتيني «فاشِس» ومعناهُ حزمة العصي حول فأس كان يحملها اتباع الحكام (القناصل في روما) عند سيرهم في شوارع المدينة. فكان هذا الاسم رمزاً بديعاً للنهج الذي ينوي موسوليني ان ينهجهُ. كان موسوليني قد خاض غمار الحرب الكبرى وجرح في احدى معاركها. وكان يدرك الروح الذي حفز الجنود الايطاليين للاستبسال في ميادينها. فقد كان يهمهم انشاء دولة ايطالية جديدة تحتلّ في الحضارة الاوربية مكاناً في فريق الطليعة اكثر مما يهمهم قهر النمسا. وكان يفهم ان شجاعة الافراد واقدامهم، كشجاعة دانتزيو واقدامهِ، يعجزان عن مقاومة حكومة منظّمة. ولذلك كان الامل الوحيد في انشاءِ ايطاليا الجديدة معلّقاً باتحاد الوطنيين حول زعيم قوي وهو ما يمثله الاسم الذي اختارهُ — عصي فردة محزومة حول فأس

سقطت وزارة جيولتي في ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٠ وتلتها وزارة بونومي. فاحتفلت بذكرى الجندي الايطالي المجهول في ٤ نوفمبر سنة ١٩٢١ وبعد يومين اي في ٦ نوفمبر سنة ١٩٢١ عقد الفاشيّون مؤتمراً في روما واصبح الحزب الفاشيّ حزباً سياسيًّا منظماً. وفي العاشر من الشهر نفسهِ اعلن الشيوعيون والاشتراكيون اضراباً عامًّا احتجاجاً على وجود الفاشيين في روما فتلا ذلك اضطرابات خطيرة قتل فيها خمسة وجرح بضع مئات. وفي اواخر الشهر افلس بنك الخصم فوجّه اللوم الى الحكومة لعجزها عن منع هذه الكارثة المالية واضطرّ بونومي ان يستقيل في ٢ فبراير سنة ١٩٢٢ لما هجرهُ بعض مؤيديه وانضموا الى المعارضة

فلما استقالت وزارة بونومي تعذر تعيين خلفٍ لهُ حتى يعرف اي حزب او اي فريق يفوز بتأييد الفاشيين. وكذلك انقضت نحو ثلاثة اسابيع قبل ان تألفت وزارة برآسة السنيور لويجي فاكتا. وهو رجل عرف بالنزاهة والوطنية ولكنهُ لم يشتهر بالحزم في الملمات. وادرك موسوليني ان مفتاح الحكم اصبح بيده او كاد، فلبث ينتظر تطور الاحوال وهو يُعدُّ معداتهِ لليوم العصيب. فلما استفحل امر الاضرابات التي اعلنها الشيوعيون والاشتراكيون في مختلف النواحي احتدم النزاع بينهم من جهة وبين الفاشيين من جهة اخرى. فلما اعلن حزب العمال في جميع مرافىء ايطاليا في ١٨ مارس سنة ١٩٢٢ — وكانت الحكومة ميالة الى تأييد مطالب العمال الحمر — وقف لهم الفاشيون

بالمرصاد وفازوا عليهم فاعادوا العمل في المرافىء الى حالته السوية . وفي ٢٥ مايو اعلن اضراب عام في روما وفي يوليو نشر وزير المالية حساب السنة المالية السابقة فاذا فيه عجز على الخزينة يقدر ٤٥٠٠ مليون ليرا وقال الخبراء ان العجز يبلغ ٦٥٠٠ مليون ليرا . فأصيب الرأي العام بذعر عظيم وتجددت الاضطرابات وقبض الفاشيُّون على ناصية الحال في مناطق مختلفة ففرقوا جماعات الاشتراكيين والشيوعيين بالقوة . ولكنَّ النواب كانوا في شغل عن كل هذا بالمناورات الحزبية . وفي اوائل اكتوبر ١٩٢٢ أعلن اتحاد العمال اضراباً عامًّا في ايطاليا فوقف العمل في معظم المصانع وأضرب عمال السكك الحديد . ولكن الفاشيين أعلنوا تعبئة عامة وتولوا النهوض بالخدمات الضرورية مثل المواصلات ونقل الطعام وأذاعوا بياناً وجهوهُ الى العمال حثوهم فيهِ ان يخلعوا عن اكتافهم نير المشتغلين بالسياسة وانذروا الحكومة بانهم يمنحونها ٤٨ ساعة لتثبت كفاءَتها في القبض على ناصية الحال فاذا عجزت تولوا هم الامر . قالوا : « وعند انتهاء هذه المدة تكون الفاشية حرة في ان تحلَّ محل الدولة » . ولم تنقضِ خمسة أيام حتى كان الاضراب قد خاب في تحقيق غرضهِ وهو نشر الفوضى في البلاد . واصطدم الفاشيون في خلال ذلك بالشيوعيين في مدن مختلفة اهمها مدينة ميلان حيث اسقطوا مجلسها البلدي الاشتراكي الشيوعي . وكانت وزارة فاكتا قد عجزت عن معالجة الحال فطلب رئيس الوزراء الى الملك فكتور عمانوئيل اعلان الاحكام العرفية ولكن الملك ادرك ان اعلانها يفضي الى حرب اهلية لان الفاشيين كانوا قد عبأوا صفوفهم وبدأوا الزحف على روما فرفض . وطلب الى موسوليني ان يشترك في الوزارة فأبى فاستقالت وزارة فاكتا ودخل موسوليني روما على رأس الفاشيين لتقلد أزمة الحكم . وما لبث ان اطلَّ من شرفة دار الرآسة على الجمهور وخاطبهم قائلاً : سوف يكون لكم بعد اليوم حكومة لا وزارة . وخاطب الملك مرتدياً قميصهُ الاسود : عفواً يا مولاي اذا سعيت اليكم بهذه الملابس ولكني احمل اليكم « ايطاليا المنتصرة » . وكان ذلك في ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢ .

ولما تولى موسوليني الحكم قبض على ازمتهِ بيد من حديد ، فسار حذراً في البدء لئلاَّ يؤلب عليهِ الاحزاب المعارضة قبل ان ترسخ قدمهُ ولكن حذرهُ لم يخل من الجرأة لانهُ في اليوم الاول الذي تقدَّم فيهِ الى مجلس النوَّاب خطب فيهِ قائلاً « اليَّ مرجع الحكم في هل تحتفظون بمقاعدكم شهرين او سنتين» . فكان لكلامهِ وقع عظيم في نفوس النواب فأولاهُ المجلس ثقتهُ ، واغتبطت الامة بهذا الانقلاب اذ بدا لها انَّ هنا رجلاً يستطيع ان ينقذها من الشيوعية . فلما اغتيل اثنان وعشرون من الشيوعيون في دسمبر سنة ١٩٢٢ هنأ وكيل وزارة الداخلية المغتالين وعفا عنهم القضاة على ان موسوليني جسَّم الخطر الشيوعي ليعظم في نظر الامة جهد الفاشيين في انقاذها منهُ . ولكنهُ لم يكن رجلاً يكتفي بالتنكيل بخصومهِ ، بل كان يرمي الى ان يبعث في جسم الامة الهرم شرارة الحياة والنشاط ونظر بعين بصيرتهِ وخياله الى يوم ينشيء فيهِ ايطاليا الجديدة على

مثالٍ جديد بين الامم ، ويضفي عليها من اسباب القوة المادية والمعنوية ما يحلُّها في مجامع الدول المحل اللائق بمجدها القديم وجهدها الحديث . بيد انهُ لم يبغ ان يسلك الى غرضهِ هذا سبيل الثورة بل سبيل التحوُّل الدستوري . وقد كان لموقف الملك فكتور الثالث لما رفض اعلان الاحكام العرفية اثر في خطة موسوليني هذه ، فبقيت ايطاليا مملكة دستورية واحتفظ بمجلس النواب والشيوخ وادمجت سبل التحوُّل الى النظام الفاشيّ في اربعة قوانين اصدرها البرلمان

اما الاول فشمل قانون الانتخاب وقد صدر في سنة ١٩٢٣ ثم عدل في سنة ١٩٢٨ وبمقتضاه تعتبر ايطاليا بأسرها دائرة انتخابية واحدة . فيضع المجلس الفاشي الاعلى قائمة تحتوي على اربعمائة اسم من اسماءٍ تعرض عليهِ . ثم تذاع هذه القائمة وللناخبين ان يقبلوها أو يرفضوها جملة واحدة . فاذا رفضها الناخبون وهو غير محتمل ، توضع قائمة جديدة وتعرض على الناخبين . وقد ثبت من الانتخابات التي جرت في سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ان ٩٠ في المائة من الناخبين في الانتخاب الاول و ٩٦ منهم في الانتخاب الثاني وافقوا على القائمة الاولى التي عرضها المجلس الفاشي الاعلى عليهم . وعلى ذلك يمكننا ان نقول انهُ ما دام النظام الفاشي قائماً في ايطاليا فالمجلس الفاشيّ الاعلى يعين بالفعل اعضاء مجلس النواب . ومجلس الشيوخ مؤلف من امراء البيت المالك واعضاء آخرين يعينهم الملك لمدى الحياة من رجال تخطوا سن الاربعين وامتازوا في ناحيةٍ من نواحي الخدمة العامة . وليس ثمة حدٌّ لعدد الشيوخ فتستطيع الحكومة ان تزيد عددهم اذا شاءت ومتى شاءت ولكن الضرورة لم تقتضِ هذه الزيادة حتى الآن

اما المجلس الفاشي الاعلى فمؤلف (اولاً) من اربعة اعضاء يبقون فيهِ مدى الحياة وهم القواد الفاشيون الاربعة الذين تقدموا الصفوف في الزحف على روما في اكتوبر سنة ١٩٢٢ (ثانياً) من رجال يشغلون مناصب كبيرة في الدولة مثل بعض الوزراء وسكرتير الحزب الفاشي ورئيس الميليشا الفاشية ورؤساءِ الاتحادات القومية و(ثالثاً) رجال يعينهم رئيس الدولة جزاءً لهم على خدمات عظيمة أدُّوها للدولة ومدتهم ثلاث سنوات قابلة للتجديد . وليس ثمة حدٌّ لعدد هذه الطائفة من الاعضاء

وفي القانون الثاني حدد عمل رئيس الوزارة . فهو مسؤول للملك ولا يمكن ان يحمَل على الاستقالة اذا اقترع مجلس النواب عدم الثقة بهِ او بوزارتهِ كما يقع في بريطانيا . بل لا يجوز ان يقترحَ اقتراحٌ ما في المجلس من دون رضائهِ . فاذا رفض المجلس أحد مشروعاتهِ حقٌّ لهُ ان يعيد هذا المشروع الى المجلس بعد ثلاثة أشهر وعندئذٍ يقترع عليهِ سرًّا

والقانون الثالث منح الوزارة الحقَّ ان تحكم بمراسيم . وهذه المراسيم لها قوة القانون مدة ثلاث سنوات بعد صدورها سواءٌ اوافق عليها البرلمان او لم يوافق . اما القانون الرابع فهو القانون الذي وضع اساساً جديداً لحياة ايطاليا الاقتصادية وانشاءِ ما يعرف «بالدولة النقابية» او « الدولة المندمجة» وهو موضوع بحثٍ تالٍ

الكابتن انتوني ايدن

ممثل بريطانيا في جمعية الأمم

[عقد مجلس جمعية الامم في النصف الاول من شهر دسمبر اجتماعاً خطيراً للنظر في استفتاء وادي السار واتهام حكومة يوغوسلافيا لحكومة المجر في صدد جريمة مرسيليا التي صرع فيها الملك اسكندر اليوغوسلافي والمسيو بارتو وزير خارجية فرنسا . وكان جو الاجتماع ملبداً بغيوم الحرب لان اي اضطراب في السار كان يحتمل ان يفضي الى ارسال جيش فرنسي اليه وهذا ينطوي على خطر . ولان تحزب ايطاليا للمجر وفرنسا ليوغوسلافيا كان يهدد بجفاء العلاقات بين الامتين اللاتينيتين الكبيرتين بعد ما مضت في العهد الاخير في سبيل الصفاء والتوثق . فأتيح للكابتن انتوني ايدن ممثل بريطانيا ان يبدد تلك الغيوم اذ اعلن ان بريطانيا مستعدة ان تبعث بفرقة من الجيش البريطاني لحفظ الامن في السار فقبلت المانيا وفرنسا هذا الاقتراح ورضيت ايطاليا ان تشارك بريطانيا في تنفيذ اقتراحها . فلما أحرز الكابتن ايدن هذا النصر في مسألة السار استطاع ان يتدخل في المسألة الثانية تدخلاً أفضى الى الاتفاق على صيغة قرار رضيت به الحكومتان اليوغوسلافية والمجرية]

قلما يتاح لشاب في هذا العصر ، ان يمثل أمة كبيرة ، بل امبراطورية مترامية الاطراف ، في محادثات خطيرة مثل محادثات نزع السلاح أو مفاوضات جمعية الامم . لان رجال السياسة لا يكسبون الحنكة إلاّ بالمرانة الطويلة . والمرانة وليدة الذكاء والاستعداد الفطري من ناحية ، واغتنام الفرص واتساع مجال العمل من ناحية أخرى . فالذين ينتظمون في السلك الدبلوماسي ، قلما يبلغون رتبة وزير مفوض أو سفير ، إلاّ بعد مرانة طويلة في مختلف عواصم الدنيا ، ومع ذلك لا يبلغون المقام الاول بين الوزراء والسفراء إلاّ اذا بدا منهم ما يدل على استعداد فطري ، وحنكة طبيعية ، في معالجة الشؤون الخطيرة ، التي لابدّ في معالجتها ، من الاتصال بالرجال المحنكين ، وخوض معترك الارادات القوية والعزائم التي لا تتقهقر

ولكن الكابتن ايدن ، وكيل وزارة الخارجية البريطانية سابقاً ، وحامل أختام الملك الآن ، الذي تعتمد عليه الحكومة البريطانية في ان يمثلها في محادثات نزع السلاح وجمعية الامم ما يزال شاباً في السادسة والثلاثين ، بيد انه أبدى من الاستعداد الفطري والحنكة في المفاوضات الدبلوماسية ، ما حمل بعض النقاد على القول بأنه ، قد يكون زعيم المحافظين المقبل

***

لاسرة ايدن مقام في حياة بريطانيا العامة يرتد الى بضعة قرون . فأحد رجالها في عصر السياسي بت Pitt منح لقب لورد وعين حاكماً للهند . وكان السر وليم ايدن والد الكابتن ايدن من سراة

العهد الفكتوري . اما ابنه الاكبر فقتل في السنة الاولى من الحرب الكبرى . فورث لقبه ابنه الثاني تيموثي . اما ابنه الثالث انتوني — موضوع بحثنا اليوم — فانتظم في الجيش البريطاني وهو في الثامنة عشرة من عمره وشهد الحرب في الجبهة الغربية ونال وسام صليب فكتوريا . ولكنهُ كان من صغره ميالاً الى الدرس والبحث من جهة . والى الحياة العامة من جهة اخرى . فعني وهو في مدرسة ايتون باللغات فاتقن الفرنسية. بيد انهُ ادرك في خلال الحرب انهُ لم يخلق للجندية فلما عاد من ساحتها ، انتظم في جامعة اكسفرد وتوفر على درس اللغات الشرقية ، فبرع فيها ، وعين عضواً في الجمعية الاسيوية الملكية وعرض عليهِ منصب كاتب في وزارة الخارجية فرفضهُ مفضلاً ان يصل الى وزارة الخارجية عن طريق البرلمان . وخاض معركة الانتخابات العامة سنة ١٩٢٢ فخذل فيها ، فرحل رحلة الى الشرق الاوسط وكتب كتاباً يصف فيهِ رحلته . بيد أن وستمنستر (مقر البرلمان) كان يناديه فعاد إلى بلاده وخاض معركة الانتخابات ثانية ، في دائرة ، رشحت لها نسيبته كونتسة وركشير وهي من اشهر سيدات المجتمع الانكليزي ، فانتزعها منها ، وما يزال حتى الساعة ممثلاً لتلك الدائرة في مجلس النواب

***

قضى في المجلس ثلاث سنوات ، قبلما تعلم اساليبه ، فلما عرض عليهِ السر اوستن تشمبرلين ان يكون سكرتيره البرلماني سنة ١٩٢٦ ، رحب بهذه الفرصة ، التي ما زال يترقبها ، لتكون سبيله الى وزارة الخارجية البريطانية . فهو لم ينتظم في السلك الدبلوماسي قط ، وما اصابهُ من النجاح ، في جنيف وباريس وسائر العواصم ، في مفاوضات دبلوماسية دقيقة ، انما يدل على انهُ دبلومامي بالفطرة

وظل الكابتن ايدن سكرتيراً برلمانيًّا للسر اوستن تشمبرلين ، حتى سنة ١٩٢٩ ، فلما سقطت حكومة المحافظين رجع الى مقعده ، كنائب عادي. ولما أنشئت الحكومة القومية سنة ١٩٣١ رفع درجة اخرى في سلم الارتقاء السياسي اذ عين وكيلاً برلمانيًّا لوزارة الخارجية ، واصبح بذلك ثاني السر جون سيمون وزير الخارجية نفسه في تسيير دفة السياسة الخارجية البريطانية. ولا يخفى ان وكيل وزارة الخارجية البرلماني ، له من العمل في البرلمان ما يرهقهُ . بيد ان الارباب كانت تعطف على الكابتن انتوني . فأن رئيسه السر جون سيمون ، اصيب بضعف في صيف سنة ١٩٣٣ ، اقتضى غيابه عن الوزارة لاخذ قسط من الراحة ، فوقع عبء المفاوضات الدقيقة الخاصة بنزع السلاح وجمعية الامم وما اليها من المشكلات العالمية ، على كتفي هذا الشاب . وكان من الطبيعي ان يتسلم مكدونلد قيادة الدفة ، وهو الرجل الذي يحب حضور المؤتمرات الدولية والقاء الخطب فيها . وانما يقال ان وجود صديقه القديم وخصمه الحديث المستر هندرسن في رآسة مؤتمر نزع السلاح ، حال دون ذهاب مكدونلد الى جنيف في السنتين الاخيرتين ، فلما عهد الى ايدن في ذلك ، ادهش رجال السياسة الاوربية المحنكين بذكائه وكياسته وحنكته على صغر سنه. لذلك عين في اوائل السنة الماضية (١٩٣٤) في

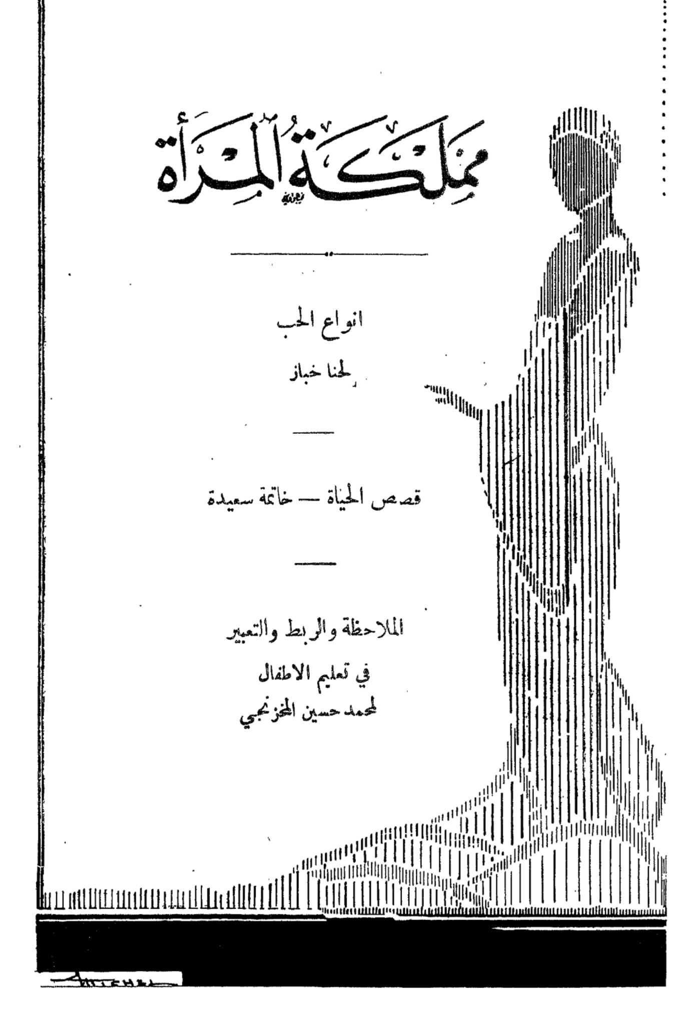
منصب رسمي ، هو منصب حامل اختتام الملك ، على ان يتفرغ لشؤون نزع السلاح ، وجمعية الامم ، ممثلاً وزارة الخارجية البريطانية فيها جميعاً

***

على الوكيل البرلماني لوزارة الخارجية البريطانية ، ان يجيب عن الاسئلة التي يوجهها الاعضاء الى الوزير ، وهو عمل مملٌّ لمن كان من طبع الكابتن ايدن وخلقه ، اذ يتحتم عليه ان يجيب في كثير من الاحيان اجوبة بُلهاً ، كقوله مثلاً : «الجواب عن الشق الاول من سؤال العضو المحترم بالنفي ، واذن فلا محل للشق الثاني من السؤال » . بيد انَّ كثرة عمل وزارة الخارجية في جمعية الامم وما يتبعها من الشؤون ، ومرض السير جون سيمون ، او اعياءه ، مهَّدا له سبيل تمثيل بريطانيا في محادثات نزع السلاح ، واجتماعات جمعية الامم

واذن ترى ان مكانته في مجلس النواب البريطاني ، قائمة على نجاحه في معالجة ناحية خاصة من الشؤون الخارجية . فاذا سرت الكلمة في دهاليز مجلس النواب — « ايدن يتكلم » — هرع النواب الى مقاعدهم فيرون شابًّا طويل القامة نحيف البنية حسن البزة ، عليه في وقفته ونظرته ولفظه وملبسه ، دلائل الارستقراطية . في خطابته حرارة ، ولكن ليس فيها قوة وعنف ، كلامه رشيق مصقول ، وصوته هادئ متزن ، لا تتبين فيه اثراً للعجلة التي اصبحت داء هذا العصر . فاذا كان عنده ما يقوله في موضوع ما ، قاله ببساطة وصراحة ، يخالطهما شيء يسير من الميل الى الفصاحة الخطابية

وهو يؤمن بجمعية الامم حتى لقد قال فيه احد كبار الكتاب الانكليز ، المشهورين باصابة النكتة البارعة والحكمة العالية او السخرية اللاذعة في عبارة واحدة ، « ان ايدن من اولئك الرجال النوادر الذين يدهشونك لانهم يؤمنون حقيقةً بجمعية الامم » . ولا يني عن الدعاية لها في بريطانيا في الفترات التي تتخلل زياراته الى جنيف فاذا نفخ زعماء حزبهِ في الابواق طالبين زيادة الاسلحة البريطانية في الماء وتحت الماء وفوق اليابسة ، بيَّن ايدن لقومه أن مؤتمر نزع السلاح في جنيف هو البدل الوحيد من تنافس عام في التسلح لا بد ان يفضي الى نشوب المجزرة العالمية من جديد — ألا تذكر انهُ كان في الثامنة عشرة او في التاسعة عشرة لما انتظم في سلك الجيش وشهد فظائع الحرب وأهوالها في الجبهة الغربية مدى اربع سنوات ؟ — بل انك تكاد تحسبه قريباً بعض القرب من آراء الاشتراكيين والعمال . ولكنهُ ينبههم ، اذ يعقدون مجالسهم ، ويقترحون مقترحات مثالية كمالية لحفظ السلام ، بان جنيف وجمعية الامم ومؤتمر نزع السلاح ، هي السبل العملية الوحيدة التي قد تستطيع تحقيق امانيهم . فهذا الشاب الذي تتخلل الفتوَّة والحماسة نظراته السياسية الرزينة اذا قوبل بهرم السر جون سيمون وتحليله المنطقي الخالي من الشعور في غالب الاحيان ، يجعل الكابتن ايدن ذا مكانة خاصة في مجلس النواب البريطاني بل في ميدان المفاوضات الدبلوماسية الاوربية


مملكة المرأة
انواع الحب
لحنا خباز
قصص الحياة — خاتمة سعيدة
الملاحظة والربط والتعبير
في تعليم الاطفال
لمحمد حسين المخزنجي



الحق أقول لكم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات . . .
ومن أعثر احد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخير له ان يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر (انجيل متى)

انواع الحب

لحنا ضباز

الفتاة : لقد غذّيتَ نفسي يا والدي ، بما امليته عليَّ في « ضامنات الحب » . فهل لك ان تنوّر ذهني في انواع الحب ؟

الوالد : يا فتاتي العزيزة — الحياة ، وهي اكثر شيوعاً من الحب ، لست ارى لها معنى من دون الحب . فالحب هو معنى الحياة . ولكن البلاء هو ان الناس يلوكون كلمة « حب » بألسنتهم ، او يحركون بها اقلامهم ولكن ضياء الحب لم يذرّ على روابي قلوبهم ، فهم يخبطون في ظلام دامس . وفيما هم يزعمون انهم ينشرون الحب اذا هم يطوونه

ف : ان قلبي ليرتاح الى ما تنشر . فتفضل ارني جمال ذلك النسيج الالهي

و : اني اراكِ تلاطفين كلبكِ فتطعمينه ، وتغسلينه ، وتضمينه ، وتقبلينه . افيجوز ان ادعو ذلك حبًّا ؟

ف : بلى . ولكن أهذا ما تريد ان تنشر ؟

و : فاذكري اوّل كل اول حبّنا البهائم ، كالكلاب ، والقطط ، والطيور ، والجياد . ولنحسبْ ذلك نوعاً اولاً من الحب . ثمَّ اراكِ تعطفين على خادمتكِ « هدية » . وقد قلت انك تحبينها . أليس كذلك ؟

ف : بلى اني أحبها . على اني اجد فارقاً بين خادمتي وكلبي . فكلبي ملكي ، وليست خادمتي كذلك

و : مع ذلك تحبينها . فهل تساوين بينهما ؟ واذا جاعا ، وعندك رغيف واحد من الخبز فقط ، فايهما تطعمين ؟ واذا ماتا فمن يحزنكِ اكثر ؟

ف : لا اشك في اني احرص على الاثنين . واذا ماتا فلا ادري ايهما يحزنني اكثر . على اني اشعر بميل خاص لكلبي ، لانهُ لي

و : فهل ترين ان حبك الخادمة نوع آخر من الحب !

ف : نعم . واراه حبّ استحسان

و : ولكِ ايضاً صديقة عزيزة هي « سهير » وهي شخص ثالث يتناول رعايتك . فتسهرين عليها ، وتسعينَ في مصلحتها ، فحبُّك لها غير حبك للكلب وللخادمة

ف : اني احب صديقتي سهير يا بابا

و : فهل تساوين بينها وبين الكلب والخادمة ؟ ولماذا لا ؟ وما الفرق بين الاثنين في عقلك وقلبك ؟

ف : صديقتي سهير اقرب الى قلبي ،لانها اقرب الى مستواي . وبيني وبينها تفاهم ليس هو بيني وبين الكلب او الخادمة . وطبيعي ان الحب يلد الحب . فهي تحبني حبًّا جمًّا ، هو غير حب الكلب وحب الخادمة . فارى اني احبها غير حبيهما

و : وكلبك ايضاً يحبك

ف : ان حب الكلب لي غير حب صديقتي، اذ لااختصاص فيهِ . فهو يحبّ ايًّا يكون مالكه . اما سهير فتختصني بالحب دون سواي . ولها عندي منزلة عالية لا يبلغها كلب ولا غزال . فهي حبيبتي بصلة التفاهم الروحي ، والمؤانسة ، ورفعة المقام ، ولانها اثمن واوثق من الخادمة والكلب

و : فحب الصديقة الودود نوع آخر من الحب . ثم ان لك والدة حنون . عرفتِها وعاشرتِها قبل كل مخلوق، وهي الصق بكِ ، واعطف عليكِ ، من كل مخلوق . فما قولك في حبها ؟ اترين انهُ غير ما ذكرنا من انواع الحب ؟

ف : والدتي فوق كل شخص آخر . لانها احبتني اولاً . ولان بيني وبينها تضامناً ليس هو بيني وبين سواها . وهي مخلصة لي، مضحية في سبيلي باكثر مما يضحي بهِ كل انسان آخر . فانا ووالدتي روح واحدة في جسدين

و : فهذا نوع آخر من الحب

وهل يمكنكِ ان تتصوري شخصاً آخر تحبينه وتلاصقينه اكثر من والدتك ؟

ف : اذا حصل ذلك، وهو الى الآن لم يحصل،فهو نوع آخرمن الحب .واظن انك تعني بهِ القرين

و : اياهُ اعني . فترين ان امامنا على بساط البحث خمسة انواع من الحب ١ً حبك الكلب ٢ً الخادمة ٣ً الصديقة ٤ً الوالدة ٥ً الزوج . وهذه الانواع الخمسة متفرعة عن اصل واحد هو حب الذات . فتحبين ما ذكرنا لانك تحبين ذاتك . والمجنون ، وهو لايحب نفسه ، او انهُ ، بعبارة اضبط ، لا يعرف ان يحب نفسه حبًّا صحيحاً ، فهو كذلك لا يحب احداً من الناس

ف : واراك لم تذكر « حب الجمال » الذي لا يبنى على حب الذات غالباً، فانا نحب الجمال لذاته

و : واي جمالٍ تعنين ؟ الجمال الجزئي ام الجمال الكلي !

ف : افهمني الفرق بينهما اولاً

و : اعلمي يا عزيزتي ان الجمال نوعان : مجرّد واضافي :

فالاضافي هو الجمال في الجميل . او هو الشخص الجميل . وهذا لايكون الاّ جزئيًّا.كالورد الجميل، والحديقة الجميلة . اما المجرد فهو الجمال بالذات ،كالبياض غير مقيّد بالابيض ، او كالمودّة غير مقيدة بالودود . وقد اختلف الفلاسفة في أيّ الاثنين هو الموجود ، او هو الاصل في الوجود . فذهب افلاطون الى ان المجرّد هو الموجود.وان الاضافي هو ظله وظاهرته . وذهب ارسطوطاليس الى ان الاضافي هو الموجود . والمجرّد تصوُّر منتزع من متعدّد . وعنده انَّا لا نعرف

البياض ، بل نعرف الابيض كالورد الابيض ، والثلج الابيض ، والورق الابيض ، والوجه الابيض ، فانتزعنا صفة البياض المشتركة بين هذه الاشياء فقلنا — البياض — ولكنَّ البياض في ما ارى لا وجود لهُ لولا الاشياء البيضاء . كذلك رأينا الروض الجميل ، والطاووس الجميل ، والقدّ الجميل ، والوجه الجميل ، والشعر الجميل ، والصنع الجميل ، فانتزعنا الصفة المشتركة من بين هذه الاشياء ، فقلنا — الجمال — على ان الجمال لا وجود لهُ ، في عقولنا ، لولا الجميل . فالجمال والبياض وامثالهما من الكليات ، لا وجود لهما عند ارسطوطاليس الاَّ في الموصوفات بهما

وسواءٌ صحَّ رأي افلاطون ، او رأي تلميذه ارسطوطاليس ، أعني سواءٌ كان المجرَّد هو الموجود ، او الاضافي ، فالمجرد أعم من الاضافي ، والكلي اكبر من الجزئي . هذا الجمال هو غرض النفس ، فوظيفة الذوق العقلي فينا ادراكه اولاً ، واختياره ثانياً . والرغبة فيهِ والميل اليهِ هو الحب

هذا هو الفن . وهذا هو التدين . فالجمال خالق الحب ، في شرع افلاطون ، وفي من نحا نحو افلاطون . واني من اولئك الناحين

فاذا تناول الحب جمالاً جزئيًا — فلاناً او فلانة — فهو ما يدعونهُ العشق والهوى . وهو فرع من الحب . وتختاره النفوس الصغيرة المحدودة . واكثر الناس هم من هذا الصنف . وفحوى هذا الحب : اني اريد الجميل : ان أراه : ان اتمتع بهِ : ان امتلكهُ ، وذلك أثرة ، فاحفظي هذه الكلمة « أَثَرة » ففيها اعظم اسرار الاجتماع البشري . ان الأثرة هي العامل في اكثر من تسعة اعشار حركاتنا ، ومصدر اكثر من تسعة اعشار بلايانا

اما اذا تناول الحب ما هو مجرد لا ما هو اضافي ، فذلك هو الفن والتدين . فالفن يتناول الكلي والمجرد لان الجزئي يؤلف عملاً فرديًا فلا يحسب العمل الفردي فنًا . اما المجرد فانساني ويؤلف الفن والفلسفة والدين . وفحوى حبه : اني اريد ان يمتلكني ، ان يلتهمني ، ان اتلاشى فيهِ : وهذا هو الايثار . فاحفظي هذه الكلمة « الايثار » فانها ثاني آثار الآلهة فينا . والاثر الاول هو « الجمال » « فالجمال والايثار » تراث الآلهة في الناس

ف : شكراً يا والدي . اني اود ان اكون كليَّة ، فأحب الجمال اكثر مما احب الجميل . وان اكون من ربات « الايثار » لا من عبيد « الأثرة » . ولكن ما ذا ترى في الناس باعتبار الموقفين ؟

و : لكل انسان وطيء الغبراء اعتباران . اعتبار نظري ، واعتبار عملي . ففي النظري هو سامٍ كلي مجرد . أفليس الانسان هو الذي أدرك المجرد العام الكلي ، وآثرهُ على الجزئي الاضافي الخاص ؟ ولكنهُ بالاعتبار العملي هو غيرهُ . خذي لكِ مثلاً على ذلك داود النبي . فهو قائد ، وملك ، وشاعر ، وتقي . ومن تصفح مزموراته لا يرتاب في عظمة شخصيته ، وجمال نفسه ، وطهارة وجدانه . على ان التوراة التي بين ايدينا ترينا داود عمليًا غير هذا الذي نراهُ في مزموراتهِ . فقد صعد الى السطح فرأى فتاة جميلة تستحمّ ، فعلقها ، وافترسها ، ثم سعى لقتل زوجها اوريا واختص بها ذاته . فداود

هذا غير داود الشاب الجميل النفس . هناك نراهُ عالي الكلمة ، بعيد النظر ، نزيه العاطفة ، عظيماً محترماً . وهنا نراهُ قصير النظر ، ضعيف الارادة ، يخون الصديق ، ويأتي فعلة السفهاء

ولا أخالك تطمعين في أن تري كثيرين من بني حواء افضل من سيدنا داود — بحسب رواية التوراة — قال باسكال : ليس الانسان ملاكاً ، ولا حيواناً ، ولكن الحيوان متملك فيهِ

ويؤول ذلك الى استعار حرب روحية في نفس الانسان ، لانهُ يود التحرر من رق الحيوانية . وفي وصف هذا الجهاد ما ليس في الياذة هوميروس ، ولا في الاوديسا . وقد ألمع الى ذلك الشاعر ملتن في كتابهِ الفردوس الضائع والفردوس المستردّ . وفي ملتن نرى مواقف النفس امام الجمال . كما انّا نرى ذلك في كتاب « الاخلاق » لسبينوزا

ف : حسناً جداًّ ! واني احب ملتن واشعار ملتن ، لانها تسوق نفسي الى عاطفة عالية ، وتريني عواقب الاستسلام للهوى . وما قولك يا بابا في العشق او الهوى الشائع في الناس !

و : اقول لك الصدق ياعزيزتي اني لا اؤمن بالعشق والهوى ، بل اراهُ مرضاً في النفس على انهُ في اول اطواره لا يخرج عن النوعين المذكورين . واعلمي يا عزيزتي ان العشق ينشأ عن اصلين اثنين . الاول الوهم . والثاني الامل . فالوهم هو اعتقاد العاشق ان في المحبوب سعادته وهناءتهُ . فيلوذ بهِ دون سائر الناس . وانكِ لترينَ ان ذلك لم يخرج عن « الأثرة » . فاذا كان هنالك امل في الحصول عليهِ عشقهُ . والاّ فلا . فلا يعشق العامي امبراطورة ولا يجنُّ في ما لا امل لهُ في ادراكهِ . فالوهم والامل والدا العشق . وهو مولود سخيف غالباً . والجنون هو انصراف العقل نحو موضوع واحد لا يكترث لسواهُ . فهو عبارة عن الايغال في الوهم والامل ، او التطرف والتمادي . على ان العاشق لو حصل على من جنَّ بهِ لفتر حبه ، وتناسى غرامه . وأرى ان مجنون ليلى ، وامثاله في كل أمة ، وفي كل جيل ، ليسوا الاّ من امثلة هذه السخافة الاجتماعية . واذا ارتقى الاجتماع الانساني تلاشى هذا النوع من الحب ونسجت على تاريخه العناكب فيحذف من سفر الوجود تسعة اعشار الناظمين. ولا يشتري احد شيئاً من الاشعار الغرامية الاّ من باب درس الخرافات والاساطير التي استبدّت بالبشرية في العصور الاشد ظلاماً . وأرى ان كل رواية غرامية لا تخرج عن احد امرين . الاول استغلال اموال المشاهدين — في ردهات السينما مثلاً — الثاني ردع الناس عن الغواية والسقوط وهما الامران المؤديان الى الدمار

ف : وما قولك في الحب والزواج ؟

و : سأتكلم في هذا الموضوع في الفصل السادس من فصول هذا الكتاب

ف : وما قولك في حبي من يحبني !

و : اشرتِ الى ذلك في حبك «سهير» وفي حبك الوالدة . وسنتكلم عنه في باب « حوافز الحب » وهو في ما ارى من باب الاخلاق اكثر مما هو من باب الحب

ومن وظائف الذوق فلسفة الفن ، بل فلسفة الفنون وهو حب نزيه سام ، وان مازجهُ الغرض احياناً . واس هذا النوع من الحب هو حب الجمال للجمال لا لعلاقة مادية . فهو الحب بمعنى الكلمة . ودرجاته « المعرفة ، فالتفاهم ، فالميل ، فالائتلاف ، فالمودة ، فالارتياح » . وقد يشتد هذا الحب في مُثُل الفضيلة والاخلاص كحب يوناثان داود . وهو حب ديني . والديانة كالفن من اعمال الذوق العقلي الذي يدرك الجميل ويختاره . وخلاصة التدين انه استسلام القلب للجمال ، او « للجميل » فالتدين هو حب الجميل ، وهو الذي يدعوه افلاطون « الخير » والمثل الاعلى و« الجميل » وهو تعالى ، في متصور العقلاء اجمعين ، « جامعة المثل العليا » فهو الجميل ، النافع ، المؤنس ، الرفيق ، المحسن . ويرتقي التدين في بعض المتصوفين الى درجة الغرام . ترينَ ذلك في اشعار عمر بن الفارض القائل : —

زدني بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشًى بلظى هواك تسعّرا

وقصائد ابن الفارض في علم السلوك — حب الله — مثل في الارض كلها

ومن هذا القبيـل مزمورات داود . حبيب الجمال . ومناجاة اوغطينوس . وكتابات توما الكمبيزي . وشواعر الغزالي . ومناجاة نخت . واحلام سويدنبرغ . وعواطف محيي الدين بن العربي ، وكشف رابعة العدوية . ونظريات يوناثان اودوردس . واناشيد فم الذهب . وتوسلات انطونيوس ابي الرهبان . يجمع هذا الصف ارقى طبقات عشاق الجمال الكلي في كل العصور ، وهم الذين وقفوا حياتهم على أسمى المطالب

***

والخلاصة ان الحب فرعان نفساني وعذري ففي الاول خمسة انواع حب الاشياء والخدم والصديق والقريب والسند . وكله مبني على حبنا انفسنا

وفي الثاني فرعان نفسي « سيكلوجي » وأدبي « اخلاقي »

الاول حب الجميل لانه جميل . او الحب الافلاطوني . والثاني حب المتفضل وهو حب اقتصادي اخلاقي ولا انسى يا عزيزتي ان الفت نظرك الى ان الحب ليس موضوع مقالات صحافية ، بل هو موضوع شعور وحياة . ولا ارى شيئاً في التاريخ اكثر انطلاقاً من الحب . لان الناس يريدون ان يستغلوه ، فخدمتهم الحب او نداؤهم بالحب ، يشبه تصرف النادبات في المآتم ، فانهنَّ يبكينَ او يتباكينَ استمطاراً للدموع ويأتينَ بعد ذلك لاستيفاء الاجرة . فايغالهنَّ في اوصاف الفقيد وأناتهنّ وتنهداتهنّ لا تخرج عن انها تمثل لنا غيرة الصحافيين على الحب ولكن في صورة ابسط ، فالحب فوق مستوى الناس . واعظم الناس حبًّا اقلهم فيه كلاماً . وهو مجهول الحقيقة عند الاكثرين . وليس الحب علماً بل هو فيض الهي ينشأ في النفس ويغيّر أوضاع الكائنات . وأكتفي الآن بما ذكر تاركاً ما بقي من شروح الحب لوقت آخر

قصص الحياة — ٣

خاتمة سعيدة

[في حياة كل امرأة حادثة تفوق سائر الحوادث في حياتها خطراً واثراً في نفسها . وقد شرعت احدى المجلات النسائية الانكليزية تنشر قصص الحياة هذه من دون تنميق او تعديل خلا تغيير الاسم الصحيح ، فرأينا ان نختار لقراء المقتطف ما تحلو قراءته او تجلى فائدته ، ففي بعضها فوائد تستطيع نساؤنا ان تقتبسها وفي بعضها مهاو تستطيع نساؤنا ان تجتنبها وفيها على الحالين نواح من حياة المرأة الغربية يحسن بنسائنا الاطلاع عليها]

اجمع كل اصدقائي على ان زواجي مقضيّ عليهِ بالخيبة . وجميع الدلائل كانت تدل على ان رأيهم كان في جانب الصواب . اذ كيف تستطيع فتاة مدلّلة ان تسعد في كوخ حقير ، حيث يحتم عليها ان تقوم بجميع اعمال البيت وحدها ، وان تبذل جهدها كل اسبوع من كل سنةٍ لتوفق بين الدخل اليسير والنفقات التي لا ندحة عنها ؟

ولكنهم كانوا على خطاءٍ . بل ان خطأهم كان فاضحاً . وانني لأرثي لهم الآن اذ اتبيّن مدى جهلهم بالطبيعة البشرية ، لأنهم ظنّوا ان الكنس والغسل والطبخ في بيت الرجل الذي احبُّ ، لا بدَّ ان تكون من البواعث على شقائي ونكدي

كان زواجنا غريباً في بابهِ . فقد كنت ابنة ثريٍّ يملك طائفة من المصانع . وكان دونلد عاملاً في احد مصانع والدي . بل ان اسرة دونلد كانت قد قضت في خدمة اسرتنا اجيالاً متوالية

التقيت بدونلد في حفلة رقص اقيمت للعمال والموظفين . وكان ابي رجلاً صلب الرأي شديد المراس ، وكان يحتم علينا دائماً ، انا وشقيقاتي ، ان نحضر هذه الحفلات . واذكر انني كنت مستاءة كل الاستياء لتحتيمه عليَّ الحضور في تلك الحفلة . ولكن استيائي زال بعد الرقصة الاولى ، لانني تعرفت في خلالها الى دونلد . كان شابًّا مديداً قويًّا يختلف عن كثير من الشبان المدلّلين الذين كنت اجتمع بهم في دائرتنا الاجتماعية الخاصة . فاحسستُ في تلك الدقيقة ، ان دونلد هو الرجل الوحيد الذي استطيع ان اقبلهُ زوجاً لي

كان علينا ان نتخطّى حوائل كثيرة اعترضت طريقنا اهمها معارضة اسرتهِ واسرتنا معاً . نعم ! لقد لقينا معارضة من اسرتهِ بقدر ما لقينا من اسرتي . ذلك ان اسرة دونلد كانت معتزّة باصلها وكان يصعب على افرادها ان يتزوج احد ابنائها من اسرةٍ تنظر اليهِ واليهم نظرة احتقار . وعلاوة على ذلك كانوا يعتقدون انني لست الزوجة التي تصلح لهُ . اذ ما هي مؤهلاتي لذلك ؟ هل اعرف او

ان اطبخ وامسح واكنس واكوي ؟ هل استطيع ان احفظ نفقات العائلة ضمن حدود دخله اليسير ؟ (وهنا لا بدَّ ان اذكر ان والدي رفض ان يزيد اجور دونلد بعد زواجنا).وما كنت املك ردًّا على اسئلتهم هذه الاّ انني احبُّ دونلد وانني مستعدّة ان ابذل جهدي لاكون زوجاً صالحة له ، الزوج التي يرتقبها

ولست اباهي بانني وُفّقت في ما سعيت اليهِ . فقضينا السنة الاولى من زواجنا على خير ما يرتجيهِ الانسان من الهناءة والرغد . فكنت احسُّ بغبطة عظيمة ان عليَّ واجباً اؤدّيهِ ، بعد ما كنت احسُّ في كلِ ما مضى من حياتي بفراغ لا اعرف كيف املؤهُ . فلما وُلد ابني شعرت بان كأس غبطتي قد امتلأت حتى كادت تفيض

ولكن ذلك لم يدم . فكان دونلد اول من بدت عليهِ امارات القلق .ذلك انهُ كان في بدءِ زواجنا يبذل بعض الجهد في ان يجري على بعض التقاليد المرعية في الدائرة الاجتماعية التي ترعرعتُ فيها . فكان لا يجلس الى مائدة الطعام الاّ وهو مرتدٍ جاكتتهُ. وكان يعنى بان يعمل بعض ما يبعث السرور في نفسي او ما حسبهُ هو من بواعث هذا السرور . فأعجبت بمحاولتهِ هذه كلَّ الاعجاب.ولكن بعد قليل ، توقف عن كلِ هذا . ولعلَّ اشقاءَهُ ضحكوا منهُ لانهُ حاول ان يقلّد قوماً لم يكن هو منهم ارضاءً لزوجهِ ، ولعلّهم لمّحوا له انهُ بدأ يتعالى عليهم لانهُ تزوج ابنة « الرئيس »

وانني لادرك ان ذلك النزاع النفسي الذي عاناهُ دونلد في تلك الفترة من حياتنا كان نزاعاً عنيفاً. فقد كان ممزقاً بين محبتهِ لي واحتقارهِ الطبيعي لمن يحتقر تقاليد قومهِ وطبقتهِ. فكان يقول :« ان ما كان يصلح لابي يصلح لي » ويجلس الى مائدة الطعام من دون جاكتتهِ او من دون ان يغسل يديهِ القذرتين . ومع ان حبي لهُ كان اعظم من ان يدع هذه الصغائر تؤثر في حبنا ، الاّ انهُ كان يرى نظرة الكآبة والامتعاض وعدم الرضا في عينيّ عند ما يفعل ذلك فيحسُّ بانهُ قد اخطأ

وبعدها اخذ النزاع بيننا يتجدد كل اسبوع او كل يوم ، مع انهُ كان في الغالب يدور على صغائر لا قيمة لها في الحقيقة

فلما كان ولدنا في الرابعة من العمر بلغت الحال بيننا من الشدة منتهاها

كان ذلك اليوم حافلاً بالحوادث الصغيرة التي لا تبعث على الطمأنينة والرضا . فلما جلست الى مائدة الطعام أنّبتُ ابننا «پيتر» على سلوكه.فانحاز دونلد الى جانب ابنهِ وقال لي بلهجة شديدة «دعي الولد وشأنه . على ماذا تريدين ان تنشّئيهِ ؟ على الدلال ؟ دعيه يأكل طعامهُ كما يشاء . انني لا اقبل ان ينشأ ابني مجموعة فاترة من قواعد السلوك المصطنع كأخوتك »

فاستأت لما قالهُ دونلد أمام ابننا . ولم تكن تلك المرة الاولى التي خاطبني بها بهذه اللهجة امامهُ . فقلت في نفسي أي نشأة ينشأ عليها هذا الطفل بين والدين في نزاعٍ دائمٍ . فكظمت حنقي ولكنني لم استطع ان اتجاهل خوفي على مصير ولدي

وكنت دائماً أقف موقف المدافعة عن نفسي اذ يزورنا أقرباءُ زوجي ، شاعرة انهم يوجهون اليَّ النقد واللوم فيما بينهم . وكان دونلد يمتنع عن مقابلة اهلي عند مجيئهم لزيارتنا . فكان من شأن هذا التنابذ الدائم ان أثَّر في اعصابي . فأصبحت استثار لاقل حادث ، ولا استطيع ان اتمالك نفسي عن ان استشيط غضباً في وجه ابني

عند ذلك شعرت بأنني لا استطيع ان امضي في الاحتمال ، وانه لا بدَّ لي من ان افترق عن دونلد ، لان في هذه الفرقة فائدة لي ولهُ على السواءِ ، فعزمت ان اعود الى اهلي ، ولو كانت عودتي وقتيةً فقط ، لعلَّ ريحاً تهبُّ فتتغير الحال .

***

كان اليوم الذي اتخذتُ فيهِ هـذا القرار من ايام دسمبر القاتمة الباردة . فجمعت بعض امتعتي الخاصة ، وكتبت كلمة الى دونلد بينت لهُ فيها قراري والباعث عليهِ ، طالبة منهُ المغفرة . ووضعت الظرف الذي يحتوي على هذا الكتاب في مكان يستطيع ان يراه فيهِ عند دخوله البيت ، وصعدت الى غرفتي لاعدَّ ابني للذهاب معي . واذ كنت في سبيل هذا ، سمعت باب البيت قد فتح واقفل وكنت اعلم ان احداً لا يملك مفتاحاً للدار غير دونلد . ولكنهُ لم يتعوَّد الرجوع الى البيت في مثل هذه الساعة . وسمعت خطواتهِ داخلاً الغرفة التي فيها الكتاب . ولبثت انتظر ما يكون منهُ عند قراءتهِ . فلم اسمع نأمةً . فدفعني فضولي الى النزول اليهِ . فوجدتهُ جالساً على ذراع كرسي ، ينظر الى الفضاءِ نظرة ساهية كئيبة ووجههُ شاحب متعب . فلما سمع وقع اقدامي التفت اليَّ وقال بصوت لم اكد أعرفهُ

« إذن هذه طريقتك الى الخلاص . اما انا فكنت قد فكرت في طريقة اخرى . . ولكن ذلك لا يهمُّ الآن »

انني احبُّ هذا الرجل . وكل طريقة يفكر فيها للخلاص مما كنا فيهِ تهمني . بل ان كل طريقة تحول دون افتراقي عنهُ تفضل طريقتي

فجثوت على ركبتي امامهُ وتوسلت اليهِ ان يقول لي ... ان يحول دون افتراقي عنهُ

وبعد قليل اتضح لي انهُ كان قد قضى الاسابيع الاخيرة يفكر في حالنا ، فتحقق انهُ يتعذَّر علينا ان نمضي فيما نحن عليهِ ، وانهُ يستحيل علينا ان نحفظ حبنا من ان تشوبهُ الشوائب اذا بقينا في بلدتنا بين اهلنا ومعارفنا . فاستقال من عمله واتفق مع احدى جمعيات المهاجرة على ان نسافر الى كندا واعدَّ جميع المعدات لذلك

الى كندا ! هناك ابدأ حياة جديدة مع دونلد وبيتر . حياة لا بدَّ ان تكون حافلة بالمصاعب والمغامرات . ولكن ذلك لا يهمني ما زلت معهما . ونحن مسافرون في صباح الغد

الملاحظة والربط والتعبير

في تعليم الاطفال بطريقة دكرولي

لمحمد حسين المخزنجي
الاستاذ بمعهد التربية بمصر[(١)]

﴿ دروس الملاحظة ﴾ الغرض من دروس الملاحظة هو تعويد الاطفال تدوين مذكراتهم الخاصة عن كل ما يحيط بهم من الظواهر وتشجيعهم على البحث عن اسباب هذه الظواهر والحقائق التي يشاهدونها بأنفسهم والتحقق من نتائجها وآثارها . كما ان دروس الملاحظة تعرض امام الطفل مشاكل الحياة المعقدة ونواحيها المتعددة بشكل عملي ملموس ، كما تقفهُ على التطور فيدرس تطور حياة الانسان والحيوان والنبات

وتكون دروس الملاحظة « عرضية » عن طريق الحوادث وما يقع تحت حس الطفل اثناء العام الدراسي فيلاحظ نمو النباتات في حديقة المدرسة ويترقب ولادة الحيوانات او موتها ، كما يلاحظ التغيرات الجوية اثناء النهار وتعاقب فصول السنة وحركة الشمس والقمر

وليس المقصود من الملاحظة ان يشاهد الاطفال هذه الكائنات وهذه الظواهر ويدركونها ادراكاً حسيًّا فقط ، بل ترمي مدرسة دكرولي الى ما هو اجدى من هذا وأنفع وهو تشجيع التلاميذ على التفكير في كل ما يشاهدونهُ ، والبحث بأنفسهم عن اسبابها ونتائجها والتغلب على كل ما يصادفهم من المشاكل

لذلك تعمل المدرسة الدكرولية على ان تهيء للتلاميذ بيئة طبيعية يجدون فيها الظواهر والكائنات الحية والنباتات وكل ما يجب ان يتعرفه الطفل

وأساس دروس الملاحظة هو التشويق . فعليه كما يقول دكرولي يتوقف انتباه الاطفال ، وهو العامل الاكبر في النشاط والانتاج الفكري . فمهمة المدرّس هي التأكد من معلومات وتجارب الاطفال السابقة حتى يتمكن من ان يوجد لهم مواد وموضوعات شائقة طريفة لم يروها من قبل ويعمل على تشويقهم وجذب انتباههم ، وبعد ان ينجح المدرس في ذلك يشجع التلاميذ على موازنة هذه الاشياء بعضها ببعض وملاحظة اوجه الشبه والخلاف بينها والوصول الى النتائج بأنفسهم بقدر ما تسمح بهِ درجة نموهم العقلي ، فيعرض المدرّس امام التلاميذ كميات مختلفة في الحجم وكرات مختلف الوانها ويطالبهم بموازنة أطوال الاشياء وحجومها وانواعها بعضها ببعض . والاطفال بمدرسة

(١) من كتاب « طرق التربية الحديثة » . راجع وصفه في باب مكتبة المقتطف

دكرولي يزنون الطيور بانفسهم كل يوم ويلاحظون الفرق في وزنها يوماً بعد يوم كما يقوم الاطفال ايضاً بقياس الاطوال المختلفة ويستعملون لذلك ما يرون من المقاييس كطول اذرعتهم أو أقدامهم أو أصابعهم

والغرض الذي ترمي اليهِ المدرسة من مطالبة الاطفال بقياس الاطوال ووزن الاشياء هو تدريبهم وتعويدهم صحة الحكم . أما ما تتضمنهُ هذه من العمليات الحسابية المعقدة كالكسور مثلاً فلا يلتفت اليها التلاميذ ولا يعطيها لهم المدرّس الاّ اذا كانوا في مرحلة من النمو تمكنهم من فهمها وادراكها

ويستعين الاطفال في كل عملياتهم الحسابية بالمحسوسات التي يبدأ بها الطفل تعلّم العد والحساب فتضع المدرسة بين ايدي الاطفال عدداً من حبّات الفول والفواكه والخرز والاقلام وغيرها : ويضع الاطفال الحبات الواحدة بجانب الاخرى الى عشر حبات ثم عشراً فعشرين فثلاثين الى المائة بعد ان يعدوها بالآحاد . ويستعمل الاطفال في قياس الحجوم وحدات يعرفونها ككوب الماء او زجاجة او ملعقة وهكذا

واثناء قيام الطفل بهذه العمليات والالعاب يوجه نظره الى ملاحظة خواص الاشياء التي يستعملها من حيث الصلابة والحرارة واللون والكثافة وما شا كل ذلك . وينشىء الاطفال مخازن يبيعون فيها ما لديهم من الاشياء ويشترون من زملائهم ما يحتاجون اليهِ واثناء قيامهم بعملية البيع والشراء يقيسون ويزنون ويتعلمون الحساب

ومن دروس الملاحظة ايضاً ملاحظة الوقت اثناء النهار واستخدام ساعة تعلق في الفصل لهذا الغرض ويدرّب الاطفال على استخدامها ويتعلمون قراءتها ويوزعون بانفسهم اعمالهم على اليوم المدرسيّ

***

﴿ دروس الربط ﴾ في دروس الربط يشجع الاطفال على تعرف العلاقة بين الحقائق والاشياء التي يشاهدونها وتقع تحت ادراكهم وبين المعلومات والحقائق المودعة في ذاكرتهم وخزانة تجاربهم السابقة . لذلك يعمل المدرسون جهدهم لتوسيع دائرة تجارب الاطفال مستعينين في ذلك بالصور والقصص والوصف وغير ذلك من الوسائل التي تثير خيالهم وغريزة الاستطلاع فيهم وتشجعهم على البحث والتنقيب عن المعلومات المتعلقة بالارض ومن عليها وما فوقها وما في باطنها وما فيها من انهار وبحار وغابات وحراج ، فيصل بهِ بحثه الى معرفة العالم وما فيهِ من اناس واقوام يختلفون عنهُ في العادات والتقاليد فيدرس احوالهم وطرق معيشتهم ويتعرَّف كيف يقضون اوقات فراغهم ويوازن بينهم وبين نفسه وبني جنسه وليس الغرض هو مجرد الحصول على مثل هذه المعلومات لذاتها ، بل المهم ان يربطها التلاميذ بعضها ببعض وان يوازنوا بين هذا وذاك ويسترجعوا معلوماتهم وتجاربهم الماضية ويربطوها ويوازنوا بينها وبين ما يجمعونه من المعلومات المستحدثة والتجارب الجديدة .

فالغرض الاساسي اذاً من دروس الربط هو مساعدة التلاميذ على استنتاج القواعد والأسس التي يمكنهم السير بمقتضاها والتي ترشدهم وتنير لهم الطريق في حياتهم كما انها تشعر الاطفال بواجبهم نحو والديهم ونحو أبنائهم في المستقبل

فهم يتعرّفون كيف لاقى آباؤهم الصعوبات وتحملوا المشاق وكيف أعدّوا انفسهم لحياة الأبوة وما ينتظرهم فيها من مسئوليات ومتاعب

كذلك يدرس التلاميذ حياة الانسان الأول وهو في حالة الهمجية . وكيف كان يعمل العدد والآلات والاسلحة بنفسه فيقدرون بذلك قيمة الاشغال اليدوية ويوازنون بين حالة الانسان الاولى وحالته التي هو عليها الآن وما ادخل عليها من اصلاح وما اعتراها من تقدم

ولنضرب لك مثلاً لذلك:—

درس على «الخبز» . أخذ التلاميذ حبات القمح وطحنوها بأنفسهم بين حجرين كبيرين . فقد تعلموا أن هذه هي الطريقة التي كان يستخدمها الانسان الاول

شعر الاطفال بتعب شديد وبعد الجهد حصلوا على الدقيق فأضافوا اليه الماء ثم وضعوه قطعاً صغيرة بين حجرين ساخنين جدًّا ، وبعد ان انتهوا من خبزه بهذه الطريقة الشاقة اكلوا منهُ ما شاءوا وكان ولا شك لذيذاً لانه من صنعهم

***

هذا هو خبز الانسان الاول . وهذه هي معلوماتهم وتجاربهم عنه ، ولكن لا بدَّ من الموازنة بين طريقة صنع الخبز قديماً وبين ما استحدثهُ الانسان الحاضر من الطرق

فيقوم التلاميذ بزيارة لاحدى مخابز المدينة الحديثة حيث العدد والآلات الكهربائية فيدهشون من تقدم هذه الصناعة وسرعة العملية ويوازنون بينها وبين الطريقة القديمة

مثال آخر : في دروس على «المنازل» . بنى الأطفال منزلاً صغيراً بعد ان صنعوا الآجرَّ بأنفسهم واحضروا مواد البناء وعملوها بأنفسهم كذلك . بعد يومين من بناء هذا المنزل الذي استغرقوا فيه مدة لا يستهان بها قامت زوبعة شديدة فلما حضر التلاميذ الى المدرسة في الصباح وجدوا منزلهم قد تهدم واصبح هشيماً تذروه الرياح في حين ان مدرستهم لم تتأثر كما لم تتأثر المباني الاخرى المجاورة فأخذوا يوازنون بين طريقة بنائهم وبناء المباني الاخرى بالمدينة

وهنالك أمثلة كثيرة جدًّا لدروس الربط والموازنة هذه فكثيراً ما يحاول التلاميذ صنع الملاعق بأنفسهم ويوازنون بين نتيجة مجهودهم وبين ما تنتجه المصانع الكبرى في المدينة كما يصنعون القبعات والملابس وغير ذلك

ولدروس الربط هذه قيمة تهذيبية كبيرة فهي تقوي روح التعاون بين التلاميذ وتقنعهم

بحاجة الانسان الى اخيه الإنسان وهي كدروس الملاحظة عرضية تأتي عن طريق المصادفات وليست منظمة

***

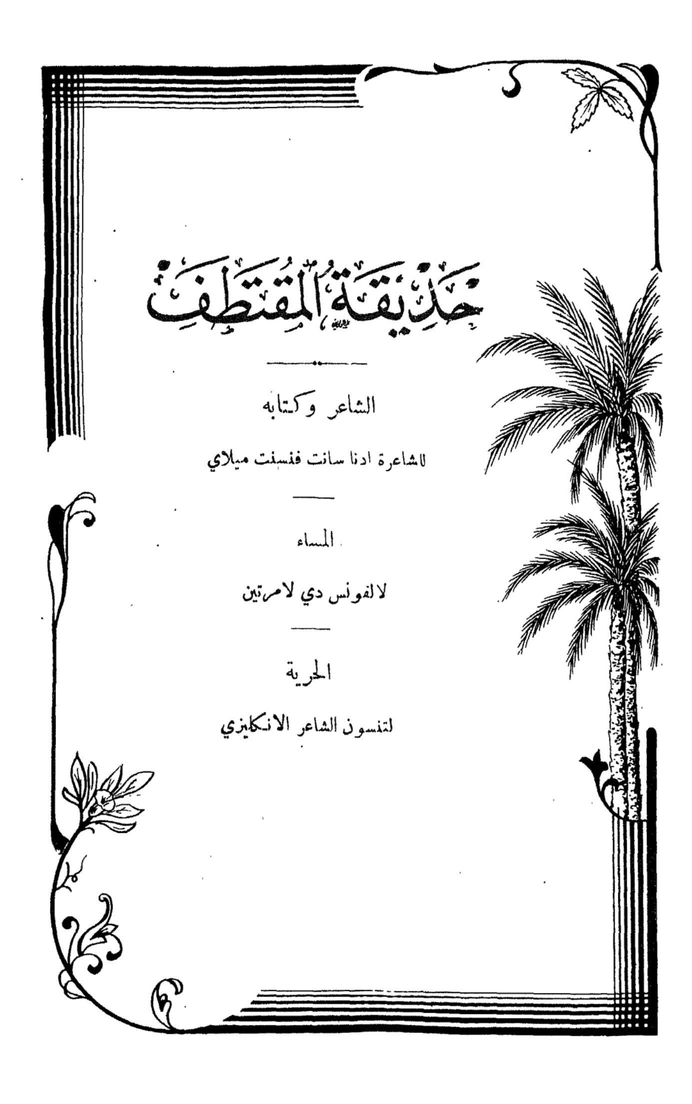
﴿ دروس التعبير ﴾ يقسم دكرولي أعمال النشاط بالمدرسة التي تساعد التلاميذ على التعبير بأنواعه المختلفة الى قسمين :

التعبير الحسي بعمل النماذج والنقش والرسم والتصوير والاشغال اليدوية والتعبير المعنوي بالقراءة والكتابة والانشاء والمناقشة . وفي نظر دكرولي ان الاشغال اليدوية أهم هذه الاعمال كلها وهي تقسم في المدرسة الى عمل مشروعات متصلة بمواد الدراسة المختلفة وعمل أشياء لحديقة المدرسة يحتاج اليها التلاميذ اثناء قيامهم بتربية الحيوانات والطيور وعنايتهم بهـا . وتلاميذ مدرسة دكرولي يأتون في كل صباح ومعهم الكثير من الاشياء التي يهتمون بها . فهم يحضرون معهم الازهار والاحجار والصور والمجلات وغير ذلك ويترك اليهم أمر تنظيم هذه الاشياء وترتيبها ، ويرشدهم المدرّس اذا احتاجوا الى الارشاد وينصحهم اذا احتاجوا الى النصح ، حتى يقسموا ما جمعوه الى ثلاثة اقسام قسم للملكة الحيوانية ، وقسم للملكة النباتية ، وثالث للملكة المعدنية . وهم يضيفون الى كل قسم من هذه الاقسام كل ما يقع تحت ايديهم يوماً بعد يوم

ولا يقتصر عمل التلاميذ على جمع هـذه الأشياء وترتيبها بل هم بعد ذلك يرسمون ، ويعملون النماذج ، ويصورون بعض ما يجمعون . ويخصصون مكاناً بحجرة الدراسة يضعون فيه ما صنعوه بأنفسهم بنظام وترتيب خاص . وتجمع الصور بنظام معين فيعلق التلاميذ ظروفاً كبيرة على جدران الحجرة ويكتبون على كل منها ما يحتويه . فظرف للملابس . وآخر للطعام ، وثالث للمسكن ، ورابع لوسائل النقل ، وخامس للألعاب ، وسادس للنباتات وهـكذا . وبعد ان يوزع المدرّس على التلاميذ صوراً مختلفة يطلب اليهم التمييز بينها ووضع كل منها في الظرف الخاص بها . .. وهم اثناء قيامهم بهذا العمل يذهبون ويجيئون بنظام وهدوء وحرية تامة واهتمام كبير

وهذه العملية تشجع التلاميذ على التفكير كما تدربهم على ضبط النفس وتكوّن فيهم الاعتماد على النفس وتعودهم احترام حقوق الغير . ويكلف التلاميذ البحث عن المعلومات بأنفسهم في الكتب والمجلات والجرائد والاعلانات والمحال التجارية ومكاتب السياحة وغيرها . وليست دروس التعبير منفصلة عن دروس الربط بل تتصل بها اتصالاً وثيقاً

ويشجع التلاميذ على جمع الصور والنماذج والأشياء في منازلهم وتنظيمها وتقسيمها كما يعملون في المدرسة تماماً . ولا بدّ من ان يدوّن التلاميذ بأنفسهم ملاحظاتهم وما يحصلون عليه من المعلومات اثناء دروس المشاهدة والربط والتعبير في كراسة خاصة يوضحونها بالصور والرسوم والألوان ، ويعنون بها عناية خاصة فهي عبارة عن ملخص للموضوعات التي يدرسونها جميعاً



حديقة المقتطف

الشاعر وكتابه

لشاعرة ادنا سانت فنسنت ميلاي

المساء

لالفونس دي لامرتين

الحرية

لتنسون الشاعر الانكليزي



التدرج (Pheasant) وهو طائر ارقش
وهذا الصنف منه يقطن شبه جزيرة ملايا وجزيرتي جاوى وبورنيو

الشاعر وكتابه

للشاعرة إدنا سانت ڤنسنت ميلاى

نقلها الشاعر علي محمود طه

إلى الوراء ايها الموت

الى وجرك ايها المتلوّن الختّال

اني استرقُ انفاسي من جذور هذا النبات

أَنشِبْ براثنك ما شئت ، واستثر كل ما فيك من قوة،فستجهد كثيراً ، وستضيق بضجرك لياليَ طويلة ، وستطمر كثيراً من العظام قبل ان تسحق عظمةً واحدةً من هيكلي الرقيق

ومتى يدركني الموت ؟

ومتى يحل بي الفناء ؟

اعند ما يشيع الذبول في هذا الجسد ، ويلفّ نبات الارض هذا الرأس بضفائره الصُّفر ؟ اعند ما يقف العشاق يعجبون مني ويتساءلون عني مَنْ اكون ؟ ... انا ذلك الراقد تحت اطباق الثرى محتجباً عن ضوء القمر ؟

اهذا فنائي الذاتي ايها الموت ؟ عند ما يقف هذا القلب عن خفقانه فلا يردد شهيقاً ولا يصعد زفيراً ؟

أبهذه النهاية المهينة تلاشي روحي ايها الموت ؟

آه . . عند ما يذوب ثلج الشتاء ، ايها الاصدقاء ، ويساقط ذوبُهُ الرغام والهشيم فلا تبكوا عليّ ، ولا تندبوني يا اصدقائي . .

ليس في شيء من هـذا معنىً من معاني فنائي . . . بل تحققوا موتي الخالد ، في تلك الساعة التي لا يجد كتابي قارئاً له . . . ساعة تتلقفهُ الارض ، ويطويهِ الخمول ويحجبهُ النسيان ! فلا يضمهُ صدر ، ولا ترتفع لهُ صيحة معجب بالشيء الذي لم يروَ بعد ، هذا الذي تنطوي عليه صحائفه . . .

وعند ما تُـرثُ كثرة العرض نسخةً من اكداسه ، فلا تجدُ من عـَرَضِ الناس شارياً بعد طول انتظار ، ينقدها الثمن البخس ، او يأخذها صفقة غبن . وعند ما تلقى اكواماً مهملةً مركومة في طريقٍ قذر ، تلطخهُ العجلات العابرة بالوحل والدَّنس

ايها المعجب ... قف قليلاً وانظر خلال غبار القرون ، وتناول هذا الكتاب ، ثم قلّبْ صفحاته المهلهلة بيدٍ رفيقة ، اقرأني ولا تكلني للموت !

تقصّ هذه الرسائل الذّابلة ، والمس المناعة في هذا الغلاف المحزن ، تجدني ملء قلبك وسمعك ، فقد كنتُ يوماً ذاتَ هذا الكتاب !

عند ما تحول هذه الشرايين اليافاً في جسم الارض ، فانظر الى هاتين المحجرين الغائرتين،تحت هذا الحَبِّ النامي المتوفز لعودةالربيع ، وهو يخترقهما بجذورهالمنطلقة انطلاق النيازك المنقضة ، واشهد هذه العروق الورديه ، وهي تهوى الى قرارة هـذا الأصيص[1] الاسود ثم تنفتل لتصوّب صعداً كانما تتنسم المطر !

ايها الصبيّة... ايتها الصبايا ، اذا ، استلقيتم تحتهذا السياج ، واخذتم بأسباب النجوى ، اذكروني ولا تكلوني للفناء ...

ايها الشبان ... ايتها الشابات ، انتم ايها المتخطرون في الغابات محدّقين إلى طَلْع الغار الورديّ ، مستغرقين في البكاء والعتاب ، امزجوني بعهودكم ووعودكم

(١) المقصود جمجمة الشاعر

لا تتركوني للموت ، ايها المزارعون الرائحون تحت الغيم الرقيق ، وتحت الشمس المتلألئة ، واذكروني عند ما تهيئون حصادكم، وتجمعون الحبّ من ذوائب الشجرات اليابسة ، وعند ما يلوّح لفحُ الظهيرة القائظة ثمر الفرصاد[٢] ، فيستحيل جنىً شهيًّا .

وانتم ايها الرعاة المتطلعون من اعالي التلال ، حيث المروج الخضر وسنانة تحلم بجلجلة الاجراس ، مُرنةً في اعناق القطيع الأمعط

وانتم ايها الملاحون ، ايها الصارخون في صخب العاصفة ،ايها الصيادون التائهون في صقيع الشتاء وفي بُهر الجليد الأشهب
اذكروني ولا تكلوني للموت

ايها الرجال ، يا من تشتهون الرقاد ، ويا من يشترون باليقظة لحظات من المرح ، اذا ما مرّت اغنية قديمة ، ذات روعة وصفاء ، فاذكروني ، إنها صادرة مني

ايتها النساء المكدودات ، ايتها المتلمسات بعضاً من الراحة ، الى ان يغلي القِدر ، انتزعنَ مني بعضَ السلوى وخذنَ مني مسراتكنَّ . وانتنَّ ايتها الباكيات في اعماقهنَّ حتى لا يكدّرن بالبكاء نوم الرجال ، امزجنني ببكائكنَّ . .

ايها الاطفال ، ايها السارقون من ضحكات العجائز ، لتركعوا عند جِذْع منقّط بالندى ، او تحت طنف تزويه الاشجار العارية ، لتتندروا بأحاديث القداسة والحب ، واقاصيص الابطال واللصوص ، واساطير المرَدَة . اذكروني ولا تكلوني للموت .

ان الشمس التي تضيء في الليل ، والجبال الراسية على هذه الاودية ، تحملني الى النور حيث اشارفكم من هذه النافذة ، واغاديكم منها كهذه الطيور المرفرفة عليها

وانت ايها الحدّاد !! امضِ في عملك ، واغمرني بوابلٍ من حصبك ، ثم ثنِّ بهذا المعول ، فستنفرط عقود كثير من الازهار ، وسيَصدأ كثير من الاكاليل وضفائر الذهب ، وسأمضي انا في غنائي حيث تطمر هذه الاكوام صلصالاً سافياً في الأرض

(٢) التوت

المساء

لالفونس دي لامرتين

نقلها جورج نيقولاوس

المساء مجلبة للهدوء والسكينة ، فكنت آنس بوحشته وافزع اليه في همومي واشجاني ، ملتمساً مقعدي فوق الصخور الجرد ، وانا اتتبع في أرجاء السماء ، مركبة الليل تتقدم ببهائها وجمالها

لقد بزغت آلهة الجمال في الأُفق ، وتحت قدميَّ الكوكب العاشق يتطلع اليها بشغف وهيام ، وقد لمع ضياؤها البهي في الفضاء ، فبيَّض على الغبراء ، بساط العشب الاخضر

وكنت اراعي شجر الزان ذا الورق الاكمد الداكن ، وأسمع حفيفه ، والرعدة التي تتمشى بين اغصانه ، فيخيَّل اليَّ ، اني محاط بأجداث عدة ، قد رفرفت حولها ارواح الموتى ، وأشباح الدُفَناء

فانفصل من السماء فجأة ، شعاع من كوكب الدجى . منسلاًّ على جبيني المغضَّن ، حتى مسَّ عينيَّ بلينه ولُدُونته

ايها الشعاع الزاهي ، لأَنت انعكاس فتَّان لنور الكرة الملتهبة ، فماذا تبغي من مجيئك اليَّ ؟ أأتيت لترفِّه عني بعض ما بي ؟ ام لتدخل الى قلبي المهدوم نور نفسي المتلألىء ؟

انزلتَ من علٍ ، لتكشف لي سرّ الحياة الخفي ، وتبدي ما استتر من امور ذلك الكوكب ، الذي يعيدك اليه اول خيط من خيوط الفجر ؟ او ان ارادة مضمرة ارسلتك الى صرعى الشقاء ، لتنير دياجير قلوبهم ، كما ينيرها شعاع الامل ؟

او هل اتيت لترفع حجب الخفاء عن المستقبل المكنون ، فتنفس عن القلوب الكليمة التعبة ، التي تبتهل اليه وتضرع ؟ . . انشدك الله ان تخبرني ، ايها الشعاع السماوي ، هل انت فجر اليوم الذي ليس له إنتهاء ؟

ان فؤادي يتأجج تحت اضوائك ، ومشاعري تفيض من جوانب نفسي ، فافكر والاسى يقطع نياط مهجتي ، بالذين رحلوا دون عودة ، فهل انت ايها النور الهادىء رسولهم اليّ ؟ او روحهم السارية اقبلت تعطف عليّ ؟

ما يدريني ، قد تكون ارواح الاموات السعيدة عادت الى الارض ، بعد ما هزّها الشوق الى مَن خلفتهم فيها ، فتزلق على اديمها متغلغلة بين الادغال ، ومتجلببة بصورها الاصلية ، فيخامرني بقربها مني ، هناء يأسر لبي ويستولى على مشاعري

لئن كنتِ انتِ ايتها الاشباح المحبوبة، فعودي كل ليلة ، لتنضمّي اليَّ في تأملاتي وأحلامي ، بعيداً عن كل بشر ، وبمعزل عن كل جلبة وضوضاء

ارجعي الطمأنينة والحب الى احضان نفسي المتعبة ، وكوني لها برداً وسلاماً ، كما تكون للارض ، نقطة الندى الليلية ، التي تسقط بعد حمَارّة النهار ، ولواذع نيرانه

هلمي اليَّ . . . ولكن ما هذا ؟ . . غبرة داجنة ، وبخار اسود داكن ، يتصاعد من حوافي الافق واطراف الفضاء ، بشكل مرعب مريع، فيحجب ذلك الشعاع الدرّي اللطيف ، ويعاود الظلام الارض والسماء ، ويتلاشى كل مرئيٍّ في غياهب الحلك ، كما تتلاشى الحياة في مهاوي الزمن

الحرية

لتنسون الشاعر الانكليزي (١٨٠٩ — ١٨٩١)

جلسَتْ الحرية في القِدَمْ على الاعالي ، وكان الرعد يلعلع عند اقدامها
وكانت السموات المكوكبة ترتجُّ فوق رأسها وفي اذنيها صخب اصطدام التيارات

جلسَتْ هنالك مغتبطةً ، قنوعاً بعقلها الكشّاف ، ولكن مقاطع من صوتها
الداوي جاءت محمولةً على اجنحة الرياح

ثم هبطت الى الحقول والمدائن واختلطت بالبشر وازاحتْ النقاب رويداً رويداً
واشرقت بوجهها الكامل على الناس

يا أُمَّ الاعمال الجليلة الفخمة ، الرانية الينا من مذبحها ،
يا من تحمل كالارباب الشوكة المثلثة ، وتلبس التاج كالملوك

ان عينيك الصريحتين تطلبان الحقيقة . ان فيهما الف سنة من الحكمة
يا ليت الشباب الدائم يحتفظ بنورهما متلألئاً فلا تغشّيهِ الدموع

يا ليت قوامك الحسن يظلُّ منتصباً لامعاً يضيء ايامنا ويخفف قتام احلامنا
ويحقّر بشفتيهِ القديستين اكاذيب المتطرفين !

باب المراسلة والمناظرة

صورة قلمية

أمين يحيى باشا

بقلم نقولا شكري

اصبحت التجارة اليوم من الاعمال التي لا غناء لها عن تعرف اسرار النفوس ونزعاتها . ونواحي التأثير فيها . وأساليب اقناعها وارضائها ونحن شعب اولي في كل ما يتعلق بالعمل . ولا يزال يعوزنا النشاط العملي الذي نستطيع به ان نكافح القوة التجارية التي يطالعنا بهـا الاجنبي في الاسواق المالية ، لاننا لا نستطيع ان نجاريه في بسيكولوجية التجارة ونحن نفقد كذلك قوة الاعلان والمزاحمة في متاجرنا ، اذ كنا نقنع منها بالسكون والصمت ، والتجارة من الاعمال التي لا بد لها من الضجة والمناداة والصراخ في آذان الجمهور ، واكتساب البقاء في ذاكرته ، ونحن نفقد الأثرة التجارية التي تجعل الانجليزي لا يشتري الا من اليد الانجليزية والمصنوعات الانجليزية وكل ما هو انجليزي ومن هنا اصبح التاجر الوطني الذي ينجح في وسطنا هذا ويزكو متجره رجلا يحمل ارادة قوية مدهشة . وهو من اكبر العارفين بعلم النفس ، لانه لم ينهزم في السوق التجارية الممتلئة بجبابرة تجار الغرب ودهاته ، وعرف كيف يقاوم العوامل الاهلية العديدة التي تعمل على محاربته وهزيمته . ولهذا كانت البيوتات التجارية العملية قليلة لدينا ، وذلك لأنها فقدت التشجيع الاهلي الذي يعينها على ان تجاري البيوتات الافرنجية المتكاثرة العديد بيننا ، ولأن كل عمل صالح في هذا البلد كبير الاثر في الحياة المصرية لا يجد شيئاً من عناية الشعب واحتفاله والموآزرة له اذ كنا نعيش عيشة مفككة الرابطة ، ليس عليها أثر ما من الظواهر الاجتماعية التي نراها في الشعب الحي المتماسك النشيط . ومن هنا كان خليقاً بأهل الصحف ان يتوفروا على تشجيع البيوتات التجارية ومعاونتها على عملها ، وبث روح التنافس بين اصحابها ، حتى تكون لنا شخصية تجارية صحيحة ، وحتى تحبس الثروة الاهلية في ايدينا ، ونصبح بعد زمن كما يفخر الانجليز اليوم شعباً من اصحاب الحوانيت

ونحن ازاء هذا قد عوّلنا على ان نقدم الى القراء كلمة موجزة عن بيت من البيوتات العملية الكبيرة وهو بيت يحيي باشا والفرد العصامي الاول الذي ترجع اليه شهرة هذا البيت هو المرحوم الحاج احمد يحيي باشا عميد الاسرة وكبيرها وكانت وفاته سنة ١٩٢٣ وقد قضى شيخاً تجاوز الثمانين قطع الحياة عملاً وصلاحاً وبرّاً ، والرجل ذو القوة الرهيبة في الاسرة ، هو عامل من عوامل صلاحها واستقامتها ونجاحها ، لانهُ يرسل في جوّ البيت انفاس الجلال والنظام والهدوء والصلاح ، ويجعل

جميع افرادها يتبعونهُ في مبادئه واخلاقه وجميع شؤونه والاسرات التي يفسد شبابها وفتياتها ورجالها لا يكون فسادها الاّ عدوى من فساد الرأس الذي يسيطر عليها ، واذا كان ذلك كذلك فلا غرو ان يذهب ذلك الشيخ الجليل المار بهِ تاركاً نسختين كاملتين منهُ . وهما نجلاه امين باشا وعبد الفتاح باشا،وقد قام الاول على اعمال ابيهِ التجارية يزيد فيها ويهذب من امرها ، ويسير فيها على طرائق من حسن المعاملة والاستقامة والشرف . فلم يلبث ان صار في الصفوة البارزة من رجال المال والاقتصاد في مصر ، ونهض مثالاً فريداً نادراً على النبوغ القوي الاخاذ ، خليقاً بموضع الفخار بسعة اطلاعهِ ، وغزير مادته

وأمين باشا مثال الشخصية الوقور المحترمة ، والجنتلمانية البادية على اكملها في المظهر والكياسة، والتزام المنطق في البحث ، وأدب الجدل والحوار ، ولطف المدخل على النفوس ، بجانب ثقافة ممتازة، واطلاع واسع وخبرة تلازمه في كل الظروف ، وهو الى هذا كله صريح . طيب القلب ، صافي النية ، رقيق الحاشية ، حرّ السجايا ، ذو افكار جريئة ، وتعبيرات رقيقة يفيض بها كالسيل الدافق في غير مشقة ولا عناء ، سامي المكانة عند رجال المال ، بارز في الندوات الرفيعة ، والمحافل العالية

وقد ولد امين باشا في الاسكندرية ، وقضى طفولته في بيت الجاه والحسب ، ورأى المرحوم والده ان يأخذ ابنه حظه من علوم الدنيا فألحقه بمدرسة الفرير ، فكانت المعارف الاولى التي اضاءت ذهن امين الفتى هي تلك المعارف التي يعنى ببثها جماعة الفرير باعتبارها عنصر مدنية وحضارة ، فبزّ بذكائه وعقله كل اقرانهِ فيها وقد كان حقًّا ان تتهادى طفولته في افانين من التربية الصحيحة ، فحرص في اثناء دراسته على ان يشبع رغبة نفسه في دراسة آداب اللغة الفرنسية على شيوخها البارزين ، ثم لم يمضِ بعد ذلك غير قليل من الزمن حتى تفتحت حياته للناس جميعاً ، اذ انتظم في سلك موظفي البنك المصري فأحرز في الزمن القصير سمعة طيبة ارتفع بها اسمه وطارت شهرته

ثم اضفى عليه النبوغ حلة من نباهة الصيت في مطلع شبابه . فآثر الاعمال الحرة مع المرحوم والده ، وكان ذلك بداية مجده المادي . واتفق انه زار الماريشال اللورد اللنبي ابان الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وأخذ يدلل له على وضاحة حقوق المصريين وعدالة مطالبهم ويهيب به الاّ ما عمل لحقن الدماء البريئة . ثم دار الحديث حول النهضة الاقتصادية في مصر فقال له الماريشال انكم معشر المصريين لا تحذقون أساليب التجارة ولا غناء لكم عن الاجنبي وقد كانت هذه الكلمة صيحة قوية داوية اثارت وطنية امين باشا وهزت شعوره القومي فخرج من مجلس اللورد محموماً واخذ يعد العدة لانشاء الشركات وتحقيق المشروعات المالية والاقتصادية فأسس في تلك السنة شركة التجارة في المحاصيل المصرية.وفي سنة ١٩٢٤ اسس شركة المكابس وفي سنة ١٩٢٥ اسس شركة السيكورتاه وفي سنة ١٩٢٩ اسس شركة الملاحة وهي اول شركة وطنية للملاحة انشئت في مصر والى امين باشا ينسب فضل التقدم والابتكار في انشاء هذه الشركات المالية الكبرى على حد قول الشاعر : —

. . . ولكن بكت قبلي فهيج بي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وقد يصعب على من يتأمل شخصية امين يحيي باشا ان ينجو من تأثيرات العمق والرزانة التي يكاد يعد رمزاً لها. وهو بطبيعة العمل الذي ينهض به يتمثل فيه التدبير وصدق النظر. ورغم انه قد جاوز الستين فلم يفارقهُ نشاط الشباب بل ان الانسان لا يستطيع ان يستخلص من اعماله غير دلائل القوة والحزم والميل الى الانشاء فان المهمة التي أداها حتى الآن في مضمار الحياة الاقتصادية تدل على المواهب العظيمة التي اوتيها في سبيل تحقيق المشروعات الحيوية

واذا اردنا ان نتكلم عن هذه المهمة فلا بدَّ لنا ان ندرك بادىء ذي بدء المصاعب التي تعترض في الاحايين اولئك الرجال الذين يعملون للنهضة التجارية وهو كما نعلم سبيل شاق يحتاج دائماً الى ذكاء وتدبير وقوة على المغالبة . وقد تمثلت هذه المزايا كلها في شخصيته وفي هذه الدائرة سيظل اسم امين باشا قدوة للنشء الذي يتحتم عليه ان يسير في الحركة الاقتصادية الى الامام فاننا بمقدار ما نخبر الصعاب التي تكون عادة في الطريق المحفوفة بالمنافسة والعراك ونعني بها طريق التجارة والاقتصاد نستطيع ان ندرك القوى العظيمة التي اختصَّ بها رجل عصامي استطاع في وقت وجيز ان يحقق عدة من المشروعات لخير هذه البلاد ونهضتها ويضع في الوقت نفسه قواعد الاشتراك في العمل للمستقبل ويبني بيده تلك القنطرة العظيمة التي ستمر عليها الذريات المصرية الى الشاطىء الجديد لمصر الناهضة

ونرى ان مجرد التفكير في ان مصر بلد زراعي قبل كل شيء وان استعداداته التجارية لا تزال محدودة وان الاجانب ما زالوا يحيطون حياة التجارة والمال بسياج من المنافسة العميقة التي تحميها الامتيازات يوحي الينا بمقدرة امين باشا وذكائه وخبرته وما أُوتي من قوة على مغالبة العوائق وان يلعب الدور الذي تقتضيه الظروف لاحياء الاقتصاد الاهلي وان ينحو على المثل الاوربية في انشاء المشروعات التي تستحث النشاط العملي في المدينة وتبعث في الوقت نفسه امجاداً مندثرة وبالاختصار استطاع ان يرسم طريقاً للعمل في تشييد مستقبل جليل للاسكندرية . فهو صاحب الفضل في تأليف الاتحاد السكندري سنة ١٩٢٧ وهو الاتحاد الذي يجمع النخبة المستنيرة من رجال المال والاعمال لتجديد حياة هذا الوطن التاريخي وانهاضه وان يبلغ من الترقي درجة يتفوق بها على سائر حواضر البحر الابيض المتوسط . وقد كانت كفاية امين يحيي باشا لهذه المهمة العظيمة . ومقدرته على تحقيق الغاية مثلاً يخلد اسمه وكان موفقاً الى احراز ثقة الذين استطاعوا ان يدركوا هذه الحركة النشطة وذلك الذكاء الفذ وكانوا وما زالوا أغلبية كبيرة تثق بعواقب هذه الحركة في مستقبل مصر القريب

ويزداد اهتمام امين باشا بكل فرصة لمنافسة الغربيين ومباراتهم في اقتباس المثل والوسائل التي يتسع بها مدى الترقي وتكمل اسباب النهضة واننا نستخلص الدليل على ذلك من تصريحات ادلى سعادته بها الى مراسل المقطم في باريس عن الغرض من رحلته الاخيرة الى اوربا ويستدل منها على مقدار الازدراء الذي يصدر من رجل الف الاعمال نحو النظريات والاساليب الناقصة وكيف ان

الاشتغال في الدائرة المادية لا يعرقل العمل المبني على العلم والاطلاع وان الذكاء لا يزال القاعدة الرئيسية في بناء الاعمال العظيمة . ونحن اذا واجهنا مشروعات امين يحيى باشا وطريقة اقتباسه للاساليب المستحدثة في التجارة والانشاء نطلع على علم واسع ودراية وخبرة مدهشتين . وجلي ان طبيعة العمل للترقي والعمران لا تخلو من جفاف وانها تحتاج الى مرانة طويلة ومناضلة ومقدرة حقيقية على التحقيق وان توفر ذلك من الحظوظ التي لابد ان تتفق للرجل الطموح الذي يعمل للغايات الانسانية النبيلة . وفي الحقيقة ان نجاح امين باشا في هذه المهمة الحيوية ونتائج علاقاته الواسعة بالاوربيين قد عادت على البلاد بخير كثير وبالاخص من الناحية الانسانية . وحسبنا ان نذكر مشروع مستشفى المواساة الذي لا يزال يحتاج الى كثير من تضامن المصريين وجهود رجال ذوي ثقة كبيرة ومناقب عظيمة . ولاشك ان هذه الجهود التي لا يزال المصريون يجنون ثمارها جديرة بالتأمل وان تظل قدوة للجيل الحاضر وسفراً يحوي كثيراً من مبادىء الاصلاح والعمران. هذا الى العمل الخالد الذي نعده اجل عنصر في حياة امين يحيى باشا وهو رآسته للغرفة التجارية المصرية ومساعيه في سبيل توسيع اعمالها وازدهارها وقديماً كانت الاسكندرية مركزاً يجمع شتى العلاقات الخاصة بالتجارة والملاحة ويلوح لنا ان ثمة سعياً قويًّا مستمدًّا من تاريخها يدل عليهِ عمل الغرفة وتوفيقها اخيراً لمضاعفة نشاطها في سبيل النهضة . ولاشك ان اشتراك امين باشا كرجل خبر المسائل التجارية طويلاً يكفل ترقي الغرض الذي انشئت من اجله الغرفة ويرقي الناحية الاقتصادية ويوسع في الوقت نفسه العلاقات ووجوه التعامل بين التجار

هذه الصفحة الخالدة من التاريخ الحديث لمصر تنسب كلها الى مجهودات زعماء الحركة الاقتصادية التي يعد من أئمتها امين يحيى باشا . ولا شك في ان مظاهر التقدم الاقتصادي التي تحيى بها هـذه البلاد اليوم مدينة في الكثير الى ذلك الاسم ويعظم تقديرنا لمهمة امين باشا عند ذكر الشركات التي أسسها وعلاقتها بحياة مصر المستقبلة من الناحية المادية فان انشاء هذه المؤسسات وحده يمثل نظاماً من احدث نظم الحياة المادية في الغرب المتمدين وكأن سعادته قد اخذ على عاتقه ان يخلي مصر من عبء عظيم فاستطاع ان ينهض بتحقيقه لكي لا يعاب على الجيل الحاضر نقص النظام الاجتماعي . وفي الحق انهُ برهن على ذكاء وجرأة واطلاع واسع في سد الحاجات التي لا بدَّ منها لترقي المجتمع وسيبقى اسمه مقترناً بنتائج المهمة التي تؤديها هذه الشركات لمصر . وسيذكر تاريخ مصر الحديث ان احد ابنائها العاملين بعـد ان وصل الى القمة في الدائرة التجارية وكان في الوقت نفسه مشاركاً في كثير من المقتبسات المستحدثة لبعث تاريخها اسس لتوسيع نظامها الاجتماعي وتكميل اسباب حياتها المادية عدة شركات تجارية كبرى. ولا شك في ان الاساليب المستحدثة التي اتبعها امين باشا في تكميل نظام العمل في مصر تكفل وحدها تخليد ذكره

على ان من يلاحظ ما خلفه العصر القديم من آثار الخمول وعدم الاطمئنان للمستقبل في طبقات الشعب المصري يدرك مقدار الجرأة التي ابداها سعادته في سلوك هذا السبيل وكيف غامر وظهر على

جميع منافسيهِ ولم يبال بأقوال الذين كانوا يحسدون فيهِ الرجل التجاري العظيم الخبرة الواسع الاطلاع

وبالاختصار نقول ان حياة امين باشا يحيي ستظل عنصراً هامًّا من عناصر تاريخ مصر الحديث

وهناك ناحية اخرى ليست مجهولة في حياة امين باشا وهي تلك الناحية المتعلقة بالحقبة التي ظلَّ يدافع فيها عن مصالح الاهلين في القومسيون البلدي وكيف انهُ بقي محتفظاً بثقة تامة فيما يختص بالخبرة وصدق النظر وانهُ عمدة في الرأي وان ثمة حاجة دائمة الى استفتائهِ في كثير من المسائل . وقد بقي ذلك الى ما بعد تخليهِ عن عضوية القومسيون وإنا لا ننسى موقفهُ في الخلاف الذي نشأ بين البلدية وشركة النور بشأن ثمن الاضاءة وتدخله المحمود في مقاومة جشع الشركة وكيف استطاع ان يجعل قرار القومسيون وقتئذٍ بلا جدوى بعد ان تبين انهُ على نقيض مصلحة المدينة وان ينال بما لهُ من النفوذ والثقة بتأييد الوزارة وترجيح مصلحة الاهلين

وهكذا يحتفظ لهذا الرجل الفذ الى الآن بميزة تدل على خبرته الواسعة وقوة نفسه في الرجوع اليهِ غالباً عند الفصل في المسائل الهامة المتعلقة بالمدينة

ونحن نستطيع ان نستخلص من كل هذه المجهودات الحيوية وطنية حارة واخلاصاً عمليًّا منتجاً لمصر . فقد كان امين باشا ولا يزال حافظاً لهذه الميزة دون ان يحيطها باعلان عن نفسه مطلقاً وهو يعلم انهُ يعمل لاسمى غاية والى غرض هو اشد ما تحتاج اليهِ مصر في حاضرها ومستقبلها . ونرى ان هذه الشخصية التي اقتحمت الحياة المادية بجرأة ولم تبال بالمصاعب ستظل موضوع اعجابنا واعترافنا بالجميل

إرشاد لغوىّ

فى كل جزء كلمة

الاستاذ عبد الرحيم بن محمود

الوصْفة

وقف القرّاء فى مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٤ على أن القَدَميّة هى أجرة الطبيب فعلينا ان نحييها حياة طيبة ونميت قزت الانكليزية (visit) وڤزيت (visite) الفرنسية

وفى هذا الجزء أرشد العرب والمستعربين إلى إحلال (الوِصْفة) مُحَل رِشتّه التى تداولتها الخاصّة مثل العامة بألسنتهم ويراعهم وهم يعلمون أعجميتها

فى محيط المحيط «وصف الطبيب المريض وِصْفَة بيّن له ما يتعالج به والاسم — الوِصفة — »

وقال الحريرى من مقامته العمانية : فإنك ستجد منى عرافاً كافياً ووصافاً شافياً — أى طبيباً ماهراً

ومصادر الهيئة (النوع) من الأفعال الثلاثية مقيسة فلا اعتراض عليّ فيما قلت ولكن لتطمئن قلوبكم أيها القرأة عرضت عليكم ما في محيط المحيط — وقد فشت الوصفة في كتب الطب عند المتقدمين من المستعربين في « تذكرة داود » وكتاب الرحمة في الطب والحكمة وفي غيرهما والعامة يفتحون الواو فيقولون الوَصفة وهم يريدون الهيئة وهو خطأ منهم فإن أرادوا المرة فلا أراهم مخطئين وليس هذا مقامها

ولمستدرك أن يستدرك قائلاً إن تخصيص الوِصْفة بالدواء الذي يصفه الطبيب فيه حجر على حرّية معناها فالوصفة تبيّن كيف يُصنع الطعام والشراب والدواء وكل شيء لإبانة حال كلّ . فأدفع استدراكه بأنه لا مانع من تخصيص العام إذا اتفقنا عليه كما فعلت العرب في هذا وفي غيره وما صاحب محيط المحيط بمفتر عليهم الكذب لمّا روى في مادة وصف ما روى ونقلته عنه ومن حسن الاتفاق اتفاق الافرنج والعرب على تخصيص العام في هذا المقام فالفعل اللاتيني receptare معناه يتسلّم ويأخذ أي شيء ومنه رِشْبِتَا recepta وقد اخذ الفرنسيون منهُ رِستّ recette والايطاليون ريتشيته ricetta [1] فاستعملوها في الوِصْفة للدواء سواء أكان مركباً ام غير مركب على ان التسلم بلغ الغاية في العموم مع البعد او الوصف وما أخذ منه كالوصفة عام فتخصيصه بوصف الدواء وإبانة أجزائه التي يتركب منها إن كان مركبًا ليس في الاصل اللاتني فإذا ساغ لكل من الامتين الايطالية والفرنسية الاخذ من اللغة اللاتينية لفظاً تارة بمعنى التسلّم اى الاخذ وطوراً بمعنى وصف الدواء فلم لا يجوز لنا نحن المستعربين ان نخصص الوِصْفة ببيان ما يتعالج به المريض كما قال المؤلف لمحيط المحيط

وقد وهم من قال « الوِصفية » هي الورقة التي يكتب فيها الدواء فاننا في غنية عن هذه النسبة لان الوصفة علم جنس على هذه الورقة التي يكتب فيها الدواء بعد تشخيص هذا المرض لان القلم قام في الدلالة مكاتبة مقام اللسان محادثة . وقول صاحب محيط المحيط (الوصفية حال الوصف) معناه شأن الوصف . على ان الورقة حاملة للوِصْفة قولاً والاوعية حاملة للوصفة عملاً والثانية مسببة عن الاولى وقد يطلق السبب ويراد المسبب كما يطلق الملزوم ويراد اللازم وكذلك العكس بالعكس في كلّ — وهذه من سبل المجاز المرسل وهو من المجاز اللغوي . وإني أرى اللفظ العامي رِشِتّه أقرب إلى الكلمة الايطالية منهُ إلى الفرنسية وقد تقدمتا — ولا يخفى عليك أن الاشتقاق من اللاتينيّة في هذا المقام قد انتقل من طور إلى طور حتى بلغ هذا الغور في تينك اللغتين[2]

(١) ويقال ان ricetta مأخوذة من recipe وتنطق بها ريتشيبه أي الاخذ ايضاً وفعله ريتشيبري recipire وهذان المصدران صحيحان في اللغة اللاتينية لانها مختلفة اللهجات فلا غرو اذا اختلفت فيها الكلمات وان لم يختلف المعنى

(٢) توجيه : زاغ البصر في مقالي السابق بمقتطف ديسمبر سنة ٣٤ عن تحرير الكلمة (تلك) من المثال المطبوع (في تلك اللغتين العربية واللاتينية) والصواب في تينك الخ لان الاشارة الى اللغتين والخطاب للواحد المذكر في السطر التاسع عشر من الصفحة ٥١٠

حول ارشاد لغوى

« قدمية » في العامية ايضا

لاديب عباسي

قرأت مغتبطاً في المقتطف الاغر ما اعتزم عليهِ الاستاذ الفاضل عبد الرحيم بن محمود من مطالعة قرّاء المقتطف عند آخر كل شهر بكلمة يحقّق فيها لفظاً لغويًّا مفيداً فيفيد الجاهل عِلمَ ما لم يعلم ويُنبّه الغافل الى ما أهمل . وكانت كلمة الشهر الفائت في لفظة «قدمية» التي استعملها اطباء العرب القدماء لمثل ما تستعمل له كلمة « ڤزيت » الافرنجية هذا اليوم ، ولكن اطباء العصر الحاضر اهملوا استعمالها ، او على الاصح ، لم يهتدوا اليها ليستعملوها ، فاضطروا مرغمين الى استعمال « ڤزيت » الاعجمية للدلالة على الاجور التي يتقاضاها الطبيب مقابل سعيه الى المريض في بيته او في محل عيادته

قرأت الكلمة وشعرت ، وأنا اقرؤها ، كأن هذا اللفظ الذي انتشله الاستاذ من هوة النسيان ليس بالغريب عن ذاكرتي ولا بالطارىء على وعيي . بل لقد تجاوب في نفسي الالفة والخلو المطلق من الغرابة . فرحت اكد الذهن واداور الخاطر ، وسؤالٌ على شفتي : متى وأين ؟ وأخيراً فطنت الى ان الامر اقرب مما توهمت وذكرت انه من الالفاظ الشائعة على ألسنة العامة في سوريا الجنوبية (وأعتقد شيوعه في بقية انحاء سوريا) الى حد الابتذال . وعلى كل فقد اتهمت نفسي عندها وقلت ، ايعقل ان يكون العامة احصف من الخاصة واكثر حفظاً لدرر اللغة من الاطباء والمتعلمين؟ ألا يكون ان اللفظ شائع على السنة العامة لغير المعنى الذي يراد من كلمة «ڤزيت» ؟ وضمني الى رهط من الاصحاب مجلسٌ بعدها بيوم ، فأحببت ان ازيل الشك بطريقة عملية ، فسألت : ماذا تقولون اذا شئتم التعبير عن الاجور التي تدفع للطبيب اذ يزور مرضاكم والمهندس اذ يكشف على بيوتكم المتصدعة وموظف الحكومة اذ تكلفونه الكشف على عقار او خلافه ؟ فكان الجواب بلسان واحد من الجميع : «قدمية» . وعندها ايقنت اليقين كله ان اللفظ دارج على ألسنة العامة مستعمل لمثل ما تستعمل له كلمة « ڤزيت»

وعبرة هذا ان العامية التي نبالغ في احتقارها والزراية عليها تحتفظ لنا في صدرها بكثير من الدرر الغالية . وما علينا لننالها الاّ ان نكون مفتحي البصائر والابصار بعيدين عن العجرفة واحتقار كل ما كان عاميًّا او منسوباً الى العامة . اذا فعلناها تيسر لنا ، ولا ريب ، ان نرد كثيراً من اللفظ العامي الى اصوله الفصيحة التي كثيراً ما تكون مهجورة ، فننسمها بذلك نسيم الحياة ونعيدها سيرتها الاولى . وتخدمنا هذه العامية ايضاً اجلَّ الخدم اذا اتخذناها دليلاً وهادياً الى كثير من الالفاظ الفنية العملية مما كان سائراً على ألسنة الخاصة حيناً من الدهر ثم غاب — لسبب من الاسباب — من كلامهم ، وظلَّ دائراً على السنة العامة كلفظة « قدمية » السابقة ، مثلاً . وفرق كبير بين ان يعمد الباحث الى المعاجم والمظانّ اللغوية يفتش عن اللفظ يراد للتعبير عن معنى من المعاني المحددة ولا دليل لهُ الاَّ صبره وجلده ، وبين ان يعمد الى هذه الامهات ، واللفظ العامي الذي يعبر عن المعنى دليله وهاديه

الموضوع في الفلسفة وعلم النفس

ليعقوب فام

قدمت لقراء المقتطف كتاب الاستاذ مظهر سعيد والسيدة قرينته فردَّ الاستاذ في مقتطف دسمبر الماضي وعرج في ردّه على ترجمة كلمة « Subject » فقال « وكنا نرجو كذلك ان لا يترجم كلمة Subject بموضوع لانها تأتي بهذا المعنى في الانشاء ومواد الدراسة فقط اما في علم النفس فتدل دائماً على المجرب او الذات او الشخص او الفاعل اما الموضوع فترجمة object والكلمة لم ترد في كتابنا بهذا النص كما قد يفهم القارىء »

وقد كنتُ اود ان يتنبه الاستاذ الى ان الكلمة Subject لها معان مختلفة بحسب الوضع الذي تستعمل فيه ، فلها معنى في الفلسفة وآخر في الانشاء وثالث في علم النفس

ففي الفلسفة تعني الذات العاقلة المفكرة التي تتصل بالدنيا الخارجية وتحاول ان تتعرف طبيعتها وأصولها وغاياتها . وقد استعرت الحرب في الفلسفة في وقت من الاوقات وما زالت مستعرة الى الآن حول اثر هذه الذات او هذا العقل في مظاهر الكون هل هي كائنة مستقلة عن العقل ام هي مظهر من مظاهر هذا العقل وهذان المذهبان هما (١) Naturalism or Realism و (٢) Idealism or Subjectivism وهنالك استعمال ثان لكلمة Subject وهو في الانشاء او موضوع الدراسة كما جاء في كلام الاستاذ في المقتطف

وأما في علم النفس التجريبي وفي التحليل فكلمة Subject معناها object of study or experiment فالمريض بأي مرض نفسي اسمه Subject والشخص الذي يخضع للتجارب النفسية تجرى عليه اسمه Subject وهذا هو موضوع الدراسة او موضوع التجربة او موضوع العلاج

وما كنت لارى داعياً الى التبرؤ من استعمال هذه الكلمة « موضوع » Subject في كتاب الاستاذ ، وما كنت لارى داعياً الى التنبيه الى انهُ لم يستعملها بهذا المعنى قط ، لان الواقع انه في كتاب الاستاذ بالذات لا يصح ترجمة Subject الاَّ بكلمة موضوع لأن كل من يحاول ان يقوم بالتجارب المفصلة فيه هو experimenter ومن تجري عليه هذه التجارب هو Subject او هو موضوع الدراسة والتجربة . ولعلَّ استعمال الكلمة في الفلسفة وفي الموضوعات الانشائية حمل الاستاذ على الظن بأن ترجمتها بالفاعل أصح

ثم ارجو ان لا ينسى الاستاذ مظهر ان ثورندايك وبافلوف ووطسون ويركس وغيرهم من علماء النفس التجريبيين كانوا يجرون تجاربهم على ناس وعلى حيوانات كبيرة وصغيرة وكانت هذه الحيوانات their subject وكانت هذه موضوع دراستهم

حول كتاب

الاسلام والحضارة العربية (١)

اللهم اني اسألك السداد ... وبعد فلو ذهبت استقصي للقارىء ما نما بنفسي وأنا اقرأ فصول هـذا الكتاب لخرجت بهِ من حدّ عرْض فكرة الكتاب الى بسط فكرتي عن الاسلام وحضارتهِ والعرب وثقافتهم التي اختبأت في دمائهم وعقولهم وألسنتهم من اقدم عصور التاريخ ثم تنفست بالاسلام كما يتنفس الفجر ضوءًا وحياةً وهمةً وشباباً وأنا هنا اجمع بين الامرين على ما يحفُّ بذلك من عنتٍ ومشقة

والمؤلف الجليل الاستاذ كردعلي يقصُّ على القارىء في مقدمته قصص كتابه فيقول «لما قرر المجمع العلمي العربي « يعني بدمشق » انتدابي الى تمثيله في مؤتمر المشرقيات الذي عقد في مدينة ليدن من بلاد القاع في صيف ١٩٣١ رغب اليّ اعضاؤه المفكرون ان ألقي فيه جملة اعرض فيها لما لا يزال يسري على اسلات اقلام بعض مؤلفي الغرب ، ولا سيما علماء المشرقيات ، من امور نابية عن حد التحقيق والنصفة ، كلما ذكروا الاسلام واهله والعرب ومدنيتهم » . ثم يقول

« وسبيل هذا الموجز الآن ، تصحيح هفوات من أساؤا وما برحوا يسيئون للعرب ودينهم ورسولهم ومدنيتهم ، وذكر ما اثرته الحضارة العربية في أمم الغرب والشرق ، وما مني بهِ الاسلام ، لما غير اهله ما بأنفسهم ، من خصماء غير رحماء ، نالوا من روحه وجسمه ، فالتاثت احواله ، وتنكرت معالمه ، والالماع الى ما قام بهِ المسلمون بعد طول الهجعة ، يلوبون على استعادة مجد اضاعوه، وعلقوا اليوم يقطعون اليهِ اشواطاً ، حتى لم يبق امامهم غير مراحل لبلوغ الغاية»

في هـذا الكفاية لمن يريد ان يكون رجلا عربيًّا من نسل ذلك الشعب العجيب الذي بدّد جيوش الأمم الطاغية في اول أمر الاسلام ، وانشأ على انقاضها اجتماعاً اسلاميًّا عربيًّا كلهُ محبةٌ وعطفٌ وعدلٌ . وفي هذا الكفاية وفوق الكفاية للذين يتولون أمر التعليم في الامم العربية ليهبّوا من غفلتهم ، وينظروا إلى ما يحاط بهِ مجدهم من كيدٍ وقتالٍ

إن العار أن يقضي الشاب من أول نشأته إلى آخر خروجه من دراسته — أعواماً طوالاً يدرس في اثنائها تاريخ نابليون وأمته ، وفلاناً وفلاناً من افذاذ الامم الغربية ، وهو لا يعرف من ماضي امته العربية الاّ نتفاً تذهب مع الأيام . هـذا الماضي الذي يصوره الذين يتعرضون للتاريخ من مستشرقين يقولون غير ما يعلمون او يقولون فيما لا يعلمون ، او عربٍ قد فسدت قلوبهم على تاريخهم

(١) تأليف الاستاذ كرد علي لجنة التأليف والترجمة والنشر . مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ الجزء الاول

فهم يستقيدون لآراء عن تاريخهم كلها بهتانٌ وتدليس . هـذا الماضي الذي يصورون في صورة مسخ تاريخي هائل قد خرج على الدنيا كما يخرج الوباء ثم انقشع عنها فأعقبها صحة وعافية او كما يقولون!!

الاَّ ان الضلالات التي احاطت بالتاريخ العربي والاسلامي لهي من اسوإ الضلات واشدها واعصاها على العلاج . فاذا لم يتنبه العرب والمسلمون الى تاريخهم تنبه المريد الى ما يريد اماثوا في الامم ذات الهمم كما يماث الملح في الماء وأضحوا بدداً لا يجتمع لهم شمل ولا يؤول آخرهم الى مجد اولٍ يلوذ به او يستعصم

هذا وقد استوقفني من كلام الاستاذ كرد علي الذي رويته آنفاً قوله يذكر « ... ما قام به المسلمون بعد طول الهجعة يلوبون على استعادة مجد اضاعوه ، وعلقوا اليوم يقطعون اليه اشواطاً حتى لم يبق أمامهم غير مراحل لبلوغ الغاية » ! !

اني لاقرأ هذه الكلمات فتتمثل لعيني (خريطة) العالم العربي الاسلامي من اقصى الشمال الى ادنى الجنوب ومن مشرق الشمس الى مغربها ، وأعرض قول الاستاذ على امةٍ امةٍ من بلادنا فلا اجد قوله يرتاح الى واحدة منهنَّ . هذه هي السلاسل وهذه هي القيود ، وهذه بعض الامم تمرح في طول من سلاسل الحديد طرفها بيد المستعمر فيخيل الى الناظر ان ما بهذه الامم من المرح والنشاط هو انحلال من السلسلة وما هو به إن هو الاّ بعض الغفلة التي نحن فيها الى الاذقان مقحمون

ان الاشواط التي قطعتها هذه الامم فيما يسمى حضارة او ثقافة هي غير الاشواط التي يجب ان تقطعها الى الحضارة والثقافة . وان السبيل التي مضينا فيها غير السبيل التي فرض علينا سلوكها ان اردنا ان نبلغ غاية يقال لها « لم يبق امامنا غير مراحل »

أين الأُمة الاسلامية العربية التي يريدها الاستاذ على ما فهمنا من فحوى كلامه . . . . ؟ أين الرجل العربي المسلم الذي يرتفع في الجو كما ترتفع الطائرة التي تحمل أسباب الموت ودلائل الحياة ثم ينقضُّ كما تنقضُّ القذيفة من عليائها فلا تذر من شيءٍ الاّ أتت عليه فجعلتهُ هشيماً تذروه الرياح

إن أمامنا مراحل أولها مهد الطفل العربي الرضيع . وآخرها هذا القبر فاغراً فاه يلتقم ما تمضغه الحياة من الابدان العربية ذات السيادة والحضارة والاخلاص والعدل

فانظر إلى هذا المهد الذي لا يخرج منهُ الاّ الضعيف والمهزول والاعزل الذي لا سلاح لهُ في الحياة ، وهذا الذي ينام على هدَّاتِ الجبال وقصف الرعود وخواطف البروق ، وهذا الذي يمشي حيران ليس لهُ هادٍ ولا دليل ، وهذا العود الخرِع الجميل الذي يتثنى ويتبرج «تبرُّج الانثى تصدت للذكر » كما يقول ابن الرومي

ثم انظر الى هذه المدرسة التي لا يخرج منها الاّ الادعياءُ واشباهُ الاذعياءِ ممن استودعوا جماجمهم عقولاً غير عقولهم ، واذهاناً غير اذهانهم ، وصاروا اتباعَ كلّ ناعقٍ

ثم انظر الى هؤلاءِ وقد ساروا في سبيل الحياة والعمل كما يسيرُ ذوو العاهات فنهم الاعرج

والأكتع ومقطوع الساقين ، والاعمى الذي لا يهتدي والفيلسوف الذي لا يعقل .... ! ؟

ثم انظر وانظر ... هل ترى الاّ اقوالاً ملفقة قد لبست ملابس الفلسفة والعلم والادب، وتكلمت بها افواهٌ تتعاقل على الناس وليس لها من ورائها عقلٌ مستوٍ قد قرّر معنى المجد او الحرية او الاخلاص او المعنى الذي يتبع الانسان اينما سار او حلّ ، ذلك المعنى العظيمُ الذي لا يغفلُ عنهُ الاّ من لا حياةَ فيه ألاَ وهو الموت

اني لأبكي .... وآسي ... و... الخ حين اذكرُ هذا ، واعلمُ اني اتكلم بمثل هذا عن امةٍ انا منها وهي مني ، واني ليحزنني ان لا اجدَ مندوحة عن القول ، ثم لا اجدُ معدًّى عن استقصاء التصريح في هذا القول . فان الدنيا كلها تسيرُ وتعدُّ من اسباب القوة والجبروت ونحن لا نجد لدينا من اسباب ذلك الاّ ألسنة .... !! وما تنفع الالسنة في زمن ألسنته غير هـذه التي خلقها الله وسوّاها من لحمٍ ودَمٍ

اذا اردنا ان نكتب هذه الكلمة التي كتبها الاستاذ فنقول « قد قطعنا اشواطاً ونحن الى الغاية ولم تبق الاّ مراحل » فان امامنا اهوالاً واهوالاً لا بدّ من ملاقاتها والتمرُّس بها تمرُّس المصارع المفتول الساعدين بالاسد الهصور الجائع الذي يريد ان يملأَ معدتهُ ليتضلع من طعامهِ ويبسط اهابهُ العضِل في ضحى الشمس تماماً لمتاعهِ ولذته

البيتُ العربيُّ الاسلاميُّ الذي يخرج رجلاً يقفُ في مهبّ الريح يملأُ رئتيهِ من الهواءِ النقي استعداداً لطلب العيش الذي هو المجد

والمدرسة العربية الاسلامية التي تخرج رجلاً كالاسطول المدرع بالعلم والفلسفة والخُلُق والقوة البدنية والمكتسبة والتي هي الحرية

والاجتماع العربي الاسلامي الذي يفرضُ على كل رجل ان يعمل ثم يعمل في غير وهن ولا ضعف باذلاً روحهُ الفردة في غير شح ولا بخل لتنالَ الارواحُ جميعها الحياة المتوّجةَ بالمجد والمحفوفة بالحرية والتي هي السيادة

ان لكل امة تطلب مجدها وحريتها وسيادتها اسلوباً متبعاً وسبيلاً مقررة لا عِوَجَ فيها ولا أمْت ، فلنطلب لانفسنا اسلوباً وسبيلاً ولننشيء بيوتنا ومدارسنا واجتماعنا نشأة أخرى غير هذه التي نحن عليها من التقليد المريض الذي ذهب بشبابنا واستهلك مادة الحياة فينا

هذا التاريخ الذي يصححهُ الاستاذ كردعلي في كتابه هو اولُ ما يجبُ على البيت والمدرسة والصحافة والاجتماع ان تصححهُ في اذهان الاطفال والشبان والمثقفين من الرجال والنساء . وهذا الاسلوب الاجتماعي الذي نعيش فيه يجب ان يغير من اوله الى آخره حتى يصبح رجولةً عارفةً متثبتة لا تهزل ولا تغفل . وهذا الموج الزاحف علينا من اقطار الارض بالفتن والبدع لا بد من تقديم الحيطة له في العقول والابدان . والاّ فنحن الى هلاك لا الى غاية لم يبق منها الاّ مراحل

إني لأرى في هذا الكتاب الذي بين يدي انواعاً من الفكر وألواناً من القول كلها يؤدي الى مثل الذي نقول به ونعمل له ، وهو دليل نافع لكل من يريد ان يقف على حقيقة ما يحيط بأمته من الكيد والطمع ... ولا ارى لعربي فضلاً عن متعلم فضلاً عن مثقف وفضلاً عن رجل يطلب المجد والحرية . مندوحة عن الاستفادة منهُ مع التاريخ الذي يردُ شرعته من اصوله وكتبه

ان امامنا المراحل كلها الى غاية المجد فلنبدأ بتكوين ما يؤدي اليها وان في حقائق ما يحيط بنا لحافزاً الى العمل والاخلاص والنهوض والمبادرة الى ما ليس منهُ بُدٌّ . وان في التاريخ العربي لعبرة وان فيه لأمثالاً من المجد والعدل ، وان فيه لصوراً من الحرية يجب ان يتمثلها كل عربي — ما دام حيًّا — بين عينيه أنى سار وحيثما نزل وفي هذا الكتاب أطرافٌ من كل ذلك . فلعلّ الله يحدث لنا من بعد هذا ذكراً في العالمين محمود محمد شاكر

الشخصيات البارزة التاريخية

بقلم الدكتور أحمد فريد رفاعي — صفحاته ٢٢٧ قطع المقتطف

كان كاتب هـذه السطور مولعاً من حداثته بتراجم العظماء . فقرأ اولاً كتاب سرّ النجاح الذي ألّفه صموئيل صميلز ونقلهُ الى العربية الدكتور صرُّوف رحمهُ الله . ثم اكبَّ على تصفُّح مجلدات المقتطف يطالع فيها التراجم التي انطوت عليها ومنها تراجم لكبار الساسة مثل بسمارك وغلادستون او لكبار القوّاد كالاسكندر وهنيبال وقلب الأسد ونبوليون او لكبار الادباء والشعراء من طراز تنيسُن وكبلنغ وملتن وأبي العلاء ، او لكبار العلماء والفلاسفة امثال طاليس وغليليو ونيوتن وارسطوطاليس وسبنسر ، او لكبار رجال المال والأعمال انداد ركفلر وروتشيلد وكارنيجي وفورد ، او لكبار الروّاد من غرار سكوت وپيري وشاكلتن وامندصن . وقد تركت هذه المطالعة في نفسهِ اثراً عظيماً تحوّل بعد الدرس والاختبار وموالاة المطالعة في كتب التراجم ، الى اعتقادهِ في ان خير الوسائل لعرض المعارف على الشبان والشابات وتشويقهم الى الاستزادة منها ، هي ادماج الحقائق في صلب تراجم العظام والعظيمات . وكذلك يستطيع الطالب ان يستوعبها من دون عناء او كدّ وهو يطالع حوادث السيرة بما فيها من نزاع بين المادة والروح ، وصراع بين عوامل الخيبة وقوة المشيئة ، وترفع عن الصغائر ، وعناية بالاركان ، وخلود الذكر بعد خمول واضطهاد في الحياة على الغالب

وهذا الاعتقاد حفزه الى اصدار بعض هذه التراجم التي نشرها المقتطف مجموعة في كتب «اعلام المقتطف» و« الروّاد » و«رجال المال والاعمال» . وينتظر ان يظهر كتاب «اساطين العلم الحديث» في المستقبل القريب

قدّمنا هذه الكلمة بين يديْ كتاب الدكتور احمد فريد رفاعي ، للدلالة على شدة عنايتنا بهذا الضرب من الادب العالي ، الذي يلخص الحياة في سيرة رجل او سيدة ، وشدة حاجتنا اليهِ كذلك . ففي مدى عشر صفحات او عشرين صفحة يتسع للكاتب ميدان السرد التاريخي القصصي ، والتحليل

النفسي ، واستخراج العبرة الخلقية والاجتماعية . وهذه العناصر في الكتابة « البيوغرافية » رفعت كتب التراجم في الأدب الأوربي والأميركي الحديث حتى كادت تساوي القصص والروايات في رواجها وسعة انتشارها

أما صديقنا الدكتور رفاعي فقد جمع بين دفتي كتاب واحد سير طائفة من الناس قد لا تجمع بينهم جامعة ما ، الاّ جامعة العظمة الصحيحة والاثر الجليل في فائدة أممهم وأوطانهم . تجد بينهم السياسي بسمارك ، والصحافي بوك ، والصناعي المخترع فورد ، والمحرّرين توسان ولنكان ، والتاجر ولورث ، والمربي بوكر وشنجطن ، والخليفتين العظيمين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب . فسيرهم في هذا الكتاب اشبه بمراءٍ تعكس نواحي مختلفة من الحياة لا تتم الثقافة الاّ بتدبرها جميعاً

وليس الغرض الذي توجّه اليهِ المؤلف تصوير العصر الذي نشأ فيهِ كلٌّ منهم وسرد حوادث حياتهم تفصيلاً ، لانهُ لو قصد الى ذلك لما اتسع الكتاب الواحد لاكثر من ترجمة رجلٍ واحد . بل غرضهُ رسم صورة لحياة الرجل واثره لا تحتوي على اكثر من الخطوط البارزة في حياتهِ وعمله . ثم استخراج العبرة من ثناياها . وهو يعمد الى طريقة السرد حيناً والى اسلوب المخاطبة احياناً . فيخاطب القارىء كأنهُ يذكره بشيءٍ يعرفهُ ، ولهذه الطريقة اثرها في استرعاءِ نظر القارىء واستدراجه . ثم انهُ يعمد في الحين بعد الآخر الى قطع حبل السيرة على القارىء ليلقي عليهِ عظة في العبر الخلقية والاجتماعية التي يقتضيها السياق . والاستعبار بهذه السير مقصد جليل وانما كنا نفضل ان يترك ذلك للقارىء يستخلصهُ بنفسهِ من الحوادث ووقعها واثرها او يشار اليهِ من طرفٍ خفي . اذ لا يستطيع قارىء ان يطالع سيرة فورد الاّ ويدرك ما للمثابرة والابتكار والمقدرة على التجدُّد من الاثر في نجاح الصانع والتاجر ، ولا يسعهُ ان يقرأ ترجمة لنكان من دون ان يدرك كيف تسخّر الحياة جسماً من لحم ودم في سبيل اغراضها العليا ، فترفعهُ من الكوخ الخشبي الى القمة ثم تضحي بهِ راضيةً ليكون مصرعهُ ذكرى خالدة لعتق العبيد والاحتفاظ بوحدة الامة الاميركية . والمثل الاميركي يقول « ان صوت اعمالك يصمُّ اذنيَّ فلا اسمع ما تقول » وهو قول ينطبق على فعال هؤلاء العظماء

وخلاصة القول ان كتاب الدكتور رفاعي هو على حدّ قول الاستاذ مكرم عبيد « كتاب ضروري . بل هو ألزم ما يكون لأمةٍ ناشئةٍ كأمتنا ، شعرت بكامن شخصيتها . . . . . . فدراسة الشخصيات البارزة . . . تنمّي الشخصيات الناشئة وتبرز الشخصيات الكامنة . . . . وهي ضرورية لنا نحن المصريين . . . . . لأن سير العظماء والبارزين لا تدرس في مدارسنا الاّ بطريقة عرضية ضمن دراسة التاريخ ، ومن المحزن اننا ونحن أغنى امةٍ في التاريخ ندرس التاريخ دراسة جامدة لا روح فيها ولا حياة ، فتراه يدرس في مدارسنا من ناحية الحوادث لا من ناحية الاحياء الذين ينفخون في الحوادث روحاً من روحهم . . . . »

التجارة الدولية

بحوث اقتصادية — للدكتور احمد محمد ابراهيم — استاذ الاقتصاد السياسي — في مدرسة التجارة العليا بالقاهرة صفحاته ٢٧٩ قطع المقتطف — لم يذكر اسم المكتبة ولا ثمن الكتاب

ان القول بأن المباحث الاقتصادية لها مكانة خطيرة في دراسة العمران الحديث ، قول كالاوليات الرياضية لا يحتاج الى دليل . فللانتاج الاقتصادي في كل بلادٍ من بلدان الارض اثر مباشر او غير مباشرٍ في وضعها السياسي وصلتها بالبلدان الاخرى ، ورفاهة شعبها وثقافته . وليس ثمة بلاد تستطيع ان تبتَّ روابط الاتصال الاقتصادي التي تربطها بالبلدان الاخرى وتعيش بمعزل عن الناس . اذ لا نعرف بلاداً — حتى ولا الولايات المتحدة الاميركية — تستطيع ان تستنبط من ارضها جميع الخامات التي تحتاج اليها في صناعاتها ومرافقها العامة . فتبادل مواد الزراعة والصناعة ، على اختلافها وما يقتضيهِ ذلك من تبادل المال، ركن اساسي من اركان العمران الحديث . وقد اصبح له من الشأن في هـذا العصر ، حتى ان جفافاً في اميركا او فيضاناً في الصين او استنباط آلة جديدة في اميركا ، او وقوع فضيحة مالية في باريس ، او إقبال في مواسم روسيا ، يؤثر في الحالة لاقتصادية في مختلف امم الارض ولو لم يكن بعضها متصلاً اتصالاً مباشراً قويًّا بتلك البلاد التي حدث فيها الجفاف او الفيضان او الاستنباط او الفضيحة او الاقبال

فأسلاك الاقتصاد الدولي، الخفية تربط بين امم الارض ربطاً اوثق وأقوى من ربط حبال النحاس وامراس الكتان . وهي لشدة تأثيرها في اتجاهات السياسة العامة والخاصة تسيطر على الاحوال العامة وما يصحبها من اضطراب او استقرارٍ ، من غلاء المعيشة او رخصها ، من فورة النزعات القومية الجامحة او سكونها ، من ميل الى الحرب والفتح ، او رغبة في السلام والوئام

فدراسة التجارة الدولية، دراسة انسانيةٌ علاوة على كونها دراسةً عملية مادية يحتاج اليها التاجر والمموّل وموظف البنك وتلميذ التجارة العليا

ومن هنا في رأينا فائدة هذا الكتاب . انهُ يجمع بين دفتيه اهم ما تريد ان تعرفهُ عن تاريخ التجارة الدولية وقواعد الربح منها وميزانها الحسابي وتوازنها والصرف الدولي «الكامبيو» وقواعده والعوامل التي تؤثر فيهِ وتسوية ديون الحكومات الخارجية وتدخُّل الحكومة في الصناعة والتجارة وحجج اصحاب حرية التجارة وحجج انصار حمايتها

كل ذلك وغيره مما يتصل بهِ تراه مفصلاً احسن تفصيل في ابواب هذا الكتاب . ولكنك في الوقت نفسهِ لا تستطيع ان تطالع هذه الفصول الاَّ وتخرج منها وقد قويت فيك النزعة الانسانية ولبُّها ان المصير الاقتصادي في امة من الامم لا يمكن ان يفصل عن المصير الاقتصادي في الامم جميعاً ، وأن نكبة تصاب بهـا امة لا بدّ ان يكون لها دويٌّ وأثر في سائر الامم ، وان التعاون القائم على اسس من التفاهم والتبادل هو الركن الصحيح للاقتصاد الدولي

والكتاب نفسهُ ينمُّ على سعة اطلاع مؤلفهِ وحسن بيانهِ في موضوعات لا تزال في حاجة الى تذليل مصطلحاتها العربية . وفي كل صفحة من صفحاته تقريباً اسناد الى الثقات من كتب الاقتصاد ومجلاته الكبيرة . فاذا قرأه التاجر اصاب فيه فائدة عملية لأنهُ يبسط له معقدات العمليات التجارية والمالية الدولية واذا قرأه غير التاجر اصاب لوناً نفيساً من الوان الثقافة الانسانية العالية

مذكرات

بقلم الامير امين ارسلان صفحاته ١٣٨ — مطبوعة طبعاً متقناً في المطبعة التجارية في بونس ايرس

الامير امين ارسلان سياسي وكاتب ، تولى المناصب العالية في بروكسل وباريس وبونس ايرس فكان فيها مثال الغيرة على المصالح العمومية وسالت يراعتهُ بالمقالات الاجتماعية والبحوث التاريخية فبلغ شأواً بعيداً في البلاغة والدقة . يلمّ بالموضوع الذي يتناوله من جميع نواحيه ، ويمدّهُ في الاستقصاء اطلاعه على الحوادث الشرقية في الثلاثين السنة الاخيرة اطلاعاً لم يتح الاَّ لقليلين من الناطقين بالضاد لاتصاله الوثيق برجالات العرب والترك البارزين

وهو لبعده الآن عن التأثر بالعوامل السياسية المختلفة ينعم فيما يكتبه — خاصة — بثقة تُنزل كلامه منزلة التاريخ الذي يستطاع التعويل عليهِ

للامير امين مؤلفات عديدة باللغة الاسبانية كان لصدورها الدويّ القصي في الهيئات الادبية العالية في الارجنتين ، وله كذلك مؤلفات باللغة العربية اقبل عليها محبو المطالعة المفيدة اقبالاً يستحقهُ ما سطّر بين دفتيها . وبالرغم عن المهام التي تلتهم وقته فان سلسلة كتبه لم تنقطع ، وقد اصدر مؤخراً الجزء الاول من مذكراته وفيها وثائق سياسية هامة يرجع عهدها الى ايام كان قنصل الدولة العثمانية في عاصمة البلجيك سنة ١٨٩٨ . وهو يصف لك في هذا الكتاب كيفية قطع العلائق السياسية بين فرنسا وتركيا من جراء دين صيرفي ويكشف القناع عن السبب الذي دفع بملك بلجيكا الى رفض قبول سفير عثماني ، ويتناول ذكر خطة سياسية حربية بين اليابان وتركيا لسحق روسيا ، ويطلعك على مقدمات قتل قنصل روسيا في مناستير على اثر انتهاء الحرب الروسية اليابانية ، ويبين لك المصاعب التي اعترضت قنصلية تركيا في عاصمة البلاد الفضية

هذه الفصول الهامة التي كان الامير من ابطالها ،مكتوبة باسلوب سهل لا تعقيد فيهِ ولا ابهام تغلب على معظمها الصبغة الروائية بحيث لا تحمل المطالع — المحدود الثقافة — على الملل منها . والى جانب هذه الميزة — وهي ليست بالضئيلة — نجد اهميتها من الوجهة التاريخية وهي تلقي شعاعاً على حوادث كثيرة تبدو متناقضة في الكتب التي تبحث في الشؤون التركية — العربية الاخيرة

نحيي الامير على هذه الخدمة الادبية القيمة ، آملين ان يبرّ بوعده فينشر في القريب العاجل مذكراته عن « تركيا الفتاة » ولا نشك في انها ستفوق من حيث خطورة شأنها

عاصمة الارجنتين — الياس قنصل

طرق التربية الحديثة

للاستاذ محمد حسين المخزنجي

تكرم صديقي الاستاذ المخزنجي فاهدى اليّ كتابه « طرق التربية الحديثة» فقرأتهُ من اوله الى آخره بما في ذلك مقدمته ومراجعه وهوامشه ذلك لان الكتاب يستحق ان يقرأه كل انسان يهتم بشؤون التعليم والمدارس ، لا بل يجب على كل المثقفين الادباء والعلماء وارباب الفنون ان يقرأوه لانهُ في الواقع كتاب فذ في اللغة العربية لم يسبق ان وضع مثله بهذه الاستفاضة والتطويل في شرح طرق التربية الكثيرة التي تتبعها المدارس في الغرب . وقد عرض فيهِ الاستاذ النظم التي تتبع في خمسة انواع من المدارس ، وهي طريقة منتسوري ودالتون ودكرولي والمشروع وجيري ، عرضها جميعاً بشكل مستفيض واف يكفي لاعطاء القارىء فكرة صحيحة عن جميع هذه الطرق ، لا بل تكفي لمن ليس له المام قط باحدى هذه الطرق ان يعرف مزايا الطريقة وعيوبها ويستطيع ان يرى لنفسه ايها تصلح لبلادنا

ولا اظنني مستطيعاً ان اوفي هذا الكتاب حقه من المديح والثناء لانهُ يتبين للقارىء لاول وهلة ان واضعه محيط بما يجري في دوائر التعليم احاطة شاملة ، يستطيع من يقرأهُ ان يرى ان الاستاذ اكبّ على دراسة هذه الطرق دراسة وافية ، والواقع اني استطيع ان اقرر من معلوماتي الخاصة ان الاستاذ المخزنجي هو من اكثر شباننا موالاة للدرس والاطّلاع ، وانهُ يقف كل اوقات فراغه على هذا الضرب من النشاط دون غيره

ولي نقد على الكتاب ، وهو ان طريقة المشروع فيه لم تنل حظها الواجب لها من الاستفاضة في الشرح والتفصيل ، وكان يجب ان تستغرق معظم فصول الكتاب لانها في رأينا خير الطرق في التربية ، وهي اولى بعنايته من سواها ، ولكنهُ على ما يظهر سئم الاطالة في الكتابة وكلَّ من البحث واراد ان يتعجل ظهور الكتاب وكان من نتيجة ذلك ان خسرنا كثيراً ولم يكسب هو شيئاً

قابلت الاستاذ بعد ان قرأت كتابه ، فقلت « ما هذا يا استاذ ؟ » فقال كفى اني اعرف ما تريد ان تقول ، واعرف موضع العتب ، واعرف اني اذنبت ، واني سأكفر عن هذا الذنب بوضع كتاب خاص لطريقة المشروع ، وسأفعل ان شاء الله » واني اظن انهُ سوف يفعل

واظنني لا اكون مغالياً اذا قلت ان اي مكتبة عربية تكون ناقصة نقصاً معيباً اذا لم يوجد فيها هذا الكتاب ، وارجو من وزارة المعارف ان تضعهُ في كل مكتبة تصل اليها يداها ، لانهُ لا يمكن الاستغناء عنهُ بحال من الاحوال

انا لا ازعم مطلقاً ان الكاتب اتى بشيءٍ جديد في موضوع التربية والتعليم ، وانا موقن ان الاستاذ نفسه لن يزعم هذا الزعم ، ولكن هذا الكتاب شيء جديد في اللغة العربية ، جديد على الذين لم يطلعوا على هذه الابحاث في اللغات الاجنبية ، والحق اني معجب بهذا الكتاب ، واني قرأته مرة وسأقرأه مرة اخرى

يعقوب فام

احسن ما كتبت — هدية مجلة الهلال

اجاد محرر هذا الكتاب في وصف المصاعب التي يلقاها من يحاول ان يؤلف مجموعة من هذا النوع قال : — وقد يبدو وضع هذا الكتاب من أسهل الامور وأقرب الاعمال . والواقع ان العناية التي بذلت فيه فاقت كثيراً من المجهود الذي يبذل في غيره . ذلك لان الموضوع دقيق ، يدعو الى الحيرة . وهذه الحيرة هي التي اعترتنا واعترت بعض الادباء الذين اقترحنا عليهم ان يمدونا بأحسن ما كتبوا أو نظموا . فمنهم من عارضنا بقوله : إن افعل التفضيل هذا مستحيل بين الآثار القلمية للكاتب الواحد ، لانهُ يعتبر مقالاته ومؤلفاته كأولاده لايفضل احدهم الآخر . ومنهم من رأى ان احسن ما كتبه لم يكتبه بعد ، لانهُ لم يرضَ حتى الآن عما كتبه ، وليس لديه أحسن ولا حسن ... ومنهم من اعترض على كلمة «احسن» ورأى ان تغير بكلمة «اصدق» فهو يقترح علينا ان يكون الموضوع « اصدق ما كتبت » لان الكلام لا يكون حسناً الاَّ اذا كان صادراً عن شعور صادق . ومن بين هؤلاء جميعاً طائفة — على الكثرة — اجابتنا الى اختيار احسن ما كتبته في رأيها

ولكن هذه المصاعب لم تحل دون احتواء الكتاب على قطع شعرية ونثرية من ابلغ ما خطه اعلام كتابنا المعاصرين ، وان كان نصفها تقريباً مما اختارهُ المحرر لا الكتَّاب ، تنتقل فيه من علم الى ادب الى اجتماع الى شعر عالٍ الى فلسفة وتاريخ فكأنك في روض مونق فيه كل ضرب من الاشجار والازهار تسترعيك الوانها الزاهية وروائحها العطرة ويشجيك تغريد الاطيار في افنانها . انهُ والحق يقال « انثولوجي » بديعة للادب العربي الحديث

مجلتي

طال ارتقاب الجمهور لمجلة الاستاذ الصاوي الموسومة باسم « مجلتي » ، فلما طلعت عليهم في اول دسمبر الماضي لم تخيب ظنهم في ذوق صاحبها وحسن استعداده لخدمة الادب العربي والاجتماع المصري . فقد وعد في مقدمتهِ الموجزة ان يجعل القصص عمادة مجلته . وقد برَّ بوعده . ففي العدد الاول تلخيص بليغ لقصة شانتكلير بقلم الاستاذ انطون الجميل بك رئيس تحرير الاهرام . وفصل من رواية تمثيلية للكاتب المجيد توفيق الحكيم . وتلخيص قصة « الغيرة » للفنان المجيد ساشا جيتري بقلم صاحب المجلة . وترجمة موجزة للكاتب الايطالي پيرندللو وترجمة احدى اقاصيصه . وفي المجلة عدا القصص شؤون اجتماعية مثل حديث مع هدى هانم شعراوي وصورتها وبحث في هوميروس صاحب الالياذة ومقال في التعاون الاقتصادي الاجتماعي ورأي اللادي اللنبي في السعادة الزوجية

وفيها كذلك صور فنية متقنة الطبع . ولولا ان صفحات الاعلان فيها تتخلل صفحات المجلة لما رأينا عليها مأخذاً . ولكن بعض المجلات الغربية يفعل ذلك ، وقد لا يلام الصحافي المصري اذا التمس من باب الاعلان دخلاً يمكنه من تجويد عمله . فنهنيء الاستاذ الصاوي بـ « مجلتي » ونتمنى لها اطراد النجاح لتقوم بنصيبها في خدمة الادب والثقافة في هذه البلاد

باب الأخبار العلمية

جوائز نوبل السنوية وأصحابها

لم يمنح من جوائز نوبل هذه السنة الا اربع جوائز . وللجنة نوبل الحق في ان تمتنع عن منح اية جائزة من الجوائز اذا رأت بعد البحث ان ليس هناك بحث او كشف او تأليف في السنة السابقة يبلغ الدرجة الممتازة المطلوبة . اما الجوائز التي منحت هذه السنة (١٩٣٤) فقد اصاب الاميركيون اثنتين منها والانكليز واحدة والايطاليون واحدة

فالاميركيون فازوا بجائزة الكيمياء نالها الاستاذ يوري استاذ الكيمياء الطبيعية بجامعة ولومبيا جزاء على كشفه الايدروجين الثقيل وهو ايدروجين خواصه الكيمائية شبيهة بخواص الايدروجين المألوف ولكن وزن ذرته مضاعف وزن الذرة في الايدروجين العادي . وفازوا كذلك بجائزة الطب والفسيولوجيا نالها ثلاثة اطباء هم الدكاترة مينو ومرفي وهوپل لكشفهم عن علاج الانيميا الخبيثة بالكبد وخلاصتها

وقد فاز الانكليز بجائزة السلام (سنة ١٩٣٤) منحت للمستر هندرسن وزير خارجية بريطانيا سابقاً ورئيس مؤتمر نزع السلاح ومساعيه في سبيل السلام وخفض السلاح شهيرة وقريبة العهد فلا داعي الى ذكرها . وللسر نورمن انجل (سنة ١٩٣٣) وهذا ليس اسمه الحقيقي بل اسمه الحقيقي هو رالف لاين وقد كان زميلاً للمرحوم سليم بك مكاريوس في تحرير جريدة الديلي ميل . واشهر ما اشتهر بل قبل الحرب كتابه «الوهم الكبير» الذي اثبت فيه ان الحرب خسارة على الغالب والمغلوب معاً . وهو امر نراه الآن لا يحتاج الى اي دليل ولكن احداً لم يسلم به سنة ١٩١١ لما اصدر السر نورمن كتابه. ومن اشهر كتبه بعد الحرب « ثمار الظفر» بيَّن فيه كيف تحققت النظريات التي بسطها في « الوهم الكبير »

اما « لويجي براندللو » الفائز بجائزة نوبل الادبية فمن اكبر كتَّاب المسرحيات في هذا العصر وله في كتابته نزعة فلسفية بارعة وتهكم لاذع وروَّاد السينما في مصر لا ينسون روايته « كما تريدني » التي مثلتها للستارة الفضية الممثلة الشهيرة جريتا جاربو

تبديد الضباب برذاذ كيماوي

لا يزال الضباب من اعظم الحوائل التي تحول دون سلامة الطيران وبوجه خاص اذا كان ملبداً فوق المطار الذي تحاول الطائرات ان تنزل فيه

وقد حاول المخترعون ان يتغلبوا عليه من هذه الناحية باستنباط آلات تمكن الطيار من الهبوط الى ارض المطار التي كان الضباب يحجبها عنه. وحاول الطبيعيون الكيماويون تبديده بوسائل كهربائية او كيمائية. وأحدث محاولة من هذا القبيل قام بها طائفة من علماء معهد ماستشوستس الصناعي في اميركا. فقد اعد الاستاذ هوتون رذاذاً كيماوياً اذا رشّه في بقعة تلبد فيها الضباب تكثّف البخار المائي الذي في الهواء فيسقط مطراً على الارض وينجلي الجو

الضوء الازرق وميل النبات

ظاهرة انحناء النبات او ميله او اتجاه ازهاره وأوراقه الى ضوء الشمس ظاهرة معروفة ولكن الامر الذي كنا نجهله في هذه الظاهرة هو ان الالوان التي يتألف منها ضوء الشمس لا تؤثر نفس التأثير في اجتذاب النبات الى ناحيتها بل ان لوناً ما قد لا يجذبها على الاطلاق

وقد عني العالم ارل جونستون من علماء المعهد السمثصوني الاميركي بدرس هذه الناحية الفتانة من حياة النبات فحلّ ضوء الشمس الى اشعة الالوان المختلفة التي يتركب منها فأدرك بالامتحان تأثير كل طائفة منها في ميل النبات وانحنائه فوجد ان اقواها تأثيراً من هذا القبيل طائفة من الامواج تقع في منطقة اللون الازرق. وان هذا التأثير يضعف بالاتجاه من الازرق الى الاحمر ويعود فيقوى قليلاً عند اشعة اللون الاخضر المزرق ثم يضعف ضعفاً مطرداً بعد ذلك في اتجاهه الى الاحمر حتى يبلغهُ. والنباتات التي جرب بها تجاربه لا تميل ولا تتجه نحو اللون الاحمر قط

الاستدلال بالنبات

على ثروة الارض المعدنية

كان معدنو اليونان القدماء يباهون بأنهم يستطيعون ان يعرفوا المعادن التي تنطوي عليها الأرض من مراقبة النبات النامي على سطحها فكان معاصروهم يهزأون منهم أو على الاقل يضربون بكلامهم عرض الحائط! فاذا عمدوا الى التنقيب وعثروا على المعادن التي قالوا بوجودها استناداً الى النبات النامي على سطح الارض قال المرتابون انهم نقبوا في تلك الارض قبلاً فعرفوا ما فيها ثم حاولوا ان يقنعوا الناس بأنهم يعرفون السبيل الى سرها من مراقبة نباتها

ولكن احد علماء التعدين المحدثين يقول ان الادلة متوافرة الآن على ان المعدنين يستطيعون ان يعرفوا طائفة من المعادن المطمورة في الارض من النبات النامي على سطحها وبوجهٍ خاص اذا كان ذلك النبات كثيف النمو في بقعة ما. وكانت النتيجة التي اسفرت عنها هذه المباحث الحديثة ان شرع علماء البلدان المختلفة يعنون عناية خاصة بدرس النباتات المختلفة وعلاقتها بالثروة المعدنية المطمورة في جوف الارض

خذ مثلاً على ذلك مقاطعتي الرور وسيليزيا العليا في المانيا وبعض مقاطعات البلجيك تجد في بقاع منها نباتاً يعرف باسم «خمل (قطيفة) كالامين». وعند البحث ثبت ان كل بقعة يكثف فيها نمو هذا النبات تحتوي على ركاز الزنك (الخارصيني) وليس من النادر ان يوجد هذا الركاز على بضعة امتار تحت سطح الارض فقط

ويقول احد علماء التعدين انه طلب اليه

مرة ان يحدد نوع المعادن التي توجد في ارض يكثر فيها نمو اشجار الزان فقال «الحجر الجيري» وكان ما قال . وهو يستند في قوله هذا الى ان نوع المعادن المطمورة في الارض يعين نوع التربة ونوع التربة يؤثر في اصناف النبات التي تزكو فيها

قال انهُ كان مرة يجول في مقاطعة دربي في انكلترا فرأى اشجاراً من الفصيلة السماقية فقال لصحبه ان في هذه الارض رواسب غنية بالرصاص قال ذلك من دون ان ينكت الأرض بعصاه او يتفرس في حجر من الحجارة التي يدوسها فعجبوا لقوله. وقد وقع له شيء من هذا القبيل في الولايات المتحدة الاميركية ويقول ان اغنى مناجم الرواسب الرصاصية في اميركا قائمة في منطقة تزكو فيها هذه الاشجار السماقية

وثمة شجر يدعى شجر القان او التامول (Birch) يدل على وجود رواسب حديدية في الارض التي ينمو فيها . واغنى مناجم الحديد توجد حيث تكون اشجار القان اشد ما تكون نمواً

وحدث مرة ان معدناً كان يجول في اسبانيا فاسترعى نظره نوع من نبات المحمودة وكان يعلم ان هذا النبات يتأثر في نموه وزكوه بمعدن الفصفات فقال ان وجوده في تلك البقاع لا بدَّ ان يكون دليلاً على وجود رواسب فصفاتية هناك . فأفضى برأيه الى جماعة تحترم رأيه فاعدوا المعدات للتنقيب وما انقضت بضعة اسابيع على تنقيبهم حتى عثروا على مناجم غنية بالفصفات

والظاهر ان الرواسب الفضية توالي نمو نبات يعرف باسم «اريغون» والعجيب في هذا ان المعدنين الاميركيين وجدوا انهُ حيث يزكو هذا النبات توجد رواسب فضية غنية

وعثر المعدنون في ولايتي مشيغن ووسكنصن على بجلات (شجيرات) من نبات معين لا نذكر اسمه العلمي لانه غير مشهور فاسترعت نظرهم فاستدعوا بعض النباتيين ليستطلعوا منهم طبائع هذا النبات وخصائص نموه . فقيل لهم انهم قد يجدون في التراب شيئاً من مركبات الكبريت . وعند التنقيب وجدوا رواسب كبريتور الرصاص المعروف باسم غلينا المستعمل في سقي الحديد وغيره من الاغراض الصناعية

آلة سينما عجيبة

صنع المهندس هينز روزنبرجر آلة سينمائية عجيبة يمكن استخدامها لتصوير المشاهد الدقيقة التي تشاهد بالمكرسكوب عند بحث المكروبات او ما هو من قبيلها من الكائنات المكرسكوبية

وزن هذه الآلة ٥٠٠ رطل وتستطيع ان تصور صوراً طول الصورة منها ٢٤ ملمتراً وعرضها ١٨ ملمتراً . وقد صنعت بها افلام علمية بديعة لانقسام الخلايا وعملية ابتلاع الخلايا الغريبة بواسطة لهمات الدم (اي الكريات التي عملها التهام الاجسام الغريبة التي تسطو على الجسم) وصوّر دورة الدم ونمو المكروبات في المزدرعات وغيرها من الظاهرات الطبيعية البيولوجية التي لا تتاح مشاهدتها الاّ بالمكرسكوب وفي احوال ليست شائعة حتى ولو امكنت مشاهدتها لشوهدت منقطعة

وحبذا الحال لو اتصل اولو الامر عندنا

بمعهد ركفلر في اميركا وطلبوا نسخاً من بعض هذه الافلام لعرضها في المدارس حيث تدرس مبادىء الطبيعة والفسيولوجيا وعلوم الحياة فانها تقرب المبادىء الى الطلاب وتغريهم بالامعان في الدرس والبحث

تأثير الغدد

اتجه علم الطب في العهد الحديث الى دراسة الغدد الصم اي الغدد التي لا قنوات لها لمعرفة تأثيرها في احوال الجسم في الصحة والمرض وقد فاز الباحثون بمعرفة اسرار طائفة منها كالغدة الدرقية وغدد الكلى والغدة الحلوة (البنكرياس) والغدة النخمية. وكانت هذه المعرفة سبيلاً الى شفاء علل كثيرة ظن حتى الآن انها مستعصية لا تعنو لعلم الطبيب وعلاجه

ولكنَّ هناك غدداً ظلت افعالها محاطة بستار كثيف من الجهل الى ان كشف الباحثون سبيلاً الى اماطة الستار عنها ومن هذه الغدد الغدة الصنوبرية والغدة الصعترية

فلنأخذ هذه الغدة الصعترية اولاً وهي غدة مكانها في صدر الانسان. لقد ثبت من البحث انها تؤثر في الجسم فتستعجل افعاله الحيوية والعقلية. فقد اخذ الدكتور رونتري الاميركي وصحبه طائفة من الجرذان واضافوا الى غذائها خلاصة الغدة الصعترية خمسة اجيال متعاقبة. ثم لاحظوا جرذان الجيل الخامس فاذا السرعة في نمو الجرذان نموًّا جسميًّا وعقليًّا ستة اضعافها في الجيل الاول. فقد ظهرت الاسنان في جرذان الجيل الرابع في خلال اربع وعشرين ساعة تقابلها تسعة ايام او عشرة في الجيل الاول. وفتحت العينان ونبت الصوف في جرذان الجيل الخامس في اليوم الثاني والثالث بدلاً من اليوم الرابع عشر الى السابع عشر. وفطمت في اليومين الثاني والثالث بدلاً من اليوم السادس. وتقدمت سن البلوغ في ذكور الجيل الخامس الى الفترة الواقعة بين اليوم الرابع واليوم الثامن عشر بدلاً من الفترة الواقعة بين اليوم الخمسين واليوم التسعين. اما في الاناث فتقدمت سن البلوغ فيها من ٧٠ — ٩٠ يوماً الى ٢٠ — ٢٥ يوماً. وزادت قوة الاخصاب كذلك

وهذا اذ تصورنا ما يقابله في البشر كان كما يأتي: اذا اضفنا خلاصة الغدة الصعترية الى غذاء خمسة اجيال من فريق من الناس استطعنا ان نفطم طفل الجيل الخامس اذ يبلغ بضعة اسابيع من العمر ويمكن الطفل نفسه من المشي وعمره نصف سنة وان يبرع ويبرز في الالعاب في الخامسة وان يتخرج في المدارس الثانوية وهو في العاشرة

اما الغدة الصنوبرية فلها عكس فعل الصعترية اي انها تبطىء افعال النمو او انها بالقياس للغدة الصعترية كالفرملة بالقياس الى محرك السيارة

والبحث لا يزال في مستهله ولكنهُ على كل حال يفتح سبلاً جديدة الى دراسة الصلة بين نفسية الانسان وحالته الفسيولوجية. ويحضرنا في هذا الصدد ان العلامة مكالم الاميركي اثبت ان اضافة المغنيزيوم الى الغذاء يميل الى جعل الطباع «حلوة» وانهُ على الضد من ذلك يرى ان طباع «الخلقي» سببها نقص ملح هذا العنصر في الجسم

لودج والسنما العلمية

السر اوليفر لودج شيخ من شيوخ العلم وهو الآن في الثالثة والثمانين من عمره وكان في شبابه من رواد العلم الحديث . فقد كان من اوائل الباحثين في موضوع الاشعة اللاسلكية بحثاً عملياً وفي طليعة العلماء الذين رحبوا بفتوحات علم الطبيعة في عالم الذرة والالكترون وله مباحث طريفة في صلة الضباب الكهربائية ووقاية المباني الشاهقة من الصواعق . وهو من العلماء القليلين الذين لم ينبذوا الاثير بعد ما اثبت مذهب النسبية ان لا حاجة بالعلم اليه بل هو يقول ان الاثير لا غنى عنه لتفسير بعض الظاهرات الاساسية في الطبيعة والحياة والعقل . وعلاوة على كل ذلك يؤمن ببقاء الشخصية بعد الموت وبامكان مناجاة الارواح وقد وضع كتاباً ضخماً ضمنه وصف اتصاله بروح ابنه ريموند الذي قتل في الحرب الكبرى

***

هذا العالم الجليل لبى من ايام طلب شركة سينماتوغرافية انكليزية كبيرة تعنى الآن باخراج سلسلة من الافلام العلمية يتحدث فيها كل عالم من العلماء عن ذكرياته العلمية ثم يرسم صورة للعمران كما يتوقعه في آخر هذا القرن اي سنة ٢٠٠٠ ميلادية

وقد اشار السر اوليفر لودج في الفلم الخاص بهِ الى ايام الكهربائية الاولى وضعف الوسائل المستعملة لتوليد التيار الكهربائي ثم قال انهُ يتذكر اول مصباح كهربائي عرض على المهندسين الكهربائيين وقيل فيهِ حينئذٍ انهُ مصباح يصلح للقراءة ولا يحتاج الى عيدان الثقاب (الكبريت)! وقال انهُ يتذكر زيارة غراهام بل وعرضهُ للتلفون على سبيل التجربة في لندن ثم اشار الى مباحث العلامة هرتز في توليد الاشعة اللاسلكية والتقاطها

***

وبعد ذلك قال ان القرن الحاضر يحاول ان ينكر الاثير . ولكن الاثير في رأيه هو المركز الرئيسي لاشعاع الطاقة وقبل ان ينقضي هذا القرن وعلى الاكثر في مستهلّ القرن الحادي والعشرين يعترف العلماء بأن الاثير هو السبيل الوحيد للاتصال بين الذرات فيخرج علم الطبيعة من حالة الغموض المستولية عليهِ الآن وتعود للاثير مكانته العليا في نظام الكون من حيث هو المادة الوحيدة التي تربط اجزاء الكون بعضها ببعض ومن حيث هو اداة الحياة والعقل

وقد صرح السر اوليفر بعد انهاء الفلم لمكاتب الديلي اكسبرس ان اجسامنا الاثيرية — اي الاثير الذي يتخلل اجسامنا المادية — هي الاجسام التي تبقى بعد الموت وان مخاطبة هذه الاجسام لا بد ان تتقدم وانهُ لم يفز بعد بمثل هذه المخاطبة ولكن ايمانه بامكانها لم يضعف

استانبول كما كانت قبل محمد الفاتح

في رسالة العلم الاسبوعية ان الغازي مصطفى كمال قد قرر ان يعيد استانبول الى ما كانت عليهِ قبل سنة ١٤٥٣ م وهي السنة التي فتحها فيها السلطان محمد الفاتح . ولكي يعرف الغازي ما كانت عليهِ

استانبول في العصور الوسطى فعل كما يفعل روزفلت في بعض الشؤون الاقتصادية. اي انهُ دعا استاذ تاريخ فن المعمار في اكادمية الفنون الجميلة (مدرسة الفنون والصناعات) وطلب منهُ ان يعدَّ لهُ خارطة تكون مبنيّة على الصور والخارطات والوثائق المختلفة التي تبين كيف كانت استانبول قبل فتح الترك وان هذه الخارطة قد أعدت فعلاً

هذا المشروع يقتضي هدم طائفة من المباني الجديدة ثم يعاد انشاء الحدائق والميادين البديعة التي انشأها امبراطرة بيزنطية وترميم القصور والمعابد القديمة.

السر سعيد شقير باشا

يعزُّ على المقتطف ان ينعى الى قرّائهِ رجل الهمة والاقدام. رجل الادارة والادب. رجل المروءة والنجدة. العصاميّ الكبير السر سعيد شقير باشا. وافاه الأجل المحتوم في فجر يوم الاثنين ٢٤ دسمبر بعد مرضٍ قصير، فكان لنعيهِ رنة حزنٍ واسى في الدوائر الوطنية والاجنبية على السواء. وتساوى في الحزن عليهِ رجال السياسة والادارة، ورجال الصحافة والادب. فقد كان رحمهُ الله الى جانب اضطلاعهِ بالاعمال الادارية والمالية الكبيرة في حكومة السودان، أديباً راسخ القدم واسع الرواية ومحدثاً قوي الحجة صائب الحكم سريع الخاطر حلو النوادر، ولهُ في الكتابة والخطابة نثراً وشعراً جولات صادقات. وسوف نأتي على سيرتهِ في عدد المقتطف القادم لان فيها دروساً للشبان يجب اذاعتها، ولان بين طرفيها تمتدُّ حقبة من أحفل الحقب في تاريخ الشرق الادنى بالحوادث الجسام، من سياسية وادارية وثقافية وقد كان الفقيد يدٌ في غير طائفة يسيرة منها رحمهُ الله وعزّى قلوب اهله الكسيرة

العلم والسلاح

تابع الصفحة ٦٤

ويزعمون ان كل دولة من الدول العظمى تقوم بتجارب سرية في تسيير الطيارات والسفن بالراديو حتى اطلاق المدافع ايضاً. غير انهُ ما من امرئٍ يعلم يقيناً ان احداها قد اخترعت جهازاً كهربائيًّا يقوم بأشد ما يفتقر اليهِ الجندي العصري من المزايا، ونعني بهِ التجسس وتسقط أخبار العدو

اما الحرب البحرية القادمة فستكون اساليبها غير مختلفة عنها في الحرب الغابرة. على الضدّ من الحرب البرية. ولكن لا بدّ ان تضطلع الطيارات باعباء كبيرة منها. ولم يبق الاّ ان يثبت في القتال الحقيقي ان القنابل الجوية تستطيع اغراق مدرعة من المدرعات. وسيكون للغواصات نصيب كبير في الحرب المقبلة اذ يُناط بها تدمير السفن التجارية والاشتراك في القتال. غير ان السائد على الالباب حتى الآن هو ان المدرعات ما زالت دعامة القوة البحرية، وان كان الخطر الناجم عن الغواصات والألغام البحرية يحتم على الاساطيل المحاربة قضاء جل اوقاتها في الدفاع عن الموانئ الشديدة التحصن

الجزء الاول من المجلد السادس والثمانين

صفحة

يوليو الى دسمبر سنة ١٩٣٤

JULY—DECEMBER 1934



مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

المجلد الخامس والثمانون

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : FUAD SARRUF

VOL. LXXXV

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد الخامس والثمانون

فهرست الكتّاب

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

م

٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة المانية (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة
(الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الاراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ماقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله، للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠ جريمه سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (مخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « « «
٥ « « ثالث « « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

م

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد
١٠ تاييس « « « « «)
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « بارديليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فالمبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروضة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الغلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران
٨ النبي (« « «
٥ آلهة الارض (« « «

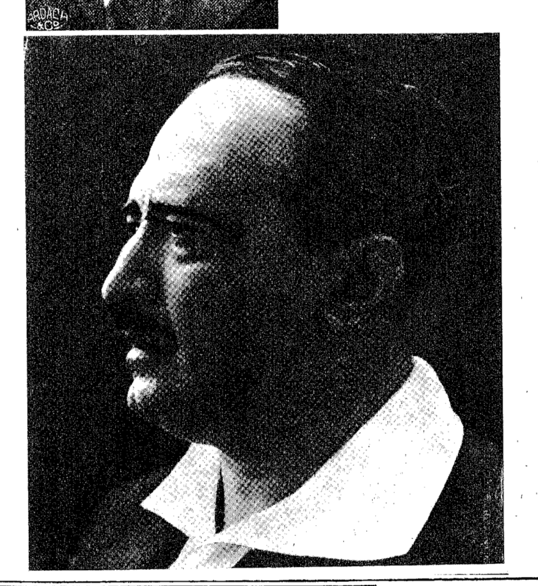
ميجيل دى اونانومو

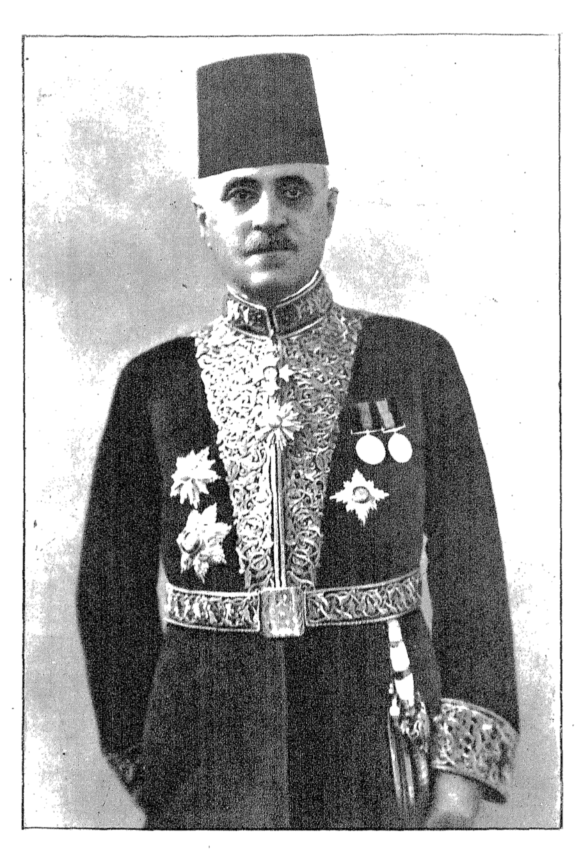
وهو من اكبر كتاب العصر

من ابناء اسبانيا المتوثبة

فلاسكو ايفانيث

او روائي البحر المتوسط كما دعاه احد النقاد



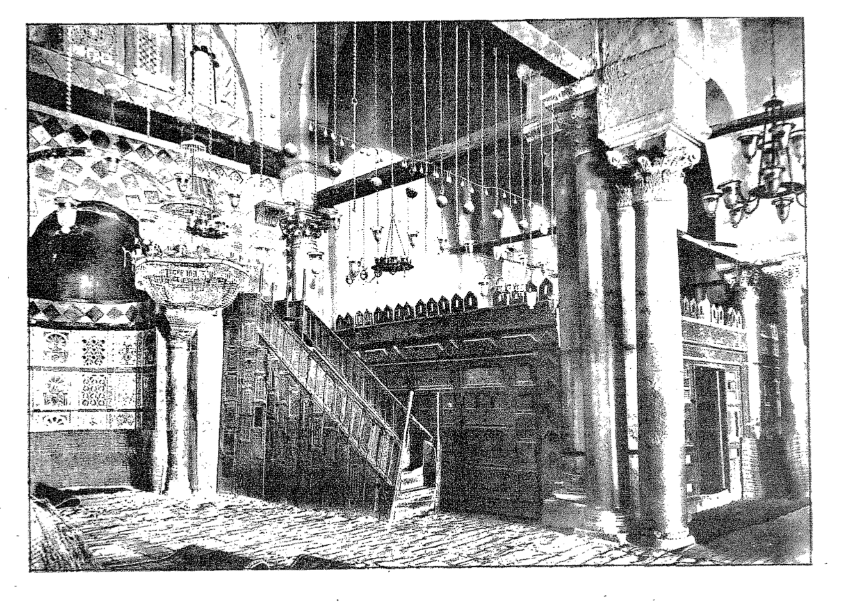


السر سعيد شقير باشا

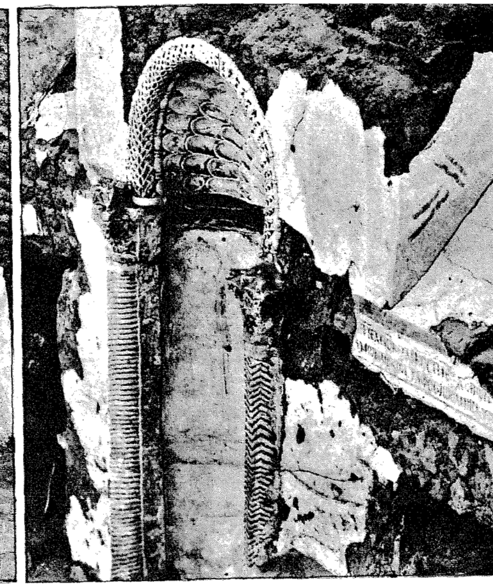
بملابسه الرسمية وأوسمته



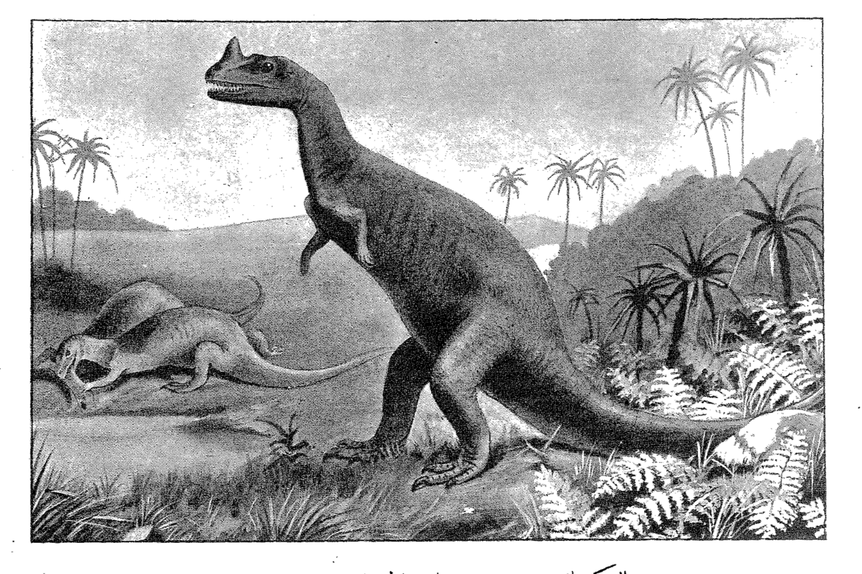
السر سعيد شقير باشا



مسجد فى القيروان يظهر فيه المحراب والمنبر والمقصورة

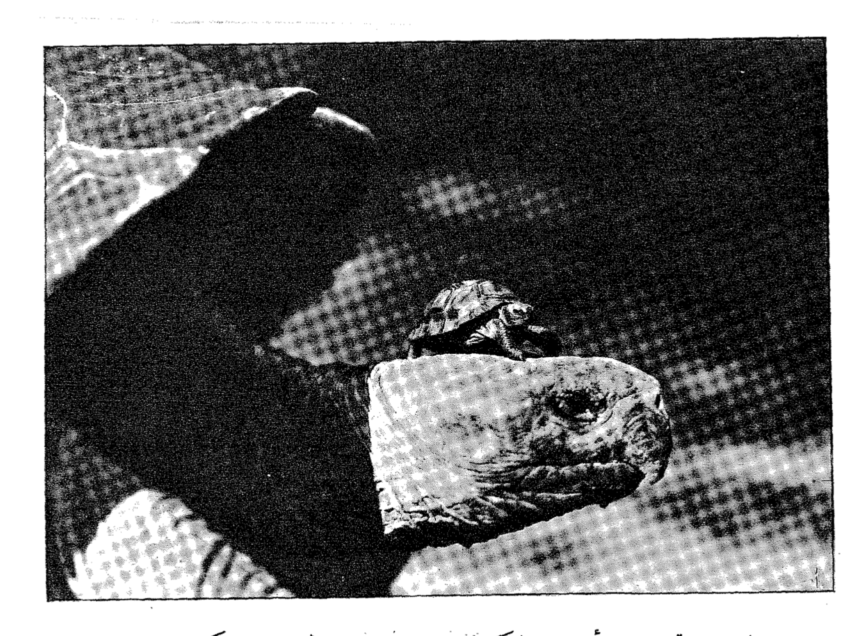


محراب مجوف ومنبر حجري وجدا في دير قديم بسقارة



« السكيراتوسور » من جبابرة الحيوان في العصور القديمة

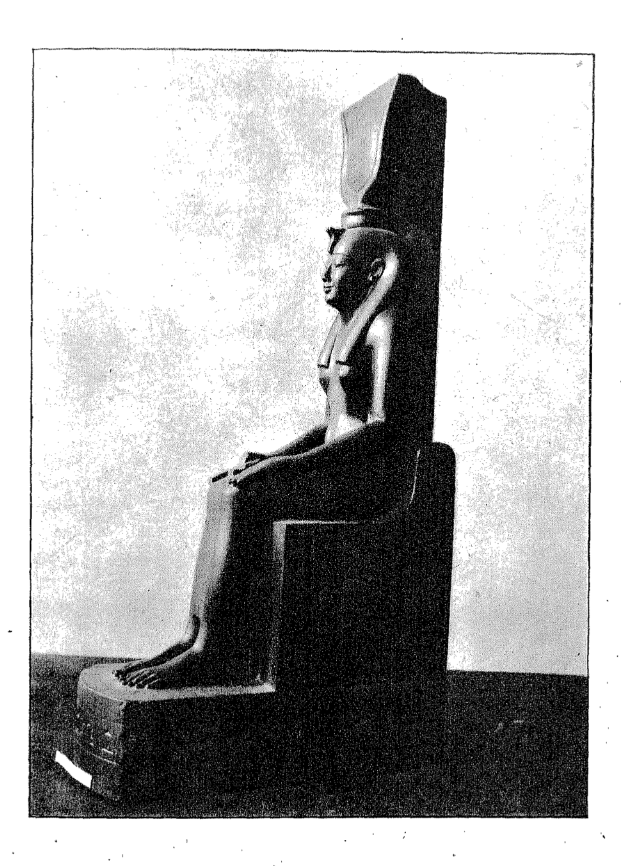
ومما يستدعي النظر اليه ضخامة قوائمه الخلفية وضمور قوائمه الامامية وكان طوله ٢٢ قدماً



سلحفاة صغيرة تمشي على رأس سلحفاة كبيرة معمرة في حديقة الحيوان بالبرونكس نيويورك

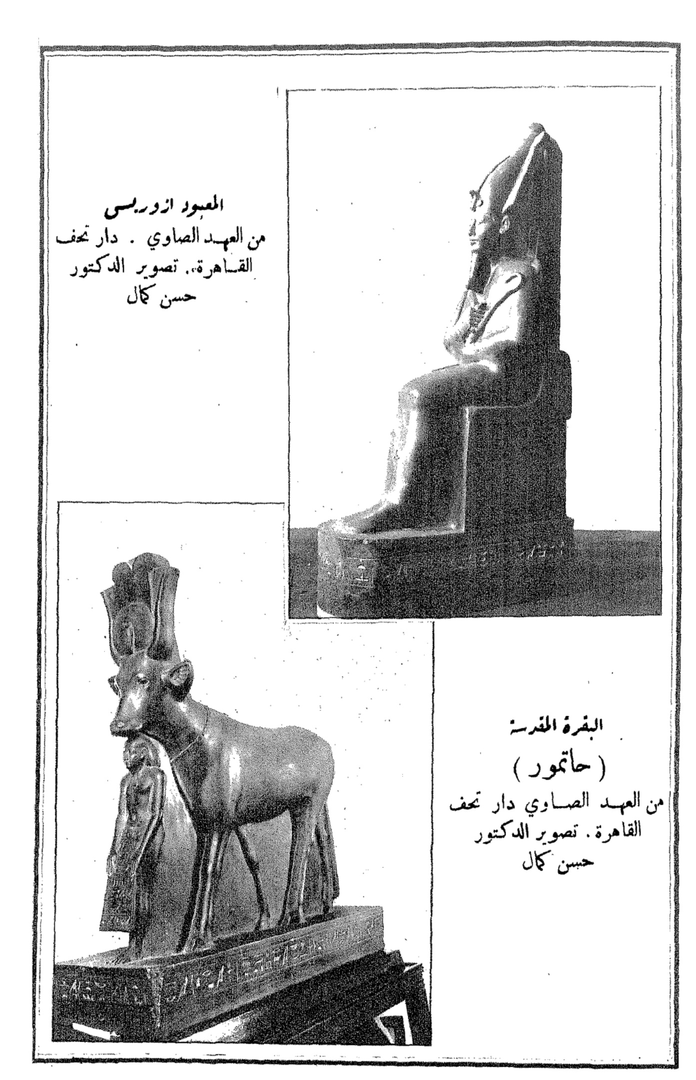


طفلان



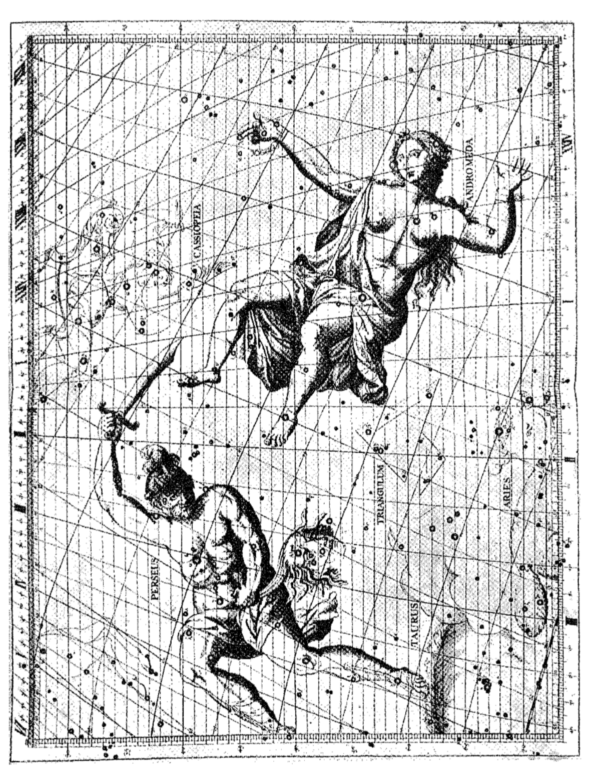
المعبودة إزيس

تمثال من العهد الصاوي　　　(تصوير الدكتور حسن كمال)



المعبود ازوريس
من العهد الصاوي . دار تحف
القاهرة.. تصوير الدكتور
حسن كمال

البقرة المقدسة
(حاتمور)
من العهد الصاوي دار تحف
القاهرة . تصوير الدكتور
حسن كمال



مجموعات النجوم كما تصورها الاقدمون

في أعلى الصورة « المرأة المسلسلة » Andromeda
وفي أسفلها فرساوس Perseus

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد السادس والثمانين

١ فبراير سنة ١٩٣٥ — ٢٧ شوال سنة ١٣٥٣

ارتقاء علم الفلك

وتأثيره في التفكير الحديث

الصورة الكونية الجديدة ومقتضياتها الفلسفية

في معرض «قرن التقدم» الذي انشيء في مدينة شيكاغو في السنة الماضية اقترح الاستاذ فرست Frost مدير مرصد يركيس سابقاً ، ان تضاء المصابيح الكهربائية في ساحات المعرض بواسطة شعاعة من نجم السماك الرامح. ولما كان سير الضوء من السماك الرامح الى الارض يستغرق نحو اربعين سنة ، فالشعاعة التي اضيئت بها المصابيح في معرض سنة ١٩٣٤ تكون قد صدرت من ذلك الكوكب حوالي سنة ١٨٩٢ وهي سنة معرض شيكاغو السابق ، فكانت بذلك صلة بين المعرضين استوقفت الانظار . ومما كان ادعى للعجب ان شعاعة من ضوء السيَّار زحل ، التقطت بواسطة تلسكوب في مدينة فلورنسا بايطاليا ، ونقلت نقلاً لاسلكيًّا الى شيكاغو فاستعملت في اضاءة مصابيح المعرض عند الاحتفال بيوم ماركوني فيه وذلك في ٢ اكتوبر سنة ١٩٣٣ .هاتان الحادثتان تدلاَّن دلالة واضحة على الصلة الوثيقة بين علمي الطبيعة والفلك

وعلماء اليوم يعترفون بوحدة العلم ، مع انهم يقسمونهُ الى فروع تسهيلاً للبحث . وابلغ مثل على هذه الوحدة علما الفلك والطبيعة وعلم الرياضيات المتصل بهما جميعاً اتصالاً اساسيًّا. فايُّ عالم يستطيع اليوم ان يرسم خطًّا ويقول الى يمين هذا الخط ميدان علم الفلك والى يسارهِ ميدان علم الطبيعة ؟ بل ان في الميدان المشترك بين العلمين تمَّت اعظم وجوه التقدم الحديث في كليهما

الصورة الكونية الجديدة

فلننظر في علم الفلك . من المتعذر ان نتتبع في مدى مقال واحد نشأة هذا العلم القديم وتطوّرهُ . ولكن قد يجدر بنا ان نبيّن الاتجاهات الجديدة في البحث الفلكي وتحوّلها واتساع نطاقها . فقد ظلّ علماء الفلك من اقدم العصور الى القرن الثامن عشر ، يوجّهون كلّ عنايتهم او جلّها الى النظام الشمسي . فكانت الارض اولاً في نظرهم مركز الكون . ثم حلّت الشمس محلّ الارض في المركز . وكذلك أُنفق جهد اولئك العلماء في دراسة حركات السيارات ومواقعها واقدارها وما يتصل بها من توابع . وكان من الطبيعي ان يهمل درس النجوم . فالقدماء شاهدوها نقطاً مضيئة في القبة الزرقاء ، ولاحظوا انها ثابتة في مواقعها ولكنهم عجزوا عن الوصول اليها ، لان ادوات البحث الفلكي كانت تعوزهم . فلما استنبط التلسكوب اتجه الفكر اولاً الى فائدة استخدامه في دراسة الاجرام القريبة منا ، والى انتفاء هذه الفائدة من دراسة الاجرام البعيدة المعروفة باسم النجوم الثوابت . عند هذا الحدّ ظهر في ميدان العلوم الفلكية العلامة وليم هرشل . فقد كان هرشل بارعاً كلّ البراعة في صقل العدسات وبناء التلسكوبات . وكانت تحدوهُ نزعة قوية الى سبر رحاب الفضاء ومعرفة مدى الكون ، فحوّل عناية علماء الفلك من دراسة السيارات الى دراسة النجوم

وقد اتسع نظرنا في العهد الحديث حتى امتدّ الى ما وراء الحدود التي بلغها هرشل . ولكن هذا القول لا يعني اننا حللنا جميع المعضلات والمسائل الفلكية التي واجهها في عصره . بل في الواقع ان كشف الآراء الجديدة واستنباط الوسائل الجديدة للبحث والاستقصاء ، ارتدّ بطائفة من الفلكيين من دراسة النجوم والسدم الى دراسة السيارات وما يدور حولها من مسائل كانت تهم علماء الفلك الاقدمين . ولا يسع أحداً ان ينكر ان الشمس لا تزال في نظر علماء اليوم ، ميداناً من أهم ميادين البحوث الفلكية على الاطلاق

ومع اننا لا نزال نجهل كثيراً عن أسرتنا الفلكية الخاصة — النظام الشمسي بشمسهِ وسياراتهِ ونجيماته وأقماره — ومع ان العامة لا تزال تهتم بتوجيه السؤال الى الفلكيين عن سكنى السيارات وخاصة عن سكنى المريخ ، نقول انهُ مع ذلك تمتدّ حدود علم الفلك الحديث ، الى ما وراء نظامنا الشمسي ، بل الى ما وراء المجموعة النجمية التي وجّه هرشل اليها الانظار ، وعكف على درسها هو ومن تلاهُ ، نعني المجرّة

فوراء هذه المجموعة النجمية قطع من الكون المادي تعرف باسم السدم . وقد كانت من قبل تعرف باسم «السدم البيض» تمييزاً لها عن بعض سدم داخلة في بناء المجرّة نفسها ، ولكن لون الضوء المنبعث منها ليس أبيض . وكان هرشل نفسهُ قد تبيّن بعض هذه السدم ، فدعاها باسم لا يزال يطلق عليها الى الآن — أي «الاكوان الجزرية» — لانهُ حسبها نظماً متفرقة من النجوم منثورة في

رحاب الفضاء كالجزائر في المحيط ، فكان في ذلك مصيباً . ولكنهُ حسبها اتباعاً لمجرتنا وفي هذا أخطأ ، او أن رأيهُ هذا يخالف على الاقل الرأي السائد الآن

ومما لا ريب فيهِ ان هذه الاكوان ، وعددها ألوف الالوف ، نظم مؤلفة من نجوم او هي سائرة في طريقها الى ان تكون كذلك . ودرس ضوئها بالمطياف (السبكترسكوب) يدلُّ على أنها شبيهة بمجرتنا ، فهي خليط من النجوم واللطخ السحابية (استعمال البتّاني)

ونحن مدينون بجلّ ما نعرفهُ عن هذه السدم الخارجة عن نطاق مجرتنا للتصوير الشمسي . فهي بعيدة عنا بعداً شاسعاً والضوء الواصل الينا من معظمها ضئيل لا يمكن تبيّنهُ الاّ بواسطة لوح التصوير الشمسي بعد تعريضهِ لضوئها مدة طويلة . ولذلك لم يستطع العلماء المحدثون ان يدرسوا درساً تفصيليًّا الاّ ما كان قريباً منها . ولكننا نستطيع على كل حال ان نرتبها بحسب أشكالها ترتيباً متدرجاً يدل على اتجاه تطوّرها . فمنها كتل غازية كروية الشكل ، ومنها ما هو مسطّح بعض التسطيح ، ومنها ما هو شبيه بحبوب العدس . وهذا التدرّج في التسطيح يشبهُ الادوار التي تمرُّ فيها كتلة كروية من الغاز كلما زادت سرعة دورانها على محورها . ولكن أغرب هذه السدم شكلاً هي السدم التي انطلقت من كل منها ذراعان في جهتين متقابلتين من النواة المركزية ، فأصبحت لولبية الشكل . وفي بعض السدم التي بلغت أقصى مراتب التطور تلاحظ كتل نجمية منفصل بعضها عن بعض شبيهة بعناقيد Clusters النجوم التي تشاهد في مجرتنا . وفي طائفة يسيرة منها ، تشاهد نقط فردة من الضوء هي في الراجح نجوم مستقلة ، مما يدل على ان تلك السدم التي ظهرت فيها هذه النجوم قد بلغت من مراتب التطور ما بلغتهُ مجرتنا

وقد كان الظنُّ في البدء متجهاً الى حسبان السدم الخارجة عن نطاق مجرتنا ، أصغر حجماً من مجرتنا ، أو هي على الاكثر تماثلها حجماً ، وان كتلة كل سديم منها يبلغ على وجه التقريب الكتلة اللازمة لبناء ألفي مليون او ثلاثة آلاف مليون نجم . ولكن البحوث الحديثة اثبتت انهذا الرأي في حاجة الى التنقيح وان تلك السدم اكبر جدًّا مما كان يُظَنّ

***

هنا يخطر للباحث سؤال وجيه : هل مجرتنا سديم لولبي ؟ كان الفلكي إيستُن Easton اول من ذهب هذا المذهب . وجارتهُ ثلّة العلماء في ذلك . ولكننا في الواقع لا نستطيع ان نتثبت من ذلك لاننا لانستطيع انْ نشاهد المجرّة الاّ من نقطة في داخلها قريبة قرباً نسبيًّا من مركزها . وقد بيّن اورت Oort وغيره من البحاث ان هذا السديم يدور حول مركز واقع في ناحية « الرامي » دوراناً شبيهاً بدوران السيارات حول الشمس ، وان اجزاء السديم القريبة من المركز أسرع دوراناً من الاجزاء البعيدة عنهُ ، وان الاجزاء التي تبعد عن المركز بُعدَ شمسنا لا تتم دورتها الاّ في نحو ٢٠٠ مليون سنة

فلنلتفت الآن الى ما يعرف عن ابعاد هذه السدم . فقد اشرنا في ما تقدم الى ظهور نجوم

فردةٍ في صور بعض السدم اللولبية . ومن هـذه النجوم ما يشرق اشراقاً عظيماً في اوقات دورية نظيمة . وهذا يذكرنا طبعاً باشراق المنائر المشيدة على الشواطئ الصخرية ، اشراقاً دوريًّا كل بضع دقائق ثوانٍ لهدي السفن . ونحن نعلم ان في مجرتنا نجوماً تشرق هذا الاشراق الدوريّ المتقطع . وهي تعرف بالنجوم القيفاوية Cepheids [1] . والذي يهمنا في هذا الشبه ، ان العلماء قد تبينوا علاقة وطيدة مطردة بين الفترة المنقضية بين اشراق واشراق ، ولمعان النجم الحقيقي . فكلما زادت الفترة بين اشراق واشراق ، دلّ ذلك على زيادة لمعان النجم . فاذا صحّ لنا ان نفرض وجود هذه العلاقة في النجوم المتغيرة في السدم الخارجية تمكنا بالمقابلة بين لمعان النجم الحقيقي ولمعانهِ البادي لنا ، من معرفة بُعد النجم . ثم ان علماء الفلك يستعينون بالنجوم الجديدة على تحديد بُعد السدم التي تظهر فيها . فاذا حدّدوا بُعد بعض السدم استطاعوا ان يحدّدوا بعد الباقي ، لأن النظرية السائدة الآن هي ان هذه السدم متماثلة حجماً ، فالفرق في احجامها البادية لنا سببهُ اختلاف بُعدها عنا . ويؤخذ من البحوث الحديثة القائمة على هذه الاسس ان اقرب السدم الخارجية الينا ، سديم المرأة المسلسلة Andromeda وسديم المثلث Triangle ، وكل منها يبعد عن مجرتنا نحو مليون سنة ضوئية (السنة الضوئية هي المسافة التي يجتازها الضوء في خلال سنة سائراً بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية) . وابعد ما عرف من هذه السدم حتى الآن يبعد ١٥٠ مليون سنة ضوئية . اي ١٥٠ ضعف بعد سديم المرأة المسلسلة عنا . والمتوقع انهُ متى تمّ صنع التلسكوب الجديد الذي قطر مرآتهِ ٢٠٠ بوصة (قطر مرآة اكبر تلسكوب بني حتى الآن ١٠٠ بوصة وهو في مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا) تمكن الباحثون من الكشف عن سدم تبعد عنا نحو ٣٠٠ مليون سنة ضوئية

***

يجدر بنا الآن ان نلتفت الى ناحية تبعث على الدهشة في طبيعة البناء الكوني . ذلك ان العلماء المحدثين وجدوا ان السدم الخارجة عن نطاق مجرتنا آخذة في الابتعاد عنا ، وفي الابتعاد بعضها عن بعض كذلك بسرعات عظيمة . وان أبعدها عنا اسرعها ابتعاداً . أما الحقيقة المشاهدة التي بني عليها هذا الرأي ، فهي حيود الخطوط في طيوف هذه السدم نحو اللون الاحمر . وهذا الحيود يشبَّهُ بصفير قطارٍ آخذٍ في الابتعاد عنا ونحن وقوف في المحطة . فأمواج صفيرهِ ، وهو آخذ في الابتعاد تميل الى الطول . كذلك حيود الخطوط في الطيف نحو الاحمر يدلّ على أن امواج الضوء الواصلة الينا من هذه السدم تميل الى الطول لان أمواج اللون الاحمر أطول من امواج الالوان التي قبله في الطيف اي البرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي . ولكن سرعة ابتعاد هذه السدم ، التي بنيت على هذه الحقيقة المشاهدة — حقيقة حيود الخطوط الطيفية نحو الأحمر — عظيمة جدًّا

(١) دعيت كذلك لانها شبيهة بالنجم المعروف باسم « ذلتا قيفاي » وهو اشهر هذا الطراز من النجوم

وتبلغ الوف الاميال في الثانية . وهـذا يعني ان الكون آخذ في التمدُّد والاتساع بسرعة عظيمة . فاذا مضى على ذلك نحو ١٣٠٠ مليون سنة تضاعف قطره

لا يهمنا هنا ان ننظر في أقوال مؤيدي هـذا الرأي واقوال معارضيهِ . فالكون في نظرية اينشتين الاصلية متصف بالاستقرار وبالتحدُّب فهو كالكرة غير محدودٍ ولكن لهُ نهاية ، فتحدب الكون يمكن تشبيههُ بتحدب فقاعة من الصابون

ولكن ثمة من العلماء من لا يسلّم بأن التحدُّب صفة الكون ، وان ما نعرفهُ الآن لا يسوّغ لنا ان نحكم حكماً فاصلاً في الموضوع . فقد يكون الكون اقليدسيًّا بعد كل ما قيل . وفي طليعة هؤلاء العلماءِ الاستاذ ملن Milne الانكليزي وقد بنى على هذا الرأي نظرية جديدة . ولكن يظهر ان تفرّق السدم أمر لا شكَّ فيهِ وقد أثبت الاب لمِتر ان كوناً مبنيًّا بحسب قواعد النظرية النسبية ، يقتضي هـذا التفرُّق . وعليهِ فالكون سائر الآن في سبيل التشتت من حالتهِ الاولى اذ كان حافلاً بالمادة الكثيفة الى حالة جديدة تلطف فيها المادة المالئة الفضاء بتشتتها حتى يصبح كأنه والفراغ سواءٌ . وهذا ما بيَّنهُ العالم ده ستر الهولندي قبل وفاتهِ من عهدٍ قريب

فلننظر الآن في بعض الآراءِ الجديدة التي تقوم عليها نظرتنا الكونية الحديثة . ففي منتصف القرن الماضي أخرجت نظرية التطوّر وتأيدت اجمالاً بالبحث تأييداً قاطعاً للريب في صحتها ، وقد أصابها بعض التعديل ككل نظرية جديدة ، وكان معظم هـذا التعديل في ميدان الفلك . فنظرية لابلاس السديمية لم تثبت على البحث مع ان السر جيمز جينز قد بيَّن ان النظرية السديمية هذه قد تصدق على تطوّر السدم الخارجية في بعض مراتبهِ . ولكن ثمة وجوهٌ اخرى في التطوّر الكوني ، نالها التغيير . فالتطوُّر بحسب قول الفيلسوف سبنسر هو التحوُّل من البسيط الى المركب ، ومن المتماثل غير المستقرّ الى المختلف المستقرّ

ولكن هذا لا يتفق على ما يظهر اتفاقاً دقيقاً مع الحقائق المعروفة اليوم . فلا يمكن ان يقال ان التطور الكوني سائر في اتجاه واحد ، كسير قافلة السيارات في شارع وحيد الاتجاه ، لان كثيراً من الافعال الكونية له وجهان . فالشموس تبنى من المادة الغازية المشتتة التي تتألف منها السدم . والعناصر الثقيلة تبنى في الراجح من ذرات أبسط العناصر نعني الايدروجين . ولكن يقابل ذلك انحلال العناصر المشعة الثقيلة الى ذرات عنصر أبسط منها . وثمة كذلك انطلاق مقادير عظيمة من الطاقة من الشموس لا بدَّ ان يكون لهُ أثر في تغيير بناءِ الكون كما نعرفهُ

خذ مثلاً على ذلك شمسنا . فقد انقضت عليها عصور متطاولة وهي تسكب الحرارة والضوءَ في الفضاءِ . ونصيب الارض منهما لا يزيد على جزءٍ من الف مليون جزءٍ من مقدارها الاصلي . فكيف نعلل مقدرتها على المضي في هذا العمل مدى هذه العصور الطويلة ، وكيف تستطيع ان تمضي فيهِ في العصور المقبلة . قد يكون بعض الطاقة في الكون ناشئاً من بناء ذرات العناصر الثقيلة من

ذرات الايدروجين . وبعضها من انحلال العناصر المشعة الثقيلة الى عناصر أبسط منها . وبعضها ناشيء من تقلّص أقطار الشموس على اثر انطلاق مقادير كبيرة من طاقتها . ولكنَّ السر جيمز جينز يذهب الى ان معظم الطاقة المنطلقة ناشيء من فناءِ المادة بتحوّلها الى إشعاع . والمعروف ان شمسنا تفقد ٤ ملايين طن من كتلتها كلَّ ثانية بالاشعاع . علّل هذا الفعل كما تشاءَ فلا يسعك الاَّ أن تقول بأن الشمس لا تستطيع ان تمضي في هذا الى الابد

***

وهذا يفضي بنا الى الناموس الثاني في علم الحركة الحرارية (الترموديناميكس) ومؤدّى هذا الناموس ان كل عمل (بالمعنى الطبيعي) يقتضي انفاق قدر من الطاقة فتعود هذه الطاقة غير صالحة لاحداث عملٍ جديد . او بكلمة اخرى ان مقدار الطاقة في الكون لا يتغيّر ولكن الطاقة الصالحة للعمل تتحوّل الى طاقة غير صالحة للعمل . فحين يتحول آخر قدر من الطاقة الصالحة للعمل الى طاقة غير صالحة لهُ تحين نهاية الكون

واذن فنحن لا نعدو الحقيقة اذا شبّهنا اتجاه التطوُّر الكوني بسير قافلة السيارات في شارع وحيد الاتجاه . ولكن الاتجاه في التطور الكوني هو عكس ما كنا نعتقد . اما فكرة سير الكون الى نهايةٍ تعجز فيها طاقتهُ على احداث الافعال الكونية فليست جديدة . ففي كتاب وضعهُ الدكتور فيسْنْ سنة ١٨٩٩ ودعاهُ « التقدم الحديث في علم الفلك » قال في فصل « حياة النجم » : « واذ تتوالى العصور يضعف ما في الكون من الطاقة الفعّالة . فاذا تملّينا ما يقوله العلم الطبيعي في افعال الطبيعة لم نجد ندحة عن تصوّر الكون في نهايتهِ مجموعة من المادة الهامدة تذكاراً لعوالم الشموس »

نعم ان نهاية الكون على هذا الوجه لا يتوقعها العلماءُ قبل انقضاءِ الوف الملايين من السنين . ولكنها مع ذلك ليست مما يستسيغهُ طائفة من العلماءِ والفلاسفة . لذلك نرى ملكن يذهب الى ان الاشعة الكونية تدلُّ على تولّد العناصر الثقيلة في رحاب الفضاءِ من ذرّات العناصر الخفيفة وخاصة الايدروجين وان الايدروجين يتولد من الطاقة ، فالكون في نظره يبتدىء حيث ينتهي او يولد ولادة جديدة . ولكن هذا الرأي لم يفز بتأييد علماءِ الطبيعة حتى الآن

والقى الدكتور طولمن Tolman خطبة امام الجمعيتين الرياضية والطبيعية باميركا في دسمبر سنة ١٩٣٢ ذهب فيها الى ان علم الترموديناميكس من الناحية النسبية يبيح لنا ان نتصور الكون يتمدّد ثم يتقلّص في ادوار طويلة متعاقبة وانهُ في تمدُّده تضعف طاقتهُ ، وفي تقلّصهِ تعود فتقوى. ولكن الدكتور طولمن حذّر سامعيه من خطاءِ التسليم بهذا الرأي النظري على انهُ وصف للواقع بعض مقتضياتها الفلسفية

نقف الآن عن المضي في وصف المكتشفات الفلكية الحديثة ، لنحاول تبيان تأثير المعارف الفلكية الجديدة في التفكير الحديث . وقد يتردَّد الكاتب في الاقدامِ على هذا العمل . ولكن

التقارب بين العلم والفلسفة من اظهر الميزات التي يتصف بها العهد الحديث . فقد كان من المحتوم ان ينفصل العلم عن الفلسفة في البدء . ولولا انفصاله لما اتيح لهُ ان يسير في معارج الرقي . لان خضوع الفلسفة لاقوال الائمة يضيق الخناق على العلم . وكان لا بدَّ للعلم من التجربة والامتحان رائدين لهُ في طريقهِ الجديدة . لذلك نحن نجلُّ اولئك الروَّاد من العلماء الذين اقدموا اولاً على تنكّب السبيل المطروق فاوذي بعضهم وعذِّب ، ولكنهم تعاقبوا ابطالاً في الكفاح فاحرزوا حق تحرر العلم من قيودهِ . ومع اننا نعترف ببعض نقائص الفلسفة في العصور المتوسطة يجب ان نعترف كذلك بأن رجالها وضعوا قواعد التفكير السليم واصولهُ . فالمنطق والترتيب المنطيقي دم العلم وعصبهُ . واذا كان فلاسفة العصور المتوسطة قد حالوا دون تقدم العلوم ، فانهم ولا ريب ابدعوا الشرائط الفكرية التي جعلت ذلك التقدم مستطاعاً . وها نحن أولاءِ ، نرى العلم يقترب من الفلسفة في عهدنا . وغدت الفلسفة تؤاخي العلم . ففلاسفتنا علماء ، وبعض علمائنا فلاسفة . وعلى عناق العلم بالفلسفة يعلَّق أملنا في الوصول الى الحقيقة

فلننظر الآن في ناحية أو ناحيتين من نواحي التفكير الحديث ، محاولين ان نتبين تأثير المكتشفات الفلكية والطبيعية الحديث فيها

كانت عقيدة العلماء حتى أواخر القرن الماضي ، متسمة بسمة « المادية » . فالمادة كانت مؤلفة من دقائق صغيرة صلبة ، قائمة في كون جميع صلاته وقواه مطلقة تسيطر عليها نواميس طبيعية لا تحيد يمنة ولا يسرةً . ولكن نظريتي « النسبية » و «المقدار» (الكونتم) قد عدَّلتا معتقداتنا تعديلاً أساسيًّا . حتى الاثير الذي كان في نظر علماء القرن الماضي ، متخللاً جميع الاجسام والرحاب ، قد أصبح صورة ذهنية مجرَّدة او هو ليس شيئاً على الاطلاق . وعادت ذرات ديمقريطس ودلتن الصلبة ، كتلاً او مجموعات من الشحنات الكهربائية ، وغدت هذه الشحنات لا تعدو كونها تشويهات أو تجعدات في « الفضاء — الزمن » . ثم ان مقاييس الطول والزمن التي كنَّا نحسبها مطلقة لا تتغير أمست تختلف باختلاف المشاهد وحركتهِ . فالمادية بمعناها القديم قد انهارت ، ولا رجعى لها كفلسفة للطبيعة الاَّ اذا بدَّلنا معنى لفظها تبديلاً أساسيًّا . واذا قيل ان المادة لا تزال مادة ، مهما يختلف نظرنا اليها ، قلنا ان المادة نفسها قد أصبحت بعد قيام المذهب الكهربائي في بنائها ، غير ما كنَّا نحسبها . فالذرات المادية ليست الاَّ شحنات كهربائية دقيقة بينها فراغ عظيم

ومن الآراءِ القديمة التي لا تزال تكافح في سبيل البقاءِ ، الرأي القائل بان الكون آلة حرَّكت في العصور المتغلغلة في القدم وانها سائرة الى خاتمتها المحتومة . لذلك حاول علماء القرن التاسع عشر ان يعلّلوا الطبيعة وافعالها بنواميس الميكانيكا . وقد قال احد امرائهم لورد كلفن في ذلك : « انني لا اكتفي حتى استطيع ان اصنع مثالاً ميكانيكيًّا لرأي ما . فاذا استطعت ان افعل ذلك استطعت ان افهمهُ » . ولكن الاعتقاد في الجبرية المطلقة rigid determinism قد ضعف بعد المكتشفات

الحديثة في الاشعاع وتصرُّف الكهارب داخل الذرّات . وهذا حمل الاستاذ هيزنبرج على اخراج مبدإٍ « عدم التثبت » ومؤداهُ انهُ يستحيل تعيين موقع كهرب وسرعتهِ في آن واحد . هذه المكتشفات والمبادىء الجديدة ، يراها العلماء المحدثون مما يتعذر التوفيق بينهُ وبين الرأي الميكانيكي او السببية المطلقة . وهذا افضى الى تغييرٍ في نظرنا الى النواميس . فاننا عدنا لا نحسبها مطلقة ، وانها تصف وصفاً مطلقاً نواحي الطبيعة ، بل هي في نظرنا الآن لا تعدو كونها ، احتمالات كبيرة او نتائج احصائية غالبة. وانما يجب ان نقول في هذا الصدد ان اينشتين وبلانك لا يسلمان بهذا الرأي كلَّ التسليم. ويذهبان الى ان ريبنا في السببية المطلقة سببهُ جهلنا . ولبعض كبار العلماء اقوال مأثورة في هذا الصدد منها قول السر جيمس جينز : « ان تيار المعرفة متجه الى حقيقة غير ميكانيكية »

وقد افضت هذه المكتشفات والآراء الى نشوء فلسفة جديدة تعرف بالفلسفة « الكلية » Holism زعيماها الاستاذ هويتهد والجنرال سمطس وفكرتها الاساسية ان الكلّ ليس مجموعة اجزائهِ فقط بل ان لتنظيم organisation هذه الاجزاءِ شأناً كلَّ الشأن في الصفات التي يتصف بها « الكل »

***

ولا يسعنا ان نختم هذا البحث من دون ان نشير ، الى تحسُّن العلاقة بين العلم والدين . فرجال الدين اليوم ارحب صدراً واكثر استعداداً لدراسة الآراءِ والحقائق الجديدة ، ورجال العلم غدوا اقل تحكماً وأضعف ثقة بأحكامهم الشاملة . ان مفكري العصر الحديث يعترفون بان العلم والدين يمثلان ناحيتين مختلفتين ، غير متناقضتين من نواحي العقل البشري ، ويذهبون الى ان الواجب يقضي على العلم ورجالهِ بوجوب المضي في البحث عن الحقيقة غير مقيدين بالمذاهب الفلسفية والعقائد الدينية

بيد انَّ في الحياة اعتبارات روحية لا يستطيع العلم ان يزنها ويقيسها بموازينهِ ومقاييسهِ ، تحملنا على التشوق الى المثل العليا ، والنزوع الى الجمال والحق والصلاح ، فنتصل عن طريقها بذلك العقل المبدع . قال الاستاذ اينشتين : « يرتفع بعض الافراد الممتازين في الامم التي بلغت مرتبة سامية من الحضارة بفكرتهم الدينية . الى مرتبة عالية من الشعور الديني ادعوه «الشعور الديني الكوني» . وليس باليسير تفسيره لمن لا يحسُّ بهِ . لانهُ لا يشتمل على صورة لله صنعت على مثال الانسان . ولكن من يحسُّ بهِ يدرك بطلان الرغبات الزائلة والاغراض الانسانية الصغيرة ، ونبل النظام العجيب الذي يكشف عنهُ في عالم الطبيعة وعالم الفكر

« فكيف نستطيع ان ننقل هذا الشعور الديني من إنسان الى آخر اذا كان لا يمكننا ان نصوّر لله صورةً حسية ما ولا يأذن بطبيعتهِ في بناءِ فقهٍ دينيٍّ عليهِ ؟ ان أسمى وظائف العلم والفن في نظري هي ان تثير هذا الشعور وتغذيهُ وتحفظهُ متقداً في صدور الناس

«ومن هنا نصل الى نظر جديدٍ في علاقة العلم بالدين يختلف كلَّ الاختلاف عن النظر المألوف . ولقد صدق من قال بأن الناس المتدينين حقًّا في هذا العصر هم رجال البحث العلمي . . . . »

شخصية شهر فبراير — ٢

ميجيل دي أونامونو

Miguel de Unamuno

للآنسة « مي »

في ابريل ١٩٢٥ بباريس اصدر الكاتب الاسباني المرحوم ڤيثنتي ڤلاسكو ايڤانييث كتابهُ عن الجمهورية الاسبانية المرجوَّة الذي احدث زلزالاً في دوائر الادب والسياسة . نختمهُ بهذه الجملة التي تخيل ان ابناء وطنهِ سيتخذونها للحكم عليه في المستقبل . قال :

« بلا وجل انظر الى المستقبل لانهُ سيقول عني : كان في وسعه ان يظلَّ على الهامش ولكنهُ خاض المعركة رغم اقتناعهِ بأنهُ لن يربح شيئاً بل يخسر كثيراً . انضمَّ غير متردد الى ميجيل دي اونامونو وادواردو اورتيجا المجاهدين ببسالة في سبيل الكرامة الاسبانية قبل تحقيقها ودون تبصر في هل كان صحبه في الجهاد قليلين او كثيرين . اعطى البقية الباقية من حياته لاحياء اسبانيا ، لنصرة الجمهورية ، ولم يكن لهُ الاَّ طمع واحد : ان يشغل المكان الاول المتطرف البارز في خط الهجوم حيث يتلقى الضربات الاشدّ هولاً اذ تنقضُ عليهِ مُحكَمة قاضية ... » (١)

***

مجرد ذكر اونامونو في مستند خطير كهذا يلخص تاريخ نشاطهِ في سياسة اسبانيا خلال الاعوام العشرة الاخيرة . وهو تاريخ كنتُ اود تجاوزه لاهتمامي بالشخصيات الادبية والفنية والفكرية وحدها في هذه الدراسات ولاغفالي الحركات السياسية عموماً ، على اهميتها . غير ان العمل السياسي كان من التمازج بحياة اونامونو الادبية — ومن الانفصال عنها في آن واحد — بحيث يتحتم تسجيله لتنكشف لنا ناحية جدّ جوهرية من تلك الشخصية الفذة

(١) كتاب "Vicente Blasco Ibañez "Por España y contra el Rey

ان هذا الرجل صاحب المكانة الرفيعة جدًّا في العالم الادبي الدولي ، ظلّ اعواماً طويلة مديراً لجامعة سلامنكا الشهيرة باسبانيا يدرّس فيها اللغة اليونانية القديمة وعلم المقارنة بين اصول اللغتين اللاتينية والاسبانية ، ويصدر الى جانب ذلك الكتب والابحاث والدراسات والتآليف في شتى الموضوعات. الاّ انهُ ، من عزلته العلمية والادبية ، انبرى يعارض ديكتاتورية بريمو دي ريفيرا وتزعم حركة سياسية عنيفة ضد ذلك النظام مما عرّضهُ لغضب اولي الشأن يومئذٍ فأخرج من وطنه الى المنفى ... المنفى القريب الجميل في جزر كاناريا وفي هاندي الفرنسية عند تخوم اسبانيا، يقول خصومهُ السياسيون

وفي المنفى ارتبط بايفانييث بروابط الصداقة ، على ما بين المزاجين من شديد تغاير واختلاف . فأونامونو كله روح وعواطف وانفعال نبيل ، في حين ايفانييث كله جسد وحواس وشهوة مضطرمة . اولهما الفكر الفلسفي الادبي الشعري جميعاً تصفّى وتكرّر وتلطف في شذوذ منطقي (ان صح الوصف) خاص وعمق بعيدٍ وعلوٍ خارق . والآخر هو عاصفة المغامرة في معامع الارتباك والجلبة وفي مشاكل العشق الذي يتقد جمراً وينقطر دماً وسط ملاعب مصارعة الثيران والمشاهد الدموية العنيفة المحببة الى الجماهير . وقد كتب ايفانييث كثيراً — وكان كاتباً قديراً خلاّباً — على ان روايته المعروفة عن مصارعة الثيران وعن حياة أحد المصارعين وغرامياته ، انما هي وصف بليغ لمزاج الكاتب نفسه [1] . بيد ان الفوارق بين مزاجيْ الرجلين اختفت حيناً في النضال السياسي لغاية واحدة

وما انهارت الديكتاتورية فخرج دي ريفيرا يلتمس طريقه الى المنفى حتى انقلب اونامونو يلتمس طريقه من المنفى الى الوطن . فغادر هاندي سيراً على الاقدام مع بعض صحبه السياسيين وعانقه حاكم المدينة مودعاً باسم الحكومة الفرنسية . ومشى في مظاهرة عظيمة لتتلقاه بلاده بحفاوة اعظم وسط الالوية الحمر وصدح الموسيقات ودويّ الخطب والاناشيد الملتهبة وهرج الجموع الزاخرة وتصفيقها . «الكرنڤال الديمقراطي بحذافيره عجّ حول فيلسوف سلامنكا» — على نحو وصف بعض الكتّاب الاوربيين الذين لا يغتفرون لاونامونو آراءه الديمقراطية الجمهورية

***

اعلنت الجمهورية في اسبانيا سنة ١٩٣١ فاذا بأونامونو يصبح عضواً بمجلس النواب ويتولى الاشراف على تنظيم المعارف العمومية . وارتفع صوته عالياً في عديد المسائل الوطنية وبخاصة ضد الحركات الانفصالية في الاقاليم مقاوماً مطالبة قطالونيا بنظام اللامركزية ، للاحتفاظ بمبدإ الوحدة القومية. وشاع في الغرب ان للثورة الاسبانية « فولتيرها » الذي يناضل ويحارب بضربات لفظية متفرقة تتغذى بالتهكم العلميّ البريء والنكتة الفلسفية الساذجة في الظاهر وانهُ لا يجامل في نكتتهِ احداً حتى

(١) رواية "Sangre y Arena" وقد ترجمت الى الفرنسية بعنوان « Les Arènes Sanglantes »

ولا المذهب السياسي الذي يؤيده وهو فيهِ احد الذين يمثلون الشعب . ومن ذلك انه يوم اجتماع الكورتس الجمهوري لأول مرة وصف النواب بأنهم « أطفال باحذية جديدة »...

اما المقالات التي ما فتىء ينشرها في صحيفة إلسول (الشمس El-Sol) بمدريد ، وقد طالعت بعضها منذ ايام ، فهي تحفٌ في فن الانشاء وفي تنسيق الافكار المفاجئة ، ويصفونها بالشاذة المحيِّرة لأنها لا تستقر على اساس من الاسس التي ينعتها اهل السياسة بالوطيدة ، ففيها يبدو اونامونو جمهوريًّا ومونوقراطيًّا ، ديمقراطيًّا وارستقراطيًّا ، متديِّناً وعلمانيًّا ، متعبداً وملحداً في آن واحد. ولو اراد هذا الرجل لكيَّف بلاده كالعجينة بيده . ولكنهُ اصدق نزعة فنية وأعرف بالطبيعة الانسانية واوفر حرية روحية من ان يريد . واونامونو الشيخ الذي يناهز الآن السبعين ، طفل في تعرضه لجميع المؤثرات الروحية وكله معارضات ومناقضات ومغالطات في نظر الذين يسجنون الحياة على ورقة في بنود التشريع

ألثورة اسبانيا فولتيرها ؟ ان اونامونو اصدق موهبة من فولتير وأبعد حكمة واوجع شعوراً واصفى جوهراً لانه اكثر طهارة واقل خبثاً . لاينقصهُ من فولتير سخريته وتهكمه ودعابته ، ولكن ليس فيهِ شيء من مراوغته وتلونهِ ودهائه

انهُ رجل قلق يتعذب . وايمانه الحيُّ بالحياة لا يعصمهُ من آلام الارتياب ، وحبه للروح وللجمال لا يحول دون اعترافه بأن المثل العليا تنهار احياناً فاذا بها اجزاء محطمة تتعفر في الثرى عند موطىء القدم ...

بعد قيام النظام السياسي الذي ايدهُ على انقاض النظام الذي دحرهُ وسط مظاهر الحماسة والاكبار من مواطنيه ومن الغرباء المؤيدين ، كتب كلمة ... فقال : «ياجوعي الى الانفراد !» (Che hambre de solitud!) . وهذه الكلمة وحدها تصف الرجل كله . اية علاقة يمكن ان توجد بين الروح المعاني الذي يسبق عصره الى الادراك ويتجوهر فيهِ نكالُ جميع الازمان وجميع الاجيال ، وبين صخب الفرح في الجماهير وتغلب نظام سياسي على نظام سياسي ؟ ان صاحب القلنسوة العلمية الكبرى في جامعة سلامنكا ، الاديب السجين في برج من البلور ، الحكيم المنفي عن بهجات الحياة اليومية العادية ، الشاعر الذي يعرف كيف يبدع من العدم عوالم واكواناً — انه لأكثر عند الحياة مطالب وأعسر رغبات وأبعد مقتضيات من ان يتعزّى بالشهرة الرخيصة ويتغذّى بمظاهر النجاح في طغيان العاطفة الوطنية. أهو يغالط ضميره وينكر وجدانه ويسمم فنه باستسلامه لما لا يتفق واقتناعه الصميم — كما يتهمه منافسوه ؟ ولكن اين هو اقتناعه الصميم ؟ أهو يعشق الشذوذ للشذوذ نفسه — كما يتهمونه — لاعباً بالآراء والافكار لعب القطمع الفأر فيقبض عليها بقوة ليفرطها في سهولة ثم يعود يجري وراءها يداعبها وعندما لا ينتظر ذلك احد ، يرمي بها ليأخذ بما يناقضها على خطٍ مستقيم ؟

يلوح لي من كتابات اونامونو انهُ يعالج شتيت التجارب والاختبارات علّه يهتدي الى الناحية التي يجد عندها الراحة لنفسه والمنفعة المضمونة للشعوب وللأفراد . هنيئاً للذين يتشبثون بمذهب أو نظام فيعلنونه الأمثل والأصلح لسعادة العالمين ! اما اونامونو فأرحب من ذلك فكراً او اكثر اخلاصاً ، او اقل نفاقاً ، او اصدق تمكناً من صميم الحياة . . . وقلق روحه الرحيبة انما هو قلق الاجيال الجديدة في هذا العصر وفي جميع العصور . انهُ يدرك استحالة التوفيق بين المبادىء المحبوبة الموروثة وبين الوقائع والمقتضيات المفروضة . اكثر من اي أحد سواه هو يدرك ان تطبيق الحوادث على المبادىء غير ميسور وهو مع ذلك لا يدري كيف يتفلّت من ربقة الحوادث ليتحصّن في استقامة المبادىء . والنفاق الذي يسوّي بين جميع الأمور معلناً اشياء بينا هو يحقّق أشياء أخرى ليس من شيمته ولا هو يحذق فنهُ وهو ، بلهجة الدعابة ، يعلن احتقاره للآخذين بهِ

***

وهو بعد ذو رأي آخر في الرقيّ . إنهُ يمقت الكلمات التي يذيعها هـذا العصر عنواناً للتقدم ويصارح بمقته دون مواربةٍ أو مداورة . فيقول :

« عليّ قبل كل شيءٍ ان أعلن اني كلّما أمعنت في التفكير اكتشفتُ في نفسي كراهة عميقة لما يعتبرونهُ مبدأً قائداً للروح الأوربي الحديث ورائداً للرشاد العلمي الذي يفرضون اليوم علينا نزعاته وأنظمته . وثمت أمران يذكران كثيراً ، هما العلم والحياة . وعليّ ان اعترف بأن هـذه وذاك إليّ بغيضان (Antipàticos) . ليس من الضروري تعريف العلم الذي ينشرونهُ لينيلنا فكرة منطقية وأكثر انطباقاً على الكون . عندما كنت من أنصار سبنسر كنت أظن نفسي شغوفاً بالعلم ولكني اكتشفت خطإِي ، كخطأ الذين يظنون انهم سعداء وهم ليسوا بسعداء . لم أشغف يوماً بالعلم ، بل كنتُ أبحثُ دائماً عن شيءٍ وراء العلم . وعندما حاولتُ تقطيع خيوط النسبية في العلم لأجتلي حقيقتهُ لم انتهِ إلاّ إلى منطقة « إِني اجهل » . وعندئذٍ أدركتُ ان العلم يبعث فيَّ دائماً الملل . قد يسألني سائل بماذا أنت تعارض العلم ؟ وقد أجيب : أعارضهُ بالجهل ، ولكن هذا غير مؤكدٍ . وقد أقول مع ملك أورشليم ابن داود ان الذي يجني علماً يجني ألماً وان النهاية الواحدة تنتظر العالِم كما تنتظر الجاهل ، ولكن الامر ليس هو هذا . لستُ في حاجةٍ إلى ابتكار لفظةٍ لأقول ما هي الحكمة (Sabiduria) ، ولكن هل هي تعارض العلم ؟ إني بدافع الاخلاص لخيالي الشارد تقودني شهوتي الروحية ويستحثني نفوري العميق وانجذابي الصميم ، أجيب : أجل ، الحكمة تعارض العلم . أجل ، العلم ينتزع الحكمة من البشر ليتركهم عادةً اشباحاً مثقلة بالمعارف والمحفوظات ...

« أما الشيء الآخر الذي يذكرونهُ في كل حين فهو الحياة . وهذه يسهل الاهتداء الى ما يعارضها ، وهو الموت . غاية العلم الحياة ، وغاية الحكمة الموت . العلم يقول « لا بدَّ من الحياة » ، فيبحث عن

الوسائل لإطالة الحياة وإنمائها وتيسيرها وتوسيعها وتخفيفها وتلطيفها . والحكمة تقول «لابدّ من الموت » ، فتبحث عن جميع الوسائل التي تهيىء للموت كما ينبغي . يقول اسپينوثا « الانسان الحرّ هو الذي أقل ما يفكر في الموت ، وحكمتهُ إنما هي تأمّل لا في الموت ولكن في الحياة » . وأنا أقول ان الحكمة في مثل تلك الحال لا تكون حكمة ، بل هي العلم . ويكون صاحبها الانسان الذي تملّص من الغم المطلق (suprema angustia) ، من القلق الدائم ، وتحرّر من نظرة أبي الهول ، أي الانسان الذي ليس بانسان وهو المثل الأعلى للأوربي الحديث ... وها نحن اولاء نبلغ الآن فكرة بغيضة الي ّ كفكرة العلم والحياة ، وهي فكرة الحرية . إذ ليس من حرية حقة إلاّ بالموت

«وما هو الغرض من كل ذلك ؟ عن أيّ شيءٍ يبحثون وإلى اي هدف يرمي اولئك المتشبثون بالعلم وبالحياة وبالحرية ؟ فيديرون ظهورهم للحكمة وللموت مدركين أو غير مدركين ؟ إنهم يبحثون عن السعادة . ذاك الذي نسميه الأوربي الجديد يقبل على العالم باحثاً عن السعادة لنفسهِ وللآخرين ظنًّا منهُ ان على الانسان ان يسعى ليكون سعيداً . وهذا مبدأ لا أستطيع أن أقرّهُ . وسأطرح عليكم في هذه الاعترافات بقضية تعسفية لأني لا أملك اثباتها بالمنطق ولانها تفرضها عليّ عاطفة قلبي لا تفكير عقلي . وهذه القضية هي : إما السعادة واما الحب ! فاذا طلبتَ الواحد فعليك ان تتنازل عن الأخرى . لان الحب يقضي على السعادة والسعادة تقضي على الحب . . . وبيان هذا وتفسيره تجده عند أهل الروحانية منا وعند فلاسفتنا الجديرين بالاعجاب الذين شعروا — ولم يفكروا — بالحب والسعادة فأوجدوا كلمات « الالم اللذيذ » (dolore saporosso) و «أموت لاني لا أموت»[1] وغير ذلك مما ينمّ على عمق هذه العواطف. . .»

***

في كل ما كتبهُ وعالجهُ من موضوعات وأقاصيص وابحاث وروايات ومسرحيات وأشعار ، يتجلى أونامونو ذا عبقرية عالية التحليق متعددة الوجوه متوازية القوى في شتيت النواحي . إنه بارع مبدع عالماً ومفكّراً وناقداً ومدرّساً ومحاضراً ومؤلفاً وأديباً وشاعراً وراوياً . على ان أهم دراماته هي فيدرا Fedra وأحب كتبه الى جماهير المثقفين في العالم كتابه عن « حاسة التفجع في الحياة » (Sentimiento tragico en la Vida) ، وكتاب « الحقائق المتعسفة » الذي اقتطفنا منه نبذة في الصفحات السالفة . أما الكتاب الذي أذاع شهرته منذ سنة ١٩٠٥ فترجم الى اكثر اللغات الحية وفرض أونامونو على عالم الآداب العالمية كشخصية فذة فهو كتابهُ عن « دون كيخوتي وسانتشو »

(١) « Muero porchè no muero » بيت شهير من نشيد ديني للقديسة تريزيا الاسبانية

(Vida de Don Quijote y Sancho) ومعلوم ان خالق دون كيخوتي وسانتشو هو الاديب الاسباني العظيم سرفانتس Cervantès

وأما كتابه « اسبانيا ضد اوربا » فهو ذو وطنية بارغة متلظية منطقية في شذوذها ، حمل فيه على الاساليب الاوربية الحديثة و« مكننتها » للحياة حتى لتجعلها ماكينة عظيمة تدور بمختلف الادوات والآلات فتقضي بنظامها الآلي على كل ما في الانسان من بداهة وروعةٍ وخصوبة وشعور. ودافع عن المزاج الاسباني منكراً على الثقافة الاوربية تسميمه وتشويهه ومسخه لتجعله على صورتها ومثالها ، وطالب للفطرة الاسبانية بالبقاء على ما هي فيه من عيوب ونقائص وجهل حتى وعنجهية . فقال فيما قال : « قرأت اخيراً لكاتب مواطن مقالاً حمل فيه على اسبانيا لانها « بلد كئيب » ومضى يشرح . . « جميع منتوجاتنا الادبية والمحسوسة صلبة ، جافة ، مزعجة . النبيذ كثيف ، واللحم رديء ، والصحف سخيفة مملّة . لست أدري أية مصيبة داهمت أدبنا لتجعله حزيناً كما هو . ومن أكأب الامور في اسبانيا اننا نحن الاسبان لا نستطيع ان نكون أهل زهوٍ ورشاقة . . . »

« هذا ما يقوله پيو باروخا [1]. اما في نظري أنا فأكثر الامور كآبةً ان نصبح اهل طيش وزهو ، إذ نفقد عندئذٍ صفة الاسبانية فينا دون ان نصبح حتى اوربيين . وعندئذٍ يتحتم ان نتنازل عن تعزيتنا الوحيدة وعن مجدنا الوحيد المتلخص في كوننا لا نستطيع ان نكون اهل زهو ورشاقة . قد نتمكن عندئذٍ من ان نروي عن ظهر قلب محفوظات جميع الكتب التي ينشرون بها العلم ، غير اننا نرتدّ الى حالة يستحيل عندها ان نتمكن من الحكمة . عندئذٍ قد يصبح نبيذنا أصفى ، وزيتنا مكرراً ، ومحارنا أجود ولكننا في نفس الوقت نمسي غير جديرين بخلق دون كيخوتي جديد او ايجاد مصوّرٍ مثل فيلاسكيث وغيرهما من الذين لا يوجدون الاّ في جوّ كهذا الجوّ

« ويختم باروخا قائلاً : « يا للبلد الكئيب الذي يفكرون فيه في كلّ شيء إلاّ في الحياة ! » . وأنا أعارضه هاتفاً : «يا للبلاد الاوربية الحديثة التاعسة التي لا يكتب أهلها الاّ ليفكروا في الحياة ! وحيث الفكرة السائدة عن الحياة تنسي الناس انهم سيفقدون الحياة يوماً ! »

« ان الغرباء لا يدركون منا إلاّ الشيء الذي لا يجرح مزاجهم ، متفقاً والفكرة التي يكوّنونها عنا ، وهي دائماً سطحية . ونحن التعساء نصدق هذا الغرور المضلّل وننتظر من الخارج تصفيق اولئك الذين لا يدركوننا الاّ قليلاً ، ولو أدركونا تماماً ما استطاعوا ان يفهمونا . وحيال هذا

(١) Pio Baroja كاتب اسباني ومن رجال السياسة

الواقع الذي جهلاً أو عمداً يرمي الى مسخ طبيعتنا وتجريدنا مما يجعلنا نحن كما نحن ، ماذا علينا ان نفعل ؟ . . . . « في روح إسبانيا تحيا وتعمل ليس روحنا فقط نحن الذين نحيا اليوم ، بل كذلك وخصوصاً روح جميع أسلافنا . أما روحنا نحن المعاصرين فأقلّ الاشياء حياةً ، لأنها لا تندمج في وطننا الاّ بعد ان نكون غادرناه بموتنا الزمني . . .

« ... وماذا عسى يجدي التفكير على الطريقة الاوروبية العصرية بلغة لا هي عصرية ولا هي اوربية ؟ بينما نحن نرغمها على تبيان معنى ما ، تصرّ هي على تبيان معنى آخر مساوقة طبيعتها

« ... لاتين ، لاتين ! انهم لا يفتأون يقذفوننا بحكاية الاخاء اللاتيني . ولست أدري ما اذا كنا نحن ام كانوا هم لاتيناً . اما من ناحيتي انا شخصيًّا فاني مقتنع بأن لا شيء لاتيني فيَّ . فاذا كنا همجيين فعلامَ لا نشعر صادقين بأننا كذلك فنعلن عن انفسنا بصفتنا تلك ؟ فاذا اردنا ان نشدو بما يؤلمنا وبما يواسينا شدونا على طريقتنا الهمجية في الفن ؟ ان عقاب الذي يحاول تقليد غيره هو انه يكفّ عن ان يكون هو نفسه دون ان يفلح في ان يكون ذلك الآخر الذي تمثل بهِ ، وينتهي الى ان يكون لا شيء » ... « ويقيني ان جعل اسبانيا اوربية لن يبتدىء الاّ عند ما نفرض نحن الاسبان انفسنا على النظام الروحي في اوربا فندمج فيه ما هو جوهري عندنا تبادلاً لما هو جوهري فيه ، اي عند ما نحاول جعل اوربا اسبانية ... »

***

نبرات بديعة ، أليس كذلك ؟ يلهبني منها التلظي والأنفة والصدق وخلوها من كل انتحال وكل رخاوة وكل تمثّل . هي نبرات اونامونو حقًّا . واونامونو الذي تلخصت في فطرتهِ عناصر جميع الشعوب التي اجتاحت اسبانيا منذ بدء التاريخ — من الفينيقيين الى اليونان الى المكدونيين الى اللاتين الى القوط الى الفندال الى العرب الى الفرنسيس والانجليز وما يتخلل هؤلاء من شتيت العناصر — اونامونو اغنى من ان يكون ربيب عنصر واحد ، كائناً غنى ذلك العنصر ما كان

شقيق شكسبير في تفجع « هملت » وشقيق جوته في تفطر « فاوست » ، هو ابن اسخليوس في صلب « رومثيس » على جبل التمرّد والنكال . بيد ان اونامونو هو من كل اولئك المؤلف والشخصية التي يخلقها المؤلف في آنٍ واحد ....



الزعامة وصفات الزعيم

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

الزعيم هو الفرد — من الرجال او النساء — الذي يجمع حوله عدداً من المريدين والانصار هم اهل لأن ينشد بواسطتهم غاية عامة ، وهذه الغاية في نظرهم جميعاً ذات شأن حيوي لهم وللمجتمع الذي يعيشون فيهِ . وبدهي ان مثل هذا التعريف يقتضي ان يكون ثمة اتصال وثيق بين الزعيم والخاصة من أنصاره في فهم هذه الغاية والاحاطة بجوهرها لان كل تنافر بهذا المعنى يوقف دولاب العمل وينتهي بالاخفاق. فوضع ابن سعود او الامام يحيى على رأس المحافظين او الاحرار في انكلترة هو من الأعمال المتنافرة مثل وضع المستر (بلدوين) او المستر (لويد جورج) على رأس الوهابية في نجد او الزيدية في اليمن . وقد يستطيع هذان ان يكيّفا نفسيهما بحسب المحيط فيغيران ويبدلان في مظاهرها الداخلية والخارجية ليطابقا الهيئة التي انتقلا اليها ولكن تنقصهما حينئذٍ العقيدة وهي من الزم لوازم الزعيم وأهم شروط نجاحه . فالمتزعم الذي لا يؤمن بالقضية التي يتظاهر بخدمتها هو مثل المتنبيء الذي لا يؤمن بالدين الذي يدعو اليه واقل ما يتهم بهِ التدجيل — والتدجيل والزعامة الصحيحة ضدان لا يلتقيان . على ان هذا الكلام لا يقتضي ان يكون الزعيم وسواد انصاره سواسية في فهم تلك الغاية بل قد يكون البون بينه وبينهم شاسعاً ، فجميع زعماء الشرق مثلاً ينشدون الاستقلال الناجز لبلادهم والشعوب من ورائهم ظهيرة ولكن نوع هذا الاستقلال والغايات الاجتماعية والسياسية والروحية التي يَمُنُّ بها على الناس تختلف كثيراً باختلاف التربية والمستوى العقلي والتهذيبي ، فكم رأينا من يظن ان مجرد اعلان الاستقلال هو الرجوع الى اوضاع القرون الوسطى بتفرعاتها جميعاً حتى ديوان التفتيش لمحاكمة الناس على عقائدهم الدينية . ويكفي ان يكون ثمة خطر يهدد الجماعة لتلتفّ حول من تعتقد ان في مقدوره ان يسير بها في طريق النجاة فتؤيده بقدر القوة الشخصية التي يزدان بها وبقدر شأن الخطر المتوقّع . فلا غرو ان يظهر الزعيم على المسرح السياسي متى كانت الحاجة اليه ماسة كما تظهر البضاعة في السوق متى كان الطلب عليها حثيثاً

﴿ الوطنية والزعامة ﴾ : الوطنية هي في الاكثر مسألة الزعامة ، والزعيم هو مدره القوم المعبر عن رغبتهم وتتجلى صورتهم بشوبها القشيب في مرآته الصافية ، فلا بدّ ان تكون حلقة الاتصال بينهُ وبينهم وثيقة كما قلنا والاّ لم يعد زعيماً لهم لان الذي يسبق الناس كثيراً او يقصر عنهم كثيراً يقطع اواصر الاتصال بهم ، ولا خطر على الزعيم مثل ان يتنزل في افكاره تنزلاً مفرطاً لاسترضاء الغوغاء واستجلاب الدهماء لانهُ يعرّض بذلك نفسهُ لاستخفاف اهل الحل والعقد من العقلاء . على ان هذا

الكلام لا يمنع الزعيم ان يكبح جماح تطرفهِ تجنباً لاحداث هوَّة بينه وبين سواد الشعب بعيدة الغور ، بل رأينا جميع الزعماء السابقين لأوانهم ارتضوا ان يخففوا من غلوائهم قليلاً ويقصروا من خطاهم ليسيروا امام الشعب وعلى اتصالٍ بهِ ، وشتان بين من يخفف خطاه لتستطيع العامة ان تلحق بهِ فتمشي وراءه وبين من يتقهقر فيمشي وراء العامة ! ولما كان الوطن صلة معنوية قائمة على التجانس فمن اوائل وظيفة الزعيم تقريب الناس بعضهم من بعض وازالة تلك الحواجز المصطنعة التي اقامتها المصالح البائدة بينهم من غير ان يفادي بشيء جوهري من شؤون القضية التي ترأس الناس من أجلها ، ولن تسمح الوطنية الحقة لمن اتخذوا من تلك الحواجز البالية جدراناً يؤلفون في داخلها الاقليات التي تهدد سلامة الدولة ان ينظموا حكومة خاصة ضمن الحكومة العامة

وتتكافأ التبعة الملقاة على عاتق الزعيم والخدمة العامة التي في مقدوره ان يسديها لامته . وكم سقطت شعوب وارتفعت اخرى بسبب ما لزعمائها من الخطايا والمزايا ، وقد تسير امة من الامم بخطى واسعة الى الامام فتصاب بموت زعيمها فجأة فتتراجع ، ويتحول انتصارها في ساحة الجهاد الى انكسار. ومن اعظم البلاء ان تلقى مقاليد الامور الى اناس قلت مواهبهم فتعوضوا من نقصهم الذاتي نسباً شريفاً يطنطنون به دائماً ويزعمون انه يغنيهم عن جميع الفضائل النفسية ، ومثل هذا النسب ولا سيما في الملوك يسهل على الطامح تسلم مقاليد الأمور . وقد قابل الاستاذ (بايندر) بهذا المعنى بين الامبراطور غليوم القليل المواهب وما جره على المانيا من النكبات وبين ابرهيم لنكولن رئيس الجمهورية الاميركية المعروف المتحلّي بأعظم المزايا وما اسبغهُ على الولايات المتحدة من النعم الضافية . وقد استطاع ذاك على قلة نبوغهِ ان يستولي على المانيا بانتسابه الى بيت (هوهنزولرن) اللاَّمع والتصاقه بالمجد العريق الذي خلفهُ الملوك السابقون والسمعة الطيبة التي تركوها وراءهم فلم يكن عليهِ عسراً مع شيء من الذكاء والتآمر وحسن التنظيم ان يحل هذا المحل اللألاء من قلب الامة الالمانية النجيبة وان يستر عيوبه ويخفي نقائصه الى ان اظهرتها الحرب العالمية . في حين ان ابرهيم لنكولن لم يصل الى المقام الذي حله في عين امته الاَّ بمواهبه الذاتية التي ازدان بها فهو الذي رفع عماد البيت الذي نشأ فيه وشرف الاسرة التي نزل من اصلابها . وهكذا نرى انهُ اذا كان على المرء ان يباشر عمله صعوداً من الذيل الى القمة فلا بدَّ له ان يكون قويًّا متحلياً بطول النفس الذي يمكنهُ من هذا الصعود ، ولكنهُ اذا باشر عمله بالعكس نزولاً من القمة الى الذيل فهو ليس بحاجة الى مثل هذه المزايا ويكفيه مظهرها فقط . ينظر العظامي دائماً الى الماضي ويتطلع الى الآباء والجدود فيزول منهُ الاستقلال والاعتماد على النفس بينما ينظر العصامي حواليه ليجد الوسائل النافعة والسبل المؤدية الى تحقيق اغراضه فتقوى عزيمته ويشحذ ذهنه .لاجرم ان يكون الزعيم بعد ما قرع دهره وبزَّ خصومه مظهر الجهود متحدة ورأس القوة منظمة متجهة وهو المخل يرفع الاثقال مستمدًّا طاقته من ارادة الشعب ومستنداً الى عاتقه فاذا ما اخفق فقد يكون السبب واحداً من ثلاثة :

شدة العقبة ، او ضعف الارادة العامة ،او سقم المخل نفسه،وقد تجتمع هذه الاسباب كلها او بعضها
واذا شبهنا الزعيم بالمخل فلا نعني ابداً انهُ مجرد آلة بيد الشعب لرفع الاثقال بل هو آلة ممتازة بقوتها الذاتية المتفوقة واثرها الباهر في جميع من اتصل بها. وقصارى القول يجب ان يتحلى الزعيم بالخصائص الآتية :
(اولاً) الايمان المطلق بالقضية التي يعالجها فلا يضمر في شأنها شيئاً ويظهر شيئاً آخر كما يعمل المنافقون،ولا نعرف وضعاً من الاوضاع المقدسة اتخذه المنافقون مطية مثل وضع الدين، وتأتي بعده الوطنية،فبانتشارها وبدخولها في الصميم من قلوب الجماعات المضطهدة والمغلوبة على امرها ظهر على المسرح بعض المتزعمين المنافقين الدجالين ممن اتخذوها مطية فساوموا عليها وملأوا بطونهم من موائدها ومحافظهم من نضارها ، ولكن ليس من الصعب على المتتبع ان يفضح الدجل والنفاق لاننا وجدنا من ألزم لوازم الذي يقف موقف المرشد او المصلح او الزعيم من الناس ان يثير احترام الخلص من المتصلين بهِ مباشرة كزوجه واخوته مثلاً وان لم يعتقدوا بصحة دعوته ، لان الاخلاص للمبدأ والتفاني فيهِ يحمل المرء على احترام المتحلي به ولو كان خصماً فما بالك وهو القريب العزيز . وان رجلاً يعجز عن اكتساب الحرمة من اهل بيته والمتصلين به اتصالاً وثيقاً لقمين بان لا يكون محترماً في نفسه بالغاً ما بلغ من التظاهر بالخدمة العامة والتفاني في سبيل القوم . (ثانياً) ان يكون رأي الزعيم في المسائل التي تدور عليها قضية الشعب واضحاً كالشمس في رابعة النهار وكل ابهام في موقفه الاساسي يدعو الى اضطراب انصاره وحيرتهم ويتركهم عرضة للدعايات المناقضة والانحياز الى الآراء المخالفة . (ثالثاً) الثبات على المبدأ ، وهذا يقتضي ان يكون الزعيم بعيد النظر متحلياً بقوة العقل ومتسلحاً بالتربية الصحيحة وتحليل ما يطرأ من الطوارىء حتى لا يرتكب من الخطإ ما يضطره الى تغيير رأيه بصورة تلفت الانظار،ولا يعني هذا الكلام ان الزعيم يجب ألاَّ يخطىء في آرائه ابداً ولا فيما يتوسل به من الوسائل فالخطأ يصح حتى على اكبر الزعماء والقواد اذا كان خطأ معقولاً واما الخطأ المنكر فهو البديهي الظاهر الذي لا يجوز ان يقع فيه العقلاء

والزعيم الذي لا يتمسك بعقيدته تمسك المؤمن بعقيدته الدينية المقدسة ويستعدُّ لبذل الغالي والرخيص في سبيلها يحرم من الثابتين على ولائهِ القائلين بقولهِ ، ويمكن خصومه من تدبير الحملات عليهِ ، ويكون التساهل في العقائد الاساسية التي هي محك النظر ومدار العمل تهلكة له ولمن يلوذ بهِ . فالزعيم الاشتراكي الذي يحاول تمشية الحال مع الرأسمالي المحافظ المتطرف يكون مثله كمثل الداعية الى التنزيه والتوحيد المتساهل مع الشرك وعبادة الاصنام ! على ان التصافي بين المتنازعين والتسوية بين المتخالفين هما من الامور الواجبة في كثير من الاحيان — على شرط ألاَّ تتناول الشؤون الجوهرية التي هي اصل المذهب ومبنى العقيدة

وعلى كل حالٍ فاذا جاز للزعيم ان يغير رأيه مرَّة في شأن من الشؤون المهمة — ولن يجوز ذلك في عقيدة من العقائد الجوهرية — فمن المحال ان يغيره مرتين اثنتين ويبقى محافظاً

على سمعته ، فان هذا الكلام من بعض المتزعمين الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ويتقلبون في المبادىء الاساسية تقلب الحرباء ويدورون في العقائد الجوهرية دوران دواليب المطاحن مع الهواء !

ومما لاشك فيه ان عوارض تعرض وعقبات تطرأ تحتم على من بيده زمام المركبة ان يتجنب الصدمة ، ولا غبار على الزعيم في مثل هذه الاحوال والظروف والملابسات التي لا شأن لها في الاساسيات ان يتسامح ويتساهل لان الصلابة في الحق لا تعني العناد العقيم والانكسار على الصخر. ثم ان الكياسة شيء والتشدد الاعمى شيء آخر، والفظاظة والغلاظة في الطباع تدعو الى الانفضاض من حول الزعماء ولو كانوا في مقام الانبياء ، بل اننا رأينا بعض الانصار من غلاظ الطبع سبب نكبة على الزعيم الذي يوالونه ، وقد يرجع الكثير من الحملات التي تحمل عليه الى الخصومة التي يخلقها في الناس هؤلاء الانصار والاتباع . وتطلق في الانجليزية كلمة Crank على المهووس الذي هو في عقيدته اقرب الى الخَولَع او المجنون في امر واحد وقد يردد الكلمة الدالة على هوسه كما يردد ذو الجنة الكلمة التي ارتكز عليها جنونه من غير ان يفكر فيها ، وهذا ممنوع على كل رجل متزن دع عنك الزعماء ، لان الجنون حتى في اسمى الامور لا يدل على رجحان عقل ، واذا جاز لبعض المعتوهين من اهل القرون الوسطى ان يلموا حولهم الانصار بترديد بعض الكلمات الجذابة المقدسة من غير ان يفقهوا معناها فزعامة مثل هذه لا تلم في عصرنا وهو عصر التحليل العقلي غير الحثالة من الناس

وكم رأينا في هذا الشرق من يطمع في الاستيلاء على عقول الناس وليس له من رأس مال سوى الصياح «فليحيي الوطن» ومن خطة سوى «القاء الاعداء بقضهم وقضيضهم في البحر قبل كل عمل» وغني عن البيان ان مثل هذه الخطة تجاه العدو القوي المتمكن لا تعني سوى الفوضوية السياسية وترك كل عمل يرجى من ورائه زحزحة الكابوس والخلاص منهُ تدريجيًّا

وعلى ذكر الخولع والمهووس نقول ان الاستاذ (بايندر) قسم العقول الى ثلاثة نماذج فالنموذج الاول هو العقل الذي ليس في مقدوره ان يرى المسألة المعروضة الاّ من ناحية واحدة فقط ، وهذا هو عقل الرجل البسيط السخيف الاحمق ، والنموذج الثاني هو العقل الذي في طاقته ان يرى ناحيتي المسألة ولكن بالتناوب والتتابع لا في وقت واحد ، والنموذج الثالث يرى النواحي كلها معاً فيزنها بالميزان ويقابل الواحدة منها بالاخرى قبل ان يصل الى حكم نهائي ثابت ، ويدعى هذا النموذج العقل الاستقرائي التأليفي وهو مما اتصف بهِ جميع الزعماء العظام . قال (بايندر) وليس على الزعماء ان يصلوا الى حكم نهائي وثابت فقط بوزن كل وجه من وجوه المسائل ومقارنته بل عليهم ان يطبعوا حكمهم هذا في اهل النموذج الثاني بان يبينوا لهم ان المسألة يجب ان ترى من وجوهها كاملة في آن واحد، وان يقنعوا اهل النموذج الاول بان القضايا لن تحل بالاقتصار على رؤيتها من جانب واحد . وما من امة لم تتحلَّ بهذا النمط من الزعماء استطاعت ان تعمل اعمالاً عظيمة خالدة

ثم لا بد للجماعة في مجموعها من نسبة كبيرة من اهل النموذج الثاني وهم ممن يخاطبون بالعقل

وتسري عليهم الحجج المنطقية ، واما اهل النموذج الاول فانهم يستسلمون عادة من بعد المقاومة والاصرار على وجهة نظرهم ذلك لان براهينهم ليست من مواليد ادمغتهم بل مستعارة غالباً والمرجح انهم يقبلون البرهان الجديد في نهاية الامر على شرط ان يلقى في روعهم ان هذا البرهان انما هو الشيء الذي يدور في خلدهم ويدينون بهِ . (رابعاً) ان يتحلى الزعيم بشخصية باهرة لها شيء من السحر العجيب في ما حولها من الانصار، ولن يتأتى ذلك في مثل هذا العصر الذي نعيش فيهِ الاّ بالتربية الصحيحة وما تحتاج اليه عادة من فصاحة وبلاغة وحسن بيان . ومقياس هذه التربية البيئة الذهبية التي يعيش فيها الزعيم فاذا كان الصرف والنحو والاعمال الاربعة وشيء من البيان والاصول والفقه كافياً ليتسلح بهِ الرجل في نجد او اليمن فأن هذا السلاح لا يبهر احداً في مصر وسورية والعراق

وعند الاستاذ (بايندر) ان التربية المطلوبة في الزعماء تعني كبر العقل والاستعداد العام للتقدم وترك الحسن في سبيل الحصول على الاحسن . ولما كانت بعض الصناعات كالحقوق والكهنوت مثلاً تقاوم كل تغيير عادة لانها نشأت على اعتبار ما يقرره السلف مقدساً وكان معظم الحكام والزعماء الذين ظهروا على المسرح السياسي هم من اهل هاتين الطبقتين من الناس فلا غرو ان يزرعوا في ذهن المجتمع كالاً منشوداً فحواه ألاّ تغيير ولا تبديل للاوضاع القائمة ، ولما كانوا من اهل الطبقة التي تفردت بالتربية والثقافة غالباً لم يتعذر عليهم ان يطبعوا مقاييسهم الخلقية والاجتماعية في سواد الناس مما ادّى الى شيءٍ من الخنوع وزوال الابتكار في الافراد . ان هذه المحافظة الضيقة تقتضي من الزعيم في القرن العشرين ان يكون مؤمناً بامكان التغيير قانعاً بأن المجتمع الذي فيهِ قابل للتكامل والارتقاء وان لا شيء في العالم مقدسٌ الاّ اذا كان نافعاً للناس

(خامساً) التحلي بالشجاعة الادبية وهي رأس فضائل الزعيم وربما سترت فيهِ عيوباً كثيرة وعادلت بعض المزايا المهمة الناقصة فيهِ ، والشجاعة الادبية في الزعيم للدفاع عن الحق هي مثل شجاعة الجندي في ميدان القتال فكما ان هذا لا يكون اهلاً لحمل البندقية ومكافحة الاعداء الاّ اذا كان صنديداً كذلك ذاك لا يجوز له ان يرفع علم الوطنية ما لم يكن جريئاً في الدفاع عن حقوق الامة في ادق ساعاتها واخطر ازماتها . ولعل الوضوح الجليّ الذي طلبنا ان يكون في رأي الزعيم يرجع الى هذه الشجاعة الادبية لان الزعيم متى كان ضعيفاً في نفسه يحاول تجنب النزال والطعان بالتستر وراء الايهام والابهام والالتجاء الى التقيَّة والمواربة

على ان امراً وحداً ليس من شأنهِ الاعلان عنهُ ابداً وهو الخطر المحدق بالامة متى كان ذكره يدعو الى القنوط ، فزرع الامل هو من اوجب الواجبات، وكم من زعيم من اكبر الزعماء كان يضع في ساعة الخطر الشديد وسائل النجاة في ذهن الشعب امراً سهل التناول قابل التطبيق . والرجل الذي لا يؤمن بقوة الارادة العامة على ازالة الموانع والعقبات ينقصهُ عنصر جوهري من عناصر الزعامة ، ولولا الامل بالنجاح لبطلت وسائل الكفاح

القصص

في الادب العربي

للدكتور احمد ضيف

الاسلوب القصصي من أشهر أساليب الكتابة الادبية وأوسعها خيالاً وأفسحها مجالاً، لوصف الحياة الانسانية والنفوس البشرية واسرار الاجتماع، وبث شعور الانسان من سعادة وشقاء وحب وبغض، ورسم عقائد الانسان من حقائق وأساطير، وذكر حوادث التاريخ القريبة والبعيدة . ثم هو زيادة على ذلك معرض لفنون الكتّاب ومجال واسع لظهور نبوغهم، وعبقرياتهم الادبية والفنية وأساليب التفكير لديهم . لهذا كانت القصص من أعظم الانواع الادبية في آداب الامم، ونتاج قرائحهم قديماً وحديثاً، بل أبقى تلك الانواع جميعاً وأشدها جذباً للنفوس وأعمها فائدة ونفعاً في تغذية العقول، ونشر الفنون الكتابية

ولقد نجد كثيراً من القصص في الادب العربي، فكتب الادب والتاريخ حافلة بذكر ايام العرب وحروبهم والتحدث عن ملوكهم، وكبار رجالهم، وشعرائهم وعشّاقهم، وأخبار الجن وسيرهم، ولكن ذلك ذكر في تلك الكتب على أنهُ احاديث ومسامرات وروايات يذكرها الكاتب او المؤلف على انها قطعة تاريخية لا قصة أدبية فنية — لانها ليست مكتوبة بقلم كاتب واحد ولا من تأليف كاتب معروف امتازت بأسلوبه وعرفت بصبغته الشخصية وشعوره الخاص، بل رواها الرواة وغيروا وبدّلوا فيها كما يروي المؤرخ حادثة ثم يرويها مؤرخ آخر بطريقة اخرى، فلا نحسب هذه الروايات من الكتابة القصصية الادبية المعروفة الآن التي تمتاز كما قلنا بأسلوب الكاتب الفني وطريقته في التفكير وصفته العقلية الخاصة بهِ، ونظم الكلام المعروف في كتابة القصص المحتوي على ذكر اشخاص متصفين بأخلاق خاصة، وصفات خاصة يتحدثون ويتجادلون فتظهر في أثناء أحاديثهم ومجادلاتهم خفايا النفوس البشرية، وما تنطوي عليهِ من ميول واهواء وعقائد . ان حوادث التاريخ لا تتغير وطبيعة الانسان واحدة : فالحب والبغض، والطمع والقناعة، والاحسان والاساءة، والتقوى والفسوق، كلها حالات ثابتة في النفوس وفي طبيعة الانسان لا تختلف في اصولها، ولكن الذي يتغير ويختلف هو إدراك الشخص لهــا وفهمها فهماً صحيحاً أو خطأً، وتصوير الكاتب لها على حسب ما يرى ويفهم، وعلى حسب ما يلبسها من شخصيته وأسلوبهِ، فهذه الشخصية

هي التي تظهر في الكتابة القصصية وتميزها من غيرها ، وهي التي تقلب التاريخ الى أسطورة او الى بحث نفسي او اجتماعي ، وقوة الكاتب او براعته هي التي تلبس الحوادث والحكايات لباساً قد يجعلها خالدة باقية ببقاء الايام ، فعلى هذا لا تحسب الاحاديث التي في الكتب الادبية العربية كالأخبار الخاصة والعامة ، وذكر الملوك والحروب ، وأحاديث المسامرات وغيرها ، من القصص الفنية

وقد جاء الأسلوب القصصي في الاسلوب الفني الى لغة العرب مما نقل اليها من الفارسية أو الهندية أو غيرها ككتاب « كليلة ودمنة » و « الف ليلة وليلة » وغيرهما مما ذكره ابن النديم في باب الاسمار والسير ، كتبت على نمط هذه القصص المترجمة ، وقصص اخرى وحاكى فيها مؤلفوها أساليب التفكير الفارسية أو الهندية — عن ألسنة الحيوان والبهائم — مما أخذه الكتّاب من تاريخ الفرس أو الهنود

قال ابن النديم في كلامه على الكتب التي صنفت في الاسمار والخرافات :

ابتدأ ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم . . . واحضر السامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون . . . واختار من الكتب المصنفة في الاسمار والخرافات ما يطيب له — وكان فاضلاً — فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة وكل ليلة سمر تام . . . وكان قبل محمد يعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم : عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون ، وعلي ابن داود . فهؤلاء جماعة من الكتّاب كانوا يؤلفون في القصص ويحاكون الفرس وغيرهم في الأساليب القصصية

انتشار القصص العامية

اما سبب انتشار القصص العامية ولاسيما الاعجمية منها فقد اندسَّ بين العرب أيام الدولة العباسية جماعة من الاعاجم وكان من بينهم من يحمل الاخبار الخرافية والأخيلة الغريبة التي ورثوها عن آبائهم واجدادهم الفرس والهنود اصحاب الاخيلة العتيدة في الاساطير وينبوع كل هذه القصص الخرافية . وكان من بينهم جماعة من التجار الذين يترددون على الهند وفارس وبلاد العرب وينشرون هذه الاخبار في المجالس والمجامع بين الخاصة والعامة . فذاع أمر هذه القصص بين عامة الناس حتى امتلأت باللهجة العامية وعني بالكتابة فيها بعض الادباء واضافوا اليها كثيراً من صور حياتهم الاجتماعية والسياسية وادخلوا فيها شيئاً من الاشعار المعروفة والامثال السائرة والعبارات الصحيحة

وأدخل جماعة من الكتّاب في هذه القصص شيئاً من تاريخ العرب وكبار رجالهم وفرسانهم وحروبهم واخبارهم وسيرهم ونقلوا اليها بعض ما في كتب الادب المعروفة من شعر ونثر وامثال وحكم وجاروا العامة في ميولهم واساليب التفكير لديهم فظهرت فيها حكايات هي خليط من الفارسية

والهندية والحياة الاسلامية العربية ولهجات الخاصة والعامة والحوادث المختلفة للخلفاء والامراء والعلماء والجهلاء والرجال والنساء والكبار والصغار . وقد جاروا العامة في اساليبهم وميول التفكير لديهم كما يجد القارىء ذلك في قصة عنترة وبكر وتغلب وسيف بن ذي يزن وغيرها من القصص العامية المشهورة . وكل هذه القصص أو جلها كتب في مصر بأقلام كتّاب من المصريين على ما يظهر من لهجتها العامية المصرية

ومن اشهر القصص العامية قصة عنترة وهي اقرب الى وصف الحياة البدوية منها الى غيرها وقد احتوت على كثير من اخبار العرب واشعارهم واوصاف حروبهم وعاداتهم واخلاقهم من كرم وشهامة وشجاعة وميل الى الانتقام ، كما احتوت على حبهم للشعر وفنونه وجملة احوالهم الاجتماعية والتاريخية قبل الاسلام

ومما يجدر التنبيه عليهِ ان هذه القصة وامثالها كتبت في مصر بأقلام كتّاب مصريين ويروون في ذلك : « انهُ نشأ في مصر من افاضل الرواة رجل يقال له الشيخ يوسف بن اسماعيل وكان يتصل بباب العزيز بالقاهرة فاتفق ان حدثت ريبة في دار العزيز ، ولهج الناس بها في المنازل والاسواق فساء العزيز ذلك ، واشار على الشيخ يوسف بن اسماعيل المتقدم ان يطرق ما عساه ان يشغلهم عن هذا الحديث ، وكان واسع الرواية في اخبار العرب ، كثير النوادر والاحاديث ، فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس ، فاعجبوا بها ، واشتغلوا بها عن سواها ، ومن تلطفه في الحيلة انهُ قسمها الى اثنين وسبعين كتاباً ، والتزم في آخر كل كتاب منها ان يقطع الكلام عند معظم الامر الذي يشتاق القارىء والسامع الى الوقوف على تمامه ، فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليهِ ، فاذا وقف عليهِ انتهى بهِ الى مثل ما انتهى بهِ في الاول وهكذا .. الى نهاية القصة .. وقد اثبت في هذا الكتاب بعض ما ورد في اشعار العرب المذكورين فيها . واضاف الى تلك الاشعار اشعاراً اخرى يبعد ان تكون صادرة عنهم ، كما اضاف اليها قصصاً واحاديث وحكايات مخترعة قصد بها التسلية والتمثيل »

فعلى هذه الرواية التي وجدت في مقدمة ديوان عنترة تكون هذه القصة كتبت في مصر كما كتب غيرها من القصص الأخرى التي تظهر فيها المسحة المصرية والصبغة العقلية لأهل مصر من فكاهات وغيرها

نوع القصص العربية

ولقد ظهر في القرن الثالث والرابع وما بعدهما أحاديث او حكايات تدخل في باب القصص من جهة انها منمقة مكتوبة كتابة بليغة ، ولكن كثيراً منها مبني على سرد ووصف شيء رآه

الكاتب ، وسطره تسطيراً مثل ما يحكى عن اهل بغداد ومجالس الرشيد والبرامكة وجانب عظيم من هذه القصص منقول عن اللغة الفارسية وغيرها او محاكاةً لها او مؤلف تأليفاً هو اقرب الى التاريخ منه الى القصص . وبعضها كتب بلغة ملحونة فاسدة لا تحسب من الادب الصحيح مثل القصص العربية المعروفة التي كتب اكثرها بلهجة عامية مصرية . وهناك نوع من القصص التي اخذ الكتاب موضوعاتها من التاريخ العام او الخاص ومن بعض البلدان التي عاشوا فيها ، او من قصص القرآن كقصص فرعون وموسى وعيسى بن مريم ، واهل الكهف وغيرهم ، او انتزعوها من الف ليلة وليلة ، او اخذوها من تاريخ العرب والاجتماع في بغداد مثل حكاية ابي القاسم احمد البغدادي وحكاية الحداد ، وما جرى له مع هرون الرشيد ، وقصة انيس الجليس وما جرى لها مع علي نور الدين ، وهي مأخوذة من الف ليلة وليلة ، ومثل حديث علاء الدين والقنديل المسحور وكالحكايات المنسوبة الى ابي الحسن احمد بن عبد الله بن محمد البكري المتوفى في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري كغزوة الاحزاب وما جرى للامام علي الفارس الوثاب ، وغزوة الامام علي بن ابي طالب مع اللعين هضام ابن الجحاف ، وكفتوح اليمن المعروفة بقصة الغول وغير ذلك من القصص الكثيرة التي كتبت في ازمان مختلفة

المقامات والقصص

وهناك قصص أخرى أدبية مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ومثل التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي ومثل قصة حي بن يقظان الفلسفية ، وهذه القصص اقرب الى الكتابة العلمية او الفنية الخاصة بالنقد الأدبي او الفلسفي

ومن اسلوب القصص مقامات الهمذاني والحريري وامثالها وهي جارية على غير اسلوب تلك القصص العامية الحافلة بالاخطاء واللحن وليست شبيهة بها من حيث موضوعاتها لان تلك الموضوعات اما فارسية او هندية او عربية مقتبسة من تاريخ الفرسان والابطال ، قد عبث بها الخيال ولعبت بها اهواء العامة

والمقامات ليست على هذا الطراز لأنها كتبت بعبارة عربية صحيحة واخذت حوادثها من مشاهدات الكتّاب واحوال الاجتماع والعصور التى كانوا يعيشون فيها

وقد اشتملت على بعض المسائل الاجتماعية وعلى وصف بعض النفوس وكان الغرض من كتابتها اظهار البراعة في اساليب الكتابة المسجعة وانواع الشعر الصناعي وتنميق الاسلوب

اعلام الطب العربي

اسماء اشهرهم واخطر آثارهم (١)

الدكتور فيليب حتي

الاستاذ في جامعة برنستن الاميركية

لم يكن عند العرب قبل الاسلام طبٌّ علميٌّ فنيٌّ باصول . والقليل من الطب العلمي الذي كانوا يمارسونه انما كان مبنيًّا على الاختبار متوارثاً بالتقليد تحتوره تعاويذ السحرة وطلسمات الدجَّال ضد الاصابة بالعين والارواح الشريرة . أما الوصفات فكانت مقتصرة على المداواة بالعسل والفصد والحجامة . وكثير من هذا الطب الساذج المتناقل عن مشائخ الحي وعجائزهِ نُسب فيما بعد الى النبي دون ان يكون للنبي علاقة بهِ ، على ان ابن خلدون المؤرخ النقدي في الفصل الموسوم «علم الطب» من مقدمته يتعرض لهذا الطب المسمى «طب النبي» ويذكر القراء « انهُ صلى الله عليهِ وسلم انما بُعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث ليعلمنا الطب ولا غيره من العاديات »

وبعد ان ظهر الاسلام وتغلب ابناء الجزيرة على بلدان الهلال الخصيب موطن المدنية الاشورية والفينيقية القديمة فضلاً عن الفارسية واليونانية المتأخرة تلقَّحت عقول ابناء العربية بلقاح علمي جديد اهم مصادره ايران واليونان فأخذوا فيما اخذوه عن الشعوب المغلوبة علم الطب فأتقنوه واضافوا اليهِ نتائج تجاربهم وأبحاثهم وتفقَّهوا فيهِ الى درجة لم يبلغوها في سائر العلوم الدخيلة باستثناء الفلك والرياضيات . وفي الحديث المشهور « العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان » دليل على مبلغ الطب من خطر الشأن في نفوس العرب المسلمين

واول طبيب عربي في صدر الاسلام هو الحارث بن كلدة الذي ترجم له ابن ابي أُصيبعة في « طبقات الاطباء » وذكر انهُ تخرَّج في مدارس فارس الطبية وهو الذي لقبهُ ابن العبري والقفطي بطبيب العرب . وعملاً بقاعدة تلك الايام نشأ ابن الحارث واسمهُ النَّضر طبيباً كوالده ، والنضر هذا ابن خالة النبي

وبانتقال مركز الخلافة بعد العصر الراشديّ من المدينة الى دمشق ازداد اثر الطب اليوناني السرياني في الطب العربي . ومن الملحوظ ان طبيب الخليفة معاوية واسمهُ ابن أُثال كان مسيحيًّا كما كان طبيب الحجاج واسمهُ تياذوق ، وهو اسم يوناني . وفي عهد الخليفة مروان بن عبد الحكم نقل عام ٦٨٣م

(١) مقدمة كتاب « معضلة السرطان » . راجع باب مكتبة المقتطف في وصفه

طبيب يهودي اسمهُ ماسرجَويَه عن السريانية اوَّل كتاب طبي علمي في اللغة العربية . واصل هذا الكتاب يعود الى اليونانية وهو من وضع قسّ في الاسكندرية . اما اول خليفة عُني بشؤون الصحة العمومية فهو الوليد بن عبد الملك (المتوفى عام ٧٠٥ م) الذي على ما روى الطبري وابن العبري منع المجذومين من السؤال الى الناس واقام لهم وللمقعدين والعميان مؤسسةخاصة هي على ما يظهر الاولى من نوعها .وفي خلافة عمر بن عبد العزيز انتقلت مدارس الطب اليوناني من الاسكندرية الى انطاكية وحران واخذت بالازدهار في كنف الخلافة العربية

وعقب العصر الامويّ العصر العباسيّ الزاهر . وفي مستهله وبتعضيد الرشيد والمأمون نقلت معظم الكتب الطبية اليونانية بما فيها مؤلفات أبقراط وجالينوس وبولس الايجيني من اليونانية الى السريانية اولاً ومنها الى العربية مما جعل ابن العربية وريث التقاليد اليونانية العلمية . وتلا دور الترجمة دور التصنيف . فأضاف الاطباء المتكلمون بالعربية الى الذخيرة الطبية القديمة أشياء كثيرة هامة . انما تحفتهم هذه لم تتعدَّ دائرة الطب العام ولم تتناول علم الجراحة ولا التشريح وذلك لأن الوسائل لدرس تركيب اعضاء البدن لم تكن موفورة في الاسلام . مع ذلك يلذُّ لنا ان نقرأ في ابن أبي أصيبعة (تحرير مولر ج ١ ص ١٧٨) ان طبيباً نصرانيًّا اسمه يوحنا بن ماسويه (٧٧٧ — ٨٥٧) كان يعمد الى تشريح القرود وفي جملتها قرد ارسله احدهم من بلاد النوبة هدية الى الخليفة المعتصم

قلنا ان تقدُّم العرب في فن الجراحة وعلم التشريح لم يكن مذكوراً ولا بدَّ من استثناء تشريح العين وجراحتها . فان كثرة امراض عضو النظر في البلدان العربية الحارة حملت عدداً من الاطباء على الاختصاص في هذا الموضوع والتبريز فيهِ . وأول تأليف في أمراض العين هو لابن ماسويه المذكور آنفاً ومن كتابه الموسوم « دَغل العين » نسخة خطية في المكتبة التيمورية بالقاهرة وأخرى في لنينغراد . وكان لابن ماسويه تلميذ نابغ هو حنين بن اسحق (٨٠٩ — ٨٧٧) صاحب « العشر مقالات في العين » الذي نشره حديثاً الدكتور ماير هوف (القاهرة ١٩٢٨) ومن الذين لمعوا في القرن الحادي عشر بين الكحالين (أطباء العيون) في بغداد علي بن عيسى الذي كان كأسلافه مسيحيًّا

ويجمل بنا ان نذكر ان طبيب الاجيال الوسطى كان اكثر من طبيب . فكان فيلسوفاً وعالماً ، ولقبه العربي « حكيم » يدل على مقامه في نظر معاصريه وكان ولا سيما في بغداد والاندلس في الغالب من ذوي الزعامة الادبية والسياسية . ومن هؤلاء من كانت حرفته تدرُّ عليهِ المال الوفير . ومن امثلتهم جبرائيل بن بختيشوع النسطوري طبيب الرشيد والمأمون والبرامكة فلقد ذكر القفطي في «اخبار الحكماء » ان ثروته بلغت ٨٨٨٠٠٠٠٠ درهم (ما يوازي ٥٠٠٠٠٠٠ جنيه مصري) وهو رقم لا ريب في مبالغته . ونشأ في عائلة بختيشوع سبعة أجيال متوالية من الاطباء مما يدل ان الصناعة كانت وراثية يتناقلها الولد عن أبيه

ومن الدوائر الطبية التي امتاز العرب بالتقدّم فيها دائرة العقاقير ومعرفة خصائصها واستخدامها لمداواة الامراض . فالاطباء المتكلمون بالعربية هم اوّل من أسَّس مدارس الصيدلة ووضع التآليف الممتعة في هذا الموضوع ، وذلك ابتداء من جابر بن حيّان الذي زها حوالى سنة ٧٧٦ م والمحسوب بحقّ ابا الكيمياء العربية . ويستنتج من القفطي (تحرير ليبرت ص ١٨٨ — ٩) ان اصحاب الصيدليات في ايام المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) كان لا بد لهم من تأدية امتحان والحصول على اجازة قبل معاطاة الحرفة . ثم سرى هذا القانون على ممارسي الطبابة بعد قرن من ذلك التاريخ . فبأمر الخليفة المقتدر تولى الطبيب سنان بن ثابت بن قُرّة فحص ٨٦٠ ممارساً في بغداد (ابن ابي أصيبعة ج ١ ص ٢٢٢) . وسنان هذا نظَّم حملة طبية جعلت همها التجوال من بلد الى آخر لمعالجة المصابين وتولى رآسة البيمارستان (المستشفى) في العاصمة بغداد . وهو البيمارستان الذي انشأه هارون الرشيد على الانموذج الفارسي كما هو واضح من الاسم الذي أُطلق عليه

ومما يستوقف الانتباه ان جلّ الاطباء المصنفين بعد دور الترجمة كانوا من اصل فارسي ولكنهم من متكلمي العربية . وفي طليعتهم علي بن ربَّن الطبري وابو بكر الرازي وعلي بن عباس المجوسي (* ٩٩٤) وابن سينا . وكان الطبري في الاصل مسيحيًّا كما يُستنتج من اسم والده « ربن » السرياني ولكنهُ اعتنق الاسلام لدى دخوله في خدمة الخليفة المتوكل . والطبري هو صاحب « كتاب فردوس الحكمة » الذي نُشر بالطبع في برلين عام ١٩٢٨ . اما الرازي (٨٥٠ — ٩٢٣ م) فاسمهُ يدل على انهُ من مواليد الرّي في جوار طهران . وهو في نظر مؤرخي الطب اعظم حكيم عربي . ذكر له النديم في « الفهرست » ١٣٣ مؤلفاً منها ١٢ في الكيمياء . واهم مؤلفاته « الحاوي » و« المنصوري » اللذان تُرجما الى اللاتينية في القرون الوسطى وما لبثا ان اصبحا المعوّل عليهما في تلقن علم الطب في كليات اوربا . ومن جواهر التآليف الطبية العربية رسالة للرازي في الحصباء بيَّن فيها المؤلف للمرّة الاولى الفروق بين الحصباء والجدري . ولقد تُرجمت هذه الرسالة في اواسط القرن الماضي الى الانكليزية . ومن ابدع ما ذكرهُ ابن أبي أصيبعة عن الرازي انهُ تحقق النقطة الصحية المناسبة لبناء البيمارستان في بغداد بوضعه قطعاً من اللحم في انحاء مختلفة في البلدة ومراقبة سرعة سير النتانة فيها . وبعد الرّازي فابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) هو اشهر طبيب عربي. وهو صاحب كتاب « القانون في الطب » المتضمن خلاصة الصناعة الطبية على ما مارسها اليونان والعرب في اوانه . وما لبث « القانون » ان نُقل الى اللاتينية في القرن الثاني عشر حتى اصبح بفضل حسن تبويبه وسهولة مناله الكتاب التدريسي المعوّل عليه في مختلف الكليات الاوربية حتى القرن السابع عشر . وبذلك ملأ المركز الذي كانت تشغله قبله كتب جالينوس والرازي والمجوسي . اما في العربية فالقانون طُبع في رومة سنة ١٥٩٣ فهو اذن من اقدم الكتب المطبوعة في هذه اللغة . ولقد ترجم بعض « القانون » حديثاً الى الانكليزية .

ولنلقِ الآن نظرة عامة على سير الطب في الاندلس العربية . والذي نلحظه لاول وهلة ان معظم الاطباء المتكلمين بالعربية في اسبانيا كانوا فلاسفة اولاً واطباء ثانياً . ومن امثلتهم ابن رشد شارح ارسطوطاليس وابن ميمون اليهودي طبيب صلاح الدين ودفين طبرية وابن طفيل . وبرغم ذلك فانهم اتحفوا العالم بقسط غير زهيد من العالم الطبي . فابن رشد (١١٢٦—١١٩٨) ذكر في كتابه «الكليات في الطب» ان المصاب بالجدري مرة لا يصاب بها ثانية ومعاصره ومواطنه ابن ميمون (١١٣٥ — ١٢٠٤) واضع كتاب «الوصول في الطب» وجوّد عملية الختان ونسب البواسير الى قبض المعدة واشار بالمأكولات النباتية علاجاً لها

ومن العرب الاندلسيين الذين اشتهروا بالسياسة والادب وقلّ من عرفهم بصفتهم الطبية الوزير الكاتب لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣—١٣٧٤) وهو الذي وضع رسالة في الطاعون الذي كان يجتاح اوربا في عصره اثبت فيها ان انتشار هذا المرض المخيف الذي سماه الاوربيون «الموت الاسود» انما هو بواسطة العدوى ، وذلك في عصر لم تكن فيهِ العدوى ولا الجراثيم معروفة لدى احد

وثمة فرعان طبيان تفوّق فيهما رجال الاندلس اولهما الجراحة وثانيهما علم النبات والعقاقير . ففي الاول لمع الجرّاحيّ الكبير ابو القاسم الزهراوي (* ١٠١٣) طبيب الخليفة عبد الرحمن الثالث . وهو واضع «التصريف لمن عجز عن التأليف» وفيهِ اشارات الى تفتيت الحصاة داخل المثانة والى وجوب تطهير الجرح بالكيّ . ولقد تُرجم الجزء الجراحي من هذا الكتاب الى اللاتينية في قرن الترجمات ، القرن الثاني عشر واصبح الكتاب المدرسي في كليات سلرنو ومنبيليه وغيرها . ومن اطباء الاندلس النابغين ابن زُهر المتوفى باشبيلية عام ١١٦٢ ولقد نسب اليهِ الكثيرون شرف اكتشاف صؤابة الجَرَب على ان التنقيب الحديث يثبت ان احمد الطبري الذي زها في النصف الثاني من القرن العاشر سبق ابن زُهر الى اكتشاف جرثومة هذا المرض وذكرها في كتابه «المعالجة البقراطية»

أما الخطوات الواسعة في تقدُّم علم خصائص النبات الطبية فالذي قام بها انما هو الطبيب القرطبي ابو جعفر الغافقي (* ١١٦٥) صاحب كتاب «الادوية المفردة»[1]. وهو الكتاب الذي بنى عليهِ مواطنه ابن البيطار (المتوفى بدمشق ١٢٤٨) شهرته الواسعة . فابن البيطار هذا على ما اثبت البحث النقدي الحديث مدين لسلفه الغافقي بالشيء الكثير . ولقد حوى كتاب الغافقي اسماء اهم النباتات في اسبانيا وافريقية الشمالية العربية واللاتينية والبربرية مع وصف علميّ لكل منها . ثم جاء ابن البيطار واضاف اليها في مؤلفه «الجامع في الادوية المفردات» حصة من نباتات مصر والشام وآسيا الصغرى التي ساح فيها . ويجب ان لا ننسى في الختام ان الاندلس كانت المركز الرئيسي لنقل مؤلفات العرب الشرقيين الى اللاتينية بحيث اصبحت مُلكاً لابناءِ اوربا الغربية وبذلك تمت حلقات سلسلة الاتصال بين الطب اليوناني القديم والطب العربي المتوسط والطب الاوربي الحديث

(١) المقتطف شرع في نشره بعنوان جامع المفردات والتعليق عليه الدكتوران مايرهوف وجورجي صبحي بالقاهرة

ڤيرلين الشاعر
VERLAINE
لعلي محمود طه

كان فتىً حالماً ، رقيق البدن ، منبسط الجبهة ، عميق النظرة ، مرِح النفس . قذفت بهِ الحياة الى معتركها غَمراً ، لم تكشف له تجاربه المحدودة عن طبائع الناس ، ولم يهيئه طبعه الرقيق ، ومزاجه الحاد ، لمكابدة شظف العيش وضنك الحال ، وان هيأتهُ روحه ليكون حيث هو الآن ، من نباهة الذكر ، وسموّ المنزلة ، وخلود الاثر

ولو قد عرف « البارناسيّون » ما ناطته السماء بمستقبل هذا الصبي الشاعر ، وهو يختلف اليهم من حين الى حين ، ولو قد تبين جماعة « ميلارمي » ما تنطق بهِ مخايل هذا الشاب العابث في أبهاء الحي اللاتيني لحموْه احداث الزمن ، ولما تركوه غرضاً للفاقة والتشريد والعذاب ، ولضنّوا بصاحب هذه النفس الشاعرة الموهوبة والعبقرية المبدعة الفذة ، ألا يجد وهو في مستهل حياته قوت يومه ، ثم لفزعوا الى القدرة فما صرفت أمه عن العناية بهِ صغيراً ، فشبَّ مطلق العنان ، يرتاد المواخير ، ويدمن الخمر ، ثم لما غادر زوجه وأمه وولده هائماً بين باريس ولندن وبروكسل ليعود الى وطنه ضحية اتهام قاسٍ ، ينال من رجولته ، ويلقي على نجمه المتوقد ، سحابة من الزراية والامتهان . ثم لما ارتفعت من حوله صيحات العار ، تلاحقه من مكان الى مكان ، فغلّقت في وجهه أبواب الرزق ، وسدّت على ذلك الهارب المسكين منافذ الرجاء والطمأنينة ، فمضى يستنبت الارض في الريف البعيد ، في كثير من اليأس والعناء ، وهو ذلك الروح المرح ، الذي لم يخلق لغير الشعر والغناء . ثم لما تحالف هذا الشر كله على ذلك الضعيف المكدود ، فاستبدّ بهِ المرض ، فقضى غريباً وحيداً ، منبوذاً الا من امرأة بائسة مثله ، ساهمتهُ حبّهُ الاخير وشقاءه الاخير ، فلفظ في ظل قربها وعطفها انفاسهُ الاخيرة حقّاً ! ! لقد كانت حياة ڤيرلين فاجعة محزنة ، فمن الحان إلى السجن إلى الماخور الى الهيام في الطرقات ، إلى ملاجىء البر

هذا هو الشاعر الخالد . . . الذي كان ارخم صوت غنائي صدح بهِ الشعر الفرنسيّ في القرن الذي أنجب هيجو ، لامارتين ، جوتيه ، موسيه ، بودلير ، رامبو ، جول لافورج ، ومالارمي وغيرهم

إن في حياة هذا المتشرد الكبير ضروباً من العبث ، وألواناً من الألم ، ولكنهُ العبث الذي تستقيم بهِ حياة الفنان البوهيمي ، والذي يتيح للادب في كل جيل فنوناً شتى من الاجادة والابداع . ولكنهُ الألم الذي يفرض العذاب على القلوب الشاعرة فينطقها بالنغمات الفريدة الساحرة ، ويصل ما بينها وبين السماء ، فتشرب من روعة اللانهاية وصفائها ، وتمنح البشرية الوضيعة المعذبة ، لحظات من السعادة والسمو

ولد بول فيرلين في مدينة « متز » من ولايات فرنسا الشمالية ، في الثلاثين من شهر مارس عام ١٨٤٤ ، أي بعد مولد بودلير الشاعر بعشرين عاماً تقريباً ، وكان أبوه ضابطاً ممتازاً في الجيش الفرنسي ، وعند ما بلغ السابعة من عمره ، رحلت بهِ عائلته الى باريس ، فألحقته بمدرسة خاصة ، ثم بمعهد « ليسي بونابرت » حيث أظهر فيرلين على حداثته ، تفوقاً مشهوداً في اللغتين اليونانية واللاتينية وفي علوم البلاغة والادب ، فمنح جائزتها مع درجة شرف Degree of Honour ثم استمر في دراسته قليلاً من الزمن ، حتى ظفر بوظيفة حاسبٍ في احدى دوائر باريس المالية

ولكن حياة فيرلين الشاعر تبدأ عام ١٨٦٦ ، في الثانية والعشرين من عمره ، أخرج اول مجموعة شعرية عنوانها « قصائد عابسة » « Poèmes Saturniens »وبعد ثلاث سنوات نشر مجموعته الثانية «أعياد مرحة» « Fètes Galantes » فأصاب فيرلين من تينك المجموعتين ، حظاً كبيراً من الشهرة والتقدير كشاعر غنائي نابغ ، كما أصاب حظاً من التعاسة والشقاء . وكانت الأيام قد مهدت لهذه المتناقضات ، فقبل نشر ديوانه الأول بعام ، مات والده ، وعاش الشاعر الصغير في رعاية أمه ، فدللته ، وأعانته على عبث الشباب ونزقه ، بما كانت تمدّه بهِ من المال ، فانغمس الفتى في شهواته ، وانطلق يعبُّ من ملذات الحياة كيفما اشتهت نفسه الظامئة ، وشبابه المضطرم

ثم اعانته الاقدار بعد ذلك على الحياة التي بدأ يشغف بها ويستمرئها ، حياة الشرود والهيام ، فصادف جماعة من الشعراء البوهيميين الذين كانوا يجتمعون كل مساء في مطعم « ريڤولي » بالحي اللاتيني فما لبث ان مال اليهم واندمج في عشيرتهم .كانوا يجتمعون فيتناولون الادب والفن بالدراسة والنقد ، ويتجادلون في شؤون الشعر ، وكان لفيرلين من هذه الجماعة ، حظ كبير من الخير ، فصقلت محاوراتهم طبعه ، وأظهرته على ألوان مختلفة من الجمال والخيال ، ولكن كان لهُ الى جانب هذا الخير حظ كبير من الشرّ ، فقد حببت اليهِ عشرتهم احتساء الخمر اولاً ، وادمانها ثانياً ، وكان فيرلين رقيق البدن ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، وكان الخمر سمّه القاتل

وصار فيرلين بعد ذلك من المترددين على صالون « لويس كسافير دي ريكارد »فاتصل بالبارناسيين « Parnassians »جماعة « ليكونت دي ليل » ولقيت شاعريته المبدعة ، هوى وتقديراً ، من الشعراء والنقاد النابهين في الاوساط الادبية العالية ، والذين تضمّهم هذه الجماعة ، امثال جوزي ماريا ، وسوللي برودوم ، وفرنسوى كوبيه ، وكاتول منيدي وغيرهم

ولعلَّ هؤلاء خير ما صادفه الشاعر في حياته الادبية ، فقد اثبت اتصاله بهم شخصيته كشاعر مرموق الحاضر ، مرجوّ المستقبل ، كما اصبح فيهم بعد ذلك ظاهر الشخصية ، نابه الشأن

كان هذا في الفترة ما بين عام ١٨٦٦ وعام ١٨٦٩ أو ما بين ظهور ديوانيه الاول والثاني

وفي ربيع عام ١٨٦٩ قابل فيرلين فتاة تدعى ماتيلد موت Mathilde Maute اخت احد اصدقائه ، فتحابّا للنظرة الاولى ، وزاد شغف فيرلين بفتاته ، كما استمرأت ماتيلد مطارحاته الغرامية ، ففكرا

في الزواج ، ولم يكن امره مستطاعاً فقد كانت ماتيلد فتاة صغيرة ، وكانت حداثة سنها تحول دون الزواج ، واخيراً ظفرا بهذه السعادة ، ولم يكن ثَـمَّـتَ من سعادة يحلم بها فيرلين بعد ذلك ، فقد كان مُـدلَّـهاً ، يستغرقه الحب ، وكان يرى في الزواج رابطة مقدسة ، كما كان يرى فيه منقذاً له من نقائصه ، مطهّراً لكلّ آثامه . ولكن هذا الحلم الجميل لم يتحقق

فقد بدأت الحرب السبعينية بين فرنسا والمانيا ، وكان البروسيون يطوقون باريس ، فتطوع فيرلين في جيش المواطنين المدافعين عن مدينتهم ، وهكذا فارق فيرلين زوجه ماتيلد بعد شهور قليلة من زواجهما ، وعاشت الشابة الصغيرة في بعض غرف شارع (الكردينال ليموان) تنتظر زوجها الشاب

ووضعت الحرب اوزارها ، وعاد فيرلين الى باريس ، ولكنهُ كان قد تغير ، كان لا يزال على عهده من الحب لزوجته ، ولكنهُ عاد سيرته الاولى ، مستغرقاً ، في حمأة نقائصه ، عاد فيرلين الى باريس ولكنهُ فقد وظيفته الاولى ، وكان الاسراف قد اودى بأمه الى الفاقة والعوز ، فاضطر فيرلين ان يغادر باريس ، صحبة امه وزوجه الى « شارفيل » لا ليشاركوا والدي (ماتيلد) غرفتهم الوحيدة فحسب ، بل ليعيشوا ايضاً عالة عليهما

ولم يكن هذا كل ما اعدّته الاقدار لفيرلين في (شارفيل) فقد بدأت أخطر دقائق حياته من الاقتراب ، وكانت النكبة التي لوثت حياة هذا الشاعر المسكين ، في خطاب تلقاه من شاب شاعر يدعى « آرثر رامبو » Rimbaud ضمنه اعجابه الذي لا حدَّ له بأشعار فيرلين كما ضمنه شيئاً من اشعاره هو

وهكذا وجد فيرلين في هذا الخطاب رجلاً يرفعه الى مصاف العبقريين ، كما وجد في هذا الرجل شاعراً مبدعاً ، في شعره قوة جديدة وصوت جديد وخيال جديد

فاندفع فيرلين يدعو صاحبه الى (شارفيل) دون روية أو أمعان ، وحل رامبو ضيفاً على هذا الخليط المزدحم ، يشاركهم نومهم ويقظتهم ويساهمهم زادهم وشرابهم . وكان رامبو شابًّا في السابعة عشرة من عمره ولكنهُ كان مخلوقاً غريباً حقـًا ! ! ... كان مديد القامة ، قذر الثياب ، وكان عاطلاً ايضاً ، وكان مخبره أحطّ من مظهره ، كان شريراً بكل ما في كلمة الشر من المعاني ، وكان رجلاً سكيراً ، فظـًا ، كثير اللجاج ، محبـًا للمشاكسة ، فلم تستطع ماتيلد وأمها صبراً على هذا الضيف وسرعان ما تخلصا منهُ

ولكن رامبو وجد مأوى آخر ، واستطاع أن يتصل بالكثير من الشعراء اصدقاء فيرلين ، فسرعان ما أثر فيهم وتسلط عليهم ، ومن ثمَّ وقع فيرلين روحاً وعقلاً تحت سلطان هذا الساحر . اما ما انتهى اليهِ أمر هذه العلاقة بين الشاعرين فقد اختلف في اكتناه اسراره الكتّاب والمؤرخون ، وإن أجمعوا على أنها العلاقة الشاذة التي يتأثَّم بها اثنان من جنس واحد . وهو اتهام لم يفرغ النقاد من تحقيقه حتى اليوم [1] . اما الذي لا سبيل إلى الشك فيهِ فهي النتائج المحزنة التي انحسرت عنها

(١) [المقتطف] علمنا من الاستاذ علي محمود طه صاحب هذا المقال ان لدى الدكتور طه حسين بحثاً طريفاً يقوّم ما تواضع عليه النقاد من امر العلاقة بين رامبو وفيرلين . فحبذا لو أتاح الدكتور لقراء « المقتطف » الاستمتاع بهذا البحث الجديد . ونغتنم هذه الفرصة لنحيي الاديب الكبير ونهنىء كلية الآداب بعودته الى احضانها

مأساة هذه العلاقة ، ولا ندحة من ان نمسَّها مسًّا رقيقاً ، فقد جعلت حياة ماتيلد مع فيرلين أمراً مستحيلاً فدفعتهُ الى هجرها ، ثم ساقته وصاحبه رامبو الى انكلترا ، ثم الى بروكسل ثم اورثتهُ إدمان الخمر ، فبالغ في نشوته الى حدٍّ نال من صحته ، وأوهن أعصابه ، واوقعه في مرض « الباسومانيا » Pasomania . ثم استمرَّت المأساة في عملها ، فدفعت الشاعرين الى الخصام الشديد ، ثم رفعت يد فيرلين بالنار يطلقها على صاحبه مرات ، فاذا صاحبه جريح ، واذا فيرلين رهين سجن « مونز » ثم تخلص المأساة من رامبو ، لتتصل بحياة فيرلين وحده ، فيخرج من السجن بعد عامين ويعود الى فرنسا ثم يحصل على وظيفة مدرس بأحد المعاهد ليفقدها بعد زمن قصير ، ثم يضيق به الحال ، فيذهب بأمه الى (إردن) مؤثراً فلاحة الارض ، ولكنهُ لا يصيب حظًّا من النجاح ، فيغادر فرنسا كلها ويعود الى انكلترا المرة الثانية ، ثم يحن الى وطنه فيرجع اليهِ عام ١٨٧٨ ويظفر بمنصب استاذ في كلية « رتل » Rethal ومنها الى باريس ، واذا بالمتشرد الكبير يظهر مرة اخرى في الحي اللاتيني ، ويتصل بأصدقائه القدماء ، من الشعراء الرمزيين ، روَّاد هذا الحي . ثم يبسم له الحظ قليلاً فينشر مجموعة جديدة من شعره وكتاباً آخر في تصوير بعض الشخصيات الادبية ، فيصيب من ورائهما بعض المال ، وكثيراً من الشهرة والمجد ، ثم يعبس الحظ له الى الابد ، فيتخطف الموت أمَّه عام ١٨٨٦ ويقع فيرلين تحت وطأة المرض هيكلاً محطماً ، ولكنهُ رغم هذا لم يقلع عن إدمانه الخمر ، ثم تذهب بهِ المأساة الكبرى الى نهاية الشوط ، فتأبى ماتيلد الصفح عنهُ ، وترفض لقاءه ، وتستأثر وحدها بطفلهما الوحيد ، وهكذا يقف فيرلين حيال العالم وحده ، ثم تعبر بهِ عشر سنوات أخرى وهو يضرب في هذا التيه الغامر والعذاب المطلق حتى يصادف « اوجيني كرانتس » فيؤلف بينهما البؤس ويصدح بلبل الحبِّ فوق طلل هذا القلب الموحش الحزين ، فينتعش قليلاً ولا يكاد يخفق للحياة الجديدة ، حتى تتألب عليهِ الامراض فيعجز عن مقاومتها ، فيصرعهُ الموت ، وبذلك تنتهي حياته او مأساتهُ المفجعة عام ١٨٩٦

كان فيرلين شاعراً غنائيًّا محبوباً ، وقد ظهر ميله الى الشعر ايام دراسته الاولى فاظهر في قرضه مقدرة ونبوغاً لا يتكافئ معهما عمره الصغير . اما ديوانه الاول « قصائد عابسة » فقد كانت عملاً فنيًّا رائعاً ، وكانت كلها شعراً غنائيًّا تضطرد بهِ الموسيقى اضطراداً عجيباً ، تجد في بعضها الاناقة والجمال وفي بعضها الآخر العظمة والرقة . ولعلَّ اجملها قصيدته في الخريف اترجمها شعراً وان كانت الترجمة تفقدها اجل ما فيها وهو الموسيقى

تنهدات الرياحِ
رتيبة النواحِ
تجرح قلبي بها قيثارةُ الخريفِ
وثَمَّ صوت عابرٌ

من السنين الغوابرْ
يهزُّني فأصغي للهاتف المطيفِ
ويستفيض خيالي
بالذكريات الخوالي
انشدها فأبكي بالمدمع الذريفِ
وعند ذا تحملني
كورقةٍ من فنَنِ
قد ذبلت وانطلقت في العاصف الشفيفِ

وما كاد ديوانه الثاني « اعياد مرحة » يظهر في المكاتب ، حتى اقبل عليه الادباء ، وكان حظه عظيماً من الناقد الكبير « سان بيف » فبدأ يكتب عن فيرلين الشاعر ، كاكتشاف جديد ، وذخيرة نفيسة في الشعر الفرنسي ، كما كتب عنهُ الكاتب الكبير فرنسوى كوبيه فوصفه بأنهُ خلق شعراً يمتاز بطابعه الفردي ، ويسترعي ارق اهتزازات العصب الانساني ، وان قوافيه واوزانه تجمع بين الحرية والترسل في اسلوب كله قوة وكله عذوبة واستعارات رائعة وموسيقية فريدة

والحق ان ديوانهُ الثاني « أعياد مرحة » كان لهُ من عنوانه نصيب عظيم ، فكانت قصائده اكثر احتفالاً بالبهجة ، وهكذا تكون روح الشاعر ، فغناؤها يترجم دائماً عن شعوره بالحياة ، وتأثره بأفراحها واتراحها ، فهي في ديوانه الأول تغشاها الكآبة ؛ وهي في ديوانه الثالث Romances sans Parole الذي نظمه في السجن ، تتجاوب بأصداء الألم الذي تضطرب بهِ روح الطائر الحبيس ، وهي في ديوانه الثاني مرحة تصدح بالفرح ، وتغرد بالأمل الجميل . وكما انطق البؤس فيرلين كذلك انطقهُ الحبُّ ، ولم يكن غرام ماتيلد عبثاً محضاً ، فقد ألهم فيرلين أرقَّ اشعاره وأعذب أغانيه وكشف عن جوهر روحه الصافية ، وإبداع عقله ، فمن العيون الضاحكة ، ومن الشَّعر الاشقر المتموّج ، ومن هذا الصوت الرخيم ، استمدَّ فيرلين الوان خياله المتلألئة ، ومرح قوافيه ، وروعة انغامهِ ، ولعلك تحسُّ هذا كلَّه في هذه القصيدة — :

هذا هو القمر الفضيُّ يملأ الغابة نوراً
وثمَّ صوتٌ ساحر يهتف تحت كل فرع
ومن ذؤابة كل غصن « يا محبوبتي »
هذا هو الغدير الرقراق كصفحة المرآة
يسبح فيه خيال الصفصافة السوداء
حيث تئنُّ الريح
ألا فلنحلم يا حبيبتي فتلك ساعتنا

فالكون يلفّه السكون ويهفو به الحنان
كأنما تَسلسِل اللانهاية المشرقة الوانها
ألا انها الساعة المنتظرة

وليست اشعار فيرلين كلها بهذه البساطة ، نعم ان منها ما يعد من الاغاني الشعبية ، ولكنهُ أيضاً كان شاعراً رمزيّـاً عميقاً ، ومن الواضح ان فيرلين تأثر في مستهل حياته بالنمط الكلاسيكي ، ايام اتصاله بجماعة « ليكونت دي ليل » ولكنهُ لم يستسغهُ ، ولم يرضَ عنه وجدانه ، فصدف عنهُ الى طبعه الاصيل . ولكن من الواضح جدًّا ان فيرلين تأثر ببودلير الى حد ما ، فقد أسلفنا القول ان بودلير سبقهُ بنحو عشرين عاماً ، ولعلَّ الجانب الرمزي في بودلير هو الذي استهوى فيرلين ، بيد ان الفرق بين الرجلين كان بعيداً جدًّا ، فهما يختلفان في الطبع وفي النظرة الى المرأة ، فقد كان لفيرلين طبع لين ، ونفس رقيقة رغم مزاجه الحاد ، ثم انهُ كان يحب المرأة حبّـاً اقرب الى الروحانية منهُ الى الشهوة المجردة ولم تفسد المرأة حياته ولكنهُ الذي افسد حياتها . ولكن بودلير كان شهوانيـًّا الى حد بعيد ، وكان ذا فلسفة خاصة فقد رمى القدر في احضانه بنسوة يستمرئن متعة الجسد ، فراح ينشد من وراء فلسفتهِ «حواء» اخرى لا تتصل بطريدة الجنة . لقد كان بودلير ضحية المرأة اما فيرلين فكان ضحية الخمر

ان أهمية شعر فيرلين في موسيقاه ، تلك الموسيقى التي وصفها النقاد بالموسيقى الموزارية نسبةً لموزار الموسيقي الالماني العظيم ، ففيرلين من هذه الناحية من طائفة فيلون ، وهايني ، وادجار إلن پو ، ولكنه زاد عليهم تلك اللغة البارعة التي استحدثها في شعره ، فهي لغة لها أهمية موسيقاه . لقد سكب فيها كل ما اضطرم به قلبه من الامل والحماسة والحب والقوة ، وكل ما اضطرب بين جوانحه من الاحلام والكآبة والمرح . ويجدر بي القول قبل ان أختم هذه الدراسة ، ان فيرلين لم يعش خامل الذكر في جيله ، ولا منكور الأثر ، فقد رأى بعينيه تألق نجمهِ في عالم الشعر ، وشهد أشعاره مترجمة الى غير لغة واحدة ، وسمع أغاريده تملأ افواه الشعب الفرنسي ، كما سمع الكثير من إعجاب أعظم كتّـاب جيله شأناً وأخطرهم رأياً ، وكان الاعتراف بمكانته من المدرسة الرمزية الحديثة أمراً مسلّـماً ، ولكن املاً واحداً من آماله الكثيرة الضائعة ، لم يتحقق ، فأضاف إلى عذابه الروحي وشقائه المادي ، شقاءً آخر وعذاباً جديداً ظلَّ يحزّ في قلبه حتى وقف عن ضرباته . فقد دفعه بؤسه ، وعار علاقتهِ برامبو ، أن يخلص منها ويمحوها بترشيح نفسه «للاكاديمي فرنسيز» ويشير بعض النقاد إلى أسباب أخرى ترجع إلى غروره في ايامه الاخيرة واعتداده بنفسه ، ولكن من المحقق أنه كان يطمح الى الظفر بقوة الاحترام ، وإلى مكافأة الاكاديمية الضئيلة لينعم بالراحة بين دنان الخمر ، وكان يرى في تحقيق هذا الامل مجداً خطيراً يتوّج حياته بالخلود . وقد وصف النقاد ذلك بأنهُ « كوميديا خطيره » كما عابوا عليهِ طموحه «لذلك القبر المزخرف البغيض الذي يئد القريحة ويطفىء النبوغ » . ولكن الزمن حقق بعد مماته ماعجز عنهُ في حياته فرفعهُ الى مصاف العبقريين وكتب اسمه في ثبت الخالدين

عقيدة عالم كبير

للسر أرثر كيث

احسُّ في قرارة نفسي بإحجامٍ عن بسط عقيدتي في الانسان والحياة وما بعد الحياة وقد يكون الباعث على ذلك ولادتي في اسكتلندا ونشأتي الدينية بحسب طقوس فريق «البرسبيتيريان» من شيعة البروتستانت . وقد يكون لهذا الإحجام صلة بعمري ، فقد تخطيت السنة السادسة والستين وأصبت قسطاً يسيراً من الحكمة العالمية . ولكن الباعث الحقيقي على احجامي انما هو الخشية او الخوف . فانا بحكم الطبع احد الناس . واخشى كما يخشون القطيعة الاجتماعية . ولا ريب في انني اسير في سبيلها يوم افكُّ الختم عن حرَم نفسي وأبيح للناس المعتقدات المسيطرة على سلوكي ونظري الى الكون . ولا ريب في ان عملاً كهذا ينطوي على خطر . فهذه المعتقدات موسومة بسمة الشعور العنيف ، لانها اصبحت جزءًا منا ، واننا لنعجز عن المناقشة العلنية فيها من دون ان نتهجم على رجال ونساء نحن في حاجة الى الاحتفاظ بحبتهم وصداقتهم . لذلك يؤْثر معظمنا ان يلتزم جانب الصمت في هذه الناحية

ولكنَّ طلب المحرر حملني على ان اخرج على خطتي هذا . وهانذا اكتب وقد وطّنت العزم على ان اصارح نفسي وقرائي معاً . اقول هذا وأنا اعلم ان بعض قرائي قد يمتعض لما اقول ، ولكنني ارجو ان يكون اعترافي هذا سبيلاً الى تعزية آخرين

تباين المعتقدات

انا لست وحيداً في هذا العالم . بل ثمة في هذه الدقيقة نحو ١٧٥٠ مليوناً من الناس ، سائرين في طريق الحياة . ومنهم ملايين ، مثلي ، بدأوا الرحلة بارث مجيد من المعتقدات الصالحة ، ولكنهم بعد ان رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا وتعلموا ما تعلموا اخذوا ينبذونها معتقداً معتقداً . اما انا فلم يكن الانقلاب الذي وقع لي انقلاباً فجائيّاً او رؤيا من نوع الرؤيا التي ظهرت لشاول في طرسوس . ولكن توالي اختباراتي وتجاريبي اليومية ، اقنعتني رويداً رويداً بأن العقل دون الايمان هو رائدي في الحياة

ولسنا نجد بين الناس اثنين يقطعان رحلة الحياة في طريق واحدة .فقد تحدث لاثنين او اكثر منهم الحوادث نفسها ، ولكن اجتماع هذه الحوادث وتفرقها ، يختلفان في حالة كل واحد منهم

عنهما في حالة الآخر . فحياة كل انسان انما هي مغامرة فذة تختلف عن مغامرة الآخر . واذا كانت عقائدنا تختلف باختلاف الطريق التي نقطعها في حداثتنا ، فعقائد الناس يجب ان تختلف اليوم اختلافاً بيّناً او يسيراً ، فلا تماثل منها عقيدتان كل التماثل

وما زال الانسان مطبوعاً بطابع السؤال والبحث ، فمن المتعذّر ، ان تصيب اتفاقاً تامًّا في العقائد . وبقدر ما تختلف سبلنا في الحياة تختلف عقائدنا كذلك . ومعظم الناس مقضيٌّ عليه بأن يسير في السبيل الممهدة امامهُ . وهم في الغالب لا يملكون من الفراغ او الرغبة ما يمكنهم من دراسة ما يعرض لهم من ضروب الاختبار وتمثيلها . وقليل من الناس من يتاح لهُ ان يختار طريقهُ ويخططها

لا ريب في ان الكنيسة تستميل الى ناحيتها عقول الاحداث الجادَّة التواقة الى الكشف عن اسرار الكون والحياة . فهي تمهد لهم الطريق الفذَّة الى الحقائق الازلية ، او تبدو كأَنها تمهد لهم تلك الطريق . وقد يتاح للكاهن ان يستخلص افضل ما للفكر الانساني عن طرائق الله . بل هو يستطيع ان يتبين في رعيته الطرق التي يسلكها الناس الى الله ، فيقتنع ان قلوب الناس تنطوي على رغبة ملحة في الوصول الى عقيدة راسخة

وقد مضت قرون على الكنيسة وهي تستميل الناس اليها من هذه الناحية . ولكن العلم اخذ ينافسها في ذلك في العصر الحديث ، حتى ليدهش الباحث اذ يرى كثرة الشبان الذين يقفون حياتهم على طلب المعرفة وتوسيع نطاقها . وقد مضوا في كل سبيل يرودون ويستطلعون وعادوا بحصاد غني من الحقائق . ونحن لا يسعنا ان نغضي عن حصادهم هذا لانهم لا يستطيعون ان يتبينوا اسرار الكون والخلق من دون ان يبدعوا نظماً فلسفيةً لتعليل ما شاهدوا وحققوا . ومما لا ريب فيهِ ان التحوُّل في نظر الرجال والنساء الذين ساروا في هذه السبل الجديدة اعظم من التحوُّل الذي اتى على غيرهم ، وهم لذلك لا يستطيعون ان يتمسكوا بالصور الفلسفية القديمة الخاصة بالمادة والعقل

وهذا القول يصدق بوجهٍ خاص على رجال مثلي قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في دراسة المادة الحية ، وبوجهٍ خاص اذا كانت تلك المادة مفرغة في قالب الجسم البشري

وقد اتاحت لي الطريق التي سلكتها فرصاً قلَّما تتاح لغيري . فقد قادتني الى حيث تمكنت من فحص المكتشفات الخطيرة المرتبطة بنشأة الانسان ومكنتني من دراسة احدث واتمّ ما عرف عن جسم الانسان ودماغهِ . وحقي الوحيد في ان اعرض فلسفتي الخاصة للقراء ، قائم على ما اصبتهُ من الخبرة في هذا السبيل الذي سلكتُ

ولكن قبل ان ابدأ اعترافي ، اودُّ ان اشير الى مسألة اخرى على سبيل التمهيد . فقد قلت اننا لسنا نجدُ اثنين من ملايين المواليد ، يقطعان رحلة الحياة في طريق واحدة . ومما لا ينازع فيهِ كذلك اننا لسنا نجد اثنين يستهلاّن رحلة الحياة بزادٍ واحد من قوى الجسد والعقل . فعلى كلّ وجهٍ سمة شخصية خاصة ، عند انبثاقهِ من الرحم . وكل طفل حين يهلُّ على الارض يهلُّ ببصمةٍ على انامله خاصةٍ بهِ دون

غيره . وما يصدق على وجوه المواليد وبصمات اناملهم يصدق على ادمغتهم كذلك . ففي الدماغ ١٨٠٠٠ مليون خلية عصبية دقيقة لا ترى الاّ بالمكرسكوب . وهذه الخلايا مقسمة طوائف كل طائفة منها متصلة بالطوائف الاخرى ، وخطوط الاتصال بينها تزري باكبر لوحة تليفون واكثرها تعقيداً . فلست تجد بين هـذه الخلايا العصبية خلية واحدة منعزلة عن الاخرى . وجميعها يشترك في تناول الرسائل التي تنهال على الدماغ عن طريق العيون والآذان والاصابع والاقدام وغيرها من اعضاء الجسم

هذا السيل المتدفق من الرسائل يبدأ عند الولادة ولا يقف حتى الموت وهو اساس اختبارنا فاذا تفهمنا هذه الصورة لبناء الدماغ وصلته بخبرة الانسان وتجاريبهِ ، سهل علينا ان نفهم كيف ان هذه الصورة الجديدة تؤثر في تغيير معتقداتنا او في بعضها على الاقل

هل الدماغ مزدوج التركيب ؟

عُني المشتغلون بالمباحث الطبية عناية خاصة بدماغ الانسان . فوجدوا تركيبهُ معقَّداً كل التعقيد وطرق تأديتهِ لعمله مبهمة يصعب الكشف عنها . ومع ذلك ثبتت لهم حقيقة عامة ثبوت الشمس في رائعة النهار هي ان تعقيد تركيب الدماغ ومقدرتهُ على تأدية عمله يسيران جنباً الى جنب. فالعقل لهُ اساس مادي . راقب دماغ الطفل من ولادتهِ الى المراهقة ترَ دماغهُ يكبر حجماً ويزداد تركيبهُ تعقيداً وانهُ كلما نما كذلك اتسع نطاق عملهِ .فاذا اصيب الدماغ في مرتبة من مراتب النمو بعلّة اوقفتهُ عن النمو ظلت مقدرة صاحبهِ العقلية حيث هي لا تنمو ولا ترتقي . كذلك ترى ان مرضاً من الامراض اذا اصاب هذا الجانب من الدماغ او ذاك عطل الملكة العقلية التي مركزها في ذلك الجانب المريض . فالتهاب الدماغ السحائي اذا اصاب دماغ طالب في المدرسة اوقف نموهُ العقلي وترك في خلقهِ اثراً باقياً هو دائماً اثر سيئ ولن يكون اثراً صالحاً قط . فانتظام العقل لا يمكن ان يتمّ الاّ اذا كان الدماغ صحيحاً في بنائهِ سليماً من الامراض والآفات . وفي امكان الاطباء ان يخدّروا الدماغ فيضعفوا عمل بعض اجزائهِ فتضعف الملكات المتصلة بها وان يحقنوا بعض الاجزاء الاخرى بمواد مختلفة فيغيروا بذلك عقل الرجل وتصرفهُ . وبكلام آخر ان الدماغ آلة حية تحرق الوقود وتحول القوة التي تنجم عن ذلك الى شعور وفكر وذاكرة وغيرها من الملكات العقلية والنفسية . فاذا امسكنا عن الدماغ مصادر الوقود الذي يحرقهُ — اي الاكسجين — وقف الدماغ عن العمل كما تخمد النار اذا حُبِس عنها الهواءُ او نفد الوقود . ولذلك لا يرى المشتغلون بالمباحث الطبية سبيلاً الى الاعتقاد بان الدماغ عضو مزدوج التركيب مؤلف من مادة وروح . لان كل حقيقة تمكنوا من امتحانها واثباتها تحتم عليهم القول بان العقل والروح انما هما مظهران من مظاهر دماغ حيٍّ ، كما ان اللهب مظهر من مظاهر شمعة تحترق . فاذا اصاب الدماغ والشمعة ما حلّهما الى عناصرها المستقلة بطل وجود العقل واللهب وجوداً مستقلاً . ومهما تعارض هذا الرأي مع التقاليد والآراء المنقولة فرجال

الطب لا يستطيعون ان يروا غير هذا الرأي اذا صدقوا ما تثبتهُ حواسهم . ولولا ذلك لما كان في امكانهم ان يشخصوا الامراض العقلية وغيرها ويصفوا لها طرق العلاج والوقاية . فالروح اذاً في نظر رجال الطب تقيم في الدماغ والجهاز العصبي المعقد التركيب ولا يمكن فصلها عنهما . على ان هذا الرأي لا يسلّم بهِ طائفة من رجال العلم الذين اشتهروا ببراعتهم في الكشف عن اسرار المادة وبنائها وعلاقتها بالطاقة . وفي مقدمة هؤلاء السر اللفر لدج . ان نظره الى دماغ الانسان قائم على الاعتقاد بأن الدماغ اداة مادية لوحدة غير مادية يسميها الروح والروح في رأيهِ متميزة عن الدماغ تميّز الموسيقي عن القيثار الذي يعزف عليهِ . وهو مسوق الى هذا الاعتقاد لانهُ يستطيع ان يفسر بهِ اكثر المظاهر التي يعتقد في صحتها اصحاب المذهب الروحاني . فالروحانيون يعتقدون ان العقل او الروح يجيء من الفضاء فيأخذ بتلابيب البروتوبلاسمة الحية ويجعل منها جسداً حيًّا ثم يستعمل هذا الجسد أداة لمظاهره ثم لا يلبث ان يتجرد عن هيكلهِ المادي ويرجع الى الفضاء . والفرق بين الرأيين ان البيولوجي العصري يقدم الجسم والشمعة على الروح واللهب والروحاني يعكس الأمر ويقدم الروح على الجسد واللهب على الشمعة

خلود الحياة

أنا أرى ان الحياة نسيج خالد . وأرى اني والسر الفر لدج وجميع المخلوقات البشرية على الارض لسنا سوى دقائق لا ترى لصغرها في هذا النسيج الفسيح . فنسيج الحياة الذي نراه الآن على نول الزمان انما هو القطعة الاخيرة من ثوب سابق متصل الاجزاء بدأ في جوف الزمان المتغلغل في القدم وهو كذلك القطعة الاولى في ثوب لاحق متصل بهِ لا نستطيع ان نرى نهايتهُ . اقول هذا ولا اجهل ان علماء الهيئة الذين درسوا الشمس وعمرها يرون انهُ لا بدّ ان يحلّ زمن تصبح فيهِ هذه الارض داراً غير صالحة للاحياء امثالنا . ولما كانت هذه الضربة لن تحلّ فيها قبل انقضاء ملايين من السنين او عشرات ومئات الملايين فيصحّ القول بان خلود الحياة الانسانية عليها امر مقرّر بالنسبة الينا . انا اؤمن بالخلود . والسر اولفر لدج يؤمن بهِ كذلك . ولكني اؤمن بخلود الحياة الانسانية على المنوال الذي قدمت . فاذا خلدنا فانما نحن نخلد في ابنائنا واحفادنا . وكل انسان يولد وفي جسمهِ عناصر الخلود . ولكن السر اولفر لدج يؤمن بخلود الشخصية المستقلة

على ان السر اولفر لدج قائد مجرَّب لهُ مقام رفيع بين جنود العلم الطبيعي الذين يحاولون ان يسلبوا الطبيعة اسرارها ويسيطروا على قواها . وانا لست سوى جندي في جيش الاطباء الذي يحاول ان يسيطر على الامراض ويديل من سطوتها على حياة الانسان . ونحن نرى اننا لن نفلح في حربنا مع الجراثيم الاّ اذا درسنا الحياة واساليبها في اعضاء الانسان على اختلافها ودماغهُ واحد منها. ولا ريب في انهُ فرض واجب علينا ان نستعين باخواننا علماء الطبيعة وما كشفوا عنهُ من اسرار

المادة وتركيبها وخصوصاً بناء المادة الحية. الاَّ اننا نرى ان تأليف مجلس علمي للنظر في حياة الانسان لا بدَّ انهُ يحتوي بين اعضائهِ على الاطباءِ ولا بدَّ ان يكون لهؤلاءِ كلمة مسموعة فيهِ

طبيعة الموت

اذا فحص طبيب قلب مريض ووجد انهُ وقف عن الضرب وان رئتيه توقفتا عن التنفس حتم بان الرجل قد مات . ولكن الحقيقة انهُ لم يمت في نظر العلم . لانهُ اذا استطاع الطبيب ان يبني اداة تمكنهُ من حقن شرايين هذا الرجل الميت بدمٍ جديد فيهِ عنصر الاكسجين عاد الى الرجل رشدهُ وذاكرتهُ وعقلهُ وتمتع بهما ما زال هذا الدم الجديد يحقن في عروقهِ . ولكن اذا وقف الدم بما فيه من الاكسجين عن الدوران عشر دقائق انتقلت ملايين الخلايا التي يتألف منها الجسم الى هوَّة الموت السحيقة من غير امل في العودة منها

والقلب يبقى حيًّا بعد موت الدماغ — قد يبقى حيًّا ساعتين او اربع ساعات او اكثر من ذلك حتى بعد صدور الشهادة الشرعية بحصول الوفاة . وقد يؤخذ قلب من جسد ميت وتعاد اليهِ الحياة بوسائل صناعية فيعود ينبض كأنهُ في صدر صاحبهِ الحيّ. كذلك تبقى اغشية الشرايين تبدي دلائل الحياة اربعين ساعةً بعد موت صاحبها . والجسم الحيّ مكوَّن كما لا يخفى من الوف الخلايا الدقيقة التي لا ترى الاَّ بالمكرسكوب وقد ازال علماء الطب بعض هذه الخلايا من فتى ميتٍ وحفظوها حية في معاملهم الطبية زمناً كان فيهِ الجسم الذي اخذت منهُ قد عاد الى التراب

فالموت لا يحدث في لحظة كخطف البرق . والجسم الميت يموت تدريجاً كما يفنى شعب من الجوع في مدينة محصورة ، الضعاف يموتون اولاً ثم يموت الباقون بحسب ضعفهم وقوتهم على مقاومة الجوع . فاذا كان سبب الموت ، كما يعتقد السر الفرلدج ، خروج الروح من الجسد وجب ان يكون هذا الخروج في لحظة واحدة اي من جميع اعضاء الجسد وخلاياه في آن واحد . ولكنهُ كما رأينا فعل تدريجي . واذا كان اساس الحياة في الانسان روحاً غير مادي فكيف يحتاج الى اشياء مادية كالهواءِ والماءِ والغذاء لحفظ الحياة . اذا دخل روح الى بيتي في الليل ووجدت في الصباح انه أكل طعامي وكرع خمري وسرق نقودي حكمت ان هذا الروح مادي لا اثيري . هذا هو المبدأ الذي يبني عليهِ البيولوجي نظره الى روح الجسد البشري . انهُ يرى انهُ يحتاج الى غذاء مادي وانهُ يجب ان ينفق المادة ويحول القوة وان الوعي والشعور والذاكرة والارادة وكل المدارك التي تحملها لفظة العقل تزول من الدماغ الحي اذا حبسنا عنهُ الاكسجين . فالحياة كما نعرفها لها أساس مادي والعالم الفسيولوجي لا يستطيع ان يتصور كيف يمكن وجود الحياة منفصلة عن المادة . فحياة العقل وخلوده لا يمكن ان ينمَّا من غير حياة الجسد وخلوده

الجسد الميت شمعة قد طفئت . فماذا نعرف عن الشمعة المشتعلة المضيئة — ماذا نعرف عن الجسم منيراً بشعلة الحياة ؟ اننا نعلم كيف تنار شمعة الجسم الحي اذ يلزم لها نور شمعة اخرى حتى

تنيرها وقد تقدمنا كثيراً في هذا الميدان من ميادين العلم . لقد مرَّ قرن واحد فقط منذ رأى الانسان للمرة الاولى في التاريخ دقيقة من البروتوبلاسمة تدعى البيضة التي منها تنشأ كل حياة انسانية ونحن نستطيع الآن ان نتتبع كل درجة من الدرجات التي تمرُّ بها هذه البيضة حتى تصير رجلاً او امرأة . فقد تتبعنا في رحم المرأة كل تغيير يطرأ على جسم الجنين من بنائهِ البسيط بعيد التلقيح الى هذه الاجسام التي تحير اللب في تعقيد بنائها وغموض الاسرار التي تحتجب وراء افعالها ووظائفها. كلٌّ منا يبدأ خلية من البروتوبلاسمة لا تكاد ترى بالمكرسكوب لصغرها . وكلٌّ منا ينتهي بجسم مؤلف من الوف الوف الخلايا . وفي استطاعتنا ان نرى جماهير من هذه الخلايا مسوقة لتقوم بعمل الجهاز العصبي وجماهير اخرى بنات عم لها تبنى منها الآلات العضلية الحية واخرى تبنى منها العظام واخرى يتركب منها الدم او الجلد او غير ذلك من انسجة الجسم واعضائهِ . كذلك نستطيع ان نراقب نشوء عضوي الحس الدقيقين في تركيبهما ووظيفتهما أعني العين والاذن . حتى في ساعة الموت تكون بعض الخلايا قد اشرفت على الولادة والبعض قد اشرف على الموت والخلايا الاخرى فيما بين هذين الطرفين في مراحل مختلفة بين الولادة والموت . فكأن جسد الانسان يولد ويموت كل يوم . وفي كل ساعة ترى روح الحياة او قوة الحياة تتحوَّل اعمالاً صالحة او طالحة

فكيف نستطيع ان نعلل هذه التغييرات العجيبة التي تطرأ على خلية واحدة من المادة الحية فتحولها الى رجل عاقل؟ أصحيح ما يذهب اليهِ السر الفر لدج من ان وحدة اثيرية ، او روحاً بشرية دخلت هذه الذرة من البروتوبلاسمة وحركت دقائقها وجعلتها تمرُّ في ادوار النمو والنشوء المعقدة لكي تبتني لها داراً ارضية زائلة . انها لا تكاد تشرع في تكوين هذه الدار حتى تدخل عناصر الانحلال تفسد عليها عملها عاجلاً او آجلاً . كلاَّ انهُ لأسهل ولأقرب للعقل ان نعلل الحقائق المعروفة عن الحياة بانها افعال وتفاعلات حيوية مادية بدلاً من ان ننسبها الى فعل وحدة خفية غير مادية كالتي يذهب اليها السر الفر لدج

لماذا يبدأ كل من البشر حياتهُ في رحم امرأة ؟ إذا صح ما يذهب اليهِ السر الفر لدج من ان الجسم ليس سوى دار للروح فاننا لا نستطيع ان نعلل التلقيح وتكوين الجنين في رحم الانثى . ولكن اذا قبلنا مذهب النشوء — والادلة على وجوب قبوله كثيرة — استطعنا ان نعلل ابتداء حياة كل انسان في خلية الانثى بعد اتحادها بخلية الذكر وكيف ينمو جسم الجنين ويتطور لان مذهب النشوء يقتفي خطوات الانسان منذ ظهور الحياة على الارض . وتاريخ الانسان الجنيني يلخص هذا التاريخ المديد . فالبيولوجيون يحسبون نوع الانسان جزءًا من نسيج الحياة الذي تغلغلت اوائله في جوف الزمان. فما يصحُّ على الانسان يجب ان يطبق على الاحياء الاخرى التي تتكوَّن منها اجزاء هذا النسيج فاذا قلنا بروح غير مادي لتعليل حياة الانسان لم نستطع ان نمسك عن تطبيق هذا التعليل على حياة الاميبا وهي ادنى الاحياء وابسطها تركيباً .

لخليل شيبوب

انشودة الصباح

يا كائنات افسحي ويا دجى تزحزحي
ويا سماء سبحي
الفجر لاح

ويا بحار انشدي ويا طيور غرّدي
ويا مسافر اهتد
هذا الصباح

سلام على الكائنات سلام يجدّد فيها قواها العظام
ويبعث فيها الهدى والسلام

مناظر الجبالِ بالنور والظلام
في باذخ الجلال
تعظم

وغورها المريبُ بعيدهُ قريب
وسحره العجيب
يبسم

تبهرج في الافق الوانه وعاد الى القلب ايمانه
وزالت عن الصدر اشجانه

يا نائمين استيقظوا من نومكم واتعظوا
الكون هبَّ يلفظ
شكر الاله

تنفَّس الصباحُ وانطلق المراح
واحمد السراح
الى الحياه

فبعداً لليلٍ قضى وامَّحى وقرباً لنور زها موضحا
واهلاً وسهلاً بشمس الضحى

منبر الرسول وتطور المنابر

المقصورة والمحراب المجوف

بقلم جناب الكبتن كرسويل استاذ العمارة الاسلامية بالجامعة المصرية
ونقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

المنبر[1]

كان النبي محمد صلى الله عليهِ وسلم يخطب وهو مستند الى جذع نخلة[2] مثبت في الارض ولكنهُ في سنة ٧ هجرية (٦٢٨/٩ م) كما روى الطبري او في سنة ٨ او ٩ هجرية كما روى آخرون اتخذ منبراً من خشب الاثل الذي كانت تنمو اشجاره بوادي الغابة[3] ويقال ان الذي صنع هذا المنبر رومي يدعى باقوم او باقول[4]

وكان هذا المنبر كرسيًّا ذا ثلاث درجات[5] يجلس النبي على الدرجة الثالثة منهُ وهي العليا واضعاً قدميه على الدرجة الثانية . وكان ابو بكر الخليفة الاول يجلس على الدرجة الثانية ثم لما تولى عمر الخلافة صار يجلس على الدرجة الاولى واضعاً قدميه على الارض . وقد كان هذا المنبر الذي نصادفه

---

(١) رغب الينا اخواننا في ان نردف ابحاث جناب الكبتن كرسويل التي نترجها عنه ببعض النصوص العربية من المصادر المعترف بها عند المسلمين . فنزولا على رغبتهم قد أضفنا الى هذا البحث بعض النصوص العربية التي وجد فائدة في اضافتها . وفي كثير من الاحيان وجدنا هذه النصوص مكررة في كثير من الكتب فآثرنا ان نثبت نصاً او نصين وان نشير الى البعض بذكر الكتاب ومؤلفه ورقم الصفحة والجزء وضربنا صفحاً عن الباقي (المعرب)

(٢) . . عن ابن عمر « كان النبي (صلعم) يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه . . . الخ » صحيح البخاري طبع ١٣١٤ جزء ٤ ص ١٩٥

. . . وعن جابر بن عبد الله قال « كان النبي (صلعم) يخطب الى جذع قبل ان يتخذ المنبر . . . الخ » مسند احمد بن حنبل جزء اول ص ٢٤٩ وايضا سنن الدارمي جزء اول ص ٣٦٧

. . . وعن جابر بن عبد الله قال « كان جذع يقوم اليه النبي (صلعم) فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل اصوات العشار . . . الخ » صحيح البخاري جزء ٣ ص ٩ (المعرب)

(٣) . . . عن سهل بن سعد قال « كان من أثل الغابة يعني منبر رسول الله صلعم » مسند احمد بن حنبل جزء خامس ص ٣٣٥ (المعرب)

(٤) يؤكد آخرون ان هذا الرومي هو الذي وضع للكعبة سقفاً عند ما أعادت قريش بناءها وانه لم يصنع المنبر وانما صنعه نجار آخر من المدينة

(٥) . . . عن سهل بن سعد انه سئل عن المنبر من أي عود هو ؟ قال

« أما والله اني لاعرف من عمله واي يوم صنع واي يوم وضع ورأيت النبي (صلعم) يوم جلس عليه . ارسل النبي (صلعم) الى امرأة لها غلام نجار فقال لها مري غلامك النجار ان يعمل لي اعواداً اجلس عليها اذا كلمت الناس فامرته فذهب الى الغابة فقطع طرفاء فعمل المنبر ثلاث درجات فارسلت به الى النبي (صلعم) فوضع في موضعه هذا الذي ترون فجلس عليه اول يوم وضع . . . . الخ » مسند احمد بن حنبل جزء ٥ ص ٣٣٩ وانظر ايضاً صحيح البخاري جزء ١ ص ٩٣ وجزء ٢ ص ٩ وجزء ٣ ص ٦١ وص ١٥٤ (المعرب)

الآن لاول مرة في الاسلام موضوع دراسة قام بها بكَر Becker نلخصها فيما يلي

اتخذ محمد المنبر حينما عظم شأنهُ وصار يستقبل الوفود من جميع الانحاء . وكذلك كان ابو بكر الخليفة الاول يأخذ البيعة في حفل عام وهو جالس على منبر . وهكذا كان يفعل الخلفاء من بعده عقب انتخابهم للخلافة مباشرة وولاة الاقاليم في البلاد التي فتحها الله على العرب فكان الوالي عقب توليه منصبه يعتلي المنبر . ويشيرون الى ذلك عادة بقولهم « واعتلى فلان المنبر في جهة كذا » . وكان هذا ضرورياً قبل مباشرته مهام عملهِ [٦]

ويستنتج «بكَر» من ذلك ان المنبر الذي رأيناه كان في اول امره مقعداً ذا درجتين ولم تكن له معنى او دلالة دينية في الايام الاولى للاسلام. فلم يكن سوى المكان الذي يجلس فيهِ النبي صلى الله عليهِ وسلم وخلفاؤه الاولون عند عقدهم المجالس او في ايام الاعياد . فكان بذلك نوعاً من العرش يجلس عليهِ رئيس المجتمع الاسلامي في ذلك الوقت

وكان المنبر معروفاً في العصر الجاهلي ولم يكن في اول امره سوى المقعد الذي يجلس عليهِ رؤساء العرب القدماء . فلما جاء الاسلام اتخذ مقعداً يجلس عليه الحكام المسلمون. ولعل هذا ناشيء الى حد ما من تأثرهم بفكرة اتخاذ العروش وهي فكرة شرقية قديمة . فكان يجلس عليهِ الرسول وخلفاؤه من بعده عند ما ينظرون في الشؤون العامة

وحينما نهى عمرو بن الخطاب عمر بن العاص عن اتخاذ منبر بالفسطاط كان ذلك لما للمنبر في تلك الايام من الدلالة القديمة اذ كان يعتبر العرش المقدس الذي يجلس عليهِ خليفة رسول الله

وكان المنبر والعصا هما علامتا الشرف اللتان يتميز بهما الوالي او القاضي في صدر الاسلام وربما كان ذلك متبعاً ايضاً في عصور الوثنية السابقة . ثم تطورت العصا حتى صارت صولجاناً وساعد على تطورها ما كان عند الفرس والروم من الصوالج وخاصة بعد وفاة الرسول وفي عهد بني امية

ويرى «بكَر» ان تطور المقعد الى منبر قد بدأ حينما أضيف الى المصلي ويعزي ذلك الى معاوية (٦٦١/٦٨٠م) او الى مروان واليه على المدينة . اما عن مصر التي لدينا الكثير من اخبارها وتاريخها فاننا نعلم ان جميع مساجدها في القرى قد اضيفت اليها المنابر في سنة ١٣٢ هجرية (٧٤٩/٥٠ م)[٧]

ومن ذلك يستنتج «بكَر» ان المقعد القديم قد تحول تحولاً تاماً الى منبر وعم استعماله في المدة الواقعة بين حكم معاوية وسقوط الدولة الاموية ٧٥٠ م

---

(٦) يرى لامنس Lammens انه بعد الفتح كان للكوفة والبصرة وغيرهما من مدن العراق منابرها . وكذلك كانت توجد المنابر في اجناد الشام . مثال ذلك انه بعد ان انشأ يزيد الاول جند قنسرين مباشرة سمعنا عن وجود منبر هناك . كما ان عمرو بن العاص كان قد اتخذ منبراً بالفسطاط عقب فتحه مصر ولكن عمر بن الخطاب نهاه عن اتخاذه وانكر عليه ذلك . (٧) جاء بالمقريزي جزء ٤ ص ٨ ما يأتي : ولم يكن يخطب في القرى الا على العصا الى ان ولي عبد الملك بن موسى بن نصير اللخمي مصر من قبل مروان بن محمد فامر باتخاذ المنابر في القرى وذلك سنة ١٣٢ هـ (المعرب)

اصل كلمة منبر

اما عن اصل كلمة منبر فقد اوضح شوالي Schwally ونولدك Nöldeke انها من اصل اثيوبي (حبشي) وهذا لا يدهشنا كثيراً لانهُ توجد الفاظ كثيرة في القرآن نفسه من اصل اثيوبي اضف الى ذلك ان بلالاً مولى رسول الله كان عبداً حبشياً وان ام سلمه احدى زوجات النبي كانت ممن هاجروا الى الحبشة قبل هجرة الرسول الى يثرب ببضع سنين وان اهل مكة كانت لهم علاقات تجارية دائمة مع الحبشة وميناؤها مصوع التي كان الوصول اليها بحراً امراً ميسوراً

تطور المنبر

كان عمرو بن العاص قد اتخذ منبراً فكتب اليهِ عمر بن الخطاب رسالة شديدة اللهجة ينهاه فيها عن اتخاذ المنبر ويعزم عليهِ في كسره[٨] وقد جاء بها (اما يحسبك ان تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك) فكسره عمرو وقد سبق ان اشرنا الى هذه الحادثة[٩]. وفي خلافة عثمان بن عفان ظهر المنبر ثانية في مصر وقد روى ابن دقماق والمقريزي وأبو المحاسن ان زكريا بن مرقنى (او مرقنا) ملك النوبة المسيحي اهدى منبراً الى عبد الله بن سعد بن ابي السرح والي مصر من سنة ٢٤ — ٣٦ هـ و (٦٤٤ الى ٦٥٦م) وبعث معهُ نجاراً حتى ركبه يدعى بقطر من اهل دندرة وبقي هذا المنبر في مسجد عمرو حتى ازاله قرة بن شريك ونصب منبراً جديداً سواه[١٠]. ويقول ابن دقماق والمقريزي وابو المحاسن ان هناك رواية اخرى بأن المنبر الذي ازاله قرة لم يكن قديماً وانهُ منبر عبد العزيز بن مروان (٦٨٥ / ٧٠٥ م) ويضيفون الى ذلك عبارة هامة هي ان هذا المنبر حمل اليهِ من بعض كنائس مصر[١١]

وهذا يدلنا على ان الشكل الذي كان عليهِ المنبر في المساجد الاسلامية مستمد من المنبر المسيحي

ويؤيد ذلك المنبر ذو الست الدرجات الذي عثر عليهِ كويبل Quibell في سقارة وهو في رأي كويبل النموذج الذي صنع على مثاله المنبر الاسلامي وبناء على ذلك فنحن نرجح ان المنبر في الاسلام قد اتخذ الشكل الذي هو عليهِ (عدا منبر محمد) من منبر الكنيسة المسيحية الشرقية

المقصورة

يقول ابن خلدون في مقدمته ص ٢٣٤: « فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجاً على المحراب فيحوزه وما يليهِ فأول من[١٢] اتخذها معاوية ابن ابي سفيان حين طعنه

---

(٨) مقريزي جزء ٤ ص٦ (٩) يضيف المعرب انه ورد بمقدمة ابن خلدون ص ٢٣٤ نص هذه الرسالة كما يلي (اما بعد فقد بلغني انك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين او ما يكفيك ان تكون قائماً والمسلمون تحت عقبك فعزمت عليك الا ما كسرته) (١٠) مقريزي جزء ٤ ص ٨

(١١) نصب المنبر الجديد سنة ٩٤ هجرية وقد اشار الى ذلك السيوطي في كتابه حسن المحاضرة جزء ٢ ص ١٣٤

(١٢) جاء بكتاب خطط المقريزي جزء ٤ ص ٧ ما يأتي: ذكر عمر بن شيبة في تاريخ المدينة ان اول من عمل مقصورة بلبن عثمان بن عفان وكانت فيها كوى تنظر الناس منها الى الامام . . . . الخ » وعلى ذلك فقد يكون عثمان هو اول من اتخذ المقصورة وليس معاوية بن ابي سفيان ولا مروان بن الحكم

الخارجي والقصة معروفة . او قيل اول من اتخذها مروان بن الحكم[١٣] (٦٨٣/٥ م) حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة . وانما هي تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن احوال الابهة كلها . وما زال الشأن ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الاموية وتعدد ملوك الطوائف . واما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والاندلس ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة واخذت بحظها من الترف وجاء ابو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والاندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده »

هذا هو التفسير المقبول عادة لاتخاذ المقاصير ولكن لامنس Lammens يعارضه وهو يرى ان المقصورة كانت في مبدإ امرها غرفة خاصة بالحاكم في مسجد الجماعة يقصد اليها للمشاورة او للراحة بين اوقات الصلوات وان ما قيل من انها اتخذت لرغبة الخلفاء في العزلة والبعد عن العامة او على سبيل الحيطة لسلامتهم الشخصية فكل هذه ليست من الاسباب المقبولة في نظره

اولاً — لان الخليفة بمكانه على المنبر كان مميزاً تمييزاً كافياً عن العامة وجمهور المصلين

ثانياً — لان الامويين كان لهم حرسهم الخاص في المسجد

وقد اوضح ايضاً ان سنة ٤٤ هـ (٦٦٤/٥م) التي يروي اليعقوبي انه اتخذت فيها المقصورة سابقة في تاريخها لمحاولة الخوارج اغتيال معاوية ولذلك لا يكون تفسير ابن خلدون في نظره تفسيراً مقبولاً . فاذا سلمنا بقول لامنس هذا ، فانه مع ذلك تبقى امامنا تلك الحقيقة التاريخية الثابتة وهي ان ثلاثة من الخلفاء الراشدين الاربعة قد قتلوا ، وان اثنان منهما كان قتلهما بالمسجد . وعلى ذلك فقد كان لدى معاوية من الاسباب ما يسوغ اتخاذه الحيطة وانشاء المقصورة بالمسجد . اما عن قول لامنس انها كانت غرفة خاصة ، فليس بين المقصورات الآن ما ينهض دليلاً على صحة هذا الرأي ، لانها كانت جميعاً حتى النصف الاول من القرن الحادي عشر عبارة عن حاجز مكشوف من المشربيات كما في القيروان . وكذلك كانت المقصورة التي بالقرطبة مكشوفة وكانت تتكون من اعمدة تعلوها حجارة منقوشة بلغت الغاية في جمالها وروعتها

المحراب المجوف

اعادة بناء مسجد المدينة سنة ٨٨—٩٠ هجرية و٧٠٧—٩ م

يقول البلاذري[١٤] « كتب الخليفة الوليد الى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم

---

(١٣) جاء بكتاب فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢ عند كلامه عن مسجد المدينة ما يأتي : « وكان اول من اتخذ فيه (مسجد المدينة) المقصورة مروان بن الحكم بن العاص بن امية بناها بحجارة منقوشة . . . — الخ المعرب »

(١٤) البلاذري ص ١٢ وما بعدها (كتاب فتوح البلدان) (المعرب)

المسجد وبنائه وبعث اليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعاً من الروم والقبط من اهل الشام ومصر فبناه وزادفيه وولى القيام بأمره والنفقة عليه صالح بن كيسان وذلك سنة ٨٧ ويقال سنة ٨٨»

وروى اليعقوبي ان الوليد امر عمر بن عبد العزيز ان يهدم المسجد فهدمه وهدم كذلك حجرات زوجات النبي ووسع المسجد باضافة ارض هذه الحجرات اليه . وان امبراطور الروم ارسل مائة الف مثقال من الذهب واربعين حملاً من الفسيفساء وانه فرغ من بناء المسجد سنة ٩٠ هجرية

وروى السمهودي (١٤٨٨) نقلاً عن الواقدي المتوفى (٨٢٣) ما يأتي : —

«عن عبد الله بن يزيد قال : بنى القبط مقدم المسجد وبنى الروم جوانبه ومؤخره»

ذكرنا هذه الروايات لما لها من المكانة في تاريخ بناء هذا المسجد واشارتها الى العمال والصناع الذين اشتركوا في بنائه والجزء الذي بنته كل طائفة منهم . ونتقدم بعد ذلك لمعالجة موضوع المحراب المجوَّف . فقد استحدث هذا النوع من المحاريب لاول مرة في المساجد الاسلامية في مسجد المدينة في عهد عمر بن عبد العزيز . وقد روى ابن دقماق والمقريزي [(١٥)] نقلاً عن الواقدي « ان اول من احدث المحراب المجوَّف هو عمر بن عبد العزيز حين اعاد بناء مسجد النبي صلى الله عليه وسلم»

وهذه العبارة مع شيوعها وكثرة اقتباسها والاستشهاد بها فمع الاسف فان النص الذي يشير اليه المقريزي ليس هو النص الذي يعزى اليوم الى الواقدي ولذلك لا يمكننا ان نجزم بصحتها . ولكن نظراً لاهمية الموضوع الذي نحن بصدده فاننا نميل الى الاخذ بها لورودها في كتاب ابن بطوطه (١٣٢٦) وفي الترجمة الفرنسية لكتاب المرتضى [(١٦)] الذي كتبه مؤلفه بعد وفاة السلطان الكامل بقليل اي حوالي ١٢٤٠ م . على اننا يمكننا ان نرجع الى مؤلفات ابعد عهداً من هذه في القرن الثاني عشر فقد نقل ابن شاكر المتوفي سنة ١٣٦٢ عن ابن عساكر المتوفي ١١٧٦ م انهُ بعد ان فتح خالد بن الوليد دمشق صلّى فيما يعرف الآن بالمسجد الاموي بدمشق وان اصحاب الرسول كانوا يصلون في المكان الذي يعرف بمحراب الصحابة وان هذا المحراب لم يكن مجوَّفاً

وهذا يدل على ان المحاريب المجوفة لم تكن معروفة عند ما فتح المسلمون دمشق

فلما بنى المسجد الاموي بدمشق في عهد الوليد بن عبد الملك جعلت به المحاريب المجوفة وفي هذا المسجد الآن اربعة محاريب مجوفة يعرف احدها وهو الواقع بالنصف الشرقي من الحائط الجنوبي باسم محراب الصحابة تيمناً بذلك الاسم القديم الذي كان يطلق على محراب الصحابة عند فتح العرب دمشق

(١٥) خطط المقريزي ص ٥ جزء ٤ وحسن المحاضرة للسيوطي ص ١٣٤ جزء ثان

(١٦) يشير المرتضى الى ذلك بقوله : ان عمر بن عبد العزيز هو اول من احدث المحراب المجوف ولكنه لا يذكر المكان الذي احدثه فيه اذا كان بالمدينة او غيرها . ويلاحظ ان كتاب المرتضى هذا قد ضاع ولا يوجد الآن الا ترجمته الفرنسية التي ترجمها فاتييه Vattier من نسخة مخطوطة كانت محفوظة بمكتبة الكردينال مازارين ونشرت بباريس سنة ١٦٦٦ (المعرب)

محراب جامع عمرو

ولما هدم قرة بن شريك (٩٢ — ٩٣ هـ) جامع عمرو بالفسطاط واعاد بناءه ووسعه جعل به محراباً مجوفاً كان يعرف بمحراب عمرو ولو انه لم يكن من عمله (لانه كان في سمت محراب المسجد القديم الذي بناه عمرو) . « وكانت قبلة المسجد القديم عند العمد المذهبة وهي اربعة اثنان منها في مقابلة اثنين وكان قرة اذهب رؤوسها [١٧] » لتكون دلالة على موضع المحراب القديم

ومن ذلك يتضح ان المحراب المجوف لم يكن معروفاً بالمساجد الاسلامية بعصر قبل قرة بن شريك

اصل المحراب المجوف

ان تلك العبارة التي يرويها السمهودي نقلاً عن الواقدي واشرنا اليها من قبل تعتبر في نظرنا ذات شأن اساسيّ لحل هذه المسألة لان وقوع المحراب في الجزء الذي قام ببنائه الاقباط بمسجد المدينة يحملنا على الاعتقاد انهُ من اصل قبطي مسيحي وهذه النظرية التي نقررها يسلم بها كثير من الكتّاب والباحثين وقد نقل لامنس Lammens عبارة هامة عن مؤلف للسيوطي ملخصها انهُ في اوائل القرن الثاني الهجري كانت الصلاة في المحراب المجوف محرمة عملاً بالاحاديث والسنة « لانهُ من شأن الكنائس » وان اتخاذه في المساجد هو من علامات اقتراب الساعة . وقد اشار « بكر » Becker الى مؤلف آخر [١٨] من مؤلفي القرن الرابع عشر كان يقول ان المحراب هو اقل اجزاء المسجد قداسة . وكان ينهي الامام عن الصلاة فيهِ . والجزء الوحيد المجوَّف في الكنيسة القبطية هو الهيكل . فاذا اخذنا قليلاً من الامثلة القديمة لذلك وليكن مثلاً هيكل دير الانبا ارميا Apa Jeremias بسقارة فان الشبه بينه وبين المحراب القديم واضح جدًّا حتى اننا لا نتردد في قبول ما رواه هذان المؤلفان المسلمان اللذان اشرنا اليهما من قبل . ويتضح من ذلك ان المحراب المجوَّف قد استمدَّ من اصل مسيحي واتخذ في المساجد الاسلامية مع بعض الكراهة وعدم الرضى من المسلمين

اصل كلمة محراب

وردت هذه الكلمة في أشعار العرب قديماً غير انها لم يكن لها معنى ديني في تلك الايام بل كانت تدل على اشياء دنيوية . ويرى نولدك Nöldeke انها كانت تعني بناء الملك او الامير

وقد حاول رودوكوناكيس Rhodokonakis في تعليقه على كتاب نولدك ان يحدد معنى هذه الكلمة وان يوضح الجزء الذي يطلق عليهِ هذا الاسم من بناء الملك او الامير فذكر انهُ هو المكان الذي يخصص لوضع العرش فيهِ (كما في قصير عمرة مثلاً)

فاذا كان هذا صحيحاً سهل علينا ان نعرف لماذا اطلقت هذه الكلمة على المحراب المجوَّف الذي انشأه الاقباط الذين كانوا يشتغلون بمسجد المدينة على مثال هيكل كنائسهم !!

---

(١٧) مقريزي جزء رابع ص ٩ (١٨) هذا المؤلف هو ابن الحاج وكتابه يسمى المدخل وقد توفى سنة ١٣٣٧ م (كما اخبرني بذلك جناب المسيو فييت)

السر سعيد شقير باشا

للحياة في ابنائها مآرب ، تعدّ هذا للعلم ، وذاك للفن ، وتهب ذلك للوطن يخوض ميادين السياسة والاقتصاد او معترك النصال والسيوف في سبيله . ولها في تحقيق مآربها اسرار ، نعجز عن اكتناهها او اماطة اللثام عنها ، فنرى الرجال مسوقين في سُبل اذا حاولنا تبيُّن مداها بعقولنا القاصرة ارتدّ العقل كليلاً عاجزاً . ولكنها سبل تفضي دائماً الى ما تريد ان تحققهُ الحياة بواسطة ابنائها ، ولو شطّت الصلة بين الطريق في اولها والغرض في نهايتها . والاّ فكيف نستطيع ان نفهم مثلاً سيرة رجل كنبوليون وُلدَ في اجاشيو وجزيرة كورسيكا لم تكد تخرج من حكم الطليان ومات منفيًّا في جزيرة القديسة هيلانة، بعد ان دوّخ اوربا وثلّ عروش ملوكها ونصب لنفسه عرشاً ناطه بالنجوم . وكيف يستطيع عقل بشريٌّ ان يتبين في السبيل الاول الذي طرقه الملازم بونابرت ذلك المجد العريض وتلك النهاية المفجعة ؟ ولكنها الحياة ارادت ان تذيع الاركان التي قامت عليها الثورة الفرنسية فساقت نبوليون الى طولون ومنها الى باريس . ثم لما قضت منهُ لبانتها ، وقام هو يمتهن تلك المبادىء التي نشرها ، خطت لهُ سبيلاً يسير فيهِ من باريس الى واترلو الى جزيرة القديسة هيلانة . والامثلة على ذلك كثيرة قد يتعذر حصرها

ولعلّ أحدثها في شرقنا العربي يتجلى في سيرة السر سعيد شقير باشا رحمهُ الله . فمن كان يدري ان فتىً شقيريًّا وُلد في بلدة الشويفات اللبنانيةفي العقد السابع من القرن الماضي ، تسير بهِ الحياة في سبل مختلفة ليس بينها وبين السودان صلة ما ، الى ان تجعل اسمهُ مقترناً بتاريخ السودان الحديث . ثم تدفعهُ فيسبيل القاهرة فينال من خديوي مصر وسلطانها الرتب والاوسمة والنياشين ، ففي طريق لندن فيمثل بين يدي جلالة الملك جورج فيقلده وساماً كبيراً من أوسمة الامبراطورية ولقباً شريفاً من القابها . ولو لم تردهُ الحياة لذلك لما حدث ذلك الخلاف بينهُ وبين احد تلاميذهِ في جامعة بيروت الاميركية ـ الشيخ يوسف الخازن — مما حملهُ على ترك التعليم الى الابد ، بعد ان تنبأ لهُ رؤساؤهُ بمستقبل مجيد فيهِ . ولو لم تردهُ الحياة لذلك ، لما هيّأت لهُ ان يدرّس اللغة العربية للمستر ملنر مستشار المالية المصرية (لورد ملنر بعدئذٍ) اذكان يعمل في قلم التحرير في ادارة المقتطف والمقطم . هذه الصلة بين المستشار الانكليزي ومدرّسهِ الشويفاتي اللبناني مهّدت لسعيد شقير دخول السودان . وهناك وقفت الحياة تنظر من علٍ ، الىخلق سعيد شقير ، وذكائهِ ، وهمتهِ ، وجلده ، تتم الباقي ، في خروجه من منصب مترجم في سواكن ، الى مقام الرجل المسيطر على مالية السودان بعد ان نظمها واقامها على اساس متين

وُلِد الفقيد في الشويفات بلبنان من اسرة عرفت في تلك البلاد بنباهة الشأن وكرم المحتد ونبغ منها افراد في الادارة والسياسة والتجارة والادب . والشويفات معروفة على الساحل اللبناني ، بكثرة المدارس والمعاهد وقد تخرّج فيها طائفة من حملة وحاملات لواء الادب والعلم في الأقطار الشرقية . فترعرع في جوٍ يحترَم فيهِ العلم ويرفع مقام الادب ، فكان ذلك حافزاً لما انطوى عليهِ خلقهُ من ملكات كامنة . فلما كبر طلب العلم في جامعة بيروت الاميركية ، وامتاز في عهد الطلب بالذكاء والنشاط وقوة الشكيمة ، وبعد ما نال شهادتها النهائية سنة ١٨٨٦ دعي الى التدريس فيها فقضى في ذلك ثلاث سنوات الّف في خلالها كتاباً في الصرف بالاشتراك مع صديقهِ يوسف افتيموس وآخر في النحو وترجم ثالثاً عنوانهُ التقدم الذاتي . وقد وصفهُ احد تلاميذه (١) في ذلك العهد وصفاً بليغاً قال فيهِ :

« عرفت سعيد شقير لما تتلمذت له وهو شاب في مقتبل العمر ومطلع ربيع الحياة تسيل القوة من عطفيه ويسطع الذكاء في عينيه . ويرى ناظره في اسارير وجهه ما ينمُّ على عزم صادق يلطف من حدته ثغر باسم وميل فطري الى بهجة الحياة الصحيحة . فما لبثت هذه الاخلاق ان اخذت تقوى وتعتز وتؤتي ثمرها وصاحبها يتدرج في معارج العمل ويرقى في منازل النجاح والفلاح فيجد في كل منها مجالا متسعاً لمواهبه الكثيرة فلا يزيده النجاح إلاّ اقداماً ولا يخالج فيهِ الفوز سوى توطيد العزم على المضي في هذا الطريق بهمة لا تني ورغبة تدفعها القوة ويذكي نارها الشباب

« كان يدرسنا اللغة العربية وقد احبها حبًّا جمًّا ويسعى ليطبعنا بطابعها فلا يطغى عليها تيار اللغات الاجنبية التي كانت تنافسها في الدروس والفصول فينشيء فينا الميل الى محاسنها وارتياد مجاهلها وكشف مزاياها . . ولطالما استوقفنا ساعات في فناء الجامعة في بيروت يطرح علينا الاسئلة في النحو والاعراب ويذكي فينا نار الحماسة لهذه اللغة وقد ضرب فيها بسهم وافر واصاب منها حظًّا كبيراً وله من كتابه الموسوم باسم « طيب العرف في علم الصرف » وما حبّر من رسائل وما ترجم من كتب وما خطب في ذلك الحين وما بعده دلائل على شدة عنايته واتجاه ميله وعاطفته »

وجاء الى مصر في سنة ١٨٨٩ واشتغل اولاً محرراً في ادارة المقتطف والمقطم وكان إذ ذاك المستر الفرد ملنر (لورد ملنر بعدئذ) مستشاراً ماليًّا للحكومة المصرية فطلب من أصحاب المقتطف والمقطم ان يرشدوه الى من يدرّسه اللغة العربية فبعثوا اليهِ بسعيد شقير فأعجب ملنر بذكائهِ وسرعة خاطره ومقدرته وكان أول من تنبأ له بمستقبل باهر حافل بالخدمة والاعمال المجيدة

وحدث في أثناء الثورة المهدية بالسودان أن احتفظت الحكومة المصرية بسواكن وسواحل البحر الاحمر وعينت لها محافظاً عسكريًّا فاحتاجت في سنة ١٨٨٩ الى مترجم بارع ليعمل مع المحافظ فأرشدهم ملنر الى سعيد شقير فعيّن مترجماً للمحافظة في أول سبتمبر سنة ١٨٨٩ فتجلّت

(١) خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم في المقطم ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٤

مواهبهُ ومقدرته حالاً فرقي الى منصب سكرتير للمحافظة في سنة ١٨٩٢ وأنعم عليهِ بالرتبة الثالثة سنة ١٨٩٢ وبالثانية سنة ١٨٩٧

وكان بين الذين تقلدوا منصب محافظ للبحر الأحمر المرحوم اللورد كتشنر (قبل ان يصبح سرداراً للجيش المصري) والسر رجينالد ونجت باشا (قبل ان يصبح مديراً لقلم المخابرات بالجيش المصري) فأعجب كلاهما بهِ واعترفا بذكائه واجتهاده فوسعا سلطته وجعلاهُ المتصرف المطلق بجميع أمور المحافظة ما عدا العسكرية منها. فلما تم فتح السوادن واصبح اللورد كتشنر حاكماً عامًّا لهُ تذكر ذلك الموظف النشيط فاستدعاه لمصر وعهد اليه في الاشتراك في تنظيم مالية البلاد ووضعها على اساس ثابت. قال له اللورد كتشنر اني قد استدعيت خبيراً ماليًّا انكليزيًّا اسمه المستر هرمن ليكون سكرتيراً لمالية السودان انما ارغب في ان يكون معه رجل خبير باحوال البلاد فاذا كنت ترى المقدرة في نفسك والكفاءة لذلك فاني اعينك مساعداً له مع العلم باني سأتكل عليك انت في نجاح العمل واجعلك مسؤولاً مع المستر هرمن عن تنظيم المالية فاذا وفقت الى ما به خير السودان بنيتَ لنفسك مستقبلاً باهراً والاَّ . . . قال كتشنر: هذه مهمتك فاما ان ترفعك واما ان تضعك، فهل انت لها؟ فاجاب سعيد بك انه مستعد ان يضطلع باعباء العمل وانه واثق بالنجاح

وخلف السر رجينالد ونجت اللورد كتشنر كحاكم عام للسودان واستعفى المستر هرمن من مالية السودان فلم يرَ ونجت باشا ضرورة لاستدعاء خبير مالي جديد لاعتمادهِ على سعيد باشا فعين احد الضباط الانجليز (المرحوم السر ادجار برنار باشا) سكرتيراً ماليًّا عالماً ان الامور ستسير على احسن منوال بمقدرة سعيد باشا وهمتهِ وفعلاً لم تمض بضع سنوات حتى برهن سعيد باشا على نبوغه وكفاءتهِ فنظم ايرادات البلاد الجديدة ونفقاتها على احسن ما يرام وشهد بذلك كل من كان له اتصال بمالية مصر والسودان. وظل يدأب على تنظيم هذه المالية من دون ملل او كلال متنقلاً بين مصر والخرطوم من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩١٢ عندما وجد ان ذهابهُ الى السودان لم يعد ثمت ضروريًّا فبقي مثابراً على عمله بها وهو بفرع المالية في وكالة حكومة السودان بمصر

اما عن نزاهتهِ ونشاطه وثباته على العمل فحدث ولا حرج فانهُ كان اول من يحضر الى دائرة العمل ولا يتركها قبل الساعة الثانية او الثالثة بعد الظهر ثم يعود اليها في نحو الساعة السادسة ولا يغادرها قبل الساعة التاسعة وذلك في ايام العمل العادية اما اذا حان موعد انجاز الميزانية فانهُ كثيراً ما كان يبقى في الديوان الى منتصف الليل او بعده ولم يكن ينقطع عن العمل في يوم عيد او بطالة على الاطلاق. وكان الموظفون يشكون عدم الانتظام في اوقات العمل والراحة وانما كان يحفزهم الى النشاط مشاهدتهم رئيسهم في الطليعة. كما ان عطف سعيد باشا عليهم واهتمامه الدائم بمصلحتهم كانا ينسيانهم ما قد يعانونه من إرهاقٍ في العمل

ولم يكن خافياً على كل من كان له اتصال بحكومة السودان ان جميع المشروعات والتقارير والمذكرات

المالية ذات الشأن بدون استثناء كانت من عمله ولذلك كان رؤساء المصالح والمديرون الانكليز في السودان يتصلون رأساً بهِ في جميع الأمور التي كان يهمهم انجازها وكانوا يسعون الى ارضائهِ بجميع الوسائل فاذا سافر هو او احد افراد اسرتهِ على سكك حديد الحكومة او سفنها كانت تصدر الاوامر من رؤساء هذه المصالح بالاعتناء التام براحتهم . وكان اذا مرض هو او أحد افراد اسرتهِ يبادر رئيس المصلحة الطبية بنفسه الى عيادتهم . وقد حاز بجده وباستقامته ونزاهته ومقدرته احترام جميع موظفي حكومة السودان ومحبتهم من انكليز ومصريين ووطنيين . ونال في اثناء خدمته رتبة المتمايز في سنة ١٩٠٢ ورتبة الميرميران والباشوية سنة ١٩٠٩ والنيشان المجيدي الثالث سنة ١٩١٣ والنيشان المجيدي الثاني سنة ١٩١٤ ونيشان النيل الثاني سنة ١٩١٧

وكان الفقيد مصطافاً في لبنان سنة ١٩١٣ فدعاه متصرف لبنان يوهانس قيومجيان باشا الى بيت الدين وطلب اليه ان ينظر في ميزانية لبنان ويضع له تقريراً عنها ، فنزل هو وقرينته الفاضلة ضيفين على المتصرف في سراي الحكومة اياماً تفرغ فيها سعيد باشا للبحث في الموضوع ووضع تقريراً نفيساً فيها . وندب في سنة ١٩١٩ لمراقبة مالية حكومة المرحوم الملك فيصل لان وزارة الحربية الانكليزية في ذلك العهد أمدّت الملك فيصل بمبالغ جسيمة من المال لتساعده على استقرار حكمه في سوريا ولم تجد من يقوم بمهمة مراقبة المصروفات وتنظيمها افضل من سعيد باشا . ولما احيل على المعاش سنة ١٩٢١ انعم عليهِ بنيشان الامبراطورية البريطانية من درجة فارس مع لقب سر

ورغبت حكومة السودان في الانتفاع بخبرته فجعلته مستشاراً لها بمصر فمضى في القيام بعمله الى اليوم الذي أصيب فيهِ بالضربة القاضية التي اودت بحياته الثمينة خمسة ايام بعد ذلك [1]

قلنا ان سعيد باشا نشأ نشأة علمية ادبية وقد ظلّ الى آخر حياتهِ الحافلة كلفاً بالادب والشعر واللغة ، حريصاً على الدرس والمطالعة يحفظ من جيد الشعر طائفة من خير ما جادت بهِ قرائح الشعراءِ المتقدمين والمتأخرين وكان المتنبي اقربهم الى نفسهِ . وما برح يشجيهِ الشعر العربي كما يطربهُ الغناءُ الشرقي مع انهُ الف العيش في الاوساط الغربية بحكم عملهِ وصلاتهِ

وقد قرن الصحافة الى الادب فاشتغل في تحرير المقتطف والمقطم قبل انتظامهِ في خدمة حكومة السودان بسواكن ، وفي اثناء اقامتهِ بسواكن كان يكاتب شركة روتر فيوافيها باخبار الثورة المهدية ، وكان اول من طيَّر الى اوربا خبر انتصار الاحباش على الجيش الايطالي في معركة عدوة الشهيرة . فذاع الخبر في اوربا قبل ان يبلغ الحكومة الايطالية رسميًّا ، فاستاءت حكومة ايطاليا وارسلت تطلب من حكومة انكلترا ان تنشر شركة روتر تكذيباً لما نشرتهُ . ولكن في اليوم نفسه ورد على الحكومة الايطالية خبر الهزيمة ، فكان في ذلك الحادث الصحافي مفخرة لروتر ولمكاتبهِ بسواكن اما بصره في الادب العربي فكان بصر العالم المصقول الطبع النافذ النظر القويّ الحجة . وكثيراً

(١) معظم الحقائق عن عمل سعيد باشا في السودان مبني على مذكرة اعدها صاحب العزة صموئيل بك عطية

ما كان يطلب الى كاتب هذه السطور ان يقرأ لهُ شيئاً مما يكتب فكان يقف في الفينة بعد الفينة ويقول اظن ان صحة هذا اللفظ كذا وينهض من ساعتهِ الى المعجمات في خزائنهِ العامرة يراجع مطولاتها ، وقد كان دائماً في جانب الصواب . ومما يشهد لهُ بثقوب البصر في الادب ان المغفور لهُ شوقي بك كان قد بعث الى المقتطف في دسمبر سنة ١٩٢٣ بقصيدتهِ الفلسفية البليغة في «النفس» معارضاً فيها قصيدة ابن سينا التي مطلعها «هبطت اليك من المكان الارفع» فقرأ المرحوم الدكتور صرّوف القصيدة معجباً بمعانيها الفلسفية وصورها الشعرية ، ولما عاد ذات يوم الى داره لتناول الغداء اخذ تجربتها معهُ « ليريها لسعيد » . وبعد تناول الغداءِ صعد الى « بيت سعيد» وراجعا القصيدة معاً معجبين بها كل الاعجاب . الاَّ انهما ما كادا يصلان الى البيت الذي يقول فيهِ شوقي

ما بال احمد عَيَّ عنك بيانهُ   بل ما لعيسى لا يقول ويدّعي

حتى توقف سعيد باشا وقال هذا لا يستقيم معنىً لان المقصود نفي القول والادعاء معاً عن عيسى ، وهنا يفهم انهُ لا يقول ولكنهُ يدَّعي . فاضطرب الدكتور صروف وقال ما العمل الملزمة في المطبعة والوقت ضيق ما العمل لتصحيح الشطر ? فتناول سعيد باشا التلفون وخاطب شوقي بك في داره مبيناً له رأيهُ فوافق شوقي بك عليهِ وقال بحضور ذهن عجيب : طيب ياسيدي « قول كده »

ما بال احمد عيَّ عنكِ بيانهُ   بل ما لعيسى لم يقُلْ او يدّعي

وهذا هو النصُّ الذي ظهر بهِ البيت في القصيدة في الصفحة السادسة من مقتطف يناير سنة ١٩٢٤

ولهُ قصيدة عصماء في الانقلاب الدستوري الذي وقع في تركيا سنة ١٩٠٨ . فقد كان سعيد باشا من الذين تحمسوا لاعمال جمعية الاتحاد والترقي لانهُ اعتقد حينئذٍ ان عهد الظلم في سوريا قد انقضى وقام على انقاضهِ عهد نورٍ ومساواة ، ولما احتفل اللبنانيون بالانقلاب احتفالاً عظيماً في عاليه في صيف تلك السنة نظم هذه القصيدة السياسية فكان لها وقع عظيم في النفوس ومما قاله فيها

اذا دعا الموت فرداً هبَّ كلهم   حتى كأن المنايا الكأس والحببُ
ظنَّ الطغاة سكوناً منهمُ جزعاً   لكنهم سكنوا حيناً لكي يثبوا
ما قدَّموا حذراً او ردَّهم خطرٌ   وان يكن في جبين الليث ما طلبوا
ولا اشترتهم وعود ملؤها ذهبٌ   ولا ثناهم وعيد ملؤهُ الغضبُ
ولا استمالهمُ مجدٌ يكون بهِ   ظلم العباد ولا غرّتهم الرتبُ
قالوا وقد شهروا الصمصام واندفعوا   كالرعد يقصف في احشائهِ اللهبُ
للشعب حقٌّ اتينا اليوم نطلبهُ   اما نذوق الرّدى او يصدق الطلبُ
عشنا بعصرٍ عجيبٌ ان يعاش بهِ   لو لم نعش فيهِ قلنا انهُ كذبُ
فالحرُّ مضطهد والامن مضطربٌ   والعرض منتهكٌ والرزق منتهَبُ
فاستلَّ سيفاً نيازي كلّهُ لهب   وقال انور قولاً دونهَ الذهبُ

الدين لله دينوا كيف شاءكم أما لدين هوى الاوطان فاعتصبوا
هذي يدي اننا والله اخوتكم وليس يفرقنا دينٌ ولا نسبُ

وقد كان في السنوات الاخيرة يعدُّ المعدّات لشرح ديوان أبي تمام ، ووضع جدول وافر بالالفاظ العربية التي استعملت لاغراض جديدة وبيان تطور استعمالها قديماً وحديثاً وتقديمه الى المجمع الملكي للغة العربية. وكان شوقي وفوزي المعلوف أحبّ الشعراءِ المحدثين اليهِ. ثم انهُ علاوة على عنايتهِ بالادب العربي، كان يعنى عناية خاصة بالزجل اللبناني ولهُ فيه «مطالع» جيدة، نذكر ماعلق بالذاكرة من احدها

يا جفن عيني ليش فايض مدمعك ويا قلب مالك في خفوق شو بيوجعك
اوعى تكون وقعت في نار الغرام علمي بأنك تبت شو عاد وقّعك

اوعى تكون وقعت في نار الغرام ظنيت إنّا نور ما فيها ضرام
ورحت حايم حولها حوم الهوام تخمين نسيت قديش كانت تلذعك

تخمين نسيت يا قلب شو قضّيت سقام تا وقعت وقعه ما بقاش منّها قيام
مش كل مرة ترجع الجرّه بسلام وخايف بهـا المرة تلاقي مصرعك

. . . .

من مرحمي شو بيمنعك تا تنطفي ناري وعيني من البـكا ما تكتفي
ان كان قلبي بحفظو تا تكون فيهِ وان كان عيني بصونها تا تقشعك

ان كان عيني بريدها تا تشوف سناك هي وقلبي وكل شيء بملك فداك
انت ماشي وما بهمك في سماك ونفسي على كبرا ذليلة بتتبعك

نفسي على كبرا السبب في ها الفشل حطت بوكدا البدر كيف بدّا تصل
واللي جهل ها الحب شو بيعمل عمل خليه يجي ويشوف شو صار لي معك

خليه يجي ويشوف شو قضيت عذاب ما نالني في محبتك الاّ التعب
وفي اللّي بقي في العمر لي عندك طلب انك تجيني بس مرّة تا قشعك

ولم يحل انهماكه باعماله الرسمية دون الاتصال والالتفات الى كل ما يهم الجالية السورية في مصر والسودان . فكان رئيس شرف للنادي السوري في الخرطوم في خلال اقامته بالسودان . ولما مرَّ المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق في الخرطوم سنة ١٩١١ الف وفداً من كبار السوريين فقابلوا المستر روزفلت في قصر الحاكم العام وقدّم له خطاباً شكر فيهِ بلسان السوريين حكومة الولايات وشعبها لما يلقاه السوريون هنالك من الحرية والرعاية . وكان رئيساً للنادي الشرقي في القاهرة وأميناً عامًّا لصندوق جمعية متخرجي الجامعة الأميركية ببيروت . ولهُ في الجمعيات والاندية خطب كثيرة جمعت الى الحكمة الاجتماعيةِ البلاغة الادبية وحسن المحاضرة . رحمة الله عليهِ

بحث علمي لغوي

ألوان الخيل وشياتها

للامير مصطفى الشهابي

يهم هواة الخيل والغواة بسباقها الذين يربونها لهذه الغاية ، او يترددون على ميدان السباق في عين شمس مراهنين على المجلي او المصلي منها ، ان يعرفوا الوان الخيل وشياتها مما تتحلى به الصافنات الجياد ، ومما يكون لها علامات يتميز بها بعضها عن بعض . وكثير من الذين درسوا هذه الموضوعات بلغات اجنبية لا يعرفون الالفاظ العربية المختصة بها ، او لا يعرفون وضع اللفظة العربية مقابل اختها الفرنجية. ولما كانت دارنا لا تخلو من فرس او اكثر، كنت حققت هذه الالفاظ تحقيقاً علميًّا ونشرت معظمها منذ عشر سنين تماماً في مجلة مجمعنا العلمي العربي بدمشق . وقد رغب اليَّ اليوم أحد الاختصاصيين بالزراعة في مصر ان أنشرها في مجلة المقتطف شيخة مجلاتنا العربية لكثرة تداول الايدي لها بين طبقة المثقفين من الناطقين بالضاد ، ولأن تلك الالفاظ ضرورية لأساتذة مدارس الزراعة والبيطرة وتلامذتها ولكل من يهتم بتربية الخيل من أرباب الزراعة أو من هواة هذا الحيوان الذكي النافع

***

﴿ الالوان ﴾ يراد بالوان الخيل الوان الشعر النامي على جلدها عدا العُرْف والسَّبيب والثُّنَن[1] فهي كثيراً ما يكون لونها مخالفاً للون سائر شعرات الجياد . وليس لون الخيل (اي ثوبها) من الصفات المرفولوجية الثابتة بل هو يتحوَّل بالانتخاب والبيئة والسن وطرز التربية وغيرها من المؤثرات. ويكون لون المهر خلاف لونهِ الاساسي بعد ان يكبر. ويندر في المهر الشعر الابيض واذا وجدت فيهِ شعرات بيض حوالي عينيه وصدغيهِ دلت على ان لونهُ سيكون مشتقًّا من اللون الابيض . ويكون لون الذكور ازهى من لون الاناث . ولفصول السنة تأثير في الشعر فتراه في الشتاء اطول وألمع منهُ في الصيف

يقسم ثوب الخيل الى قسمين بسيط ومركب . فالاول ما تخلص شعراته بلون واحد والثاني ما تجمع شعراته لونين او اكثر . ومن القسم الاول الشُّقْرة والدُّهْمة والبياض والكُمْتة . فالشقرة

(١) شعر الرقبة والذنب ومؤخر الارجل على الترتيب

حمرة ضاربة الى صفرة . والفرس الاشقر يدعى بالفرنسية Alezan وتكون اطرافهُ شُقْراً . وكذا العرف والذنب . وفي الشُقْر الوان منها الأشقر المذهب Alezan doré والسِلْغَدُّ A. clair اي الذي خلصت شقرته والأمغر A. cuivré وهو الذي تعلو شقرته مُغْرة

والدهمة هي السواد يقال إدهامَّ الفرس يدهامُّ ادهيماماً . وتكون اطراف الأدهم وعرفه وذنبه سوْداً من لون شعره . والأدهم الغيهب Noir de jais هو الشديد السواد الذي يلمع من فرط سواده. والأدهم الشاحب Noir mat هو الذي لا يلمع . ويسمي بعض العرب البياض شُهبة كما يدعون السواد خضرة . وللفرس الابيض الوان منها الابيض الشاحب والابيض الفضي

وأحب الألوان الى العرب على قول الأصمعي هي الكمتة ولا ريب انها من أحب الألوان في يومنا هذا . والكُمَيْت Bai أشد حمرة من الأشقر وبينهما الوَرْد (ج وِرَاد) . ويكون عرف الكميت وذنبه اسودين وكذا القوائم في الغالب. يقال إكماتَّ الفرس يكماتُّ اكميتاتاً وجمع الكُمَيْت الكُمْت. وفي الكمتة ألوان منها الكميت الأحمّ Bai foncé وهو الذي يعلو حمرته سواد والكميت المُدَمَّى B. cerise وهو الذي تشتدُّ حمرته وأشد منهُ الأحمر . والكميت المذهب B. clair وهو الذي تعلوه صفرة

***

وفي القسم الثاني من الألوان شُهْبة وحُوَّة وصُفْرة وبُلْقة

فالأشهب يدعى بالفرنسية Gris وهو الفرس الذي تكون شعراته على لونين ابيض واسود على ان تتفرق فلا تجمع واحداً من اللونين شعراتٌ تخلص بلون واحد كقدر النكتة فما فوقها . ويعرف الاشهب ايضاً بقولهم انهُ الابيض الشعرة ليس بالبياض الصافي وسببه اختلاط الشعرات السود بالبيض. وفي الشُهْب الوان فقد يكون الأشهب قليل الشعر الأسود ضارباً الى البياض Gris clair او على العكس من ذلك G. foncé ويكون حديدي اللون G. de fer او أبرش G. saler وهو الأشهب الذي فيهِ لُمَع بياض أو أرمَد G. cendré وهو الذي على لون الرماد . اوأغبر G. rouanné وهو الذي شملت شهبته شقرة

والحُوَّة صفرة الى سواد او شقرة الى سواد Robe louvet يقال فرس أحْوى وفرس حَوَّاء .
اما الصفرة Robe aubère فهي في الخيل اختلاط شعرات بيض باخرى ضاربة الى الحمرة. وفي المخطوطات القديمة بياض تعلوه حمرة ويقول الاصمعي لا يسمى الفرس اصفر حتى يصفرَّ ذنبه وعرفه . والبُلْقة Robe pie هي ان يكون في جسد الفرس بقع كبار مخالفة للونه . او هي اجتماع مختلفين فالفرس أبْلَق او مُلَمَّع او أبْقَع او أشيم والبلقة في اللغة مختصة بالسواد والبياض وهي بالفرنسية Pie-noi او Noir-pie حسب قلة السواد او كثرته . واذا كان الفرس احمر او اشقر وعليه بقع بيض فهو احمر أبقع Rouge-pie او اشقر ابقع وهكذا

﴿ الشيات ﴾ — هي كل لون يخالف لون معظم الفرس . وهي على نوعين عامة وخاصة . فالأولى تكون في جزء ما من ثوب الفرس اما الثانية فتكون في اجزاء معلومة

فمن الشيات العامة ان يكون الفرس مُدنَّراً اي ان يكون في شعره نُكَت تخالف سائر لونه كالاشهب المدنر فهو بالفرنسية Gris pommelé اي الذي يخالط الشهبة فيه نُكَت سود . وهو لون كثير من الخيل العراب في بلاد الشام ولا سيما الاشهب الذي يكثر السواد في اطرافه (ازرق مبقع) ويقول كثير من علماء الغرب ان هذا اللون هو اللون الاصلي للخيل العربية وهو في نظري اجمل الالوان وان خالفتُ بذلك قول الاصمعي

وقد يكون اللون الابيض او الاشهب ارقط Moucheté اي ذا رقطة وهي نقط سوادٍ مبعثرة في الثوب . واذا ضرب اللون الى السواد وتخلله نكت بيض فاللون ثلجي

وتكون الشيات الخاصة في رأس الفرس وقوائمه وفي غيرها

فبياض الجبهة هي الغُرَّة والفرس أَغرّ Marqué en tête . واذا صغرت الغرَّة فهي قُرحة والفرس أقرح Légèrement en tête واذا سالت الغرة على قصبة الانف وعرضت في الجبهة فهي سايلة Liste en tête واذا دقت وسالت في الجبهة وعلى قصبة الانف ولم تبلغ الجحفلة فهي شِمراخ Petite liste . واذا سال البياض على قصبة الانف دون ان يبلغ العينين فهو اليعسوب Liste incomplète . والرُّثمة ان يصيب البياض الجحفلة العليا . اما اذا اصاب الجحفلة السفلى فهي اللُّمظة . واذا اسودَّ رأس الفرس دون سائر اعضائه فهو أدرع Cap de Maure

والبياض في قوائم الفرس هو التحجيل Balzane، قلّ او كثر فالفرس مُحَجَّل . واذا كانت له يد على لون البدن مثلاً فالفرس محجل بثلاث طليق تلك اليد او طَلِقها او مُطلَقها . اما اذا اصاب البياض القوائم كلها فالفرس محجل الاربع

ووضح القوائم اي تحجيلها على انواع . فاقله الخاتم وهي شُعيرات بيض Principe de Balzanes واذا جاوز ذلك حتى يكون البياض واضحاً فهو إنعال Trace de Balzanes اما اذا جاوز الارساغ فهو تخديم Petite Balzane واذا صعد البياض في القوائم ولم يبلغ الركبتين والعرقوبين فهو التجبيب والفرس مجبَّب Grande Balzane فاما اذا بلغ التجبيب الركبتين والعرقوبين فهو مُسَرْوَل B. haut-chaussée حتى اذا خرج من الذراعين والساقين فالفرس أَخرج

***

هذا قليل مما وضعه العرب في ألوان الخيل وشياتها مع ما يقابله بالفرنسية وفيه فائدة يستفيدها الذين يعنون بشئون الخيل في البلاد العربية والذين يعنون بالمصطلحات العلمية من فقهاء اللغة

الفلاحة الفرعونية

الحرث والبذر

الدكتور حسن كمال
وكيل القومسيون الطبي

﴿تقسيم الاراضي﴾ يبدأ الفلاح بعد زوال الفيضان في تنقية حقله من الاعشاب والاحجار المتخلفة عادة من الفيضان النيلي . وكثيراً ما يرسم الفلاح منذ اقدم الأسر قائماً بهذا العمل الجليل الشاق كمقدمة لزراعة الارض . والمعروف ان هذه العناية كانت محصورة باديء ذي بدء في مساحات تكفي سكان القطر فقط . لكن لما زاد تعداد هؤلاء وبلغ السبعة ملايين نسمة ثم زادت ايضاً صادرات القمح المصري الى بلدان البحر الابيض المتوسط تحتم على اهالي القطر الانتفاع بكل بقعة في وادي النيل تحقيقاً لهاتين الغايتين الهامتين . وهذا هو سر استئصال الغابات في القطر المصري

وقد اخبرنا ميتن (Meten) من عهد الاسرة الثالثة [1] إنهُ حوّل جميع اراضي والده الى ارض زراعية . والباحث في الآثار يجد ان عملية تطهير الاراضي من الاعشاب وخلافها استمرت حتى عهد الاسرة الثانية عشرة كما يشاهد ذلك في نقوش زاوية المتين التي اوردها لبسيوس (دنكمايلر ج ٢ لوحة ١٠٨ — ١٢٦) . واستعمل الفلاح في هذه العملية الباطِة واستعان على ابادة الاعشاب بالغنم

وتشاهد النباتات المائية مرسومة بوضوح في بعض مقابر طيبة فمقبرة (نخت) تمثل نهر النيل والاعشاب نامية على شاطئيه والفلاح المصري يقتلعها بالفأس . قال هيرودوتس (ج ٢—١٤) وديودورس (ج ١—٣٦) ان الفلاح بعد ما يستأصل الاعشاب والنباتات البرية من ارضه يعمد الى تسميدها باطلاق الخنازير فيها . لكن هذا القول قوبل بالنقد الشديد من الأثريين خصوصاً اذا لاحظنا ان مصاطب المملكة القديمة لم تحو رسوماً لهذه العملية للآن . لكن يوجد في مقبرة بطيبة (نب امون Rec. de trav. tix pl. 98) منظر لقطيع من الخنازير يسبق فلاحاً يقلب الارض بفأسه

﴿طريقة استعمال الفأس﴾ سبق ان ألمعنا في مقال آخر الى طريقة استعمال الفأس في العهد السابق لعهد الفراعنة واوردنا رسماً لذلك . ثم تكلمنا في التحسينات التي ادخلت على هذه الآلة العظيمة التي تعتبر بحق رمز مصر والتي حافظت على وجودها مدى التاريخ . واكثر استعمال هذه الآلة كان في الاحوال التي تتطلب تفليق الارض بدقة دائمة . لذلك كثيراً ما نجد رسوم الفلاحين على الآثار تمثلهم قابضين على الفؤوس الواحد تلو الآخر قائمين بعملية الحفر المطلوبة . وذلك

(1) Meyer II. transl. Moret p. 216.

في عهدي المملكة القديمة والامبراطورية . وكثيراً ما يكتب اعلاهم عبارة معناها « انزل به » — اي احفر بالفأس (مقبرة تي بسقارة) وقد اورد ماريبت في كتابه عن المصاطب (ص ٣٤٦) رسماً لامرأة تحفر الارض بنشاط وشجاعة

وفي مقبرة (تي) المذكورة حفر الحفار منظراً لثلاثة رجال يستعملون الفأس في حفر الارض بهمة وفوقهم نقشت انشودة كانوا ينشدونها وقت قيامهم بهذا العمل الشاق اليك ترجمتها : « الحفار في المياه وسط الاسماك يناجي سمك الصلّور ويتبادل التحية مع سمك العبيدي — ايها الغرب ان حفّارك هو حفّار الغرب[1] » . والتمثال الصغير الذي عثر عليهِ جهة مير يفسّر هذه الانشودة اوضح تمثيل . لانهُ يمثل الفلاح يحفر الارض بفأس باخلاص بيّن كما يستدل من غور قدميه في الطين حتى كعبيه ولما كان وقت الحفر بالفؤوس هو في اليوم التالي لزوال الفيضان كان السمك حينذاك يغدو ويروح حول القائمين بهذه العملية على ما يدلُّ نصُّ الانشودة

﴿ استعمال المحراث ﴾ يشاهد استعمال المحراث في فلاحة الاراضي بنسبة تفوق كثيراً استعمال الفأس وذلك منذ عهد الاسر الاولى . ومنه يستدل على ان الاراضي كانت تزرع بانتظام منذ تلك العصور . وصغار الفلاحين الذين كانوا لا يمتلكون بهائم لجرّ المحاريث كانوا يقومون بذاتهم بهذه العملية (مقبرة باحرى) والعادة ان المحراث كان يجرّ بثورين او ببقرتين وذلك بواسطة ناف مستعرض مثبت في قواعد القرون بوثاق قوي . لكن هناك مقبرة بنف تمثل الناف مثبتاً في اعناق الثيران[2] . وهناك عدة قراطيس بردية تحوي رسوماً تمثل تثبيت الناف في الاعناق . واورد بريس Prisse[3] رسماً لمحراث يجره جوادان . وهناك مقبرة ببني حسن (لبسيوس ودنكاير ٢ — ١٢٧) تحوي نقوشاً يستدل منها على ان ثيران صاحب المقبرة كانت مدربة احسن تدريب حتى انها كانت تقوم بعملية الحرث بمجرد ربطها في المحراث واعطائها الاشارة للبدء بالعمل . والعادة ان هذه البهائم كانت لا تحتاج الى ارشاد وقت الحرث الأساعة ادارة الآلة وتغيير خطة السير . وبديهي ان محاريث هؤلاء القوم كانت لا تشق الأ الطبقة السطحية للحقول كما يستدل من طبيعة محاريث تلك الأزمنة وكما هو وارد ايضاً في رواية ديوسقوريديس (جزء ١ — ٣٦)

والباحث في صور المحراث الواردة على الآثار يجد ان هذه العملية تمثل برسم محراثين او ثلاثة محاريث الواحد خلف الآخر . والقصد من رسمها بهذه الصورة هو ايضاح طريقة استعمال عدة محاريث على حذاء واحد وفي بقعة واحدة . لكن رسام تلك الصور عسر عليهِ رسمها رسماً مجسماً فاضطر ان يوضح مراده برسم المحاريث بعضها تلو بعض. وهناك احتمال آخر في تفسير تعدد المحاريث في مناظر حرث الاراضي يتلخص في ان الارض التي كانت تزرع كتاناً او فولاً كانت تحرث مرتين او

(1) Maspero Etude egyptienne t. II p. 74 trad. (2) Descrip. de l'egypte. Ant. V. p. 17
(3) Mon. Egypt. pl. 35

ثلاثاً قبل زرعها قمحاً . وهـذه العادة اتبعها اليونانيون في فلاحتهم [1] . فهل كان الحراث يقصد بتعدد رسم المحراث اثبات مرات حرث الارض ؟ هذا السؤال تصعب الاجابة عنهُ اجابة قاطعة

ويلاحظ في بعض المقابر مثل مقبرة (نخت) بالاقصر ان الرسام اوضح طريقة تجزئة الاراضي الى حقول متعددة بالطريقة التي كانت متبعة في عهده . فهناك ترى حقلين تفصلهما شجرة صغيرة كما تشاهد ايضاً المحراث الذي يستعمل في حراثة احد الحقلين مقابلاً لمحراث ثان لحراثة الحقل المجاور والبقرتان الجارّتان لـكل محراث تتقابلان مع بقرتي المحراث الآخر عند الحدّ الفاصل للحقلين . ويضطر الفريقان بحكم تقابلهما من تولية ظهورهما بعضهما لبعض والرجوع بالتالي الى الجهة المضادة

والمحراث المصري القديم (وهو لا يزال مستعملاً الى الآن) يتطلب عناية كبيرة من الفلاح فعلى هـذا الاخير قبل استعمال المحراث ان يضغط عليهِ بكل قواه ليرسل حدّه في التربة الى أبعد مدى ممكن وان يستمر في ضغطه هذا طول مدة الحرث متكئاً على زاوية المحراث بيديهِ حانياً ظهره طول الوقت . وقد يقوم فلاح واحد بهذه العملية . لكن الغالب ان فلاحين يقومان بهذا العمل احدهما يضغط على المحراث وآخر يسوق البقرة من الامام او الجنب بحسب ما تقتضي الاحوال (مقبرة تي) وثمة في مقبرة (پاحرى) انشودة كان الفلاحون ينشدونها وقت الحرث ترجمتها : « انهُ ليوم بديع ! ويوم سعيد . فالثيران تجر المحاريث . والجو باق على مرامها ، ونحن نؤدي واجبنا نحو سيدنا ! »

وبعد الفراغ من الحرث يبدأ الفـلاح في تكسير الكتل الطينية الناجمة من المحراث . فيعمد بالفاس او العصى الغليظة او القادوم فيفتت هذه الكتل الى قطع صغيرة ممهداً بذلك الحقل لعملية البذر ومسهلاً في الوقت نفسه طريقة الري

﴿ السماد ﴾ معلوم ان مياه الفيضان تحمل مقداراً كبيراً من الغرين الذي هو سماد طبيعي . قال بلينيوس (١٩ — ٥) ان قدماء المصريين كانوا يوزعون على اراضي حقولهم مادة آزوتية بقصد التسميد للنباتات المتأخرة النضوج . وروى الاستاذ ولـكنسون في كتابه عن عادات المصريين (جزء ٢ — ٣٩٥) انهم كانوا يضيفون الرمال لتلطيف تربة بعض الحقول وجعلها صالحة لنمو بعض النباتات كالعنب

﴿ طريقة البذر ﴾ وبعد الفراغ من عملية الحرث يبدأ الفلاح في بذر حبوبه ثم تغطيتها بالتراب قال هيردوتوس (جزء ٢ — ١٤) ان الأراضي التي كانت تغمرها المياه معظم السنة كانت تبذر فيها الحبوب حال زوال الفيضان منها بدون حرث على الاطلاق بشرط ان تكون هذه الاراضي قد سبق زرعها . وليس هذا بمستبعد لان شمس مصر المحرقة وخصوصاً في صعيدها تجفف الارض بعد زوال الفيضان عنها في مدة لا تتجاوز عدة ساعات

أما الاراضي التي تحرث حرثاً اصوليًّا بقصد زراعتها قمحاً مثلاً فان الفلاح كان يتتبع ساعتئذٍ سلاح المحراث واضعاً الحبوب في مجراه كما هو واضح في قصة الاخوين من أن « الارض حالما تخلصت من مياه

(1) Iliade XVIII, 547.

الفيضان اخذ الاخ الاكبر قيادة المحراث وكلف اخاه الاصغر الاسراع في الحضور الى الحقل مصحوباً بالحبوب لبذرها » . وتشير هذه القصة ايضاً الى طريقة توزيع اعمال الفلاحة بين افراد العائلة والى الاقتصاد في الحبوب وقت البذر حيث ورد فيها ان الكمية الاولى من الحبوب نفدت فأرسل الاخ الاكبر أخاه الاصغر مرة ثانية الى مخزن الحبوب حيث وجد زوجة أخيه فناداها قائلاً «هيا اسرعي واعطيني الحبوب لأن أخي طلب مني الاسراع في ذلك وقال لي لا تكن كسولاً » فاعتذرت اليه السيدة وقالت « يتعذَّر عليَّ القيام الآن لأنني اسرح شعري واخشى ان يتلبك قبل الفراغ منه . فاذهب انت وخذ البذور المطلوبة». فدخل الصبي الاهراء وملأ زلعة كبيرة من الحبوب لانهُ كان في نيّته ذلك . وكانت الحبوب قمحاً وشعيراً . وحملها على كتفه . فلما همّ بالخروج بادرته زوجة اخيه سائلة — ما هي كمية الحبوب التي تحملها على كتفك ؟ — فاجابها — ثلاثة مكاييل من الشعير ومكيالان من القمح فيكون الكل خمسة مكاييل . هذا هو ما أحمله على كتفي» — (راجع قرطاس اوربيني لوحة ٢ — ٩ ، لوحة ٣ سطر ٥) . ومنه يستدل على شدة حرص السيدة في معرفة الكميات المأخوذة من الشونة محافظة على المقادير اللازمة للمنزل

ودلتنا النقوش البارزة بمقابر سراة القوم وكبار الموظفين ان الحكومة كانت تحافظ جدًّا على عدم التبذير في الحبوب ومحصولات الاراضي . لأن مرتبات العمال والموظفين كانت تدفع شعيراً او قمحاً وجرت العادة على ان الاهالي كانوا يستدينون بعضهم من بعض ما تتعادل قيمته مع مقادير معينة من الحبوب لان الحبوب وقتئذٍ اصبح لها قيمة مالية تضارع قيمة النقود في عصرنا هذا [1] وكانت هنالك طائفة كبيرة من الكتّاب تقوم بتسجيل الصادر والوارد في شون الحكومة من الحبوب . واعتاد الرؤساء ان يرسلوا مفتشين لجرد محتويات هذه الشون وذلك لكيل محتوياتها وتسجيلها في سجل خاص تحت اشراف كاتبين . يقوم احدهما بمراقبة عملية الكيل ويقوم الآخر بقيد مقاديرها (راجع مقبرة الشيخ سعيد للاستاذ ديفيز. ص ١٩٠ ومقبرة اورارنا لوحة ١٦). واورد لبسيوس في (الدنكمايلر ج٢ لوحة ٥٦ مقبرة نوفر بيوپتاح) نقوشاً يستدلّ منها على طريقة اخذ الحبوب من الشون بواسطة الفلاحين القائمين بعملية البذر . ومنها يتضح ان هؤلاء كانوا يملأون اكياسهم حبوباً من فتحة الشونة السفلى ويحملونها على اكتافهم تحت اشراف كتبة يقومون بعملية القيد لكل صغيرة وكبيرة. وجاء في عدة قراطيس بردية من العهد الصاوي (٦٦٠ — ٥٢٥ ق . م .) ما يشير الى ان بعض فلاحي ذلك العصر كانوا يقترضون كميات التقاوي اللازمة لهم من متيسريهم على ان يردوها من محصول الارض عند الحصاد

وقد حافظ كيس التقاوي على شكله من عهد الاسرة الاولى (٣٤٠٠ — ق م) [2] . وكان هذا

(1) Revue egyptologique 1813 3o année, Revillont, Les prête de blé p 25.

(2) Wilkinson, Manners etc. Vol. II p. 369

الكيس يصنع من الصفصاف (water-willow) ويحمل عادة فوق الكتف اليسرى ويقف حامله جوار الحراثين او الحفارين . فاذا ما بدأ الاخيرون عملهم تبعهم الشخص القائم بعملية البذر قابضاً على الكيس بيده اليسرى ومالئاً قبضته اليمنى حبوباً ليبذرها في الشقوق المتخلفة من الفؤوس اوالمحاريث (مقبرة تي لوحة ٣)

وجاء في ميدوم رسم لفلاح يقوم ببذر الحبوب مزين بأوراق النبات وحامل لكيس مربع الشكل تقريباً له يد مجدولة مثبتة بمنطقة الكتفين ومرسل الى خلف الابط الايمن . ويعتبر هذا الرسم الوحيد من نوعه على الآثار للآن

وجاء بمقبرة (پاحرى) رسم لعملية البذر يتلخص في شخص تابع لحفّار او حرّاث يبذر الحبوب على طول باعه . ولما كانت العادة عند القوم وقتئذ اذا ارادوا ان ينقشوا عملية البذر على مقابرهم ان يرسموا الرجل القائم بهذا العمل ثانياً ذراعه . لذلك استنتج بعضهم ان الحبوب المقصود بذرها بمقبرة (باحرى) المذكورة هي غير حبوب القمح وانها لا يبعد ان تكون حبوب الكتان (راجع كتاب مقبرة (نخت) لديفيز لوحة ١٨)

واهتمّ الرسامون كثيراً بتلوين مناظر البذر اهتماماً فاق اهتمام الحفارين في نقش هذه العملية[١]

﴿ تغطية الحبوب ﴾ ولما كانت احوال القطر الطبيعية تحتم على الفلاحين تغطية حبوبهم بعد بذرها منعاً لتعرض احد جانبيها للارض الرطبة والآخر لاشعة الشمس المحرقة ومحافظة عليها من الطيور والحشرات كما يستدل على ذلك من النص الوارد بقرطاس انسطاسي (٥ لوحة ١٥) من « ان الفراشات تأكل اعشاب الحديقة . والحيوانات الاخرى تأتي على بقية الزراعة » . وتعمل التغطية في الارض الرطبة بجذع نخلة يجره ثوران لكن في مقابر المملكة القديمة (تي لوحة ٣) كانت هذه العملية تؤدّى بسوق الغنم او الخنازير التي تغرز الحبوب في الوحل مغطيّة اياها في الوقت نفسه.وكان الفلاح يشجع احياناً هذه الحيوانات على هذا العمل بترغيبها بحفنة حبوب في يده وطوراً يرغمها على ذلك بالعصى والسياط (تي لوحة ٣ — الشيخ سعيد لوحة ٨) . وقد نسب هيرودوتس هذه الطريقة الى اهالي الوجه البحري (٢— ٢٦)

اما عملية تغطية التقاوي في الارض الصلبة فكانت تؤدّى بتكرار الحرث (پاحرى) كما يستدل ايضاًمن نقوش واردة فوق محراث بمقبرة بالجيزة ترجمتها: «اضغط على المحراث لتغرز الحبوب في الارض» (دنكمايلر ٢—٥١) . وفي عهد الاسرة الثامنة عشرة انتشرت هذه الطريقة بين القوم فكانوا يحرّرون حدّ المحراث على الريشة القائمة بين كل شقين فيشطرها السلاح شطرين يغطي كل منهما الحبوب في الشق المجاور . ووردت على الآثار رسوم تبين استخدام العبيد في جرّ المحاريث للقيام بهذه العملية (پاحرى)

العلم يكشف عن

ضمائر المجرمين

النفوذ الى ضمير المجرم وحمله على الاعتراف بفعلته كانا ولا يزالان غرض المحاكمات الجنائية في العصور القديمة والعصور الحديثة على السواء . وقد كان المجرم يعرَّض في العصور القديمة لالوان من التعذيب يقشعرُّ لها الجسم لما تنطوي عليهِ من قساوة ووحشية ، ولا يزال بعض هذه الوسائل شائعاً في بعض البلدان بعد تعديله تعديلاً يسيراً . بل ان المجتمع الانساني نفسهُ لايكاد يصدِّق ان هناك وسائل لاستلال سرّ المجرم من بين شفتيهِ ، اشدَّ رأفة بهِ وافعل أثراً من وسائل التعذيب المشهورة . ولكن العلم اختطَّ طريقاً في ميدان ظنهُ الناس ممتنعاً على العلم ، فاستنبط العلماء اساليب جديدة ارأف بالمجرمين ، وهم ناس يتألمون ويتعذبون ، واهدى الى الغرض المقصود في أقصر وقت وعلى أيسر حال . ومع ان القوانين الجنائية ، لم تعترف بعدبهذه الاساليب ، نرى رؤساءَ دوائر التحقيق الجنائي يعتمدون عليها في بعض البلدان ، ويبلغون في الاعتماد عليها نتائج باهرة ، وهذا كفيل بأنهُ لا ينقضي وقت طويل عليها حتى تصبح سلاحاً مشروعاً من أسلحة رجال البوليس والنيابة

ولعلَّ أشهر هذه الاساليب العلمية الجديدة وأفعلها آلة تعرف باسم « بوليغراف كيلر » وهي آلة غرضها الكشف عن كذب المجرم وامترائهِ عند التحقيق . والمبدأ الذي بنيت عليهِ هذه الآلة هو قياس ضغط الدم . فهي لا تختلف في أركانها عن الجهاز الذي يستعمله الطبيب لقياس ضغط الدم عند مريض يخشى تصلُّب الشرايين . ولكن بدلاً من الابرة المتحركة في الجهاز الخاص بضغط الدم ، هناك ريشة ترسم خطًّا على ورقة منسابة من لفّة ورق متحركة . فيجلس المتهم وهذه الآلة ملفوفة على ذراعهِ ، فيوجهُ اليه الباحث الاسئلة في صوت طبيعي لا تجهُّم في وجههِ ولا تهديد في نبراتهِ . فيجيب عنها المتهم بما يراه ، وكلما أجاب كذباً ارتفع ضغط دمه وظهر أثر هذا الارتفاع في الخطّ الذي ترسمهُ الريشة على الورقة المنسابة

ولكنك قد تسأل : لماذا يرتفع ضغط الدم عند مايقول كذباً . او لماذا يؤخذ ضغط الدم دليلاً على ان المتهم يمتري في جوابهِ ؟ ان سرَّ الجواب عن هذا السؤال في التغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الجسم عند ما يكون متأثراً او منفعلاً انفعالاً عنيفاً . فالانسان اذا واجه خطراً ما ، استعدَّ جسمهُ من الوجهة الفسيولوجية لدفع الخطر ، فتطلق الكريات الحمر من الطحال الى مجرى الدم حيث تتصل بالمفرزات التي تفرزها الغدد الكلوية وغيرها من الغدد ، وغرضها جميعاً ان تبعث في الجسم

النشاط للكفاح او للفرار . فكأن أعضاء الجسم تبعث في الجسم نشاطاً غريباً عند ما يواجه خطراً يهدده . فينشأ من هذا كله زيادة خفقان القلب وارتفاع ضغط الدم في الشرايين

فاذا واجه الانسان خطراً ، متمثلاً في سؤالٍ موجهٍ اليهِ عن جريمة من الجرائم ، كان الأثر الاول الذي يحسّ بهِ الخوف من الكشف عن صلتهِ بتلك الجريمة ، لان هذا الكشف يفضي الى معاقبتهِ بالغرامة او بالسجن او بالتشهير او بالاعدام . فتستعدُّ جميع أجهزة جسمهِ للدفاع عن الجسم وهذا الدفاع يتخذ في هذه الحالة شكل محاولة التستر على فعلتهِ او الكذب في الردّ على السؤال

ولكن مهما يبرع المجرم في كَبْت انفعالهِ ، حتى لاتبدو آثاره في نظره وكلامهِ وحركاتهِ ، فانهُ لا يستطيع ان يمنع احتشاد قوى جسمهِ الداخلية لهذا الدفاع . وهذه الآلة الجديدة تستطيع ان تتبين أثر كل هذا في ضغط دمهِ ، فترى الريشة ترسم خطًّا متعرجاً شديد التعرُّج . عند ذلك يبادر المحقق اليهِ فيطلب منهُ ان يفسر هـذا التقلب الغريب في ضغط دمهِ كما يبدو في الخط المتعرّج على الورقة المنسابة . وفي ٧٥ في المائة من الحوادث ، ينصرف المتهم عن محاولة الانكار الى الاعتراف عند ما يرى الدليل الماديّ قائماً على انهُ يخفي شيئاً . فاذا أصرَّ على الانكار وجّهت اليهِ أسئلة اخرى متفرقة ومنوّعة ، ومن اثرها في ضغط دمهِ يستطيع الباحث ان يهتدي الى بيّنات تقوده الى الحقيقة ، فالآلة تبين صدق المتهم وكذبهُ . وقد جرّبت حتى الآن في ١٥٠٠ حادثة فأصابت فيها جميعاً

لم تدخل هذه الآلة الى الدوائر القضائية رسميًّا ولكنَّ طائفة كبيرة من البنوك والمنشآت العامة تستعملها لتتبيّن صغار المختلسين ومن اليهم من عمّالها وموظفيها . فقد استعمل احد بنوك شيكاغو « بوليغراف كيلر » هذا في امتحان ستة وخمسين من موظّفيهِ لاستكشاف من اختلس منهم مبلغ خمسة آلاف ريال ، فكشف عن الرجل ، ولما كشف عنهُ اعترف. واهتدى اصحاب البنك الى تسعة من الموظفين كانوا قد اختلسوا مبالغ يسيرة من المال لا علم للمديرين بها ، وهم يمتحنون الآن جميع الموظفين بهذه الآلة مرة كلَّ سنةٍ

وثمة طريقة اخرى استنبطها الاب سمرز احد اساتذة جامعة فوردهام الاميركية تدعى « سيكوغلفانومتر » اي المقياس الكهربائي النفسي . وهي مبنية على اساس كهربائي . فيمسك المتهم بقطعة معدنية بيدهِ ثم يسري في جسمهِ تيّار كهربائي ضعيف مستمدٌّ من بطرية واحدة . واذ يكون في هذه الحالة توجه اليهِ الاسئلة المطلوبة ، بعضها لا صلة لهُ بالموضوع المطلوب البحث فيهِ ، وبعضها لهُ صلة وثيقة بهِ . فاذا سئل سؤالاً لهُ صلة بالموضوع ، وكان على علم بذلك ، يحدث شيءٌ غريب في جسمهِ . فاذا كانت صلتهُ اجرامية حفزت غدد العرق فيهِ الى افراز العرق متأثرة باستعداد قواهُ الداخلية لدفع الخطر عن جسمهِ . وهذا العرق الذي يفرز قليل ، ولكنهُ كاف لتغشية القطعة المعدنية القابض عليها فتقلُّ مقاومتهُ للتيار الكهربائي الساري في جسمهِ ، فيظهر ذلك على جهاز خاص . ومن المستحيل ان تحتال على هذه الآلة لانهُ اذا رفض المتهم ان يجيب عن السؤال الموجّه

اليهِ ، يعجز عن السيطرة على غدد العرق فيهِ ، فلا يستطيع ان يمنعها من افراز عرقها ، فكأن افرازها صوت صارخ في وجههِ وشاهد على فعلتهِ

وقد ذهب احد الكتّاب العاميين الى الاب سمرز وطلب اليهِ ان يجرّب آلتهُ هذه فيهِ فجرّبها بان اتى بمجموعةٍ من ورق اللعب وطلب اليهِ ان يختار احدى ورقاتها وان يعيد الورقة الى المجموعة. ثم اختيرت تسع ورقات اخرى وضمّت الى هذه الورقة وعرضت على الكاتب، وسئل عن كل ورقة منها هل هي الورقة التي اختارها فاجاب « لا » على الورقات العشر . واعيدت هذه التجربة ثلاث مرات . وهو يجيب « لا » اجابة مطّردة . فدلّت الآلة على الورقة التي كذب في الاجابة عنها ، بزيادة سريان التيار الكهربائي في جسمهِ . واخيراً اعترف الكاتب بكذبهِ فقال لهُ الاب سمرز : اذا كان هذا مبلغ فعل الآلة ، في حالة الكذب عن ورقة لا شأن لها فكيف بها والمتهم يحاول ان يخفي جريمة او فعلةً شنعاء

وهناك طريقة ثالثة استنبطها الاستاذ كروسلاند وهي عبارة عن ساعة دقيقة لقياس اجزاء الثواني ، واسئلة توجه الى المتهم تحتوي على كلمات بعضها لا علاقة لها بموضوع البحث وبعضها لهُ علاقة وثيقة بالموضوع . وهذه الطريقة لا تكشف عن كذب الكاذب ، بل تكشف عن شعورهِ بالاثم الذي اقترفهُ . وقد جرّب الاستاذ كروسلاند طريقتهُ في سبع حوادث ، فحصل على اعتراف اصحابها جميعاً فاعترف خمسة منهم بالسرقة وواحد بالتزوير والخامس بالغش في الامتحانات

ولنفرض ان الوزر الذي نريد ان نبحثهُ هو سرقة محفظة تحتوي على عشرة جنيهات ، من جيب احد الموظفين في مكتب تجاري . فيؤتى بجميع موظفي المكتب وتتلى على كل منهم بحضور الآخرين قائمة من الكلمات فيما يلي : — شارع . لبن . محفظة . مجلة . مكتب . جيب . ثلاثة أمتار . محرر . حاسب . عشرة جنيهات . قلم وهكذا . فبعض هذه الكلمات لا صلة لهُ البتة بسرقة المحفظة. والبعض الآخر له صلة كل الصلة بها. ويطلب الى كل واحد ، ان يذكر اول كلمة تخطر على بالهِ عند ذكر كل كلمة من هذه الكلمات امامهُ على حدة . ولما كان الوقت السويّ الذي يجب ان ينقضي على ذكر الكلمة وذكر الكلمة التي تدعوها في ذهن المسؤول ثانيتين ونصف ثانية ، فكل تأخير عن هذه المدة يعني ان المسؤول يحاول ان يختار الكلمة التي يجيب بها ، بدلاً من ان يقول الكلمة التي تخطر لهُ بداهة ، او ان هناك اضطراب نفسي حملهُ على التأخر . وتعين المدد التي يستغرقها كل فرد في الاجابة بواسطة الساعة الدقيقة ، ثم يوضع جدول بها فيطلق سراح الابرياء وتعاد الكرة في سؤال الذين تقوى الشبهة عليهم . وقد استعملها الاستاذ مورتيمر احد اساتذة جامعة كولومبيا في فرقة مؤلفة من خمسين طالباً فلم تخطئ

وثمة طريقة اخرى مبنية على قاعدة بسيكولوجية تعرف باسم طريقة «حجرة المرايا» . فجدران هذه الحجرة مصنوعة من مرايا يجلس المتهم في وسطها وتوجه اليهِ الاسئلة من حجرة مجاورة عن طريق ثقب في

الجدار . وفي اثناء توجيه الاسئلة اليهِ ، تحولُ انوار الحجرة حتى يصير لونها ضارباً الى الخضرة . فينظر المتهم يميناً ويساراً فلا يرى الا وجهه في المرايا التي حولهُ وقد علاهُ لون شاحب كأنه ممتقع. فيظنُّ اذا كان مجرماً ، ان لون وجهه قد نمَّ عليهِ فيعترف في الغالب . وقد اصابت هذه الطريقة قسطاً كبيراً في النجاح في سؤال المجرمين العصبيين او الجهَّال . اما العصبيون فلأنهم يعجزون عن الصمود لسمة الاجرام تعلو وجوههم فيعترفون ، واما الجهال فلأنهم لايستطيعون ان يفهموا سرَّ هذا اللون فيقعون في فخهِ . ومن الآلات التي لم تتقن بعد آلة استنبطت لقياس سرعة التنفس وهي تستعمل في الغالب مع مقياس ضغط الدم المعروف باسم « پوليغراف كيلر »

ذكرنا حتى الآن الاساليب العلمية التي تمكن البحاث من تبيُّن الشعور بالاثم او بالاجرام . ولكن بعض علماء الاجرام يسلمون بان اتم هذه الوسائل قد لا يكفي لانتزاع الاعتراف بالجريمة من فم المجرم المجرَّب . ولذلك استنبط العلم لهذا الطراز من الجناة مركب « السكوبولامين » المعروف بمصل الحقيقة وهو دواءٌ يفعل فعلاً خفيًّا في الدماغ فيعترف المجرم بالحقيقة

والسكوبولامين هذا عقار مستخرج من السيكران او الحشيشة الفارسية اكتشفه الدكتور هوس R. E. House احد اطباء ولاية تكساس في عملية جراحية نسائية . فتبين لهُ انهُ يخدّر او يفعل فعلاً مخدراً في بعض مناطق الدماغ ، ولكنهُ لايضعف ذاكرة من يتناولهُ ولاسمعهُ ولا مقدرتهُ على النطق . وبعد موالاة البحث تبين انَّ منطقة الدماغ التي تتأثر بهِ هي المنطقة التي تمكننا من اختلاق الاقوال في سبيل الدفاع عن النفس . وكذلك كشف ان الانسان الذي يحقن بالسكوبولامين يظلُّ محتفظاً بجميع حواسهِ ولكنهُ يفقد المقدرة على الاختلاق والكذب

وقد جرَّبهُ العالم الاجرامي الاميركي المشهور — الكولونل كالفن غودرد — فتبين فعله العجيب . ذلك ان الكولونل غودرد طلب الى احد زملائهِ ان يردَّ على عشرين سؤالاً بسيطاً وجهها اليه . مثلاً : هل تلعب البردج ؟ هل تتكلم الفرنسية ؟ ثم حقن هذا الزميل حقنة تحت الجلد بجرعة من السكوبولامين ، فلما فعل العقار فعله في الجسم ، وجهت الاسئلة نفسها الى الرجل . فتبين انهُ كان صادقاً في ١٩ سؤالاً منها . واما السؤال العشرون فكان « هل قبض عليك لمخالفة ارتكبتها بسيارتك » ؟ فكان جواب اليقظة التامة عليه « لا » واما الجواب والرجل تحت فعل العقار فكان : « نعم لما كنت طالباً في المدرسة التجهيزية في فرجينيا » . ولما استيقظ وسئل عن هذا التناقض صرَّح انهُ كان قد نسي كل النسيان تلك الحادثة ، الى ان نبشها السكوبولامين من خبايا الذاكرة . وقد استعمل وكيل نيابة برمنغهام بولاية ألاباما هذه الحقنة في التوصل الى سر سلسلة من جنايات الاغتيال بلغ عددها خمساً وعشرين . فضبط عصابة مؤلفة من اثني عشر رجلاً واستعمل هذا العقار في الاهتداء الى حقيقتهم . ولما كانت المحكمة لا تسلّم بدليل من هذا القبيل اعتمد على الحقائق التي انتزعها منهم وهم تحت فعل العقار في الفوز باعتراف صريح منهم

فردريك وهلر

Friedrich Woehler

الكيماوي يباري الحياة

من نحو مائة سنة حدث حادث خطير، في معمل كيماويٍ الماني، كان لا يزال في العقد الثالث من عمرهِ. ذلك ان فردريك وهلر كان قد عاد حديثاً من استوكهلم عاصمة السويد حيث تتلمذ للكيماوي السويدي العظيم برزيليوس[1]. وفي خلال طلبه للعلم في المانيا والسويد كان قد سمع في الدوائر العلمية التي زارها، بحديث قوة حيوية خفية تتخلَّل الاجسام الحية، فحملهُ ذلك على التفكير. وها هوذا في منصبهِ الجديد، يدرّس في مدرسة التجارة الجديدة ببرلين، وفي ثنايا ذهنهِ فكرة، كأنها بذرة في تربة خصبة تستعدُّ للانتاش

كان الرأي السائد حينئذٍ، ان في اجسام النبات والحيوان، شعلة قوة حيوية خفية، تمكّن هذه الاجسام من بناء مركَّبات معقّدة كاصناف السكّر والنشاء والزلال، من مواد بسيطة التركيب، وان هذه القوة الخفية لا اثر لها في الجوامد. وكان الناس يعتقدون ان الموادَّ التي تتركب منها النباتات تختلف عن المواد التي تتركب منها الاجسام المعدنية في ان الاولى لا يمكن تركيبها تركيباً صناعيًّا في معامل الكيماويين. واذن كان من المستحيل في رأي ذلك العصر، على الانسان ان يجاري هذه القوة الحيوية في ابداعها. حتى لقد ظنَّ بعضهم ان هذه المركبات العضوية، لا تخضع لنواميس الكيمياء. ذلك كان رأي الدوائر العلمية في سنة ١٨٢٨

بل كان برزيليوس نفسهُ، قد اشار في بعض ما كتب وحاضر، الى الهوة التي لا يمكن ردمها بين المواد العضوية والموادّ غير العضوية. وكان ليوبولد جملين[2]، استاذ وهلر في جامعة هيدلبرج، ثابت اليقين في ان المواد العضوية لا يمكن تركيبها تركيباً صناعيًّا. ولكنَّ وهلر كان شابًّا وفي اندفاع الشباب شكٌّ في ما يقال. ولذلك فضَّل ان يجاري قول الكيماوي الفرنسي شفرول[3] في ان القول بوجود فارق مطلق غير قابل للتغيُّر مناقض لروح العلم. بل كان في قرارة ذهنهِ يعتقد ان عبارة «القوة الحيوية» ليست الاَّ ستاراً لما نجهل، وان التسليم بها تسليماً مطلقاً يعيق الكيمياء عن الارتقاء

---

(١) جونز جاكوب برزيليوس كيماوي سويدي Berzelius (١٧٧٩ — ١٨٤٨) (٢) ليوبولد جملين فرد من اسرة المانية كبيرة اشتهر رجالها بالكيمياء والطب. وكان هذا استاذ الكيمياء في جامعة هيدلبرج (١٧٨٨ — ١٨٥٣) (٣) كيماوي فرنسي (١٧٨٦ — ١٨٨٩)

فمضى وهلر يبحث ويجرّب في معمله ، وهو لا يكلّ ولا يملّ . وكأنهُ كان يقول في نفسهِ : آه لو تمكنت من تركيب احدى هذه المواد التي لم يؤثر تركيبها قبلاً الاّ في الجسم الحيّ! انهُ لو استطاع ذلك لضرب الفكرة السائدة ضربة قاضية ، اقوى من الضربة التي دالها لافوازيه[1] لفكرة الفلوجستون!

***

كان فردريك وهلر قد طالع مؤلفاً جديداً لشفرول اثبت فيهِ ان كثيراً من الادهان التي تتكوّن في أجسام النبات تماثل الادهان التي في أجسام الحيوان . وكذلك أزال الحاجز الفاصل بين النبات والحيوان من هذا القبيل . وكان ملمّاً بمباحث رول Rouelle[2] معلم لافوازيه في كيمياء أجسام الحيوان

كان الغرض الذي وضعهُ نصب عينيه جليلا أخّاذاً يستهوي الافئدة . فمضى يجرب تجربةً أثر تجربةٍ وهو لا يبلغ منها لبانةً ما . ولكنهُ مضى في تجاربهِ اربع سنوات متوالية . وفي ذات مساءٍ حدثت الاعجوبة!

تصوَّر دهش هذا الباحث الفتى ، وقد وقع بصره على مركّبٍ صنعهُ في انبيقٍ من مواد غير عضوية . هاهوذا يرى في انبيقهِ ما وزنهُ غرام من بلورات بيض مستطيلة كالابر ، كان رول معلم لافوازيه قد وجدها قبل خمسين سنة في البول ودعاها فوركروي « يوريا »[3] . لم يعرف من قبل انَ هذا الملح الابيض يمكن ان يركّب خارج الجسم الحيّ!

ولم يكن غريباً ان يتبين وهلر طبيعة هذه البلورات عند مشاهدتها . ذلك انهُ كان قد بدأ دراستهُ العلمية طالباً للطبّ . واذ كان يكتب رسالة عن نفايا الجسم في البول اتصل علمهُ «باليوريا»

فتحمس لما شاهد . بل أنهُ رأى نفسه بعين خياله واقفاً على عتبة عصر جديد في الكيمياء وقد قضى بتجربتهِ على نظرية جميلة ولكنها لا تقوم على أساس . انهُ ادرك في الحال ، انهُ كان أول من صنع مادة عضوية خارج الجسم الحي . فتمثل لنفسهِ الميادين الواسعة والآفاق الجديدة التي يمهّد السبيل اليها هذا المركّب الصناعي . ولكنهُ ظلّ محتفظاً برباطة جأشهِ لان معلمهُ برزيليوس كان قد حذّره من التعجل . فحلل المادة التي بين يديهِ ليتثبت من انها وبلورات اليوريا التي تركبها « القوة الحيوية الخفية » في الجسم ، شيءٌ واحد

فلما تثبت من ذلك كتب الى برزيليوس فقال : يجب عليّ ان انهي اليك انني استطيع ان اركب «اليوريا» من دون ان احتاج الى كليتي انسانٍ اوكلب» . فتحمس السويدي لهذا النبإ الخطير وأخذ يذيعهُ في الدوائر العلمية ، فسرَت رعشة كهربائية فيها . ولما تناهى النبأ الى شفرول رحّب بهِ أعظم ترحيب . ها هو ذا وهلر قد ركّب «اليوريا» من مواد غير عضوية . فماذا يمنعهُ او يمنع غيره من العلماءِ ان يركبوا السكّر او الزلال او حتى البروتوبلاسمة نفسها أساس الحياة العروي؟ ولكن دعاة

---

(١) كيماوي فرنسي قتل في الثورة الفرنسية (١٧٤٣ — ١٧٩٤) (٢) كيماوي فرنسي (١٧٠٣ — ١٧٧٠) (٣) مادة بيضاء يمكن بلورتها توجد في البول والدم واللمفا . وهي المادة النتروجينية الرئيسية في البول

المذهب «الحيوي» اعترضوا على كل ذلك ، فقالوا لعلَّ «اليوريا» مادة متوسطة بين المواد العضوية والمواد غير العضوية . ثم ان تركيب اليوريا يقتضي استعمال الامونيا . والأمونيا من أصل حيوي. فانكار القوة الحيوية خطأٌ ، لانها كامنة في الأمونيا التي صنعت « اليوريا » منها . ولكن همس الحيويين ضاع بين صيحات التهليل المرتفعة من كل حدب وصوب ، بأن عصراً جديداً قد أهلَّ على عالم الكيمياءِ

نشر وهلر مذكرتهُ عن تركيب اليوريا سنة ١٨٢٨ وبعد انقضاء قرن كامل عليها ، فاز الاستاذ بيكته Pictet وهانز ڤوغل من اساتذة جامعة جنيف بتركيب سكر القصب . فأخذ بيكته الايدروجين وثاني اكسيد الكربون وصنع منهما الكحول الخشب ثم حوَّل هذا الالكحول الى مادة الفورملدهيْد [1] ، ومن هذه المادة استخرج الغلوكوز ومن الغلوكوز [2] استخرج السكروز وهو قصب السكر . فلما تمَّ لهُ ذلك كان قد انقضى نصف قرن والعلماءُ يبحثون عن اسلوب لصنع قصب السكر بالتركيب الصناعي

كان السر جيمز كولوهون ارڤين وكيل جامعة سانت اندروز الاسكتلندية قد قضى عشرين سنة يعالج هذا الموضوع وكاد يفوز ببغيتهِ . فلما اتاهُ نبأ فوز بيكته قال لتلاميذه . « يؤسفني ان لا يكون هذا التركيب قد تمَّ في معامل جامعتنا . ولكن يسرُّني ان يحوز بيكته هذا الفخر . انهُ لنصرٌ عظيم ، وانهُ لخطوة كبيرة في الكيمياء العضوية والكيمياء الحيوية»

ما احفل القرن الذي انقضى بين « يوريا » وهلر « وسكروز » بيكته ، بالعجائب ! لقد تمَّ تركيب ٤٠٠ الف مركب جديد في هذا الفرع من الكيمياءِ ، والعلماءُ يضيفون اليها ما متوسطه ٤٠٠٠ مركب جديد كل سنة !

***

ولد فردريك وهلر في مستهل القرن التاسع عشر على مقربة من مدينة «فرنكفورت اون ماين» وكان والدهُ اوغست متفقهاً في العلم والفلسفة . فتلقى فردريك مبادىء العلم من والدهِ ، فحبب اليهِ درس الطبيعة ونشَّأهُ على الميل الى الرسم وجمع نماذج من المعادن . فكان فردريك يتبادل مع رفاق صباه نماذج المعادن كما يتبادل بعضهم طوابع البريد . وحافظ على هذه الخطة مدى حياتهِ . وقد لقي بفضلها غوته في شيخوختهِ اذ كان الشاعر العظيم يفحص بعض حجارة معدنية في دكان بفرنكفورت يختلف اليهِ وهلر

ثم ما لبث ان اضاف الكيمياء الى الامور التي يهوى متابعتها . واتصل عن طريق ابيهِ بصديق للاسرة يملك خزانة كتب غنية ومعملاً كيماويًّا خاصًّا ، فاذن لهُ في ان يختلف الى الخزانة المطالعة

(١) غاز مركب من الكربون الايدروجين والاكسجين (ك يد ٢ اك) يصلح للتطهير محلوله سائل طيار لا لون له
(٢) سكر العنب ويوجد في الدم واللمفا وفي بول المصابين بداء السكر

والى المعمل لتجربة التجارب . فبنى اعمدة كهربائية ڤولطائية من الواح من الخارصيني (الزنك) وبعض النقود الروسية النحاسية التي جمعها . واهدى اليهِ مدير ادارة سك النقود بالمانيا ، فرناً ليستعمله في تجاربهِ فخرق اصابعهُ بالفصفور مرة ، وكاد يقضى عليهِ مرة اخرى لما تحطم بين يديه وعاء زجاجي يحتوي على غاز الكلور السام

بعد ذلك ذهب الى جامعة ماربورغ حيث تلقى ابوهُ العلم. فانتظم في سلك طلاب الطب ونال جائزة على رسالة وضعها في «نفايا البول» . ومما يؤثر عنهُ انهُ جرَّب تجارب خطيرة في كلبهِ وفي نفسه وهو معنيٌّ باعداد تلك الرسالة . ولكن الكيمياء كانت لا تزال الموضوع الذي فتن لبَّهُ . فابتنى معملاً كيمائياً صغيراً خاصاً بهِ ، وحضَّر فيهِ «يودور السيانوجن» فكان اول من حضَّرهُ . فلما جاء بهذا المركَّب الى استاذه ڤرزر أنَّبهُ لانهُ يضيع وقته في التجارب الكهربائية بدلاً من الانصراف الى دروسهِ الطبية . فامتعض الفتى لهذا التأنيب ولم يحضر بعد ذلك محاضرات استاذهِ

وكان في جامعة هيدلبرج عالم مشهور يدعى ليوبولد جملين Gmelin فرغب في ان يتلقى العلم عليهِ، فانتظم في جامعة هيدلبرج حيث اتمَّ دروسهُ الطبية ونال شهادتهُ فيها ، واعدَّ معداتهِ لزيارة اشهر المستشفيات في عواصم اوربا قبل ممارسة صناعة الطب . ولكن جملين كان قد راقبهُ يجرّب التجارب في المعمل الكيمائي . فقال لهُ في احد الايام انهُ من العبث ان يحضر دروسهُ لان البحث في المعمل الكيمائي اجدى عليهِ . ولما قدَّم التلميذ لمعلمهِ رسالتهُ في تحضير « الحامض السيانيك » قرأها هذا معجباً بها ولكنهُ لم يخطر لهُ حينئذٍ ان هذه الرسالة ستفضي بعد بضع سنوات الى تركيب اليوريا فتفتح عهداً جديداً في علم الكيمياءِ . بيد ان جملين عزم حينئذٍ ان ينظم وهلر في سلك خدمة الكيمياء . فحدَّثهُ في الموضوع باسطاً ما في عمل الكيماوي من اللذة . وكان وهلر لايحتاج الى بلاغة للاقتناع بذلك لانهُ كثيراً ما أُغري بترك الطب لكي يتفرغ لدراسة اسرارها . وذكر لهُ استاذهُ اسم برزيليوس وما احرزهُ من شهرة في دوائر اوربا العلمية . فتحمَّس وهلر ، على امل ان يقبلهُ برزيليوس فيعداد تلاميذه ومساعديه . فكتب الالماني الى السويدي في ذلك فردَّ برزيليوس وفي ردِّهِ تتجلى وداعة العلماءِ الحقيقية فقال : « ان من درس الكيمياءِ على جملين قلما يستطيع ان يتعلم مني شيئاً . ولكنني ارغب في معرفتك فتعال متى شئت» . فطرب وهلر لذلك . وخفَّ الى استاذه ليطلعهُ على كتاب برزيليوس وشرع لدقيقته يعدُّ المعدات للسفر الى عاصمة السويد

فلما وصل الى ثغر لوبك على بحر البلطيق قيل لهُ ان لابد من الانتظار ستة اسابيع قبل اقلاع السفينة الى استوكهلم فضاق صدرهُ بذلك ، ولكنهُ تمكن بواسطة صديق له كان يتبادل واياه نماذج المعادن،من الاتصال بمعمل كيمائي هناك حيث حاول ان يكشف اسلوباً متقناً لتحضير مقادير كبيرة من البوتاسيوم وهو العنصر الذي كان السر همفري دايفي [1] قد استفردهُ قبيل ذلك

(١) كيماوي بريطاني (١٧٧٨ — ١٨٢٩)

ولما نزل من الباخرة الى البرّ السويدي ، وعرف مأمور الجوازات انهُ قادم من المانيا لتلقي العلم على برزيليوس رفض ان يأخذ منهُ الرسم المألوف وقال : «ان احترامي للعلم ولمواطني الممتاز يأبى عليَّ ان آخذ مالاً من رجل حمله حبهُ للعلم ان يرحل هذه الرحلة الشاقة للدرس عليهِ »

وصل الى استوكهلم ليلاً ، فما صدّق ان طلع الصباح حتى هرع الى بيت برزيليوس . قال : «وفي الصباح وقفت وقلبي خافق امام بابه اقرع جرسه ، ففتح لي الباب رجل سمينٌ قوي البنية ، وكان الفاتح برزيليوس نفسهُ فلما تقدمني الى معملهِ تصورّت انني في حلم »

وفي الحال اعطى الاستاذ تلميذه الجديد بوتقة من البلاتين ، وزجاجة ، وميزاناً ، وعهد اليهِ في دراسة بعض المعادن . فلما تعجل وهلر في العودة الى استاذه ليطلعه على النتائج التي حصل عليها قال لهُ الاستاذ محذراً « اسرعت يا دكتور ولكنك لم تُجِـد » . فلم ينسَ وهلر هذا التحذير طول حياتهِ . وبعد تحليل المعادن عاد فعني بالحامض السيانيك فحضر منهُ « سيانات الفضة »

كان في خلال ذلك الوقت شابٌّ الماني آخر يدعى ليبغ ، منتظماً في معمل غاي لوساك[1] الكيمائي بباريس ، ومنصرفاً الى البحث في المفرقعات الكيمائية

وفي خلال بحثهِ ركّب مادة كيماوية غريبة كانت العناصر التي ركبت منها هذه المادة نفس العناصر التي ركبت منها مادة « سيانات الفضة » التي ركّبها وهلر وفي نفس المقادير . ولكن مركّب ليبغ كان يختلف في خواصهِ الطبيعية والكيمائية عن مركّب وهلر . فظنّ اولاً ان وهلر على خطإٍ في ما قال ، ولكنهُ بعد الامتحان الدقيق ثبت لهُ انهُ ووهلر على صواب . فكتب اليهِ في ذلك مستطلعاً رأيهُ ، فسأل وهلر استاذهُ برزيليوس ، فكان هذا السؤال مهداً للكشف عن ظاهرة « الايسومتري » في الكيمياء وهي ما يمكن ترجمتهُ « بظاهرة النظائر » اي المواد الكيماوية التي تتشابه تركيباً كيماويًّا ولكنها تختلف في خواصّها

وقد اجتمع وهلر وليبغ بعد عودتهما الى المانيا وتوثّقت اواصر الصداقة بينهما ، وكثيراً ما كانا يجتمعان ويتناقشان في الموضوعات الكيمائية التي تدور عليها بحوثهما ، واشتركا في بحث بعض المسائل واصدرا مذكرات علمية باسميهما معاً . وبلغ الاخاء العلمي بينهما اعلى ما يمكن ان يبلغهُ الاخاء الحقيقي ، فلم يضنّ ليبغ على صديقهِ باسناد كل الفضل اليهِ في جميع بحوثهما المشتركة . قال : « يعود الفضل في بحثنا الحامض البوليك وزيت اللوز المرّ اليهِ . سرنا معاً يدي بيده ، لا غيرة ولا حسد . وكثير من الرسائل التي حملت اسميْنا معاً كانت من عملهِ وحده »

وفي ١٨٣٠ توفّيت زوجة وهلر ، بعد انقضاء سنتين على زواجهما . فحزن حزناً شديداً حتى ظنّ ان حزنهُ قد يحول دون مضيهِ في بحوثهِ . ولكنهُ ما لبث ان وجد في معمل صديقهِ ليبغ بلسماً لجرحه . فاكبَّا معاً على بحث زيت اللوز المرّ ، وبعض المركّبات المؤلفة من كربون وايدروجين

(١) كيماوي فرنسي (١٧٧٨ — ١٨٥٠)

واكسجين ، واتجها خاصة الى درس خاصتها الغريبة وهي انها لا تتغيَّر بتغيُّر المواد التي تدخل هي في تركيبها . فأطلقا عليها اسم «بنزويلات» (جمع بنزويل Benzoyl) فلما قرأ برزيليوس بحثهما هذا رأى انهُ فجر يوم جديد في علم الكيمياء فأطلق على هذه الطائفة من المواد اسم برويننات (جمع بروين Proin) ومعنى اللفظ المفرد « الفجر »

بعد ذلك عاد وهلر الى مسقط رأسهِ ، حيث تزوَّج ثانياً ، ولكن شهرته كانت قد ذاعت فلما توفي الاستاذ « شترومير » كاشف عنصر الكدميوم ، اختير وهلر ليحلَّ محلَّهُ استاذاً للكيمياء في جامعة غوتنجن . وكان ليبغ من الذين ذكروا لهذا المنصب ، فلما عيِّن صديقهُ فيهِ بعث اليهِ بتهنئة حارَّة

وشيَّد وهلر في غوتنجن معملاً كيمائيًّا كبيراً ، فطارت شهرته في جميع الآفاق ، وهرع طلاَّب الكيمياءِ الى تلقي العلم عليهِ . ومن هؤلاءِ اميركيٌّ يدعى جوت Jewtt استاذ الكيمياء في كلية اوبرلين الاميركية . فلما عاد جوت الى اميركا حمل معهُ نبأ الكشف عن معدن الالومنيوم الفضيّ الخفيف الوزن . وكان جوت يميل الى التحدُّث مع طلاَّبهِ عن هذا العنصر العجيب ، والمقادير الكبيرة منهُ في صخور الارض ، والثروة العظيمة التي يمكن جنيها من استنباط وسيلة رخيصة لتحضيره . واذ كان يقول هذا القول في أحد الايام، لغز أحد الطلاَّب رفيقهُ وقال : «سوف يكون تحضير الالومنيوم بغيتي» . كان هذا الطالب تشارلز مارتن هول . وفي ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٦ أتى الفتى هول الى استاذهِ بحبةٍ من معدن الالومنيوم المحضر بطريقة كهربائية رخيصة كان قد استنبطها . فكان ذلك مفتتح استعمال معدن الالومنيوم في مئات الاغراض الصناعية ، وجنى هول الثروة العظيمة التي تنبأ بها استاذه جوت ووهب مليوني جنيه منها في وصيتهِ ، للمعاهد الاميركية في الشرق الادنى

وكذلك ربط سلك العلم بين وهلر الألماني وطلاَّب العلم في الشرق الادنى ، عن طريق جوت وهول الاميركيين !

ومن الغريب ان ليبغ ووهلر انصرفا عن ميدان العلم الجديد الذي فتحاه ، بعد ان أحرزا انتصاراتهما العظيمة الاولى . فاتجه ليبغ الى كيمياءِ الزراعة وتبعهُ في ذلك السر جون لوز الكيماوي الزراعي البريطاني ، واسس محطة روثامستد للتجارب الزراعية ، وهي اشهر محطة في العالم من هذا القبيل . وانصرف وهلر الى دراسة المعادن التي استهوتهُ في حداثتهِ فاستفرد البريليوم والاتربوم بعد استفراده الالومنيوم في صباه . وكاد يكشف الفناديوم ولكن الباحث سفستروم سبقه اليهِ فكتب اليهِ برزيليوس في هذا الصدد « . . . ان الكيماوي الذي استنبط طريقة لصنع مادة عضوية لم تصنع قبلاً الاَّ في جسم حيّ ، يسهل عليهِ ان يتنازل عن شرف السبق الى كشف عنصر جديد . فمن المستطاع كشف عشرة عناصر جديدة من دون الاحتياج الى ذرة من العبقرية »

وفي خلال ذلك كانت الكيمياء العضوية تسير بخطوات الجبَّار الى الامام . فذهب مرسيلان

برتيلو الفرنسي الى النملة وتعلّم سرها ، اذ ركّب في معمله الحامض النمليك formic acid وهو من المواد العضوية. وحضر كولب[١] Kolbe الحامض النمليك من دون الاستعانة بالبكتيريا التي تحدث التحميض الخلي. وصنع بركن[٢] الانكليزي صبغ « الموف » فكان الاول في سلسلة من الاصباغ العجيبة المستخرجة من قطران الفحم الحجري . وكشف كيكوله[٣] عن تركيب البنزين . ونفذ فون باير الالماني الى سر الصبغ النيلي فركبهُ تركيباً صناعيًّا ولما شرعت شركة الباديش في صنعهِ صنعاً تجاريًّا قضت على زراعة النيلة في الهند

واطرد هذا التقدُّم واتسع بعد وفاة وهلر في سنة ١٨٨٢ . بل ان وهلر عاش حتى شاهد بام عينيهِ بعض العجائب في تركيب المواد العضوية التي تلت التركيب « اليوريا ». وحديث هذا التقدم شبيه بصفحات منتزعة من غرائب الف ليلة وليلة . ففي المانيا قام اميل فشر ، بعد ان رفض العمل في تجارة الحطب بحسب طلب ابيهِ ، وركب عشرات من المواد العضوية المعقدة في معملهِ الكيمائي. وقد كتب فشر عند ما فاز بجائزة نوبل الكيمائية ، معرباً عن اسفهِ ان والدهُ لم يعش ليرى ابنهُ الخيالي ، فائزاً بهذه الجائزة

وفي سنة ١٩١٠ عرض كيماوي الماني في نيويورك نموذجاً من « مطاط » ركبهُ تركيباً صناعيًّا ولكن صنع المطاط صنعاً تجاريًّا لم يتمّ بعد . ولا تزال الجائزة التي عرضتها حكومة السوفيت في سنة ١٩٢٨ لمن يستنبط طريقة تجارية لصنع « المطاط » بالتركيب الصناعي ، محفوظةً في خزينتها

ولم يحجم الكيماويون العضويون عن التقدُّم الى مجاراة الاعضاءِ الحية في تركيب مفرزاتها. فدرسوا مفرزات بعض الغدد الصم وركبوا الابينفرين (الادرينالين) سنة ١٩٠٦ والثيروكسين (افراز الغدة الدرقية) من قطران الفحم الحجري ، والانسولين (افراز الغدة الحلوة البنكرياس) الذي كشفهُ بانتنغ ومكلود في جامعة تورنتو سنة ١٩٢٢ وعشرات بل مئات من العقاقير الجديدة التي كان صنعها وقفاً على اجسام الحيوان والنبات

ان العقل ليقف حائراً امام مبدعات الكيمياء العضوية . فقد كانت الكيمياء قبل وهلر وخلال حياتهِ وبعيدها وصيفة الصناعة ، فاصبحت سيدة الطب ، وقد تكون سبيلنا للنفوذ الى سر النمو بل وسر الحياة نفسها

وقد توفي وهلر في السنة الثالثة والثمانين من عمرهِ ، بعد مرض دام ثلاثة ايام فدفن في غوتنجن ، ونقش على قبرهِ ، وفقاً لرغبته هذه الكلمات : « فردريك وهلر : ولد في ٣١ يوليو سنة ١٨٠٠ وتوفي في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ » . وقد كان مصاب العلم في تلك السنة مزدوجاً لان تشارلز دارون صاحب مذهب النشوءِ والتطوُّر كان قد سبق وهلر الى دار البقاء قبل خمسة اشهر

(١) كيماوي الماني (١٨١٨ — ١٨٩٤) (٢) كيماوي انكليزي (١٨٣٨ — ١٩٠٧)
(٣) كيماوي الماني (١٨٢٩ — ١٨٩٦)

محاكمة ماتا هاري

الجاسوسة الكبيرة تواجه المحكمة العسكرية الفرنسية

فصل من تاريخ التجسس في الحرب الكبرى

لعل « ماتا هاري » أشهر جواسيس الحرب الكبرى على الاطلاق . بل هي حتماً أشهر الجواسيس الذين كشف أمرهم وحوكموا واعدموا . ولدت في هولندا سنة ١٨٧٦ وبدأت حياتها العملية راقصة في باريس . وكانت ترقص في احد مسارح برلين قبيل الحرب الكبرى لما انتظمت في سلك التجسس الالماني ووسمت برقم (H 21) والراجح ان أشهر فعالها تنكرها بلباس ممرضة في الصليب الاحمر وذهابها الى فيتل حيث اتصلت بطياري الحلفاء وانتزعت منهم أنباء عن الطرق التي كانوا يعمدون اليها في انزال جواسيس الحلفاء وراء خطوط الالمان . ثم أصبحت حظية بعض الضباط الفرنسيين في باريس فاطلعت بواسطتهم على المعدات التي يعدها الحلفاء لهجوم كبير على الجبهة الغربية . ثم كشف الجواسيس الفرنسيون انها استعملت بريد السفارة الهولندية الدبلوماسي لارسال معلومات الى رؤسائها الالمان . وبعد ذلك طلب اليها ان تكشف اسماء جواسيس الحلفاء في البلجيك فاقدمت بجرأة نادرة على ان تنتظم في سلك التجسس الفرنسي وطلبت ان تتصل بجواسيس فرنسا في البلجيك ، فأعطيت قائمه فيها اثنا عشر اسماً لم يكن الا واحد منهم جاسوسا فرنسياً . فلم تنقض الا ثلاثة أسابيع حتى قبض على هذا الرجل واعدم رمياً بالرصاص . وفي خلال ذلك كانت قد غادرت فرنسا الى انكلترا ناوية ان تذهب الى هولندا ولكن البوليس الانكليزي وضعها على باخرة مسافرة الى اسبانيا فأصبحت في مدريد حظية الملازم فون كرون رئيس الجواسيس الالمان في عاصمة اسبانيا . ولكن رؤساءها أمروها بالعودة الى باريس . ولما كانت في حاجة الى المال بعث فون كرون برقية لاسلكية الى امستردام يطلب فيها ان يرسل الى (H 21) مبلغ ١٥ الف فرنك بواسطة السفارة الهولندية في باريس . فالتقطت هذه البرقية وحلت رموزها ولما وصلت ماتا هاري الى باريس قبض عليها وحوكمت وحكم عليها بالاعدام ، وفيما يلي وصف المحاكمة . وقد اودعت بعض حوادث حياتها فلماً مثلته جريتا جاربو

... واخيراً ازف الوقت لتقديم ماتا هاري للمحكمة العسكرية لمحاسبتها على فعالها . وكانت المحكمة مؤلفة من ضبّاطٍ فرنسيين كانوا اخوان الضباط والجنود الذين ساقتهم الى الموت الزؤام بما افشت من اسرار حركاتهم العسكرية لقيادة الجيش الالماني . في هذه المحاكمة كشفت ماتا هاري عن عقلها وروحها كما كانت تكشف عن جسدها في ابهاءِ الرقص في الحواضر الاوربية . وكان لا ندحة عن ان تسبقها شهرتها الى منصّة القضاء ، لان بعض قضاتها سمع بها حتماً اذ كانت كوكباً متألقاً على مسارح الرقص حيث اشتهرت بانها امرأة لا تقيم وزناً لاحكام الشرف والفضيلة . ولا ريب في انهم احسّوا بسحر انوثتها كما احسّ بهِ غيرهم من الرجال الذين انقادوا لها ، والراجح ان كلاًّ منهم تعجّب في ما بينهُ وبين ذات نفسهِ ، سائلاً اي المقادير ساقت هذه المرأة الفتانة الى الانتظام في سلك التجسس . بيدَ ان

ظلال التفكير التي تقيم وزناً للاعتبارات الادبية في سلوك الانسان لم يُقَمْ لها وزن في محاكمتها .
فاعضاء هذه المحكمة كان يهمهم ان يصلوا الى حقائق حياتهـا وصلة تلك الحقائق بمتابعة الحرب
واحراز النصر فكان هذا ديدنهم في استطلاع خفاياها

ولا يظننَّ احد ان قضاتها وقفوا منها موقف الظالم المستبدِّ ، لما تناهى اليهم من انباء فعالهـا
في التجسُّس على فرنسا لحساب المانيا ، فعاملوها في خلال المحاكمة معاملة قائمة على كرم النفس وادب
السلوك . فاذا رأيت في خلال وصف المحاكمة انهم وجَّهوا اليها اسئلة تتعلَّق بحياتها الخاصة وعلاقتها
بالرجال الذين فتنوا بها ، فاذكر انها اختارت ان تبني دفاعها على كونها امرأة حظيَّة . ولكن القائمين
بالبحث لم يسمحوا الحائلِ ما ان يحول بينهم وبين الحقيقة ، وانما لسنا نجد فيما كتب عنها ، قولاً
واحداً يؤخذ منهُ ، ان ماتا هاري او المحامي عنها ، احتجَّا في خلال المحاكمة على ان القضاة والبحَّاث
حادوا عن جادَّة العدل . نعم انها توسَّلت الى قضاتها في بعض ادوار المحاكمة ، ولكنهُ كان توسل
سيّدة تطلب ان تعامل كسيدة لا كجاسوسة . وقد أثار مورنيه Mornay — السيف المصلت في خلال
الحرب فوق رؤوس الجواسيس — غضبها احياناً ولكن ثورتها جاءت من ادراكها انهُ استروح الحقيقة
التي حاولت اخفاءها في كلام غامض فاهت بهِ ، لا من اتسام اساليبهِ بروح الظلم والعدوان

وكان قد تقدم للدفاع عنها الاستاذ كلونه Clunet وهو من كبار المحامين الفرنسيين وقد تعدَّت
شهرته حدود بلادهِ . طلب الاستاذ كلونه ان يعهد اليه في الدفاع عنها . وكان هذا غير مألوفٍ في
محاكمات الجواسيس . اذ قلما فاز جاسوس بمحام كبير من طبقة كلونه في الدفاع عنه . ولكن لاسباب
خاصة قبل طلبه . فقد كان كلونه رجلاً كيساً على اساريره جلال الشيخوخة ، ويعلو رأسه شيبة
صالحة ، وعلى صدره وسام الحرب السبعينية . فكان كل ذلك من البواعث التي تحمل المحكمة
العسكرية على احترامهِ . ثم ان كلونه كان قد عشق ماتا هاري ، لما كانت في اوج عزها وجمالها .
وظلت الصلة بينهما صلة وثيقة بضع سنوات متوالية ، فهذه الصلة القديمة بين المحامي وموكلتهِ ومقام
الرجل في سلك المحاماة يضمنان لموكلته ابرع دفاع يستطيعهُ محام على الاطلاق

جلست المحكمة العسكرية الثالثة ، في دار محكمة الجنايات . وكان الرئيس جنديًّا قديماً محترماً ،
يدعى الكولونل سمبزون ، رئيس الحرس الجمهوري سابقاً . وعقدت الجلسات في غرفةٍ مقفلة
الابواب لان طبيعة الاقوال التي قيلت في الاتهام والدفاع ، كانت تقتضي بقاءها في طي الكتمان .
حتى حراس حجرة المحكمة لم يسمح لهم بالدنو منها . ولم تحتوِ الحجرة الاَّ على اعضاء المحكمة وممثل
الاتهام والمحامي كلونه وضابط آخر وحارس المتهمة ، وهذا بحكم الطبع علاوة على الشهود الذين
دخلوا الى حرم المحكمة لسماع اقوالهم

اما ذلك « الضابط الآخر » ، فكان الكولونل ماسار Massard من ضباط اركان الحرب . ومعظم
الحقائق عن محاكمة ماتا هاري منتزعة من كتابه الذي عنوانه « جواسيس باريس »

هنا في حجرة بعيد عن صخب الحياة الباريسية ، وقفت ماتا هاري تواجه التهم الموجهة اليها بأنها كانت على «صلة اخبارية بالعدو» : وهذه العبارة هي العبارة الرسمية التي يراد بها «التجسس». ويقول الكولونل ماسار ، انها وقفت هناك طويلة القامة نحيفتها ، زرقاء العينين نجلاويهما ، انيقة الثوب والقبعة ، ولكن شفتيها كانت تعلوهما بسمة ترفع وسخرية وفي عينيها قساوة لا تحد . على ان الكولونل ماسار لم يأخذ بقولهم انها امرأة فاتنة ، بل وصفها بقوله انها كانت المانية قلباً وقالباً

بيد ان كلّ من رآها ، اعجب بالحزم والثبات اللذين قابلت بهما قضاتها ، والذكاء الخارق الذي كشفت عنهُ في اقوالها وردودها . فقد كانت تملك جواباً جاهزاً لكل سؤال . فكانت تسلّم بكل ما تتهم بهِ من الفعال ، ولا تنكر الاّ ما تتهم بهِ من البواعث التي حملتها عليها. ولما شبّهت «بمسالينا»(١) لم تتر ثائرتها ، بل باهت باستسلامها للشهوة . سلّمت بانها حظية . ولكنها انكرت انها جاسوسة . ذلك كان خطة دفاعها . وتمسّكت بهذه الخطة الى نهاية المحاكمة . اما تصرّفها تصرفاً يحيط بهِ الغموض ويثير الريب في بعض الاحيان فسببهُ — بحسب قولها — انهُ كان محتوماً عليها اخفاء شخصيات الرجال الذين كانوا من عشاقها . فماتا هاري لم تكن صريحة وحسب . بل كانت تفاخر بان عشاقها من اصحاب اكبر المقامات في فرنسا ، وانهم كانوا كراماً واسخياء في معاملتها

— قال رئيس المحكمة : في اليوم الذي شهرت فيهِ الحرب الكبرى تناولتِ طعام الغداء مع مدير بوليس برلين وبعد ذلك صحبتهِ في جولة في المدينة حيث حيتكما الجماهير

— فقالت ماتا هاري: هذا صحيح . وفسّرتهُ بقولها ان مدير البوليس كان قد جاء الى المسرح لشأن خاص بثوب الرقص لان ثوبها هذا كان يكشف من الجسد اكثر مما تسمح بهِ القوانين

— فاستأنف الرئيس : وبعيد ذلك انتظمت في قلم الاستخبارات الالماني . فارسلك رئيس ذلك القلم في مهمة سرية الى باريس واعطاك ٣٠ الف مارك ووسمك بالرمز (H21)

— فقالت: الواقع انني اعطيت اسماً رمزيّاً لاستعمله في مراسلاتي مع صديقي. ولكن الثلاثين الفاً من الماركات لم تكن اجري كجاسوسة ، بل هدية لي كحظية رئيس قلم الاستخبارات الذي تشير اليهِ

— نحن نعلم ذلك . ولكن يظهر ان سخاء هذا الضابط كان فوق ما يتوقع

— ثلاثون الف مارك ! أهذا ما تدعونهُ سخاء؟ ان عشاقي قلما اهدوا اليّ مبلغاً اقلّ من ذلك

ولكنها ناقضت نفسها بنفسها حين سئلت في موضوع تراسلها مع الاعداء . وغرضها من ذلك ان تستفيد من اقوالها المختلفة في تطبيقها على الاحوال المختلفة التي تعرض لها . ثم شدّد الرئيس الوطأة عليها عند ما اتهمها ، بانها تنكرت بلباس ممرضة وانتزعت من الضباط الفرنسيين كيف ينزلون الجواسيس الفرنسيين وراء الخطوط الالمانية

— الواقع انني كنت أراسل مع عشيقي الذي كان قد انتقل من برلين الى امستردام . وليس

(١) الزوجة الثالثة للامبراطور كلوديوس اشتهرت بالفسق والطموح والتسلط على زوجها وقد أعدمت

الذنب ذنبي في انهُ كان رئيس قلم الاستخبارات الالماني . اما أنا فلم أبعث اليهِ شيء مما تقول

— لما كنتِ في جبهة الحرب ، اتصل بعلمك نبأ معدات تُعدّ لهجوم كبير

— علمت من بعض الضباط أصدقائي ان معدات تعد . ولكن لو أردتُ إنباء الالمان بذلك لما استطعت . فأنا لم أنذرهم بما كان واقعاً لانني لم استطع الى ذلك سبيلاً

وقد كان قولها غريباً في بابهِ ، بعد ان صرّحت قبيل ذلك بأنها كانت متصلة بالمراسلة بمدير قلم الاستخبارات الالماني . ولكن الواجب والكذب في نظرها كانا مترادفين . فهذا التناقض لم يكن ذا خطر في نظرها ، ولعلها ظنت انهُ لم يكن ذا خطر في نظر قضاتها ، فأخطأها الظنُّ . بعد ذلك نظر اليها الرئيس ، وهو يعلم انهُ اوشك ان يصل في التحقيق الى الادلة القاطعة فسألها في شيء كثير من الاهتمام عن تراسلها مع ابنتها عن طريق البريد الدبلوماسي الخاص بسفارة دولة محايدة في باريس

فقالت : اسلّم بأني كتبت . ولكنني لم اضمن كتبي انباءً ما عن شؤون عسكرية

الرئيس : ولكن عندنا الدليل على انك ضمنتها تلك الانباء : بل ونعلم الى من بعثت بها

كان في هذه العبارة أول اشارة الى مدى ما يعلمه البوليس الفرنسي عن فعالها . فشحب لونها ولم تحاول ان تفيض في نزاهة البواعث التي حملتها على ذلك . ثم سئلت عن البواعث التي بعثتها على التطوع في خدمة قلم الاستخبارات الفرنسي ، فدلت أجوبتها على انها لم تجد رادعاً من نفسها لخيانة أصدقائها سواءٌ اكانوا ألماناً او فرنسيين . قالت : لست أجد ما يستغرب في عرضي ان اخدم فرنسا. وقد كانت صلاتي الخاصة مما يمكنني من هذه الخدمة . وعلاوة على ذلك كنت في حاجة الى المال .

فقال الملازم مورني : ولكن أصدقاءك بعثوا اليك بعشرة آلاف مارك عن طريق سفارة دولة محايدة .

فقالت : كان ذلك المال من صديقي

ومما يجدر ذكره هنا التناقض في اقوالها عن اتصالها بصديقها . فهي تستطيع ان تراسله او لا تستطيع ان تراسله بحسب مقتضيات الحال . ولكنها لما أجابت الملازم مورنيه بقولها « كان هذا المال من صديقي » بدت في كلماتها امارات الغضب ، ولعلّ ذلك نشأ من كونها قالت قبل لحظة من الزمان مباهية بأن صديقها لم يهبها مبلغاً ما اقل من ٣٠ الف مارك . فرد مورنيه ردًّا جافياً : من صديقك رئيس قلم الاستخبارات السرية في الجيش الالماني . ثم اصبحتِ جاسوسة في خدمة فرنسا . فماذا فعلتِ ؟

— اعطيت رئيس المكتب الثاني من قلم الاستخبارات السرية الفرنسية اسماء الاماكن التي تلجأ اليها الغواصات الالمانية على شواطىء مراكش وقد كان للمعلومات التي قدمتها فائدة كبيرة

— ومن اين حصلت على هذه المعلومات — قال رئيس المحكمة — فاذا كانت صحيحة ، دلّ ذلك على انك كنت على صلة مباشرة بالعدو . واذا كانت كاذبة دلّ ذلك على انك تخدعيننا

هنا تضعضعت ماتا هاري وطاش صوابها . فلما حاولت ان تعلل ما لا يعلّل فاهت بأقوال لا تستقيم على معنى . قالت انها سمعت اسماء هذه الاماكن في مأدبة دبلوماسية كانت قد دعيت

للرقص فيها . ولكنها لا تذكر اين كان ذلك ولا ممن سمعتهُ . ولما ادركت ماتا هاري ان ارتباكها وتلجلجها اخذا يؤثران تأثيراً سيئاً في نفوس قضاتها، استشاطت غضباً وقالت مخاطبة الكولونل سمبرون :

— على كلٍّ، بذلت لفرنسا ما استطيعهُ . وقد كانت للانباء التي افضيت بها قيمة تذكر... لست فرنسية . ولست مدينة لفرنسا بشيء . انني امرأة مسكينة ، وانتم كضباط يعوزكم كثير من الكرم والشهامة . فانحنى مورنيه امام ماتا هاري انحناءة الاجلال يشوبه شيء من السخر وقال:— لتصفح عنا سيدتي . فنحن ندافع عن بلادنا ليس الاّ . ومما لا ريب فيهِ ان الجاسوسة اضطربت لهذا الهجوم ولكن بعد هنيهة من التأمل رأت ان تخفي اضطرابها ، تحت ستار قولها الآتي وقد فاهت بهِ بلهجة المتكبر : لست فرنسية ولا المانية بل انا من بنات دولة محايدة . انتم تضطهدونني . وفي عملكم ظلم . بل اعيد ما قلته وهو انهُ يعوزكم كثير من الكرم والشهامة . ثم نظرت الى مورنيه دقيقة بشفة مقلوبة اعربت بها عن احتقارها له ثم قالت متمرمرة : — ان هذا الرجل كريه

فقال الكولونل سمبرون : هدئي روعك يا سيدتي . وبعد فترة قصيرة جمعت فيها امرها المتفرق قال لها : — اعطاكِ الكابتن ليدو وثيقة عهد اليك في ايصالها الى مندوبينا في البلجيك . فما فعلت بتلك الوثيقة . فلم تجب

فأعاد السؤال مشدداً في وجوب الحصول على جواب قائلاً : اتذكرين ماذا فعلت بالورقة التي عهد اليك في نقلها الى وكيلنا ؟ فقالت لا . وكان جوابها جافياً

ويقول احد اعضاء المحكمة العسكرية ، ان ماتا هاري لم تكن قد تحققت مدى الخطر المحدق بها حتى انتزعت من بين شفتيها تلك اللفظة النافية ، ولو انها قالت انها تذكر ما فعلت بها ، لانهالت عليها الاسئلة الخاصة بها . ولكن المحقق — وكان هذا معروفاً عند المحكمة العسكرية الفرنسية — انها كانت قد بعثت بها الى الالمان في امستردام قبل ان غادرت فرنسا . وفي هذه الحالة ، كان النسيان اقوم عذر تعتذر به . ولكن الرئيس لم يقف عند هذا الحد ، بل شرع في اسئلته يهدي ذاكرتها الى الحوادث التي غابت — او ادّعت — انها غابت عنها . قال : ان وكيلنا الذي أمرتِ بالذهاب اليه في البلجيك قبض عليه الالمان في بروكسل بعد ما انقضت ثلاثة اسابيع على مغادرتك باريس ، ثم اعدم رمياً بالرصاص

ومن الواضح ان القضاة كانوا، عند بلوغهم هذه المرتبة من المحاكمة، قد اصبحوا مقتنعين بصحة التهمة الموجهة اليها . ولتأييد اعتقادهم هذا رأوا السيدة المتكبرة الواثقة من نفسها ، وقد تضعضع صوابها ، فصارت تتعثر وتتردَّد وتتلعثم ، كلما حاول الرئيس او مورنيه ، ان ينتزعا الحقيقة من شفتيها بالاسئلة الموجهة اليها المنطوية على ما يعلما . ولكنهما مع ذلك عجزا عن ان ينتزعا منها اعترافاً صريحاً

ثم وجهت اليها المحكمة الاسئلة عن مقامها في مدريد عاصمة اسبانيا : قال احدهم : —

— نزلت في الفندق بمدريد في غرفة محاذية لغرفة رئيس التجسس الالماني في تلك المدينة

— هــذا صحيح
— هذا المندوب البرليني نقدك مالاً لزيارات كثيرة متوالية — وهذا صحيح كذلك
— وتلقيت هدايا منهُ — بكل تأكيد. لانهُ كان عشيقي. قالت هذا وفي كلامها شعور بالثقة
— انتِ تعلمين ونحن نعلم ان رسائلك الى عشيقك في امستردام كانت ممضاة بامضاء (H 21)
— فكان جوابها السريع : ليس هذا القول صحيحاً
ويذكر القراء ان ماتا هاري كانت قد سلَّمت قبلاً بانها استعملت رمزاً لمراسلة حبيبها ، الذي اتفق انهُ كان مدير قسم التجسس الالماني ، وان ذلك ليس ذنبها
— أستميح سيدتي عذراً، ولكن ما تنفينهُ صحيح . والدليل على ذلك هذه الرسالة البرقية التي بعث بها المندوب الالماني في مدريد الى زميله في امستردام طالباً مبلغاً من المال لـ(H 21)عن طريق سفارة دولة محايدة . عند ذلك كاد يغمى عليها . فانها لما أدركت ان الفرنسيين يملكون نصَّ هذه البرقية ، انهار دفاعها من أساسهِ . ولكنها تمالكت نفسها ثم صاحت : أقول لكم . . . أقول لكم . . . ان ذلك كان ثمن .... ثمن اتصالي الوثيق بهِ ..هذا هو ثمني . . . . آه يا أسياد فرنسا ... صدقوني . . . كونوا كراماً . فذعر الاستاذ كلونه لاضطراب موكلتهِ وارتجافها ، فنسي عمله كمدافع عن جاسوسة ، واصبح الرجل الكريم الذي يحبُّ ان يدفع عن امرأة جميلة ما يهدّدها ، فقدَّم لها زجاجة من الأملاح العطرة وصندوقاً من الشكولاته
فصاحت ماتا هاري في وجههِ : لا حاجة بي الى هذا . لست طفلة . . . سأعتصم بالشجاعة
ثم التفتت الى المحكمة وفي عينيها وانفها المرفوع معاني التحدّي
فقال الرئيس : ولا تستطيعين ان تنكري انك ذهبت الى السفارة وقبضت المال الذي كان الملازم فون كرون (رئيس التجسس الالماني في مدريد) قد وعد بهِ
— واية فائدة من انكار ذلك ؟ فالملازم فون كرون لم يشأ ان يوفّي ثمن هذا التقرُّب بماله الخاص مفضلاً ان يوفّيهُ بمال حكومتهِ
— المحكمة تقبل تفسيرك هذا . فانتِ تعترفين بان المال جاء من رئيس قسم التجسس الالماني في هولندا ؟
—لا ريب في ان المال جاء من عشيقي في هولندا الذي سدّد من دون ان يعلم دين عشيقي في اسبانيا
فاضطرب الاستاذ كلونه لهذه الاجوبة المضطربة . كيف يستطيع ان يوفق بين قولها ان فون كرون وفّى دينهُ لها بمال الحكومة ، وقولها ان عشيقها الالماني كان يسدّد دين زميله في اسبانيا
عند هذا الحدّ رفعت الجلسة . وفي خلال فترة الاستراحة، طاف المحامي الشيخ مستطلعاً موقف موكلتهِ في رأي القضاء . فلم يسمع ما يحملهُ على التفاؤل . ولكنهُ لم يقنط . ولما سأل الماجور ماسار قال هذا انها مقضيٌّ عليها . ولكن المحامي ردَّ عليهِ : تريَّث قليلاً حتى تسمع اقوال الشهود . او تريّث حتى تسمع دفاعي

فلما اعيدت الجلسة لسماع الدفاع وعرفت ماتا هاري ان بعض اصدقائها من ذوي المقام قد قبلوا ان يدلوا باقوالهم دفاعاً عنها ، استعادت ثقتها بنفسها واخذت تمارس فنون فتنتها . فاخرجت من كيسها القلم الاحمر ودهنت بهِ شفتيها ، واخذت من محاميها طاقة من الزهر قدَّمها اليها . ها هي ذي تبسم كأنها تغذي في قرارة نفسها رجاءً خفيًّا . وها هي ذي تفتح صندوق الشكولاته وتأكل منها بشهية

والشهود ا كان في مقدمتهم جول كامبون اول عشاقها عند قدومها الى فرنسا، ورئيس الموظفين الدائمين بوزارة الخارجية الفرنسية. كان دبلوماسيًّا محنكاً ممتازاً في سلوكه واثقاً من اقواله بارعاً في الاخذ والرد

فقال الرئيس : ولماذا دعوتم هذا الشاهد

فقالت ماتا هاري ، من دون ان تنظر اليهِ ، ولكن بلهجة كلها اغراء : انهُ يشغل منصباً من اكبر المناصب في الحكومة الفرنسية . انهُ على اتصال بجميع اغراض الحكومة واعمالها الحربية المتوقعة . لقد قابلتهُ بعد عودتي من مدريد . وقد كان اول عشاقي بعد طلاقي . فكان من الطبيعي ان اقابلهُ وان اغتبط لهذه المقابلة . ولقد صرفنا معاً ثلاثة ايام بلياليها قبل القاءِ القبض عليَّ . وليس عندي اليوم الاَّ سؤال واحد اوجههُ اليهِ : هل طلبتُ منهُ في حالة من الحالات ، او وقت من الاوقات ، ان يطلعني على شيءٍ مما يعرف . هل توسلت اليهِ بالصلة الوثيقة بيننا الى افشاءِ ايّ سرٍّ يكنهُ

فردَّ كامبون قائلاً : ان السيدة لم توجّه اليَّ اي سؤالٍ من هذا القبيل

فقال المحامي: ترون اذن انها ليست جاسوسة . ولو انها شاءت ان تستطلع الاسرار فما كان عليها الاَّ ان تمدَّ يدها ، فتميط عنها اللثام . فقال الرئيس: ولكن ماكان موضوع حديثكما خلال ثلاثة ايام، والبلاد في حرب الموتِ والحياة ؟ ان ذلك لا يكاد يصدق

فقالت : لا يكاد يصدق ! ولكنهُ مع ذلك هو الواقع . لقد تحدثنا في موضوع الفنِّ الهندي

فقال مورنيه : لنسلّم بذلك . ولكن يجب ان تعترفوا بان المتهمة كانت على جانب وافرٍ من الذكاءِ مكّنها من ان تفهم انهُ يتعذر انتزاع المعلومات السرية من الساسة المجرّبين ، انتزاعها من صغار الضباط السكارى بخمر الحرب ونشوة الحبّ . ويجب ان تعترفوا كذلك بان صلتها بكبار الموظفين مما يرفع مقامها في اعين الالمان . وقد قيل ان بعض الاوراق التي كتبت ماتا هاري رسائلها عليها لاصدقائها في مدريد وامستردام كان من ورق « وزارة الخارجية — مكتب الوزير » . ولا ريب في ان هذه الصلة كانت سبيلها للحصول على الاجر العالي الذي فازت بهِ . ومجرد ظهورها في صحبة السياسي الممتاز الماثل امام المحكمة احاطها بهالة من السلطة والنفوذ مكّنتها من التشدُّد في مطالبها

ولما سئل الشاهد هل عندهُ ما يضيفهُ الى اقواله قال : لم يحدث ما يحملني على تغيير رأيي في هذه السيدة . بيد ان امارات الارتياح بَدَتْ على وجههِ لما توقف مورنيه عن الكلام ، كأنهُ كان يخشى ان يتوسع في حديث ليس متصلاً كل الاتصال بعلاقة الصداقة التي كانت تربط بينهما . ومع ذلك ظلَّ السيد الكريم لانهُ عند نزوله من موقف الشهود انحنى لها باحترام وخرج

وكان الشاهد الثاني الجنرال مسيمي وزير الحربية سابقاً . وقد كان واحداً من ضحايا فتنتها وجمالها. ولما كانت تبعاتهُ العسكرية تقضي ببقائهِ في مقرّه العسكري ، بعث بشهادتهِ مكتوبة بعد ما اقسم امام قاضي الجهة التي كان فيها بصحتها ، وفيها صرّح ان المتهمة لم تسأله مطلقاً اي سؤال له صلة باعمال الحرب ، او يثير ايَّ شبهة في نيتها

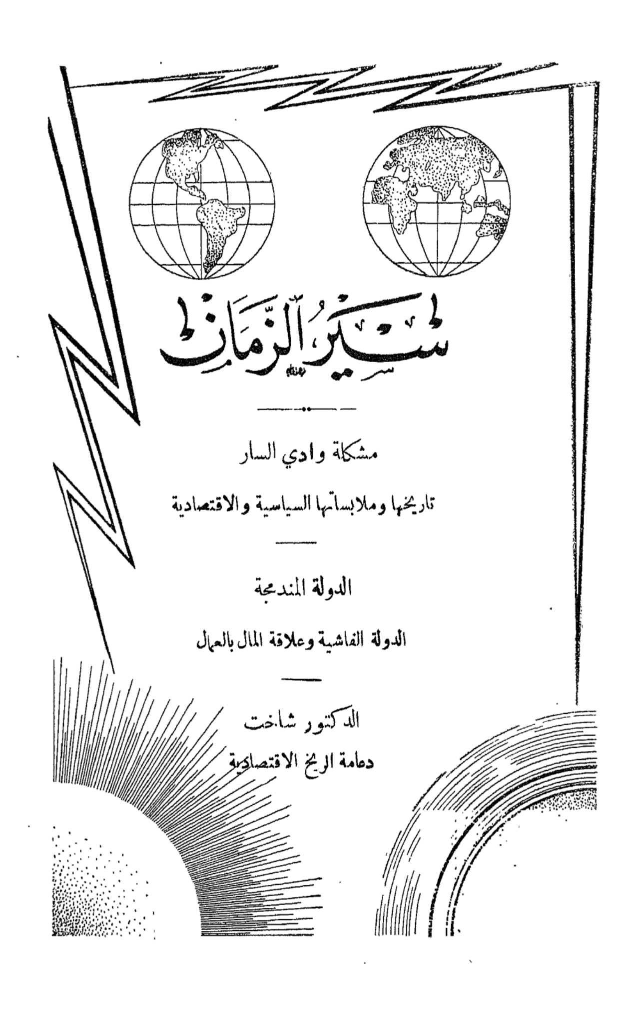
ومن المتعذّر ان نسوق الى القراء هنا كلَّ ما جاء في اقوال الشهود . بل ان بعض ما قيل سوف يظل مجهولاً الى الابد لانهُ لم يدوَّن لاتصاله بمقام كثيرين من اصحاب المقام

بيد ان المجمع عليه ان جميع الشهود الكبار الذي دعوا للشهادة ، لم يؤخذ عليهم مطلقاً افشاء اسرار الدولة . ولكن صداقتهم كانت على كل حال — كما قال مورنيه — ذات أثر عظيم في مقام ماتا هاري كجاسوسة المانية ومقدار المال الذي نقدتهُ جزاءً لها على عملها

وبعد ما سمع الشهود شرع الاستاذ كلونه في دفاعه . فالادلة التي تجمعت ضد المتهمة في خلال المحاكمة كانت مما لا يمكن نقضه . والاستاذ كلونه لم يحاول ان ينقضه . بل اقتصر في دفاعه ، على التوسل الى القضاء ان يرأفوا بامرأة بارعة الجمال سيقت الى التضحية بجمالها ومواهبها في سبيل الاجرام . فصوَّرها اولاً ، ببلاغته الخلاَّبة ، زوجاً شقيةً ، وكيف كان زوجها يضطهدها ويعذبها ومحاولتها ان تكسب رزقها من طريق الرقص . ولكن معرفة احوالها الخاصة لم تكن سبيلاً الى الغفران في نظر اعضاء المحكمة . فلما اتم المحامي دفاعهُ اتجه رئيس المحكمة الى المتهمة وسألها هل عندها ما تضيفه الى ما قيل فأجابت سلباً وقالت : — ان محاميَّ قد قال لكم الحقيقة . لست فرنسية . وليس لي حق ان اتصل بصلة الصداقة بأحد من ابناء البلاد الخائضة غمار الحرب ضد فرنسا. ولذلك بقيت على الحياد . ولذلك انا اعتمد على طيبة قلوبكم ايها الضباط الفرنسيون

واختلت المحكمة عشر دقائق فقط . ولما كانت العادة في المحاكم الفرنسية ان لا تقرأ المحكمة الحكم على المتهم ، خرجت ماتا هاري من حرم المحكمة ، عند ما عادت الى الاجتماع . عندئذ اتجه الرئيس الى اصغر الضباط سنًّا وسأله رأيه ، لئلاَّ يتأثر برأي الاعضاء الذين يتقدمونهُ . قال : في قرارة نفسك وخفايا ضميرك ، هل انت مقتنع ان هذه المرأة ارتكبت اثم نقل الاخبار والوثائق الى العدو ، وانها كانت سبباً في موت كثير من جنودنا . فأجاب كلٌّ من اعضاء المحكمة بدوره « نعم »

ولما اتم الاعضاء توقيع الحكم ، رمى احدهم الريشة من يده وقال : كريه عليَّ الحكم بالاعدام على من كان يملك هذا الجمال ، على مخلوقة على هذا الجانب من الفتنة والذكاء ، ولكن لو اتيح لي لأعدمتها رمياً بالرصاص عشرين مرة . وفي اثناء ذلك كان المحامي الشيخ قد ادرك حقيقة الموقف فقال لموكلتهِ ان تعتصم برباطة الجأش . ولما قرىء الحكم بكى الشيخ من دون خجل . وماتا هاري ! هل بكت او اغمي عليها ؟ كلاَّ . بل وقفت هناك هادئة الروح وعلى ثغرها بسمة . فصاح احد ضباط الحرس : يا الهي . انها تعرف كيف تموت !



سير الزمان

مشكلة وادي السار

تاريخها وملابساتها السياسية والاقتصادية

الدولة المندمجة

الدولة الفاشية وعلاقة المال بالعمال

الدكتور شاخت

دعامة الرخ الاقتصادية

مشكلة وادى السار

تاريخها وملابساتها السياسية والاقتصادية

[في ١٣ يناير ١٩٣٥ تم استفتاء السار فاختار ما يزيد على ٩٠ في المائة من المقترعين من ابنائه ان يعودوا الى الريخ . وينتظر ان يتم ذلك في أول مارس أو قبله بحسب القرار الذي يتخذه مجلس جامعة الأمم]

ما هي مشكلة السار

طلب الفرنسيون في سنة ١٩١٩ ان يعوّضوا من التدمير والتخريب اللذين بليا بهما في شمال فرنسا على ايدي الالمان في الحرب الكبرى . فانشأ ممثلو الحلفاء ، مقاطعة حول نهر السار ، لا شك في المانيّتها ، ومنحوا مناجمها لفرنسا تحقيقاً لرغبتها . ونصّ هذه المنحة يجعل الدولة الفرنسية مالكة مطلقة دائمة لمناجم هذه المقاطعة . ثم عهد الى جمعية الامم في الاشراف على حكمها وتعيين لجنةٍ من قبلها لهذا الغرض . واتفق اصحاب هذا القرار على ان يستفتى اهل السار ، بعد انقضاء خمس عشر سنة على النظام الجديد ، فيختاروا اما البقاء على حالتهم الراهنة اوالانضمام الى الريخ او الانضمام الى فرنسا. وهذا هو الاستفتاء الذي تمّ في ١٣ يناير سنة ١٩٣٥ وعرفت نتيجتهُ

ولكن الباحث يسأل عن الباعث على نشوءِ مشكلة كمشكلة السار . والجواب عن ذلك السؤال مطويّ في نزعة الانسان الى الحرب والكفاح . فاذا أحرز النصر طمع في الاسلاب . وقد تتغير طبيعة الانسان من حيث نظرهُ الى الاسلاب ، فيطلبها في عصر نساءً وحظايا وفي آخر ذهباً او موارد للثروة كالمناجم والمصانع . ولكنها اسلاب على كل حال يطمع الظافر في الحصول عليها اذا رأى الى ذلك سبيلاً . ووادي السار من البقاع الاقتصادية التي ترنو اليها الابصار في غرب اوربا . فهو يتاخم المانيا من جهة ومقاطعتي الالزاس واللورين من جهة اخرى ولا تزيد مساحتهُ على ٧٢٦ ميلاً مربعاً . اما سكانهُ فنحو الي ٨٠٠ الف نسمة فهو من اكثف المناطق الاوربية سكاناً لانّ متوسط سكان السار في الميل المربّع الواحد ١٠٨٦ نسمة ، يقابل ذلك ٩٠٠ نسمة في الميل المربّع في اكثف مناطق فرنسا سكاناً. والباعث على ازدحامهِ بالسكان كثرة مناجم الفحم فيهِ ومصانع الحديد والزجاج والخزف . فقبيل الحرب الكبرى استخرج من مقاطعة السار وحدها فحم يعدل نصف ما استخرج من مناجم فرنسا قاطبةً . فالصناعات الساريّة المختلفة نشأت بحكم الطبع حول مناجم الفحم . حتى اننا لا نجد من جميع سكانهِ الاّ نحو خمسة آلاف فقط يعنون بحراثة الارض وزراعتها

وعلى ذلك كانت مقاطعة السار لقمة شهية طمع بها الفرنسيون الظافرون في سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ بيد ان الفرنسيين لم يشيروا مطلقاً الى السار في التصريحات التي صرّحوا بها في خلال الحرب . فتصريحات الحلفاء في دسمبر سنة ١٩١٦ ويناير ١٩١٧ وقرار البرلمان الفرنسي في يونيو ١٩١٧ وبنود ولسن الاربع عشرة ، تنص جميعها على وجوب اعادة مقاطعتي الالزاس واللورين الى فرنسا ، ولكنها خلوٌ من اية اشارة الى السار . ولكن هذا لا ينفي ان الفرنسيين كانوا قد بدأوا يفكرون في ضمّ السار اذا آتاهم الله النصر في الحرب . فالمعاهدات السرية التي عقدت بين الحلفاء في خلال الحرب اشدّ كشفاً عن حقيقة اغراضهم من تصريحات رجالهم الرسمية . ففي فبراير ومارس سنة ١٩١٧ عقدت فرنسا وروسيا اتفاقاً سريّاً ، منحت بمقتضاه الاستانة لروسيا ، والالزاس واللورين ومنطقة الفحم في السار لفرنسا . وقبل ذلك بشهر واحد كان الوزير بريان Briand قد كتب الى السفير الفرنسي في لندن في هذا المعنى . قال انهُ لابدّ من اعادة الالزاس واللورين الى فرنسا بحدودها سنة ١٧٩٠ وهي حدود تجعل وادي السار جزءاً منهما . بل ان طائفة من الرجال غير الرسميين تمادوا في الطلب فقالوا ان فرنسا خسرت فحم السار في سنة ١٨١٥ وحديد اللورين في سنة ١٨٧٠ ففقدت بذلك مكانتها الاقتصادية ، وانهُ في سبيل استعادة هذه المكانة لا بدّ من مدّ حدود فرنسا حتى نهر الرين نفسهِ

فلما التأم مؤتمر السلام كان رائد الفرنسيين مطالبهم السرية لا تصريحاتهم العلنية . وفي مارس سنة ١٩١٩ اطلق كلمنصو قنبلتهُ الاولى على مؤتمر فرساي اذ طلب ان تجعل حدود فرنسا ما كانت عليهِ سنة ١٨١٤ (وهذا يعني دخول السار ضمن هذه الحدود) وان تمنح حق الارتفاق من مناجم الفحم وراءها . لذلك نرى ان مشكلة السار كان لها وجهان من يوم ولادتها . أما الوجه الاول فمصير المناجم وأما الثاني فحالة المقاطعة السياسية

نخشي لويد جورج وولسن ، ان يفضي التسليم بطلب كلمنصو ، الى انشاء مشكلة جديدة كمشكلة الالزاس لورين ، تكون من البواعث على الحرب في المستقبل بين المانيا وفرنسا ، فعارضا في مقترحهِ . قالا انهما لا يريان مانعاً يمنع استيلاء فرنسا على مناجم الفحم ، ولكن السار يجب ان يمنح استقلالاً سياسيًّا على الاقل . فلما عجز المؤتمر عن حلّ العقدة عيّنت لجنة لدرس الموضوع ووضع حلٍّ وسطٍ .وكان ممثل فرنسا في هذه اللجنة أندريه تارديو ، ابن كلمنصو الروحي ، وكان ممثل بريطانيا رجل يدعى هدلم مورلي . أما ممثل الولايات المتحدة الاميركية فكان الاستاذ هاسكنز أحد اساتذة جامعة هارفرد المعروف بنزعتهِ الفرنسية . فاستقرّ قرار اللجنة على ان حق استغلال المناجم يجب ان يمنح لفرنسا . وأما حكم المقاطعة فيجب ان يعطى لمجلس محايد أو دولي

فلما صدر قرار اللجنة استعمله كلمنصو في سبيل الغرض الذي يرمي اليهِ . ذلك ان ولسن لم يكن يشاطر الاستاذ هاسكنز حماسته في سبيل منح السار لفرنسا ، ولكنهُ كان معنيًّا شديد العناية

بانشاء جمعية الامم ، وكان كلمنصو يدرك هذا ، فاقترح في الحال ان يعهد الى جمعية الامم في حكم السار فأرضى بذلك ولسن وفاز بموافقته

فلما كتبت معاهدة فرساي ، نص فيها على ان فصل مقاطعة السار عن المانيا لن يكون مطلقاً ، بل يجري استفتاء فيها سنة ١٩٣٥ يتقرر مصير البلاد بحسب نتيجته التي يسفر عنها، وتكون السيادة على البلاد في خلال هذه المدة ، لجمعية الامم . وتباشر جمعية الامم عمل السيادة عن طريق لجنة مؤلفة من خمسة اعضاء تكون مسئولةً امام جمعية الامم دون غيرها ولا يمثل سكان السار في الريخستاج في خلال ذلك . هذا من الناحية السياسية . اما من الناحية الاقتصادية فان مناجم المقاطعة ، وكانت من قبل ملكاً في الغالب للدولة الالمانية، فتمنح ملكاً مطلقاً من اي قيد للدولة الفرنسية . فاذا استقرّ قرار الشعب الساري في استفتاء سنة ١٩٣٥ على العودة الى الريخ وجب على الريخ ان يبتاع المناجم من فرنسا وان يدفع الثمن ذهباً

بواعث المشكلة الاساسية

قامت سياسة فرنسا الخارجية في سنة ١٩١٩ وما بعدها ، على وجوب السعي الى ضمان سلامة البلاد من غزوة المانية تالية . والسلامة يمكن ان تضمن باساليب مختلفة ،لم يكن ضمُّ السار اهمها. وسوف يرى القارىء في صفحة اخرى من هذا المقال ان مناجم السار منحت لفرنسا ، لأن الاساليب الاخرى المقترحة لم تحقق الغرض المنشود. ولكن فرنسا تطلب ضماناً لسلامتها. وهو طلب قائم على الرغبة في التحصُّن ضد الغزو لا على الرغبة في بسط سيادة فرنسا على اوربا . ففي ربيع سنة ١٩٣٤ وقف المسيو دومرغ — رئيس وزارة فرنسا حينئذ — يطلب ان تزاد الاعتمادات الخاصة بالدفاع القومي. فأشار في خطبته ، من دون تكلف او كبرياء الى ما خبرتهُ فرنسا من ويلات الحرب اذ قال « لقد شهدت في حياتي حربين » . فكانت هذه الاشارة كافية لفوز المقترح بأكثرية الاصوات . وثمة طائفة كبيرة من الفرنسيين تستطيع ان تقول قول دومرغ ، ذاكرة ان الالمان غزوا فرنسا في خلال حياتهم مرتين . وهذه الذكرى جانب اساسي من تفكير فرنسا السياسي . فتجاهله في نظرهم ليس سخاء وكرماً بل هو حمق ما بعده حمق

وقد كانت بريطانيا ترى رأي فرنسا في هذا الصدد ، فطلبت ما يضمن لها عدم تجدُّد الخطر الالماني الذي كان يهددها قبل الحرب . ولكنها حصرت مطالبها في ما يختص بالاسطول والمستعمرات ، ففازت باهم المستعمرات الالمانية ، ودمّرت كذلك اسطولي المانيا الحربي والتجاري من دون ان تلقى مقاومة ما

ولكن فرنسا لم تكن في المقام الجغرافي الذي يمكنها من تحقيق مطالبها من دون ان تثير ضجة حولها . فالضمانات التي طلبتها كانت محصورة في منطقة نهر الرين ، ولهذه المنطقة مكانة كبيرة في

السياسة الدولية. يضاف الى ذلك ان بريطانيا حققت مطالبها اولاً ، وبعد ذلك صار يصعب على المانيا ان تسلم بأكثر مما سلَّمت بهِ ، من دون ان تقاوم وتعترض . وادرك كلمنصو هذا ، ولكنهُ ادرك في الوقت نفسهِ ، انهُ اذا نكثت المانيا عهودها ، وجب على فرنسا دون غيرها ، ان تتحمل مغبَّة ذلك . ومن هنا تشدّده في وجوب حصول فرنسا على الضمانات الكافية لسلامتها . وقد افرغ طلب هذه الضمانات اولاً في اقتراح مؤداهُ انشاء دولة محايدة مستقلة استقلالاً ذاتياً على ضفة الرين اليسرى تمتد من الجنوب الى الشمال على حدود فرنسا ولكسمبورج وبلجيكا وهولندا. ونحن نجد نواة هذا الاقتراح في المعاهدة السرية التي عقدت بين فرنسا وروسيا في خلال الحرب وفي مناقشات لجنة الشؤون الخارجية الفرنسية وفي مقترحات المارشال فوش. ولكن لويد جورج وولسن رفضا ان ينظرا في المشروع . فلما شجر الخلاف ، كان الاتفاق وسطاً بين الرأيين فتقرر ان تحتَلّ البلاد الواقعة على ضفة الرين اليسرى مدى خمس عشرة سنة ، وان تنزع جميع الاستحكامات الحربية منها علاوة على نزعها من منطقة عرضها ٥٠ كيلو متراً على ضفة الرين اليمنى . ووعدت المانيا ان لا تحشد ذخيرة الحرب مطلقاً في هذه المنطقة

***

كان طمع فرنسا في السار مطويًّا في اقتراحها انشاء دولة مستقلة محايدة على ضفة الرين اليسرى . فلما اخفق هذا الاقتراح اصبح لوادي السار شأن خاص بحد ذاتهِ . لأن الفرنسيين رأوا ان ضمَّ السار يضعف الى مدى بعيد من قوة المانيا ، لأن قوة الدول الصناعية الحديثة مرهون بثروتها الطبيعية وفي مقدمة هذه الثروة مناجم الفحم والحديد . ولا يخفى ان فرنسا فقيرة بمناجم الفحم . فعودة مقاطعة اللورين اليها — واللورين غنية بمناجم الحديد — تجعل حاجتها الى الفحم اشد مما كانت ، لان مقاطعتي الالزاس واللورين تستهلكان ما متوسطهُ ١٨ مليون طن من الفحم في السنة ولا تنتجان الاّ اربعة ملايين طن. فرأت فرنسا الفرصة سانحة لزيادة ثروتها على حساب العدوّ المقهور ، فطلبت مناجم السار كما طلبت بريطانيا ضم مستعمرات المانيا وتدمير قواها البحرية

والبواعث الاقتصادية في طلب ضم السار ، متصلة اوثق اتصال ببواعث السلامة والرغبة في ضمانها . فقد وضعت معاهدة فرساي على قاعدة تفوُّق الناحية الاقتصادية في الحياة القومية والدولية . وعلى هذا الاساس سوَّغ طلب ضم السار . فمنطقة الالزاس واللورين والسار ، وحدة اقتصادية لا يمكن فصم عراها . في السار فحم وفي اللورين حديد وليس بين البلادين الاّ ثلاثون ميلاً . ففصل احداها عن الاخرى ، ليس في مصلحة هذه ولا في مصلحة تلك . ثم ان السار منطقة صناعية لا يعنى من سكانها بالزراعة الاّ ستة في الالف. واما الالزاس فغنية بالمحصولات الزراعية . فالتبادل التجاري بين البلاد طبيعي مرغوب فيهِ . نعم ان منطقة الالزاس واللورين كانت مفصولة عن منطقة السار قبل سنة ١٨٧٠ ولكن ذلك كان قبل ان دخلت الصناعة الى وادي السار اذ كان سكانهُ ربع

ما هم الآن وجل اعتمادهم في رزقهم حينئذٍ على حرث الارض وزرعها. فلما دخلت الصناعة هذه البلاد كانت الحرب البروسية الفرنسية قد انتهت واصبحت منطقة السار جزءًا من الوحدة الاقتصادية المؤلفة من الالزاس واللورين والسار . فالتقدم الاقتصادي الذي اصابتهُ هذه البلاد بين سنة ١٨٧٠ و١٩١٤ اصابتهُ كوحدةٍ غير متجزئةٍ . ولذلك طلب الفرنسيون — وقد اعيدت اليهم الالزاس واللورين — ان تبقى هذه الوحدة غير مجزئةٍ كذلك . ففحم السار سواءٌ اكانت السار جزءًا من المانيا ام جزءًا من فرنسا ، يحتاج الى حديد اللورين وحديد اللورين يحتاج الى فحم السار

***

ثم ان للمسألة وجهاً ثالثاً . ذلك انَّ سنابك الالمان اجتاحت شمال فرنسا في خلال الحرب الكبرى وشمال فرنسا من اهم المناطق الصناعية فيها . فاجتياح الالمان له دمَّر معظم مصانعهِ ومناجمهِ ، وقد قدّر المال الذي انفقتهُ حكومة فرنسا على ترميم هـذه المنطقة باربعة آلاف مليون جنيه . اما المانيا فاعترفت بانها دمّرت المصانع والمناجم عمداً وسلّمت بعدل التعويضات . وقد اتفق الفريقان على مبدإِ التعويضات ، ولكنهما اختلفا على المبلغ وطريقة التوفية نقداً وعيناً . كان لابدَّ لالمانيا من توفية جانبٍ من مال التعويض بالذهب . ولكن فرنسا طلبت ان تكون توفية الجانب الآخر عيناً اي بمنح البلدان التي يحق لها التعويض مقادير من الفحم والحديد وغيرهما من الوان الثروة الطبيعية . وعلى هذا الاساس طلبت فرنسا ان تمنح مناجم السار . وقد اثبت الاختبار ان تعويض العين كان اجدى من تعويض المال . ذلك ان فرنسا كانت قد ضمنت لابنائها كلَّ خسائرهم التي نشأت من الحرب نفسها . ففي سنة ١٩٢٢ كانت الحكومة الفرنسية قد اعطت ابناءها المستحقين نحو مائة مليون جنيه لترميم ما دُمّر من املاكهم في المنطقة التي اجتاحتها الجيوش . ولكنها حتى اول مايو سنة ١٩٢١ لم تكن قد استوفت شيئاً من مال التعويض . وفي سنـة ١٩٣١ الغي نظام التعويض بتاتاً . فكأن فرنسا انفقت على ترميم اراضيها المجتاحة من مالها الخاص

يضاف الى ذلك الباعث التاريخي ، وهو ان فرنسا ترغب في جعل نهر الرين حدَّها الشرقي ، فاحرزت اقساطاً متفاوتة من النجاح في تحقيق هذا الغرض على ايام ريشيليو ولويس الرابع عشر ونبوليون . وها هوذا كلمنصو يحاولهُ من جديد . ألا ترى اليهِ وقد خاطب ولسن قائلاً : « انك تحاول ان تنزع من المباحثات السياسية الشعور والذاكرة . فالعالم لا يحكم بالمبادىء المجرَّدة دون غيرها . . والمصالح الاقتصادية ليست كلَّ شيءٍ . . ان المسألة التي قيد البحث ليست مسألة التعويض المادي فقط . . لان الحاجة الى التعويض المعنوي لا تقل عنها خطراً . . » . وادعى كلمنصو ان ١٥٠ الفاً من الفرنسيين في السار يطلبون ضمَّ هذه المقاطعة الى فرنسا مع ان المتكلمين باللغة الفرنسية في السار في سنة ١٩١٠ كانوا لا يزيدون على ٣٤٢ نسمةً . وقد اثبت الاستفتاء الاخير ان ٤ في الالف فقط اقترعوا في جانب الضمِّ الى فرنسا

السار بعد المعاهدة

كان شعور الساريين ، بعد وضع المعاهدة ، شعور الاطفال انتزعوا من حضن امهم فاعتقدوا ان حكم جمعية الامم او حكم لجنتها ليس الاّ ستاراً لحكم فرنسا . ومع ما اصابوه من الاقبال والرخاء الاقتصادي بين المعاهدة والاستفتاء ، لم يسلموا بهما ولم يجهروا الاّ بتبرّمهم

ومما يؤسف لهُ ان طريقة الحكم في بضع السنوات الاولى بعد عقد المعاهدة ، مكنت هذا الشعور في نفوس الساريين. ففي الفترة التي انقضت بين نوفمبر ١٩١٨ وفبراير سنة ١٩٢٠ — وهو التاريخ الذي تسلمت فيه الجمعية مقاليد الحكم في السار — كانت المقاطعة محتلة احتلالاً عسكريًّا فرنسيًّا فالغيت في خلال ذلك الحقوق المدنية والسياسية وحدثت عدة حوادث بين اهالي البلاد وبعض الجنود. فلما تسلمت اللجنة الحاكمة الاولى مهام الحكم في فبراير سنة ١٩٢٠ انتهى الاحتلال الفرنسي ولكن ظل شبح السيادة الفرنسية مبسوطاً على البلاد . كان رئيس اللجنة فرنسيًّا يدعى رو Rault وكان معظم اعضاء اللجنة يميلون الى فرنسا . وكان لبنوك باريس حصص كبيرة في معظم صناعات البلاد . ولما كانت فرنسا تملك المناجم اضطرت الصناعات المختلفة ان تعنو للسيادة المالية الفرنسية الاّ صناعتان منها . واذن كان شعور الساريين حينئذٍ في محلهِ وهو ان حكم جمعية الامم ليس الا ستاراً لسيطرة فرنسا

وعلاوة على ذلك كانت المعاهدة قد نصَّت على ان السار بلاد مستقلة عن المانيا . فالغت اللجنة الحاكمة العلم الالماني وصنعت علماً جديداً خاصًّا بالمقاطعة، وبدلت الختم الامبراطوري الالماني بختم جديد، وطبعت طوابع بريد جديدة لتستعمل محل الطوابع الالمانية. فلقي كل ذلك معارضة شديدة من الاهلين . لان هذا الابدال كان في نظر اعضاء اللجنة مجرد تغيير شيء بآخر واما في نظر الساريين أنفسهم فكان بتًّا للصلة بينهم وبين المانيا . فالساريون كانوا المانًا وكانوا يباهون بهذا . فكل محاولة رَمَت الى احاطة البلاد بمظاهر الاستقلال الذاتي لم تخرج في نظرهم عن كونها محاولة لجعلهم فرنسيين او ايطاليين . ولو ان اللجنة كانت مؤلفة من ملائكة لما رضي الساريون عنها لانهم ملائكة غير المان

هذا الشعور المتغلغل في نفوس الساريين واذهانهم ، حملهم على اغفال الفوائد التي جنوها من حكم جمعية الامم . ففي الربع السابق للحرب ، كان المقام الأول لفحم الرور لا لفحم السار . وكان السبق لمنتجات وستفاليا لا لمنتجات السار في الاسواق الالمانية . ولكن الفرنسيين ادركوا من البدء انهم لا يستطيعون ان يفوزوا بولاء الاهلين الاّ اذا مهّدوا للسار سبيل الرخاء . لذلك ازيلت العقبات التي تحول دون رواج فحم السار ومنتجاتهِ في المصانع الفرنسية والاسواق الفرنسية . ومع ان الازمة العالمية أثرت في رخاء الاهالي في بضع السنوات الاخيرة، الاّ أنهم جنوا فائدة تذكر من دخولهم ضمن النطاق الجمركي الفرنسي . ومما لا ريب فيهِ ان الازمة كان لها اثر في المانيا اعظم منهُ في فرنسا . فكأن هذا الضمّ الجمركي كان جزيل الخير على الساريين

يضاف الى ذلك ان نقابات العمال ازدهرت في عهد جمعية الامم . مع ان انشاءها كان ممنوعاً في عهد الامبراطورية ، وعاد ممنوعاً بعد تسلّم هتلر لمقاليد الحكم . ومن الفوائد التي اصابها السار ان نقدهم بعد الحرب كان على أساس الفرنك وتقلّب الفرنك كان أقلّ جدًّا وأيسر من تقلّب المارك

فالساريون قلّما أشاروا الى ما جنوا ولكنهم كثيراً ما جهروا وجأروا ببواعث تبرّمهم . وفي مقدمتها استعمال الجندرمة الفرنسية . نعم ان جيش الاحتلال الفرنسي نقص رويداً رويداً بعد سنة ١٩٢٠ ولكنهُ لم يسحب تماماً ، ومن بقي منهُ اطلق عليهِ اسم «بوليس سكك الحديد» . ذلك ان اللجنة الحاكمة الاولى تلكأت في استمداد رجال الجندرمة من الساريين نفسهم لأن رو Rault رئيسها كان يرى انهُ من المتعذر وجود بضعة ألوف من الساريين موالين لنظام الحكم الجديد يمكن الاعتماد عليهم . فساء هذا الساريين واضافوا اليهِ تبرّمهم بالنفقات الطائلة التي لا قبل لهم بها . ولما كانت اللجنة الحاكمة تحمل تبعة المحافظة على الامن العام رفضت ان تغامر مغامرةً قد تسوء عقباها . على كلّ كان لبقاءِ بعض الجنود الفرنسيين اثر غير محمود في نفوس السكان

ومما شكا منهُ الساريون عدم اشتراكهم اشتراكاً فعليًّا في الحكم ، مع ان نصيبهم فيهِ بعد الحرب ، كان أعظم جدًّا من نصيبهم فيهِ قبلها . ذلك ان معظم كبار الموظفين في السار قبل الحرب كانوا ألماناً من برلين . فلما تولّت لجنة جمعية الامم الحكم استغنت عن خدمات هؤلاءِ لاضعاف النفوذ الالماني من جهة ولارضاءِ الساريين من جهة ثانية بتعيينهم في المناصب الشاغرة . ولكنهم ما كادوا يعطوْن هذا حتى طلبوا المزيد . فلما رأت اللجنة انشاءَ برلمان استشاري لهم مؤلف من ثلاثين عضواً ينتخبون بالاقتراع العام ، كان اول طلبٍ طلبهُ البرلمان حق اقتراح التشريع ، واستجواب الحكومة ، والتمتع بالحصانة النيابية

وبلغت المرحلة الاولى في حكم السار بحسب النظام الجديد ، ذروتها في سنة ١٩٢٣ اذ استفحل التبرم وكان الباعث المباشر عليهِ احتلال فرنسا للرور ، فاضرب عمّال مناجم السار اضراباً دام مائة يوم ، عطفاً على اخوانهم في الرور . فاتخذ رو رئيس اللجنة الحاكمة وسائل شديدة لمعالجة الحالة فضيّق على الحريات وقرّر ان يستدعي الجنود الفرنسية اذا اضطرب حبل الامن

هذه الحوادث نبهت بريطانيا الى ما هو جارٍ في مقاطعة السار ، وكانت حتى ذلك الوقت مرخية العنان لفرنسا فيها . فطلبت الحكومة البريطانية تعيين لجنة للتحقيق في اعمال اللجنة الحاكمة في السار فظهر ان جمعية الامم لم تمارس في خلال السنوات الثلاث التي انقضت على لجنة «رو» ايّة سيطرة على اعمال اللجنة وان رو نفسهُ كان مسيطراً على اللجنة ، بل انهُ قرّر تنفيذ خطط جديدة احياناً من دون ان يستشير زملاءَهُ . فكان من اثر هذا التحقيق ان جعل رو يستشير زملاءَهُ في كل اعمالهِ . وقد ظلّ في منصبهِ هذا الى سنة ١٩٢٦ لما عين ستيفنز الكندي رئيساً ثم تبعهُ المستر جفري نوكس الانكليزي وهو لا يزال رئيساً الى الآن

وقد كان الجانب الاخير من رآسة رو ورآستي ستيفنز ونوكس عهد سلام واقبال . ففي الناحية الواحدة كان الساريون قد تعوَّدوا نظام الحكم الجديد ومع ان معارضتهم لم تضعف الاَّ انها فقدت لذعها الاول. ثم ان اللجنة نفسها فقدت رويداً رويداً خضوعها للنفوذ الفرنسي ، لان الرئيسين اللذين خلفا رو كانا انكلوسكسونييْن . وضعفت في هذا العهد الدعاية الفرنسية في المدارس ونقص الجنود الفرنسيون الباقون في البلاد رويداً رويداً حتى خرج آخرهم من البلاد في سنة ١٩٣٠ وفي بداءة سنة ١٩٢٧ بدأ الماليون الفرنسيون يبيعون حصصهم في الصناعات السارية فمهدوا بذلك السبيل ليكون الحكم حكماً محايداً على قدر المستطاع . وفي خلال هذه المدة حلَّ التقارب بين فرنسا والمانيا الذي عقدهُ بريان وتشرزمان في لوكارنو . وفي سنة ١٩٢٩ اخذ تشرزمان وبريان يبحثان في امكان بيع مناجم السار لالمانيا ، ولكن ارباب الصناعة في الرور لم يرقهم هذا فكان الثمن الذي عرضهُ تشرزمن على فرنسا اقل كثيراً مما يمكن قبولهُ

فلما تسلم هتلر مقاليد الحكم في المانيا ، تعقدت الحالة ، لان حلَّ هتلر لنقابات العمال حمل الاشتراكيين الساريين على التفكير في الدعاية الى ابقاء الحالة الراهنة . وظنَّ بعض الكتَّاب ان النزاع الديني في الريخ ، لا بدَّ ان يحمل الكاثوليك من الساريين ، وهم اكثرية ، على مقاومة العودة الى حظيرة الريخ . وبلغت المسألة اعقد ما يكون في صيف ١٩٣٤ اذا اشتدت الدعاية النازية في السار فطلب رئيس اللجنة قوة دولية للأشراف على حفظ الأمن في البلاد . فأفضى هذا بعد مفاوضات طويلة الى انشاء القوة الدولية وانتظام بريطانيا فيها . فكان هذا القرار خير مخرج للدول من مسألة كادت تتفاقم حتى رأى بعضهم شرر الحرب متطايراً منها

بعد الاستفتاء

لما اقترب ميعاد الاستفتاء أفتى كثيرون من الكتَّاب المطلعين على دقائق الحالة في السار ان المانيا لا بدَّ فائزة باكثرية كبيرة. ولكن احداً منهم لم يبلغ في تقديره حدَّ التسعين في المائة او تزيد التي نالتها المانيا حقيقة في الاستفتاء . وهذه الاكثرية الكبيرة تهوّن على جمعية الامم اتخاذ القرار النهائي في اعادة السار الى الريخ . ذلك انهُ لو كانت نتيجة الاستفتاء مثلاً ٦٠ في المائة في جانب المانيا و٤٠ في المائة في جانب الحالة الراهنة ، لاضطرَّت جمعية الامم ان تقيم في القرار الذي تتخذه وزناً لهذه الاقلية الكبيرة ، وقد يحملها ذلك الى شطر السار ، وهذا لا ريب يقيم المانيا ويقعدها وهو مما لايطرب لهُ محبٌّ للسلام . ففوز المانيا بهذه الاكثرية الساحقة كان في مصلحة السلام وقد اعترف المسيو فلاندان رئيس وزراء فرنسا بذلك فقال « ان نتيجة استفتاء السار اقتراع للسلام » . وردَّد الهر هتلر من ناحيته ما قالهُ قبلاً وهو انهُ بعودة السار تصفَّى آخر المسائل المعلقة بين فرنسا والمانيا مما يخص الحدود بين البلادين . وينتظر ان يسلّم السار لالمانيا في اول مارس ١٩٣٥

الدولة المندمجة

الدولة الفاشية وعلاقة المال بالعمال

ليس مثل الازمات كاشفاً لمواطن الضعف في النظام الديموقراطي . ان حسناته تبدو جلية بهية في ايام السلم والرخاء اذ يسهل حفظ الشعب مكتفياً قنوعاً بحكومتهِ راضياً عن حاله . ذلك ان الرخاء يفحم النقاد ويحمل المنتخبين على تأييد اية زعامة ، او القناعة بغير زعامة على الاطلاق . ولكن اذا وقفت امة وظهرها الى الجدار — على حد تعبير الانكليز — تدفع عن كيانها في حرب ، او عن وحدتها في ثورة ، او اذا ارتجَّ كيانها الاقتصادي وتقلقل حتى كاد يهوي ، بدت مواطن الضعف حينئذٍ في الفلسفة الديموقراطية كأساس للحكم

لذلك نرى ان الديموقراطية في اوربا بعد الحرب ، في دور جزر ، ولا تفسير لذلك الآن الاضطراب والقلق اثقلا كاهل النظام الرأسمالي ، فضاق الناس به ذرعاً ولا مفرَّ الاَّ الى الشيوعية والاشتراكية حتى جاء موسوليني فأدخل الفكرة الفاشيَّة رويداً رويداً ، وهو يتطور معها ويطورّها بحسب حاجة البلاد محتفظاً بتمثيل الشعب ، ولكن محولاً معنى التمثيل ، من معنى الى معنى . فقد كان في البدء المثل الذي ترنو اليهِ الديموقراطية ، هو اطلاق حق الاقتراع ، لجميع البالغين والبالغات ، واما « الدولة المندمجة » او « الدولة النقابية » التي يرنو اليها موسوليني ، فلا يلغى التمثيل من نظامها ، وانما يكون تمثيلاً لاصحاب المصالح الاقتصادية في البلاد

وقد عني موسوليني من يوم تقلده لازمَّة الامور في بلاده ، ببيان انفصاله في نظامه الجديد ، عن صورة الدولة التي كان يرسمها الاحرار في القرن التاسع عشر . فالاختلاف بين الاحرار والاشتراكيين كان اختلاف « كمّ » اما الاختلاف بينهما من ناحية وبين الفاشية من ناحية اخرى فهو اختلاف « نوع » . ذلك ان الاحرار كانوا في القرن التاسع عشر يعتقدون ان الدولة يجب ان لا تتدخل في ميدان الاعمال الاَّ اذا كان لا بدَّ من ذلك ، لاضطراب الحالة وتفاقم الاضطراب ، وان على الحكومة ان تترك ميدان الاعمال حرًّا ، لتزاحم القوى القومية وتنافسها تنافساً حرًّا ، وان هذا التنافس الحر هو سرّ التقدم القومي والباعث على الرخاء . اما الاشتراكي وهمُّهُ الاول متجه الى العامل اليدوي ، فيرى ان الدولة نفسها يجب ان تدير الاعمال والمرافق العامة وانها يجب ان تعمد في استعمال سلطتها الى القوة اذا لزم الامر ، في مصلحة طبقة خاصة دون غيرها من طبقات الشعب

وكلتا المدرستين — مدرسة الاحرار ومدرسة الاشتراكيين — تحسب الدولة فكرة مجردة لا نظاماً يحسُّ فيهِ رجل الشارع والعامل البسيط والفلاح الساذج ، بأنهم اجزاء منهُ

وليس من السهل او اليسير ان تضع تعريفاً جامعاً مانعاً للفلسفة الفاشيـّة ، وانما يمكن اجمالها بقولك « كل فرد للدولة والدولة للجميع » . فليس ثمة عمل من اعمال الدولة في نظر موسوليني لا يصحُّ ان يكون موضع عناية كبيرة عند الدولة الفاشية ، بل يجب على الدولة ان تنظم اعمال ابنائها لكي يجنوا اكبر قدر يمكن جنيه من جهودهم ، ولكي تتجه جهودهم في النواحي التي تفيد الامة جمعاء . فالفاشية ترمي الى اندماج الدولة حتى تخرج الامة من البوتقة وحدة مندمجة كأنها جسم حي . انها ترمي الى ان توحد بين الامة والفرد ، وان تضم تحت جناحي الدولة كل فرد وكل عمل

فالفاشية تنكر وجود كائن دولي وراء الدولة . والدولة القومية هي في نظرهم الوحدة العليا ولها الحق في ان تطلب وتنتظر من كل فرد من ابنائها ولاءه التام . والطبقات في هذه الدولة لا يعترف بها الاَّ اذا كانت تقوم بوظيفة من وظائف الدولة اي انها تمثل او تقابل العضو في جسم الانسان . ولما كانت اعضاء الجسم مندمجة متحدة متناسقة في عملها ، ومتجهة نحو غرض واحد هو اتساق الحياة الفردية ، كذلك الطبقات في الدولة يجب ان تندمج وتتحد وتتجه في عملها نحو غرض واحد هو اتساق الحياة القومية . والبرلمان الذي يمثل هذه الطبقات ، هو البرلمان الذي يرمي موسوليني الى انشائه

ان الدولة الفاشية تعترف بوجود نقابات العمال . ولكنها تنكر علاقة اية نقابة بالمـذهب الماركسي ، لان كل نقابة يجب الاَّ تتعدى في ولائها حدود الدولة . وهي تعترف في الوقت نفسه بجماعات اصحاب العمل ، اعترافها بنقابات العمال ، كما تعترف بكل الجماعات القائمة على اساس من وحدة العمل . واعترافها هذا ليس مطلقاً بل لهُ شروط اي انها لاتعترف بنقابة عمال او بجماعة تجار ، ن لهذه النقابة او لتلك الجماعة حقوقاً ضد الدولة ، بل هي تعترف بها الى مدى حاجة الدولة اليها في بناء نظامها المندمج . لذلك ترى النقابة المعينة ، والجماعة الخاصة ، من ابناء الامة اجزاء حية ، او اعضاء حية على الاصح ، في جسم الدولة ، وعلى كل منها تبعة خاصة ، خاضعة لسيطرة الدولة وتنظيمها

فالنقابة قد تسعى الى رفع اجور العمال وتحسين احوالهم المعاشية ، وجماعة اصحاب العمل ، قد تميل الى خفض الاجور ، ولكن كلتا النقابة والجماعة ، يجب ان تخضع لحكم الدولة ، التي لاتسمح ببلوغ النزاع بين الفريقين مبلغاً يهدد سلامة الدولة . فالتحكيم الاجباري في شؤون الصناعة ، فكرة اساسية في الدولة الفاشية

***

من اغرب مظاهر الموقف الذي يقفهُ الاغراب نحو موسوليني ونظامهِ الجديد ، تباين النظر واختلاف الرأي في حكمهم عليهِ . فطائفة من المحافظين الغلاة في محافظتهم ، يحترمونهُ ويحاولون ان يسيروا في أثرهِ . وهم لو عاشوا في ايطاليا لانحوا في الغالب على حكومتهِ واتهموهُ بالاشتراكية . فكأنهم لا يدرون مثلاً ان صاحب مصنع في ايطاليا لا يسعهُ ان يستغني عن عامل ما الاَّ اذا ثبت لمكتب « تخديم العمال » ان اخراجهُ ضرورة اقتصادية . او انهُ مقصّر . ثم هناك طائفة من اتباع

الاشتراكية وزعمائها ، والاشتراكية معتقدهُ القديم ، لا يجدون من عنيف القول ما يكفيهم في تصوير مساوىء النظام الفاشيّ . وهم لو دروا لوجدوا ان معظم المقترحات العملية في برنامجهم الاقتصادي، قد تناولها موسوليني وطبقها في الدولة الفاشية . فموسوليني رجل عملي ، ولا يرهب الالفاظ التي توسم بها الاحزاب ، ولذلك تراهُ اخذ من اليمين ومن اليسار كلَّ ما رآهُ صالحاً لغرضهِ ، ويسهل نقلهُ من حيز الفكر والامكان الى حيز الفعل والتطبيق

وقبل ان نذكر اهم ما اشتمل عليهِ « دستور العمل » في ايطاليا الفاشية لا بدّ من ذكر كلمة عن حالة ايطاليا ، لما اقدم موسوليني على تنفيذ خططهِ الجديدة ، التي اضافت ولا ريب ، شيئاً جديداً الى فلسفة الانظمة السياسية ، بجمعها بين السياسة والاقتصاد في صعيد واحد

فنحن اذا نظرنا الى ايطاليا من الوجهة الاقتصادية وجدناها امة الزارع الصغير، والصانع الصغير، وصاحب الدكان الصغير . ففي الاعمال التجارية قلما تجد المخازن الكبيرة التي تجدها في لندن وباريس ونيويورك ولا الشركات التي تدير سلسلة من المخازن الكبيرة في العاصمة وسائر المدن الايطالية . بل قلما تجد رجلاً واحداً يملك مناطق واسعة من الارض الاّ في الجنوب . ومعظم الملاك لا يعدو ما يملكه أحدهم ان يكون حقلاً أو بستاناً صغيراً . فشعب يتسم نظامهُ الاقتصادي بهذه السمة ، قلما يكون مرتعاً خصباً للرأسمالية او للشيوعية . فهذه الناحية من حياة الامة الايطالية ، كانت تربة صالحة للفاشية ، فأرسلت جذورها في الارض وفروعها في السماء . ذلك ان الفاشية ترمي الى تعزيز الجهد الفرديّ الصغير ، من دون ان تسمح للنزعة الفردية بالاستفحال حتى تهدّد وحدة الدولة بالانفصام . ولا ريب في ان تحقيق أغراض موسوليني ، قد مهّدت سبيلهُ هذه « الفردية » الشائعة في البلاد الايطالية

يضاف الى ذلك ان اقبال ايطاليا على الصناعة الحديثة قريب العهد ، واسباب تأخرها كثيرة معظمها قلة الوقود ، فحماً كان او نفطاً . أما وقد بدأت تبني المحطات لتوليد الطاقة الكهربائية من مساقط المياه ، فالمرجح ان تتمكن ايطاليا من منافسة الدول الصناعية بعد انقشاع غيمة الضائقة العالمية . بل هي تنافسها منذ الآن . ثم ان العامل الايطالي ، يحبُّ الطبيعة ، ويفتنهُ جمالها ، فمن فقد منهم عمله في مصنع ، يستطيع ادماجهُ من دون عناءٍ في جمهور الزرّاع والحصّاد . اما المناطق الصناعية فمحصورة في بقاع معينة فيمكن معالجة ما ينتابها معالجة اجمالية ، وهذا متعذر لو انتشرت في طول البلاد وعرضها

ومع كل هذا عجزت الرأسمالية قبل الحرب وبعيدها عن معالجة الحالة . فسادت فوضى في حياة ايطاليا الصناعية حملت طائفتي اصحاب العمل والعمال على التوق الى اي حلٍّ مرضٍ، يستتبُّ على أثره السلام والوئام بينهما . ففي سنة ١٩٢١ حدث في ايطاليا ١١٣٤ اضراباً ، اشترك فيها ٧٢٣٨٦٢ عاملاً وخسرت بها المصانع ٨١١٠٠٦٣ يوماً من ايام العمل والانتاج . وكان جليّاً ان فوضى من هذا

القبيل، تخرب البلاد اذا استمرت سنة اخرى . فتدمر المصانع وتفضي الى فقد الاسواق . ولذلك بدا لاصحاب الرأي ، ان النظام الرأسمالي قد افلس في ايطاليا وان الرأسماليين والاشتراكيين سواء في عجزهم عن الوصول الى علاج . وهذا كله مهد الطريق لتجربة نظام جديد في جسم الدولة الاقتصادي

***

كان موسوليني الرجل الامثل ، لخلق النظام الجديد . لانه مهما يقل فيه ، فانهُ غير متحكم . انهُ يدين بكثير من آرائهِ الاقتصادية الى سورل الفرنسي، ولكنهُ لا يتقيد بهِ. فلما دخلت الفاشية ميدان السياسة احجم موسوليني عند اتخاذ اي موقف حاسم في موضوع العلاقة بين الرأسماليين والعمل ، لانهُ كان قد ادرك ان الحالة الاقتصادية في تغيُّر وتبدّل مستمرين . كان غرضهُ وحدة الامة ، وقطع دابر الشقاق والنزاع بين طبقاتها . اما السبيل الى ذلك فلا ينيرهُ الاّ الاختبار . وكذلك أنشأ رويداً رويداً النقابات والاتحادات الاقتصادية التي يقوم عليها نظامهُ للفصل في موضوعات الشقاق ، بوسائل سلمية

وكان قد حدّد موقفه نحو طبقة العمال في خطبة فاه بها قبل تقلده الحكم قال فيها : — « ان الذين يعملون سوف يكونون في مقدمة الامة ، لان امة الغد سوف تكون امة منتجين لا امة طفيليات». وفي دسمبر سنة ١٩٢٣ قال في خطبة اخرى « لما كنت في العشرين من العمر كنت اشتغل بيدي . اشتغلت عاملاً وبنّاء طوب . وانا لا اذكر هذا ابتغاء عطفكم عليَّ ، وانما لأبيّن انني لا استطيع ان اكون عدوًّا لطبقة العمال » . وفي الخطبة ذاتها قال ايضاً : « ان الحكومة التي اتشرف بتولي رآستها ليست حكومة ضد العمال ولن تكون كذلك »

وفي السنوات الثلاث الاولى من الحكم الفاشي اعدت نظم مختلفة لوضع العلاقات بين العمال واصحاب العمل على اساس من الوئام والنظام ولكن صرف النظر عنها . وهذه العلاقات يحكمها الآن القانون الذي صدر في ابريل سنة ١٩٢٧

ونستطيع ان نحسب هذا القانون مرحلة على طريق عظمة ايطاليا كما يحسب الانكليز « الماجنا كارتا» الذي منحوه في سنة ١٢١٥ فكان فاتحة الحرية المدنية التي بنيت عليها عظمة الامة الانكليزية

من المتعذر الموازنة بين الاثنين ، فكلٌّ منها أخرج في زمن يختلف عن الآخر كل الاختلاف . «فالماجنا كارتا» الانكليزي صدر نتيجة للنزاع بين الاعيان والملك ، ولما ساد الحياة العامة الانكليزية من الظلم والفساد . واما القانون الايطالي فصدر نتيجة للمبادىء التي قررتها الفاشية واذاعتها في سبيل « الدوله المندمجة » من جميع عناصرها . فالقانون الايطالي لم يعرض لتقرير الحريات العامة من سياسية وفكرية ودينية ، لان هذه الحريات كانت مما تحتمهُ قوانين البلاد ويضمنهُ دستورها

وانما المشكلة التي عرض لها هذا القانون هي مشكلة علاقة الرأسمال وأصحابهُ بالعمال ، وما ينجم عن ذلك من الاصطدام الاجتماعي ، مما يجعل هذه المشكلة من اعقد المشكلات التي انتابت الاجتماع الحديث

وهذا القانون ليس قانوناً بالمعنى المألوف وانما هو تصريح ينطوي على المبادىء التي تقوم عليها «الدولة المندمجة». وهو يحتوي على ٣٠ مبدأ ، العشرة الاولى منها ادمجت في قانون النقابات . وبموجب هذا القانون ، يحقُّ للمشتغلين بالفنون والصناعات والحرف المختلفة ان يؤلفوا نقابات واتحادات ، وبهِ عيّنت حقوق كلّ من فريقي العمال واصحاب العمل وما عليهم من التبعات، وحدّد حق الدولة المطلق في السيطرة على انتاج الامة بغية خيرها الاعظم . وفيها كذلك تقرّر ان الرأسمال والعمل في مستوى واحد من المقام من حيث علاقتهما بالدولة ، وبهِ منعت الاضطرابات التي تشلُّ الصناعات واصبحت تحسب في عداد الجرائم، وبهِ جعل العمل اليدويُّ مساوياً للعمل العقلي من حيث ما لهما من الاثر في رخاء الدولة وحسن مآلها . والغرض الاسمى من كل هذا هو السموّ بجميع العمّال الى اعلى مراتب الكفاءة والانتاج والفائدة . وقد نصَّ في هذه المبادىء على ان ايَّ خلاف بين المتمولين والعمال لا يفضُّ عن طريق النقابات يجب ان يحال الى مجلس العمال الاعلى ، للحكم فيهِ حكماً منصفاً نهائياً

أما المبادىء العشرة التالية فتعيّن ما يلزم لانشاء العقود بين اصحاب العمل والعمال . ولهذه العقود قيمة القوانين ، ويجب ان يحترمها المستأجرون والعمال على السواء . وفيهِ حدّدت الطرق التي بموجبها تعيّن الرواتب والاجور ، عند حدٍ يمكّن العمال من العيشة في مستوى يتلاءم وحاجاتهم العصرية . وفيهِ كذلك ذكرت القواعد التي تمنح بموجبها اجور اضافية عن العمل الاضافي ، نهاراً وليلاً ، والتعويض الذي يدفع للعامل اذا اعلن باخراجهِ من العمل لغير تقصير منهُ ، والاحوال التي فيها يحقُّ لصاحب العمل ان يستغني عن عامل من دون ان يحتم عليهِ دفع تعويض لهُ ، وكذلك الاحوال التي يحق لهُ فيها ان يفرض غرامات على العمال

ويلي ذلك قواعد «مكاتب التخديم» والتأمين في وجوههِ المختلفة الاجتماعي والصناعي والصحي هذه هي القواعد ، وعلى اساسها وضعت قوانين مختلفة تنفّذ الآن ، مهّدت السبيل لسنّ اخرى متى اقتضت الحال بما تقضي بهِ التجاريب

ومما هو حريٌّ بالذكر ان نحو عشر سنوات انقضت منذ صَدرَ هذا التصريح ، ولم يحدث في طول ايطاليا وعرضها اضراب واحد . وكل خلاف نشأ بين الرأسماليين والعمال قد فضَّ بطريقة سلمية جرياً على قواعد هذا التصريح والقوانين التي بنيت عليهِ

وقد تمكن بعض اصحاب العمل ، في بعض الصناعات ، من رفع أجور عمالهم ، من دون ان يطالبهم العمال بذلك . وقبل العمال في صناعات وحرفٍ اخرى ، النقص في مرتباتهم ، كلما اقتضت الحال ذلك . وفي احوال اخرى طلب العمال انفسهم خفض أجورهم رغبة في تمكين اصحاب العمل من زيادة عدد العمال ، لكي لا يحرم زملاءٌ لهم منهُ

وقد تمكن موسوليني من الحصول على هذه النتائج الباهرة في ايطاليا ، باذاعة مبادىء التعاون والاشتراك في كل الطبقات ، وما على كلّ منها من التبعة نحو الامة

الدكتور شاخت

دعامة الريخ الاقتصادية

تمكنت المانيا ، بالسعي المستمر ، مدى عقد كامل من السنين ، تهدد تارة وتغضب طوراً وتلين اخرى ، من أن تخفف عبء التعويضات رويداً رويداً حتى خلصت منهُ في مؤتمر لوزان سنة ١٩٣٢ الاَّ مبلغاً يحسب يسيراً اذا قوبل بالارقام الاولى . وهي تحاول الآن ، بالعزم الحاسم نفسه ، ان تتخلص من قيود معاهدات الصلح ، وخاصة ما كان منها مرتبطاً بالتسلح وتبعة الحرب ، بل قد وجهت أنظارها كذلك الى تخفيف أعباء الديون التجارية الخاصة التي اقترضت معظمها من اميركا وبريطانيا وسويسرا وهولندا وغيرها من البلدان

فأنت ترى ان المانيا سائرة سيراً حثيثاً في سبيل التفلت من القيود العسكرية والمالية التي فرضت عليها نتيجة لهزيمتها في الحرب الكبرى ، وأخذت تستعيد مكانتها الاولى في قارة اوربا . وقد كان للدكتور شاخت مدير بنك الريخ (الريخسبنك) سابقاً مكانة خاصة وأثر كبير في هذا العمل العظيم. فالدكتور شاخت هو العقل المرشد للنظام النازي في الناحية الاقتصادية ، كما كان للحكومات الجمهورية التي سبقته . فهو في المانيا دليل على استقرار النظام الاقتصادي والمالي ، أو هو حائل يحول دون القيام بتجارب اقتصادية ونقدية تخالف الاصول المرعية عند علماء الاقتصاد كما يفعلون في اميركا. فوجوده في الريخسبنك او في وزارة المالية او وزارة الاقتصاد يمكن ان يؤخذ ضماناً على ان المانيا لن تحاول على الاقل فيما يختص بنظام البنوك ان تخرج على التقاليد ، لانهُ بعد ما ثبت سعر المارك لن يرضى بأن يقلقله مقلقل أيًّا كان

نعم أن موقفه هذا ، قد يغضب بعض المتطرفين من أنصار هتلر ، المعارضين للفلسفة الرأسمالية لأن هؤلاء كانوا يظنون أنهم يستطيعون ان يقنعوا الهر هتلر ، بأن الريخ الثالث يجب ألاَّ ينقل نفسه ، ببقايا حضارة رأسمالية كالنقد القائم على قاعدة الذهب . ولكن الدكتور شاخت معروف بشدة الاخلاص في نزعته الوطنية ، ولذلك لا يستطيع أحد أن يتهمه بما اتهم به أنصار النظام السابق . ومع انهُ من المنضمين حديثاً الى الايمان بالدكتاتورية الاَّ أن نضاله الشديد ، قبل قيام النازي ، في سبيل الوحدة الالمانية ، والبعث الالماني ، يجعل له مقاماً خاصًّا في المانيا النازية . فقد ندد من قبل بمعاهدة الصلح ، وباحتلال بلاد الرين ، وقاوم مشروع يونغ ، وهو الآن يوجه عنايته الى حماية الاقتصاد الالماني ، من التدهور ، والى نقص الدفعات التي تسدد الى دائني المانيا التجاريين ، حتى لا ترهق هذه الدفعات استقرارها المالي المنشود

والدكتور شاخت ، بخـلاف منتاغو نورمان مدير بنك انجلترا ، والمسيو موريه مدير بنك فرنسا ، لا يكتفي ، ولم يكتف من قبل ، بحصر جهاده في ميدان المـال والاقتصاد ، بل كانت له مواقف وطنية مشهودة ، وخطبٌ سياسية ، يرضى عنها جميعاً ، أشد النازي تطرفاً وعنفاً في الوطنية. فالمستر منتاغو نورمان اذ يعبر البحر الى اميركا، يفعل ذلك متخفياً تحت اسم مستعار في الغالب . أما الدكتور شاخت ، فلا يخفي اسمه ولا يمسك عن ابداء آرائهِ ، بل ان بعض رحلاته الى الخارج كانت حملات عنيفة من الدعاية لالمانيا . ففي خـلال احتجاجات لجنة دوز في باريس كان الدكتور شاخت على ميعاد مع رئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاريه ، فلما طال انتظاره خمساً وعشرين دقيقة قام وانصرف احتجاجاً على هذا التأخر ، فلحق بهِ رسول واقنعهُ بأن الانتظار كان لسوء تفاهم في ضرب الميعاد . ولما سافر البلون Z. R. 3 من المانيا الى اميركا — وكان قد بني في المانيا لاميركا وفقاً لمعاهدة الصلح وكان آخر بلون يحق لالمانيا بناؤه — انفطر قلب الدكتور شاخت غضباً وقال « ان هـذا مثال مخيف لبغضهم وحسدهم وطلبهم للثأر » !

ولما تطورت الحال في المانيا ، وزاد تبرمها بالحالة الناجمة عن معاهدة فرساي ، حتى كاد يصبح التبرم ثورة ، زال من ميدان السياسة الالمانية ، رجال امثال بروينغ وكرسيوس ، وقام مقامهم رجال من نوع هتلر وجوبلس وجورنج ، وهم رجال يتصفون في مقدمة ما يتصفون به بوطنية ملتهبة، وخطابة نارية ، ومقدرة نادرة في الدعاية . وهذا الانقلاب لم يكن يختلف اختلافاً عظيماً عن طبيعة الدكتور شاخت ونشأته . بل انهُ ، والحق يقال ، من الرجال الذين مهدوا له السبيل ، لانهُ من الوطنيين الالمان القلائل ، الذين ثاروا من البدء على معاهدة الصلح ، وخاصة ما كان مرتبطاً منها بالتعويضات وذلك قبل ان يتقلد النازي زمام الامر ، ويبثوا هذه الروح في صفوف الامة الالمانية

وللدكتور شاخت آراء حاسمة ، وطبع لا يقبل الهوادة . ثم انهُ ليس رجلاً يصرف همه الى الادارة ، والاختصاص بمسائل المال والنقد فحسب ، بل هو ادرك من معالجتهِ للشؤون الاقتصادية الاخطاء التي تتعرض لها المانيا اذا ظلت سائرة على الخطط الاقتصادية التي وضعت في معاهدة فرساي . لذلك لم يكتف بكتابة المذكرات الفنية والاقتصادية والمالية لدولته ، بل كان يلقي الخطب ويكتب المقالات معرباً فيها ، في المانيا وخارجها ، عن آرائهِ الحاسمة في هذه الموضوعات

وهو من اصل سكسوني وضيع ، ولد في شلزويج هولشتين سنة ١٨٧٧ — كانت هذه المقاطعة خاصة بالدانمارك فضمها بسمارك الى المانيا ، ثم ضمَّ شطر منها الى الدانمارك بعد الحرب الكبرى — وكذلك نشأ في احدى المقاطعات الواقعة عند حدود المانيا ، فنشأت نزعته الوطنية قوية عنيفة . وعاش والده في اميركا ، وهو حدث ، فغرست في نفسه الاصول الديموقراطية وقد ظل مؤمناً بالديموقراطية واساليبها الى عهد قريب . ففي سنة ١٩٢٩ القى خطبة في مونيخ — مدينة البيت الاسمر مقر حركة النازي — فقال فيها : يخطىء الذين يظنون اننا نستطيع ان نعالج هذا الارث

المرهق — قيود معاهدة فرساي — بوسائل دكتاتورية . وانني ما ازال ارجو ان يقف الرجال الذين يهمهم مستقبل المانيا موقفاً مشرفاً يستند الى المبادىء الديموقراطية ، لأن من هذه المبادىء دون غيرها ، ينبع العمل الجدي لانقاذ المانيا »

ترى ما كان رأي هتلر يومئذ في هذه الكلمات !

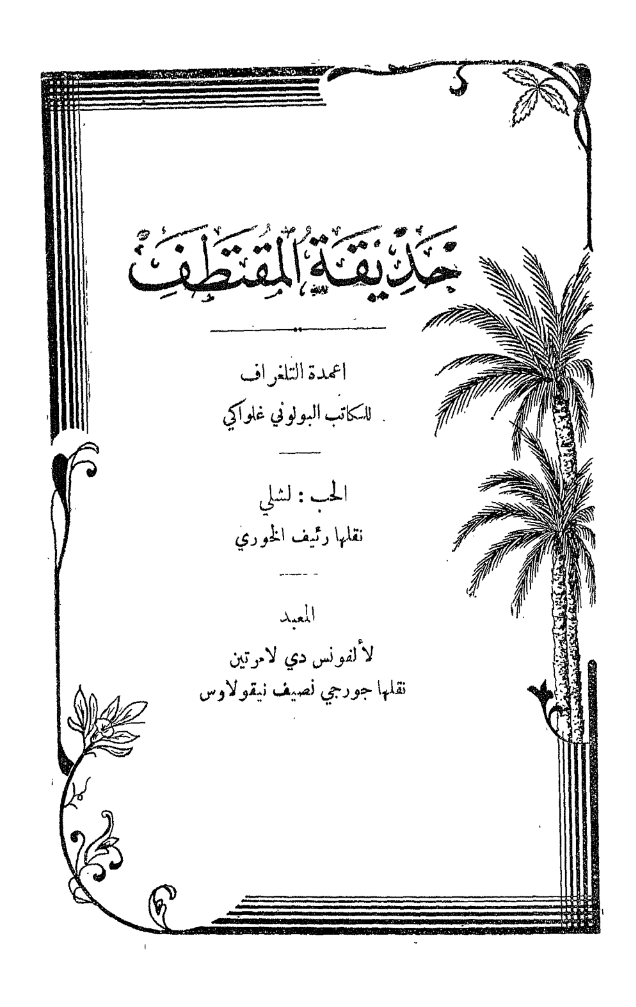
ولكن الحوادث ايدت هتلر ، ولم تكن شجرة الديموقراطية الالمانية التي قام هتلر لاقتلاعها ، الاّ غرسة ضعيفة ، وقد دبَّ اليها النخر قبل ان تشتدّ ، فلم تثبت في وجهه

بعد سنة من القاء خطبته في مونيخ ، انفصل الدكتور شاخت ، عن وزارة الدكتور برونتغ — وقد كانت آخر حكومة جمهورية صميمة في المانيا — باستقالته من الريخسبنك وتنديده بمشروع يونغ لتسديد التعويضات . ذلك ان غضبهُ على التعويضات وحنقه على قيود معاهدات الصلح ، كانا اقوى في نفسه من تعلقه بالمبادىء الديموقراطية . وبعد سنة اخرى انضم الى ما كان يعرف حينئذ (١٩٣١) بالجبهة الوطنية ، وهي ائتلاف من النازي والملكيين لاسقاط الجمهورية

وما لبث النازي حتى خرجوا من هذا الائتلاف بأكاليل الظفر ، ومن الاركان التي يعتمدونَ عليها ، في ظفرهم هذا ، الدكتور شاخت نفسه ، ولعله ادرك حينئذ ، ان امله في الديموقراطية قد انهار ، وان المانيا ، يجب ان تتحد ، « بالدم والحديد » . حتى في ايام ديموقراطيته ، اذ كان عضواً في الحزب الديموقراطي الالماني ، كان ينقد نقداً عنيفاً سياسة الحكومات الجمهورية ، وكان لا يخفي انهُ عدو للاشتراكية . فقد حذر تلك الحكومات ، من التضخيم النقدي ، ومن التمادي في اقتراض القروض القصيرة الآجال . وكثيراً ما وجه النظر الى الصعاب التي تعانى ، في مسألة نقل البضائع والمال ، تسديداً للتعويضات . وكذلك ترى انهُ مع كونهِ قبلاً ، من غير الدعاة للدكتاتورية ، كان يشاطر هؤلاءِ الدعاة تبرمهم بالحالة السائدة في المانيا ، وغضبهم على اعدائها السابقين

بعد عودتهِ من اميركا درس بين سنة ١٨٩٥ — ١٨٩٩ علوم الاقتصاد ، في جامعات مونيخ وليبزج وبرلين وكيل ، ثم تقلب في المناصب المالية والاقتصادية العالية ، الى ان كانت الحرب الكبرى ، فعين مستشاراً اقتصاديًّا للادارة الالمانية في البلجيك ثم لما عاد الى المانيا عين مديراً «للناشونالبنك» وفي سنة ١٩٣٢ عين قوميسيراً للنقد ، ومديراً لبنك الريخ . ثم جاءت استقالتهُ من بنك الريخ في عهد الوزير برونتغ وعاد اليهِ سنة ١٩٣٣ بعد قيام الحكم النازي

ان شاخت وتيسن Thyssen هما الركنان اللذان يستند اليهما النظام النازي من الناحية الاقتصادية وكلاهما قد خدم امتهُ وبلادهُ أحسن خدمة . ومن الطبيعي ان يكونا غير ميالين الى الاشتراكية . وهذا قد يثير عليهما بعض اعضاء الحزب النازي لان هذا الحزب ، ليس وطنيًّا فقط بل اشتراكيًّا كذلك واسمهُ الرسمي الحزب الوطني الاشتراكي . ولكن المانيا الآن لا تستغني عن شاخت ، لانهُ جمع فضيلتي العلم والخبرة من ناحية والاخلاص في الوطنية من ناحية اخرى



حديقة المقتطف

اعمدة التلغراف

للكاتب البولوني غلواكي

الحب : لشلي

نقلها رئيف الخوري

المعبد

لألفونس دي لامرتين

نقلها جورجي نصيف نيقولاوس

اعجوبة التلغراف

للكاتب البولوني غلواكي

زارت احدى الاميرات ملجأ لليتامى . فعرض لها مشهد كان غاية في الندرة والغرابة . فأنها رأت اربعة صبيان في عراك شديد آخذاً كل منهم بتلابيب الآخر ، وهم يوسعون بعضهم بعضاً لكماً ولطماً ، نزاعاً على كتاب ممزّق بين ايديهم فاستفظعت عملهم هذا وصاحت بهم صيحة الزجرِ والانتهارِ قائلة : — على مَ هذا الصراع ايها الاولاد الحمقى ؟ فأقلّ عقاب تستحقونهُ عليهِ ان تحرموا نصيبكم من الكعك وتوضعوا ركّعاً في الزاوية

فاجابها واحد منهم ، معتذراً عن ذنبه ومشيراً الى صبي آخر :

— انهُ اغتصبني كتاب روبنصن كروزو

فقال ذاك : هذا كذب وبهتان ! انهُ هو الذي اغتصب الكتاب !

وقال صبيٌّ ثالث : لله ما اشد افتراءك ! افلست انت من انتزع الكتاب مني ؟

وكانت ناظرة الملجإِ قد بادرت الى تدارك الأمر فوضعت حدًّا لصراعهم ونزاعهم . ثم خلت بالاميرة وقالت لها ان ما شهدتهِ اليوم في الملجإِ كثير الحدوث ، مع اتخاذ كل ما يمكن اتخاذه من وسائل المراقبة التامة . وذلك لان الاولاد مولعون بالمطالعة ولعاً يفوق الوصف والملجأ في اشد احتياج الى الكتب

فهاج هذا النبأ في قلب الاميرة شرارة شعور غريب لم يخطر من قبل ببالها . لكنها رأت انّ مواظبتها على الافتكار فيه مجلبة للعناء والقلق فأغفلتهُ وبذلت جهدها في نسيانه الى ان زارت ذات يوم رئيس المستشارين وتناول الحديث بعض الشؤون

الدينية واعمال البرّ والصدقة فتذكرت حادثة ملجإِ اليتامى وقصتها عليهِ واعادت ما قالتهُ لها ناظرة الملجإِ

ولما فرغت من كلامها طرأ على المستشار ما كان قد سبق فطرأ عليها من الشعور بامر غريب غير مألوف . فأعارهُ جانباً من عنايتهِ واهتمامهِ واستصوب ان يبعث ببعض الكتب الى اولئك اليتامى . وتذكَّر انهُ كان قد اشترى ، منذ وقت طويل ، طائفة كبيرة من الكتب لاولادهِ وهي الآن مودعة رفارف المكتبة وبعض الصناديق يغشاها الغبار وتعبث بها ايدي الدثور والبلاءِ . ولكنهُ لم يشأ ان يتحمل عناء البحث عنها ومشقة جمع شتاتها وارسالها الى الملجإِ

وفي مساء ذلك اليوم زار المستشار صديقاً لهُ كان عنوان المروءة والاريحية وكانت حياتهُ كلها وقفاً على انشاءِ الملاجيء والمتصدقات ومساعدة لجان البر والاحسان . فروى لهُ ما شاهدتهُ الاميرة في ملجإِ اليتامى وما قالتهُ لها ناظرة الملجإِ وزاد على ذلك تصريحهُ بعزمهِ على ارسال بعض الكتب ووجوب التضافر على معونة اولئك اليتامى وسدّ عوزهم الادبي . فقال لهُ صديقهُ :

— الخطب سهل الى الغاية ! غداً صباحاً اذهب الى مكتب جريدة « الكورير » واوجه فيها نداء الى ذوي النجدة ليبادروا الى ارسال الكتب التي يحتاج اولئك اليتامى اليها

وفي صباح اليوم التالي خفَّ ذلك الأريحي الى غرفة مدير هذه الجريدة وحدثهُ بما سمعهُ من صديقهِ المستشار والح عليهِ باسم الانسانية ان ينشر في جريدتهِ النداء المطلوب

واتفق لحسن الحظ ان الجريدة كانت يومئذٍ في حاجة شديدة الى خبر رائع طريف يستوقف نشره انظار قرائها ويشغل ما كان باقياً فيها من الفراغ . فجلس مخبرها من فوره — وانشأ مقالة رنانة في هـذا الموضوع عنوانها : « جوع النفوس : بضعة اولاد : في ملجإٍ يتامى — بعضهم ناب الاحتياج الى الكتب — إِن شوقهم إِليها اعظم من ان يوصف — لا تنسوا نفوسهم الجائعة ! »

وبعد بضعة ايام ذهب المخبر الى مكتب الجريدة ومعهُ واحـد من اصدقائه وكان

استاذاً للفلسفة الطبيعية . فلقي عند الباب رجلاً رثّ الملبس وسخ اليدين وبجانبه فتاة صغيرة صفراء الوجه نحيلة الجسم وعليها اطمارٌ بالية تكاد لا تكفي لستر عريها وهي حاملة رزمة كتب قديمة . فسأله المخبر :

— ماذا تريد يا سيدي ؟

فرفع الرجل قبّعتهُ واجاب بخشية واحتشام

— جئنا يا سيدي ببعض الكتب للاولاد ذوي النفوس الجائعة الذين كتبتَ عنهم . وحنت الفتاة الناحلة رأسها وصبغ الحياء محياها المغشى بصفرة فقر الدم. فتناول المخبر الكتب منها وسلمها الى خادم المكتب . وسأل اباها :

— ما اسمك ياسيدي ؟

فاجابهُ بحيرة وارتباك :

— لماذا تروم ياسيدي ان تعرف اسمي ؟

— لابدّ لنا من معرفة اسم المتبرع بهذه الكتب لكى نعلنهُ في الجريدة

— لا ارى اقلّ ضرورة تدعو الى ذلك . فارجو ان تغض النظر عنهُ ولا تعيرهُ شيئاً من الاهتمام . اني رجل بائس ومسكين وواحد من عمال مصنع القبعات . فلست بمستحق ان يعنى بأمري وينوّه باسمي

قال هذا وانطلق ذاهباً بابنتهِ الصغيرة النحيفة

وبعد ذهابهِ التفت المخبر الى صديقهِ الذي كان بمرأى ومسمع من كل ما حدث وقال له : — ان وقوع هذه الحادثة في اثناء وجودك معي — وانت استاذ الفلسفة الطبيعية — أخطرَ ببالي فكر المخاطبة التلغرافية بطريقة جديدة . فالمكتب الرئيسي لهذا التلغراف كان ملجإِ اليتامي . والمكتب الذي تسلمهُ كان العامل في مصنع القبعات . فلما اشار الاول مسترعياً الانتباه لبّاهُ الثاني من فورهِ . وعند ما صرّح ذاك بحاجتهِ بادر هذا الى قضائها . اما نحن الباقين فكنا — جميعاً — اعمدة التلغراف !

الحب : لشلي

قالت علامَ أرى الغدير
أبداً على عجل يسير
موصولة أنّاته
وشجية نغماته
أفليس يأخذه الملال
أفليس يرزحه الكلال ؟

***

فأجبتُها لا تذهلي
من سيره المستعجل
النهر صب حائر
نحو البحيرة سائر
اذ يهفوان ويشدوان
وبغبطة يتمازجان

***

قالت واغصان الشجر
تبدو حجاباً للنظر
فعلام تشتبك الغصون
فتصون تجوال العيون
لا الريح تخرقها ولا
تضطرها أن تفصلا ؟

***

فأجبتها لو تعلمين
ما بالغصون من الحنين
لجلست في ظل السكون
تذرين أمواه الشؤون
يا فتنتي إن الغرام
أدّى بها للانضمام

***

قالت ولمْ تبدو النجوم
محمومة فوق الغيوم
للبدر تنظر ساهيه
فتعود عنهُ باكيه
وتصعد الزفرات نار
حتى يوافيها النهار ؟

***

فأجبتها ان النجوم
تطوي النفوس على كلوم
قد أصبحت تهوى القمر
امسى يبرحها السهر
هي تبتغي منهُ النوال
فيصدها عزّ الجمال

***

قالت فان كان الغدير
من فرط صبوته يسير
والغصن برّحه هواه
فأقام ملتزماً اخاه
والنجم برّحه السهر
مذ راح ينظر للقمر
أني لذات حشىً خفق
فلنعتنق .. فلنعتنق...!!!

[نقلها رئيف الخوري]

المعبد

لالفونس دي لامرتين

ما أحيلى ما يبدو للانسان في المساء ، عند ما يرتفع ببطء ، في قبة السماء الكوكب الفرد ، متقدماً محفة الليل الصامتة ، وقد تنازع الارض الضياء والظلام ،

بل ما احيلى ما يشعر به ، عند ما ينقل خطواته المقدسة ، في مستقر الوادي ، ميمماً صوب المعبد الخاوي ، وقد غطى الطحلب رواقه البسيط ، حيث السماء لم تزل بعد ، تخاطب القلوب التقية

سلاماً ايتها الغابة المقدسة ! سلاماً ايتها المفازة المحزنة ! انت الامينة على مقابر القرية البسيطة ، اني اباركك ، حينما امر بك آثارك الخالية من كل زخرف ، والويل لمن تحدثه نفسه ، بتدنيس تراب الموتى ، فاني لأجثو خاشعاً ، تجاه انصابهم التي لا رواء لها ، واعفر خدي بثراهم ، الذي هو اجسادهم الباقية

ما اشد روعة الليل في جوف الهيكل ! وما ارهب ذلك السكون الشامل ! والعين لا تكاد تميز في الظلام ، نور ذلك القنديل المرتعد ، المشتعل قبالة المذابح المقدسة ، انه يتلألأ وحيداً والخليقة جمعاء نائمة ، فهو رمز معز للعناية الساهرة ، تتقبل في هذا المكان ، تنهدات الانام وتأوهاتهم

لنتقدم ، لا يطرق أذني صوت حي ، فالسكوت شامل ، والفناء وحده يرتعد تحت خطواتي الموزونة ، فقد تعديت درجات المذبح ، وها انا واقف ، والمهابة تتملك كل مشاعري ، فقد سموت بروحي الى علو ، مشتغلاً عن دنياي بديني ، فيا أيتها الحيطان المهيبة في وحشتها ، وأيتها الهياكل الناطقة في سكوتها ،

اني لَدَيْكِ وحيدٌ منفرد ، ونفسي الحزينة تتنهّد في تقرّبها خشيةً ورهبةً ، لتسكب أمامك آلامها ، وما تفيض بهِ جوارحها ، وتُسِرَّ الى السماء بمكنون سرها ، الذي تَطّلع عليهِ وحدها ، ولا يسمعهُ أحدٌ سواكِ

ولكن ماذا ! أأَجرُؤ على الدنُوّ من هذه المذابح دون خوف ولا وَجَل ، أأَجرُؤ يا الهي ان اقدِم في هذه الحظيرة المُبَجَّلة ، قلباً ما فتئ مشتعلاً بالالم والحب ؟ دون ان تأخذني الرعْدة ، ويتملكني الهلَع ، مخافة ان تنتقم جلالتك المقدسة ، للاحترام الواجب لمقرّك السامي ؟

ولكن لا ، اني لا احمرُّ خجلاً من النار التي تتأكّلني ، فالحب يكون طاهراً نقيًّا ، اذا ما اضرمته الفضيلة ، طاهراً كالذات التي تَيَّمَتني هواها

ان حبي يشغل فؤادي ، ولكن بنارٍ مقدسة ، فالثبات يَدْعمه ، والمصائب تنقّيه من كل شائبة ، فأبوح بهِ للأرض وللطبيعة بأكملها، وامام هيا كلك المقدسة ، اردّدُه دون خوف ولا حياء ، واذهب الى ابعد من ذلك فاجْتَرئ ايها الاله القدير ، على ذكره بحضرتك العليّة ، فرغماً عن الرّعب الذي يُوحيه اليَّ معبدُك ، فقد تمتم في خُفُوت اسم مالكة قيادي ، وهذا الاسم الذي انتقل صَداه من قبر الى قبر ، قد عكر هدوء الفلاة الحزينة ، كأنه انّة شكيّة لشبح يتأوّه

وداعاً ايتها الآثار الباردة ، وداعاً ايتها المساكن المقدسة ،لقد ردّدَ الصدى الليلي الساعات مرتين ، وانا واقف امامك خاشعاً ذاهلاً ، ابكي بعين سَجُوم،وقلب كَليم ، واني أغادرك متأسّياً مُعزًّى ،لان السماء رأت عَبَراتي ، وابصرت ذلي وإماتة نفسي

وقد تكون تلك التي اندب فقدها ، ساهرةً في هذه اللحظة ، على شاطئ آخر ، مع صورتي وقد جَثَت على دَرَج هيكل ، والدموع تنهمر من مآقيها ، لتبوح بذات صدرها ، وتُسِرَّ بآلامها وأشجانها

[نقلها جورج نيقولاوس]



مملكة المرأة

المرأة والفن

المصورة روزا بونور

العناية بالحامل

للدكتور مصطفى الخالدي

مكافحة الرمد في مصر

للدكتور فريد مسعود

روزا بونور

حياة مصورة عظيمة

تعلق الشهرة بيننا في الغالب بأسماء الملوك والرؤساء والوزراء والعلماء والادباء . وفي النادر يخطر ببال بعضنا المصوّرون والمثالون ونحوهم من الذين نبغوا وبرعوا في تمثيل الاشياء الطبيعية والصور الخيالية . لكن أهالي اوربا وبعض أهالي المشرق مثل الايرانيين والصينيين واليابانيين يحسبون للتصوير والنحت شأناً كبيراً . والظاهر ان اسلافنا من مصريين وفينيقيين واشوريين ويمانيين كانوا مثل الاوربيين من هذا القبيل . ولولا ذلك لما تقدمت صناعات التصوير والبناء والنحت في عصرهم . ولا أباحوا للبنّاء ان يحفر اسمهُ الى جانب اسم الملك الذي يشيّد البناء لهُ

والظاهر ان صناعة رسم الصور ونحت التماثيل اتقنت اولاً على يد شعب قديم كان منتشراً في المسكونة ولا تزال رسومهُ وتماثيله تمثل بعض الحيوانات التي انقرضت منذ عهد طويل دلالة على انها كانت عائشة في ايامهِ ، وعلى توغله في القدم . ثم انقرض ذلك الشعب او بقيت بقايا منهُ في البلدان التي احتفظ اهلها بعمل الصور والتماثيل ، وقام اليونان فأتقنوا هذه الصناعة ولا سيما صناعة نحت التماثيل ، وبلغوا في اتقانها حدًّا لا غاية وراءه ، وانحطّت صناعتهم بعد انتشار الديانة المسيحية ، ثم عادت الى رونقها الاول بعد القرون الوسطى ولا سيما صناعة التصوير . وقد بلغ من احتفاء الاوربيين بالتصوير والمصورين ان صاروا يشترون الصورة بعشرة آلاف جنيه او اكثر الى مائة الف جنيه . ويزيد دخل المصوّر الذي أصاب الشهرة على دخل الوزير او القائد ، وعلى ضعفي دخل الاستاذ الكبير في جامعة كبيرة

***

من نحو قرن من الزمان او يزيد خرج شاب اسمهُ ريمون بونور من باريس الى بوردو ، ليقيم فيها مع والدتهِ وكان على شيء من المهارة في فن التصوير . فجعل يعلّم هذا الفن للراغبين فيهِ ، وكان بينهم فتاة دقيقة النظر صناع اليدين . فأحبها واقترن بها ، وسكن معها في بيت والديهِ فرزق منها بابنين وابنتين . وكانت روزا صاحبة هذه الترجمة كبرى الابنتين . فقد كانت ولادتها سنة ١٨٢٢ وتوفيت أمها وعمرها عشر سنوات فعاد بها أبوها الى باريس

ولم يكن يهتمّ بتربيتها لانهُ كان مشغولاً بالسعي وراء معيشتهِ وقد وكّل بتربيتها عجوزاً شكسة

الاخلاق فكانت تنتهرها دواماً ولاسيما انها كانت غريبة في اطوارها اذا رأت قطيعاً من الغنم او البقر تبعته ودخلت الى وسطهِ وجرت معهُ ولو أبعد عن المدينة . وكانت تلك العجوز تفتش عنها فتجدها بين الكلاب والقطاط او بين المواشي والقطعان . ولم تتعلم شيئاً من الصلوات التي كانت تحاول تعليمها اياها . بل لم تتعلم حروف الهجاء الا من درّة كانت ترددها على مسمعها . فتوسلت العجوز الى ابيها ليضعها في مدرسة عند راهبات شيلو فارسلها الى هذه المدرسة الاّ انها كانت تعرّج في طريقها على غابة بولون وتقيم فيها الساعة بعد الساعة كأنها تستقي من مناظر الطبيعة ما تجعله ذخراً لمستقبلها

ولما بلغت الخامسة عشرة من العمر وهي لم تتعلّم شيئاً رأى ابوها ان لا بدّ لهُ من ان يعلمها صناعة تعيش بها وسأل اولئك الراهبات رأيهنّ في ذلك فقلنَ لهُ انها لا تستطيع ان تتعلم شيئاً من العلوم فالاصلح لها ان تتعلم الخياطة فوضعها عند خياطةٍ لتتعلم منها وتقيم عندها دائماً . ثم زارها بعد اسبوع فرآها مريضة ولما وقع نظرها عليهِ اعتنقتهُ وجعلت تتوسل اليهِ ليخرجها من ذلك المكان فاخرجها وعاد بها الى بيته وهو غائص في بحار الهموم يفكر في ما عسى ان تؤول اليهِ حال هذه الفتاة وهي ليست بالجميلة فتتزوج ، ولم تتعلم شيئاً لتعيش بعلمها او بعملها

ولو كانت زوجتهُ حية لعرفت بزكانتها ميل ابنتها وكفتهُ مؤونة هذا الهم

ودعي الوالد لتعليم الرسم في مدرسة داخلية فعرض على اصحاب المدرسة ان يعلم فيها بلا أجر اذا قبلوا ابنتهُ تلميذة من غير مرتب يدفعهُ عنها . فتمَّ الاتفاق على ذلك وجعل يعلمها الرسم مع رفيقاتها فلم تمضِ ايام حتى دهش لبراعتها في هذا الفن . ولما انقضت السنة طلبت منهُ ان يسمح لها بالرجوع الى البيت والانقطاع لفن التصوير . وكان قد رأى منها ما اقنعهُ بانها ستبرع في التصوير فلبيّ طلبها وعكف على تعليمها وكانت اكثر تلامذتهِ مزاولة واشدّهم رغبة بل كانت لا تكل ولا تملّ من مزاولة عملها شأن جميع اصحاب المواهب الطبيعية والقرائح الوقّادة

الاّ انها هي لم تفهم ميلها الطبيعي تماماً، فتاقت نفسها الى الامور الخيالية ، وجعلت تنقل صور كبار المصوّرين التي في متحف اللوفر . فان جمال تلك الصور سلب لبّها وحملها على الترفّع عما دونها فكانت اذا رأت صورة من صور المواشي تنظر اليها شزراً او تغضّ الطرف عنها كأنها لا تستحق التفاتها . قال لها مدير اللوفر مرة « اني لم ارَ مثل هذا الاجتهاد مطلقاً » . ورآها أحد وجهاء الانكليز فوقف امام صورة كانت تصوّرها وقال لها « ان تصويركِ بديع خالٍ من كل عيب . فواظبي على ما أنتِ فيهِ فتصيرين من النوابغ »

وظلّت تحاول تقليد ارباب الفنّ في هذه الموضوعات العالية الى ان رأت انهُ لم يبقَ لها مكان فيها ، فأسقط في يدها وجعلت تلوم نفسها وقالت لعلّ العناية الالهية لم تقسم لي ان اكون مصوّرة ، كما لم تقسم لي ان اكون خيّاطة وبينما هي غائصة في بحار اليأس ، تذكرت الايام الماضية

حينما كانت تجول في غابة بولون ، وارتسمت امام صور الطبيعة، فاخذت قلماً ورسمت صورة من تلك الصور كما تخيلتها ، فرأت حالاً انها وجدت ضالتها . وقامت في اليوم التالي فولّت اللوفر ظهرها وخرجت الى ضواحي باريس تصوّر المناظر الطبيعية

قال غوته الشاعر والحكيم الالماني العظيم : ان كل سبيل يؤدي الى الصواب صواب . وهذا كان شأن روزا بونور . فان مراقبتها الاشياء الطبيعية في الطبيعة وتحدّيها صور كبار المصورين في اللوفر كان صواباً في الوسيلة والغاية، فلم يذهبا سدًى

***

ولما جاء فصل الشتاء وتعذّر عليها الخروج الى الخلاء جعلت تتردد على زريبة المواشي خاصة بأحد الجزارين وتصوّر ما فيه من الغنم والبقر ، وربت خروفاً في المسكن الذي تقيم فيه مع انهُ في الدور السادس ، لكي تدخل صورتهُ في صورها . وعرضت اول صورة من صورها سنة ١٨٤٠ وكان عمرها ١٩ سنة وهي صورة أرنبين . ثم عرضت صورة الضأن والماعز سنة ١٨٤١ وكانت صورتها تباع بثمن معتدل يكفي لنفقاتها ، والمصورون يشهدون لها بالبراعة فيها ولو لم يرَ الجمهور فيها شيئاً غير عادي . الى ان كانت سنة ١٨٤٩ فخرجت من سجنها في باريس الى مقاطعة الاوفرن وصورت هناك صور ثيران كنتال وارسلتها الى معرض التصوير فشهد لها المسيو هوراس فرنه أنها أحسن صورة من نوعها في المعرض . واجتمع المشاهدون حولها وكلهم معجب بها . وأهدى اليها المسيو هوراس باسم الحكومة كأساً بديعةً من معمل سفر والوسام الذهبي الذي يعطى لأحسن صورة واشترى تلك الصورة رجل انكليزي بستمائة جنيه . وهي تمثل ثيراناً ترعى وقد بدت عضلاتها ومفاصلها وانعكست أشعة الشمس عن ظهورها واسنمتها وخرج الزبد من أشداقها ، والقبة الزرقاء فوقها تسبح فيها غيوم الصيف والارض حولها تمثل الطبيعة بأبهى مجاليها

وصوّرت تلك السنة صورتها الكبيرة ، صورة ثيران تحرث في حقل بالاوفرن وعرضتها في المعرض الدولي العام سنة ١٨٥١ فادهشت الذين رأوها . وقد حفظت الحكومة الفرنسية هذه الصورة في معرض لكسمبرج

وفي سنة ١٨٥٦ عرضت صورتها المشهورة « بسوق الخيل » فدهش لها المصورون جميعاً وغالى الناس في ثمنها ، وتداولتها الايدي الى ان وصلت الى نيويورك ، واقرّ ذوو الشأن في فرنسا ان روزا مصوّرتها تستحق اللجيون دونور ولكن نبوليون الثالث خشي ان يقلدها اياه لانهُ لم يسبق ان قُلّدتهُ مصورة من قبل . واتفق انهُ غادر باريس في سياحة وجعل الامبراطورة نائبة عنهُ فذهبت بنفسها الى منزل روزا بونور وقلدتها النيشان بيدها . وصورة «سوق الخيل» هذه تحسب من الامجاد الفنية التي تفاخر فرنسا باخراجها وبها حسبت روزا بونور في الطبقة العليا بين المصورين

العناية بالحامل

للدكتور مصطفى الخالدي [1]

ان المدنية الحديثة مع ما هي عليهِ من حسنات وبركات ، تفرض على كل انسان في هذا الوجود جزية،ان في جسده اوفي عقله ، ثمناً تتقاضاه منهُ عما تقدمهُ اليهِ .فاجدادنا الذين عاشوا في محيط بسيط اقرب الى الطبيعة من محيطنا ، كانوا يبلغون العمر المديد لا يعرفون لوجع الضرس معنى . اما الآن فعيشتنا المترفهة وسط المدنية الحديثة لا تساعدنا على حفظ تلك الاضراس سليمة ، فكان فن طب الاسنان وكانت المعالجة فيهِ . والبدوية التي تعيش في الصحراء المحرقة وتقاسي شظف العيش وخشونة المحيط تلد كما يخبرنا الكثيرون على الطريق—ولم لا وهي لا تزال في حضن الطبيعة تعيش عيشتها بعيدة عن رفاهية المدنية وبالتالي بعيدة عن الجزية التي تتطلبها منا لقاء هذه الرفاهية التي تقدمها لنا

ان الحمل يصدم كل عضو من اعضاء الجسم صدمة قوية يتطلب معها ذلك العضو كل ذرة من قواه للقيام بوظيفته . فاذا ما كان فيهِ اي خلل ،ظهر ذلك مجسماً بتأثير تلك الصدمة ولذا وجب على الحامل ان تتقدم الى الفحص الطبي عند ما تشعر بالحبل . واهم ما يتطلبه جسمها وما تحتاج اليهِ صحتها العمومية ان تكون الكبد فيها والكليتان والجلد والأمعاء والرئتان على الخصوص صحيحة سليمة قادرة على القيام بوظائفها حق القيام

﴿ الالبسة ﴾ والعناية بالملابس اول ما احب ان اوجه اليهِ الانظار في اثناء الحمل اذ يجب ان تكون بسيطة دافئة وان تتجنب الحامل الثقيلة منها والتي تضغط على الجسم كالمشد اي « الكورسيت » والافضل ان تكون متدلية من كتفيها فيتحول الضغط بذلك من البطن الى الكتفين . والسر كل السر ان لا يكون هنالك ما يسبب ضغطاً على الرحم من الأعلى الى الاسفل كما انهُ من المفيد جداً في الاشهر الاخيرة ان يسند البطن مسداً لطيفاً جداً فيفقد الجنين بذلك وضعاً قد لا يكون مستريحاً فيهِ . اما المشد الاعتيادي فيجب الاعتياض عنهُ منذ الشهر الثالث بزنار بسيط وصدرية للثديين . وفي النصف الأخير من مدة الحمل يستحسن استعمال محزمة خصوصية من الجهة السفلى تساعد العضلات البطنية على حمل ثقلها الزائد آنئذٍ لا سيما اذا كانت الحامل ولوداً ، متذكرين انهُ لا يجوز بوجه من الوجوه احداث اي ضغط من السرة فما فوق تاركين بذلك مجالاً لنمو الرحم صعداً

---

(١) استاذ فن التوليد والامراض النسائية في جامعة بيروت الاميركية . مقتطفة من فصل مسهب في كتابه الحديث «على عتبة الامومة» . راجع وصفه في باب مكتبة المقتطف

اما الاحذية فمن المحتم ان تكون كعوبها قصيرة لان الطويلة منها تسبب للحامل آلاماً في الظهر وانحطاطاً في القوى . فالحامل بطبيعة الحال ولنمو الجنين في الرحم يبرز بطنها الى الامام فيرتد رأسها وكتفاها الى الوراء حفظاً للتوازن فتتغير كيفية سيرها تغيراً محسوساً ظاهراً للعيان . فاذا ما لبست احذية ذات كعوب عالية ازداد انحناء رأسها وكتفيها الى خلف زيادة تؤثر في الظهر فتتولد من جراء ذلك الآلام ويصير من المتعب جداً عليها ان تسير سيراً طبيعياً مستقيماً فتكون بذلك قد ضحت بصحتها وراحتها في سبيل «الموضه»

***

﴿ المحافظة على بهاء الجسم ﴾ — من البديهي ان تميل المرأة ميلاً شديداً الى المحافظة على بهاء جسمها واعادته الى ما كان عليه من رواء وخفة وليونة قبل الحمل والولادة ، فهما يؤثران في عضلات الجسم عموماً وخصوصاً في العضلات البطنية فيحدث من جراء الضغط المتواصل وآلام المخاض ارتخاء فيها وهبوط في البطن والثديين مما يفقد المرأة مزية القامة الهيفاء المنتصبة وهي فتاة. وليس للمشدات فائدة في منع هذه النتائج لأنها تسبب اضراراً جمة . انما جل ما يمكننا ان نقوله في هذا الموضوع هو انهُ على الفتاة ان تزاول انواع الرياضة البدنية المفيدة منذ حداثة سنها وان تظل مثابرة عليها الى ما بعد الزواج فتتقوى بذلك عضلاتها فتعود قادرة على احتمال صدمات الحمل والولادة وباكتسابها المتانة والمرونة الرياضية تصبح اكثر قابلية للعودة الى نحو ما كانت عليه قبل ذلك

ومما لا مفر منهُ ظهور الخطوط البيض على البطن واحياناً على الثديين بسبب تمدد الجلد ابان الحمل . وهذه اذا كانت خفيفة تمكن ازالتها بالمسد بالزيت واستعمال الألبولين . واذا ما حدث تورم في الرجلين ناشئ عن توسع في الاوردة وبالتالي عن احتقان الدم فيها يحسن استعمال جوارب من المطاط في الحوادث الخفيفة

***

﴿ الطعام ﴾ : — من المحتم ان يكون طعام الحامل بسيطاً غير محدد وان لا تتناول اللحم والمرق اكثر من مرة واحدة في النهار مع الاقلال من المواد النشائية المقلوة بالدهن والزيت والحلويات المشبعة سمناً. وفيما عدا ذلك يحسن اطلاق الحرية في المأكولات والاكثار من شرب الماء والحليب وتناول الاثمار والخضر والحبوب لتليين الامعاء الا ان الكثيرات من الحوامل يقللن الاكل في الاشهر الثلاثة الاخيرة رغبة منهن في تقييد نمو الطفل في الاحشاء لتسهل الولادة . فاذا ما افرطن في الامر كانت النتيجة وخيمة . والبعض ينصحون للحامل بتناول انواع من المأكولات تقلل نمو العظام في الجنين فتسهل بذلك الولادة وهذا ايضاً ينبغي معهُ الروية والحيطة لانهُ كثيراً ما يضر بالام والجنين معاً وربما سبب لهُ مرض الكساح . والكثيرات من الحوامل يضاعفن مقدار اكلهن

اعتقاداً منهنَّ بأن هذا من الضروري للقيام باعالة الجنين والام معاً . وهذا ايضاً من الضرر بمكان وأصدق نصيحة يمكننا اسداءها بهذا الصدد هي اننا لانستطيع ابداء رأي جازم في هذه الامور وامثالها لأن نتائجها غير موثوق بها فتتوقف على عوامل شخصية عديدة . انما الافضل ان تظل الحامل مثابرة على عادتها قبل الحمل مع التحفظات التي ابديناها في صدر هذا المقال وان تتجنب عسر الهضم بتناول المأكولات التي تعرف بالاختبار انها لا تولد ذلك فيها ، وان تؤمن في طعامها وجود المقادير الكافية من المواد الفيتامينية والكلسية فللاولى منها أثر بين في حفظ مناعة الجسم وتقوية بنية الجنين وللثانية مقام عظيم في تكوين العظام وانمائها ولذا وجب تناول الحليب والزبدة والبيض والخضر كالخس والملفوف (الكرنب) والبندورة (الطماطم) والبزلا والجزر وغير ذلك من انواع الاثمار وخصوصاً ما كان منها فيهِ مواد حمضية

ومما يجب تجنبه في اثناء الحمل تعاطي المسكرات على اختلاف انواعها لتأثيرها السيء في صحة الام والجنين معاً . كما وانهُ يجب الاكثار من تناول السوائل كالماء والليموناده وعصير العنب وغير ذلك في النصف الاول من مدة الحمل . والاقلال منها وخصوصاً عند تورم الرجلين في المدة الاخيرة. ولعلَّ من الخير ان نذكر انَّ ما اوردناه قبلاً من المأكولات الواجب اتباعها ان هو الاَّ على سبيل التمثيل دون ان تكون الحامل مقيدة بها كل التقييد . فالجسم البشري يختلف باختلاف الاشخاص والبيئة والمحيط وليس ثمت من قاعدة عمومية يمكن تطبيقها على الاجسام المختلفة تصح في كل زمان ومكان ، انما اوردنا ما اوردناه وغايتنا في ذلك اتخاذه مثالاً قابل التغيير والتعديل لينسج على منواله

***

﴿ الرياضة البدنية ﴾ — من الواجب في اثناء الحمل ترويض الجسم في الهواء الطلق دون ان يسبب ذلك للحامل تعباً اذ انهُ من الخطأ آنئذ ان تتخذ من الرياضة سبيلاً الى تقوية عضلاتها لتسهيل مهمه الولادة ، فان ذلك في غير اوانه ، وكان الاولى الاهتمام بهِ قبل الحمل . ولعل أفيد انواع الرياضة لها المشي الوئيد في الهواء الطلق والتعرض لنور الشمس مع تجنب التعب . فان ذلك يزيد نشاط الدورة الدموية والتنفس ويساعد على الهضم وازالة الافرازات الجسدية مقوياً الاعصاب وباعثاً على النوم ومنشطاً للجسم عموماً الاَّ انهُ يجب الامتناع بتاتاً عن التنس والغولف والرقص و ما شاكل مما يجهد القوى

ولا يحظر على الحامل الامتناع عن ارتياد امكنة اللهو والاجتماعات العامة انما يجب الحذر من الزحام الشديد خوفاً من الاضرار بها . كما وانهُ يجب عليها الاقلال من السفر . واذا ما اضطرت اليهِ فبكل راحة وتؤدة ، الاَّ اذا كانت ممن اسقطنَ قبلاً او لوحظ فيها استعداد الى الاسقاط فيجب عندها الامتناع عن السفر بتاتاً . ولا يمكننا قبل ترك هذا الموضوع الاَّ تكرار التشديد على ما للهواء

النقي من الشأن الكبير في حياة الحامل ، فعليها ان تصرف لا اقلّ من ساعتين يوميًّا في الهواء الطلق وان تتخذ ما يلزم لتبديل الهواء ليلاً ونهاراً في مسكنها كفتح النوافذ وغير ذلك

﴿راحة البال﴾ وكما ان عليك لجسمك واجباً ابان الحمل كذلك للعقل عليك واجب آخر لا يقل شأناً عن ذلك ، فراحة البال والسعادة والطمأنينة هي من متوجبات الحياة ويزداد شأنها وتبلغ شأواً بعيداً عند ما تكونين حاملاً . ولذا وجب تجنب كل ما من شأنه الازعاج واقلاق الراحة وعدم التفكر بيوم الولادة او الاصغاء لاحاديث الزائرات وسواهن ممن يطيب لهن تعداد المشاق التي عانينها ، متذكرة بعد قراءة ما كتبناه بهذا الصدد ان هنالك يد الطبيعة تساعدك على عملك ، وانك اذا ما اتبعت نصائح اهل الخبرة والاخصائيين واتخذت وسائل الحيطة اللازمة التي يشير بها طبيبك ، انك اذا فعلت كل هذا وتركتِ عناء الغد الى حينه كان لك من راحة البال والطمأنينة خير نصيب يحفظك قوية سليمة للقيام بعملك الهام . واذكري دائماً ان هنالك يداً فوق يدكِ ويد الطبيب ، هي التي شقت لك هذه الطريق وهي التي تقودك فيها وترعاكِ بعنايتها

***

﴿ الامعاء ﴾ ومما يجب الانتباه له اشدِ الانتباه ابان الحمل الاعتناء بالامعاء لتكون لينة يسهل خروج السموم البدنية منها مع البراز كي لا يزيد عمل الكليتين فوق ما تتحملانه وكي يبقى الجسم نشيطاً معافى . ويظهر ان التسعين في المائة من الحاملات يصيبهنّ الامساك ولذا وجب تلافي الامر والاهتمام بهِ وبذل الجهد في حفظ الامعاء لينة . كما وانهُ يجبّ تجنب اخذ المسهلات واذا لزم ذلك فبعد استشارة الطبيب . وافضل الطرق لمكافحة الامساك ابان الحمل وفي الحالات العادية هي ما يلي:—

١— عيني وقتاً محدداً ثابتاً كل يوم تذهبين فيهِ الى بيت الخلاء ، وافضل وقت بعد طعام الافطار صباحاً . فاذا ما تعسر خروج الغائط فلا تستثيريهِ بالشد خوفاً على الجنين بل الافضل استشارة المستقيم بواسطة تحميلة من الغليسرين او المحقنة ، فاذا ما سهل الامر بعد ايام امكن الاستغناء عن هذه الوسائل الميكانيكية

٢ : — مما يساعد على تليين الامعاء شرب كأس من الماء البارد صباحاً بعد الاستيقاظ ومساءً قبل النوم مع تناول الاثمار كالتفاح والليمون وغير ذلك وشرب الماء بكثرة في اثناء النهار

٣ : — اكثري من تناول الخضر والفاكهة وخصوصاً السبانخ والبازالاّ واللوبيا والبندورة (الطماطم) والحبوب وما شاكل وامتنعي عن شرب الشاي بتاتاً لانهُ يسبب الامساك

٤ :— استعملي كل مساء قبل النوم حقنة من زيت الزيتون العادي في المستقيم تحتوي نحواً من ٢٠٠ جرام فيظل الزيت طول الليل في المستقيم فيلطف غشاءهُ المخاطي ويمنع تقلصه او تشنجه فيسهل خروج الغائط ، ولا سيما اذا استعملت حقنة ماء عادي في صباح اليوم الثاني ولا تنسي ان الرياضة البدنية والحركة تساعد على تحريك الامعاء وبالتالي على تليينها

﴿ الكليتان ﴾ للكليتين وظيفة هامة في الجسم وهي فرز المواد السامة في الدم كالحامض البولي وغيره . فاذا ما أعيقتا عن القيام بوظيفتهما لامر ما نتج من جراء ذلك تسمُّم امتصاصي غير محمود العاقبة وهما أبان الحمل مركز الضعف ونقطة الخطر ولذا وجب الانتباه لهما . وهذا يتم بفحص البول مرة كل ثلاثة اسابيع او اكثر اذا لزم الامر للتثبت من مقدار الزلال والسكر والثقل النوعي والحامض البولي واليوريه. ومن الضروري ان لا يتجاوز مقدار البول المدرور في اثناء اربع وعشرين ساعة ١٥٠٠ سنتيمتر مكعب ، وان لا يقل عن ذلك بكثير . وعلى كل الاحوال يجب اعلام الطبيب بالنتائج ليتخذ الحيطة اللازمة لاسيما اذا حدث تورُّم في الرجلين واليدين والجفون

***

﴿ النظافة ﴾ تزداد حيوية الجلد ويكثر نشاطه ابان الحمل اكثر من المعتاد فتغزر افرازاته ولذا وجبت العناية الخاصة بنظافته آنئذ لتسهيل افراز المواد السامة من مسامه ، زد على هذا ان النظافة بالاغتسال تنشط الغدد الدهنية والعرقية وتزيل المواد المتجمعة عليهِ فينتعش ويزداد نشاطه وتزول الرائحة الكريهة عنهُ . ولذا وجب الاستحمام اليومي في اثناء الاسبوع اومعظم ايامه بماء فاتر تتراوح درجته بين ٣٧ و ٣٧ و ١/٢ سنتيغراد . ويمكن ايضاً الاستحمام بالماء البارد أيام الصيف وفي البحر الاّ انهُ يجب تجنُّب الشاطىء حيث تكثر الامواج خوفاً من الاسقاط

وقبل ميعاد الولادة بشهر يجب الامتناع عن استعمال المغطس خوفاً من التلوُّث بعدوى الاوساخ والاعتياض عنهُ بحمام المرشة (دوش) . ويحسن احياناً عند ما تكثر افرازات الجلد الاستحمام بالماء الفاتر وفرك الجسم بعد ذلك بمنشفة غطست في الماء المالح وعصرت جيداً

***

﴿ العناية بالثديين ﴾ منذ البلوغ تجب العناية بالثديين كي يكونا أهلاً للقيام بوظيفة الارضاع وكم تخسر الام ويخسر ولدها معها عند ما لا تستطيع القيام بهذه الوظيفة لخلل في ثدييها تاركة بذلك اياه لحليب المرضعات . ولذا وجب حفظهما منذ البلوغ سليمين ينموان نموها الطبيعي ، وان يمنع عنهما أي ضغط مقصوداً كان أم غير مقصود ، وان تهتم الفتاة ابان الرياضة البدنية او اللعب بعدم الاضرار بهما وان تعتني الامهات بصحة الاعضاء التناسلية في بناتهنَّ كما يعتنينَ بانماء عقولهنَّ وزيادة معارفهنَّ واذا ما كبر الثديان ابان الحمل وجب استعمال الصدرية وغسلهما بالماء يوميًا بالماء الفاتر والصابون مع بذل الجهد في تنظيف الحلمتين من القشور العالقة بهما بزيت الزيتون النقي أو « كولد كريم » ويجب الحذر كل الحذر من استعمال المواد الكحولية وما يشا كلها لغسل الثديين لأنها تسبب تصلب الحلمتين اللتين يجب ان تبقيا ناعمتين طريتين . وبكلمة موجزة يجب تجنب كل ما من شأنهِ الاضرار بهما خوفاً من ان يسبب ذلك فيما بعد التهاباً فيهما

مكافحة الرمد

في البلاد المصرية

للدكتور فريد مسعود

﴿ شدة انتشار الرمد ﴾ للرمد في البلاد المصرية معضلة تعترض كل من يعنى ببحث مسائل الصحة العامة فليس الرمد احد الامراض المتوطنة فحسب بل هو بحق اكثرها انتشاراً واعظمها شرًّا وابعدها أثراً فلانتشاره يكفي ذكر النسبة المئوية الهائلة ٩٥ ٪ ودليل شره نسبة العميان التي هي ٨ ٪ واما أثره البعيد فيظهر من تغلغله في جميع الاوساط وتسربه الى مختلف الطبقات . فتجده عند الغني في قصره . بينما هو ملازم للفقير في كوخهِ وهو مزمن شديد الازمان قد تمر على المريض سنون وكلما ظن انهُ قد تخلص منهُ بعد علاج طويل فاذا هو باق في عينيه يطل منهما من آن لآن

ولعلّ شر مصائبهِ وجوده بأثقل وطأتهِ في عيون الاطفال فالمشاهد والمحقق هو ان الاطفال اكثر عرضة للاصابة بالرمد من الكبار بل ان الطفل كلما كان اصغر سنًّا كان تعرضهُ للرمد اشد واكثر حدوثاً

وعلى هذه الملاحظة بنوع خاص يبنى مشروع مكافحة الرمد عن طريق رعاية عيون الاطفال

***

﴿ بدء الاصابة بالرمد ﴾ ومن المحقق ان اصابة الطفل بالرمد ترجع في بدئها الى جهل الام بأبسط قواعد الصحة العامة كنظام التغذية ونظافة الجسم ويضاف الى هذا ما اعتاده السواد الاعظم من الطبقات الفقيرة من التصرفات التي تسبب وصول مواد مؤذية لعين الطفل اما عفواً او قصداً مما هو راجع في مجموعه الى مخلفات الجهل وخرافات عصور الظلام فترى الطفل الذي يولد بعينين سليمتين لا يلبث بضعة ايام أو اسابيع حتى تبدأ اصابته بالرمد فيظهر احرار في العينين مع تورم وافراز وقد تزيد هذه الاعراض او تنقص بحسب شدة الاصابة او بساطتها

ومن هذا الحادث او بالحري قبل ذلك بمدة ما يبدأ تاريخ حافل بالآلام والمتاعب هو تاريخ الرمد وقد ينجو منهُ الطفل بعينين سليمتين بعد مكابدة الرمد زمناً طويلاً او يقل البصر بسببه ان لم يضع تماماً

والذي يستنتج من كل هذا حقيقة لا تحتاج الى تعليق وهي اننا اذا حافظنا على عيني الطفل من

الاصابة بالرمد في بدأ حياته وهذا ممكن عمليًّا فقد وضعنا سدًّا مانعاً في طريق انتشار الرمد وبالتالي خطونا خطوة موفقة في طريق مكافحة الرمد

﴿ لزوم تعميم رعاية عيون الاطفال ﴾ وليست رعاية عيون الاطفال من الرمد شيئاً مجهولاً بل هي امر واقع يباشر فعلاً في مراكز رعاية الاطفال وفي مستشفيات الرمد الحكومية وغيرها فهذه المنشآت تقوم بقسط وافر من علاج عيون الاطفال المصابة بالرمد ولكنها في مجموعها بالنسبة لانتشار الرمد لا تفي من الحاجة الاّ بالشيء القليل . او ما يقدر بعشر معشار ما هو لازم للحالة الواقعة . ولا شك انهُ ليس من حسن تدبير الامور ان يترك الحال على ما هو عليه الآن وهناك الآلاف بل الملايين من المصابين بالرمد . وممن سيصابون به حتماً . وليس من الجائز عقلاً ان نكتفي بالقليل الموجود . اذا كان في مقدورنا زيادتهُ بغير مشقة حتى نصير اقدر على منع المصاب او على تخفيف البلاء

***

﴿ مراكز مكافحة الرمد ﴾ والواقع ان مكافحة الرمد يمكن ان تعود بالفائدة المطلوبة في اماكن صغيرة متعددة ربما كانت اصلح لهذا الغرض من المنشآت الكبيرة الكثيرة النفقة . وخاصة من ناحية المرضى الذين يكلفون الآن مشاق الانتقال لمدد طويلة فلا يضطرون عندئذ الى اضاعة الكثير من الوقت وتحمل المتاعب والنفقات في الذهاب من منازلهم الى المستشفيات الكبيرة البعيدة عنهم

هذا الى ان اكتظاظ المنشئات القائمة الآن بالمرضى لا يسمح بازدياد عددهم هناك عما هو عليهِ الآن . فضلاً عن ارهاق الاطباء بالعمل وما يتبع ذلك من عدم تحقيق الفائدة المطلوبة للجميع ومتى كان الغرض الاقتصار على علاج الرمد فقط وهو ما ترمي اليه مكافحة الرمد فيكفي ان يكون هناك مكان صغير نظيف مكوّن من غرفتين متسعتين احداهما لعيادة المرضى والاخرى للانتظار . وهذا ما يطلق عليهِ اسم مركز لمكافحة الرمد فتقوم هذه المراكز في انشائها وتأثيثها بالاقتصار على ما هو لازم وضروري من حيث المعدات بل ومن حيث المكان والعمال

وكل هذا واضح ومعروف بل ومقبول ومتبع فعلاً في كثير من المنشآت الصغيرة الحكومية وكذلك مسألة تدبير الاطباء والعمال اللازمين للعمل بهذه المراكز . فهي لا تصعب على الادارة العليا لأن نظام العمل المتبع لمكافحة الرمد بسيط لا يحتاج الى غير القليل من التمرن لاتقانه . وليست مكافحة الرمد في مهارة العلاج بمقدار ما تتوقف على اتباع نظام خاص معظمه تعليم وارشاد

﴿ تنظيم رعاية عيون الاطفال ﴾ نقول ان كل ما ذكر قبلاً ليس فيهِ شيء خاف على علم القائمين بأمور الصحة العامة في هذه البلاد . فقد درست هذه المسائل . وتكرر بحثها واتبعت فعلاً فليس

فيها شيء جديد سوى تنظيم رعاية عيون الاطفال بطريقة تضمن ان يبدأ بها من وقت ولادتهم وتستمر الى زمن معلوم من سنة الى سنتين الى ثلاث سنوات او اكثر حتى يجوز الطفل هذا الدور الخطر الذي هو في الواقع دور الاصابة بالرمد لكل مصاب تقريباً

﴿المال اللازم لمراكز مكافحة الرمد﴾ واذا روعي ما ذكر قبلاً من ابواب الاقتصاد في النفقات وكانت مراكز مكافحة الرمد متعددة وقريبة من المرضى ففي الامكان تدبير كل المال اللازم لها او معظمه بفرض اجر زهيد على علاج الكبار من المرضى على أن لا يزيد هذا المبلغ على قرش صاغ واحد في المتوسط للزيارة الواحدة

ومما سبق لنا من التجارب يمكن ان نعطي مثلاً لمركز صغير . معدله كما يأتي :

عدد المرضى يومياً مائة علاجهم مجاناً وثلاثون علاجهم بقرش لكل شخص . فيكون الايراد السنوي ٩٠ جنيهاً ينفق منها ١٢ جنيهاً ايجار المكان و١٨ جنيهاً مرتب المساعد و١٠ جنيهات نفقات مختلفة ويبقى ٥٠ جنيهاً تزيد او تنقص هي مكافأة للطبيب الذي يقوم بالعمل في مدة تستغرق نحو الساعتين يومياً

﴿وصف النظام المتبع﴾ عند ما يحضر المريض يكتب اسمه في دفتر الحضور ويعطى النمرة المسلسلة وتذكرة تخوله الحضور للعلاج يومياً

يكتب على هذه التذكرة من الوجه الواحد النمرة والاسم وعمر المريض واسمه والتاريخ وحالة العينين من حيث الرمد ويؤشر عليها يومياً بالتاريخ والعلاج مع ذكر نمرتها في دفتر الحضور اليومي. ويدوَّن على الوجه الآخر تعليمات يطلب من المرضى اتباعها بشأن النظافة والغذاء والصحة العامة . تعطى هذه التذكرة للمريض في اول يوم وثمنها قرش صاغ وتبقى معهُ دائماً وهي تخول حق الدخول للعلاج بدون مقابل للاطفال من وقت ولادتهم لغاية سنتين من العمر ويمكن تجديدها من وقت لآخر واما المرضى الذين يزيد عمرهم عن سنتين وتذكرتهم كالسابقة ما عدا لونها فيؤخذ منهم قرش صاغ عن علاج مرة واحدة او خمسة قروش عن علاج اسبوع او ١٥ قرش عن علاج شهر

في احد المراكز التي تسير فعلاً على هذا النظام زاد عدد المرضى الجدد في مدى السنتين الماضيتين على ٣٥٠٠ مريض

***

والخلاصة ان الفرصة سانحة الآن للقيام بتعميم رعاية عيون الاطفال والتعجيل بانشاء المراكز الرمدية اللازمة لذلك والانتفاع بما هو موجود منها الآن ، ان كانت حكومية او تابعة لهيئات أو افراد تجتمع كلها تحت ادارة هيئة عليا ، حتى تسير جميعها على اكمل نظام الى الغرض المنشود وهو استئصال الرمد من البلاد المصرية

وهذه الهيئة العليا تستمد المساعدة اللازمة من ولاة الامور مع حصولها على معاونة وتعضيد الجمهور الذي هو في الحقيقة العماد الذي يستند عليهِ نجاح هذا العمل

باب المراسلة والمناظرة

ارشاد لغوى

في كل جزء كلمة

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود

المُسْتَشْفَى

احتلت فرنسا مصر سنة ١٧٩٨م ثم احتلتها انكلترا سنة ١٨٨٢م احتلالاً سياسيًّا ولكنها محتلة من الدول الغربية والشرقية احتلالاً اقتصاديًّا ولغويًّا فكان من آثار الاحتلال الاجنبي احتلال الالسنة والأقلام في مصر حيناً من الدهر فتسربت ألفاظ من فرنسا التى رحلت عن بلادنا في لغتنا العربية وكذلك ألفاظ انكليزية تتزايد بإقامة الإنكليز بمصر – واللاتينيون في وادي النيل قبل الإسلام

فمن هـذه الألفاظ الدخيلة في غير حاجة إليها (اسْبِتَاليه) وهي لفظة لاتينية في الأصل (Hospitalia)[1] والحرف الاول صامت فينطق بالكلمة هكذا (أُسْبِتَاليا) وقد وضع بعض الأدباء في عصر النهضة الحديثة لفظاً عربيًّا فصيحاً عذباً سائغاً للناطقين والكاتبين وهو مستشفى اشتقه من استشفى عند الكوفيين أو من الاستشفاء عند البصريين – واستشفى أى طلب الشفاء لأن السين والتاء هنـا للطلب ولا ريب أن من يدخل هذا المكان يطلب الشفاء من الله عز وجل على أيدى الأطباء مداوى بأدويتهم على وفق وِصْفاتهم

فلله در هذا الاديب اللغوى الذى أحيا لفظاً عربيًّا صميماً ليميت لفظاً أجنبيًّا غريباً . ولو اشتقّ المشفى أى مكان الشفاء من الفعل شفى أو من المصدر شفاء لكان هذا المشتق مقبولاً ايضاً وليس كل من يلجه من المرضى يحقق الله شفاءه ولكن كل من يدخل في هذا المكان يطلب الشفاء فالمستشفى أولى بتسمية هذا المكان من تسميته بالمشفى لهذه النظرة التى توجه الى فؤاد الحقيقة اللغوية المنطقية المرادة

وليت الاديب الألمعى الذى تخير الاسم (مستشفى) لهذا المسمى قد جمعه لأن علمه وذوقه يعصمانه من الخطإ في جمعه كما أخطأ فيهِ المتأدبون في عصرنا هذا فقالوا المستشفيات جمع مستشفى وقد وهموا في جمعه جمع مؤنث سالماً لان ألفه وهي لام الكلمة ليست للتأنيث إذ أن مستشفى بوزن

---

(١) أسبتاليا اللاتينية (Hospitalia) كان عاماً فخصص فيما أخذ منه الى اللغات الانكليزية — هسبيتل (Hospital) والفرنسية — أوبتال (Hôpital) والايطالية (Ospedale) — أسبيدالى — فهذه اللغات الثلاث خصصت المشتق من الاصل اللاتيني بمكان الاستشفاء أى دار المعالجة – والاصل اللاتيني يشمل هذا والملهى والفندق والملجأ للاطفال وللعجزة ولتعليم أبناء الفقراء بالمجان كما يشمل دار معالجة الحيوان الى غير أولئك

مستفعل لأننا نقول بهذا المستشفى صديقنا أو أخونا أو طبيبنا ولا نقول بهذه المستشفى فلان . فان قيل ما المانع من إرادة بقعة الاستشفاء فيقال هذه مستشفى . قلت إذا صح ذلك فلك أيها المستدرك الواهم ان تقول هذه منزل مريداً بقعة النزول ولا يوافقك على هذه الاشارة إلى المنزل أحد وما نطق بهذا الاسلوب عربيٌّ ولا مستعرب فقد قالوا جميعاً «هذا منزل» كما قال تعالى في كتابهِ الكريم «وقل ربّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين» فقوله مباركاً دليل على تذكيره كما لا يخفى على المبتدئين لغة

فالواجب علينا جميعاً أن نجمع المستشفى على المشافى بوزن المفاعل من أوزان صيغة منتهى الجموع فإن قيل كيف تجمع المشفى قلت أجمعه على المشافى أيضاً والصيغة فى الجمع لا تستطيع حمل ثلاثة أحرف زيادة على الأصول فيجب حذف حرفين زائدين من المفرد عند الجمع وهما السين والتاء ويجب إيثار الميم بالبقاء لان لها ميزة اكثر من الحرفين المذكورين لأن اسماء المكان من غير الثلاثى تبدأ كلها بالميم . وللمستدرك أن يستدرك على هذا الجمع الذى يتحقق لجمع مفردين مختلفين فى بعض المبنى وبعض المعنى «مستشفى ومشفى» لما قدمنا فأقول ما قاله علماء الصرف واللغة إنه لا يعول على هذا اللبس إن كان . وللكلام قرائن تفهم من السياق فإذا قلت زار كبير الاطباء فى مصر المشافى فهمنا أنهُ زار مستشفى العَينيّ ومستشفى الملك ومستشفى دمنهور ومستشفى الاسكندرية إلى غير أولئك لأن المفرد المتداول الذى يعرفه الناس هو المستشفى لا المشفى . ورب قائل يقول ما المانع من جمعه جمع مؤنث سالماً بمقتضى القاعدة إن كل خماسى لم يسمع له جمع تكسير يجمع جمع مؤنث سالماً كما قالوا حمامات واصطبلات فى جمع حمام واصطبل فالجواب ان مستشفى ليس بخماسىّ بل هو سداسى وإن عاملت ما زاد على الخمسة معاملته فى الجمع فليكن ذلك فى غير ما أشبه هذا . ولا يخفى عليك أن جمعهم المستوصف (أى مكان طلب الوصف) على مستوصفات خطأ أيضاً لما قدمنا والصواب جمعه على مواصف[1] وصواب مهجور خير من خطأ مشهور

هذا — وإنى لشاكر للاستاذ البحاثة (أديب عباسى) لكلمته التي أسداها إلى قراء المقتطف وأبناء العرب والمستعربين جميعاً بمقتطف الشهر الفائت حيال (قَـدَمِـيَّـة) التى يستعملها عامة العرب والمستعربين من أبناء سورية اليوم — ولست بمستحق منهُ ثناء عليّ بما فى إرشادى اللغوى بالمقتطف فإنه هو الجدير بالثناء والشكر وأجدر بهما منا من يذيع الكلمات العربية استعمالاً بدلاً من الكلمات الدخيلة — وعندى ان الرجوع إلى اللفظ العامى إن كان عربيًّا أو محتاجاً الى تهذيب إن كان قريباً من اللفظ العربى الصميم خيرٌ من عرض ألفاظ عربية مهجورة تغنى عنها الالفاظ العامية المهذبة أو التى لا تحتاج الى تهذيب إن طابقت ما نطق بهِ العرب مثل قَـدَمِـيَّـة بدلاً من (فُوت) الانكليزية أو (ڤيزيت) الفرنسية وعلى هذا النحو ننحو جميعاً . وان فى كلمتى الموجزة إرشاداً للمجامع اللغوية العربية.

---

(١) مستشزرات فى قول امرىء القيس « غدائره مستشزرات الى العلا » جمع مستشزرة لا مستشزر بدليل (غدائره) جمع غديرة كضفيرة وزناً ومعنى وما ختم بالتاء مقيس جمعه جمع مؤنث سالما . ومعنى مستشزرات مفتولات او مرتفعات جمع مفتولة او مرتفعة كما فى الشروح واللاغي . والضمير فى غدائره يعود على شعر صاحبته الموصوفة

مكتبة المقتطف

معضلة السرطان

تأليف الدكتور باينبردج — ترجمة الدكتور يوسف حتي — والاستاذ شاكر نصار — المطبعة الاميركية ببيروت صفحاته ٢٢٦ قطع المقتطف بنط ٢٠ — ثمنه ليرا سورية او نحو ٢٥ قرشاً مصرياً

« السرطان مرض عضال وشفاؤهُ مشكلة من المشاكل التي تهمُّ الجنس البشريَّ باسرهِ. وقد بذل الاقدمون جهوداً جبّارة محاولين حلَّ المشكلة فتمكنوا تدريجاً من درس الامراض التي كانوا يظنونها من اصلٍ خبيث ، والتي تقع تحت اسم السرطان عامة فقسموها الى انواع ثم وجَّهوا اهتمامهم الى حلّ كل نوع منها على حدة . . . . ان امرأةً من كل سبع نساءٍ ورجلاً من كل احد عشر رجلاً فوق الخامسة والثلاثين سنًّا يصابان في وقت ما من حياتهما بمرض من هذه الامراض الخبيثة . . . »

هاتان العبارتان المنتزعتان من الصفحة الاولى في مقدمة المؤلف تجملان للقارىء معضلة السرطان ومداها . اما البيان الواضح ففصول الكتاب كفيلة بهِ. ولعلَّهُ افضل ما كتب باللغات الفرنجية في بابهِ من حيث جمعهُ بين الاحاطة والايجاز الذي لا يخلُّ ، من تاريخ المرض في العصور القديمة الى احدث الآراء في تعليلهِ وعلاجهِ ومدى انتشارهِ في انواع النبات والحيوان علاوة على الناس . فالاجمال المنسَّق وهو الصفة البارزة في هذا الكتاب ، حمل العلماء في مختلف الامم على ترجمتهِ وطبعهِ مراراً . وقد ترجم حتى الآن الى الفرنسية والاسبانية والايطالية والبولونية وغيرها من اللغات الحية

فنحن نوجه الشكر الى الدكتور يوسف حتي والاستاذ شاكر نصّار ، ونهنئهما باخراج الترجمة على اوفى ما يكون طبعاً وحسن بيان

في الامكان قسمة الكتاب الى جزئين . اما الاول فيشتمل على بحث تاريخي في اقوال المتقدمين في السرطان من اقدم العصور الى عهدنا هذا .فقد « ذكرهُ الاقدمون في كتاباتهم الطبية التي يرجع تاريخها الى الفي سنةٍ على الاقل وقد اشاروا اليهِ بطريقةٍ صريحة لا تترك مجالاً للشك ، بالرغم مما كانوا يستعملونهُ للدلالة عليهِ من الاسماء المختلفة المتنوعة المشوشة » . وقد جاء ذكره في المعاجم العربية المطولة كما يلي : « والسرطان ورمٌ سوداويٌّ يبتدىء مثل اللوزة واصغر فاذا كبر ظهر عليهِ عروق حمرٌ وخضر متشعّبة شبيهة بارجل السرطان ويقال انهُ لا مطمع في برئهِ وانما يعالج لئلاَّ يزداد على ما هو عليه» . وقد قسم البحث في تاريخ السرطان الى تاريخهِ في العصور القديمة ففي العصور الوسطى ففي عصر النهضة العلمية الحديثة ففي القرن العشرين

ويلي ذلك فصل في حدوث الاورام في النبات والحيوان وهو بحث طريف يدخل في باب العلوم

العامّة وتلك مطالعتهُ للطبيب وغير الطبيب على السواء، فيعلمان ان الاورام المختلفة التي تصيب المملكة النباتية هي لا شكّ مشابهة من عدة وجوه للاورام الخبيثة وغير الخبيثة في المملكة الحيوانية. وان سرطان الثدي كثير في الفارة الولود لان ثديها معرض للاحتكاك مدة طويلة لارضاعها عدداً كبيراً من الصغار. وان الكلاب اكثر الحيوانات الداجنة تعرضاً للسرطان. وان الهررة تقرب كثيراً من الكلاب في الاستعداد للاصابة بالاورام السرطانية. وان الخنازير والغنم والماعز اقل استعداداً للاصابة بها من الحيوانات الزراعية اللبونة. وغير ذلك من الحقائق الطريفة

اما القسم الثاني من الكتاب فيتناول السرطان في الانسان. وفي اول هذا الباب يجمل المؤلف الصعاب التي يصادفها العلماء في تحديد السرطان فيقول: «ان صعوبة وصف السرطان من الوجهة الهستولوجية مستقلاً عن باقي الاورام لا تقلُّ عن صعوبة تحديده من الوجهة السريرية. ولا يخفى ايضاً ان الاورام والانتفاخات ليست كلها من النوع الخبيث، فقد يكون السرطان في بعض الاحيان خالياً من الورم بل بالعكس قد يكون هناك نقص في الانسجة ... كالسرطان اليابس في الثدي. فمن هذا تتضح لنا صعوبة تحديد السرطان والاورام على العموم لا سيما والاسباب الحقيقية لظهور هذه الاورام لا تزال مجهولة والفوارق بين الاورام الخبيثة والسليمة غير مميزة ولا معروفة»

ومن هنا يمضي المؤلف في بيان اساليب درس السرطان المختلفة وانواع الاورام من الوجهة العلمية. ففي الفصل الخامس يقيم الدليل على ان نجاح البحاث في نقل السرطان ليس برهاناً على ان الداء معدٍ، وان توليد السرطان بالتطعيم يسوغ مداواتهُ بالجراحة

ويلي ذلك فصل في سير المرض وتشخيصه والوقاية منهُ وعلاجهُ بادوية وصفها بقولهِ «ما يسمونهُ ادوية السرطان الشافية!» ورأيهُ فيها ان الاتكال على طرق المعالجة بغير الجراحة يضر غالباً لانهُ يضيع الوقت ...... وقولهُ «لا نرى افعل من الجراحة في معالجة السرطان — بحسب معلوماتنا الحاضرة — فانها الى الآن الوسيلة التي يجب ان نعلق عليها الآمال»

وهو كذلك غير قوي الثقة بفائدة العلاج بالاشعة فيقول في الصفحة ١٤٢ «ان استعمال النور يخفف الالم ولا تأثير لهُ البتة في شفاء السرطان. اما اشعة رونتجن فمنها بعض النفع اذ تبعث في المريض روح الامل لان مفعولها في تلطيف الالم يدوم مدة طويلة من الزمن وفي بعض الاحيان تذيب النتوءات السرطانية الجلدية السطحية ويتوقف نمو البعض منها وغالباً تذيب الاورام الراجعة بعد العمليات الجراحية غير ان فائدتها كثيراً ما تكون عقيمة في الاورام الداخلية .... الخ»

وعندهُ ان المعالجة البيولوجية اي بالمصل والتطعيم وخلاصات الغدد لن تحقق الآمال قبل ان يتوفق العلماء الى معرفة حقيقة الخلية السرطانية من الناحية البيولوجية وعلاقتها بالمصاب الذي تفتك به

والكتاب مختتم بفصل يحتوي على احصاءات السرطان في مختلف بلدان العالم وفيه نبذة خاصة

بسوريا ولبنان وضعها الدكتور فيليب اشقر . ومسك الختام فصل في تهذيب السكان وتدريبهم على مقاومة السرطان آيتهُ ان نزع الخلايا السرطانية نزعاً جراحيًّا باكراً يكفل الشفاء التام

وحبذا الحال لو اضاف المترجمان الى جهدهما الكبير الموفق في نقل الكتاب جهداً يسيراً آخر في وضع جدول بالالفاظ العلمية التي استعملاها في الترجمة وما يقابلها في الاصل الانكليزي ، وكذلك رسم اسماء العلماء في هوامش الصفحات بالحروف الفرنجية لان الحروف العربية لا تساعد على ضبط الاسم عند التلفظ بهِ ولا تهدي المنقب الى صاحب الاسم عند ما يحاول البحث عنهُ في المعجمات والموسوعات الفرنجية

جبران خليل جبران

حياته — موته — أدبه — فنّه

بقلم ميخائيل نعيمه — ٣٠٧ صحيفة من الحجم الكبير — مطبوع طبعاً متقناً بغلاف جميل بمطبعة لسان الحال ببيروت

كتبُ التراجم عندنا ليست الاّ سجلّ حوادث في أسلوب خبري جاف لا تستطيع أن تستشف من ورائهِ صورة المترجم له الاّ اذا أردت ان تزيل الغبار وترسم الصورة بيدك من جديد . وطالما تمنيت ان أرى في العربية ترجمة كتراجم لدوج مثلاً حتى وجدت خطوة جريئة من الاستاذ ميخائيل نعيمه في كتابهِ (جبران خليل جبران) وهي خطوة موفقة كل التوفيق دون مغالاة ، فلقد استطاع في لباقة ومهارة أن يعرض لقارئه حياة الشاعر الفنان جبران كما تعرض أفلام السينما قصة تاريخية متعمقة الى أبعد دقائقها ، ولقد يكون في أبسط هذه الدقائق ما يزيح ستاراً كثيفاً عن سرّ عميق

وقد استطاع الاستاذ ميخائيل نعيمه — وأسلوبه معروف لأدباء العربية كما أشرت الى ذلك من عامين عند الكتابة عن كتابه (المراحل) — أن يمزج روحه بروح جبران وأسلوبه بأسلوبه فتحس في كتابه بوحدة تامة لا تدري أمامها إن كنت تقرأ جبران أم تقرأ ميخائيل

واستطاع الى جانب ذلك أن يجعل من حياة صديقه رواية مسرحية تامة مرتبطة الفصول والمناظر لا تفقد حبكتها ودقتها . ومن كلمته (اعتذار) التي قدّم بها الكتاب نفهم الدقة التي أخذ بها المؤلف نفسه إذ يقول : « وعندي ان كل ما يرويه الناس عن الناس باسم التاريخ ليس الاّ رغوة متطايرة فوق بحر الحياة الانسانية . أما اعماق الانسان وآفاقه فأبعد وأوسع من ان يتناولها قلم أو يستوعبها بيان . فنحن حتى اليوم لم نكتب تاريخ انسان ولا تاريخ شيء على الاطلاق . ولو أننا كتبنا تاريخ انسان واحد لقرأنا فيهِ تاريخ كل الناس ، ولو أننا دوّنا تاريخ شيء واحد لطالعنا فيهِ تاريخ كل شيء . ثم ان في حياة كل انسان اسراراً يكتمها عن الناس ، وأنا قد وقفت على البعض من أسرار جبران وفاتني منها الكثير . فهل يليق بي أن أبوح ولو ببعض البعض الذي أعرفه ؟ وان أنا كتمته فما معنى الذي أكتبهُ ؟ أأخون نفسي والقارىء وجبران بكتمان ما ليس مكتوماً في سجل

الحياة الكبرى — وان يكن مستوراً عن أعين الناس — فأصوّر صورة لا وزن بين ظلالها وانوارها ، لأرضي بعض من لا ذوق لهم في الفن ولا رأي لهم في الحياة ، وأجور على ذوقي وأدفن رأيي في التراب ؟ »

والواقع ان في حياة جبران مجموعة من الاسرار كانت في حاجة الى من يزيح عنها الستار او يفتح مغاليقها ، ولا يستطيع ذلك الاّ رجل عرف جبران حق المعرفة من كل نواحيه ، له بصيرة قوية تصل الى أعماق هذه النفس التي انطمست في روحانيتها وتلاشت في صوفيتها فتنتشل منها بعض الذكريات القديمة التي تمهد السبيل لمعرفة تطور هذه النفس الانسانية ، وببصيرة قوية نقّادة يعطي المؤلف الصورة الصادقة عن جبران — ما لهُ وما عليهِ — لا يخفي من أمره شيئاً فهو يحدثنا عن جبران قائلاً : « كان لا يتوصل الى معرفة رجل او امرأة أو عائلة على أسمائهم شيء من اللمعان الادبي أو الفني أو المادي أو السياسي أو الاجتماعي الاّ اخبرني عن ذلك بلسان من لا يكترث لمثل ذلك اللمعان . ولكن بقلب من يكبر في عين نفسه اذا ما تقرب من الذين يراهم العالم كباراً . وكأنهُ كان يخشى من ان أعيب عليه التناقض بين نفوره من تقاليد الناس ومفاخرته بها فكان يطرح على كل علاقاته ستاراً من السرّ وجلباباً من الفن والادب . كأن يقول لي مثلاً : « البارحة كنت مدعوّاً الى الشاي عند مسز كورين روبنسن » ثم يضيف بفخر ظاهر : « هي أخت ثيودور روزفلت » ويعقب ذلك بقوله : « وهي شاعرة تعجبك يا ميشا » . أو ان يخبرني عن سهرة عند مستر فلان « وهو مدير البنك الفلاني ، ولهُ ذوق في التصوير جميل » . أو عن زيارة لبيت فلان « وهو من أخص اصدقاء رئيس الجمهورية وهو وزوجته من أقدم العائلات الاميركية وأوفرها ثروة وثقافة » ... هكذا كان جبران يصفع الناس بيد ويصافحهم بالاخرى ، يثور عليهم عند ما يثوب الى روحه المتألم من كل شناعة وقساوة وظلم ، ويسالمهم عند ما تثور عليهِ نفسه الطامحة الى المجد والعظمة والمتوجعة من قبضة الفاقة الماسكة بخناقها ، يحفر لها قبوراً في الليل ، وفي النهار ، عند ما تلحدهم الاقدار في قبور غير التي حفرها لهم يهتف بقلب دامع : « مات اهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي »

***

بدأ المؤلف كتابه بصورتين تتلاطم على شاطئها حياة جبران بل حياة كل الناس ، تبدأ أولاها حيث تنتهي الثانية ، فالصورة الاولى هي غرغرة الموت في مستشفى القديس فنسنت في الساعة الاخيرة من حياة جبران حيث شهد المؤلف افول حياة صديقه ، والصورة الثانية هي وعوعة الطفل جبران عند ولادته في بشرى . ثم يبدأ المؤلف في استعراض جميل لحياة بطله وحياة عائلته حتى رحيلها الى بوسطن ، ثم يرسم الصورة الجميلة لجبران الحالم الذي يريد بناء المجد وان يسمع العالم اسمه ، ومن ثم يرسم الاستاذ ميخائيل الصور المتعددة فهنا غرام جبران الاول ، وهنا شقاء عائلته ووفاة اخته

واخيه وأمه وسخطه وبرمه وحيرته واهتداؤه الى ماري هاسكل التي قادته الى طريق العظمة بعطفها وحنانها مستعرضاً في خلال ذلك غراماً قوياً آخر هو غرام جبران بميشلين الفرنسية ثم حياة جبران في فرنسا وأثر الشاعر الفنّان وليم بليك في حياته ثم اندفاع جبران في محيط المدينة العظيمة بنيويورك . وقد طالع قرّاء المقتطف في عدد ماضٍ تحت عنوان « تمخضت الفأرة فولدت جبلاً » تلك الصورة الرائعة التي مهّد بها الاستاذ ميخائيل نعيمه للكلام عن مغامرة جبران في ذلك المحيط وفي هذه الصورة رسم دقيق للمدينة الاميركية . وقد لاحظت ان للمؤلف قدرة على رسم حياة المدن رسماً دقيقاً فقد أعطانا صورة بارعة عن مدينة بوسطن واحياء المهاجرين فيها

ثم ينتحي المؤلف ناحية اخرى حيث يحلل بعض آثار جبران الادبية والفنية، ولعل اتمها تحليله للنبيّ من كتبه الانكليزية والمواكب وصورها من مؤلفاتهِ العربية . ثم يتناول صلة المؤلف بهِ ، وانشاء الرابطة القلمية الى غير ذلك في اسلوب روائي فلسفي أخّاذ يكفي انهُ اسلوب ميخائيل نعيمة

ولعلّ هذه الخطوة الجريئة الموفقة من الاستاذ ميخائيل تحفز غيره من الكتاب الى ان يخطوا كما خطا فتتغير أساليب التاريخ والتراجم ، وتعيش بين اذهاننا حياة عظمائنا وفنّانينا وادبائنا حياة خالدة في إطارٍ ساحر جميل

القاهرة حسن كامل الصيرفي

اغلاط اللغويين الاقدمين

للأب أنستاس الكرملي

يطالعنا العالم الباحث الأب « أنستانس ماري الكرملي » — في كرّ الاحيان — بما يمليه بحثه على قلمه ، وكان آخر ما حظيت بهِ العيون من ذي قلمه ، كتاب « اغلاط اللغويين الاقدمين » فقد قام شاهداً جديداً على ما يملكه الاب « انستاس » من غزارة في البحث ، وقدارة على النظر وفيض من التفكير البعيد

والأب أنستاس عالم اختارته اللغة التي كادت تضيع من لسان الزمن ضيعة الراء من لسان الالثغ، فصحب اللغويين في كتبهم خمسين سنة او تزيد ، حتى خبرها وسبرها ، وفتح من ابوابها ما عيّت بهِ مفاتيح كثير من الباحثين ، وضم العربية الى اسرة اللغات لتعرف امها وبنتها وقرابتها فيها ، فكان من خير من نهض الى لغة الضاد فنهض بها

ولقد جاء كتاب « اغلاط اللغويين الاقدمين » عيناً نافذة لاحظة ، يحس القارىء من نظراتها الروح اللغوية القوية في صاحبها ، كما يحس من الزئير اسداً ، او من اللجّة بحراً

واذا كان الاب انستاس قد ابتغى في كتابهِ بغية التحرير والكشف لما رآه مظلماً في كتب اللغة ، وما يتصل بها من ادب وتاريخ ، كي ينهض عليها صبحاً تقاعد فلقه ، فان ذلك يقدمنا لمساجلة العالم الباحث في بعض نقده ، عسى ان نجلو ما يأخذه من غيم رقيق

فأول ما يفجأ القارىء عنوانٌ شديد اللهجة ، وحسبك ان تقرأ «اغلاط اللغويين الاقدمين » لتمتلىء نفسك بالسخط والمغضبة ، وتهز ائلة البرم بالمعاجم اللغوية ، وقد كان جديراً بالمؤلف ان يبدل من « الغلط » لفظاً اخف على السمع ، وأبعد للقلق ، وأجمل بذكرى علماء اللغة ، وشهداء تحقيقها

على ان الأب انستاس لم يجعل كتابه كله تغليطاً ، فانك لاتجده مغلطاً في مواضع مما يجعلهُ الكتّاب في عدد الاغلاط ، مرقوماً برقمها (انظر ٧ ص ١٠١ ، ٤٨ ص ١٧٣ و ٤٩ ص ١٧٤ ... الخ)

وفي العنوان لفظ « الاقدمين » ، وهو معدود في دلالته الاشتقاقية من صيغ التفضيل ، مع ان الكتاب قد غلب عليهِ المتأخرون من اللغويين ، واحتلوا اكثر صحائفه .. افلم يكن هناك لفظ خير من هذا ؟؟

ولنترك هذا ، لنذكر ما يفجأ القارىء في نظام الكتاب ، واسلوب البحث فيهِ ، فانهُ لايرى فيهِ ترتيباً بين الكلمات المنتقدة (انظر مثلاً لهذا ص ٨٤ — حيث يقول «والآن نعود الى اتمام مقالتنا» وتجد هذه المقالة قد انقطعت ص ١٩) فيلاحظ القارىء هذه الثلم الكبيرة التي يثلمها المؤلف بين موضوعات كتابه ، وحسبنا ان يعترف الاب انستاس نفسه بهذا في قوله (ص٦) : اننا لانتبع نظاماً سويًّا

ولن ننسى ان نذكر هذه الثلمات التي قطعت نظام البحث في الكتاب ، وفرقت اجزاءه ، فأنها قد خرجت — كثيراً — من باب النقد والرد لتدخل باباً آخر !

ولنعرض الآن — بعض العرض — لموضوعات الاغلاط بشيء من النظر :

١ — يقول الاب انستاس (ص٨٤) : جاء في لسان العرب «تتوا الفسيلة : ذؤابتاها ، ومنهُ قول الغلام الناشد للعنز : وكأن زنمتها تتوا فسيلة ، والله اعلم» والظاهر ان ابن مكرم لم يفهم ما كتب ، وجاء في تاج العروس « تتوا القلنسوة ، هكذا في النسخ ، وقد اهمله الجوهري ، والصواب تتوا الفسيلة : ذؤابتاها ، ومنهُ قول الغلام ...» قلنا والصواب : تتوا القُلَنْسية او القلنسوة او القلينسة او القليسية ، اما سبب هذا التصويب فهو ان ليس تتوان للفسيلة ، وهي — ان صحت الرواية — النخلة الصغيرة ، انما التتوان تثنية تتو والتتو ذؤابة القلنسوة ، وهي ما انحدر منها سائلاً على الكتفين والظهر ، فهم يجعلون ذؤابتين للعمامة او للقلنسوة في اغلب الاحيان . . . الخ ونحن نقول للمؤلف : انك جعلت للقلنسوة — كالعمامة — ذؤابتين ، ولم تذكر لذلك شاهداً فأين هو ؟

وقد خطأ المؤلف لسان العرب وتاج العروس ومن نحا نحوها في قولهم « تتوا الفسيلة » بحجة واحدة — اذا صحت تسميتها حجة — وهي ان ليس تتوان للنخلة ، لان ، التتو الذؤابة ، وليس في النخل ذوائب .. ونحن نقول له : لماذا لا يكون للنخلة ذؤابة ، او ليست ذؤابة كل شيء اعلاه ؟ اوليس الشعراء قد شبهوا ذوائب المرأة بذوائب النخل في مثل قول امرىء القيس :

وفرع يزين المتن اسود فاحم   اثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائرهُ مستشزرات الى العلا   تضل العقاص في مثنى ومرسل

على ان هناك تصريحاً بجعل الذوائب للنخل، في قول ابن منظور (ص ٣٦٦ ج ١) وصاحب التاج (ص ٢٤٩ ج ١) : واستعار بعض الشعراء الذوائب للنخل ، فقال :

جم الذوائب تنمى وهي آوية ولا يخاف على حافاتها السرَق

ويقول ابو نواس :

لنا خمر وليس بخمر خل ولكن من نتاج الباسقات
بدا بين الذوائب في ذراها نبات كالا كف الطالعات

ويقول الاب انستاس في تلك الكلمة ايضاً «والذي عندنا (كذا) ان اعتذق لغة في اعتذب ، اي لغة من يعتقب في كلامهِ القاف والباء»

ونحن نلاحظ ان هـذا الذي « عند » المؤلف مذكور بنصه في التاج (ج ٧ ص ٦ س ١٥) على أننا نحب ان ندل على أن كلمة « الناشد للعنز » قد ذكرها كلها أبو علي القالي في أماليه (ج ١ ص ٣٤ و ٣٦) فجاء فيها « تتوا القلنسية » وكنا نود لو يذكرها المؤلف

٢ — ويقول الاب أنستاس (ص ١٠٠) : قال ابن الاثير « والذباب جنس من الفأر لا يسمع لعلها (أي لعلَّ الضبع) تأكلهُ كما تأكل الجراد» وهكذا نقل هذه العبارة أصحاب المعاجم كالتاج واللسان وكل من أخذ عنهما فقد ذكر جميعهم «الجراد» وزن سحاب والمشهور أن الضبع لا تأكل الجراد انما تأكل «الجرذ» الذي يشبه الفأر في خلقه . الا انهُ أعظم منهُ ، اذن قولهم « جراد » هو في غير موطنه

ونحن نقول : قد ذكر صاحب التاج هـذه الكلمة صحيحة فقال (ج ١ ص ٢٨٥ س ٢٣) . والذباب جنس من الفأر لا تسمع ، لعلها (أي الضبع) تأكله كما تأكل الجرذ (كذا) . فلا عيب ...!

٣ — ويقول الاب انستاس (ص ١٣٣) : قال في تاج العروس « قال الاصمعي : التفة دويبة كجرو الكلب ، قال : وقد رأيتها ، أو كالفأرة ، وهذا نقلهُ ابن دريد وقد أنكره الاصمعي » قلنا : والذي نراه ان الفارة أو الفار هنا يجب ان تقرأ بالقاف ، أي القار أو القارة ، والقارة الدبة ، والذي يرى هذا الحيوان يظنه دبة صغيرة ، فابن دريد صادق في كلامه ، فالتفة كالقارة ، والظاهر ان هذا التصحيف قديم حتى أنكر هـذا المعنى الاصمعي ، فالملوم هنا ابن دريد لأ نهُ تشبيهاً للتفة وهو اسم غير مألوف ، ولو قال « كالدبة » لما صحف من ابعد الازمان في القوم ، ولما قام عليهِ الاصمعي

ونحن نقول : لم يكن ابن دريد بعيد الزمن عن اللغويين بعداً يجعلهم يخطئون فيصحفون كلمته « من ابعد الازمان » . . . وعجيب ان يظن المؤلف أن كلمة ابن دريد قد صحفت على الاصمعي حتى « قام على ابن دريد » فان الاصمعي قد مات قبل ان يولد ابن دريد ، وابن دريد يروي عن تلاميذه ، فهل قام عليه من القبر ؟ !

ونودع الآن الاب أنستاس الكرملي شاكرين له جهده النافع في تحصين اللغة العربية وتخريجها في تحرير وتحقيق

رفعت فتح الله

على عتبة الامومة

تأليف الدكتور مصطفى الخالدي — استاذ فن التوليد والامراض النسائية — في جامعة بيروت الاميركية

صفحاته ٢٠٥ — طبع بمطبعة طباره ببيروت — ثمنه ٥٠ قرشاً سورياً

هذا كتاب مفيد . فهو في الناحية العلمية ، يشرح التناسل في النبات والحيوان على اختلاف مراتبهما من الرقي ، ثم يصف تركيب الاعضاء التناسلية في المرأة ، ويوضح كلَّ ذلك بصور ورسوم كثيرة . ويلحق بهذا الجانب من الكتاب فصل في الحمل والتغيُّرات التي تطرأُ على الحامل في اثنائهِ ، والاشتراكات او الاختلاطات التي تصاب بها الحامل مثل الغثيان والتقيوء وتورُّم الاطراف وما الى ذلك

ويلي ذلك فصول تحتوي على فروع الناحية العملية من الموضوع مثل العناية بالوليد والعناية بالحامل والعناية بالنفساءِ وقد لخصنا في باب مملكة المرأة فصل العناية بالحامل ومنهُ يتبين القارئ اسلوب الكتاب

وقد وقف الجانب الاكبر من الفصل العاشر على بيان « من هم اهل للزواج » ، وهو بيان له شأن اجتماعي عظيم يجب ان يقرأه كل والد وكل والدة ، وكل شاب وكل شابة ، لان الاقدام على الزواج قبل التثبت من خلوّ الجسم من بعض الآفات ، يجرُّ في ذيوله فواجع على نحو ما بيَّنا غير مرة في المقتطف . فعلاوة على الامراض الزهرية ، هناك علل كثيرة يجب التأكد من شفائها اذا كانت من الادواء التي تخضع للمعالجة ، او من انتفائها اذا كانت من الامراض الوراثية قبل الاقدام على الزواج. ومن اغرب الادواءِ الوراثية داء الهموفيليا او النزف الوراثي . وقد وصفهُ المؤلف بقوله :

« هو داء غريب يلازمهُ نزف متكرر لا نستطيع التحكم بهِ في اكثر الاحيان الاَّ بصعوبة شديدة قد تكون عديمة الفائدة . يحدث لدى اقل جرح او صدمة او صفعة . ومن غرائبهِ انهُ وراثي يصيب الذكور دون الاناث في معظم الاحيان ولكنهُ لا ينتقل الاَّ بواسطة الاناث ..... فالذكور المصابون بهذا الداء لا مانع من زواجهم البتة لانهُ لا يحتمل ان ينقلوه الى اولادهم (مع انهُ من المحتمل ان يموتوا بهِ كما حدث لاحد ابناء ملك اسبانيا من عهد قريب واسرتهُ مصابة بهذا الداء) اما الاناث اللواتي هذا الداء وراثي في عيلاتهنَّ فيجب ان لا يتزوجنَ لانهُ من المحتمل ان ينقلنهُ الى الذكور من اولادهنَّ واذا تزوجنَ فالافضل ان لا يلدنَ »

***

وفي آخر الكتاب لحق خاص بالاطفال لتدوين كل ما يتعلق بهم من تواريخ الولادة وقياسات الوليد وعلاماته الفارقة ، وما قد يذكر عن ولادتهِ في الصحف والتهاني التي توجه الى والديه الخ

ايام بغداد

وصف شامل لنهضة العراق الحديثة ولمعالمه التاريخية

وضع هذا الكتاب حضرة الاستاذ امين سعيد بعد ما زار العراق وتنقل في عاصمته ومدنه التاريخية المشهورة مثل النجف وكربلا والموصل وسامرا فاسهب في وصف النهضة العلمية والعسكرية والعربية واختلط بعظماء العراق وقادته وشاهد قصور الملوك فوصف سماط الملك غازي وموكبه وبلاطه ووصف جلالة الملك علي وشباب العراق والوحدة العربية وزار المساجد الاثرية ووصف مشاهدها كمشهد الامام علي في النجف ومسجد الحسين في كربلا. ومسجد الكاظم وصاحب الزمان وعني بوصف الحالة الاقتصادية في العراق ومنابع النفط وآباره في كركوك . وكانت مسألة الاشوريين في ابانها فزار منازلهم ووصف حياتهم وما هم عليه. وافاض في وصف انتشار الصحافة العراقية ومزاحمة الصحف العربية والسورية لها . ونسبة توزيع الصحف في العراق ووصف النفوذ البريطاني والمطارات البريطانية في العراق والاقليات في العراق كل ذلك باسلوب عربي فصيح اشتهر به الاستاذ امين سعيد في كتبه ومقالاته يجعل القارىء يشعر كانه مع الكاتب يشاهد آثار العراق ومجتمعاته وانديته ولزيادة الفائدة نشر في كتابه صوراً كثيرة جلية واضحة تزيد القارىء شوقاً الى مشاهدة ذلك القطر العربي الناهض والانس بأهله وعشيرته

والواقع ان الاستاذ امين يمتاز على كثير من الكتّاب بقلمه السيال وقريحته الوقادة وذهنه الحاضر وسعة معلوماته ولذلك نرى له في كل ميدان من ميادين الكتابة فضلاً وأثراً وقد احسن صنعاً بدخوله ميدان التأليف فغذى المكتبة العربية بكتبه التاريخية النفيسة مثل كتاب « ملوك المسلمين المعاصرون » وكتاب « تاريخ الثورة العربية الكبرى » وها هو ذا يطبع كتاباً جديداً في تاريخ الاسلام السياسي

***

وايام بغداد هذا يقع في ٢٤٥ صفحة بالقطع المتوسط وهو مطبوع طبعاً متقناً في مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه ويطلب من مكتبتها بجوار سيدنا الحسين بمصر فنوجّه اليه الانظار . فسيجد فيه القرّاء معلومات نفيسة عن مملكة العراق الفتية لا يتيسر له العثور عليها في غيره فضلاً عما فيه من لذة يشعر بها قرّاء كتب الرحلات لان القارىء ينتقل من قطر الى قطر وهو في مجلسه ببراعة الكاتب ولا سيما اذا رزق قلماً مثل قلم الاستاذ امين سعيد، فنهنىء حضرتهُ بتفوقه بعد ما هنأه جمهور من كرام الكتّاب والادباء والامراء

محيي الدين رضا

باب الأخبار العلمية

متفرقات علمية

[اختارها ونقلها : عوض جندي]

اسلحة الحرب القادمة

أعلن عالم فرنسي أن اسطوانات الفونوغراف يتاح استعمالها لطبع الحركات الميكانيكية عليها كما يُطبع الصوت سواء بسواء ، فيكاد يتحقق بهذه الوسيلة ، الحلم الذي حلمهُ العلماء بأنهُ سيأتي يوم يستطيعون فيهِ تطيير الطائرات وتسيير الدبابات بقوة لاسلكية تسيطر عليها من بعيد

وقد عرضت هذه الطريقة امام الجمهور في باريس من عهد قريب بجيء بدبَّابة كهربائية وأُطلقت في ميدان التجربة ، فكانت تغير طريقها وتتقهقر ، فتعكس اتجاهها ثم تقف في مكانها وقوفاً تامًّا دون أن تمسها أية يدٍ بشرية . فتبيَّن ان اسطوانات الفونوغراف التي توسلوا بها الى اتمام التجربة يمكن بوساطتها تسيير الطوربيد الى ميناء منيع لكي يدمّر احدى مدرعات الاعداء ، وتسيير دبابة ايضاً الى مكامن مدافعهم الرشاشة فتطلق عليها النيران ثم تعود الى خنادقها الخاصة

ومن الميسور حينئذٍ احصاء تنقلات الطوربيد او الدبابة احصاءً مضبوطاً قبيل الهجوم وذلك بجهاز مسجل ذي ذراع يدور فيولد نبضات كهربائية تطابق توقيت الحركات الحربية المعقدة المبتغاة حيث يقوم جهاز كهربائي ملتقط بتحويل هاتيك النبضات الى طاقة ميكانيكية على حين تطبع ابرة الملتقط النبضات على الاسطوانة ويودع في جوف الدبابة آلة ناسخة (مؤلفة من محرك كهربائي وصوانٍ دوارة لكل منها ملتقط كهربائي) ولأبر الملتقط عقارب ذات زنبركات تتبعها في خطوطها المرسومة بالاسطوانة . وتستعمل لتلك الغاية اربع اسطوانات . احداها لتحريك الدبابة ووقفها . والثانية لقيادتها . والثالثة للتحكم في سرعتها . والرابعة لتسديد نيران المدفع الرشاش واطلاقها . وتقوم الاجهزة الكهربائية الملتقطة بملاحظة الاوامر المرسومة على الاسطوانات فتحولها الى طاقة كهربائية ثم تبعث بها الى المفخمات والاجهزة المتممة للدورة الكهربائية فيتقوى التيار الكهربائي جدًّا ، على ذلك النمط ، فيتيسر نقلهُ بالاسلاك الى مغناطيسات كهربائية تدير الفرملة وزمام البنزين وتروس الادارة في الدبابة ثم تطلق مدفعها الرشاش . وبهذه الوسيلة يتسنى للطائرات الخالية من الطيّارين ، اذا جهزت بامثال ذلك الجهاز ، الطيران مُقلّة البريد بين شاطئي المحيط الاطلنطي في بضع ساعات . ويركب فيها جهاز موازنة اوتوماتيكي ليقوم بموازنتها فتطير في طريق مستقيم باقصى

سرعتها ثم تتمكن من الهبوط الى الارض بوساطة مظلة واقية وذلك عند بلوغ الغاية السابق تحديدها اذ يقف محركها وتنفتح مظلتها الواقية فتهبط الطائرة الى الارض سليمة عند نهاية رحلتها

سيارة تصغي للصوت البشري

والشيء بالشيء يذكر فقد عرضت في مدينة نيويورك حديثاً سيارة لا سائق لها . وانما يقودها سائق كهربائي ، وفقاً للصوت البشري كما لو كان سائقها انساناً جالساً في مقعدها الامامي وذلك بأن يعمد امرؤ الى تليفون قريب من موقف السيارة فيلقنها بالتليفون بصوت خافت ، التعليمات المرغوب في تنفيذها . فلا يكاد يفرغ من التفوه بأوامره ،حتى يرى السيارة تزايل مكانها وتتابع سيرها حتى يقفها هو بأمره ايضاً . ثم يأمرها بالتقهقر فتلبي الطلب . ومتى اراد وقفها وقفت مرة اخرى .واذا رغب في اضاءة مصابيحها انيرت .ومدار تسييرها بذاتها على ذلك النمط ،بطارية كهربائية حساسة بالنور تعمل فيها طبقاً لاشعة الضوء التي يسيطر عليها ذلك التليفون بحيث ان كل كلمة يلقيها المتكلم في ثغر التليفون تتولد منها شعاعة نور من مصباح مستكن في شجرة صغيرة قريبة من مستودع السيارة

وتختلف الشعاعات التي تؤثر في البصاصة الكهربائية من شعاعة واحدة الى اربع شعاعات فتحرك الاجهزة المجددة للدورة الكهربائية التي تتحكم في تنقلات السيارة . وقد تستمر هذه السيطرة ما دامت السيارة قريبة من المصباح المختفي في الشجرة بحيث يتسنى القاء اشعته على البطارية الحساسة بالنور الآنفة الذكر وتأثيرها فيها التأثير المرغوب

العث واختبار المنسوجات

أنشيء في مدينة فيلادلفيا ، من اعمال دولة الولايات المتحدة الامريكية ،مبحث علمي يعدُّ فريداً في العالم . أسسهُ مصنع من مصانع المنسوجات الصوفية هناك ليختبر بهِ الوسائل المختلفة التي يتذرع بها الى مناهضة العثّ الذي يلحس الثياب الصوفية فيفنيها

ويعتاض العلماء في ذلك المصنع من الارانب الرومية التي تستخدمها كل المختبرات العلمية في مباحثها بالالوف المؤلفة من العث فيحبسونها ويستعينون بها في تجاربهم . وذلك بوضع اجهزة منظمة للحرارة الكهربائية Thermostat تجعل الغرف ذات حرارة ملائمة للعث ثم يغذونهُ بقطع من نماذج تؤخذ من المنسوجات المستعملة للمفروشات التي تعالج بالمواد المضادة للعث ، فيتاح لأرباب المصنع اختبار اصناف المواد المختلفة التي تمنع العثّ عن التهام المنسوجات ومتى قلّ عدد العث في ذلك المبحث العلمي عن القدر الذي يحتاج اليهِ في تجاربهِ قام بشراء ما يلزمهُ منهُ بسعر الواحدة خمسة سنتات اي قرش صاغ (عند اعتدال اسعار المصارفة الدولية) وذلك من الغلمان الذين يصيدون العثّ لاجلهم

دبابة جديدة تطلق حجاباً من الدخان

اخترعت وآسة الجيش في جمهورية ولايات اميركا المتحدة دبابة تطلق حجاباً كثيفاً من

الدخان قدام طلائع الجيش المشاة وقاية لها من نيران عدوها قبيل هجومها عليهِ وتحسب هاتيك الدبابات احدث انواع الاسلحة ، اذ تستطيع سرعة التنقل (على الاراضي التي مزقت اديمها القنابل) محتوية على جهاز يولد الدخان. فتتقدم المشاة وتطلق سحابة كثيفة من دخان ابيض ، حيال خط الاعداء . فتمكن المشاة من الهجوم تحت ذلك الستار الدخاني دون التعرض للقذائف التي يصوبها اليهم جنود الاعداء . ومتى قامت الدبابات باطلاق ذلك الحجاب ، اخذت في مباشرة اعمالها الاعتيادية وهي مهاجمة مكامن المدافع الرشاشة

ويزعم العليمون انهُ من الميسور ان تقطع الدبابة عشرين ميلاً في الساعة سائرة على اطواقها المحيطة بعجلاتها فوق الارض

مطعم تشيكوسلوفاكي اوتوماتيكي

فتح حديثاً في مدينة براها وهي براغ سابقاً عاصمة تشيكوسلوفاكية مطعم مجهز باحدث الاجهزة الكهربائية التي تقوم بخدمة الوافدين عليهِ ، خدمة تامة عوضاً عن الندل . فاذا ما دخله الجائع ودفع الثمن المحدد للاكلة وقف في موقف مرقوم بحسب دوره عند مائدة مستطيلة ، حيث يضغط زرًّا كهربائيًّا مسلطاً على سير دوّار تحت وسط تلك المائدة ، فيقدم لهُ السير الصنف الاول من اصناف الطعام فيأكله . ثم يضغط ذلك الزر مرة اخرى فيقدم له نوعاً آخر من الغذاء وهلم جرًّا وفي ذلك المطعم سيور اخرى تدور بعكس دوران السير الاول ، تحت طرفي المائدة يضع عليها الشباعى الصحون الفارغة فتنقلها الى المطبخ

نهر من المداد

في ولاية الجزائر بشمال افريقية نهر يسمَّى (نهر المداد) مؤلف من جدولين تكثر في أمواههما المواد الكيمائية المتولدة من أملاح الحامض التنيك — أي المداد الحديدي . وذلك لان احد ذينك الجدولين ينبع من تربة مشبعة بالحديد ، والآخر ينبع من مستنقع مملوء بالفحم الحجري النيء المشبع بمادة التنين — الحامض التنيك

السمك الرامي

في جزائر الهند الشرقية ضرب عجيب من السمك يسمى (السمك الرامي) ومرماهُ بندقية نخاخة !! اذ انهُ يستطيع قذف رميَّته بقطرة ينخُّها من شدقيه الى بعد اربع اقدام ، نخًّا محكماً على الحشرة التي يشتهيها فيصرعها توًّا ويلتقمها من سطح الماء (وقد وصفت ذلك السمك باسهاب في مقالي: الطبيعة رائد المخترعين الذي نشر في جزء فبراير سنة ١٩٣٤)

تصحيح خطإٍ

جاءنا من الأمير مصطفى الشهابي بعد الشروع في طبع مقالهِ « الوان الخيل وشياتها » ان ضبط السلغد صفحة ١٧٩ سطر ٢ هو كما يلي « السِلْغَدُّ » فضبطناها فيما تيسر من الورق الذي لم يطبع واشرنا الى ذلك هنا للبيان

فهرس المجلد السادس والثمانون

صفحة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

صـ	
٣٥	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	« « « (طبعة ثالثة)
٧٠	« « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	« المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	« « عربي انكليزي فقط
١٥	« « انكليزي عربي فقط
٧٠	« سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠	« « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠	« « « « وبالعكس
١٠	التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠	الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان « « «
١٢	مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥	روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥	روح السياسة « «
١٠	الآراء والمعتقدات « «
١٠	اصول الحقوق الدستورية « «
٢٠	الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥	حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠	الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥	ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨	اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠	مختارات « « «
٨	نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠	اناتول فرانس في مباذله، للامير شكيب ارسلان
١٥	الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠	جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥	المرأة بين الماضي والحاضر
٥	مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥	حصاد الهشيم (الاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠	قبض الريح (« « « « «)
٨	نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠	رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠	الغربال في الادب العصري (مخائيل نعيمة)
٥	حكايات الاطفال، اول (مصور بالالوان)
٥	« « ثان « «
٥	« « ثالث « «
٥	تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥	جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦	مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥	مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

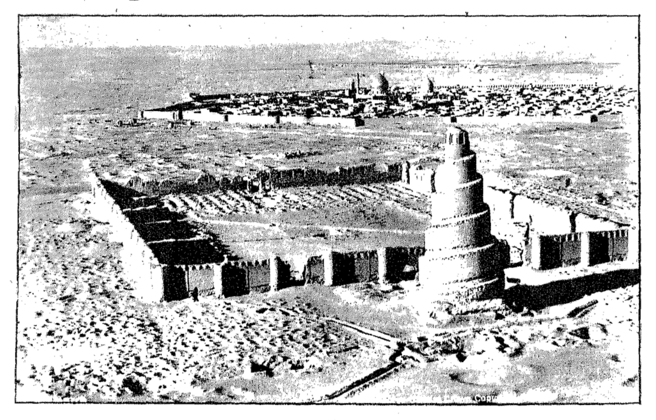
صـ	
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥	خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥	التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥	اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠	الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥	الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد
١٠	تاييس « « « « (« «)
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠	القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية أهوال الاستبداد، مصورة
١٠	« فاتنة المهدي، او استعادة السودان
٨	« الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥	« فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢	« باريزيت، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	« غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥	« روكامبول، ١٧ جزءا (طانيوس عبده)
٢٥	« ام روكامبول، ٥ اجزاء «
٢٠	« باردليان، ٣ اجزاء «
٢٠	« الملكة ايزابو، ٤ اجزاء «
٢٠	« الاميرة فوستا، جزآن «
٢٠	« عشاق فنيسيا، جزآن «
١٦	« الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦	« كابيتان، جزآن «
١٦	« الوصية الحمراء، جزآن «
١٦	« بائعة الخبز «
١٢	« المبرج، جزآن «
١٠	« فارس الملك «
١٠	« ضحايا الانتقام «
٨	« المرأة المفترسة «
٥	« المتنكرة الحسناء «
٥	« مروضة الاسود «
٥	« شهداء الاخلاص «
١٦	« دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	« فرنسوا الاول « «
١٠	« الجنون فنون « «
٨	« حورية « «
٨	« الغلامان الطريدان « «
١٢	يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران
٨	النبي (« « «
٥	آلهة الارض (« « «



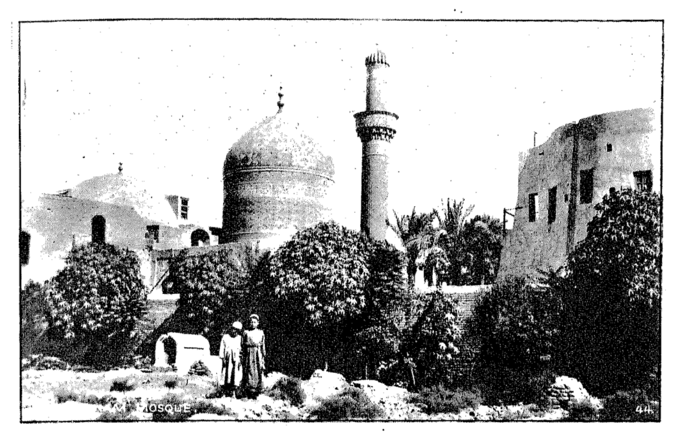
جلالة الشتاء في بلدة سانت مورتز بسويسرا



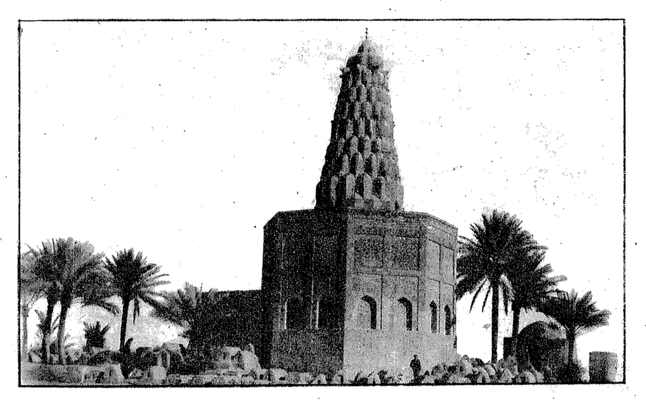
تمثال الملك فيصل عند مدخل بغداد من جانب الكرخ



« سرّ من رأى » في العراق



الجـــامع المعظم ببغداد



مدفن الست زبيدة ببغداد



هيكل ارطاميس العظيم في جرش في شرق الاردن

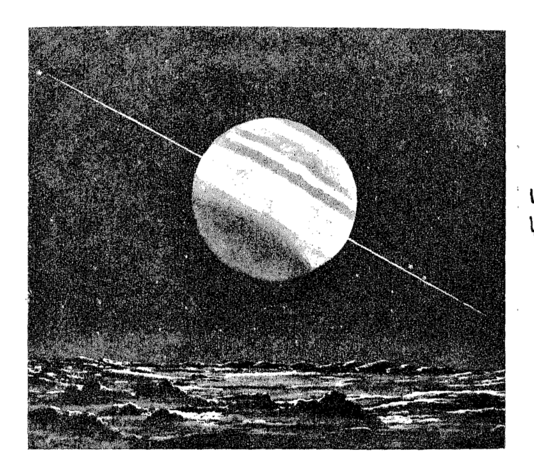


جانب من الأعمدة حول « الساحة العامة » في جرش بشرق الاردن



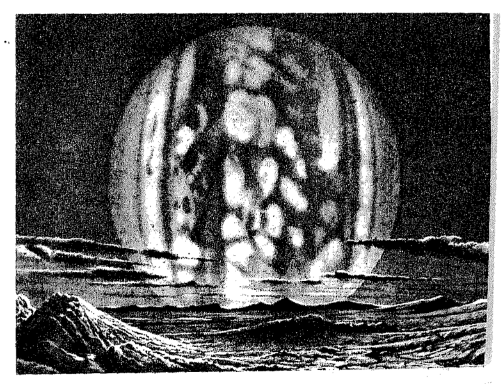
حلقات زحل كما تشاهد من مقيم على سطح السيار

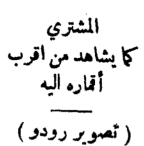
(تصوير رودو)



جمال زحل
وحلقاته تبدو هنا
خطاً دقيقاً لرؤيتها
من الجانب

(تصوير رودو)





المشتري
كما يشاهد من اقرب
أقماره اليه

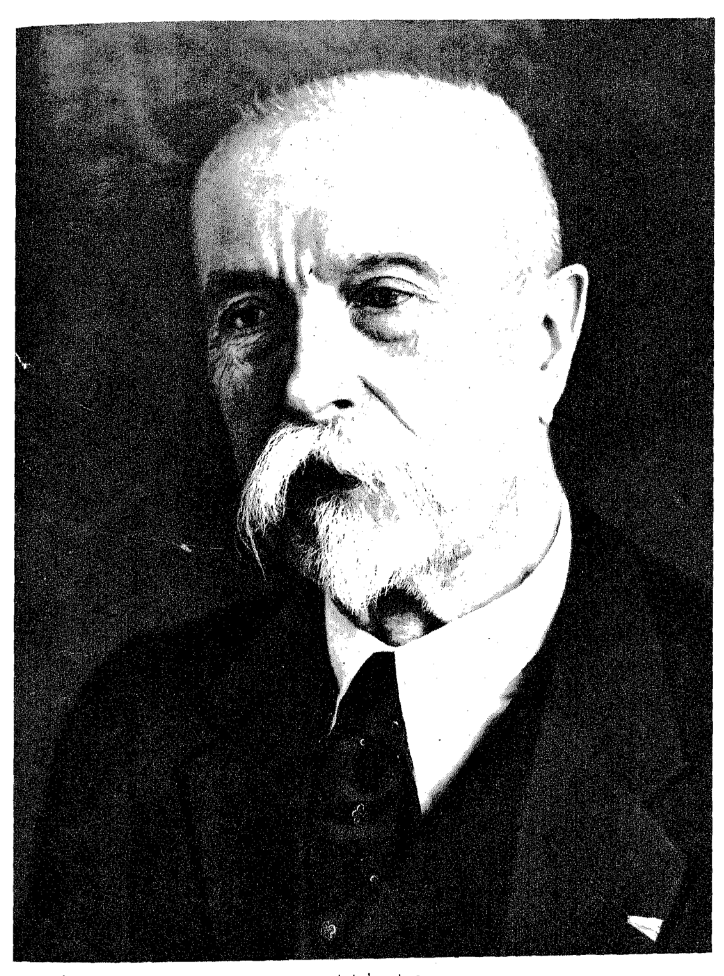
(تصوير رودو)



الرائد الاميركي الاميرال رتشرد برد

Rear-Admiral Richard E. Byrd

(انظر مقالة روح الرواد صفحة ٣٣٠)



توماس ماساریك

Thomas Masaryk

رئیس جمهوریهٔ تشکوسلوفاکا

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الثالث من المجلد السادس والثمانين
١ مارس سنة ١٩٣٥ ٢٥ ذو القعدة سنة ١٣٥٣

السيارات : اجواؤها

ومسألة الحياة على سطوحها

المشتري وزحل والزهرة والمريخ في ضوء الارصاد الحديثة

من عهد طويل ، يقاس بألوف الألوف من السنين ، اقتربت شمس عظيمة من شمسنا ، فاشتدَّ جذب الضيفة لمضيفتها ، فانتزعت من سطحها قدراً كبيراً من كتلتها امتدَّ في شكل ذراعٍ بين الشمسين ، فلما أبعدت الشمس الزائرة ، ماضية في طريقها الكوني المرسوم ، تكتلت مادة الذراع كراتٍ من المادة هي السيارات التي تدور حول الشمس ومنها الأرض . هـذا هو أصل النظام الشمسي بحسب الرأي السائد في دوائر العلم

على ان العلاَّمة ادنغتن أستاذ عـلم الفلك في اكسفرد ، يرى ان احتمال اجتماع شمس بأخرى ، على النحو المتقدم ، بعيد جدًّا ، لا يزيد على واحد في مائة مليون . ولذلك يذهب هو وطائفة غيره من علماء العصر ، الى ان النظام الشمسي ليس نموذجاً للسبيل التي تسير فيه الشموس في تطوّرها . بل ليس ضرباً مألوفاً في قبة الفلك . وانهُ فلتة من الفلتات لا اكثر ولا أقل (It is a freak)

وثمة بواعث كثيرة تحمل الباحث على الاعتقاد في أن نظامنا الشمسي تكوَّن بالطريقة التي تقدم ذكرها . ولقد أشار السر جيمز جينز في ما كتبهُ عن أصل النظام الشمسي، الى أن قواعد التجاذب تقتضي أن تكون الذراع المؤلفة من المادة المنطلقة من شمسنا بفعل جاذبية الشمس الاخرى ، على اكثفها وأثخنها عند منتصفها ثم تستدقُّ رويداً رويداً حتى تبلغ طرفيها . فاذا أخذنا السيارات

ورتّبناها بحسب بُعدها عن الشمس محتفظين ببعدها النسبي أحدها عن الآخر ، ثم رسمنا خطًّا حولها يمسّ النقط العليا والنقط السفلى في كراتها ،كان الرسم الذي نحصل عليهِ أشبه ما يكون « بالسيجار » . وهذا يؤيد رأي جينز ، فالمشتري وزحل في الوسط وهما أكبر السيارات ، ثم تصغر السيارات حجماً كلما بعدت عن الشمس او اقتربت منها ، فالسيارات تتدرج صغراً من المريخ الى الارض الى الزهرة الى عطارد في ناحية الشمس ، ومن أورانوس الى نبتون الى بلوطو في الناحية المقابلة

فاذا مضينا في البحث ، متأثرين نظرة الاستاذ ادنغتن وجدنا أن كلّ سيّار من السيارات فلتة على حدة . فليس بينها اثنان متساويان حجماً أو كتلةً أو متماثلان في طول يوميهما أو حالة جوّيهما أو انحرافهما على مستوى دائرة البروج . ومع ان جميع السيارات تمتّ الى أصل واحد ، الاّ أن الاختلاف بينها أعظم من الاختلاف بين الاولاد المتحدرين من أب واحدٍ وأمٍ واحدة

فالصفات التي تفردت بها الارض بين السيارات جعلت الحياة على سطحها فلتة كذلك او اقرب الى الفلتة منها الى الحالة السوية . انها في الواقع معلّقة بخيط اوهي من نسيج العنكبوت كما يقول الشاعر العربي . زد انحراف مدار الارض على مستوى دائرة البروج ، اوقصّر يوم الارض بضع ساعات او زده بضع ساعات ، او ازل من جوّها الاكسجين وبخار الماء، او غيّر مقدار قوتها الجاذبة بتغيير كتلتها، او انقص بعدها عن الشمس — افعل ايًّا شئت من هذا تقضِ على كلّ نباتٍ وحيوانٍ على سطحها

ان تألّب طائفةٍ من الاحوال المعروفة وغير المعروفة على سطح الارض مهّدت لظهور قطعة البروتوبلاسمة الاولى ، وتطورها من اسفنج ، الى سمكٍ ، الى زحّافات ، الى طيرٍ ، الى ثدييات ، الى بوذا وليوناردو وبيتوفن . بيد ان بعد الاحتمال في تأليفها يحمل المتأمل على الظن بأن قصد الطبيعة، هو تجربة التجارب بالشموس العديدة ، للحصول على كرة صغيرة ، تصلح لظهور البروتوبلاسمة القادرة على التطوُّر والتحوّل والظهور في الوف من الاشكال المتباينة من نبات وحيوان

هذا نوع من التأمل، يدفعنا اليهِ ، الاطلاع على البحوث الحديثة في اجواءِ السيارات الكبرى. فعلماء الفلك الطبيعي ، ينتقلون بوساطة المطياف (السبكترسكوب) ، الى عوالم تبعد عنا الوف الاميال وملايينها . في هذا الميدان نجد الدكتور سلايفر Slipher والدكتور آدل Adel والدكتور ولت Wildt في انحاء مختلفة من اميركا واوربا يكتشفون حقائق جديدة عن المشتري وزحل واورانوس . والدكتور ادمز Adams والدكتور دُنهام Dunham في مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا يجلوان ما غمض من امور الزهرة ، والدكتور كوبلنتز والاستاذ رسل ما خفي من شؤون المريخ

وقد يقول معترض ان المطياف كان معروفاً عند العلماءِ من خمسين سنةً تقريباً ، فلماذا لم يستعمل قبل الآن في الكشف عن الحقائق التي تقولون انها كشفت حديثاً ؟ والردُّ على هذا السؤال هو ان العلماء كانوا في حاجة الى استنباط الطرق والاساليب لاستعمال هذه الآلة ، وهذا لم يأتِ الاّ بالمزاولة وبالاعتماد على مكتشفات مختلفة في العلوم الاخرى . ذلك أننا اذا نظرنا الى ضوءِ الشمس او ضوءِ أحد

النجوم ، تعذّر علينا ان نتبين العناصر التي تولدهُ من مجرد النظر اليهِ . فنحن نحتاج الى مصفاة ، تمكننا من التفريق بين الاشعة المختلفة التي يتألف منها ذلك الضوء . فاذا استطعنا ان ندرس كل ضرب من الاشعة على حدة فقد نتمكن من معرفة المصادر التي تنطلق منها

والمصفاة التي تمكن الفلكيّ او الطبيعيّ من هذا هي المطياف . فالضوء اذا اخترق موشوراً من الزجاج فرّقهُ الى عناصره التي يتألف منها . ولا يخفى ان قوس قزح، ليس الاّ ضوء الشمس وقد تفرق الى عناصره بعد اختراقهِ لقطيرات المطر . وسواءٌ أَحُلَّ ضوء الشمس بموشور من زجاج ام بقطيرات من الماءِ ، فالالوان التي تظهر عند حلّهِ هي هي — الاحمر فالبرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي ، على أن المكرسكوب الحديث يمكن الباحث من أن يحلّ كل لونٍ من هذه الالوان ، الى مناطق أو خطوط تظهر في أماكن معينة محدودة ، ودراسة هذه الخطوط تفضي بهِ الى معرفة العناصر المتوهجة في الشمس التي صدر منها النور المحلول ، وفهم شيءٍ غير يسير عن حالتها الطبيعية . فاذا رأى الفلكي الطبيعي خطًّا معيناً في منطقة اللون الاصفر في طيف نورٍ صادرٍ من شمسٍ ما، عرف ان في هذه الشمس صوديوماً ، واذا رأى خطًّا معيناً في منطقة اللون الاحمر، عرف ان هنالك ايدروجيناً . وما يصحّ على هذين العنصرين يصحّ على الاكسجين والنتروجين وغيرهما من العناصر

ويظهر من البحوث الحديثة في أجواءِ السيارات ان هذه الخطوط الطيفية المنبئة بما وراءها ، توجد في الغالب في منطقة اللون الاحمر ومنطقة الاشعة التي تحت الاحمر ، وهي حقيقة جديدة في دراسة السيارات من الوجهة الطيفية . لذلك كان البحث في منطقة الاشعة التي تحت الاحمر، متعذراً الى عهد قريب، لما استنبط الكيماويون مستحلباً غرويًّا فوتوغرافيًّا يتأثر بالاشعة التي تحت الأحمر، ففتحت بهِ عيون الفلكيين ، على أمور كانت خافية عنهم ، أو كأنهم كانوا يحدقون في جسم يحيط بهِ ستار كثيف فازيح الستار وظهر الجسم . ولكن هذا لا يعني ان البحث في طيوف السيارات من الهنات ، فالسيارات بعيدة ، ولا يظهر أعظمها حجماً ، في أقوى التلسكوبات ، الاّ كقطعة صغيرة من النقد . ثم ان الخطوط ومناطق الألوان المختلفة ، مبهمة غير جلية ، ولعلّ بعضها لا يزال خفيًّا لان المستحلبات الفوتغرافية لم تبلغ بعد درجة وافية من الاتقان

بيد ان العلماءَ لاحظوا بعيد اكتشاف المطياف مناطق برتقالية اللون في طيفي المشتري وزحل . وفي سنة ١٩٠٥ لاحظ الدكتور سلايفر — وكان يشتغل في مرصد فلاغستاف باريزونا مع الاستاذ برسيڤال لول الذي تنبأ بوجود السيار بلوطو — ان المناطق البرتقالية في طيفي اورانوس ونبتون كانت أجلى وأوضح مما يقابلها في المشتري وزحل ، وان في طيفي المشتري وزحل مناطق اخرى ضئيلة جدًّا لم يرَها أحدٌ قبله . فلما درس الاستاذ ولت Wildt (جامعة غوتنغن) الصور الفوتغرافية التي صوّرها سلايفر نشر رسالة في سنة ١٩٣٢ قال فيها أن المناطق البرتقالية هذه ، ناجمة من غازيّ الامونيا والميثين methane (ك يد ٤) ، ولكن قولهُ لم يكن قاطعاً . فما السبيل الى القول الفصل ؟

يعمد الطبيعي في هذه الحالة ، الى الامتحان في معمله الضيق الجوانب . ولكن اذا دخلت قدس هذا المعمل لم تجد فيهِ السيارات مصغرة ، بل تجد آنية من الصلب تحتوي على الامونيا أو الميثين أو الايدروجين ، ثم تجد أنبوباً طويلاً من الزجاج يحتوي على خليط منها يمثل جوّ السيار الذي تُرام دراستهُ ، بمقادير عناصره ودرجة الضغط عليها . ثم تجـد أمام الأنبوب مطيافاً وأمام المطياف لوحة خاصة . وعند الامتحان تبعث شعاعة من النور من مصدر وراء الانبوب فتخترق خليط الغاز الذي فيهِ ، ثم تحلُّ بالمطياف ، فترتسم على اللوحة التي أمامهُ مناطقها الملونة المختلفة. هنا تتضح الخطوط المبهمة في طيوف السيارات . وتظهر الخطوط الخفيّة . وخاصة ما كان منها في منطقة الاشعة التي تحت الاحمر . وقد اعتمد الدكتور دُنهام Dunham احد علماءِ مرصد جبل ولسن على هذه الطريقة في دراسة جوّيْ المشتري وزحل ، فثبت لهُ ان في جوّيهما عنصر الايدروجين ومركّب الامونيا . وبالاعتماد على الطريقة نفسها اثبت الدكتور سلايفر والدكتور آدل ان المناطق التي تبدو على سطح المشتري وزحل سببها غاز الميثين او الغاز الطبيعي

وقـد تلتفت الى محدثك في المرصـد وتقول لهُ اذ يشير الى المشتري او يريكهُ في عدسة التلسكوب : اذاً هذا هو المشتري ؟ فيردُّ عليك في الغالب : كلاَّ ليس هذا الاَّ جوّهُ اذ لم يفز احد حتى الآن برؤية المشتري او زحل . وما شوهد منهما ليس الاَّ غيومهما

هذا النوع من البحث ، يبدد الوهم السائد بأن المشتري لا يزال محمرًّا — لشدة حماوته — فقد انفصل عن الشمس من نحو ٥٠٠٠ بليون سنة ولا يخفى ان الحماوة الى درجة الحمرة تعني حرارة كافية لحلّ غازي الامونيا والميثين . فلو صحّ ان المشتري حامٍ الى درجة الحمرة لما استطعنا ان نرى المناطق التي اثبت البحث الحديث، انها هناك وان سببها وجود الامونيا والميثين في جوّ المشتري

واذن يجب ان نتصور كلاًّ من هذين السيّارين — المشتري وزحل — مؤلفاً من جسمين مختلفين او من جسم صلب وغلاف غازي. فالجسم الصلب مؤلف من مادة جامدة كثيفة لعلّها صخر او حديد نيكليٌّ . ثم خارج هذه الكرة غطاءٌ كثيف من الجمد مضغوطاً ضغطاً شديداً سببه قوة جاذبية السيّار نفسه الناجمة عن عظم كتلته . ويحيط بهذا كلهِ جوٌّ غازي مضغوط ضغطاً شديداً كذلك ، فيهِ قدر كبير من الايدروجين والامونيا والميثين . وقد يسأل القارىء ما الباعث على الضغط الشديد في الجوّ وطبقة الجمد ؟ والردُّ على ذلك في المقاييس المعروفة عن كتلتي هذين السيارين . فهما اكبر السيّارات واذاً فقوة جذبهما للاشياء التي على سطحهما كبيرة لأنها تزيد بزيادة الكتلة . فاذا انتقل رجل من ابناء الارض الى سطح المشتري تعذر عليهِ رفع ذراعه لحك رأسهِ وسبب ذلك ان شدّة جذب المشتري لذراعه تجعلها اثقل من ان يسهل عليهِ رفعها . ولا يخفى ان الارض قد خسرت معظم الايدروجين في جوّها لصغر كتلتها . ولكن المشتري وزحل لا يزالان محتفظين بهِ لكبر كتلتيهما

ولا بدَّ للباحث من قياس درجات الحرارة في اجواء السيارات لاستيفاء ما يعرفه عنها . هذا الفرع

من البحث اختص بهِ الدكتور پتي Pettit والدكتور نيكولسن Nicholson من علماء مرصد جبل ولسن . فانهما استنبطا وسيلة لقياس الحرارة تدعى الثرموكپل Thermo-couple وهما يستطيعان لشدة احساسها ان يقيسا بها فرقاً في الحرارة يبلغ ثلاثة اجزاء من مائة الف جزء من الدرجة المئوية $\frac{٣}{١٠٠٠٠٠}$. وكل ما فيها انضوء نجم بعيد يجمع على قطع دقيقة جدًّا من البزموت وخليط القصدير فيولد فيها تياراً دقيقاً من الكهربائية . وقياس هذا التيار يمكن الباحثين من تعيين درجة الحرارة . ولا يزيد وزن الجزء الخاص بهذا القياس على رأس دبوس صغير

والنتائج التي وصل اليها الدكتور پتي ونيكولسن تدل على انالبرد شديد على سطحي المشتري وزحل ، حتى تتجمد الامونيا التي في الجو . ان درجة البرد تبلغ ٢٢٠ درجة تحت الصفر بميزان فارنهيت على سطح المشتري(١٤٠ تحتالصفر بميزان سنتغراد) و ٢٨٠درجة تحت الصفر بميزانفارنهيت (١٧٤ تحت الصفر بميزان سنتغراد)علىسطح زحل . اما العلماء دنهام وسلايفر وولت فقد انتهوا — على حدة — الى ان السيارين الكبيرين مغطيان بغيوم من بلورات الامونيا .وانهذه الغيوم قد بلغت من الكثافة درجة تحول دون رؤية ما تحتها حيث يجب ان يكون غاز الميثين كثيراً . ولو كان هناك اكسجين ، واشعل عود ثقاب لالتهب جو السيارين ، بل لحصلت فيه انفجارات عظيمة

وتنزلق غيوم الامونيا على سطحي السيارين محدثة عواصف وأعاصير سرعتها من ٤٠٠ ميل الى ٦٠٠ ميل في الساعة على سطح زحل و٢٥٠ ميلاً على سطح المشتري . ما سبب هذه الاعاصير ؟ اننا لانعلمحتىالآن.فالرياح تهبعلىسطح الارض لان حرارة الشمس تحدث اختلافاً في حرارةالهواء فيمناطق مختلفة.ولكن الشمس ابعد منانتؤثر حرارتها في ايدروجين المشتري وزحلاو فيبلورات الامونيا في جويهما . هنا يجد القائلون بأن المشتري وزحل لايزالان حاميينالى درجةالحمرة، حجتهما الكبرى . وقد اعتمد الباحثان ادمز ودنهام علىطرقالبحث التيتقدم ذكرها، فتبينلهما انجو الزهرة مؤلف في الغالب من ثاني اكسيد الكربون . ولا يخفى ان هذا الغاز لا ندحة عنهُ لحفظ الحياة على سطح الارض . فان ضوء الشمس يفعل فيه فيولدان معاً في الاوراق الخضر في النبات ، موادَّ نشوية وسكرية . فاذا سلمنا بوجود نبات اخضر وجب ان نسلم بوجود الماء والاملاح المعدنية اللازمة لحياته ، وبوجود الاكسجين الذي يزفرهُ النبات في خلال عملياته الحيوية . ولكن ثاني اكسيد الكربون وحدهُ لا يكفي للحياة

فاذا التفتنا الى المريخ ، تذكرنا انعلماء الطبيعة كانوا الى عهد قريب ، مختلفين في درجة الحرارة على سطحه .ولكن الدكتور كوبلنتز الاميركي ، قد جلا كلَّ ريب يحيط بالموضوع . فانهُ استعمل جهاز « الثرمو كبل » لقياس حرارة الاشعة الواصلة الينا منمواقع مختلفة على سطحهِ ، فثبت لهُ ان حرارة الصيف عندقطبه الجنوبي تتباين من ١٠ درجات مئوية تحت درجة الجمد الى عشردرجات فوق درجة الجمد وان حرارة المنطقة المعتدلة الجنوبية في الفصل نفسه تتباينُ من نحو ١٨ درجة مئوية الى

نحو ٢٤ درجة مئوية . واما حرارة المنطقة الاستوائية فتختلف من ١٨ درجة مئوية الى نحو ٣٠ درجة مئوية . وتختلف حرارة المنطقة المعتدلة الشمالية في الشتاء من ثلث درجة تحت الصفر الى ١٥ درجة فوق الصفر . وعلى ذلك ظهر ان حرارة سطح المريخ اعلى مما كان يُظَنُّ . والراجح ان برد الليل في منطقتهِ الاستوائية شديد جدًّا ولكنهُ قد لا يفوق برد مدن عظيمة مأهولة اشتهرت ببرد شتائها مثل مدينة نيويورك

ولكن ماذا يقال في جوّ المريخ ؟ ان فيهِ اكسجيناً وبخاراً مائيًّا وكلاهما من العناصر اللازمة للحياة كما نعهدها. وقد كان بعض البحّاث الفلكيين يعتقدون ان البقعتين البيضاوين على قطبي المريخ ليستا ثلجاً بل ثاني اكسيد الكربون متجمداً ، فثبت الآن ان البقعتين ثلج او جمدٌ يذوب في الربيع والصيف وان ذوبانهُ مصدر البخار المائي في الجوّ . وقد صوّر الدكتور ريط بمرصد جبل ولسن جوّ المريخ بالوان مختلفة فاكتشف غيوماً مائية صفراً سابحةً على ارتفاع ١٥ الف قدم فوق سطحه

على ان الاستاذ رسل — استاذ علم الفلك في جامعة برنستن — يرى ان المناطق الحمر على سطح المريخ لها تعليل آخر. فهو يقول : تأملوا الاكسجين في جوّ الارض فهو ليس كل نصيبها من الاكسجين الاصلي في مادتها. ومعظم ما تبدّد منهُ يبدو في المواد التي تدخل اكاسيد الحديد في تركيبها. وهي حمراء في الغالب . فالاكسجين شديد الالفة للحديد . ولا بدَّ في النهاية من ان يزول الباقي من اكسجين الهواءِ بهذا التفاعل الكيمائي . فاذا اردنا ان لا يموت الانسان اختناقاً لشدة حاجتهِ الى الاكسجين ، وجب علينا ان نبتدع طريقة نطلق بها الاكسجين الداخل في تركيب الصخور والمعادن وما اليها . والاستاذ رسل يرى ان المريخ في حالة تشبه حالة الارض من هذا القبيل . ويرجح ان معظم اكسجينهِ قد اتحد بصخورهِ . وما نراه من البقع الحمر على سطحهِ قد يكون مناطق تكثر فيها المواد التي دخل الحديد والاكسجين في تركيبها وهي حمراء مثل المغرة والحجر الرملي والصدأ الحديدي وغيرها

اما وقد اجتمعت هذه الادلة لدى العلماء ، فليس ثمَّة شكٌّ في ان احوال المريخ الجوية تصلح للحياة كما نعهدها ، في ابسط مظاهرها فقط . واذن يجب ان ننتزع من اذهاننا صور الاحياء العاقلين الذين يبنون الاقنية المستقيمة للري ، وهم الاحياء الذين تصوّرهم الاستاذ لول يقطنون سطح المريخ . فاذا شبهنا المريخ برجل قلنا انهُ اخذ ينحدر من دور الفتوة الى دور الهرم

ثم اذا التفتنا الى السيارات الاخرى وجدنا ان عطارد قريب جدّ القرب من الشمس حتى ان حرارة سطحهِ تكفي لصهر الرصاص . اما اورانوس ونبتون وبلوطو ، فبعيدة كل البعد عنها ، حتى لا تبدو الشمس في نظر مشاهد على سطح أحدها الاّ نجماً كبيراً كما تبدو لنا الشعرى او اكبر قليلاً . فنهارها لا يفوق شفقنا اشراقاً ، وطول الفصل من فصولها يقاس بسنوات من سنواتنا ، ودرجة البرد على سطوحها تفوق درجة البرد الشديد على سطحي المشتري واورانوس . فسطوحها قاحلة مجدبة لا تصلح مثوًى لشكل من أشكال الحياة التي عهدناها

حركة الرواد

تجربة اجتماعية خطيرة في مصر

كانت المحاضرات التي القيت في المؤتمر السنوي السادس الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية (٧ — ١٤ فبراير) مثابة نخبة مختارة من فضلاء القوم وكبارهم وشبابهم المثقف . فقد القى فيه الدكتور علي باشا ابراهيم خطبة علمية تاريخية في « السجاد » والدكتور مشرفة خطبة « في الجسيمات المكتشفة حديثاً في علم الطبيعة » والدكتور شخاشيري في « التأمين على الجنين » ورئيس تحرير المقتطف في « الاشعة الكونية » والدكتور جورجي صبحي في « اللهجات العربية العامية في مصر ونشوئها »

وكان مسك الختام خطبة لصاحب العزة احمد محمد حسنين بك موضوعها « اتجاهات جديدة في الاصلاح الاجتماعي في مصر » وصف فيها حركة اجتماعية خطيرة الشأن بالغة النفع تعرف بحركة الرواد . فرأينا ان نثبت هنا ما قاله في وصف هذه الحركة المباركة

من منا لم يغشَ حيًّا بلديًّا من أحياء القاهرة . ماذا اذن في مثل هـذا الحي نرى . انا لنقع على حياة رخيصة زرية . مظلمة منحطة . نرى طرقاً ضيقة قذرة . أزقة مبتلة متسخة . فضلات ملقاة على الجانبين . مساكن كالكهوف ضيقة ضئيلة منكمشة . مآوٍ متداخلة بعضها في بعض كأنها أعدت لطائفة من الاشباح ، ليسَ فيها منفذ لشمس أو مسرب لهواء . رجال خائرون كأنما يستبطئون مقدم الموت . العاطل فيهم أداة سقيمة صماء . لا رأي له في شيء ولا يفكر الاّ في أفق أولي غاية في الضيق . والمعطل منهم لائذ بالمقهى . يقضي يومه بين أن يسمع شرًّا أو يأتي شرًّا أو يفكر في شرّ . رجال قُنَّع خاملون نهشت المخدرات في هيا كلهم نهشاً . نامت فيهم كرامتهم . وضاعت منهم كبرياؤهم وانتفى فيهم كل معنى من معاني القومية . لا نخوة لهم ولا خلاق . يضيع حقهم فيستنيمون . يُفَلُّ من عزتهم فلا يشعرون . ما أيسر أن يضيمهم مضيم وما أسهل ان يستهين بهم مستهين . لايدركون انهم شيء يجب ان يحسب له حساب . ولا يقدرون لانفسهم وزناً في نظر الناس . لانهم لايقيمون لاشخاصهم هـذا الوزن في نظر أنفسهم . اولئك هم رجال الحي . أما نساؤه فقد طمس عليهنّ الجهل . فشاعت القذارة في أنفسهنَّ . وبيوتهنَّ . وأولادهنَّ . في هذا المحيط المظلم . وفي تلك البيئة التي أفسدها الجهل والامية . ينشأ الطفل مهملاً متأثراً باخلاق هذا الوسط . وتنشأ البنت محملة تراث هـذا العرف الاجتماعي السيء . والاطفال الذين تتولى أمرهم وهم صغار . هم الذين يتولون أمر أبنائهم وهم كبار . وبنت اليوم هي أم الغد . والام هي الامة

أتممنا جولتنا في جوانب الحي . ورأينا في ما رأينا سوءاً في السيرة وضعة في المعاملات . اسفاف في كل مرفق من مرافق الحياة

تلك جولة قصيرة في حي من أحيائنا البلدية . وهـذا رسم اولي عام لناحية من حياته العادية والذهنية والنفسية . ولئن فرضنا أن حال القرية ليست بأسوأ من هـذا الحي حالاً ، وان مآلهـا ليس بشرّ منهُ مآلاً . استطعنا ان نرسم رسماً مكبراً لافق المجتمع المصري ، وان ندرك في ضوء هذا الرسم المتسع مدى ما ينتهي اليهِ هذا المجتمع من فساد وضعف . فما صدى ذلك كلهِ في أنفسنا نحن المتعلمين . دعاة الاصـلاح . نمضي ننتقد ونعيب ونعدد المساوي . وقد نقسو في النقد . ونسرف في التنديد . وكأنمـا بهذا قد أدَّينا واجبنا ، فلا نصنع من بعده شيئاً . بل أنا لنشتطُّ في تصوير الامر ، فنوهم أنفسنا ، ويلذ الوهم ، بأننا قد أصلحنا ، وان ما سقنا من نقد وسرد معايب . وقدمنا من نعي وتنديد . وكلنا من قدح وتشهير . منة كبرى يجب ان يشكرها لنا أولئك البؤساء المساكين ، وخدمة جلّى يجب ان يقدرها لنا أبناء هـذا المجتمع الوضيع . ولقد يحلو ان نتحزن ونتفجع ، ونندب حظنا ونتوجع ، ان نكون طليعة شعب هذا بعض أمرهِ . وان نكون نحن ، المتخرجين في المدارس العليا والجامعات،الطبقة الراقية لناس هذا شيء من سيرتهم . ولقد راقنا ان نضع الامر هذا الوضع ، ونصوّر صلتنا بالمجتمع ، هذه الصورة النظرية . أما الواقع ، فان هذا الافق المتأخر المنحط انما هو الافق الطبيعي الذي يجب ان نعد نحن المتعلمين من أرقى طبقاته . واذا كنا نحن المغرقين في نقدهِ لم نعمل عمـلاً في سبيل رفع مستواه . فما عليهِ اذن من حرج في ان يهبط بنفسه وبنا الى أدنى ما يسف فيه

نعود نتساءل من منا يرضيه ان يتهم بأنهُ لا يحب ان يخدم بلده . من منا يرضيه ان يتهم بأن الوطن آخر ما يصح ان يفكر فيه . مع ذلك فمن منا بسط في سبيل النهوض بهذا المجتمع يداً . من منا من بذل شيئاً من وقته أو ماله أو متاعه من أجل نفر مهمل منسي من أبناء هذا البلد . من منا من وقف من حي بلدي من أحياء القاهرة موقف المصلح العامل . فمد يده النظيفة اللينة الى يد من تلك الايدي المتسخة الجافة . ومست بدلته الانيقة الفاخرة جلباباً قذراً بغيض المنظر . من منا من لقن هذا الخامل المستهين بنفسه محاسن الخلال . لقنهُ الصدق وشجاعة النفس . والاعتماد على الذات ، واشعره ان هذه الصفات الفطرية هي التي تخلق منهُ رجلاً جديداً ذا كرامة

***

نبتت فكرة الروّاد في الايام الاخيرة من عام ١٩٢٩ ، وبدأت تعمل في حيز شخصي محدود ، اساسه الرياضة ، وسبيله القيام بالرحلات وانشاء المعسكرات ، وغايته ترويض النفس على ان تألف حياة الخشونة والتقشف ، فقد نالت منها مناعم المدنية الحديثة ، وأثرت فيها تأثيراً سلبيًّـا ، هو بعض ما يشيع في نفوس ابناء هذا الجيل من ضعف وتراخ ، وطراوة ولين . غير ان الفكرة ما

لبثت ان اتسعت اذ ادرك الروّاد ان هذا السبيل الذي اخذوا انفسهم به ، وحرصوا على ان يصلحوا من شأنهم على هديه ، ان هو الاّ نوع من الأَثَرة الممقوتة . فهم يذكرون انفسهم وينسون سواهم ، وهم احق منهم بالاصلاح ، وهم يخدمون اشخاصهم ويهملون الغير وهم اولى منهم بالخدمة . على ضوء هذه الفكرة الجديدة سجلوا دستورهم ، وضمنوه مبدأ العمل على رفع مستوى الاخلاق والحياة الاجتماعية في مصر . ولقد تفرّع لهم في هذا الصدد سبيلان ، ورأوا انهم مطالبون بنوعين من الجهود ، يفترقان في منحييهما ويلتقيان في الغاية منهما جميعاً . اما الاتجاه الاول فيقتضي جهوداً تبذل في الطبقات غير المتعلمة طبقات العمال والفلاحين ومن اليهم . واما الاتجاه الناشىء فيقتضي جهوداً تبذل في الاوساط المثقفة المتعلمة اوساط الطلبة وشباب الموظفين المستنيرين . هذا ايها السادة بعض الاتجاهات الجديدة التي يمضي فيها الروّاد ابتغاء الاصلاح الاجتماعي .ولئن بدأ الروّاد بالنوع الاول من الخدمة العامة ، فلأنهم رأوا ان حاجة الطبقات غير المتعلمة الى الاصلاح اشد مساساً من الطبقات التي تهيأت لها وسائل التهذيب ، وتفتحت ابواب التثقيف

ولما كانت مذاهب الاصلاح في تلك الطبقات الفقيرة كثيرة متشعبة ، رأينا ان نحصر تفكيرنا في دائرة محدودة ، وان نوجه جهودنا وجهة مضمونة الثمر ، وانتهينا الى ان اصلح نواة نبدأ بغرسها في حقل الاصلاح الاجتماعي هي المحلات . فهي ملتقى نشاط الروّاد ، يجد فيها اولئك الغلمان الذين لم تهيؤهم الاحوال الى ان يرقوا الى المستوى الاجتماعي المنشود ، جوّا مشبعاً بروح الاخاء والود ، ووسطا مهذباً يحرص على رفع مستواهم الاجتماعي . يجدون رجالاً ينظمون لهم اوقات الفراغ ، فمنها ما يتصل برياضة الجسم ، ومنها ما يتصل بتلقين المعرفة ومنها ما يتصل بتهذيب النفس . رجال يأخذونهم باللين ، يعالجون امراضهم الخلقية بالمعروف . ييسرون لهم سبل المعرفة العامة . يغرسون في اذهانهم انهم ناس عليهم واجبات ولهم كرامة . وهذه احدى سبل التضامن الاجتماعي التي لم تسبق مصر ان عرفتها

صحّ الحلم اذن . وافتتح الروّاد في العشرين من نوفمبر سنة ١٩٣١ اول محلة بحي الطيبي ، وهو ناحية من حي السيدة زينب ، وفي تلك المحلة ، يلتقي في مساء كل يوم نفر من ابناء هذا الحي ، بعد ان يفرغوا من عملهم اليومي . وهنالك يجمعهم بالروّاد جمع واحد ، وهم رجال مثقفون فمنهم اساتذة بالجامعات والمدارس العليا . ومنهم اطباء ومهندسون . ومنهم محامون وطلبة من الجامعة . شباب نزّاع الى الخدمة العامة . مؤمن بقدسية هذا الواجب . فيتصلون بهم اتصالاً يشعرونهم فيه بأنهم قدوة يجب ان يأخذوا بها ، وانهم اجمعين بنو وطن واحد لا يسمو أحد عن اخيه الاّ بسمو نفسه . ولا يميز عن صاحبه الاّ بقوة الاخلاق

واحب هنا ان اصرّح في صوت مسموع ان رسالتنا الادبية التي نعتمد عليها في هذه الخدمة العامة ليست في حشو الرأس بألوان العلوم ، بل في بثّ اصول الفضائل في نفوس هذا النشء . ذلك

لانا نعتقد اعتقاداً ثابتاً ان التعليم قبل التهذيب غرس في غير منبتهِ . وان حاجة هذا المجتمع الى تهذيب النفوس ، امس من حاجته الى تثقيف العقول . الاّ ان العلم مناهله سهلة والثقافة سبلها ميسورة ، اما الخلق اذا اعوجّ فكالعود اذا اعوجّ ، يظل ابداً معوجّاً ، يصعب ان يقوَّم

اثمرت التجربة ايها السادة ، وافلح المسعى فتأثر هذا النشء الذي نتعهدهُ بالتربية الخلقية والرياضة الجسمية ، واستطعنا حيناً بعد حين ان نصل الى قلوبهم ونملك عليهم مشاعرهم حتى لقد غدوا يرون انهم قطع منا ، وانا لهم آباء ، أو اخوة كبار أعزاء ، واذا قابلنا بين حال هؤلاء الغلمان اليوم ، وحالهم بالامس حين شرعنا في هـذا الجهاد الاجتماعي ، وجدنا في الحق فارقاً كبيراً . فلقد جاؤونا بالامس بأخلاقهم الاولية ، وطباعهم النزّاعة الى الشر والعيب والفوضى . وكان تعهد عنصر من هذا النوع أمراً معنتاً مجهداً. أما اليوم فقد تقوَّم عوجهم وصفت سرائرهم، وأصبحنا نلمس في أعمالهم ظاهرة خلقية نبيلة . قد لا نراها في بعض من أوساط المتعلمين

***

لقد جاءَ احد ابناء المحلة اول ما جاءَ متأثراً بالشيء الكثير من الخلق السيء فلما يئسنا منهُ ، وابعدتهُ المحلة عن ابوابها ، امطرها وفريق من صبية الحارة مقداراً وفيراً من الطوب والحجارة . ولقد يأخذنكم عجب اذا سقت اليكم من امره انهُ اليوم فتىً من خير فتية المحلة ، حسّاً وسلوكاً وادباً

كان غلمان المحلة من قبل ، اذا تفوّق احدهم على زميله في لعبة من الالعاب الرياضية كال المغلوب للغالب من الشتائم ، وابى ان يبسط يده الى يد خصمه يصافحهُ مهما أُريد على ذلك ، وأفهم نبل الروح الرياضي . اما اليوم فان هذا المغلوب ليقبل على غالبه يصافحه ويحييه ، ويهنئهُ بتفوقه شاعراً انهُ قد بذل جهده وأدّى واجبه وان خصمه ليس غريماً ولكنهُ أخ

لقد كانوا يرون في المحلة من قبل رأياً غريباً يرون ان كل ما فيها من ادوات يصح ان يتناولوه بالتلف وان كل ما غنم من هذه الادوات انما هو ربح حلال لهم . اما اليوم فانهم يرون انهم قوَّم على كل ما تحتوي المحلة ، وانهم مسئولون ادبيّاً عما يفقد منها فاذا وقع شيء من ذلك فانهم يبادرون بالاتيان بمثله او بخير منهُ

توفي احدهم فاشتركوا جميعاً في التعبير عن شعورهم الاسيف ، وتعاونوا بكل ما يملكون من قروشهم القليلة، على زيارة قبر اخيهم، ومعهم ما يحملون من الصدقات المعروفة في مثل هذه الاحوال

كنا نعطيهم من مكتبة المحلة مجلات يطالعونها فاذا ما انتهوا منها ردوها الينا ، فكان بعض هذه المجلات لا يعاد ، وكان بعضها الآخر يعاد مشوهاً مبتورة منهُ صحائف ، او منزوعة منهُ صوره . اما اليوم فقد استقام امرهم ، ولم يعد شيء من ذلك يقع . بل لقد بلغت بهم دقة الحس ان اصبحوا يمدون المحلة بمجلات ، ويرقبون بانفسهم صيانتها في ايدي اخوانهم القارئين

كان عسيراً ان يذعنوا لمن يقوم عليهم . اما اليوم . فاذا اتفق ان تغيب القائم بسكرتارية شئون

المحلة عن دارهم ، فانهم يختارون من بينهم عليهم وليًّا ، ويبذلون في سبيل طاعته مايبذل أخ اصغر في سبيل طاعة اخيهِ الاكبر المحبوب

وانما نضرب في هذا الشأن الامثال لنرى كيف أفلح الروّاد في تهيئة هذا التطور النفسي ، وكيف أثمرت رسالتهم الخلقية ثمرتها المرجوّة . وكيف انا لم نكن مسرفين في الظن حين قطعنا بان غرائز هؤلاءِ الغلمان لم تكن تخلو من عناصر الخير وان في مستقرّ انفسهم حسًّا لطيفاً ووجداناً عامراً ، وانهم انما كانوا مفتقرين الى تلك اليد الخيرة البيضاء تمسهم برفق فتوقظ فيهم فضيلة نائمة وتخرجهم الى النور من ظلام المجتمع . ولقد زادنا ذلك يقيناً بان نظام المحلات اوفق ما يكون نظاماً يبدأ بهِ في سبيل تهذيب البيئة وأصلح ما يكون نواة يستهل بغرسها من اجل الاصلاح الاجتماعي

***

تبدأ سن غلمان المحلة من الثانية عشرة وتنتهي في العشرين . وليس معنى ذلك ان مبدأ المحلة في صدد الخدمة العامة لا يسمح بتجاوز هذه السن ، او بقصر الجهود على امثال هؤلاءِ الغلمان. ان نظام المحلة ومبدأ الخدمة العامة فيها يتسعان لغير ذلك . يتسعان للشيوخ كما يتسعان للصبية ، يتسعان للنساء كما يتسعان للرجال . فجمهورنا المصري في حاجة الى الاصلاح . لا فرق بين عنصر وعنصر او جنس وجنس . لكن صعوبة التأثير في كبار السن وضعف الامل في اخضاعهم لنظريات التربية العلمية الحديثة — لكن مجابهة هذه الظاهرة من جانب ، ومجابهة الظروف الاجتماعية في مصر من جانب آخر ، وضرورة الحرص والحذر في بدء مثل هذه الحركة ، لكن ذلك كله الجأنا الى ان نبدأ بهذه السن . فاتسعت الخطوة . واثمرت الجهود . وانتجت آخر الامر ما سميناه بالاخوة الكبار

فلقد قسمنا ابناء المحلة اقساماً راعينا فيها التجانس الخلقي . وأوثقنا بينها عرى التواصل . وأقمنا على كل قسم رائداً . يتعهد شئون اخوته الصغار ويسعى ما يستطيع في سبيل حل مشكلاتهم وتسوية امورهم . وقد راق ابناء المحلة هذا النوع من الصلة . فشغفوا بهؤلاءِ الاخوة الكبار واخذوا يبثونهم ما في صدورهم. حتى انهُ ليصرحون باشياء ما كانوا ليصرحوا بها لولا هذه الصلة الروحية. وما اثمرت في النفوس من ثقة بهم واطمئنان اليهم ولقد بلغ من نجاح فكرة الاخوة الكبار ان تعدى النشاط جوانب المحلة الى بيوت هؤلاءِ الغلمان انفسهم . فهم يختلفون اليهم فيها بين حين وحين . ويتصلون في ذلك باهلهم وذوي قرباهم . ويوفقون من ذلك الى دراسة عملية حقة لهذه البيئة تمكن لهم ان يلمسوا مكامن الداء فيها . وتمكن لهم من بعد ان يشقّوا في سبيل الاصلاح طرقاً واضحة النهج . قائمة على اساس مشاهد ملموس

على ضوء هذه التجربة العملية ايها السادة. وامام هذا الاثر الذي اثمرته جهود المحلة في تلك المدة القصيرة ، نرانا اليوم اعمق ايماناً بوجوب تعميم المحلات في سائر نواحي القطر. ولو ان موارد الروّاد تتسع لذلك لكان لهم اليوم محلات عدة . ولكان جهادهم ارحب افقاً مما هو عليهِ اليوم . لكن

الموارد ضيقة محدودة . ورأس مال الروّاد يعتمد حتى الآن على ما يبذلون منهُ في سبيل مثلهم العليا من مالهم الخاص . وهم في هذا يقفون عند حد طاقتهم . وهي طاقة ضعيفة لا تحتمل الارهاق

تلك جهود المحلة في الطبقات الفقيرة غير المتعلمة . ولما كان الروّاد يرون ان اجدى سبيل يستكملون به رجولتهم سبيل الرحلات والمعسكرات . واستغلال اوقات الفراغ . فقد قاموا برحلات وانشأوا معسكرات ودعوا الى الاشتراك في هذا العمل الطلبة وشباب الموظفين المثقفين

وتقسم اوقات هذه المعسكرات الى اقسام ثلاثة

القسم الاول منها : يحتوي على دراسات منظمة لنواحي المجتمع المصري . يتكلم فيها فريق يعرفون بتعمقهم في الشؤون الاجتماعية

والقسم الثاني منها : يخصص لرياضة الجسم والاخذ بسبب من اللهو البريء

والقسم الثالث منها : يمس حياة المعسكر . اذ يعتمد المشتركون فيه على انفسهم فهم الذين ينظمون مضاجعهم ويعدون مآكلهم ومشربهم

هذه هي الاسس التي توزّع عليها اوقات المعسكرات التي نقيمها ولعلكم تلمسون ان الروّاد لم يدعوا جانباً من الجوانب التي يتطلبها الكمال الانساني الاّ حاولوا ان يأخذوا بسبب منهُ . فهم يحاولون ان يكسبوا الجسم سلامة وقوة . والنفس صفاءً وسموّاً . والعقل ثقافة ومعرفة . والخلق استقامة وصلابة

نريد ان نروّض الشباب المتعلم على التخشن والتقشف وممارسة المصاعب والاستهداف للمخاطر . نريد ان نغري الشباب المتعلم قليلاً عن التأنق في هندامه والاستسلام الى اللين والطراوة . فاللين والطراوة ليسا من شيمة الرجال . نريد ان نغري الشباب المتعلم بتذوق المشاق في سبيل المثل العليا . هذا بعض ما نرمي اليهِ من اقامة الرحلات وانشاء المعسكرات . ولعلَّ معسكر القناطر الخيرية الذي انشأناه في منتصف الشهر الماضي والاسس التي قام عليها فاتحة طيبة لتحقيق هذا الحلم الذي نعمل له : تكوين جيل من الشباب . قوي في جسمهِ . صلب في خلقه . نزاع لكل فضيلة : جيل يصح ان يسمى جيل الاشبال

ايها السادة : لدينا في المحلة الآن ثمانون صبيًّا او نحو ذلك . هم ثمرة مجهود الرواد منذ انشأوا محلتهم حتى اليوم ولقد يستضئل بعضكم هذه الثمرة . ويرى ان مجهود الرواد بطيء او انهُ متثاقل بليد . اما نحن فلا نرى في تلك الثمرة هذا الرأي . فهي من جانب ثمرة طبيعية نضجت في اوانها . وهي من جانب آخر ليست برهاناً على كل الرواد ولكنها آية على شدة يقينهم في هذا الشأن . القياس عندنا بالعمل في حد ذاته وليس بكثرة الثمر كائناً ما يكون . وان عملاً يؤدَّى على مهل ويسير على اسس ثابتة وينتج نتاجاً ناضجاً قليلاً خير من عمل سريع يؤتي نتاجاً كثيراً غير ناضج . لم يضرنا اذن على عنت المسعى وطول الزمن ان نجني مثل هذا القطف اليسير . فالبحر الفياض في اصله قطرة . والبناء الشاهق في اصلهِ لبنة

بحث تاريخي نقدي في

ألف ليلة وليلة

للدكتور احمد ضيف

هذا الكتاب هو أشهر الكتب القصصية في لغة العرب بل في جميع اللغات . فلقد قال بعض الباحثين من الاوربيين أنهُ لم يفقه في شهرته غير « التوراة » لانهُ اكثر الكتب قراءة وأوسعها خيالاً وأعظمها غرابةً وأحفلها اسطورة وخرافة . لذلك ذاع امره في عالم الادب في الشرق والغرب فهو المثال الذي سار على نهجه كتّاب العرب في قصصهم وشغف بهِ الفرنجة فحاكوه في بعض حكاياته الأدبية

ولكن أدباء العرب ومؤرخيهم وصفوه بأنهُ كتاب « غث بارد » كما ذكر ذلك « ابن النديم » في « الفهرس » و « المسعودي » في « مروج الذهب » . ذلك لأنهم نظروا إلى عبارته واسلوبه فوجدوا فيهما كثيراً من الخطإِ اللغوي والبياني فلم يرقهم ذلك . ثم رأوا ما فيهِ من مجون وأساطير مما لا يتفق مع التهذيب العقلي والنفسي فلم يُعْنَ أحد منهم بالبحث عما فيهِ من مسائل فنية أدبية او صور نفسية او اجتماعية منبثة في كل ناحية من نواحيهِ ولا بما يظهر خلال اساطيره ومجونه من الحقائق الانسانية وسجايا الانسان وأخلاقه . فانصرفوا عن دراسته انصرافاً كليًّا

ولم يكشف لنا عن غوامضه غير المستشرقين من الاوربيين فقد كتبوا فيهِ الكتب الكثيرة والرسائل القصيرة والطويلة . وترجمهُ الادباء منهم الى لغاتهم . وقد ذكر كلَّ ما كتب عنهُ وترجم منهُ البحاثة البلجيكي فيكتور شوفان Victor Chauvin في كتابه فهرس الكتب العربية Bibliographie des Ouvrages Arabes فملأ من ذلك اكثر من مجلد من هذا الكتاب . والمباحث التي كتبت في « الف ليلة وليلة » كثيرة مذكور جلها في « دائرة المعارف الاسلامية » عند الكلام عليها . وقد كتب هذا البحث العالم الدانمركي « أستْرُوبْ — Oestrup » الذي عني عناية عظيمة بدراسة هذا الكتاب وكتب فيهِ رسالة تقدم بها لامتحان الدكتوراه في « كوبنهاج » وطبعها باللغة الدانمركية عام ١٨٩١ . وهذه الرسالة تحسب من المباحث الجليلة . فقد ناقش فيها المؤلف الباحثين قبله في آرائهم . وقد ترجم ملخص ما فيها الى اللغة الفرنسية وطبع في مذكرات المجمع الفرنسي الشرقي للمباحث الأثرية بالقاهرة ضمن الجزء السابع والعشرين عام ١٩١٢ Memoires publiés par les Membres de l'institut Français d'archeologie Orientale du Caire. Tome vingt-septieme ومن المباحث الجليلة ايضاً رسالة « فيكتور شوفان » المسماة

La Rècension Egyptienne des Mille et une nuits المطبوعة في مدينة بروكسل سنة ١٨٩٩

ومنها البحث الممتع الذي كتب في «دائرة المعارف الاسلامية» و«دائرة المعارف البريطانية» وهناك مباحث كثيرة لبعض العلماء من الانكليز والالمان والفرنسيين والروسيين وغيرهم مما لا يسع المقام ذكره فقد كتب بعضها في مجلات وبعضها في رسائل صغيرة وكلها او جلها مذكور « في دائرة المعارف الاسلامية » . وقد كان للمجادلات التي دارت بين « شوفان — واستروپ » فضل عظيم في الكشف عما تحتويه « ألف ليلة وليلة » من مسائل تاريخية وفنية دوّنت في الكتابين السابقين

﴿ أصل الكتاب وآراء الباحثين فيهِ ﴾ عند ما ذاع ألف ليلة وليلة في اوروبا اقبل على دراسته علماء الادب والتاريخ من المستشرقين وغيرهم واول بحث ظهر في ذلك كان للمستشرق الفرنسي الشهير «سلفستر دي ساسي Sylvestre-de-Sacy» في سنة ١٨١٧ وقد استمرَّ في بحثهِ الى سنة ١٨٣٣ فكتب كثيراً من المباحث في موضوع هذا الكتاب واصله وسار على أثرهِ في ذلك غيرهُ من المستشرقين

وقد استرشد الباحثون في مباحثهم بعبارة المسعودي الواردة في كتابه « مروج الذهب » اثناء كلامه على « ارم ذات العماد » اذ قال : « وسبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية» .وسبيل تأليفها ما ذكرنا مثل كتاب « هزار افسانه » وتفسير ذلك من الفارسية الى العربية الف خرافة . والخرافة بالفارسية يقال لها افسانه . والناس يسمون هذا الكتاب «ألف ليلة وليلة» وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتهما . وهما « شيرا زاد ودينا زاد » . ومثل كتاب « مرزة وشيماس » وما فيها من اخبار ملوك الهند والوزراء . ومثل كتاب السندباد وغيرها من الكتب في هذا المعنى »

واعتمد الباحثون ايضاً على عبارة « ابن النديم » التي قال فيها : « اول من صنّف الخرافات وجعل لها كتباً واودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الأُوَل ثم اغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . ثم زاد ذلك واتسع في ايام ملوك الساسانية ونقلتهُ العرب الى اللغة العربية وتناوله العلماء والبلغاء فهذبوه ونمّقوه وصنفوا في معناه ما يشبههُ واول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب « هزار افسانه » . وكان السبب في ذلك ان ملكاً من ملوكهم اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد فتزوج بجارية من اولاد الملوك ممن لها عقل ودراية يقال لها « شهر زاد » فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها ألف ليلة والى ان رزقت منهُ ولداً أظهرته وأوقفته على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها »

هكذا يروون السبب في أصل هـذا الكتاب . ولكن الباحثين اختلفوا في ذلك لعدم وجود برهان قاطع على ما في كتابي « المسعودي » و « ابن النديم » . ولقد اضطربت أقوالهم في ذلك حتى لقد كان يرى أحدهم الرأي ثم يرجع عنهُ كما فعل (دي ساسي) في مباحثه فقد ظنَّ أولاً أن

هذا الكتاب كتب بقلم كاتب واحد في العصر العباسي الاول ثم رجع عن هذا الرأي وقال انهُ كتب بعد ذلك . ثم زيدت عليهِ حكايات وأنه عربي صميم ليس فيه شيء هندي ولا فارسي ورأى المستشرق الالماني «همر von Hammer» غير ما رأى «دي ساسي» واعتمد قول «المسعودي» من ان أصل الكتاب فارسي ثم ضمت اليهِ حكايات هندية ويونانية وعربية وان الحكايات العربية دخلت ضمن القصص الاخرى حول اسم « هارون الرشيد » ومن عاصرهُ وان البدء في تأليف هـذا الكتاب كان في زمن الخليفة «المنصور» ورأى بعضهم أنهُ كُـتِبَ زمن العباسيين على أثر انتشار أخبار الفرس وحكاياتهم على ألسنة العامة ثم زيدت عليهِ قصص اخرى في أماكن وأزمان مختلفة وقد بلغ الاضطراب في آراء هؤلاء الباحثين ان نفى بعضهم كل أثر فارسي أو هندي في هذه القصص كما رأى ذلك العالم الانكليزي « لين Lane » الذي قال أنهُ كتب بقلم كاتب واحد بين سنة ١٤٧٥ — سنة ١٥٢٥ ميلادية . بل رأى بعضهم أن بعض قصصه مأخوذ من «الأوديسى» لهوميروس الشاعر اليوناني القديم وضرب لذلك مثلاً بقصة « السندباد البحري » (راجع :

Homére et les Mille et une nuits, par Victor Chauvin, extrait du Musée belge. Revue de philologie classique.

وقسَّم « مولر Müller » الألماني الكتاب أقساماً : قسماً منه كتب في بغداد والقسم الاكبر كتب في مصر . وتوسع في هذا التقسيم « نولدك Noldeke » وحدد كل قسم منها وجاء البحاثة استروب فجعل أقسام الكتاب ثلاثة : الاول يحتوي على القصص التي أخذت عن الاصل الفارسي «هزار افسانه» . والثاني قصص كتبت في بغداد . والثالث قصص اضيفت الى ذلك وكتبت في مصر . وقال ان هناك حكايات أخرى عربية أُدخلت في الكتاب مثل حكاية « عمر بن النعمان و أولاده »

وقد بحث هذا التقسيم وتوسع فيه المستشرق البلجيكي شوفان الذي سبق ذكره في كتابهِ السابق . وقال : « ان ما كتب في مصر كتب قسماً منهُ جماعة من الاسرائيليين الذين اعتنقوا الاسلام ? وقسم كتبهُ مسلمون »

ولا يسعنا ان نذكر كل آراء الباحثين ذكراً مفصلاً لكثرتها وتشعبها . ولا شك في أن لهذا الكتاب أصلاً فارسيًّا وهنديًّا نقل الى اللغة العربية في القرن الثالث الهجري كما يقول الباحثون فقد لاحظوا عند مقابلة الكتاب العربي بالكتاب الفارسي «هزار افسانه» أو ببعض القصص الهندية المعروفة أن كثيراً من القصص العربية هي عينها تلك القصص الاصلية مع تغيير ضئيل اقتضاه النقل وعبث الرواة والكتّاب والناقلين من العامة والخاصة . وان ما حصل من اختلاف كان في بعض الصور والاسماءِ القديمة التي استبدل بها غيرها من الصور والاسماء العربية . هذا فيما عدا ما كتب في مصر وبغداد

فمن علامات القصص الفارسية أو الهندية التي ترجمت الى العربية احتواؤها على اسماء فارسية مثل « شهر زاد » و « شاه زمان » وغيرها ، ومثل الكلام على النساء وخيانتهنّ لأزواجهنّ وما في ذلك من المكر والخداع والحيل الغريبة والاساطير الكثيرة والاخيلة العجيبة التي تحسب من صور العقل الفارسي أو الهندي . مثل ما جاء في حكاية قمر الزمان : « ثم دقت بكفها الارض فطلع منها عفريت أعور أحدب أجرب وعيناهُ مشقوقتان في وجههِ بالطول وفي رأسه سبعة قرون وله أربع ذوائب من الشعر مسترسلة الى كعبيهِ ويداهُ مثل المداري ورجلاهُ مثل الصواري ولهُ أظفار مثل أظفار الاسد وحوافر مثل حوافر الحمار الوحشي » ص ١٨٨ طبعة بيروت ج ٢ ومثل هذا كثير في هذه القصص . ويظهر أنها لم تنقل الى العربية بنصها الاصلي بل أدركها تغيير وتبديل وزيادة وحذف فدخلت فيها عبارات إسلامية وآراءٌ دينية كما جاء في قصة الملك شهرمان وابنه من مثل العبارات الآتية : « فقال له ذلك الوزير لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً . فتوكل على الله أيها الملك وابتهل إليهِ . فقام الملك وتوضأ وصلى ركعتين ودعى الله تعالى بنية صادقة » . وكما جاء في هذه القصة : « ثم قام وتوضأ وصلى المغرب والعشاء وجلس على السرير يقرأ القرآن فقرأ البقرة وآل عمران ويس والرحمن وتبارك الملك والاخلاص والمعوذتين وختم بالدعاء » (حكاية قمر الزمان والعفريتة الميمونة الجزء الثاني طبع بيروت) وفي هذه الحكايات ما يشبه ما في القصص الهندية في أسلوبها وموضوعاتها مثل حكاية التاجر العارف بلغة الحيوان ومثل قصة الوزراء السبعة والتاجر والجني وقصة الصائغ والجني. قالوا ومن أساليب القصص الهندية تسلسل الحكايات ودخول بعضها في بعض وذكر القصة لالهاء السامع ومنعه من الوصول الى غرضه وذكر العبارات الآتية : « يلزمك ألاّ تفعل هذا حتى لا يحصل لك مثل ما حصل لفلان » . وكالعبارة المكررة كثيراً في هذه القصص وهي سؤال رجل لآخر « فكيف كان ذلك ؟ » فهذه أساليب هندية يقولون أنها في القصص المنتشرة بين العامة . ويستدلون على ذلك بأن أصل هذه القصص المنقولة الى العربية هندي أو فارسي زيدت عليهِ صور أخرى من الحياة العربية الاسلامية

﴿ القصص المصرية ﴾ قد يجد القارىء المصري لبعض قصص « ألف ليلة وليلة » تشابهاً بينها وبين ما هو مألوف من اسلوب احاديث العامة او الخاصة وما هو معهود من اخلاق وعادات مصرية : سواء كان ذلك في الاحوال الاجتماعية ، او النفسية . ولقد تكون هذه القصص مكتوبة بأسلوب عربي مصري ، او لهجة مصرية ، وهذا ما يحمل على التصديق بأن هذا الكتاب قد احتوى على قصص مصرية ، كتبت في مصر ، بأقلام كتّاب مصريين وتمتاز هذه القصص بصفات منها ان موضوعاتها ليست خيالية بحتة ، بل مأخوذة من الحياة العامة المصرية وان ليس الغرض منها جذب القراء اليها بما فيها من الغرائب والعجائب التي لا يصدقها إنسان عاقل كما في القصص الفارسية او الهندية المملوءة بالاساطير والخرافات

في صفوف الوطنيين وكان ذلك سبيلي الى حزب الملكيين . فقد نطق هيريو بالحق بقوله اني خصمٌ لا عدوّ . هو أزرق وأنا أبيض ، وهذا كل ما في الامر

«... وفي اول يناير ١٩٣٠ وقد صدر العفو — سريحة الملك الذين اختطفوني واخفوني ثم هرّبوني ،حضروا الى بروكسل لتسلم طريدهم «ليون» ، وفي طليعتهم زعماء الحزب ...فتوجهنا الى باريس في صباح الغد . كان قلبي يقمز في صدري فأقول لهُ : رويدك يا هذا ، فالناس ينظرون الينا والمصورون حاضرون ... وجاءَ الاصدقاء إلى محطة بروكسل يشيعونني بصورةٍ مؤثرة ... وفي محطة أخرى مشيعون غيرهم يحملون طاقات الازهار وينشــدون اناشيد النصر . فأزجر دموعي قدر المستطاع . وجاءَني موظف يخبرني في تأدُّب بأن دومرج يخوّلني حق الدخول في وطني ان لم يكن حق مشاركته في طعامه ... ثم كان الوصول الابيكي الى محطة الشمال بباريس وزوجتي المحبوبة تتكىء على ذراعي ...... فكأني هبطتُ منطقة الأنواء في البحار بين عشرات الالوف من الملكيين والمواطنين وكانوا ينبحون نباحاً ، فتخيلتُ نفسي فلّينة تتقاذفها رؤوس الامواج ... وبعد دقائق قليلة رأيت في مدفن «بير لاشيز» بعد كلّ تلك الشهور قبر فيليب مزداناً بالأزهار فكان لي أن أصلي قرب ولدي ...»

لغة دوديه تستحيل ترجمتها ولا يتيسر فهمها كلها الاّ للمتشبع من روح الأدب الفرنسي والشعب الفرنسي . لان تعبيراته بديهية غير منتقاة . ومع جمال انشائهِ وبلاعتهِ ، فهو لا يتورَّع عن استعمال الالفاظ الزقاقية وتعبيرات غلمان باريس ، ويكتب كثيراً من الكلمات مقلداً لفظ قائليها ، وفي هذا ما فيه لاثارة الضحك . على ان هذا الانشاء بجملته من الحياة والحركة والتشويق ونشاط الذهن ووفرة المعلومات بحيث يسيطر عليك من جميع النواحي . ويحفز فيك شتى القوى النفسية من غضب وانفعال واستياء ورغبة في المقاومة — أو من حنين ولذة واعجاب ورغبة في الاستفادة . وهو في كل ما يكتب يرسم من شخصيته خطوطاً واضحة بألوان زاهية مشبعة و— مهاجمة عنيفة..

كذلك هو في ما لا يحصى من مقالاته في الصحف والمجـلات وفي كتبهِ السبعين أو تزيد : عشرون منها روايات ، والباقي أبحاث في النقد والأدب والاجتماع والتاريخ والفن ووصف رحلات وأسفار ودرس أخلاق الشعوب وعاداتها وتحليل ميولها ، وأبحاث علمية ولغوية وطبية . فهو في الواقع يجمع بين الضلاعة العلمية والقدرة الخيالية . وذكرياته من أشهى وألذ ما يقرأ ، رغماً عن — او ربما بسبب طريقته في النقد والمهاجمة واللذع والهجو . وبعد فما أصفى مجالي الصفاء في بيانه !

ومع تدينه فهو مغرم بأحاديث الغرام ويتلذذ بمرأى العشاق متناثرين في امساء الربيع بين متنزهات بروكسل وميادينها « حيث لا ترى الاّ العناق ولا تسمع سوى الهمس والزفرات . لا تغضب ايها

الرقيب القاسي ! إذا أنت أردت كثرة المواليد وجب التسليم بما يمهد لها ، والطبيعة تحسن صنع ما تصنع . في بروكسل كما في باريس ومرسيليا يتبادل العاشقون القبل علناً في الطريق ، وليس من يجد في ذلك ما يقال ... » .

وكما يفاخر بذكرى والده يفاخر بذكرى والدته (وهي اديبة ايضاً) وينوه بتأثيرها في مواهب والده ومواهبه . ويذكر فضل زوجته في مثل ذلك ومبلغ تأثيرها في حياته وما أنالته من السلوى والهناء . ويمكن إدماجه بين كبار أنسار المرأة وان ضحك من فكرة « المساواة السياسية » وأبى للمرأة الترجل والتخشن في الاعمال الشاقة خارج البيت وفي غير الدوائر المتناسبة وأنوثتها . الا انهُ يطالب بجميع حقوقها الادبية والاجتماعية لان حياة المرأة في الحب وسحرها في الحب « والحب يرد المرأة الى جوهرها » . . . « الرجل هو العراك والمجازفة وانتزاع الغنيمة وهو احياناً التوازن الفظ . والمرأة هي اللذاذة والعذوبة وانسياب القطة وهي احياناً الحكمة والصفاء . . . عندما يصدر الرجل حكمه ، المرأة تتوسط وتتوسل . . . اللانهاية التي نبحث عنها في الله تمثلها المرأة على الارض . . . هي مدًى لا حدود لها . . . هي قابلية رحيبة للحياة . . . ونحن الرجال نقيدها ونحدها . . . »(١)

***

منذا الذي يبتّ في الحكم على مزاعم المنجمين ؟

في حسابات المنجمين ان المريخيين اي الخاضعين لتأثير المريخ ، يكونون عادة بدنيين اقوياء شرهين شغوفين بالهيكل النسائي . وهم اهل عنف وشراسة مغرمون بالمهاجمة والتعدي وان كانوا على مقدرة عظيمة للانصاف . هم سريعو الغضب سريعو التأثر ، وان استطاعوا احياناً التغلب على النفس بقوة ، هم قساة وأريحيون في آن واحد . شجعان في الحرب وفي كل مغامرة واقتحام ، متطرفون في الصراحة وفي العناد ، لا يبالون بالمال ولا بالفخار في المعنى المألوف لأنهم يأخذون بالمثل العليا ويستنهضون الآخرين للاخذ بها . يحبون اللذة حبهم للتقدم . لهم ثقة بنفوسهم وتعنت لآرائهم وينزعمون كل حركة يشتركون فيها او يكونون على الاقل بين النابهين . موهوبون بسلطان الادراك والقلم والبيان ومنهم كبار رجال العلم والجراحة والطب . لا تندر الفواجع في حياتهم ، وقد تنجم بعض مصائبهم عن نهجهم وتهورهم واستهجانهم للملاينة والمداورة ... في كل مجهول هم الروّاد المغامرون ...

انظر الى صورة ليون دوديه ، واقرأ ولو في هذا البحث فقط نتفاً من كتاباته ، ثم قلْ لنفسك رأيك هلاّ توافقت شخصية دوديه وشخصية المريخي كما يزعمها المنجمون ؟

(١) La Femme et l'Amour

مواطن النباتات الزراعية

للامير مصطفى الشهابي

نشر المقتطف في عدد تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٣٤ بعنوان « الزراعة والحضارة : كيف نشأت زراعة الذرة وأين » مقالاً قال إنهُ لخصهُ عن بحث للاستاذ ايست بجامعة هارفرد . والمقال ثمين طلي يستلذه هواة النباتات ولا سيما هواة ما كان منها عظيم الفائدة كالذرة الاميركية . هـذا من حيث الموضوع أما من حيث نسبة البحث الى الاستاذ ايست بجامعة هارفرد فليعذرني صديقي محرر المقتطف اذا ذكرت له انني لم أجد في مقاله كله فكرة واحدة لم ترد في كتاب «المنابت الاصلية للنباتات الزراعية » تأليف دوكندول A. de Candolle العالم النباتي السويسري المشهور الذي يعد واضع تاريخ النباتات الزراعية بلا مراء . وقد ألف كتابه المذكور في أواخر القرن التاسع عشر فترجم الى معظم اللغات الحية . وفي خزانة كتبي نسخة بالفرنسية من طبعته الخامسة طبعت سنة ١٩١٢ . وأظن ان الاستاذ ايست نقل عنه بحثه أو زبدة بحثه [١]

ولما كانت معرفة المهد الأصلي للنباتات الزراعية تفيد الزارع والنباتي والفيلسوف والمؤرخ وكل من يتحرى أصل المدنية وفجر الانسانية ، رأيت ان ألخص بهذه العجالة رأي دوكندول في الوسائل التي تتبع لمعرفة المواطن الاصلية للنباتات الزراعية ولا سيما المهم من تلك النباتات كالحنطة والشعير وانواع الذرة والتبغ والبطاطس وامثالها من المزروعات المفيدة

﴿ طرائق البحث ﴾ اذا أراد العالم معرفة منشأ النبات الزراعي وتاريخه عمد الى طرائق أربع يبلغ باتباعها غايته وهي : اولاً تحري البلاد التي ينبت فيها ذلك النبات الزراعي طبيعيًّا أي بريًّا دون ان يكون للانسان يد في زراعته . فوجود نوع زراعي نابت نباتاً طبيعيًّا في أرضٍ ما دليلٌ قوي على ان تلك الأرض هي مهده الأصلي . مثاله اننا اذا عثرنا على حنطة برية تنبتها الطبيعة في الشام والعراق رجحنا كون هذين القطرين هما مهد الحنطة الاصلي او أنهما في جملة البلاد التي تعد مهدها الاصلي وهكذا . لكن اتباع هذه الطريقة لا يخلو من صعوبة فقد تنقل الطيور أو الرياح مثلاً بزور نبات زراعي الى ارض بعيدة فتنبت فيها بريةً فيظن النباتي الذي يعثر على تلك النبتات أنها هنالك نابتة نباتاً طبيعيًّا منذ القديم فيخطىء ويضلّ سعيه

---

(١) المقتطف : اذا كان الغرض من البحث ذكر بسائط الموضوع — وهو ما نرجح — فلا ينتظر من الاستاذ ايست أن يأتي بشيء جديد . والغالب انهُ ذكر اسم دوكندول عند الكلام على طرائق البحث فلم نشر نحن اليه في التلخيص . اما الجانب الاكبر من بحث الاستاذ ايست فقد كان مصبوباً على الذرة الصفراء وهو ما أوجزنا كثيرا في تلخيصه

وقد تختلط البزور ببضاعة المراكب التي تمخر البحار الى بلاد بعيدة فتنبت وتتكاثر في تلك البلاد فيذهب النباتي الى ان ذلك النبات قديم فيها وهو ليس بقديم . فيتضح من هذا ان على النباتي ان يكون فطناً حاذقاً قادراً على تفريق النبات الوطني عن النبات المجلوب ، ولا شك انهُ لا يطلب منهُ في هذا الباب معرفة البلاد الأصلية للنبات الزراعي قبل ان بدأ الانسان يزرعه في فجر الانسانية، فذلك يذهب بهِ بعيداً الى ما قبل التاريخ في الحقب الجيولوجية الخالية. وهنالك قواعد عامة لتطور الانواع في الاحياء لا يهمنا ذكرها

أما المهم فمعرفة مهد النبات منذ ما أخذ الانسان يزرعه . وفي هذا الصدد قواعد عامة يجب على النباتي والعشّاب معرفتها ، كأن يكون النوع النباتي كثيراً شائعاً في قطر من الاقطار وقليلاً متفرقاً في قطر آخر بعيد جدًّا عن الاول ، ففي هذه الحال يرجح ان المهد الاصلي لذلك النوع هو القطر الاول . وكذلك اذا كانت الانواع النباتية التي هي من جنس واحد متأصلة في قطر ما فان وجود أحد تلك الانواع متفرقاً في قطر آخر بعيد يدلّ على ان هذا النوع قد يكون مجلوباً الى هذا القطر البعيد لا أصليًّا فيهِ . وتفيد الجغرافية النباتية كثيراً في هذا الموضوع ولا بدّ لمن يتحرى تاريخ النباتات من ان يراجعها . وعلى كل يظهر ان العدس والحمص زالا بتاتاً في الطبيعة أي كفّت الطبيعة عن إنباتهما بريين . أما الحنطة والفول والقرطم وغيرها فقد قلّ إنباتها طبيعيًّا وصارت نباتاتها البرية على وشك الانقراض

والطريقة الثانية لمعرفة المهد الاصلي للنبات الزراعي تحريه او تحري صوره أو متحجراته في المصانع والهياكل والاضرحة القديمة او في الطبقات الجيولوجية ، وذلك كالثمار والحبوب وغيرها من اعضاء النباتات التي وجدت في المقابر المصرية القديمة ، وكصورها في جدران الاهرام وقبورها . ولا بدّ هنا ايضاً من الاحتراز لئلاّ تكون هذه الحبوب او الثمار وضعت حديثاً في أضرحة المحنطات القديمة كالذرة الاميركية مثلاً فان وجود حبوبها في تلك المقابر لا يدل على انها قديمة . ولا شك ان من وضعوها هنالك (وربما كانوا افراد قبائل بدوية) يعيشون في القرون الأخيرة لا في ايام الفراعنة . وقد وجدوا في المساكن المائية القديمة في انحاء اوربا بقايا نباتات كانت تزرع في تلك العصور السحيقة. واستدلوا بوجودها فيها على منابت تلك النباتات . أما الطبقات الجيولوجية فعهدها أقدم بكثير من عهد الزراعة ، ولم يعثروا فيها على متحجرات نبات من النباتات الزراعية التي تزرع في أيامنا هذه لكنهم عثروا على متحجرات نباتات غير زراعية كما هو معروف

والطريقة الثالثة مراجعة كتب التاريخ لمعرفة استعمال الاقوام القديمة لاحد النباتات الزراعية او لمعرفة انتقال ذلك النبات مع الفاتحين والمهاجرين في الموجات البشرية المختلفة . وهنا ايضاً ربما أخطأ المؤرخون في ذكر المهد الأصلي للنبات الزراعي . فالروم واليونان مثلاً كانوا يسمون الدرّاق (الخوخ في مصر) تفاح ايران لانهم رأوه يزرع في بلاد فارس على حين أن مهده الأصلي

في الصين . ونحن في الشام نسمي الذرة الاميركية ذرة صفراء . والمصريون يسمونها ذرة شامية ، والعراقيون ذرة مصرية واليمنيون ذرة رومية (انظر مقال العلامة أمين باشا المعلوف في عدد يناير ١٩٣٥ من المقتطف) . فيتضح من هذا الاختلاف في التسمية ومن هذه البلبلة أن النبات المذكور جديد ما كان يعرفه أجدادنا العرب الاقدمون ولم يضعوا له اسماً . والحقيقة ان مهده في أميركا كما اتفق عليه علماء النبات . والادلة على ذلك كثيرة حاسمة

ومن المعروف ان اقدم البلاد بحضارتها وباستعمالها للنباتات الزراعية الصين وغربي آسيا ومصر ثم الاقاليم الاستوائية في أميركا . فالصين ازدهرت فيها الزراعة من ألوف من السنين . وتدل بعض الوثائق التاريخية الصينية على ان بعثة المسمى شنغ كيان Chang-Kien نقلت من آسيا الغربية الى الصين في القرن الثاني قبل الميلاد الفول والفصفصة (برسيم حجازي) والخيار والسمسم والاسباناخ والبسلة والجوز والقرطم وغيرها من النباتات التي كانت مجهولة في الصين . وعمل هذا السفير الصيني لا يستغرب فقد ذكروا ان أحد ملوك الصين كان احتفل بزراعة بعض النباتات احتفالاً عظيماً قبل عهد المسيح بألفين وسبعمائة سنة . أما الدرّاق (الخوخ في مصر) والمشمش فمهدها الأصلي في الصين ومنها نقلا الى غربي آسيا

هذا في الصين أما البلاد الواقعة غربي آسيا فقد حدث فيها موجات بشرية كثيرة بين الشعوب الطورانية والآرية والسامية . فتاريخ هذه الاقوام في بابل وآشور ثم أسفار الفينيقيين وحروب الفرس واليونان وغزوات الاسكندر الكبير واستعمار الرومانيين وانتشار الاسلام والحروب الصليبية كل ذلك جعل لمراجعة التاريخ قيمة لا تنكر في تحري انتقال النباتات الزراعية وانتشارها في غربي آسيا وفي اوربا وشمالي افريقية

ولما كشفت اميركا سنة ١٤٩٢ نقلت منها نباتاتها الزراعية الى أنحاء العالم كالبطاطس والذرة الصفراء والتبغ والصبّار وغيرها كما نقل الى اميركا عدد كبير من زروع العالم القديم . ثم لما كشفت جزائر البحر المحيط الهادي في القرن الثامن عشر من الميلاد وسهلت سُبُل المواصلات انتشرت النباتات القابلة للزراعة في جميع اقاليم الارض الزراعية

والطريقة الرابعة التي يرجع اليها النباتي تحري اسم النبات ووصفه في اللغات القديمة ، فيستدل بذلك على كون ذلك النبات معروفاً ومستعملاً عند الشعوب التي كانت تتكلم بتلك اللغات . وهذه الطريقة كالتي سبقتها لا تخلو من صعوبة ، لأن اسماء بعض النباتات قد تتبدل لدى الشعب الواحد في اللغة الواحدة ، ولأن وصف النبات ما كان شيئاً علمياً لدى كثير من الشعوب القديمة ولذلك ليس من الهين تعيين نوع النبات الذي كان يُسمى بكذا او كذا من الأسماء . هذا عدا ان اسماء بعض النباتات قد تكون واحدة لدى شعوب مختلفة فيكون من المتعذر معرفة الشعب الذي اقتبس تسمية النبات عن الثاني . ومهما يكن فالعالم النباتي لا يعوّل في هذا الصدد إلاّ على الاسماء

الواردة في كتب النبات القديمة ككتب دسقوريدس وتيوفرسطس في اليونانية وكاتون وبلينيوس في اللاتينية وابن البيطار وابن سينا في العربية . فهؤلاءِ وبعض الصينيين الأقدمين وصفوا الانواع النباتية وصفاً لا بأس بهِ يتمكن بهِ العالم النباتي من معرفة تلك الانواع والاستدلال على انهم كانوا يزرعونها في تلك الايام . وتأتي في الدرجة الثانية لغات قديمة ليس في كتبها علم ولكن فيها شعراً وأدباً واموراً دينية وردت في تضاعيفها اسماء بعض النباتات وصفاتها كالسنسكريتية والعبرانية والآرامية . وفي مصاف الدرجة الثالثة لغات لا آداب فيها ولا علوم كالطورانية والآرية القديمة والصقلبية القديمة واضرابها . فهذه اللغات لا يعتمد بألفاظها الا باحتراز وعلى وجه التقريب . ويجب الاحتراز من اسماء النبات العامية فهي كثيراً ما تكون مغلوطة كتسمية الذرة الاميركية باسماء مختلفة في انحاء البلاد العربية وهو ما سبقت الاشارة اليهِ . وكتسمية النبات نفسه في الفرنسية Blé de Turquie اي حنطة تركيا على حين ان الذرة المذكورة ليست حنطة وان مهدها في اميركا لا في تركيا. ومن هذا القبيل شيء كثير في جميع اللغات الاوربية

***

﴿ الخلاصة ﴾ ليست طرائق البحث الاربع التي مرَّ ذكرها على درجة واحدة . فأهمها واعظمها شأناً الدلائل الأثرية اي العثور على النبات او على صوره او نقوشه في المصانع والهيا كل الأثرية والقبور القديمة . فهذا دليل لا غبار عليهِ يدل على ان النبات المذكور كان يزرع في ايام الذين حفظوه او صوروه او نقشوه . ويليهِ الدليل النباتي اي العثور على افراد برية من النبات الزراعي . فهو دليل لهُ شأنهُ . اما ورود ذكرٍ للنبات في الكتب القديمة فدليل يأتي في الدرجة الثالثة . واما الاسماء العامية للنبات فدليل ضعيف الشأن لا يعول عليهِ الاَّ نادراً . ولا شك أن كل دليل من هذه الادلة ناقص وحده . اما اذا اجتمعت الادلة وتضافرت اقترب بها العالم النباتي من حقيقة مهد النبات الاصلي او بلغ تلك الحقيقة . وتاريخ النباتات الزراعية هو بعد كتاريخ الشعوب فمؤرخ الشعوب الثقة لا يدوّن فكرته ما لم يراجع ما كتبهُ الاقدمون في تواريخهم وما هو محفوظ في السجلات القديمة او مرقوم في الاحجار الأثرية او مدوَّن في الجرائد والمجلات والمذكرات والكتب الخاصة . وبعد ان يزن كل ما يجده في هذه المراجع يحكم بما يراه صحيحاً. هكذا يفعل العالم النباتي الذي يتحرى مهد النباتات الزراعية فانهُ يرجع الى كل الطرائق التي تكلمنا عليها . وبهذه الطرائق تمكن دوكندول من كشف الغطاء عن مهد النباتات على وجه الضبط في بعضها وعلى وجه الترجيح في بعض آخر . وقد سهَّل عمله توافر الادلة الأثرية والنباتية واللغوية مما خلفهُ العلماءُ منذ اواخر القرن الثامن عشر الى اليوم الذي الف فيهِ كتابه الخالد

***

﴿ مواطن بعض النباتات الزراعية ﴾ اذا اردنا سرد الادلة التي تثبت موطن كل نبات من هذه

النباتات والتي ترينا تاريخ زراعته لدى الشعوب القديمة والحديثة وجب تأليف كتاب برأسه . لذلك نقتصر على ذكر بعض النتائج التي حصل عليها دوكندول ودوّنها في كتابه المذكور . واهم النباتات الزراعية الحنطة فهي تزرع منذ فجر الانسانية وقد وجدت حباتها في اهرام مصر وفي بحيرات سويسرا. وورد ذكرها في كتب الصينيين والعبرانيين ولها اسم في كل اللغات القديمة والحديثة وموطنها الاصلي في العراق وفي الشام الجنوبية لانهُ عثر على نباتها البري قديماً في العراق وحديثاً في الشام

والشعير قديم ايضاً . وقد وجد الشعير ذو الحرفين بريًّا في آسيا الغربية ومنها جزيرة العرب وسيناء . اما الذرة اي الذرة البيضاء في الشام والبلدية في مصر فالارجح كون بلادها الاصلية مصر العليا وجزيرة العرب واما الذرة الصفراء في الشام والذرة الشامية في مصر فهي اميركية الاصل كما قلت وهي لم ترد في مفردات ابن البيطار وما كان اجدادنا يعرفونها . والرز او الارز من اقدم النباتات الزراعية . فقد كان مبذولاً في الصين منذ نحو ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد . ومهده الاصلي في الهند على الارجح . والعرب هم الذين نقلوه الى الاندلس . ومهد القطن العشبي في الهند ، وربما كان موطن القطن الشجري في مصر العليا . والى العرب يرجع فضل اذاعة القطن وزراعته في الغرب . والاطريفل السكندري اي البرسيم مهده الاصلي في الشام والاناضول . والشام ايضاً موطن الفستق والخرّوب والتين والزيتون . ومهد الكرمة آسيا الغربية وشواطىء بحر الروم وكذا السماق . والشاي من الصين ومنشوريا ، والقهوة من افريقية الاستوائية ، والتوت الابيض من الهند وبلاد المغول اما التوت الاسود اي الشامي فمن ارمينيا وايران . والنخل الذي عُرف بنا وعرفنا بهِ تمتد بلاده الاصلية من جزيرة العرب والعراق الى المغرب الاقصى وجزائر كناريا . ولاشك انهُ كان موجوداً في شمالي افريقية قبل عهد العرب والاسلام ببضعة الوف من السنين . ولم يعرف اين كان مهده الاصلي على الضبط قبل عهد الفراعنة اي هل كانت كل هذه البلاد موطناً له ام كان ينبت نباتاً طبيعيًّا ويزرع في قسم منها لا فيها كلها . ولعلّ العثور على متحجراته يكشف الغطاء عن ذلك في يوم من الايام

والهند موطن الكبّاد (أترج في مصر) والنارنج والأنْبَج (منجا) والقرفة والفلفل والخيار كما ان الصين موطن البرتقال والمندرين والدرّاق (خوخ في مصر) والمشمش . اما النباتات الزراعية التي منابتها الاصلية في اميركا فكثيرة منها الكينا والذرة الاميركية والأناناس والفليفلة والبَنَدُورى (طماطم في مصر) والبطاطس والصبّار والجوافة والقشطة والتبغ الخ . وقد كنت بينت بأدلة ساطعة ان التبغ غير الطُبّاق (انظر عدد ابريل ١٩٣٠ ص ٤٥٥ من المقتطف) . وأقول إن الصَبَّار اي التين الشوكي ما كان معروفاً قبل كشف اميركا . فلفظة الصُبّار (بالضم) إذن التي وردت في المعاجم العربية وفي مفردات ابن البيطار لا تدل على هذا النبات بل تدل على التمر الهندي فينبغي لعلمائنا ان ينتبهوا الى ذلك

الشعبية والشعوبية

العالم يهجر الاولى ومصيره الى الثانية

Internationalism Versus Nationalism

بقلم نقولا الحداد

من النكات المنكيات اننا نضطر أحياناً الى تفسير لفظ عربي بلفظ أعجمي مصطلح عليه لمعنى حديث ، لظننا ان الجانب الاوفر من القراء يعرفون احدى اللغات الاوربية المشتركة بذلك الاصطلاح لفظاً ومعنى

فضلت لفظ «شعب» مرادفاً للفظ Nation لانه يعبر عن أهل وطن واحد يكثر فيهم اختلاف السلالات وامتزاجها ولا سيما في عصرنا حيث لا نجد أمة بقيت محافظة على عصبيتها أو سلم دمها من الامتزاج بدماء سلالات أخرى . فالامة في عرفنا الحاضر تحد بحدود جغرافية اكثر مما تحد بحدود سلالية تاريخية (اثنولوجية). ولذلك نستعمل لفظ « شعبي » مرادفاً للفظ National ولفظ شعوبي مرادفاً للفظ International الى ان يقرر المجمع العلمي لفظين آخرين اذا لم يقرّ هذين اللفظين . وبهذا الاصطلاح نتخلص من اللبس في لفظة « أمية » نسبة الى امة ، لان الشائع ان الامية تعني جهل القراءة والكتابة

متن الموضوع

العالم صائر حتماً الى الشعوبية Internationalism أي تآلف الشعوب وتضامنها وتعاملها على قاعدة الخضوع لقوانين عمومية عادلة منصفة . ليس العالم صائراً الى هذا النظام الاجتماعي من تلقاء نفسه بل بحكم العوامل العمرانية والاجتماعية ، ولا باختياره ولا بارشاد « العقل الاجتماعي » الواعي بل بغريزة اجتماعية غير واعية . هذه العوامل محتمة على المجتمع ان يسير في هذا الطريق بالرغم من العقول الفردية الواعية — عقول الساسة والاداريين والاقتصاديين وجميع أهل السلطات — المقاومة لهذا المصير بكل ما أوتيت من قوة وحيلة . هذه العقول تقاوم مؤتمرة بأمر التقاليد المتحجرة التي تصر على بقاء القديم على قِدَمه . ولكن بالرغم من جهادها في سبيل الحرص على التقاليد يندفع تيار الغريزة الاجتماعية (غريزة التطور والتجديد الراضخة لاحكام العوامل العمرانية المتجددة) مجتاحاً أنظمة الشعبية وقاذفاً بها الى بحر النظام الشعوبي

نظام الشعبية جعل كل شعب مستقلاً بنفسه مطلق الحرية . وهذان الاستقلال والحرية يفضيان الى احتكاك الشعوب فتصادمها فتنازع الحدود الجغرافية والاقتصادية . وأما نظام الشعوبية فيحاول

انْ يدكّ هذه الحدود والاستقلالات ويوحّد الامم في شبه أمة واحدة أو في تحالف واحد عام فيما بينها

في هذا المتن الاجمالي نقط قليلة الوضوح . فلا مناص لايضاحها من الشرح والتمثيل بالأمثلة التي يعلمها الجمهور. ولا بدّ ان يكون قد لاح لقارىء السطور الآنفة ان يسأل الاسئلة الرئيسية التالية

١ً — ما هي العوامل العمرانية القاضية حتماً بمصير العالم الى الشعوبية ؟

٢ً — ما هي الأدلة على ان العالم مهاجرٌ الشعبية المتنازعة الى الشعوبية المتحالفة ؟

٣ً — لماذا تتحكم التقاليد بالعقول الفردية الواعية وتضطرها الى مقاومة العوامل العمرانية والاجتماعية المسيرة العالم في طريق الشعوبية ؟

٤ً — كيف تتغلب الغريزة الاجتماعية على العقل الفردي الواعي . وبعبارة أوضح : كيف تنهزم تدابير الساسة واضرابهم أمام تيار النظام الشعوبي خائبة المسعى ؟

٥ً — واخيراً كيف يستقيم نظام الشعوبية وبأي شكل يتم ؟

في الشرح التالي الاجوبة عن هذه الاسئلة

كيف اشتبكت العلائق الشعوبية

لا بدّ من نظرة عامة الى النُظُم العمرانية المتقادمة العهود لكي نعلم كيف نشأت العوامل الاجتماعية المتنوعة التي تسيّر العالم في طريقه بالرغم من ارادة العقل الاجتماعي وحريته

في العصور السابقة أيام كانت المعرفة سقيمة كانت اسباب تحصيل الرزق بسيطة جداً ، وبالتالي كانت الحياة ساذجة والمعيشة قشفة وانواع الترف قليلة جداً . وكذلك كانت الاقوام أو الأمم محصورة في حدود جغرافية طبيعية . فقد يكون الفاصل بين أمة واخرى سلسلة جبال صعبة المرتقى أو صحراء شاسعة أو بحر خضم . ولذلك كان الاتصال بين الامم ضعيفاً جداً . كانت كل أمة تقتصر في أساليب معيشتها على ما تجود بهِ أرضها من الرزق وما تستطيعه عقولها الساذجة وعضلاتها من اصطناع الادوات والسلع . كانت مستقلة في اقتصادياتها فلم يكن ينقصها نتاج أو متاع موجود عند غيرها لكي تقايض بهِ نتاجاً عندها وهو ليس عند غيرها . ولهذا كان التعامل بين الامم حتى المتجاورة بطيئاً ويسيراً . فندر جداً ان تحتاج الى عهود وقوانين (كالقوانين الدولية) بينها تحفظ السلم . بل بالعكس كان يغلب الغزو بينها بسبب الحاجة قليلاً وبسبب الطمع كثيراً

والعقل البشري الذي برز من صميم الحياة هو انشط ظاهرات الحياة حركة. فما فتىء منذ ظهوره يتفاعل مع حركة الطبيعة المادية ويستنبط منها نواميسها ليستغلها فمنذ استتم العقل وعيه جعل يخترع وكان الاختراع الواحد يمهد السبيل الى اختراعات اخرى ، الى ان بلغت اختراعاتهُ العجب العجاب الذي نراه الآن

مع تقدم العقل في طريق الاختراع كان بفضل اختراعاتهِ انهُ : — ١ً — توافرت أسباب

المعيشة ووسائل تحصيل الرزق وانواع الترف والبذخ الى ان بلغت شأنها الحالي : ٢ً — جعلت الصناعات تتنوع . وبتنوعها صارت تتوزع مختصة بأفراد وفئات ، الامر الذي وسع دائرة المقايضة فالتجارة : ٣ً — تقدمت وسائل الاتصال بين الأمم تقدماً عجيباً جعل الكرة الارضية كأنها « متمركزة » في أي نقطة في سطحها : ٤ً — هذا الاتصال العجيب هدم كل ما كان يعتبر حدًّا فاصلاً بين الأمم . أصبحت الأمم جميعها كأنها تعيش في اقليم واحد صغير : ٥ً — هذا الاتصال وسّع دائرة التعامل بين الامم على تباعدها الجغرافي بالسرعة العجيبة : ٦ً — هذا التعامل الشامل السريع زاد أسباب تحصيل الرزق واساليب المعيشة وانواع الترف والبذخ أضعاف الأضعاف : ٧ً — هذا التنوع في أساليب المعيشة والترف وفي وسائل تحصيل الرزق ، جعل كل قطر من أقطار المعمورة مختصًّا بانتاج انواع من النتاجين الزراعي والصناعي دون أنواع اخرى : ٨ً — هذا الاختصاص جعل كل شعب محتاجاً حتماً الى مقايضة غيره من الشعوب الاخرى فلم يعد في طوق أية امة اخرى ان تستقل اقتصاديًّا استقلالاً مطلقاً مهما بذلت من الجهد في ان تنتج كل ما تحتاج اليه بنفسها لنفسها : ٩ً — و اخيراً ان اضطرار كل شعب الى استيراد شيء من نتاج غيره واصدار منتجاته الى غيره زاد حدة التنازع بين الشعوب الى حد شبوب الحروب فتحاً واستعماراً والقارىء يعلم جيداً تفصيلات هذا البند التاسع

أليست هذه البنود التسعة عوامل عمرانية واجتماعية كانت قاضية حتماً ببلوغ المجتمع البشري الى اشتباك العلائق بين اممهِ كما نرى الآن ؟ وهل كان للعقل البشري حرية في اختيار مصير آخر غير هذا المصير ؟ اليس ان هذا التطور مقتضى غريزة اجتماعية هي من صميم طبيعة الحياة والعقل ؟ واذا كان لا بد للمجتمع البشري ان يسلك هذا الطريق الى هذا المصير فهل يبقى شك بانه مطلقٌ نظامُ الشعبية رويداً الى نظام الشعوبية ؟

الادلة على هجوم نظام الشعوبية

الحقيقة ان النظام الاجتماعي الآن هو نظام شعوبي بحت لا ينقصه الاَّ ان يؤيد السلم فيه النظامُ الادبي Ethics . النظام شعوبي برغم انوف الشعوب . وانما الشعوب — او بالاحرى قادة الشعوب — ينتفضون ضمن هذا النظام انتفاضاً جنونيًّا كما تنتفض الاسماك المتزاحمة المحصورة في شبكة ضيقة عليها . ولكن بالرغم من هذا الانتفاض هي مضطرة ان تستسلم لهذا النظام الشعوبي تفادياً لآلام الاصطدام العنيف . واليك الادلة على استسلامها وفيها الاجابة عن السؤال الثاني بكل اختصار

يمكنك ان تقول ان العالم طفق يدخل في نظام الشعوبية منذ نشأت القوانين والمعاهدات الدولية . وكان انهُ كلما اشتبكت صلات الامم الاقتصادية اشتد احتكاكها بعضها ببعض وحمي وطيس تصادمها فاضطرت الى تلافي آلام الاصطدام بعقد المعاهدات والمحالفات . وكان احترام المعاهدات يتوقف على

توازن قوى المتعاهدات ، حتى اذا اختلَّ هذا التوازن ورجحت قوة على اخرى ضعف ذلك الاحترام الى حد التلاشي لان قوة المجتمع الادبية — وبعبارة اصح — الضمير الاجتماعي ضعيف

وعندنا ادلة تحملنا على الظن ان هذا الضمير الاجتماعي صار الآن اقوى منهُ قبلاً ولو قليلاً . لاننا نرى بعض الدول تحترم اليوم عهودها بعضها تجاه بعض حتى تجاه التي هي اضعف منها تحترمها الى ان يطرأ طارىء يجعل العهود خطراً على حيويتها فعندئذٍ تعدها قصاصة ورق . ولكن ليس احترام العهود هذا كل الدليل على استقواء الضمير الاجتماعي لان هذا الاحترام لا يكون دائماً ناتجاً عن فضيلة تقيه بل يكون احياناً كثيرة لاستدراك عواقب سيئة . وانما هناك ادلة اخرى عديدة على ان الضمير الصالح اخذ ينتعش حتى في وسط شياطين المطامع . ولا مجال في هذا المقال لشرح هذه الادلة . فيكفي هنا ان نوجه نظر القارىء الى المؤتمرات الدولية المتعددة — لا اعني المؤتمرات السياسية ، لان هذه لا تزال تعقد في دار الشيطان — وانما اعني المؤتمرات الاجتماعية المتنوعة التي يُقصد بها الاصلاح والتفاهم والتعميم الخ . فمنها (المؤتمرات العلمية المختلفة المواضيع واهمها المؤتمرات الطبية والصحية . والمؤتمرات الاقتصادية العديدة الانواع من انتاجية زراعية وصناعية الخ . والمؤتمرات الاصلاحية — كمؤتمرات المخدرات والمسكرات الخ . والمؤتمرات الفنية العديدة الصنوف الى غير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه — جميع هذه المؤتمرات تدل على ان الشعوب شعرت بضرورة التفاهم والاشتراك معاً في مهمات الاصلاحات وفي اجتناء ثمراتها . فهي اذاً قوى ادبية تعمل لتطابق نظام الشعبية والدخول في نظام الشعوبية

ليست هذه المؤتمرات التي سردنا رؤوسها كل الادلة على انتعاش الضمير الاجتماعي الذي يكبح جماح التنازع الاممي ويرشد الى محامد تحالف الشعوب ووئامها وسلامها . فهناك ايضاً جمعيات واتحادات شعوبية (دولية) عديدة متنوعة تنتشر في الممالك المتمدنة انتشاراً دوليًّا ينتظم فيها فروع من ممالك مختلفة ولا محل لسردها . فهي ترمي الى نفس الغاية التي ترمي اليها المؤتمرات المارُّ ذكرها

اضف الى ما تقدم انتشار الثقافة الحديثة على سطح الكرة الارضية — ثقافة راقية تطبع عقول الامم المختلفة بطابع واحد تقريباً وتسبكها في قوالب متماثلة . فهي اهم عامل من عوامل تفاهم الامم وتخلُّقها باخلاق متشابهة تسهّل تآلفها وتحالفها وتعاونها . وفيما تقدم كفاية للتدليل على ان العالم داخل الآن في دائرة النظام الشعوبي . فلا موجب للتفصيل الذي لا يؤذن بهِ المجال

تأثير التقاليد المتصلبة

نأتي الآن الى بيان العوامل التي كانت دائماً تقاوم تيار النظام الشعوبي المسوق بحكم الطبيعة الاجتماعية ولا تزال

لم يبق اقل شك عند سواد الناس ان الوسيلة الوحيدة لتلافي الحروب وتأييد السلم العام هي

تأليف حكومة دولية تطرح الدول سلاحها لديها وتخضع لاحكامها واوامرها . فقد اصبح إمكان تحقيق هذه النظرية بالفعل عقيدة عامة عند كل طبقة من طبقات الامم وكل فئة من فئاتها . فما هو الحائل دون تحقيقها ؟

بتحليل المسألة نصل الى ثالث الاسئلة التي تصدَّر بها هذا البحث — نصل الى شيطان التقاليد المتصلّبة التي تعند لقاء كل تطور اجتماعي . فالتقليد العنيد الذي يحاول صد تيار الشعوبية مصدره الغريزة الحيوانية التي لم تزل قوية في الحياة الانسانية — غريزة الأثرة — الأثرة النفسية التي تبتغي التمتع بثمرة عمل الغير . نشأ من هذه الغريزة فرعان : نزعة الى الاستئثار بالمال الذي هو مبلوَر عرق العامل ، ونزعة الى السؤدد والجاه . وكلتا النزعتين متعاونتان متضامنتان . ولا محل لتفصيل نشوئهما . بتحريض هاتين النزعتين كان رؤوس القبائل والامم والشعوب يغزون بعضهم بعضاً . ولما كان المقاتلون يتوانون عن القتال حين يرون ان نصيبهم من الغنائم ضئيل وان النصيب الاوفر ذاهب الى الرؤوس صار هؤلاء يستفزون فيهم النعرة الدينية ويحرضونهم باسم الدين على الجهاد . والقارىء يعلم جيداً كم من الحروب اثيرت باسم الدين ، ولم تكن الآلهة راضية ، لان الجهاد كان لاشباع شهوات الرؤوس لا لان الآلهة جائعة للغنائم . وكان الله غاضباً لانهُ لا ينحاز الى جانب واحد من بنيهِ دون الآخر

الٰه الوطن

بقيت الحروب تثار باسم الدين والدين براءٌ منها ، حتى العصر المنصرم حين بدأت العامة تفهم مخادعة الرؤوس هذه . فاستنبط الساسة من فئة الرؤوس اخيراً الهاً جديداً للبشر وهو « الوطن » وجعلوا يمجدونهُ ويعظمونهُ في نظر العامة حتى صار هؤلاء يرونهُ اعظم من الله (اللهمَّ غفرانك) بل اصبح الله ثانويًّا عنده اذ انطلقت ألسنتهم بالقول « الدين لله والوطن للجميع » . وأصبح التعصب للوطن اضعاف ما كان للدين . وارتفعت رايات الوطن وتنكست رايات الاديان وصار الجهاد لأجل الوطن مبرَّة والتفاني في الجهاد له مفخرة وشرفاً وجزاؤه اكاليل توضع على قبر « الجندي المجهول » . وفعل « اله الوطن » من فظائع الحروب وويلاتها اضعاف ما فعله « اسم الدين » . والحقيقة الناصعة ان ابليس الرجيم لم ينجح في ما اخترعه لإفساد البشرية عشر نجاحهِ في اختراع « تأليه الوطن » و « عقيدة الوطنية » . بهذا الاختراع الهائل صدَّ ابليس تيار « الشعوبية » المتدفق اكثر مما يصد خزان اصوان تيار النيل

ألا تقول ان « اله الوطن » هذا سحر عامة الامم او اسكرهم بخمرة حبه ! ولا يزالون حتى اليوم سكارى لأن شيطانهُ اخترع الرأسمالية الهاً للمفتونين بإدخار الذهب او ما يمثله ، واخترع البروقراطية الهاً للمشغوفين بحب السيادة والجاه . وجعل ارباب الاموال يسكبون الخمرة في كؤوس في ايدي ارباب السؤدد وهؤلاء يديرونها على العوام كلما اوشك هؤلاء ان يستفيقوا من سكرتهم . والى هذه الساعة لا يزال سواد العامة سكارى بخمرة اله الوطن

منذ ظهر اله الوطن جعل يسمّم نفوس الناشئة الحديثة بحب الجندية وبالغرام بالثوب العسكري والحسام والبندقية، وبالحماسة للنضال وبالنخوة للقتال. حتى اذا اوشكت حمى الحماسة ان تهبط استنبط «اله الوطن» طقساً جديداً لعبادته. فلما قاربت حرارة «البتريوتزم» الفرنساوية التي هبت على اوروبا في القرن الماضي — لما قاربت تهبط استنبط اله الوطن الفاشستية والنازية ونحوهما لتحل محل البتريوتزم. وكادت الفاشستية تجتاح كل اوروبا . وما هي الا صنم من اصنام الوطن

ولكيلا تفتر النخوة الجهادية او لكي تثار في صدور الاحداث الذين كان يجب ان يتربّوا على المحبة والاخاء الانسانيين اخترع اله الوطن نظام الكشافة شاملاً للجنسين . وهو شر نظام تسمم به نفوس الاحداث لاثارته روح العداء بين الجنسيات الوطنية بالرغم من الدعوى الكاذبة في انهُ يراد بهِ تربية الشرف النفسي والنشاط القلبي الى غير ذلك من اساليب التربية العسكرية المصطنعة، ووراء هذه الدعوى المزيفة تحريض نعرة التعصب للوطن وحض النخوة للقتال لأجله . ووراء هذا التعصب الوطني ابليس يثير العداء بين وطن ووطن ليجعل نار القتال دائمة الاستعار بين الاوطان. وهو يستخدم لهذه الغاية الهي المال والسؤدد

لا ريب ان عقيدة « الوطنية » جاءت اعظم نكبة على الجنس البشري في تاريخه لانها ليست الاّ تحريضاً على الحروب وعداءً للسلم العام . لماذا؟ ولأجل من ؟— لاشباع شهوات ذوي الأثرة وذوي السؤدد . ردّت نظام الشعوبية ـ تآلف الامم وتضامنها ـ الى الوراء شوطاً كبيراً . وكان من اهم نكباتها: اولاً الامعان في التسليح بالرغم من مؤتمرات الدول العقيمة لتخفيض السلاح ، لتخوّف الامم بعضها من بعض وايجاسها من مكايد بعضها للبعض . وثانياً تعليته الحواجز الجمركية في كل مملكة انتقاماً وسوء مظنة . وثالثاً تسييج الممالك بسياج قوانين ضد المهاجرة. ورابعاً اهباط قيمة العملة تنافساً في الاحتيال على اغتيال حقوق الغير . وخامساً اضعاف عصبة الامم سياسيًّا وأدبيًّا — هذه العصبة التي تعد الجرثومة الاولى لنظام الشعوبية

واخيراً ماذا كانت نتائج هذه المكايد ؟ — عرقلة النظام الاقتصادي الى حد الجمود . وكان من اهم مظاهر هذه العرقلة ويل ، واي ويل ، لجانبي الرأسمالية والعمل على السواء. فدولاب العمل سكن وملايين العمال يتضورون جوعاً وصروح الاعمال انهارت . وانهارت معها صروح الثروات التي كانت مرتكزة على عواتق العمّال حتى صار كبار المتموّلين ينتحرون هرباً من هذا الويل. هذه كانت آخرة نتائج عقيدة الوطنية التي دسها ابليس في الحياة الانسانية

اتأسف ان المجال لا يتسع للجواب على السؤالين الاخيرين . ولا بد ان القارىء يستطيع استنتاج جوابيهما مما تقدم . وربما عدت اليهما في مقالٍ آخر . ولا يخفى ان هذا الموضوع الخطير متشعب الاطراف جدير بكتاب او كتيب لا بمقالة او بمقالتين . فعسى ان يبدو من اهتمام القراء بهِ ما يشجع ايَّ الاكفاء على الخوض فيهِ

لعلي محمود طه

الى موسيقية عمياء

إلى عزّافة حان ألقتيا

إذا ما طافَ بالأرضِ شعـــاعُ الكوكب الفضّي
إذا ما أنّتِ الريحُ وجــاش البرقُ بالومض
إذا ما فتّح الفجر عيـــونَ النرجس الغضّ
بكيتُ لزهرةٍ تبكي بدمـــعٍ غير مرفضّ

* * *

زواها الدهر لم تسعدْ من الاشراقِ باللمحِ
على جفنينِ ظمآنين للأنـــداءِ والصبــــحِ
أمهدَ النّور ما للّيـــلِ قد لفّكَ في جنح ؟
أضيءْ في خاطر الدنيــا وصبّ النّورَ في جرحي

* * *

أري الاقدارَ يا حسناءُ مثوى جرحكِ الدامي
أريها موضعَ السهـــم الذي سدّده الرامي
أنيلي مشرق الأصــباحِ هذا الكوكب الظامي
دعيــه يرشف الأنـــوار من ينبوعها السامي

* * *

وخلي أدمعَ الفجر تقبّـل مغربَ الشمس
ولا تبكي على يومك او تأسيْ على الأمس
اليك الكون فاشتفّـــي جمال الكون باللمس
خذي الازهار في كفيـــكِ فالاشواكُ في نفسي !

* * *

اذا ما أقبلَ الليلُ وشاع الصمت في الوادي
خذي القيثار واستوحي شجونَ سحابهِ الغادي
وهزّي النجم اشفاقاً لنجم غير وقّـاد
لعلّ اللحنَ يستدني شعاع الرحمـة الهادي

اذا ما سقسق العصـــفور في اعشاشه الغُنِّ
وشـقَّ الروض بالأُلـــحان من غصنٍ الى غصن
أتتك خواطـري العزَّا فة الرقّافةَ اللحن
تغنّيك بأشعاري وترعى عالم الحسـن

* * *

إذا ما ذابت الانـــداء فوق الوَرَق النَّضْر
وصبَّ العطرَ في الاكـــمام إبريقٌ من التبرَ
دعوتُ شـواديَ الاطياف من فردوسها السحري
تذيبُ اللحنَ في جفنيـكِ والاشجان في صدري

* * *

عرفتِ الحـبَّ يا حوا ء أم ما زال مجهولا !
ألمَّا تحملي قلباً على الأشواق مجبولا !
صفيـه ، صفيه ، فرحـــاناً ومحزوناً ومخبولا !
وكيفَ تعـارفَ الروحـــان عند النظرة الأولى ؟

* * *

ومَن آدمك المحبـوب أو ما صورةُ الصَّبِّ ؟
لقد أُلهِمتِ والأُلـــهامُ يا حـواء بالقلب
هو القـلبُ ، هو الحبُّ ، وما الدنيا لدى الحبِّ
سوى المجـلوَّة الأُســـرار والمهتوكةِ الحُجْبِ

* * *

سـلي القيثارَ بين يديـــكِ أيَّ ملاحنٍ غنَّى
وأيَّ صبابةٍ سالت على أوتارهِ لحـنا
حوى الآمال والآ لام والفرحـةَ والحزنا
حوى الآبادَ والأكـــوان في لفظٍ وفي معنى !

* * *

تعالى الحسنُ يا حسناء عن إطراقِ محسورِ
أيشكو الليلَ في كونٍ من الأنوار مغمور !
وما جلاهُ من سوّاهُ غيرَ إلاهـة النـورِ ؟
وما سمَّاهُ إذ ناداهُ غيرَ الأعـينِ الحور !!

الطرائق المتبعة

في الإشباب واطالة الحياة

عمل الخصية في الانسان وأثرها في جسمهِ وعقلهِ

الدكتور شوكت موفق الشطي

عمل الانسان على إطالة الحياة منذ تكامل ادراكه ورأى الموت امامه يفغر فاه في كل يوم فيبتلع العدد العديد من ابناء هذه البشرية فكان يعمد الى امور شتى لا يلبث المستقبل ان يبين فسادها واذا تصفحنا تاريخ هذه القضية التي نحن بصددها واعني بها محاربة الشيخوخة رأينا ان عدداً من النوابغ استلّوا سيف الجهاد وتركوا أثراً لم تلبث ريح التحقيق ان عصفت عليهِ فعفته ولا يزال الناس يتساءلون هل ثمَّة من الوسائل ما يجعل أمد الحياة طويلاً وهل وجد العلماء لتجديد الشباب والتفتية [1] سبيلاً ؟

يصعب في حالة العلم الحاضرة ان يجاب عن هذين السؤالين لان كنه الحياة لم يحلّ بعد وامر الروح ما زال سرًّا غامضاً وسوف يبقى في اعتقادنا لغزاً ما دامت الحياة على وجه الكرة كما جاء في القرآن الكريم : « ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي »

على ان حل قضية الاشباب المعقدة وسبر غورها مرتبطان بجواهر الحيـاة والروح لذلك كان البحث في هذا الامر والتنقيب فيهِ والاجابة عن هذين السؤالين امراً معقداً. ولما لم يستطع البحاثون ايضاح ذلك وجّهوا ابحاثهم شطر الاسباب التي تحدد عمر الانسان وتؤجل ظهور امارات الهرم وقد اشرنا في المقالين السابقين عن الإشباب الى العوامل العاملة في تنظيم عمر الانسان وابنّا ان منها ما كانت باطنية ومنها ما هي خارجية . اما العوامل الباطنية فلا سلطة لنا عليها اليوم وقد يكشف في الغد ما ليس في الحسبان على ان العلماء بعد ان عرفوا ما للغرويات من الشأن في حفظ قوة الانسان سعوا الى ايجاد وسائل تجدد الغرويات في الخلايا الشيخة وقد توصلوا الى ان يهبوا الخلايا وسيلة تساعدها على التكاثر وما ينشأ عنهُ من اكتساب النسج والاعضاء الشيخة قوة ونشاطاً يفتيانها .

وقد توصل العلماء الى تحقيق شطر من هذه الفكرة بطرائق خاصة يستند معظمها الى تضريج

---

(١) التفتية بمعنى الاشباب ولم ترد هذه الكلمة ايضاً في كتب اللغة غير ان قول ادهم بن محرز الباهلي دليل على صحة هذا المعنى والقصة أن عبد الملك عابه على بياض رأسه وكان كالثغامة وقال له لو غيرت هذا الشيب فذهب فاختضب بسواد ثم دخل عليه فقال له يا امير المؤمنين قد قلت بيتاً لم اقل بيتاً قبله والا اراني اقول بعده قال هات فأنشأ يقول

ولما رأيت الشيب شيناً لاهله   تفتيت وابتعت الشباب بدرهم

لجسم برسل (هورمونات) تفرزها الغدد التناسلية ومن هذه الطرائق طريقة براون سيكار وعمليات فورونوف وشتيناخ ودوبلر الجراحية

﴿ طريقة براون سيكار ﴾ — اجرى العالم المذكور سنة ١٨٨٩ اختباراً على نفسه كان لهُ دويٌّ هائل في الاندية الطبية والصحف العلمية والجرائد اليومية فأسال المداد وسوّد كثيراً من الصفحات واصبح في حين من الزمن شغل العلماء الاحيائيين الشاغل . وخلاصة هذا الاختبار ان براون حقن نفسه لما كان لهُ ٧٢ سنة من العمر بعصير الخصى فشعر اثر ذلك بنشاط في قواه وفي غريزته الجنسية وقد ذكر في محاضراته ما توصل اليهِ فأعقب ذلك ذيوع هذه الطريقة بين عدد كبير من الشيوخ ولجأ الى الاستشفاء بها رهط عظيم منهم غير انهم لم يجدوا فيها ما يسلي عزاءهم فأهمل شأنها وعادت نسياً منسيّاً. هذا وان كان اختبار براون سيكار لم يحقق الغاية ولم ينل الارب الاَّ انهُ نبه الفسيولوجيين والاطباء الى عمل الغدد الصم الحيوي فاتجهت الافكار الى الاستعضاء [1] وبعثت من جديد هذه الوسيلة التي كان لها شأن كبير في القرون الوسطى ومقام في الطب القديم وقيل منذ ذلك الحين بالافراز الخصوي الداخلي . على اننا نرى ان فكرة تأثير الخصية في نشاط الجسم ومظهر الذكورة ليست حديثة العهد بل عرف الاطباء الاقدمون الشيء الكثير عن ذلك

ذكر هذا التأثير اطباء العرب وعلماؤهم في كتبهم حتى ان الجاحظ بحث في كتابهِ الحيوان عن الخصاء وما يعتري الانسان وبعض الامم (اجناس الحيوان) بعده بحثاً مسهباً ننقل طرفاً منهُ

كل ذي ريح منتنة وقيل ذي دفر [2] وصنان وكريه المشمة كالنسر وما اشبههُ فانهُ متى خصي نقص نتنه وذهب صنانه غير الانسان فان الخصيّ يكون انتن وصنانه احدَّ ويعم ايضاً خبث العرق سائر جسده حتى لتوجد لأجسادهم رائحة لا تكون لغيرهم فهذا هذا وكل شيءٍ من الحيوان يخصى فان عظمه يدقّ فاذا دق عظمه استرخى لحمه وتبرأً من عظمه وعاد رخصاً رطباً بعد ان كان عضلاً صلباً والانسان اذا خصي طال عظمه وعرض فخالف ايضاً جميع الحيوان من هذا الوجه وتعرض للخصيان ايضاً طول اقدام واعوجاج في أصابع اليد والتواءٌ في اصابع الرجلِ وذلك من اول طعنهم في السن وتعرض لهم سرعة التغير والتبدل وانقلاب من حد الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد وصفاء اللون ورقته وكثرة الماء وبريقه الى التكرش والكمود والى التقبض والتحدد والى الهزال وسوء الحال

والخصي لايصلح كما لاتصلح المرأة واذا قطع العضو الذي كان بهِ فحلاً تامًّا أخرجه ذلك من اكثر معاني الفحول وصفاتهم واذا أخرجهُ من ذلك الكمال صيره كالبغل الذي ليس هو حماراً ولا فرساً تصير طباعه مقسومة على طباع الذكر والأنثى وربما لم يخلص لهُ الخلق ولم يصف حتى يصير كالخلق من اخلاق الرجال ويلحق بمثلهِ من اخلاق النساء ولكنهُ يقع ممزوجاً مركباً فيخرج الى ان يكون مذبذباً لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء

(١) تأويل opothérapie عملية العلاج بمفرزات اعضاء الجسم (٢) الدفر من دفر الشيء دفراً انتنت ريحه والدفر على وزن فلس اسم منه

ثم قال وللانسان قوى معروفة المقدار وشهوات مصروفة في وجوه حاجات النفوس مقسومة عليها لا يجوز تعطيلها وترك استعمالها ما كانت النفوس قائمة بطبائعها ومزاجاتها وحاجاتها وباب المنكح من أكبرها وأقواها وأعمها ويدخل في باب المنكح ما في طبائعهم من طلب الولد لما طبع الله تعالى بني آدم عليهِ من حب الذرية وكثرة النسل

وعامة اكتساب الرجال وإنفاقهم وهمهم وتصنعهم وتحسينهم لما يملكون انما هو مصروف الى النساء والاسباب المتعلقة بالنساء[1] ولو لم يكن الاَّ التنمص[2] والتطيب والتطرز والتخضب والذي يعدلها من الطيب والصبغ والحلي والكساءِ والفرش والآنية لكان في ذلك ما كفى ولو لم يكن لهُ الاهتمام بحفظها وحراستها وخوف العار من جنايتها والجناية عليها لكان في ذلك المؤونة العظيمة والمشقة الشديدة فاذا بطل العضو الذي من اجله يكون اشتغال النفس بالأصناف الكثيرة من اللذة والألم فباضطرار ان تعلم ان تلك القوى لم تبطل من التركيب فاذا صرفت من وجه فاضت من وجه ولا سيما اذا جمت ونازعت ولا بدَّ اذا زخرت وغزرت وطغت وطمت من ان تفيض او تفتح لنفسها باباً وليس بعد المنكح باب لهُ موقع كموقع المطعم فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكح وما يشتمل عليهِ باب المنكح الى القوة التي عنده للمطعم فاذا اجتمعت القوتان في باب واحد كان ابلغ في حكمه وابعد غاية في سبيله ولذلك صار الخصي آكل من اخيهِ لأمهِ وابيهِ وعلى قدر الاستمراء يكون هضمه وعلى قدر حاجة طبعه وحاجة الحرارة المتولدة عن الحركة يكون الاستمراء لأن الشهوة من اتن ابواب الاستمراء والحركة من اعظم الحرارة ودوام الأكل في الاناث اعم منهُ في الذكور وكذلك النساء في البيوت دون الرجال وما اشك ان الرجل يأكل في المجلس الواحد ما لا تأكل المرأة ولكنها تستوفي ذلك المقدار وتربي عليه مقطَّعاً غير منظوم وهي بدوام ذلك منها يكون حاصل طعامها اكثر وهنَّ يناسبنَ الصبيان في هذا الوجه لأن طبع الصبي سريع الهضم سريع الكلب قصير مدة الأكل قليل مقدار الطعم فللمرأة كثرة معاودتها ثم تبين بكثرة مقدار المأكول فيصير للخصي نصيبان نصيبه من شبه النساء ثم اجتماع قوى شهوتيه في باب واحد اعني شهوة المنكح التي تحولت وشهوة المطعم

ويعرض للأنسان عند قطع ذلك العضو تغير الصوت حتى لا يخفى على من سمعه من غير ان يرى صاحبه انهُ خصيٌّ وان كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام اخاه او ابن عمه او بعض اترابه من خولة جنسه. ومتى خصي قبل الانبات لم ينبت واذا خصي بعد استحكام نبات الشعر في مواضعه تساقط كله الاَّ شعر العانة فأنهُ وان نقص من غلظه ومقدار عدده فأن الباقي كثير ولا يعرض ذلك لشعر الرأس. فأن شعر الرأس والحاجبين واشفار العينين يكون مع الولادة وانما يعرض لما يتولد من فضول البدن وتكون مقاطع شعر رأسه ومنتهى حدود قصاصه كمقاطع شعر المرأة ومنتهى قصاصها. ثم يقول والخصيان مع جودة آلاتهم ووقارة طبائعهم في معرفة ابواب الخدمة وفي استواء حالهم في باب

(١) اليس في ذلك ما يشير الى مذهب فرويد (٢) التنمص نتف الشعر في سبيل الزينة على ما تفعل النساء الآن بحواجبهن

المعاطاة لم نرَ احداً منهم قط نفذ في صناعة تنسب الى بعض المشقة وتضاف الى شيء من الحكمة مما يعرف ببعد الروية والغوص بادامة الفكرة الاّ ان الخصي من صباه يحسن صنعة الدبوق ويجيد دعاءَ الحمام الضواري وما شئت من صغار الصناعات. ورأيت ان الخصاء جذب الخصي الى حب الحمام وعمل التكاك والهراش بالديوك وهذا شيء لم يجر منهُ على عرق وانما قاده اليه قطع ذلك العضو وتعرض للخصي سرعة الدمعة وذلك من عادة طبائع الصبيان ثم النساء فانهُ ليس بعد الصبيان اغزر دمعة من النساء وكفاك بالشيوخ الهرمين ويعرض للخصي العبث واللعب بالطير وما اشبه ذلك من اخلاق النساء وهو من اخلاق الصبيان أيضاً ويعرض لهُ الشره عند الطعام والبخل عليه والشح العام في كل شيء وذلك من اخلاق الصبيان قال الشاعر

كأن ابا رومان قيساً اذا غدا خصي براذين يقاد رهيص

له معدة لا يشتكي الدهر ضعفها وحنجرة بالدورقين تخوص

ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضا وذلك من اخلاق الصبيان والنساء ويعرض لهُ حب النميمة وضيق الصدر بما اودع من السر وذلك من اخلاق الصبيان والنساء . ومن العجب انهم مع خروجهم من شطر طبائع الرجال الى طبائع النساء لا يعرض لهم التخنث وقد رأيت غير واحد من الاعراب مخنثاً متفككا ومؤنثاً يسيل سيلاً ولم ار خصيًّا قط مخنثاً ولا سمعت به ولا ادري كيف ذلك ولا اعرف المانع منه ولكن كان الامر في ذلك الى ظاهر الرأي ولقد كان ينبغي ان يكون ذلك فيهم عامًّا وما اكثر ما يعرض للخصيان البول في الفراش وغير ذلك ولا سيما اذا بات أحدهم ممتلئاً من النبيذ ويعرض لهم ايضاً حب الشراب والافراط في شهوته وشدة النهم ويعرض للخصي شدة الاستخفاف بمن لم يكن في سلطان عظيم او مال كثير أو جاه عريض

لقد اكثرنا من أقوال الجاحظ أمام الاديب والعالم ولنا في ذلك عدة غايات : أولها لنثبت أن علماء العرب وادباءهم وصفوا ما يعتري الانسان بعد الخصاء من اضطراب حالتيهِ الروحية والجسدية وصفاً مسهباً لا نجد في الكتب المتداولة بين أيدينا ما يماثله ولو اكتفينا بالتلميح الى ذلك تلميحاً بسيطاً لشك الكثيرون في هذه الدعوى ولكان من يناهضها لا من المؤلفين الاجانب فحسب بل من الكتّاب الوطنيين ايضاً . ثانيها لنظهر ان الطريقة المستحدثة في الكتابة العلمية التي وسموها بعناق العلم والادب هي طريقة قديمة جرى عليها الجاحظ وغيره من علماء العرب وذلك لانهم تذوّقوا الادب والعلم معاً. على ان اكثر أدبائنا كما يقول العالم والاديب اسماعيل مظهر لم يتذوّقوا العلم ومعظم علمائنا لم يتذوّقوا الأدب في الغالب . ثالثها لنبين ان مذهب فرويد ليس من مبتكرات المؤلف المذكور بل قال بهِ الجاحظ من قبل كما أشرنا الى ذلك في هذا المقال

فلو تبصرت أيها القارىء الكريم بعد ذلك في كتب الجاحظ وفي بعض ما نقلته لك من كلامهِ ونقبت عنهُ تنقيباً لرأيت انهُ قد استهلّ بعضه بقوله زعموا فذكر اموراً غريبة رغب في نقلها ليجيء

كتابةُ جامعاً بين الادب والعلم والرواية لم يفرط في شيء مما قيل في عهده وانهُ استهلَّ البعض الآخر بقوله قالوا وكأني بهِ يقصد أموراً لا يبعد وقوعها ويقول لك تارةً ورأينا ويعني بهِ ما اختبره بنفسه

أرجع بك الآن أيها القارىء الكريم بعد ان بينت لك أقوال هذا الامام ونقلت لك ما ذكرهُ عن صلة الخصية بالنشاط والصفات الجنسية الى بعض الطرائق الحديثة وهي تستند كما بينت لك في صدر هذا المقال الى عمل الخصية وأثره في الجسم

﴿ طريقة شتيناخ ﴾ : بحث انسل وبوان منذ ربع قرن عن بناء الخصية النسيجي فوجدا في باطنها خلايا مفرزة خاصة سموها الخلايا الخلالية وقد عرفا ان هذا الافراز يحفز الصفات الشقية الثانوية والغريزة الجنسية على الظهور ثم بحث شتيناخ عن هذا الافراز وأثره في الوجود فاتضحت لهُ حقيقته واطلق اثر اقتناعه بوجود هذا الافراز على الغدة الخلالية اسم غدة البلوغ . ثم نقَّب هذا الاستاذ عن اختبار براون سيكار فلم يجده عارياً عن الصحة . ففكر حينئذٍ في ايجاد وسيلة لايقاظ الغدة المذكورة وتأجيل فسادها الشيخي فوجد ان خير وسيلة لذلك هي قطع الأسهرين[1] لأن قطعهما ينبه العناصر الخلالية ذات الشأن في هذا الافراز ثم جرَّب هذه الطريقة في الكلاب الهرمة فكانت نتائجها حسنة ثم حقق اختباره كثير من الفسيولوجيين وذكر كنود ساند Knud Sand من كوبنهاغن ما طرأ على كلب اجريت لهُ هذه العملية فقال : اخذت كلب حرس عمره اثنتا عشرة سنة وكان نشيطاً قويًّا حتى سنته العاشرة ثم اخذت علائم الهرم تدبُّ فيهِ فصار ضعيفاً هازلاً مغمض العينين كسولاً ، متناثر الشعر ، جاف الجلد ، مجعده وعادت حركاتهُ صعبة لا يمسك بوله وبرازه . ولم يكن لضعف الحيوان من سبب آخر غير هرمه لانهُ كان سليماً من جميع الأمراض العضوية فكان بذلك خير حيوان للاختبار. اجريت العملية لهذا الحيوان وقطع اسهراه فتحسنت حالته بعد اربعة اسابيع وعادت اليهِ قواه الخائرة وشهوته للاستمراء . وكان قد راقب الاستاذ هنسن Hansen هذا الكلب وفحصه قبل العملية ورأى عجزه فكتب عنهُ ما يأتي : لقد تبدَّل طرف (اسم الكلب) تبدلاً عظيماً فصارت نظراتهُ حادة وعيناه يقظتين ونما شعره وعاد دهنيًّا لامعاً وزالت البقع المرد من جسده واصبح جلده ليناً وصار اغتذاؤه طبيعيًّا كأن الحياة قد دبَّ دبيبها فيهِ

وذكر أيضاً فالديمير برغاور (Valdimir Bergauer) نتائج اختباراته في الكلاب الهرمة فكانت مطابقة للاختبار المار الذكر . وكان الكلب المخبور مصاباً بساد[2] مركزي في عينه اليسرى فشفي منه . وقد شاهد هذه الحادثة هارمس (Harms) وشتيناخ (Steinach) ثم اختبر العلماء تأثير هذه العملية في الجرذ . فجاءت النتائج مؤيدة لما تم في الكلاب . ولما تحقق العلماء اثر هذه الطريقة الطيب في الحيوان جربوها في الانسان ولكنهم لم يحصلوا على نتائج مشجعة . وقد شاهد ليختنشتين Licktenstein بعض آثار التفتية في ثلاثةٍ من مبضوعيه [للبحث تتمة]

---

(١) تأويل Canal déférent (٢) تأويل Cataracte

الفارابي

احوال العصر العامة — حياته وأخلاقه —

كتبه ، اسلوبه ، قيمة كتاباته

لاديب عباسي

أحوال العصر

عاش الفارابي في القرن الرابع الهجري ، وهو عصر لا تميّزه من الوجهة السياسية ما ثرة ، فهو حلقة من تلك السلسلة الواهنة من تاريخ الاسلام التي يمسك طرفها الواحد الخليفة المتوكل وطرفها الآخر هولاكو . غير انهُ لابدّ من الاشارة الى ان هذا الوهن كان على اشدّه في هذه الفترة من تاريخ الاسلام . وقد تألّبت شتى العناصر على إحداث هذا الوهن والاضطراب . فالخليفة امسى ولا شأن لهُ في الخلافة الاّ شرف الانتساب اليها ، ونيط بهِ بدل شؤون الخلافة الخطيرة يديرها ، تصدّر الاحتفالات والقيام بالصلوات وخلافها من الشؤون الثانوية . ولم تأت سنة ثلاثمائة واربع وثلاثين حتى كان ضعف الخلفاء قد بلغ مداه الأبعد ، فتمّ لآل بويه ان يؤسسوا في بغداد ملكاً لهم منهُ جسمهُ وللخليفة رسمه فقط . ثم لقد كان القرن الرابع الهجري قرن ظفر للروم بينما كانت الدول الاسلامية تمزقها مطامع الأمراء والقوّاد فكان هذا — مضافاً الى ضعف الخلفاء — من أدعى الاسباب في تقويض بنيان الامبراطورية الاسلامية . ومما يزيد الباحث شعوراً بفساد الحياة السياسية اذ ذاك هذه الجمعيات الهدّامة التي امتدّ شرّها الى اكثر انحاء العالم الاسلامي ، كالاسماعيلية والحشاشين والقرامطة ، خصوصاً هؤلاء الأخيرين الذين ظلوا زهاء قرن ينشرون الرعب والتدمير اينما حلّوا وحيثما توجهوا

وفي الناحية الاقتصادية يلحظ المتتبع لاحوال العصر مثل ما يلحظهُ في الناحية السياسية ، وهناً على وهن وسوءًا الى سوء . ولا عجب ان تكون هذه حال العصر ، فالامن غدا والعدم سواء لذهاب هيبة الحكومة وانصراف اولي الشأن الى قمع الفتن ومشاغلة شتى الخصوم في الداخل . والسلم لم يكن اسعدَ حالاً ، فان هذا العصر — كما اسلفنا — كان عصر ظفر للروم ، كثرت فيهِ مغازي الافرنج وغاراتهم على البلاد الاسلامية مما لم يدع للسلم سبيلاً . والعدل كذلك آل الى اسوأ الدرك لاستبداد الامراء بالأمر دون الخلفاء واسرافهم في تحميل العامّة ما لا قبل لهم به . كل هذا وخلافه قسّم المجتمع الاسلامي الى قسمين : قسم تكاد تقتله التخمة وقسم تكاد تفنيه المجاعات . ومما زاد

الشؤون الاقتصادية سوءًا ما حدث من انسلاخ كثير من الولايات من جسم الامبراطورية الاسلامية فقلّت بذلك موارد الخزينة واضطرّا الخلفاء والامراء ، سدًّا للعجز، الى فرض الضرائب الباهظة على الفلاحين مما اثقل كاهلهم ودفع بالكثيرين منهم الى احضان الثورة على الحاكمين . وفي رأي كثيرين من المؤرخين ان ثورة القرامطة كانت ثورة اقتصادية قبل ان تكون شيئًا آخر . ويؤيد هذا الرأي ان السواد الاعظم من القرامطة كانوا من فلاحي العراق الذين ارهقهم عسف الحكام واضطرهم الى الثورة وامتشاق الحسام

وامتدّ الفساد في نواحٍ اخرى من شؤون الاجتماع، ولم يسلم على هذا الفساد الاّ الناحية العقلية، على الرغم مما كان من اغراء شديد بالفلاسفة والمفكرين ، وظلّ درس الفلسفة في بغداد والبصرة وخلافهما من الحواضر الاسلامية حيًّا نامياً يؤتي اكله الشهي الحين بعد الحين

واهم مصادر الفكر الاسلامي في هذا العصر كانت الافلاطونية الحديثة والفلسفة الفيثاغورية ومذهب وحدة الكون (البانثيزم) وفلسفة افلاطون وارسطو والزرداشدية واليهودية والمسيحية وغيرها من المذاهب الشرقية . واشهر من تأثر بهذه المذاهب الفلسفية والدينية هم الشيعة ومن جرى مجراهم كالاسماعيلية والفاطميين والقرامطة والحشاشين واخوان الصفا . فنظرية الحلول عند الشيعة ومن ذهب مذهبهم مقتبسة من الافلاطونية الحديثة لتفسير نظرية الامام المنتظر، وفلسفة فيثاغورس تشغل القسم الاول من رسائل اخوان الصفا ، وارسطو يشغل قسماً آخر منها ، والمدينة الفاضلة للفارابي تأثر بها مؤلفها بعض الشيء جمهورية افلاطون ، ومذهب وحدة الكون يظهر في آثار الفارابي اجمالاً وفي شطرٍ كبيرمن رسائل اخوان الصفا وفي مذاهب الاسماعيلية والفاطميين والحشاشين

وقد اماز هذا العصر عن غيره ظاهرتان عامتان كل العموم، وهما شيوع الجمعيات السرية الفلسفية وذيوع النزعة « الانسكلوبيدية » بين المفكرين . فمؤلفات الفارابي وابن سينا واخوان الصفا ، والجمعيات الفلسفية والفلسفية السياسية كجمعيات اخوان الصفا والاسماعيلية والحشاشين هي اوضح دليل على تفشّي هاتين النزعتين وتمكّنهما من نفوس القوم يومئذٍ . وذلك — في رأينا — ناشئ من التضييق على الفلسفة اشدّ الضيق حتى اضحت كتبها من الندرة بحيث لا تطولها ايدي جميع الراغبين فيها ، فقام الفارابي وابن سينا واخوان الصفا وامثالهم وجمعوا للناس اشتات العلوم والمعارف على نحوٍ قريب من دوائر المعارف والموسوعات الحديثة ، فسدّوا بذلك حاجة العصر وسهّلوا على الدارسين دراسة الفلسفة والعلوم والفنون . ولم يستطع الفلاسفة والجامعون ان يقوموا باعمالهم من دراسة وجمع وتأليف الاّ بالتكتّم الشديد ، فنشأت هذه الجمعيات السرية التي نقرأ اخبارها معجبين بما كانت تصرفه من جهدٍ وتبذله من اخلاص في دراسة الفلسفة وتيسيرها للدارسين

في مثل هذه البيئة الاجتماعية والفكرية نشأ الفارابي . وسوف نرى عند تحليل فلسفة الفارابي ان قد كان لعناصر هذه البيئة آثار ملحوظة في فلسفته وفي نسق تفكيره

حياة الفارابي واخلاقه

هو ابو نصر محمد بن اوزلغ بن طرخان من مدينة فاراب . ولد في عائلة تركية اواخر القرن التاسع الميلادي في بلدة واصدي من اعمال فاراب ، وهي ولاية تركية في خراسان . ويقال ان والده كان قائداً من قواد الجيش . والراجح انهُ من عائلة تركية مع ان كثيراً من المؤرخين يلحقونهُ بالامة الفارسية

والفارابي — ككثير من العصاميين — لايعرف تاريخ ولادتهِ بالضبط ولا الاحوال التي مرّت عليهِ في طفولته وشبابه. وقد توفي عن ثمانين سنة او ما هو دونها (سنة ٩٥٠ ميلادية) ويدلك على انهُ بلغ هذا العمر او ما يقاربهُ انتلميذه ابا زكريا يحيي توفي عام ٩٧١ ميلادية عن ٨١ سنة اي انالفارابي حينما توفي كان عمر تلميذه نحو ستين سنة . وهذا يعني — في الراجح — ان الفارابي كان اكبر منهُ بعشرين سنة . وهي نسبة معقولة بينسن المعلم وتلميذه .على ان هذا لا يعدو باب الترجيح والاحتمال، اذ ليس بعيداً ان يكون الفارابي وتلميذه من سن واحدة

والذي يعلم علم اليقين من حياة الفارابي انه رحل في صباه عن مسقط رأسه الى بغداد، مدينة العلم والنور اذ ذاك ، ودرس فيها على الطبيب يوحنا بن حيلان . واشتمل تعليمه هناك على الادب والرياضيات واللغات . وقد نسب اليهِ اهل زمانه الألمام بجميع لغات العالم ، على انهُ لم يقم على هذا الزعم دليل . بيد انهُ يتضح من كتبه انهُ كان يعرف التركية جيداً ويعرف اليونانية بعض المعرفة . وقبل ان يدرس الفارابي على يوحنا بن حيلان كان قد تتلمذ لابي بشر يونس الحكيم المشهور ، وهو شيخ كبير . وكان الناس يقرأون على هذا الاخير كتب ارسطو في المنطق ويستملونه شروحه عليها . ذلك انهُ كان يستعمل في تصانيفه وطريقة شرحه ، البسط والتدليل حتى قال بعض علماء هذا الفن : « ما أرى ابا نصر الفارابي اخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة الاّ من ابي بشر» . وكان الفارابي يجتمع ايضاً بأبي بكر السراج في بغداد ، فيقرأ عليهِ المنطق . ويقال ان كتاب النفس لأرسطو وجد وعليهِ بخط الفارابي « اني قرأت هذا الكتاب مائة مرة » . ونقل عن الفارابي ايضاً قوله : « قرأت السماع الطبيعي لأرسطو الحكيم اربعين مرة وارى اني محتاج الى معاودة قراءته » ويروى عنهُ انهُ سئل : من اعلم انت ام ارسطو ؟ فأجاب : لو ادركته لكنت اكبر تلاميذه . يريد انهُ كان لا يفارقه ولا يرى انهُ يستطيع الاستغناء عنه مهما تقدمت بهِ سنه وسما علمه

ولم يزل ابو نصر في بغداد مكبًّا على الدرس والتحصيل الى ان برّز في جميع العلوم . وفي بغداد ألّف معظم كتبه ، واكثرها شرحٌ لكتب ارسطو . ومن هنا دعاه العرب المعلم الثاني

ثم انتقل الفارابي من بغداد الى حلب لفتنة حدثت هناك ، والحقه سيف الدولة برهط الادباء والفلاسفة الذين كانوا ينوّ رون بلاطه ويكسون مجتمعات القصر حللاً زاهية من مختار القول ومصطفى

الفكر ، وظلَّ يعيش هناك عيشة الزهد والتقشف الى ان وافاه اجله المحتوم في دمشق . وقد مكث الفارابي بقية حياتهِ في حلب مكرَّماً معززاً . وذلك ان سيف الدولة كان الى اجلاله للعلم وحدبه على الأدب شيعيًّا كالفارابي الذي كان شيعيًّا ايضاً. ويدلك على مكانة الفارابي عند الامير انهُ لما توفى قام سيف الدولة في مسوح الصوف خطيباً على منبره

ويؤثر عن الفارابي الهدوء والانصراف الشديد الى العلم دون غيره من شهوات النفس . ويذكر المؤرخون انهُ لم يكن يتناول من سيف الدولة الاّ اربعة دراهم في اليوم ، وهذا لم يكن شحًّا من سيف الدولة انما كان استجابة رغبة الفارابي نفسه عن اعراض الدنيا . ولم يكن الفارابي يعتني بهيئته ، وكان لباسه لباس الصوفية الخشن . ويدلك على عفة الفارابي عما يتهالك عليه الناس من حطام الدنيا واعراضها أبيات أثبتها له ابن أصيبعة قال فيها :

لما رأيت الزمان نكساً وليس في الصحبة انتفاع
لزمت بيتي وصنت عرضاً له من العزَّة اقتناع
اشرب مما اقتنيت راحاً لها على راحتي شعاع
واجتني من حديث قوم قد اقفرت منهم البقاع

وقد اورد له المؤرخون غير هذا المقطع من الشعر ، وكلها على العموم ، لا تنطوي على كبير شاعرية الاّ انها في معظم الاحوال ناطقة بمتانة خلقه وسمو نفسه

وروي عن الفارابي اخبار كثيرة أحقُّ بالخرافة منها بالواقع : منها انهُ حضر ذات يوم مجلساً لسيف الدولة ولعب على آلة موسيقية معه ، فبكى كل الحاضرين . ثم فكها ولعب عليها لحناً آخر فضحك جميع الحاضرين . ثم فكها وركبها من جديد ولعب عليها لحناً ثالث ، فقام عليهِ الجميع

كتب الفارابي

﴿ أسلوبه — قيمة كتاباته ﴾ الكتب التي ألفها الفارابي تربي على المائة كتاب . والترتيب التاريخي الذي تعاقبت عليهِ هذه الكتب غير معروف تماماً . ولكن الراجح ان كتبه التي كتبها وهو تحت تأثير المتكلمين « Dialectics » والطبيعيين «Naturalists» من الفلاسفة كانت اسبق كتبه الى الظهور . أما كتبه التي يظهر فيها نضوج الفكر فيرجح انها كتبت في زمنٍ متأخر ، وهي الكتب التي لقب من أجلها بالمعلم الثاني ، وجلها شروح لمنطق ارسطو وفلسفته في السياسة وما وراء الطبيعة . وكتبه ، على العموم ، تقع في ثلاثة أقسام : الكتب المنطقية ، وكتب ما وراء الطبيعة ، وكتب الفلسفة العملية — أي فلسفة الأخلاق والسياسة . واكثرها محفوظ في المكاتب الاوربية . ومن هذه الكتب المطبوع باللغات الافرنجية ومنها المطبوع باللغة العربية ، ومنها

لا يزال مخطوطاً . ومن أشهر كتبه ما يلي :

١ — التوفيق بين رأيي الحكيمين ، افلاطون وارسطو

٢ — فيما ينبغي الاطلاع عليهِ قبل قراءة فلسفة ارسطو

٣ — رسالة في ماهية الروح

٤ — آراء أهل المدينة الفاضلة

٥ — رسالة في المنطق (خطية) في اوربا

٦ — رسالة في القياس

٧ — احصاء العلوم (خطية)

٨ — السياسة المدنية

٩ — مجموعات كتب في موضوعات متفرّقة

ومن اهم ما صنّفهُ الفارابي ويذكر له مع الشكر والتقدير كتابهُ في احصاء العلوم والتعريف باغراضها وقد قسَّم الفارابي العلوم في هذا الكتاب المختصر الى ستة فروع : ١ —علوم اللغة : ٢— علم المنطق : ٣ — الرياضيات : ٤ — العلوم الطبيعية : ٥ — العلوم المدنية : ٦ — علم الكلام وما وراء الطبيعة . وهذا التقسيم قريب من التصنيف الحديث للعلوم والفنون

ويذكر المرحوم جرجي زيدان ان الفارابي كتب كتاباً في الاقتصاد السياسي سبق فيهِ جميع علماء الغرب الى هذا البحث الجليل

***

هــذا من حيث مادة الكتب التي صنفها الفارابي ، اما اسلوبه فيعتوره شيءٌ من التناقض والارتباك في كثير من الاحيان . على ان عبارته عربية لا غبار عليها ، انما يؤخذ عليهِ كثرة الترادف المعنوي مما ينأى بهِ احياناً كثيرة عن الدقة الفلسفية ويحمله على التوسُّع في المعاني . ومن خصائص اسلوب الفارابي ايضاً طول العبارة وكثرة المعترضات .على أن هذا ليس مما انفرد به الفارابي دون غيره من الفلاسفة . والواقع ان طول الجملة وكثرة الاعتراض ضرورتان تلازمان الكتابات الفلسفية والعلمية في اللغة العربية واللغات الاجنبية على السواء . وذلك ان بسط الفكرة العلمية او الفلسفية الدقيقة يقتضي الكاتب ، في كثير من الاحوال ، تطويل العبارة وايراد المعترضات موارد عديدة من الجمل

ويصطنع الفارابي في بعض الاوقات صيغاً وتعابير غير فصيحة كبنائه الفعل للمجهول مع

ايراد الفاعل مجروراً بحرف الجر او الاضافة . وهذا لا شك راجع الى دراساته في اللغات الاجنبية وتأثره باساليبها

وقد كلّف الفارابي نفسه فوق وسعها في محاولة التوفيق بين الفلسفة والقرآن من جهة وبين افلاطون وارسطو من جهة اخرى ، فجاء كثير من كتبه مضطرباً متناقضاً وفي كثير من الاقتسار والتعقيد . يقول ماكدونالد : « في الحق ان النظام الذي تسلّمهُ الفارابي كان نظاماً معقداً . ولم يكن هذا النظام اقل تعقيداً من النظام الذي خلّفه هو . ان فلاسفة المسلمين ابتدأوا فلسفتهم بما يأتي : القرآن حق والفلسفة حق ، ولكن الحق واحد « لا يتجزَّأ » ، لهذا وجب ان يتفق القرآن والفلسفة » . وقد كان ايمان الفارابي بافلاطون وارسطو ايماناً لاحدّ له مما جعله يقبل قضاياها وفروضها الفلسفية من دون مناقشة ولاحساب . وهذا في الحق من اكبر عيوب الفلسفة العربية ومن آكد الاسباب في وقوفها عند حد الاحتذاء والتقليد دون ان تتعدّى ذلك الاّ في القليل الاقل . ودليلنا على ذلك من الفارابي ما أوردناه له من قوله انه قرأ كتاباً لارسطو مائة مرة وكتاباً آخر اربعين مرة وهو لم يزل في حاجة الى معاودة قراءتها !! و يروى مثل هذا القول عن ابن سينا ايضاً . وقد أخذ الفارابي على نفسه فضلاً عن شرح الفلسفة اليونانية — التوفيق بين فلسفتي افلاطون وارسطو ، وجاهد في ذلك جهاد الجبابرة حقّـاً ، ولكنهُ في ذلك كله كان ادنى الى الخيبة منه الى النجاح . وذلك ان افلاطون غير ارسطو وارسطو غير افلاطون ، وكل سعي للتوفيق بين الاثنين هذا نصيبه . وقد كان الفارابي يلقب افلاطون وارسطو بالامامين ويقول ان اتباعهما اولى من اتباع امام واحد . وذلك — في رأيه — ان الثقتين اذا اتفقا على امرٍ فحكمهما اصح واولى ان يُتَّبع ، والشاهد الواحد يجوز الشك في شهادته ، اما الشاهدان الثقتان فلا يصح الشك في شهادتهما . بل لقد ذهب الفارابي الى ابعد من هذا المذهب في تقدير الفلسفة اليونانية ممثَّلة في أيمّتها ، فكان يقول ان الفلاسفة القدماء هم على العموم انبياء يصلح اطلاق لفظ الامامة عليهم فيقال : الامام فيثاغورس والامام افلاطون والامام ارسطو كما يقال الامام علي والامام الحسن والامام الحسين . والكتب التي ألفها الفارابي في محاولة التوفيق بين آراء الفلاسفة القدماء عديدة ، منها كتاب التوفيق بين افلاطون وارسطو ، والوسيط بين ارسطو وجالينوس ، ومقاصد ارسطو وافلاطون وخلافها . وجميع هذه الكتب تشهد على مقدار ما عاناهُ الفارابي في محاولة التوفيق بين آراء الفلاسفة اليونان . وهذا المسلك الوعر الذي سلكه الفارابي كان من اهم الاسباب في التناقض والاضطراب اللذين يكتنفان فلسفتهُ في كثير من المواطن [1]

(١) — سنعمد في مقال تال الى تحليل نواحٍ من فلسفة الفارابي في بعض شؤون الاجتماع والنفس وفي فلسفة التكوين والاخلاق

سرُّ النواة

العلماء يفتتحون المعقل عنوةً

ليس تشبيهُ نواة الذرّة بالمعقل الحصين تشبيهاً مبتدعاً . فقد اشرنا اليهِ في المقتطف مراراً وعقدنا لهُ فصلاً في كتابنا « فتوحات العلم الحديث » متأثرين بذلك علماءَ الغرب الاعلام . ولكنهُ على كل حالٍ تشبيه مفيد ، لانهُ يقرّب مكان النواة في الذرّة من الاذهان. فاذا اعتبرنا الذرّة الكاملة حصناً كانت الكهارب اشبه ما يكون بالقلاع والطوابي الخارجية ، وكانت النواة بمثابة قلب الحصن او معقله المركزي . فلما تهاوت القلاع الخارجية بين ايدي العلماءِ — اي لما علموا كثيراً مما يريدون ان يعلموهُ عن طبيعة الكهارب — وجّهوا قواهم الى قلب الحصن يبغون افتتاحه ، والجوس خلاله ، لانهم عرفوا بالتجربة والامتحان ، ان سرّ المادة فيهِ ، بل وسرّ الطاقة كذلك ، وفي ما يلي بيان موجز لما احرزوا من النصر في هذه الحرب العلمية

منشأ البحث

كان لا بدَّ للعلم من بصر شديد الثقوب، لكي يتبيّن « الذرّة » في كتل المادة المتنوعة الاشكال. ولكن علم الطبيعة الحديث امدَّ ابناءَهُ ببصر يخترق الذرّة ، ويكتشف العناصر التي تتركب منها ، وتصرُّف بعضها. والرأي الحديث ان الذرّة اشبه ما يكون بنواة صلدة مندمجة تحيط بها طبقة هشّة. فالذرّة من هذا القبيل ، كالخوخة . فنواة الخوخة تقابل نواة الذرّة . وجسم الخوخة الريان يقابل جوّ الذرة الكهربائي المؤلف من كهارب ومجال كهرطيسي

كان العالم الفرنسي بكرل اول من عني بنواة الذرة . وذلك في سنة ١٨٩٦ . ولكن رذرفورد كان اول عالِمٍ تصوّر الصورة الحديثة السائدة للذرّة وبناءها . على ان الصورة التي تصوّرها رذرفورد لم تكن حزراً اطلقهُ في الظلام ، يصيب بهِ اذا كان موفقاً ولا يصيب اذا اخطأه التوفيق. ولكنها كانت مبنية على النتائج التي اسفرت عنها تجاربهُ العديدة الدقيقة . كان بكرل قد اكتشف ظاهرة الاشعاع ، فعنيت بها مدام كوري وزوجها ، ووسّعا نطاقها وبوجهٍ خاص بعد ما كشف الراديوم . واثبت رذرفورد في سنة ١٩١١ وبضع السنوات التي تلتها ، ان الاشعة المنطلقة من الراديوم وغيره من المواد المشعة ، انما تنطلق من نواة الذرّة لا من جوّها الخارجي . فلما ثبت ذلك اصبحت

خواص هذه الاشعة — طبيعتها وقوتها وسرعتها — اشبه بالرسل تحمل انباءً عن المصدر الذي انطلقت منهُ

وقد دلّت البحوث الطبيعية ان هناك ثلاثة ضروب من الاشعة . اشعة موجبة تدعى دقائق الفا . واشعة سالبة تدعى دقائق بيتا . واشعة لا هي موجبة ولاسالبة بل من قبيل الاشعة السينية (اشعة اكس) تدعى اشعة غمّا . فالاولى تنطلق بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية . والثانية تسير بسرعة الاشعة السينية اي سرعة الضوء ولكن لا تبلغها تماماً . والثالثة تسير بسرعة الضوء اي بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية

وعند التعمق في البحث ظهر ان دقائق الفا هي نوى ذرّات الهليوم . وان دقائق بيتا هي الكهارب والعجيب في كل هذا ان نوى الذرّات نفسها تبرعت بهذه الحقائق للعلماء اي انها اطلعتهم على انها مؤلفة من كهارب ودقائق الفا . ولكن البحث لم يقف عند هذا الحدّ . ففي تلك الآونة عني السرجوزف طمسن والاستاذ أستُنْ بوزن الذرّات بطريقة عجيبة . وكان رذرفورد قد اثبت ان وزن الكهارب شيءٌ لا يعتدُّ بهِ في وزن الذرّات . فكأنَّ طمسن وأستن كانا يزنان نوى الذرّات فعلاً اذ كانا يزنان الذرّات . فلما عرفت اوزان النوى ، اصبح في وسع البحّاث ان يعلموا هل النوى مؤلفة من دقائق الفا وكهارب دون اي شيءٍ آخر . ولكن ذلك لم يكن في البدءِ مستطاعاً لان جدول الاوزان الذرية الكيمائية يعين لذرة الهليوم وزن ٤ حالة ان هناك ذرّات وزنها واحد ، او ٦ او ٧ او ٩ . فكيف يمكن ان تتألف هذه الذرّات من وحدةٍ وزنها ٤ على القياس نفسه ، واذن لا بدَّ من وحدةٍ يكون وزنها رُبع وزن دقيقة الفا اي واحد ، لتكون اساساً لبناء نوى الذرّات جميعاً

هذه الوحدة هي نواة ذرّة الايدروجين المعروفة باسم « بروتون » Proton ولما كانت دقيقة الفا (أو نواة ذرة الهليوم) تزن أربعة أضعاف وزن البروتون ، بل لما كانت نوى العناصر المختلفة ليست الاّ أرقاماً مضاعفة للرقم واحد — وهو وزن البروتون — كان من الطبيعي ان يعتقد علماءُ الطبيعة ان نوى الذرّات مركبة من بروتونات وكهارب ليس الاّ . ولكن الامتحان يدل على أن دقائق الفا تدخل في تركيب نوى بعض العناصر . لذلك اعتقد العلماءُ ان البروتونات تنحشك أحياناً فيتألف من انحشاك اربعة منها ، دقيقة الفا واحدة

بيد ان هذا كلهُ جاءَ عن طريق الاستنتاج ، ولم يقم عليهِ دليل علميٌّ تجريبيٌّ واحد . ذلك ان ذرات العناصر المشعّة ، لم تطلق في خلال اشعاعها الذاتيّ ، بروتوناً واحداً . ومما جعل هذا البحث محدوداً مقيداً ، ان الوسائل التي توسل بها العلماء حتى ذلك الوقت ، لتهشيم الذرّة اخفقت جميعها . فالاشعة المنطلقة من المواد المشعة لم تخضع لاي فاعل من فواعل الطبيعة التي في متناول البحاث كالحرارة والبرد والضغط ، ولذلك عجزوا عن حمل نواة الذرّة على البوح باسرار تركيبها

ولكن في سنة ١٩١٩ ابتدع رذرفورد طريقة عجيبة تمكنهُ من ذلك . فبيّن انهُ متى استعمل

دقائق الفا المطلقة من الراديوم ، كمقذوفات أو قنابل يطلقها على ذرّات النتروجين ، أصاب بعض قنابله نوى بعض ذرّات النتروجين وقذف منها بروتونات مفردة ، هي نفس البروتونات التي تصوّر العلماء أنها الوحدة الاساسية في بناء نوى الذرّات . وكذلك أصبح رذرفورد العالم الاول في التاريخ الذي استطاع ان يحوّل العناصر ، لأن انطلاق بروتون واحد من نواة ذرّة النتروجين جعل النتروجين عنصراً آخر

ومما كان يقيم الصعاب في وجه علماء يجربون تجارب من هذا القبيل ، ان عدداً يسيراً جدًّا من المقذوفات التي يطلقها العالم ، يصيب احدى الذرات المقصودة ويفوز بتهشيم نواتها . فقد يطلق العالم ما متوسطهُ ٥٠ الف مقذوفة على طائفة كبيرة من الذرّات قبل ان يفوز باصابة احداها وتهشيمها. أما الصعوبة الثانية فهي أن الراديوم — مصدر هذه المقذوفات اي دقائق الفا — عنصر نادر ثمين وما حضّر منهُ يعدّ بالغرامات . لذلك تعذَّر التوسع في اجراء التجارت التي قبيل تجربة رذرفورد المتقدمة

الجسيمات الجديدة

ثم انقضى ما يزيد على عشر سنوات والعلماء يعتقدون انوحدات المادة الاساسية هي الكهارب والبروتونات . ولكن في سنة ١٩٣١ اكتشفت وحدة أساسية جديدة هي «النوترون» — المحايدة أو المحايد — فبدا للعلماء عند اكتشافها ان قصة الذرّة ونواتها لم تتمَّ . ذلك ان الاستاذ شدِك وهو من أعوان رذرفورد ، تبيّن نوعاً جديداً من الأشعة منطلقاً من نوى الذرات . فقد وجد ان هذا النوع الجديد من الاشعاع ينطلق من ذرات بعض العناصر الخفيفة مثل عناصر البريليوم عند ما تقذف بدقائق الفا . وأشعة النوترون هي في الواقع دقائق او جسيمات . ولكنها دقائق غير مكهربة ،مثل دقائق الفا أو مثل دقائق بيتا . هي محايدة الكهربائية ، أي لا هي سالبة ولا هي موجبة ولذلك دعيت « نوترونات » أي « الجسيمات المحايدة »

وفي سنة ١٩٣٢ اكتشف الاستاذ اندرسن احد اعوان ملكن في باسادينا بكاليفورنيا ضرباً آخر من الاشعاع ينقذف من نوى الذرّات عند ما تصدمها الأشعة الكونية . ثم ثبت حديثاً ان بعض المواد المشعة تقذف مثل هذه الدقائق ايضاً . ووحدة هذه الدقائق لا تختلف عن الكهرب في شيء الاّ في شحنتها الكهربائية . فالكهرب سالب الكهربائية ، ووحدة هذه الدقائق موجبة الكهربائية ، ولذلك دعيت الكهرب الموجب او البوزيترون

وكذلك نرى انهُ يجب علينا ان ننقح قائمة اللبنات التي تبنى منها الاجسام المادية . كنا قبلاً نعتقد ان هذه اللبنات تقتصر على الكهارب والبروتونات فأصبحنا نرى انها كهارب وبروتونات ونوترونات وبوزيترونات . فهذه المكتشفات الجديدة غلبت الطبيعي على امره ، في محاولتهِ ان يجعل

لبنات الكون الاساسية ، صنفين بسيطين من الدقائق. ولكن بعد البحث ثبت ان البروتون ليس وحدة نهائية ، بل هو مؤلف من نوترون وبوزيترون . واذن فلبنات الكون الاساسية هي ثلاث الآن — اي الالكترون (سالب) والبوزيترون (موجب) والنترون (محايد)

اطلاق طاقة الذرة

والبحث متجه الآن الى معرفة ترتيب هذه الدقائق في بناء النوى . والطريقة التي يعمد اليها العلماء هي الطريقة الساذجة التي عمد اليها رذرفورد اولاً ، اي تحطيم الاشياء وتهشيمها لمعرفة سرّ تركيبها

ولكن الوسيلة تغيَّرت. فقد كان رذرفورد يحتاج الى دقائق الفا لتهشيم نواة النتروجين . ودقائق الفا كما قلنا عزيزة المنال ، لان مصدرها نادر ثمين . بيد ان علماء اليوم قد بنوا اجهزةً كهربائية قوية الضغط الكهربائي ، يستطيعون ان يسرعوا بها ، نوى الايدروجين (البروتونات) ونوى الهليوم (الهليومات او دقائق الفا) ثم يستعملونها كمقذوفات يطلقونها على الذرّات التي يريدون تهشيمها

خذ مثلاً على ذلك ما فعله كوكروفت Cockroft وولطن Walton وهما من اعوان رذرفورد ايضاً فإنهما بنيا جهازاً كهربائيًّا يمكنهما من اسراع البروتونات اسراعاً عظيماً . ثم اطلقوها على قطعة من عنصر الليثيوم . والليثيوم عنصر مركب من نوعين من الذرات (اي لهُ نظيران 2 isotopes) نوع وزنهُ ٦ ونوع وزنهُ ٧ في جدول الاوزان الذرية الكيمائي . وفي خلال هذه التجربة لاحظا ان الليثيوم يطلق اشعةً اعظم طاقة من البروتونات المسدّدة اليهِ . وبعد البحث ثبت ان هذه الاشعة العظيمة الطاقة ، المنطلقة من الليثيوم مؤلفة من هليومات او دقائق الفا (اي نوى ذرات الهليوم) وبعد موالاة التجربة ثبت ان هذه الدقائق تنطلق من الليثيوم ازواجاً وان طاقة حركتها تعدل ١٥ مليون ڤولط — هذه حقائق جديدة تنطوي على مغزًى عظيم

ويظنُّ ان ما يحدث في هذه التجربة كما يلي : يصطدم بروتون احياناً بنواة ذرة ليثيوم من الوزن ٧ . فيحدث تفاعل داخلي تتحوَّل فيهِ النواة بعد ان يلتصق بها البروتون المقذوف عليها ، الى دقيقتين من دقائق الفا . ثم ان هذه الدقائق تنطلق بطاقة اعظم جدًّا من الطاقة اطلقت بها البروتونات على النواة . واذن فالطاقة الكامنة في الذرّة قد انطلقت من عقالها في هذه التجربة البسيطة

ولا يخفى ان الطاقة الكامنة في الذرة عظيمة جدًّا ، حتى لقد قيل انهُ اذا استطعنا اطلاقها من عقالها ، لكفتنا الطاقة الكامنة في ذرات كوب من الماء ، لتسيير باخرة كبيرة بين اوربا واميركا ذهاباً واياباً

لحسن كامل الصيرفي

موت فنانه

رثاء فنّان يموت بينما الافق يردد صدى أغانيه

غِناؤك العَذْبُ في الظلامْ   يرنُّ في مِسْمَعِ الزَّمَنْ
وأنتَ في قبضة الحِمامْ   كالحُلْمِ في قبضة الوَسَنْ

***

أأنتَ يا صامتاً تؤوبْ   أيّامُهُ للمَدَى البعيدْ
الصادحُ المُرْقِصُ القلوبْ   الساحرُ الفاتنُ النشيدْ ؟!

***

أأنت ؟! لا ، أنت غيرُهُ   فأين لي شَدْوُكَ الجميلْ
قد فارَق العُشَّ طيرُهُ   وهامَ كالحائر الضَّلُولْ

***

كم خيَّمَ الحزنُ في رحابكْ   ونامَ في ساحِكَ الرَّنينْ
تمزِّقُ الليلَ بانتحابِكْ   وترعشُ النجمَ بالأنينْ ؟!

***

يامُغْرِقَ الكونِ في الاغاني   الكونُ يشتاقُ للهزارْ
غرقتَ في لُجَّة الزَّمانِ   فهل تعمَّقتَ للقرارْ ؟

***

هجرتَ الحانَكَ العِذابْ   وعِشْتَ في صَمْتك الحزينْ
تجرع اليأسَ والعَذابْ   وتشربُ السقم والمنونْ

أأنتَ مَنْ حرَّكَ النفوسْ بصوته الساحر الرؤومْ ؟!
أأنتَ من أرقص الكؤوسْ أأنت من أرَّق النجومْ ؟!

***

أأنت ؟! لا ، أنت غيرُهُ فأين لي صوتُكَ الحنونْ ؟
قد بان لِلَّيلِ فجرُهُ وأنتَ مُستَسلِمُ الجفونْ !

***

أصمتُكَ الموحشُ الكئيبْ يا هاتف الأمس سخريهْ
بعالمٍ مغرمٍ يذوبْ على ترانيم أغنيهْ ؟

***

قد غالك السُّقمُ واستبدّ وأنت في ميعة الشبابْ
سلَّمتَ قيثارة الأبد لجاهلٍ لحنُهُ اضطرابْ

***

يطوف في ساحك القدَرْ مجعَّد الجبهة اكتئابا
يضمُّ من كوبكَ الزَّهرْ ويحطمُ الفنَّ والشبابا

***

قد مرّ في صمتك المنون بروحك الحية الصَّدَى
فتّ في الليل ، والسكون يكفكف الطلَّ والنَّدَى

***

غناؤك العذبُ في الظلامْ يرنُّ في مِسمَعِ الزَّمنْ
وأنت في قبضة الحمامْ كالحُلْم في قبضة الوسَنْ

فصلان عراقيان[1]

لامين الريحاني

— ١ —

— وكان الكهان في معبد عِنليل بِأور ونِبور يألهون ملوك سُومِر الدولةِ الاولى في وادي الرافدين (٣٥٠٠ قبل المسيح)

— وما الذي صنع اولئك الملوك والكهان لخير السواد من الناس ؟

— وسرجون الاول ملك أكاد اكتسح السومريين ، وفتح بلادهم ومدَّ ملكه جنوباً الى الخليج ، وشمالاً الى الجبال (٢٧٥٠ ق . م .)

— وما الذي قام بهِ سرجون وخلفاؤه لخير السواد من الناس ؟

— ومن الجبال في الشرق والشمال انحدر بجيشه كدُور ناخُنتا ملك عيلام ، فغزا بلاد سرجون واكتسحها ، وحمل تماثيل آلهتها الكلدانيين الى أشنونا عاصمة عيلام (٢٢٨٦ ق . م .)

— وما الذي صنع كدور هذا وما الذي شاد خلفاؤه العيلاميون لخير السواد من الناس ؟

مدنية القصور والمعابد للملوك والكهان ،

والجهل والفقر والعبودية للسواد من الناس

— وكان كهان عشتروت بنينوه ، وكهان مردوخ ببابل ، يتعطّون السحر والشعوذة ، ويملأون بطونهم من ضحايا الهيكل ، بينما ملوك بابل وآشور يحتربون ويتطاحنون من اجل السيادة والمجد

— السيادة والمجد للكهان والملوك ، والسحر والنير للسواد من الناس

— وحمورابي اول المشترعين ، وآشوربنيبال اول المحبين للعلم والعلماء —

— واحتان في البادية ، مصباحان في الليل الدامس

— وسنحاريب الفاتح ، ونبوخذ نصر المصلح —

— ناهب فينيقية ، ومذلّ اسرائيل

من جبال الشمال تدفق الثتيون ، ومن جبال الشرق انحدر اكزارس يقود جنوده الماديين ، ومن السهول في الجنوب سارع جيش بابل الى نجدة جيش مادي ، وقد حالف النهران المحاصِرين — طغى الفرات ، وطغى دجله

(١) من كتاب « العراق » تأليف الكاتب الكبير امين الريحاني وينتظر صدوره قريباً

طغيان الجيوش الفاتحة — وصاحوا كلهم قائلين : لتسقط نينوه ! سقطت نينوه (٦٢٥ ق . م .) وبعد ست وثمانين سنة (٥٣٩ ق . م .) سقطت بابل

— دول تدول ، ومجد بعد مجد يحول ، مجد سومر وعيلام ، ومجد بابل وآشور . ثم ينتقل صولجان الملك من يد الساميين في وادي الفرات الى يد الآريين من الملوك

— وما الذي صنع الآريون من اجل السواد من الناس ? أفي سبيل المجد تُشيَّد الدول ام في سبيل الانسان ? انهم لظالمون، الساميون والآريون جميعاً . انهم النهابون الفاسقون . شيدوا المعابد والقصور ، وسخّروا لها العباد . ألّهوا انفسهم ، وكانوا قساة عتاة ، وكانوا عبيداً للشهوات

— ومن مهد الثقافة الغربية جاء تلميذ ارسطو ، الشاب العجيب اسكندر المقدوني . اجتاز البحر الى الشاطىء الاسيوي . قاد الوفه الثلاثين ، وكان ظافراً في كل مكان . هزم الفرس في واقعة الغرانيق وفتح فينيقية ، واستولى على مصر ، وتعقب الملك دارا الى بلاد الرافدين ، فأدركه قرب اربيل ، وكانت الوقعة الفاصلة بين الشرق والغرب (٣٣١ ق . م .)

— في اربيل أُبدل نيرٌ من حديد عتيق بنيرٍ من حديد مصقول . راح الفرس وجاء الاغريق

— كان الاسكندر فاتحاً باسم العلم والنور

— كان الاسكندر مصاباً بداء الصرع . غزا الشرق باسم الآلهة،وعاد منهُ ناقماً على الارض والسماء

— ولكنهُ في بابل كان مجدداً

— شاء الاسكندر ان « يُأغرق » العالم ، فكانت بابل النهاية لصرعة — لسكرة — مفجعة ، وكانت النهاية لحلم ذهبي

— قد تحقق قسم من ذلك الحلم ، فبدت بعد الاسكندر دلائل التآخي بين الشرق والغرب بدت ثم رَدَتْ . فقد تغلب البرثيون التورانيون على السلوقيين الاغريق (١٢٦ ق . م.) يوم كان ذلك التآخي في ازدهاره الاول ، فقضوا عليهِ

زُرعتْ بذوره في ارض طيبة في الشرق الادنى

— فجاءت رومة بجيوشها تدوسهُ وتسحقه سحقاً . وما كانت رومة ممن يحلمون الاحلام

— ومع ذلك فقد كان للرومان فضل يذكر في الرقي والعمران

— عمروا المعابد لآلهتهم ، وعبَّدوا الطرق لجيوشهم . وكانت الآلهة ، مثل الجيوش ، تستولي على الشعوب والامم باسم رومه ، ومن اجل رومه ، بل من اجل القياصرة في رومه

— مدنية المعابد والطرقات هي خير من مدنية القصور والمعابد . القصور للملوك والطرقات للملوك والصعاليك

— ولكن السواد من الناس في عهد الرومان كان كالسواد في عهد بابل وآشور — عبيداً للكهان والملوك ، وحطباً للحروب

وما افلح الرومان في وادي الرافدين . بعد مائتي سنة من الاغارات والحروب سلمت رومة الى سلوقية . وما خلا الجو لسلوقية طويلاً . عاد الفرس الى العراق (٢٢٦ ب.م.) فاستولوا عليهِ ، واستمرت فيهِ الدولة الساسانية اربعمائة سنة

— والنزاع بين الشرق والغرب ، ذلك النزاع الذي كاد ينتهي بعد واقعة اربيل ، تحدد بشكل ديني بين المسيحية والوثنية . وما الذي أثمر جدالُ ارباب الدين ، المتنطعين والمتعصبين ، لخير السواد من الناس ، بل لخير الناس جميعاً ؟

وفي ظلمات الجاهلية ، في سماء الحجاز ، سطع نور النبوَّة ، نورُ دينٍ جديد . ومشى المؤمنون مكبرين ، وسلاحهم الاسلام وكلمة التوحيد ، فاجتازوا البوادي الى الارض الخضراء يرومون الفتح لله ، والخلاص للناس . فحملوا على الروم في سورية ، وعلى الفرس في العراق . فكسروا جند هرقل في اليرموك (١٢ هـ ٦٣٤ م) وبددوا جنود فارس في القادسية (١٤هـ ٦٣٦ م) وبعد عشر سنوات من وفاة النبي رُفعت اعلام العرب فوق قصور فارس ، وفوق حصون دولة الروم

— هي نار النزاع بين الشرق والغرب تزداد اضطراماً . وهي كذلك اول شعلة من نزاع يجدّد بين الساميين والآريين ، بين العرب والعجم

— ولكن الاسلام دين التوحيد ، ودين العدل والاخاء والمساواة

— المساواة والاخاء في الحروب بين السنّة والشيعة ! والاخاء والمساواة في الحروب بين التتار والترك والمغول والعرب من السنّيين !

— انما الحكام المسلمون ، وخصوصاً العرب منهم ، يفوقون سواهم في العدل والانصاف ، بل في كرم الاخلاق والمبرّات . فقد كانوا على الاجمال اكثر حلماً وعدلاً من اكثر ملوك الفرنجة

— يصح هذا في الخلفاء الراشدين ، وفي بعض الخلفاء الامويين والعباسيين . اما الدولة العباسية في العراق (١٣٢ — ٦٥٦ هـ ، ٦٢٦ — ١٢٥٨ م) فما كانت ، على الاجمال ، المثل الاعلى في العروبة ، ولا كانت المثل الاعلى في الاسلام . اول خلفائها « السفّاح » وآخرهم العاجز المستعصم بالله

— وهرون الرشيد ؟ شخصية باهرة اجتمعت فيها الاضداد . فقد كان هارون ورعاً تقيًّا ، وخليعاً انانيًّا . وكان كثير المبرات والبدوات ، عادلاً يوماً ، ويوماً ظالماً . تارةً حريصاً على ابهة الملك ، وطوراً يرمي بها الى الصيادين . . . ولا اذكّر بنكبة البرامكة . . .

— والمأمون ، ما تقول في المأمون ؟ المأمون ، غفر الله ذنبه في اخيه ، هو مثل حمورابي في آشور . المأمون نجم العباسيين الساطع ، ونورهم اللامع على الدوام

— وجاءَ هولاكو بجيشه الجرار صائلاً فاتحاً

— هولاكو من كبار القواد المسلمين الذين وقف الاسلام على شفاههم ، وما دخل الى قلوبهم . فهو الذي اكتسح بغداد (٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م) — ودمرها ، وأعمل السيف باهلها

— وحكم التتار في العراق نحو مائتين وخمسين سنة ، فعاد الفرس (٩١٤ هـ — ١٥٠٩ م) فنزعوا السيادة منهم . ثم جاء الترك ، بعد ربع قرن ، فنزعوا السيادة من يد الفرس واستولوا على البلاد (٩٤٠ هـ — ١٥٣٥ م) وظلوا اسيادها اربعمائة سنة

— اربعمائة سنة مظلمة ، يبدو الى جانبها العهد التتاري عهداً سعيداً . ولو استطاع الترك ان يحكموا النهرين ، دجلة والفرات ، لكانا اليوم اجفّ من رمل البادية ، واقفر من ارض الجماد

وفي السنة السابعة عشرة من هذا القرن العشرين جاءت الجيوش من الغرب — رجالٌ زُرق العيون ، متحدرون من الفريد الكبير السكسوني ووليم الفاتح النورمندي — فحملوا على الترك وانتصروا بمساعدة العرب عليهم. وقد قرأ قائد الجيوش على اهل البلاد مادةً من عهدٍ مقدس يضمن للناس حقوقهم ، العامة منها والخاصة على السواء . ولاول مرة في تاريخ العراق ، الاسلامي وغير الاسلامي ، يؤسس في البلاد مجلس نيابي ، ويجلس على العرش ملك دستوري . اجل ، انها المرة الاولى في تواريخ دول هذا القطر كلها — الدول الآرية والسامية والتتارية والتورانية — التي تُعلن في البلاد ، وتضمن في دستورها ، حقوق الانسان

— ٢ —

كنت احمل في ذهني ، عند ما أقدمت على رحلتي العربية ، صورة تصوَّرتها ، مما قرأت وسمعت ، لكل مدينة زرتها . وما تغير في الصورة بعد الزيارة شيءٌ مهم . بل شاهدت في الصفة البارزة لكل مدينة ، فوق ما تصوَّرت . فكانت صنعاء اكثر عمراناً وحسناً ، والحديدة اكثر خراباً وقبحاً ، وعدن اكثر تجارةً واقل عروبة ، وجدة اكثر عِتقاً ورِثّة ، وجيزان اشد وحشةً ، والرياض اعجب قداسةً ، وعنيزة بين ضعوصها الذهبية اصفى جمالاً ، والهفوف اكثر غباراً وذباباً مما كنت اتصور او اظن . فما كذّبت هذه المدن ما سمعت ، ولا افسدت ما قرأت

اما بغداد فأمرها غير ذلك. قد جئت بغداد من افق كان في قديم الزمان كثير الانوار والالوان. جئتها وفي القلب أثر شديد مما لا يزال من تلك البهجة في كتب التاريخ والشعر . بل جئتها من عالم الاحلام المدبجة حواشيه بالذهب والارجوان . وبكلمة اخرى لقد جئت بغداد من عالم « الف ليلة وليلة » . فهل يُعجب اذن لخيبتي ، وهل يُستغرب غمي ؟ بيد ان تباين الحقيقة والخيال هو في يومنا هذا كما كان في الماضي ولكن الزمان يلبس الاثنين ثوباً من التقليد والتقديس ، ويرفعهما في عيون الناس الى منزلة الوحي المنزل . يحق لنا اذن ، ونحن في هذا الزمان نعرض للبحث حتى الوحي المنزل ، ان نبحث وننتقد ما يجيئنا بهِ التاريخ قبل ان نقبله مصدقين معجبين ، او نرفضهُ مستنكرين

وليس هذا بالامر السهل . فمن ذا الذي يستطيع ان يجيب مثلاً على هذا السؤال : اين تنتهي الحقيقة في عهد العباسيين الذهبي ، واين يبدأ الخيال ؟ اني اسأل سؤالاً آخر . ولكني اقول قبل ذلك اني اصدق فرضاً كل ما قاله المؤرخون والروائيون في ذلك العصر الذهبي . ثم اسأل : هل كانت

اسباب تلك المدنية منتشرة شاملة ؟ هل كانت بغداد كلها ، او هل كان جُلُّها ، على طراز ما كان من بناءٍ وهناءٍ للخلفاء والامراء والاعيان ؟ وبكلمة أخص : هل كانت المرافق مثلاً واحدة في المدينة ، وهل كانت عامة ، على انواعها ، كما هي في هذا الزمان ؟

وما هي الحقيقة في عصر هرون الرشيد؟ وما هي الحقيقة في بغداد هرون؟ هل ننكر ماجاء بخصوصها في «الف ليلة وليلة» وفي التواريخ كثير مما في تلك الحكايات ؟ لاشك ان بغداد كانت كالقاهرة او كدمشق او كانت تفوقهما في عمرانها وبهجتها . ولاشك ان الرشيد كان يفتخر بها ، ويفاجئها من حين الى حين بطرائفه وغرائبه . ولا شك ان الصيادين كانوا ينعسون بل ينامون على شاطىء دجلة ، وهم يرمون بشباكهم للأسماك . اني اصدق كل ذلك لانهُ الحقيقة بعينها حتى في هذا الزمان . فهناك بغداد تزين البلاد ، وهناك مليك مثل هرون من صميم العرب، وله مثل ذلك العباسي رغبة في التنكر فراراً من أبهة الملك ، وحبّا باستطلاع اخبار الرعية . وهناك كذلك الشعراء والصيادون

أما تلك الصلة الاخوية ، الرشيدية ، « الألفليلية » بين الملك والصياد فأنك لا تجدها . قد يكون الملك دمقراطيًّا ، وقد يكون الصياد فيلسوفاً سقراطيًّا . ولكنهما يسيران كلٌّ في سبيله ، في خطٍّ مستقيم أو معوجّ ، ولايلتقي الخطّان حتى يجيء صاحب (اعـذبهُ اكذبهُ) أو صاحب الحكايات الشهرزاديات ، فيرى ذات يوم ظلّ الملك قريباً من ظلّ الصياد ، فيلفق القصة ، او يؤلف الاسطورة ، التي يتذبذب فيها الخطّان — الظلاّن — ويدنو الواحد من الآخر ، ثم يتلامسان ، ثم يلتفان ويشتبكان ، ويتلوّنان بألوان قوس قزح ، ويتكونان اشكالاً فنية ، رومنتيقية « ألفليلية » تبهر الابصار ، وتسحر ألباب الصغار والكبار . لست أنكر سحر الآيات ، وأعاجيب الحياة ، حتى في هذا الزمان . فالصياد البغدادي موجود كما قلت ، والملك كذلك من حقائق الوجود ، ولا يُستغرب اذا أمعن الصياد في الاحلام ، وودَّ ان يكون ملكاً من ملوك الزمان ، ولا يستغرب اذا اشتهى الملك في بعض الاحايين ، ان يكون من الصيادين . وقد تتحقق رغبة الاثنين ، فيهتف الشعراء قائلين : لا حقيقة ثابتة غير حقيقتنا . الحقيقة الشعرية فوق كل الحقائق

واني اسأل سؤلاً آخر : كم كان حظ عامة الناس من تلك المدنية العباسية الباهرة ؟ هل كان يتمتع الصياد والملاح والاسكاف والفلاح بشيء من تلك النعمة التي كانت تبسط أجنحتها الذهبية في البلاط وفي قصور البرامكة ، وفي كل مكان قريب من ظلال القصور الملكية والاميرية ؟ هل كان للسواد من الناس بعض ما للخاصة من الثروة والثقافة والسعادة ؟ هل عم بغداد ذلك الترف والتأنق في العيش ، وذلك الزهو والسرور ، وذلك المجد والعز والتهذيب ؟

لا يلزم ان نعود الى التاريخ لنجيب عن هـذا السؤال . فان لدينا في الحاضر الدليل والبرهان . ان في شرقنا اليوم — في المدن التي لا تزال شرقية ، او لم تمسّ بغير القليل من مدنية الغرب في البناء وفي المرافق العامة والخاصة — ان فيها من ظلمات الأسواق ومقاذرها ، ومن ازدحام الحياة

وموبقاتها ، ومن النتانة والعفونة والامراض ، ما لا تجده في مدن اوربا الآ في بعض أحيائها التي تدعى Slums وهي مهد الاوبئة الادبية والاجتماعية والروحية والجسدية . أما الفرق بين المدينة الغربية والمدينة الشرقية فهو انمثل هذا الحي في الاولى جزءٌ صغير منها،وهو في الثانية الجزء الاكبر

وهذا الجزء الاكبر هو المدينة . أما الدور والقصور وان كانت في قلبها فليست هي منها . في الدور والقصور المرافق والاثاث والاعلاق،وفي غيرها الفقر والقناعة والاقذار،والورع والاستسلام بين الاقذار . هنالك أقلية تستمتع بخيرات الارض وبطيبات الحياة ، وهنا السواد من الناس وهم قانعون بالنعيم المنتظر ، وبما تعدهم بهِ الكتب المنزلة . هنالك المدنية ، وهنا المدينة

ولما كان السواد من الناس يعيشون محرومينَ في الدنيا تراهم شغفين اكثر من سواهم بالقصص والاساطير التي تمثل النعيم المنشود

حقيقة النعيم ، او بعض حقيقته ، للامراء والاغنياء . وحديثٌ عنه — حكاية أو اسطورة او قصيدة — للسواد من الناس . ومع ان السينما تغزو اليوم بلاد القصّاص ، فيتهافت العرب عليها ليروا ويسمعوا شهرزاد هذا الزمان — الشاشة البيضاء وما وراءها من سحر النطق والتصوير — فان القصّاص لا يزال مالكاً سعيداً ، وله عرشه في القهاوي . وهذا الشغف بالحكايات والآيات والمعجزات ، هذا التعظيم للخيال ، هذا التقديس للمحال ، لا يزال في الشرقي من الخلال البارزة. فهو يقنع بظل الحقيقة . ويقبل متورعاً محبوراً ما يحاك من الظلال كما لو كان حقائق دينية . ثم يعلل النفس بلحم تلك الحقيقة ودمها ، بجسمها المادي . كذلك كان الشرقي ، ولا يزال على الاجمال كذلك

وقد شحذت هـذه المخيلة منه ، فأصبحت بعامل الوراثة شقيقة العواطف في السيطرة على نفسه — في عقائده واحكامه ، وفي آرائهِ واهوائهِ . ولا عجب اذا خضعت كلها للخيال ، واعتصمت بالمحال . فمن يستمتعون بطيبات الحياة لا يضيعون الوقت في أحاديثها . ومن يحرمونها يسترسلون في الاحلام التي تزينها المخيلة وتذهّبها الاهواء . فتتمثل أمامهم ، اذ يسمعون القصاص أو يجلسون اليوم أمام الشاشة البيضاء ، صوراً مستغربة ، وصوراً خلاّبة . ومن هذه الصور صورة بغداد في عهد العباسيين الاول . وحسب اللبيب الاشارة الى ما يولده الشغف بالخيال ، والتلذذ بالمحال من حب المبالغة والغلو ، حتى في النظر الى حقائق التاريخ ، وحقائق الحياة اليومية . فالمؤرخ من هذا القبيل شاعر ، والشاعر مؤرخ ، والقصاص مؤرخ وشاعر معاً . بل هم ثلاثة أقانيم لشخص واحد عجيب

وكلهم مجمعون على ما كان من عظمة بغداد ومدنيتها . فقد كان فيها ، كما يقول المؤرخون ، عشرة آلاف حمام ، وثلاثون الف مسجد ! فاذا كان عدد سكان المدينة مليوني نفس ، كما جاء في التواريخ يكون لكل مائتي شخص حمام ، ولكل ستة وستين من السكان مسجد واحد . والمائتان يقيمون في ثلاثين بيتاً ، والستة والستون في عشرة بيوت . فهل يُعقل ان يكون لكل ثلاثين بيتاً حمام عمومي ولكل عشرة بيوت مسجد ؟

العربي يرى ولا يعد . وهو في التقدير ، اذا كان ما يراه كثير العدد ، يعوّل على الخيال دون العقل . وهاك المثل . اذا دخل اعرابي الى بغداد اليوم من الجهة الغربية يرى في ناحية الكرخ ، عند الجسر ، الى الجانبين ، عدداً من القهاوي . ثم يرى صفين آخرين في ناحية الرصافة كذلك عند الجسر ، بينه وبين شارع الرشيد ، واذا ما مشى في شارع الرشيد الى جامع مرجان يرى بين كل مائة متر واخرى جماعات من الناس يدخنون الاراكيل ويلعبون الطاولة والدومينو . فاذا سئل بعد ذلك ماذا رأى في بغداد يقول : القهاوي القهاوي في كل مكان . فيحدث عنه من يسمعه ويقول : ليس في بغداد غير القهاوي . فيحدث الثالث ويصفها بالمئات . فاذا سمعه المؤرخ يحدد المئات ، وقد يتجاوزها الى الالف او الالفين . . ولكن الشاعر يفضل عليها لفظة الالوف لأنها في الشعر اعذب من مائة ، وابلغ من الف . وعند ما يسمع القصّاص الشاعر ، ويطفق يلفق الحكايات ، فحدّث عن قهاوي بغداد ولا حرج . كذلك تجيئنا الاحصاءات وقد بلغت عشرة آلاف من الحمامات ، وثلاثين الفاً من المساجد[1] وعشرات الالوف من القهاوي . وليس في بغداد اليوم ما يتجاوز الاربعمائة قهوة ، اكثرها في الشارع الجديد ، شارع الرشيد . وليس فيها من الجوامع اكثر من خمسين ، اضف اليها ضعف هذا العدد أو ضعفيه من المساجد

وَيلي من الارقام . فسينبري لي غداً احد أرباب التاريخ المحققين المدققين ويوبخني قائلاً : ان في بغداد خمسة وخمسين جامعاً واربعمائة وعشر قهوات . فينبري له محقق مدقق آخر ويقول: القهاوي هي ثلاثمائة وتسعون عدًّا ، والجوامع تسعة واربعون . وتحتدم بعد ذلك المناقشة ، فيخرج من أحد القهاوي جاحظها ليعدّها . ويتبرع أحد الائمة او المؤذنين باحصاء الجوامع والمساجد

وعندئذ يتبين اننا كلنا في خطأ معيب ، وان كان الفرق ، صاعداً او نازلاً ، لا يتجاوز العشرة او العشرين . بيد ان ذلك في علم التاريخ ارتقاء يذكر . والفضل فيه لمن وجه السؤال ذات يوم الى أحد الصيادين الذي كان يطبخ السمك المسقوف على شاطىء النهر ، تحت القهوة ، بالقرب من جسر مود الى جانب الكرخ . سألته : وهل تعرف كم ببغداد من القهاوي ؟ فأجاب : بقدر ما في دجلة من السمك . فقلت : وكم تظن عددها في طرف هذا الشارع ؟ فقال : كله قهاوي ، ولا يحصيها الاّ الله

فرحت أعدها — أحصيها — فاذا هي ، من تمثال الملك فيصل الى الجسر ، تسع قهوات لا غير

ويلي من الارقام . فقد يتعطل الفونوغراف في احدى هذه القهاوي ، فيولي « ابناء الدومينو والشيشة » وجوههم شطر قهوة اخرى ، فونوغرافها عامر ، والحانه صياحة — كردية تركية مصرية — فيضطر صاحب القهوة المعطل فونوغرافها ان يقفل بابه ، ويودع أصحابه . او قد يجيء كردي بفونوغراف جديد ، وينصبه تحت النخيل ، ويضع حوله طاولتين وديوانين من الخشب العادي

(١) عدد الجوامع التاريخية في القاهرة نحو خمسين . اضف اليها ضعف هذا العدد او ضعفيه من الجوامع الجديدة والمساجد . وفي مدينة نيويورك من الكنائس والمعابد الكبيرة ، المسيحية والاسرائيلية ، مائة وخمسون عدًّا . وجميعها الكبيرة والصغيرة لا تتجاوز الثلاثمائة

المسوّس ، فيزداد عدد هذه القهاوي أو ينقص ، قبل ان يصدر هذا الكتاب قهوة واحدة أو قهوتين أعوذ بالخيال من الارقام . واعيذك ، أيها القارىء العزيز منها . تعال اذن نعتصم بالخيال الشعري . وعندي منه الآن ما لا ينكره العقل ، ولا ينفر منه التاريخ

هاك دجلة ، وهاك القُفة فيه . تلك القفة التي صنعت بعد الطوفان في مرفأ أور الكدانيين . وهي اليوم ، كما كانت في زمن العباسيين على الاقل ، تصنع من الخوص ، وتطلى بالقار داخلاً وخارجاً . فلو عاد الى هذا الوجود أحد نوتيي بغداد القديمة لكان يهلل للقفة ، ويحمد الله انها لا تزال على شكلها الاول ، وان الف سنة لم تغير شيئاً فيها . وقد يكون النوتي البغدادي الذي يحرك مجذافها اليوم من سلالة صياد الرشيد ، وقد يكون الجد كذلك لسلالةٍ مقبلةٍ من الصيادين تستمر الف سنة اخرى . فيجيء رحّالة القرن الواحد والثلاثين ، ويقف فوق دجلة على جسر معلقٍ من حديد ، فيرى القفة ، ويعثر بعد ذلك على نسخةٍ من هذا الكتاب ، فيستشهد مؤلفه على الف سنة في الاقل من عمرها

وما هذا كل ما في القفة . فبين صاحبها يجذف من حين الى حين ، ليحفظ خط سيرها في مجرى النهر ، يبدو لك كنز آخر من الكنوز التي لا تمسها يد الفناء ، ولا تعبث بها يد التغيير . هناك ، على وجه دجلة ، في صباح يومٍ شمسه كريمة ، ترى اللؤلؤ في نقط الماء التي تتساقط من المجذاف ، وهو يرتفع فوق الموجة ، وترى حول الموجة ، وهو يغطس فيها ، ذوب اللجين وقد تخلله الذهب الوهاج . فلو عاد الى هذا الوجود شاعر من شعراء نينوه ، او بنت من بنات بابل ، او كاهن من كهان أور لهلّل — لهللوا جميعاً — لهذه الشمس الشارقة ، المقيمة على عهدها ، الثابتة في خيرها ، الناثرة على دجلة ، حتى حول مجذاف « القفاف » لؤلؤ الذكريات ، وذهب الآمال — الذكريات والآمال التي تنعشنا اليوم وتحيينا ، كما أنعشت اهل أور ، وابناء بابل وآشور

وفي هذه الأرض المنبسطة ارض العراق تجيء الشمس في الشروق والغروب لطيفة النور ، ناعمة الوهج ، لا تحمل الكنانة ، كما يصورها الشعراء ، لتطارد النجوم ، وترمي بسهامها القباب والابراج

هي شمس الأمّ تحضن الارض في الصباح ، وتتغلغل حبًّا وحنيناً في قلب العراق وابنائه

هي شمس الفنان ، تلمس اللازورد في قباب الجوامع ، فيستحيل ياقوتاً اصفر ، وتكسو المآذن البيض بحلل من الدمقس المعصفر

هي شمس المحسن الاعظم ، تسير فوق السطوح المسوّرة ، ولا تكشف سرها ، وتقف فوق الجفون النائمة ، فتبشرها بعودة الحياة

ساعة في الصباح من السحر المبرور

ساعة من نعيم الحرارة والنور

أيقال : اكتشف الشيء ؟

للعلامة الأب انستاس الكرملي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

١ — مقدمة البحث

كان الكُتّاب — قبل نحو مائة سنة خلت — يستعملون في كتاباتهم « اكتشف الشيء » بمعنى وجدهُ ووقف عليهِ وكان مجهولاً او خفيًّا على اغلب الناس . ثم جاء بعض حملة اليراع من ابناء وادي النيل وقالوا : هذهِ الكلمة لا وجود لها في معاجم اللغة ، فتجنبها المتفصحون ونبذوها نبذ النواة ، واذا جاءت على اسلة قلم احدِ الادباء ، رموه بالجهل واستعمال كلام المولدين او العوام الذين لا يعرفون من الكلام الصحيح الفصيح شيئاً مذكوراً

٢ — فصحاء الكتاب الذين استعملوها

اشتهرت هذه اللفظة « اكتشف الشيء » في القرن الماضي حتى استعملها الشيخ السيد ابراهيم ابن علي الاحدب صاحب فرائد اللآل ، والشيخ يوسف الاسير والشيخ الجليل فارس الشدياق اللغوي الشهير والشيوخ ناصيف اليازجي وابناه ابراهيم وخليل والمعلم بطرس البستاني وابنه سليم وغيرهما من البستانيين ، الى كتاب آخرين لا يحصى عددهم ومن بينهم الدكتور يعقوب صرّوف ولا يزال يتخذها فريق من حضنة العلم وحملة اليراعة الفصيحة الى عهدنا هذا . وكان ابراهيم اليازجي ممّن استعملها في مجلته الضياء الى آخر سنة منها اي الى سنة وفاته . وليس الشيخ ابرهيم ممن لا يعتدّ بكلامه ، بل هو الحجة العظمى والثبت الأكبر

والمعلم بطرس البستاني ذكرها في ديوانه (محيط المحيط) اذ يقول : « اكتشف الشيء بمعنى كشفه . ومنهُ الاكتشافات لما يكشف من الامور الطبيعية والصناعية » . ولعلك تقول : ان البستاني ليس بحجة وهو كثيراً ما أخطأ في محيطه وادخل كلماً عاميًّا واعتبره فصيحاً ووضع الفاظاً لا صحة لها ولا وجود . — قلنا : « ونحن ايضاً على رأيك . لكن اذا قال شيئاً ووافقهُ عليهِ غيره اصبح حجة . وهذه الكلمة استعملها فصحاء الكتبة في القرن الماضي ، اذن لابدَّ من استعمالها وعدّها مولدة ألم نقل فصيحة »

٣ — أنكرها ثم استعملها

وممن أنكرها المرحوم اسعد خليل داغر في كتابه (تذكرة الكاتب) فقد قال في ص ٢٦ منهُ ما هذا نصهُ : « ومما يجب على المجمع ان يوجه التفاتهُ اليه هو [١] الكلمات الكثيرة المستعملة الآن في غير ما وضعت لهُ . وليس في كتب اللغة ما يُجَوِّز استعمالها هذا ، الاّ على ضعف وتكلف . ولكنها شاعت وذاعت حتى بين بلغاء الكتّاب وليس من السهل ان يستبدل بها كلمات اخرى . فمنها ... الافعال « تفرج » و « تطوّر » و « اكتشف » وغيرها » اه .

ومع انكاره هذا الفعل ووضع « كشف » في مكانه (راجع ص ١١٣) يقول في ص ٢٣ : ... « وما يجدّ كل يوم من المكتشفات والمخترعات اه »

٤ — ما وضع في مكان اكتشف

لما اطلع بعضهم على انكار استعمال «اكتشف» لعدم وجوده في دواوين اللغة ، اتخذوا في مكانه «استكشف » وهذه لاتؤدي ابداً معنى اختها . فمعنى « استكشف » طلب او سأل ان يكشف لهُ عنهُ . فأين هذا من ذاكَ ، ولهذا اصاب صاحب تذكرة الكاتب في قوله : « ويستعملون استكشف بمعنى كشف فيقولون : « يتصرفون في استكشافها والكلام [٢] عن الآثار المصرية والصواب كشفها » اه .

لكننا نقول ان كشف واستكشف لايحويان معنى اكتشف ولا يؤديان معناه الاّ ببعض تكلُّف. اذ في معنى الاكتشاف شيء لايرى في اخويه . فالاكتشاف يكون من بعد ان يزاول الباحث كشف المخفيّ عنهُ ، فيبلغهُ بعد العناء والمعالجة . وهذا سرُّ استعمال الكتبة لهُ وعدم اكتفائهم بالفعْلين السابقين . فقد خصَّصوا « الكشف » بالأمور المادية المرئية و « اكتشف » بالامور العلمية والطبيعية والصناعية

(١) قوله « هو » بعد ان قال : ومما يجب على المجمع ... هو الكلمات الكثيرة ، زائدة لا محل لها هنا والافصح حذفها كما لا يخفى

(٢) قوله « والكلام عن الآثار » غير فصيح ، لانه يقال : تكلم عن فلان أو عن كذا ، اذا كان وكيلا « عنه » أو مدافعاً « عنه » أما اذا كان الكلام بمعنى مجرد القول فيقال : « والكلام على . . . » أو « والكلام في ... » ونحن نذكر شواهد على كل من هذه الاستعمالات الثلاثة . قال الجاحظ (في الفصول المختارة في حاشية الكامل للمبرد ١ : ١٩٥) : « الذين لا يتكلمون عن الكتب المدونة » — وقال ابن النديم الوراق في كتابه الفهرست (ص ٧ من طبعة الافرنج) : « فتكلم عن رسومه وقوانينه » اه — وقال في تاج العروس في مادة (س ل ع) : « ثم رأيت العلامة الشيخ عبد القادر بن عمر البنداري قد تكلم على البيت الذي أنشده الجوهري»
وشواهد تكلم فيه ما جاء في لسان العرب في مادة (ك ل م) : « وكأن الكلام في هذا الاتساع انما هو محمول على القول

وشواهد تكلم عنه ما ورد في صحاح الجوهري ومثله في كتاب العين لليث : « عبرت عن فلان تكلمت عنه » . وفي المصباح : « دره عن القوم : اذا تكلم عنهم ودفع » — وفي التاج : « مدره القوم . . . . المتكلم عنهم » الى غير هذه الشواهد وهي لا تكاد تحصى لتدفق سيلها

٥ — رأي اللغوي فارس الشدياق في تأويل اكتشف

لاحظ الكتّاب منذ بدء استعمالهم « اكتشف» ان فيها بعض التأويل . قال صاحب الجاسوس على القاموس ص ٦١٩ : « اكتشفت لزوجها بالغت في التكشف لهُ . وعندي ان المفعول هنا محذوف تقديره : «نفسها» وان الزوج مثال . وهذا الحرف ليس في الصحاح ولا التهذيب ولا المحكم » اه كلام الفارس اللغوي

وانا ازيد على ذلك ان صاحب الجاسوس مصيب في قوله . والدليل ان اكتشف ورد هنا للتمثيل والتنظير لا غير ، اذ قد ورد مستعملاً لغير النساء . قال الطبري في تاريخه الكبير (١ : ١٣١٦ من طبعة اوربة) ما هذا نقلهُ بحروفهِ في حوادث السنة الثانية للهجرة (فتكون الكلمة معروفة في عهد الجاهلية وليست خاصة بالنساءِ) : « فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرّخ . واعمراه ! واعمراه ! لحميت الحرب ... »

وكان الاقدمون من السلف يفعلون مثل ذلك في المصيبة العظمى او لبثّ التحمس في صدور الشهود . وراجع في كتب اللغة المطولة معنى شوّر بهِ ، ونجتزىء بالاشارة اليهِ عن ايراد النصوص حُبّاً للإختصار

اذن اصاب فارس الشدياق في اعتبار اكتشف من الافعال المتعدية بعد حذف المفعول بهِ . ولاسيما انهُ ادخلهُ في احصاءِ امثلة « افتعل » المتعدي .

٦ — رأي الشيخ عبد القادر المغربي

كان الامير شكيب ارسلان استفتى الاستاذ المغربي في مجلة المجمع العلمي العربي التي تنشر في دمشق في سنتها ١٣ : ١٤٠ في الفعل اكتشف اذ قال (ص ١٣٩) : « يا أخي ، لفظة (اكتشف) لا توجد في كتب اللغة ، افرأيتها انت في مكان ؟ ومثلها ...» فأجاب الاستاذ الكبير المغربي بقوله (ص١٤٠) ما هذا نصابهُ بحروفهِ :

« (اكتشف — جاء في كتب اللغة ان للاكتشاف معنى غير المعنى الذي يستعملهُ فيهِ الكتّاب المعاصرون . فالاكتشاف في اللغة ان تبالغ المرأة في الكشف عن نفسها في خلوتها مع زوجها . فهو فعل لازم . اما اكتشف في استعمالنا اليوم فمتعدٍّ . تقول : اكتشف كولمبوس بلاد اميركا سنة كذا . واكتشف المخترع الفلاني البارود سنة كذا . واذا اعتبرنا لفظ (المرأة) في تفسير الاكتشاف قيداً غير لازم ، بل كما يقال : اكتشفت المرأة لزوجها ، نقول : اكتشف الرجل للخوض في النهر ، واكتشف المريض للطبيب على معنى انهما بالغا في حسر ثيابهما . وفي هذا الحسر ظهور ما كان خافياً — اذا اعتبرنا هذا كان قولنا اليوم (اكتشف) صحيحاً فصيحاً بشرط ان نستعمله لازماً قاصراً على فاعله ،

فتقول : (اكتشف البارود سنة كذا) برفع بارود على الفاعلية ، اي ان البارود ظهر سرّهُ للناس تمام الظهور بعد ان كان خافياً . وكذا (اكتشفت بلاد اميركا)و(اكتشف سرّ المسألة)وهكذا ولكن لا اظن ان الناس اليوم يقدرون على هذا الاستعمال بعد ان فشا على لسانهم استعمال(اكتشف) متعدّياً . وعلى هذا يكون فعل اكتشف المتعدّي (مولّداً) ، هدي اليهِ المعاصرون بنابل من ذوقهم . فهو مثل (تفرج) و(تنزه) و(احتار) و(خابر) وكلها من الصنف الرابع (من الاصناف السبعة للكلمات غير القاموسية)وهذا الصنف افتى بجواز استعماله خمسة عشر عضواً من اعضاء المجمع وانكر جوازهُ ثلاثة منهم . راجع مجلة المجمع (مجلد ١٢ ص ٥٣٠) فالفتوى اذن على استعمال فعل الاكتشاف » . الى هنا كلام الاستاذ المغربي

وزاد على ما تقدم ما يأتي وهو نتيجة البحث (في ص ١٤٦) : « (اكتشف) كلمة مولدة يجوز استعمالها عملاً برأي خمسة عشر من علماء اللغة والادب المعاصرين » اه كل ما ورد في هذا المعنى في مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية

٧ — انا والدكتور يعقوب صرّوف

في ٢١ (حزيران) يونيو من سنة ١٩٢٥ زرت الدكتور يعقوب صرّوف في مكتب المقتطف فقال لي: ان فريقاً من الادباء وحملة الاقلام يأخذون عليّ استعمال (احترم)و(اكتشف) في مقالاتي ،فقلت لهم : اني اراجع محيط المحيط من كتب اللغة لسهولة ظفري بضالتي عند النشادي اياها فيهِ . والكلمتان مدونتان في هذا المعجم . وكانوا يقولون لي : محيط المحيط غير حجة في اللغة . فالكلمتان غير موجودتين في القاموس ولا في لسان العرب ولا في تاج العروس ولا اساس البلاغة الى غيرها من معاجم الاقدمين والمحدثين كالاوقيانوس ومنتهى الارب في لغة العرب الى آخر ما هناك

ثم قال لي : وما رأيك في هاتين المفردتين ؟ . فقلت له : انهما من افصح كلام العرب ولا غبار عليهما . فقال لي : واين تريان ؟ قلت : اما (احترم) فمدوّنة في اساس البلاغة في غير مظنتها لكن في مادة (م ل ح) قال : « الملح : الحرمة وان معناه انهُ يحترمك ما دام جالساً معك ، فاذا قام عنك رفض الحرمة » . وذكر الزمخشري ايضاً (احترم) في مقدمة كتاب الادب في ص ٢٣٩ وجاء في المصباح : الحرمة المهابة وهذه اسم من الاحترام مثل الفرقة من الافتراق » اه — وقال البوصيري:

حاشاهُ ان يحرم الراجي مكارمهُ او يرجع الجار منهُ غير محترم

وفي شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (٢ : ٢٠) «ولولا ان اباها الذي كان بيتها يحترم ويصان لاجله» الى غير ذلك من النصوص الكثيرة

فلما رأى الدكتور صرّوف جميع هذه الشواهد قال : «حسبي شهادة الزمخشري في الاساس وهو

اعظم الحجج . ثم قال بقي علينا ان نثبت وجود «اكتشف» عند الفصحاء . فقلت له : « يا ايها الدكتور ، ايذن لي ان لا اذكرلك شواهدي على ذلك الا بعد عشر سنوات ، لأدع الكتّاب ينكرونها ويتألبون على هذا الانكار ، الى ان يقوم احد اللغويين المصريين ليثبت لهم صحته اما اذا لم يجيء احد ليوضح لهم هذه الحقيقة فآتي حينئذٍ ببراهيني المبيّنة فصاحة الكلمة » . اما الآن وقد مضى على حديثي نحو تسع سنوات ودخلنا في العاشرة ، وقد انتقل الدكتور صرّوف الى دار البقاء فاجيء بما يؤيد صحة استعمال (اكتشف) التي لا يقوم مقامها (كشف) ولا (استكشف) ولا اي فعل كان

٨ — فصاحة اكتشف الشيء

اكتشف الشيء من افصح كلام العرب ومن اقدمهِ اذ هو من باب المجاز فمعنى اكتشف الشيء الهجوم على الحقيقة او على الشيء المخفيّ وإلقاحُهُ وانتاجُهُ وإنماؤُهُ وبثُّهُ في العالم للانتفاع بهِ . وهو من قول السلف : اكتشف الكبشُ النعجة نزا عليها » . (اه عن اللسان في آخر مادة كشف) وراجع ايضاً القاموس وتاج العروس وسائر المعاجم المطولة كالقادوس والاوقيانوس والبابوس وكتاب العين ومعيار اللغة الى غيرها

وقد قال صاحب الجاسوس لما رأى كثيرين من اللغويين يقدمون المجاز على الحقيقة مع ان المجاز من اقوى دعائم اللغة (في ص ١١ من جاسوسه) : « ومما احسبهُ من الخلل ايضاً تقديم المجاز على الحقيقة او العدول عن تفسير الالفاظ بحسب أصل وضعها ... » وقال في ص ٦٢ : « ان المصنف (أي صاحب القاموس) كثيراً ما يهمل الحقيقة ويذكر المجاز الذي لم تعرفهُ العرب ..... » اه — قلنا : لان من المجاز ما عرفهُ السلف ومنهُ ما لم تعرفهُ والشدياق يشير هنا الى هذا الاخير

وقال الزمخشري في كتابهِ أساس البلاغة في مادة (ا س ر) : « ومن المجاز : اسروهُ ، ويسروا ماله . وتياسرت الاهواء قلبهُ . قال ذو الرمة :

بتفريق أظعانٍ تياسرن قلبهُ وخان العصا من عاجل البَينِ قادحُ

وهو من فصيح الكلام وعاليه وما فصّحهُ وأعلاهُ الاّ الاستعارة » اه

قلنا : انظر كيف انهُ قال في الاول : « ومن المجاز . . . . » ثم قال في الآخر : « وما فصحهُ وأعلاه الاّ الاستعارة » فاعتبر المجاز استعارة وبالعكس وذلك من باب التوسع ولأن المجاز والاستعارة من مصدر واحد . وكذلك يتوسع فيهما أبناء الغرب

ونحن أيضاً نقول : ان اكتشف الشيء (والفعل متعدٍ) ما فصّحهُ وأعلاهُ الاّ المجاز أو الاستعارة . وبهذا القدر ما يثبت ان لغويي المائة الماضية من مسلمين ونصارى كانوا قد وقفوا على أسرار استعمال الكلمة في الاكتشافات العلمية والذين يمنعونها لليوم يختلف ذوقهم عن ذوق العرب الصميم ، وعلم ربك فوق كل ذي علم

ما أقرأ من الكتب

سيرة ولز بقلمه

Experiment in Autobiography by H. G. Wells.

ليعقوب فام

عند ما تقرأ احدى السير تشعر باحدى عاطفتين ، اما ان الكاتب متحيز لصاحب السيرة يحبه الحب كله ويرى انهُ من خيرة الناس جميعاً ، قد ارتقى الى الذروة برغم الاحوال التي كانت تحيط بهِ ، وبرغم النظم الاجتماعية التي كانت تقيم الصعاب في وجهه وتضطهده اضطهاداً وتنغص عليهِ عيشه

اما انك تشعر بهذا او تشعر ان الكاتب متحامل على صاحب السيرة يظن بهِ السوء ويترجم نوازع نفسه على غير ما يمكن ان تترجم بهِ ، ويرى ان تصرفاتهِ في بعض مراحل الحياة او في كثير منها تصرفات معيبة ذلك لأن فلسفة الكاتب ومنازعه النفسية ومثله الاجتماعية والسياسية قد تغاير فلسفة صاحب السيرة ومنازعهُ ومثله بحيث لو كتبت سيرة موسوليني مثلاً لرأيت العجب ، فبعض الكتاب يحمل عليهِ وبعضهم يدافع عنهُ ، وبالطبع تختلف مراتب الكتّاب في الهجوم والدفاع فمنهم من يقسو كل القسوة ومنهم من يتلطف في نقده ولكنهُ ينقد ويذم على كل حال

قرأت مؤخراً اربع تراجم ، واحدة عن ماري انطوانيت ، وواحدة عن مصطفى كمال ، والثالثة عن فورد ، والرابعة عن ه. ج. ولز ، وهذه السير الاربع تدعم وجهة نظري التي تقدمت بها الآن ، فسيرة ماري انطوانيت عبارة عن دفاع مجيد شائق عن هذه السيدة البائسة خرجت منهُ اعطف عليها وارى ان الزمن ظلمها بوضعها في المكان الذي ولدت له ، واما سيرة مصطفى كمال فهي عبارة عن اتهام للرجل بانهُ اناني ممعن في الانانية متهتك مدمن السكر ، وكل ما له من الفضائل انهُ يحب تركيا باخلاص ، وهاتان السيرتان كتبهما شخصان بعيدان عن صاحبي السيرة فكنت تستطيع ان ترى ميول الكاتب ومشاعره وتلمسها

اما فورد فقد كتب السيرة بنفسه ، وليست في الواقع سيرته هو وانما هي تاريخ حياة مصانعه واغراضها ونظمها . وفي سيرة ولز التي كتبها عن نفسه لا تستطيع ان تتبين تلك المنازع الحادة العنيفة التي سبق ان ذكرناها فليست هي اتهام وتعنيف لولز لانهُ هو الذي كتبها ولا يعقل ان يكتبها ليقول للناس « انظروا يا ناس ما بلغتهُ من الرداءة والشرّ » وليست هي مدح على طول الخط لانهُ لا يعقل ان رجلاً مثقفاً مثل ولز يكتب الفصول الطوال في مدح نفسه ، وانما هي سرد لحياته سرداً هادئاً متئداً ، بعيداً عن المنازع القوية العنيفة ، لا بل هي سرد لتطور شخصيته وعقليته وكيف تدرّجتا من حال الى حال من دون ان يتورط في التظاهر بالبطولة او بالتضحية

ولد هربرت جورج ولز في سنة ١٨٦٦ في هاي ستريت بروملي بمقاطعة كنت من والدين فقيرين

من طبقة الخدم الراقية ، اعني ان امه كانت رئيسة خادمات احدى القصور في يوم من الايام ، وكان ابوه صاحب متجر فخار اسمهُ Atlas House لم يكن يدرُّ عليهم كفايتهم من القوت والكساء ، وكانت امهُ امرأة متدينة متعبدة مثلها الأعلى المسيح اولاً ثم رسله وكتبه ثم الملكة فكتوريا « الملكة العزيزة الصغيرة » . وكانت الملكة العزيزة الصغيرة هذه على لسان امه صباح مساء ، فالملكة حضرت والملكة ذهبت والملكة عملت ، حتى اشمأزت نفس هربرت جورج ولز ونبتت في قرارات نفسه بذرة الكراهية الملكية ، والى هذا يعزو ولز نفسه تمسكه بالجمهورية ومهاجمته الملكية في جميع اطوار حياته

كانت أمه متدينة وتلح على ابنها هربرت ان يتناول بعض الجرعات الدينية ، فكانت تجعله يصلي ، ويحفظ عن ظهر قلب أصول العقائد المسيحية ، ثم ألحفت عليهِ بالمسائل الدينية الحافاً جعله يهرب بمشاعره بعيداً عن هذا العدوان . كان في الجسم جالساً أمامها يستمع لها تصب على رأسه هذه العقائد صبًّا وكان من نتيجة هذا أيضاً أنهُ بعيد عن الاديان والعقائد بعداً كبيراً

كان يرى أمه تجاهد جهاد الأبطال في تدبير الشؤون المادية للمنزل ، من دون ان يكون لهذا الجهاد الأثر المادي المحسوس ، ثم كانت تصلي لالهها حتى ييسر أحوال المعيشة لهم ولم يكن الله يستمع لهذا الدعاء ، وكان ولز يسجل هـذا في ثنايا عقله تسجيلاً ليحاسب الله عليهِ حساباً عسيراً عند ما يبلغ أشده ، ولكن الحرارة الدينية فترت نوعاً في والدته عند ما شاء الله ان يأخذ أختاً لولز ، وسجل ولز في نفسه هذا الفتور عند والدته دون ان يتحدث بهِ

ثم كسرت ساق هربرت جورج ولز وهو بعد طفل . وكانت هـذه الحادثة بدء حياة ولز الفكرية وهو يشكر طالعهُ أنْ كسرت ساقه ، (وقد يكون لامه رأي بخلاف هذا) فقد تمدد على كرسي طويل يدفعونه من مكان لمكان وهو منبسط عليهِ لا يتحرك ، وقضى أياماً طوالاً على هذه الحالة بعيداً عن الحركة والنشاط البدني ، فكان أبوه يحضر له الكتب من مكتبة البلدية ليقرأ قتلاً للوقت . ولم يكن الوالد يدري بالطبع ما هو فاعل ، اذ أنهُ في الواقع قد وضع الاسس التي سوف تبنى عليها حياة رجل من أعظم مفكري العالم ، كان من نتيجة هذه المطالعات البسيطة ان أخذت نفسيته تتجه الى المعرفة والى الكتب وصار يشعر ان خير ما تستطيبه نفسه هو ان يقرأ من غير انقطاع ، ونشأت بينهُ وبين الكتب صلة قوية نمت بنموه واتسعت باتساع عقله

وفي دور آخر من أدوار حياته تهشمت احدى كليتيه وهو يلعب بالكرة . ثم أصيب بذات الرئة فعكف على كتبه وانزوى في سريره . وولز شاكر لهذين الحادثين لانهما أوجدا الصلة بينه وبين الكتب تلك الصلة التي وضعته حيث هو الآن في المقام الاول من المفكرين

كان فقيراً جدًّا ، وكانت أمه كـكل أم حريصة متكبرة تمنعهُ ان يخلع سترته أمام الصبيان في المدرسة لئلاّ تنكشف تحتها الملابس الداخلية المهلهلة المرقعة . كانت هـذه الملابس الداخلية نظيفة حقًّا ولكن احترام النفس يقتضي عدم اظهار الناس عليها

لا يمكن ان تمرّ كل هذه التقديرات العقلية والاسرار النفسية دون ان تترك اثرها في الطفل. فأقل ما فيها أنها لا تترك الطفل على سجيته ، فلا يشعر معها بالحرية والانطلاق والبراءة في الدوافع والنوازع النفسية ، لان من عناصر هذه الحالة ان الطفل يحيا حياتين احداها لنفسه ولامهِ وأبيهِ والاخرى للدنيا الموضوعية ، للناس وللاوضاع الاجتماعية . هناك ناحية من حياته يخجل ان تظهر للناس على حالتها دون مداراة او مداورة . ثم عندما يستريب الناس في تصرفاته لا يستطيع ان يتقدم بالاسباب الاصلية لهذه التصرفات ، فيضطر ان يداري ويداور ويتخابث ، او يعرض نفسه للشك والريبة . لست أنكر انكلاً منا يحيا حياتين احداها خاصة والاخرى عامة ، ولكن الاحوال التي تضطر طفلاً في الخامسة الى العاشرة ان يعيش على هذا الوضع، احوال قاسية على نفسية الطفل لا بدّ ان تترك اثرها المستديم في حياته الروحية والعقلية والعاطفية

عجزت عائلة هربرت جورج ولز عن انتقوم بمطاليبه المدرسية، واضطرت لاستغلاله اقتصاديًّا ليعين العائلة في كفاحها للحياة والعيش . فأدخلتهُ أمه صبيًّا في متجر للأقمشة ، لينظف الدكان ، ويرتّب البضاعة ويناولها للبائعين لعرضها على الزبائن ، فحاول جهده ان يوطن نفسه على هذه الحياة ولكنها حياة لا تروق أمثال الصبي هربرت ، انهُ يفكر ويغرم بالكتب والمطالعة ويكره هذه الحياة التي اضطرّ اليها اضطراراً ، فينشب نزاع حاد في نفسه لا قبل له بتسكين نفسه أو بترويضها على الخضوع لنوع الحياة الذي وجد فيه ، فيهرب ويذهب الى المدرسة ، ويكافح ويشتغل ليلاً ونهاراً وتؤاتيهِ الظروف فينجح

قلت في مقدمة هذا الكلام ان ولز لا يدافع عن نفسه ولا هو معنيٌّ باظهار نواحي العظمة في نفسه ، وانما هو يسرد الاطوار العقلية والنفسية التي مرّ فيها ويترك للقارىء ان يخرج بالنتيجة التي تروقهُ ، ومن المسائل التي تناولها دون تعليق لتبرير نفسه او تعنيفها ، مسألة طلاقه من زوجته الاولى ، ابنة خاله . معروف للجميع الآن ان ولز من المتطرفين في التفكير وبخاصة في العلاقات الجنسية كما يتبين من كتاباته الكثيرة ، ولقد اتّهم بالاباحية في الاخلاق وهوجم في نيّاتهِ واغراضه ، وكان منطق الحوادث مما يعين مهاجميه وناقديه ، ذلك لأنه ترك زوجته والتصق بامرأة أخرى وعاش معها بعيداً عن زوجته في منزل مستقل ، ولا يلام الناس بالطبع يزعم ان ولز اباحي لأن الحوادث شاهد على هذا الزعم

انسان يدافع عن الحرية الجنسية ، ويدعو الناس الى التحرر من قيود الاجتماع في الشئون العائلية وفي نفس الوقت يترك امرأته ليلتصق باحدى الطالبات اللائي كنّ يدرسن عليهِ في المدرسة — يصعب على الناس الاّ يتهموه في نيّاتهِ واغراضه ، والناس يحكمون بالظواهر وبالتصرفات الواقعية ويستقرئون النيّات والاغراض من السلوك . حقًّا انهذا الاستقراء خطأ ، وان الصواب انتستقرأ التصرفات من النيّات والدوافع النفسية ، ولكن هذه تخفى على الجماهير في معظم الحالات اوفي كل

ولا تظهر الا للسكلوجيين الباحثين واذن فكانت للتهم التي تكال لولز اسس تقوم عليها في منطق عامة الناس ، وكان ولز اباحيًّا هدّاماً للاخلاق والفضائل ولولا ان الانكليز متعصبون لحرية الرأي يقدسونها من قديم لما نجا ولز من السجن والتشريد

الواقع ان هربرت جورج ولز لم يكن اباحيًّا ثائراً على الاخلاق والفضائل ، لم يزعم هو ذلك لانهُ لم يكن بسبيل الدفاع عن نفسه ، وانما يقوله كل من يقرأ سيرة حياته دون تعنت او تزمت . ترك ولز زوجته الاولى والتصق بامرأة اخرى، ثم جيء به الى القضاء وتطلق من زوجته الاولى ، ومع ذلك فقد احاطها بعنايتهِ كل حياتها وقام بجمع مطاليبها ، وابتنى لها بيتاً بعد ان تزوجت من غيره ، ثم تكفل بها بعد وفاة زوجها، ثم تزوج خليلته حالما اصبح حرًّا طليقاً وعاش معها على اتم وفاق وانجب منها اولاداً احدهما الاستاذ ولز استاذ علم الاحياء Biology ومعينه في انتاج بعض اعمالهِ العلمية الكبيرة

سرد ولز هذه الوقائع سرداً بسيطاً دون تعليق او تعقيب ودون ان يدفع عن نفسه شيئاً من التهم التي تكال له بالحق وبالباطل ، لا بل لم يسردها بالتفصيل لانهُ خشي على ما يظهر ان يفيض فيها فيودي بالمسحة العلمية لكتابه وانما ترك للقارىء حريته فيقرأ السطور ويخرج بالنتيجة التي تروقهُ ، دون ايحاء او تأثير ، ودون ان يهتم بتأثيم نفسه او بتبرئتها مما لحقها. فلمن شاء ان يتهمهُ بالاباحية ولمن شاء ان يبرئه منها وولز في الحالين قانع راض . ومن يقرأ سيرة ولز يلاحظ ظاهرة غريبة ، وهي ان كل كتاباته الادبية مؤسسة على قطع من اختباراته في الحياة ، فكان عند ما يعرف شخصية ما ينقلها من الحياة الى الادب في قصة يحوك اطرافها في خياله يدعو فيها الى نوع من الفلسفة التي يدعو اليها في حياته الواقعية ، وبعبارة اخرى كان يأخذ شخصياته من الحياة ويضع على السنتها فلسفته في الاقتصاد والاجتماع ثم يطلقها تبشر برأيهِ بين جمهور القراء ، فهو لا يعنى بتزويق اللفظ، او حبك الجمل . لم يكن يعنى بالقالب الادبي او بالمقاييس الادبية في كتاباته وانما يحرص على ان يكون علميًّا في اعماله الادبية ، فهو علمي النزعة بعيد عن الفن الخالص كما يفهمهُ ارباب الفن ، فقد تخيل الطيارات والسفر بها قبل ان تخترع ، وتخيل الدبابات وعاش الى ان رآها تعمل مع الجيوش في الحرب العظمى ، ثم كتب عن القمر وعن المريخ وعن الارض بعد الوف السنين ، كل هذا كتبهُ بطريقة علمية في قالب القصص

وفي هذه السيرة أيضاً تقرأ رأي ولز في طائفة كبيرة من الادباء والعلماء ورجال السياسة الذين عاصروه، تقرأ عن لنين وستالين وروزفلت وجراي وبلفور ومكسيم جوركي وكبلنج وشو ورسل ، وهو جريء في التحدث عن هؤلاء، لا يداريهم ولا يتملقهم ، ولا يحمل عليهم من غير ضرورة أو مسوّغ، وانما هو يسرد شئونه معهم في هدوء ووقار ، وتخرج أنت من هذا السرد برأي في كل منهم

بالطبع لا أستطيع ان ألخص سيرة ولز ولا أظن أن أحداً يستطيع ذلك وانما كل ما يمكن أن يضطلع بهِ انسان هو أن يستعرض بعض نواحي هذه السيرة كما استعرضتها أنا ، ثم يعلق عليها كما علقت ولا يغني هذا عن قراءة سيرته أي غناء

مسجد المنصور ببغداد

بقلم جناب الكبتن كرسويل استاذ العمارة الاسلامية بالجامعة المصرية

نقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

﴿ وصف المسجد ﴾ ليس لدينا وصف لهذا المسجد الاّ ما ورد في كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي [1] وقد جاء فيه : —

« كان ابو جعفر المنصور جعل المسجد الجامع بالمدينة ملاصقاً قصره المعروف بقصر الذهب وهو الصحن العتيق . وبناه باللبن والطين ومساحته على ما اخبرنا محمد بن علي الوراق واحمد بن علي المحتسب قالا اخبرنا محمد بن جعفر النحوي اخبرنا الحسن بن محمد السكوني اخبرنا محمد بن خلف قال وكانت مساحة قصر المنصور اربعمائة ذراع في اربعمائة ذراع ومساحة المسجد الاول مائتين في مائتين واساطين الخشب في المسجد يعني كل اسطوانة قطعتين [2] معقبتين بالعقب [3] والغراء وضبات الحديد الاخمسا اوستاً عند المنارة فإن في كل اسطوانة قطعاً ملفقة مدورة من خشب الاساطين [4] . قال محمد بن خلف قال بن الاعرابي تحتاج القبلة الى ان تحرف الى باب البصرة قليلا وان قبلة الرصافة اصوب منها [5] . فلم يزل المسجد الجامع [6] بالمدينة على حاله الى وقت هرون الرشيد فأمر هرون بنقضه

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة Salmon النص العربي ص ٥٩ — ٦١ وترجمته الفرنسية لسالمون ص ١٤٥ — ٧ وترجمته الالمانية لهرتسفلد في كتاب البعثة الاثرية ج ٢ ص ١٣٥ — ٧ و Streck ص ٦٣ — ٤ وبغداد تأليف لسترينج Le Strange ص ٣٣ — ٧

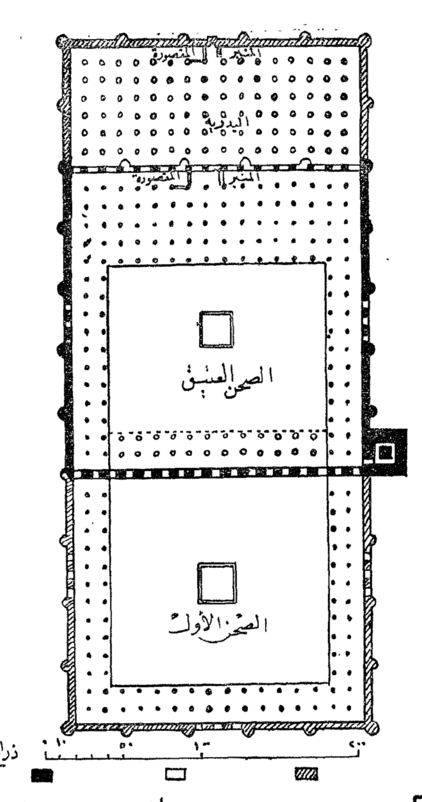
(٢) يرى هرتسفلد ان معنى قوله (قطعتين معقبتين بالعقب) ان القطعتين متصلتان احداها بالاخرى من طرفيهما اي ان العمود كان يتكون من قطعتين احداها فوق الاخرى . وهناك امثلة لذلك في الاعمدة الرخامية بسر من رأى فان كلا منهما يتكون من ثلاث قطع

(٣) فسر لين Lane قوله بالعقب بأنه الاوتار العضلية التي تصنع منها اوتار الاقواس

(٤) حذف سترك Streck (ص ٦٣) هذه العبارة الغامضة . وفسرها لسترينج Le Strange في كتابه بغداد ص ٣٤ بقوله « كانت اكثر الاعمدة مكونة من قطعتين او اكثر من الخشب متصلتين احداها بالاخرى من طرفيهما بالغراء وضبات الحديد الا خمسة او ستة اعمدة وهي التي كانت قريبة من المئذنة فان كلا منها كان يتكون من جذع واحد من جذوع الشجر وكانت جميع الاعمدة تعلوها تيجان مستديرة من الخشب » . ويقول هرتسفيلد « ان الفرق بين الاعمدة التي كانت عند المنارة والاعمدة الاخرى هي ان الاولى كانت تتكون من قطعة واحدة من الخشب بينما يتكون كل عمود من الاعمدة الاخرى من قطعتين » . وان قوله (في كل اسطوانة قطعاً ملفقة مدورة من خشب الاساطين) هو وصف الاعمدة جميعها . وانه يفهم من قوله « ملفقة الخ » انه يريد تاج العمود . وان هذه التيجان كانت مكونة من عدة قطع متصلة بعضها ببعض كما يشاهد ذلك الآن في التيجان الخشبية الحديثة ببلاد ما بين النهرين وفارس

(٥) انظر أيضاً الطبري جزء ٣ ص ٣٢٢ والمقدسي ص ١٢١ سطر ٧ ، ٦ وجاء في ابن الاثير جزء ٥ ص ٤٣٩ سطر ٧ — ١٠ ان انحراف القبلة نشأ من بناء المسجد ملاصقاً للقصر بعد ان تم بناء القصر « وكان القصر غير مستقيم على القبلة »

(٦) البناء الذي خط مسجد المنصور هو الحجاج بن ارطاة . راجع الطبري جزء ٣ ص ٣٢١ ومعجم ياقوت جزء اول ص ٦٨١ سطر ١١ وابن الاثير جزء ٥ ص ٤٣٩ سطر ٧



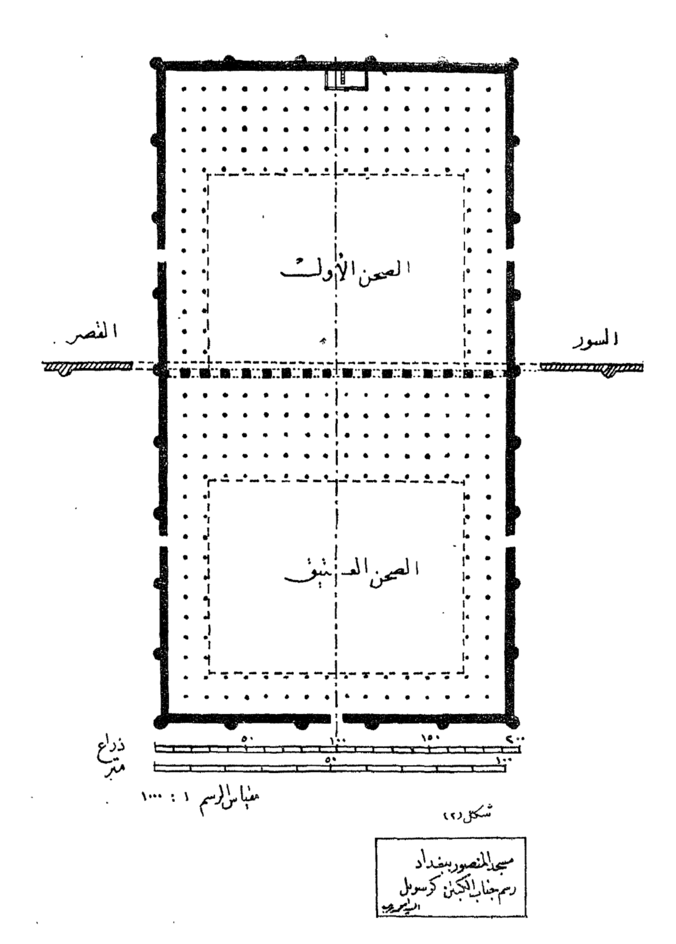
شكل (١)

العهدان الأول والثاني
المنصور ١٤٩ والرشيد ١٩٢ هـ

من بناء العهد الأول
وأزيل في العهد الثالث

العهد الثالث
المعتضد وبدر ٢٨٢ هـ

مسجد المنصور ببغداد
رسم هرتسفلد



شكل (٢)

مسجد المنصور ببغداد
رسم جناب الكبتن كرسويل

واعادة بنائه بالآجر والجص ففعل ذلك وكتب عليهِ اسم الرشيد وذكر امره ببنائه وتسمية البنّاء والنجّار[٧] وتاريخ ذلك . وهو ظاهر على الجدار خارج المسجد مما يلي باب خراسان الى وقتنا هذا . انبأنا ابراهيم بن مخلد اخبرنا اسماعيل الخطبي قال وهدم مسجد ابي جعفر المنصور وزيد في نواحيه وجدد بناؤه واحكم وكان الابتداء به في سنة ثنتين وتسعين والفراغ منهُ في سنة ثلاث وتسعين . فكانت الصلاة في الصحن العتيق الذي هو الجامع حتى زيد فيهِ الدار المعروفة بالقطان وكانت قديماً ديواناً للمنصور فأمر مفلح التركي ببنائها على يد صاحبه القطان فنسبت اليهِ وجعلت مصلى للناس وذلك في سنة ستين او احدى وستين ومائتين ثم زاد المعتضد بالله الصحن الاول وهو قصر المنصور ووصله بالجامع وفتح بين القصر والجامع العتيق في الجدار سبعة عشر طاقاً منها الى الصحن ثلاثة عشر والى الاروقة اربعة . وحوّل المنبر والمحراب والمقصورة الى المسجد الجديد . انبأنا ابراهيم بن مخلد اخبرنا اسماعيل بن علي قال واخبر امير المؤمنين المعتضد بالله بضيق المسجد الجامع بالجانب الغربي من مدينة السلام في مدينة المنصور وان الناس يضطرهم الضيق الى ان يصلوا في المواضع التي لايجوز في مثلها الصلاة فأمر بالزيادة فيهِ من قصر امير المؤمنين المنصور فبني مسجد على مثال المسجد الاول في مقداره او نحوه ثم فتح في صدر المسجد العتيق ووصل بهِ فاتسع بهِ الناس وكان الفراغ من بنائه والصلاة فيهِ في سنة ثمانين ومائتين. قال الخطيب الحافظ وزاد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المسقطات المعروفة بالبدرية في ذلك الوقت »

يستخلص مما رواه الخطيب انهُ كانت هناك ثلاثة عهود في تاريخ بناء هذا المسجد

١ — البناء الاول في عهد المنصور ١٤٩ ﻫ (٧٦٦ م)

وكان مربعاً طول كل ضلع من اضلاعه ٢٠٠ ذراع (وذلك يساوي ١٠٣٫٦٠ متر باعتبار ان طول الذراع = ٥١٫٨ سم) . وكان مبنيـًا باللبن والطين وعمده من الخشب، يتكوّن كل عمود منها من جذعين متصلين احدهما بالآخر من طرفيهما . وكان سقفهٍ من خشب الساج (كما روى ذلك ابن رسته[٨]) مستوياً ومرتكزاً على هذه العمد الخشبية مباشرةً

٢ — البناء الثاني في عهد هرون الرشيد ١٩٢ — ٣ ﻫ (٨٠٨—٩ م)

وكان يشبه الاول ويساويه في ابعاده مبنيـًا بالآجر والجص وبهِ كتابة في الجانب الشمالي الشرقي منهُ . وكانت نواة هذا البناء هي الصحن العتيق (الذي هو الجامع)

٣ — وبعد عودة الخلفاء من سرَّ مَنْ رأى سنة ٨٩٢ م اصبح المسجد يضيق بالمصلين حتى

(٧) يلاحظ هرتسفلد — ص ١٣٦ من كتاب البعثة الأثرية — ان الجدران المحيطة بالمسجد وحدها هي التي أعيد بناؤها بالطوب والمونة وان الاعمدة الخشبية بقيت او استعيض عنها بغيرها من مثيلاتها كما يتضح ذلك من ذكر النجار على مدخل المسجد . ونحن نرى ان ذكر النجار وتسميته لا يستنتج منه حتماً ما استنتجه منه هرتسفلد لان النجار قد احتيج اليه على كل حال في عمل السقف كما انه من المحتمل ان المسجد الجديد كالمسجد القديم كانت أعمدته من الخشب

(٨) ابن رسته ص ١٠٩ سطر ٣ و ٤ يصف ابن رسته هذا المسجد بقوله « انه بني بالآجر والجص ورفع على اساطين الساج وسقف بالساج المرصع باللازورد »

لقد كانت مساحة مسجد سرّ من رأى اكثر من اربعة امثال مساحته[٩] فاخذ الناس يصلون في بناء مجاور المسجد . لذلك أمر المعتضد بتوسيع المسجد والزيادة فيه (في سنة ٢٨٠ هـ و٨٩٣ م) فبنى على جزء من ارض قصر المنصور المتهدم مسجد ثانٍ ملاصق لصدر المسجد العتيق على مثال المسجد الاول في مقداره او نحوه وسمي صحنه بالصحن الاول تمييزاً له عن صحن المسجد العتيق

أما الجدار الذي كان يفصل المسجدين فقد هدمت منهُ اجزاء فتحت فيها طاقات توصل بين المسجدين . وقد اشار الى ذلك هرتسفلد نقلاً عن المقدسي — الذي كتب بعد ذلك العهد بقرن — فقد روى المقدسي عن مسجد مدينة فسا بمقاطعة فارس « ان له صحنين كمسجد مدينة السلام بينهما سقيفة » . اما المحراب القديم والمنبر والمقصورة فقد نقلت جميعاً الى المسجد الجديد

ويرى هرتسفلد «ان الصحن الجديد ليس وحده الذي اضيف الى المسجد بل اضيفت اليهِ ايضاً في الوقت نفسه دار القطان التي كانت قد اتخذت مصلى من ٢٦٠ او ٢٦١ . ولذلك لا يمكننا ان نعرف بالدقة مقدار المساحة التي اضيفت »

واضافة دار القطان التي يقول بها هرتسفلد . لم يرد ذكرها في جميع المراجع التي اشارت الى هذا المسجد . وسنرى عند مناقشتنا هذا الرأي استحالة التسليم بهِ

ونظرية هرتسفلد في تصميم بناء هذا المسجد هي كما يلي : —

ان فتح سبعة عشر طاقاً في الحائط الذي كان يفصل بين المسجدين — ثلاثة عشر منها الى الصحن واربعة الى الاروقة الجانبية — يدل على ان المسجد القديم لا بد كان يحتوي على سبعة عشر رواقاً من اليسار الى اليمين . وان الاروقة الجانبية كانت اربعة بكل جانب رواقان . وهذا يساعدنا على امكان تصميم هذا البناء وتقسيم الـ ٢٠٠ ذراع وهي طول ضلع المسجد كما يأتي : —

جدران وابراج مستديرة ٢	٧٫٥ × ٢ = ١٥
١٧ مسافة بين الاعمدة كل منها ٩ اذرع	١٧ × ٩ = ١٥٣
١٦ عموداً كل منها ذراعان	١٦ × ٢ = ٣٢
الجملة	٢٠٠ ذراع

غير أن عدد أروقة الايوان الكبير بالمسجد يبقى مجهولاً . ولكن نظراً لان الايوانين الجانبيين يحتوي كل منهما على رواقين فلا يمكن ان تقلّ اروقة الايوان الكبير عن اربعة . ويرى هرتسفلد أنها لا بد كانت خمسة كمسجد الكوفة الذي كان هو الآخر مربعاً . ولان النسبة ١٧ : ٥ توجد ايضاً بمسجد ابن طولون بمصر

(٩) كانت مساحة مسجد سر من رأى ٢٥٠ × ١٦٧ = ٤١٧٥٠ متر مربع بينما مساحة مسجد بغداد ١٠٣٦٦ × ١٠٣٦٦ = ١٠٧٣٣ متر مربع أي ان مسجد سر من رأى قدر مسجد بغداد اربع مرات وقد ذكر هرتسفلد (في الجزء الثاني ص ١٣٧) سهواً ان مساحة المسجد الاول قدر مساحة المسجد الثاني ٢٥ مرة والحقيقة أنها اربعة فقط

ويقول هرتسفلد « أما عن ازالة الاروقة الشمالية الغربية فأمر لا يزال قيد البحث . فالخطيب يروي في تاريخه ان ثلاثة عشر طاقاً فتحت الى صحن المسجد وهذا يفهم منه ان الاروقة قد ازيلت. الاّ ان وجود السقيفة التي يشير اليها المقدسي بين صحني مسجد فسا يجعلنا نرفض هذا الرأي وخاصة لان المقدسي قد ذكر الشبه بين مسجد فسا ومسجد المنصور في نفس العبارة »

وعلى ذلك فقد رسم هرتسفلد هذا المسجد وما ادخل عليه من التعديلات كما هو موضح بشكل (١) وتتلخص نظريته في ان المسجد بني ملاصقاً للجانب الجنوبي الغربي من سور القصر وان الجزء الذي اضيف اليه وهو الصحن الاول قد اضيف الى صدر المسجد وهو يريد بالصدر الجانب الشمالي الشرقي — وان سبعة عشر طاقاً فتحت في الحائط لايصال المسجدين احدهما بالآخر وان دار القطان اضيفت في الوقت نفسه الى المسجد من ناحية القبلة وان سبعة عشر طاقاً اخرى فتحت في حائط القبلة لايصال دار القطان بالمسجد والى هذه الزيادة الاخيرة نقل المحراب والمقصورة والمنبر

ورسم هرتسفلد للمسجد الاول مقنع الاّ في نقطة واحدة مثيرة للدهشة هي ان جدار القبلة بالمسجد ليس ملاصقاً للقصر لتمكين الخليفة من الذهاب من القصر الى المقصورة بالمسجد مباشرة والدخول من الباب الذي كان يوجد عادةً في جدار القبلة كما كان ذلك متبعاً منذ القرون الاولى للاسلام [١٠] وهذه الملاحظة وان كانت بالطبع لا تكفي لتسويغ رفض رسم هرتسفلد ولكنها على كل حال تدعو الى الشك فيه

على اننا اذا عالجنا الموضوع بدقة فاننا نجد عيوباً أخرى في هـذا الرسم . فان دار القطان التي كانت من الاماكن التي لا تجوز في مثلها الصلاة . والتي وسع المسجد وزيد فيه تجنباً للصلاة فيها قد اضافها هرتسفلد في رسمه الى المسجد . ومن الواضح ان ذلك استلزم فتح صفين من الطاقات في جداري المسجد العتيق كل منهما سبعة عشر طاقاً يصل اولهما بينه وبين الصحن الاول وثانيهما بينه وبين دار القطان . مع ان الخطيب قد ذكر ان الذي فتح هو صف واحد فقط من هذه الطاقات . ويتضح من الرسم ايضاً (شكل ١) ان المحراب والمنبر والمقصورة قد نقلت الى دار القطان بينما يروي الخطيب انها نقلت الى المسجد الجديد . فاذا كانت دار القطان قد اضيفت فعلاً الى المسجد (وابيحت الصلاة فيها) فلماذا اذن اضيفت الزيادة الاخرى الى المسجد في الوقت نفسه ؟ لاشك انهُ من المتعذر تعليل ذلك

على اننا لانجد مطلقاً في جميع المراجع التي لدينا اية اشارة الى أنَّ دار القطان قد اضيفت فعلاً الى المسجد بل ان الغرض من الزيادة في المسجد انما كان للاستغناء عنها. اذن فلماذا أضافها هرتسفلد ؟

اننا نعتقد انهُ اضطرّ لذلك ليتغلب على الصعوبة التي قامت في وجه نظريته بسبب ما رواه الخطيب عن نقل المحراب والمنبر والمقصورة الى المسجد الجديد . وان هذا يثبت ان المسجد الجديد لا بدّ

(١٠) انظر كتاب العمارة الاسلامية للكبتن كرسويل جزء ١ ص ١٨ — ١٩

قد أضيف الى المسجد القديم من جانب القبلة لان المحراب لا يمكن نقله بطبيعة الحال الى جانب آخر بالمسجد سوى جانب القبلة

ولكن هرتسفلد في الوقت نفسه قد اوضح في رسمه ان المسجد الجديد لم يضف الى جانب القبلة بل الى الجانب الآخر المواجه له وهذا بطبيعة الحال لا يستلزم نقل المحراب والمنبر والمقصورة

فتغلباً على الصعوبة التي اعترضت هرتسفلد ازاء رواية الخطيب عن نقل المحراب الخ اضطر الى القول بأن دار القطان قد ادخلت ايضاً في المسجد في نفس الوقت ونقل اليها المحراب والمنبر والمقصورة

اما نحن فلا نقر هذه النظرية بل اننا نؤكد ان كل ما ذكره الخطيب في هذا الشأن هو قوله « ان المسجد بني ملاصقاً للقصر » دون تحديد الجانب الذي بني فيه وبناء على ذلك فلنا ان نختار الموضع الذي نعتقد انهُ اكثر ملاءمة والذي يرجح انهُ بني فيه ثم لننظر الى اي حد يمكن ان يتفق هذا الوضع مع الحقائق التي نعلمها عن هذا المسجد

ونحن نرى ان المسجد الجديد بني ملاصقاً لجانب القبلة[11] ويعزز رأينا هذا ما يأتي :—

اولاً — قول الخطيب « وكتب عليه (اي المسجد) اسم الرشيد وذكر امره ببنائه وتسمية البنّاء والنجّار وتاريخ ذلك وهو ظاهر على الجدار خارج المسجد مما يلي باب خراسان »

وهذه الكتابة كانت بلا شك على المدخل الرئيسي للمسجد الذي كان يقع بالجانب القريب من باب خراسان اي في الشمال الشرقي

ثانياً — يقول الخطيب عن الزيادة التي ادخلت في المسجد

(ا) «فبنى مسجد على مثال المسجد الاول في مقداره او نحوه ثم فتح في صدر المسجد العتيق ووصل بهِ فاتسع بهِ الناس الخ » . والصدر هنا هو المكان المواجه للمدخل او البعيد عن المدخل او هو في الحقيقة ما يجب ان نسميه مؤخر المسجد (او الايوان الكبير)

(ب) ويقول ايضاً « ثم زاد المعتضد بالله الصحن الاول وهو قصر المنصور ووصله بالجامع وفتح بين القصر والجامع العتيق في الجدار سبعة عشر طاقاً منها الى الصحن ثلاثة عشر والى الاروقة اربعة وحوّل المنبر والمحراب والمقصورة الى المسجد الجديد »

فاذا فتحنا الطاقات في حائط القبلة واضفنا الى المسجد العتيق مسجداً على مثاله في مقداره او نحوه — عدا الرواق الشمالي الشرقي الذي ليس ثمة حاجة اليهِ — ونقلنا المحراب والمنبر والمقصورة الى هذا المسجد الجديد ، فاننا نجد ان هذا يتفق تماماً ورواية الخطيب ، ويتضح ذلك جليًّا في الشكل رقم (٢) ولا تكون ثمة حاجة الى القول باضافة دار القطان الى المسجد في حين ان الغرض الاساسي من الزيادة في المسجد انما كان هو الاستغناء عنها

(١١) يضع لسترينج هذا المسجد في الجانب الجنوبي الشرقي وهو رأي لا نقره عليه (بغداد ٣٥)

وقد روى ابن رسته ان مسجد المنصور كان مزخرفاً ومرصعاً باللازورد[١٢] وهو بالطبع يشير بقوله هذا الى المسجد الذي رآه في سنة ٩٠٣ م والذي لا يرجع اقدم جزء فيه الى ابعد من عهد هرون الرشيد

﴿ التاريخ اللاحق للمسجد ﴾ ورد ذكر هذا المسجد كثيراً في قرون تالية : فقد أشار اليهِ Benjamine of Tudela[١٣] سنة ١١٦٠ بقوله « وكان الخليفة يغادر قصره مرة واحدة في السنة حين كان يذهب في حفل رسمي الى المسجد الجامع عند باب البصرة »

كما ذكره ابن جبير سنة ١١٨٤[١٤] ويظهر انهُ لم يصب بسوء عند ما حاصر المغول بغداد وهاجموها ونهبوها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) مع ما تعرضت له بغداد من التخريب وما عانته من اهوال . ويستدل على ذلك بعدم ورود اسمه بثبت المساجد والاضرحة التي احرقت بسبب الحرب ثم اعيد اصلاحها بامر هولاكو خان[١٥] وذكره ابن بطوطة[١٦] بصريح العبارة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧م) عند وصفه للشاطىء الغربي وقال عنهُ انهُ مسجد ابي جعفر المنصور وانهُ كائن بحي باب البصرة

ويرى لسترينج Le Strange[١٧] ان تيمورلنك استولى على بغداد (٧٩٥ هـ ١٣٩٣م) وانهُ امر بعد عام باعادة بنائها وان المسجد قد يكون هدم اثناء ذلك الاَّ اننا نجد بدرو تايكسيرا[١٨] Pedro Teixeira سنة ١٦٠٤ يقول «ولا نزال نرى في بغداد اطلال المباني الرائعة التي خلفتها عصور الحضارة الفارسية كالمسجد الذي يطلقون عليهِ اسم مسجد الخليفة والآثار الاخرى في الجانب الآخر من النهر والمدرسة التي كانت مستشفى الخ »

ويظهر ان « مسجد الخليفة » هذا هو مسجد المنصور الذي نحن بصدده . وخاصة لقوله عن الآثار الاخرى انها « في الجانب الآخر من النهر كالمدرسة التي كانت مستشفى » ونظراً لاننا نعلم ان المدرسة المستنصرية كان بها مستشفى وكانت تقع على الشاطىء الشرقي . فيستنتج من ذلك ان المسجد كان يقع في الجانب الغربي للنهر . وهذا بالضبط هو موقع مدينة بغداد المدوّرة التي بناها المنصور وبنى بها مسجده العتيق . ويظهر ان هذا المسجد قد تخرب وامحت آثاره نهائيًّا بعد زيارة تايكسييرا بغداد بعشرين عاماً لان مرتضى نظمي زاده[١٩] يقول : — « وبعد ان استولى الفرس على بغداد سنة ١٠٣٣ هـ ١٦٢٣ — ٤ م عملت فيها يد التخريب والتدمير فتهدمت المدارس والمساجد وغيرها من آثار الخلفاء العباسيين واصبحت اطلالاً ينعق بها البوم او اتخذت حظائر للحيوانات بعـد ان شهدت حضارة العباسيين وحفلت بذكراهم » . لذلك لا نجد ذكراً لهذا المسجد فيما كتبهُ نيبوهر[٢٠] Neibuhr عن بغداد سنة ١٧٦٥ مما يدل على انهُ لم يكن له أثر ببغداد عند زيارة نيبوهر لها

(١٢) ابن رسته ص ١٠٩ سطر ٤ (١٣) Benjamine of Tudela ترجمة Asher جزء ١ ص ٩٦ — ٧
(١٤) ابن جبير طبعة Wright ص ٢٢٧ و ٢٣٠ وطبعة دجويه ترجمة شياباريللي Schiaparelli ص ٢١٤ و ٢١٧ (١٥) لسترينج ص ٣٧ (١٦) ابن بطوطة جزء ٢ ص ١٠٧ (١٧) لسترينج ص ٣٧
(١٨) ترجمة سنكلير ٦٤ — ٥ (١٩) ترجمة هوارت في كتاب تاريخ بغداد في العصور الحديثة ص ٥٩ Histoire de Baghdad dans les temps modernes, 59
(٢٠) رحلة في بلاد العرب جزء ٢ ص ٢٣٩ Voyage en Arabie

روح الروّاد

الاميرال رتشرد برد الاميركي
يقضي الشتاء القطبي وحيداً في محلة نائية

نقلت الينا الانباء البرقية في خلال شهر فبراير الماضي ان بعثة الاميرال برد ، الرائد القطبي الاميركي ، اكتشفت في الاصقاع المتجمدة الجنوبية ارضاً مساحتها ٢٠٠ الف ميل مربع ، اطلقت عليها اسم « ارض ماري برد » ورفعت عليها العلم الاميركي . والواقع ان رجال البعثة اكتشفوا هذه الارض في خلال اقامتهم هناك في السنتين الاخيرتين ، ورادوا بعض مجاهلها . وبعد ما حققت البعثة البرنامج الذي وضعته لزيارة تلك الاصقاع ، جمعت معداتها وعادت الى اميركا فبلغت عند كتابة هذه السطور مرفأ دونيدن بزيلندا الجديدة

وفي ما يلي وصف لأهم ما قام به رجالها وعلماؤها من المباحث النفيسة وقصة الشتاء القطبي المظلم البارد الذي قضاه قائدها الاميرال برد ، وحيداً في محلة نائية ، رغبة منه في دراسة الظواهر الجوية في تلك البلاد . وهي من أروع القصص في تاريخ الريادة الحديثة والقديمة على السواء

البعثة وأغراضها العلمية

الاميرال رتشرد اڤلين برد Byrd أول رجل طار الى القطبين . فقد طار الى القطب الشمالي في سنة ١٩٢٦ بطيارة صحبهُ فيها زميله وصديقهُ فلويد بنِت . قام من سبتسبرجن متجهاً الى القطب الشمالي فبلغهُ وحوّم فوقهُ ثم عاد الى سبتسبرجن بعد ١٦ ساعة من الطيران . وقصة هذه الرحلة مدوّنة في كتابنا « الروّاد » . ثم نظّم بعثة الى الاصقاع المتجمدة الجنوبية سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩ كان من أهم فعالها طيران برد وبعض صحبهِ الى القطب الجنوبي ، وتحدثهم لاسلكيًّا وهم محلقون فوق القطب ، مع محطة لاسلكية خاصة بمدينة نيويورك . بيد أنهُ لم يقتنع بكل هذا . فعمد من نحو ثلاث سنوات الى اعداد بعثة جديدة لريادة الاصقاع المتجمدة الجنوبية ، بالطيارات والسيارات والمزالق تجرُّها الكلاب . ووضع لبعثتهِ الجديدة برنامجاً يستغرق تحقيقهُ سنتين وغرضهُ العام ، البحث في احوال تلك البلاد من النواحي الجغرافية والجوية والبيولوجية وما اليها . وكانت معدات البعثة مؤلفة من سفينتين احداها من الصلب والثانية من الخشب ، واربع طيارات ، وست سيارات نقل ، و١٥٠ كلباً ، وكان رجالها نحو ١٢٠ رجلاً ، منهم نصفهم او نحو النصف من رجال البحث العلمي

وقد كتب الاميرال مقالاً في جريدة النيويورك تيمس ، افتتحهُ بقولهِ : — كثيراً ما يوجَّه اليَّ السؤال عن الفائدة التي يمكن ان تجنى من ريادة الاصقاع الجنوبية المتجمدة ، وانفاق بدرات

الاموال وتعريض ارواح الناس في سبيلها . والردُّ على هذا السؤال ان كشف الاراضي الجديدة اقل هذه الفوائد شأناً . بل هو ليس الاَّ وسيلةً الى مكتشفات ابعد غوراً واعظم شأناً . فالريادة الحديثة لا تبلغ مستوى الكرامة العالية التي تتسق مع همم اصحابها وجهودهم ، الاَّ متى تحرَّرت من قيود خطوط العرض والطول . فبين البحوث التي اعددنا لها المعدَّات نجد علوماً مثل الفلك والظواهر الجوية والنبات والحيوان والمعادن والاوقيانوغرافيا (علم المحيطات) والآثار المتحجرة والجولوجية الاقتصادية والجولوجية الطبيعية والمغناطيسية الارضية والعلوم او فروع العلوم الخاصة بالجمد والثلج وعلم مواقع النفط وغيرها . فالكشف عن مناطق مجهولة في تلك البلاد ليس الاَّ غرضاً واحداً من اغراض عديدة يتجه اليها الروَّاد في هذا العصر

والبعثة الثانية التي نظمها الاميرال برد كشفت كما قلنا « ارض ماري برد » واستطلعت احوالها الجغرافية فعرفت السهل منها والجبل والشاطئ ، ويتوقع رجال البعثة ، ان يرسموا لها خريطة على جانب وافر من الدقة ، عند وصولهم الى اميركا ، مستندين الى الحقائق التي دوَّنوها والصور التي صوَّروها في خلال الطيران فوقها او عند ريادتها بالمزالق تجرُّها الكلاب

وقد عني هينز وغرمنغر من علماء البعثة بتدوين الارصاد الجوية ، ولم يكتفوا بالارصاد على سطح الجمد بل اطلقوا البلونات في الجوّ ، تحمل الآلة المدوِّنة من تلقاءِ نفسها ، لمعرفة احوال الجوّ في طبقاته العالية . ومن الخطاءِ ان يظنَّ ان احوال الجوّ حول القطب الجنوبي لا صلة لها بالاحوال الجوّية في سائر الاقطار . فاحوال الارض الجوية لا يمكن ان تقسَّم الى اقسام مفصول بعضها عن بعض كأنها حُجَرٌ بينها جدران كثيفة فاصلة ولكن ليس بينها ابواب

وقد حملت البعثة الى تلك الاقطار النائية ، احد الاجهزة التي اعدَّها الاستاذ آرثر كمطن لقياس الاشعة الكونية ومعرفة هل هي جسيمات دقيقة او فوتونات اي امواج قصيرة نفَّاذة من قبيل اشعة اكس واشعة غمَّا ولكنها اقصر منها امواجاً وأقوى نفوذاً للمواد . ونتائج القياسات التي قامت بها البعثة في هذا الصدد اميل الى تأييد الرأي بانها من قبيل الجسيمات . ولم يكتفِ بقياس الاشعة الكونية على سطح الجمد ، بل ارسلت الآلة في طيارة الى علو ١٢٥٠٠ قدم

ووجَّه علماء الحياة من رجال البعثة وهم اربعة جلَّ عنايتهم الى دراسة الاحياء المختلفة من حيوان ونبات مما يعيش على سطح الارض مثل الطيور واخصها طير البطريق والفقَّم او مما يعيش في اغوار الماء من الاحياء المكرسكوبية . وقد ظلَّ العلماء ونتر وبركنز وسترت ينزلون شباكهم في مياه خليج الحيتان لاخراج نماذج من هذه الاحياء حتى تجمَّد سطح الماء ، واصبحت تدلية الشباك في الماء متعذِّرة

ومما يسترعي النظر في مباحث البعثة العلمية ، ابتداع طريقة جديدة ، تعتمد على قياس سرعة امواج الصوت في الاجسام الصلدة لمعرفة ما تحت الغطاء الجليدي في تلك البلاد . فقد كان الرأي السائد بين العلماء ان الغطاء الجليدي في الاصقاع المتجمدة الجنوبية عند ريف رُسْ Ross Shelf قائم

على الماء فاثبت البحث بهذه الطريقة ان الغطاء الجليدي قائم على دعامات من اليابسة بعضها جزائر قائمة في الماء يغطيها الجمد فلا يمكن ان تكشف حقيقتها الاَّ بالاعتماد على هذه الطريقة العلمية . ومن هذه الدعامات جزيرة قمتها تعلو ١٠٠٠ قدم عن سطح البحر ويغشاها غطاء من الجمد كثافته ٤٠٠ قدم . والحقائق التي كشفت بهذه الطريقة تمكن العلماء من تقدير الجمد في القارة المتجمدة الجنوبية ، تقديراً قريباً من الحقيقة . وبالطريقة نفسها اثبت رجال البعثة ان القارة المتجمدة الجنوبية ، ليست قطعتين من اليابسة بينهما مضيق متجمد ، بل هي قطعة واحدة لا فاصل يفصلها

هذا يسير من النواحي العلمية التي عنيت بها بعثة الاميرال برد الثانية الى الاصقاع المتجمدة الجنوبية . ولكن الغرض الاول من هذا المقال ليس ذكر النتائج العلمية فحسب لانها على خطرها ليست الاَّ نتائج اولية للمباحث المنوَّعة التي قام بها رجال البعثة ، وانما القصد ، ان نروي قصةً تتجلى فيها روح الروَّاد عامرة بفضائل الاقدام والصبر والتضحية في سبيل العلم

برد وعزلته العجيبة

ما قول القارىء في رجل يبتني لهُ حجرة في ابرد بقعة سكنها انسان على الاطلاق ، لا تبعد الاَّ قليلاً عن القطب الجنوبي ، ثم اذا اقبل الليل القطبيُّ بظلامه الدامس الذي يستمر اربعة اشهر او تزيد ، يودّع الرجل رفاقهُ ، ومقرُّهم يبعد عنهُ مئات الاميال ، ويأوي وحيداً الى حجرته ، بعد ان يقطع كلَّ صلة لهُ بالحياة . هناك تكر الايام والشهور لا يرنُّ في اذنيه الاَّ عصف الرياح وزئير العواصف الثلجية ، ولا يطالعهُ من الاحياء وجه ولا يبهجه من الشمس شعاع . فلو انهُ قضى الاربعة اشهر هذه ، على وجه القمر المعرض عن الشمس ، لما كان اشدَّ عزلةً مما كان ؟

كان روَّاد الاصقاع المتجمدة الجنوبية قد اكتفوا بتدوين ارصاد الظواهر الجوية ، على شواطىء تلك القارة في الغالب . ولكن الاميرال برد أدرك أن الوصول إلى رأي علمي في الموضوع يصح الاعتماد عليهِ ، يقتضي انشاءَ محطة للظواهر الجوية في الداخل على مقربة من القطب ، وموالاة رصد تلك الظواهر فيها في خلال الليل القطبي الدامس . فبنيت المحطة واختار ان يكون هو الراصد الوحيد ، فعانى من الصعاب والاهوال والآلام في خلال ذلك ، ما تنخذل أمامهُ مشيئة الانسان العاديّ . ولكنهُ غالب الصعاب والآلام ، وغلب ، بباعث من حسن التدبير وصلابة النفس وقوة الايمان

والظاهر أنهُ كان في خلال الاسابيع الاول من عزلتهِ ، متمتعاً بنوع من البهجة لا تبلغها الاَّ نفس الفيلسوف في الوحدة التامة . وكان يرحب بالصعاب ، على أنها امتحان لقدرتهِ على مواجهتها . فلما توالت عليهِ الايام والليالي ، متشابهة في ظلامها وبردها وانقطاعهِ فيها عن كل سبب من أسباب الحياة التي ألفها ، بدأت غيوم الفاجعة تتلبد في أفقهِ . فقد أصيب بتسمم من استنشاقهِ لدخان البترول الذي يحرقهُ في موقده ، ومن بنزين الآلة التي كان يستعملها لتجهيز آلته اللاسلكية بالطاقة التي تحتاج اليها

كان قد فضّل البترول على الفحم ، لانهُ لما شرع في اعداد معداته ، كان الليل القطبي قد اقترب وأصبح متعذراً على رجالهِ أن يأتوا بالقدر الكافي من الفحم من مقرّهم الى هذه المحلة النائية

كان قدانقضى عليهِ بضعة أشهر وهو يستنشق هذا الدخان ، وهو لا يحس بأثرهِ في جسمهِ . فلما كان يوم ٣١ مايو سنة ١٩٣٤ ، أنهى اذاعته اللاسلكية ، ودخل النفق الجليدي ، ليوقف المحرك الخاص بالجهاز اللاسلكي فوقع مغشيًّا عليهِ . ولما أفاق كان خائر العزم ، فأدرك أن حالتهُ تنذر بالخطر . هل فكّر عندها في نفسهِ ؟ هل خطر على بالهِ أن يبعث باشارة لاسلكية يطلب بها النجدة ، فيهب فريق من أعوانهِ الى نجدتهِ ؟ كلاّ . انهُ كان يعلم ان الرحلة من المقرّ الرئيسي الى هذه المحلة النائية ، في ظلام الليل القطبي عمل محفوف بالاخطار . فلماذا يعرّض رجاله للموت في سبيل انقاذه؟ أوى في تلك الليلة الى فراشه ، مريضاً ، ضعيفاً ، وحيداً تواجههُ ثلاثة شهور من الظلام الدامس لا تزال امامهُ . البرد الشديد داخل حجرتهِ وخارجها فاذا اصطلى بالموقد استنشق دخانهُ السام . واذا اطفأ الموقد هرئت اطرافهِ ومات برداً . ماذا يفعل ؟ أوى ان فراشه واخذ القلم بيد خائرة مرتعشة وكتب تعليماته لرجال البعثة كتابة مفصّلة وختمها بقولهِ : لا تقلقوا ولا تضطربوا . امضوا في عملكم . لا تنوا في تحقيق برنامجكم العلمي . ابذلوا ما تستطيعون في سبيل مساعدة « الزورث »[1]

وبعد ما اتمّ كتابتها لفّها وربطها وعلّقها بمسمار على الجدار ، حيث يستطيع كل احد ان يراها . وكانت لا تزال هناك ، لما اقبل عليهِ صحبهُ ، بعد انقشاع الظلام القطبي الدامس

بعد انقضاء يومين على هذا ، اتصل بالمقرّ الرئيسي المعروف باسم « اميركا الصغيرة » اتصالاً لاسلكيًّا ، ولكنهُ لم يفُهْ بكلمة واحدة عن حالتهِ . وكذلك قضى اسابيع معلقاً بين الموت والحياة وهو لا يعلم هل يستطيع هذا الجسم الانساني ، ان يتغلّب على بواعث السقم ، ولكنهُ كان يعلم أن الروح الانسانية تستطيع ان تتغلّب على بواعث الضعف . كان عليهِ ان ينقر على آلتهِ اللاسلكي « S. O. S. » طلباً للنجدة فيفوز بها ، ولكنهُ لم يفعل

بل انهُ فعل اكثر من هذا ! كانت قواه الجسدية على أضعفها . وكان في حاجة الى كل دقيقة من الراحة . بل كان يجب عليهِ ان يضنّ بأيّ عمل يقتضي انفاق الطاقة ، لعلّ الراحة والضنّ بالنشاط يمكنانهِ من التغلب على السقم . ولكنهُ كان يعلم أنهُ اذا توقف عن الاتصال « باميركا الصغرى » في المواعيد المقررة ، يظن رجالهُ السوءَ فيهبون الى نجدتهِ ، معرضين أرواحهم للخطر . فكان في المواعيد المقررة للاتصال اللاسلكي يزحف زحفاً ، الى المحرك يحملهُ الى النفق ليذيب الجمد عنهُ بدفءِ الموقد . وكان وزن هذا المحرّك ٣٥ رطلاً فقط ، ولكن « برد » كان لا يتم نقلهُ بضعة أمتار الاّ في ساعات ، لشدة ما كان يعانيه من الضعف والالم والبرد . والادهى من ذلك ، أنهُ كان يقطّع كلامهُ عن ارصاده العلمية ، بمُلَحٍ تثير مرح أصحابهِ

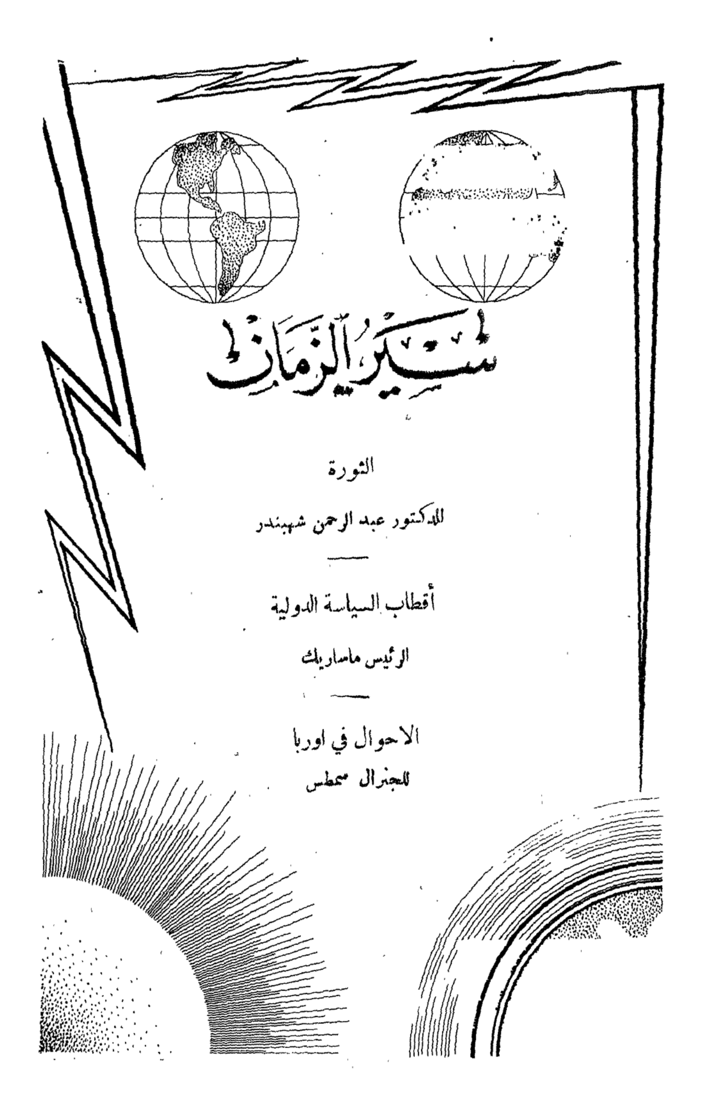
(١) رائد اميركي آخر كان يستكشف ناحية اخرى من القارة المتجمدة الجنوبية

ارصاده العلمية ! نعم ارصاده العلمية ! ذلك ان برد ، مع كل ما عانى، لم يهمل ارصاده العلمية يوماً واحداً ، كلفهُ ذلك من المشقة والالم ما كلف . فكان يخرج خمس مرات في اليوم ، لمراقبة الشفق القطبيّ وتدوين وصفهِ واتجاههِ وعلوهِ وقوة ضوئهِ . وكان الشفق يطول احياناً ، فيظلُّ برد مدى نصف ساعة او اكثر ، وهو يدوّن ما يطرأ عليهِ من التغير الاخّاذ في شكله ولونهِ . وهـذا عدا الارصاد المتيورولوجية المختلفة . ويقول الدكتور پولتر رئيس علماء البعثة ، انهم لما اقبلوا عليهِ ، وجدوا ارصاده مدوّنة احسن تدوين . وعنده ان ما تنطوي عليه هـذه الارصاد من الحقائق لابدَّ ان يكون ذا أثر كبير في ترقيه علم الظواهر الجوية

ظلَّ برد على هذه الحالة شهراً من الزمان يرى الموت امامهُ ولـكن ارادتهُ لم تخنه في يوم من الايام . ادرك ان العقل يقضي بتوفير نشاطهِ للاعمال التي لا بدَّ منها كالاتصال اللاسلـكي برفاقهِ وتدوين الارصاد الجوية . فتوقف عن ادارة الفونغراف لما تقتضيه تعبئته من الجهد . وتوقف عن اشعال الموقد البترولي ١٤ ساعة كل يوم ، مرتباً ذلك حتى يكون الاطفاء عند ما يكون آوياً الى كيسهِ ، بحيث يستطيع ان يصيب قليلا من الدفء من دون ان يتعرض كل التعرض للدخان السام. وقد كانت درجة البرد خارج الحجرة ، تبلغ سبعين درجة تحت الصفر ، وبلغت مرة واحدة ٨٠ درجة تحت الصفر . وكانت درجة البرد داخل الحجرة ٣٠ درجة تحت الصفر ، مع اختلاف قليل . وتوقف عن طبخ طعام ، مكتفياً بالطعام المقدد المحفوظ تحت سريره ، توفيراً للذهاب والمجيء لغير داع ضروري . وقد كان من اثر ذلك ان اضطرب هضمهُ وصارت نفسه تعاف الطعام ، مع أنهُ كان في اشد الحاجة الى كل ما يغذيهِ ويقويهِ . وتوقف عن القراءة والـكتابة ، جهد طاقتهِ ، وكان يزاولها في بدء عزلتهِ . وكذلك استطاع ، بعزيمة تفلُّ الحديد ، وعقل يدرك الحقائق ويواجهها ويختطُّ الطرق للتغلب عليها ، أن يقتصد في نشاطهِ ، فما انقضى شهر يوليو (١٩٣٤) عليهِ حتى استردَّ قواه رويداً رويداً ، فنجا من الخطر المحدق بهِ . فلما وصل صحبهُ اليه في اغسطس ، كان لا يزال ضعيفاً شاحباً ولـكن المعركة بين الطبيعة ورجل فرد كانت قد انتهت بانتصار الرجل ، فحياهم وعلى ثغره بسمة قائلا : «اهلا بالصحب»

ومن أقوالهِ بعيد اتصاله برفاقهِ وعودتهِ الى المقرّ الرئيسيّ : «لا يستطيع رجل عاقل مثقف ان يقضي عدة أشهر في حجرة صغيرة ، لا يكتنفهُ فيها الاَّ الظلام الدامس والبرد الشديد ، من دون أن يكتشف شيئاً جديداً في نفسهِ ، فكأنني كنت شجرة ارسلت جذورها في تربة لم تألفها ، أو كأنني كنت رجلا انتقل من الارض الى سيّار آخر . ومع ذلك فقد أتت عليَّ فترات أحسست فيها بطمأنينة وغبطة أعجز عن وصفهما . ولا أذكر أنني سعدت في حياتي قدر سعادتي في الشهرين الاولين من اقامتي هناك»

اننا ـ والحق يقال ـ لا نعرف في قصص الحياة ولا في مبتدعات الخيال قصة اروع من هذه القصة!


سير الزمان
الثورة
الدكتور عبد الرحمن شهبندر
أقطاب السياسة الدولية
الرئيس ماساريك
الاحوال في اوربا
للجنرال سمطس



ليون دوديه الكاتب الفرنسي المشهور

Leon Daudet

(انظر مقالة الآنسة مه، صفحة ٧١١)

الثورة

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

— ١ —

اذا ضاق بك ثوبك وأصبح خلقاً أكلت جدَّته الايام وذهبت برونقه الطبيعة فمزقتهُ وخلعتهُ عن جسدك والقيتهُ في الأرض فأنت في شرعة الألبسة ثائر ، ولك في عالم الحياة الطبيعية أشباه ونظائر فان بعض الحشرات تنمو في غطاء قرني قاس الى اذ يضيق بها فتمزقهُ بانتفاضة فجائية وتخلعه عن بدنها ثم تعود فتفرز غطاء آخر أوسع منهُ ولكنها تنمو ثانية في هذا الثوب الجديد حتى يصير ضيقاً فتخلعهُ كالاول لتكتسي بأوسع منهُ وهكذا تتبدل ثوباً من ثوب الى ان تبلغ رشدها ، وليس كابوس الاوضاع الاجتماعية السياسية والدينية والاخلاقية والاقتصادية متى ضاقت أو هرمت أقل ارهاقاً واضناءً من هذا الثوب أو الغطاء

حدث لي في حدود سنة ١٩٢٨ ان زارني في مصر صحفي من خيرة أبنائنا في الولايات المتحدة وهو الاستاذ حبيب كاتبه فأخذ مني حديثاً لينشره في أميركا عن سورية وحالتها الحاضرة فتطرقنا الى ذكر الثورة السورية الكبرى وأسبابها ودواعيها فرأيت منهُ شيئاً من الوجوم والتردد في ذكرها أو تدوينها فسألتهُ فقال « ان في الولايات المتحدة نفرة منكرة من الثورات جميعها ومن ذكرها وليس من المبالغة في شيء ان أقول لك يكاد يكون (غاندي) معبود الاميركيين لانهُ لا يتوسل الى اغراضهُ بالعنف والشدة » . وغني عن البيان ان مثل هذا الكلام الذي تفضل بهِ الصديق يدل على الذهنية التي يكون عليها الآمن فينسى كيف يكون الخائف، والشبعان فينسى كيف يكون الجوْعان، والحصين فينسى كيف يكون المهدد . فاميركا كانت يوم جرى هذا الحديث تتمتع برأس مال ورخاءٍ ونفوذ لا تشق غباره سائر الدول وهي الدولة الدائنة واوربا المدينة ، وكانت الأموال الأجنبية تتدفق على أسواقها لشراء أسهمها ومحصولاتها والاشتراك في المشروعات الصناعية القائمة في بلادها بينما كانت سورية على شفا الهاوية تتجرد من أموالها ورجالها وتهدد في صميم حياتها وقوميتها ولا يكاد يبلغ الصادر منها الخمس من الوارد اليها ، فلا عجب ان تكون سورية ثائرة وأميركا راضية وان ينفر أبناء هذه من سماع أحاديث تلك عن الثورات والانقلابات لان الذي يتمتع بالصحة لا يشعر بآلام المرضى . وفي التاريخ ان الملكة ماري انتوانت لما أتاها الشعب المتظلم يشكو فقد الخبز استغربت فقالت لِمَ لا تأكلون الكعك ؟!

ومن العجيب ان اخواننا الاميركيين الذين ينفرون اليوم من سماع أحاديث الثورات طلباً للحرية والاستقلال كانوا أول من ثار للخلاص من حكم الانكليز مع أنهم أهلهم وعشيرتهم ، وأول

من سنّ قاعدة لا ضرائب من غير تمثيل ، ولا يقل اعجابهم بواشنطن واخوانه الميامين من رجال الثورة عن اعجاب الفرنسيين بجان جاك روسو ومن وضع نظرياته في الثورة الفرنسية موضع العمل . وقد رأيت في الاميركيين نفرة خاصة من تلك العادة الصينية الهمجية وهي وضع أرجل البنات في قالب لضغطها وابقائها صغيرة ضمن نطاق من الحديد فكانوا يثيرون شعور التلاميذ الصينيين لتحطيم هذه العادة ورضخ هذه القوالب الضيقة حتى تتمكن الارجل من النموّ الطبيعي ، أفليس عجباً أن يدعوا الى الثورة العلنية دفاعاً عن حجز حرية الارجل وينفروا من الثورة للدفاع عن حرية الجماجم ؟ وهل قالب من الحديد في الارجل طوله وعرضه ووزنه يقاس بالقراريط والدراهم أثقل على الطبع من مدرعة منيخة على الرؤوس طولها وعرضها ووزنها يقاس بمئات الاذرع وألوف القناطير ؟

ولندع الآن المشاعر التي لا ضابط لها وأسباب الحب والبغض القائمة على الاوهام ولنلق نظرة عامة على ما يجري تحت سمعنا وبصرنا في البيئات البسيطة وبين الجماعات الساذجة لان درس الاوضاع في مثل هذه الاحوال يزوّدنا بالملاحظات القيمة

منذ نحو عشر سنوات غزت قبائل نجد بلاد الحجاز وكانت الدعاية التي أثارت الحماسة في هذه القبائل ان أهل الحجاز مشركون مرتدون لأنهم يزورون القبور ويعظمون القباب ويرتكبون من الجرائم المنكرة تدخين التبغ وغير ذلك فبدأت الغارة على مدينة الطائف شنّها الوهابيون فقتلوا النساء والرجال والاطفال وكان من بين القتلى شيوخ شهد الجميع بحرمتهم والعلوم النقلية التي امتازوا بها ، ولكن الغزاة المتشددين المتحمسين لم يرحموا أحداً لان المرتدين في نظرهم ليس لهم أمان ولا تجوز عليهم الرحمة ولا الشفقة ، ومن بعد ما فتحوا البلاد قبضوا على ناصية الحكم فيها بيد حديدية وطبقوا اجتهادهم الديني عليها تطبيقاً دقيقاً فمنعوا زيارة قبور الاولياء وهدموا القباب ودرسوا معالم الآثار وحتموا على الافراد حضور صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم فمن تغيب لغير ما عذر نفذت فيه الحدود ومن وجد يحمل لفافة تبغ سيق الى السجن ، أما الفنون الجميلة فقد أصيب الغناء منها خاصة بأعظم الاضطهاد حتى أن صفائح المقول منع استيرادها منعاً باتاً ومن وجدت في بيته كسرت على رأسه ، ولولا حكمة الملك عبد العزيز بن سعود لقطع علماء نجد اسلاك الهاتف لانها في حسابهم بدعة من عمل الشيطان ، وقد اقنعهم بخطئهم في الاجتهاد ان اسمعهم آيات الذكر الحكيم بالتلفون ، واجتماعها هي والشياطين على صعيد واحد مستحيل طبعاً

فلنفرض الآن يا معاشر الغربيين عامّة والاميركيين منكم خاصة ان افراداً من اهل الطائف تعلموا في مدارسكم على الطريقة الحديثة فغضبوا للدماء المهراقة ولم يصبروا على هدم الآثار وحمل الناس على عقيدة خاصة بالقوة وكانوا ممن أولعوا بالفن وقدروا قيمته الاجتماعية فحاولوا بواسطة التنظيم وبث الدعاية وجمع القوى المتفرقة احداث انقلاب كائنة ما كانت الوسائل المؤدية الى تنفيذه فهل تصمون آذانكم ايضاً عن سماع صياحهم ؟ ام حدوث مثل هذه الفتنة بسبب التعاليم التي تبثونها في بلاد الشرق يرضيكم عن

القائمين بها ؟ وليثق اعداء الانتقاض على الغرب واصدقاء الفتنة في بلاد الشرق ان الوضعة التي عليها الأقوام المستعمرة لا تختلف عن الوضعة التي عليهـا اهل الطائف الا في ان الغزاة في الاستعمار اجانب وهمهم الاول استثمار المال واستنزاف الثروة الموضعية واحتكار المرافق على انواعها ، واذا ما التفتوا الى شيء من العقيدة والدين فانما يلتفتون الى ما يزرع بذور التفرقة بين الاهلين ويقوي الدواعي المؤدية الى التنافر والتناحر في افرادهم . ومهما قيل عن الربح المادي في الغزوة الوهابية فان الغاية عند مؤسس المذهب هي على التحقيق مثل الغاية في الاسلام معنوية روحية اخلاقية . ولا عبرة مطلقاً بما يدعيه المحتل المستعمر من انهُ جاء البلاد للأخذ بناصر اهلها وتدريبهم على المدنية وتشجيعهم على الاخذ بأسباب النجاح لأن في افريقيا الشمالية وفي سورية الردّ الملجم على مثل هذه الدعاوي الباطلة

﴿الثورة﴾ «متى كان الشعب مستاء متنكراً انتهز الفرصة الملائمة فثار في وجه الحكومة» هذه صفوة آراء الكتّاب في القرن السابع عشر في اسباب الثورة ودواعيها ، وقد ايدت العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية هذا الرأي تأييداً كليًّا ولكنها اضافت اليهِ عظة بالغة وحكمة جامعة فحواها ان الحكومة التي لا تتصل بالشعب اتصالاً وثيقاً يمكنها من فهم الحالة الذهنية التي هو عليها تكون عرضة للثورة والانتقاض . فقد حدثت مثل هذه الثورة لما كان السلطان عبد الحميد يرتع في قصر (يلدز) لاهياً بين الخطايا غافلاً عما يغلي في صدور الرعية من مراجل النقمة ولا يصل الى يده من الاحاديث والأخبار الا ما جادت بهِ قرائح الجواسيس الوقادة . وحدثت مثل هذه الثورة ولكن على عيار اوسع وبدماء اغزر وبانقلاب ابعد مدى لا يعلم نتائجه العالمية احد وذلك لما كان القيصر نقولا الثاني واهل بلاطه يقيمون حاجزاً كثيفاً بينهم وبين الشعب الفقير المتظلم المستعبد ويسدون آذانهم دون صراخ الاحرار في اعماق السجون ومجاهل سيبريا وهم في بهجة ورخاء يستمعون لخزعبلات (راسبوتين) ويحتمون بتمائم القديسين والتعاويذ من الشياطين والادعية من الدجالين المقربين . وعلى مثل هذا الاساس يجوز للقارىء ان يبني رأيه في تفسير الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ يوم كانت دفة السفينة في الرافدين بأيدي رجال من الجيش لا يفقهون الشيء الكثير من الادارة الملكية وما تتطلبهُ كما قالت (المس بل) من حسن اصغاء الى الرغائب الشعبية الجوهرية . وما الانقلاب الخطير الذي حدث في هذا القطر العربي منذ ذلك الحين الا شاهد عدل كيف يكون ارضاء الشعب في شؤونهِ الحيوية واستيفاؤه من مطالبه الاساسية مدعاة الى هدوئه وانتشار الوية السلام في ربوعهِ . ولو حصل في فلسطين مثل ما حصل في العراق من مراعاة السيادة العربية ما تلطخت سمعة بريطانيا السياسية الى هذا الحدّ ولا حدثت تلك الثورات المحلية . وقس بالثورة العراقية الثورة السورية الكبرى

ومن اهم شروط الثائر في نجاح دعوته الى الانتقاض ألاّ يكتفي بما يرى في الحكومة من منكر واعوجاج بل يتحتم عليهِ ان يقنع الشعب ايضاً ويستميل اليهِ الرأي العام استجماعاً للقوى فيقف الجميع جبهة واحدة والاّ ضاعت الجهود عبثاً ولم تثمر الثورة غير الانقلاب المؤقت ، لان الشعب

اذا لم يشعر بالمظالم شعوراً صادقاً كانت حركته اقرب الى البرودة والتصنع . ومع اثارة روح الاستياء وزرع بذور الامل لا بدَّ ايضاً من تعيين الهدف امام الرماة حتى تجتمع نبالهم فلا تتفرق من غير طائل ، والدهماء من الناس كما قال احد الاجتماعيين يعرفون الشيء الذي لا يريدون واما الشيء الذي يجب ان يريدوا فيتوقف على الزعماء المفكرين — يعني ان سواد الشعب سلبي في غايته والسلبية المجردة لا تأتي بغير الخراب فاذا ما اريد الانتفاع بسيل السلبية الجارف فلا بدَّ من وضع الآلة الايجابية عليهِ وتركيبها بحيث تأخذ من قوة الجريان اعظم قدر مستطاع . وتكون هذه الآلة من صنع الزعيم والخاصة من العاملين . وقد قلنا عن الغاية التي ينشدها الزعماء لا يجوز ان تكون من مسارح الخيال الشعري المجرد لا تقبل التطبيق ولكنها كذلك لا يجوز ان تكون مبتذلة حقيرة تجعل اصحابها والقائلين بها صغاراً حتى في نظر انفسهم . فطلب دولةٍ عربية مركزية كبرى في الآونة الحاضرة تمتد من خليج فارس الى بحر الظلمات لا يختلف عن الاقتصار على حكومة تقام في جبل العلويين حياتها ومماتها بجرة قلم من المندوب السامي . الاول خيال يليق بقصص الف ليلة وليلة والثاني اهانة لدم الشهداء الذين ذهبوا الى المشانق باسم القضية العربية العامَّة

على ان الاستياء المجرد وتعيين الهدف لا يضمنان الحركة الاَّ على شرط واحد هو الامل بالحصول على الاصلاح المنشود لان العبث شبيه بانتطاح الصخر يدعو الى الشلل والقنوط . ومما ارويه بهذه المناسبة عن ثورتنا السورية الكبرى ان بعض الموظفين الاجانب المسؤولين في بيروت حاولوا ان يدفعوا تبعة الاضطراب في البلاد عن عاتقهم باتهام الحكومة الانكليزية بأنها سبب تلك الثورة وان دسائسها وذهبها يلعبان بعقول الثوار ، ولكن فاتهم ان هذه التهمة وان اوجدت لهم بعض الانصار المصدقين في باريس الاَّ انها زادت في الحريق لهباً وساعدت العاملين السوريين في ميادين الثورة اذا أخمدت انفاس النافخين في ابواق القنوط من جهة وشددت عزائم الفارين من جهة اخرى بما توهموه من حرص الانكليز واهتمامهم بالقضية السورية العربية مرة اخرى

وقد سبق لمثل هذه الدعاية ان اثرت أثرها في سورية ايضاً بطريقة احيت الهمم الخامدة ، فقد حدث في ابريل سنة ١٩٢٢ ان زار (المستر كرين) دمشق الشام على حين غرة — والمستر كرين هو رئيس اللجنة الاميركية التي امت تلك البلاد في صيف سنة ١٩١٩ لاستفتاء اهلها في مصيرهم — فاتخذ العاملون من هذه الزيارة فرصة سانحة ليوهموا الناس ان عناية الولايات المتحدة بقضيتهم قد تجددت وان لهذه الزيارة مغزًى سياسيًّا ذا قيمة دولية خطيرة ، فانتعشت القلوب من بعد تلك الصدمة القاسية التي لاقتها من دخول الجنرال غورو وجيوشه عاصمة الامويين قهراً وضربه الغرامات على الاهلين وتوزيعه الجنود السنغاليين على البيوت ، فتجمهر الخلق على سيارة (المستر كرين) ووراءها حين وداعه متظاهرين بشكل ازعج المحتلين كثيراً وآل الى ثورة محلية سفكت فيها الدماء وامتلأت منها السجون ، ولولا وميض من الأمل برق في الافق السياسي يومئذٍ لتأخر فجر النهضة كثيراً

الرئيس ماساريك

رجلان أعزلان بنيا دولة من دول اوربا الحديثة ، بنياها في قلوب القوم وفي حجر المدارس ، قبل أن يرسماها على الخرائط الجغرافية ويعينا حدودها ويقيما لها برلماناً ووزارة . الأول شيخ في الخامسة والثمانين من العمر ، جمع بين حكمة الفيلسوف وصدر الوطني العامر بأعلى الأمثلة الوطنية التي أصبحت أعصاراً مكتسحاً في القارة الاوربية . والثاني تلميذ الاول ، تلقى عليهِ العلم في حجر التدريس ، واقتبس منهُ شعلة من تلك النار المقدسة التي تؤجج في صدره ، فكان له خير معوان ، في حمل تلك الشعلة ، والكفاح في سبيلها ، ثم تولى معه مقدرات الدولة الجديدة التي بنياها ، فسيَّرا دفتها في بحر مضطرب عجاج ، من السياسة الاوربية ، الى أن بلغا شاطىء السلامة

الاول هو الرئيس توماس ماساريك الذي انتخب في السنة الماضية رئيساً للجمهورية التشكوسلوفاكية للمرة الثالثة وينتظر ان يحتفل ببلوغهِ الخامسة والثمانين في ٧ مارس (١٩٣٥) . والثاني هو الدكتور ادوارد بنش وزير خارجية تشكوسلوفاكيا الذي بلغ الخمسين من العمر وقد مضى عليهِ ست عشرة سنة وهو يدير سياسة بلاده الخارجية في براعة وحكمة شهد لهُ بهما العدو قبل الصديق مع أنهُ كان يوم تقلدها لا يعدو الرابعة والثلاثين من العمر . فهو عميد وزراء الخارجية في اوربا بل في العالم لانهُ تقلد هذا المنصب تقلداً مستمرّاً مدة تفوق مدة أي وزير خارجية آخر

ودستور الجمهورية التشكوسلوفاكية يحظر انتخاب رجل لرآسة الجمهورية ، اكثر من مرتين ومدة كل رآسة سبع سنوات . ولكن الدستور استثنى ماساريك من هذا القيد ، ونصَّ على امكان انتخابه رئيساً مدى الحياة ، احتراماً لجهاد هذا الشيخ الجليل ، واعترافاً بما لهُ من أياد بيض على انماء الشعور القومي في قومه ، ثم عدم اقتصاره على الناحية النظرية فلجأ الى الحلول العملية يجاهد في سبيلها حتى غنم الاستقلال ، ثم قام على دفة السفينة يوجهها التوجيه الطيب . وكذلك بنش تلميذه. لقد قامت وزارات في تشكوسلوفاكيا وسقطت وزارات ولكن بنش كان وزيراً للخارجية في كل منها ، وليس هذا لقلة الرجال الذين يستطيعون شغل هذا المنصب في الجمهورية الفتية ، بل لأن استعداد بنش العقلي والثقافي وجهاده الصحيح في سبيل الاستقلال ، والمقام العظيم الذي فاز بهِ بين وزراء الخارجية في مجامع الدول تجعل منهُ الكفء الذي تود أعظم الدول لو كان وزراء خارجيتها من مكانته

أنشئت الجمهورية التشكوسلوفاكية في عواصم الحلفاء ، في باريس ولندن ووشنغطن ، قبل أن تنشأ في براها (براج) . ذلك ان الاستاذ ماساريك ـ وكان قد مضى عليهِ وهو يرعرع الشعور القومي نحو ٣٠ سنة من كرسي الاستاذ في جامعة براج لانهُ كان يرمي الى إعداد الشعب من فلاحهِ الى عاملهِ الى موظفه الى تاجره الى أعلى طبقاته الاجتماعية الاعداد الوافي للنهوض بالحكم الدمقراطي المستقل

عند ما تسنح الفرصة — كان قد فرَّ من بلاده في خلال الحرب الكبرى ، لاشتداد وطأة الحكومة النمساوية، وكانت بلاد ماساريك جزءًا منها حينئذٍ ، على الاحرار في بلاده، ولكنهُ لم يفر فرار جازع يطلب العيش الرغد والفراش الوثير، بل فرار رجل يطلب الحرية لقومه ، ويعرف — وهو الاستاذ الذي نفذ الى مغازي التاريخ — ما قد يلقاه دونها من العقبات والمتاعب . فبذل هو وتلميذه السابق، وزميله في الجامعة بعدئذ ، الدكتور بنش ، كل جهد وكل سعي في سبيل اقناع الحلفاء المنصرفين حينئذ الى امورهم العسكرية والسياسية المرتبكة، ان في قلب اوربا ، وفي قلب امبراطورية النمسا والمجر بلاداً تدعى تشكوسلوفاكيا يقطنها شعب يطلب الحرية ، شعب لهُ ماض مجيد ، وله ثقافة عالية ، ومستعد ان يبذل في سبيل حريته ارواح ابنائه في تأييد الحلفاء

قرعا كل باب وخاطبا رجال الصحافة ورجال السياسة ورجال الحرب حتى استرعيا العناية بمطالبهما بقوة ارادتهما، وتوهج وطنيتهما ، فنظَّما فرقاً من التشكوسلوفاكيين المقيمين خارج بلادهم لتخوض غمار الحرب الى جانب الحلفاء . لذلك قلنا ان الجمهورية التشكوسلوفاكية انشئت خارج براج اولاً ، لأن استقلالها اعلن ، وبراج عاصمتها ، ما تزال مدينة من مدن امبراطورية النمسا والمجر

اما بنش التلميذ والوزير والزميل في الكفاح، واليد اليمنى في الحكم، فولد من نحو خمسين سنة ، وطلب العلم في بلاده اولاً ثم في باريس ، فلقي في العهدين مصاعب ومشاق ،كانت لولا ارادته الصلبة تغلبت عليهِ . ثم عاد الى بلاده للتدريس . وكان اجتماعه الاول باستاذه ماساريك قد حرَّك في نفسه الشعور الوطني ، ونفخ فيهِ حب الجهاد في سبيل تحرير وطنه من نير النمسويين. فكان يلقي المحاضرات في الجامعة ويكتب الفصول في المجلات ، وهو في خلال ذلك كله يستعد ليومه العتيد . فلما نشبت الحرب الكبرى ، بدأ الظلام ينقشع عن آماله التي وراء الغمام . ولكن أمته كانت في موقف خرج جداً ، لان النمسا وحليفتها المانيا ، أحرزتا الانتصارات الأولى في معارك الحرب الكبرى ، فبثَّت الحكومة النمسوية العيون والارصاد تراقب حركات زعماء التشكيين وسكناتهم

أما هؤلاء فكانوا في حيرة وارتباك . فاذا انتصرت المانيا وحلفاؤها في الحرب ، فوَّت هذا الانتصار عليهم ما يطلبون من حرية واستقلال . واذا كان النصر حليف الحلفاء ، فيجب عليهم كزعماء ، ان يسرعوا الى وضع خطة رشيدة يسترعون بها انظار الحلفاء ، قبل ان يفوت الوقت

ولكن بنش لم يتحير ولم يرتبك . كان في خلال تقلده منصب الاستاذ ، قد اشترك في جمعية سياسية سرية في بلاده ، وجازف بحياته غير مرة ، في مطلع الحرب ، لكي يذهب الى سويسرا لمفاوضة الاستاذ ماساريك وكان ماساريك مقيماً هناك بعد فراره في مطلع الحرب ، فكان بنش بذلك صلة بين الزعيم البعيد عن وطنه ، والزعماء المتخلفين . ولما علم في احد الايام ان البوليس في اثره ، غادر بلاده في ليلة ليلاء وجاء الى باريس

قد يصعب الآن ان ندرك ما عاناهُ بنش من المصاعب في البدء ، لان اكثر الساسة والصحافيين،

كانوا يجهلون ما هي الأمة التشكية التي تطلب الاستقلال، وكانوا لا يدركون قيمة انضمامها الى الحلفاء وما أثر ذلك في سير الحرب، لان الانظار كانت متجهة في الغالب الى الميدان الحربي في الجبهة الغربية. فمن هو هذا الشاب، في الثلاثين من العمر، الذي يجرؤ على قرع الابواب، طالباً الدخول الى مجالس الحلفاء، حيث القواد تعلو جباههم سمات اليأس وحيث رجال السياسة مبلبلو الافكار مضعضعوها؟

ولكنهُ مضى في الكفاح، هو واستاذه ماساريك، واخيراً فازا بمقابلة بريان، فأسفرت المقابلة عن وعده بالنيابة عن حكومة فرنسا، بمد يد المساعدة الى الامة التشكية التي تطلب الاستقلال

***

كان الحلفاء قد اعدوا هجوماً عظيماً في منطقة « الصوم » فأسفر عن خيبة. وإذ الحلفاء يضربون أخماساً لاسداس، ظهر كتاب في باريس فاسترعى عنوانه نظر الساسة لان موضوعه كان « اضربوا النمسا ». وكان مؤلف الكتاب صاحبنا بنش، وقد بسط فيهِ خطة حربية جريئة، قال: « اطعنوا المانيا في اضعف مقاتلها، انهضوا الشعوب الصقلبية في اوربا الوسطى، اقيموا حاجزاً بين المانيا وحلفائها، افصلوا المانيا عن بلغاريا وتركيا وكذلك يبيد الحُلم التوتوني كما يتبدد الدخان في عاصفة »

فأقبل ساسة الحلفاء على الخطة. وزالت المصاعب من وجه المكافحين الوطنيين التشكيين، وفي اواخر سنة ١٩١٧ اعترف الحلفاء بالمجلس الوطني التشكي اعترافاً رسمياً

ان فكر ماساريك هو الفكر الذي نظم الحركة، وروحهُ هي التي بثّت في صدور الشعب التشكوسلوفاكي — وهو مظلوم مرهق — بارقة الرجاء، واشعلت نور الامل، ولكن السيف الذي فتح امامها الطريق كان سيف بنش، فانتخب ماساريك رئيساً للجمهورية، وبنش وزيراً لخارجيتها. كانت الفوضى ضاربة أطنابها في اوربا الوسطى حينئذٍ، وكان شبح البولشفية يحوّم فوقها، والنعرات القومية تهدد بالانحلال والتفرقة، ولكن تشكوسلوفاكيا امة منظمة اليوم، لم تفرقها النعرات، وقد أصبحت ولها اعوان وحلفاء، ولوزير خارجيتها كلمة عليا في شؤون اوربا الوسطى، ومحافل السياسة الدولية، كجمعية الامم ومؤتمر نزع السلاح ومجلس الاتفاق الصغير

بل هناك ما هو ابعث على الامل. ان هذه البلاد الفتية، بفضل الاستعداد الطويل للحياة الديمقراطية، لا تزال من البلدان القليلة في اوربا المحتفظة بالنظام الديمقراطي. ولعل فلسفة رئيسهن الشيخ الجليل تلخص في قوله « لقد كثر الحديث في العهد الاخير عن عجز النظم الديمقراطية. ولكن الديمقراطية لم تخفق. بل هم الرجال الذين اخفقوا. ويجب ان لا ننسى ان الحكومات الملكية والدكتاتورية نفسها قد لقيت من المصاعب ولا تزال تلاقي منها، ما يجعل الحكم على الديمقراطية بالعجز سائراً عليها كذلك » وقوله: « ان اوربا تجتاز فترة مريضة في حياتها العامة ولا تلبث الامم ان تخرج من ظلماتها الى وضح الحياة الدستورية السليمة »

امدّ الله في عمر الشيخ الجليل فان في كلماته انعاشاً للنفوس الحرة التي تأبى الارهاق والاستبداد

نظرة حكيم مجرَّب في

الحالة الاوربية

ملخَّص مقال للجنرال سمطس

الجنرال سمطس أحد زعماء اتحاد افريقية الجنوبية ، معروف في دوائر العلم والسياسة على السواء . فقد ترأس مجمع تقدم العلوم البريطاني من ثلاث سنوات وله كتب فلسفية ويحسب من أعلام فلسفة جديدة تعرف بالفلسفة الكلية Holism. أما في السياسة الدولية ، فقد كان من كبار أقطاب الحلفاء في الحرب الكبرى وعضواً في الوفد البريطاني في مؤتمر الصلح وقد اشترك في وضع دستور جمعية الامم وله مكانة عظيمة بين دعاتها

اذا قلَّبنا النظر في الحالة الأُوربية اليوم تبيَّنا طائفتين من القوى تتنازعان في الخفاء لتوجيهِ الخطط السياسية الدولية . فالطائفة الواحدة تنبع من الشعور بالخوف والاخرى من الشعور بالذلّ والحرمان. وكلا الشعورين أَعراض مرض لا دلائل نموٍّ سليمٍ . فاذا لم يعالجا بالحكمة أفضيا الى نتائج خطيرة في حياة العالم العامة

وقد يكون هذا الاعتراف منا اعترافاً بالخذلان ، ولكن يبدو لي أن الشعور بالخوف والجزع هو المحرّك الاساسي في صلات الدول الاوربية بعضها ببعض . الخوف ! أخسُّ البواعث الانسانية على الاطلاق يسود الحضارة الاوربية الآن . فالدول التي أحرزت النصر في الحرب الكبرى ، أبعد ما يكون عن الشعور بالطمأنينة التي تصحب النصر، يثيرها ويقلقها خوف عصبيٌّ على مستقبلها . أما الدول التي خذلت في الحرب الكبرى فغير راضية عن التسليم بالحرمان الذي كان نصيبها وترفض قبول مكاناً غير الصدر في مجامع الامم المتحضرة . فالدول المنتصرة يحركها الخوف من الدول المخذولة . والدول المخذولة عازمة العزم كلهُ على استرداد مساواتها بالدول المنتصرة . فالحالة الذهنية والنفسية الناشئة عن هذين الباعثين، جعلت ميدان العلاقات الدولية الاوربية مضطرباً كل الاضطراب ، وهي تسير بأوربا على طريق الفوضى. لذلك نرى العقل مكبوتاً والمشاعر الانسانية العالية مشلولة ، والسيادة الآن للدوافع التي تحول دون الارتقاء المنتظم القائم على التفاهم والتعاون . ولذلك نرى كل مسألة من المسائل الخطيرة مستعصية على الحلّ في هذا الجوّ المضطرب . فالسعي الى نزع السلاح أو خفضهِ قد أخفق أو كاد ، حالة أن كل عاقل في الدول المختلفة يرى أن لا مندوحة عنهُ . والتعاون الدولي مهدَّد بالخطر مع أن كل مصلحة من المصالح الدولية الاوربية وغير الاوربية تقتضيهِ

فاذا شاءت اوربا ان تعود الى الطريق القويم ، وجب على أممها ، غالبة ومغلوبة ، ان تستشفي من

هذه العُقَد الفرويدية، أن تستعيد سلامة النظر وصحة الحكم، أن تنظر الى علاقاتها بعضها ببعض نظراً سليماً غير مشوّهٍ ولا مضطرب . وليس ثمة عالم بالتحليل النفسي يستطيع أن يعالجها كما يعالج علماء التحليل النفسي ما يصاب بهِ بعض الناس من العقد النفسية . ولعلّ السبيل الاقوم الى ذلك هو أن تعترف دول اوربا جميعاً بأنها اتّبعت في أفعالها حتى الآن طريق الحمق لا طريق العقل

من مظاهر الشعور بالخوف هـذا الحديث المستفيض في الصحف والدوائر عن الحرب . يقال أننا على عتبة حرب جديدة ، وان الحرب قاب قوسين منا أو أدنى . هذا التحدُّث بالحرب يخلق جوّ الحرب ، وقد يكون أقوى البواعث على نشوبها . وهو عندي خطأٌ كبير وشرٌّ عظيم . والغريب في كل هذا أن دعاة السلام ، هم أعلى الناس صوتاً في هذا الحديث . انهم يرغبون في تصوير ويلات الحرب للسواد من الناس لتنفيرهم منها ، فتحملهم رغبتهم هذه على خلق الذهنية التي تفضي الى الحرب. ثم هناك صناع الأسلحة وهؤلاءِ يعرفون انهم يجنون ربحاً عظيماً من التحدُّث بالحرب وقرب وقوعها ووجوب الاستعداد لها . لذلك أناشد رجال السياسة ورجال القلم ، أن يضعوا حدًّا حاسماً لهذه الدعاية الخطيرة

ان توقع الحرب في الغد أو في المستقبل القريب ، ضرب من السخف . وهذه حقيقة يعرفها كلُّ مطلع على بواطن الامور . فالاحوال اليوم غير ما كانت عليهِ سنة ١٩١٤ اذ كانت الحرب في المستقبل القريب خطة مرسومة حينئذٍ ، وكانت الدول تستعدُّ لها على أنها واقعة لا محالة . بل أن أركان الحرب في كل منها ، كانوا قد وضعوا الخطط وعينوا المواعيد ليومها المشهود . أما اليوم فقلما تجد أمة ترغب في الحرب . وكل رجل من رجال السياسة يدرك أن في الحرب دمارَ أمتهِ وخاتمةَ لحياتهِ العامة اذا كان هو من مثيريها . ولعلنا لا نجد بين الامم الاّ أمة واحدة مستعدة لها الاستعداد كلهُ . ومع ذلك فالسواد في هـذه الامة يطلب السلام . ولا ريب عند أصحاب الرأي في ان نشوب الحرب يكون في الغالب ايذاناً بانطلاق ثورات داخلية على الحـكام

ولكن الشؤون العسكرية أقل شغلاً لافكار الساسة من الشؤون الاقتصادية . ان بعض الكتّاب لا يني عن تذكيرنا بمـا هو واقع على ضفة الرين الشرقية ، من تسلُّح خفي ، وتمرين عسكري . وقد يكون كل هذا صحيحاً ، والغالب ان جانباً كبيراً منهُ صحيح ، ولكنهُ ليس في الراجح إلا أثراً من آثار ذلك الشعور بالحرمان . ليس هذا نزعة عسكرية صحيحة . إنهُ هو إلاّ نوع من التخدير العسكري. فهذه الأفعال ، التي تنطوي على صنع السلاح ، والتمرين العسكري ، تنشىء شعوراً بالرضا والطمأنينة في أذهان قوم يحسون أنهم أذلوا وحرموا وعوملوا معاملة المسود . ان روح الحرب ، تختلف عن هذا كل الاختلاف . وقد تستيقظ روح الحرب ثانية ، اذا تركت الامور تسير في أعنتها ، ولـكنها الآن ، مدفونة تحت ركام الحرب الكبرى . أنا لا أصدق أن الالماني الآن يبغي الحرب حقيقة ، وانهُ فعلاً يستعدُّ لها ، إلاّ اذا كان صوابهُ قد طار . فلنضع حدًّا حاسماً لهذا الحديث . ولست أعني بما أقول

ان الحالة لا تنطوي على مخاطر تقلق النفوس، ولكنها على كل حال لا تسوّغ التحدث بالحرب، ومنع التحدُّث بالحرب سبيل الى معالجتها

والعلاج لهذين الشعورين ليس إلاَّ الطريقة الفرويدية نفسها، أي إستخراج الدفائن من الاعماق، وتعريضها لضوءِ النهار . وهـذه هي طريقة جمعية الأمم. قد لا تكون الجمعية وسيلة لضمان السلامة، وقد ينقصها عنصر القوة لتأييد ما تتخذه من الاحكام، ولكنها على كل حالٍ منبر للمناقشة بين الامم «ومائدة مستديرة» يجلس حولها رجال السياسة، فينفسون عما في صدورهم بابداءِ آرائهم والدفاع عنها . والواقع أن جمعية الأمم انشئت لتكون أولاً وآخراً «مائدة مستديرة» للأمم، تصلح لمعالجة شعور الخوف وشفائهِ بالاساليب العلمية والانسانية معاً

ولكن هناك من يقول ان هذا وحده لا يكفي، وانهُ ما ظلّت جمعية الامم، مكاناً للمناقشة والمناظرة، غير مؤيدة بضمانات القوة لتنفيذ احكامها، يظل الشعور بالخوف سائداً، مسيطراً على العلاقات الدولية . بل يقال ان عجز جمعية الامم عن تعزيز النظام المشترك بالقوة اذا اقتضى الامر ذلك، قد اضعف من هيبتها وسار بها على طريق الانحلال . ويشيرون الى حادثة اليابان ومنشوكو التي كشفت عن ضعف الجمعية واقامت الدليل على أن الجمعية مقضيٌّ عليها اذا هي لم تعزّز بقوة مسلحة لتحقيق خططها وفرض احكامها فرضاً

ان جوابي على هذه الاعتراضات جواب مزدوج. ففي المقام الاول لا استطيع ان اتصوّر جمعية الامم وهي شاكية السلاح. ان فكرتها الاولى لم تقم على مبدإ القوة، ودستورها لم يوضع لهذا الغرض . فاذا حوّلت، الى قوة مسلّحة، الى نظام غرضهُ خوض الحرب لمنع الحرب، قضي عليها قضاءً مبرماً . ذلك إنني لا استطيع ان اتصوّر بلدان «الدومنيون» — في الامبراطورية البريطانية — باقية اعضاءً فيها متعهدة ان تخوض غمار الحروب الاوربية مثلاً . فاذا خرجت منها بلدان «الدومنيون» لم يطل المطال على انكلترا حتى تقتفي أثرها . ولست اعرف ايّ عملٍ آخر، يكفي لصدّ الولايات المتحدة الاميركية عن الانتظام فيها صدًّا نهائيًّا مثل تحويلها الى اداة عسكرية من شأنها ان تنفّذ احكامها بالسلاح . ويجب ان تذكروا ان الجمعية لا يتمّ تأليفها قبل ان تنتظم فيها الولايات المتحدة الاميركية . فقد انشئت الجمعية على زعم ان الولايات المتحدة الاميركية عضو فيها، فانسحاب اميركا من عضويتها فوّت على الجمعية حتى الآن معظم اغراضها . ولكن ضمّ الولايات المتحدة اليها يجب ان يبقى هدفاً يسعى اليهِ، اصدقاءُ الجمعية ودعاة السلام . ولا ريب عندي في انهُ لا بدَّ من مجيء وقت تنتظم الولايات المتحدة الاميركية فيها او في جمعية هي اشبهُ ما يكون بمؤتمر دوليٍّ . ولكنها لن تنتظم في وزارة حربية دولية . وانني لواثق أن تحويل الجمعية، الى عصبة مسلحة، منافٍ لغرضها الاساسي . بل ان حلّ المشكلات الناشئة عن شعور الخوف والجزع، لا يلتمس من هذه الطريق

وفي المقام الثاني، احبُّ ان أقول، ان التجاريب، قد علمتنا منذ انشئت الجمعية، كيف الخروج من

المأزق . فمعاهدة لوكارنو ، قد أُدمجت في النظام المشترك تحت اشراف الجمعية . ومعاهدة لوكارنو هذه ابتدعت في السياسة الاوربية مبدأ الضمانات الخاصة في منطقة محدودة من الارض تشترك فيها دول معينة غرضها الدفاع المتبادل عن سلامتها تحت اشراف الجمعية وسيطرتها . فهذا الاتفاق لا يحتم على جميع اعضاء الجمعية من دون تفريق بينهم ، استعمال السلاح في حالة خاصة معينة ، بل هي تربط بين الدول التي لها مصلحة في ذلك وترغب في الانضمام والتعاون على هذا الاساس . والميثاق الشرقي المقترح ، المعروف باسم « لوكارنو شرق اوربا » اتفاق آخر من هذا القبيل ، وكذلك ميثاق أوربا الوسطى الذي وضعت قواعده في روما عند اجتماع لافال بموسوليني في اوائل السنة الجديدة. فاذا كان شعور الخوف في اوربا ، لا يزول الاَّ بضمانات من هذا القبيل ، فلتكن ضمانات محدودة مقتصرة على امم معينة ، تهمها هذه الضمانات ، في منطقة خاصة من سطح القارة الاوربية . ان القوى المسلحة التي تستعمل لتأييد السلامة ، يجب ان تكون قوى قومية تحرَّك وفقاً لاتفاقات ومواثيق موضوعة ، لا قوى تابعة لجمعية الامم وخاضعة لسيطرتها

اكتفيت حتى الآن بالاشارة الى شعور الخوف وطريقة علاجه . ولكن الشعور الآخر شعور الحرمان متصل به أوثق اتصال . فاذا كان السلام بغيتنا حقيقة لم نجن فائدة ما من معالجة الشعور الواحد دون الآخر . ذلك ان الخوف يستفحل باستفحال الشعور بالحرمان وتلظيه . والشعور بالحرمان يستفحل باستفحال الشعور بالخوف واعتماد اصحابه على زيادة السلاح للذب عن حياضهم وإدخال الطمأنينة على نفوسهم . فالشعور الواحد يغذّي الشعور الآخر ، وكلاهما يفضي الى خطة التسلح بغرض الدفاع عن النفس . فاذا لم يعالج الشعوران معاً ، انتهينا الى حلقة مفرغة آيتها زيادة السلاح . فازالة شعور الحرمان المتغلغل في نفوس الشعب الالماني لازم لتعزيز السلام لزوم ازالة شعور الخوف من نفوس الشعب الفرنسي . وكلاهما لا مندحة عنهُ لنجاح اية خطة غرضها نزع السلاح أو خفضهُ

فكيف نزيل شعور الحرمان الذي يسم ذهن المانيا ونفسها ؟ ليس لذلك الاَّ سبيل واحدة وهي الاعتراف لها بالمساواة التامة بالدول الاخرى ، وان يكون هذا الاعتراف صريحاً ومن دون تحفُّظ . وما لم نعمد الى الجرأة والسرعة في اتخاذ هذه الخطوة يظل الجرح الاوربيُّ منطوياً على دغل

ان الباحث يفهم المخاوف التي تقلق صدر فرنسا ، ولكنهُ في الوقت نفسهِ لا يسعهُ الا أن يفهم كذلك ما تحسُّ بهِ المانيا لانها لا تزال في مكان ثانوي بين الامم ، وقد انقضت ست عشرة سنة على انتهاء الحرب . ان بقاءها على الحالة التي نصّت عليها معاهدة فرساي ، أصبح امتهاناً لضمير اوربا وخطراً على السلام . أن شرعة الانصاف ، بل والحكمة العملية ، تقتضيان تحطيم القيود التي قيدت بها ، فتجني اوربا عند ذلك حصاد الطمأنينة والرخاء . يظن بعض الناس أن النخوة والشهامة لا مكان لها في السياسة الدولية . ولكنني رأيتهما في بلادي ، تبدلان حالة منطوية على اخطار عظيمة ، بصداقة محكمة بين الغالب والمغلوب . هذه طبيعة الانسان. واذا صحَّ ان لا مكان في السياسة الاوربية

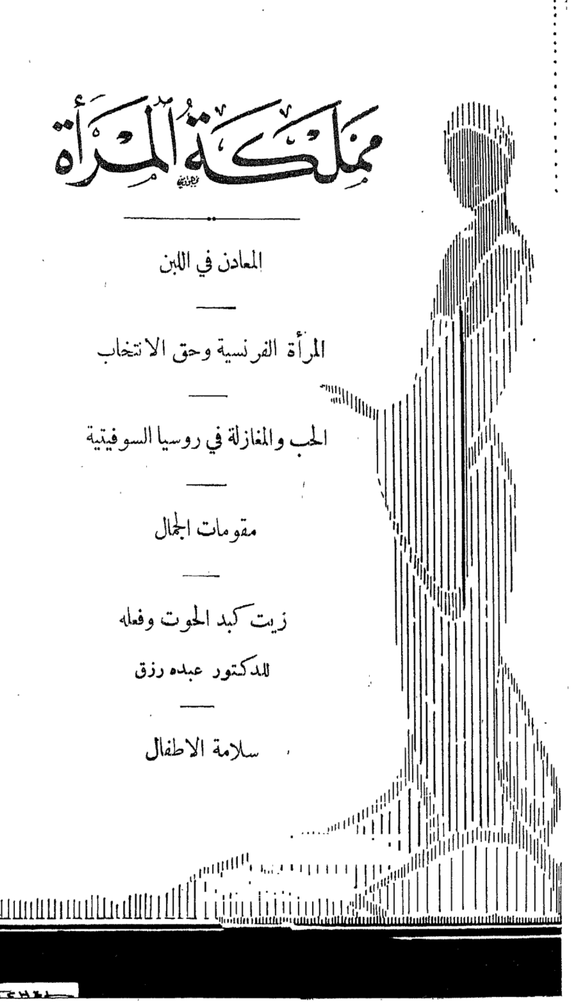
للنخوة والشهامة ، فلا ريب أن فيها مكاناً للمصلحة والحكمة . وكلتاهما تقضي بمواجهة الحقيقة قبل أن يفوت الأوان ، فنستأصل شعور الحرمان الذي يوغر الصدور

منحت المانيا مبدأ المساواة في دسمبر سنة ١٩٣٢ ، لما اتفقت الدول الكبرى في مؤتمر نزع السلاح على ذلك . ولو أن المؤتمر خطا الخطوة العملية نحو تحقيق هذا المبدإ لكانت المانيا اليوم عضواً في جمعية الامم ، لا باعثاً من بواعث الاضطراب والقلق خارجها ، ولقبلت في الغالب الاتفاق على خفض السلاح خفضاً كبيراً على اساس مقترحات الحكومات البريطانية . ولكنها اليوم خارج حظيرة الجمعية ، وموقفها من التسلح المخالف لمعاهدة فرساي ، محوط بالريب منطوٍ على الخطر . هوذا شعور الحرمان يستفحل فيلشئ شعور الخوف ، وشعور الخوف يتفاقم فيقوّي شعور الحرمان . والنتيجة نوع من التنافس في التسلح لا يعلم احد مداهُ وعواقبه

قد تكون مبادىء النظام النازي مما لا يسيغهُ رجال السياسة في بعض الدول الاوربية . ولكن ذلك يجب ألاَّ يكون حائلاً دون الاعتراف لألمانيا بالمساواة . فيقضَى بذلك على الشعور الذي يعتمد عليهِ النازي في اثارة كوامن الصدور . وها هي ذي روسيا ، رغماً من شيوعيتها ، قد أصبحت عضواً نافعاً في مجامع الأمم ، ولا ريب عندي في أن الضرورة التي تقتضي عودة المانيا الى مجامع الأمم ، لا تقل عن الضرورة التي اقتضت عودة روسيا اليها

أعلنت ألمانيا في آخر سنة ١٩٣٣ أنها اذا منحت مبدأ المساواة في الحقوق ، رضيت مختارة أن تجعل سلاحها الدفاعي ضمن حدودٍ معينة ، بحيث لا يكون خطراً على جيرتها . وقد اعترف أهل الخبرة ، في هذه البلاد على الاقل (انكلترا) بأن مقترحاتها معقولة وتصحُّ أن تكون أساساً للبحث . هذا قرار وضع من نحو سنةٍ ولكنهُ لا يزال حبراً على ورق . ان روح الخذلان متفشية في مختلف البلدان والشعوب تهزُّ أكتافها قاطعةً حبل الأمل في النجاح . وهذه روح ليست جديرة بالذين تلقَّنوا في الحرب الكبرى درس الصبر والثبات ، كائناً تلبد الجوّ بغيم الخيبة ما كان . ولا يزال ثمة مكان لمحاولة حازمة غرضها اعادة المانيا الى جمعية الأمم ومؤتمر نزع السلاح . بيد ان ساسة اوربا يجب أن ينقّوا عقولهم ، من أثار السموم — سموم الخوف والحرمان — ويجب أن يستنهضوا شجاعتهم لاتخاذ الخطوة الحاسمة ، واعلان مساواة المانيا بالدول الأخرى . فانهم اذا لم يفعلوا ذلك بالاتفاق ، تمَّ ما يخشونهُ رغماً عنهم . ولكن الفرق بين الحالين ، ان المانيا في حالة الاتفاق لا تكون خطراً يهدد جيرتها ، أما اذا بلغت المساواة من دون اتفاق ، كان عملها تحدياً لنظام المعاهدات ، وتسلُّحها مطلقاً من القيود ، فلا يعلم مداهُ ، فيتمُّ حينئذٍ في موضوع التسلُّح ما تمَّ في موضوع التعويضات . عند ذلك تكون السياسة قد أفلست ، ويبقى الحكم للحوادث وحدها [1]

(١) وقف الجنرال سمطس بقية مقاله على الشرق الاقصى ، وهو موضوع سوف نفرد له بحثاً مستقلاً في عدد تال


مملكة المرأة
المعادن في اللبن
المرأة الفرنسية وحق الانتخاب
الحب والمغازلة في روسيا السوفيتية
مقومات الجمال
زيت كبد الحوت وفعله
للدكتور عبده رزق
سلامة الاطفال



رأس فتاة

صورة قديمة للمصور الهولندي جان فرمير — كشفت حديثاً

المعادن في اللبن

وحاجة الجسم الى الكلسيوم والنحاس والحديد

اسباب لين العظام وفقر الدم

ان الذين يشربون اللبن الحليب يعلمون انهُ طعام طبيعي مغذٍ ولكنهم قلما يدرون انهُ يحتوي على ٢٥ صنفاً من المعادن المتباينة . قد يعلمون مثلاً انهُ من افضل المصادر لاملاح الجير مثل فصفات الجير ، ولكنهم ولا ريب يدهشون اذا علموا ان في اللبن معادن مثل الليثيوم والسترونشيوم والفناديوم والروبيديوم والتيتانيوم والجرمانيوم وجميعها من العناصر النادرة

ان المواد الجامدة في سائل اللبن لا تزيد على جزء من ١٢ منهُ . والمواد المعدنية لا تزيد على واحد في المائة . ولكن هذا المقدار اليسير يشمل نحو ثلث العناصر المعروفة . وليس في وسع الانسان ان يرى هذه العناصر ، لانها اما معلقة فيهِ في دقائق صغيرة جدًّا ، او مذابة فيه ، او داخلة في تركيب بعض المواد التي يحتوي عليها سواء أكانت عضوية ام غير عضوية . وبعض هذه المعادن توجد منهُ مقادير كبيرة — نسبيًّا — والبعض الآخر لا يوجد منهُ الاَّ آثار يسيرة جدًّا ، لا يمكن قياسها ولا كشفها الاَّ بالكواشف الكيماوية الدقيقة او بالحل الكيماوي

واهم المعادن فيهِ بحسب ترتيب مقاديرها هي الكلسيوم والبوتاسيوم والفصفور والكلور . ثم يليها الكبريت والمغنزيوم والحديد . ويلي هذه السلكون والبور والعناصر النادرة التي تقدم ذكرها وليس فيهِ منها الاَّ آثار قليلة . واحياناً يعثر الكيماوي عند حل اللبن بالوسائل الكيماوية على آثار لعناصر الباريوم والكروم والقصدير والفضة

ولما كانت المعادن في اللبن لا تزيد على واحد في المائة منهُ ، فبقية مركباته ، من المواد العضوية وهي مركبة من الايدروجين والاكسجين والكربون والنتروجين ، ومنها تتركب القشدة والمواد البروتينية وسكر اللبن . والكبريت يدخل في تركيب اهم المواد الزلالية (البروتينية) التي في اللبن واهمها الجبنين اي المادة الجبنية واسمهُ العلمي « كاسيين »

واهم المعادن في اللبن عنصرا الكلسيوم والفصفور ، لانهُ لا مندحة عنهما في بناء العظام . فاذا كان غذاء الاطفال يعوزه الكلسيوم تأخر نموهم ، فاذا استمرَّ هذا النقص في الغذاء او اذا كان الجسم تعوزه المواد اللازمة لتمثيل الكلسيوم ، اصيب الاطفال بلين العظام وتقوسها ، والمتقدمون في السن يحتاجون الى الكلسيوم ولكن حاجتهم اليه ، اقل من حاجة الاطفال ، وتزداد حاجة النساء اليه عند ما يكنَّ حوامل

وقد اثبتت التجارب ان الجسم النامي يحتاج يوميًّا الى غرام من الكلسيوم ، ولما كان مقدار

الكلسيوم في اللبن يبلغ ١٢ في الالف ، فيحتاج الجسم النامي الى تناول كيلو غرام من اللبن يومياً للحصول على ما يحتاج اليهِ من الكلسيوم ، اذا اعتمد على اللبن وحده . ومما يحسن ذكره ، ان الكلسيوم في اللبن ، مركب تركيباً يجعل خزنه في الجسم سهلاً ، واستعماله ميسوراً . واما الكلسيوم الذي في النبات فلا يجاريه من هذا القبيل

ثم ان كيلو اللبن ، يجهز الجسم بمقادير حسنة من الفصفور والمواد البروتينية والفيتامين وهي كلها مما لا ندحة للجسم عنه. والجسم يحتاج الى فيتامين (د) لتمثيل الكلسيوم. واللبن يحتوي عليهِ، ولكن ما فيه لا يكفي فيجب الحصول عليهِ من المواد الغنية به مثل زيت السمك وصفار البيض . وتمكن زيادته في لبن البقر باضافة الخميرة التي عرضت للاشعة الى طعامها

ومن فوائد الكلسيوم تأثيره الطيب في الجسم تأثيراً يمكنهُ من تمثيل الحديد . نعم ان مقدار الحديد في اللبن قليل جداً لا يزيد عن مليغرامين في الكيلو غرام ولكن هذا المقدار اليسير ضروري للنمو التام

وقد أثبت البحث الحديث ان النحاس ضروري للجسم لان تمثيله مع الحديد لا ندحة عنهُ في تكوين بعض عناصر الدم المهمة — أي الهيموغلوبين وهو المادة الاساسية في كريات الدم الحمر — وقلة الهيموغلوبين تسبب الانيميا أو فقر الدم ، والنحاس في الدم قليل وبوجه خاص اذا قوبل بما يوجد منهُ في الكبد والجوز والاوز والخضراوات والحبوب — فغذاء يحتوي على خبز القمح واللبن يكفي لتجهيز الجسم بما يحتاج اليهِ من الحديد والنحاس ، بل انهُ يكفي لتجهيز الجسم بكل ما يحتاج اليهِ من جميع الوجوه ويصلح لحفظ الحياة مدى غير محدود

العبقرية

بين البنات والصبيان

قرأ الاستاذ « وتي » مدير العيادة النفسية التهذيبية بجامعة نورث وسترن الاميركية رسالة امام مجمع تقدم العلوم الاميركي بدد فيها الوهم القائل بأن الذكور يفوقون الاناث عقلاً ، وان عدد النوابغ والعباقرة بينهم اكثر منهُ بينهنَّ

قال الاستاذ وتي : ومما ايد هذا الوهم تفوق عدد كبير من الرجال في الموسيقى والعلم والادب . والتجارب التي اجريت على طائفة صغيرة من الاطفال المتفوقين

على ان هذه التجارب تسير الى عكس النتيجة الاولى اذا اجريت على طائفة كبيرة من البنات والصبيان . وقد اجرى هو تجاربه على ١٤١٤٩ صبيًّا و١٣٤٩٣ فتاة فوجد ان نسبة المتفوقين في الصبيان الى المتفوقات في البنات ليست ٢ الى ١ كما كان يقال بل ١ الى ١ تماماً

المرأة الفرنسية

وحق الانتخاب

في فرنسا اليوم حركة عظيمة الغرض منها منح النساء الفرنسيات حق الانتخاب وكذلك حق دخول البرلمان وقد كانت الصحف في طليعة من اشترك في هذه الحركة طبعاً فاتفق معظمها على وجوب منح النساء هذين الحقين بعد ما اعترف لهنّ بهما السواد الاعظم من شعوب الارض

ويؤخذ مما جاء في الصحف الفرنسية ان المسيو لويس لوران وزير المستعمرات الفرنسية وهو من اكبر انصار المرأة خطب في مؤتمر عقد اخيراً لتأييد حق النساء الفرنسيات في الانتخاب فقال :

« ان قضيتك عادلة قانوناً ومنطقاً وعندي ان الذين يحاربونها لا يعترضون عليك الاّ بأسباب واعذار تافهة واهية »

وقد كانت جريدة « الطان » في مقدمة الصحف المتحمسة للمرأة الفرنسية فعقدت لذلك فصلاً افتتاحيـًّا استهلّـته بتعداد المهام التي كانت الاجيال الماضية ترى انها هي وحدها المهام التي يجب ان تلقى على عاتق المرأة ويعنى بها مهام البيت والاسرة فلما نالت نساء بعض البلدان الاخرى حق الانتخاب وطالبت النساء الفرنسيات بمساواتهن قال بعضهم ان المرأة ضعيفة وعصبية المزاج فلا يليق بها ان تشتغل بالسياسة وبالتالي لا يجوز منحها حق الانتخاب . وذهب آخرون الى القول ان المرأة سخيفة

« غير ان كل هذا انقضى عهدهُ وقد تحول العالم حتى أصبح في استطاعة الكاتب ان يقول ان الحرب قضت على تلك العبارات بعد ما أثرت في النفوس زماناً طويلاً

« ومما لا شك فيه ان المرأة تظل حارسة البيت عند ما يكون لها بيت ولا ريب كذلك في انها تظل نور هذا البيت ولكن كم من امرأة تضيف الى هذه المهمة مهمة القيادة وكم من امرأة تعمل الآن خارج البيت وتنهض بأعباء كانت حتى في عهد غير بعيد من اختصاص الرجال وحدهم . غير ان الايام عززت شخصية المرأة وقيمتها فتفوقت احياناً على شخصية الرجل وقيمته

« ولماذا نخشى ايجاد فرقة من النساء السياسيات ؟ فهل افضى تمتع الرجال بحق الانتخاب الى صيرورة جميع الرجال ساسة ؟ بل على الضد من ذلك ان اشتغال المرأة بالسياسة قد يساعد على ازالة بعض الظلم الذي ما برح قائماً فيما يختصّ بالطفل بل فيما يختصّ بالمرأة ذاتها

« ويعترض بعضهم على منح النساء حق الانتخاب بحجة انهُ يؤدي الى نشوء اضطرابات سياسية عظيمة . فهل وقعت انقلابات كالتي يخشونها في البلدان التي منحت المرأة هذا الحق الذي لم يعد في ميسور احدان ينازعها فيهِ ؟ وعلى ذكر هذا نقول اننا لا نعرف بلاداً ما تأثر نظام الحكم فيها من جراء تمتع النساء بحق الانتخاب

« بل أننا نخشى أن يفضي عدم الاعتراف للمرأة الفرنسية بحقها في الانتخاب الى وقوع

اضطرابات لانهُ ليس معقولاً أن تظلَّ في بلاد دمقراطية كفرنسا ، فئة مهمة من الشعب كفئة النساء مبعدة الى الابد عن الاعمال العامة من دون أن يضر ذلك بالدمقراطية ذاتها

ولا ينازع منازع في أن نظام الحكم الحالي يعوزه دم جديد وفي كل مكان يلهج الناس بضرورة تحقيق وجوه من الاصلاح لا يبعد أن يساعد على تحقيقها الاعتراف للنساء بحقوقهنَّ

« ومما هو جدير بالذكر أن الذين يعارضون في حق المرأة الفرنسية في الانتخاب هم أنفسهم الذين يعارضون في كل إصلاح وتحوُّل في الدولة

« وعندنا أن قانون الانتخاب لا يستوفى اصلاحه الاَّ اذا نصَّ على حق المرأة في الانتخاب كناخبة وكمنتخبة يجوز لها أن تجلس في البرلمان جنباً إلى جنب مع الرجال » اه مقال الطان

الحب والمغازلة

في روسيا السوفيتية

يقول كاتب اوربي عاد حديثاً من روسيا ان الحكومة السوفيتية « الغت الحب » من بلادها لانها تراه مجرد عبث واضاعة وقت فيما لا طائل تحته

وترى هذه الحكومة ان تقاليدالخطبة القديمة لم يعد ثمةما يسوّغهاوانهُ من السخف ان يمضي المرء شهوراً وأياماً في صداقة فتاة قبل ان يجرؤ على طلب يدها او الاباحة لها بما يكنّه فؤاده

ويقضي النظام الجديد في روسيا على الفتى الروسي طالب الزواج ان يذهب الى الفتاة التي يريدها زوجة لهويقول لها :

— انا عامل اعمل في مصنع النسج (مثلاً) ورقمي كذا (ويذكر رقمه) وقد علمت انك تشتغلين في المحل الفلاني ويذكر اسمه فهل تريدين ان نتزوج ومجموع اجرتي واجرتك الاسبوعية يكفينا

— هل لك غرفة خاصة تقيم فيها — كلاَّ ولكن لك انت غرفة فلماذا لا نسكنها

فاذا تم الاتفاق بينهما قصدا الى مكتب التسجيل حيث يوزن كل واحد منهما على انفراد ثم يكشف عليهما الطبيب ايضاً فاذا قرر سلامتهماذهبا الى موظف خاص ووقّعا امامه ورقة يعترفان فيها بأنهما زوجان ثم يذهبان الى غرفتهما من دون ضجيج ولا احتفال

ويتعلم شباب روسيا ان الحب مضيعة للوقت والمغازلة هباء والقبلات والعواطف عبث وانهُ جدير بالروسي ان يستعيض من هذا كله بالبحث عن الزوجة السليمة القوية القادرة على العمل والانتاج

وللزوجة في روسيا ما للزوج من الحقوق فهي تذهب معهُ في الصباح الى العمل وتشتغل كما يشتغل والذي ينهض منهما قبل الآخر من النوم يعد الطعام لرفيقه اي ان الزوجة فيها لا تكلَّف ما تكلّفهُ الزوجات في البلدان الاخرى

مقومات الجمال

سئل جماعة من النساء المشهورات بجمالهن اللواتي بلغن سن الكهولة او كدن يبلغنهُ : « كيف بلغتنَّ هذا السن ولم تزلنَ جميلات الوجه معتدلات القوام ؟ » فكتبن الاجوبة التالية

قالت الاولى : — الصحة ألزم اللوازم اذا اريد الاحتفاظ بالجمال رغماً عن التقدم في السن . وقد اراني الاختبار ان راحة البال ضرورية لحفظ الصحة وان جمال المنظر احدى نتائجها فتتمتع صاحبتها بالصبا الدائم

لكن هذه الراحة لا تنال بالادوية ولا بالمسكنات والفضل في ابتعادي عن الادوية لطبيبي فانهُ يحتقرها كلها ولقد طالما قال لي انكِ تفكرين بنفسكِ فتتعبين فاجتهدي لكي تنسي نفسكِ بالرياضة. فاتبعتُ مشورتهُ فوجدت سرَّ السعادة في الرياضة فانها تجعل الجسم خاضعاً للعقل فلا يبقى حملاً ثقيلاً عليه بل لا يعود يشعر بهِ بل يصير العقل يأمر والجسم يفعل ما امرهُ بهِ خاضعاً مطيعاً . ومتى خضع الجسم للعقل فهناك الصحة والسرور وما السرور الاَّ راحة البال وهو ابو الجمال وامهُ . هناك طلاقة الوجه وحسن المحيا وبهجة الشباب ولو في سن الشيخوخة . افتكري بشيءٍ يسرُّكِ حتى تبرق اسرَّتكِ وانظري حينئذٍ في المرآة فتري ان قد ابرقت عيناكِ واحمرَّت وجنتاكِ وعاد اليكِ صباكِ

والحزن يفعل ضد ما يفعله الفرح . تغور بهِ العينان ويمتقع الوجه وترتخي المفاصل . واذا توالى على المرأة رسخت آثارهُ في وجهها وقامتها . المسرور يطفح وجههُ سروراً والحزين يخيم الحزن على وجههِ وعلى كل ما يحيط بهِ . المسرور يسرُّ الذين حولهُ والحزين يحزنهم . وطلاقة الوجهِ ليست من المزايا الطبيعية بل هي صفة مكتسبة، هي جوهرة ثمينة تكتسب بالتمرين والممارسة

اذا لم يكن القوام على ما يراد فالرياضة تصلحهُ فاذا كان الصدر ضيقاً فالتنفس المستطيل يوسّعهُ وقد يصحبهُ شيءٌ من الدوار في اول الامر ولكن هذا الدوار يزول بالتكرار ويتسع الصدر رويداً رويداً ويظهر اتساعهُ جليًّا في شهر من الزمان

لكن انماء الجسم وتجميلهُ لا يكفيان من غير انماء العقل وتجميلهِ بالمعارف فعلى مَن تريد ان تكون جميلة جسداً وعقلاً ان تطالع انفس الكتب التي وضعها ابرع المؤلفين . ولا داعي للاكثار من المطالعة فان في قراءة صفحة واحدة من كتاب نفيس ما يغذي العقل ويصرفهُ عن الهموم والغموم . والمرأة التي تواظب على مطالعة الكتب المفيدة النفيسة لا يمضي عليها سنتان حتى تشعر كأنها صغرت عشرين سنة عمَّا كانت ولو لم تقرأ الاَّ بضع صفحات كل يوم لان العقل اسرع نموًّا من الجسد . والخلاصة ان صحة العقل والجسد هي سر السعادة والشباب والجمال

وقالت الثانية : — اني على يقين تام ان الاكثار من الرياضة في الهواء لازم لحفظ الصحة والشباب والجمال . اما الوسائل التي تستعمل لتحسين الوجه فلم اعبأ بشيءٍ منها وكل ما استعملهُ من هذا القبيل مادة دهنية نقية فانها افضل ما يكون لتليين الجلد . اما لون الوجه فيتوقف على الصحة وهي شيءٌ داخلي لا خارجي . وعندي ان قضاء ساعتين او ثلاث كل يوم في الرياضة البدنية افضل لحفظ الصحة والجمال من كل العلاجات والمحسنات

والعمل الشاق لا ينهك الجسم الاَّ اذا عملهُ الانسان عن اضطرار لا عن اختيار وعن كرهٍ لا عن رغبة اما الذي يحبُّ عملهُ ويرغب فيهِ فلا ضرر عليهِ منهُ مهما كان شاقًّا . وحبُّ العمل سرٌّ من اسرار حفظ الصحة وطلاقة الوجه وجمال المنظر . لكن الاستمرار على العمل يضني الجسم اخيراً فلا بدَّ من الراحة آونة بعد اخرى ، وابدال الشغل العقلي بالرياضة البدنية ، ولتكن في لعب يسرُّ بهِ المرءُ كالتنس فان اللعب الجسدي المسلي خير من الاقتصار على المشي

ولا بدَّ من صرف الغم عن القلب . ولقد كان الغم والهمُّ نصيبي فكنت اغتمُّ لكل فائت واهتمُّ لكل آتٍ فوجدت ان ذلك اضنى جسمي واسرع بي الى الشيخوخة فختمت على نفسي ان لا اغتمّ لفائت بعد ان اكون قد بذلت جهدي فيهِ ولا اهتم لآتٍ مهما كان

ثم ان كثيرين من الناس تراهم مرضى خوفاً من المرض وما مرضهم الاَّ الوهم اما انا فقد عوَّدت نفسي الاعتقاد باني صحيحة الجسم ناعمة البال وان كل الاشياءِ تعمل معاً للخير

واخيراً اقول انني لا استحسن ان يضع الانسان لنفسهِ قواعد يجري عليها وحدوداً لا يتعداها في كيف يقضي كل يوم من ايامهِ لان هذه القواعد والحدود تصير عبئاً ثقيلاً عليهِ . والعبء الثقيل شقيق الهم والهمُّ يميت الصحة التي هي ام الشباب والجمال

***

وقالت الثالثة : — لا يليق بي ان اقول كيف احفظ جمالي لاني لست جميلة ولكنني اقول كيف احاول ان احفظ صباي . وعندي ان حفظ الصبا اهم من حفظ الجمال لان الصبية لا تموت مرتين كالجميلة . وسن المرأة يتوقف على شعورها واذ اني لا اشعر بالتقدم في السن فانا لا ازال في سن الصبا وزد على ذلك اني ما دمت مواظبة على عملي فانا مواظبة على صباي . وسر الصبا هو سرور العامل بعمله ومن يريد ان لا يفارقهُ صباهُ فعليهِ ان يواظب على العمل ما استطاع الى ذلك سبيلا

اما الطعام فيختلف باختلاف الاشخاص لان ما ينفع الواحد قد يضرُّ الآخر لكن الاختبار الطويل قد علمني ان البساطة في المآكل تحفظ الصبا والجمال . اما حفظ الصبا الذي هو حفظ الجمال فيقوم بالرياضة الكثيرة في الخلاءِ حيث الهواءُ النقي

وخلاصة المقال ان حفظ الصبا والجمال يقوم ببساطة المآكل وانتظام الرياضة والانصباب على العمل وصرف الهم عن القلب. وقد قضت الضرورة ان استشير الطبيب احياناً ولكنني لا اعمل بمشورتهِ

زيت كبد الحوت

للدكتور عبده رزق

لا يخفى ما لزيت كبد الحوت وصفار البيض النيء والدهن المستخرج من الجوز الهندي من الخواص المفيدة ضد الخثل أو الكساح . كذلك من جهة اخرى لنور الشمس ولا سيما أشعتهُ التي فوق البنفسجية فائدة كبيرة على ما أثبتتهُ التجارب العلمية في السنوات الاخيرة . فهذا التشابه في التأثير حمل بعض العلماء على التساؤل هل هناك علاقة وثيقة بين زيت السمك ونور الشمس ، كعوامل من ناحية العلاج ، وهما كما ترى من عناصر مختلفة جداً

ويؤخذ من الاختبارات العديدة والبحوث المتواصلة التي يواليها العلماء من سنة ١٩٢٢ حتى الآن ان العلاقة المذكورة قائمة فعلاً بشكل يبعث على الدهشة والعجب . اذ قد لاحظ أنهُ اذا اخذنا مثلاً طائفة من الارانب أو الجرذان ، وأعطيناها أصنافاً معينة من طعام تسبب عادة داء الكساح ، تبقى سليمة من هذا الداء عند ما نعرّضها للأشعة التي فوق البنفسجية . كذلك تبقى متمتعة بصحة تامة عند ما نضع معها في أقفاصها جرذاناً أو أرانب أخرى كانت قد تعرَّضت قبلاً لذات الاشعة . فهذا النوع من المناعة يحصل على ما يظهر بطريق غير مباشر ويحتمل أن يكون حدوثهُ بواسطة براز تلك الحيوانات بعد تعرُّضها للأشعة المذكورة

فهذه النتائج غير المنتظرة مهدت السبيل اذ ذاك للبحث عما يمكن أن يكون العنصر الموجود في أعضاء تلك الحيوانات ، الذي يمنع ظهور الكساح . وقد اتضح بعدئذٍ انهذا الفعل لا يقتصر على الجرذان أو الأرانب التي تقتات من أصناف معينة من طعام يولد فيها الكساح ولكنها تبقى سليمة من هذا الداء متى أضفنا الى طعامها هذا الكبد أو العضلات من جرذان اخرى قد تعرضت قبلا لتلك الاشعة ، بل انها أيضاً لا تصاب بالكساح اذا اعطيت الدقيق بعد تعريضه لنفس الاشعة

فاذا أضفنا الى هــذا الحادث الخطير ما هو معروف الآن عن زيت كبد الحوت جاز لنا أن نعتقد ان خواص هذا الزيت المانعة للكساح يجب أن يكون مصدرها النور الشمسي ، وانهُ ممكن ولا شك إكساب تلك القوة للزيوت الاخرى بتعريضها للأشعة التي فوق البنفسجية . وفي الواقع قد عرّضلها زيت الزيتون وشحم الخنزير وزيت القطن فاكتسبت نفس الخواص التي اشتهر بهـا زيت كبد الحوت وبنفس الدرجة — على شرط أن تكون هـذه المواد طازجة ومدة تعرضها للأشعة قصيرة . وعلى نقيض ذلك كانت دهشة العلماء عظيمة لمّا تبين لهم أن زيت كبد الحوت والدهن المستخرج من الجوز الهندي مع الزيوت الاخرى ، تفقد خواصها الطبيعية المانعة للكساح عند ما تعرَّض مرة ثانية للاشعة ذاتها

فخواص زيت كبد الحوت ، مع الزيوت الاخرى ، ضد الكساح ، تكتسب اذاً والحالة هذه الصفات من أول تعرُّض للنور الشمسي سواء أكان ذلك بطريق مباشر وقت تحضيرها أم بطريق غير

مباشر كما هي الحال مثلاً في زيت كبد الحوت . لان الحيتان كما هو معلوم تقتات بالاسماك التي في المياه الصافية وهذه تتغذى ببعض النباتات البحرية التي تخزن نور الشمس كما تفعل النباتات على سطح الارض . والذي يؤيد هذه النظرية الصائبة هو أن دهن الجوز الهندي الذي يستخرج فور وصول هذا الجوز الى المعامل يكون دائماً عديم المفعول وليس لهُ أي تأثير ، بعكس دهن الجوز الهندي التجاري المجفف في الشمس الشديدة . وما تقدم ذكره عن الزيوت والادهان يقال أيضاً عن كافة أنواع الاطعمة : كالحليب والزبد واللحم وأنواع الدقيق والبقول والاثمار حتى الاطعمة المركبة من هذه المواد — على شرط أن تكون نقية ، فتحوز حينئذ تلك الصفات المانعة للكساح وتزيد مقادير الفوصفور الذي في المصل الدموي وبالتالي تساعد على تكلس العظام

وعدا ذلك فهذه الاطعمة التي اختزنت الاشعة الشمسية بفضل تعريضها للاشعة التي فوق البنفسجية تبيد الجراثيم الفتاكة وتؤثر في خلايا الجسم فتزيدها مناعة وقوة

فهذا الاكتشاف الذي لا يزال اليوم في مهده ، أو في أدواره الاولى من الاختبار ، سيكون على ما يظهر عظيماً بنتائجه وقد يحدث انقلاباً مهماً في علم العلاج . وعلى كل فهو يؤيد لنا مرة أخرى وجود تلك الغريزة التي تسوق الانسان منذ أبعد الازمنة الى تجربة استعمال الادوية ، كزيت كبد الحوت ، الذي لم يكن أحد يشك في منافعه الخاصة ضد المرض الذي يستعمل لاجله

عادة شرب الشاي

كتب طبيبان انكليزيان — هما الدكتور مايل والدكتور سكت طبيبا شرف في مستشفى فكتوريا — مقالاً في جريدة اللانست الطبية قالا فيه انهما لا يفهمان الحكمة من العادة الشائعة وهي عادة تناول الشاي في الساعة الرابعة والنصف الى الساعة الخامسة مساء . وقد بنيا رأيهما على دراسة طول المدة التي يلبث فيها الطعام في المعدة بعد تصويرها مراراً باشعة اكس . فقد ثبت لهما أن الطعام يبقى في المعدة بعد تناوله من ٢/١ ٣ ساعة إلى ٢/١ ٤ فالذي يتناول طعام الافطار في الساعة الثامنة والنصف صباحاً تكون معدته قد خلت منهُ في الساعة الثانية عشرة والنصف إلى نحو الساعة الواحدة واذن فيكون تناول طعام الغداء في الساعة الواحدة بعد الظهر عملاً معقولاً من الناحية الطبية

ولكن المدة التي تنقضي بين تناول الغداء (الساعة ١ — ٢ بعد الظهر) وشرب الشاي — أو أكل الشاي كما يقول الانكليز لانهم يأكلون معهُ قدراً لا بأس بهِ من الخبز والزبد والكعك — في الساعة الرابعة والنصف ، لا تكفي لهضم طعام الغداء في المعدة وخروجه منها . ولذلك يفضلان أن يقدم طعام العشاء الى الساعة السادسة أو السادسة والنصف على أن يمتنع عن اكل الشاي في الساعة الرابعة والنصف فتصيب المعدة قليلاً من الراحة قبل العشاء . وهذا يمكن الذين يسهرون من تناول شيء من الطعام حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً

صحة الاطفال

لوجوب الاعتناء بالأطفال أسباب دينية وأدبية معلومة . ولهُ سبب اجتماعيّ عظيم الشأن ، تقيم لهُ بعض الدول الآن وزناً كبيراً ، على ما نراهُ في ايطاليا الفاشستية وألمانيا النازية من الحثّ على وجوب الزواج واخلاف النسل . ذلك أن الشعوب الكبيرة القوية تكون في عزة ومنعة واطمئنان أكثر من الشعوب الصغيرة الضعيفة . وإننا لنرتاب جدًّا في تمكن المؤتمرات والمواثيق من ضمان الاستقلال والأمن والسلامة والراحة للشعوب الصغيرة الضعيفة مهما بذلوا في هذا السبيل من السعي والجهد ، لان تنازع البقاء قد يتغلب على جميع الحقوق الأدبية والاجتماعية ، إذ أنهُ سبب طبيعي . والطبيعة قلما تقهر بمثل هذه السرعة

وسواءٌ كان حفظ حياة الاطفال مبنيًّا على أساسٍ ديني أو على اساسٍ أدبي واجتماعي ، فالقول بوجوبهِ يقول بهِ كل أحدٍ ، وقلما يجرؤ أحد أن ينقضهُ عمداً اذا عرف الاسباب التي تميت الأطفال أو تجعلهم يعيشون مرضى ضعافاً والوسائل التي تقيهم من ذلك

ويمكن قسمة هذه الاسباب الى قسمين كبيرين . الاول الاسباب التي تؤثر في الطفل وهو جنين ثم في الايام الاولى بعد ولادتهِ . والثاني الاسباب التي تؤثر فيهِ في السنوات الاربع الاولى من حياتهِ

قبل الولادة وبعيدها (١)

الراسخ في الاذهان أن حياة الجنين من حيث قوته وضعفه متوقفة على صحة أمهِ فقط ، والحال أنها متوقفة أيضاً على صحة أبيهِ . فاذا كان أحد والديهِ مصاباً بالزهري مات جنيناً قبل أن يولد ، أو ولد ضعيفاً سقيماً . فلا يجوز للوالدين أن يزوّجوا ابنتهما برجل الاَّ اذا كان معهُ شهادة من طبيب تقرُّ بأنهُ خالٍ من هذا الداء الخبيث : ومن اصيب بهِ وعولج العلاج الواجب قبل تغلغله في الجسم فقد يشفى منهُ تماماً وحينئذٍ يحلُّ تزوجهُ

ويظنُّ أن حالة الحامل البدنية من حيث كونها تغتذي الغذاء الكافي أو لا تغتذي لا تؤثر في صحة جنينها . ولكن هذا الظن غير صحيح . فقد ظهر بالاحصاء . ان الحوامل اللواتي لا يغتذين الغذاء الكافي يكثر اسقاطهنَّ لأجنتهنَّ . فان الأجنة الذين يموتون في بطون أمهاتهم اكثر بين الفقراء الذين لا يغتذي نساؤهم الغذاء الكافي ، منهم بين الاغنياء ، واذا لم يتأثر الأجنة من قلة تغذية أمهاتهم فانهم يتأثرون بعد ما يولدون من قلة لبن امهاتهم

(١) نرجو قارئات المقتطف ان يراجعن فصل العناية بالحامل الذى نشرناه في مقتطف فبراير الماضي صفحة ٢٣٠

وقد ظهر حديثاً ان بعض العناصر لا ندحة عنها في غذاءِ الحوامل . وفي مقدمتها اليود . وهو يوجد في بعض الاطعمة في مقادير قليلة جدًّا ، ولكنها مع ذلك لا ندحة عنها لسلامة الجنين . وقد جرّبت التجارب في بعض الحيوانات الولودة فتبين ان اليود عنصر ضروري لسلامة الجنين ومنع الاجهاض

وما يقال عن قلة غذاء الحوامل والمراضع يقال عن تشغيل الحوامل بأعمال عنيفة في الأشهر الاخيرة من شهور الحمل فان الاعمال العنيفة قد تفضي الى اسقاط الجنين

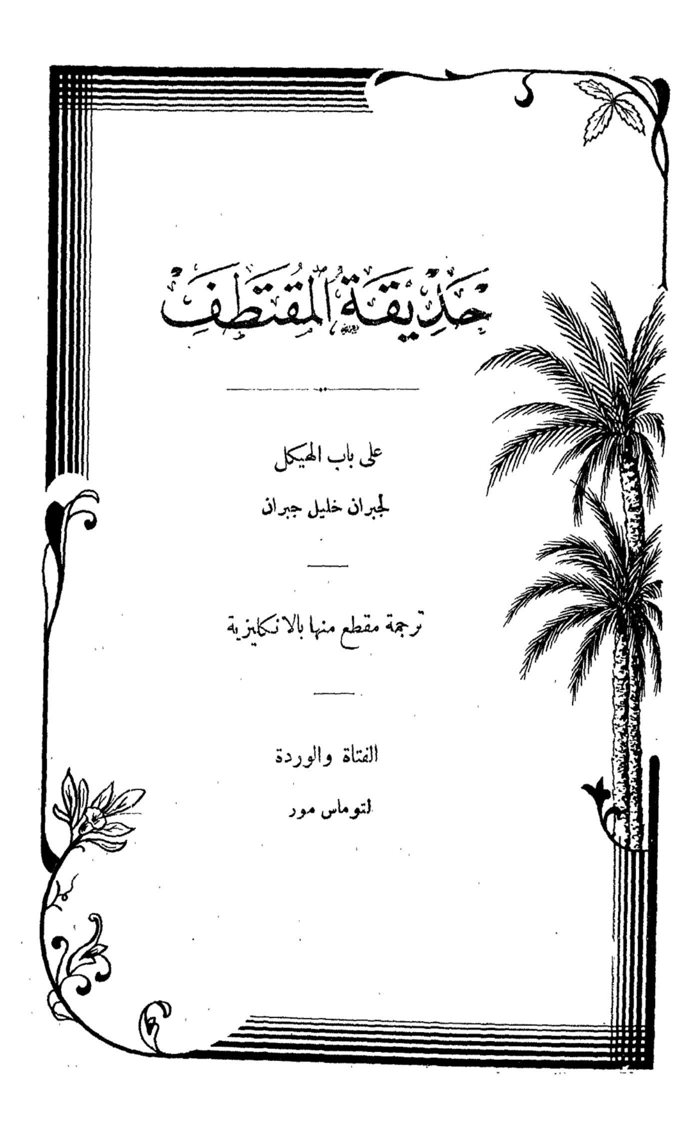
وقد لا يموت الجنين من السببين الأولين ، بل يولد حيًّا ثم يموت في الأسبوع الأول بعد ولادتهِ . اما لان احد والديهِ مصاب بمرضٍ خبيث او لأن بدن والدتهِ لم يغذهِ الغذاء الكافي لجعل جسمهِ يحتمل العوارض التي تعرض لهُ بعد ولادتهِ

بعد الولادة

العناية بالطفل بعد الولادة من الناحية الصحية من اوجب الواجبات على الوالدة لانهُ قد ظهر بالاحصاءِ في البلاد الانكليزية ان وفيات الاطفال في الشهر الاول بعد ولادتهم تكون في المدن اكثر منها في الارياف . وفي بعض المدن اكثر منهــا في غيرها . وفي بعض الاحيــاءِ في المدينــة الواحدة اكثر منها في احياءٍ اخرى . ويستدلُّ من ذلك على ان لكثرة الوفيات اسباباً يمكن منعها لأنها ممنوعة في بعض الأماكن . واظهر ما وضح من ذلك ان وفيات اطفال الفقراءِ تكون مثل وفيات اطفال الاغنياءِ في الأسبوع الأول بعد الولادة ثم تزيد وفيات الفقراءِ على وفيات الأغنياء الى اربعين في المائة في الشهر الأول .ووجد مدير الاحصاءِ في بلاد الانكليز سنة١٩١١ ان وفيات الاطفال الذين سنهم أقل من شهر تختلف باختلاف اعمال الوالدين من ٣٠ في الالف اذا كان الوالدون موسرين الى ٤٦ في الالف اذا كانوا معسرين

وقد قابل الدكتور ستيفنصن بين ٨٤٣٢٩٣ طفلاً ولدوا في وقت واحد سنة ١٩١١ وبين وفياتهم فوجد ان الذين كانت وفياتهم في الشهر الأول بعد ولادتهم اقل من ٢٥ في الألف ، كان والدوهم تجاراً واطباءَ ومصورين ونقاشين وصنّاعاً والذين كانت وفيات اطفالهم اكثر حتى ٤٥ في الالف كانوا ندلاً وكناسين وفعلة وحفاري ترع وغسالين وفحامين . والغالب ان هؤلاء يسكرون فيهملون نساؤهم واطفالهم فلا يغذّى الاطفال التغذية الكافية

وعرفت اسنان ١٠٥١٣٠ طفلاً ماتوا في انكلترا ومقاطعة ويلز قبلما اتموا السنة من العمر فاذا ٣٢٩٣٦ منهم ماتوا وعمرهم اقل من شهر و ١٩٦٤٧ ماتوا وعمرهم بين شهر وثلاثة اشهر و ٢٠٩٨٨ ماتوا وعمرهم بين ٣ اشهر وستة اشهر ، و ٣١٥٥٩ ماتوا وعمرهم بين ستة اشهر و ١٢ شهراً اي ان نحو ثلث الوفيات يقع في الشهر الاول



حديقة المقتطف

على باب الهيكل

لجبران خليل جبران

ترجمة مقطع منها بالانكليزية

الفتاة والوردة

لتوماس مور



ولز الكاتب الانكليزي المشهور

H. G. Wells

(أنظر مقالة عنه صفحة ٣٢٠)

على باب الهيكل [1]

لجبران خليل جبران

قد طهرت شفتيّ بالنار المقدسة لأتكلم عن الحب ولما فتحت شفتي للكلام وجدتني أخرس

كنت أترنم بأغاني الحب قبل ان أعرفهُ ولما عرفتهُ تحوّلت الالفاظ في فمي الى لهاثٍ ضئيل ، والانغام في صدري الى سكينة عميقة

وكنتم أيها الناس فيما مضى تسألونني عن غرائب الحب وعجائبه ، فكنت أحدثكم واقنعكم ، أما الآن ، وقد غمرني الحبُّ بوشاحهِ ، جئتُ بدوري أسألكم عن مسالكه ومزاياه فهل بينكم من يجيبني ؟ جئت أسألكم عما بي واستخبركم عن نفسي فهل بينكم من يستطيع ان يبين قلبي لقلبي ويوضح ذاتي لذاتي ؟

ألا فاخبروني ماهذه الشعلة التي تتقد في صدري وتلتهم قواي وتذيب عواطفي وأميالي ؟

وما هذه الايدي الخفية الناعمة الخشنة التي تقبض على روحي في ساعات الوحدة والانفراد وتسكب في كبدي خمرة ممزوجة بمرارة اللذة وحلاوة الاوجاع ؟

وما هذه الاجنحة التي ترفرف حول مضجعي في سكينة الليل فأسهر مترقباً ما لا اعرفهُ ، مصغياً الى ما لا اسمعهُ ، محدقاً بما لا اراهُ ، مفكراً بما لا افهمهُ ، شاعراً بما لا أدركهُ ، متأوهاً لأن في التأوه غصّات احبُّ لديّ من رنة الضحك والابتهاج ، مستسلماً الى قوة غير منظورة تميتني وتحييني ثم تميتني وتحييني حتى يطلع الفجر ويملأ النور زوايا غرفتي فانام اذ ذاك وبين اجفاني الذابلة ترتعش اشباح اليقظة وعلى فراشي الحجري تتمايل خيالات الاحلام

***

وما هذا الذي ندعوه حبًّا ؟

اخبروني ما هذا السر الخفي الكامن خلف الدهور المختبيء وراء المرئيات الساكن في ضمير الوجود ؟

ما هذه الفكرة المطلقة التي تجيء سبباً لجميع النتائج وتأتي نتيجة لجميع الأسباب ؟

---

(١) نعيد نشر هذه القصيدة النثرية على ذكر الكتاب الذي ظهر حديثاً بعنوان Prose Poems of Kahlil Gibran محتوياً على ترجمة بعض قصائده النثرية العربية باللغة الانكليزية

ما هذه اليقظة التي تتناول الموت والحياة وتبتدع منهما حلماً أغرب من الحياة وأعمق من الموت

اخبروني أيها الناس — اخبروني هل بينكم من لا يستيقظ من رقدة الحياة اذا ما لمس الحب روحه باطراف أصابعه ؟

هل فيكم من لا يمخر البحر ويقطع الصحاري ويجتاز الجبال والاودية ليلتقي المرأة التي اختارتها روحه ؟

أي فتىً لا يتبع قلبه الى أقاصي الارض اذا كان له في اقاصي الارض حبيبة يستطيب نكهة انفاسها ويستلطف ملامس يديها ويستعذب رنة صوتها ؟

أي بشريٍّ لا يحرق نفسه بخوراً امام إلهٍ يسمع ابتهاله ويستجيب صلواته ؟

***

وقفت بالامس على باب الهيكل اسأل العابرين عن خفايا الحب ومزاياه

فمر امامي كهل مهزول القامة كاسف الوجه وقال متأوهاً « الحبُّ ضعفٌ فطري ورثناه عن الانسان الاول »

ومرَّ فتىً قويٌّ الجسم مفتول الساعدين وقال مترنماً : « الحبُّ عزمٌ يلازم كياننا ويصل حاضرنا بماضي الاجيال ومستقبلها »

ومرَّت امرأة كئيبة العينين وقالت متنهدةً : « الحبُّ سمٌّ قتال تتنفسهُ الافاعي السود المتقلبة في كهوف الجحيم فيسيل منتشراً في الفضاء ثم يهبط مغلَّفاً بقطرات الندى فترتشفهُ الارواح الظامئة فتسكر دقيقة ثم تصحو عاماً ثم تموت دهراً »

ومرَّت صبية موردة الوجنتين وقالت مبتسمة: « الحبُّ كوثرٌ تسكبهُ عرائس الفجر في الارواح القوية فيجعلها تتعالى متمجدة امام كواكب الليل وتسبّح مترنمة امام شمس النهار »

ومرَّ رجل ذو ملابس سود ولحية مسترسلة وقال عابساً : « الحبُّ جهالةٌ عمياء تبتدىء ببدء الشباب وتنتهي بنهايتهِ »

ومرَّ رجل ذو وجه صبيح وملامح منفرجة وقال فرحاً : « الحب معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الاشياء كما يراها الآلهة »

ومرَّ اعمى يجسُّ الارض بعكازه وقال منتحباً : « الحب ضباب كثيف يكتنف النفس

من كل ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود ويجعلها لا ترى سوى اشباح اميالها مرتعشة بين الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتياً من خلايا الوادي»

ومرّ شابٌّ يحمل قيثارة وقال منغماً : الحبُّ شعاع سحريٌّ ينبثق من اعماق الذات الحساسة وينير جنباتها فترى العالم موكباً سائراً في مروج خضر والحياة حلماً جميلاً منتصباً بين اليقظة واليقظة »

ومرَّ هرمٌ منحني الظهر يجرُّ قدميهِ كأنهما خرقتان وقال مرتعشاً : «الحبُّ راحةُ الجسم في سكينة القبر وسلامة النفس في اعماق الابدية »

ومرَّ طفلٌ ابنُ خمسٍ وهتف ضاحكاً : « الحبُّ أبي والحبُّ امي ولا يعرف الحبَّ سوى أبي وأمي »

***

وانقضى النهار والناس يمرون امام الهيكل وكل يصور نفسه متكلماً عن الحب ويبوح بأمانيهِ معلناً سرَّ الحياة

ولما جاء المساء وسكنت حركة العابرين سمعت صوتاً آتياً من داخل الهيكل يقول : « الحياة نصفان نصف متجلد ونصف ملتهب فالحبُّ هو النصفُ الملتهب »

فدخلت الهيـكل اذ ذاك وسجدت راكعاً مبتهلاً مصلياً هاتفاً « اجعلني يا رب طعاماً للهيب — اجعلني ايها الالـه مأكلاً للنار المقدسة . آمين »

ترجمة المقطع الاول

I purified my lips with the sacred fire to speak of love,

But when I opened my lips I found myself speechless.

Before I knew love, I was wont to chant the songs of love,

But when I learnt to know, the words in my mouth became naught save breath,

And the tunes within my breast fell into deep silence.

In the past when you would question me concerning the secrets and the mysteries of love,

I would speak and answer with assurance.

But now that love has adorned we with vestments,

I come in my turn, to question you of all the ways of love, and all its wonders.

Who among you can answer me ?

الفتاة والوردة

لتوماس مور

ايتها الزهرة الشاحبة الذابلة

اي فن يستطيع ان يعيد اليك ما فقدتهِ من لون وزهوٍ وحياة !

اي فن يستطيع ذلك وقد فُصِلت عن الغصن الذي غذّى نفسك الطاهرة !

عبثاً تسكب الشمس اشعتها لتدفع الحرارة في خدك البارد والقوة في عنقك الملتوي

فقطرات الندى التي كانت تتقطر عليك نضرةً واريجاً

غَدَت الآن دموعاً تصبّها السماء لوعةً على موتك الباكر

***

كذلك تذوي الفتاة التي عبث بها مناط املها وموضع ثقتها

يدفعها من ذراعيهِ فتهيم في فيافي الحياة ورياضها منبوذة مهجورة .

عبثاً يبسم لها الاهل والاصدقاء ، وعبثاً يجربون ان يخففوا من لوعتها القاسية .

اي عطف يعيد الى قلبها الكسير سلامه الداخلي !

اي بسمة ترجع الى نفسها المسحوقة اجنحتها الخفاقة !

والبسمة الوحيدة التي تستطيع ان تبعثها من غيبوبة الموت وترفعها قليلاً لرؤية

نور الحياة — اجل هذه البسمة السموية ، تنتشي بها الآن أخريات

باب المراسلة والمناظرة

ارشاد لغوى

فى كل جزء كلمة

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود

« الأطبّاء »

(١) الطِّبّ — علاج الجسم والنفس يقال رجل طَبّ وطبيب أى عالم بصناعة الطِّبّ وكذلك يقال امرأة طَبّة وطَبيبة — ومن آيات التقدم فى هذا العصر أن الفتيات قد أقبلن على تعلّم الطب وأحرزنَ الإجازات العالية فى التطبّب من الجامعات ومدارس الطبّ فى أوربة وأمريقا واليابان وتركيا ومصر — ولا أريد بالطبيبات المولّدات اللائى حصلن ويحصلنَ على إجازات فى التوليد ويلقبهن العامة بالحكيمات أو الطبيبات ولكنى أريد من قطعنَ ويقطعنَ مراحل التعلّم الأولى والابتدائى والثانوى والعالى وفيه توفّرْنَ على تعلّم الطب فى نوع منه ولاسيما علاج الأمراض النِّسْويّة (١) أكثر الله منهن لربات الخدور حتى يتوفر الاطباء على علاج الذكور والطبيبات على علاج الاناث مهما تتنوعِ الأمراض

(٢) والمتطبب هو الذى يتعلم صناعة الطب ويتعاطاها وكذلك المتطببة اى التى تتعلم وتتعاطى صناعتهُ

(٣) وطبَّ الطبيبُ المريض يطُبّه طَبًّا داواه فالاسم الطب والعامل يقال له طبيب او طَبٌّ إن كان رجلاً وجمع الأول أطبّاء وأطِبّة وجمع الثانى طبوب كنفوس جمع نفس وبكثرة الاستعمال تستأنس آذاننا بالطبوب كما استأنست بالنفوس. والى القراءِ أنواع الاطباء

(ا) النِّقْرِيس هو الطبيب الماهر النظّار المدقق وهو أليق بالمتوفر على الطب فى حذق من النطاسىّ الذى شاع استعماله فى هـذا العصر لأن معناه الحاذق بالطب وغيره . والنُّطُس بضم النون والطاء الاطباء الحذّاق

(ب) الكحّال هو (طبيب العيون) والكحل كل ما وضع فى العين يُستشفى به فالكحّال هو الذى يداوى العيون واذا أذعنا الكحال فقد غنينا بهذا اللفظ العربى الصميم عن لفظتين عربيتين مضافة أولاهما إلى ثانيتهما أى (طبيب العيون)

---

(١) ينسب الى كل من النساء والنسوان والنسوة نسوى لا غير كما في لسان العرب — ومن الخطأ الذائع بألسنة الخاصة وأقلامهم نسائى نسبة الى نساء كما هو المتبادر للذهن من حيث القياس ولكن المسموع قد هدمه — قال صاحب مختار الصحاح فى مقدمته (والسماع مقدم على القياس فلا يصار الى القياس الا عند عدم السماع) انظر الى الصفحة الثامنة من الكتاب المطبوع بالمطبعة الاميرية سنة ١٩٠٥ م — والمواد اللغوية في الملاغى مظاهر السماع من العرب

(ج) المجبِّر هو الذى يجبر العظام وهو من الأطباء

(د) الجرَّاح أو الآسى هو الذى يداوى الجراحات يقال أسا الآسى الجُرحَ يأسوه أَسْواً داواهُ وجمع الآسى أُساة كقضاة جمع قاضٍ وقد يطلق الآسى أيضاً على كل طبيب سواء أكان جرّاحاً أم غير جرَّاح

وأبصِرْ بإسماعيل صبرى باشا المصرى فى هذا المقام إذ أنه فطن الى ما ذهبنا إليه من قبل وإن تأخرت إذاعته فقال :

يا آسى الحىّ هل فتشت فى كبدى وهل تبينت داءً فى زواياها

فقد اختار للطبيب الجرّاح لفظة (الآسى) فانه هو الذى يفتش فى الكبد فيتعرف الداء فى زواياها ·

والاستفهام فى البيت خرج عن معناه الاصلى الى معنى آخر هو الامر فكأنه قال يا جراح الحى فتش فى كبدى — وتبين داءً فى زواياها — ولا غرو فان اسماعيل صبرى باشا من نوابغ الشعراء البلغاء العلماء الذين نأخذ عنهم اللغة فى طرائف آدابهم فانهم افهم لأسرار الضاد من سواهم . فخذوا لغتكم عن نوابغ أدبائكم فقد حذقوها فهماً فأحسنوا تطبيقاً

(هـ) البيطار أو البَيْطَر هو معالج الدواب — والبيطرة صناعته فمن الخطأ الشائع (طبيب بيطرىّ)والصواب طبيب بَيْطَرِى على أننا فى غُنْيَة عن الصفة والموصوف بلفظٍ مفرد وهو بيطار أو بيطر واستعمل العرب الفعل بيطر والمصدر بيطرة[1] ولا يألم حضرات الأطباء البيطريين من اطلاق البَيْطَار أو البَيْطَر على كلّ منهم إذا كان سبقهم بهذا اللقب كل من كان يحذو الخيل والحمير فى مصر أيضاً فإنهم يلقبون بالحذّائيين جمع حذّاء على أنهم كانوا قبل إنشاء مدرسة البيطرة العالية يعالجون الخيل والحمير على قدر علمهم وتجاربهم كما كانوا يحذونها — والحرف تتشرف بالمحترفين فهم الذين يشرفونها كالمداره أى المحامين فقد شرفوا حرفتهم فى هذا العصر بمعلوماتهم وبراعتهم وأخلاقهم وقد كانوا غير محترمين فى مصر منذ خمسين سنة كما قال المرحوم سعد زغلول باشا فى حفل نقابة المداره سنة ١٩١٠م عقيب تأليفها وأعاد المرحوم هذا المقال فى فجر إعادة الحياة النيابية إلى مصر فى عهد الملك فؤاد . على ان الحذّائين والبياطرة هم الاجلاء عندى فإنهم من أصحاب الحرف الشريفة مع التفاوت فى المعلومات والمؤهلات وإذا كان أطباء النفوس وهم المهذبون وأطباء الأجسام البشرية والحيوانية يؤدون ما يجب عليهم للمجتمع الانسانى والحيوانى فلا تفاضل بينهم — إنما الأطباء إخوة . ومن مظاهر المساواة أن يجل الطوائف بعضها بعضاً على أن العمال الآن هم السائدون غيرهم فى كثير من ممالك أوروبا وسيسودون العالم كله مَدّ الزمن إن شاء الله فمن يحصل على قوته بالعمل خير ممن يحصل عليه بالمسألة وغيرها مما يخمش وجه الأدب وفى هذه الاشارة بلاغ والسلام

---

(١) أليس الاجدر بالحكومة ان تسمى مدرسة الطب البيطرى بمدرسة البيطرة لان لفظاً واحداً يغنى عن لفظتين لمدلول واحد وليست التسمية الاولى بخطأ



تآليف المستشرقين

صرتُ هـذا الصيف الى بلاد الشمال ، واتفق لي أن أقيم بفنلندا أربعين يوماً . فاجتمعت هنالك بمستشرقين[1] أحدهما الاستاذ (ا . ج تالجرين — توليو) والآخر الاستاذ (آبلي سارِسَالو) فعجبت للامر كل العجب . وقد دفع كل منهما تآليفه اليّ

١ — فنلندا وسائر البلدان البلطية الشرقية

مستخرج من جغرافية الادريسي

Idrisi--La Finlande et les autres pays baltiques d'Orient (Géograhpie, VII,4)
Edition critique par O. Y. Tallgren—Tuulio et O. M. Tallgren

هـذا الكتاب على بابين : أما الأول فيعرض للناحية اللغوية ، وأما الثاني فيبحث في الناحية التاريخية . والكتاب يشمل النصّ العربي مرسوماً بالحروف اللاتينية مع تصوير جميع المخطوطات المعروفة ، وترجمة ذلك النصّ وبحثاً في الخطط ، ونظرة تاريخية ، وخرائط ولواحق

وهذا الكتاب مشحون بالفوائد مشبع الفصول . ثم انهُ غاية في التدقيق العلمي ، الاّ أني استأذن الأستاذ (تالجرين — توليو) في أن أتتبع بعض أوهام وردت في النصّ العربي المرسوم بالحروف اللاتينية . فمن هذه الاوهام : اسقاط عين «عرض» في حاشية الصفحة الاولى — واغفال رسم الهمزة (صفحة ٣٠ سطر ١٥ و ص ٣٤ س ٨) — ورسم همزة الوصل بصورة همزة القطع (ص ٣٥ س ٥) — ثم اني اظن أن الوجه في ص ٣٤ س ٨ ان يقرأ : والجزيرة الثانية فيها «النساء» (لا «النساو» كما ورد) ولا رجل «معهنّ» (لا « معهم » كما ورد)

هذا وان تمنيت شيئاً سألت الاستاذ (تالجرين — توليو) أن ينشر النصّ العربي من تآليفه المستقبلة بالحروف العربية فلا يرسمه بالحروف اللاتينية ، وليس هذا عليهِ بمتعذر

---

(١) أشكر للمسيو سورافو Soravuo — الملتحق بالوزارة الخارجية الفنلندية — حسن لقائه لي حين هبطت فنلندا . ولا يفوتني ان أقول انه الذي أرشدني الى اولئك المستشرقين

٢ــ أغاني الدروز

Songs of the Druzes with an Arabic Appendix by Aapeli Saarisalo

هذه مجموعة أغانٍ للدروز أصابها الاستاذ (سارِسَلو) في أثناء رحلتهِ الى سيناء طلباً للآثار والعاديات . وهؤلاء الدروز ممن يقيم بالبقاع والبصّة . وتلك الاغاني بين «عتابة» و «مواويل» و «قصايد» و «مطالعٍ» و «تناويح» و «رناني» . وهي مدوّنة بالحروف العربية واللاتينية جميعاً ، منقولة الى الانجليزية نقلاً صحيحاً في الغالب . ثم لها لواحق في اللغة وفهرست شامل

ومما لا بدَّ أن اصرّح بهِ هنا أن جمع مثل هذه الاغاني عمل جليل الشأن من ناحية ما تسميهِ الفرنجة Folklore أي فحص عادات الامم . وعسى أن ينهض رجالنا الى جمع الاغاني المصرية والشامية والعراقية وما اليها جمعاً علميًّا ، فما هي ذي تحتضر على حين ان بعلماء الاجتماع حاجة ماسة اليها

٣ ــ صكٌّ في الوقف

A Waqf—Document from Sinai

ومما عثر عليهِ الاستاذ (سارِسَلو)—فوق هاتيك الاغاني الدرزية — صك وقف « حُرّر » في سيناء سنة ثمانٍ وثمانين وتسعمائة . وقد نشر الاستاذ (سارسلو) هذا الصك مصوراً بالفوتوغرافية ومطبوعاً بالحروف العربية ثم نقله الى اللغة الانجليزية وعمل لهُ مقدمة وعلّق عليهِ

فهل أدلُّ الاستاذ (سارسلو) على مآخذ هذا النصّ :

ورد ص ٢ س ٨ « المعلوم ذلك لهما العلم الشرعي » ، واظن الوجه « المعلوم ذلك لهما (اي المشترى والبائع) ... » — ص ٢ س ١٠ « بتقابل قيما على ذلك » ، واظن الوجه « بتقابل فيهما (اي المشتري والبائع) ... » — ص ٢ س ١٣ « وبيده (اي البائع) وحوزة وتصرفه » ، واظن الوجه « .. وحوزه . . . » — ص ٤ س ١٠ « مويد شريعة سيد المرسلين » والصواب « مؤيد ... » — ص ٧ س ٩ « يتول من قابل باللزوم » والصواب « يتولى .... (قارن ص ١٦ حاشية ١) »

على ان هذه الهفوات التي اذنتُ لنفسي ان انبه عليها هيهات ان تغضَّ من نفاسة كتب المستشرقيْن الفنلنديين ، وعسى ان يقيما على ميلهما الى فحص احوال العرب والمسلمين ورفع شأن اللغة العربية والحضارة الاسلامية في جامعة هلسنكي (عاصمة فنلندا)

٤ — فن التصوير الاسلامي

١٢٤ ص و ٢٠٠ صورة ، من القطع الكبير

Musulman Painting by E. Blochet translated from the French by Cicely M. Binyon with an introduction by Sir E. Denison Ross, C. I. E. Methuen & Cie, London

اعرف الاستاذ (بلوشيه) صاحب هذا الكتاب لست سنوات خلت ، اي منذ العهد الذي فيهِ كتب الله لي ان اختلف الى دار الكتب الفرنسية (قسم المخطوطات) . ولم يتفق لي ان احادث الرجل

على انهُ « حافظ » المخطوطات العربية . ثم مضت السنون وهأنذا ألقى الاستاذ بلوشيه كل يوم فنفيض في اخبار العرب والفرس فيأبى شيطانهُ وشيطاني الاَّ ان يعدلا بنا عن القراءة الى المحادثة زمناً

ان الاستاذ بلوشيه مليٌّ باللغات السامية واللغة الفارسية واللغة التركية ، فضلاً عن تضلّعه من اليونانية واللاتينية . ثم ان له مؤلفات عدة منها هذا الكتاب الذي اصفه لك

هذا الكتاب يبحث في تاريخ فن التصوير الاسلامي وتحوله ويفحص عن ظواهره وخصائصه . وتاريخ هذا الفن ينبسط فيهِ من مستهلّ القرن السادس للهجرة حتى القرن الثاني عشر ومما يزيد في نفاستهِ ان صاحبه نشر مائتي صورة ارادة ان يزين بها بحثه وفحصه ، وهذه الصور مستخرجة من خزانات دار الكتب الفرنسية والمتحف البريطاني والجمعية الاسيوية البريطانية وجامعة ادنبره ومجموعة المستر (تشستر بيتي)

وميزة الكتاب ان صاحبه انحرف عما يذهب اليهِ المستشرقون عامة . فلم يقل قولهم بأن الفن الاسلامي مقتبس من الفن الصيني ، بل دلَّ على ان هذا الفن كان منشؤهُ في بغداد، فان رجعت مصادره الى فنّ معيّن فانما ترجع بعض الشيء الى الفن البيزنطي

ولا سبيل لمن يقرأ الكتاب عن ان يشعر بطرافة آراء صاحبه ، وقد عطف على ذلك السر دنِسُن رُس في مقدمته . غير ان صاحب الكتاب يميل الى الاستطرادات ميلاً شديداً ، والحقُّ انهُ من ذوي البسطة في العلم من ادب وفن وتاريخ ودين

وصفوة القول ان الكتاب ذو شأن وان جالت بين سطوره طائفة من الآراءِ المعترضة ، ولكن الفن الاسلامي — على شتى الوانه — ما يزال موضع نظر ومجال جدل والحكم الفاصل فيما يأتي من الزمان

٥ — مصادر الاخبار الاسلامية

في القرآن وسِيَر الانبياء ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط

Les Origines des Légendes Musulmanes dans le Coran et dans les vies des Prophètes par D. Sidersky, Editions Geuthner, Paris

يزعم الاستاذ سيدرسكي ان جانباً عظيماً مما ورد في القرآن والتفاسير والسير من الاخبار يرجع الى « الاجاده اليهودية » والاناجيل والتوراة الموضوعة

يورد المؤلف النص القرآني او نص التفسير الى ما يلي ذلك ثم يعارضه بنصوص مستخرجة من الكتب التي تقدم ذكرها . واعتماده في الكتب الاسلامية على تآليف الطبري والزمخشري وابن الاثير والكسائي . وتعويله في كتب العهد القديم والحديث الموضوعة على كتاب « هتوخ » وكتاب « اليوبيل » و « حكاية يوسف النجار » و « انجيل الطفولة » و « انجيل توما » الى ما يجري مجرى ذلك عند نقاد تاريخ الاديان . وأما « الاجاده اليهودية » فاعتماده فيها على النوادر المبثوثة في التلمود البابلي والتلمود « الهيوروزلمي » ثم على التآليف « المدرسية »

وبعد فهذا الكتاب منحدر من رأي قال به المستشرق الفرنسي (كليمان هُوار) لثلاثين سنة خلت او تزيد . وللمستشرقين من بعده ومن قبله مؤلفات عدة في هذا الباب ، بل ازيد على ذلك ان من مبتدعي هذا الرأي Marraci و Sale (في القرن السابع عشر والثامن عشر)

والتحقيق ان هذا الكتاب لا يثبت على النقد ، ذلك ان بين النصوص الاسلامية والنصوص اليهودية والمسيحية مسافات وان اتفق لبعضهنَّ ان تتقارب فهل غاب عن المؤلف ان النصوص الاسلامية واليهودية والمسيحية الأُوَل انزلت او كتبت لقوم ساميين ، والساميون يعتمدون على وجه واحد من القبول الذهني ويستقيمون على عمود واحد من التفكير

بقي ان اسأل المؤلف لماذا اردف نصوص التلمود بترجمة فرنسية قويمة ثم لم يردف نصوص التوراة ولا نصوص «موضوعات» جوزيف بالترجمات المتداولة . ثم اني آخذ عليهِ استناده الى ترجمة القرآن المستشرق السويسري Montet فالمعلوم ان ترجمة الرجل لم ترزق حظها من التثبت والتدبر

٦ — ابن السعود ، ملك الجزيرة

٢٤٨ ص و١٩ صورة فوتوغرافية ، من القطع المتوسط

Ibn Séoud roi de l'Arabie par Antoine Zischka, Editions Payot, Paris

هذا كتاب رحالة فرنسي انطلق الى الجزيرة فاجتمع فيها بابن السعود ثم جاءنا يسوق قصة الملك الوهابي ، فبسط منشأ ابن السعود ونضاله ونصره راوياً ما دار بين الرجل والانكليز وما وقع له من امير اليمن . ولا حاجة بي ان افصّل هذا لقراء المقتطف . الاّ ان في الكتاب ثلاثة فصول يحسن بي ان اشير اليهما . اما الاول فحكاية ابن السعود مع (جوهرة) تلك المرأة الشاعرة الفطنة التي شدّت من ازر الملك وما فتئت حياتها تنصح له وترشده وتعينه على قضاء اوطاره وتستميله وتتحبب اليهِ حتى انهُ حزن لموتها حزناً شديداً . والفصل الثاني سياقة سيرة ابن السعود بما هي عليهِ من التقشف والبساطة والدعة مقرونة جميعاً بالغليان القومي والتحمس الديني . واما الفصل الثالث فوصف رقيّ الجزيرة على يد ابن السعود اجتماعيًّا واقتصاديًّا وعمرانيًّا ، ولهذا الفصل ذيل ينبّه الى المكانة التي وصل اليها ابن السعود عند الدول الاوربية امثال روسيا وتركيا واليابان فضلاً عن انكلترا وفرنسا وايطاليا

وبالجملة انهذا الكتاب يكاد يكون موقوفاً على الناحية السياسية . فما ضرّ المؤلف لوحدثنا عن العادات الوهابية وشرح لنا انتقال الذهنية الحجازية من حال الى حال دينيًّا وخلقيًّا . بقي ان في مقدمة الكتاب (ص ١١) عبارة لا يخفّ محملها على السمع . ودونكها : « ان فرنسا — وهي ملكة الاسلام Reine de l'Islam — لا تستطيع ان تعرض عن الاضطرابات الاسلامية مهما كانت » . فان رضي المغاربة لفرنسا بذلك اللقب فما اظن جماعة المسلمين وبالتالي جماعة العرب ينشطون له

برلين بشر فارس

الجزء الاول من مدخل فن الجراثيم

تأليف الطبيب الجراثيمي احمد حمدي الخياط من تلاميذ معهد باستور في باريس
واستاذ فن الجراثيم وعلم الصحة في المعهد الطبي العربي بدمشق — طبع في مطبعة الترقي بدمشق

انه يتعذر على الناقد أن ينقد كتاباً علميًّا مثل هذا الكتاب في صفحات قليلة . فالكتاب علمي بحت جعل لتلاميذ المعهد الطبي العربي في دمشق فلا شأن فيه لعامة القراء وانما سأكتب فيه شيئاً اجعلهم يهتمون بمثله لاننا في بدء نهضة علمية تهمنا كثيراً فكتب الطب التي تبحث في علم الجراثيم كثيرة ولكن الكتب العربية قليلة جدًّا ومنها هذا الكتاب . فهل وفق المؤلف في الغاية التي الف كتابه لاجلها : أقول لقد وفق كثيراً لذلك سيكون نقدي لهذا الكتاب في كونه كتاباً عربيًّا في علم الجراثيم اي انقده من هذه الوجهة دون غيرها

بدأ المؤلف قوله كما يرى في ما نقلته عنه انهُ طبيب جراثيمي بلا زيادة ولا نقصان فانه لم يقل انه حلَّ في كتابه جميع المسائل المختلف فيها او انه فاق الاوائل والاواخر او أنه مستعد لمناقشة علماء الجراثيم في ما قالوه أو انه تحدى باستور أو تلامذة تلاميذ باستور فانه لم يقل شيئاً من هذا بل جعل كتابه مثال التواضع شأن العلماء الحقيقيين . ذكرت ذلك ليكون هذا الامر دستوراً نسير جميعاً عليه في ما نكتبه . فالكتب العلمية وغير العلمية ينبغي ان تكون خالية من مدح النفس وهو ما نراه في كثير من مؤلفات هذا العصر . فقد حان الاوان لان نرى انفسنا كما يرانا غيرنا

ثم ان الكتاب خال من تقديمه الى رئيس الجمهورية أو الى المندوب السامي أو الى رئيس الجامعة أو الى أحد الاعيان او الاغنياء فما شأن هؤلاء على شدة احترامنا لهم في كتاب علمي مثل هذا الكتاب . فالذي يحترم نفسه ينبغي ان يترفع عن جميع هذه الامور . وقد ذكرت ذلك لعل المؤلفين في المستقبل يحجمون عن هذه العادة السيئة . أما الآن وبعد هذه المقدمة الوجيزة فلنبحث في جوهر الكتاب

ألبس المؤلف كتابه لباساً عربيًّا بحتاً فلا شيء فيه من العجمة مع أن معظم المصطلحات العلمية التي فيه اعجمية الاصل وقد احسن في قوله في مقدمة الكتاب « تأييداً لقول من يقول بأن اللغة التي تساعد على أن تخرج أبلغ الاقوال فصاحة (القرآن) لا تضيق عن أن تحتوي بعض كلمات تليق بايضاح بعض مصطلحات علمية حديثة وان انكر ذلك المتنطعون في التجدد » . واليك مثالاً من لغة الكتاب فقد قال في الجراثيم : الجرثوم والجرثومة لغةً أصل الشيء واصطلاحاً هي تلك الاحياء الدنيا التي تكون سبب بعض الامراض وهي التي يسميها علماء الافرنج بالاحياء الدقيقة . ثم أخذ يشرح الجراثيم ويقسمها ولا ابالغ في قولي ان جميع الالفاظ التي ذكرها عربية الاصل ولو جئت لاضرب الامثال على ذلك لضاقت بي هذه الاسطر القليلة ولكنني اقول ان المؤلف نجح كل النجاح في بلاغة مؤلفه وفصاحته وسهولة تعبيره . ولا بأس هنا من ذكر بعض المصطلحات التي اوردها وهي كثيرة جدًّا فمنها ما يأتي :

المكوَّرات البنية والمكورات السنانية والمكورات العنقودية والضَّمات والانبوبيات والراجبيات وانتاش البزيرة والعصيات المتألقة والعصيات المحبّبة للحرارة والتألق وذيفان الجراثيم والذيفان المنتشر والرعامين وحمة الجرثوم وضمخ الدم والبلعمة والبلعمات وغيرها وهي كثيرة وجميعها مفسرة بما يقابلها بالافرنجية حتى يرسخ في ذهن القارىء ما يراد بها تماماً فلا يمضي زمن حتى تصير المصطلحات العربية ملكة في النفس . وقد وعد المؤلف انه عند انجاز كتابه يضم اليه معجماً يذكر فيه جميع هذه الالفاظ وهي همة يشكر عليها

على اني اؤاخذه في الفاظ قليلة جداً منها قوله فن الجراثيم واظن الصواب علم الجراثيم فالفن خلاف العلم وقولهم في استانبول دار الفنون خطأ والصواب دار العلوم . اما وقد أخذ الترك ينظفون لغتهم من الالفاظ العربية فأولى بنا أن ننظف لغتنا من الفاظ تركية أو عربية الاصل استعملها الترك في غير معناها العربي . ومثله كتابة «ثه رلخ» على الطريقة التركية وأفضل كتابتها ارلخ . هذا وقد بقيت هفوات قليلة جداً مثل قوله الكريات البيضاء والكريات الحمراء والصواب بيض وحمر ولا يجوز غيرها . وقد ذكرت هذه الهفوات لكي يكون ما يخرجه لنا في المستقبل خالياً من جميع ذلك وجل من لا يخطىء

وصفوة القول ان هذا الكتاب نفيس جداً فعسى ان يتحفنا اساتذة المعهد ولا سيما المؤلف بكثير مثله . هذا وانمرضي حال دون قيامي بنقد هذا الكتاب وهو عندي منذ شهرين فالتأخير مني لا من رئيس تحرير المقتطف امين المعلوف

ضحايانا الاطفال

تأليف اجنس دي ليما وترجمة الاستاذ محمد عبد الواحد خلاف

قدمت للقراء كتاب الاستاذ محمد حسين المخزنجي في طرق التربية الحديثة لاني مؤمن بانهُ من خير ما ظهر في اللغة العربية في موضوع التعليم والآن ابادر الى تقديم كتاب آخر عظيم الشأن في نفس الموضوع . واني لاشعر بعد ظهور هذين الكتابين اننا على ابواب انقلاب كبير في نظم الدراسة عندنا وعلى وشك خلق رأي عام يولي اطفالنا العناية الواجبة ويطالب بتوفير اسباب نوع من الحياة يتمشى مع طبيعتهم ويكون من شأنه أنْ يمهّد لهم اسباب النماء الصحيح

وكتاب الاستاذ خلاف هو الاول من سلسلة تنوي ان تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر في التربية والتعليم ويشرف على اصدارها الاستاذ اسماعيل محمود القباني . هذا الكتاب يتناول بالشرح والوصف كثيراً من النظم الدراسية في الولايات المتحدة الاميركية من قديمة وحديثة ، ما يتمشى منها مع قوانين السيكلوجية التعليمية الحديثة ، وما لا يتمشى مع هذه القواعد ، فبعضها يبدأ بطبيعة الاطفال وبميلهم الغريزي الى التطلع والمعرفة ، ومنها ما يساير سنة الحياة من معالجة البيئة

القريبة جدًّا للطفل ، والبعض الآخر يسير على التقاليد الموروثة من قديم الزمان كما نعرفها نحن حق المعرفة في هذهِ البلاد

والنزاع بين انواع المدارس في هذا الكتاب -- كما هو في معظم الحالات في حياة الطفل المدرسية — هو نزاع بين الطفل والمادة ، وبين الدرس والحفظ والاستذكار من جهة وبين الحياة من جهة اخرى . هل الوظيفة الاساسية للمدرسة هي تعليم الاطفال طائفة معينة من الحقائق ، ام هي توفير اسباب الحياة والنشاط لهم ، ثم توجيه هذا النشاط الى ما يفيد الاطفال في حياتهم الراهنة. بالطبع تتفاوت درجات هذا النزاع ، من الدعوة الى جعل المدرسة سجناً او ما هو اشبه بالسجن ، الى جعلها فوضى لا ضابط لها . ولست اعرف بين ارباب التربية من يدعو الى جعلها سجناً بأدق معاني الكلمة ، ولا من يدعو الى الفوضى ، وانما ترى وأنت تقرأ كتاب الاستاذ خلاف ان هذين الطرفين موجودان الى حد ما ، وان النزاع فيه يدور حول اطلاق حرية الطفل وتقييده بأثقل القيود

لا استطيع في هذه الكلمة الموجزة ان اشرح ما تناوله هذا الكتاب من الفروق والخلافات بين هذه النظم جميعاً ، فعلى من يريد زيادة الايضاح ان يقرأ هذا الكتاب الذي لا يمكن ان يغفله المعلمون من دون ان يتعرضوا للوم وانما أوجه نظر القراء خاصة الى مطالعة الفصل الثاني منه فان هذا الفصل علاوة على انه قطعة فنية جميلة ، فانه ايضاً وصف دقيق للمدرسة التقليدية مع تغيير يسير تستدعيه الاختلافات في البيئة الاقليمية والاجتماعية ويستطيع القارىء ان يقرأ هذا الفصل على انه وصف لأحسن المدارس عندنا

لا يملك من يقرأ هذا الفصل الاّ ان يشعر بأن هذه المدرسة التي يصفها عبارة عن مصنع (فابريقة) تتحرك الآلات فيها بالضغط على بعض الازرار الكهربائية ، يقف العامل على مكانٍ مرتفع وأمامه لوحة عليها بعض الازرار ، وأمامه طائفة من الآلات مرصوصة رصًّا محكماً على قواعد هندسية محكمة ، كل منها تتحرك لتؤدي نوعاً معيناً من الاعمال دون غيره ، لا دخل لها بما يحيط بها من الآلات بل يحرم عليها ان تتصل بشؤون جارتها ، والاّ فسد النظام واختلّ العمل وكانت الطامة الكبرى ، لان كلاًّ منها تتصل بالعامل وحده فتتحرك متى اراد وتسكن متى شاء

هذه هي المدرسة ، وهذا هو المعلم ، وهؤلاء هم الاطفال . يقف المعلم على منبره فتتجه اليه ستون عيناً ، ترقبه وتلاحظ حركاته وتنتظر اوامره ، يطلب فتح الادراج ، فتتحرك ستون يداً ، وينفتح ثلاثون درجاً ، ويخرج منها ثلاثون كتاباً ، ثم تقفل الادراج وتوضع الكتب ، وتتجه الستون عيناً الى المعلم

يصف الكتاب هذا الضرب من المدارس ، ويصف النوع الآخر ، ثم يشير الى الفلسفة التي ينبني عليها هذان النوعان ، ثم يتناول اثرهما في حياة الاطفال بعد ان يغادروا المدرسة الابتدائية الى المدارس الثانوية والعليا ، ويبين بالارقام مبلغ النجاح في هذين النوعين

والحق اني لا استطيع ان اوفي هذا الكتاب حقه من التعليق والنقد فكل هذا لا يغني عن قراءته مرات وتدبُّر معاني كل ما ورد فيه ، ولا أملك الاّ انأشكر لجنة التأليف والترجمة والنشر ثم الاستاذ اسماعيل محمود القباني المشرف على طبع هذه السلسلة . وأما الاستاذ محمد عبد الواحد خلاف ، فقد حق له شكر المعلمين والآباء جميعاً ، ولا يكون هذا الشكر على اتمه الاَّ اذا اعاروا عمله هذا ما يستحقه من العناية الواجبة له

يعقوب فام

الطرق الاوربية المتبعة
في تحسين المزروعات وانتاج التقاوي

تقرير أصدرته الجمعية الزراعية الملكية بقلم الدكتور محمد عزيز فكري والمسيو ا . سباجيناتي من موظفيها عن نتيجة درسهما في بعض البلدان الاوربية التي تنتج القمح وطرائقها في تحسين انتاجه وتقاويه في ٨٦ ص

عانت بعض البلدان الاوربية أثناء الحرب العظمى وما تلاها من الانقلابات الاقتصادية وغيرها صعوبات ومخاطر في استيرادها من خارج بلادها لما ينفعها من بعض المواد الغذائية الرئيسية وأهمها القمح فنهضت بما فيها من عزم وقوة وحسن استعداد للاستكثار من انتاجها وتحسينها باستخدام افعل الوسائل الزراعية والتعاونية والميكانيكية والاقتصادية التي هدتها اليها حقائق العلم ونتائج التجارب كما تراه مذكوراً فيهذا التقرير الذي وضعه مؤلفاه عقب درسهما ما صنعته ايطاليا والمجر وفرنسا في هذا الموضوع الخطير ببيان موجز مفيد

واننا نحن الذين الفنا البطء في اعمالنا الحكومية المثمرة ندهش اذ نقرأ انايطاليا فيمدى ١٢سنة أَحْيت من اراضيها الموات ٥٬٨٠٠٬٠٠٠ فداناً انفقت عليها ٥٠٬٠٠٠٬٠٠٠ من الجنيهات وزاد ما تغله مزارع قمحها ٨٦ ./· فبعد ان كان ٢٩ مليوناً من الارادب في سنة ١٩٢٢ صار ٥٤ مليوناً في سنة ١٩٣٣ وبعد ان كان متوسط ناتج الفدان ٣٬١٧ اردب صار ٤٬٣ اردب بما في هذا متوسط ناتج الفدان من الارض المستجدة فضلاً عن تحسين نوع القمح عما كان عليه

اما الوسائل التي اتبعت للوصول الى هذه النتائج فهي (١) اصلاح الارض الموات (٢) الحماية الجمركية (٣) انشاء جمعيات التعاون الزراعي وترقيتها (٤) تأسيس معاهد انتخاب الحبوب وجمعيات انتخاب التقاوي وترقيتها (٥) نشر التعليم الزراعي والدعاية اليه بالمنابر المتنقلة وباللجان المحلية وبمدرسة عمليـة للميكانيكا الزراعية (٦) وسـائل التشجيع باعانة جمعيات التعاون والمسابقات الزراعية وجوائزها وباقامة المعارض والاسواق الزراعية والصناعية

ومما جاء في التقرير ص ١٥ — ١٧ عن معاهد الانتخاب وجمعيات انتاج التقاوي ما يأتي :

ولما كانت التقاوي وهي العمدة في الزراعة لا يمكن تحسينها مقداراً ونوعاً الاَّ باستخدام تقاوٍ منتخبة تناسب الحالة الخاصة بالبلاد فان الحكومة الايطالية لم تغفل قط هذا الاعتبار فانبرى رئيسها بنفسه

في الجلسة الاولى من جلسات لجنة القمح يطرح على بساط البحث مسألة نوع التقاوي التي يراها مقدمة على سواها . ومن اهم معاهد الانتخاب في ايطاليا نذكر : —

(١) المعهد الاهلي للوراثة خاص بزراعة الحبوب ومقره في روما وله فرع في ريتي

(٢) معهد للوراثة خاص بزراعة الحبوب في بولونا Bologna

وهذه بعض توضيحات عن المعهد الاول

كان مبتداه في ريتي سنة ١٩٠١ تحت ادارة البروفسور استرامبلي ولما نشطت حركة ترقية الزراعة صار اول معهد في ايطاليا ويديره مجلس ادارة مؤلف من سبعة اعضاء تحت رآسة مندوب من الحكومة ويبلغ مقدار الاعانة التي يتناولها من الحكومة ٨٠٠٠٠ من الجنيهات المصرية ويغطى هذا المبلغ بضريبة مقدارها من ٣٥ — ٥٠ مليماً مفروضة على كل ١٠٠ كيلو من القمح تشتريه الدولة

وقد تمكن المعهد بفضل هذه الميزانية الضخمة من انشاء ثلاث محطات للتجارب وتعهدها ولكل منها حقلها الخاص بالتجارب ، اما الاعمال التي تمت في هذه الحقول لتوليد التقاوي واستكثارها على يد المعهد الاهلي للوراثة في روما فقد ادت الى ايجاد انواع جديدة تفوق الانواع القديمة بمراحل

ولهذا المعهد علاقات مستمرة بمحطات التجارب الاخرى وبمنتجي التقاوي وبجمعيات التعاون الزراعي وبهذا تمكن من ان يراقب عن كثب انتخاب التقاوي ومضاعفتها ويقوم بهذه الرقابة موظفون فنيون . (الى ان يقول التقرير) وعند ما تسلم الجمعية للزراع البذور التي ثبتت جودتها بالامتحان تأخذ من كل (لوط) مقداره ٢٠ كيساً على الاقل اربع عينات يرسل احداها الى معهد التربية في بولونا واخرى الى معملها والثالثة الى حقولها لتزرع فيها وتكون كشهادة عند حصول اي شكوى او انتقاد من جهة الزراع الذين زرعوا هذا النموذج وتوضع العينة الرابعة في مجموعة العينات بمتحف الجمعية الخ

وفي ص ٦٧،٦٦ من التقرير جاء تحت عنوان التنظيف والانتخاب الآليان لحبوب القمح بمصر ما يأتي :— اما في مصر فان هذا المجال المهم موكول الى مشيئة التجار والزراع ويتأتى من ذلك ان الحبوب تعالج في اغلب الاحيان علاجاً مختصراً ساذجاً وتطرح في السوق فوضى وهي اخلاط من انواع واصناف شتى . واذا كان حقاً ان وزارة الزراعة اهتمت بأن تنشىء لها مؤسسات للتنظيف والانتخاب فان هذه المنشآت لم تتخذ الا لانتاج صغير محدود او لمقاصد تجريبية . ومما يذكر منها معمل التنظيف في قسم البساتين بالجيزة ومنشآت الدومين والاوقاف الملكية

اما الجمعية الزراعية الملكية فقد اقامت على ارضها بالجيزة معملاً جهزته بالآلات البالغة الاتقان لتنتج التقاوي المنتجة انتاجاً واسع النطاق . ويستطيع هذا المعمل نظراً لكبر مقطوعيته ان ينتج ٢٦ اردباً في الساعة او نحو ٣٠٠ اردب في اليوم واذا قوبل بامثاله في البلدان التي زرناها صح القول بأنه من خيرة المؤسسات المتقنة التجهيز لا لتنظيف الحب فقط بل لانتخاب التقاوي على وجه خاص

وقد يبلغ محصول هذا المعمل في موسم لا يعدو خمسة اشهر من اول يونيو الى ٣١ اكتوبر

٥٠٬٠٠٠ اردب وتقسم اعمال المعمل الى ثلاثة اقسام رئيسية (١) التنظيف (٢) التقسيم اي تقسيم الحبوب بحسب احجامها (٣) الانتخاب وقد شرح كل قسم شرحاً واضحاً . الخ الخ . والتقرير جدير بأن يقرأه كل مزارع للانتفاع بمعلوماته وارشاداته احمد الالفي

قصائد جبران المنثورة

Prose Poems of Kahlil Gibran. Translated by Andrew Ghareeb. Published by Alfred A. Knopf. Inc. Price $ 2:50

هذا هو الكتاب الثاني الذي نشر بالانكليزية بعد وفاة جبران . واذا كنا لم نشر الى الاول فلأنَّ الناشر نسي على ما يظهر ان جبران كان يخصنا بنسخة من كل كتاب جديد يخرجه

الكتاب الذي بين ايدينا يحتوي على مجموعة مختارة من قصائده العربية المنثورة ، نقلها الى الانكليزية الاديب اللبناني الاميركي اندرو غريب ووضعت مقدمته الشاعرة الاميركية بربارة ينغ وهي الوصية على تركة جبران الادبية

اما القصائد المترجمة فعظمها مشهور متداول بين قرَّاءِ العربية ومنها « وعظتني نفسي » و« يوم مولدي » و « اسكن يا قلبي » و « مدينة الاموات » و «الشاعر» و «الارض» الخ مما نشر قبلاً في مجموعة « العواصف » او « دمعة وابتسامة » او بعض المجلات

ولا يخفى ان الترجمة من اشقِّ الاعمال ، وبوجه خاص اذا كانت ترجمة لأثر ادبي ، لا يمكن ان يفصل فيهِ بين الاسلوب والمعنى . وقد اشار جبران الى ذلك في عبارة افتتحت بها المس ينغ مقدمتها قال : « الترجمة فن قائم بذاتهِ . هي عمل الابداع الثاني في تحويل سحر لغة الى سحر لغة اخرى » . وقد قالت المس ينغ كذلك ان جبران على تفوقهِ في الكتابة باللغة الانكليزية حتى كان يحسب احد امراء البيان فيها ، كان يقول لها : «لست الاَّ ضيفاً على لغتكم فعليَّ ان اعالجها باحترام ، ولا يجوز لي ان اتصرف في استعمالها تصرف ابنائها » : وعندها ان هذا الاحترام الذي كان رائد جبران عند كتابته باللغة الانكليزية يجب ان يكون رائداً كذلك لكل من يحاول ان ينقل قصائد جبران من العربية الى الانكليزية . بل هي تعترف ان ترجمة اي كان لا يمكن ان تبلغ من الدقة والصفاء ما كانت تبلغهُ ترجمة جبران نفسهِ لو استطاع ان يقوم بها . ولكن تشبُّع اندرو غريب بروح جبران وامتلاكه لناصية اللغة الانكليزية وقيام المس ينغ على تنقيح ما نُقِل — بعد ما سمعت جبران مراراً يترجمهُ عفواً — يجعل صفحات هذا الكتاب تنبض بروح جبران وتتسم بسمة من اسلوبه

فنشكر للاديب الناقل والمس ينغ عنايتهما بعرض صفحة مجيدة من الادب العربي الحديث على ابناء اللغة الانكليزية . وحبذا الحال لو عني احد الناشرين في البلدان العربية باخراج مجموعة كاملة من آثار جبران ، ما كُتِب منها بالعربية وما نقل عن الانكليزية ، على ان يتولى الاشراف على اخراجها الاستاذ ميخائيل نعيمه . وقد نشرنا في باب حديقة المقتطف احدى قصائد جبران العربية التي عنوانها « على باب الهيكل » ومعها ترجمة مقطعٍ منها نموذجاً لاسلوب الكتاب

نهضة الشعر الحديث

١ — الشاطيء المجهول — لسيد قطب ٢ — ديوان صالح جودت
٣ — أغاني الكوخ — لمحمود حسن اسماعيل

من الحق عليَّ ان ارحب بالفرصة التي مهّدت لي النظر في هذه الكتب دفعة واحدة . فهذا الثالوث يمثل نهضة الشعر الاخيرة في اعتدالها وتطرفها في ضعفها وقوتها ، أصدق تمثيل

والواقع ان استعراض هذه الكتب هو استعراض اجمالي ونقاش ضمني لأهم المباديء التي يتفق عليها ويختلف فيها النقاد في نهضة الشعر الحديث

يتفق النقّاد على أن النهضة الشعرية تسير في اتجاهها الصحيح وأن الروح التقليدي اختفى أو كاد ولكن هؤلاء النقاد مختلفون جد الخلاف في مسألة خطيرة كل الخطورة هي مسألة من هو الشاعر الصحيح

فالفريق الاول من الأدباء يقول ان الشعر يجب أن يكون من قوة التأدية بحيث لا تقل ديباجته اشراقاً وجرساً عن ديباجة الشعراء من أمثال المتنبي والبحتري وأبي تمام وشوقي . كما يجب في الوقت ذاته أن يكون هذا الشعر من قوة المعاني بحيث يكون محيطاً باتجاهات العلوم الحديثة والفلسفة

ومن أخص خصائص هذا الفريق أنهُ لا يتسامح في نبوة لفظية ولا يعفو عن كبوة معنوية ولا يغضي عن نشزة موسيقية ولكنهم بهذه الدقة يقيسون الشعر وبتلك العين ينظرون الى الشاعر كما يجب أن يكون. فإذا حلق شاعر الى موضوع ما وقصرت بهِ خوافيهِ أو قوادمهُ عما ينبغي للشاعر أن يعطو لهُ في جوّ هذا الموضوع فهو ليس بشاعر صحيح في نظر هؤلاء

أما الفريق الثاني فيقول لسان حالهم ان الشعر فن يجب أن يكون لهُ من قوة ذاتيته ما يجعله في غنى عن ملازمة أو معاونة أي فن آخر حتى الموسيقى. أجل حتى الموسيقى ! فهي لا تلزم لمعاونة الشعر وإذن فمن باب أولى عند أصحاب هذا الرأي أن الشعر مستغنٍ عن بقية علوم اللغة وأدواتها من معانٍ وبيان وبديع واشتقاق وغير ذلك . فالشاعر في نظر هؤلاء لا يعيب شاعريته جهله أو عدم مبالاته بالموسيقى الشعرية . كذلك لا يغض من شاعريته خطؤه في الاعراب أو غلطه في الاشتقاق أو كبوهُ في استعمال الكلمات والجمل بعضها في مواضع بعض . فاذا أصيب واحد من شعراء هذا الفريق بضعف في ملكته الموسيقية تخلط هزج الشعر بخببه وبسيطه بخفيفه فلا بأس عليهِ من ذلك لأنهُ قد خلق شاعراً ولم يخلق موسيقياً واذا كانت موسيقية أحدهم ثقيلة الظل مضطربة الجرس فلا بأس عليه أيضاً فان هذا الضعف علامة القوة في الشاعرية وهو آية مناعتها لا رخاوتها أو مياعتها أو كما يقولون

هكذا يختلف هذان الفريقان المتفاعلان في هذه النهضة ولعلك قد لمست ان خلفهما على مسألة من هو الشاعر الصحيح راجعٌ في الحقيقة الى خلفهما على مسألة الأداء الشعري فهذا الفريق الثاني

يرى أن الشعر هو الطلاقة الفنية كائناً ما كان حظها وقدرتها على التعبير عكس الفريق الاول الذي يرى أن هذه الطلاقة الفنية لا يمكن استغناؤها عن أدوات التعبير

ونحن هنا لا نقصد الى ترجيح أحد هذين الفريقين . وكل ما نقصد اليهِ هنا هو استجلاء آثار هذين الفريقين كليهما بمقدار ما تعطينا هـذه الـكتب الثلاثة من نماذج فنية تتمثل فيها ضعفاً وقوةً نهضة الشعر الحديث

١ — الشاطىء المجهول

فأنت ترى في ديوان الشاطىء المجهول محاولات طيبة تقربك الى حد كبير من نظر الفريق الاول الى الشاعر الصحيح . أجل اقول محاولات وقد يغضب صديقنا الشاعر سيد قطب من هذا التعبير ولست أبالي ان غضب . فصديقنا الناقد سيد قطب[1] زعيم بإنصافنا من صاحبه الشاعر فهو يقول ان له من مصاحبته زهاء عشر سنوات وإذن فهو أدرى بمواطن ضعف شمشون . ومهما يكن من مناصرة صديقنا الناقد سيد قطب لنا على صديقنا الشاعر سيد قطب واخذنا عليهِ بعض أنواع الضعف والخطإ أو ما يشبه الضعف والخطأ فان في ديوان الشاطىء المجهول قصيدة السر — وناهيك من قصيدة هي ديوان في ديوان . فأنت في هـذه القصيدة تنظر الى الطلاقة الفنية كيف تخدمها علوم الادب وألوان من الثقافة العامة كما يخدمها فن الموسيقى والتصوير والرسم . وليس ذلك وحسب بل فن القصة وفن التخريج الروائي أيضاً . كل هذه الفنون والعناصر في هذه القصيدة قد جمعت بعضها الى بعض بنسب موزونة بمنتهى الدقة . فليس ثمة لعنصر أن يطغى على الآخر ولا لفن أن يتطاول على أخيهِ . ولم يكن أحب لنفسي من نقل هذه القصيدة كلها اذ لا سبيل لنقل بعضها ليستمتع بها القرّاء معي لولا ضيق هـذه الصفحات . ومن الغريب أن يلاحظ على الروح الموسيقي في ديوان الشاطىء المجهول الشحوب العام حتى في أعظم مواطن الفرح للشاعر فيجيء هذا اللون من الضعف مساعداً كبيراً على زيادة التوفيق في هـذه القصيدة بالذات حيث لا يليق فيما بين المقابر الاّ هذا اللون الشاحب من التلحين . ويصرح الشاعر ان موضوع هذه القصيدة اختمر في عقله الباطن ستّ سنوات ولا شك أن هذا التصريح يكشف عن سر يظهرنا على هذه الاجادة المقطوعة النظير — ومع اعجابي بهذه القصيدة معنىً ومبنىً ولفظاً فليس في وسعي ان أمرّ عليها دون أن أقف فيها على هـذا البيت حيث يقول :

وغشاه روع الموت والموت روعة   تغشى فيعنو كل نكس وقادر

فقد وددت ان يكون شطره الثاني هكذا (تغشى فيعنو عاجز مثل قادر) اذا سمح الناقد سيد قطب أن يسترعي ذوق الشاعر سيد قطب لجمال هذه المقابلة . وكذلك أود ان استرعي ذوق الصديقين معاً الشاعر والناقد الى قولهما في قصيدة الشاطىء المجهول

(١) انظر ما يقوله الناقد سيد قطب في تقديمه للشاعر سيد قطب في مقدمة الشاطىء المجهول

لقد حجب العقل الذي نستشيره   حقائق جلت عن حقائقنا الصغرى

فالأفضل ان يقال حقائقنا الكبرى بدل حقائقنا الصغرى لانك اذا قلت ان الكبير يجلُّ عن الصغير فما في هذا غرابة امتياز في التعبير. ولست اجهل النكتة في تعبيره بالصغرى بدل الكبرى فهو يريد ان يقول انه لا يرى في هذه الحياة الدنيا حقيقة واحدة يصح ان توصف بالكبرى وهذا اعتبار فلسفي بليغ حقًّا ولكني ألاحظ ان هذا البيت من حقه ان يجري مجرى المثل ومن حق الامثال ان لا تقف في الأذان بطلب الاستئذان فهي من اجل هذا تفضل القول الفصيح على القول البليغ.

وايضاً وددت لو ان الشاعر في هذا البيت نفسه أراحنا من لفظ (نستشيرهُ) وقال نقتدي به او نهتدي او غير ذلك مما يحلو له فان السين والشين بينهما تاء في لفظ (نستشيره) هذا تذكرنا بمثلها في قول بعضهم: غدائره مستشزرات الى العلى. وهذه هي الكلمة التي ضربتها كتب البلاغة مثلاً في تنافر الحروف

٢ — ديوان صالح جودت

اما ديوان صالح جودت ففيه من خفافة الظل ما يحبب القارىء في صاحبه ولا سيما حين يرى جودت يعتمد على طبعه المصري ووجداناته الظريفة فهو حينئذ زعيم ان يعيد الينا نكهة خفيفة الروح من مصر الشاعرة في زمن ابن معتوق وابن مطروح وأمثالها من شعراء عصر الظرفاء فاسمع اليه وهو يخاطب حبيبته فيقول:

ايها القاتل اني مشفق   لك ان تلقى الردى من ملكيك

فوصم الحبيب بالقاتل وتحذيره حين يلقى الردى من ملكيه كل هذا هو من اسلوب شعراء ذلك العصر وليس جودت هو الذي يقول بسؤال الملكين وانما هذا هو شعاع من غلبة حب النكتة على طبعه المصري الظريف. وانما جودت ابن عصرنا هذا هو الذي يقول في المهزلة الكبرى:

والذي اودى بسكان الجحيم   هو ما امسى ثواباً في النعيم
حكمة قد حيرت عقل الحكيم   غمرت بالشك اذهان الملا
ايكون الذنب في الاخرى ثواب

لاشك ان صاحب هذا مستحيل ان يكون من القائلين بسؤال الملكين. ثم اصغ اليه حين يقول:

يا شقيق الزهر والطير اما   ساءلت نفسك عني اخويك
انا في روضك ارويه بما   فاض من عطفي مدى العمر عليك
أزرع الآمال في روض هواك   وارويها بدمعي ودمي

او في قوله في جسم فتاته صاحبة الهيكل المستباح

جعلت منهُ الليالي سلعة   ما لليالي غير تجار الرقيق

فهذه الاستعارات والتشبيهات التي تجعل الحبيب شقيقاً للزهر والطير وتجعل الهوى روضاً يزرع

فيهِ الآمال كل هذا هو الخيال المصري الذي تحس فيه نكهة قوية من انفاس شعراء مصر من عصر الشاب الظريف . ثم ألا ترى في قوله : (ماالليالي غير تجار الرقيق) قرينة تصدق ما نذهب اليهِ من ان خيال جودت يستوحي الروح المصري الذي لم ينسَ بعد عصور الرقيق وتجار الرقيق وها هو مجاراة لابن معتوق واشباههِ يأبى الاَّ ان يخترع دموعاً لها ثغور وهذه الثغور تقبل خدي حبيبته زينب فهو يقول :

فاني رأيت ثغور الدموع تقبل خديك يا زينب

تأمل . فلعله في مرة ثانية سيخلق لدموع زينب اسناناً تأكل بها او تعض ! وجملة ما في صاحبنا أنهُ عذب سائغ ما استمد من طبعه فاذا استمد من مطالعاته ولاسيما الغربية ورغب في محاكاة شعرائها فهناك يشعر بالحاجة الى ما يعينهُ على التعبير فاذا استخفَّ بذلك فهو لا محالة شاعر بالكلال فمن امثلة ذلك قوله في المهزلة الكبرى :

غنني انشودة الوادي الوسيع (هكذا) حيث لا اسمع للدنيا رجيع (هكذا)
ثم جفف ساعة جفني الدميع وارد نوق الحزن واهتف حيهلا
يا كراز السحر يا كاس الشراب

فلفظ (ساعة) في قوله ثم جفف ساعة هو في علم صناعة النظم حشو ناهيك بالاشتقاق في قوله جفني الدميع. أما ضعف التعبير في قوله وارد نوق الحزن الخ فما لا يحتاج الى بيان . واليك ايضاً قوله في احد مطالع قصائدهِ في الرثاء

هل رأيتم لجيعة الآفاق كيف اودت بأدمع الآماق

لا جرم ان هذا البيت يذكر الادباء ببيت ابي العتاهية : مات الخليفة ايها الثقلان . الخ على ان قول جودت كيف اودت بأدمع الآماق فيهِ تفوق عظيم على ابي العتاهية . ومن هـذا القبيل بيت لحافظ عند ما شبه ثوران البحر في عاصفة عاتية بفوران القدور

ومن هذا القبيل قول جودت في رثاء شوقي

انا في مصر سامع لوعة الشرق ودارِ بمهجتيه الدويا

فهذا تعبير عامي تقريباً . وقوله في رسالة الحب :

فحكمت قلبك بيني وبينك لكن حكمت فلم تنصف

فصناعة البيان العربي تنكر مثل هذا الاستدراك في قوله لكن حكمت الخ . كذلك يقول :

حرك الحسناء في صمت الدجى همسات رددت في صومعه

وكان خيراً له ولهذا النظم الجميل لو قال آنس الحسناء بدلاً من قوله حرك لانهُ تعبير سقيم والديوان بهذه الامثلة التي يدل على روح الاحتياج الى الثروة البيانية العربية وان حفل برغم هذا بروح يتوثب ضمين بالاعتماد على نفسه محاولاً التخلص من كل ألوان المحاكاة . ويتجلى لك هذا الروح كثيراً في المقاطيع ذات البيتين او الثلاثة الى الخمسة ومن أحسنها قوله يخاطب الآلهة

ما رونق البدر الاَّ اشعة من عيونك
هَـديتني لالهي فنوره في جبينك
وحيرتي فيهِ بعضٌ من حيرتي في شؤونك

هذا روح يحاول ان يكشف عن نفسه بدون شك وفي امكانه بقليل من العناية ان يصل الى ما يصبو اليهِ

٣ — اغاني الكوخ

واخيراً نقدم على كتاب اغاني الكوخ وانت حين تمسك نفسك على قراءَته ستلقاك الوان كثيرة من اخيلة الطلاقة الفنية معتدة بحشد لا بأس بهِ من الثروة اللفظية التي تساعد على التأنق في تأليف الجمل ولكن بجانب ما يستهويك من ذلك ومن عناوين قصائد القيثارة الحزينة وثورة الضفادع الخ وبجانب ما يسترعيك من اناقة طبع الكتاب لا تكاد تمضي في قراءَته حتى تصطدم بأغاليط شتى في النحو او في اللغة او في العروض بله الاخطاء في الاسلوب المنطقي في التفكير وسوء استعمال وصايا علم البيان . فمن اخطائهِ النحوية قوله في قصيدة القرية الهاجعة

وسدتها الاضواء من لحها الضافي وساد الطبيعـة العبقري
بهرة للعقول تملي على الكون نشيـد الهناءة السحـري
ناح في جنة يلقن شاديها نـداء الطبيعـة العـلوي

فهو في هذه الابيات الثلاثة خضوعاً واذعاناً لحكم القافية يجر ما حقه ان ينصب وجوباً بحكم الاعراب. ويشهد الله انا حاولنا ان نقرأ قصيدته بالسكون في رويها وفي العروض متسع ولكننا وجدنا المؤلف ذاته عمد الى قوافي القصيدة وضبطها بكسر الروي . ومن أغلاطه اللغوية قوله يشير الى ثورة الساقية وسائقه

يتلو على آذانه سورة من قسوة السيد على عبده

باسكان الياء في السيد ليستقيم له وزن البيت وهذا غلط شنيع لا يمكن قبوله الاَّ في الازجال ومن افواه العوام ومن خطئه اللغوي ايضاً قوله :

وقد ود النخيل قامات غيد ساكرات من خمرة الطل ميد

فاستعمال ساكرات من الخمر غلط لغوي وساكرات بهذا الاشتقاق انما تستعمل بمعنى ساكنه لا غير فاستعمالها في سياق هذا البيت غلط واضح لاقل المتأملين

وقوله : فاذ الهوى يرخي ذوائبه كأَنَّ العفاف لبابة في الطهر

فكلمة لبابة هنا لا معنى لها لغويَّـا باي حال ولعله اراد نفاية فوهم . اما اغلاطه العروضية فمنها قوله

ورنا الدوم للشعاع كملهوف صبا الى نهـره الفضي

والشطر الثاني من البيت مكسور لانهُ من الخفيف ووزنه معروف. وقوله من قصيدة بعنوان في المحراب

الطهر في لألائها والسحر في اضوائها والنور في صهبائها والنار في اعصابي

ففي هذا البيت قد زاد وزنه العروضي تفعيلتين لأنهُ من الكامل (وهو وزن باقي القصيدة) وهو متفاعلن ست مرات ولكنهُ في هـذا البيت ثمانية. وهناك قصيدة بعنوان تبسمي لم اعرف لها وزناً مطلقاً ولعلي لم اعرف لها طعماً ايضاً وانا اتحدى انساناً ما ان يضبطها على ميزان عروض معروف او غير معروف. ومن اغلاطه في السياق المنطقي للافكار قوله يشير الى الريف

هنا خبايا النفس مطمورة غشى عليها الزمن الجائر
لو لابن سينا خطرة بينها ما قال نفس لغزها قاهر

فلم ادر من الذي قال ان الريف وحـده هو موطن النفس المطمورة واي مانع يمنع من وجود الانفس المطمورة في الحضر كما هي في الريف واي قيمة اذن لكلام يصح ان يقال هنا كما يصح ان يقال هناك وادهى من البيت الاول قوله في البيت الثاني لو لابن سينا خطرة بينها الخ فلست افهم لمـاذا كان ابن سينا يمتنع عن قوله في النفس انها لغز قاهر لمجرد خطرته في الريف اكان لغز النفس الانسانية المعقدة يحل لابن سينا اذا رأى الانفس المطمورات في الريف؟ ما شاء الله على هذا التفكير وعلى هذا المنطق.

أما سوء استعماله لوصايا علم البيان فالكتاب طافح بالاستعارات الغامضة وبوجوه الشبه المعيبة عند البيانيين فمن هـذه الاستعارات الغامضة قوله يصف زهرة القطن

ذات كاس اترعت شمس الضحى ريقها من خمرة النور المشاع

فهذه الاستعارات الكثيرة في بيت واحد تحتاج الى (رمَّال) ليكشف لنا ما فيها من غموض ومع كل ما ذكرنا من تلك الامثلة للتنبيه لا اكثر ولا اقل على انك برغم هذه الاغاليط ستقع في هذا الكتاب على ابيات تستحسن. فمن ذلك قوله في سنبلة تغني

من له في الارض ملك مثل ملكي في الكثيب
موردي النيل وزادي من ثرى النيل الخصيب

الخ هذه الاغنية التي يعجبني على الاخص قوله في آخرها

وتحطمتُ فأحيا الناس عيش من رفاتي
انا في غرسي وحصدي وحيـــاتي ومماتي
مثـلٌ أعـلى ورمزٌ خالص للتضحيات

ومن امثلة لباقته في التوليد قوله في قصيدة (النعش)

هذا الذي ضاقت الدنيا بمطمعه نصيبه كان منها عشر أشبار

فهذا النظم مُولَّـد من قول بعضهم

فالشرق نحو الغرب اقرب شقة من بُعد تلك الخمسة الاشبار

وهذا البيت هو من قصيدة هي بعض محفوظات المدارس ومطلعها: حكم المنية في البرية جار
وجملة القول انهُ شاعر يحاول الاندماج في المدرسة الحديثة ومحاكاة اتجاهاتها الفكرية الحديثة

الاستعراب دون الِمام باللغة التي تتيح له ذلك وهذا مستغرب من شاعر يتلقى العلم في دار العلوم وهي معقل اللغة والادب الحصين . فأعراض الضعف التي نراها في أغاني الكوخ لا نلحظ لها أثراً في ديوان جودت فهو وان كانت ثروته اللفظية أقل من صاحبه الاَّ أنهُ يعتاض عن ذلك ويعتصم بلغة أجنبية تقف بهِ على أفكار مدرسته وتسهل عليه الاندماج فيها مباشرة ولهذا كان اكثر من زميله اندماجاً في موضوعاته واتجاهاً نحو الاستقلال . أما ديوان الشاطىء المجهول فهو متأثر بالقائلين أن الطلاقة الفنية لا تكفي وحدها في تكوين الشاعر فهي لا بدَّ لهـا في تكوينه وانضاجه من استخدام ألوان شتى من سائر الثقافات والعلوم والفنون وعندي ان هذا الرأي الاخير هو افضل المذاهب لتخريج الشعر الصحيح واظن ان هذا هو ايضاً مذهب الحياة

محمود ابو الوفا

قصص جغرافية للأطفال

تكون سعادة الأمة موفورة كاملة على قدر وفرة عناصر السعادة فيها وأهم تلك العناصر هي انتشار العلم الصحيح بها والثقافة التي تكفل لأبنائها التربية الحسنة ثم كمال الصحة وكثرة المـال والنشاط والدأب في العمل ، هذه هي أهم وسائل السعادة ، واذا كان المال لا يحقق للأمة سعادة الاَّ بالعمل الذي لا يستقيم ولا ينتظم الاَّ بالعلم الصحيح والتربية الحسنة فجدير بكل امة ان تطرب سروراً وتغتبط انساً وحبوراً عندما يبرز فيها اديب كامل او عالم فاضل ينفعان الامة بعلمهما وادبهما. فما اجدرنا والحالة هذه ان نقدر الاستاذ كامل كيلاني حق قدره ونعرف له اياديه البيض ومآثره الغُرَّ على العلم والادب معاً فالاستاذ الكيلاني لم يقتصر في علمه وادبه على تهذيب الشبان والكهول بما نهلهم وعلهم بهِ من تلكم الموارد العذبة الصافية التي درَّها عليهم سحب فكرته الوقادة (شرح ديوان ابن الرومي وابن زيدون ورسالة الغفران) . وناهيكم بتلكم الكتب دلالة على ما بذل من مجهود وتجشم من مصاعب

قلنا ان الاستاذ لم تقتصر مواهبه على اصـلاح الفكرة الشابة والمكتهلة بل عني عناية لم يسبق اليها فوضع مدرسة للأطفال تسايرهم من ابان تكوين الفكرة الى حين نضوجها وانها لمدرسة فوق كونها متنقلة يحوزها الطفل في بيته ويتلقى دروسه فيها فوق سريره وحيث يرتاض وحيث يسرح فهي فوق ذلك شائقة طريفة لا يكاد طلابها يشعرون بملل او يحسون بنصب وما بالكم برجل يعرض دروس الجغرافية الطبيعية على اذهان الأطفال بصورة قصصية تنقشها في اذهانهم نقشاً أثبت وأروع مما ينقشهُ القلم على القرطاس . ولسنا بصدد استقصاء مآثر هذا الأديب فهي فوق وسعنا وانما نعني فقط ان نبرز لاعجابنا به صورة تتفق ومجهوداته النادرة الغريبة التي برهنت على ان الرجل قد ضحى بمواهبه وصحته ووقته في سبيل خدمة المصريين خاصة والامم الشرقية عامة

علي طاهر

﴿ استدراك ﴾ وقع خطأ في الصفحة ٣٤٤ (بالحدَّائيين) والصواب بالحدَّائين . عبد الرحيم بن محمود

فهرس الجزء الثالث من المجلد السادس والثمانين

صفحة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

مـ

٣٥ القاموس المصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الآراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « «
٨ نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امين بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبد الله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (مخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

مـ

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فلمبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك
١٠ « ضحايا ال
٨ « المرأة ال
٥ « المتنكر
٥ « مروضة
٥ « شهداء
١٦ « دار ال
١٠ « فرنسوا
١٠ « الجنون
٨ « حورية
٨ « الفلاماز
١٢ يسوع ابن الا
٨ النبي
٥ آلهة الارض

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

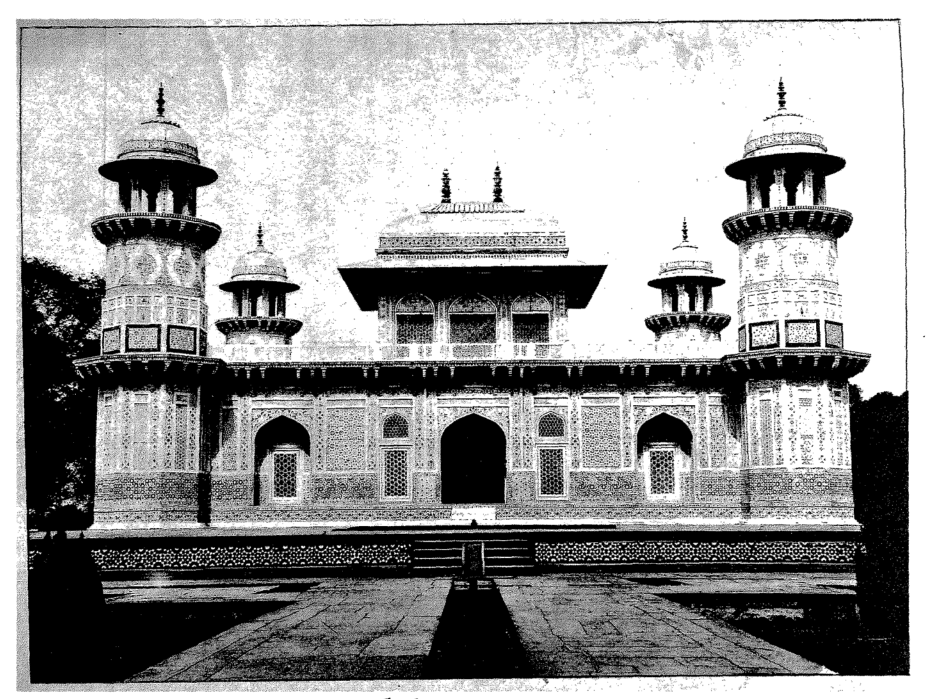
في القاهرة ادارة المقتطف بشارع الفاصد رقم ١ — بباب اللوق
في الاسكندرية والبحيرة والشرقية مصطفى افندي سلامه في دمنهور
في القليوبية والمنوفية مصطفى افندي سلامة في دمنهور
في الغربية والدقهلية والمحافظات مصطفى افندي سلامه في طنطا
في الفيوم — الشيخ محمود مليجي بالفيوم
في المنيا — ابو الليل افندي راشد في المنيا
في اسيوط — تامر افندي سيف باسيوط
في جرجا — الشيخ عبد الهادي احمد في طهطا
في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص.ب. رقم ٩٢٩
في طرابلس الشام عبد الله الياس حصني
في دمشق — المهاجرين الاستاذ عمر افندي الطيبي
في شرقي الاردن — عمان فهمي افندي يوسف
في القدس الشريف ويافا وحيفا الخواجات بولس سعيد ووديع سعيد
اصحاب مكتبة فلسطين العلمية
في حمص — سورية — الخوري عيسى سعد
في الناصرة فلسطين فريد عوده زعمط
في حلب — شارع السويقة — السيد عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية
في صيدا نقولا افندي حربصي داغر — صيدلية الهلال
في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في البرازيل
Snr. Miguel N. Farah
Caixa Postal 1393
Sao Paulo Brazil

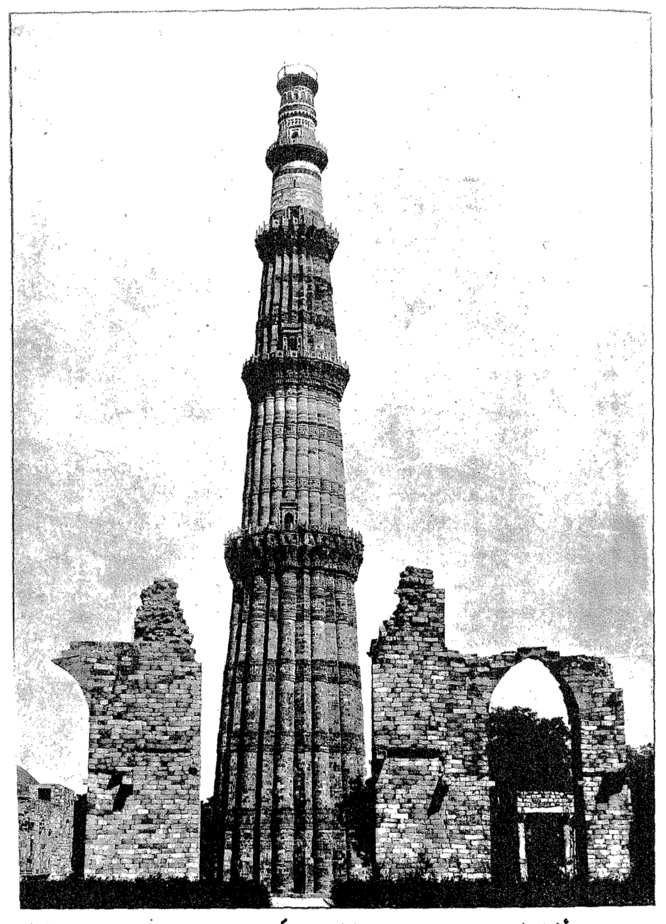
في الارجنتين
Sr. Fuad Ribeiz
Cordoba 499
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. N. Arida
c/o Al-Hoda
55 Washington St.
New York. U. S. A.

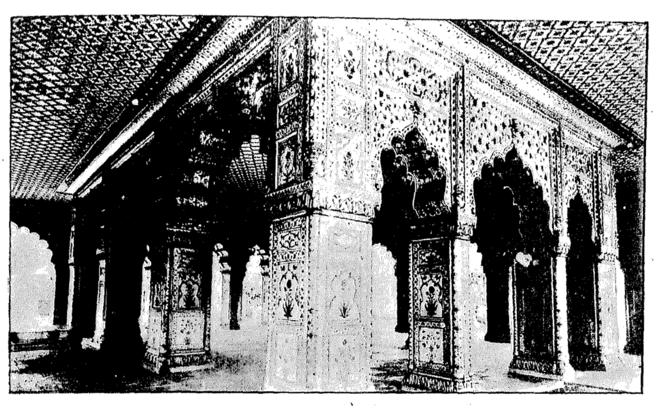
ثلاث صور اهداها الينا الخواجة حنا يافث
وقد صورها عند زيارته لاغرا في رحلته
حول العــالم ويظهر في احداها مع قرينته
امام « تاج محال »



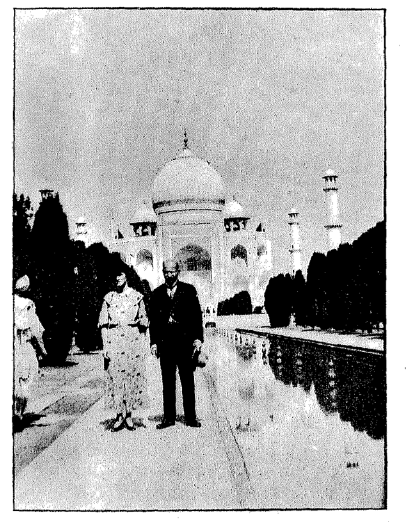
مقبرة « اعتماد الدولة » فى اغرا بالهند . وقد كان [illegible]



مأذنة على ١١ ميلا من دلهي علوها ٢٣٨ قدماً وبوصة واحدة وقطرها عند قاعدتها
٤٧ قدما و٣ بوصات ، وعند قمتها ٩ اقدام



داخل الديوان الخاص في دلهي وهو معروف بردهة « عرش الطاووس » لان وراء العرش فيها كان يوجد طاووسان من الذهب وقد رصع ذيلاهما بالالماس والياقوت الاحمر والياقوت الازرق والزمرد واللؤلؤ وغيرها من الحجارة الكريمة تقليداً لالوان الطاووس الطبيعية



الى اليسار — امام « تاج محال »



الشمس في كبد السماء
وقد وقع ظلها عمودياً على الارض تحت الاشجار



العلامة البرت اينشتين

Albert Einstein

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد السادس والثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٥ — ٢٧ ذو الحجة سنة ١٣٥٣

النفوذ الى سر الحياة

صلة مظاهر الحياة المختلفة بضروب الاشعاع

بين الخلية والكوكب

علم الحياة علمٌ واسع النطاق متشعّب الفروع ، يتصل من ناحية بالفلسفة ، ومن الناحية الأخرى بعلوم الطبيعة والكيمياء . فالجنرال سمطس السياسي والفيلسوف يذهب الى ان الحياة ليست وحدة مستقلة بل نظام معيَّن . والانسان في نظر احد الفلكيين ليس الاّ مركَّباً من مركبات الايدروجين [١] في حالته الغروية وقد اضيفت اليهِ اخلاط اخرى . اما الكيماويون فيحاولون ان يحلّوا المادة الحية الى العناصر التي تتألف منها ، فيقيسون المقادير اليسيرة من المعادن التي تدخل في تركيب جسم من الاجسام ، وغرضهم ان يضعوا للجسم الحيّ تعريفاً كيمائيًّا كما يكتب كبار الطهاة وصفة لكعكة معينة او لضرب من الحلوى ، ثم يعلنون ان المواد الكيمائية في جسم الانسان لا يزيد ثمنها على ١٨ قرشاً صاغاً !

ولو ان الكيمائيين يستطيعون ان يركبوا من هذه المقادير المختلفة جسماً حيًّا ، لكانت الاجسام الحية ارخص من بعض اصناف الكعك والحلوى !

هنا مكمن السرّ ! اننا نعلم بوجهٍ عام مما تتألف الاجسام الحية . ولكننا نجهل الوصفة ، التي ركّبت بمقتضاها هذه الاجسام . ولا بدّ ان تبقى بعض الظواهر الغريبة في حياة الانسان كالبله والسرطان خفيةً مستسرّةً ، حتى يتاح لنا الكشف عن هذه الوصفة

(١) اسم هذا المركب العلمي اوكسينيترو كاربيد النتروجين oxynitrocarbide of hydrogen

فالجبلة (بروتوبلاسمة) اقرب مظاهر الطبيعة الينا وابعدها عنا . فهي قريبة الينا ، لان اجسامنا مبنية منها . وهي بعيدة عنا ، لاننا اذا حاولنا الكشف عن اسرارها والتغلغل في فهم خفاياها ، وجدناها انأى من النجوم . فثمة نجوم لا نراها ولو استعملنا نظارة مرصد جبل ولسن العظيمة . ولكن المطياف وما يتصل بهِ من الواح التصوير الشمسي ، يكشف لنا عما يتصل بها من الحقائق فنستطيع ان نعرف شيئاً غير يسير عن حالة باطنها . بل ان الفلكي ادرى بالنجم ، في بعض النواحي الاساسية ، من البيولوجيّ ببناءِ الخلية

نعم ان تسعين في المائة من مادة الكون مفرغ في اجسام النجوم والسُدُم . والنجوم والسدم على عظمتها ، مركبة من مادة في حالة توهج شديد يستطاع تفسيرها وتصورها وفقاً لمبادىء الطبيعة والكيمياءِ . ولكن الخلية الحية على صغرها ، مركّبٌ معقّد من السوائل والغازات والاشكال الغروية ، وهي على برودتها اذا قيست بدرجات الحرارة العادية لا بحرارة الشموس ، مقرٌّ لتفاعل ذريّ وجزيي خفيٍ تنشأ منهُ شعلة الحياة

إن الحي ، في ما نعلمهُ عن الحياة ، لا ينشأُ الاّ من الحيّ . ولكنَّ الاحياءَ تعتمد كلّ الاعتماد على ما يحيط بها من الاشياء غير الحية . بل ان تغييراً تحدثه في بيئة الحيّ ، الطبيعية والكيمائية ، قد يفضي الى نشاط الحياة وتكاثرها ، او قد يفضي الى انحطاطها وانقراضها

خذ مثلاً على ذلك العلامة كارِلْ Alexis Carel فانهُ كسر في سنة ١٩١٢ بيضة دجاجة توشك ان تنشقّ ليخرج منها صوصٌ ، واستخرج من جنين الصوص ، تلك القطعة النابضة فيهِ — قلبهُ — ووضعها في انبوب فيهِ محلول معيَّن . في هذا الانبوب ، وجد قلب الصوص بيئة مثلى للحياة . فهو مصون فيها ، من فعل الجراثيم والسموم ، وتأثير البرد والحرّ ، ومجهَّز بمصدر لا ينفد من المواد اللازمة للحياة ، مثل الاكسجين والسكّر وغيرها . وقد انقضى على هذا القلب ثلاث وعشرون سنة ، وهو حيٌّ وافر الحياة ، لا تبدو عليهِ اية إمارة من إمارات الهرم والشيخوخة . بل ان جميع الدلائل تدلُّ على انهُ يستطيع ان يعيش ، اذا ظلّت بيئتهُ الطبيعية كما هي ، مائة سنةٍ او على قول الكاتب العلمي جورج غراي ، « حتى تبرد الشمس »

ان في تجربة الدكتور كارِلْ هذه ، دليلاً ناهضاً على ان الاحياءَ تعتمد على غير الاحياءِ كل الاعتماد ، وهي حقيقة ليست بالجديدة ، ولا بالمبتكرة ، ولكن اقرارها على هذا الوجه ، يتصل باصول البحث عن سرّ الحياة ، لانهُ متى حلَّ الكيماوي الاجسام الحية الى عناصرها الاولى ، ووجد انها لا تحتوي على شيءٍ جديد ، لم يعهدهُ قبلاً في الصخور والنجوم ، يخطر ببال الباحث والقارىء ، السؤال الآتي وهو : متى او في اي دور من ادوار تطورها تتحول المادة الجامدة الى مادة حية ؟

ولا يخفى ان خارج الخلية مركبات مؤلفة من الكربون والايدروجين والنتروجين والاكسجين ، وجميعها عناصر لا حياة فيها ، تتألف منها الارض وما عليها والبحار وما فيها . هذه المواد تتخلل

اغشية الخلايا وتتحوَّل فيها الى غذاءٍ . ثم تتركب هذه الاغذية في جسم الخلية تركيباً جديداً فتنتقل من طبقة المواد الجامدة الى طبقة المواد الحية كخضوب النباتات Chlorophyll وحمور الدم Haemoglobin وكذلك تسير الحياة في طريقها تصنع الحيَّ من غير الحيّ محوّلة مادة النجوم الى مادة الخلايا ، متحركةً بقوة خفية هي القنطرة بين الجمود والحياة

فالبحث عن هذه القنطرة ، قد اصبح في العصر الحديث ، كما كان في العصور السابقة ، غرضاً تحدى اليهِ الركائب وهدفاً تتقطع دونهُ الاعناق

عجيبة التركيب الضوئي

ليس بين وسائل العلم الطبيعي الحديث ونظرياتهِ المبتكرة ، ما هو أجدى في نظر الباحثين عن سرّ الحياة ، من نظرية المقـدار (الـكونتم) في الطاقة ، والوسائل المستحدثة لتوليد ضروب الاشعاع وقياسها

فالضوءُ الذي كان سبيل الفلكي الى بواطن النجوم ، وسبيل الطبيعي الى قلب الذرَّة ، أصبح أدق وسيلة يعرفها الفسيولوجي لفهم التركيب الدقيق في الخلية الحية . بل أن الضوءَ في مقدمة الموضوعات التي يتناولها البحث الحيوي كذلك

ذلك ان الضوءَ هو المحرّك الاكبر في الطبيعة . وقد اقترح الاستاذ دُنَن أحد علماءِ الكيمياءِ في جامعة لندن من بضع سنوات تحديد يوم معين كلَّ سنة ، لعطلة رسمية عامة ، يخرج فيهِ سكان المدن الى الحقول والمراعي الخضر ، عند ما تهبُّ نسمات الربيع الاولى ، لتقديم فروض الشكر الى الشمس على ما تهبنا اياه من نعمة الضوءِ ، وهو ما نفعلهُ في مصر يوم شمّ النسيم . فالانسان ينفق الطاقة ، ومعظم الطاقة التي ينفقها مستمدٌّ اصلاً من طاقة الشمس ، ولكنهُ يتناولها من خلية نباتية خاصة لها القدرة على التقاط طاقة الشمس وخزنها وهو ما يعرف بالتركيب الضوئي Photosynthesis

وموضع الخطر في فعل الخلية النباتية هو انها تصدُّ تيار الطاقة المنحدر . فالانسان — وسائر الحيوانات — عاجز عن ذلك . وقد اثبت العلم لنا ان تيار الطاقة ابداً سائر في سبيل الانحطاط . تخرج الطاقة من بواطن الشموس قوية الفعل قصيرة الأمواج ، ثم تنحدر رويداً رويداً في خلال اختراقها رحاب الكون ، تضعف قوة وتطول امواجاً ، ولكن النبات الاخضر يقف في سبيل هذا الانحدار سدًّا منيعاً . فليس من الغريب أن يرى بعض علماءِ الحياة ، ان دراسة التركيب الضوئي ، يجب ان تكون الخطوة الاولى في البحث عن سرّ الحياة . وليس من العجيب ان يكون ثلاثة من حائزي جوائز نوبل العلمية ، ممن عني بهذه الناحية من البحث وهم رتشارد فلستاتر Wilstatter واوتو فربورغ Warburg وهانس فشر Fischer

فالخضوب — أي المادة الخضراء في النبات Chlorophyll — هو الهدف الذي تتجه اليهِ جهود

الباحثين في عشرات من معامل البحث البيولوجي في مختلف انحاء العالم ، وجميع بحوثهم تستند الى التجارب الدقيقة التي قام بها ڤلستاتر من نحو ثلاثين سنة في جامعة زوريخ . فقد اثبت حينئذ ان كريات الخضوب في الاوراق الخضر تحتوي على مقادير معينة من الصبغ الاصفر ، علاوة على صبغها الأخضر . واثبت كذلك ان الخضوب خضوبان ، يحتوي كلٌّ منهما على عناصر الايدروجين والنتروجين والاكسجين والمغنيزيوم ، ولكن ترتيب ذراتها في الخضوب الواحد يختلف عنهُ في الخضوب الآخر . وقد تتبع الخضوبين الى أصلهما الكيمائي ، فوجد انهُ مادة شبيهة بمادة الدم الحمراء المعروفة باسم هيموغلوبين . وكذلك توصَّل هذا العالم ، في خلال بحثهِ عن استعمال النبات لضوءِ الشمس ، الى تبيُّن صلةٍ بين النبات والحيوان . فالهيموغلوبين في الدم ينقل الاكسجين في ثنايا الجسم الحي . أما الخضوب فيستخرج الاكسجين من ثاني اكسيد الكربون. فعمل الواحد يختلف عن عمل الآخر . ولكن أصلهما واحد . وكذلك تبينَّا شاهداً على وحدة الطبيعة حيث لم يطلب العلم شاهداً من هذا القبيل

***

والمسألة الاساسية في كلّ هذا ، هي أن نفهم كيف يستطيع الصبغ الاخضر في اوراق النبات ، ان يجمع بين الماء وثاني اكسيد الكربون ، فيبني منهما مادة تنطوي على طاقة كامنة كالسكر — وهو التركيب الضوئي Photosynthesis . ومهما تكن الطريق فاننا نعلم نتيجة التركيب وعبارتها الكيماوية كما يلي : ثاني اكسيد الكربون + ماءٍ + طاقة الشمس = سكر + اكسجين

كذلك يبنى السكر في اوراق النبات ، ويعاد جانب من اكسجين ثاني اكسيد الكربون والماء الى الهواءِ . أما السكر فيخزن في النبات ، ومنهُ تبنى المواد النشوية والادهان والمواد الزلالية . فهو غذاءُ الحياة الاساسي . وهو يحترق باتحاده بالاكسجين فتخرج منهُ المواد التي دخلت في تركيبهِ ، أي الماء وثاني اكسيد الكربون والطاقة

وكلُّ حيّ يستعمل السكر ، يحولهُ في جسمهِ بالاحتراق ، الى طاقة وماءٍ وثاني اكسيد الكربون. ولكن ليس في الطبيعة على ما نعلم الاّ الخضوب ، يستطيع ان يفعل الفعل المقابل ، اي يستطيع ان يبني من هذه العناصر الثلاثة مادة السكر المنطوية على طاقة كامنة

وقد عني الاستاذ اوتوڤربورغ ـ احد علماء المعمل البيولوجي في معهد القيصر ڤلهلم ببرلين ـ باستنبات بعض الفطائر البحرية الخضر ، في ضوء ضعيف . فتولد في الفطائر كريات قاتمة اللون كثيرة الخضوب يسهل عليها تركيب السكر . ثم ثبت له بالتجربة انهُ اذا زادت قوة الضوء نقصت مقدرة الخضوب على توليد السكر . اي ان توليد السكر ينقص بزيادة قوة الضوء . فكانت هذه الحقيقة اشبه ما يكون بالمفارقة . وظلت كذلك الى ان اخرج ڤربورغ نظريته التي بيَّن فيها ما يحدث داخل الخلية لجزيئات الخضوب — بحسب رأيهِ — تمتصُّ الضوء . ولكن هذا الامتصاص لا يتمُّ الاَّ في جانب

يسير من الثانية . بل ثبت ان هذا الامتصاص في بعض التفاعلات لا يتعدى جزءًا من مليون جزء من الثانية. واذن فاستعمال تلك الطاقة — كائناً ما كان — يجب ان يتم في ذلك الجزء اليسير من الوقت. والمفروض انهُ يمكن استعمال الطاقة في هذا الجزء اليسير من الثانية ، اذا كانت حبة الخضوب متصلة حينئذ بثاني اكسيد الكربون. فتوليد السكر عند بدء هذا الاتصال يكون كاملاً . فاذا زادت قوة الضوء اسرعت فعل التركيب . فيزداد بناء السكر . ولكن لا يلبث ان يصبح بناء السكَّر أسرع مما تستطيع الخلية ان تتصرف فيهِ . عندئذٍ ينفصل السكَّرُ المحشود ، بين ثاني اكسيد الكربون وحبة الخضوب . على ان اتصال هذا الغاز بالخضوب لا ندحة عنهُ حتى يتم بناء السكر ، لذلك يبطيء بناء السكر بعيد الزيادة في قوة الضوء

وقد عمد فربورغ في اخراج هذه النظرية الى نظرية « المقدار » فطبقها على فعل التركيب الضوئي . فالضوء بحسب هذه النظرية ليس تياراً متصلاً من الطاقة ، بل هو اشبه ما يكون بتيار من الماء منقذف من فتحة انبوب ، مؤلف من دقائق او قطيرات صغيرة متوالية . او هو اشبه بتيار من الرصاص المنقذف من فوهة مدفع رشاش . فالطاقة التي تلطم جزيء الخضوب ، تكون في مقادير صغيرة . فينشأ عن تصادم مقدار من الطاقة بجزيءٍ من الخضوب ، ان يحلَّ مقدار الطاقة محلَّ كهرب من كهارب الجزيء . فاذا عاد الكهرب الى مكانه ، بعد ان يزول فعل الاصطدام ، ينطلق مقدار الطاقة ثانية فيستعمله الخضوب ، في بناء السكر ، لأن بناء السكر يقتضي ، كما بينا في العبارة الكيمائية ، وجود الماء وثاني اكسيد الكربون والطاقة اللازمة والخضوب ، والخضوب هو العامل الاساسي في التركيب الضوئي

ولكن مقادير الطاقة تختلف . فمقادير الضوء الازرق اقوى فعلاً من مقادير الضوء الاحمر . ومع ذلك يظهر ان الخضوب يفضل مقادير الضوء الاحمر على مقادير الضوء الازرق في صنع السكر . بل انهُ يستعمل مقادير الضوء الاحمر في الغالب لهذا الغرض

فكيف يعلل فربورغ هذا ؟ عمد الى احصائيات تجاربهِ ، فوجد ان فعل التركيب الضوئي يحتاج الى خمسة مقادير من الضوء الازرق لاستخراج الاكسجين من جزيء ثاني اكسيد الكربون. ولكنهُ يكتفي بأربعة مقادير من الضوء الاحمر لانجاز الفعل نفسهِ . وقد قام عالم الماني آخر اسمهُ شمكه Schmucke بتجارب من هذا القبيل معتمداً اساليب غير اساليب فربورغ فوصل الى النتيجة نفسها . والظاهر ان الصبغ الاصفر في الخضوب — وحجمهُ في حبات الخضوب خُمْسُ حجم الصبغ الاخضر — يمتصُّ الضوء الازرق بسهولة . ولكن مقادير الضوء الازرق التي يمتصها لا شأن لها في بناء السكَّر فهي طاقة ضائعة من هذا القبيل . وهذا يفسر لنا السرَّ الذي سبق ذكره . وهو ان مقادير الضوء الازرق وان كانت أنشط فعلاً من مقادير الضوء الاحمر ، اضعف اثراً في تركيب السكر في اوراق النبات

ولكن ما هي وحدة التركيب الضوئي ? اهي جزيء واحد من الخضوب او عدة جزيئات ?
هذه المسألة موضوع بحث دقيق قام بهِ عالمان اميركيان — احدهما روبرت امرسن في معهد كاليفورنيا التنكولوجي والثاني وليم ارنولد في جامعة هارفرد — فأثبتا ان نزع الاكسجين من جزيء واحد من ثاني اكسيد الكربون يقتضي وجود ٢٤٨٠ جزيئاً من الخضوب . وهذا لا يعني ان ٢٤٨٠ جزيئاً من الخضوب يجب ان تتألب حتى تنتزع الاكسجين من جزيء واحد من ثاني اكسيد الكربون ، لان جزيء الخضوب كبير مؤلف من ١٤٦ ذرة وجزيء ثاني اكسيد الكربون صغير مؤلف من ثلاث ذرات فقط . ولكنهُ يعني ، انهُ كلما اتصل جزيء الخضوب بجزيء ثاني اكسيد الكربون لنزع اكسجينهِ منهُ ، كان ٢٤٧٩ جزيئاً من الخضوب قاعدة عن العمل

وقد تكون وحدة التركيب الضوئي جزيئاً كبيراً . فقد بين هارولد مستر احد علماء معمل جالك لوب ان الخضوب الحي في خلية النبات يختلف كل الاختلاف عن الخضوب الذي نستخرجه ونحلله بأساليبنا ووسائلنا الكيمائية . فالبحث الطيفي في الخضوبين يدل على انهما مختلفان ، والخضوب خارج النبات لا يستطيع ان يبني السكر . ولكن التركيب الضوئي في النبات ، يمكن اسراعه بوسائل صناعية . وقد استنبط امرسن وارنولد لذلك طريقة تمكنهما من حمل النبات على صنع خمس دقائق من السكر حيث كانت تصنع دقيقة واحدة من قبل

والظاهر ان التركيب الضوئي ، ليس فعلاً واحداً ، بل هو فعل دوري . ففي دوره الاول تتأثر جزيئات الخضوب بالضوء في جزءٍ من الف جزء من الثانية . والدور الثاني دور التركيب الكيمائي وهذا يمكن ان يتم في الظلام ويستغرق من الوقت اربعة آلاف ضعف ما يستغرقه الفعل الاول

الاشعة وموت الخلايا

بيد ان عالم الاشعاع لا يقتصر على ضروب الاشعة التي تراها العين . بل ان الاشعة التي نراها ضعيفة الطاقة اذا قوبلت بالاشعة التي تملأ رحاب الفضاء وتعجز العين المجردة عن تبينها مثل الاشعة التي فوق البنفسجي والاشعة السينية واشعة غما والاشعة الكونية . ثم ان الهواء حافلٌ بدقائق صغيرة مكهربة تنطلق بسرعات عظيمة تقرب في بعض الاحيان من سرعة الضوء نفسها مثل دقائق الفا ودقائق بيتا (الكهارب) والايونات المختلفة

في هذه البيئة المضطربة ، من الانطلاق والاصطدام والتفتت والتألف ، نشأت الجبلة (Protoplasm) ونشرت نسيج الحياة فوق سطح الارض . فهل فعلت ذلك رغماً عن اصطدامها بضروب الاشعاع والدقائق المكهربة المختلفة ، او انها استمدت منها عوناً على بلوغ ما بلغت ? او ماذا يقع عندما تصطدم احدى هذه الدقائق بخلية من الخلايا الحية ?

مضى على العلماء ثلاثون سنة وهم يعلمون ان اشعة الراديوم واشعة اكس تفتك بالنُسُج الحية .

ويرجع هذا الاكتشاف الى الاستاذ بكرل اذ لاحظ اتفاقاً انهُ بعدما وضع قليلاً من املاح الراديوم في انبوب بجيب صدرته، اصيب جلده تحت ذلك الجيب بقرحة. فكان هذا الاكتشاف الخطوة الاولى في استعمال الراديوم لاتلاف النسج المصابة بنوامٍ سرطانية. وقد مضت سنوات والعلماء المجرِّبون يجمعون الحقائق التي يتعلمونها بالاختبار فثبت لهم مثلاً ان الخلايا الفتية اشدُّ تقبلاً لفعل الاشعة من الخلايا الهرمة، اي ان الاشعة افعل في اتلاف الخلايا الفتية منها في اتلاف الخلايا الهرمة. وثبت لهم كذلك ان النسج والاعضاء تختلف في مقاومتها لفعل الاشعة. واقلها مقاومة هي الدم والطحال ونخاع العظام والخلايا اللمفاوية أو الشبيهة باللمفاوية

على ان علماء البيولوجيا الطبيعية، يصبون الى ما هو أدقّ من ذلك. وقد توصلوا الى نتائج باهرة في هذه الناحية في معاهد اوربا واميركا، نضرب مثلاً عليها بسلسلة من التجارب قام بها العالم ويكوف Wyckoff في معهد ركفلر الطبي. فقد تخيَّر ويكوف البكتيريا موضوعاً لمباحثهِ وجعل يطلق الدقائق الصغيرة على البكتيريا، بسرعات مختلفة ثم يقيس ما يموت من البكتيريا وما يسلم

ففي التجربة الأُولى التي جرَّبها مع الأُستاذ رفرز استعملا تياراً من الكهارب منطلقة بسرعة ١٤٨٠٠٠ ميل في الثانية. ولما كان الكهرب ايوناً، أي جزءًا مكهرباً من الذرّة، فهو شبيهٌ بالايونات الكثيرة المنطلقة ذهاباً واياباً في الهواءِ. ثم نشر عدداً معروفاً من باشلس القولون في طبقة واحدة على لوح من مادة «الاغار» واطلق الكهارب عليها فلما انقضت ١٢ ثانية كان عدد الاحياء من باشلسات القولون ٣١١ باشلساً. وبعد انقضاء ٢٨ ثانية على الشروع في التجربة نقص عدد الباشلسات الحية الى ٢٦ باشلساً فقط، ثم اجريت تجارب اخرى من هذا القبيل بانواع اخرى من البكتيريا فأفضت الى نتائج مماثلة

والمعروف انهُ اذا انطلق كهرب بهذه السرعة واصطدم بدقيقة من دقائق المادة، قذف من الدقيقة ايونات كثيرة في مساحة يسيرة. فكأنَّ اصطدام الكهرب بالدقيقة يحدث فيها انفجاراً قويًّا. وقد أثبتت الامتحانات ان كهرباً منطلقاً بهذه السرعة يطلق من الدقيقة التي يصطدم بها ١٠٠٠٠ ايون في مساحة $\frac{1}{1....}$ من المليمتر المكعب. فاذا اصابت الكهارب دقائق جسم البكتيريا احدثت فيها نوعاً من العاصفة باطلاق الايونات العديدة منها، فيختلُّ توازن الجبلة الحيوي فتموت

وثمة طائفة اخرى من التجارب قام بها ويكوف وكان مدارها الاشعة السينية. فاداة الاصطدام في هذه التجارب ليست دقيقة مكهربة، اوشحنة كهربائية تفعل فعل الدقيقة كالكهرب، بل مقدار من الطاقة الشديدة النفوذ للمواد كمقادير الاشعة السينية. ولا يخفى ان طاقة اشعة اكس، كطاقة امواج الضوء المرئي، ليست في طبقة واحدة بل تختلف، باختلاف طول امواجها. وكذلك اطلقت الاشعة السينية من خمسة ضروب مختلفة على باشلّسات القولون فكانت النتيجة كما يلي:

مرت ملايين من «مقادير» Quanta الطاقة من خلال البكتيريا من دون ان تؤذيها. وامتصت

الخلايا ملايين اخرى من دون ان يحدث فيها الموت . فلما حدث الموت كان نتيجة لامتصاص مقدار واحد Quantum . وكان متوسط الكهارب الفتاكة في الاشعة السينية العالية الطاقة ١ : ٤ اما في الاشعة السينية الضعيفة الطاقة (الضعف نسبي طبعاً) فكان المتوسط ١ : ٦٠ وقد جعل مقياس الموت في جميع هذه الخلايا وقوفها عن التكاثر بالانشطار

وقد تبين ويكوف من تجاربه هذه ان في الباشلس الواحد ، منطقة صغيرة شديدة التأثر بفعل الأشعة السينية، حالة ان سائر جسمها ليس كذلك . فهي تقابل انساناً لا تقتله الرصاصة الاَّ اذا أصابتهُ في القلب . وقد حسب ويكوف حجم هذه المنطقة فاذا هو يقدره بنحو جزءٍ من مائة جزء من حجم الباشلس . ولا يخفى ان باشلس القولون خلية واحدة اسطوانية الشكل طولها $\frac{١}{٣٠٠}$ من المليمتر وقطرها $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ من المليمتر . اقسم حجمها هذا على ١٠٠ تعرف حجم المنطقة الخاصة فيها التي تتأثر بفعل الاشعة السينية الفتاك

أما في الطائفة الثالثة من هذه التجارب فقد استعملت الاشعة التي فوق البنفسجي . وهي أشعة لا ترى بالعين المجردة ، وانما نتبينها بفعلها الكيمائي في الواح التصوير الشمسي . ثم هي أضعف طاقة من الاشعة السينية . ويمكن قسمتها الى مناطق تتدرج قوة او ضعفاً بحسب تدرج امواجها قصراً او طولاً . فهي أقصر امواجاً وأقوى فعلاً في ناحية الأشعة السينية من الطيف ، واطول امواجاً واضعف فعلاً في ناحية النور البنفسجي من الطيف . وقد استعمل ويكوف خمس طوائف مختلفة من هذه الاشعة فأطلقها على البكتيريا فوجد ان البكتيريوم الواحد يمتصّ مقداراً Quantum واحداً من ٤١٩٠٠٠٠ مقدار من طاقتها . فاذا حاولنا أن نفسر مقدرة الامتصاص على اساس الجزء الحساس في الباشلس الواحد كما فعلنا في التجربة السابقة كان الجزء الحسَّاس للأشعة التي فوق البنفسجي ، لا يتعدى مساحة جزيء واحد من جزيئات البروتين . وهو استنتاج يرفض ويكوف ان يسلم به الآن لصغر جسم الجزيء من البروتين ، ويقول في تفسير ما حدث ان بعض الخلايا اشدُّ تعرضاً بطبيعتها للتأثر بهذا الضرب من الاشعاع من الخلايا الأُخرى

وكذلك نخرج من هذه التجارب بالنتائج التالية : ان مقداراً واحداً من طاقة الاشعة التي فوق البنفسجي يكفي لقتل خلية اذا كان في الخلية استعداد طبيعي لذلك . وان مقداراً واحداً من طاقة الاشعة السينية يكفي لقتل خلية اذا اصاب تلك المنطقة الصغيرة فيها حيث تنبض القة الحياة . ولكن هذا لا يعني ان المقادير الاخرى التي تمتصها الخلية من دون ان تموت بامتصاصها لا تفعل افعالاً بطيئة لا نعلم الآن شيئاً عنها (١)

(١) مما يتصل بهذا البحث اثر الاشعة السينية والاشعة الكونية في التطور والتحول الفجائي وكذلك الاشعة التي يقال انها تنطلق من الخلايا الحية وتعرف بالاشعة البيولوجية . ونحن لم نتعرض في مقالنا لهذين الموضوعين لاننا ذكرنا معظم ما يعرف عنهما في كتابنا « فتوحات العلم الحديث » صفحة ٢٧٢ وصفحة ٢٧٥

نصف قرن

على ضفاف النيل

مضت خمسون سنة منذ حضنت مصر المقتطف ، ورحّبت بهِ ، وعطفت عليهِ ، يوم كان سيف الاستبداد مصلتاً فوق رقاب الاحرار من أبناءِ سورية ولبنان ، فنزل المقتطف الديار المصرية ، على الرحب والسعة ، واتصلت اصولهُ بتربتها الغنية تستمد منها القوة والغذاءَ ، وامتدّت فروعهُ في جوّها الصافي ، تتسامق الى أفسح الاجواءِ ، تأخذ من الحياة المصرية وتعطيها ، حتى غدا بتعضيد حكامها وعلمائها وأدبائها منارة تبسط من عاصمتها أنوار العلم الصحيح والادب العالي على أرجاءِ الشرق

خمسون سنة من التاريخ ! والحضارة سائرة سيراً حثيثاً الى الأمام . ففي الآراءِ والافكار تنبه وتحوُّل ، وفي الآداب والأخلاق والمعتقدات ثورة وانقلاب ، وفي أمور المعيشة تقدُّم لا يضاهيهِ تقدم في كلّ ما سبقهُ من عصور التاريخ ، وفي مختلف فروع العلم وأبواب البحث إكباب على كشف المجهول ، واستقصاءِ الاسباب الاولى. والعلماءُ من كل قطرٍ ، منبثّون في كل صقعٍ ، يبحثون ويمتحنون ويكتشفون ، وموكب العلم سائر الى الامام وفي كثير من الاحيان على اشلاء مبدعيهِ

وقد كان المقتطف في خلال كلّ ذلك رسولاً أميناً بين حضارة الشرق وحضارة الغرب. في ميدانهِ الرحب التقت أقلام العلماءِ والكتّاب من أبناءِ الحضارتين ، ومنشئو المقتطف واقفون للعلم بالمرصاد ، يقتطفون كل طارف وكلّ تليد ، حتى غدا المقتطف بمثابة مدرسة جوّالة ورابطة تضمُّ أبناء الشرق في وحدة متينة أُساسها الثقافة العالية

واننا لنفاخر اليوم ، وقد انقضت خمسون سنة على المقتطف في مصر ، بأن نحلّي جيد هذا العدد بثلاث رسائل تاريخية ، لثلاثة من عظماءِ مصر الراحلين هم المغفور لهم شريف باشا ورياض باشا وسعد زغلول باشا

رسالة شريف باشا

« ان الذين خبروا حال العالم واستقصوا سنن الهيئة الاجتماعية واستقروا اسباب ترقية البلدان واتساع نطاق الحضارة في كل مكان اجمعوا على ان العلم اعظم ركن في بناء التمدن والمعارف اوثق رباط لحفظ الامم وتعزيز شأنها ولذلك عظمت قيمة العلماء عند ارباب

العقول واعتبرت الوسائط التي من شأنها بث العلوم وتعميم المعارف في البلدان . ولما كان المقتطف خير ذريعة لنشر المعارف بين المتكلمين بالعربية فلا عجب اذا نال ما نال من رفعة المقام في اعتبار الخاصة والعامة معاً وقد بلغني في هذه الاثناء خبر نقله الى القطر المصري بعد ما خبرته وخبرت معارفكم زماناً فاستحسنت ان ابدي مسرّتي بذلك لما فيه من الفوائد التي لا تستغني عنها البلاد . ولا ريب عندي ان عقلاء مصر ونبهاءها لا يغفلون عن تعميم فوائده ولا يتقاعدون عن السعي لنشر علومه بينهم لا سيما وقد علموا ان انارة الاذهان وتثقيف العقول اقوى واسطة لحفظ الامة وشد عرى اتحادها»

مصر — مارس ١٨٨٥ محمد شريف

رسالة رياض باشا

« اخبرت انكما عزمتما على نقل جريدتكما الغراء الى الديار المصرية فسرني ذلك لما تحويه من الفوائد الجليلة والنفع الدائم لكل بلاد رفعت راية علومكم فيها وقد اغتنمت هذه الفرصة لأُبدي بها نصيحتي لابناء هذا القطر بمطالعتها واجتلاء فوائدها فان للمقتطف عندي منزلة رفيعة وقد ولعت بمطالعته منذ صدوره الى اليوم فوجدت فوائده تتزايد وقيمته تعلو في عيون عقلاء القوم وكبرائهم . ولطالما عددته جليساً انيساً ايام الفراغ والاعتزال ونديماً فريداً لا تنفذ جعبة اخباره ولا تنتهي جدد فرائده سواء كان في العلم والفلسفة او في الصناعة والزراعة التي عثرت فيها على فوائد لاتثمن هذا علاوة على ما فيهِ من المباحث الآيلة الى تهذيب العقول وجلاء الاذهان وتفكيه القراء فلذلك ترحب مصر بالمقتطف الاغر وتحله محل الكرام الذين اشتهر فضلهم وعمت فواضلهم »

مصر — مارس ١٨٨٥ رياض

رسالة سعد زغلول باشا

« يمثل «المقتطف» في الشرق عموماً ، وفي مصر خصوصاً ، ثمرة المعارف الواسعة والفنون النافعة ، والجد المتواصل ، والود الصحيح ، والتعاون الدائم ، والرغبة الصادقة في تقويم الافهام وتثقيف الاذهان . فالاحتفال بعيده الخمسيني ، انما هو احتفال بملاك هذه الفضائل ، ومشرق انوارها . وكنت اود ان اشترك بشخصي ايضاً في هـذا الاحتفال الجميل ولكن انحراف صحتي حال دون رغبتي . فأبدي لحضراتكم وحضرات أعضاء اللجنة الكرام وافر شكري على هذه الدعوة الكريمة ، وأرجو قبول عذري ، وأتمنى لهذا العيد الجليل نجاحاً كاملا ، وللمحتفل بهِ عمراً أطول وانتشاراً أعرض ، ولاصحابهِ الفضلاء دوام الصحة والاقبال» مصر — ابريل ١٩٢٦ سعد زغلول

حديث شهر ابريل — ٤

بين الفاتيكان

وجريدة « لاكسيون فرانسيز »

للآنسة « مي »

نحن في شهر ابريل الذي عُرِف يومهُ الأول باجازة تهادي السمكة التقليدية . فهل أنا بتغيير موضوع الحديث هذه المرة ، أبغي توجيه سمكة أبريل إلى قرّاء « المقتطف » ؟

كلاّ . فالموضوع أهم وأجلّ من أن يكون وسيلةً للتراشق بطريف الأكاذيب والافتراءات . إلاّ ان بعض القراء يرون اني أوجزتُ كثيراً في الإلماع إلى هذه القضية ، قضية التنافر بين الفاتيكان وجريدة « لاكسيون فرانسيز » ، خلال حديث الشهر المنصرم وأن عليّ — وأنا التي أثرت ذكرى هذه القضية — ان أوضحها بعض الشيء أو أزيل عنها بعض الغموض على الاقل ، نظراً لغرابتها

أمّا ان ذلك مفروض عليّ ، فلا ! واما اني مستعدة للارضاء في حيّز مقدوري ، فنعم . ولكن النية الطيبة والاستعداد للارضاء ليسا كفيلين بتقديم ما يُرضي . عند ما أكتبُ عن شخصية أدبية لستُ أعنى كثيراً أو قليلاً برأي الآخرين فيها وبما كالوا لها من قدح أو أغدقوا عليها من ثناء . إنما أعنى بأثرها فيّ وبالصورة التي رسمتها هي من كتاباتها في نفسي . ولا شأن لي في غير ذلك

اما موضوع الخصومة السياسية أو الدينية أو الأدبية فليس لي من رأي شخصيّ فيه ، وبخاصّة لأني أجهل مجموعة تفاصيله وخفايا الامور التي كوّنتهُ . وكل ما استطيعهُ لا يزيد عن طاقة أيّ أحد قرأ شيئاً في هذا الموضوع دون ان يجد من نفسه حافزاً لمشايعة هذا الفريق أو ذاك . هذا مع العلم بأن على الكاثوليك جميعاً ان يحترموا كل قرار موسوم بتوقيع قداسة البابا ، دون مناقشةٍ أو جدال

وعلى ذلك ، أتناول هنا أقوال كاتبين اثنين ليسا من أعداء الكنيسة بل على النقيض هما من أعدائها وهما يدافعان عن عقيدتها . أوّلهما دوديه نفسه ، صاحب جريدة « لاكسيون فرانسيز » ، والآخر هو رينيه دي پلانهول[1] الذي يُعدُّ في طليعة كتاب فرنسا المعاصرين في النقد السياسي

(١) René de Planhol

والاجتماعي والأدبي والفنيّ . ولستُ أعرف بالضبط قيمة رأيهما في هذا الموضوع ، وكل ما في الأمر اني ألخص ذلك الرأي تاركة تبعته على صاحبيه

***

سبق أن أشرت في حديث الشهر الماضي الى كلمة مقتضبة من ليون دوديه في موضوع الخصومة. وهنا أورد تلك الفقرة كلها :

« أما الاضطهادات التي يوجهها إلى جريدة « لا كسيون فرانسيز » الفاتيكان المستسلم لذي الهوس الجرماني (germanomane) سكرتير الدولة (الفاتيكانية) جسبارّي (الكاردينال) ، الفاتيكان الذي يضلّلونهُ في أهمية حركتنا ومبلغ تأثيرها — تلك الاضطهادات أثارت سخطي لأجل أصحابنا المؤمنين أمثال روجر لامبلان وتريستان لامبير، ولأجل أصحابنا غير المؤمنين ولكنهم من أنصار الكنيسة أمثال شارل موراس . بيد أنَّ تلك الاضطهادات فيما يختصّ بي لم تؤثر فيَّ ولم تزعزع من عقيدتي . بل اكثر من ذلك ، إنها بدت لي كامتحان من العناية الالهية يعدّنا للنصر النهائي بعودة الملك . إن طبيعة تلك الاضطهادات الشاذة الغبية اللاغية والتمرد السليم الذي أثارته ، كان لها الوقع المناقض الذي كثيراً ما نجده في التوسطات الالهية . الاقدار تضربنا بطريقةٍ مباشرة . أما العناية الالهية فتضربنا بطريقة منحرفة ، ملتوية . . . وقد أتيح لي ان ألاحظ ذلك غير مرة (صفحة ٢١٧ من كتاب "Vingl-Neuf Mois d'Exil")

ويقول صفحة ٢٢٢ و٢٢٣ من الكتاب نفسه :

« كثيرون من رجال الاكليروس الذين أسخطتهم إجراءات روما المتعددة عبثاً ضدنا من رشق بالحرم ومن تعذيب ضمائر المحتضرين ، طالما طرقوا بابي فاستقبلتهم دائماً بسرور وامتنان ورأيت فيهم تلك الشجاعة التي يحتاج اليها الكثيرون من أصحاب المقامات في الكنيسة ، شجاعة نجدها في هذا الموقف كما في غيره ، حليفة طريقة عكسية في تدرُّج المراتب — عدا الاستثناء الجليل الشأن . في جميع الأنظمة البشرية ، حتى الأنظمة المتصلة بحظوظ النفس ، نلحظ التناقض في الهمم وفاقاً للرقيّ الاداري . هو المجتمع الذي يريد ذلك . يجب ان نعرف ذلك مع حسب حساب الاستثناءات السامية — وان لا نحنق من جرائه . فقد قال موراس ان الحنق والامتهان ليسا من المهارة السياسية في شيء »

ويقول في كتاب «Paris Vécu» (١) : « ولما وجب قول الحقيقة فاني أضيف ان الاضطهادات الرومانية الموجهة ضد « لا كسيون فرانسيز » منذ سنة ١٩٢٦ لم تزعزع لحظة واحدة من إيماني .

---

(١) صدر هذا الكتاب سنة ١٩٣٠

كثيراً ما يحدث في الواقع ان يضطهد المدافعين عن قضية وان ينكرهم اولئك الذين يتفانى المدافعون في خدمتهم، اذ يرى المضطهدون من مصلحتهم ان يتضافروا مع الاعداء على حساب المدافعين، لحين انتصار هؤلاء على الاول. هذا امر جد بشري . . . » (صفحة ٥٩ — ٥٨)

عرفنا مبلغ اعجاب دوديه بموراس، وهاك شواهد اخرى على ذلك الاعجاب المظيم. فهو يقول في مذكراته (Paris Vécu) عند وصفـه الحي اللاتيني في باريس: «انما ذلك المزيج من الـكد والتفاهم والانصاف والشباب ايضاً، ومن الاستحثاث والحب (اجل الحب، حب المرأة وحب المعرفة) والدعابة التي لا تحمل غمًّا، هو ما كان يكوّن وما زال يكوّن جو الفتنة العميقة في الحي اللاتيني. غير ان في الوقت الذي اكتب فيه ترى الروح السياسي قد تبدل تماماً. في عهد دراستي كان الحي اللاتيني جمهوريًّا راديكاليًّا ومضادًّا للجنرال بولانجه. اما اليوم فالحي ملـكيٌّ ولا يحالف الاّ بموراس. وكون موراس من كبار رجال العلوم الادبية (un très grand humaniste) مما ينشر الحماسة له من الضفة السياسية الى ضفة الثقافة العامة. ان الاعجاب كالحب، ينزع الى الـكمال والى المطلق . . . »

وفي مكانٍ آخر: «انهزمت اليعقوبية (Jacobinisme) فخلت محلّها النابوليونية (Napoléonisme) الطاغية العاملة على التمركز. وما فتئت تنيخ بكلـكلها على كلية الطب في باريس، ولـكن يقال لي انها الآن أخف وطأة منها في عهد دراستي. ذلك لانهم ادركوا ان الـكثيرين من الاطباء والجراحين اخذوا ينضمون منذ بضعة اعوام الى عقيدة موراس والى الملك. للامم كما للافراد، اطباء امثال ريشليو، وكافور، وبيزمارك، وموراس، يسمونهم رجال الدولة ولـكنهم في حقيقة الامر أطباء. وقد بذل موراس جهده ليشفي فرنسا ومن خلالها اوربا، من عديد العلل التي خلقتها الثورة والامبراطورية. فأدركت ذلك هيئة الطب الفرنسي كالشبيبة الفرنسية ويمكن ان يقال كصفوة الامة كلها. ومن المحزن ان البابا بيوس الحادي عشر، على نقيض سلفه بيوس العاشر، لم يفهم ذلك ولم يحسه. لقد ضلل قداسته، بلا ريب، الـكاردينال المهووس بنزعته الجرمانية، جسباري. ولولا ذلك لوفّر على نفسه اخفاقاً لاذعاً، نحن اول من يأسف له». (صفحة ٥٨ـ٥٧ من "Paris Vécu")

***

أما في نظر رينيه دي پلانهول فجريدة «لاكسيون فرانسز» في طليعة الصحف الفرنسية نزاهة واستقامة

وهو معجب بليون دوديه، يفصح عن اعجابه هذا غير مرة ويحلل له، نظراً لصدق مواهبه، ما يستهجنه عند كثيرين من ذوي الشهرات التي شـادها الغرض أو المال او الدسيسة او الطموح السخيف. وفي كتابه (Le Monde à l'Envers) الصادر سنة ١٩٣٢ حيث يحمل على

فرنسا الراهنة ويتناول بالنقد حتى انظمتها الفنية والادبية ، هو يسخر من وفرة ما تصدره المطابع لانحطاط نوعه الثقافي والفني في نظره ويلوم الذين يزعمون نفوسهم كتاباً ومؤلفين لكثرة ما يسوّدون من لغو الكتب رغبة في الربح المالي وفي توطيدشهرات لا دعامة لها . ولكن تراه في صفحة ٢٠٥ من ذلك الكتاب يبرر كثرة الانتاج من ليون دوديه . فيقول :

« ان اكثر صانعي الكتب يندفعون وراء محنة التصنيف بما يفوق مقدرتهم ، لان مقدرتهم هي محور الموضوع . ليس الغرض حمل الكتّاب على الاقتصار على قاعدة متشابهة وفرض كمية الانتاج عليهم جميعاً بطريقة متماثلة . عندما رجل كليون دوديه يخرج المؤلفات بوفرة فهو في ذلك يخضع لمزاجه اكثر مما يطيع مقتضيات العصر . وقد كان يفعل ذلك في عصر غير هذا العصر ، شأنه شأن بلزاك او ڤولتير . ولكن حيال هؤلاء الكتّاب الذين ترى عندهم الافكار والخيالات في تفجر مستديم ، يوجد آخرون عبقريتهم اقل خصوبة وهم موهوبون لانتاج كمية محدودة من الصفحات تتجمع فيها كل ماويتهم « الادبية » — (Toute leur sève) »

غير ان اعجابه بدوديه ليس هو الذي يقود قلمه في شرح قضية « لاكسيون فرانسز » مع الڤاتيكان ، على ما يبدو لي . وقد افرد في كتابه المذكور آنفاً ، فصلاً خاصًّا لموضوع « الكنيسة بين اعدائها والمدافعين عنها » . وهو الفصل السادس ويبتدىء صفحة ٢١٧ . فيسجل في مطلعه ان « الكنيسة نفسها — كائناً ما كان الالم الذي ينتابنا من تعرف ذلك — الكنيسة نفسها لم تتفلت مما يلازم هذا العصر من تشويش وارتباك » . « ليس المراد بهذا الكنيسة من حيث هي تثبت نفسها نظاماً الهيًّا وانها بصفتها تلك تحتفظ بالعقيدة الدينية وتعلمها . . . وانما المراد في هذه الصفحات هو عملها البشري والسياسي والاجتماعي خصوصاً في فرنسا اليوم . . .

« تأسست الجمهورية في فرنسا منذ ستين عاماً ومن غاياتها الاساسية الثابتة محاربة الكنيسة والعمل على هدم العقائد والتعاليم المسيحية . . . فما هو سلوك الكنيسة حيال هذا النظام ؟ لقد ابت الكنيسة دائماً التحزب لأي سلطان زمني وهي تسلم بأن جميع صنوف الحكم مباحة مشروعة . فلم يكن لها ان تنكر الجمهورية من حيث هي نظام حكم . بل على النقيض ، لتتملص من انظمة كانت تخيل انها تنكر الشعب الفرنسي وكانت الكنيسة لا تراها ضرورية وقد كان ذكرها يظهر الكنيسة بمظهر المغرضة — كان على الكنيسة ان تحمل المؤمنين على قبول النظام الجديد بنزاهة » . . .

« ولئن باشرت الجمهورية حملتها ضد الكنيسة فان الزمن لم يكن ليثبت بعد ان هذا التعصب ضدها ضروري . فأعرب البابا لاون الثالث عشر عن رجائه بأن كاثوليك فرنسا بقبول الديمقراطية انما ينجحون بتجريدها من صفتها المضادّة للمسيحية ، لأنهم بذلك يكفّون عن تقديم السبب السياسي لمحاربة الدين . فيسّر اتحاد الفريقين (LeRalliement) اختباراً كان يومئذ مغرياً ، ولكن في وسعنا اليوم ان نقدر نتائجه » . وتلك النتائج في نظر المؤلف لم تكن الا الإخفاق التام

ويستأنف في نفس الفصل فيوصلنا الى صميم الموضوع :

«باستثناء اصحاب عدم المبالاة في الموضوع الديني ، ومنهم العدد الأكبر ، يوجد بين الذين لا يؤمنون فريقان : الفريق الاول يتكوّن من الموظفين الرسميين في الجمهورية ، وهم فريق الذين لا يؤمنون ويمقتون الذين يؤمنون » ... « والفريق الآخر يتكوّن من الذين لا يؤمنون لانهم لم ينالوا في نفوسهم نعمة الايمان ، ولكنهم يكبرون الايمان كحسنة من اعظم الحسنات التي تغني النفس ، ويجلّون في الكنيسة ان لم يكن النظام الالهي فأعلى الانظمة البشرية . بينهم وبين الايمان تقوم اعتراضات عقلية لم يتمكنوا من التغلب عليها . ولكن بدلاً من ان يجعلوا عجزهم مثالاً فيستخرجون منهُ تعليماً ، هم يتحرزون من تحقيق اي تحزُّب ضد الايمان الذي يتمنون سعادته لجميع النفوس . . .

«تلك كانت عاطفة موريس باريس . وهذا هو شعور شارل موراس وغيره من الذين لا يؤمنون المتحدين بقوم كثيري العدد والاهمية من الكاثوليك الموالين لحركة « لاكسيون فرانسيز » . وهذا الاتحاد كان منطقيًّا وطبيعيًّا . لم يكن مدهشاً ان ينضم الذين لا يؤمنون الى الذين يؤمنون في الميدان السياسي ما دام هؤلاء وأولئك على اتفاق ليس فقط فيما يتعلّق بضرورات الدولة ، بل كذلك فيما يتعلق بحقوق الكنيسة وهي ذات الحقوق التي تطالب بها الكنيسة . او لم ينصح البابا بيوس العاشر باتحاد جميع الاشخاص المستقيمين للدفاع عن الحريات الدينية ؟ ...

« ... والامر هو انهُ بينما الفاتيكان يحاسن انصار العلمانية ويسمح للكاثوليك بمناصرتهم ، ترى الفاتيكان يدخر لموراس ولاصحاب موراس اشد الجفاء . هؤلاء الناس الذين يخدمون مصلحة الكنيسة بعناء وبتجرد تام من الغرض ، يصب عليهم الفاتيكان اللعنات ويعاملهم معاملة الموبوئين ويهددهم بأقسى العقوبات وبحرمانهم من الأسرار الكنسية ، كما يحظر على الكاثوليك الانضمام إلى جماعة « لاكسيون فرانسيز » وتداول صحيفتهم وتأييد حملاتهم السياسية

« — لماذا ؟ إننا نجهل السبب . لقد كتب شارل موراس في الماضي كتباً لا يسع الكنيسة الاّ إستنكار بعض صفحاتها . ليس من يجادل في ذلك حتى ولا المؤلف نفسه . ولكن في مؤلفات دومرج وبوانكاره وبريان وتارديو يمكن استقاء بيانات اخرى كثيرة لا يسع الكنيسة الاّ مصادرتها .. وما تتقصده الكنيسة ليس كتابيْ موراس « طريق الجنة » و« آنثينيا » ، ولكنها تتقصد عمل موراس السياسي وبخاصة العمل الذي يصطنعه منذ تأسيس « لاكسيون فرانسيز » اليومية . ان علماء اللاهوت الاكثر اطلاعاً يرون ذلك العمل في دائرته الخاصة وليس فيهِ ما يستوجب اللوم ، وإن هم أسفوا لانهُ لا يقوم على دعائم الحقيقة المنزلة . حتى الكاردينال آندريو (Andrieu) نفسه كان يرثي هذا الرأي عند ما كان يثني على قلم موراس ، قائلاً ان ذلك القلم يوازي سيفاً

«... بينما امثال بريان وتارديو لا ينفكون عن العمل ضد الايمان فان موراس لم يعمد يوماً

الى تحويل نفس عن الايمان او الى هدم الوسائل الطبيعة التي تمكن الايمان من النمو وتحفظه. بل على النقيض ، كثيرون هم الذين ارتدوا الى العقيدة حواليه بفعل تأثيره ليس بسبب ما يعلنه نحو الكنيسة من اعجاب وصداقة فحسب ، بل بفضل شتيت المقارنات التي أوضحها للكثيرين بين القوانين السياسية والاجتماعية التي ينادي بها وبين التقاليد الكاثوليكية . ومع ذلك فالذي يحكم عليه ليس بريان وتارديو ، بل هو موراس. فبأي الضلالات تراه اوحى الى اصدقائه المؤمنين؟ لقد توسل هؤلاء ليُكشف لهم عن ذلك ، ولكن عبثاً : العقوبة تطبق عليهم دون ان توضَح لهم خطيئتهم »

« . . . ان النص الوحيد الثابت رسميًّا من الفاتيكان وفيه البيان عن الحادم هو خطاب الكاردينال آندريو ، ذلك الخطاب الذي يُشرّد الالباب ، وفيه ينسب الى موراس القول المشكوك في صحته : « محرم دخول الله الى مراصدنا » . من هذا الخطاب ادرك كاثوليك «لا كسيون فرانسز» انهم يصطنعون العبودية ويأخذون بأسباب الالحاد . وقد احتجّ هؤلاء الكاثوليك على غير جدوى معلنين انهم حياتهم لم يفكروا في اعادة تجارة الرقيق وانهم يؤمنون بكل ما تعلمه الكنيسة . فلم يصغ اليهم احد . وفي مجرد بقائهم على وفائهم لموراس الكفاية للاثبات انهم يفكرون في كل ذلك حتى ولو كانوا واثقين من انهم لا يفكرون ! وبينما كان الفاتيكان يعلن على هذه الصورة مناهضته للملكيين مقاومي الانظمة العلمانية ، هذه الانظمة العلمانية ممثلة في ساسة يباركهم الفاتيكان من امثال ميللران وبريان ، كانت سارية تشيع في البلاد الفرنسية الروح الذي لا هو ديني ولا هو اخلاقي

ويختم دي بلانهول هذا الفصل بهذه الكلمات . « هذه هي المناقضات المحيطة بالكنيسة في ايامنا» ... « لست احنق . اني ارقب واحاول ان افهم ، ولكن عبثاً . فافهموا انتم اذا استطعتم »

***

أفهمتَ ، انت الذي يقرأ ؟

اما انا فأعترف بأني كلما توسعت في مطالعاتي في هذا الموضوع امعنت في الجهل له وزدت عجزاً عن إدراك لبابه. قد يكون ان مطالعاتي لم تتناول الاّ النواحي الثانوية والاضافية وانها هي التي وزعت من فكري باقصائي عن الفكرة الجوهرية الصميمة التي تفيض على المشكلة نوراً وتجلوها اتمّ الجلاء . فهل بين القرّاء من يهديني ؟

وبعدُ أوليست هذه الحالة هي الواقعة حوالينا في اكثر الشؤون حتى اقربها الينا وألصقها بحياتنا ؟ نرى من الامور المظاهر والنمو والترامي ، ونطّلع على الكثير او اليسير من التفاصيل والاجزاء ، ولكن منذا الذي يستطيع ان يزعم انه ملك الباعث الاساسي وتمكن من المصدر ؟

وفي هذا الموضوع الذي تتنازعنا منه الفروض ، كيف يتسنى ان نبتّ في الحكم صادقين ؟

الديموقراطية والتعليم

للدكتور امير بقطر

الجانب الاول من محاضرة القيت في ردهة يورت التذكارية في جامعة القاهرة الاميركية . وينتظر ان تجمع مع اخواتها في كتاب يعالج الدمقراطية من نواحيها المختلفة

مبادىء التعليم الديموقراطية، كغيرها من المسائل التي تتعلق بالديموقراطية، كالسياسة ، والاجتماع والاقتصاد ، ونظام الحكم ، يَرْجعُ تاريخها الى الثورة العلمية ، وحرية التفكير ، والنهضة الصناعية ، والاصلاح الديني ، وغيرها من الحركات الفكرية النظرية والنهضات التجريبية العلمية ، التي تتصل منذ نشأتها باسماء مؤسسيها الابطال ، الذين أطلقوا الافكار من معاقلها ، وحرَّروا الانسانية من آلامها

— ١ —

﴿ معناها ﴾ معنى الديموقراطية في التعليم ان تهيأ الفُرَص ، وتمهَّد السُّبُل والوسائل، لجميع ابناء الامة على السواء ، الفقير منهم والغنيّ ، الصغير والكبير ، الخادم والسيّد ، الذكر والانثى ، القروي والمدنيّ . ولا نقصدُ بتهيئة الفرص ، وتمهيدِ السبل والوسائل ، ان تقدم للجميع تربية واحدة متجانسة نوعاً وكمية . حاشا ، لاننا اذا فعلنا ذلك كان مثلنا مثل من يفصّلُ نوعاً واحداً من الثياب لالوف من الافراد ، زيًّا ، ولوناً ، وحجماً ، بغض النظر عن اعمار لابسيها ، وقاماتهم ، والوان بشرتهم ، واختلافهم ، سمناً ونحافة ، ودمامةً ورشاقةً ، وميلاً وذوقاً ، ومناخاً وأقليماً . فمن ابناء الامة الواحدة من لا يصلح للدروس العالية ، ومن ابناءِ الامة الواحدة، من لا يتسنى له هضم المواد التي تقدَّم لطلبة المدارس الثانوية ، ومن ابناءِ الامة الواحدة ، من لا يستطيع الانتقال من السنة الثالثة الابتدائية ،ولو بقي فيها محروساً بعناية الدولة كلّ حياته . ومن ابناءِ الامة من يأفل نجمهُ في المواد الثقافية النظرية الكلاسيكية ، وتتألق شمسهُ وتسطع في الدروس الصناعية العملية . ومن ابناء الامة من يخذل امام الجبر والهندسة والحساب ، وينتصر في معارك التاريخ والاقتصاد والعلوم الاجتماعية . ومنهم من يخفق في هذه وتلك ولكنهُ ينبغ في الرسم او النحت والتمثيل او الغناء او الموسيقى

ومن أبناء الامة الواحدة من تتطلب تربيته الاكثار من الدروس الصحية ، والإلمام بمبادىء امراض معينة ، تتفشى في الاقليم الذي يعيش فيه . ومنهم من تتطلّبُ تربيته العناية التامة بصناعة خاصة تمتاز بها مدنٌ خاصة ،كالمنسوجات القطنية فيشبين الكوم واخميم والحريرية في دمياط والخزف

في قنا والخراطة وشغل الابنوس في اسيوط ، والسجاجيد في عدة مدن مصرية . وقد تتطلب تربيتهُ التدرب على القتال والدفاع عن النفس من غزوات الانسان او الحيوان. كما يفعل البدو ورجال القبائل بأبنائهم ، وكما تفعل بعض بلدان اوربا واميركا اليوم كايطاليا والمانيا وبعض الولايات المتحدة . ومنهم من تتطلب تربيتهُ لوناً من الوان الرياضة ، كالرماية وركوب الخيل والسباحة او ضرباً من ضروب اللهو والتسلية ، كما في اوربا واميركا فكثيراً ما يشمل المنهاج المدرسي الشطرنج والبردج والرقص وفي بعض الكليات لا يمنح الطالب درجة بكالوريوس ما لم يجز امتحاناً في العوم والغطس وانقاذ الغرقى . وقد تتطلب احياناً الالمام بالوقاية من الافاعي السامة كما في الهند حيث يموت بسببها سنويًّا عشرون الفاً من السكان ، ومن العقارب كما في مديريات اصوان وقنا وجرجا واسيوط ، ومن البلهارسيا والانكلستوما والرمد الحبيبي (٩٠٪ من سكان بعض الاقاليم المصرية مصاب بهذه الامراض) . وقد تتطلب التربية ان يلمّ الطالب بقيادة السيارات واصلاحها كما في اميركا حيث توجد سيارة لكل اربعة من السكان ، والوقاية منها كما في انكلترا حيث يموت قتلاً بالاتومبيل سنويًّا سبعة آلاف ، ويجرح ١٩٢ الف (حوادث السيارات على ارصفة لندن وحدها بمعدل ثلاث يوميًّا) ، والولايات المتحدة حيث يموت سنويًّا في حوادث السيارات ٣٠ الفاً ويجرح نحو ٧٠٠ الف ، وفي نيويورك وحدها نحو ١٥٠٠ نفس تموت سنويًّا بسبب السيارات

يتضح من هذا أن التربية الديمقراطية ، تؤمن بالفروق الفردية ، التي تكلم عنها علماء النفس ، وتعتقد أن الناس يولدون متساوين أمام القانون ، متساوين الى حدّ محدود في الحقوق والواجبات ، ولكنهم لا يولدون متساوين في الذكاء والعقول ، لا يولدون متساوين في القدرة على مزاولة الاعمال ، في الاستعدادات والكفايات . لذلك أمكننا أن نقول إن من أهم مبادىء الديموقراطية انها لا تفصل لكل فرد من أفراد الامة الثوب الذي يلائمه ، وتهيىء له من الطعام اللون الذي ينبّه شهيته ، ويتفق ومزاجه ، ولا يسبب له التخمة أو عسر الهضم

﴿ الموضوعات التي تتناولها ﴾ الديموقراطية في التعليم لا تنحصر في السياسة العامة . بل تتناول الادارة والمنهاج ، وأساليب التدريس ، والنظام ، وتوزيع الميزانية على درجات التعليم على اختلاف أنواعها ، ونسبة الميزانية المخصصة للتعليم ، الى ميزانية الدولة العامة أولاً . ونسبتها للدخل القومي ثانياً . وسنتكلم بايجاز عن بعض هذه الموضوعات واحداً فواحداً : —

— ٢ —

﴿ المركزية في السياسة العامة ﴾ من أظهر المسائل التي تتعارض مع روح الديمقراطية ، وتعطيل سيرها هي المركزية ، خصوصاً الجامدة المتطرفة . ويقصد بالمركزية ، أن تخضع النظم المدرسية في مجموعها ، في طول البلاد وعرضها ، الى سلطة عليا واحدة . ولعلّ من أشدّ الانظمة المركزية مغالاة وتطرفاً في العالم ، هي مركزية التعليم في بلادنا المصرية فإن مدارسنا من ساحل البحر الأبيض

المتوسط شمالاً الى النوبيا جنوباً ، ترجع في كل كبيرة وصغيرة في جميع شئون التعليم الى السلطة المركزية ، ومقرُّها وزارة المعارف العمومية في القاهرة . فلا يملك المفتش او الناظر او المعلم في اية مدرسة كانت ، ان يتصرف في اصغر المسائل شأناً ، فيما يختص بالمنهاج ، او طرق التأديب ، او الامتحانات ، او مواعيد الدراسة ، الاّ بعد مصادقة الديوان . ومما يؤسف له ان مراقب التعليم وهو المشرف العام على نوع التعليم الذي يقع في دائرة اختصاصه لا يتسنى له في كثير من الاحوال ان يخاطب مدارسهُ مباشرة او ان تخاطبه تلك المدارس رأساً بل لا مندوحة من أن تعرض الاوراق على سلطةٍ أعلى من المراقب . ومما يؤسف له ان سكان الاقليم لا يملكون حق المطالبة بنوع خاص من التعليم ، او منهاج خاص يلائم اقليمهم ويتفق وحاجاتهم . ومما يؤسف له ان هذا النوع من المركزية ، يؤدي في كثير من الاحايين الى ضياع الزمن في مكاتبات ومراسلات جافة رسمية في مسائل تافهة كان يستطيع الناظر البتّ فيها من تلقاء ذاته وقد لا يصله من الديوان جواب شاف قبل ان تصبح المسألة من حوادث التاريخ القديم . ومن المعلوم ان المركزية في فرنسا ، التي قد نسجنا على منوالها ، ليست في هذه الدرجة من الشدة واليبوسة . فمن بواعث الاسف ان مصر كمعظم البلدان العربية قد اقتبست جسم هذا النظام وتركت روحه ففات عليها اهم ما في التربية الفرنسية واثمنهُ وأعزه ، وهو تهذيب النشء بتراث ما تركه السلف الصالح من الدراسة الثقافية وما يعمل على تقوية الناحيتين العقلية والنفسية باقتباس العلوم والوسائل الحديثة . وفرنسا مع مركزيتها تعنى كل العناية بالتفكير والمنطق ولا تدع المركزية تدفعها الى تنمية الذاكرة وحشو الاذهان بالمعلومات. بل بالعكس توجه همها الى تربية الذوق السليم والحكم الصادق والاعجاب بالجمال . ولا يقاس نجاح الطالب هناك بكمية المعارف والمعلومات التي يستوعبها بل بمقدرته على استعمال الآراء المجردة ورؤية العام في الخاصّ

ان من نتائج المركزية في مصر هو انحدارنا بالتعليم العام الى هوة سحيقة من الحفظ والاستذكار وعدم العناية بالجوهر والتفكير والتربية الحرة . وهذا ليس من الديمقراطية في شيء . حقيقةً ان مصر وبلدان الشرق الادنى لا تستطيع الغاء نظام المركزية في التعليم الغاءً باتّاً نظراً الى حداثة عهدها بالانظمة الديموقراطية . فليس من الحكمة ترك الحبل على الغارب واتباع نظرية laissez faire غير ان ما نحتاج اليهِ مزيج من السلطة المركزية والسلطة المحلية والاعتماد على بعض المدارس الخصوصية الراقية كما هي الحال في انكلترا . ان البلدان الشرقية لا تحتاج الى تاتي كل كبيرة وصغيرة في التعليم من سلطات عليا فان الحياة فيها مرتبطة بطبيعة الحال بمراجع لا عدد لها ومقيدة بسلطات من تقاليد وعادات اجتماعية ودينية واضاليل وخرافات وليس ثمت حاجة الى مزيدها

نقول انما نحتاج الى عناية شديدة بالابتكار والاعتماد على الذات والاستقلال الفكري كما هي الحال في المدارس الانكليزية وغيرها ولكن انى لنا ان ننمي هذه الصفات ونغرس بذورها في جوّ مدرسيّ غير مشبع بالحرية ، ومقيد بسلسلة اوامر وسلطات ومراجع ؟ ان نظام التعليم في انكلترا يؤيد النظرية

التي نتكلم عنها الآن وهي انهُ من المستطاع ان تكون هناك سلطة مركزية للتعليم بغير ان تحتكر الحكومة المركزية امره وبغير ان تصبح المدارس ونظارها ومعلموها آلات صمًّا في يدها تهيمن عليهم وتقصّ اجنحتهم فلا يستطيعون الى المعالي سبيلاً

كان من المحتمل ان تكون المركزية اخفَّ وطأة مما هي الآن ، وكان من المحتمل ان يعلَّق الآمال على اصلاح عيوبها تدريجاً ، فيما لو كانت وزاراتنا التي تقبض على السلطة بيدٍ من حديد ، ثابتة ، طويلة الاعمار. اما وهي عرضة للعواصف السياسية ، وزوابعها ، فأنها لا تعمر طويلاً ، ولا تكاد « تتبلور » سياستُها — اذا صحَّ هذا التعبير — حتى تهبَّ عليها ريح صرصر فتذوب .
وقد قال لورد كرومر مرة في احد تقاريره عن حالة التعليم في مصر « انهُ بين سنة ١٨٦٣ و ١٨٩٢ تعاقب الوزراء على المعارف تباعاً حتى اصبح عددهم ٢٩ وزيراً » واردف ذلك بقوله « وقد جرت العادة ان يقلب كلُّ وزير سياسة سابقه رأساً على عقب ، ويبني على انقاضها سياسة اخرى تخالفها ، حتى اذا ما قارب البناء التمام ، سقطت الوزارة ، فجاء الوزير الجديد بمعوله وهدمه ، وهكذا دواليك »

يقولون ان المركزية ضمانٌ للتجانس القومي ، اي انهُ اذا تركت الهيئات المحلية ، والمدارس الاهلية ، تبثُّ نوع التعليم الذي تبغيه ، فان شطراً من ابناء الامة يولّون اتجاهاتهم الفكرية والثقافة نحو الشرق ، وآخر نحو الغرب وآخر نحو الشمال وآخر نحو الجنوب . وفي هذا من المغالطات مالا يخفى على الباحث . اولاً لان تنويع التعليم لا يُفرِّق بين ابناء الامة ، طالما ، كان في حدود الاصول المعقولة ، فانَّ التنويع في كل شيء سنة من السنن التي تجري عليها الطبيعة ، في عالمي الاحياء والجماد . وثانياً لأننا كما قلنا نستطيع ان نتقي التطرف والمغالاة في هذا التنويع ، بالجمع بين السياستين ، المركزية والاهلية

ومن هذا يتبين انّ سلاح المركزية مسلول على رؤوس القائمين بالتعليم ، فلا يستطيعون حراكاً . وفي هذا اشدُّ ما يمكن من الافتيات على حرية التعليم التي هي ركن من اقوى اركان الديمقراطية

— ٣ —

﴿ المنهاج ﴾ نستطيع ان نتكلم طويلاً عن المناهج الدراسية ، وما ينبغي ان يتوافر فيها حتى يقال عنها حقًّا انها ديمقراطية ، بيد اننا نقصُرُ الكلام على شرطين اساسيَّين

الشرط الاول ، هو ان المناهج لا يمكن ان تكون ديمقراطية مالم تتمشَّ مع العصر الذي هي فيهِ. لم يمض على العالم عصرٌ كعصرنا هذا ، تعدو فيهِ المخترعات والاكتشافات عدواً سريعاً ، فاذا لم تتعهد مناهج الدراسة بالتغيير والتعديل والحذف والزيادة والتبديل بغير انقطاع كان تفكير المدرسة في عالم[1] وتفكير الناس في عالم آخر . لانه ما معنى المناهج الدراسية ؟ المناهج الدراسية ما هي الاَّ وسيلة

(١) ويقول جون ديوي ان التجديد كالتوالد والغذاء لازم للحياة فكما ان التوالد والغذاء لا بد منهما للحياة الفزيولوجية ، فان التجديد المستمر كذلك لا بد منه لحياة الجماعات

نستطيع بواسطتها الالمام بالحضارة وتطوُّرها ، ومظاهر الحياة ، المادية منها والروحية ، السياسية والاجتماعية . المناهج الدراسية لا يمكن ان يقال عنهـا ديمقراطية ، ما لم نتوصَّـل بها الى تفهم البيئة التي نعيش فيها ، ما لم نتوصلْ بها الى كسب الرزق ، ما لم نتوصَّـل بها الى بناء نظام الأسرة على اساس متين من الراحة والطمأنينة والصحة والخلق الكريم ، ما لم نتوصَّـل بها الى المحافظة على سلامة ابداننا وعقولنا ، ما لم نتوصل بها الى الانتفاع بالمدرسة والحضارة الحديثة ، ما لم نتوصَّـل بها الى قضاء اوقات الفراغ في غير ما يضر بأجسامنا ويخلُّ بميزان وجداننا ، ما لم نتوصل بها الى خدمة اوطاننا

انني لا ابتعد عن الصواب كثيراً اذا صرحتُ برأيي الخاص في ان المناهج المدرسية في بلادنا وفي كثير من البلدان الاخرى ، اقلُّ ديمقراطية من الجرائد اليومية ، والمجلات الاسبوعية والشهرية ، ومن الراديو ، ومن دور التمثيل ، ومن دور الصور المتحركة ، مهما قيل في هذه كلها ، مهما وجه اليهـا من سهام النقد ومهما عددنا فيها من عيوب . وفي اعتقادي ان هذه الصحف والمجلات واذاعات الراديو ودور السينما والتمثيل ، اشدُّ اثراً من الناحية الديمقراطية من المدارس في حالتها الحاضرة . وأنها اقدر على تعليمنا مبادىء الحضارة الحديثة وشرح المبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية والاخلاقية ، كما يفهمها القرن العشرون ، وذلك لأنها تتمشى مع هذا العصر وتنشر الثقافة العامة من غير تردد او تحفظ . ونستطيع ان نضرب مثالاً بالاشرطة السينمائية المصرية الناطقة ، فانها على حداثة عهدها وما تحتاج اليهِ من وجوه الاصلاح ، أحدث من كثير من المعاهد العلمية التي انشئت منذ خمسين عام الى مائة عام او اكثر ، ولا تزال ادواتها وتخت جلوسها ومناهجها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه يوم انشائها

ونصيحتي للآباء ان يعوّدوا ابناءهم قراءة بعض الصحف والمجلات ، والكتب غير المدرسية ، وغشيان دور السينما ، وزيارة المعارض الفنّية ، لان المدارس على حالتها الراهنة لا تزال بعيدة عن الحياة الحقيقية ، وحاجات هذا الزمن

ولا يغرَّنّكم ما يهمسُ بهِ البعض الآن من تبذل بعض الصحف والمجلات ، وتهتك بعض الروايات ، فان الحكيم يتخيَّر الصالح منها ، كما يتخيّر لأبنائه الجيّد من الطعام ، والحشيم من الثياب ، رغم ان الاسواق والمخازن ملأى بالاطعمة الفاسدة ، والثياب الزاهية الالوان ، المهتوكة الازياء ، التي يحمرُّ لها الجبين خجلاً

كثيراً ما نقرأ عن إخفاق التعليم الالزامي ، وننحي باللائمة على المدارس التي أنشئت من أجله ، ونزعم أن من شأنها ان تفسح مجالاً لهجرة سكان الأرياف الى المدن . سنرجىء الكلام عن التعليم الالزامي الآن ، ولكنا نريد أن نقول ان المنهاج الديموقراطي الذي يتمشى مع حاجات السكان ، لا يعمل على هـذه الهجرة المزعومة . ما الذي يجب ان يشمله منهاج المدارس الالزامية ؟ أبسط المسائل في مبادىء جغرافية مصر ، والعالم المتصل بها — المبادىء الزراعية — معلومات أولية

صحية — شيء عن البيع والشراء واعداد الحاصلات للاسواق العمومية — مبادىء صناعة اولية تمكنهُ من اصلاح آلاته الزراعية وأدواته المنزلية — الوقاية من الامراض المحلية الفتاكة (هذا بشرط ان تقوم مصلحة الصحة العمومية ووزارة الاشغال وغيرها من القيام بما عليها من اعداد أنابيب الماء، والاكثار من النماذج القروية، واقامة المستشفيات وغير ذلك) — شيء عن حقوق الفرد وواجباته — شيء عن الناس الذين يعيشون معهم، عن طبيعتهم الانسانية، عن هفواتهم وما هم عرضة له من الزلل والخطأ

يلاحظ انني لم اذكر شيئاً عن القراءة والكتابة والحساب، لأنني اريد أن تكون هذه الموضوعات وسيلة لاغاية . وهذه الغاية هي فهم الموضوعات الكثيرة التي عددناها الآن . ان المنهاج يفرض فيهِ أن يكون مشوّقاً، مرغباً، متصلاً بحاجات التلميذ، الى حدٍّ يجعله يقبل من تلقاء ذاته على تعلم القراءة والكتابة حتى يستعين بها على فهم هذه الموضوعات الجذّابة المتصلة بحياته

قال لي صديق انتدب لتفتيش المدارس الالزامية انهُ رأى التلاميذ وهم لايكادون يعلمون شيئاً عن النظافة وطرد الذباب من عقد اجتماعاته فوق العيون، لان هؤلاء يدرسون بالتطويل مطولات الجغرافيا

ماذا يريد القروي من الحساب سوى القواعد الاربع البسيطة، مع الكسور البسيطة المعتادة كالـ $\frac{1}{2}$ و $\frac{1}{4}$ و $\frac{1}{8}$ و٣ قراريط من ٢٤ وكفى

والشرط الثاني الذي ينبغي ان يتوافر في المنهاج حتى يكون ديموقراطيّاً هو مراعاة الفروق الفردية . قلنا ان الناس لم يخلقوا سواءً في قواهم وكفاياتهم، ومراتب ذكائهم واذا كان الامر كذلك فليس من الحكمة في شيء ان نجرّعهم جميعاً شراباً واحداً، ومقادير منها متساوية . ففي المدارس الثانوية، ليس من الديموقراطية في شيءٍ ان يدرس كل طالب من طلبة الكفاءة فوق اللغة العربية الانكليزية والفرنسية، والجبر والهندسة والحساب، والنبات والحيوان والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا.. الخ من الطلبة من لا يستطيع القيام بهذه كلها دفعة واحدة . من الطلبة من يكفيه درس الحساب بدلا من الموضوعات الثلاثة في الرياضة، ويكفيهِ درس الطبيعة مع استغنائهِ عن الكيمياء

ومراعاة الفروق الفردية تؤدي بنا الى تخفيف المناهج للضعاف من الطلبة ضعفاً طبيعيّاً وتقويتهِ للاقوياء منهم فوق طبيعتهِ

مراعاة هذه الفروق تؤدي بنا الى انتقاء النابغين من تلاميذ القرى الذين تكلمنا عنهم وتعليمهم على حساب الدولة تعليماً عالياً وهذا لا يخيفنا بتاتاً فانها فئة قليلة لا تكاد تؤثر في الميزانية

وسأنقل ما اقترحهُ اخيراً مدير معارف العراق على حكومته فيما يتعلق بالتعليم في الارياف وستجدون في عباراته اشارة الى الشرطين اللذين تكلمنا عنهما، وهذه هي العبارة : —

« ينبغي أن يكون التعليم (في الارياف) ذا قيمة اقتصادية، متصلاً بحاجة الريف، منوّعاً. فالبنت يجب ان يتناول تعليمها الانتاج في مواد الطعام على اختلاف انواعها . والصبيُّ يجب ان

يتناول تعليمهُ المبادىء الزراعية الصناعية ، وان يشمل شيئاً عن زراعة الخضروات ، وتربية الحيوانات والطيور الداجنة ، وتحسين نتاجها . اما القراءة والكتابة والحساب ، وان كان لامندوحة من ادراجها ضمن المناهج الدراسية ، الاّ انهُ يراعى ان تكون «وسيلة» لغاية لا غير اي ان يكون الغرض منها الاستعانة بها على تفهم المبادىء الزراعية والصناعية المشار اليها لا لمجرد القراءة والكتابة وحل المسائل مجردة عن العلاقة بهذه المبادىء . اما البنات فيجب ان يشمل منهاجها التفصيل والخياطة ، والطهي وصناعة الزبدة والجبن ، وأن يكون ذلك بأبسط طريقة ممكنة »

يمكن ان نلخص هذه الناحية من الموضوع من قولنا ، ان المنهاج الديمقراطي يمهد لنا سبل الحضارة والعيش في ابسط صورها ، لا ان يكون وسيلة من وسائل الزينة والحلية الخارجية مع كراهية العمل ايّاً كان نوعه ، كما انه يعنى بالعبقرية والنبوغ ، في الارياف والمدن على السواء ، ويفصل لكلٍّ الثوب الذي يلائمه

— ٤ —

﴿ طرق التعليم ﴾ من اهم اركان الديمقراطية في التعليم الطريقة التي يتخذها المعلم في تربية النشء . فاذا كانت الطريقة اوتوقراطية ، فان المعلم يكون الحاكم المستبد ، دكتاتوراً ، يملي ارادته على التلاميذ تملية ، يقبل التلاميذ كلامه وحاوله وآراءه بغير مناقشة . يطبع لهم المذكرات او يؤلف الكتب ، وعليهم هم ان يوافقوا على كل ما جاء بها ، وأن يجيبوا عن اسئلة الامتحان ، طبق ما قاله المعلم ، وطبق ما جاء في مذكراته او كتبه ، والويل لهم اذا ابدوا آراءهم الخاصة المبتكرة . والويل لهم اذا صارحوه القول انهم على رأي مؤلف آخر . واذا اردتم الايقان مما اقول فسلوا طلبة المدارس الثانوية والعالية . ان هذه الطريقة الاتوقراطية المستبدة ، تدرب الطفل ، كما يتدرب الحيوان ، وتروّض الطالب ، كما يروّض عمال «السرك» القردة وسائر الحيوانات

اما الطريقة الديمقراطية فتترك الطالب يبحث عن الحقيقة العلمية في جو فسيح من الحرية ، وتجعل التلميذ عاملاً ، لا عاطلاً ، فاعلاً لا مستقبلاً ، متكلماً لا مصغياً . اما المعلم فيكون كمدير المسرح في دور التمثيل ، يدير العمل وراء الستار ويشد الحبال اذا استدعت الحاجة ، ولكنه لا يظهر بتاتاً على المسرح امام الحاضرين . ولعلَّ ما قاله مرة امرسون في هذا الشأن ابلغ ما جاء به كاتب في الموضوع : « احترم الصغير فانهُ بشر مثلك وافسح له مجال التفكير ، والتعبير عن رأيه ، وتلمس الحقيقة بيده . واذا كنت والداً فلا تكن له والداً فوق ما يجب ان تكون ، واذا كنت معلماً فلا تكن له معلماً فوق ما يجب ان تكون »

﴿ المعلم والديمقراطية ﴾ قلنا ان الطالب في الديمقراطية ، ينبغي ان يحاط بسياج من الحرية غير ان هذا لا يتم طالما كان المعلم مقيداً بأوامر ونواه وقوانين تفصيلية لا حد لها ، وطالما كمّ فمه فلا يستطيع ان يناقش طلبته في كثير من الموضوعات العلميـة او الاجتماعية او الاخلاقية ،

بدعوى انها تمس السلطات العليا ، او تقلب النظم الاجتماعية او تهدم العادات والتقاليد

اذا كان المعلم يحرّم عليه مناقشة الطلبة في مادة التاريخ فيما يتعلق بظلم الحكام واستبداد الولاة خشية ان يعد هذا تطاولاً على سلطة او سلطات — واذا حرّم عليه في مادة التربية الوطنية او علم سياسة الدول بحث دستور وموازنته بدستور آخر خشية الاخلال بالنظام العام — واذا حرّم عليه ان يناقش طلبته في مادة الفيزولوجيا او علم النفس في العاطفة الجنسية وما يتعرض له النشء من الاخطار في جهاده العنيف مع هذه العاطفة ، بدعوى ان هذا مفسد للاخلاق ، — واذا حرم على المعلم في مادة الاخلاق ان يبحث في الانظمة القائمة في الزواج والطلاق ، بدعوى ان هذا خروج على التقاليد — واذا حرّم عليه ان يبحث في اضرار الفاشية او الهتلرية او البلشفية ومزاياها ، عيوبها ومنافعها ، ما لها وما عليها بدعوى الخوف من القلق والانقلاب الاجتماعي — واذا حرم على المعلم في مادة البيولوجيا بحث نظرية دارون وارجاع الانسان الى اصله من ذوات الاربع أو أي حيوان آخر ، بدعوى ان هذا مخالف لهذا وذاك — اذا حرّم على المعلم ان يستعمل حكمته في تدريس المناهج المقررة ، نظراً لعدم مرونتها ، او ان يقوم فيه بأسلوب غير الاسلوب المألوف الذي تسير عليه المدارس ، ويقره المفتشون — اذا حرّم على المعلم كل هذا ، وقيد بهذه السلاسل والاغلال ، فكيف يتسنى لنا ان يمرح الطالب في جو من الحرية ، وأنى له ان يترك المدرسة وهو تواق للحرية يسير على مبادىء الديمقراطية ؟؟

في عهد السلطان عبد الحميد رأى مفتش احد معلمي الرياضة يكتب على السبورة امام طلبته هذه المعادلة الجبرية وهي ع + خ = صفراً ، فأمر بالقاء القبض عليه وأودعه السجن بزعم ان تفسير ع + خ = صفراً ، هو عبد الحميد خان يساوي لا شيء

في اميركا تترك الحرية للمعلم في اتباع الطريقة التي يريد ، وله ان يختار من مواد المنهاج ما يراه ملائماً لمقتضيات الاحوال . ولست استطيع ان اقول ان المعلم الاميركي يبلغ من الحرية منتهاها غير انه في معظم الولايات يتمتع بحرية يحسدها عليه زملاؤه في كثير من انحاء العالم وقد جرت الديموقراطية بمعظم الولايات ان لم اقل كلها بالغاء كلمة مفتش inspector واستبدالها بكلمات اخرى منها كلمة « مساعد المعلم »

وربما يستغرب القارىء اذا علم ان المدرسة الاميرية في اصوان مثلاً لا يستطيع المعلم فيها ان يعلم التلاميذ نشيداً ، او يمثل التلاميذ رواية ، قبل ان يصادق عليها الديوان في القاهرة . ومن الغريب ان منشوراً بهذا المعنى صدر في يونيه سنة ١٩٢٦ وتبعه آخر بالمعنى ذاته في ابريل سنة ١٩٢٨

والديمقراطية في التعليم فوق هذه الحرية التي يجب منحها المعلم ، تؤدي بنا الى احترام المعلم مهما كانت درجة التعليم التي يشتغل بها ، سواء أكان في المدارس الاهلية أم الاميرية . يذكرني هذا بواقعتي حال . الاولى لا بد ان نذكرها وهي التي طلب فيها احد اعضاء مجلس النواب منذ

ثلاثة اعوام ان يكون مرتب المعلم في المدارس الالزامية لا يزيد عن جنيهين ، والواقعة الثانية هي ان احد الوزراء السابقين دعا نظار المدارس الاميرية والاهلية منذ سنوات قليلة مضت ، فاستدعى اولاً نظار المدارس الاميرية ، وما علينا انهُ نسي ان نظار المدارس الاهلية ضيوف كان واجب اللياقة يقضي ان يعطى لهم حق الاولوية . غير أن ما يعنينا من المسألة ان نظار المدارس الاهلية ما كادوا يجلسون في اماكنهم في حضرة الوزير حتى قابلهم بشكل عنف وهددهم بأشياء لا أذكر تفاصيلها فيما اذا اشترك احد تلاميذهم في مظاهرات ، ثم امرهم بالخروج فخرجوا فهل في هذا من روح الديموقراطية وحرية المناقشة واحترام المعلم في شيء ؟

— ٥ —

﴿ المدرسة والامة ﴾ الديمقراطية في التعليم تعاون بين المدرسة ووحدة السكان الذين انشئت المدرسة لأجلهم فعلى هذه الوحدة كالقرية او الكفر او العزبة ان تشيد بناء المدرسة ، وتقوم بعدادتها ، وتتكفل بمرتب المعلم كله ، او تستعين ببعضه من وزارة المعارف ، وان يكون للمستنيرين من الافراد في هذه الوحدة رأي في ادارتها والاقتراح بشأن مناهجها ، والتفاخر بنجاحها . ومن جهة الطرف الآخر يجب على المدرسة ان تكون مركزاً لاجتماعات القرية العامة ، وسماع النصائح الصحية والاخلاقية والادبية فيها ، وان تكون بعد انصراف التلاميذ مركزاً علميًّا يجتمعون فيهِ لسماع الخطب والاناشيد والموسيقى ومشاهدة الصور الرمزية والخرائط بارشاد المعلم . وبذلك يشعر الاهلون ان على المدرسة لهم حقًّا ويغارون على نجاحها ، وقد يستغنون عن مساعدة الحكومة لها[1]

تحتم الديموقراطية ان تكون المدرسة الثانوية مفتوحة الابواب لوالدي الطلبة واولياء امورهم وغرفة مدير الجامعة في اميركا مكتوب عليها ادخل بغير استئذان . اما في مصر فغرفة الادارة حصن حصين يحرسهُ الكاتب والباشكاتب ، والضابط والفراش . وقلما تستعمل الحجر الواسعة والقاعات الفسيحة لغير التدريس ، في حين ان من المستطاع استخدامها لالقاء المحاضرات واقامة حفلات السمر للحيّ الذي توجد المدرسة فيهِ

(١) في اميركا كليات زراعية تبعث مندوبيها للفلاحين وتعينهم على قتل الحشرات الزراعية وانتقاء النوع وتحسين نسل المواشي وتتبع مزروعاتهم وتبعث لهم بالنشرات . وكليات التربية المنزلية (home economics) تساعد الاسر في كل ما يتعلق بالمنزل من العناية بالطفل والنظافة وترتيب الاثاث

زرنا مرة مدرسة قروية واردنا ان نعلم مقدار الارتباط بين المدرسة وسكان القرية . فقادنا تلميذان الى عدة منازل لمشاهدتها ، والاطلاع على ما تقوم به المدرسة من الخدمات في المنازل كترتيب الاثاث والستائر والعناية بالمريض . وفجأة في احدى المنازل جلسنا جميعاً وكنا خمسين وجاءت ربة الدار وكانت مشغولة بغسل الملابس واخذت تحاضر فينا مستدلة على ما كان للمدرسة القروية من الاثر في منزلها ومزرعتها من تربية الدواجن وتحسين نسلها والعناية بطفلها وتحسين طرق الغذاء في الاسرة

طريقة فورونوف

وتأثيرها في الجسم والعقل

الدكتور شوكت موفق الشطي

﴿ طريقة فورونوف ﴾ [1] يقول فورونوف ان رسل الغدد التناسلية تؤثر في معظم اعضائنا أو بالاحرى في البنية جميعها ويزعم ان الغدة المذكورة توزع القوة وتنشط جميع اعضاء جسدنا الذي تعمل فيه الوف الملايين من الخلايا بلا انقطاع ولكل منها عملها الخاص . فالخصية تفرز الحييوينات المنوية لإلقاح البييضات والتناسل غير انها في الوقت نفسه تفرز مفرزاً متى سار في الدم حمل الى جميع النسج القوة والنشاط والشباب فقد وضعت الطبيعة في هذه الغدة وحدها مصدر الحياة وينبوع تجدد النسل . ويدعي فورونوف ان شيخوخة الإنسان هي شيخوخة خصيته وفتوته هي خصب خصيته او تطعيمه بخصية جديدة تفرز مفرزاً جديداً تقوى به الاعضاء السائرة في الجسد . وقد اورد فورونوف لإثبات نظريته كثيراً من الشواهد فقد درس الامر اولاً في الحيوان ثم عاد الى درسه في الانسان فاذا خصي الديك ذبل عرفه وامتنع عن الصياح وفقد نشاطه وحماسه وخمدت غريزة السيطرة فيه واذا خصي كلب الصيد خسر كثيراً من صفاته الحسنة الدالة على ذكائه وانحط عن الكلاب الاخرى والامثلة كثيرة على ذلك يطول بنا عدها . اما الإنسان فلا تجيز القوانين خصاءه لدرس العوارض والتبدلات التي تطرأ عليه بعد الخصاء غير ان درس المخصيين في مصر واستانبول كان امثولة كافية لمعرفة هذا الأمر .وقد استفاد فورونوف اثناء اقامته في مصر من احتكاكه بهذه الفئة ودرس طباعها والتبدلات التي كانت تطرأ على اجسادها وعقولها بعد الخصي الفائدة الكبيرة فأوحى اليه هذا التأمل طريقته وكشف له الطريق الذي سلكه فقد لاحظ ان المخصي اذا خصي بعد البلوغ يتأثر شعر وجهه ويترهل خداه ويشابه منظره منظر النساء المسنات ويسمن بدنه ويجسم ثدياه او تضعف عضلاته ويسترخي قوامها ويلطف صوته ويقل نشاطه ويشيخ باكراً .ويتجعد جلده في

(١) من محاضرة القاها استاذنا الفاضل امس وزميلنا اليوم العالم الاديب الدكتور مرشد بك خاطر موضوعها فورونوف والمجتمع البشري

الأربعين او الخمسين ويتوسف وتظهر على قرنيته دائرة الشيخوخة ويفقر دمه وبكلمة واحدة تضعف قوى اعضائه الجسدية جميعها وتخمد ذاكرته وينقص ذكاؤه وتخشن عواطفه ويستولي عليه الخوف فيفقد الجرأة

ولنا امثلة اخرى في الانسان يستطاع درسها اعني بها الاشخاص الذين يفقدون خصاهم لطوارىء تطرأ عليهم او لأمراض تصيبهم فتستدعي استئصال غددهم فان هؤلاء تعتريهم التبدلات المذكورة آنفاً . وكذلك القول في من يولدون وخصاهم ضامرة وفي الحياة عدد عديد من هؤلاء . ألسنا نرى من آن لآخر رجالاً مرط الوجوه مجعدي الجلود لطفاء الاصوات تبدو عليهم الشيخوخة الباكرة فهؤلاء جميعهم قد ذبلت خصاهم ونضب افرازها الداخلي او قلّ

ويستطاع اثبات الامر بضده فمتى كانت الخصيتان كبيرتين او احداها جسيمة او متى ولد الولد بثلاث خصي كان منظره معاكساً للمشهد الاول والمجلات الطبية تورد لنا آونة بعد اخرى مشاهدات من هذا النوع

فقد ذكر الاستاذ مارو Marro حادثة ولد في التاسعة من عمره نبتت لحيته وذرّ شارباه وكان منظره منظر شاب له من العمر عشرون سنة على الرغم من قصر قامته وكان نشاطه شديداً وعضلاته مفتولة وعقله يفوق عقل ابناء سنه وما ذلك الا لأن احدى خصيتيه كانت جسيمة للغاية فهال امره ابويه فذهبا الى من استلّ له تلك الخصية فلم تمر بضعة اشهر عليهِ حتى تناثر شعر وجهه وصغر حجم عضلاته وخفت قوى عقله وعاد ولداً مناسباً لابناء سنهِ . كل هذا يبين لنا ان الخصيتين لا يؤثر مفرزها الداخلي في الصفات التناسلية فقط بل في القوتين الجسدية والعقلية ايضاً . وما يقال في غدة الرجل التناسلية يقال ايضاً في غدة المرأة التناسلية او المبيض فاذا نزع المبيض والمرأة فتية شاخت بسرعة واذا كان المبيضان جسيمين سرعا نمو الابنة واحدثا اعراضاً شبيهة بما تحدثهُ الخصيتان الجسيمتان

وقد نشرت المطبوعات الطبيــة منــذ بضع سنوات صورة ابنة عمرها ثلاث سنوات واحد عشر شهراً كان منظرها شبيهاً بمنظر ابنة لها من العمر اربع عشرة سنة لان احد مبيضيها كان جسيماً . والشيخوخة في عرف فورونوف نوع من الخصاء لان الطبيعة تخصي الرجل والمرأة وتعاقب السنوات يصلب الغدد التناسلية فيعود منظر الشيخ شبيهاً بمنظر المخصي بما يتعلق بصفات جسده وعقله . بعد ان عرف فورونوف كل ما ذكر فكر في ان يعيض عن الخصيين اللتين تصلبتا وذبلتا وفقدتا وظيفتهما المجددة للشباب بخصية مأخوذة من خليقة فتية ولما كان الامر متعذراً في الانسان لان القوانين لا تجيز له التصرف باعضائه وهبتها ولو اراد ، فكر في الحيوان الاشد قرباً من الانسان بتركيب جسده وكريات دمه ، فكر في بعض انواع القرود ولاسيما البعام (الشمبنزي) وبدأ يطعم الانسان بخصية هذا القرد فكان له ان دفع عن الانسان وقر الشيخوخة

نتائج طريقة فورونوف

بقي علينا الآن ان نبين نتائج هذه الطريقة اولاً في الجسد ثانياً في العقل ثالثاً في اطالة الحياة

يؤثر التطعيم في الجسد تأثيرات عديدة تبين بجلاء ما للمفرز الخصوي من الفعل العجيب فهو اولاً ينبه القوة التناسلية : وليس هذا بالامر الذي يرغب فيهِ الانسان عادة متى هرع الى الاختصاصي سائلاً اياه ان يطعمه بخصية قرد فتي لان الشيخ بعد ان يكون قضى حياة طويلة وا كمل بها دوره التناسلي ينظر اعباء هذه الحياة التي تثقل كاهله فيرغب في زحزحتها عنهُ وقلما يفكر في التصابي والعودة الى مغازلة الحسان . واذا طالعنا الاحصاء الذى وضعه فورونوف رأينا ان الذين طعموا بغية استعادة القوة التناسلية لايتجاوزون ثلاثة في المائة على ان التطعيم لا يعيد هذه الخاصة الاَّ متى كانت خصيا الشيخ لم تبلغا من التصلب حدًّا اقصى لأن التطعيم لا يحيي الميت بل ينبه الحياة الذابلة

على اننا لانؤمن بدعوى فورونوف هذه تماماً ونعتقد ان الشيوخ يخفون رغبتهم الثانية وقلما نجد من يجاهر بها اذا استثنينا بعض الشعراء الذين يظلون يتغنون بما يخالج قلوبهم من الحب والتصابي والشاعر الفرنسى العبقري فيكتور هيغو اكبر مثال على ما نقول فان زهرة الحب لم تذو في قلبه حتى الثمانين من عمره

ويؤيد هذا القول ما جاء في كلام الجاحظ حيث يحدثك عن محمد بن عباد فيقول لك سمعته يقول « وجرى ذكر النساء ومحلهنَّ من قلوب الرجال فقال لمخاطبيهِ ألستم تعلمون اني قد اربيت على المائة فينبغي لمن كان كذلك ان يكون وهن الكبر ونفاد الذكر وموت الشهوة وانقطاع ينبوع النطفة قد أمات حنينهُ الى النساء وتفكيره في الغزل وينبغي ان يكون من عوَّد نفسهِ تركهنَّ مدداً وتخلى منهنَّ سنين ودهراً ان تكون العادة وتمرين الطبيعة وتوطين النفس قد حط من ثقل منازعة الشهوة ودواعي الباه

«وينبغي أن يكون من لم يذق طعم الخلوة بهنَّ ولم يجالسنَّ ولم يسمع حديثهنَّ وخلابتهنَّ للقلوب واستحالتهنَّ للاهواء اذا تقدم له ذلك مع طول الترك أن لا يكون بقي معه من دواعيهنَّ شيء وينبغي أن يكون من دعاة الزهد في الدنيا وسنحت نفسه عن السكن والولد وعن أن يكون مذكوراً بالعقب الصالح أن يكون قد نسي هذا الباب كله ان كان قد مرَّ منهُ على ذكر. ثم قال فإني بعد جميع ما وصفت لكم لأسمع نغمة المرأة فأظن مرة ان كبدي قد ذابت وأظن مرة أنها قد تصدعت وأظن مرة أن عقلي قد اختلس وربما اضطرب فؤادي عند ضحك احداهنَّ حتى أظن انهُ قد خرج من فمي فكيف ألوم عليهنَّ غيري». ودليل آخر نقدمه ردًّا على دعوى فورونوف هو ما شاع عنه من أمر زواجه بفتاة في ريعان الصبا

لذلك نعتقد أن الشيوخ الذين عالجهم فورونوف لم يكاشفوه الاَّ بأمنية واحدة من أمانيهم فجعلوا

طلب النشاط الحيوي هدفاً أولاً لاعتقادهم بأنهُ متى تم لهم ذلك تحققت في الغالب اغراضهم الاخرى وقد أورد فورونوف شواهد عديدة بيّن فيها ان القوة التناسلية قد تنبهت تمام التنبه أثر التطعيم في أشخاص كانوا قد فقدوها منذ زمن طويل وكثيرون منهم تزوجوا في الثمانين من عمرهم ورزقوا أولاداً بعد هذه السن

﴿ خفة الانفضاج وأعني بهِ فرط السمانة ﴾ نرى حيث سرنا أشخاصاً يتجاوز وزنهم مائة كيلو يحملون حيث ساروا هذا الحمل الثقيل ولا يجدون الى القائه عنهم سبيلاً . ان هؤلاء تكون مفرزات غددهم الداخلية قد قلّت أو اختلت ولا سيما مفرزات خصاهم فطمت الخلايا الشحمية في أجسادهم على الخلايا الشريفة وحلت محلها فاذا جددنا فيهم هذا المفرز الخصوي بأن طعمناهم بخصية جديدة ترسل الى دمائهم هذا السائل المنبه خفت وطأة تلك الشحوم وفقدوا كثيراً من وزنهم وطرحوا عنهم ذلك الحمل الثقيل الذي القته الطبيعة على اكتافهم فان أحد مطعَّمي فورونوف فقد في بضعة اشهر عشرين كيلو من وزنهِ والامثلة على ذلك عديدة

﴿ انقاص التوتّر الشرياني ﴾ شرايين الانسان مرنة لينة غير ان مرور السنوات يصلبها ويقسيها وكذلك القول في الكليتين فمتى صلبتا ارتفع توتّر الدم في الشرايين واضطرّ القلب الى مضاعفة عمله للقيام بارسال الدم في شرايين صلبة لا تساعده بمرونة جدرانها على عمله فيضخم ويتسع ويرتفع التوتّر الشرياني وبعد ان يكون في الشاب المرنة شرايينه ١٣ يبلغ ٢٠ سنتمتراً ويتجاوز هذه الدرجة احياناً وهذا الامر لا مناص منهُ لأن العمر اشبه شيء حسب تشبيه بعضهم بالصدإ الذي يعلق بتلك العروق الدموية ، فاذا ما طعم الشيخ المتصلب وبعث ذلك الطعم بمفرزه المحيي في الدم ونبه الخلايا الشريفة دبت فيها روح الحياة والتجدد فلانت العروق وانخفض توتّر الدم وهذه الحادثة التي لا يدركها غير الطبيب ولا يعبأ بها المرضى لأنهم لا يفقهون مالها من الشأن اكبر دليل على ما للطعم الخصوي من التأثير في اعادة قوة الشباب لأن الانسان بشرايينه فاذا ما صلبت شاخ ولو لم يتجاوز الاربعين واذا ما كانت لينة بقي فتيًّا ولو تجاوز السبعين فاذا لم يكن للطعم من تأثير سوى هذا لَحقّ لنا ان ندعوه المنقذ الأكبر للشيوخ

﴿ قوة العضلات ﴾ الطعم يجري في العضلات روح الحياة فينشط الجسد ويقوى ويعود الشخص الى حياة الكهولة

﴿ تحسن حالة المصابين بضخامة الموثة (البروستاة) والتهابها ﴾ — متى شاخ الانسان تضخم موثته وتعتريه اختلالات بولية قد تفضي الى السمامة فوته أو تضطره الى اجراء عملية جراحية تستأصل بها هذه الغدة ولا يخلو هذا العمل الجراحي من خطر

والتطعيم الخصوي يحسن حالة الموثيين تحسيناً شديداً ويزيل الاختلالات البولية التي تعتريهم ويخفف عنهم وطأة هذه الحالة المزعجة التي قد تتغلب في بعض الشيوخ على جميع الاضطرابات التي تصيبهم

أما تأثير الطعم في العقل فلا يقل عن تأثيره في الجسد لا بل يفوقه لأن خلية الانسان عقله فاذا كان مقعداً وبقيت له قواه العاقلة وظلَّ نور دماغه مضيئاً يبعث بأفكاره الوضاءة التي اكسبها الاختبار الطويل سداداً فانهُ يظل سعيداً ولو حرم حياة المشاركة لأنه اذا تعذر عليه ان يشارك بني جنسه بجسدهِ الضعيف تمكن من مشاركتهم بعقله النير وكتاباته وافكاره والسواد الاعظم من الذين يطلبون الطعم على رأي فورونوف يطلبونه لهذه الغاية فاما أن يكونوا قد فقدوا الذاكرة فيأملوا أن يعاد اليهم ما فقدوه وأما ان يكونوا قد خسروا توليد الافكار وإحكامها وترتيبها فيرجوا ان يستعيدوا ما خسروه واما ان يكونوا قد عجزوا عن الاتيان بأخف الاعمال العقلية لأن خلايا دماغهم تكون قد عجزت عن الإنتاج فيهرعوا الى الطعم ليستعيدوا مقدرتهم على الاعمال العقلية . وفعل الطعم في هذه الحالة عجيب غريب فكم من المحامين عادوا الى كراسي المحاماة بعد ان كانوا قد اعتزلوا مهنتهم الحرة لتبدد افكارهم ولعجزهم عن المرافعة ولضياع ذاكرتهم . وكم من الاطباء الذين هالهم ما هم فيهِ من وهن القوى العاقلة وعجزهم عن استجماع افكارهم لتشخيص امراض مرضاهم وتوجيه المعالجة الفعالة اليهم فقبعوا في بيوتهم واعتزلوا مهنتهم واذا بهم بعد التطعيم يعودون الى مسرح الطبابة كأن حياتهم قد تجددت وكأن الشباب قد عاد اليهم . وكم وكم من الشعراء الذين نضبت قريحتهم وخشنت عواطفهم بعد ان كانت اشعارهم ترنح سامعيها وتسكر منشديها فاذا بهم يستمدون وحياً جديداً وينظمون شعراً طريفاً لم ينظموا اجمل منهُ وهم في زهرة حياتهم . وكم من المؤلفين والعلماء الذين اوقفهم وهن قواهم العقلية عن متابعة عملهم فكسروا القلم وقطعوا كل صلة بالكتابة والتنقيب فاذا بهم يعودون الى تدبيج المقالات الشائقة ووضع المؤلفات النادرة وكشف الكشوفات العجيبة . ولا عجب فاننا اذا القينا نظرة على حياة كل فرد من المتفردين النابغين رأينا ان اعظم الاعمال التي قام بها قد تمت في الزمن الذي كانت بهِ غدتاه التناسليتان نشيطتين ويقول متشنيكوف ان النابغة يفقد كثيراً من نبوغه متى خسر وظيفته التناسلية

فاذا ما اعيد الى الشيخ الحكيم الذي خبر الدهر وحنَّكته السنون نشاطه المفقود الذي فقده كانت له قوة الشباب وحكمة الشيوخ وصفوة القول ان قوى العقل والجسم جميعها تتبدل تبدلاً غريباً بفعل الطعم

هل تطيل الحياة

لم يبق سوى الامر الاخير من هذا البحث وهو اطالة الحياة . اذا كان المفرز الخصوي الداخلي يؤثر هذا التأثير الحسن واذا كان المخصيون يشيخون قبل الاشخاص الاصحاء فانهم ولاشك يموتون قبلهم ايضاً واثبات الاول مستصعب على الانسان لانهُ يستدعي وقتاً طويلاً لم تجتزه بعد طريقة التطعيم الحديثة غير انهُ سهل على الحيوانات لأن حياتها اقصر من حياة الانسان

اما في الحيوانات فقد دلت الاحصاءات البيطرية على ان حياة الحيوانات المطعمة تطول . فقد طعم فورونوف كبشاً في سنته الثانية عشرة فعاش وهو ممتلىء نشاطاً حتى العشرين والسنة العشرون من حياة الكبش تعادل في الانسان المائة والستين لان شيخوخة هذا الحيوان تبتدىء في السنة التاسعة واقصى حياة يصل اليها لا تتجاوز الرابعة عشر فيكون الطعم قد اقصى الشيخوخة عن الكبش لانهُ بقي الى آخر ايام حياتهِ نشيطاً يقوم بوظيفتهِ التناسلية حتى الموت واطال حياته في الوقت نفسه زهاء خمس سنوات . والاختبارات من هذا النوع عديدة نضرب صفحاً عنها غير انها تبين بجلاء ان الطعم يطيل الحياة ايضاً

ذلك ما يقوله فورونوف عن طريقته غير ان المنقبين ابانوا ان النتائج ليست واحدة في جميع المبضوعين وانها تختلف من شخص لآخر

وقد ذكرت حديثاً الصحف الطبية والجرائد اليومية ما شوهد في شيخ طعم على طريقة فورونوف نثبته هنا للتفكهة ليكون بحثاً كاملاً . على اننا لا نعتقد بأن تطعيم خصية القرد الفتية تكسبه صفات هذا الحيوان كما اشاع اخصام فورونوف . ذكرت جريدة كورييري ديللا سيرا التي تصدر في ميلانو تفاصيل حادث عجيب وقع للاستاذ المتقاعد جان ساندور وكان له ٧٦ سنة من العمر . وجد الاستاذ المذكور ان بلوغ هذه السن يجب الاَّ يكون حائلاً بينه وبين الاستمتاع بما يتمتع بهِ الشباب وخطر له ان يُطعَّم بخصية القرود بحسب طريقة فورونوف في الاشباب وقد اجرى له هذه العملية الدكتور رينمس . وخيل باديء ذي بدء انها نجحت الى ابعد حدود النجاح . الاَّ انهُ اتفق ذات يوم ان زار الاستاذ ساندور حديقة الحيوانات في بودابست ورأى القردة فيها فاصفرَّ لونه فجأة وأغمي عليهِ وخف الناس لاسعافه فلما افاق اخذ يصرخ ويصيح قائلاً ان حياته ستصبح كحياة هذه القرود وكانت دهشة القوم عظيمة حين شرع يقلد اصوات القرود وحركاتها . وعاش منذ ذلك اليوم ساندور عيشة القرود فلم يكن ينام في فراش بل يقضي الليل جالساً القرفصاء في احد اركان غرفته ولم يكن يأكل غير الخضر وتجلى ميله الى جوز الهند بنوع خاص . واقبل بعض العلماء يفحصونهُ وخيل الى بعضهم ان ما طرأ على الرجل ليس سببه الجنون وانما سببه الغدة التي ادخلت على جسده بالتطعيم

***

﴿ طريقة دوبلر Doppler ﴾ — بُحث عن هذه الطريقة في مؤتمر الاطباء الالمانيين الذي عقد سنة ١٩٢٨ في براغ والغاية منها استئصال الودي (السمباتي) بالطرائق الكيماوية بدلاً من الطرائق الجراحية التي لجأ اليها لوريش (Leriche) وتقوم هذه الطريقة بتخريب الالياف الودية حول الشرايين بمادة كيماوية كالكحول والنشادر . غير ان هاتين المادتين مؤذيتان ولذلك استعاض عنهما دوبلر بمادة الايزوفنول (Isophénol) . ينتج من ملامسة هذا السائل لنسيج من النسج الحية

تقبُّض موقت في العروق يتبعه اتساعها اتساعاً شديداً في البيئة المجاورة . يبقى هـذا التمدد ثلاثة اسابيع تقريباً فيطلي دوبلر عروق الحبـل المنوي والغدد التناسلية بهذه المادة فتتوسع عروقها ويفضي ذلك الى نشاط الغدة ويؤول هذا الامر الى الإشباب. وطريقة العمل سهلة للغاية فيجرى شق مائل حذاء ثقب القناة المغبنية الظاهر ويجرد الحبل المنوي ثم يضرج بقطن أو شاش مبلل بمحلول الايزوفنول . ثم يفتح قميص الصفن المصلي وتجذب الخصية الى الخارج وتبزغ بزغاً دقيقاً ثم تطلى بالمحلول المذكور . ويطلى في المرأة الرباطان العريضان . وقد لوحظ أن النتائج في طريقتي فورونوف ودوبلر تكاد تكون واحدة وتفضل الثانية الاولى بكثير لانها أيسر عملاً وأقل مصرفاً. وقد جرّب الأستاذ سيمون من بطرسبرج (لننغراد) هذه الطريقة فاتضح له حسن تأثيرها . واليك ما شاهد في مبضوعيه: تحسنت الرؤية وزالت الكدورة الناتجة من الساد (الماء الأزرق في العينين) ، ونقص من البصر الشيخي ونشطت الحالة العامة بعد اسبوعين من يوم البضع واستمر هـذا النشاط شهوراً عديدة استعاد فيها الجسم صحته وعافيته وعادت الغريزة الجنسية الى الظهور بعد طول الغياب وقد استمرت هـذه التفتية ثلاث سنوات

***

﴿ طريقة كاوازي Cawazz ﴾ تقوم هذه الطريقة بحقن باطن جلد الشيوخ بـ ٢—٣ سنتمترات مكعبة من مصل الدم الصادر من خصي حيوانات فتية وسليمة وتستند الى كثرة المرسل في الدم النازح عن الخصية ويمكن في هـذه الحالة ان يؤخذ مصل دم أي حيوان كان على شرط أن يكون فتيًّا في أول البلوغ وسليما . وهذه الطريقة حديثة قال بها كاوازي من بولونيا سنة ١٩٣١ واجراها في باريس تحت اشراف ابن شارل ريشه وغوتيه وغي لاروش وغلاي لخمسة شيوخ من مأوى العجزة في ايفرى فاتضح للمراقبين أن مصل دم الخصية الراجع يعيد القوى والشبق ويحسن الوظائف العضوية ويزيد وزن الهزالى وغير ذلك من مظاهر الشباب . لم تدرس بعد هذه الطريقة درساً كافياً غير أن سهولتها وسرعة ظهور النتائج المستحصلة منها واستمرار النشاط اثرها قد يجعل لها مقاماً سامياً بين الطرائق المتبعة في الإشباب

ومن الوسـائل المستعملة في تجديد الشبـاب والمستندة الى رسـل الخصية وحفزها على النشاط تسليط الاشعة المجهولة على الخصيين لتنبيه خلاياها على الانقسام أو معالجتهما بالاستحرار (diathermie)

تلك هي الطرائق المستندة الى عمل الخصية وأثره في الوجود أثبتناها في هذا المقال الاَّ أن ايسكاوندسكي ينتقدها انتقاداً مرًّا ويقول ان تأثيرها لا أثر لهُ الاَّ في مخيلة موجديها وان لا صلة لدعواهم بالحقيقة . وسوف نذكر في المقال أو المقالات القادمة طريقة ايسكاوندسكي والوسائل الاخرى المشهورة اليوم

أينشتين

ALBERT EINSTEIN

أجمع اهل الرأي على ان اينشتين عبقريٌّ من الطبقة الاولى . وقد سلكهُ برنارد شو في نفر قليل من عظماءِ التاريخ وصفهم بقوله « بُناةُ الاكوان » . ويرى الكاتب العلميّ الانكليزي صليفن انهُ احد ثلاثة او اربعة فقط في تاريخ العلم ، يجلسون على القمّة مع الارباب

ان اينشتين عالِم طبيعيّ والركنان اللذان تقوم عليهما البحوث الطبيعية ، هم ركنا الرياضة والتجربة . والبحث في تاريخ العلم يسفر عن رياضيين ابرع من اينشتين ، ومجربين اكثر لباقةً وإبداعاً . ولكن الصفة التي رفعتهُ الى القمّة ، هي هذا الخيال الوثّاب الذي قلب بهِ نظرتنا الكونية رأساً على عقب . ان نظرية النسبية ، وهي اعظم آثارهِ ، هي كذلك اعظم المبتدَعات في تاريخ العلم

ومما يدلك على صفة الابتداع او الابتكار فيها originality تهجّم طوائف من العلماءِ عليها ، في مراحل مختلفة عن تاريخها ، على حدّ قول الشاعر العربي « كفى المرء نبلاً ان تعدَّ معايبهُ » . فبعضهم عارضها لانهُ لم يدرك مقتضياتها كلّ الادراك . وبعضهم نقم على رجل رأوا فيهِ عقلاً لا يتّسق وعقولهم . فنظرة اينشتين المبتكرة الى الكون لم تحيرهم فقط ، بل اغضبتهم ايضاً . خذ مثلاً على ذلك اعتراضاً نشرتهُ جماعة من علماءِ الالمان وفلاسفتهم قالوا فيهِ :— « ان موقعي هذه الرسالة يعتبرون ان اذاعة نظرية معرَّضة اشدَّ الاعتراض للنقد ، امر لا يتفق وكرامة العلم الالماني ، وانهُ لمن الهون أن تستخدَم جمعية العلماءِ والأطباءِ الألمان لتعزيز هذه المحاولة » . وفي هذا ما يدلّنا على ان وجوه الاختلاف التي تمسُّ شعور الانسان ، لا تقتصر على الآراءِ المتعارضة في الدين وادب النفس

ولكن الاعتراض الذي من هذا القبيل قد سكنت عاصفتهُ الآن . واصبحت نظرة اينشتين المجرَّدة الى الكون كلون الزجاج في المناظر يلوّن جميع المرئيّات ، وغدا علماء الطبيعية الرياضية ينظرون الى الكون نظرة اينشتين اليهِ . ولسنا نغالي اذا قلنا ان اينشتين بتغييره النظرة الكونية ، قد ادخل تعديلاً كذلك على طبيعة التفكير العلمي . وهذا أثر لا يستطيع ان يحدثهُ الاَّ عبقريٌّ من الطبقة الاولى

ما اشد الوحدة التي يشعر بها عبقريٌّ من طبقة اينشتين ! انهُ لا يكره الناس ولكن المجتمع الذي يتجنبهُ ، هو المجتمع ، الذي يودُّ كل عاقل ان يتجنبهُ ، لو كان ذلك في وسعهِ . على ان الذين كانوا على صلة باينشتين في حداثته ، رأوا فيهِ هذا الميل الظاهر الى العزلة والعكوف على نفسه . نراهُ الآن يقف لمصوّري الصحف في رحلاتهِ العديدة ولا يبخل عليهم احياناً بالردّ على اسئلتهم ومما زحتهم ،

ولكنَّ هذه الملاءمة بينهُ وبين البيئة الاجتماعية ، في اوربا واميركا ، اقتضت منهُ جهداً عظيماً
كان في طفولتهِ بطيء النمو ، فتأخر نطقهُ ، عن العمر المعتاد بين الاطفال . فظنَّ والداهُ ان في عقله ضعفاً . يقابل ذلك ، انهُ — على ما يقال — لما رأى بوصلة وهو في الرابعة من عمرهِ ، ارتجف واصيب بقشعريرة . فلما كان في السادسة من العمر انتظم في مدرسة اولية في مونيخ ، حيث كان النظام صارماً بل وحشياً في صرامته . هنا احسَّ المرة الاولى في حياتهِ بالفروق بين الفقراء والاغنياء ، ولمسَ ما اوغرت بهِ بعض الصدور على الساميين — اي اليهود — فتضافر كل هذا مع بطئهِ في النمو العقلي وحيائهِ الطبيعي على توسيع الهوَّة بينهُ وبين الناس . فظلَّ طول حداثتهِ ، بعيداً عن ابناء جيله ، غير مختلط بغيرهم ممن يتقدمونه سنًّا ، فكأنهُ احسَّ من صغرهِ ، ان العالم دار لا تؤاتيه سكناها

***

تنبَّهت فيهِ حاسة الشعور بعظمة الطبيعة وجمالها ، على اثر زيارة جماعة من ابناء عمومتهِ الى جنوى . وصفوا لهُ عند أوبتهم شمسها المشرقة ، ومشاهدها الطبيعية الفخمة ، ومرفأها والسفن فيهِ ، فاصغى الى وصفهم وكأن كلماتهم تحتوي على رؤيا رائعة لعظمة الله . فمال الى التعليم الديني ، وتاق الى ان يعيش معيشة الرهبان والنسّاك . فازداد شعورهُ بالوحدة ، لانهُ لم يجد في بيتهِ من يفهمهُ ويعطف عليهِ

وكان والدهُ على جانبٍ من الثروة ، يفاخر بانطلاقه من قيود العقيدة اليهودية وشعائرها ، مجارياً عصرهُ في قبول الفلسفة المادية السائدة في اواخر القرن التاسع عشر . فحمل كلُّ هذا ابنهُ اينشتين على نظم اناشيد في مدح العزة الالهية . ثم وقَّع هذه الاناشيد ، وجعل ينشدها في بيته او في الشارع . وكذلك جعلت الموسيقى ، تحتلُّ رويداً رويداً ، مقاماً سامياً في نفسه . ولكن شوقهُ للتوقيع على الكمان لم يحفز الاَّ وهو في الثانية عشرة من العمر ، مع انهُ بدأ يتعلم التوقيع عليهِ قبل ذلك بست سنوات

الاَّ ان عبقرية أينشتين لم تتجلَّ في الموسيقى ولا في الادب ، بل في العلوم الرياضية ، حيث ابدع الابداع كله . كان في صغره قد حل القضية الفيثاغورية وحده ، وقبل ان يبلغ في دراسته النظامية علم الهندسة المسطحة ، وقع كتاب فيها في يديهِ ، فأكب عليه . فقال في نفسه ، هنا مفتاح الحقيقة ، متمثلاً في اشكال كلها اتقان وجمال . ومن الهندسة انتقل الى فروع اخرى في العلوم الرياضية . وقد وصف هذه الفترة من حياته ، بأنها الفترة التي اصاب فيها اكبر قسط من النعيم . فلما كان في الرابعة عشرة من عمره ، ثبت لمعلميهِ ورفاقهِ في الدراسة ، ان هذا الفتى الحالم عبقريٌّ رياضيٌّ . هنا اخذ الوهن يتطرق الى عقيدتهِ الدينية ، وبدأ احساسهُ بالرياء الذي يقوم عليهِ المجتمع يزداد دقة وإرهافاً

واذ كان في هذه السن ، انتقلت اسرتهُ الى سكنى ميلان ، فظل بضعة اشهر مطلقاً من قيود

الدرس . فوجد في ايطاليا فردوسهُ المنشود . كان يطالع ما طابت لهُ المطالعة ، ويختلف الى متاحف الفنون ، ويتنزه في الحقول وأرباض الجبال يكرع من خمرة الجمال الطبيعي ، فازداد فيهِ شروده الذهني ، وتعززت نزعتهُ الى الابتعاد عن ميدان الحياة العملي . هنا تخلى عن رعويتهِ الالمانية ، ورفض ان يتقيد بمذهبهِ الاسرائيلي .كان لا يطمع في المجد والشهرة ولا يبغي «النجاح» الدنيويّ . كان مثالهُ الحرية المطلقة من جميع القيود ، والابتعاد كل الابتعاد عن العمل، والانصراف عن حمل أي تبعة الاَّ تبعتهُ نحو نفسهِ

ولكن ثروة الاسرة كانت آخذة في النقصان فاقتضى الدهر من اينشتين ان يتمّ دروسهُ النظامية لكي يعمل عملاً ما يرتزق منهُ . وكذلك بعث بهِ الى سويسرا ليحاول الانتظام في اكادمية زوريخ. فأخفق في الامتحان واضطر ان يبقى سنة في مدرسة تجهيزية يستعدُّ فيهِ لدخول الاكادمية ، وبعد سنة فاز بأمنيته

***

هنا اتى على اينشتين تحول ذهني غريب . فالبطء في نمو ملكاتهِ الذهنية ، تحوّل اقبالاً شديداً على المطالعة في مختلف العلوم ، فالتهمَ حقائق الطبيعة والبيولوجيا والجولوجيا التهاماً ، واقتنع ان المشاهدة والتجربة هما مفتاحا الحقيقة . ولكن موجة من الريب في العلوم الرياضية طغت عليهِ . فعجز كل احدٍ عن اقناعهِ بحضور الدروس الرياضية . فلما انقضت عليهِ ثلاث سنوات او اربع ، ادرك ان حشد الحقائق لا يفضي بهِ الى الحقيقة التي ينشدها ، وان ما يحتاج اليهِ ، انما هو البصيرة النفَّاذة . فوقف عند ذلك ، من المحاولات العلمية المختلفة موقف المشكك المرتاب . وظلَّ على ذلك بضع سنوات ، أقبل في خلالها على درس الفلسفة مفضلاً المرتابين منهم ، وفي مقدمتهم الفيلسوف الانكليزي هيوم Hume

في هذه الفترة من حياتهِ ، عاش عيشة انفرادٍ وعزلة ، مقتنعاً بالكفاف من الرزق ، وعمد الى نقص غذائهِ حتى يكفيهُ دخل يسير ، فأدَّى هذا الى اضطراب معدتهِ في ما تلا من حياتهِ . ولم يكن يجد سلوى لهُ الاَّ في الموسيقى

كانت نية والدهِ ، أن ينتظم ابنه في مكتب هندسي ، ولكن تحقيق هذا الاقتراح ، كان يقتضي أن يتصل اينشتين بالناس في ميادين العمل والمال ، فانصرف عنهُ . لذلك لما تخرج من اكادمية زوريخ جعل يردُّ على الاعلانات التي يطلب اصحابها معلمين للتدريس في معاهد مختلفة . وعين فعلاً في غير منصب واحد ، ولكنهُ عجز عن القيام بما طلب منهُ ، لهذا النفور الأصلي في طبعهِ ، من الناس . فلما كانت سنة ١٩٠٤ عين في خريفها ، وهو في الثالثة والعشرين من العمر ، في منصب صغير ، بمكتب «الپاتنتة» في برن عاصمة جمهورية سويسرا

كان اينشتين ولا يزال، يرى رأي الفيلسوف سپينوزا ، ان العبقرية يجب أن تصان ، من

عواصف الحياة المالية . ولكنهُ يرى كذلك ان العلماء الشبان يجب أن يتقلدوا عملاً لاصلة له بعلمهم يرتزقون منهُ . لان شغل المناصب في معاهد التدريس مرهقٌ وقلما يفسح للعالم الوقت والمجال للتأمل والابتكار. والظاهر أن عمله في مكتب الباتنتة، كان من نوع العمل الذي يطلبهُ . بل أنهُ في خلال عمله هناك أخرج للعالم سنة ١٩٠٥ نظريته في النسبية الخاصة . كانت المسألة التي ابتدع هذه النظرية لحلّها ، قد خطرت لهُ وهو في السنة الثانية في اكادمية زوريخ ، ولكن الحلّ ظل متعذراً عليهِ بضع سنوات. وليس هذا بالأمر العجيب ، متى عرفنا أن الحلّ الذي اقترحهُ ، كان عملاً قليل النظير في تاريخ الخيال العلمي وتطورهِ ، لا يقابله في العصر الحديث ، الاّ ابتداع الهندسة غير الاقليدسية قبل مائة سنةٍ تقريباً

أما المسألة التي خطرت فكانت كما يلي : — ان المباحث التجريبية تثبت ان سرعة النور لا تتغير ، سواءٌ اكان المشاهد ساكناً أم متحركاً . فكيف ذلك ؟

وقد وصل الى الحلّ الذي اقترحهُ عن طريق تحليل فكرة « التواقت » . فأدرك أن «التواقت» ليس مطلقاً . أي أن حادثتين تحدثان في وقت واحد ، في نظر مشاهد ما ، قد تسبق احداهما الأخرى في نظر مشاهد آخرٍ ، متحرك والاول ساكن ، او متحرك حركة تختلف عن حركة الآخر . وهذه الحقيقة ، تفضي حتماً ، الى تنقيح نظرنا في الزمان والمكان . فاذا افرغ هذا التنقيح في القالب الرياضي الملائم ، ظهر أن سرعة الضوء ثابتة لا تتغير

هذا هو المبدأ . ولكن مقتضيات المبدأ ، تفضي الى نتائج خطيرة جدًّا ، منها ان كتلة الجسم تزداد بازدياد سرعتهِ ، وان الكتلة تتحول الى طاقة ، والطاقة تتحوَّل الى كتلة

نشرت هذه النظرية سنة ١٩٠٥ فثبت لطائفة من اكبر العلماءِ المعاصرين ، أمثال لورنتز وبوانكاره وبلانك ، ان نجماً من القدر الاول قد لمع في القبة العلمية . الاَّ أن هذه الرسالة لم تستنفد قوة الابتكار في صاحبها . فما لبثت حتى تلتها رسائل اخرى في « الحركة البرونية » و« نظرية المقدار (الكونتم) » . فكأن تلك السنوات التي قضاها اينشتين ، متأملاً متحيراً ، مرتاباً ، آناً يؤمن وآناً لا يؤمن ، قد اعدّته حتى يطلّ على العالم العلمي ، عبقريًّا كامل العبقرية . وقد وصف اينشتين تلك الفترة من حياته بقوله :— « كأن عاصفة قد انطلقت في رأسي »

قبل ذلك بسنتين كان اينشتين قد تزوج فتاة سربية الاصل تدعى ميليڤا ماريك كانت زميلة له في الدرس وفي سنة ١٩٠٤ رزق منها بابنٍ . فاضطرهُ ذلك ان يرضخ لحكم الواجب عليهِ والرضا بعمله في مكتب الباتنته بدلاً من ان يطلق لنفسه العنان يطالع متى شاء ويفكر فيما يشاء. وفي سنة ١٩٠٩ قبيل ان يشغل منصب استاذٍ من الطبقة الثانية في زوريخ . ولكن مهامّ هذا المنصب اقلقت باله لكثرتها وقد وصف محاضراته في تلك السنوات بانها « اعمال بهلوانية على المائدة » وانها ليست بصلةٍ ذهنية حقيقية بينهُ وبين تلاميذه كما يجب ان تكون . فندم ندامة شديدة على تركهِ مدينة برن ومكتب الباتنتة فيها

سارت حياتهُ في هذه الفترة سيرَها المألوف بين رجال العلم . لقد اصبح معروفاً في الدوائر العلمية وها هي الدعوات تترى عليهِ لالقاء المحاضرات في معاهد مختلفة في اوربا ، بل لقد عرض عليهِ غير منصب واحدٍ يفوق منصبهُ في زوريخ ، فقبل منصب استاذ في براغ ولكنهُ بعد سنة ونصف سنة عاد استاذاً من الطبقة الاولى الى اكادمية زوريخ ، فاذا شهرتهُ قد اجتذبت الى زوريخ طوائف كبيرة من الطلاّب لتلقي العلم عليهِ ، فكانت مهام منصبهِ مرهقة كلّ الارهاق ، وبوجهٍ خاص لانهُ كان ينفق ساعات الفراغ متأملاً في تعميم نظريتهِ النسبية الخاصة

بيد ان جامعة برلين كانت ترقب هذا النجم اللامع في سماء العلم ، يزداد سنىً وتألقاً ، فدعتهُ الى ان يتقلّد فيها منصب استاذ من دون ان يعمل فيها عمل استاذ . اي انها عرضت عليهِ ان تقلّدهُ منصباً وتمنحهُ مرتباً وافياً للمضي في بحوثهِ . فقبل اينشتين ما عرض عليهِ وانتقل الى برلين في ربيع سنة ١٩١٤ ، فلم تنقض عليهِ سنة واحدة حتى اخرج نظريتهُ الثانية وهي المعروفة بنظرية النسبية العامة

***

قضى عشر سنوات يعدُّ المعدَّات لاتخاذ هذه الخطوة الجديدة الجريئة . كان قد احسّ بانها خطوة محتومة لامندحة عنها بعيد اصدار رسالتهِ في النسبية الخاصة سنة ١٩٠٥ . ففي تلك الرسالة بين اينشتين ان نواميس الطبيعة مستقلة تمام الاستقلال عن حركة المشاهد القياسية . فاذا تراءى للمشاهد تغيُّرٌ في ظاهرات الطبيعة شاذ عن نواميسها فليس ذلك لان تغيُّراً طرأ على الناموس بل لان التغيُّر طارىء على حركة المشاهد . ولذلك فالظاهرات البصرية (النور) والظاهرات الكهرطيسية تتغير بتغير مكان المشاهد المتحرك وبتغير اتجاه حركته ولا سيما بتسارع حركته . وقد كان قولهُ هذا غير مألوفٍ فاقتضى تنقيح نظرنا الى الزمان والمكان

ثم خطر على باله ان هذا القول لا يكفي . اي انهُ لا يشمل كلّ ما يجب ان يكون مشمولاً بهِ . فلماذا لا يطلق مثلاً على جميع انواع الحركة . وقد لا يدرك القارىء مقام هذا السؤال في تاريخ العلم الحديث . ونحن لا نعلم هل خطر على بال احدٍ من معاصري اينشتين . وانما نعلم انهُ اذا كان قد خطر فعلاً على بال أحدٍ ، فانهُ ولا ريب قد أهمل كلَّ الاهمال ، اذ لا نجد أثراً لهُ في بحث أحدهم . لان الردّ عليهِ كان يقتضي نظرة جديدة الى الكون ، والجاذبية ، تختلف عن النظرة المألوفة السائدة . ولم يكن عند اينشتين أركان يبنى عليها الاّ الحقائق المعروفة . فانه لم يجرّب تجارب في الخفاء . بل لعلهُ لم يجرب تجارب على الاطلاق . ثم ان الاساليب الرياضية التي احتاج اليها في بحوثهِ لم يبتدعها كما فعل نيوتن بحساب التمام والتفاضل . بل تعلمها شأنهُ في ذلك شأن سائر الطلاّب . ورسالتهُ التي نشرها سنة ١٩٠٥ فهمها سائر العلماء كما فهمها هو

ولكنهُ كان يختلف عن سائر معاصريهِ في خيالهِ الألمعيّ الوثّاب

في هذه الرسالة الثانية ، التي قرّر اينشتين فيها فيما قرّره ، أن الجاذبية ليست الاّ صفة هندسية

من الكون الزماني المكاني space-time continuum قفز اينشتين الى المكان الاول بين علماء عصره ، حتى أصبحت الصحف ، التي لا تعنى بعويص المسائل العلمية ، تذيع كلَّ ما يتصل بهِ في صفحاتها الاولى . فانهُ ما لبثت ان وضعت الحرب أوزارها ، حتى أعلن ان جماعة من علماء الانكليز قد أعدَّت المعدَّات لامتحان أقوال اينشتين في أثناء كسوف الشمس في ٢٩ مايو سنة ١٩١٩ فذهب وفد منها الى شمال البرازيل وآخر الى غرب افريقية . فأيَّد الرصد ما قالهُ اينشتين. وأصبح من يومئذٍ على المسرح العلمي العالمي في ملتقى الانوار . ومع هذه الشهرة الواسعة لا يستطيع الكاتب ان يقول ان نظريتهُ قد فهمت فهماً واسع النطاق لان صعوبتين تحولان دون ذلك . أولاها فنية وهي وجوب الالمام بالرياضة العالية لفهم رموزها . وثانيا أن الصورة الكونية التي ترسمها غير مألوفة

لقد تغيرت نظرة اينشتين العلمية . فهو في سنة ١٩٢٠ غيره في سنة ١٩٠٠ لما كان في زوريخ لا يعتمد في العلم الاَّ على التجربة . بل أنهُ صرَّح في محاضرة القاها سنة ١٩١٨ ان الشأن الاول في الاكتشاف العلمي للبداهة . فعندهُ ان بداهة العالِم ، في اكتشاف نواميس الطبيعة هي من قبيل بداهة الفنان . ثم تقابَل الحقائق التي تستنتج من هذه النواميس بالحقائق المشاهدة ، وبذلك تمتحن بداهة العالم . فأما ان تؤيد وأما أن تنهار . والأصل الذي تنبع منهُ عملية الابداع والخلق في العالم والفنان هو الشعور الديني

انهالت على اينشتين بعد ان وضعت الحرب اوزارها الدعوات لحضور المآدب والحفلات والقاء المحاضرات ومقابلة الصحافيين والمصورين ، واتسع نطاق بريده اتساعاً عظيماً . ومع ان هذا لم يتفق ونزعته الخاصة التي ظهرت في حداثته في مظهر ميله الى العزلة ، الاَّ انه لم يتجنبه كل التجنب لسببين: فهو يعتقد ان رجالاً مثله ، لا تعرف بحوثهم الحدود القومية ، لا بد ان يكون لهم شأن عظيم في التقريب بين الامم المتعادية ، فهم سفراء السلام والصداقة بين الشعوب . كانت « دولية العلم » في نظره غاية ، يقضي عليه الواجب نحو الانسانية ، ان يبرزها للناس . وقد كان اول العلماء الالمان الذين زاروا عواصم الدول التي كانت معادية للالمان في الحرب . وقد لقي في لندن عند ما زارها سنة ١٩٢١ ترحيباً عظيماً على لسان السر ارنست باركر في حفلة الترحيب بهِ في جامعة لندن

وعلى ذلك سلم اينشتين بنصيبه من الارهاق والسآمة في هذه الحفلات والدعوات خدمةً لهذا الغرض النبيل . أما السبب الآخر فهو اقتناعه بوجوب خدمة القضية اليهودية . ففي سنة ١٩١٩ اجتمعت طائفة من مفكري اليهود في مطعم ببرلين للبحث في عقد مؤتمر يهودي ، فحضر اينشتين الاجتماع ، وجلس مصغياً كل الاصغاء لما قيل فيه . فاقتنع بما قيل . وزال ما كان معروفاً عنهُ من التعالي ، عن الخوض في سبيل جنسه . وأصبحت النزعة اليهودية ، في نظرهِ حقيقة حية ولكنهُ رأى ببصيرتهِ النفاذة ، المخاطر التي تنشأ عن تشجيع النزعة اليهودية ، كنزعة قومية . فكان جلُّ عنايته موجهاً الى الناحية الثقافية

وعناية اينشتين بهذه المسائل العامة تعلل لنا حبه للسفر . فقد زار حتى الآن معظم بلدان اوربا وأميركا الشمالية وأميركا الجنوبية والشرق الادنى . وهو يعلق شأناً خطيراً ، بفهم الفروق بين حضارات الشعوب المختلفة وثقافاتها . وله يومية دوَّن فيها في خلال اسفاره ، ما استرعى نظره من المشاهد الطبيعية والاجتماعية وأثرها في نفسه

وهو بعد كلّ هذا الثائر الحقيقي . نعم هذا الرجل المسالم ، المحبّ السلام ، الداعي اليهِ ، ثائر كبير . ثائر في ميدان العلم . بل هو يعيش في ثورة دائمة على الصور الكونية القديمة ، على الحقائق المعروفة ، بل على نظرياتهِ هو ، وهو ادعى ما يكون للعجب . اخرج نظريتهُ في النسبية الخاصة هادماً بها بعض الآراء والاوليات القديمة الراسخة ، ولكنهُ لم يقنع بهذه الثورة الصغيرة ، فاخرج نظريتهُ في النسبية العامة التي تناولت في نتائجها الفلك والطبيعة ، وبنى بها كوناً يختلف عن الكون النيوتوني وهدم بها في نظر بعضهم ، بعض ما اثبتهُ في نظريتهِ الاولى . كان الكون في نظريتهِ الاولى كوناً ساكناً ينتهي ولكن لا حدود لهُ . فما كاد الاب لميتر يخرج نظريتهُ في «الكون الآخذ في الاتساع» حتى تخلّى عن فكرة السكون والاستقرار في الكون مسلّماً بفكرة الحركة والاتساع . ولكنهُ لم يقف عند هذا الحد . فنسبيتهُ العامة فسّرت تفسيراً معقولاً الجاذبية . ولكنها لم تفسر « المجال الكهرطيسي » فابتدع اينشتين نظرية جديدة لتوحيد الظاهرتين . ولتحقيق هذا نقّح المعادلات التي انطوت عليها نظريتهُ الاولى من الثورات ثورة تفيد وثورة تضر . ولكن طالع اينشتين كان مرتبطاً بكوكب السعد . ففي التاريخ علماء كبار لم يفوزوا بشهرتهم الاّ بعد جهاد عظيم ودهر طويل . ومنهم من لم يعرف قدره الاّ بعد مماته . على حدّ قول الشاعر العربي « لا يعرف القوم الفتى الاّ متى مات فيعطى حقهُ تحت الثرى » . ما اكثر العلماء الذين ماتوا مجهولين ! ولكن اينشتين فاز هو ونظرياته بالشهرة ، وهو لا يزال في مستهلّ كهولتهِ . ففي خلال عشرة أعوام ، رفع هذا العالم الشاب الى مستوى الاعاظم — الى مستوى كوبرنيكوس وغاليليو ونيوتن . بل هو في نظر بعضهم نصف آلهِ . فكيف نعلل كلّ هذا !

لا تعليل وافي لهُ الاّ بطبيعة عبقريتهِ . عبقرية اينشتين المؤلفة من عناصر مختلفة ومتناقضة :— ثورة على التقاليد وعدم التقيُّد بها — ملكةٌ للنقد الصائب وبوجه خاص ، لنقد نفسهِ ونظرياته — عدم اكتفاء دائم — حبُّ الهدم والعناية بالبناء — نظرة شاملة تتناول جميع نواحي الموضوع وترمي الى تفسير عام شامل بتصريح علمي واحد ، تخدمها مقدرة عجيبة في الرياضة العالية . انهُ لا يسمح لحائل ما أن يحول دون استرسالهِ في تفكيره الرياضي الطبيعي مع انه يعترف انه في مباحثه الاخيرة ، قد بلغ منطقة للاعتبارات الفلسفية والفنية شأن كبير . هنا حدود التكهن العلمي . وسواء خرج اينشتين من هذا التيه ، بآراء تساوي نظرياته السابقة ، او لم يخرج الاّ باحكام اقرب الى الصوفية منها الى العلم كما نفهمه ، فان له من مباحثه السابقة وأثرها في توجيه الفكر العلمي الحديث ما يجعله من جبابرة الفكر في التاريخ

التربية والتعليم

عند قدماء المصريين

للدكتور حسن كمال

ان موضوع اليوم وافر المادة كثير التشعب يصعب الالمام بهِ في مقال واحد لكن رغبةً في حصره والاحاطة بأهم نواحيه رأيت ان اقسم بحثي الى فصول تمكن القارىء الكريم من الالمام بالموضوع بكل سهولة وسرعة . . وهي نظام التدريس في العهد الفرعوني ثم الادوات الكتابية ثم نصائح القوم التي كانوا يوجهونها الى تلاميذهم ثم الخطابات التي كانت تدرّس كنماذج تحتذى لتعاليم القوم بشأن اكرام اساتذتهم واخيراً الآثار العلمية التي تركها لنا قدماء المصريين

ومعظم معلوماتنا عن التربية والتعليم عن هؤلاء القوم يرجع الى ما ورد في نصوصهم في القراطيس البردية والالواح الكتابية والشظايا الحجرية التي كتب عليها تلاميذ المدارس مقتطفاتهم لاساليب الكتابة الرسمية standard والتعليمية didactic وذلك على الاخص في عهد المملكة الحديثة (١٥٥٥ — ٩٤٥ ق . م .) ونحن نتقدم بالشكر الى هؤلاءِ الطلبة الذين كتبوا ونقشوا مراراً وتكراراً تعاليمهم المدرسية فوصل الينا جانب كبير منها استدللنا بهِ على كثير من معلومات القوم اللغوية والعلمية واستعرفنا بوجه التقريب على مناهج التعليم التي كانت متبعة عندهم

نظام التدريس في العهد الفرعوني

يظهر ان الدراسة كانت مقسمة وقتئذٍ الى قسمين دراسة اولية ويقابلها عندنا دراسة الكتاتيب ودراسة اعدادية او تخصصية . اما الدراسة الاولية فتتلخص في تعليم القراءة والكتابة وبعض الآداب القديمة وقد استعمل القوم لتمريناتهم الكتابية في الكتاتيب كِسَر الفخار وشظايا الاحجار لانها عديمة الكلفة متجنبين بذلك القراطيس البردية الغالية الثمن

ومعلوماتنا عن كتاتيب تلك الازمنة قليلة لكنها تفوق غيرها نسبيًّا . وقد اكتشفت بقايا لاحدى هاته الكتاتيب او المدارس الاولية ملحقة بمعبد رمسيس الثاني بالاقصر المعروف بالرماسيوم والواقع على شاطىء طيبة الغربي . وهذا الكتّاب كان ضمن ادارات رسمية ملحقة بالمعبد المذكور تحيط به من ثلاث جهات . وبالقرب من الكتاب عثر على تلٍّ وشظايا حجرية استدللنا بالنقوش

المكتوبة عليها ان طلبة ذلك المعبد كانوا يتعلمون على الشظايا المذكورة طريقة الكتابة والقراءة ثم يلقونها جانباً . وبفحص عبارات تلك النقوش وجدت عبارة عن مجموعةٍ لآدابٍ قديمة وحديثة . ن الآداب القديمة نصائح الملك امنمحعت الاول (١٩٥٥ — ١٩٦٥ ق . م) وحكم العالم دواوف Duauf (حوالي عام ٢٣٠٠ ق.م) ومدحة النيل .. ومن الآداب الحديثة الشيء الكثير

ووردت منتخبات الآداب القديمة المذكورة مدوّنة بنصها الكامل في كتابين مدرسيين يعرفان الآن باسم قرطاس ساليير وقرطاسي انسطاسي[١] كانا يستعملان بمدارس منف على الارجح ويكوّنان الجزء المهم من منهج التعليم الاولي وقتئذٍ . والشظايا الحجرية المذكورة كانت تحوي مقتطفات من هذه القطع . ولا يبعد ان هذه المنتخبات كانت تدرس كمحفوظات لكل طفل وقتئذٍ

وبعد الفراغ من الدراسة الاولية او الكتاتيب ينتظم الطالب في التعليم الاعدادي . وهـذا يتلخص في الاندماج بشكل « كاتب » في لغتهم او « مساعد » في عرفنا وذلك في بعض الادارات . وهناك يتلقن الطالب علومه الاعدادية من موظف قديم يتعهد بالاشراف عليه اشرافاً تامًّا ويتكوّن التعليم في هذه المرحلة من كتابةٍ لنماذج موضوعات انشائية مسهبةٍ خلافاً للمختصرة التي كانت خاصة بالمدارس الاولية . وقد عثر على بعض من هذه القراطيس التي كان المدرس يصحّح على هامشيها الاخطاء الهجائية دون التعبيرية التي كانت احياناً ركيكة التركيب خاليةً من المعنى . ومنهُ استنتجنا ان هذه الكتابات كانت تمرينات في الخطّ ليس الا . ولكن هناك قراطيس مدرسية اخرى عديدة يستدل منها على ان الطالب كان يتلقن العلوم من جهة ويتمرّن على المخاطبات التجارية ومادة الهجاء من جهة اخرى ومعلوم ان مادة ضبط الهجاء ليست بالهنة الهيّنة اذ لا توجد طريقة كتابية يسهل الوقوع في اخطائها مثل الخط الهيرغليفي . وتتجسم في قرطاس هود[٢] وموسكو الدّقةُ العظيمة التي كان الاساتذة يتبعونها في تلقين الطلبة لمعرفة اصول الكتابة المصرية ولا بد ان امثال هذين القرطاسين كانت موجودة في المدارس الاخرى التي من طراز معبد الرماسيوم . واليكم ترجمة عنوان احد الكتب المدرسية المعروف بقرطاس هود والخاص بمادة ضبط خط الهجاء : — « طريقة التعليم التي تثقف العقول وتنوّر الجاهل وتفهم الطالب جميع الكائنات التي خلقها (بتاح) وكتبها ؟ (تحوت) من سماءٍ ونجومها وارض ومحتوياتها وما تتمخض عنهُ الجبال وما ينهمر من البحار وكلّ ما تضيئهُ الشمس وتنبتهُ الارض « تأليف » كاتب الكتاب المقدّس في منزل الحياة (امنموّپ) بن (امنموّب) »

« ومنزل الحياة » عبارة اطلقوها على المدرسة او دار التعليم . وهي توضح عظم منزلة العلم عند هؤلاءِ القوم لانهم شبهوه بالحياة تمييزاً له من الجهل الذي اعتبروه كالموت . وعنوان الكتاب المذكور يشعر بان محتوياته تشمل جميع العلوم مع انها لا تحوي سوى قوائم مطولة لاسماءٍ دارجة واخرى غريبة

(١) Pap. Sallier II & Pap. Anastasi VII

(٢) (Pap. Hood) Maspero Etudes Egypt. II. 88

مقسّمة تقسيماً اصوليًّا فهي تبدأ بالسماء وما تحويه مثل « سماء شمس قمر نجم برج الجوزاء الدب الاكبر الجبّار سحاب عاصفة فجرٌ دجى شمس ظلٌّ .... شعاعُ الشمس » وتلي ذلك اسماء المياه والحقول ثم ست مجموعات لاسماء الافراد تشمل احداها الفاظاً كالآتية : « معبود . معبودة . ميت. ميتة ملك . ملكة » وغير ذلك . وقائمة اخرى تحوي الفاظاً « للوظائف الكبرى والقاب كبار رجال الدين واساطين العلم ثم قائمة بأسماء الوظائف الصغيرة والحرف المختلفة ثم مجموعة بالطوائف الآدمية . ثم قائمة بأسماء رتب الجيش ثم جدول بالاقوام الاجانب واسماء الاماكن والبلدان

والقصد من وضع هذا الكتاب هو افهام الطالب ستة وتسعين اسماً لمدن مصرية واثنين واربعين اسماً للمباني واجزائها . كذا عدة مصطلحات للارض والحقول ومأكولات الانسان ومشروباته ومن هذه ثمانية واربعون اسماً للحوم المشوية واربعة وعشرون اسماً للمشروبات وثلاثة وثلاثون نوعاً للحم . وبالرغم من تلف الجانب الاخير من هذا القرطاس امكننا ان نعرف انه كان يشمل قوائم باسماء الطيور والأنعام وغيرها . ومنهُ يتضح ان هـذا الكتاب هو في الحقيقة أقدم معجم للغة المصرية القديمة جمع وصنّف بعناية كبيرة بواسطة الكاتب (امنموپ) ليظهر للعالم محتويات الكون مقـدماً بذلك تشكراته الى المعبود (بتاح) و (تحوت) بأسلوب بسيط متواضع قصد ارشاد الطالب الى معرفة طريقة كتابة كل كلمة على حدتها

واعترضت طلاّب العلم الاولي والاعدادي عقبة معرفة الالفاظ الاجنبية الدخيلة في المصرية القديمـة والتي تنتمي الى اصل أسيوي وبربري (أي من شمال افريقيا) وسوداني . خذ مثلاً ما أوردهُ الأستاذ « ماكس مولر » أن احـد التلاميذ في عهد الاسرة الثامنة عشر (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) كان يجهد نفسه كثيراً على السبورة في معرفة أسماء قبائل الخفتيو Keftiu[1]

واهتم القوم بتعليم أطفالهم أسلوب الكتابة الرشيد فألزموهم بنسخ نماذج كثيرة لخطابات متباينة الموضوعات وكذا خطابات تحوي نصائح وتحذيرات خاصة بالعلم في شكل مراسلات متبادلة بين طرفين وأطلق القوم على هذه الكتابات اسم « علم الانشاء» . وعليه فالمصريون هم أول من أوجد هذا العلم وأجاده . وكثيراً ما حوت هذه الخطابات اسم الطالب ومعلمه باعتبارهما طرفين متساويين في المنزلة والثقافة . وفي بعض المراسـلات نرى ان الطالب يصف نفسه بالكسل والفساد ويقدر لنفسهِ قصاصاً يعادل المائة كلمة مثلاً

ومدرّسو التعليم الاعدادي موظفون متباينو المناصب من كاتب مالية الملك الى « كبير مسجلي الملك» الى «كاتب المصنع الملكي» وهكذا . وجاء عن أحدهم انهُ عُـهد اليهِ في القيامُ بأعمال بمقبرة رمسيس التاسع (حوالي ٩٥٠ ق . م) ومع ذلك تمسك بمهنة التدريس فـكان يلقن تلاميذهُ العـلم بذمة صادقة وضمير حيّ . وشظايا الاحجار المتخلفة عن صخور ذلك القبر دلتنا على أن تلميذاً نقش

(١) Max Muller, Mitt der Vordreasiat gesh V. pp 88

عليها وقتئذٍ خطاباً أنموذجيًّا وقصيدة عتيقة من عهد رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق . م) ودعاءً لمظلوم . وان المدرس صحّح اخطاء ذلك التلميذ حيثما وجدها

***

ومنذ أقدم العصور الفرعونية يجد الباحث عناية شاملة بالعلم في جميع فروعه على مدى الدهر . فمنزلة الكتّاب — وهؤلاء يقابلهم عندنا الموظفون المتعلمون — كانت دائماً رفيعة بدليل قولهم « ان الكتابة والكتب تجلب السرور والثروة » . وكانت المدارس اولاً تابعة للسرايات الملكية وأورد الأستاذ (سيته) ان أحد ملوك مصر الأول كان عالماً بالكتابة [١] . أما مدارس المملكة الحديثة (١٥٥٥ — ٩٤٥م ٢ ق.م) التي وصلنا منها الشيء الكثير فيظهر انها كانت على نظام مختلف لان تمدد دواوين الحكومة وضخامتها وقتئذٍ تطلبت موظفين فنيين لادارة شؤونها وعلى الاخص الشؤون المالية . وللحصول على مثل هؤلاء الموظفين كان يتحتم تعليمهم اولاً بالمدارس الاولية ثم الحاقهم بعد ذلك تحت التمرين مع موظفين اكفاء . وأخبرنا رئيس كهنة آمون المدعو (بك نخونس) انهُ مضّى من السنة الخامسة الى السنة السادسة عشر من عمره يتعلم من « رئيس اسطبلات جلالة الملك » بعد ذلك التحق بمعبد آمون في منصب كهنوتي وضيع وعبارة « اصطبلات جلالة الملك » تعني هنا على الارجح « مدرسة تدريب الخيل » — « او مدرسة السواري » وعليهِ فالكاهن المذكور اضطرّ ان يمضي حوالي الاحدى عشرة سنة في التعليم الاولي والاعدادي بذلك المعهد كي يتمكن من النهوض بأعباء عملٍ كهنوتي [٢]

والآن نذكر ان صفة الكاتب التي تتردد دائماً في التاريخ المصري القديم تتفق في اوصافها واستعمالها مع «الموظف المتعلم». ولا بد ان الرغبة في التوظف كانت شديدة كما هي الآن لان المتعلمين كانوا يعفون من الخدمة العسكرية والسُّخرة. ولفظة « كاتب» تطلق على كل موظف من مسجل بسيط للحيوانات الى العالم والشاعر العظيم مثل بنتاؤر . والترقي من وظيفة الى اخرى كان بالكفاءة والامانة والذمة. لذلك كثيراً ما نشاهد ان الموظف بعد اختبارهِ ككاتب بسيط يرتقي تدريجاً حتى يصبح حاكماً لقرية (او عمدة في عرفنا) ثم حاكماً لقريتين ثم مديراً لمديرية وهكذا حتى يصل الى المرتبة التالية لمركز فرعون . كما يستدل على ذلك من ترجمة حياة الكاتب (امتن) Ameten الذي عاش في حكم الملك سنفرو (اسرة ٤ — حوالي ٢٧٢٠ ق م) ومقبرة امتن هذا كانت في ابي صير ثم نقلت الى دار تحف برلين . وعليهِ فطائفة الكتاب كانت تمثل طبعاً الموظفين المتعلمين المثقفين . واشترك النسوة في هذا الشرف فصار منهنّ الموظفات كالرجال مما يشير الى الدرجة العالية التي بلغها مستوى التعليم في مصر القديمة . ولا يُعهد مثل ذلك الآن الاّ في ارقى امم الغرب مدنية وحضارة

ولا بدّ ان النظام بالمدارس كان شديداً . فلم يكن يحتمل من أي طالب ان يطيل مدة بقائه بالمدرسة

(١) Urk I 60, 8. (٢) Inscriptions of Statue of Becknechons Mus. Munich.

عن الحد المعتاد . وقد جاء بقرطاس ساليير [١] ما يفيد ان الطالب كان يتحتم عليهِ ان يلزم مكانه وان يهتم بكتبه وملابسه وحذائه

والمعتاد ان التعليم كان لا يتعدى في الزمن نصف اليوم فقد جاء بقرطاس ساليير المذكور ان الاطفال كانوا يتركون كتابتهم وقت الظهيرة . فكان غذاء الطفل بسيطاً ويتكوّن عادة من ثلاثة أرغفة واناثين من الجعة [٢] كانت تأتي له بها والدتهُ يوميًّا . ولم يشمئز القوم من العقاب البدني لاطفالهم لانهم قالوا « ان للطفل ظهراً اذا ضرب عليهِ سمع » [٣]

أدوات الكتابة

﴿ المحبرة ﴾ تتكوّن هـذه من لوحة خشبية صغيرة تحوي حفرتين صغيرتين واحدة للمداد الاسود واخرى للمداد الأحمر . وحفرة ثالثة لوضع الماء فيها لتنظيف القلم . وتحوي المحبرة أيضاً جراباً صغيراً لحفظ الاقلام فيهِ . والعادة في الحفر المذكورة ان تكون مستديرة الشكل لكنها قد تكون مربعة . وعثر على محبرتين من هذا النوع مصنوعتين من العاج بمقبرة (توت عنخ آمون) واخرى من خشبٍ مموّه بالذهب في نفس المقبرة وعلى غيرها من المرمر والصوّان كما عثر على محابر للحبر خاصة دون الاقلام وعلب خاصة للاقلام دون الحبر

﴿ الأقلام ﴾ كانت تصنع من نبات الأسل الذي تعمل منهُ الحصر ويقال لهُ باللاتينية Juncus maritimus — وليس من الغاب كما يقال عادةً — وذلك بتجزئته قطعاً صغيرة متناسبة الطول ثم تفصل خيوط أحد الطرفين كي يشبه الفرشة الصغيرة . ولما أتى العهد اليوناني استعيضت هذه الفرشة بالبوص أو الغاب الذي كان يقطع بطول الأقلام الحديثة ثم يُبرى أحد الطرفين مثل أقلام البسط تماماً . ونبات الاسل لا يزال موجوداً بمصر بكثرة في المستنقعات أو البحيرات المالحة. أما كيفية صناعة الاقلام منه فبقطعه قطعاً يرفع أحد طرفيها بالمدية ميلاً ثم يعالج بالاسنان تدريجاً حتى تفصل خيوطه بعضها عن بعض وتتكوّن منهُ فرشة رفيعة . ويبلغ متوسط طول أقلام الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) عشرين سنتيمتراً ومتوسط قطرها ١ر٥ ملليمتر ومنهُ يتضح ان أقلام هؤلاء القوم لم تكن أقلاماً بالمعنى المعروف بل فرشاً دقيقة لا غير . أما القلم الحقيقي فلم يستعمل الاَّ من العهد اليوناني أي حوالي القرن الثالث قبل الميلاد وهذا الاخير أسمك كثيراً من القلم القديم ومصنوع كما أسلفنا من البوص أو الغاب المصري المعروف باللاتينية باسم Phiragmites aegyptiaca وهو موافق لكتابة الخط اليوناني ، وكثيراً ما كان يعاد بري هذا القلم

---

(١) Pap. Sall. II 10.2

(٢) Pap. Sall II 10. 6 (٣) Pap. Anastasi V 8. 6.

كلما تطلبت الحالة فيقصر تدريجاً حتى يبلغ الستة سنتيمترات تقريباً طولاً . وقد بيّن الاستاذ وينلوك أن أحد هـذه الأقلام الكثيرة الاستعمال اوصل بقطعة خشبية لابلاغه الطول المعتاد . ولا تزال هذه الاقلام تستعمل في الارياف الى وقتنا هذا

﴿ المداد ﴾ كان المداد يحفظ بشكل دوائر صغيرة اشبه باقراص الالوان المائية الحديثة . وهذه الاقراص او الدوائر كانت تصنع على الارجح بمزج مسحوق المداد مع الصمغ والماء ثم تجفيف ذلك المزيج . اما طريقة استعماله فأشبه تماماً بالتلوين المائي — اي بغمس الفرشة في الماء وتمريرها فوق قرص المداد — والمداد الاسود كان يصنع من هباب الدخان (او الكاربون) .اما الاحمر فمن ملح الحديد المعروف باسم المغرة أو تراب الحديد red ochre

والكاربون هو اقدم مادة استعملت للمداد وذلك من العهد السابق للاسرة الاولى (اي قبل سنة ٣٤٠٠ ق . م) وقد عثر الاستاذ بتري على مقدار كبير من هذا المداد داخل اوانٍ صغيرة من عهد الاسرة الاولى

﴿ المواد التي استعملت للكتابة عليها ﴾ تتلخص هذه في العظام (مثل لوحة الظهر)والالواح الطينية السوداء . (وذلك فيعهد الاسرة الحادية عشرة وهذه تنقش في بعض الاحيان ويكتب عليها بالمداد في ما دون ذلك) ثم الالواح الطينية المحروقة(وكانت تستعمل في المكاتبات الرسمية بين مصر وآسيا فيعهد الاسرة الثامنة عشرة) ثم العاج والجلود والكتان والمعادن كالبرنز والرصاص ثم البردي والفخار والبوص والحجر والشمع والخشب الطبيعي والمدهون وهذا الاخير كان يستعمل للكتابة عليهِ بالمداد او الطباشير مدة قصيرة ثم تزال الكتابة عنهُ بسهولة . واهم مادة للمكاتبات هي البردي المصنوع من النبات المسمى كذلك والمعروف باللاتينية باسم Cyperus Pap yrus ومنهُ اشتق لفظ paper بالانكليزية و papier بالفرنسية

نصائح القوم لتلاميذهم

ووجه القوم الى تلاميذهم كثيراً من نصائحهم الغالية التي استرعت اهتمام الاثريين لاشتمالها على كثير من المعلومات التاريخية والاجتماعية

واسـاس هذه النصائح ترغيب الطالب في العلم دون الحرف الاخرى لذا يجب على الباحث ان لا يتأثر كثيراً ببعض النصائح لانها متحيزة في الغرض ومبالغةٌ في التعبير . من هذه ما جاء بقرطاس انسطاسي (١) وترجمته

« ايهـا الكاتب لا تكن كسولاً ! لا تكن كسولاً . والاَّ فستعاقب عقاباً صارماً . لا تتبع الهوى فتهوى . اكتب بيديك واقرأ بفمك . واسأل النصيحة ممن يفوقك في العلم .

(١) Pap. Anastasi III 3, 987

إتخذ لنفسك خطة اكابر القوم علك تبلغ مستواهم اذا ما تقدمت في السن . ما اسعد الكاتب اذا لقب باستاذ . ثابر على العلم يوميًّا فالمثابرة تسود . حذار ان تترك يوماً يمر سدًى والاّ فستنال جزاءك من القصاص . ألا فاعلم ان اذني الطفل على ظهره اذا ضرب عليهما فهم النصيحة. استمع لي بكل جوارحك فكلامي يفيدك مستقبلا . ان من وحش السودان ما يجبر على الرقص ومن الخيل ما يرغم على المؤالفة ومن الحدأة ما يسجن في القفص ومن النسور ما توثق جناحاه — والمقصود بهذه العبارة ان كسر شوكة هذه الحيوانات سهل وأسهل منه كسر شوكة التلميذ العاق

وجاء بقرطاس السطاسي [١] ايضاً ما ترجمته : — بلغني انك هجرت الكتابة واتبعت الهوى فأصبحت تترنح في الطرق تتنسم رائحة الجعة لتحتسيها فتردى . ألا فاعلم بأن الجعة (البيرة) تنفر منك الرجال وترمي بنفسك الى الهلاك فمثلك في ذلك كمثل دفة مكسورة لا تملك توجيه السفينة الى احدى الجهتين وكمثل ناووس خال من الصنم وأيضاً منزل خال من الخبز . انت لا تشاهد الاّ متسلقاً لجدار . واذا رآك الرجال تجنبوك خوفا من اذاك وما تحدثه فيهم من جراح . اما آن لك ان تعلم ان النبيذ مكروه وان تحلف اليمين بالامتناع عن تعاطي مشروب (قدح) وان لا تقترب من زجاجة المسكر وتتناسى مشروب (تلك Telek) . لقد بدأت تتعلم العزف على الناي والمزمار وتجلس في المنزل محاطاً بالغادات . . . . وتقعد امام الفتاة مطيباً جسمك بالعطر ومطوقاً جيدك بأكاليل الزهر ومطبلاً على جوفك ثم تتمايل فتسقط على بطنك فتتلوّث بالقاذورات . . .

وجاء بقرطاس ساليير [٢] صورة خطاب من والد لتلميذه يرغبه في العلم ويزهده في الفلاحة نقتطف منه ما يأتي : — بلغني انك هجرت الكتابة واتبعت الملذات ووجهت همك نحو الفلاحة ووليت ظهرك نحو كلام الله (اي الخط الهيرغليفي والنصوص القديمة) الم تفكر مليًّا في احوال الفلاح اذا ما حل به ميعاد الحصاد . حينئذ تجد الديدان قد التهمت نصف حبوبه وحصان البحر اتى على النصف الآخر والجرذان عمت الحقول والجراد نزل على المزارع ، ثم تأتي البهائم فتفترس المحصول ويحلق العصفور فيقتنص كل ما يمكنه فواحسرة على الفلاح ! لان ما يتبقى له من المحصول بعد درسه تسطو عليه اللصوص فتسرقه . زد على ذلك ان خيوله كثيراً ما تموت وقت الحرث والدرس وعندئذ يأتي الكاتب ليسجل المحصول مصحوباً بالصرافين القابضين على العصي ورجال الشرطة العبيد المسلحين بجريد النخل قائلين « وردّ ضريبة القمح » فيجيبهم بقوله «ليس عندي قمح ! » وقتئذ يمدّ على الارض ويجلد ويرمى في الترعة . . .... أما زوجه فكبلة أمامه وكذا أطفاله . وأما جيرانهُ فيهجرونهُ ليهتموا بجمع القمح اللازم لضريبتهم — هكذا يسيطر الكاتب على أعمال الناس طرًّا . فضلا عن أنهُ لا يدفع الضرائب لانهُ يؤدي ضريبته كتابة فهو لذلك خال من الديون . اذن استمع لذلك جيداً

(١) Pap. Anastasi IV. II 8 . (٢) Pap. Sallier I 5-11 88.

وهناك خطابات حقيقية كان يطلب من التلميذ كتابتها مراراً للتثبت منها والاقتداء بها. ومعظم هذه يخص أموراً مصلحية والباقي أموراً شخصية . ولدينا مجموعة من هذه المراسلات حسنة الأسلوب جيدة اللغة . وهي مختارة من مراسلات لأفراد عائلية او مكاتبات رسمية

وسأورد خطاباً كان يدرس مثلاً لموضوع انشائي يحوي كثيراً من المعلومات الهامة عن الحياة الرسمية وعن طريقة المخاطبة بين دواوين الحكومة وشدة اهتمام الحكومة بالجزية وحرصها على رضى فرعون وقتئذ . وهو مرسل من حاكم مستعمرة الى احد مديريها ووارد بقرطاس كولر Pap. Koller 3. 3. وترجمتهُ : —

« حامل المروحة الواقف على يمين الملك وحاكم أراضي أتيوبيا الاجنبية (باسر Paser) يقول :

الى مدير مديرية — أبعث اليك بهذا الخطاب . أما بعد . فحالما يصلك خطابي هذا يجب عليك أن تجمع الجزية على اختلاف أنواعها من مواش وعجول وثيران ذات القرون القصيرة وغزلان ووعول وتياتل ونعام وأن تجهز السفن لشحن الخيرات والحيوانات ببحارتها وعمالها بحيث يكونون جميعاً على أهبة السفر . ولا تنسَ مقادير الذهب العظيمة المصنوعة بشكل أطباق . كذا الذهب الناعم الموضوع داخل الأشولة . وكذا تراب الذهب الجميل المستخرج من الصحراء المحفوظ داخل اكياس الكتان الأحمر : وتذكر العاج وخشب الابنوس وريش النعام وغيرها ... من راتنج وأحجار كريمة وبلور وقطاط ونسانيس وقردة .... ولاحظ العدد الغفير من رجال قبيلة (ارمي Irmi) الذين يتقدمون مهرجان الجزية ومعهم عصيهم الغليظة والمذهبة ... وعمالق قبيلة (تيرك Tirek) حاملين المراوح الذهبية ولابسين الريش العظيم والدمالج المزركشة وكثيرين من العبيد من كافة الأنواع

زد في الجزية عاماً بعد عام واحتفظ برأسك واترك الكسل ...... أشرف على الجزية بنفسك واعرها اهتمامك وتعهدها بحرصك . وتذكر دائماً يوم وصول الجزية يوم تمر اسفل النافذة الملكية امام جلالة الملك ومستشاريه المصطفين على جانبيه ، ورؤساء البلاد الاجنبية وسفرائها والكل واقفون يتفقدون الجزية ويعجبون بها . حينئذ يدخلك الوجل .... وتسقط في يدك . فلا تدري ايكون نصيبك الموت او الحياة . وليس امامك الا التوسل بالمعبودات فتناجيهم بقولك: —

« خلصوني ارحموني ايتها الآلهة هذه المرة فقط ! »

نشرنا في هذا العدد الجانب الاول من هذه المحاضرة النفيسة وفي العدد التالي تتمتها وهي تشتمل على البحث في اكرام الاساتذة وحكم الفلاسفة وآثارهم في النثر والشعر والقصص والعلوم المختلفة

عودة الملوك

الى المدينة

[للمستر كرستوفر سكايف "استاذ" الادب الانكليزي في كلية الآداب بالجامعة المصرية مقام عال بين أدباء الانكليز المعاصرين وشعرائهم . وله مجموعة من الشعر الانكليزي (Towards Corinth, O Englishman) يبدو فيها شاعراً دقيق الحس بليغ العبارة مبتكر التشبيه . وقد سمعناه يلقي بعض قصائده ، فأعجبنا بما يتزاحم فيها من الصور والمعاني، وهزنا ما أفرغت فيه من قالب يأخذ النفس بايقاعه المطرب ، مع ان معظمها من الشعر "المرسل". وقد تفضل فأهدى الينا نسخة من مجموعته فاخترنا ان ننقل الى العربية قصيدة بليغة منها في موضوع مصري عنوانها « عودة الملوك الى المدينة » محافظين جهد الطاقة على معانيها ومراميها الاصلية ، معترفين ان الترجمة لا تجاري الاصل في فخامة العبارة وجرسها]

ها هم الموتى الهانئون قد اقبلوا من قبورهم
وطفوا على لجة النهر كالاوراق المُغْبر
فبكى الفلاحون ما شاهدوا .
لقد سُلِبَت جواهرهم ، ونصلت جلالتهم ،
اجل لقد امتهنت كرامتهم ودنست قداستهم ،
ولكن جلالة المعرفة والسنين
ما برحت تُضفي عليهم جلالها السامي .
واذ مروا قافلة صامتة اثر قافلة
رأيتُ أشباح الملايين تعمر ضفات النهر .

ملايين وراء ملايين من الموتى طال عليهم الموت
وفي عيونهم التي عرفت العالم اسىً ودموع
ولرؤوسهم العريقة حسرة واطراق .
ووقفت تلك الامة المجيدة بأسرها
ترقب موكبهم الحزن وتشيّعهُ بالنظرة الكئيبة .
عبروا حفافاً كالغيم فوق الجبل
واختفوا كالرياح المتبدّدة في اغوار الكهوف
تاركين قبورهم العظيمة تنعاهم
وتلقي الى الارواح العابرة بنبأة صداها المشجي
انها اقفرت . انها اقفرت .

اوزيريس ! ايزيس ! هوروس !
اين أنتم الآن ؟
لقد مضى ذووكم كالاوراق الطافية في تيار النهر
وليس ثمة أثر لكم .
يا من تتحرّكون بين العوالم
يا من تطأون المجرات
وتسبحون على متون المذنبات
ماذا صرتم ، حتى عاد امتهان اسمائكم
لا يثيركم ؟
اهبطوا وأَسبغوا السلام على احبابكم .
او انتم كذلك اوراق طفت على لجّة النهر !

تقدم الطيران ومستقبله

ضروب الارتقاء في ثلث قرن

وما ينتظر في المستقبل

﴿ نبوءة شاعر وتحقيقها ﴾ للشاعر البريطاني العظيم ، الفرد لورد تنيسون في قصيدته المشهورة «لُكسلي هول» مقطع ينطوي على نبوءة من أعجب النبوءات الحديثة في هذا العصر الحافل بالعجائب قال ما ترجمته : «وحدقت في المستقبل الى مدى ما تستطيعهُ العين البشرية فشاهدت رؤيا العالم وما تنطوي عليهِ من العجب العجاب . رأيت الجو حافلاً بالتجارة . رأيت أساطيل الجو ذات الاشرعة السحرية . وطيارات الشفق القرمزي المثقلة بالبالات النفيسة . وسمعت الصياح يدوي في السماوات العلى . ثم هطل ندى مروع من اساطيل الامم الهوائية تتصارع في كبد السماء . . »

نشرت هذه القصيدة في العقد الخامس من القرن الماضي على ما نذكر وها هوذا كل حرف من حروفها يتحقق . فالطيارات العظيمة الخاصة بالنقل والتجارة تحلق في الفضاء ناقلة من بلاد الى بلاد « البالات النفيسة » اذا قصدنا بالبالات كل ما يحمل لغرض تجاري . انها تنقل الناس والبريد ، وبعض البضائع الخفيفة الثمينة ، بل ان الراكب اذا شاء ان يدفع الثمن يستطيع ان ينقل معهُ حقائبهُ جميعاً في طيرانهِ بين العواصم الاوربية . ويذكر كاتب هذه السطور انهُ اصطحب حقيبتين كبيرتين في رحلات رحلها بين لندن وباريس في سنتي ١٩٢٧ و١٩٢٨

وها هي ذي ، كذلك ، الطيارات الحربية ، منوعة الاشكال والاغراض ، من السابقات المستكشفات ، الى الطيارات الضخمة قاذفات القنابل من الجو ، تدمر المدن وتهلك الزرع والضرع . ان خيال تنيسون الشعري أسبغ على مقذوفاتها صورة « الندى » . ولكنهُ أي ندى ؟ ندى مروع ! ومن يدري فقد تكون مقذوفات الطيارات الحربية في المستقبل من الغازات السامة والمكروبات ، اذا مضى الانسان في عتوه وعناده ، أشبه شيء بقطرات كبيرة من الندى ، تنفجر وتنتثر وتبيد !

ثم هنالك الطيارات المائية ، التي تطير من سطح الماء وتحط على سطح الماء ، وقد تبلغ سرعة بعضها من الخاص بسباقات السرعة ٤٤٠ ميلاً في الساعة او يزيد . وهنالك الطيارات الامفيبية (القوازب) التي يصنعها سكورسكي الروسي في اميركا ، وقد دعيت امفيبية Amphibian تشبيهاً لها بالحيوانات الامفيبية كالضفادع التي تعيش في خلال حياتها في الماء وعلى اليابسة ، لان هذه الطيارات لها عجلات فتستطيع ان تحط على الارض ، ولها اطواف فتستطيع ان تنزل على سطح الماء . والغرض منها ان تكون مستعدة لكل طارىء . فهذا الجهاز يقيها اخطاراً كثيرة . فاذا تعطل محركها على مقربة من

مدينة بها مطار ، وليس بقربها نهر او بحر لم يتعذر عليها النزول على الارض . واذا تعطل محركها وهي قرب بلدة او فوق ريف ، ليس فيهما مطار او ارض ممهدة،وانما يخترقهما نهر وسيع ، لم يتعذر عليها كذلك أن تحط على صفحة النهر سالمة

ثم هناك الطيارات ذوات السطح الواحد ، والطيارات ذوات السطحين، والطيارات ذوات المحرك الواحد، وذوات المحركين او المحركات الثلاثة ، او المحركات العشرة ، كالطيارة الالمانية الجبارة المعروفة بطيارة دوكس DOX . والطيارات التي لا تتسع الاَّ لسائقها او لسائقها وراكب آخر، والطيارات التي تتسع لعشرة او عشرين او اكثر من الركاب .فالطيارات التي قطع فيها كاتب هذه السطور المسافة بين لندن وباريس ذهاباً واياباً ، كانت تتسع لثمانية عشر راكباً وأمتعتهم ، وفيها بوفيه تتناول منهُ ما ترغب فيه من المشروبات وألوان الغذاء . ولا تندر الطيارات التي فيها اسرَّة للنوم شبيهة بأسرَّة السكك الحديدية . وهناك الطيارات المجهزة بالآلات اللاسلكية — بل هي جميعها كذلك الآن — حتى يُبقى السائق في خلال الطيران ، متصلاً بالمطار ، الذي قام منه وبالمطار الذي يتجه اليه ، وبالمطارات التي يمر فوقها ، تعلمه في كل دقيقة من دقائق الطيران ، بأنباء الجو والضباب ، حتى يكون نزوله الى الارض سالماً من الاصطدام بالحوائل والعثرات . بل اذا تلبد الجو بالضباب ، وتعذر على السائق ان ينزل الى الارض ، لانه لا يراها ، ارشدهُ مديرو المطار بالاذاعة اللاسلكية الى ذلك

﴿ الرائدان ! ﴾ كل هذا كائن حادث في سنة ١٩٣٥ ولكنه لم يكن كذلك سنة ١٩٠٢ بل لم يكن الناس يظنون في مطلع هذا القرن ان الطيران بآلة اثقل من الهواء امر مستطاع

والفضل الاول في كل ما تقدم يرجع الى الاخوين ولبر واورفيل ريط الاميركيين فهما رائدا الطيران الحديث بآلة اثقل من الهواء

ولد ولبر ريط في ٦ ابريل سنة ١٨٦٧ في بلدة ملفيل بولاية انديانا من اعمال الولايات المتحدة الاميركية . وولد اخوه اورفيل سنة ١٨٧١ وبعد ما تلقيا علومهما الثانوية فتحا دكاناً لاصلاح الدراجات «العجلات» ثم اتجهت افكارهما الى العناية بشؤون الطيران ، فدرساها درساً علميًّا وعمليًّا وفي ١٧ ديسمبر ١٩٠٣ طار احدهما بطيارة من صنعهما مسافة ٢٦٠ ذراعاً.فلبث في الجو ١٧ ثانية، فكان بذلك اول انسان طار بطائرة اثقل من الهواء ، وفي ٥ اكتوبر سنة ١٩٠٥ طار اورفيل ريط على مقربة من بلدة ديتونا الاميركية بولاية اوهايو فاجتاز مسافة ٢٤ ميلاً في ٣٨ دقيقة

ومع ما اصابه الاثنان من النجاح لم يقدم احد من المتمولين على تعضيدهما بالمال . فذهب ولبر ريط الى فرنسا سنة ١٩٠٨ وفي يوم ٢١ سبتمبر فاز بجائزة ميشلن بعد ما طار مسافة ٥٩ ميلاً فذاع صيته بين ليلة وضحاها . وفي شهر ديسمبر من السنة نفسها طار مسافة ٧٧ ميلاً في ساعتين وثلث ساعة . وفي سنة ١٩٠٩ طار فوق مدينة نيويورك مسافة ٢١ ميلاً في ٣٣ دقيقة و٣٣ ثانية

وفي تلك السنة ضرب مجلس الامة الاميركية وساماً خاصًّا منحه للشقيقين الرائدين . ثم اشترت

منهما الحكومة الامبركية طيارتهما الاولى بستة آلاف جنيه

﴿ تقدم عجيب ﴾ ما أقصر الشقة بين ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٣ واول ابريل سنة ١٩٣٥ وما اطولها ! استغرقت الرحلة الجوية الاولى بالطيارة ١٧ ثانيــة . ومن الطيارات الآن ما يبقى محلقاً في الجو أياماً ، لا يحط على الارض بل يستمد في خلال الطيران ، البنزين من طيارة اخرى ، بأنبوب ممتد بين الطيارتين . وقد بلغت سرعة طيارة الايطالي آجلي التى ضرب بها الرقم القياسي في سرعة الطيارات ما يزيد على ٤٤٠ ميلاً في الساعة

واستطاع طيارون بريطانيون أن يطيروا من لندن الى قبيل جنوب افريقية، وطيارون اميركيون من نيويورك الى اسطنبول ، وطيارون فرنسيون من نيويورك الى رياق في سهل البقاع في سوريا ، وكل من هؤلاء الجماعات قطع المسافة في مرحلة واحدة . وطار الطيار ولي پوست وحده حول الارض في سبعة أيام — وبلغ القومندور برد الاميركي القطبين الشمالي والجنوبي بالطيارة . بل اعجب من ذلك انهُ تحدث وهو طائر فوق القطب الجنوبي بالآلة اللاسلكية التي تحملها طيارته ، مع جريدة النيويورك تيمس على مسافة نحو عشرة آلاف ميل منهُ ، وكان الصوت واضحاً والكلام جليًّا مفهوماً

***

كان الناس في بدء عهد الطيران هذا يسمعون اخبار رواد الطيران ولا يصدقونها لغرابتها ، ولاعتقادهم الراسخ ان مجاراة العقبان في الجو امر متعذر على الانسان

اما الآن فنرى الطيارات تطير في مواعيد معينة وتصل في الغالب الى طلبتها في مواعيد معينة تحمل على متنها الرسائل والركاب وامتعة الركاب . ونرى الرواد يستقلونها لاجتياز البحار والصحارى ولارتياد القطبين وما يحيط بهما من الاصقاع المتجمدة، ولتصوير مواقع الحضارات القديمة، ومكافحة المهربين وآفات الزراعة ، وبذر البزور ، وما الى ذلك من اغراض السلم والعمران . ثم اننا نرى الدول تهب الى انشاء اساطيلها الجوية كما كانت تعنى في الماضي ولا تزال باعداد جيوشها وبناء اساطيلها البحرية، استعداداً للمعارك فوق اطباق الغيوم وكانت فواجع الطيران يتلو بعضها بعضاً فصارت بعض الشركات تمنح راكبيها تأميناً مجانيًّا على حياتهم في خلال الطيران ، لشدة ثقتها بسلامة الذهاب والاياب

كل هذا التقدم تم بين يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٣ ، لما فاز والبر ريط باجتياز مسافة ٢٦٠ ذراعاً بطيارتهِ في ١٧ ثانية ويومنا هذا . فالتاريخ الاول يجب ان يصبح بعد اليوم حدًّا من حدود التاريخ التي ينتهي عندها عصر ويفتتح عصر جديد

من الجور والخطإ ان ننسب كل الفضل في هذا التقدم الى الاخوين ولبر واورڤيل ريط . وهما آخر ما يدعي هذا الفخر ، لان تاريخ الطيران مكتوب بدماء الرواد والشهداء الذين استخفوا ثمن الدماء في سبيل الفتح العلمي المجيد . .

﴿ نظرة الى المستقبل ﴾ اكتفينا حتى الآن بالاشارة الى ضروب الارتقاء التي اصابها الطيران

في ثلث القرن الماضي . فيهمنا الآن ان نبين بعض الاتجاهات التي ينتظر ان يسير فيها الطيران في المستقبل . وفي وسعنا ان نقسم هذه الاتجاهات الى بابين الاول : ما يتوقعه العلماء المستنبطون من ضروب الاصلاح والاتقان في الطيارات كما هي الآن ، وتنظيم خطوطها . والثاني : ما ينتظر من ابتداع او تحقيق اسلوب آخر للطيران قائم على مبدأ آخر غير مبدأ المحرك ونعني مبدأ الصاروخ

الباب الاول

﴿ ازالة صخب الطيارات ﴾ أثبتت المباحث الحديثة ان ما يصيب ركَّاب الطيارات من الدوار سببه في الغالب اهتزاز الاجزاء المعدنية في الطيارة . ولذلك نرى طائفة كبيرة من الناس لا تزال تؤثر قطار السكة الحديدية والسفينة على الطيارة . ولولا ان الضرورات العسكرية تقتضي ازالة صخب الطيارات ، لكان من المتعذر ان نتوقع تحقيق هذا الغرض قبل خمسين سنة من الزمان . فقد يجد البحاث ، ان مسألة ازالة صخب الطيارة ، في داخل الطيارة نفسها ، ليست بالمسألة الصعبة ، اذا شاء اصحاب شركات الطيران ان يبذلوا المال الكافي للتجارب والبحوث يقوم بها الاخصائيون . ولا ريب انهُ متى زالت روعة الجدة التي يحس بها المسافرون في الطيارات ، يشرعون في المطالبة بكل ما يمهد لهم أسباب الراحة وفي مقدمتها عدم ازعاجهم بصخب يصم الاذنين . أما مسألة ازالة الصوت الخارجي الذي يحدثه هدير الطيارات وما يطلقه محركها من الغازات ، فقد تكون اعقد من مسألة الصوت الداخلي . ولكن لما كانت الضرورة العسكرية تقتضي ان تكون الطيارة « صامتة » في خلال طيرانها ، فالراجح اننا نبلغ هذه الامنية قبل انقضاء زمن طويل . وقد ذكر الاستاذ لو الانكليزي ، ان العلماء قد شرعوا يجربون التجارب ، في تغطية المحركات بأغطية تخفف من صخبها

﴿ السلامة في الجو ﴾ ان الاقبال على استعمال السكك الحديدية لم يكن مستطاعاً في عهدها الاول ، لو لم يتمكن اصحاب شركات القطارات من المباهاة والاعلان ، بأن السفر فيها امين الجانب ، كالسير في شارع — قبل استنباط السيارات — او الصعود على سلم . وكذلك الطيارات لن تصبح اسلوباً عامًّا من أساليب الانتقال ، الاّ اذا تمكن اصحابها من جعل السفر بها أمين الجانب ، واقناع الناس بهِ . بل ان سكك الحديد نفسها تستطيع ان تنافس الطيارات ما زالت سكك الحديد تدعي انها أمينة الجانب وأصحاب الطيارات لا يستطيعون ذلك . وهذا لا يعني ان الطيران التجاري الآن محفوف بالمخاطر . ولكن الاقبال عليه سوف يظل محصوراً في دائرة ضيقة من جماهير المسافرين ما زالت نكبات الطيارات مما تتناقل انباءهُ اسلاك البرق وامواج الاثير . ولعل الحكومات التي ادركت هذا تشتد في منح الرخص للطيارين من جهة . وتحول بعض الشيء دون المغامرات التي تنتهي احياناً بفواجع تطبل لها الصحف وتزمر . فيرسخ في اذهان الناس ان الطيران كله من قبيل هذه المغامرات

والراجح ان « المظلة » او « الباراشوت » سوف تكون في مقدمة الوسائل التي تتقن حتى يصبح

استعمالها ميسوراً في الاحوال الخطرة ، او عند وقوع الحوادث التي تتعطل فيها محركات الطيارات وهي في الفضاء . ويظن الاستاذ «لو» أنهُ من المستطاع ان تبنى الطيارات اجزاءً يمكن فصلها بعضها عن بعض عند وقوع مثل هذه الحوادث ، ويكون لكل جزء منها مظلة خاصة فيسقط الى الارض براكبهِ من دون ان يتعرض الراكب للخطر

ثم هناك ناحية المحركات . فاذا كانت الطيارات ذات محرك واحد كان التعرض للخطر فيها كبيراً . لان المحرك بالغاً ما بلغ من الاتقان فقد يتعطل . ولكن اذا كانت الطيارة ذات محركات عديدة وكان بعض هذه المحركات كافياً للنهوض بها او حفظها في الجو او نزولها سالمة الى الارض، فتعطيل محرك او اكثر في وقت واحد ، لا يعرض الركاب للخطر . وهذا الاتجاه مشهود في هذا العصر في طائفة من طيارات الشركات الكبرى العالمية

ثم انهُ لابد لعلماء الظواهر الجوية، من توسيع نطاق معارفهم بتقلبات الجو. لان مايعرف الآن نزر يسير لا يكفي لجعل الطيران التجاري منتظماً . فجل ما نستطيعهُ الآن هو ان تأتي الاخبار من محطات الظواهر الجوية منبئة بهبوب عاصفة في ناحية معينة فيتأخر قيام الطيارات ، حتى تأتي الانباء بخمود العاصفة وسكونها . ولو كانت السفن البحرية مضطرةً الى تأخير سفرها عند ما تعلم ان عاصفة تهبُّ في طريقها ، لما بلغ السفر البحري الشأو الذي بلغهُ الآن

والتقدم في هذه الناحية ، قد يجيء من ناحية زيادة قوة الطيارة ، واستنباط وسائل جديدة للملاحة الجوية وتعديد المطارات ، وتقريبها بعضها من بعض ، حتى يسهل نزول الطيارة التي يحدق بها خطر الجو في مكان يسهل النزول فيهِ

يضاف الى ذلك وجوب اقامة منار على الارض ، في الخطوط التي تسير فوقها الطيارة فتهتدي بهديها . ولما كان الضباب من أعدى عداة الطيران، ولما كانت الاشعة التي تحت الاحمر تخترق الضباب ويستطاع تبينها بأجهزة خاصة ، فلا بد من بناء منار تذيع الضوء تحت الاحمر ، في الاماكن التي يخشى فيها من الضباب على الطيارات

وقد استعملت الاشعة اللاسلكية لهدي الطيارات عند ما تحاول النزول في مطار ملبد بالضباب الكثيف فيستطيع سائق الطيارة ان يهبط سالماً الى الارض مهتدياً بهدي هذه الاشعة ، ولو كانت الارض محجوبة عن انظاره. ولا بد في المستقبل من التوسع في استعمال هذه الوسيلة البارعة الفعالة

﴿ الطيران الليلي ﴾ لا تستطيع الطيارة ان تبلغ اقصى نفعها في توفير الوقت الاَّ اذا اصبح الطيران الليلي مستطاعاً وميسَّراً . فلا تستطيع الطيارات ان تجاري البواخر والسكك الحديدية الاَّ اذا تمكنت من الطيران في الليل والنهار على السواء . لذلك اتجهت الانظار الى الناحية العملية لحل هذه المشكلة . فأنشيء خط طيران ليلي بين لندن وباريس ، وبين نيويورك وسان فرنسسكو ،وبنيت منائر قوية الضوء في هذين الخطين وغيرها ، يراها السائق وهو محلق في الجو كأنها خط واحد من

النور فيسير فوقهُ كأنهُ سائر في طريق معبَّـد. ثم التفت اولو الامر الى ساحات الطيران والمباني المجاورة لها وانشأوا لها مصابيح ملونة اصطلح عليها لكي يعرف الطيار ما حوله ، اذا اضطر الى النزول وكل هذا مما ينتظر تعميمهُ ، ولا بد من تعميمه قبل ان نصيب تقدماً يذكر في الطيران التجاري

﴿ طيارات الاوتوجيرو ﴾ من اكبر مواطن الضعف في الطيارات كما عهدناها حتى الآن عجزها عن الطيران ببطء اذا اقتضى الامر ذلك ، وعجزنا عن السيطرة عليها كل السيطرة متى حطت على الارض . فانها لا بدَّ ان تبقى سرعتها عند مسّها سطح الارض نحو خمسين ميلاً في الساعة . وهذا يعني ان اثر العقبات التي تصادفها في طريقها بجسم جسيماً عظيماً . ثم ان هذه السرعة تضطرها ان تسير مسافة طويلة قبل ان تقف وهذا يقتضي ان تكون ميادين الطيران متسعة الارجاء فانشاؤها في مناطق قريبة من مراكز المدن الكبيرة متعذر . والاحصاءات التي جمعت للذين قتلوا في الطيران تدل على أن نسبة الذين قتلوا في نكبات نشأت عن سرعة الجري على الارض ، أو عن صغر مساحة المطار، أو الاصطدام بعقبات فيه ، نسبة كبيرة جدًّا

كل هـذا حدا ببعض المستنبطين الى محاولة ابتداع وسيلة تمكنهم من التغلّب عليهِ . والظاهر أن المستنبط الاسباني ده لاشيرفا كان حتى الآن أعظمهم حظًّا من النجاح . فانهُ بنى مروحة مؤلفة من أضلاع ، مثبتة في عمود قائم فوق مقدم الطيارة ، وتدور دوراناً أفقيًّا . فاذا حدث عطل ما للطيارة في الهواء ، كان من أثر هذه المروحة أن تجعل هبوطها الى الارض بطيئاً ، فلا تهوي الى الارض وتتحطم وتحترق . ثمَّ أن هذه المروحة تمكنها من أن تصعد في الجو من دون أن تجري مسافة طويلة في أرض المطار[1] ، وأن تنزل الى الارض وتقف في البقعة التي تهبط عليها . فلها من هذه الناحية فائدتان جليلتان ، الاولى حيلولتها دون النكبات المروعة التي اشرنا اليها ، والثانية ان المطار الواسع الارجاء يصبح غير ضروري . واذاً يمكن اقامة المطارات في قلب المدينة بل على سطوح الدور الكبيرة . وهذا يقرب الطيران من مقتضيات الحياة كوسيلة من وسائل الانتقال . ولا تزال الاوتوجيرو وما هو من قبيلها في طور — وان كان قد أصاب بعض النجاح — لا يصح أن نقول اننا بلغنا فيه الامل المنشود . ومما لا ريب فيه ان جانباً عظيماً من تقدم الطيران في الجيل المقبل سوف يكون في هذه الناحية

﴿ تجديد الوقود في الجو ﴾ ان الطيارات التجارية التي تسير بسرعة ١٥٠ ميلاً في الساعة ، تفقد جانباً كبيراً من ميزة سرعتها ، إذ تضطر أن تقف في الليل — وقد أشرنا الى موضوع الطيران الليلي في فقرة سابقة — وأن تجعل مراحلها قصيرة لا تتعدى المرحلة الواحدة منها ٥٠٠ ميل في الغالب . ذلك أن الطيارة التجارية اذا أخذت في أجواضها قدراً كبيراً من البنزين يمكنها من اجتياز مرحلة

(١) بعد كتابة هـذا المقال حملت الينا الانباء البرقية ان ده لاشيرفا استطاع أن ينهض بطيارته نهوضاً عمودياً أي من دون أن تجري على سطح الارض اولا

طويلة تبلغ ألفاً من الاميال او ألفين ، نقص ما يمكن ان تتسع له من الركاب والبضائع وهي التي تسدد نفقات الخطوط الجوية التجارية بالاشتراك مع اعانات الحكومة في الغالب

وإذن فالطيارات لا تستطيع أن تحتفظ بميزة سرعتها الاّ اذا استطاعت أن تقطع الرحلات الطويلة في مراحل قليلة ، وهذا يقتضي استنباط طريق لتجديد وقودها وهي في الجو

فمن بضع سنوات استطاع بعض الطيارين الاميركيين أن يبقوا اسبوعاً كاملاً في الجو بطيارة، كانوا يجددون وقودها وهم على متن الهواء . ذلك ان طيارة اخرى كانت ترتفع في اوقات معينة أو تلبية لاشارة لاسلكية ، الى ما فوق الطيارة المحتاجة الى الوقود ، ثم يدلَّى منها انبوبٌ من المطاط ، يلتقطهُ احد الطيارين ويضعهُ في حوض البنزين فيجري فيهِ البنزين من الطيارة المغذية الى الطيارة الاخرى

ولا بد من السير في اتقان هـذه الوسيلة حتى يستطاع استعمالها استعمالاً يصح الاعتماد عليهِ في الخطوط الجوية المنتظمة . فتقوم الطيارة الكبيرة من لندن ولكنها لا تحط في باريس وجنوى ومرسى مطروح مثلاً ، بل تلاقيها في جميع من هذه الاماكن طيارة تغذيها بالوقود في خلال نصف ساعة من الزمان او اكثر وتمضي هي في طريقها ، فتزداد سرعة الانتقال الجوي بهذا التنظيم ثلاثة اضعاف أو اربعة ، من دون ان تزداد سرعة الطيارة الذاتية . اما الخطوط الجوية الطويلة التي تجتاز البحار الشاسعة ، فلا يمكن ان يعتمد في قطعها على طريقة تجديد الوقود التي تقدم ذكرها ، ولذلك يرجح بناء جزائر طافية في اماكن معينة ، على طريقة جزائر ارمسترونغ وما اليها ، تصلح لنزول الطيارات عليها وتجديد وقودها، وتكفل راحة الركاب، من دون ان تكون عرضة لفعل العواصف والامواج. وهذا الامر الاخير يحقق بجعلها قائمة على اعمدة ، تتخللها الامواج المتلاطمة ولا تلطمها . أما استقرارها فيحقق بجعل مراكز الثقل في اعمدتها ، تحت المستوى الذي اثبت العلم ان مياه البحر لا تضطرب تحته بل تبقى ساكنة مستقرة

ولا ريب عندنا في ان هذه النواحي من تقدم الطيران ، أو ما هو من قبيلها لا بدَّ ان تدرك في خلال العشرين السنة القادمة

الباب الثاني

نريد ان نوجز الكلام في هذا الباب كل الايجاز . فالمجال أمامنا قد ضاق ، والتحقيق العملي للمبدأ الذي ينطوي عليهِ البحث ، قد لا يأتي قبل جيلين على الاقل

من المسلم بهِ ، ان أشـد خصوم الطيارة ، المندفعة الى الامام بفعل محرّك هو مقاومة الهواء . فاذا زدنا قوة المحرك حتى يقتحم هـذه المقاومة ويتغلب عليها ، زاد ما ينفق من الوقود زيادة عظيمة تجعل تسيير الطيارة لا يتفق بحال ما ، وقواعد العمل الاقتصادي ، بل ان المقاومة تزداد

كربع السرعة،وهي زيادة عظيمة جداً.وقد بذل المستنبطون مساعي عظيمة لتقليل المساحة المعرضة من جسم الطيارة لمقاومة الهواء بجعل شكلها منساباً ، وهذا ما يعرف باسم streamlining ولعل لفظ الانسياب أصلح الالفاظ العربية لتأدية معناه

على أن الخبراء يرون ، ان التحليق في الجو الى علو ٣٠ ميلاً والطيران على هذا العلو حيث الهواء لطيف كل الالطف ، يقلل المقاومة ويزيد السرعة زيادة عظيمة ، من دون زيادة مقابلة في انفاق الطاقة . فالطيارة على هذا العلو تستطيع أن تطير بنفس الطاقة بسرعة تبلغ ٣٠ ضعف سرعتها على علو ألف متر مثلا ، وعند ذلك تستغرق الرحلة من نيويورك الى لندن ساعة واحدة بدلاً من ثلاثين ساعة

ولكن الطيران يتوقف على دوران المحرك في الهواء ، فاذا خفت كثافة الهواء حتى يقرب من الفراغ اصبح المحرك وكأنهُ دائر في الفراغ ، او ما كان قريباً منهُ ، فلا يستطيع ان يدفع الطيارة الى الامام . وقد يتغلب على هذه الصعوبة بعض التغلب بوسائل مختلفة ، ولكنها في الغالب لا تحل المشكلة

وإذن يجب البحث ، عن مبدإ آخر لدفع الاجسام في الهواء اللطيف ، غير مبدإ المحرك ، وهذا المبدأ هو مبدأ الصاروخ . فالصاروخ ينطلق في الهواء بقوة ما يتفجر في مؤخره . ويمكن التمثيل عليهِ ، بأخذ بيضة ونقرها نقرين صغيرين في مقدمتها ومؤخرتها وتفريغ محها وزلالها ، ثم يسد النقر في المقدمة ، وتملأ قشرة البيضة الى نصفها ماء . ثم خذ قطعة من الخشب رقيقة ، ودق فيها أربعة مسامير وضع عليها البيضة بحيث تبقى مرتفعة عن سطح الخشب نصف بوصة او نحو ذلك ، وضع تحت البيضة ذبالة مشتعلة . ثم ضع الخشبة والذبالة والبيضة جميعاً في حوض صغير من الماء . فلا تلبث ان ترى البيضة والخشبة تسيران في الماء كباخرة من البواخر . وتعليل ذلك ان بعض الماء داخل البيضة يتبخر فلا يجد منفذاً يخرج منه الا الثقب الخلفي فيندفع منه بقوة ، فيدفع الخشبة والبيضة في جهة مناقضة لجهة اندفاعه هو

فاذا صنعت طيارات ، في مؤخرتها انابيب تحتوي على مواد متفجرة قوية التفجر ، امكن ان تندفع الطيارة الى الامام بقوة الغازات المنطلقة من الانابيب التي في مؤخرتها ، فهي لا تحتاج الى كثافة الهواء في الطبقات العليا ، كما يحتاج اليها المحرك المألوف ، واذاً تستطيع أن تسير بسرعة عظيمة في طبقات الجو العليا ، وتتوقف سرعتها على قوة المواد المنفجرة التي في أنابيبها .

وقد قام بعض العلماء والمجربين ببحوث وتجارب عديدة في هذه الناحية ، ويعتقد بعضهم ان هذه الطريقة قد تكون في المستقبل وسيلة تمكننا من الانفلات من جاذبية الارض والسير في رحاب الفضاء ، ولهم في ذلك اقوال وتنبؤات ليس هذا مكان التبسط فيها [1]

(١) راجع فصل « السفن السهمية » صفحة ٢٣٧ من كتابنا « فتوحات العلم الحديث »

تاريخ المآذن ومأذنة القيروان

بقلم جناب الكبتن كرسويل استاذ العمارة الاسلامية بالجامعة المصرية

نقله الى العربية السيد محمد رجب مدرس بمدرسة العباسية

﴿ الأذان ﴾ لم تكن المآذن معروفة في زمن النبي صلى الله عليهِ وسلم وقد روى ابن هشام ان النبي حينما هاجر الى المدينة كان يصلي هو وأصحابه من غير أذان . ولكن لما سمع أن اليهود يستعملون قرناً ينفخون فيه ، والمسيحيين ناقوساً أحسّ المسلمون بحاجتهم الى شيء مماثل لذلك يستعملونه هم أيضاً . ويؤخذ من بعض الاحاديث ان الدعوة الى الصلاة اقترحها عمر على النبي صلى الله عليهِ وسلم ولكنهُ علم حينما أخبره بذلك أن الوحي قد سبقه الى ذلك في تلك اللحظة . ويؤخذ من حديث آخر ان عبد الله بن زيد أوحي اليهِ ذلك في منامه فأخبر النبي بهِ فوافق عليهِ واقرَّه وبناء على ذلك أمر مولاه بلالاً أن يؤذن داعياً الى الصلاة فكان بذلك بلال أول مؤذن في الاسلام . وكان من عادة بلال أن يؤذن من أعلى سطح يجاور المسجد الذي كان الى ذلك الوقت فناءَ منزل النبي

﴿ مقدمة عن المآذن ﴾ وذكر المقريزي عند تكلمه عن اعادة بناء مسجد عمرو بالفسطاط (أن الخليفة معاوية أمر مسلمة أن يبني صوامع للأذان فبنى مسلمة أربع صوامع لهذا المسجد في اركانه الاربعة فكان بذلك أول من بنى هذه الصوامع بهِ ولم يكن هناك قبله شيء منها وكان السلم الذي يصعد عليهِ المؤذنون يقع بالطريق حتى حوّله خالد بن سعيد الى داخل المسجد) وفي الوقت نفسه اضيفت المآذن (المنارات) الى مساجد الخطط عدا مساجد خولان وتجيب

هذه أول اشارة الى المآذن . وقد كان مسجدا الكوفة الاول والثاني ومسجد البصرة الأول وربما الثاني أيضاً من دون مآذن كما أن مسجد عمرو الاول بالفسطاط لم تكن بهِ هو الآخر مأذنة . وقد جاء في شعر الفرزدق وهو أحد شعراء العصر الاموي ان الأذان كان يلقى من اسوار المدن

﴿ ماذا كانت هذه الصوامع الاربع ؟ ﴾ ان الخليفة الذي أعطى هذه الاوامر هو معاوية بن ابي سفيان أول الخلفاء الامويين وكان مقرّ حكمه دمشق حيث كان المسلمون يصلون بداخل السور الذي كان بهِ المعبد الوثني القديم وهذا السور الذي نعنيه هو الذي يشغل مكانه الآن المسجد الاموي بدمشق

ولما فتح العرب دمشق كان لهذا السور اربعة أبراج ليست كبيرة الارتفاع في كل جانب من جوانبه برج . ولا شك في أن هذه الابراج كانت المآذن الأولى لان ابن الفقيه (٩٠٣ م) يشير اليها بقوله مئذنة مع انهُ كان يعلم انها ترجع الى ما قبل الاسلام

ولدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن الابراج الاربعة بسور المعبد الوثني بدمشق هي الاصل الذي بنيت على مثاله الصوامع الاربع التي انشأها مسلمة وان هـذه الصوامع كانت أبراجاً صغيرة مربعة ويؤيد هذا الرأي ان كلمة (صومعة) هي الاسم الذي يطلق على المآذن في شمال افريقية وان هذه المآذن هي في الغالب أبراج مربعة في هذه البلاد

وعلى أي الاحوال فمن الواضح ان هـذه الصوامع الاربع كائناً شكلها ما كان، كانت المآذن الاولى في مصر لان المقريزي يقول بصريح العبارة انهُ لم تكن هناك مآذن بمصر قبل مسلمة

ولم تكن فكرة بناء اربع مآذن بأربعة أركان المسجد مقصورة على دمشق والفسطاط. فان الخليفة الوليد بن عبد الملك حينما وسَّع مسجد المدينة جعل مأذنة في كل ركن من اركانه. وليس من الغريب أن نجد ان الحرم الشريف بالقدس كان بهِ أربع مآذن منذ سنة ٣٠٠ هجرية (٩١٣ م) على الاقل. أما ما رواه مجير الدين من وجود اربع مآذن بهِ في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان فهو في نظرنا بعيد الاحتمال للاسباب التي ذكرناها

﴿ اصل الاصطلاحات العربية للمأذنة ﴾ استعملت في العربية ثلاث كلمات للدلالة على المأذنة (١) مئذنة او ميذنة (٢) صومعة (٣) منارة. وتنطق الكلمة الاولى في بعض الاحيان مأذنة (بفتح الميم) وهي مشتقة من الأذان وهو الدعوة الى الصلاة. ومعناها المكان الذي يلقي منهُ الأذان. أما الصومعة فالظاهر أنها الاسم الذي اطلقه العرب على ابراج الزهاد، فانا نقرأ مثلاً ان برج كنيسة يوحنا المعمدان في دمشق كان يقيم بهِ راهب وان هذا الراهب رفض أن يتركه حينما بدأ الوليد في هدمه عند الشروع في بناء الجامع الاكبر. ويتكلم ابن جبير عن زهاد من المسلمين كانوا يشغلون المئذنة الغربية في الجامع المذكور وقت زيارته لهُ. وكانت الكلمة المستعملة في جميع الاحوال هي كلمة صومعة

وقد كانت جميع الابراج السورية والمآذن التي بنيت قبل القرن الثالث عشر الميلادي مربعة ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد أن هذه الكلمة (صومعة) هي الاصطلاح المستعمل في شمال افريقية حيث كان معظم المآذن من هذا الطراز

اما الاصطلاح الثالث (منارة) فكان يطلق اول الامر على المكان الذي تشعل فيهِ النار ثم على الشيء الذي ينبعث منهُ الضوء وقد استعمل بهذا المعنى في اشعار العرب للدلالة على مصباح الزيت او المشكاة التي كان يستعملها الرهبان المسيحيون في خلوتهم وللسبب نفسه أُطلق على منارة جزيرة فاروس pharos بالقرب من الاسكندرية ثم على الفنارات عامة ثم اطلق بعد ذلك على ابراج المساجد لمشابهتها للمنارات ومنه اشتقت الكلمة الانكليزية Minaret. وقد ذكر فان برشم عند بحث اصل المأذنة ان لهذه المسألة ثلاثة اوجه تجب العناية بدراستها

١ — الغرض منها اي استخدامها الاغراض الدينية ٢ — دراستها من الوجهة المعمارية ٣ — دراستها من الوجهة اللغوية. وقد تناولنا الآن النقطتين الاولى والثالثة ونذكر فيما يلي التاريخ المعماري للمآذن

مئذنة مسجد القيروان

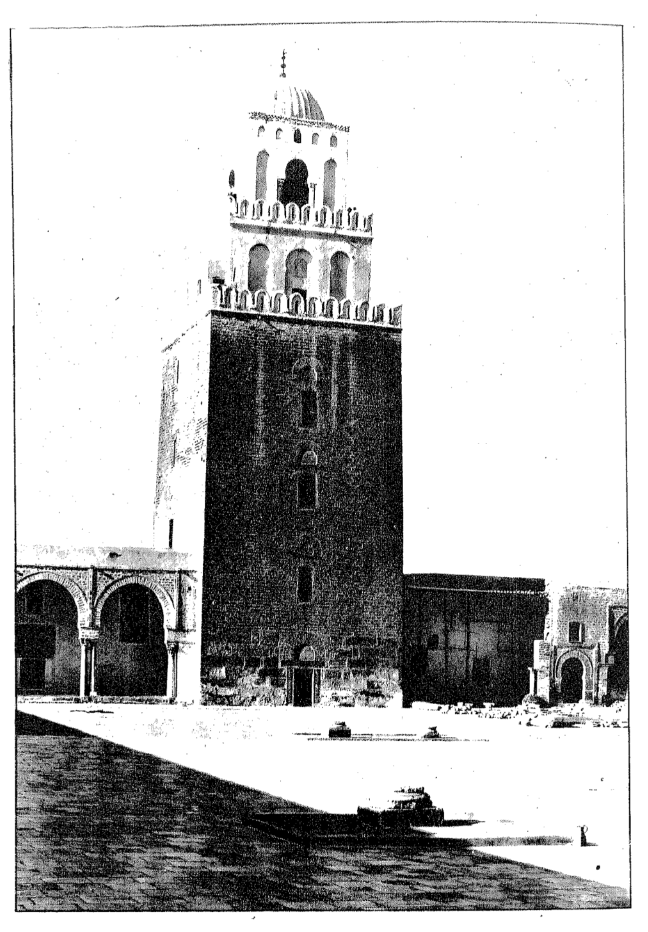
تاريخها : — يقول البكري (١٠٦٨ م) وهو اقدم مؤرخ نعتمد عليهِ في هذا الصدد : —
انشأ محراب مسجد القيروان لاول مرة عقبة بن نافع وقد هدم المسجد جميعه عدا محرابه واعيد بناؤه بامر حسن وهو الذي نقل اليهِ من كنيسة قديمة العمودين الاحمرين المرقشين بالاصفر اللذين يمتازان بجمالها الذي لا يضارع

ولما ولي هشام بن عبد الملك الخلافة (شعبان ١٠٥ هـ . يناير ٧٢٤ م) وصلته رقعة من والي القيروان وكان في ذلك الوقت بشر بن صفوان يقول فيها ان المسجد اصبح لا يسع المصلين وان في شماله مباشرة حديقة متسعة يمتلكها بنو فهر فاجاب الخليفة على هـذه الرقعة بان امر بشراء هذه الارض وضمها الى المسجد وقد اطاع ذلك الوالي وانشأ بصحن المسجد مستودعاً الماء يقع غرب الاروقة . ثم بنى مأذنة فوق البئر التي كانت بتلك الحديقة وضعت اسسها في الماء . ومن غريب المصادفة انهُ وجد ان هذه المأذنة كانت تقع في منتصف الحائط الشمالي بالضبط وكان المؤمنون المخلصون يمتنعون عن الصلاة في الجزء الذي اضيف للمسجد مسوّغين سلوكهم هذا بقولهم ان الوالي قد اكره مالكي الحديقة على بيعها ولا تزال المأذنة حتى اليوم كما بناها حسن . يبلغ ارتفاعها ٦٠ ذراعاً واتساعها ٢٥ ذراعاً ولها بابان يواجه احدهما الشرق والآخر الغرب جوانبهما وسا كفاهما من الرخام المزخرف المنحوت . فقول البكري «ولا تزال المئذنة حتى اليوم كما بناها حسن» يناقض — كما لحظ ذلك ريفويرا Revoira التفاصيل التي سبق ان ذكرها البكري بقوله ان المئذنة التي كانت في عصره كانت تلك التي بناها والي القيروان بشر بن صفوان بامر الخليفة هشام . وفي الحقيقة فقد توضح بجلاء ان الجزء الذي كان يشغله القسم الشمالي من المسجد والمنارة قد اشتري فقط في ذلك العهد ولذلك فذكر اسم حسن لا بد ان يكون جاءَ سهواً من البكري او قد يكون من اخطاء النساخ . فقد كان بشر والياً من ١٠٣ هـ (٧٢١ — ٢ م) الى ١٠٩ هـ (٧٢٧ — ٨ م) الاّ ان تلقيه امراً من هشام في هذا الصدد يجعلنا نرى ان التاريخ المحتمل لهذه المئذنة هو من شعبان ١٠٥ هـ (يناير ٧٢٤ م) الى ١٠٩ هـ

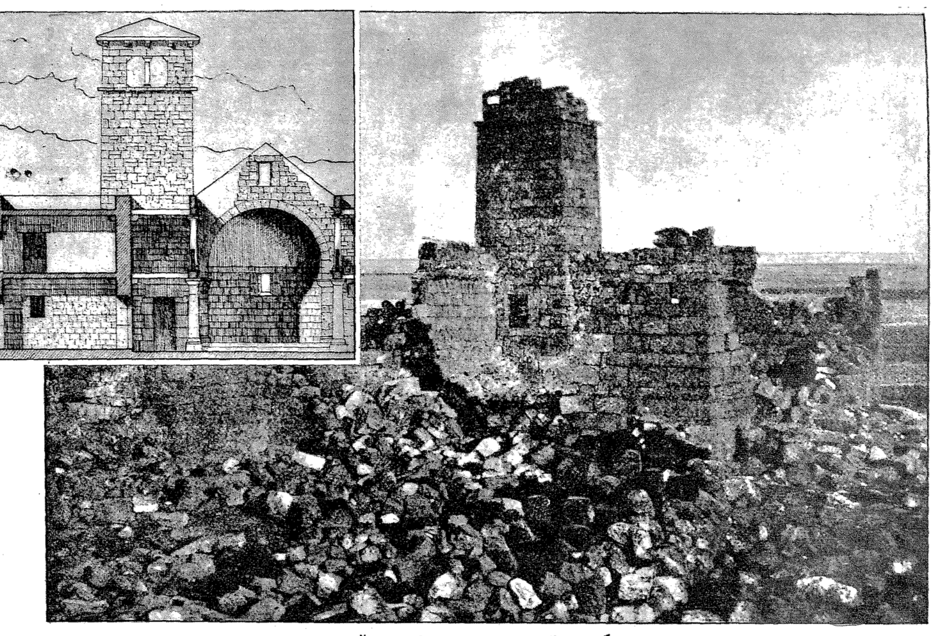
هل المئذنة الحالية هي التي بناها هشام ؟

يقول ريفويرا « يبدأ الطابق الثاني من النقطة التي يرتد عندها جدار البرج . وان مواد البناء اذا حكمنا عليها من ذلك الجزء الصغير الذي يمكن ان يرى من الداخل فاننا نجد انها تختلف عن المواد التي بني منها الطابق الاسفل للمئذنة» الخ

ولكن الحال ليست كذلك في هذه الايام فان بناء جوانب السلم وقلبهُ يمكن ان يرى بوضوح كلما صعدنا الى اعلى وهي متماثلة تماماً ومن نوع واحد وليس هناك اقل شك في ان الطابقين الاول والثاني قد بنيا معاً في وقت واحد . اما الطابق العلوي فهناك ما يدعو الى الاعتقاد في انه يرجع الى النصف الاول من القرن التاسع عشر . ونحن نرى مع مارسيه Marcais ان المئذنة الحالية تنطبق



مأذنة جامع القيروان



برج كنيسة القديس سرجيوس في « ام السرب »

عليها تماماً جميع التفاصيل التي ذكرها البكري. فهو يقول ان المئذنة التي كانت في عصره كان يبلغ كل جانب من جوانبها ٢٥ ذراعاً والآن نرى ان متوسط طول كل جانب من جوانب المئذنة الحالية = ١٠ امتار و٦٣ سنتمتراً اي ان الذراع الذي يتكلم عنه البكري = ٥ر٤٢ السنتمتر. ويقول البكري ان ارتفاع المئذنة ٦٠ ذراعاً فاذا ضربنا عدد الاذرع وهو ٦٠ في طول الذراع الواحد الذي قررنا آنفا انه = ٥ر٤٢ السنتمتر لكان الارتفاع = ٥١ر٢٥ المتر بينما يبلغ الارتفاع كما قسته بنفسي ٢٥ متراً و٣ سنتمترات حتى قمة شرفات الطابق الثاني. وهذا تطابق مدهش في النتيجة التي وصلنا اليها. من ذلك يتضح ان الطابقين الاول والثاني من المئذنة هما اللذان وصفهما البكري (١٠٦٨م) وان الطابق العلوي قد اضيف بعد ذلك العهد ونظراً لان البكري مؤرخ قديم وقد روى لنا بالتفصيل تاريخ بناء مئذنة القيروان فان لنا كل الحق في ان نرى ان هذه المئذنة يرجع تاريخها الى ٧٢٤ م وهي السنة التي ولى فيها هشام الخلافة

واني وان كنت مقتنعاً بأن المئذنة الحالية هي بذاتها التي وصفها البكري فانني اذكر هنا التحفظ الآتي على سبيل الحيطة. فان بناء المئذنة يشبه تماماً بناء الجزء المكشوف من الدعامات التي بالجانب الجنوبي الشرقي من المسجد وهذه الدعامات لا يمكن ان تكون قد بنيت قبل سنة ٢٣١ هـ (٨٣٦ م) وان هـذه المئذنة التي ينطبق عليها ما رواه البكري ربما كانت حقيقة جزءاً من المسجد الجديد الذي بناه زيادة الله في تلك السنة (٢٢١هـ) ولهذه المناسبة يجب ان نتذكر ان البكري نفسه لم يزر شمال افريقيا ولكنه صنف كتابه معتمداً على مؤلفات كتاب آخرين كان اغلبهم في النصف الاول من القرن الحادي عشر وعلى التقارير الرسمية التي كان يكتبها المعاصرون من عمال الدولة الاموية باسبانيا وقد عزا مرة الى زيادة الله ٢٢١ هـ اعمالاً يظهر انها لم تكن من عمله بل من عمل ابي ابراهيم احمد الذي خلفه في سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢م). على اننا حتى لو عزونا هذه المئذنة الى زيادة الله فانها مع ذلك اقدم مئذنة في الاسلام موجودة الى الآن اذا استثنينا مئذنة قصر الحير

﴿ الاصول المعمارية ﴾ ان اهم ما يستوقف النظر من التفاصيل المعمارية في هذه المئذنة هو معالجة مدخلها الذي يذكرنا بمدخل البرج الذي يقع شمالي حماه بنحو عشرة اميال كما يشبه مدخل الجزء السفلي القديم من المئذنة الجنوبية الشرقية بالمسجد الكبير بحماه. ونظراً لان مئذنة القيروان قد انشئت بأمر الخليفة الاموي الذي كان مقر حكمه سوريا فلذلك نجد اثر العمارة السورية واضحاً فيها. فاذا اردنا مواصلة بحثنا وجب علينا معالجة التطور المعماري للمآذن

﴿ التطور المعماري للمآذن ﴾ رأينا فيما سبق ان المئذنة التي بناها عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ (٧١٧ — ٧٢٠ م) بالرملة ، لا بد انها كانت برجاً مربعاً وانهُ من الطبيعي جدًّا ان تكون كذلك لان ابراج الكنائس قبل الاسلام كانت من هذا الطراز ويمكن ملاحظة ذلك في كثير من الكنائس التي بقيت الى يومنا هذا والتي نذكر منها الامثلة الآتية : —

١ — (قصر البنات) . دير ذو برج مربع يبلغ ارتفاعه ٢٣ قدماً بناه كيريوس Kyrios وربما كان هذا الاسم هو اسم المهندس الذي وجد منقوشاً على اربع كنائس اخرى في كتابات يختلف تاريخها من ٣٩٠ الى ٤١٨ م

٢ — (أم السرب) في حوران الجنوبي . كنيسة للقديس سرجيوس Sergius وباخوس Bacchus وبها برج عال مربع الشكل لا يزال سليماً — عدا سقفه فقد تهدم — وقد بني سنة ٤٨٩ م

٣ — (سما) في حوران الجنوبي . دير القديس جورج وبهِ برج مربع يبلغ ارتفاعه حوالي ١٢ متراً ولا يزال سليماً وقد بني سنة ٦٢٤ — ٦٢٥ م

٤ — (ام الرصاص) وبها برج مربع طول كل ضلع منه ٢٫٥٠ المتر وارتفاعه حوالي ١٢ متراً وبجانبه بقايا بناء يعتقد ترسترم Tristram (١٨٧٢م) انه كان كنيسة نظراً لانهُ استطاع أن يميز بها بقايا هيكل كنيسة . أما فنسنت Vincent فيقرر أن هذا البناء كان حصناً ويقول برونوف Brunnow وفون دوماس زويسكي Von Domaszewksi ان هذا البناء المتهدم كان كنيسة . وفي الحقيقة يوجد هناك بناءان متجاوران أحدهما يظهر أنهُ كان برجاً محصناً (قد يكون كل ما تبقى من سور المدينة) والآخر وهو اكثر تهدماً لكنه متصل تماماً بالبرج ونحن نرى أن هذا البناء كان كنيسة لان هناك صليباً يونانياً محفوراً على الواجهتين الشرقية والغربية للبرج

٥ — (جرادة) . يضاف الى الامكنة السابقة البرج ذو الخمس الطبقات الملاصق لاروقة كنيسة جرادة فان هذا البرج لا يزال في حالة جيدة

يتضح اذاً ان المئذنة المربعة بالرملة ومئذنة القيروان هما مثالان من امثلة استمرار الاخذ بالتقاليد المعمارية السورية التي كانت بسوريا قبل الاسلام وليس بهذه المآذن طبقات مثمنة او مستديرة كما ان الطابق العلوي لم يكن اساسيًّا كما رأينا . ولا يمكن ان يدعي احد — كما فعل تيرش — Thiersch ان كل مئذنة ذات طبقات مربعة ومثمنة ومستديرة على التوالي قد اشتقت من الفنار ثم يدعي هذه الدعوى نفسها في مئذنة اخرى كل طبقاتها مربعة على ان النسب التي لحظت في جميع الطبقات السفلى في كل حالة غير متشابهة كما يدعي تيرش . مثال ذلك : ان نسبة قاعدة الطابق السفلي للفنار الى ارتفاعه تساوي ٥ الى ١٢ بينما نجد النسبة في مئذنة القيروان حوالي ٥ الى ٩ اضف الى ذلك ان مئذنة القيروان هي اشبه بابراج الكنائس في سوريا منها بابراج الفنارات

﴿ الخلاصة ﴾ يمكننا الآن ان نقرر — ونحن واثقون — ان فكرة بناء المئذنة نشأت بسوريا في عهد الخلفاء الامويين وان المآذن الاولى كانت هي الابراج المربعة القديمة بسور المعبد الوثني بدمشق . وان المآذن التي بناها المسلمون اشتقت معماريًّا من أبراج الكنائس السورية . اضف الى ذلك ان التقاليد المعمارية السورية في بناءِ المآذن قد بقيت عدة قرون بل أنها نفذت الى الجانب الشمالي من بلاد الجزيرة (بين النهرين) كما يلحظ ذلك في مآذن الرقة وحران وديار بكر

اله القدر

الدكتور رمزي مفتاح

[قد يعتقد المرء بالقوة الالهية اعتقاداً موروثاً
او اعتقاد علم يقين ، ومع هذا الاعتقاد قلما يخطر
له أن الناس هم قضاؤه هو وقدره]

كم شكونا سطوةَ الأقدارِ كمْ   تسلبُ النُّعمى وترمي بالالم

***

يا حبيبي ! حينما فارقتني   ذَبُلَ الزهرُ وزهرُ الناس لمْ
فأرى العيشَ وما كنتُ أرى   عابساً وهو لغيري يبتسمْ

***

حكمُ ربي أو قضاءٌ عابثٌ   يرفع الوغدَ ويزري بالاشمّ
يرفع الرأس نخاراً بالذي   نالَ دون الحرِّ من تلك النِّعمْ
نَقَمَ القلبُ عليه فَخُرَهُ   لو تساوى الناسُ يوماً ما نَقَم

***

وعزيزٍ غادرَ الدنيا فهلْ   قد سلا قلبي عزيزاً في الرممْ ؟
وصديقٍ هاجرٍ هل بعدهُ   غير حقدٍ أو حنينٍ أو ندمْ ؟

***

سطوةُ الاقدارِ في اهوائها !   كم شكونا سطوةَ الاقدارِ كمْ
لا تقلْ حكمُ الهٍ عادلٍ   انما الاقدارُ من لحمٍ ودمْ ...

اسماء النجوم

للفريق الدكتور امين باشا المعلوف

نشرتُ في سنة ١٩٢٩ في مجلة المجمع العلمي العربي اسماء بعض النجوم بالانكليزية وما يقابلها بالعربية وكتبت قبل ذلك الى العلامة احمد تيمور باشا استفتيه في الامر فاشار عليَّ رحمهُ الله ان ارسل الجداول برمتها الى العلامة السيد عبد الحميد البكري ففعلت وبعثت اليهِ بالجداول كلها كما وردت في معجم وبستر مع ما يقابلها بالعربية فتفضل حفظهُ الله واجابني على الفور واستحسن ما كتبتهُ وخالفني في الفاظ علّق عليها تعليقاً يدل على سعة علمهِ ودقة بحثهِ . ونشرت هذه الجداول في مجلة المجمع العلمي العربي كما تقدم . ثم عدت الى مصر فلقيت يوماً صديقي الاستاذ محمد مسعود فاعطيتهُ نسخاً منها ليعلق عليها . وقد رأيت الآن ان اعيد نشر هذه الجداول بعد اضافة ما عثرت عليهِ اثناء مطالعتي . وفي ما يلي صورة الجزء الاول منها اما المجموع فسينشر على حدة بعد العثور على حروف يونانية لانها ضرورية جدًّا في مثل هذا البحث . وكان جملة ما نشرتهُ في مجلة المجمع نحو مائة كلمة بلغت كلها نحو ٢٤ صفحة من قطع الربع وقد اضفت اليها الآن سائر المصطلحات الفلكية فصارت كأنها معجم فلكي يقع في ما يقرب من مائتين وخمسين صفحة

انحراف النور — Aberration of Light

تغيير في مكان جرم سماوي حادث من حركة الارض في فلكها. وكنت اود ان اسميهُ زَوَغان النور او زَيَغانهُ ولكن الفلكيين من العرب قالوا انحراف النور (فانديك ونلّينو) وانحدار النور (نلينو)

امتصاص النور — Absorption of Light

نقص يظن انهُ يقع في لمعان النجوم البعيدة

التسارع — Acceleration

زيادة بطيئة في سرعة القمر في دورانه حول الارض . ويقال التسرُّع ولكن التسارع افضل

آخر النهر الظليم — Acamar. Theta Eridani

آخر النهر الظليم — Achernar. Alpha Eridani

يسمى الافرنج هذا النجم والذي قبله آخر النهر ويُظن ان الاول منهما رصده الصوفي وسماه آخر النهر او الظليم وكان في ايامه من القدر الاول اي انهُ كان آخر النهر اما الآن فنير النهر هو هذا اي الثاني منهما (انظر كلمة اريدانوس في المعلمة البريطانية) . وكتب اليَّ السيد البكري في تعليقه على الاول منهما ان الكلمة تصحيف آخر النهر فكأنهم قرأوا Acarnar و Acamar وهذا غير بعيد وسيأتي في ما يلي انهم صحّفوا الكلمات العربية اكثر من ذلك كثيراً

الماصح Achromatic

اي مزيل اللون يقال نظارة ماصحة وبلورة ماصحة

اللصيق Acolyte

نجم خفيّ قرب نجم آخر اشد منه لمعاناً كالسُّها في الدب الاكبر فهو كوكب خفي قالوا انهُ ملاصق للعناق وكنت اود ان أترجم هذه الكلمة بالتابع لكن العرب سموا الدبران تابعاً وهو ليس من الكواكب الخفية بل من اشدها لمعاناً . كذلك الاقمار فان المحدثين سموها التوابع Satellites لذلك ارى ان تترجم هذه الكلمة باللصيق

See Alcor

انور الاكليل او اكليل الجبهة . بيتا العقرب Acrab. Beta Scorpii. Called also Iklil or Iklil al Jebha

لا يخفى ان العقرب عند العرب اسم صورة يقال لنيّرها قلب العقرب وسيذكر. اما هذا فليس النير بل كوكب آخر في الاكليل او اكليل الجبهة فاكليل الجبهة ثلاثة نجوم هي بيتا وذلتا وپي اوخمسة هي رو وپي وذلتا وبيتا وأبسلون فيكون انور الاكليل هو المرموز له بحرف بيتا اليوناني . وينبغي ان يشار هنا الى الاكليل فهو صورة شمالية واخرى جنوبية لا علاقة لها بالعقرب فاكليل العقرب غير الصورة

[See Scorpio, Antares, Corona]

أُفولي Acronical, Achronical

يقال عن جِرم سماوي اذا شرق او غرب عند افول الشمس. والافولي عن النجاري بك

نيّر نُعَيم Acrux. Alpha Crucis

ونعيم هو الصليب الجنوبي كما سيجيء

[See Crux]

نيّر السرطان . الزُباني الجنوبي Acubens. Alpha Cancri

يقول لاين في معجمه المشهور ان نير السرطان هو الطَرْف ولكن هذا الكوكب ليس الطرف

بل في الزباني الجنوبي من السرطان والطرف عند الافرنج Altarf وسيأتي ذكره . ويقول وبستر ان الكلمة من زباني العربية وهو من اغرب ما رأيت في التحريف

See Cancer

Adara. See Adhara

Adhafera. Zeta Leonis. ضفيرة الاسد

وتسمى ايضاً الهلبة ولها اسماء اخرى غير هذه

See Coma Berenices

Adhara, Adara. Epsilon Canis Majoris كبرى العذارى

هي عند الافرنج إبسلون الكلب الاكبر والعذارى عند العرب خمسة كواكب على كتف الكلب الاكبر وذنبه وفخذه وهي حسب رواية فانديك ابسلون وذلتا وايتا واُميكرون و٢ الكلب الاكبر فالاول منها اي ابسلون هي كبرى العذارى اما الثالثة اي ايتا فاسمها العذرة وسيأتي ذكرها

See Aludra, Canis Major

Adib, Thuban. Alpha Draconis الذيخ

سمى الفلكيون من العرب هذا الكوكب بالذيخ منهم الصوفي والقزويني.قال القزويني في وصف التنين وفي اصل الذنب كوكب يسمى الذيخ وهو ذكر الضباع فاخذ الافرنج قولهم لكنهم تركوا الذيخ وبقيت كلمة الضباع فقالوا Adiba ثم جعلوها Adib فصار اسم هذا الكوكب Adib (انظر هذه الكلمة في معجم وبستر) . وفي نسخة الصوفي التي اطلعت عليها الديخ بالمهملة والصواب الذيخ بالخاء المعجمة وهي كذلك في القزويني طبع اوربة وفي الفيروزابادي وفي جميع كتب اللغة واظن هذا يفسر كلمة Adib التي نجدها عند الافرنج

اما كلمة ثعبان وهي الكلمة الثانية التي اُطلقها الافرنج على هذا الكوكب فسببها ان العرب سموا التنين بالثعبان ايضاً والدليل على ذلك انهم سموا كوكباً في التنين برأس الثعبان Rastaban وسيأتي ذكرهُ . فالذيخ كوكب في ذنب التنين اي الثعبان والآخر في رأسهِ وهو من الكواكب المعروفة بالعوائذ . وقد كنت حائراً في امر هذا النجم لذلك لم اذكره باسمه هذا في ما نشرته في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بل قلت انهُ لا يعقل ان العرب لم يذكروا نجماً من القدر الاول في التنين باسمه. اما الآن فقد اهتديت اليهِ وهو الذيخ وليس الثعبان فان العرب لم تذكر نجماً اسمهُ الثعبان في ما اعلم . ثم ان الافرنج قد سموا هذا النجم El Asich ذكره استاذنا الدكتور صرّوف في كتابهِ بسائط علم الفلك

Aerolite حجر جَوّي

نوع من الرجوم ليس فيه الاّ قليل من الحديد

الأثير Aether. See Ether

مادة يقال أنها تملأ الفضاء

الوزن . بيتا قنطورس Agena. Beta Centauri

هذا عن السيد عبد الحميد البكري

الدب الاكبر Aish. An ancient name for the Great Bear

والكلمة الانكليزية عبرانية الاصل وهي عيش بالعبرانية

الاظفار . أظفار النسر الواقع . ايتا الشلياق Aladfar. Eta Lyrae

هي الشلياق في فانديك وأظنه مصيباً فهي ليست السلياق المهملة

سعد بالع . سعد بُلَع Al Bali. Eta Aquarii

وهو المنزل الثالث والعشرون من منازل القمر

See Aquarius

البياض Albedo of a Planet

ويراد بهِ نسبة النور المنعكس عن سطح سيار الى ما يأتيه من نور الشمس والكلمة ليست عربية ولكنها شبيهة بالعربية

منقار الدجاجة Albireo. Beta Gygni

والكلمة الاعجمية ليست عربية الاصل بل هي تصحيف ما ورد في المجسطي

See Gygnus

الخباء . منقار الغراب . نيّر الغراب . والخباء كذلك الصورة كلها Alchiba. Alpha Corvi

See Corvus

السُّها . السهى Alcorag Ursae Majoris

نجم خفي ملاصق للعناق من بنات نعش في الدب الاكبر كان الناس يمتحنون بهِ أبصارهم ومن أسمائه الصيدق والصيدوق . والكلمة الافرنجية من خوّار العربية فقالوا في وصفه كوكب خوّار أي ضعيف وقد تكون الكلمة من حَوَر العربية والحور كوكب آخر من بنات نعش الكبرى وهو رأي الاب لامنس ولكنني ارجح قول وبستر وهو ما تقدم

See Ursa Major

الذراع اليمنى . الفا قيفاوس Alderamin, Alpha Cephei

والاسم عربي من الذراع اليمين أي اليمنى

نير الثريا . وَسَط الثريا Alcyone

ويقال له الكيوني أو القيوني وهذه يونانية

الدَبَران . نيّر الثور Aldebaran. Alpha Tauri

ومن أسمائه عين الثور وثاني النجم والتابع وتالي النجم وسائق الثريّا وتابع النجم أي الثريّا وحادي النجم والمِجدَح والمُجدح والفنيق . وقد سمي بالدبران لاستدباره الثريا . أما النجم فمن أسماء الثريا

See Taurus, Pleiades

Aldhafera. Same as Adhafera

الذئبان . ايتا وزيتا التنين Aldhibain. Eta & Zeta Draconis

See Draco

نيّر الفكة Alfeta. Alpha Coronae Borealis. See Alphecca

الفِرق . بيتا قيفاوس Alfirk. Beta Cephei

Algedi. See Geidi & Dabih

جبهة الاسد . جمّا الاسد Algeiba. Gamma Leonis

See Leo

جنب الفرس . جَناح الفرس Algenib. Gamma Pegasi

هو أحد كواكب مربع الفرس ويسمى مع سرة الفرس الفرغ الموخر أو الفرغ الثاني

See Pegasus

مَرْفِق او مِرْفَق الثريّا Algenib. Alpha Persei. Called also Mirfak

جنب فرساوس أي من أسمائه جنب فرساوس

Algiba. Same as Algeiba

رأس الغول Algol. Beta Persei

نجم مشهور متغير

الغراب . جناح الغراب الشرقي أو الايمن Algorab. Delta Corvi

جناح الغراب الغربي Algores, or Gienah. Gamma Corvi

الميْسان . انور الهنعة Alhena. Gamma Geminorum

الهنعة كوكبان زاهران في المجرة بين الجوزاء أي الجبار ورأس التوأمين أنورهما الميسان والآخر الزّر وهما المنزل السادس من منازل القمر . فأطلق الافرنج اسم الهنعة على أنورهما أي الميسان أما الزر فأطلقوه على كوكب آخر هو إكسي التوأمين

See Gemini

الحَـوَر . الجَـوْن . الأَلية Alioth. Epsilon Ursae Majoris

كوكب من بنات نعش الكبرى وهو الثالث منها قرب المغرز . أما كلمة الأُلية فعربية قال الاستاذ محمد مسعود في تعليقه على هذا النجم ما نصه: سماه الأُلية اذفونش العاشر ملك قشتالة وقد تلقى علم الفلك على عرب الأندلس في قرطبة وألف الزيج المعروف باسمه . أما الحور فقد قال الفيروزابادي الحور من بنات نعش وسماه عبد الرحمن الصوفي بالجون لانهُ يكوّن مع المغرز والفخذ تجويفاً يشبه الخليج الصغير وتابعه على هذه التسمية ألغ بك ابن تيمورلنك

ابرة العقرب Al Ibret. Lamda & Upsilon Scorpii

أي شولة العقرب مع اللسعة

See Scorpio, Shaula, Lesath

القائد. قائد بنات نعش Alkaid. Eta Ursae Majoris. Called also Benatnasch

كوكب في بنات نعش الكبرى هو طرف بنات نعش الكبرى ويسمى القائد هذا قائد بنات نعش ويسميه الانكليز أحياناً بنات نعش باسم نجوم الذنب جميعاً See Ursa Major, Benatnasch

القَـطْـرَبوس . في العواء أو الصياح Alkalurops. My Bootis

هو كوكب في رمح العواء قال السيد البكري تعليقاً على هذا النجم لعله كما ذكر فانديك تصحيف لاسم عصا الراعي باليونانية

القفزة الثانية في الدب الاكبر Alkaphra. Chi Ursae Majoris. See El Kophra

هي تصحيف القفزة الثانية فقرأوا الزاي المعجمة راءً مهملة

نير الكاس او الباطية Alkes. Alpha Crateris

See Crater

عناق الارض Almach, Almack, Almak, Gamma Andromedae

ويقال الماق والموق ورِجْل المسلسلة . جَما المسلسلة

المجسطي . كتاب في الفلك الفهُ بطلميوس ونقله العرب الى لغتهم Almagest

والميم في بطلميوس قبل الياء فيقال بَطلميوس لا بطليموس والمجسطي بكسر الطاء فلا يقال المجسطى بل المجسطِي

المتقدِم للقطاف . المقدَّم للقطاف Almuredin. Epsilon Virginis. Called also Vindemiatarix

أسلون السنبلة او العذراء اما الكلمة الانكليزية فمن الموردين العربية

See Virgo. Vindemiatrix

بنيون الفنان

بين التصوير والشعر

للدكتور احمد زكي أبو شادي

(١)

شهدت مصرُ في السنوات الاخيرة من النجوم المتألّقة في عالم الأدب — على تفاوتٍ في القدر وتباينٍ في الاشعاع — ما شغلها أو بالأحرى ما شغلَ انديتها الأدبية المحترمة بالحديث عنهم أسابيع متوالية. وآخرُ من أتيح لي الاستمتاع بأدبهم عن كثبٍ من أولئك الزائرين الأعلام الشاعر الانجليزي المخضرم لورنس بنيون (Laurence Binyon) وقد ألقى بدعوةٍ من الجامعة المصرية بضعَ محاضرات في ردهة الجمعية الجغرافية الملكية عن التصوير الفارسي والتصوير الصيني، وعن التقليد والثورة في الشعر الحديث، وعن التعاليم الروحية للشاعر وليم بليك، كما قرأ نماذج مختارة من شعره. ولم يفته أن يلقي محاضرة عامّة عن معارفه من شعراء الانجليز في كلية الآداب بالجامعة، وكانت هذه اخرى محاضراته التي دُعيتُ الى سماعها في ١١ مارس الماضي، كما كانت أُولى محاضراته في الثامن عشر من فبراير المنصرم. وكان موفّقاً كلَّ التوفيق فيها جميعاً، وقد اجتذبَ اليهِ الأدباء العارفين بالانجليزية من شتّى الطبقات. لذلك لم اعجب لاهتمام صديقي محرر (المقتطف) بهذه المحاضرات التي يسرّني أن أُلبيَ رغبته وغيرته الأدبية في التعليق عليها، معرّفاً بهذا الشاعر المجيد المجهول لدى من لايطالعون الأدب الانكليزي

لقد عاصرَ لورنس بنيون الشاعر تينسون والشاعر سونبرن وغيرهما من كبار الشعراء في أواخر العصر الفكتوري وللامبراطورية الانجليزية ما لها من العظمة المتألّقة والطمأنينة الشاملة والثقة الكبرى مما كان له أثرهُ البالغ في مَرائي الشعر الانجليزي، كما صاحب تطوّر الشعر الانجليزي في عصرنا الحاضر وله ما له من صلات الصداقة بهاردي وبردجز وماسفيلد ودي لامار وغيرهم، ولا يزال يُنتجب من الشعر الناضج الكلاسيكيّ الصياغة غالباً العصريّ الروح ما يسترعي بهِ عناية الأدباء عشّاق الشعر المتسامي. فهو شخصية فذّة جامعة الى الشيخوخة في السن فتوّة في الروح الشعرية ولكنها فتوة أنضجتها التجربة الطويلة وتأملات الحياة والثقافة. ولم يزدني تعرفي الشخصيّ له الا اقتناعاً بذلك، فقد وُلد هذا الشاعر الكبير في العاشر من اغسطس سنة ١٨٦٩ ومع هذا فان مظهره

وقوته الخطابية وحضور بديهته وروحه الشعرية الغلابة مما لا يعز هذه السنّ. وقد درس بنيون في مدرسة سانت پول بمدينة لندن ثم في جامعة اكسفورد وأظهر منذ صباه نبوغاً جلياً في الشعر فنال سنة ١٨٩٠ (اي في الحادية والعشرين) جائزة نودجيت لقصيدته الموسومة (پرسيفون) ، والتحق بالمتحف البريطاني في سنة ١٨٩٣ وعُهد اليه فيما بعد بادارة قسم المطبوعات والنقوش الشرقية فبرع في دراستهما بما لهُ من حب الفن وقدرة النقد الحصيف . والى همته وخبرته يرجع الفضل في اخراج فهارس المتحف البريطاني عن الصور الانجليزية والتصوير الخشبي الياباني (وهي في اربعة اجزاء) ، الى جانب مؤلفاته المتعددة عن الفن الصيني والياباني والهندي ، وعن تصوير الشاعر الفنان وليم بليك وحفره . فنال بجدارة شهرة عظيمة كناقد فنان ومؤرخ عظيم للفن الشرقي ، الى جانب سمعته المحترمة كشاعر جهير صادق الشاعرية كما شهد لهُ السير جون اسكواير الناقد الشاعر الانجليزي العظيم ومحرر مجلة (عطارد) اللندنية . وأول دواوينه الشعرية أخرجهُ سنة ١٨٩٤ ، وآخر شعره المجموع ظهر سنة ١٩٢٧ في صورة مختارات للشاعر نفسه . وهو يعنى الآن بعمل شعري جليل يقدر لاتمامه — كما اخبرني — نحو سبع سنين ، وقد اكتفى بما قدَّمهُ لخدمة التصوير الشرقي بعد ان اعتزل خدمة المتحف البريطاني سنة ١٩٣٣ وتفرغ للشعر ، كما انهُ يُعنى بترجمة دانتي الى الانجليزية . ولعلّ اهمّ محاولاته الشعرية حركتهُ العظيمة لاعادة الدرامة الشعرية المرسلة النظم الى المسرح الانجليزي ، وهذا يُشعرنا بروحه الفنيّة الطليقة حيثما تحبذ الطلاقة الكاملة

هذا هو الشاعر الناقد الفنان الذي حفلت بدعوته الجامعة المصرية لالقاء محاضراته القيّمة الجامعة بين التصوير والشعر والنقد الفني ، فكانت هذه المحاضرات غنماً عظيماً للأدباء في مصر ، كما كان الاحتكاك بشخصيته الجهيرة غنماً أجلّ . ولعلّ اكبر المزايا لمحاضراته تفسيره المشترك للفنون ، فهو حينما يتكلم عن التصوير الفارسي او الصيني شاعرٌ فيلسوفٌ ، وهو حينما يتناول الشعر بالدراسة مصورٌ ساحرٌ ، وهو حينما ينقد الآثار الفنية خبيرٌ يهدم ويبني ببراعةٍ فائقةٍ . لذلك لم أدهش لاعجابه بالشاعر بردجز لدقته التصويرية والتأملية ، ولا لاعجابه بالأديب الشاعر الناقد إبحرام بريان الذي فسَّر الادب الانجليزي تفسيراً فنيًّا فاتناً . فهذه هي هي روح بنيون نفسه موزعة على من قدَّرهم وأحبهم وهي أظهر لديه منها لدى جون درنكووتر فيما لحظتُ وقدرتُ ، وقد قرأت لكلا الشاعرين الناقدين واستمعت لهما . وهذا الأسلوبُ الطريفُ الجميل في المحاضرة كان في الواقع خلاَّباً لألباب المستمعين وأنا بينهم ، فان لتوحيد الفنون من الجاذبية النفسية ما له ، ولا ينافي هذا التصريح ما ندعو اليهِ من تحديد استقلالها أولاً من باب التنمية لعناصر كلّ منها ، فان التمازج بينها تأليفاً أو تفسيراً شيءٌ وارضاخ أحدها ارضاخَ الضعفِ لغيره شيءٌ آخر

إذن ليس الحديث عن لورنس بنيون بالحديث السهل ، فهو متعدد النواحي في نبوغه ، عظيم الايمان برسالته الفنية التي يعبر عنها في دقة وحرص مع البعد عن الثرثرة بعده عن الابهام ، فهو

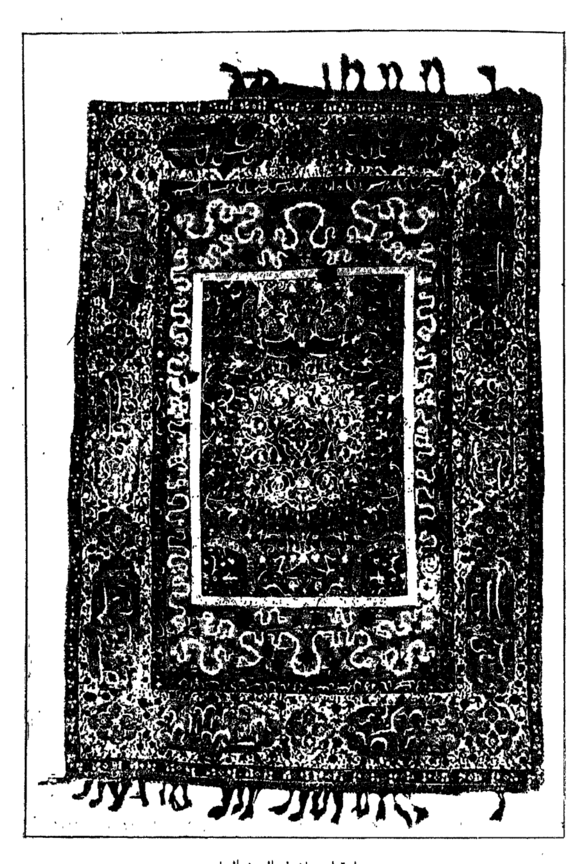
فصيح رائع محبوب ، له بساطة العظمة ، وله الروح الانجليزية السمحة التي يفهمها من عاشر مفكري الانجليز وأدباءهم في بلادهم حيث يتنفسون في جو الحرية والديمقراطية

(٢)

يعتبر فن التصوير الفارسي كما نعرفهُ فنًّا اسلاميًّا إذ لم يبق شيء يذكر من آثاره قبل القرن الثالث عشر للميلاد . وقد بدأ بصورة تجريبية مختلفة العناصر متأثرة بالفن الصيني في القرن الرابع عشر حتى اذا جاء القرن الخامس عشر أخذ الروح الفارسي المستقل يتجلى فيهِ . وقد ظهر في ذلك القرن فيما بعد الرسام الفارسي بهزاد زعيم مدرسة نابهة وأشهر الرسامين الفرس وقد أمضى معظم حياته في هرات ، وأشهر صوره الموثوق من اصالتها في دار الكتب الملكية بمصر . وفي القرن السادس عشر في عهد الاسرة الصفاقية ظهرت مدرسة فخمة للفن الفارسي نهضت بهِ الى غاية الرونق الفاخر . ولكنهُ أخذ في الاضمحلال بعد ذلك وان يكن الفنانون الفرس الذين أنشأوا حينئذٍ المدرسة المغولية في الهند

بهذه المقدمة مهَّد الشاعر لورنس بنيون لمحاضرته الاولى منبهاً المستمعين الى أن الفن الفارسي محدود الطاقة فانه لم يستطع أن يبرز لنا من الخواطر الدينية مثل ما أبرز الفن المسيحي أو البوذي ، ولو أن الفن الفارسي قد أبدع أحياناً في تصوير اسراء النبي (صلعم) كما نشاهد ذلك في أثر الفنان الفارسي نظامي المحفوظ بالمتحف البريطاني في لندن . كذلك لا نجد فارس أنجبت شيئاً من فن الطبيعة الخالص ، وكان شائعاً حينئذٍ في الصين كما لم تنجب تصوير الأشخاص في إبداع صحيح بل كان تصوير الأشخاص نادراً . ولكن بالرغم من حدود الفن الفارسي في التصوير فانهُ كان في بعض صفاته عديم النظير . فقد كانت لهُ القدرة الممتازة على استعمال أزهى الالوان وأنقاها ومزجها مزجاً فنيًّا بديعاً . وكان أداةً فذّةً في التعبير عن عظمة الدنيا ، متفرداً تفرّد الجوهرة المتألقة ولكن في غير بهرج . ولم تكن هذه الروح الفنية وقفاً على التصوير الملوّن فان الرسم الخطي أيضاً كان قويًّا في التعبير

وقد عرض المحاضر الالمعي في لغته الشعرية كثيراً من الألواح المصورة بالفانوس السحري منبهاً الى أن تلك الصور — بالرغم من قيود التقاليد — نابضة بالحياة الفنية ولها جوُّها الخاص ، فنكاد نشعر بمرور الريح بين الأشجار ونحسّ بالحياة فيما حولها ونسمع خرير المياه المتسلسلة وان يكن هذا الابداع أقوى ما يكون في الفن الصيني الاصيل الذي تأثر بهِ الفن الفارسي . وبين الصور البديعة التي عرضها صورة يونس في الحوت وصورة اسكندر المقدوني جالساً بين حكماء اليونان السبعة وفي مقدمتهم أرسطو وأفلاطون ، وهذه الصورة من مظاهر اهتمام الفرس بأعمال الاسكندر التي سارت بحديثها الركبان في ذلك الوقت . ولعلّ من أجمل هذه الصور وأشدّها بروزاً صورة



من صناعة اصفهان في القرن السادس عشر

سجادة من الحرير مشغولة بالذهب والفضة وباطارها الخارجي جامات مستطيلة عليها كتابات وفي وسط السجادة زخارف من الازهار وفيها ايضاً خطوط متعرجة تدل على ما بها من تأثر بفنون الشرق الاقصى وكانت هـذه السجادة في كنوز كاتدرائية بلنسية وآلت الى صاحب السمو الامير يوسف كمال فاهداها الى دار الآثار العربية . وقد عرضت في معرض الفن الفارسي بالقاهرة — (زكي محمد حسن)



صحن من الفضة المذهبة وعليه رسم بارز لملك ساساني في الصين وهو محفوظ في المتحف الاسلامي ببرلين ويرجع عهده الى القرن السادس الميلادي

(زكي محمد حسن)



اناء من الخزف على شكل تمثال امرأة . من صناعة الري بايران في القرن
الثالث عشر محفوظة الآن بالمتحف الاسلامى ببرلين
(زكي محمد حسن)



سلطانية من خزف من صناعة الري ببلاد ايران يرجع تاريخها الى اوائل القرن الثالث عشر الميلادي وزخارفها مختلفة الالوان على ارضية بيضاء وفي وسطها صور ثلاثة اشخاص فوقهم وتحتهم صور طيور للاثنين الاسفلين منها رأسا انسان . وحافة السلطانية مزينة بشريط من الكتابة الكوفية

(زكي محمد حسن)

النبي (صلعم) صاعداً الى السماء السابعة (المعراج)، وهي صورة فذّة في تصميمها الفني وفي تكوينها. ومن ألطف الصور التي عرض لها المحاضر صورة ملك في احدى غزواته وقد اعترضته عجوزٌ شاكيةً من تصرُّف جنوده. فسألها الملك أن تخلي له السبيل لانهُ متعجلٌ الغزوة. فقالت لهُ العجوز: أليس الاولى بك أن تسيطر على رجالك بدل ان تفكر في غزو الآخرين؟!

والواقع أن مركز البلاد الفارسية جغرافيًّا وسياسيًّا أهَّلها لهذه الالوان المختلفة من الثقافة فظهرت في فنها بجلاء، وإن احتفظ الفن الفارسي بشخصيته بحيث لا يصعب تمييزها في جميع آثاره، وهي شخصية مستمدة من صميم الواقع مع احترام للتقاليد وعناية بالحدود المرسومة لهُ عناية توجب الحرص على التناسق والزخرفة الدقيقة واجتناب الترسّل

ومما عرضهُ المستر بنيون صور شتَّى تمثل مأساة مجنون ليلى التي قوامها البحث عن المثل الأعلى في الحبّ بدل قبول الواقع في الحياة، وكانت صورة المجنون بين الحيوانات الآبدة أوقعها في النفس. ومن الصور الخلاّبة صورة شاعر جالس في الحديقة وخلفه الأزهار المتفتحة الناطقة بتعابير الجمال الرمزي، ومع أن الصور الشخصية في ذلك العهد كانت نادرة فانّ ما صُنِعَ منها كان آيةً في الاتقان الممثل لمرائي الحياة وعواطفها، بيد أن فنّ التصوير الفارسي في جملتهِ كان تصويراً مصغّراً للتصانيف الأدبية ومآلهُ للمكاتب قبل المتاحف

ومعروف انّ الثقافة الاسلامية الفنّية تأثرت كثيراً بالفنّ الفارسي وبأعلام الفرس، فقد كان للفرس الفضل في ابتداع الخطّ النسخ والخط الثلث كما نعرفهُ الآن، وعنهم تلقَّى ابن مقلة فنّ الخطّ، وهو الذي عمّم استعمال الخط النسخ بدل الخط الكوفي. وكان الفرس أول من عُني بالاخراج الفني للكتب ولا سيما المصحف الشريف. ولكن أثرهم في التصوير كان أبلغ وأعظم وان كانت الآثار التي بين أيدينا من العهد الساساني القديم ضئيلة للدلالة على الذوق الفارسي في تصوير الطبيعة والحيوانات والجمال الانساني في الراقصات وغادات الصيد ونحو ذلك، ومن بين هذه الآثار الخاضعة للنفوذ الفارسي بعض التصاوير على حيطان قصر الخلافة في (سرّ من رأى)[1] التي أظهرتها الحفريات الحديثة. والمعتادُ في عرض الفنّ الفارسي التكلم على مدارس بغداد وتبريز واصفهان من باب التمييز والتقسيم للعناصر الفنية ولعناية أرباب الفنون وأذواقهم

(٣)

لقد أوجد الاسلامُ روحَ الأخوة عند الامم المختلفة التي ارتبطت بهِ وصهر حضاراتها المختلفة في بوتقة واحدة فلا عجب اذا قلّد العربُ الفرسَ في مظاهر مدنيتهم من ضرب النقود الى التصوير على المنسوجات ومختلف الأثاث والأواني وعلى حيطان الحمامات والقيشاني وفي التصوير التفسيري

(١) يرجع الى كتاب (التصوير عند العرب) تأليف المرحوم احمد تيمور باشا، وهو من مؤلفاته المخطوطة وقد نشرت نماذج منه في مجلة (الهلال). تراجع كذلك دراسات الدكتور زكي محمد حسن الامين العلمي لدار الآثار العربية

لكتب الأدب ودواوين الشعر والمؤلفات الطبية والعلمية مثل كتاب (عجائب المخلوقات) للقزويني و (مقامات الحريري) وكتاب (كليلة ودمنة) وقد كان للعرب اسوة في ذلك بتصوير (الشاهنامة) للفردوسي و (بستان) سعدي و (كلستان) سعدي وديوان حافظ الشيرازي وقصائد (نظامي) الخمس وغيرها من الآثار الأدبية الشهيرة . ولما كانت بغداد مركز الحضارة الاسلامية في القرن الثاني عشر للميلاد فقد صارت مركزاً لمدرسة فنية قوية متأثرة الى درجة ما بالروح الفارسي ومتأثرة كذلك بأهل الفن من مسيحيي الكنيسة الشرقية

وترجع مدرسة بغداد هذهِ في تقاليدها ومزاجها الى أبعد من القرن الثاني عشر وتستمر الى القرن الثالث عشر حافلة بتصوير مؤلفات الاغريق المترجمة الى العربية وبما نسج على منوال تلك المؤلفات القديمة . ولم يكن لقصص بيديا التي نُقلت عن الهندية في كليلة ودمنة ولا لنوادر أبي سعيد السروجي في مقامات الحريري نصيبٌ يسير من عناية مدرسة بغداد التي خدمها اولئك المسيحيون المنتسبون للكنيسة الشرقية كما خدمها الفرس لان روح الاسلام كانت متقبّلة للحضارة غاية التقبّل ، ومن أولئك المعلمين أخذ العرب صناعات فنية مختلفة ليس أهونها شأناً صناعة الفسيفساء والعمارة . ولهؤلاء النصارى فضل على الفرس انفسهم حتى ان الفن الفارسي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد ظهر وفيهِ ما فيهِ من بذور هذا التأثر الى جانب العوامل المؤثرة من الشرق الأقصى والأوسط بعد الفتح المغولي

والملحوظ في تصاوير مدرسة بغداد الدقة في مَزْج الالوان والقوة في التعبير الى درجةٍ مدهشةٍ والثروة البالغة في معاني التظليل اجمالاً وتفصيلاً ، مع الأمانة للطبيعة . ولئن ضاع الكثير من آثار هذه المدرسة فالباقي منها بأيدينا هو مثالٌ للمفقود منها ، لان الفنانين انصرفوا الى تكرار تلك الصور في تفسير المؤلفات الشهيرة وعلى الأخصّ في مقامات الحريري ، حتى صارت مدرسة بغداد مدرسة عربية اكثر منها فارسية في الاختيار وفي تصوير الاشخاص بسِماتهم العربية وفي نشاط وقوة خلافاً لما عُرف به الفن الفارسي الخالص من الدعة والرشاقة

ومن العجيب أنَّ بعض هذه الصور العربية الاسلامية تحيط برؤوس أصحابها هالات من النور على مثال المألوف في التصاوير الكنسية ، وهذا كاف لاشعارنا بمبلغ تأثير أولئك الفنانين المسيحيين ، إن لم يكونوا هم انفسهم مبدعي تلك الصور . كذلك يبدو أثرهم في كيفية رسم الملائكة بأجنحة مدببة وفي تصوير الطبيعة نفسها في بساطة تقليدية وفي العناية بزركشة الملابس ، فكأن مدرسة بغداد في روحها مزيج من التعاليم البيزنطية والساسانية مطبقة على احوال العروبة والاسلام ، ولا نجد الفن العربي المستقلِ بعض الاستقلال الاّ في المؤلفات العلمية مثل كتاب (خواص العقاقير) الذي كتبه وشرحه رسماً المصور العربي الشهير عبد الله بن الفضل سنة ١٢٢٢ م . ومع ذلك نجد التأثير البيزنطي الزخرفي واضحاً في زركشة الملابس والاستهانة بالبساطة الطبيعية . ومن الفنانين

العرب المبدعين يحيى بن محمود بن يحيى بن الحسن الواسطي فقد برع في تصوير مقامات الحريري (سنة ١٢٣٧ م.) تصويراً فنياً جامعاً لم يترك كبيرة ولا صغيرة الا سجلها ، فكانت صوره سجلاً حياً للتقاليد والعادات الاجتماعية في عصره . ولولا هذا التغالي الزخرفي بتأثير الفن البيزنطي لوجب الاعتراف بأن مدرسة بغداد صادقة التعبير عن الطبيعة والحياة ، ترسم الاشياء كما هي في غير تكلف

وغير خاف أن الورق حل محل الرق في كتابة التآليف بل وفي كتابة القرآن نفسه ، وقد بدأت صناعة الورق في تلك الاصقاع بمدينة سمرقند ثم انتشرت الى الاقطار الاسلامية . وأخذ صناع الورق يتفننون في اخراج أجود أصنافه ، كما اخذ التخصص في زخرفة الكتب (ولا سيما القرآن الشريف) يزدهر ويصير فناً مستقلاً له جماله وروعته كما استقل الخط وصار فناً يعتز به . والى غير قليل من الروح الفارسي والفن الفارسي يرجع كل هذا التطور الفني في الذوق والانتاج بمدرسة بغداد

(٤)

كيفما كان حكم التاريخ على غزو المغول لايران وبلاد الجزيرة متأثراً بشتى الاعتبارات ، فما من شك في ان له حكماً واحداً بالنسبة لفن التأليف التصويري ، فقد نشأ عن هذا الغزو ظهور المدرسة الفارسية التترية العظيمة ، اذ لم يكتف هولاكو وخلفاؤه بتشجيع هذا الفن حيثما وجد بل غذوه بالفن التتري الزاخر بالهامات الشرق الاقصى وتعاليمه مما فتح آفاقاً جديدة للفنانين في الاقطار المغزوة فقد أدهشتهم الطلاقة الفنية التي امتاز بها المصورون الصينيون مبدعين في التعبير عن العواطف وفي ابراز المشاهد المختلفة بدقة وحرية معاً مستلهمين الطبيعة في ثقة وقوة، فتأثروا بهم واستمدوا من فنهم

وقد استولى المغول على بغداد في سنة ١٢٥٨ م . فكانت احدى العواصم الثلاث الكبرى التي حفلت بعنايتهم الادارية والفنية ، اما العاصمتان الاخريان فهما تبريز وسلطانية . ولم يكن الفن التتري غريباً عن العرب فان العلاقات التجارية بين الشرق الاقصى والممالك الاسلامية ترجع الى قرون سابقة كما ان استيلاء المغول على مقاليد الحكم في الصين وخلقهم تلك الامبراطورية العظيمة جعل العرب على اتصال مباشر اخيراً بكل من الفن الصيني والفن المغولي ، بعد ان كانوا قانعين من قبل بالتحف الفنية التي كانوا يظفرون بها عن طريق المبادلات التجارية . وهكذا ازداد النفوذ الصيني في الفن الفارسي العربي الى جانب تأثره بالفن المغولي ، ومن هذا المزيج القوي نشأت المدرسة الفارسية التترية . وحتى بعد اضمحلال أو زوال العوامل السياسية والحربية بقيت للعوامل الادبية والتجارية نفوذها العظيم في حياة الفنون بسبب الاحتكاك المباشر بأهل الفنون من المغول . وكانت التصاوير في بداية ذلك العهد منوعة : فمنها ما كان محتفظاً بتقاليد مدرسة بغداد ، ومنها ما جاء متأثراً بالفن الصيني الى درجة كبيرة ، ومنها ما ظهرت فيه الروح الفارسية الخالصة قوية ، وهذا هو المنتظر في فترات الانتقال من عهد الى عهد . والمعروف أن صور هذا العهد على أي حال لم تكن

كثيرة ، وذلك بسبب كثرة الغزوات والحروب في مدى سبع وسبعين سنة (١٢٥٨ — ١٣٣٥م) ولكن هذه الروح الحربية ذاتها أدت الى العناية بالتآليف التاريخية الحربية ، فاتجه التصوير الفني الى ابراز الحوادث التاريخية العظمى وقصص البطولة بل التاريخ العام في مجال فسيح من البيان التصويري، وكان من الاتصال بآثار الفنانين في العهد السّنجي الحفاوة بمرائي الطبيعة ومناظر الصيد

وكل هـذا محسوس منذ بداية القرن الرابع عشر ، حيث تمتزج المؤثرات الأجنبية بالتقاليد الموروثة لدى المدرسة البغدادية حتى ظهرت المدرسة المغولية الفارسية أو الفارسية التترية كما ألمعنا

واذا كانت الصور الفنية في ذلك العهد المضطرب تلوح عليها مظاهر العجلة والارتجال بسبب حالة الحروب والفتوحات التي كانت الشغل الشاغل للمغول زمناً مديداً ، فلم تنل التشجيع الكافي للتأني والاتقان ، الاّ انها جميعاً كانت من الطرافة بمكان فأدهشت بغرابتها اضعاف ما أعجبت بحظها المحدود من الدقة أو الاتقان ، خلافاً لحالة الفن في العهد العباسي وفي أزمنة الهدوء والاستقرار . وكان من آثار التحرر الفارسي في الفنّ أن يظهر الخطّ الفارسي الصميم بدل الخطين الثلث والنسخ . كما أن صور التآليف اخذت تتفرّس خصوصاً عند ما ظهرت الآثار الفارسية الكبرى كالشاهنامة للفردوسي وآثار الشاعرين نظامي وكرماني في نسخ مصوَّرة عديدة . فسمح هذا للفنانين المصورين بالابداع المنوّع في تصوير مشاهد البطولة من الشاهنامة والموضوعات العاطفية في خسرو وشيرين وفي مجنون ليلى وغيرها من القصص الشرقي بما لم يعهد من قبل

كان من آثار تيمورلنك ترعرع الفن في سمرقند لا في التصوير البارع الملوَّن فحسب بل في الرسم الدقيق المذهَّب بالمداد أيضاً ، وهـذا بتأثير الثقافة الاسيوية . ولم يكن للمؤلفات العربية حينئذٍ نصيب كبير من هذا الفن الجديد ، ولكن القرآن الشريف نال عناية الفنانين الفرس بالزخرفة المزدادة في كل من تبريز وسمرقند . واشتهر وزير تيمورلنك المدعو الامير محمد بدر الدين التبريزي ببراعة خطه وكذلك اثنان من حفدة هذا الامبراطور المغولي وهما ابراهيم ميرزا وبيزنكور ميرزا ، وقد أسس الاخير قبل وفاته المبكرة (وقد كانت في سنة ١٤٣٤م) معهداً فنيًّا لاخراج الكتب بمدينة هرات ، الى جانب مكتبته الفخمة ، وكان يعمل في ذلك المعهد أربعون خطاطاً الى جانب الكثيرين من المتخصصين للزخرفة والتصوير . وكان المصورون على شغف عظيم بتصوير الموضوعات الوطنية فكان هذا دافعاً اكبر الى إبداعهم . فأولعوا بمشاهد وطنهم وسحرها الريفي كما اولع المصوّرون الغربيون بالفنّ القوطي . ولـكن استمرّ في الشرق الروح الزخرفي العام حينما تحول الفن الغربي تحولاً آخر تحت تأثير التصوير الخاص للحيطان والالواح ونحوها . ولكن من الحقّ الاعتراف بما بلغته المدرسة المغولية الفارسية من الكمال في التوفيق بين موضوعات التأليف وتصويرها الفني حتى أننا نجد براعة المصوّرين ماثلة في الصور الدقيقة التي كانت أحجامها الصغيرة تفرض عليهم فرضاً من النسّاخ ! وكانت أرضية هـذه الصور حمراء اللون في بداية القرن الرابع عشر ، ثم شاع بعد ذلك

استعمال لون أزرق واضح لأرضية الصور ، واخيراً في نهاية ذلك العهد شاع استعمال الأرضية السوداء المذهَّبة ، ولكن الألوان الأخرى المستعملة كانت زاهية غالباً ونابضة بالحياة . وكانت مناظر الطبيعة المختارة شبه مدرَّجة ممثلة لأشجار منعزلة وصخور منثلمة وجداول رقراقة بين الحصى تحفها الأزهار ،وهذه الصورة أصبحت تقليدية مألوفة في جميع المشاهد الريفية وقلما كان يُضاف اليها ما يُشعر بروح الريف أو الغابة أو البساتين . وكثيراً ما كانت تُرسم صورة شجرة مزهرة في المشاهد المصغَّرة ، وهذه من آثار الفنّ الصيني في العهد المِنْجي بعد أن صار الاتّصال بالشرق الأقصى سهلاً مباشراً

وقد عيب على المدرسة التترية الفارسية التصوير الكروكي الاصطلاحي للاشخاص ، ورسم رؤوسهم في غير تمييز لنفسياتهم ، وانعدام التعبير في حركاتهم بعكس المصورين الصينيين الذين كانت براعتهم تخضع الطبيعة لريشتهم وكانوا يتجنبون اي وحدة معينة . وفي الحقيقة انهُ لم يحدث أي تقدم في هذه الناحية بعكس التقدم في النواحي الفنية الأُخرى للتصوير الفارسي ، الى أن ظهرت عبقرية الفنان بهْزَاد الذي يُعَدُّ أعظم مصوّر فارسيّ . وقد عرف بهزاد حتى في صوره المزدحمة العامرة بالمناظر والشخصيات كيف يميز كلّ شخصية من الأخرى في الشكل والتعبير ،وكان بارعاً كل البراعة في مزج الألوان وابتداع ما لا حدّ له من الأصباغ والظلال الملابس والآدميين، كما انهُ كان مصلحاً في تصوير الطبيعة الريفية التي تلوح أقرب الى الحقيقة في صوره منها في صُوَرِ مَنْ تقدّموه فقد كان أقرب الى الفنان الصيني في استيعاب المسافات وفي احترام الطبيعة والحرية الفنية ، كذلك اختيار موضوعاته كان اكثر توفيقاً من اختيار سابقيه بالنسبة لحقائق الحياة .وليس غريباً بعد هذا اذا ثارت عبقرية بهزاد على تحكم الخطاطين في تحديد الفراغ للمصورين وذهب الى عكس ذلك فكان لا يسمح الاّ بسطور قليلة في الصفحة المصورة ، اوكان لا يسمح بشيء ما من الكتابة مصاحباً لصوره !

***

وُلد بهزاد قبل سنة ١٤٥٠م. وتوفي بعد سنة ١٥٢٠ .وهو يمثل الدولة المغولية في اوجها الفني وافتتاح عصر الاسرة الصفوية .وقد كان على رأس أكاديمية هرات حتى سنة ١٥٠٦ م. الى ان استدعاه الشاه اسماعيل الى تبريز فجعله امين مكتبته وأغدق عليه النعم وامارات الشرف . ولم تبق من آثاره الصحيحة الاّ اعمال قليلة مثل تصوير (تاريخ تيمور) الذي قام به في سنة ١٤٦٧ وهو مودع الآن بأميركا وتصوير (بستان) سعدي في سنة ١٤٨٧ وهذا الاخير مودع في دار الكتب الملكية بالقاهرة ، ومثل تصوير مجنون ليلي وهو مودع الآن في لينغراد . وقد تتلمذ عليه كثيرون في هرات وتبريز فنشروا تعاليمه في انحاء فارس وغرب تركستان وفي الهند . وبقي صيته داوياً حتى في القرن السادس عشر إذ كان الفنانون يقلدونه في كل مكان ويقلدون امضاءه على شتى الصور !

(٥)

أما عن الجيل التالي من المصورين الفرس فهو الذي يمثل مدرسة تبريز بزعامة الفنان الموهوب سلطان محمد الذي كان عظيم النفوذ في عالم الفن إذ ذاك نظراً لصلته بالشاه طهماسب . وقد تعاون مع بعض زملائه النابهين في تصوير النسخ الفخمة من الشعر الحماسي الفارسي وقد سلم عدد منها من الضياع الى زمننا هذا . ولكنه كان يؤثر الموضوعات العامة وصور الاشخاص ، وكان يخرجها من اوراق مستقلة صالحة للتجديد في اجزاء مع نماذج من خطوط مشهوري الخطاطين . وقد فتح ميادين جديدة للفنانين مثل تصميم السجاجيد وزخرفة الانسجة الملبوسة والمعلقة ، وقد ظفرت الاخيرة بصور بديعة فنية للصيد ومجالس الشراب ونحو ذلك . واشهر هذه النماذج التي ترجع الى القرن السادس عشر رُسمت في مرسمه الخاص ، وعنه صدرت ابهج الانسجة الحريرية المشجرة والمخمل المزدان بدقيق الصور التي تضارع في جمالها نظائرها المشهورة في الكتب

ومنذ القرن الخامس عشر حفلت تبريز بتحلية نسخ القرآن الشريف الى أقصى الغايات من التحلية بالنجوم والزّهر والعقد ونحوها ، وفي عصر بهزاد نبغ كثيرون من الخطاطين وامتدّ صيتهم الى القسطنطينية وهناك أسسوا مدرسة للخطوط وزخرفة الكتب بتشجيع السلاطين وكانت على مثال مدرسة تبريز الفخمة

وفي الواقع ان تبريز كانت مثابةً قوية للفن حتى قبل ذلك العهد ، وإن ننسَ فليس لنا ان ننسى الوزير المؤرخ رشيد الدين وقد نبغ في أواخر القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر وأسس بجوار تبريز مدرسة صناعية باسمه كانت كعبة لرجال الفن ، وهو مؤلف كتاب (جامع التواريخ) الحافل برائع الصور لحوادث الانجيل وحياة بوذا وتاريخ الصين والسيرة النبوية وتاريخ الاسلام . ويتجلى في جميع هذه الصور أثر الفن الصيني في التصوير الفارسي الذي لم يكن قد استوعبهُ بعد ، فكان ذلك الأثر أثر المحاكاة وإن لم يخل من صور عربية صرفة كصورتي سيدنا علي وسيدنا حمزة . وهذه الصور على غاية من الأهمية في تحليل الذوق الفني في ذلك العهد الجامع بين نزعات الشرق الأقصى ونزعات العرب ، كما أنها بمثابة مرشد أمين للفنانين في عصرنا الحاضر اذا ما أرادوا تصوير حوادث التاريخ في تلك القرون الغابرة تصويراً جديداً . ونسخ هذا الكتاب النفيس موزّعة بين لندن وادنبرة وباريز

(٦)

وفي اواخر القرن السادس عشر تجمعت العناصر الفنية القوية في عاصمة فارس الجديدة (اصفهان) ، وثمة تحت الرعاية القوية التي بسطها الشاه عباس الكبير نشأت في اصفهان مدرسة جديدة زاهرة لفن انتاج الكتب بجميع أشكالها . وكان يتنافس في الخط الفني الجميل

مير عماد الحسني وعلي رضا عباسي اجتذاباً لرضاء الحاكم ، وكان غيرهما يُعني بالصور الرمزية للحيوانات ؛ بينما كان الاستاذ محمدي يتفنن في التصوير الحرّ بالمداد غير معتمد على مرجع من مراجع التأليف . وكان خليفته في هذا الفن الجديد الفنّان رضا عباسي . وكثيراً ما نجد امضاءه على صور من هذا القبيل وإن كان من الصعب ان نحكم على انها جميعاً من ريشته . ولرضا عباسي العديد من الصور للحياة اليومية ولمألوف المناظر بالطباشير الاحمر ، وغيرها بألوان زاهية ، وفي جميعها يتجلى ثبات الفنّان الواثق من قدرته . فلا عجب اذا تضاءلت امامه شهرةُ الفنان بهزاد زمناً غيرَ قصيرٍ ، ولا غرو اذا أُولع بآثارهِ محبو الفن الفارسي وانتشرت في مجموعاتهم النفيسة ، ولم يقتصر فنُّ رضا عباسي (ولم يُعرف الى الآن على وجه التحقيق اذا كان هو نفس الخطّاط البارع السالف الذكر ام شخصية اخرى)على هذا التصوير العام البديع، بل شمل كثيراً من وسائل الزخرفة للألواح والأبواب والحدائق في قصور اصفهان ، فكان فنّهُ طليقاً في الموضوع والمادة والتعبير على السواء

وكان ابرع تلاميذ رضا عباسي الفنّان مُعين وقد اصطفاهُ بصداقته ، ومن آثاره الخالدة صورة استاذه الذي بقيت تعاليمهُ حيةً قويةً حتى نهاية القرن السابع عشر متجليةً في آثار الفنانين محمد قاسم ومير محمد علي ومحمد يوسف وكثيرين غيرهم

وبعد القرن السابع عشر اخذ الفنّ الفارسي يضمحلّ في اهميته لان الفنانين الفُرس عمدوا الى تقليد الأوربيين في التصوير والحفر تقليداً اعمى ، وان كانت ارساليات نادر شاه الى الهند قد ادخلت وقتيًّا بعض الأثر السابق من المدرسة المغولية وفي بداية القرن التاسع عشر اخذ المصورون الفرس يعنون بالزخرفة التجارية على شتى المصنوعات ، ثم كان لعناية محبي الصور الفارسية القديمة أثر مشهود في تقليد الفنانين القدماء، وأصبحت هذه حرفة جديدة لعدد وافر من اهل التصوير في ايران ، كما يقلّد بعض المصريين آثار الفراعنة حبًّا في التجارة ، ولكنّ الابتكار الفني لم يتجدد بعد ، وإن كان من الصعب الحكم على المستقبل بالنسبة للنهضة الفارسية الجديدة وأثرها في الثقافة عامة وفي الفنون خاصة

(٧)

بأمثال هذه المعارف العامة أتحف الشاعر لورنس بنيون مستمعيه في محاضرته الاولى . ومادتها ميسورة في دوائر المعارف وفي مؤلفات أمثال مارتن وأرنولد وشولتز وغيرهم ، ولكن بنيون اعتمد على عشرات الصور التي عرضها بالفانوس السحري ، فكان له من كل صورة قصيدةٌ وشاهدٌ نقديٌّ تحليليٌّ على تطوّر الفنّ الفارسي وتأثره بالعناصر المختلفة من الشرق والغرب . وللأسف ليس من المستطاع اخراج هذه الصور مع هذا المقال مع انها لباب محاضرته، وتتبع عناصرها المتفقة والمختلفة رياضةٌ ذهنيةٌ نفسيةٌ بديعةٌ . ولئن فاتتنا بعض التفاصيل وذلك الاندماج الفني المتوالي في تلك

القرون — وهو ما تهيؤه متابعة الصور وحدها — فلا ينبغي ان يفوتنا الاطمئنان الى الحقائق الآتية بصفة خاصة :

(١) لقد كان الفن الفارسي بالاجمال محدود التقاليد ملتزماً للتناسق بين اجزائه وترتيب بعضها ازاء البعض الآخر متجنباً الشرود ، ولكنهُ مع ذلك كان ذا جاذبية ساحرة وروعة خاصة قوامها الابداع في حدود القيود ، مستشفًّا للحقيقة من خلال الطلاسم ، وللشعلة من بين اسداف الظلام ، وللصواب من بين عوامل الضلال كما يستخرج التبر من التراب

(٢) كان فتح العرب لفارس حادًّا من اتساع الفن الفارسي ولكنهُ لم يكن قاضياً عليهِ بل كان واسطة نقل الثقافة الغربية من شعوب البحر الابيض المتوسط الى فارس . وقد كان الفن الاسلامي قائماً قبل ذلك بقرون ، فاكتسب من الاتصال بالفرس كما تجلى ذلك في مدرسة بغداد وبالمثل استفاد الفرس منهُ . ولم يقتصر ذلك على التصوير بل تناول الهندسة المعمارية وصناعة الخزف وزركشة الانسجة وغير ذلك

(٣) استفادت فارس فنيًّا من موقعها الجغرافي بين امم شتى ومن تقلب الدول الحاكمة عليها ، فتأثرت بثقافة الاغريق والبيزنطيين والهنود والصينيين . ولئن بكى الفرسُ انقراض الدولة الساسانية ورضخوا لنفوذ العرب من القرن السابع الميلادي الى القرن السابع عشر ، فانهم قد غنموا فنيًّا من الاتصال بشتى الامم وما لبثت روحهم الوطنية ان تجلت ثانية في الأعمال الفنية بعد ان هضمت جميع العناصر الاجنبية ، من مسيحية واسلامية ، من غربية وشرقية . وفي هذا دليل كاف على ان الفنون يحييها الاختلاط ومن عادتها ان يهضم بعضها بعضاً وبهذا الغذاء الجديد يترعرع كل منها . وقد كان الشعر اكثر تأثراً بهذه العوامل من التصوير

(٤) قد تستنكر بعض الفتوحات من الوجهة الوطنية او الدينية او الانسانية او من وجهة حضارة خاصة كما يستنكر فتح المغول وما صحبه من التدمير الكثير . اما حكم الفن فقد يختلف كل الاختلاف عن ذلك ، فان هؤلاء المغول انفسهم كانوا حريصين على حياة الفنانين واهل الحرف والصناعات في الاقطار المغزوة وان جنوا ما جنوا على غيرهم وان أساءوا تقدير آثار العرب الأدبية فجنوا على المكتبة العربية شرَّ جناية !

وقد كان المحاضر موفقاً كلَّ التوفيق للأسباب الآتية :(١) تناوله موضوعاً شرقيًّا فنيًّا بذلك الشغف العظيم الذي ابداهُ في عاصمة شرقية وفي بيئة مثقفة تقدّرهُ ، (٢) اظهاره المحبة الوافية للأعمال الشرقية الجيدة وتأييده لعالمية الفنّ الذي يجب ان يُقدَّر ويُخدم من جميع عارفيه على اختلاف الامم ، كما ان الفنّ نفسه لا يحجم عن تناول عناصره المفيدة من شتى الامم ، (٣) طلاقته البيانية في اسلوب فصيح جزل وفي لهجة شعرية تتطلع الى ما وراء الصُّوَر من روح فنية هي روح الجمال في هذا الوجود

العلم واحياء الموتى

هل يفوز العلماء بذلك ؟

[عن مجلة العلم العام : نقلها عوض جندي]

وقف في كليفورنيا ثلاثة رجال مرتدين ثياباً قشيبة ، حول منضدة للعمليات الجراحية ، في مختبر من المختبرات العلمية . ورُقّد أمامهم كلب صيد سليم الجسم كل السلامة ، على غطاءٍ من الجوخ فوق المنضدة ، فوضع احد اولئك الرجال كمامة على فم الكلب وأدار الآخر صمام صهريج محتوٍ على نيتروجين ، فانقطع الاوكسيجين عن الكلب ، ولم يستطع النيتروجين وحده القيام باسباب الحياة . فما لبث الكلب ان سكنت حركتهُ فتراخت عضلاته ثم مات وخُيِّلَ للجمع أن موته أزليٌّ

وحينئذٍ جاءوا بمحاقن للحقن تحت الجلد ، وسوائل مجهولة التركيب ، محفوظة في قوارير محكمة السدّ . وكان قد انقضى على موت الكلب اربع دقائق . فأخذ احدهم ينظر في ساعتهِ ، والآخر يملأ المحقنة من احدى القوارير ثم يغرزها في صدر الكلب الميت حتى تنفذ سنها في قلبه . وغطى الرجل الثالث كمامة الكلب بقناع محتوٍ على اوكسيجين فتقوت اعصابه حينما زال عنهُ ذلك العبء فوضعت على صدره مستقصية صدرية ، وما كادت تحس بنبضهِ حتى صرخ واضعها قائلاً « لقد جعل القلب يخفق » وبتلك الوسيلة تسنّى لهم احياء الكلب وقد قضى اربع دقائق ميتاً . ثم قضى يومين تيسّر لهُ في خلالها استئناف تناول الطعام . ولم تنقض اسابيع قليلة حتى تسنّى له المشي والعدو واللعب واطاعة الاوامر التي تلقى على مسامعه

فتحقق على ذلك الاسلوب ، حلم طالما شغف بهِ الناس من قرون . ونعني بهِ اعادة الحياة الى الموتى !! أجل ان الذي جربت فيهِ التجربة ، كلب ، بيد ان الدكتور روبرت إ . كورنيش العالم الكليفورني الشاب الجريء ، الذي تمكن بتلك الوسيلة من التغلب على الموت ، زعم بأنهُ سوف يستطيع بتلك الطريقة احياءَ الموتى من البشر اذا ماتوا موتاً اسود (١) . وقد حذا حذوه في ذلك الاعتقاد جماعة من علماءِ بلتيمور وكليفلند وروسيا وسويسرا . فأصبحوا يقولون ان بعض معجزات العصور الغابرة سوف تتكرر يوماً ما بوساطة العلم الحديث

ومن هذا القبيل ان فئةً من الباحثين المحققين ، أتيح لهم في مستشفى جونس هوبكنز في بلتيمور إحياء بعض حيوانات كانت الكهربائية قد صعقتها فنفقت ، فدهشوا اذ تبين لهم حقيقة غير مألوفة ،

(١) الموت الاسود — هو الموت خنقاً

وهي ان الرعدة الكهربائية ذات التيار الوئيد ، قد تهلك من تصيبهُ . على حين ان الرعدة القوية في الغالب لا تحدث اكثر من اضطراب وقتي في سير القلب . فلما استعجم عليهم ذلك الامر ، أخذوا يتفحصون عنهُ ، فثبت لهم ان الرعدات الكهربائية الخفيفة تحل نظام افعال عضلات القلب وتفسدها فتعجز عن القيام بمهمتها متحدة فلا تدفع الدم في مجاريه

واثباتاً لذلك جاؤوا بقطبين كهربائيين يحملان نحو امپير واحد (وحدة لقياس التيار الكهربائي) وسلطوهما مباشرة على قلب كلب فاقد الشعور ، فأحدثا رعدة وقفت اضطراب القلب ، فاستأنف خفقانهُ الطبيعي فعادت الحياة الى الكلب

واستعمل الباحثون المحققون في روسيا قلباً صناعيًّا اخترعهُ الدكتور سرج بروكهاننكو فنجحوا من عهد قريب في اعادة « شبه الحيـاة » الى امرئٍ كان قد شنق نفسه وذلك بعد ان قرر نطس الاطباء موته قبلئذٍ بثلاث ساعات فجاءوا بجثتهِ عاجلا الى المعمل الكيميائي حيث يضع الجراحون بضيعة مستطيلة في شريان وعرق من عروقهِ وادخلوا في كل منهـا انبوباً متصلاً بالقلب الصناعي ثم أداروا مجرى كهربائيًّا فجذب انبوبهُ (القلب الصناعي) الدم القاتم من العرق فسرى الدم في الرئتين الصناعيتين اللتين في الجهاز حيث تطهر الدم مما يشوبهُ وتشبع بالاوكسجين وقام انبوب آخر بدفع الدم المنقَّى في الشريان ، فما لبثت خلايا الجسم ان امتصت الاوكسجين حتى انتعشت ففتح الرجل عينيه وأخذ يشخص ببصره الى الاطباء المحدقين بهِ كأنهُ قد أفاق من سباتهِ . ولكن تلك الشعلة الحيوية انطفأت بعد دقيقتين

وحدث من ثلاثة اشهر ان جيء بسيدة الى غرفة العمليات الجراحية في مستشفى جامعة بلتيمور وما كاد احد المساعدين يجس نبضها حتى صرخ مذعوراً قائلاً « ان القلب قد بطل عمله » وكان الجراح قد سبق ففتح تحت حجابها الحاجز فتحة فلم يسعهُ وقتئذٍ الاَّ ان مدَّ يدهُ منهـا وقبض بأصابعه على قلبهـا الساكن وجعل يضغطهُ تارة ويطلقهُ اخرى فأخذ القلب يطلق الدم في جسم المريضة . وكرر الجراح تلك العملية حتى تمكن القلب من القيام بأفعالهِ الحيوية من تلقاءِ ذاتهِ ثم تمت العملية وشفيت المرأة

وفي جنيف بسويسرا عالمٌ دأبهُ احياء الموتى الذين يموتون غرقاً او صعقاً بالكهربائية ، وذلك حين يبطل النبض من اجسادهم وينعدم كل دليل من ادلة حياتهم . فيقوم ذلك العالم بتدليك قلب الميت تدليكاً خفيفاً يستمرُّ من عشر دقائق الى ربع ساعة . وقد أفلح في عدة حوادث اذ استطاع اعادة الحياة الى الموتى بتنشيط قلوبهم لأداء افعالها الحيوية

ونسج على منوالهِ طبيب فرنسي فجرب التجربة نفسها غير انهُ لم يقم الميت بل تناول طفلاً فاضت روحه قبل ٢٤ ساعة واخذ يدلك قلبه حتى شرع ينبض من تلقاءِ نفسه . وفي اليابان طبيب آخر نحا نحوه في معالجة قلب صبي ميت . وبحث المسألة الاستاذ ويلدر بنكروفت (المدرس في جامعـة

كورنل بالولايات المتحـدة) وذلك من جهة اخرى اذ توخى تأجيل الوفاة فقر رأيه على رودانات الصوديوم (Sodium rhodanate) وهي مادة كيميائية مجردة تطيل حياة الانسان سنتين على الاقل . فاذا اعتاد المرء تناولها بعد بلوغه الخامسة والاربعين من العمر حالت دون تصاب نسيج العصب والمخ وزادت في متناولها قوة مقاومته المرض

بيد ان اعادة الحياة لانسان ثبت انهُ مات ، لمـا يظفر بها أي عالم . ولكن اغتباط الدكتور كورنيش بنجاحه في التجارب التي جربها في الكلاب حمله على الرغبة في تجربتها في أجساد الناس ايضاً فأخذ يسعى لدى ولاة الامور ليسمحوا له باجراء تجاربه في مجرم اعدم الحياة بالغاز السام . فاذا أباحوا له ذلك ، أوثق الجثة في أرجوحة (مكونة من عارضة خشبية تصعد وتهبط) ودعم الجثة بمساند كهربائية ليدفئها ثم يحقن العروق بمادة كيميائية وهي صبغ ازرق الميثلين لكي توقف تأثير الابخرة السامة التي كانت علة الموت . ثم يدخل الاكسجين النقي في الرئتين بوساطة قناع فيتمكن من تسيير حركة الدم بهز الارجوحة هزًّا وئيداً

وكانت آخر وسيلة توسل بها العلماء الى اعادة الحياة الى الموتى ، حقن سائل منعش في عرق كبير على أن يكون معظمه دماً بشريًّا محتوياً على مادة الادرينالين او مادة epinephrine الابنيفرين (الاسم الذي يسمى بهِ الادرينالين في الكشف الرسمي الخاص بالعقاقير الطبية) وهي مادة ذات تأثير سحري ، تجعل القلب يتقلص تقلصاً شديداً فيعود نبضه الى حالته الطبيعية ولو كان قد وقف بنفسه

ويعتقد الدكتور كورنيش اعتقاداً وطيداً أن الميت يمكن احياؤه بتلك الطريقة ، مخالفاً غيره من العلماء الذين يرون أن مخ الانسان الذي تعود اليهِ الحياة ، يصبح عاطلاً عطلاً لا يرجى شفاؤه . ويرى أحد ثقات الاميركيين أن خلايا المخ تأخذ في الوهن متى كف القلب عن عمله أو قبيل ذلك حينما يضعف النبض ضعفاً شديداً . وحدد أحد علماء فرنسا الوقت الذي يتمّ فيه ذلك بعشرين دقيقة عقب الوفاة . ولذلك يؤكد كثير من العلماء ، بناءً على ما تقدم من الاسباب ، ان الانسان الذي تعاد اليه الحياة يصير أعمى او مشلولاً شللاً كليًّا أو جزئيًّا أو ضعيف العقل

فأثبت الدكتور كورنيش بتجاربهِ التي جربها في الكلاب ، ان الخوف من عواقب اعادة الحياة لا أساس لهُ البتة ، لان كلب الصيد المسمى « لزاروس الخامس » الذي باشر الدكتور نفسه إماتته موتاً اسود « خنقاً » ثم أعاد اليهِ الحياة بعد اربع دقائق ، قد استعاد ذكاءه الطبيعي

ومن الآراء في هذا الصدد ان القوة التي يكتسبها المخ بعد اعادة الحياة انما هي أثر من القوى الغريزية . وان الكلاب التي نزعت من أدمغتها المادة السنجابية المؤلفة للمخ ، أمكن تدريبها على اجابة بعض الاشارات . وان الكلب «لزاروس الخامس» فاق أقرانه في كل ما أبداه من أدلة الذكاء الفطري اذ استطاع بعد احيائه النباح وتناول طعامه والوقوف بلا معين والعرجان

وفي سنة ١٨٥٥ وضع اتفاقاً طبيب لندني اساس الوسائل التي يستعملها الآن الدكتور كورنيش

ونعني به الدكتور توماس أديسون Addison احد اطباء مستشفى الملك وكان مولعاً بابتداع علاج لمرض غريب سمي فيما بعد باسم (مرض أديسون) وهو داء يؤثر في القلب وينحس البشرة ويضعف النبض ويحدث فيه اضطراباً ويسمى ايضاً المرض النحاسي . وقد تكشف لاديسون ان ذلك المرض يحدث من عجز الغدة التي فوق الكلية عن قيامها بفعلها الحيوي . وهي غدة صماء يبلغ طولها بوصتين فوق الكلية . ولمفرزاتها تأثير عظيم في القلب وأنابيب الدم . وكان المعروف بشأنها وقتئذ قليلاً . وسرعان ما نجح الباحثون في استخراج خلاصة تلك الغدة ، وتبين لهم ان تلك الخلاصة ايضاً ذات مفعول رائع في منع نزف الدم فاستخدموها في الجراحة لذلك القصد . ولكنهم ما عتموا ان ظهر لهم عدم ثبات ذلك التأثير لان الخلاصة الآنفة الذكر كانت تفسد عاجلاً اذا تعرضت للهواء فتفقد خاصيتها . وحينئذٍ طفق كثيرون من العلماء في ارجاء المسكونة لا يدخرون وسعاً في استخراج العنصر الفعال من تلك الغدة كما فعل زملاؤهم فيما بعد اذ استخلصوا الفيتامينات من الادهان وغيرها من المواد التي في زيت كبد سمك القد

وفي سنة ١٩٠٠ نجح في ذلك العمل عالم ياباني كان قد هبط اميركا وأخذ يمارس عمله فيها . وكان نجاحه عرضيًّا اذ كان قدم اميركا قبل ذلك بعشر سنوات ليدخل فيها طريقته الخاصة بصنع الويسكي فاستبقاه هناك احد معامل تقطير المسكرات في مدينة پيوريا بولاية الينوي فثارت عليه ثائرة حسد ارباب معامل التقطير والجعة في تلك الجهة فأحرقوا معمله ذات ليلة ، فحزن حزناً شديداً اضعف صحته ، فقصد الى مدينة نيويورك حيث زيَّن لاحد صناع الادوية الاستنباط الذي سبق ان امتهنه مقطرو المشروبات . فاهتم ذلك الصانع اشد الاهتمام بموضوع خلاصة الغدة التي فوق الكلية ، فعهد الى ذلك العالم الياباني في استخراج العنصر الفعال في الغدة السابقة الذكر . فأنشأ معمل تحليل كيميائي في الطبقة الارضية من مسكنه في نيويورك وأخذ يباشر اعماله حتى تمكن في غضون بضعة اشهر من استخلاص مسحوق ابيض متبلور محتوٍ على الخواص الفعالة للغدة التي فوق الكلية وهي مادة طفيفة المرارة ، تبيض الاغشية المخاطية توًّا ، ومستنبطها الدكتور يوكيشي تاكامين Jokichi Takamine فسماها ادرينالين ومن نحس طالعه انه توفي سنة ١٩٢٢ قبل ان يعلم ان الادرينالين وبعض مركباته ذات الاسماء المختلفة ستقوم يوماً ما بالمعجزات .

ولم تعرف خواص الادرينالين المدهشة الاَّ في سنة ١٩٢٣ وذلك في احد مشافي مدينة سانت لويز اذ وفد عليه شيخ اشيب مدنف فأدخل توًّا الى غرفة العمليات الجراحية حيث عملت له عملية مستعجلة . ثم عقبتها عملية اخرى بعد اسبوعين غير انه بعيد تخديره وقف تنفسه ، ففحص بآلة electrocardiograph المصورة نبضات القلب وهي شديدة الاحساس ، فأظهرت وقوف حركة القلب فاستعانوا على احيائه بالتنفس الصناعي فلم يجد نفعاً ، فقرر الجراحون اتخاذ الوسائل الدالة على اليأس اذ ركبوا محلولاً من جزء واحد من مادة الاپينفرين مذاباً في الف جزء من الماء ثم حقن المصاب

مباشرة بحقنة من ذلك المحلول في بطينه الايسر فأثر فيه توًّا فلم تمض ثلاثون ثانية على حقنه حتى اخذ يتنفس وقلبه يخفق

ومن ذلك الحين غدت تلك العجائب امراً مألوفاً . فتمكن الاطباء والجراحون من انقاذ حياة مئات من المرضى بالادرينالين بعيد استهدافهم للاغماء الكلي حين اجراء العمليات الجراحية في اجسامهم . ومنهم اطفال ولدوا ولادة مبتسرة (اسقاط) وأشخاص صعقتهم الكهربائية . واصبحت الطريقة التي تستعمل لتلك الغاية قاعدة مرعية في المشافي . واستخدمت احياناً لاغراض مدهشة وذلك في مدينة دترويت من عهد قريب

وتفصيل الحادث أن عصابة من اللصوص هجمت على مصرف مالي فأطلق الشرطة عليها النار فأصابت أحدهم في اثناء فرارهم فأردته قتيلاً ، فنقل الى أقرب مستشفى حيث حقن بحقنة من الادرينالين فأفاق حتى استطاع انباءَ ولاة الامور باسماء شركائهِ . غير ان الاطباء ليس في مقدورهم في أية حالة من الاحوال التي تعاد فيها الحياة الى الميت ، ان يقرروا كونه مات حقيقة ، وهذا ليس مستغرباً لانهُ ما من أحد يتاح لهُ تحديد الزمن الذي يموت فيهِ الجسد، لان الموت الفجائي لا وجود لهُ

وكثيراً ما قيل ان الموت يحدث بغتة كما ينطفيء المصباح الكهربائي اذا قطعت الدائرة الكهربائية بمفتاحها . والوجه ان الموت حادث تدريجي بطيء بمثابة تفرق مملكة ذات مستعمرة مترامية الاطراف ، فتموت اولاً الحواضر ممثلة في المخ والقلب . أما الخلايا وهي أشبه بالمستعمرات في سائر الجسم ، فلا تموت في الحال بل تبقى زمناً طويلاً بعد ذلك وحينئذ لا تصل اليها مؤونة كافية من الاكسجين من تلك الحواضر ، ولا تتلقى امداداً لمساعدتها على مكافحة البكتيريا والتقلبات الكيميائية المهلكة واذا غُذيت الخلايا نفسها قد تعيش بل يتضاعف عددها . وقد تحقق العلماء ذلك من عشرين سنة في معهد روكفلر اذ وضعوا فلذة من قلب فروج في سائل من سوائل التربية الكيميائية وما زالت حية حتى اليوم

ووضع عالم آخر من علماء انكلترا فلذة دقيقة من نخاع احدى الضفادع في مخبار محتوٍ على محلول من النوع نفسه فعاشت الفلذة ٥٨ ساعة وتضاعف حجمها مئات المرات . واحدث من ذلك ان اثبت علماء انكلترا ان الخلايا الحية التي تؤخذ من جلود الحيوانات وتوضع في محاليل صالحة للتربية قد ينمو فيها الشعر او الصوف نمواً غير محدود

فمن العسير اذن تحديد الزمن الذي تنقطع فيهِ حياة الجسم البشري فيبدأ الموت ، لان الكواشف المعتادة العاجزة عن فتح الشريان لا تخلو من الخطأ . وكذلك وقوف القلب وانقطاع التنفس ، وهما الظاهرتان اللتان تصحبان الموت دائماً ، ليسا دليلين قاطعين عليهِ في جميع الاحوال . ومما يؤيد قولنا حادث وقع في لندن يدل على ان بعض الامراض والاصابات مثل التخشب catalepsy او تصلب العضلات « مرض عصبي اعراضه فقد الارادة وسببهُ مرض الجهاز العصبي المركزي » وكذلك الفواجع

المثيرة للاشجان تجعل المرء اقرب الى الميت منهُ للحي" فلا يستطيع الفحص الطبي احياناً اثبات وجود الحياة . ومن هذا القبيل ان صبيًّا كان يطوف في احد متنزهات لندن فغشي عليهِ ، فظنهُ الذين شاهدوه على تلك الحال ، ميتاً ، فنقلوه الى أقرب مستشفى حيث فحصهُ الاطباءُ وايقنوا انهُ قد فاظت نفسه « مات فجأة » فاصدروا له شهادة الوفاة وحملوه الى معرض الجثث المجهولة . وما عتمت ان قدمت امه وما رأت الجثة وعلمت من الخدم ان ابنها قد مات ، حتى استاءت جدًّا وسخرت منهم . وما لبثت ان عرضت عليهم ثلاث شهادات وفاة سابقة لولدها نفسه المزعوم موته ، فسقط في ايديهم ، ولم يسع الاطباء الاّ اعادة فحصه وافاقته حتى دبت فيهِ الحياة فعاد مع والدته راجلاً الى دارها

وقد يتصنع الموت بعض الناس الاصحاء ، ومثال ذلك ان ناسكا هنديًّا اسمهُ هارو داس أسبت سبوتاً اختياريًّا في معرض مشهور في مدينة لاهور في الهند حتى اقتنع مشاهدوه انهُ قد مات حقيقة فادخلوه في كيس وخاطوه عليهِ ثم وضعوه في نعش ودفنوه في مقبرة عمقها عدة اقدام ووقف الحراس حولها يحرسونها اربعين يوماً ثم اخرجوا الجثة من قبرها وجعلوا يبلون عينيه وفمه بالماء فلم يلبث ان انتعش وانتصب فطلب طعاماً

واخترعت وسائل كثيرة لتحقيق الموت ، ومنها الجهاز الكهربائي الحساس جدًّا المعروف باسم مصورة نبضات القلب . اذا وضع على الصدر دلَّ على أخفت خفقة من خفقان القلب ، واخترع الدكتور جورج كريل احد اطباء كليفلند بولاية اوهيو من ثلاث سنوات كشافاً كهربائيًّا آخر وقد أثبت ان الخلايا البدنية تكن شحنة كهربائية تتولد من التفاعل الكيميائي وتنخفض طاقتها عند الوفاة الى الصفر . والدكتور ايكار الفرنسي يحقن الشخص المزعوم موته بصبغة صفراء في عروقه ، فان كان في غيبوبة ، نقلت الدورة الدموية الضعيفة التي تبقى في جسده ، تلك الصبغة الى الغشاء المبطن للأجفان فيصفر

وكان الناس قبل اختراع تلك الوسائل الكشافة المحققة للموت يذعرون دائماً من الدفن قبل التحقق من الوفاة . ومنذ ربع قرن سردت جريدة الفيغارو الباريسية اربعمائة حادثة لوفيات اشخاص دفنوا قبل ثبوت موتهم موتاً حقيقيًّا وحملت حملة شعواء على ولاة الامور لاتخاذ أشد الاحتياط لتلافي ذلك الخطأ . وفي سنة ١٩٠٧ جمع أديب انكليزي ٧٠٠ حادثة من ذلك القبيل

وعندي انهُ يحسن وضع جثث الموتى في غرف خاصة بالمدافن ، بعد فحص القلب ، قبل الدفن لكي يسهل على من يفيقون منهم التخلص من الاكفان . وتوصيل هاتيك الغرف والنعوش باجراس كهربائية قوية توصل الى حجرة حارس المقبرة لتنبهه الى أية حركة تبدو من الميت . وهذا ما فعلتهُ فرنسا والمانيا وغيرها من نحو ثلاثين سنة وسلكت منهاجه اسرة الطيب الذكر جورجي بك زيدان صاحب الهلال حين وفاته اذ ابقوا جثته يومين بالكنيسة بعد الصلاة ليتحققوا أنهُ قضى نحبه ، رحمة الله عليهِ

ابن حمزة المغربي

واضع اصول اللوغارتمات

لقدري حافظ طوقان

﴿ مقدمة ﴾ قلنا ولا نزال نقول ان هناك طائفة كبيرة من نوابغ العرب والمسلمين لم يعط لهم حقهم في البحث والتنقيب ، وان التراث الاسلامي في حاجة ماسة الى من يكشف عنهُ ويظهر نواحيه المحاطة بسحب الابهام . نقول هذا مع اعترافنا بما بذله المستشرقون من علماء اوربا واميركا في البحث عن مآثر أسلافنا وفي الكشف عن غوامضها . وتدفعنا الصراحة العلمية الى القول أنهُ لولا هؤلاء لما عرفنا شيئاً عن تراثنا وعما وصل اليهِ المسلمون في العلوم والفنون . ونرى واجباً ان نصرح ان الفضل في اظهار جهود العرب الفكرية في ميادين المعرفة المتنوعة يرجع فقط للمنصفين من علماء الفرنجة ، لا لنا . ولكن رغم كل ذلك فلا تزال هناك نواح في حاجة الى التنقيب وفي حاجة الى من يعنى بها . واذا اطلعت على كتب الفرنجة في تاريخ الرياضيات لسمث وكاجوري وبول وغيرهم وجدت ان عدداً من علماء العرب قد أهمل ذكرهم فنسجت على أسمائهم عناكب النسيان من كل جانب . وقد يكون هذا ناشئاً عن عدم عثور علماء اوربا على آثارهم ، وقد يكون عن غير ذلك . وثمة طائفة غير يسيرة من علماء العرب والمسلمين من الذين عُرفت أسماؤهم ولم تُعرف آثارهم . ولقد صرفت وقتاً طويلاً في البحث عن العلماء المغمورين واستطعت بعد لأي ان آتي على ترجمة بعض من هؤلاء في مقالات نشرتها في هذه المجلة ومجلة الرسالة . ولدى مراجعة كتاب « آثار باقية » وبعد قراءتي لفصول كتاب « تحفة الاعداد لذوي الرشد والسداد » ظهر لي أن ابن حمزة المغربي هو من علماء القرن العاشر للهجرة ومن الذين اشتغلوا بالرياضيات وبرعوا وألفوا فيها المؤلفات القيمة التي أفضت الى تقدم بعض النظريات في الاعداد . وسيظهر للقارىء ان ابن حمزة من الذين مهدوا لاختراع اللوغارتمات وان بحوثه في المتواليات كانت الاساس الذي بني عليهِ هذا الفرع من الرياضيات . وهو جزائري الأصل أقام مدة في استانبول حيث درس العلم ثم عاد في أواخر القرن العاشر للهجرة الى بلاد الجزائر ومنها توجه الى الحجاز بقصد أداء فريضة الحج . ويظهر من مؤلفاته انهُ استفاد من كتب ابن الهائم وابن الغازي

﴿ اللوغارتمات ﴾ من الغريب أن تجد في أقوال بعض علماء الفرنجة ما يشير الى عدم وجود بحوث او مؤلفات مهدت السبيل الى اختراع اللوغارتمات الذي أتى العالم عن طريق نابيير . قال اللورد مولتون « ان اختراع اللوغارتمات لم يمهد له وان فكرة نابيير في هذا البحث جديدة لم ترتكز على بحوث سابقة لعلماء الرياضيات وقد أتى العالم بها من دون ان يستعين بمجهودات غيره .. » هذا ما يقوله

اللورد مولتون ولكن اسمع الآن ما يقوله العلامة سمث في كتابه تاريخ الرياضيات : « يظهر أن هناك من المسلمين من فكر في ايجاد معادلات يمكن بواسطتها تسهيل الضرب والاستغناء عنهُ بالجمع . . . » وقد سبق وأشرنا الى ذلك في مقال لنا نشرناها عن ابن يونس . أما المعادلة التي توصل اليها ابن يونس فهي : جتا س جتا ص = ½ جتا (س + ص) + ½ جتا (س — ص)

ويقول سمث من المحتمل ان نابيير توصل الى اختراع اللوغارثمات عن طريق هذه المعادلة فقد تكون هذه هي التي اوحت اليهِ بفكرة اللوغارثمات . ويقول العلامة سوتر « وكان لهذا القانون اكبر شأن قبل اكتشاف اللوغارثمات عند علماء الفلك في تحويل العمليات المعقدة «لضرب» العوامل المقدرة بالكسور الستينية في حساب المثلثات الى عمليات «جمع» . . . »

يظهر مما مرَّ ان فكرة تسهيل الاعمال المعقدة التي تحتوي على الضرب واستعمال الجمع بدلاً منها قد وجدت عند بعض علماء العرب قبل نابيير . وزيادة على ذلك فقد ثبت لنا من البحث في مآثر ابن حمزة المغربي ومن بحوثه في المتواليات الهندسية والعددية ان هذا العالم المغربي قد مهد السبيل للذين أتوا بعده في ايجاد اللوغارثمات . يقول ابن حمزة «ان أس الاساس لاي حد من حدود متوالية هندسية تبدأ بالواحد يساوي مجموع أسس اساس الحدين اللذين حاصل ضربهما يعدل الحد المذكور ناقصاً واحد . ولما كان في هذا الكلام بعض الغموض فاننا نوضحه بما يلي .

خذ المتوالية الهندسية الآتية : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢

وخذ السلسلة العددية الآتية : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦

وقد اعتبر ابن حمزة ان حدود المتوالية الثانية أسساً للاساس في حدود المتوالية الاولى ١ . واذا نظرنا الى المتوالية الهندسية وجدنا ان الاساس هو ٢ . والآن لنأخذ العدد ١٦ فيكون العدد الذي يقابلهُ في المتوالية العددية هو ٥ . ولنأخذ الحدين اللذين حاصل ضربهما يساوي ١٦ وهما ٢ ، ٨ فالعدد ٢ في المتوالية الهندسية يقابله ٢ في العددية والعدد ٨ في الهندسية يقابله ٤ في العددية . وعلى هذا فان خمسة تعدل ٢ + ٤ — ١ = ٥ وهذا يطابق ما قاله ابن حمزة . ولو ان ابن حمزة استعمل مع المتوالية الهندسية المذكورة اعلاه المتوالية العددية التي تبدأ بالصفر واتخذ الحدود في هذه الاخيرة اسساً لاساس نظائرها في حدود المتوالية الهندسية لكان اخترع اللوغارثمات او على الاقل لاخترع اهم قانون يسود بحث اللوغارثمات الذي اوجده نابيير وبركز بعده (اي بعد ابن حمزة) باربع وعشرين سنة . ومعنى هذا ان نابيير وبركز اتخذا متوالية هندسية تبدأ بالواحد تقابلها سلسلة عددية تبدأ بالصفر وبيّنا ان اس الاساس لاي حد من حدود المتوالية الهندسية يساوي مجموع اسس الاساس للحدين اللذين حاصل ضربهما يعدل الحد المذكور ، ولايضاح ذلك نقدم المثل الآتي :

المتوالية الهندسية : ١ ، ٥ ، ٢٥ ، ١٢٥ ، ٦٢٥

السلسلة العددية : ٠ ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

فاساس السلسلة الاولى هو ٥ واس الاساس للحد ٦٢٥ (مثلاً) هو ٤ واس الاساس للحد ٥ هو ١ وللحد ١٢٥ هو ٣ فعلى ذلك يكون اس الاساس للحد ٦٢٥ يعدل اس الاساس للحد ٥ واس الاساس للحد ١٢٥

والحقيقة التي اودّ الادلاء بها انهُ ما دار بخلدي اني ساجد بحوثاً كهذه لعالم مسلم كأبن حمزة هي في نفسها الاساس والخطوة الاولى في وضع اصول اللوغارثمات . قد يقول البعض ان نابيير لم يطلع على هذه البحوث ولم يقتبس منها شيئاً . قد يكون ذلك . ولكن اليست بحوث ابن حمزة في المتواليات تعطي فكرة عن مدى التقدم الذي وصل اليه العقل العربي في ميادين العلوم الرياضية ؟ اليست هذه البحوث هي الطرق الممهدة لوضع اساس اللوغارثمات ..؟

﴿ محتويات كتاب تحفة الاعداد ﴾ والكتاب الذي يحتوي على هذه الموضوعات هو كتاب تحفة الاعداد . وقد قال عنه العالم الرياضي صالح زكي انه من اكمل الكتب وهو موضوع في اللغة التركية . ويقول عنهُ كتاب كشف الظنون «تحفة الاعداد في الحساب تركي لعلي ابن ولي (وهو ابن حمزة) الفه بمكة المكرمة ورتبه على مقدمة واربع مقالات وخاتمة في عصر السلطان مراد خان بن سليم خان . . » اما المقدمة فتبحث في تعريف الحساب واصول الترقيم والتعداد واستعمل ارقاماً على اشكال مخالفة للاشكال التي كانت منتشرة في عصره وقد سماها الارقام الغبارية . وتحتوي المقالة الاولى على اعمال الاعداد الصحيحة من جمع وطرح وضرب وقسمة . وتبحث المقالة الثانية في الكسور والجذور في مخارج الكسور وفي جمعها وطرحها وضربها وقسمتها واستخراج الجذر التربيعي للاعداد الصحيحة وكيفية اجراء الاعمال الاربعة للكميات الصُمّ واستخراج جذور الاعداد المرفوعة الى القوة الثالثة والرابعة . اما المقالة الثالثة فتتناول البحث في الطرق المختلفة لايجاد قيمة المجهول وذلك باستعمال التناسب وطريقة الخطأين وطريقة الجبر والمقابلة . واما المقالة الرابعة وهي الاخيرة فتبحث في مساحات الاشكال والاجسام كالاشكال الرباعية والمنحنية وبعض انواع الجسوم . وفي الخاتمة اتى المؤلف على عدد كبير من المسائل التي يمكن حلها بطرق مختلفة ولم يكتف بذلك بل اتى على ذكر بعض المسائل الغريبة الطريفة وقد حلها بطرق لم يسبق اليها . ويجد القارىء ادناه مسألة غريبة لها حل طريف فيه فكاهة فكرية وقد سماها ابن حمزة (المسألة المكية)

﴿ المسألة المكية ﴾ : يقول بخصوص هذه المسألة ان حاجًّا هنديًّا سأله هذه المسألة في مكة وقد عجز عن ايجاد حل مرض لها عند علماء الهند اذ لم يستطيعوا ان يجدوا قاعدة لحلها، قاعدة يمكن اتباعها في الاعمال التي تكون على نمطها . ولا يظنن القارىء ان حل هذه المسألة هيّن ولا يحتاج الى تفكير عميق . وسيجد القارىء واخص بالذكر الذي يعنى بالرياضيات بعض الصعوبة في حلها وسيجد ايضاً ان ايجاد حل مرض مقنع يسير على قاعدة مخصوصة يحتاج الى اجهاد الفكر وصرف القوى العقلية مدة من الزمن . واظن ان البعض قد يرغب في الوقوف على منطوق هذه المسألة الهندية ، ولذا اعطي المنطوق كما وجدته في كتاب « آثار باقية » مع بعض التصرف في استعمال بعض الكلمات . والمنطوق كما يلي

ترك رجل تسعة اولاد وقد توفى عن احدى وثمانين نخلة تعطي النخلة الاولى في كل سنة ثمراً زنته رطل واحد والثانية تعطي رطلين والثالثة ثلاثة ارطال وهكذا الى النخلة الواحدة والثمانين التي تعطي احدى وثمانين رطلاً . والمطلوب تقسيم النخلات على الاولاد التسعة بحيث تكون انصبتهم متساوية من حيث العدد ومن حيث الانتفاع من الثمر اي ان يكون لدى كل ولد تسع نخلات بحيث تعطي عدداً من الارطال يساوي العدد الذي يأخذه الثاني من نخلاته التسعة ويساوي العدد الذي يأخذه الثالث وهكذا . وقد يجد القارىء لذة في سر الحل الذي وضعه ابن حمزة ولذا نضعهُ كما يلي:—

	الولد الاول	الولد الثاني	الولد الثالث	الولد الرابع	الولد الخامس	الولد السادس	الولد السابع	الولد الثامن	الولد التاسع
ارقام النخيل	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
	١٨	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧
	٢٦	٢٧	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
	٣٤	٣٥	٣٦	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣
	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١
	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩
	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٥٥	٥٦	٥٧
	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٦٤	٦٥
	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٧٣
عدد الارطال	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩

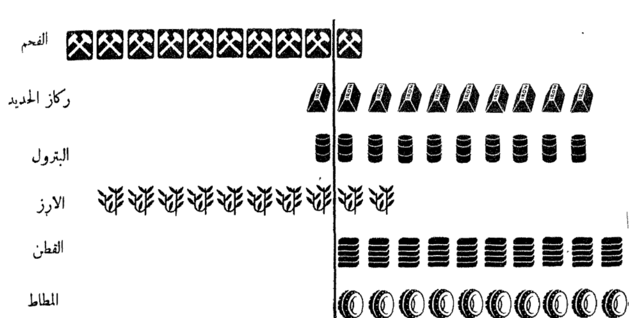
هذا هو الحل الذي وضعه ابن حمزة ولدى التدقيق نجد انه اتبع الطريقة الآتية التي تدل على مقدرته العلمية وقوة عقله في حل المشكلات الرياضية. يلاحظ ان الاعداد في السطر الاول مكتوبة من الواحد الى التسعة وانه في السطر الثاني كتب ١٠ في العمود الثاني وهكذا الى ١٧ وهو العدد الذي في العمود التاسع. ثم نجد في العمود الاول في السطر الثاني العدد الذي يلي ١٧ وهو ١٨ . وفي السطر الثالث ترك ابن حمزة العمودين الاولين وبدأ بالعدد ١٩ فوضعه في العمود الثالث الى ان وصل الى ٢٥ فوضعه في العمود التاسع ثم وضع في العمودين الاولين العددين اللذين يليان الى ٢٥ وهما ٢٦ و ٢٧ . وفي السطر الرابع ترك الاعمدة الثلاثة الاولى وسار على نفس الترتيب الذي سار عليهِ في السابق وهكذا

هذه لمحة موجزة عن حياة عالم اشتغل في العلوم الرياضية وبرع في الكتابة فيها وكان له فيها بحوث مبتكرة وطرق خاصة في حل العويص من مسائلها لم يُسبق اليها . فعسى ان تكون هذه الترجمة قد نجتهُ من طوفان النسيان الذي كاد أن يبقيه مغموراً وكاد ان يبقي بعض مآثره مبعثرة هنا وهناك في بطون الكتب القديمة وفي زوايا المخطوطات النادرة

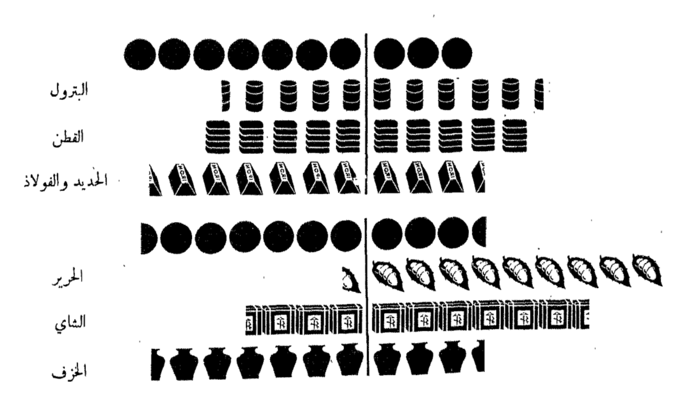


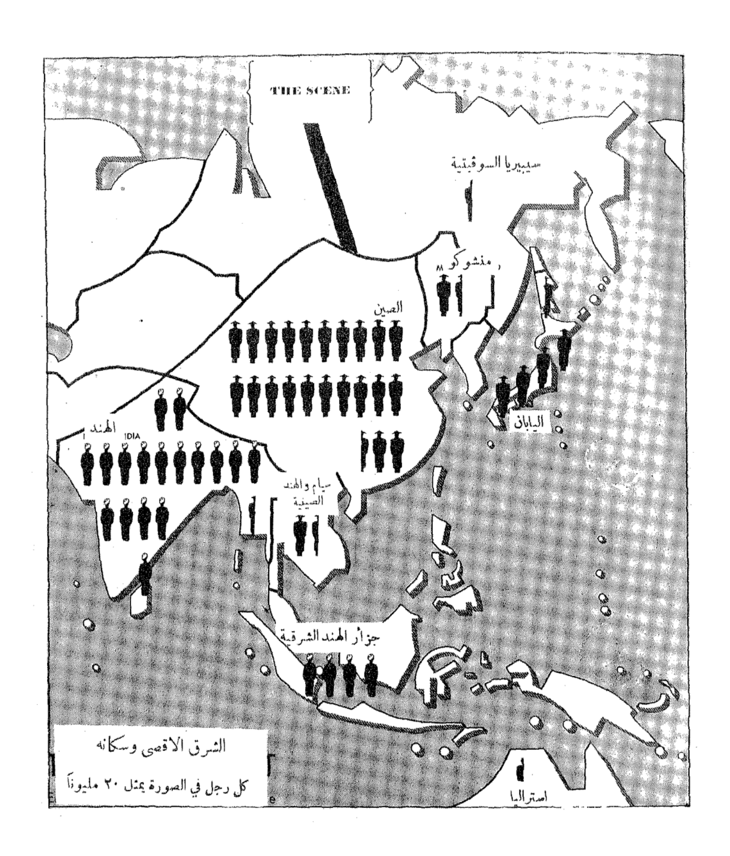
سير الزمان
عقم المؤتمرات الدولية
لنقولا الحداد
الثورة — ٢
للدكتور عبد الرحمن شهبندر
اقطاب السياسة الدولية
المرشال بلسودسكي
الصور : تمثل نواحي من حياة
اليابان الاقتصادية

منتجات اليابان ووارداتها



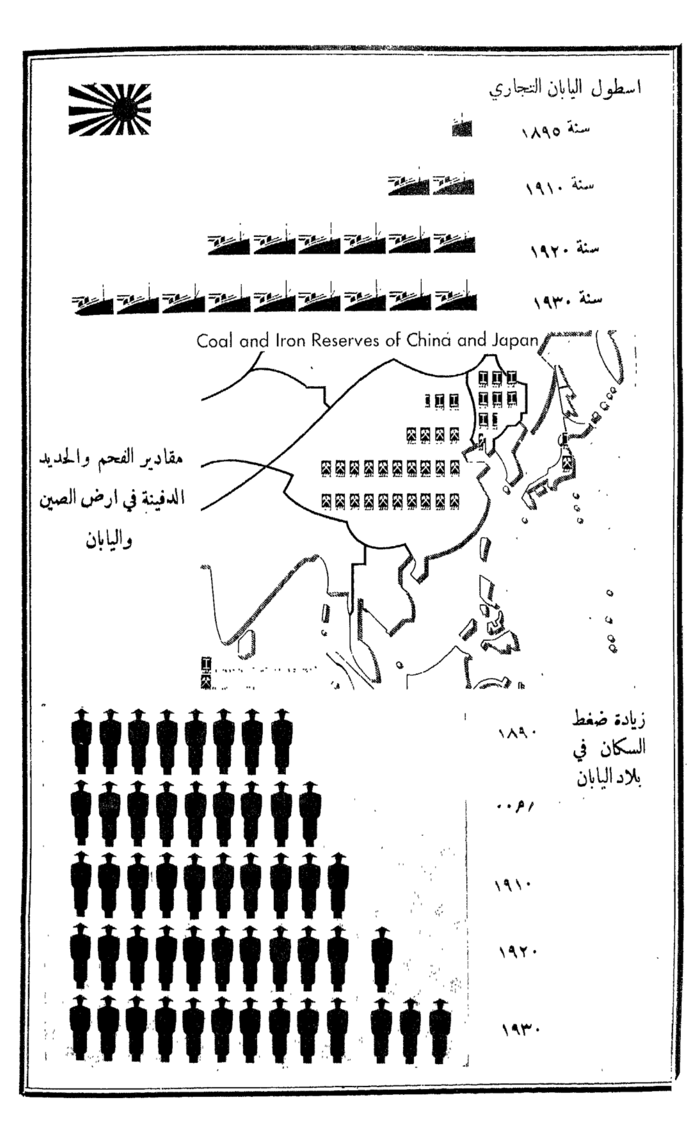
تجارة اليابان والولايات المتحدة الاميركية





الشرق الاقصى وسكانه

كل رجل في الصورة يمثل ٢٠ مليوناً


اسطول اليابان التجاري
سنة ١٨٩٥
سنة ١٩١٠
سنة ١٩٢٠
سنة ١٩٣٠
Coal and Iron Reserves of China and Japan
مقادير الفحم والحديد
الدفينة في ارض الصين
واليابان
زيادة ضغط
السكان في
بلاد اليابان
١٨٩٠
١٩٠٠
١٩١٠
١٩٢٠
١٩٣٠

عقم المؤتمرات الدولية

أين مصدر العدل المطلق ؟

بقلم نقولا الحداد

في الجزء الاسبق من المقتطف فصل ملخص من محاكمة ماتا هاري الجاسوسة الشهيرة التي كانت تتجسس في فرنسا في اثناء الحرب لحساب المانيا . كانت تدافع عن حياتها ببذل عرضها . كانت تدعي ان كل صلة بينها وبين من احتكت بهم من رجال الحرب من الجانبين صلة عشق وغرام ، وانها كانت عشيقة وخليلة لا جاسوسة . ولكن هذا الدفاع الخسيس لم يقنع المحكمة ببراءتها فحكمت عليها بالموت ، في حين أن قضاة هـذه المحكمة كانوا يعلمون جيداً ان لفرنسا جواسيس في المانيا وان حكومة فرنسا تكافىء خدمهم مكافآت كبيرة ممتدحة عملهم

أفليس غريباً أن محكمة عدل تعد عملاً ما جريمة عظمى اذا عمل في بلادها وحكومتها تعده محمدة اذا عمل لاجلها في بلاد اخرى ؟

تحكم محكمة العدل على ماتا هاري بالموت بحجة ان تجسسها أفضى الى قتل كثيرين من الجنود الفرنسيين في الحرب . فما هو رأي هـذه المحكمة في تجسس الجاسوس الفرنسي الذي أفضى الى قتل كثيرين من الجنود الالمان في الحرب ! فلماذا هذا القتل يعد حقاً وعدلاً ؟ ولماذا ذاك القتل يعدّ جريمة

تجسس ماتا هاري سبّب قتل جزءٍ من الجنود . ولكن سياسة السياسيين القابضين على أزمة الامور سببت قتل جميع الملايين الذين قتلوا في الحرب . فما رأي محكمة العدل في سياسة هؤلاء ! ألاّ تعدها جريمة عظمى ؟ أليس من ثمار هذه السياسة فن الجاسوسية الدنيء ؟

اذا تحولنا الى المانيا وجدنا محكمة العدل هناك تسلك نفس مسلك محكمة العدل الفرنسية. ولكن احكام المحكمتين متناقضة على خط مستقيم . فما تعدّه هذه خيانة عظمى تعده تلك محمدة تستحق المكافأة . والعكس بالعكس . ومعنى هذا ان ما هو رذيلة في ناحية يحسب مبرّة في ناحية اخرى . فكأنّ للعدل وجهين متناقضين تمام التناقض وكل وجه منهما حق وباطل في وقت واحد . فما هو العدل الحقيقي اذاً ؟ وما هو مصدره ؟

قد تقول ان لكل دولة عدلها الخاص . مصدره الحرص على سلامتها . فقبل النظر في هـذا القول نورد بعض الامثلة الكثيرة في المجتمع البشري التي نرى فيها العدالة ذات وجهين متناقضين حتى في نفس المملكة الواحدة

في العام الماضي اكتشفت في المانيا مؤامرة محكمة التدبير لقلب حكومة هتلر واقامة حكومة اخرى من خصومها . فبادر هتلر وأعوانه لخنق هذه المؤامرة في مهدها بمحا كمة رؤوسها واعدامهم في ليلة واحدة . فبحسب قانون الدولة اعتبرت تلك المؤامرة جريمة « الخيانة العظمى » واستحق ذووها الحكم بالموت ، وعدَّ الحكم عدلاً

لو نجحت تلك المؤامرة — وكان ممكناً أن تنجح — وقلبت الحكومة الهتلرية ، ثم حاكمت جميع مقاوميها وعدتهم مرتكبين جريمة « الخيانة العظمى » وحكمت عليهم بالموت وفي طليعتهم هتلر نفسه — أفما كان يحسب هذا الحكم عادلاً ؟ طبعاً . اذن للعدالة وجهان متناقضان في البلد الواحد

الثورة اليونانية الناشطة الآن حين كتابة هذه السطور تجعل العدل في كفتي ميزان مضطرب لا ندري الى الآن أيتهما ترجح. وانما ندري ان مصدر العدل في مثل هذه الحال هو حيث ترجح القوة[1]

وفي الثورة التركية التي أفضت الى خلع السلطان عبد الحميد مثل آخر أوضح . اعتبر خلع عبد الحميد عقاباً عادلاً بحسب قانون الدولة لأن هذا السلطان حاول القضاء على الدستور وعلى مجلس المبعوثان . ولكن لو نجح عبد الحميد في قمع الثورة وعاقب زعماءها بالاعدام بتهمة الخيانة العظمى ، أما كان يحسب هذا الحكم عدلاً بحسب قانون الدولة ؟ اذن أليس للعدل وجهان متناقضان في دولة واحدة . فأين هنا الحرص على سلامة الدولة الذي هو مصدر العدالة كما تقول ؟

اذن . فلنبحث عن مصدر العدالة في مقام آخر غير سلامة الدولة . بالبداهة نفهم ان العدالة المطلقة ذات وجه واحد لا يتلوّن مهما تغير المكان أو الزمان والاّ فما هي عدالة بل هي أثرة أو استبداد أو انتقام . فأين نجد هذه العدالة ؟ أو ما هو مصدرها ؟

أين مصدر العدل المطلق

اذا تبحرنا في مصدر العدل غير المتلوّن لا نجده الاّ في فلسفة « أدب النفس » Ethics

ان العدل الذي مصدره سلامة الدولة يفترض ان الاقوام من طينات مختلفة ولكل قوم الحق الاعلى الذي ليس لغيره . ولذلك تبقى سلامة الدولة تحت خطر . ولكن العدل الذي مصدره « ادب النفس » يفترض ان الاقوام جميعاً من طينة واحدة . جميعهم بشر ، تجمعهم الانسانية ، والحقوق موزعة عليهم بالتساوي . فاذا روعي هذا الادب النفسي فلا تبقى سلامة الدولة في خطر البتة بل بالعكس تصبح في ضمان وأمن

فالعدل الذي مصدره الحرص على سلامة الدولة عدل مزيف خطِر قتّال . واندفاع الدول وراء اطماعها بدعوى الحرص على سلامة الدولة ونجاح الامة الاقتصادي ورفاه الشعب هو الذي سوَّغ بهِ الساسة جميع وسائل التقتيل والتنكيل الشريرة والخبيثة . وهو الذي سوَّغوا بهِ الجاسوسية الدنيئة

(١) قمت الحكومة الثورة اذ كان هذا المقال تحت الطبع وقرّرت الغاء مجلس الشيوخ لان اكثريته من حزب الثورة فكيف يتفق هذا الالغاء مع الحكم الجمهوري واذا كان مجلس الشيوخ يمثل الامة فأي الحزبين يعد مفتئتاً او مغتصباً او ثائراً ؟

وسخروا العدل لتبريرها هنا وتجريمها هناك . وهو الذي برروا بهِ النفاق السياسي والكيد الدولي الى غير ذلك من الوسائل الشيطانية للحرص على سلامة الدولة — واخيراً هو الذي جعل الجهاد الحربي لاجل « الوطن » فرضاً مقدّساً . فالتنازع الذي تثيره المطامع جعل الشر فضيلة والقتل محمدة . فهل ازيف من عدل هذا مصدره ؟

قد تقول : سلمنا ان فلسفة « ادب النفس » هي مصدر العدل الحقيقي على افتراض ان جميع الامم من طينة واحدة لا امتياز لاحداهنَّ على الاخرى بل هنَّ متساويات في الحقوق . والعدل الحقيقي هو تمتعهنّ جميعاً بهذه الحقوق بحيث لا تفتئت احداهنَّ على الاخرى وتهضم حقها. ولكن قيام هذا العدل بينهنَّ بالفعل ، اي عمليًّا لا نظريًّا فقط ، يستلزم وجود سلطة منفذة للعدل . وليس ذلك فقط بل يستلزم ايضاً وجود سلطة قضائية تفسر العدل او تطبقهُ على مبادىء ادب النفس . فاين مصدر هاتين السلطتين ؟

قد يتعمق المفكر في البحث عن مصدرهما الى ان يجدهما في الله تعالى الحاكم الاعلى المقيم في الضمير الانساني . ولكن هل لجميع الانام ضمائر صالحة لاقامة الله العادل فيها ؟ ان تصرفات الافراد والامم تدل على ان معظم البشر خالون من هذه الضمائر الصالحة . بل تدلُّ بالاحرى على ان ضمائرهم تحتلها المصلحة الذاتية . لذلك قامت الدول والحكومات مقام الله . اذن فلنحاول ان نكتشف مصدر تلك السلطة المزدوجة : سلطة القضاء وسلطة التنفيذ في مصلحة الجمهور التي تُستمد منها مصلحة الفرد : تلك المصلحة العليا التي اذا روعي فيها العدل المطلق ضمنت سلام الجماعات والامم والسلم الدولي العام. فاذا بحثنا عن مصدر هذه السلطة وجدناها في قرار الاكثرية . فما يُقره الحزب الاكبر يكون حقًّا. وما يحكم بهِ ويقضي يُعدُّ عدلاً . فالعدل الحقيقي البشري يصدر من محكمة الاغلبية . اذن لاحيلة في اقامة العدل الاَّ في الاذعان لقرار الاكثرية . ولكن هذا القرار قد يحتمل عيباً يفسده . لان المراد من اي قرار اجتماعي ان يكون صالحاً للمجتمع برمتهِ او اصلح لهُ من اي قرار آخر . افلا يحتمل ان يكون قرار الاقلية اصلح من قرار الاكثرية ؟ ألا يحتمل ان تكون العقول الاصوب سياسة في جانب الاقلية والعقول الساذجة الغبية في جانب الاكثرية ؟ هذا محتمل جدًّا . ألا يحتمل ان يكون معظم قادة الاقلية ابراراً ومعظم قادة الاكثرية اشراراً ؟ هذا محتمل ايضاً . فاذاً . العدل المطلق والحق المطلق غير مضمونين دائماً بقرار الاكثرية . ففي اي شكل من اشكال الاجتماع نجد مصدر الحق والعدل المطلقين اللذين يبنى على اساسهما بنيان المجتمع المتين ؟

مهما حاولنا ان نجد ضامناً للعدل في شكل سلطة بشرية غير الهية نجد اننا لا نستغني عن الضمير الصالح الذي يوحي بالعدل المطلق من غير تحيز لمصلحة ذاتية او حزبية . ولذلك يستحيل ان نجد العدل النزيه الطاهر الاَّ في مجتمع تمكن في افراده او في معظمهم « ادب النفس » — الفضيلة . حينئذٍ يقل جدًّا او يندر ان يكون قرار الاكثرية غير سديد . وان ظهر انهُ خاطىءٌ فلجهل لا لسوء قصد .

وثمة يصلح جانب الاكثرية خطأً من تلقاء نفسهِ بعد اختباره ، بلا ثورة ولا نزاع خطير يهدد سلامة المجتمع

اذن . سبب ان للعدل وجهين متناقضين كما رأيناه في الامثلة السابقة هو ضعف «ادب النفس» في البشرية . واذا تيقنا صحة هذا السبب علمنا سرًّا تحار فيه الافهام الآن . وهو سر اخفاق جميع المؤتمرات السياسية العديدة التي عقدت على التوالي بعد الحرب (وقبلها ايضاً) لفض المشاكل الدولية المختلفة وتسويتها ولنزع السلاح وتلافي الحروب

ان تدابير ساسة الدول منذ صارت السياسة انظمة مقننة تصدر من ضمائر تمثلها شياطين المطامع والمصالح المتضاربة المتلاعنة . ضمائر خلت من روح العدل المطلق الحقيقي . ضمائر مجردة من «ادب النفس» العالي . ضمائر دساسة كائدة ماكرة . لذلك يستحيل ان يسفر اي مؤتمر دولي عن اتفاق سلمي عادل خالٍ من الضغائن والاحقاد . وبالتالي يستحيل ان تقوم للسلم العام قائمة ما دام زمام الامر في ايدي ذوي هذه الضمائر ...

ان شيطان المطامع والمصالح المتنافسة يزين لكل فئة من ساسة الدول ان مصلحة شعبها تستحل اهتضام حقوق الامم الاخرى في الحياة ، وتحلل للامة القوية استعباد الامة الضعيفة ، وتسوغ لها انتهاز الفرص للتحكم بأمة اخرى منكوبة بضعف او بأزمة او بمشكلة داخلية او خارجية . هذا اساس كل سياسة دولية الآن وعلى هذا الاساس تأتمر الدول فيما بينها وكل منها « تشد اللحاف الى ناحيتها » . فكيف يمكن ان تتفق فيما بينها وتعقد معاهدات محترمة نظيفة من شوائب الضغينة والحقد

واذا كان مصدر العدل الدولي مصلحة الدولة او الامة كما ترى فلا مناص من ان يكون هذا العدل متلوناً بألوان مطامع الدول او الامم انفسها . فالاستقلال مثلاً الذي هو حلال للامة الواحدة حرام في نظرها على امة اخرى . والحق الذي لهذه هو مغنم لتلك . والرزق الذي تحصله هذه تستغله تلك وهلمَّ جرًّا . لان القوة ، لا « الادب النفسي » المطلق ، تملي ذلك العدل وتعين للحق صاحبه بحجة ان مصلحة الامة القوية تقتضي هذا الاملاء . بحسب هذا التشريع الدولي « المصلحي » احتلت انكلترا مصر لكي تأمن على طريقها الى الهند . واحتلت فرنسا سوريا لكي يكون لها موقع حربي يعزز قوتها البحرية في البحر المتوسط ، الى غير ذلك من الامثلة العديدة المتنوعة

فلو كان للمجتمع الاعظم تشريع واحد يقيم عدلاً واحداً مطلقاً غير متلون لكانت الحقوق الاممية في الاستقلال والاسترزاق ، و (بعبارة شاملة) في الحياة ، موزعة على الامم بالتساوي . وحينئذٍ يحفظ هذا العدل لكل امة نصيبها من الحقوق ويتدارك التنازع فيما بينهما . ولكن تشريعاً عادلاً كهذا لا يزال نظرية تجول في العقول ولمَّا تبرز الى حيز المفعول ، لان الامم بالرغم من انها اصبحت مشتبكة في المصالح والمعاملات والعلائق لا تزال في فوضى جنونية ، لا نظام ينظمها ولا

تشريع عام يقيدها، وليس ثمة قانون دولي متين مبني على العدل المطلق الذي يوحيه «ادب النفس» يرشدها. اجل ان العلائق الدولية في فوضى مطلقة بلا نظام ولا قانون لان المصالح الذاتية والمطامع الدولية فوق كل قانون ونظام بل هي تدوس كل قانون دولي (وتتمرد على عصبة الامم). وما تلك المعاهدات التي تعقدها الدول الا شعوذات تضحك بها بعضها على ذقون بعض. لانه متى اقتضت المصلحة الذاتية نقضها عدتها قصاصات ورق: لذلك اقول ان العلائق الدولية في فوضى بلا نظام ولا قانون. وبالتالي لا عدل فيها على الاطلاق

وهنا لا بد ان يسأل القارىء نفسه: الى متى تبقى علائق الدول في هذه الفوضى في حين ان انسان اليوم بلغ من المعرفة والعلم ما يقنعه بسهولة ان النظام اساس كل نجاح وسعادة؟ أما حان لقادة الامم ان يفهموا ان السلام لا يتأيد الا بنظام عادل! أما اقنعتهم حوادث التاريخ القديم والحديث ان جعل المصالح الذاتية فوق كل نظام وقانون لهو مدمر للمصالح نفسها، وان نتائج الحرب الكبرى الاخيرة كانت البرهان الساطع على ان تصادم المطامع دك اركان سعادة الامم الى الحضيض؟ افما حان ان يتوبوا عن هذه الفوضى الدولية ويجنحوا الى نظام دولي وطيد مقيد بقوانين عادلة؟ فاين العلم واين المعرفة واين العباقرة؟ وما نفع هذه المدنية الجديدة التي نحن فيها؟

أين بؤرة هذه الفوضى الدولية

الجواب: ان مدنية هذا العصر فاقت المدنيات الغابرة بالعلم فقط وقصرت بالادب النفسي تقصيراً عظيماً. لا تزال منحطة ادبيًّا كما كانت منذ الفي قرن. لذلك بالرغم من ان اشتباك العلائق الأممية يستلزم نظاماً دوليًّا قانونيًّا متيناً لا تزال المطامع الفردية والشعبية تحول دون كل تنظيم وتقنين دولي. فبؤرة هذه الفوضى هي هذه المطامع

تنحصر هذه المطامع في نوعين رئيسيين وفي فئتين من الناس: هما فئة الرأسماليين الجهلة العميان، وفئة الساسة الماكرين المغرمين بالسؤدد. اولئك استعبدهم اله المال. وهؤلاء استعبدهم اله الشهرة والجاه. غرام اولئك ادخار الثروة ولو نهباً. وغرام هؤلاء الاستعلاء الى المناصب ولو على عواتق الجمهور. وكلا الفريقين متعاونان — كلاهما مجردان من «أدب النفس». لا عدل مطلق يقيم في ضمائرهما

لذلك يزين الساسة للشعب ان هناءه وسعادته في الفتح والاستعمار. ويزين الرأسماليون للشعب ان تثمير المال في المشاريع الكبرى التي تستلزم التوسع الاستعماري، يفتح ابواب العمل لملايين العمال. بهذا التزيين الذي يغترُّ بهِ هؤلاء العمال على اختلاف طبقاتهم ويطمعهم بانفراج ازماتهم كانوا يُستفزُّون للتجند والقتال. ولكن جاءت نتيجة الحرب العظمى عكس ما أُغروا بهِ وكانت تجربتها (الاخيرة في ظننا) اقناعاً لسواد العامة ان نتائج الفتح والاستعمار ليست الا مغانم لفئتي الرأسماليين والمنصبيين، ومغارم القتل في الحرب والعطلة بعدها لملايين العمال. لذلك لما ارسل موسوليني اول بعثة

جندية الى حدود الحبشة كان الشعب الايطالي يشاهدها ساعة فراقها متبرماً ويقول : لماذا يذهب اولادنا الى الهلاك ؟ واما ما ذكر بعدئذٍ من هتاف الحماسة الوطنية للفرق النازحة لم يكن الاّ ذرَّ رماد في العيون، او كان حماسة مصطنعة

فبالله كيف يتوطد السلم اذا كان العدل الدولي الكاذب يسوّغ لموسوليني ان يختلق خلافاً بين الحبشة وايطاليا لكي ينتهزهُ فرصةً لغزو هذه المملكة . ولكل دولة من دول اوروبا في كل يوم خطة كخطة موسوليني كما يعلم القارىء

ان جميع ساسة الدول بلا استثناء هم من اضراب موسوليني . قانون كل منهم السعي الى تفوّق أمته تفوقاً اقتصاديًّا على حساب غيرها عن طريق الرأسمالية . وغايته اقناع الشعب بأنهُ جدير بمنصبهِ وبتقلد زمام السلطة والنفوذ . وما دام هذا التفوق هو هدف كل دولة فلا مناص من تضارب مصالح الدول . وبالتالي فلا أمل في إسفار المؤتمرات الدولية عن اتفاق وطيد يؤيد السلم التام الشامل

سيبقى العالم مقاسياً الضيق الذي هو فيهِ الآن ما دامت أزمَّة الامور في ايدي الرأسماليين الاغبياء والساسة الافَّاكين . ولا رجاء بالفرج الاّ اذا ثاب العالم الى رشده وأقام نظاماً دوليًّا موطداً على دستور دولي عادل . ولا أمل بنظام كهذا الاّ اذا قلب العالم تينك الفئتين عن عرشيهما واقام مكانهما زعماء من اهل العلم الصحيح الذي احيا علمهم فيهم ضميراً صالحاً مشبعاً بالادب النفسي

العلم الصحيح هو دين الانسانية القويم الذي وضع مبادىء علم « ادب النفس » على قواعد طبيعية اجتماعية ليكون اساساً لنظام اجتماعي عام يجمع الامم كلها تحت راية واحدة ويمتعها جميعاً بحقوق متساوية مصونة بقضاء عام عادل حاسم لكل نزاع بينها وكافل لها سلماً خالداً

لذلك يعتقد هذا الضعيف ان اهل العلم الصحيح هم اجدر من ساسة اليوم الذين هم مطايا الرأسماليين — أجدر منهم بقيادة الامم وتسلُّم ازمَّة السياسة الدولية العامة ، لان معظمهم أنقياء الضمائر حريصون على العدل المطلق . فاذا ولتهم الامم سياسة امورها جعلوا عصبة الامم حكومة الحكومات وقضاءها محكمة المحاكم وسلطتها فوق كل سلطة وقوتها فوق كل قوة بحيث يتسنى لها أن تحسم كل نزاع بين الامم على قاعدة العدل المطلق الحقيقي . كذا تتلافى الحروب والثورات التي كانت ولا تزال تتدهور فيها الثروات ويحرم من التمتع بها العاملون في انتاجها

قد تقول ان هذا الانقلاب الذي يتحول فيه زمام السياسة الدولية من أيدي الرأسماليين والمنصبيين الى أيدي العلماء الصالحين الزاهدين بأبهة المناصب لهو حلم جميل ولكنهُ بعيد التحقيق. فأقول : اذن لا تستغرب اخفاق المؤتمرات السياسية مهما توالت ولو بلغت الملايين عدًّا

بعد البيان السابق لم يبق عندك شك في أن سياسة هذا العصر الدولية التي تمليها ارادة الرأسمالية وتتحذلق بها عقول المنصبية لهي سياسة عقيمة مستحيلة الانتاج . وسيبقى العالم معانياً الضيق بسببها الى أن ينفضها عن عاتقه مختاراً او مضطرًّا . ولكن متى يفعل ؟ — من يدري ؟

الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

(٢)

﴿ الثورة والديموقراطية الصحيحة ﴾ دلّ التتبع على ان الدول التي رسخت قدمها في الطريقة النيابية فاصبحت ديموقراطية حقّاً كالدولة البريطانية لا تجد الثورات فيها مرتعاً خصيباً، وذلك لا لانها مبرأة من كل عيب بعيدة عن مواقع الزلل ولا يشعر ابناؤها بشيءٍ من الغبن الفاحش وخيبة الامل بل لان طريقتهم النيابية الراسخة تمكنهم كما قلنا في الفصول السابقة من الخلاص من هذه الحكومة بطرق الانتخاب القانونية ومن غير التجاء الى العنف والشدة ، ولعل ذلك اعظم ميزة تتحلى بها الطريقة الديموقراطية الصحيحة الموفقة ومعظم ما قيل من قبل عن غير ذلك من الميزات دلّت الوقائع على انهُ فاسد غالباً

واما تلك الدول التي لم ترسخ لها قدم في الاصول النيابية كمعظم جمهوريات اميركا المتوسطة واميركا الجنوبية فالدستور فيها يكون بيد الحكومة المتسلطة أُلعوبة تفسره وتنسخه وتمسخه كما يتراءى لها من غير خوف ولا وجل لان الشعب الذي يجب ان يقوم هذا الدستور على قوته المادية والمعنوية هو شعب لم يختمر له رأي عام ولم تنتظم له ارادة حازمة

ولا يعني هذا الكلام ابداً ان الشعب متى استاءَ من الحكومة ثار في وجهها وقلبها دائماً بل ان للحكومة من الاجهزة ولاسيما في ايامنا هذه ما يمكنها من منع بوادر الثورة او من قمعها متى وقعت، ولكن قمع الثورة شيء وقمع الافكار شيء آخر — تستطيع الحكومة بقوة الحديد والنار ان تمنع هيئة وطنية اخرى ان تحل محلها مهما تذرعت هذه الهيئة بزرع الآمال الوهاجة والاحلام الذهبية البراقة ولكنها لن تستطيع ان تصادم سيل الافكار المستجدة ولاسيما متى كانت مبنية على العلم الصحيح والتجربة المضبوطة ومتفقة مع المصلحة والعاطفة ، فمثل هذا السيل جارف لا تقف في وجهه السدود بالغة ما بلغت من الثخانة والاحكام

وذكر الاستاذ (كونارد جل) ان الفلاحين والعمال المحجوزين في قفص من جهل وفقر لا يثورون في وجه اسيادهم ما لم يكونوا قد تعلموا ان في طاقتهم الوصول الى غرضهم بالثورة ، فما يستوقف الانظار ان الفلاحين الفرنسيين الذين ثاروا في سنة ١٧٨٩ كانوا اخف حملاً من غيرهم من الفلاحين في بعض البلدان الاوربية الاخرى وهؤلاء لم يتوسلوا بشيء لتحرير انفسهم ، لكن الفرنسيين كانوا

قد فقهوا شيئاً من الديموقراطية مجهولاً عند غيرهم فحفزهم الى العمل ، ولا تقوم ثورة من الثورات ما لم يختمر في عقول الناس حلم او امل بتحسن في الحياة — او على اقل تقدير بما يحسب تحسناً فيها — مما يعد هذه العقول للانقلاب المنشود، والامل لا الخوف هو الذي يحدث الثورات المتكللة بالنجاح [١]

﴿ التنظيم ﴾ الاستياء والامل والغاية التي يضعها الزعيم نصب العيون هي عوامل ثلاثة جوهرية في حدوث الثورات ولكنها لا تحقق الغرض وتأتي بالانقلاب المنشود الاَّ متى دخلت فيها يد التنظيم، فلتحقيق الثورة لا بد من ايد قوية مارست امزجة الناس وعرفت كيف تستولي على لبهم وتدير دفة السفينة التي يركبونها . وجميع الانقلابات الخطيرة التي قامت في العالم انما قامت بالتنظيم على كفّ الزعامة القوية . وغني عن البيان ان القوة التي نشير اليها هنا ليست قوة الابدان اذ ليس من الضروري ان يكون الزعيم مصارعاً ، ولا شدة الصياح وانتفاخ الاوداج فالسوقة من أهل الشوارع يمارسونها ويجيدونها خيراً منهُ ، وانما نريد العقلية الروحية التي ترفع المتحلي بها على هام الرجال . وعلى قدر هذه القوة في الزعامة يكون النجاح في المقاومة

ثم ان الحكومة التي يترتب على الثورة ان تزحزحها عن العرش تتمتع بقوة الجيش في البر والاسطول في البحر واسراب الطائرات في الجو وسائر ما استحدث من آلات الهلاك والدمار على عيار واسع ، وفي قبضة يدها المحاكم والسجون والمرافق الاقتصادية وما يضاف الى ذلك من حثالات نفعيين مأجورين واذناب لا همّ لهم الاَّ ان يسبحوا بحمدها آناء الليل واطراف النهار ولو خرب الوطن والساكنوه ونضبت منابع الحياة فيه ، فلا بدَّ للزعامة والحالة هذه من جمع شتات القوى الناشئة عن الاستياء وتنظيمها بحيث يكون في مقدورها ملاقاة هذا العدد العديد المتحصن وزحزحته عن مكانه

هذه هي العوامل بالاجمال من ناحية زعماء الثورة والقائلين بقولهم فإلى أي حدّ تستطيع الحكومة يا ترى أن تقاومها ؟ وليس الجواب عن ذلك متعذراً اذ قد جرت في الشرق الاوسط ثورات متنوعة تزود الباحث بالاجوبة المقنعة ، فحيثما كان الشعب حيًّا نشيطاً شاعراً بظلاماته مدركاً الغرض الذي ينشدهُ عارفاً رجاله بعيداً عن التوسخ بالاراذل المنحطين ومنظماً تنظيماً يوحد جهوده ويجعل الضربة التي يكيلها تنزل على الرأس المقصود في الساعة المعينة ولا يفسح مجالاً للدجالين الصفقاء ان يندسّوا بين أفراده وكانت الحكومة جبانة ضعيفة لا سلطة لها على الجيش والاسطول وسائر منابع القوة وكانت يابسة لا تاين للمقتضيات الزمنية الملحئة التي استجدت فالنتيجة الانقلاب السياسي حتماً . بل قد لا تكون الامة على الشيء الكثير من تلك الشمائل ولكن خصمها الجالس على منصة الحكم فيها يكون ضعيفاً جباناً غير مزود بغير الملاحظات التي تزيد وساوسه فتقع الواقعة ويتم الانقلاب بين عشية وضحاها كما حدث في المملكة العثمانية سنة ١٩٠٨ ، فان ثورة محلية درها افراد من الجيش في

(١) Conard Gill, P. 265

الروملي وكبر من شأنها بعض صغار الموظفين في البرق والبريد فجازت على السلطان عبد الحميد وقواده وانتهت بانقلاب سياسي غاية في الابداع، وزحزحت كابوساً من كوابيس الاستبداد تربع على صدر الامة عشرات السنين فكاد يقطع الانفاس، وثلت عرشاً من العروش تحكم في رقاب العباد فعلّم الناس الذلّ وعوّدهم الصغار

***

وفي درس الثورة العربية الكبرى والبحث عن اسباب هبوبها وخمودها والنتائج التي تولدت عنها ما ينطبق على هذه الملاحظات التي قدمناها، فقد ألمعنا الى الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨ وكان من أهم عواقبه ان اتجه الرأي العام بين فتيان الترك الى تتريك سائر العناصر في الدولة العثمانية خشية ان تتغلب هذه العناصر في آخر الامر على الترك أنفسهم . ولحظ رجال العرب في الاستانة منذ تلك الايام الاولى المبادىء التي يسير عليها مصطفى كمال باشا اليوم من اضطهاد العربية وقطع الصلة بثقافتها وهذا أدّى بطبيعة الحال الى ايقاظ القومية العربية من سباتها العميق وانتباه العرب الى حوزتهم المادية والمعنوية، فعدّ الترك هذا العمل خروجاً على الدولة وانشقاقاً عنهم حتى اذا اعلنت الحرب العالمية انتهزوها فرصة فأرسلوا الى سورية وهي دماغ النهضة العربية المفكر طاغيتهم احمد جمال باشا وزبانيته ومن انضم اليهم من المأجورين فأتوا في البلدان العربية من الاعمال ما يعيد الى الخاطر ذكريات جنكيز خان وهولاكو خان وتيمورلنك فنصبت المشانق وسيق اليها رجالات العرب الافذاذ باحكام مزورة مصطنعة حتى ان احد الاعلام المرحوم عبد الوهاب بك المليحي كان الحكم الذي صدر عليهِ بالموت انهُ لا يحب الدولة — يعني يحكم على الناس بالموت والحياة بمجرد الحب والبغض على طريقة ديوان التفتيش في القرون الوسطى !

فأثارت هذه المظالم والمغارم بما بثهُ الزعماء من دعاية استنكاراً عامًّا لان الدم الزكي المهراق كالشاشة الحمراء بيد المستفزين اللاعبين في المنطح يهيج الثيران ويدفعها الى الغضب . أضف الى هذه الجنايات السياسية اعمال الموظفين ولا سيما رجال العسكرية منهم وما كانوا يحدثونهُ في الرعية من المنكرات باسم اعانة الجيش ولو بجمع زجاجات (الكولونيا) وغيرها من العطور . ولم تعدم مثل هذه الفرص السياسية دولة تنتهزها فتكشف عن ساقيها البضتين الناعمتين وتلوّح للعرب بذيلها الحريري الفتان فتفتح في خيالهم أبواب جنة طالما حلموا بها وظنوا فيها السعادة المنشودة، وقد عاب على العرب بعض المتنطعين قبولهم المعونة التي عرضتها عليهم الدولة البريطانية وفاتهم ان ظلم السفاحين من الاتحاديين بلغ بالناس درجة ان لو نادتهم دولة (هايتي) او قبائل (نيام نيام) للبوها وهرولوا اليها فما بالك والملوّح اعظم دولة على وجه الارض — هي انكلتره مليكة البحار وقارون المال

اما عيوب الثورة العربية الكبرى فهي كبيرة على نسبتها . فمنها ان الزعامة على ما تحلّت بهِ من وطنية صادقة وعزيمة ثابتة كانت عتيقة بالية في تصوراتها ووسائلها « حميدية » في نزعتها طافحة بالكبرياء

على غير اساس تكاد تكون فكرتها ابتدائية ، ومنها ان الرأي العام كان لا يزال في كثير من الانحاء تحت كابوس الفلسفة التي اناخت بكلكلها على عقول القرون الوسطى ، فكان الناس يتأثرون بكلمة خلافة وامامة اكثر مما يتأثرون بكلمة وطن وشعب ، ومنها نقص التربية السياسية.. ومنها .. ومنها. ولكن على التحقيق اعظمها فقد التنظيم بين ابنائها فكانت مقاومتهم للسفاحين اشبه شيء بالاعمال الانعكاسية الفطرية ليس للرأي فيها كبير شأن ، ولم تتجاوز في عيارها الهبَّات الموضعية المتقطعة فكانت اذا اشتعلت في جهة بفعل المهيجين لا يعدم الاتحاديون من يساعدهم على اخمادها من ابناء البلاد انفسهم في جهة اخرى ، وقد بقيت بعض الاقطار العربية متعلقة بأهدابهم واهداب خلافتهم الى النفس الاخير وذلك لا قنوطاً من عقلية الملك حسين واستيحاشاً من فوضى البدو وخوفاً من طمعهم الاشعبي الذي لا حدَّ لهُ ، او تعمقاً في فهم الخطط الاستعمارية التي تتهددهم من الغرب واحاطة بدسائس الافرنج بل خضوعاً لنظريات عتيقة انقبرت مع القرون الوسطى وزالت بزوال السلطة الاكليريكية السياسية

ومما اذكر هنا من غرائبها ان نحو ثلاثة آلاف اسير من ابناء العراق الاقحاح كانوا اسرى في (سمربور) من بلاد الهند فبث بعض الضباط العرب بينهم فكرة القومية العربية والجهاد في سبيل الاوطان لانقاذ اخوانهم من مظالم جمال باشا في سورية وخليل باشا في العراق فقبلوا الانضمام الى الثورة وفيما هم على الطريق انبث بينهم بعض الافراد المستتركين ففتنوهم عن قوميتهم ولفتوهم عن وطنهم فلما وصلوا الى (جدة) ونزلوا الى البر يتأهبون للذهاب الى ميادين الجهاد نكصوا على اعقابهم فجأة وصاحوا بأعلى اصواتهم يحيون السلطان في القسطنطينية بقولهم « پادشاهم چوق ياشا » فليت (كمال اتاتورك) مطلق العربية والاسلامية والشرقية يصغي الى صياح العرب هذا فيترفق بالبقية الباقية من ابناء الخلفاء العثمانيين واحفادهم ويدفع عنهم وصمة التشرد وذل الحاجة

وهذه الثورة السورية التي اندلع لهيبها في سنة ١٩٢٥ قد اتت من اعمال البطولة ما يسجل لسورية بمداد الفخر لكن البطولة شيء والتنظيم شيء آخر ، فقد الجأتنا سيرة الكابتن (كاربيه) في جبل الدروز وخفة الجنرال (سراي) في بيروت الى انتهاز الفرصة المبتسمة من السخط الناشىء عنهما فباشرنا العمل وخضنا غمار الثورة قبل ان يتم تأليف (حزب الشعب) ويتم لنا بتأليفه تنظيم البلاد من اولها الى آخرها حتى اذا اقتضت الحال ان نضرب ضربتنا شددنا المطرقة وارخيناها على التوالي بالاوامر المنظمة لتقع الضربة على الرأس المقصود ، فكان اسراعنا الاضطراري هذا سبباً لحرمان الوطن من اقتطاف ثمار جهوده بما يتكافأ مع البذل الغالي الذي بذله بالمال وبالرجال ، ذلك لان سورية ويا للاسف لم تثر كلها بل الذي ثار جزء صغير منها وفي اوقات متقطعة

***

﴿ الثورة وقابلية الشعوب لها ﴾ وتقسم الاقوام بالنسبة الى الثورة كما قال الاستاذ (كونارد جل)

الى درجات ، فالدرجة الاولى وهي احطها قوم يأكلون الصفع على رؤوسهم وتشن عليهم الغارات في عقر دورهم ويساقون الى الذل والصغار من مخاطمهم فلا تبدر منهم بادرة بالتذمر بل تجدهم فرحين بالنير على اعناقهم فرح السيد الحر بالانطلاق حتى ان الذي يستعبدهم لا يرى حاجة الى استرضائهم بأكثر من الوظائف الحقيرة يمن بها على رجالهم وكسر الخبز يقتها لابنائهم وابتسامات الغدر يظهرها لبناتهم ، وهؤلاء كما قال الاستاذ قد بلغوا من الانحطاط انهم لن يثوروا

و (الدرجة الثانية) قوم حازوا المقدار الكافي من الامل والنشاط للاقدام على الثورة وعرفوا ان لهم حوزة مادية ومعنوية لا قيام لهم الا بالدفاع عنها والتعلق بأهدابها فثاروا لكنهم غلبوا على امرهم وقهروا في الميدان فما عليهم الا ان ينتظروا سنوح فرصة اخرى ملائمة وهذه الفرصة قادمة حتماً اذا هم تذرعوا بالصبر واحتفظوا بقواهم الحيوية

و (الدرجة الثالثة) قوم عرفوا كيف تؤكل الكتف فنظموا ثورتهم واختاروا خير الاوقات لاعلانها فنجحوا في تنفيذها وفازوا بتحقيق غاياتها وتمكن الشعب من بعدها ان يسير في الحياة على السبل التي تسير عليها الامم الحية المستقلة

وثمة درجة رابعة هي في نظر الاستاذ ارقى الدرجات واكملها وهي قائمة على التدرج في الانقلاب والتحول بالطريقة السلمية المجردة من العنف والشدة . وفي وسع الباحث ان يتصور ان مثل هذه الدرجة هي في حيز الامكان في الشعوب المستقلة ذات التربية السياسية السمحة في داخليتها الآمنة على حوزتها من التعدي الخارجي الذي يهددها في اقدس مقومات حياتها . واما المستعمرات والمحميات والممتلكات على الطريقة التي رأيناها او سمعنا بها فانتظار خلاصها بالطريقة النشوئية التدرجية الهادئة معناه منح القوة المحتلة الفرصة المديدة لامتصاصها وتمثيلها . والنجار مهما كان جاهلاً ومنشاره كليلاً فمتى منحته الزمن الكافي فهو واصل الى قطع الشجرة حتماً

***

ولا مراء أن الحصول على الانقلاب المنشود بالطريقة السلمية — متى كان ممكناً — لا يرغب عنهُ الى الطريقة الثورية الا الحمقى ، وهل يترك السهل ويسلك الوعر الا مضطر ألجأتهُ الحوادث الى ركوب متن الخطر ؟

ودلَّ التتبع في الشؤون الحاضرة على ان معظم الاعتراضات على الثورة كتب في تقبيح الانتقاض على الانظمة الاجتماعية والاقتصادية التي خضعت لها الجمعية البشرية حتى الآن ، وفازت الثورة الشيوعية من هذه الاعتراضات بالنصيب الاوفر ، فقد حمل عليها النقـاد في بعض البلدان حملة شعواء منكرة تنفيراً للخاق منها ومن زعمائها والقائلين بها ، ونفقت هذه الانتقادات وحبّرت بصورة خاصة في البلدان المتطرفة في رأس ماليتها مما سنبينهُ في مقالنا الآتي

المارشال بلسودسكي

منشىء بولونيا الجديدة

[جاء في انباء بولونيا البرقية ان مجلس نوابها قد وافق على مشروع القانون الخاص بتعديل دستورها باكثرية ٢٦٠ صوتاً على ١٣٩ . وقد خول رئيس الجمهورية بمقتضى التعديل الجديد سلطة عظيمة . منها حق تعيين الوزراء وقائد الجيش العام ورئيس المحكمة العليا وحق عزلهم ، وحق تعيين ثلث مجلس الشيوخ اي ٤٠ عضواً من ١٢٠ ، وحق دعوة البرلمان وفضه ، وحق مفاوضة الدول في المعاهدات الخارجية وامضائها وتقرير السلم وشهر الحرب . والراجح ان المارشال بلسودسكي يرضى الآن ان ينتخب للرآسة فقد رفض ذلك قبلا (سنة ١٩٢٦) محتجاً بضعف سلطة الرئيس]

لسنا نتوقع عادةً ان تكون حياة السياسي حافلة بألوان المغامرة والحوادث ، كأنها منتزعة من صفحات قصة رومانطيقية . ولكن حياة المارشال بلسودسكي من هذا القبيل . فقد قضى خمس سنوات من حياتهِ منفيًّا في سيبيريا . وسجن في امنع السجون وأشدها احكاماً ، في فرسوفيا (وارسو عاصمة بولونيا) ولم ينجو منهُ الاَّ باصطناعه الجنون . وانشأ صحيفة ثورية سرية (روبتونيك اي العامل) كانت امرأته تغني في خلال طبعها حتى لا يسمع البوليس صوت الآلة الطابعة وهديرها وكان هو يحررها ويطبعها ويوزعها . وحارب في خلال الحرب الكبرى في جانب الدول المركزية (المانيا وحلفائها) اولاً ثم انقلب عليها وحاربها وقبض عليه الالمان واعتقلوه في حصن منيع . ثم انهُ في فترة من حياته اشتغل بالتشرد وقطع الطرق في سبيل استقلال بولونيا ؟

***

لبولونيا تاريخ قومي مجيد حافل بآثار الادب والفن والعلم ، ولكنها بلاد مشؤومة لوقوعها بين ثلاث امبراطوريات عظيمة ، فكانت تتقاذفها وتتشاطرها . هذه الامبراطوريات هي المانيا والنمسا وروسيا . وقد شطرت غير مرة ، لجزء اخذته المانيا وآخر روسيا وآخر النمسا . فظهور بولونيا الآن بمظهر الامة الموحدة المستقلة درس يلقيه علينا التاريخ ، بأن الشعور القومي في امة ما لا يمكن ان تخمده بالضغط والظلم بل هو كالشعور الديني يتقد ويقوى في ظلال الارهاق والاستعباد

***

ولد يوسف بلسودسكي (سنة ١٨٦٧ في الجانب الروسي من بولونيا) ونشأ في جو حافل بأحاديث استبداد الروسيين وبطشهم في محاولتهم خفت كل صوت بولوني حر واخماد شعور

الاستقلال الذي يعمر صدور البولونيين . وكان قد مضى على بولونيا نحو قرن وهي مقسمة مجزأة ولكن القرن كان غير كاف لاخماد الشعور القومي . وكانت والدة بلسودسكي ، واحدة من الامهات اللواتي كنَّ يقرأنَ لابنائهنَّ ، او يقصصنَ عليهم ، حكايات وأشعاراً تنطوي على عظمة بلادها التالدة وأمجادها العجيبة

***

كان بلسودسكي في العشرين من عمره لما حوكم بتهمة اشتراكه في دسيسة ضد القيصر فحكم عليهِ بالنفي الى سيبيريا مع ان المحاكمة اثبتت براءتهُ واعراضه عن وسائل الارهاب

في سيبيريا ، جمع بلسودسكي أفكاره ونظمها ، وكان معظم المسجونين الآخرين من الاشتراكيين الروس ، فأصبح اشتراكيًّا ، ولكن من نوع خاص . اصبح اشتراكيًّا كموسوليني ، يستعمل الحزب ، لانهُ حزب ثوري لغايته أي ليفوز باستقلال بلاده . وفي سنة ١٨٩٢ ، عاد من المنفى فأنشأ الحزب البولوني الاشتراكي وأسس جريدة تدعى « الروبوتنك » — وهي الآن اكبر جريدة اشتراكية في بولونيا — ولا يخفى ان تحرير جريدة ليس عادة بالعمل الحافل بالخطر والمغامرة ، ولكنهُ يصبح كذلك إذ تضطر أن تخفي مطبعتك الصغيرة في خزانة ، وان تهرّب كل نسخة تهريباً لان اكتشافها يفضي الى السجن . وكان بلسودسكي وزوجته يقضيان نحو اسبوع في طبع ٢٠٠٠ نسخة منها لصغر الآلة الطابعة ، ومع ذلك ظل رجال البوليس يبحثون عن مطبعتها في مدينة لودز ، سبع سنوات قبلما اكتشفوها ، فسجن بلسودسكي ثانية . وجاء بعده من أصدر عددين منها في لندن ولكن زعيم الحركة كان في السجن ، بل في امنع السجون

في هذا السجن اصطنع بلسودسكي الجنون لكي ينقل الى مكان آخر يستطيع ان يفرَّ منهُ . ولكن حكام السجن وولاة الامر لم ينقلوه الى مستشفى الامراض العقلية ، حتى كاد تصنع الجنون ان يصبح حقيقة واقعة ، فنقل الى مستشفى في العاصمة الروسية — بطرسبرج — فمهد لهُ احد الاطباء سبيل الفرار لابساً بدلة عادية . ثم تزيَّى بزي موظف جمارك روسي وفر من بطرسبرج ، فجاء الى لندن وقطن في الحي الذي يكثر فيهِ الثوار الروس والبولونيون ، وكانت لندن حينئذٍ مباءة لهم ، بعد ما رفضت كل بلاد أوربية ان تؤويهم ، وكان غرضهم جميعاً ثل العرش الروسي . فلما نشبت الحرب الروسية اليابانية سافر بلسودسكي الى طوكيو عاصمة اليابان لكي يقنع اليابانيين بمنحهِ الاعتمادات اللازمة لانشاء فرقة بولونية للمحاربة في صفوف اليابانيين . وكان نجاحه مؤكداً لولا أن زعيماً آخر يدعى دنفسكي لم يسبقه الى اليابان ، وكان دنفسكي لا يعتقد ان استقلال بلاده ينال بالقوة والثورة بل بالحجة والعقل . وخيبته هذه وسعت شقة الخلاف بين هذين الفريقين من البولونيين ، وكانت مصدر حيرة واضطراب لما استقلت البلاد بعد الحرب الكبرى

فقال بلسودسكي في نفسه : اذا لم أستطع ان اكون زعيماً حربيًّا فلأكونَنَّ قاطع طريق فجعل

ينشىء العصابات في بولونيا الروسية لاطلاق سراح المسجونين بالقوة ، ومهاجمة الموظفين وسرقة البريد لكي ينفق ما يسرقه في سبيل القضية البولونية ، وقد فازت احدى عصاباته مرة بسرقة ما قيمته ثلاثة ملايين روبل

ولكن هذه الفترة في حياته كانت قصيرة ، لانهُ أدرك ، ان العصابات لا تحدث الأثر المطلوب، فقال اذا كانت اليابان لا تساعده على انشاء فرقة حربية بولونية فقد تساعده دولة اخرى فتحوَّل الى النمسا، فمكنه رجالها مما يريد وكلا الفريقين يضمر عداءً للآخر، فلما أعلنت الحرب العامة خاض غمارها ضد روسيا في جانب المانيا والنمسا، خاض غمارها وهو يعلم حق العلم ، انه لابد ان ينقلب يوماً ما عليهما ، اذا كسرتا روسيا فيحارب النمسا نفسها ، لان كلتيهما عدو لاستقلال بولونيا . ولما انقلب فعلاً بعد خروج روسيا من ميدان الحرب سنة ١٩١٧ القى الالمان القبض عليه ، وسجنوه في حصن منيع في مجدبرج. فلما انهارت الامبرطورية الالمانية اطلق الثوار الالمان سراحه وعاد الى بلاده بطلا كالابطال فخرج مائة ألف بولوني الى استقباله في محطة فرسوفيا في ٤ نوفمبر ١٩١٨ . واستقال مجلس الوصاية الذي انشأه الالمان ورضيت السلطات العسكرية ان تخضع لزعامته فمنح سلطة دكتاتورية وانتخب بالاجماع رئيساً للدولة وعينه الجيش مارشال بولونيا الاول

***

وما لبث بلسودسكي ان رأى بولونيا مشتبكة في حرب مع روسيا الحمراء ، وفي نزاعات بين رجال السياسة فيها وكان بعضهم يضنُّ على بلسودسكي بالفضل الذي يحق له ، فجمع جيشاً وسار به نحو « كيف » في أوقرانيا ، ولكن الجيوش الروسية ارتدت اليه بعد ما تغلبت على كولشاك ودنيكين وما زالت تتوغل في بولونيا حتى اصبحت على ميل او ميلين من عاصمتها . اما بلسودسكي فتراجع الى عاصمته، وجمع فلول الجيش البولوني بعد نداءٍ حارٍ وجههُ الى الامة، ودحر بهم الجيش الروسي في معركة وارسو التي تحسب من العجائب ، وكذلك انتهت الحرب مع روسيا وعقد الصلح في مدينة ريغا سنة ١٩٢١

بعد ذلك اعتزل بلسودسكي الحياة العامة فترة قصيرة من الزمن ولكن البرلمان البولوني ، ظل يضيع الوقت في الامور التافهة ، فوصفه المارشال ، وصفاً بديعاً اذ قال انهُ « كالقاطرة التي تحاول ان تجر قشة » . وفي سنة ١٩٢٦ زحف على العاصمة ، وطرد الرئيس — وكان هـذا الرئيس في يوم من الايام زميله في تحرير الجريدة الثورية السرية — وتقلد منصب وزير الحربية ، رافضاً ان ينتخب رئيساً للجمهورية ، بل انهُ انتخب ورفض لان سلطة الرئيس محدودة

***

وهو يقيم الآن في قصر بلفدير ، وليس لهُ أي نصيب في الحكم الاّ من وراء ستار . ولكن العيون تتجه اليه في الملمات لانهُ الرجل الذي لم يساوم ضميره في أي شيء يتعلق باستقلال بولونيا



باب التربيـة

بعض عوامل الضعف في تكوين الفرد

للدكتور محمد بهي الدين بركات بك

التربية ولغة الاطفال

لزكي المهندس

استاذ التربية بدار العلوم



بعض عوامل الضعف

في تكوين الفرد

وطرق علاجها في الاسرة والمدرسة

لبهي الدين بركات بك وزير المعارف الاسبق

| جاءتنا هذه الخطبة النفيسة لصاحب السعادة بهي الدين بركات بك وزير المعارف الاسبق وكان معظم ملازم المقتطف قد طبع ، فضننا بما احتوت عليه من الفوائد ان تتأخر الى الشهر القادم فنشرناها في هذا الباب لان الوالدين والمعلمين أجدر الناس باستيعاب معانيها والعمل بها |

سادتي : بينما كنت اطالع منذ أيام احدى المجلات الزراعية استرعى نظري ما قرأته لخبير زراعة القصب من قوله ان الفلاح المصري وصل في بعض الشئون الزراعية بفضل مثابرته وارتقابه لزراعته درجة من الاتقان لم يصل اليها العلم الحديث فالتجربة علمت من طرق الزراعة ما يأتي بأحسن الثمرات

قد يدهش المرء لتلك العبارة ولكنهُ اذا فكر أن الحاجة تفتق الحيلة وان الضرورة أم الاختراع عرف كيف تستطيع الجهود المتجمعة أن تصل الى ما لا يستطيعهُ العلماء أنفسهم

هذه شهادة العلماء عن نتيجة ما وصلنا اليهِ بفضل عنايتنا بنباتنا وزراعتنا فهل نحن وصلنا الى بعض تلك النتيجة فيما يتعلق بتربية أبنائنا وبناتنا ؟

بالأَسف كلاَّ !

اغشَ أي مجلس من مجالس الفلاحين تجدهم يبحثون في أوان الزراعة الملائم لنجاحها وفي طرق ريها وأساليب معالجتها وأحسن الوسائل لاكثار الانتاج وطرق مكافحة الآفات الزراعية وغير ذلك . واغشَ بعد ذلك مجالس القاهرة تجدهم يتناقشون في السياسة وفي الدرجات وفي أسباب تفضيل زيد على بكر وغير ذلك من المسائل التي تشغل الرأي العام . ولكنك يندر أن تجد مجلساً يتناقش في طريقة معاملة الأطفال وفي أحسن السبل لتربيتهم وتقويم المعوج فيهم وكثيراً ما تسمع الناس ينسبون العيب الى المدرسة والتقصير الى الحكومة ويندر أن تجد من يذكر أن الاسرة هي المدرسة الاولى للطفل وان للطفل ذاكرة كالمرآة ينعكس فيها كل ما يراه وينطبع أثره في نفسه وينتج نتيجة في أخلاقه وتكوّنه اذا ما بلغ شابًا ثم رجلاً

فهل فكرنا نحن في تربية أولادنا ان نحجم عن ارتكاب النقائص أمامهم وأن يكون الأبوان نموذجاً حسناً لهم ؟ أظن لا

ولعلَّ جمهرة الآباء والأمهات عندنا لا يشعرون بأن عليهم واجباً لأولادهم ولا بأن الأمثلة السيئة التي يراها الطفل ستلازمهُ حتماً مدى الحياة

ألسنا نرى كثيراً من الآباء والأمهات يلقنون أولادهم الكذب ويطبعون فيهم روح الغيرة والحسد بما يقصون أمامهم من الأحاديث ويلقنونهم من الأوامر ؟

فكم من الآباء والأمهات يتنبهون إلى أن كثيراً من القصص العائلية والمشاحنات الفردية لا يصح ذكرها أمام أبنائهم وبناتهم حتى لا يفقدوا روح العطف نحو أهلهم وحتى ينشأوا طاهرين مما يثقل ماضي أهلهم فيبدلوا حياة أسعد من حياتهم ويعملوا بروح من المحبة بعيدة عن البغضاء والشحناء وعن الأثرة والأنانية

هل فكر أحد منا في ذلك وعمل عليهِ في تربية أبنائهِ ؟ أوَلسنا في كثير من الاحيان نستحثُّ أولادنا وبناتنا الى العمل من طريق بث روح الغيرة والحسد نحو الآخرين ؟ بل من طريق بذر بذور عدم الثقة والكراهة بين الاخوة . فكم من والد يقول لولده (أنا أحبك اكثر من أخيك — أخوك بطال — كلْ هذه القطعة ولا تخبر أخاك عنها أو اخفِها منهُ) وغير ذلك مما يعوّد الطفل منذ نعومة أظفاره الأثرة والانانية ويغرس في نفسه الغيرة والحسد حتى من اخوته

***

كذلك كان من نتائج عدم تفكيرنا في طرق معالجة أطفالنا أنهُ بينما يفكر كل منا في رفاهية اولاده المادية اذا بهِ يهمل الجهة المعنوية اهمالاً تامًّا . فلقد كنا في ماضٍ ليس ببعيد نسمع أن الولد لا يصح لهُ أن يجالس أباه وان الزوجة لا تأكل مع زوجها وان الطاعة واجبة على كل منهما نحو رب البيت وما درى هؤلاء انهم كانوا بذلك يغرسون روح الذل والاستبداد في أبنائهم وبناتهم ويعطلون فيهم جميع الصفات الضرورية لجعلهم أفراداً أحراراً في مجتمع يحميهم ويعملون هم على رقيه

حقًّا لقد تغيرت تلك الحالة الآن ولكن تغيرها كان في الشكل أما في الجوهر فلا يزال كثير من الآباء والأمهات يتصورون ان الطفل يجب أن يربى على الادب والطاعة

فالأدب في عرفهم ، ان يجلس الطفل جلسة مخصوصة . وان لا يتحرك في مجلسه واذا ضرب فلا يبكي

وأما الطاعة فهي أن يتلقى الاوامر فيخضع لها مهما كانت وما دروا أن الطفل يحتاج دائماً الى الحركة وان السكون في الطفولة الاولى علامة المرض والخمول وان من يضرَب ولا يبكي فانما ينشأ ذليلاً حقيراً ، وان من يحرم حق التفكير لا يمكن أن يكون حرًّا ، وان النظام والطاعة غير الخضوع والخنوع ، وان الوالد لو فكر في حق ابنه عليهِ لما جعل لتفوقه المادي على ذلك الطفل ولا للنعرة الوقتية التي تأخذه باللائمة اذا ما اعترض الولد على أمر من أوامره ، اي أثر فيهِ ، في تربية ولده ولكن للأسف نجد الحالة الفكرية في أذهان الناس على الضد من ذلك

فهم يطالبون من الولد أن يكون أداة طبيعية لهم من غير أن يفكروا فيما لتلك الحالة من الآثار العميقة في تكوين الطفل وما لها من نتائج بعيدة المدى

اذ ان من يربى على الخنوع لا يكون عاجزاً فقط بل ينقلب طاغية مستبداً اذا ما ولي الامر بدوره وأني لا ازال اذكر اني في المناصب التي شغلتها كنت احتاج الى كثير من التشجيع حتى يستطيع غالب الموظفين الذين كانوا تحت رآستي ان يبدوا رأيهم بحرية لانهُ انطبع في اذهان كثير من رؤسائهم ان الاحترام معناه ان يفنى المرؤس في الرئيس وان الشخص الذي يعارض رأيك لا يمكن ان يكون محلاً لرضاك وان طاعة الرئيس معناها شلّ كل رأي يخالف رأيهُ . فلعمري كيف يمكن التعاون والحالة النفسية على ما قدمنا بل كيف يرقى مجتمع تلك حالة افراده

ولا أزال اذكر كذلك اني عندما كنت وزيراً للمعارف لاحظت عدم وجود اداة اتصال بين رجال التعليم ليبحثوا نظم التربية والتعليم ويعملوا على ترقيتها واصلاح ما فيها من العيوب ففكرت في انشاء مجلة لتكون اداة لتلك الأبحاث وفعلاً دعوت بعض رجال المعارف لمباحثتهم في الامر فسألني احدهم وهل يكون لتلك المجلة حق نقد النظم الحاضرة فقلت له نعم لان سبيل التقدم والرقي هو معرفة عيوب الحاضر ولا يمكن ان نصل الى ذلك بغير النقد وما دامت الابحاث محصورة في الحدود العلمية والفنية من غير ان تتعدى الى الاشخاص اوالسياسة او الدين فمجالها حرٌّ للباحثين. فاجابني وقد شعر بغرابة وقع سؤاله من نفسي بانهُ انما اراد الاستفسار لان الفكرة عرضت في عهد احد الوزراء الذين تولوا امر الوزارة قبلي ببضع سنين فاعترض عليها ذلك الوزير وقال كيف اسمح لرجال التعليم ومهمتهم الدفاع عن الوزارة ونظمها بنقد نظم التعليم

ايها السادة: ارجو ان لا يدهشكم هذا القول فلقد كان الوزير الذي اشير اليهِ معروفاً بين الناس بالحكمة وحسن التدبير وهو ممن تركوا في نفوس الكثيرون اثراً طيباً ولكن الامور اشتبهت علينا وتربية الاسرة فينا اضلّتنا السبيل حتى صرنا لا نحسُّ بآثار تلك التربية وما تركته فينا من الخنوع والرضى بالاستبداد فالتبس علينا الامر وصرنا نرى حسناً ما ليس بالحسن

***

وثمت نتيجة اخرى من نتائج تلك الحالة في الاسرة وهي ان ما يسمعهُ اطفالنا من احاديث ابويهم وأهليهم ومن عرض الخلافات الصغيرة والحقيرة امامهم ساعدنا على ان نغرس في نفوسهم روح الغيرة الخبيثة والحقد مما يضعف فيهم روح التعاون والعمل المشترك . ذلك انهُ انطبع في الاذهان من اثر الحياة المنزلية وما نراه فيها من شحناء وبغضاء ، والتعلق بكثير من سفاسف الامور ، والميل الى المناظرة الوضيعة ، واثارة الحقد الدفين في النفوس ، مما جعل الناس ينتقدون بعضهم بعضاً بسبب ومن غير سبب . ومما جعل الكثيرين يظنون انهم لايستطيعون ان يجعلوا لانفسهم مكانة او احتراماً الا اذا اضعفوا من قيمة غيرهم وشوّهوا اعمالهم . فكم سمعنا عن المديرين في الاقاليم والرؤساء في المصالح والوزراء في الدواوين انهم يجعلون همهم تشويه ما عمله اسلافهم حتى يكون لهم وحدهم الفخر . وكم سمعنا عن خيبة دبّت بين جماعات انشئت لتعمل متحدة . ذلك لان الاشخاص ربوا على

القطيعة والحقد فلا يفهمون روح التعاون . ولست اود ان اذكر امثلة ما نراهُ في مصر فليس من موضوعي الليلة ان اتعرض للحياة العامة ولكني اذكر اني كنت في تركيا عام ١٩٢٩ وذهبت لمشاهدة مباراة كرة القدم بين الفريق التركي والفريق المصري ولقد كان افراد الفريق المصري متفوقين على زملائهم الاتراك ولكن للاسف كان الكثيرون منهم اذا امسك بالكرة حاول ان يصل بها الى الهدف لينال هو فخر الانتصار وحده . اما الفريق التركي فكان الواحد منهم يأخذ الكرة فاذا احسَّ بان هجوماً يدبَّر ضده مررها الى زميل له وهكذا حتى انتهى الامر بانتصار الفريق التركي على المصري ونالت تركيا فخر الانتصار مع ان افرادها كانوا اقل كفاءة من افراد الفريق المصري ولكنهم عرفوا سرًّا للنجاح في الحياة خفي علينا ألا وهو ان التعاون يزيد القوى قوة ويخلق سبباً جديداً للنصر تعم فائدته الافراد

فالطفل عندنا متروك لمحض الصدفة فهو اشبه بنبات الغابة واحواشها ينمو فوضى لا نظام لها ويقتل قويها ضعيفها ويتغلب خبيثها على طيبها . ولو شئنا له نجاحاً وللانسانية فلاحاً لتعهدناه كما يتعهد النبات او الاشجار المثمرة التي نحرث لهـا الارض ونتعهدها بالسقيا ونطهرها من الحشرات والنباتات الخبيثة ونعمل على تلقيحها باحسن الثمار واجود الاصناف . ولا شك ان هذا عمل شاق يحتاج الى النشر والدعاية والمثل الصالح وبالجملة ان رمنا فلاحاً وجب ان نعنى بحالة اولادنا الفكرية والمعنوية كما نعني بحالتهم المادية والصحية

لقد شعر كثير من الناس بنتائج تلك الحالة السيئة فارادوا معالجتها من طريق معاملة اولادهم معاملة طيبة وغرس روح الاستقلال فيهم ولكن تغلبت فيهم روح الزهو فنظروا الى اولادهم لا نظرة الامين على فلذة كبده بل نظرة المفاخر بجهال ولده . ولذلك اسرفوا في طريقة لباسهم . فكم من الاطفال عندنا يلبسون الحرير والملابس الثمينة بينما ثروة الوالدين لا تسمح بشيءٍ من ذلك . وكم من الامهات يباهينَ بان ابنهنَّ يلبس احسن من لبس ابن فلان الثري وكم منهنَّ بلغ بهنَّ الزهو ان لا يشترينَ ملابس الاولاد الاَّ من اوربا غير عابئات بالاثر السيء الذي ينطبع في ذهن الطفل فيركّز اهتمامه في تلك الناحية حتى اذا ما شبَّ وجد والديه غير قادرين على ان يحفظا له من النعيم ما عوَّداه في نشأتهِ الاولى فيقع الخلاف في الاسرة ويغلو الولد في طلباته وهكذا تكون الاسرة ضحية صراع داخلي وفريسة تبذير ينتهي بخرابها

ومن الاسف أن هذا الضعف قد ينشأ بطرق شتى خصوصاً في تربية البنت فان كثيراً من السيدات يضعنَ مسئلة الزي في المرتبة الاولى من تفكيرهنّ ولا يحسبنَ لثروتهنّ أو ثروة ازواجهنّ اي حساب فتنشأ البنت في هذا الوسط ضعيفة مبذرة لا تستطيع ان تقوم بواجبها نحو منزلها ولا نحو اولادها وترى الثروة التي لديها قليلة حتى ولو كانت واسعة ، لانها لا تستطيع لنفسها تدبيراً وبذلك ينتقل الآباء من خطاٍ الى خطاٍ آخر . ذلك أن معالجة أمور الطفل من أدق المسائل واعقدها

وهي اجدرها بالعناية والاهتمام ولا يصح للانسان ان يأخذ برأي من غير ان يقلب الامور على جميع وجوهها وأن يبحث عن ذوي الرأي والتجربة للاسترشاد بهم في معالجتها . ومع ذلك فلا يظن انسان ان التربية والوسط هما كل شيء فان للطبيعة نفسها ولميراث الطفل من الاجيال العديدة التي تركزت فيه أثراً فعالاً في تكوينه فنحن بصناعتنا انما نساعد الطبيعة او نمدها ولكننا لا نستطيع ان نخلقها خلقاً جديداً . وما الاسرة الا صورة مصغرة للمجتمع الذي نعيش فيهِ فاذا رمنا لهذا المجتمع صلاحاً وجب ان نبدأ بالاسرة اولاً فاذا ما صلحت الاسرة عملت هي على اصلاح المجتمع

* * *

والآن وقد عرضت لاحد عوامل الضعف في تكوين الاسرة للفرد انتقل الى عامل من عوامل الضعف في تكوين الفرد في المدرسة

كلنا نسمع الشكوى المرة من حالة التعليم ونسمع الصرخة العالية ضد نشر التعليم في الارياف لانهُ يحول بين المتعلمين والغيط فالولد الذي يدخل المكتب او الكتّاب يرفض بعد ذلك ان يتولى عملاً من اعمال الزراعة وكثيراً ما نقرأ في الجرائد عن العاطلين من حملة الشهادات وما يجب لهم من التشجيع ونقرأ الاقتراح تلو الاقتراح عن وسائل تفريج تلك الازمة وما يجب على الحكومة ازاءها . وبعد ان كان الناس يقدسون العلم ويرونه خطوة نحو الكمال في الانسانية اصبحوا الآن يشكون في فائدتهِ ويرونه خطراً على المجتمع الانساني ، ومما يجب ان نحتاط من تناوله الا بالقدر الضروري . وبعد ان كان الشك في فائدة العلم قاصراً على طبقة الجهلة من الناس اصبح حديث الجميع ففي ارقى المجالس العلمية نسمع كثيراً من الناس يقولون بوجوب حصر التعليم حتى لا تزداد طبقة المتعلمين الذين لا يجدون وظائف في المجتمع فينقلبون خطراً عليهِ ويكونون اداة اضطراب في البلاد

واذا ناقشت هؤلاء القائلين اجابوك على الفور ، الا ترى كيف ان حملة الشهادات اصبحوا عالة على الامة ، الا تراهم في كل يوم يأتون اليك طالبين وظائف حكومية ، وكيف يكون الحال اذا نحن ظللنا مستمرين في تلك السياسة . اليس الاجدر بنا ان نعترف بالامر الواقع ونواجه الحقائق كما هي ونترك الافكار النظرية لنكون عمليين وندرأ خطر الفوضى عن البلاد قبل استفحال الخطب

فهل حقيقة ان الامور انقلبت رأساً على عقب الى هذا الحد ؟ وهل اصبح العلم الذي كنا نفاخر به وكنا نباهي بالحكمة الجارية « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » و « اطلبوا العلم ولو في الصين » أصبحت خرافة من الخرافات

لا يا سادة ! لم تنقلب الحقائق ولكننا رأينا حالة شاذة ورأينا اضطراباً في المجتمع كان مظهره حملة الشهادات ومتخرجي المدارس ودور العلم فربطنا ظاهرتين احداهما بالاخرى واختلّ بنا المنطق فاعتقدنا بأن الخطر ناشيء من العلم ونادينا بوجوب الحد منه بتقليل عدد طلابه ولكننا لحسن الحظ لم نؤمن بذلك المذهب كل الايمان فليس منا من يرضى بأن يعمل بتلك النظرية بالنسبة لاولاده واذا طبقت على احدهم كان اول ساع الى المطالبة بالاستثناء الملحّ في الدفاع عن وجوب فتح ابواب

التعليم لجميع الناس والاّ اضطروا ان يرسلوا اولادهم الى اوربا . فالحمد لله الذي جعل غريزة الدفاع عن النفس اقوى الغرائز فهي تتغلب على جميع النظريات وكثيراً ما تصل من طريقها الى الحل الصحيح غير عابئة بما ينسجه المتفلسفون من النظريات وما ينادي به السفسطائيون من المبادىء

فالحق ايها السادة ان العلم لا يزال هو هو له من القداسة ما كان له في الماضي ولكن نظم التعليم والمدرسة عندنا فيها من العيوب ما جعلنا نشعر بتلك الازمة الشديدة التي نشكو منها اليوم فضل كثير من الباحثين ونسبوا الى العلم ما هو راجع الى نظم التعليم والمدرسة . فليس يحتاج الى دليل او برهان ان العلم زيادة في المعرفة واذا زادت معرفة الانسان كان اقدر على مكافحة الحياة وأكفأ على استثمارها واستدرار خيراتها فاذا ظهر لنا خطر من حالة من نسميهم متعلمين فانما يكون ذلك لعيب في تعليمهم وضلال في طريقة تنشيئهم فالتعليم الاولي والابتدائي بل والثانوي لا يمنع الولد من ممارسة اي عمل من الاعمال البدنية في اوربا بل يزيده استعداداً للعمل ويفتح له مجالاً من التقدم فيه اكثر من غيره . اما نحن فبمجرد ان يصل الولد الى الشهادة يعتبر نفسه كفئاً لتولي وظيفة حكومية ولا يرضى بمزاولة عمل ابيه من تجارة او برادة او طهي او غير ذلك

فما السر في هذا ؟ لقد استعرضت امامي عوامل عديدة لتلك الحالة منها ان المتعلمين عندنا لا يزالون قليلي العدد فمن تعلم منا يعتبر نفسه انتقل الى طبقة ارستوقراطية تعطيه حقوقاً اكبر من حقوق زميله الاوربي تفسر له وجاهته ولكن كيف لم تستطع الازمة الشديدة التي مررنا بها ان تخفف من غلواء هؤلاء الناس بل كيف لا يغير تلك الحالة ما نراه عليه حملة الشهادات من الفقر والعوز ! الجواب على ذلك ان هذا كان من شأنه ان يغير تلك الحالة تماماً لولا ان لدينا في تعليمنا عنصراً يبدو في ظاهره بسيطاً ولكنه في الواقع عميق الاثر في نفسيتنا وطريقة تفكيرنا . ذلك العنصر هو اللباس الذي يرتديه الصبية في المدارس . فلقد قضى النظام المتبع عندنا في المدارس الابتدائية ان ملبس الولد الملابس الافرنجية فهو منذ صغره يلبس لباساً مخالفاً تمام المخالفة للباس والديه فيثبت في ذهن الولد ، بل وفي ذهن والديه ، انه صار من طبقة غير طبقتهم ، فهو من الحكام ، وأهله من المحكومين ، فلا يصح له منذ تلك الساعة ان يعمل عملهم ولا ان يساعدهم في مهنتهم فهو لن يكون نجاراً ولا براداً ولا طاهياً بل ولا يصح له ان يكون ناظر زراعة ولا بأئماً ولا تاجراً ويجب ان يكون افنديًّا في الديوان ! هذا هو السر في تلك الازمة المريعة ، وفي ان المتعلمين من الاوربيين يقبلون تلك المهن ويباشرونها بأنفسهم وقد يتدرجون فيها الى ان يكونوا اصحاب ثروة وجاه عريض أما نحن فلا نتولاها ولا نصل فيها الى درجة ما ذلك انهم لا يأنفون العمل مهما كان نوعه بل يحبونهُ ويحترمونه ويباهون به . اما نحن فنراه مرتبة اقل من مرتبة المتعلم

ولقد شعر بعض رجال التعليم بهذا الضرر في المدارس الابتدائية وتلافوا جانباً منه في الكتاتيب ولكن تصرفهم ظل ناقصاً فلم يقض على ذلك الشعور في نفس الطفل فظل ولد الكتّاب مخالفاً لأبويه

وانف من المزرعة التي يعمل فيها والده عاري القدمين معرضاً للطين والتراب يلوث ملابسه وجسمه

اما علاج تلك الحالة فهو ان يكون المكتب صورة لحياة الولد المنزلية بحيث لا تخرجه عن حالة الوسط الذي يؤهـل للعمل فيه وبهذا العلاج تمنع الفوضى الفكرية التي تلازم الآن كل من دخل المكتب . اما في المدرسـة فيجب ان يلبس الصبية لباساً بسيطاً متيناً . ومن الغريب ان مدارس البنات حتى ارقاها من المدارس المصرية والاوروبية هنا تنحو هذا النحو فتلبس البنات جميعهن سراويل من نوع واحد مصنوعة من قماش قليل الثمن . اما الاولاد فيلبسون اربطة الرقبة الحريرية والاقمصة الغالية الدقيقة الصنع والاحذية الرشيقة القد . فما هذا ايها السادة ! وكيف ننتظر لهذا الولد ان ينشأ رجلاً قوياً يشتغل بساعديه ولا يبالي بمجهود الرجال الجثماني

نشّئوا الاولاد تلك النشأة وسترون منهم رجالاً يحبون العمل وينهضون به ويفاخرون بنجاحهم فيه فيكونون ملوك الصناعة والزراعة والتجارة كما هو الحال في اوروبا وامريكا . أما تلك المعيشة الناعمة فليست من شأن الرجال الناهضين

جرّبوا هذا وقدروا تأثيره الادبي والنفسي في الاطفال وذويهم ثم قدّروا ما يدرّه من الخير على تلك الطبقة المتوسطة من الامة التي رزقت من الصفات الخلقية ومن حب العمل والاجتهاد والمثابرة ما نغتبط له اشد الاغتباط بما يقال من تكاليف اولادهم ما يجعلهم يستطيعون الاقتصاد في معيشتهم لان تربية اولادهم تصبح في متناول ايديهم فينشئونهم نشأة صالحة تزول معها اسباب كثيرة من الخلاف الذي يترتب على كون الآباء غير قادرين على اجابة اطماع اولادهم في الملابس والمعيشة لان المناظرة فيها ستزول لارتداء الاولاد جميعاً رداءً واحداً

***

هذه ناحية من نواحي الضعف في المدرسة وهناك ناحية اخرى ترتبط بها اذ اننا كما نسمع الشكوى عالية من اصحاب الشهادات كذلك نسمع الشكوى عالية من جانب الجامعة ورجال التعليم العالي من ان مستوى الثقافة في الشهادة الثانوية اقل مما يؤهل للدراسات العالية ولذلك طالب الكثيرون بقصر من يدخلون المدارس العالية على عدد محدد او نسبة مخصوصة من الناجحين في الشهادة الثانوية

ونحن من جهة أخرى نسمع صيحة داوية لآباء الشبان الحائزين للشهادة الثانوية الذين لم يقبلوا في المدارس العالية قائلين لنا ماذا نعمل بأبنائنا وقد وصلوا الى درجة من العلم هي باقراركم كافية لتدرجهم في التعليم العالي

وبين هـذين الرأيين نرى وزارة المعارف تتذبذب في تطبيق المبادىء فهي طوراً مع الفريق الاول وطوراً مع الفريق الثاني فاذا ما اتبعت الرأي الاول كثر عدد العاطلين واذا ما اتبعت الرأي الثاني انحط مستوى التعليم ونال الشهادات العالية من ليسوا اهلاً لتولي الاعمال التي يجب ان يؤهل لها ذلك النوع من التعليم . فاذا لم يجدوا عملاً صرخوا هم بدورهم صرخة طلاب البكالوريا الذين لم

يجدوا محلاً في المدرسة وبذلك تكون الازمة انتقلت من حائزي الشهادة الثانوية الى طلاب الشهادات العالية او حائزيها

ولو انا واجهنا الامور على حقيقتها لكان علاجها ميسوراً . ذلك اننا نرى ان المدارس العالية تشترط نسبة للنجاح هي ٦٠ في المائة بينما يمرّ الطالب في الشهادة الثانوية اذا حاز الامتحان بنسبة اربعين في المائة والبون شاسع بين الدرجتين في التحصيل. ومن الواجب ان يكون الطالب في الشهادة الثانوية مؤهلاً حقيقة للدراسة العالية وان تكون مقدرته على التحصيل قريبة من الدرجة المطلوبة للدراسة العالية وبذلك يزول الابهام الموجود في النظام الحاضر ويرى الآباء والابناء ميزاناً صحيحاً يمكن ان يقيسوا بهِ استعداد الابناء ويكون الحاصلون على الشهادة الثانوية قادرين على الاستمرار في الدراسة العالية ويحق لهم حينذاك ان يطالبوا وزارة المعارف بأن تعمل على ايجاد الامكنة الكافية لجميع المتعلمين الذين وصلوا الى درجة معينة لمتابعة دراستهم العالية . وسينتهي الخطر الحاضر لان العدد سيقتصر بمجرد تطبيق هـذا النظام على من يكونون صالحين حقـًّا لتلقي التعليم العالي والذين تؤهلهم كفاءاتهم للاعمال المنتجة بعد ذلك

وهذا الذي أريده في المدرسة العالية هو نفسه الذي يرشدني الى الحل الصحيح في بعض مشكلة الدراسة الثانوية فشهادة الكفاءة أو شهادة الدراسة الثانوية قسم اول يجب أن يكون على درجتين احداها يعد للدراسة الثانوية فالعالية وبالتالي تعد لمستوى الثقافة والتعليم النظري والعملي العالي والاخرى تعد للمدارس الصناعية والزراعية والتجارية المتوسطة

أما الشهادة الابتدائية فلعمري لست أدري ما هو المسوّغ لبقائها سوى تحميل الوزارة والمدرسين والممتحنين عبئها وتضييعهم الوقت على غير جدوى لاجراء امتحاناتها

وهذا فضلاً عما هو ثابت في أذهان الناس جميعاً من أن الشهادة تؤهل صاحبها لعمل وتعطيهِ حقـًّا على الدولة والمجتمع فمن حاز شهادة رأى لنفسه هذا الحق وتركز في ذهنه المطالبة بمستوى معين من الوظائف والاعمال فما الداعي لابقاء تلك الحالة سوى مساعدة العوامل التي تتعاون على اشتداد الازمة وخلق طبقة غير القانعين في البلاد

لذلك نرى علاجاً لتلك الحالة ان تكون المرحلة الاولى هي شهادة الكفاءة على أن يجعل الناجحون فيها فريقين : الفريق الممتاز الذي يكون برهن على استعداد لمتابعة الدراسة الثانوية فالعالية . والفريق الاقل استعداداً الذي يصلح لمتابعة دراسته في المدارس الصناعية والزراعية وغيرها واذا نحن جعلنا الوسط المعاشي في المدارس الابتدائية الى الكفاءة على ما قدمنا فان الاولاد لا ينفرون عند ذلك من مزاولة مهن آبائهم وأهليهم وبذلك نساعد على ايجاد طبقة نالت حظـًّا من التعليم تعمل بنشاط على رقي البلاد الصناعي والزراعي ونتلافى ازمة من اشد الازمات التي تهددنا في مستقبلنا ونغرس في نفوس الامة وشبيبتها ان العلم وحده عصب الحياة ومفخرتها

التربية ولغة الأطفال

لزكي المهندس استاذ التربية بدار العلوم

[اخرج احمد عطية الله المؤلف المعروف بالتعاون مع مطبعة عيسى البابي الحلبي مكتبة للاطفال تحتوي على ٢٥ كتاباً متباينة الحجم والشكل والموضوع . وجعل احدها توطئة بعنوان « الطفل الحديث » ضم فصولا نفيسة لطائفة من اعلام التربية في مصر ، فنقلنا منها هذا الفصل لما احتوى عليه من المبادىء العملية في تربية الاطفال]

قد يخيل الى كثير من الناس ان التحدث الى الاطفال امر سهل المنال ولكنهم في الحقيقة واهمون ، فان قليلا منا هم الذين يوفقون الى استمالة الاطفال حين يتحدثون اليهم . ولقد يستطيع كثير من الناس أن يسوقوا المعاني الى نفوس الاطفال كرهاً ، ويدفعوها الى اذهانهم غصباً ولكن المربين — آباء او معلمين — لا يستطيعون ان يفخروا بهذا النوع من الاساليب ، لانهم يعلمون ان للاطفال لغة خاصة بهم ، واسلوباً يكاد يكون مقصوراً عليهم ، وليس من السهل على كثير من النـاس ان يعرفوا هـذه اللغـة او يحذقوا هذا الاسلوب

هذا هو السبب في ان كثيراً من الآباء يعجزون عن افهام اطفالهم كل ما يريدون ، وهذا هو السبب كذلك في ان كثيراً من المعلمين يخفقون في ايصال الحقائق الى اذهان الاطفال وهم لا يشعرون

ومثل هذا يقال عن تلك الكتب التي توضع للاطفال . فقد رأينا المطابع المصرية في السنوات الاخيرة تخرج مئات الكتب ، التي يفرض مؤلفوها أنها تعين الاطفال على فهم دروسهم بأسلوب شائق ممتع ، ولكن نظرة واحدة في هذه الكتب خليقة ان تبين لك ان عدداً كبيراً منها يقصر دون هذه الغاية ، لا لخطإٍ في مادة الكتاب ، ولا لعيب في طبعه ، ولا لخفاء في صوره ، بل لان المؤلف لم يوفق الى اختيار لغة تلائم الاطفال ، أو اسلوب يشوّقهم ويستهويهم

والواقع ان التحدث او الكتابة للاطفال فن لا يحذقه الاّ قليل من الناس ، وهو ككل فن يقتضي علماً واسعاً ودربة مستمرة . واذا كان استهواء الكبار بالحديث او الكتابة في معظم الاحيان عسراً شاقّاً فاستمالة الاحداث قد تكون أشق وأصعب لانها تتطلب دراية واسعة بطبائع الطفولة ونزعاتها وأسلوب تصورها كما تتطلب معاناة طويلة وتجارب واسعة ومراناً متواليا ، ومن اجل ذلك ترى ان هؤلاء الذين يعجزون عن التأثير في الاطفال في احاديثهم ومؤلفاتهم انما يخفقون لانهم لا يفهمون لغـة الاطفال ، ولا يحذقون الاساليب التي تلائم نفوسهم وتستهوى أفئدتهم . ومن الخطإ ان يعمد المحدّث او المؤلف الى لغـة الكبار فيختصرها وينقص من اطرافهـا ويغير من

ألفاظها وعباراتها ثم يلقيها بعد ذلك الى الاطفال واهماً بأنها اصبحت ملائمة لهم قريبة المنال من مداركهم ، فقد علمت ان للاطفال لغتهم واسلوبهم وان الطفل ليس رجلاً صغيراً ولا الرجل طفلاً كبيراً ، فلكلٍّ عالمه وعقليته واسلوبه ولغته ، فالتفاوت بينهما في النوع لا في الدرجة

ولقد أبان العلم ودلت التجارب على ان لغة الطفل وثيقة الارتباط بحياته العقلية وانها تنمو — كما ينمو عقله وجسمه — على التدريج ، خاضعة في هذا النمو لقوانين نفسية ثابتة ، ممثلة في نموها مراحل التطور التي سلكتها لغة الانسانية من بدء الخليقة الى الآن. ولسنا هنا في مقام يسمح لنا ببيان تلك القوانين النفسية التي تسيطر على لغة الاطفال ولكن يكفي هنا أن نبين لك في ايجاز أظهر الصفات والخصائص التي تمتاز بها هذه اللغة وأهم القواعد التي يجب أن تراعى في أسلوب التحدث اليهم أو الكتابة لهم

﴿مميزات لغة الاطفال﴾ تمتاز لغة الاطفال فيما بين الخامسة والعاشرة تقريباً بميزات أظهرها ما يلي:

(١) ضيق نطاق هذه اللغة ، فنطاق الاطفال اللغوي لا يكاد يتجاوز عشرات من الالفاظ العبارات ولكن الذي يسترعي الانتباه في هذا المحصول اللغوي ، هو الكثرة المطلقة للأسماء دون الافعال والحروف والواقع أن أسماء الذوات تكوّن الشطر الأول من مادتهم اللغوية ، أما الأفعال فنطاقها محدود جداً لا تكاد تتجاوز تلك التي يستعملها الطفل في حاجته الطبيعية الاولية من مثل أكل وشرب ونام وجلس ، ولا تكاد الحروف التي يستعملها الاطفال تتجاوز من الى على ثم واو العطف

(٢) يبدأ الطفل بعد ذلك يشوقه العمل والحدث فيأخذ في معرفة الافعال ، وينهض من هذا المستوى الطبيعي الى مستوى أرقى ، فهو يلعب ويتعلم من طريق اللعب الانكسار والالتواء والضغط والوثب والعضّ ، وما الى ذلك من أنواع الحدث التي تعرض لهُ في ألعابه ويدرك أثرها ، ومن ثم يأخذ في استعمال هذه الافعال التي يزداد بها قاموسه اللغوي

(٣) يكوّن الاطفال مما عرفوه من الاسماء والافعال جملاً يتحدثون بها الى رفاقهم وآبائهم ، ولكن هذه الجمل في مجموعها قصيرة المدى مستقل بعضها عن بعض ، وجلها جمل اسمية لأن الاسماء وبخاصة أسماء الذوات تشوق الاطفال وتستهويهم . ومما يلاحظ أن حديث الاطفال لا يكاد يجاوز المحسوسات فليس لاسماء المعاني مثل « واجب وفضيلة وصدق وامانة » مكان في محصولهم اللغوي حتى انهم لا يستطيعون ان يفهموا في الدور الاخير من طفولتهم هذه المعاني الا بتجريدها من المعاني والباسها ثوباً محسوساً يحس ويلمس ، فهم يفهمون من الفضيلة رجلاً فاضلاً ومن الصدق تلميذاً يقول الحق

(٤) فلا اسماء المعاني ولا الالفاظ الكلية تشوق الاطفال وتستهويهم الا في نحو السنة الثالثة عشرة من أعمارهم ، حينئذٍ تعينهم تجاربهم في المحسوسات على عقد الموازنات والمقابلات ، واستنزاع الصفات المشتركة وتجريدها من الذوات ولادراك الصلات والعلاقات بين الاشياء ؛ ويومئذٍ ينزعون الى المعقولات والالفاظ الكلية واسماء المعاني والحروف والادوات التي وضعت للتمني والترجي والاستدراك وما اليها . هذه صورة مكملة لما تكون عليه لغة الأطفال . أما القواعد التي يجب

مراعاتها عند التحدث اليهم أو الكتابة لهم فيمكن ادماجها فيما يلي :

(١) مراعاة ما قدمناه لك من الخصائص والصفات ، بحيث يكون كل اسم مقروناً بمسماه أو على الاقل بصورة تمثل مدلوله ، وأن يكون كل حدث أو فعل مصحوباً بتصوير معناه . هذا واجب في جميع أدوار الطفولة ، وهو في الدور الاول منها أوجب . اما الجمل فيجب أن تكون قصيرة تعبر كل منها عن معنى مستقل بالفهم . فاذا كنت بصدد التعبير عن معنى طويل وجب أن تقسم هـذا المعنى الكلي الى معان جزئية وتعبر عن كل معنى بجملة قصيرة في مبناها محدودة في معناها

(٢) اختيار الالفاظ الشفافة التي تنم على معانيها في وضوح وجلاء ، معتمداً في ذلك على المعاني الحقيقية الوضعية للألفاظ والعبارات ، فان الطفل لا يستطيع أن يدرك المعاني والعبارات الملتوية المملوءة بالمجازات والاستعارات والكنايات او ما اليها من المحسنات اللغوية ، وقد يضطر المحدث او المؤلف احياناً الى عقد التشبيهات لايضاح المعاني ، ولكن شرط ذلك ان يكون المشبه بهِ واضحاً جليًّا في أذهان النشء ، وان يكون وجه الشبه مما تستطيع عقولهم ادراكه

(٣) مراعاة الوضوح التام في الحديث او الكتابة ، وفي هذا تتفاوت اقدار المعلمين والمؤلفين فكثير من هؤلاءِ لا يستطيعون ان ينزلوا الى مستوى الطفل ويدرجوا معهُ في اخيلتهِ واسلوب تصوره فتجيء عباراتهم نابية عن ذوقهِ متنافرة مع طبعهِ ، ومن ثمَّ وجب ان يتبسط في وضع الحقائق او القائها تبسطاً تامًّا ، بحيث تستطيع ان تجد سبيلها الى ذهنه في غير عنت او اكراه ، وقد يقتضي هذا بعض التكرار والاعادة للمعنى الواحد ، ولكن في أثواب مختلفة ، وصور شتى وقد يكون هذا واجباً اذا استعملت ألفاظاً أو عبارات لا عهد للاطفال بها

(٤) مراعاة التأثير والروعة في نفوس الاطفال ، وبخاصة اذا كان موضوع الحديث أو الكتابة قصصاً ، فالمحدّث أو المؤلف فنان ، وهو بهذه الصفة يجب أن يعطي الفن حقه من التأثير في نفس السامع أو القارىء . والاَّ كانت عباراته ميتة لا حياة فيها ؛ وليس كل الناس يستطيعون أن يكونوا فنانين . ولكن هناك بعض أفراد وهبوا خصوبة في الخيال ولباقة في أساوب الوضع ومرونة في التعبير ، بحيث يستطيعون أن يبلغوا من نفوس السامعين أو القارئين ما لم يطمح فيهِ العلماء والباحثون . وقد رأينا بيننا من مهرة المعلمين من يستطيع أن يجعل من أشد المعاني تجرداً صوراً محسوسة ملموسة اذا تحدث أو كتب

(٥) وغني عن القول أن محدّث الاطفال يجب أن يكون «ممثلاً» حاذقاً فصوته ونغمته ونبراتهُ وتشخيصه للمعاني وحسن ادائه للعبارات ، كل هذا مضافاً الى حسن بيانه ، ممـا يؤثر في نفوس الاحداث تأثيراً كبيراً . هذا مجمل ما يجب على المحدّث او المؤلف مراعاته ، سردناه لك في ايجاز من غير ان نعرض للاصول النفسية العلمية التي يستند اليها . وحسبك منها ان ترى ان التحدث او الكتابة للاطفال ليس من الهنات الهينات ، كما يخيل الى كثير من الناس

باب المراسلة والمناظرة

إرشاد لغوى
فى كل جزء كلمة
للأستاذ عبد الرحيم بن محمود

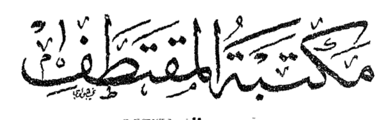
« الساعُور »

كانت الأقطار العربية ، فى عهد الدولة العثمانية ، تستعمل « حكيم باشى » للطبيب الاول اى رأس الاطباء فى كل فرع من الطب . وبين ايدينا كتب الاطباء المصريين التى ألفت فى هذا العهد وعليها أسماؤهم مصحوبة بألقابهم التركية مثل «رشدى بك حكيمباشى محافظة مصر »

والحكيم عند الترك معناه الطبيب و« باشى» معناهُ رأس او رئيس او مقدّم . ولهم استعمال آخر بهذا المعنى وهو أكثر تداولاً في تركيا من الاول . وهو « سر طبيب » وقد شاع في فجر العهد الجمهورى التركى . ولكن الترك فى هذا العام لا يبقون على طبيب لانهُ عربى صميم . حتى إنهم غيروا أعلامهم العربية التي اشتهرت أكثر من نظائرها الأعلام مثل مصطفى كمال فسمى «أتاتورك»

واذا قيل فلان هو الطبيب الاول فى الجراحة فى مستشفى كذا كان هذا خيراً من اللفظ التركى السابق . وخيرٌ منهما استعمال كلمة واحدة عربية صميم بهذا المعنى وهى (الساعور) . وقد أطلعنى عليها فى محيط المحيط للبستانى ، صديقى محمد عبد الحميد بك مدير مستشفى الملك وساعور جرّاحيه ومعناها فى هذا الملغى (اى محيط المحيط) مقدّم النصارى فى معرفة الطب . وقد ظهر لى أن البستانىّ « أحسن الله إليه » نقل هذا المعنى فى محيطهِ من القاموس المحيط للفيروزبادى ، وهو من معانى الساعور . ولا يضيرنا تخصيص المقدم فى الطب بكونهِ نصرانيًّا ، فان العباسيين أخذوا الطب عن أساتذتهم الاطباء فى فجر حضارتهم وكانوا من نصارى اليونان ، كما لا يخفى على القراء . فوضعوا هذا النص اللغوىّ فى ملاغيهم (كتب اللغة) . ثم نقله صاحب القاموس المحيط وعنه أخذ صاحب محيط المحيط

وباذاعة هذا اللفظ كتابةً ونطقاً تذهب وحشته ويصير مألوفاً كما ألِفنا غيره . ولو ألفينا لفظاً سواه فى الملاغى لدفنّاه ولم نتقدم إلى أبناء العرب والمستعربين باحيائهِ والسلام



انقاذ السودان

The Winning of the Sudan by Pierre Crabitèes Routledge, London 12/6—

هذا الكتاب هو ثالث ثلاثة كتبها القاضي كرابيتس في نواحٍ تاريخية من شؤون مصر والسودان . اما الاول فكان كتابه «عن غوردن ومكافحة الرقيق الابيض» وقد انتهى فيه عند مصرع غوردن في الخرطوم واما الثاني فكتابه عن « اسماعيل الخديوي المفترى عليه » وقد رد فيه على بعض ما عزي الى الخديوي اسماعيل رداً قائماً على تحليل الوقائع والموازنة بين اقوال المؤرخين

وهذا هو كتابه الثالث يتتبع فيه المساعي التي بذلت لاسترداد السودان وسير احواله من سنة ١٨٩٩ الى يومنا هذا

ويلوح لنا ان التنقيب التاريخي الذي نقبه القاضي كرابيتس تمهيداً لتأليف كتابيه الاولين ، مكنه من حقائق الموضوع ، فبرز لنا في كتابه الثالث كاتباً ألمعيًّا ومؤرخاً محققاً في وقت واحد . فقد كانت المادة التاريخية في « غوردن » و « اسماعيل » متسلطة على اسلوب الكاتب فاذا اسلوب الكاتب في « انقاذ السودان » متسلط على مادته التاريخية يتصرف فيها تصريف الخزاف البارع بصلصاله . فاذا شرعت في قراءة الكتاب استهواك موضوعه وطريقة معالجته ، فتمضي في قراءته كأنك تطالع قصة فاتنة مع انك لا تخرج في كل صفحة من صفحاته ، عن اسناد الى ثقة من المؤرخين ، او رجال السياسة ، في ما نشروه من كتب او بعثوا به من التقارير الى وزارة الخارجية البريطانية

والغريب في امر هذا الكتاب ، ان المؤلف وهو قاض مدقق قد نفذ الى الناحيتين السياسية

والعسكرية من تاريخ السودان الحديث نفوذ فهم وادراك . تطالع في كتابه اخبار الوقائع العسكرية وتفصيلاتها الحربية ، فلا تنبو بك الارقام الجافة عن الاورط والسفن وانباء الكر والفر . لان القاضي كرابيتس ادرك الناحية الانسانية في كل هذا . فتراه اذ يكون في سبيل وصف معركة او الاستعداد لمعركة ، يطالعك بصور قلمية ، لشخصيات بارزة من الانكليز او المصريين او السودانيين ، وفي هذه الصور القلمية على الاخص، يتجلى لك ما سبق ان اشرنا اليهِ ، وهو ان اسلوب الكاتب سيطر في هذا الكتاب على مادة المؤرخ فاندمجا اندماجاً يملك اعجاب المطالع

***

ليس في فصول الكتاب الاولى مكتشفات تاريخية ، ولكن فيها اتزان في عرض حوادث التاريخ يجعل الكتاب في هذه الناحية مرجعاً يصح الاعتماد عليه . فالتراجع من قلب السودان بعد مصرع غوردن واستفحال امر المهدي واشتداد انصاره في شمال السودان وشرقه ، واعداد العدة لانقاذ السودان كل ذلك مبسوط بسطاً وافياً ، مخدوم خدمة تاريخية صحيحة . مؤيد بشواهد لا تنفذ من أقوال الكتاب والتقارير الرسمية ، مما يشهد للمؤلف بسعة الاطلاع وحصافة الرأي ورجاحة الحكم

وانك لتعجب وانت تطالع هذه الفصول لمقام الاقدار في احوال الامم . فكتشنر الذي كان ابرز شخصية في استرداد السودان بعد كرومر ، انما اتصل اتفاقاً بالقائمين من الانكليز على شؤون مصر . فقد كان ضابطاً في القسم الهندسي في الجيش البريطاني وعهد اليهِ في الاشراف على مسح جزيرة قبرص فلما نشبت ثورة عرابي طلب اجازة مرضية وأتى مصر وكانت اجازته المرضية لا تتعدى اسبوعاً ولكن يظهر ان الضابط المهندس عجز اتفاقاً (!) عن اللحاق بالسفينة التي كان عليه ان يعود بها الى قبرص . ويظهر انهُ في خلال اقامته بالاسكندرية اتصل باحد ضباط « الاستخبارات العسكرية » فلما تأخر عن عودته الى قبرص ابرق اميرال الاسطول البريطاني الى حاكم قبرص يطلب تمديد اجازة كتشنر فرفض هذا طلب الاميرال مصرًّا على وجوب احترام النظام. والخلاصة ان كتشنر عاد الى قبرص . ثم جاء طلب من الجنرال ولزلي في مصر الى حاكم الجزيرة بان يسمح لهُ بكتشنر وكذلك كان

ومن محاسن الصدف ان كتشنر كان مهندساً . فان الحملة التي جردت لاسترداد السودان كانت تحتاج الى عمل مهندس تنظم لها جميع وسائل التقدم ويكفل لها اسباب الشرب والغذاء والوقاية من الامراض وقد كان كتشنر بطبيعة نشأته اقدر من يقوم بهذا العمل فأصابت الحملة النجاح التام

***

ومن الفصول التي تستوقف النظر في الكتاب فصل بعنوان « تمويل الحملة »

لما تقرر ايفاد الحملة لاسترداد السودان نشأت مسألة المال الذي ينتظر انفاقه في هذا السبيل . فلندن ذهبت الى ان استرداد السودان مسألة مصرية بحت وانه من العدل ان تنهض الخزانة المصرية

بالنفقات المطلوبة وان ذلك في وسعها . ولكن يظهر ان لندن لم تلقِ بالها حينئذ الى ان مفتاح الخزانة المصرية ، كان في ايدي لجنة دولية هي لجنة صندوق الدين

هنا نشأ صراع بين لورد كرومر وطائفة من أعضاء صندوق الدين على مسألة استعمال جانب من مال الحكومة المصرية في تمويل حملة السودان . ذلك انه بعد ما قر القرار على «حملة دنقلة» طُلِب من صندوق الدين ان يمنح ٥٠٠ الف جنيه من الاحتياطي العام لهذا الغرض فأقرَّ الصندوق ذلك باتفاق اربعة اصوات على صوتين وكان المعارضان مندوبي فرنسا وروسيا ، فأقاما قضية في محكمة القاهرة المختلطة . ثم تلي صفحات حافلة بحسن الاستشهاد ودقة التحليل يرد فيها القاضي كرابيتس على ما عزاه لورد كرومر في كتابه الى قضاة المحكمة المختلطة من عجزهم عن التجرد من «تأثير الكهربائية السياسية التي حفل بها جو مصر حينئذٍ». وعلى قول المستر تشرشل في كتابه «حرب النهر» اذ قال ان المحاكم المختلطة اصدرت حكمها على اساس الاعتبارات السياسية. والحق يقال ان القاضي كرابيتس يخرج من اصطدامه بكرومر وتشرشل في هذا الصدد والحق في جانبه

***

أما تفصيلات تقدم الحملة الى ان بلغت غرضها فتأخذ بلب القارىء لانها تاريخ ينطوي على مغامرات ، كأنها منتزعة من كتب الابطال القدماء . وتليها حكاية فشودا والتقاء كتشنر بمارشان الفرنسي ، وكيف ان النظرية البريطانية فازت على النظرية الفرنسية بحجة ان فشودا داخلة في حكم الخديوي اصلاً وان انتزاعها منه موقتاً بقيام الحركة المهدية لا يعني انها اصبحت ارضاً مشاعاً لا ملك لها ، واذاً فاعادة احتلالها انما هي من قبيل اعادة الملك الى مالكه . وفي صدد هذه الحادثة يجد القارىء تفصيلات المفاوضات السياسية بين دلكاسه ولورد سلسبري وهي من الذ ما يطلبه المطالع عما يحدث وراء ستار في الشؤون الدولية

ويلي ذلك تفصيل الاتفاق على حكم السودان حكماً ثنائيًّا باسم سمو خديوي مصر ، وتحول ذلك بعد مصرع السردار سنة ١٩٢٤ وتفصيل السعي لوضع اتفاق خاص بمياه النيل ومواد ذلك الاتفاق من ناحيتيها النظرية والعملية ورأي الخبراء فيها . وقد بسط المؤلف بعد ذلك وجهة نظر مصر في مسألة السودان بسطاً شافياً وكذلك وجهة نظر بريطانيا

وفي آخر الكتاب ثلاثة فصول بيَّن فيها ان اهم ما يهم متمولي الانكليز في السودان زراعة القطن فيها ، وان هذه الزراعة غير ناجحة ، وان العامل الفاصل في مستقبل السودان ، من ناحية بريطانيا هو مستقبل مشروع الجزيرة . فهل يستحق هذا المشروع كل هذا العناء ؟ هل هو جدير بتأخير الاتفاق مع مصر على حسابه ؟ ويختم القاضي كرابيتس كتابه بعبارة من غوردن مؤداها ان السودان لن يكون من الوجهة العملية البريطانية عملاً راجحاً

كتاب البلهارسيا

تأليف الدكتور رمسيس جرجس
Schistosmiasis (Bilharziasis) by Dr. Rameses Girges
John Bale, Sons & Danielsson Ltd. London. 25/-

منذ أمد بعيد وأنا مشتاق توّاق الى قراءة هذا المؤلف النفيس . ذلك لأني عرفت عن هـذا المجهود من سبع سنوات مضت حظيت فيها بمعرفة زميلي الدكتور رمسيس وشاهدت بعيني وراقبت بنفسي في خلال هذه المدة مبلغ ما تطلبه منهُ هذا الكتاب من مجهود الجبابرة في البحث الطويل المرهق وجمع النماذج المرضية وتحضير الشرائح الباثولجية وتطبيق هذه المعلومات على أدوار المرض الاكلينيكية والدرس الطويل لتاريخ حياة الطفيلية ورسمها برسوم متقنة ومن نماذج جميعها أصلية ، وما بذله من بحث للطرق المعملية التي سهلت عليهِ ما اكتشفهُ من نوعي البلهارسيا المنسونية وايجاد سبب لتضخم الطحال المصري وغير ذلك من الاكتشافات التي لم يضارعه فيها أحد من الباحثين السابقين في أمراض الطفيليات . . .

حصلت على هذا الكتاب فلم أدعه من يدي حتى أتيت على آخره وما انتهيت منهُ حتى زدت اعجاباً بمجهودات المؤلف الكبيرة التي أثبتت للعالم الطبي مبلغ نبوغ هذا الزميل الكريم وعبقريتهِ

ولا يمكنني في هذه العجالة وصف كل ما أعجبني من هذا الكتاب . . . ولهذا سأجعل كلمتي قاصرة على مجمل الموضوعات التي كان للدكتور رمسيس فيها الفضل الاول في البحث أو الاكتشاف واليك ملخصها : —

١—كان المؤلف أول من جمع شتات موضوع البلهارسيا وجعلها في مجلد واحد يستطيع الباحث الرجوع اليهِ في وقت قصير

٢ — وهو أول من قسم المرض الى ادوار محددة تنطبق على التقسيم الباثولجي والاكلينيكي

٣ — بعد درس طويل وبحث مستفيض عن التولد المرضي للبلهارسيا والعوامل المرضية لها كان المؤلف أول من قال بوجود مناعة عند المرضى ضد عدوى جديدة ...

٤ — وفي الباب الاول من الكتاب نجد تاريخاً ممتعاً عن أدوار البحث العلمي بيَّن فيهِ الكثير من المفاجئات وبهِ آراء جديدة للمؤلف عما يجب على الباحث اتباعه احتفاظاً بمكانته العلمية في الحال والمستقبل . . .

٥ — وفي الباب الثاني وصف دقيق للطفيلية والبويضة والسركاريا ولا يوجد في هذا الوصف من جديد غير أن جميع الرسوم التي عملها لتوضيح هـذا الوصف أصلية ومن نماذج أصلية عملها هو بنفسه . . . .

٦ — وفي الباب الثالث الوفود (Epidemology) وهو موضوع كلهُ جديد في ما كتب عن البلهارسيا وبحث شامل لها

٧ — وفي الباب الرابع طرق معملية مستحدثة فيها كثير من الطرق الجديدة التي أدخلها المؤلف لدراسة هذه الطفيليات

٨ — وفي الباب الخامس بحث نفيس في البلهارسيا الدموية اضاف اليهِ كثيراً من المعلومات عن الباثولجيا والتولد المرضي كما أثبت فيهِ أنهُ ليس لشوكة البويضة أي عمل في سيرها في النُسُج إذ هو يتوقف كلَّ التوقف على العمل الهضمي للجنين . وفي هذا الباب عن البلهارسيا الدموية فسر المؤلف كثيراً مما كان غامضاً عن العوارض الاكلينيكية كعلاقة المغص الكلوي بالبلهارسيا ووجود اعراض معوية تشبه البلهارسيا المنسونية . وفيهِ قسم عن الانذار كلهُ آراء جديدة للمؤلف

٩ — والباب السادس عن البلهارسيا المنسونية وهذا الباب هو الذي خصَّه الدكتور رمسيس بأعظم جانب من العناية وبذل في درسه مجهودات عنيفة استغرقت زمناً طويلاً . وكان من نتائج ابحاثهِ الطويلة انهُ اول من فرَّق بين فرعي البلهارسيا المنسونية : المعوي والحشوي . أما المعوي وفيهِ تصاب الامعاء وحدها او مع الكبد والطحال قليلاً فذكر أنها تنتج عن عدوى الديدان الذكور والاناث بعددٍ متساوٍ تقريباً بعكس النوع الحشوي الذي فيهِ يزيد عدد الذكور عن عدد الاناث زيادة كبيرة . ولقد قسم سير المرض في هذا القسم المعوي الى أدوار اربعة محدودة وكان وصفه للوجهة الاكلينيكية أحسن ما كتبهُ في هذا الموضوع واكثرها تفصيلاً . . كذلك كان قسم الانذار مشفوعاً بآرائهِ الجديدة

١٠ — الباب السابع وهو عن « تضخم الطحال المعوي » أو « النوع الحشوي من البلهارسيا المنسونية » وهو الباب الفذّ في الكتاب كله والخطوة الجريئة والبحث المستفيض الذي عالجهُ الدكتور رمسيس وقد توصل بعد فحص اكثر من ثلاثين كبداً ومائة طحال فحصاً باثولجيًّا وهستولجيًّا الى أن سبب تضخم الطحال المعوي هو وجود عدد زائد من ذكور ديدان البلهارسيا عن عدد الاناث او وجود الذكور وحدها (كما تبين لهُ ذلك في ٣٠ ٪ من الحالات) . ويعلل الدكتور رمسيس سبب خفاء علة هـذا المرض على من سبقهُ من الباحثين الى نقص عدد الاناث أو غيابها من المريض أو بمعنى آخر صغر عـدد البويضات أو غيابها . . . والباحثون لم يتصوروا وجود بلهارسيا بدون بويضات .. وعندما نشر الدكتور رمسيس رأيه هذا لاول مرة منذ ثماني سنوات تقريباً وجد له معارضين كثيرين غير ان احداً منهم لم ينشر للآن اثباتات عملية تناقض رأيه. ولقد جاهر الدكتور رمسيس غير مرة بانهُ على استعداد لسماع اقوال المعارضة اذ يقول . . « اني اول من يمدّ يدي لمن يثبت لي خطأ رأيي واعتقد ان العلم ليس ملكاً لفرد بل مشاع للجميع وخير لي الرجوع الى الصواب من التمادي في الباطل ... » . وهذا القول يدلنا على مبلغ ثقة المؤلف بنظريته وتمكّن الروح العلمية من نفسه التي تبحث عن الحقيقة والحقيقة وحدها ... غير انني اعتقد ان هذه النظرية لا تزال في حاجة الى مواصلة الدرس والبحث وفحص الكثير من عينات باثولجية وهستولجية

أخرى حتى اذا ما ثبت ان فحص هذه المئات من النماذج الاخرى يؤيد النتائج الاولى زال كل مجال للشك يحوم حول هذه النظرية . . ولا اخال المؤلف الاَّ فاعلاً ومواصلاً درسه وجهوده

١١ — الباب الثامن عن البلهارسيا اليابانية : ولقد درس المؤلف هذا الباب درساً عميقاً وكان اول من قسم المرض الى معوي وحشوي ايضاً بانياً هذا التقسيم على مشابهته للبلهارسيا المنسونية وقد عرض هذا الفصل قبل طبعهِ على الاستاذ الدكتور فوست Faust استاذ علم الطفيليات بجامعة (تولاين) واعظم ثقة في هذا الموضوع فكان هذا رده على المؤلف : « لقد كان دهشي عظيماً لما اظهرته من درس عميق مستفيض في هذا الباب كما اني معجب كلَّ الاعجاب بما توصلت اليهِ من معلومات دقيقة عن هذا المرض مبنية على ابحاثك القيمة على البلهارسيا المنسونية ... »

١٢— الباب التاسع : وهو العلاج النوعي وتأثير الانتمون في الجسم وفيهِ كثيرمن اختبارات المؤلف الشخصية التي تخالف الآراء المألوفة وهي جديرة بالاهتمام الكلي للاسترشاد بها عند معالجة المرض

١٣ — أما الباب العاشر والاخير: فقد خصه بآرائهِ عن طرق الوقاية في مصر ويدهشك ما دوَّنهُ المؤلف من معلومات عن احوال المجاري وطرق الري المختلفة في الوجه القبلي والبحري وتأثير ذلك في انتشار مرضِ البلهارسيا بنوعيهِ . . ولقد ذكر المؤلف في هذا الباب ان من أهم طرق الوقاية هو تعميم المستشفيات لتكون امكنة للعلاج والتعليم والتهذيب

وبعد . فلا يسعني الاَّ ان اردد ما جاءَ في المجلات الطبية الاوربية وغيرها ولاسيما مجلة اللانست اكبر المجلات واوسعها انتشاراً من عبارات التهنئة للزميل الكريم لنجاحه الموفَّق في معجمه النفيس الذي يُعد بحق اعظم مرجع لمرض البلهارسيا يرجع اليه الطلبة والاطباء في انحاء العالم على السواء

بني سويف الدكتور ابولس بولس

الاطلال

مجموعة أقاصيص مصرية — تأليف محمود بك تيمور

«الاطلال» كـ «الايام» صورة لمجتمع آيل الى الفناء ومثال من حياة مصرية مألوفة لها في النفوس وقع عميق عذب كأنهُ رجع لصوت صديق بعيد نذكرهُ ويذكرنا ويسرُّه ويسرنا ان نتلاقى بين الفينة والفينة في شوق وحنان يزيدان عذوبة كلما بعد العهد بيننا وان نتخافت ما فعلت به وبنا الاحداث . و« الاطلال » عالم صغير له افراحه وأتراحه ، له بيئته وتقلباته ، قد نسقته وأبرزته يد مرنة معتدلة تحسن النحت وتميل اليهِ اكثر مما تميل الى الرسم والتلوين فهو يؤثر فيك حيناً ويعجبك حيناً آخر وهو يوقظ شعورك تارةً ويبعثك على التفكير طوراً ولكنهُ في هذا وذلك لا يدفعك ولا يصدمك لانهُ سهل وئيد منتظم تعلوهُ الحكمة ويسوي بينهُ الاعتدال حتى اذا ما أمعنت فيه شعرت بأن ذاكرتك تتوالى عليها ذكريات بعيدة واسماء قديمة فان هذا التجنب لكل ما هو تغلغل في الحياة النفسية وهذا الامعان في تدقيق الوصف الخارجي يذكرك بالآداب القديمة عموماً وبنوع خاص من

هذه الآداب . وهذه الدقة في التصوير الشاملة لكل صفحات «الاطلال» تكسب شخصياته حيوية ظاهرة وتصبغه بواقعية ملموسة ولكنها تغلو حيناً حيث لا يستحسن الغلو وتخفق حيناً آخر حيث لا مناص لها من الاخفاق . فلقد نذكر مثلاً وفاة «حماده» ونذكر دار الحمزاوي وهي تعجّ بالحركة والاضطراب اذ يطرق الحزن النفوس وتقبض هيبة الموت الافئدة فنتوقع من «سامي» مثل هذه المظاهر ان لم نتوقع ما هو أعظم منها وزاه فعلا يندفع نحو غرفة المتوفي وينكبّ على يده يبللها بالدموع ولكننا نشعر فجأة بأن المؤلف يحذر التمادي ويتوقف حتى في تلك الساعة الرهيبة الحرجة ليصف لنا وجه المعيشة ويحرم الموقف من أثر بليغ هو منطوٍ عليه

ولقد نذكر أيضاً تلك الصور النسوية التي تمرّ بالقارىء وتنزل في نفسه آثاراً متباينة ولكنها صادقة لان المؤلف لم يكن وهو يذكرها ويصفها الاَّ راسماً لا غير . نذكر صورة أم خضر وفتحية وتهاني وما يحيط بهنَّ من ملابسات وظروف هي على ما أظن خاصة هذا الكتاب والصلة التي تربطه بالحقيقة التي نحياها . « فالاطلال » اذا أردنا أن ننظر اليهِ من حيث موضوعه ، من حيث الفكرة التي تضمّ أوصاله يدور حول مشكلة خطيرة هي في الواقع مشكلة هذا القرن ومرض هذا الجيل ، مشكلة أعقد من المشاكل السياسية والمالية تتسرب الى كل الميادين وتظهر في ثنايا كل الأفكار وترتسم بطابعها الوخيم على وجوه شباب اليوم وعماد المستقبل أعني مشكلة العلاقة والاتصال بين نصفي المجتمع فلا يزال منا من يعتقد أن خير الوسائل للذود عن الفضائل والشرف هي وئد الفضائل والشرف نفسها ولا يزال منا من يرى أن خير وسيله لصون عفاف النساء هي ابعادهنَّ عن صنف الرجال

سامي بطل « الاطلال » مثل من الشباب المصري الذي لا يرى عادة من النساء الاّ من هنَّ على شاكلة أم خضر ممن حبسنَ في شبابهنَّ باسم الطهارة فوقفنَ حياتهنَّ العقلية والجسدية على ما هو عكسها تماماً ، أو من هنَّ على شاكلة فتحية ممن يشعرنَ بعاطفة الحب الملازمة لسن الشباب ولكنهنَّ لا يفهمنَ ما يشعرنَ بهِ ويخشونهُ وينطلقنَ بالغريزة ، او من هن على شاكلة تهاني ممن زال عنهن كل طابع خاص فصرنَ ما بين اجنبيات ومصريات

ولهذه الانواع الثلاثة من النساء مكانة وانتشار متباينا الدرجات في الحياة المصرية تظهر كل الظهور فيما هي على صور ام خضر وفتحية وتهاني من كمال او نقصان في كتاب « الاطلال » فاننا نلاحظ دون شك ان الصورة التي تبقى في مخيلتنا لفتحية هي صورتها وهي طفلة صورتها بجدائلها السود في تلك الحديقة الفسيحة ولا وجود لصورة لفتحية في سن النضوج وفي حقبة الحب الحقيقي لان فتحية في هذه الحال شخصية نادرة لا توجد باستمرار في الحياة المصرية قد يصادفها الشاب المصري وقد لا يصادفها وكثيراً مالم يصادفها ومن هنا هذا النقصان الذي لا يوجد في صورة فتحية الطفلة اذ ان المؤلف بلا الطفولة وهو يذكرها ولكنك لا تتبيّن هذا النقصان في صورة ام خضر اذ انها من نوع منتشر انتشاراً كبيراً في المجتمع المصري

بقيت صورة تهاني وهذه هي الصورة التي يحفظها كثير من الشبان لنوع بعينه من النساء المنتشر بين الطبقة المتوسطة صورة مبهمة من تلك الصور الجسدية التي تتسلط على العقول الفتية الضائقة بخشونة الحياة المحرومة من كل عطف أو حنان فهي غلاف رقيق وساق بض وصدر ممتلىء وهي صورة بهيمية تتردد على المخيلة وقد يحسها الجسد ولكنها لا تهز العواطف ولا تتراءى للعيون والذي أقصده من هذا هو أن صورة المرأة التي تحِب وتحَب في «الاطلال» هي الصورة التي تستقر في مخيلة الشباب المصري صورة غير محدودة صورة جنسية لا نوعية، أعني صورة المرأة غير معينة فهي ليست بهذه المرأة أو تلك ولكنها المرأة فقط، المرأة مجردة من كل طابع خاص معنوي أو عاطفي تعرف بهِ

هذا هو سر واقعية «الاطلال» وهذه هي الصلة التي تجمع بينه وبين الحياة التي نحياها

بقي شيء آخر لا يمكن اغفاله وهو ذلك الأثر الهادىء العميق الذي تثيره فيك احياناً ريشة المؤلف من غير تعمد او اسراف فأن هذه الصورة الاخيرة مثلاً، صورة الاب وهو يحدث ولده اليتيم عن المستقبل والحياة تترك في النفس اثراً عميقاً تشعر معهُ وكأنك خارج من الظلام الى النور ومن الركود الى الحركة الجادة النشطة بعد حقبة بلوت فيها لذة عذبة نادرة قد تعود اليها مرة اخرى «حسونة»

مدينة الاحلام

قصص ومحاضرات للدكتور ابراهيم ناجي، طبع بمطبعة التوفيق بمصر، في ١٠٥ صفحة بقطع المقتطف

للدكتور ابراهيم ناجي روح شاعرة وقلب حساس وذهن متوقد مطلع، ومن هذه العناصر تتكون شخصية الشاعر والقاص والطبيب، ومن هذه الشخصية نحس العاطفة جياشة ملتهبة في شعره وفي قصصه وفي حنوه على مرضاه. فلا عجب اذا اخرج اليوم كتابه (مدينة الاحلام) يعالج بهِ سأم النفوس بعد ان اخرج ديوانه (وراء الغمام) فضمد بهِ جراح القلوب، ومجلته (حكيم البيت) فداوى بطبه فيها آلام الاجسام

(مدينة الاحلام) قد تكون أقرب الى قرّاء (المقتطف) من غيرهم. فهي قصة نشرها ناجي في هذه المجلة منذ ثلاثة أعوام. وفي هذه القصة ترى صوراً من حياة ناجي مبعثرة خلال بعض مواقعها التي يتحدث فيها عن رجل آخر. وناجي يغمس قلمه في قلبه عند ما يكتب، ويستعير من عواطفه ما يسكبه على شخصياته. وترى قلم رسَّام فنَّان يرسم بالالفاظ صوراً جميلة فتانة للحياة الاجتماعية في هذا البلد، وتجد الى جانب ذلك تحليلاً نفسيًّا دقيقاً للشخصيات التي يستعرضها امامك

و «مدينة الاحلام» ليست هي كل الكتاب فقد جمعت صفحاته الى جانب ذلك قصصاً اخرى ألفها ناجي أو نقلها ولخصها وضمّ اليها بعض محاضراته في الأدب والاجتماع

ولقد يذكر قرّاء هذه المجلة ايضاً من موضوعات هذا الكتاب محاضرة المؤلف عن «ولز الاديب»، وكيف استطاع ان يشرح حياة هذا الرجل ومميزات أدبه واهتمامه بالفرد والعالم، ثم انتقاله الى قصصه، وعرضه بلباقة ملخصات بديعة لطائفة مشهورة منها

ولناجي في هذه المجموعة غير قصة «مدينة الاحلام» قصة «الحرمان» وهي من اروع قصصه

وفيها تتجلى شخصية المؤلف بعناصرها جميعاً ، وتتغلغل في صميم النفس فتصوّر خوالجها واحاسيسها تصويراً رائعاً تعمل فيه الشاعرية عملاً قويّـاً . وله الى جانبها قصة صغيرة اسمها « النوافذ المغلقة » لا تقل في روحها عن سابقتيها ، أما قصصه الملخصة والمترجمة من محاسن الأدب العالمي فقصة « المنبع » لتشارلز مورجان ، و « الليل » للويجي بيراندللو ، و « النواقيس » لجبريل دانونزيو

على انني أذكر أن صديقي ناجي كان في استطاعته ان يجعل اسلوب الحوار ما دام بين متعلمين ، باللغة العربية البسيطة السليمة كما كان يفعل في بعض الاحايين حتى لا تخدش العامية الصور الشعرية الجميلة التي رسمها على القرطاس . ولقد صدّر المؤلف كتابه هذا بكلمة نثرية هي في الواقع قطعة من الشعر العاطفي ، ولو ان قاتمٌ من تفكير ناجي الآن في هذا البلد الذي يغمر الجحود بطاحه ، ولعله يغير من رأيه ، فلئن نسي اليوم شيئاً فالغدُ لن ينسى ولن يمحو من سجله شيئاً يشقّ الى الخلود طريقه . وليس أثر ناجي في الشعر والقصة بالذي يمحى وينسى

الصيرفي

رسالة العلم

هي صحيفة علمية تخرجها جماعة خريجي كلية العلوم بالجامعة المصرية ، وهي بكل ما يحتمل العلم من معنى في التصور الحديث حقيقة بأن تدعى رسالة العلم ، والقائمون بأمرها جديرون بأن ينعتوا بأنهم من رواد نشر الثقافة العلمية في هذا العصر

بدأت نهضتنا الحديثة بنشر الآداب شأن كل نهضة فكرية . ولكن كان لطغيان الادب على جميع مرافقنا الثقافية اثر جعل كثيرين ممن يعنون بالعلم ويعرفون ماله من اثر في توجيه الفكر نحو المثاليات العملية وفي توسيع نطاقه والرجوع به الى تاريخ الكون منذ نشأة العوالم ، يفكرون تفكيراً جديّـاً في ان يحولوا دون طغيان الادب على الفكر بجهد يصرف نحو البحوث العلمية الجدية لتتوازن الخطا وتتساند الجهود في الوصول الى الغاية المرجوة من تجمع اطراف الفكر في بؤرة واحدة تشع منها مختلف الاضواء ويرى في كل ظل من ظلالها الشتيتة لون من الوان المعرفة

ورسالة العلم تحقيق عملي لهذه الغاية . وهي بعد عمل من اعمال الشباب ، تحوطهُ الجامعة بالعناية وترعاه الحكومة بالمدد المالي ، وتمده همة الشباب بما في الشباب من امل جياش يضطرم في صدور اولئك الذين ارتووا من مناهل العلم بين جدران جامعة مصرية صميمة . ولا شبهة في ان هذا الأثر العلمي من اخص الاعمال التي يجب على المصريين جميعاً ان يرعوه بالتشجيع والعطف . وليس في هذا العمل كلهِ من وجه للنقص الا قلة العناية بامر اللغة العربية . واظهر ما يكون ذلك في بعض الاساليب وفي اختيار المصطلحات . ولا شبهة مطلقاً في ان هذا العمل العلمي انما يتجه بكليتهِ نحو غرض رئيسي هو نشر الثقافة العلمية في اللغة العربية . فاذا عدمنا هذا الغرض في مثل هذا العمل ، فكأنما عدمنا به الغاية الاولى منهُ لانّ العلم قد يطلب لذاته في اية لغة وفي اي كتاب وانما يجب ان يتجه مثل هذا العمل الى احياء اللغة العربية لتكون لغة علم كما هي لغة ادب .

والغرض من هذا القول ان تصبح اللغة العربية قادرة على تأدية رسالة العلم الى ابنائها باساليب ومصطلحات عربية . اما انهُ تؤدي هذه الرسالة باساليب ومصطلحات اعجمية مرسومة بحروف عربية ، فكأننا خرجنا عن القصد وعدمنا الغاية التي من أجلها نخرج مثل هذا العمل العلمي

ولم يقتصر الامر على استعمال مصطلحات لم يضع لها المترجمون مقابلاً في اللغة العربية بل تمدى ذلك الى مصطلحات انتهى من امرها الواضعون واستعملها الكتّاب في الصحف وكتب العلم من اكثر من قرن مثل كلمة « كون » Cosmos فقد استعملتها رسالة العلم « كوزمس » حتى يخيل اليك ان ذلك انما يقصد بهِ إحياء الرطانة اللاتينية في اللغة العربية لاخدمة الاسلوب العلمي في اللغة العربية

ولا يخفى ان اكثر المصطلحات التي استعملها كتاب القرن الماضي واوائل القرن العشرين كلها مثبتة في ما عندنا من معاجم تكفي على قلتها حاجة من يريد الفحص عن مختلف الاستعمالات العلمية التي وصلنا اليها في نهضتنا الحاضرة . اما ان نصاب بالكسل العقلي حتى يظهر اثر ذلك الكسل في استعمال مصطلحات لاتينية بنصها الاعجمي بعد ان تذيع لها ترجمات عربية صحيحة ، وفي مؤلفات علمية متداولة ، فظاهرة يجب ان يقضى عليها في نفس المهد الذي يحملها ***

جولة أثرية

في بعض البلاد الشمالية — تأليف احمد وصفي زكريا — صفحاته ٤٠٠ قطع المقتطف

ساح الاستاذ احمد وصفي زكريا سياحات عديدة في بعض المدن الشامية ولا سيما في انحائها الشمالية ثم الف هذا السفر النفيس واصفاً مدنها وقراها ومعاهدها ومغانيها وآثارها التاريخية بأسلوب شائق طلي وعبارة سهلة جزلة ونحا في كتابته نحو المحققين من رجال التاريخ والعلم فلم يدع شيئاً من اخبار البلاد التي زارها الاّ استوعبه استيعاباً يدل على غزارة المادة واستنفاد الجهد في التحقيق والتدقيق فسد كتابه فراغاً كبيراً في المكتبة العربية وقد اشار الى ذلك في مقدمته قال :

« وكان مما يشجيني انني لم اجد كتاباً عربيًّا يصف احوال بلادنا وصفاً يعرف به المتجول الكوائن الطبيعية من جبال وانهار ونجود واغوار وعمران المدن والشعوب في العهود الغابرة والحاضرة وحالة المصانع القديمة والاماكن الاثرية وسبب بنائها وكيفيته ومسافة الطرق والمسالك واتجاهاتها الى غير ذلك من الابحاث التي تدعى في عرف الافرنج الطبوغرافيا التاريخية فجغرافيو العرب القدماء وضعوا مؤلفات جديرة بكل اجلال واطراء عامة لا خاصة وليس فيها من الابحاث التي كنت انشدها بالقدر الذي يفي بحاجتنا في هذا العصر بعد ان تغيرت البلاد ومن عليها وكتب الجغرافية الحديثة الخاصة بالبلاد الشامية جعلها اصحابها وجيزة ان وفت بحاجة المدارس لا تنقع غلة الباحثين . اما الافرنج فقد احاطوا علماً بكل اصقاعنا فلم يغادروا مدينة من مدننا ولا قرية من قرانا او بادية من بوادينا الاّ وجاسوا خلالها واستقرؤا صامتها وناطقها واجادوا وصفها والفوا فيها مجلدات تفوق الحصر بعددها »

ويبدأ المؤلف الفاضل رحلته من بلاد كيليكية فيصف طرسوس وادنة ويسير الى مسيس وسيس

وبياس والاسكندرونة وجبل اللكام وبيلان وقلعة بغراس وقرق خان وسهل العمق وانطاكية ودفنه وجبل القصير ودركوش وجسر الشغر وسهل الروج وجبل الزاوية واقضية كردطاغ واعزاز والباب وجبل سمعان ومنبج وقلعة النجم والمعرة وسهل الغاب وقلعة المضيق وخربة افاميا وقلعة شيزر ومحردة وحماة وسلمية والحمراء وقصر ابن وردان والاندرين وجبل البلعاس والرستن وحمص وضواحيها وحسية والنبك والقطيفة وما حولها من قرى قلمون الاعلى والاسفل وينتهي عند ابواب دمشق

وفي الكتاب ايضاً ٢٥ رسماً فتوغرافيًّا للامكنة التي ورد ذكرها وهو مطبوع طبعاً نفيساً متقناً ويطلب من مؤلفه في دمشق الشام وثمنه ٧٥ قرشاً سوريًّا مع اجرة البريد للخارج امين سعيد

بيرون

تأليف نظمي خليل — صفحاته ٢٨٧ — طبع بمطبعة الاعتماد

اللورد بيرون عَلَم من اعلام الشعر الانكليزي في اوائل القرن التاسع عشر بل من اشهر اعلامه في جميع العصور . بلغ في حياته ذروة من المجد والشهرة لا يطمع بأعظم منها عظيم في الارض . حتى غوته شاعر الالمان العظيم قال ان شكسبير وبيرون ذروتا الادب الانكليزي السامي

والواقع انه من اصعب الامور ان تعين لبيرون مقامه بين شعراء الانكليز وادبائهم — لا يميل النقاد الانكليز الى وضعهِ في الطبقة الاولى من شعرائهم — لانه ليس منهم حقيقة . ويذهب الناقد البرنس مرسكي الى ان بيرون جزء من الادب الاوربي الذي لا يختصُّ بشعب من الشعوب ومن اعلامه فولتير وغوته وتولستوي وولز . فمقام بيرون في الادب الاوربي لا يكون رهن الحكم الذي يحكم به نقاد الانكليز بل رهن الحكم الذي تحكم به اوربا نفسها . وقد كتب ماكولي سنة ١٨٣٠ فقال «لا شك في ان اشعار بيرون سوف تغربل وتنخل فينبذ منها ما كان يحسب افضلها في زمنه . على اننا لا نرتاب ايضاً في انه بعد التمحيص يبقى كثير من شعره خالداً بخلود اللغة الانكليزية » . وكتب بعده الناقد مثيو ارنولد فقال انه متى بزغت شمس القرن العشرين اتضح ان بيرون ووردزورث اعظم شعراء الانكليز في القرن التاسع عشر على أن بعض النقدة يضيف اليهما اسمي تنسون وبروننغ . واكثرهم يضع شلي وكيتس فوق هؤلاء جميعاً . ولكن ليس ثمة من ينازع في أن مقام بيرون بين الخالدين

فنحن نرحب بهذه الدراسة العربية ، لاهم النواحي ، في عصر بيرون وحياتهِ وشعره . وهي تمتاز بأمرين أولهما تحليل بعض قصائد بيرون المشهورة مثل تشايلد هارولد ومانفرد ودون جوان وغيرها . وثانيهما نقله مختارات رائعة من شعر بيرون الى العربية . والاصول التي بني عليها تحليله ، مما تلقاه على أستاذ الأدب الانكليزي في كلية الآداب ، أو مما طالعهُ في كتب النقاد الانكليز أنفسهم . فيصحُّ أن تكون أساساً لفن النقد الأدبي عندنا ، القائم على قواعد أهمها ربط الشاعر بالوسط الذي نشأ فيهِ وتياراتهِ الفكرية والاجتماعية وربط قصائدهِ بأطوارهِ النفسية المختلفة

فالكتاب من حيث تناولهِ لحياة بيرون الحافلة لا يشفي غليلاً ، لان المؤلف كان أعظم عناية في الغالب بدراسة شعره وقد أصاب في هذا قسطاً وافراً من النجاح

فهرس الجزء الرابع من المجلد السادس والثمانين

صفحة

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في القاهرة ادارة المقتطف بشارع القاصد رقم ١ — بباب اللوق
في الاسكندرية والبحيرة والشرقية مصطفى افندي سلامه في دمنهور
في القليوبية والمنوفية مصطفى افندي سلامة في دمنهور
في الغربية والدقهلية والمحافظات مصطفى افندي سلامه في طنطا
في الفيوم — الشيخ محمود مليجي بالفيوم
في المنيا — ابو الليل افندي راشد في المنيا
في اسيوط — تامر افندي سيف باسيوط
في جرجا — الشيخ عبد الهادي احمد في طهطا
في بيروت—سوريا—جورج افندي عبود الاشقر ص.ب. رقم ٩٢٩
في طرابلس الشام عبد الله الياس حصني
في دمشق — المهاجرين الاستاذ عمر افندي العليبي
في شرقي الاردن — عمان فهمي افندي يوسف
في القدس الشريف ويافا وحيفا الخواجات بولس سعيد ووديع سعيد
اصحاب مكتبة فلسطين العلمية
في حمص—سورية— الخوري عيسى سعد
في الناصرة فلسطين فريد عوده زعمط
في حلب-شارع السويقة-السيد عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة المصرية
في صيدا نقولا افندي حريصي دافر — صيدلية الهلال
في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في البرازيل
Snr. Miguel N. Farah
Caixa Postal 1393
Sao Paulo Brazil

في الارجنتين
Sr. Fuad Ribeiz
Cordoba 499
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. N. Arida
c/o Al-Hoda
55 Washington St.
New York. U. S. A.

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

ص

٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة المانى (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الآراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحورابي
١٥ حصاد الهشيم (الاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (مخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

ص

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « بارديليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فلمبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروضة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الغلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٨ النبي (« « «)
٥ آلهة الارض (« « «)

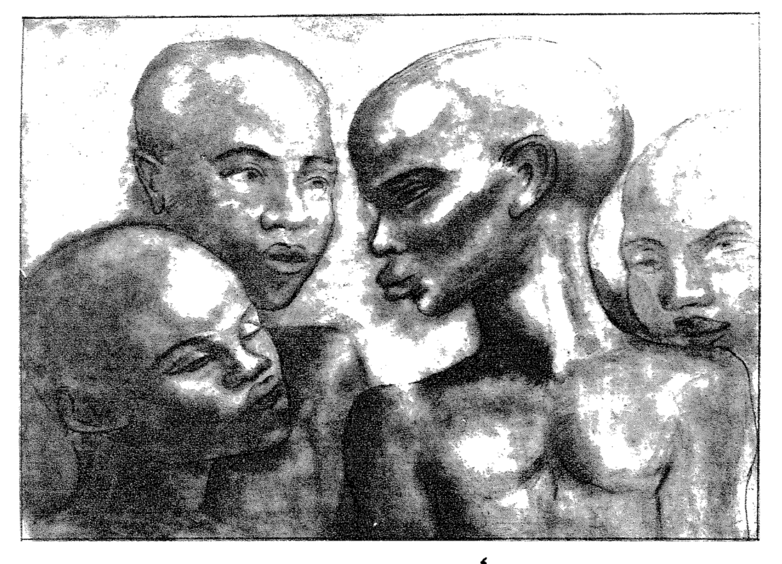
المقتطف

المجلد — ٨٦
مايو — ١٩٣٥



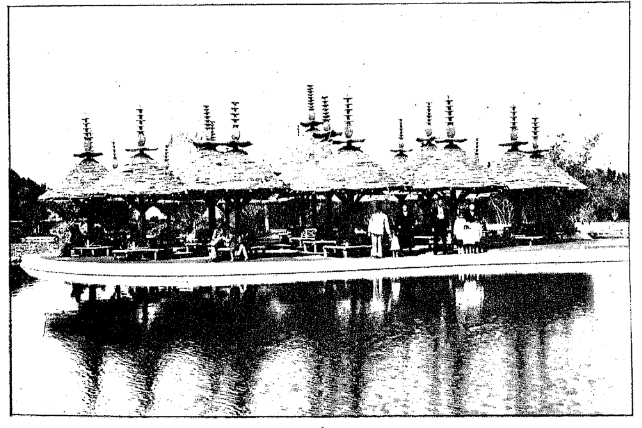
رأس فتاة نوبية

(تصوير ايمي نمر)



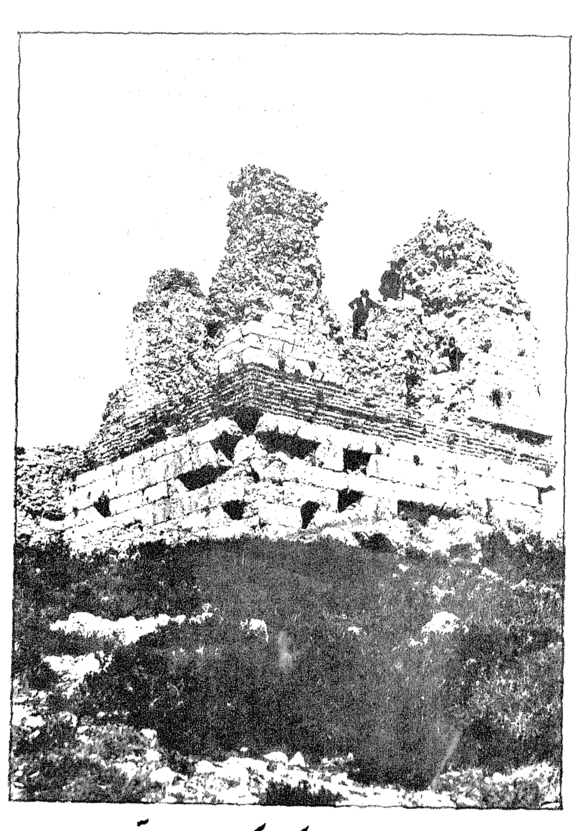
رؤوس نوبيين صغار

(تصوير ايمي نمر — راجع ما كتب عنها في باب مملكة المرأة)



مشهدان بديعان فى حديقة حلوان

— صورهما الدكتور حسن كمال —



جدار قلعة انطاكية كما يرى الآن



صورة من بدائع الفن الصيني مرسومة بالحبر على الحرير وهي ملونة قليلا وصاحبها
يدعى « دور داي » من فناني القرن التاسع عشر ومحفوظة بالمتحف البريطاني

العقاب فى الفن الصينى

الصورة مرسومة على الحرير وقد قيدت مخالبه بحبل من الحرير الى صخر في الحديقة . ويرجح نسبة هذه الصور الى مصور من العهد السنجي في القرن الحادي عشر



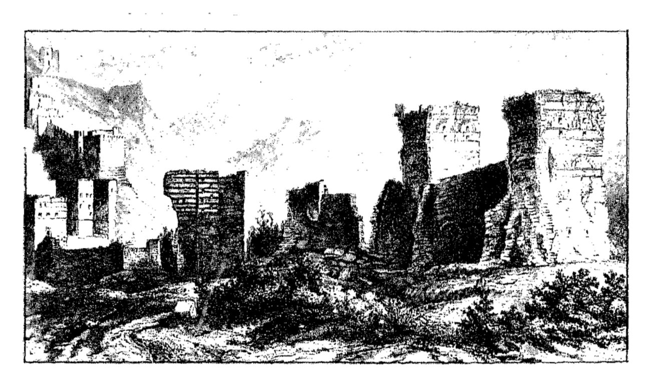
صورة من العهد السنجي رسمها تشاو — منغ — فو (١٢٥٤ — ١٣٢٢) وهي تمثل مشهداً طبيعياً مكسواً بالثلج

ثلاثة نواويس محفوظة في سراي انطاكية

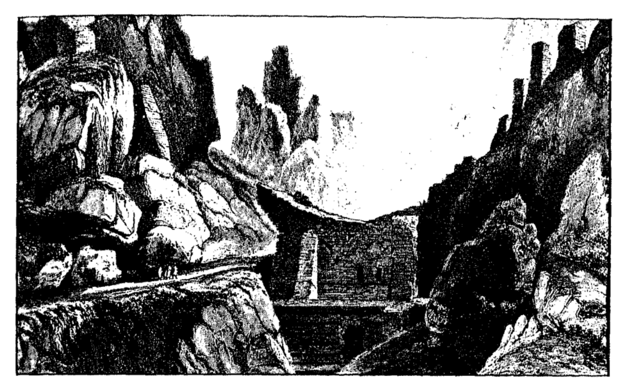
صورة ناووس آخر والى يساره تمثال خطيب روماني



باب سلوقية في العهد الروماني — عن الكولونل جاكو



اسوار انطاكية كما كانت قديماً — عن الكولونل جاكو



خرائب باب الحديد قبل العهد الحاضر
نقلا عن كتاب الكولونل جاكو

بقايا خزان باب الحديد بانطاكية

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد السادس والثمانين

١ مايو سنة ١٩٣٥ — ٢٨ محرم سنة ١٣٥٤

الطبيعة في ربع قرن

مآثر العلماء البريطانيين في عهد الملك جورج الخامس

تحتفل الامبراطورية البريطانية في شهر مايو بانقضاء ربع قرن على ارتقاء الملك جورج الخامس أريكة الملك . فيجدر بنا ان نقف بضع صفحات من المقتطف على تلخيص اهم ما حفل به ربع القرن الماضي من المآثر العلمية التي تمت على ايدي العلماء الانكليز . وقد يتوهم بعض القراء ان البحث خاص لا يصح ان يكون موضوع مقال مستقل في المقتطف ولكن الواقع ان مباحث العلماء الانكليز وخاصة في الطبيعة الحديثة ، من الاركان التي قام عليها علم الطبيعة الجديد فاجمالها بمثابة عرض سينمي لاشهر المكتشفات في العلوم الطبيعية في ربع القرن الاخير

كان حكم الملك جورج[1] الخامس حافلاً بنشاط عجيب في ميدان العلوم ، امتاز بطائفة من المكتشفات العلمية الاساسية ، كان لها اكبر الاثر في توجيه الفكر العلمي في هذا العصر . ومن محاسن الاتفاق ان معظم وجوه التطور في العلم الحديث ، نشأ من مكتشفات ونظريات برزت للعالم في مطلع عهد الملك جورج . ففي سنة ١٩١١ اخرج الاستاذ رذرفورد نظريتهُ في الذرة ونواتها ، وقام السر جوزف طمسن بمباحثهِ في الاشعة الموجبة فأفضت الى مكتشفات الاستاذ استن في النظائر isotopes — وكان الاستاذ صدي قد سبق الى فكرة النظائر وتسميتها في سنة ١٩١٠ — وصوَّر الاستاذ ولسن C. T. R. صورتهُ الاولى بطريقة الغرفة الغائمة التي كانت اكبر معوان لعلماء الطبيعة في بحوثهم . ونشر الاستاذ غَولند هبكنز نتائج مباحثهُ الاولى في الفيتامينات . وفي سنة ١٩١٣ نشر السر

(١) انطوت حقائق هذه المقالة في فصل للدكتور اندريد استاذ الطبيعة في جامعة لندن نشرته مجلة انباء لندن المصورة

وليم براغ وابنهُ الاستاذ وليم براغ رسالتهما الاولى في اصول البناء البلّوري واستعمال الاشعة السينية لتبيّنهِ، واذاع الاستاذ مكلود (قسيم بانتنغ مكتشف الانسولين) نتائج دراستهِ في البول السكري

لقد اثبت البحث ، ان نظرية رذرفورد في بناء الذرّة ونواتها ، كانت من اخصب النظريات العلمية واكثرها ثمراً في مختلف البلدان والمعاهد العلمية . فقد بين رذرفورد سنة ١٩١١ ان النتائج التي حصل عليها باطلاق دقائق الفا من احد مركّبات الراديوم ، يمكن ان تفسّر اذا فرض ان كتلة الذرّة ، مركّزة في جسم صغير ، موجب الشحنة الكهربائية ، دعاهُ النواة . وان النواة تحيط بها غيمة من الكهارب ، وهي جسيمات سالبة الشحنة الكهربائية ، فتعدّل كهربائيتُها السالبة ، كهربائيةَ النواة الموجبة ، وتصبح الذرّة محايدة او متعادلة الكهربائية . وبعيد ذلك فاز الاستاذ نيلز بوهر ، وهو عالم دنماركي كان يشتغل في معمل رذرفورد ، بتطبيق نظرية الذرة الجديدة ، على ظاهرة خاصة في خطوط الطيف ، ففسّر بها ، ما كان لغزاً مستسرّاً عن افهام العلماء . وحوالي ذلك الوقت ابتدع موزلي — وكان في معمل رذرفورد كذلك وقد قتل في خلال الحرب في حملة الدردنيل — ان قدر الشحنة الكهربائية على النواة لا وزن العنصر الذرّي ، هو الشيء الاساسي في تعيين طبيعة العنصر . وبيّن ان الشحنة الكهربائية على نوى الذرات ، تتدرج صعوداً واحداً واحداً ، وانهُ وفقاً لهذه الاعداد يمكن ترتيب العناصر من ١ الى ٩٢ فدعيت هذه الاعداد او الارقام بالاعداد الذرّية. وهي من اهم المكتشفات العلمية الحديثة في ميداني الطبيعة والكيمياء على السواء . ومن جملة ما افضت اليهِ ، تمهيد السبيل الوعر، الى الكشف عن عناصر الهفنيوم والرينيوم والمازوريوم والالينيوم

ثم اثبت الاستاذ فولر بالتجربة ، ان العنصر الواحد قد يحدث اكثر من طيف واحد ، وانَّ ذلك يتوقف على فقد ذرتهِ لكهرب واحد او اكثر من كهاربها عند تهيجها واطلاقها للضوء . فجاء تفسير الطيوف الخاصة بهذه الذرات المؤيّنة inoized atoms (اي التي فقدت كهرباً او اكثر من كهاربها) مطابقاً كلَّ المطابقة لنظرية رذرفورد وبور في بناء الذرة

ولما وضعت الحرب اوزارها، وجَّه رذرفورد نظره الى نواة الذرة، وجمع حوله في معمل كافندش بجامعة كمبردج طائفة من العلماء الشبان ما لبث ان طار ذكرهم كل مطار . ولا يخفى ان نواة الذرة اصغر من جزءٍ من مليون مليون جزءٍ من البوصة . فاذا اخذت ورقة رقيقة من الذهب (والذهب يمكن تطريقه حتى تصير ثخانة بضع مئات من اوراقه تساوي ثخانة ورق السيكارة) وضخَّمتها حتى تصبح سماكتها ميلاً كان علو الذرة فيها ذراعاً وحجم النواة في الذرة لا يزيد على حبة من الغبار. ومع ذلك اسفر بحث رذرفورد وصحبه في النواة عن نتائج كان لها اثر عظيم في تمهيد السبيل الى سر البناء المادي

من النواحي التي تستدعي النظر في بناء النواة مسألة تحويل العناصر بعضها الى بعض ، وهو أمر طالما حلم بهِ أصحاب الكيمياء القديمة . ولما كانت الشحنة الكهربائية على النواة ، هي التي تعيّن خواص الذرّة من الناحية الكيمائية ، فنحن اذا استطعنا أن نغير تلك الشحنة بوسيلة من الوسائل

استطعنا أن نحوّل العناصر بعضها الى بعض . ولكن الصعوبة ، ان النواة أشبه بالحصن تحيط به المعاقل ، وهي الكهارب . علاوة على كون الحصن نفسه متين البناء بفعل الطاقة العظيمة التي تشدُّ وثاق الدقائق التي يتألف منها . فاستعمل رذرفورد دقائق الفا واطلقها على هذا الحصن فاخترقهُ . ثم استعان بمساعده الدكتور شدِك فكانت النتيجة ان استطاعا احداث هذا التحويل في بعض الذرّات ، وقد تبيّنا آثاره بكواشف غاية في الدقة

والصعوبة في استعمال دقائق الفا قلة مصادرها . فهي تنطلق من الراديوم في خلال تحوله الذاتي ومن غيره من العناصر المشعة . والمقادير التي نملكها من هذه العناصر قليلة . على انهُ في إمكاننا ان نصنع مقذوفات قوية ، بتعريض الذرّات لطاقة كهربائية عالية الضغط . ولما كانت طاقة بضعة ملايين من الفولطات لا تجعل طاقة هذه الذرّات الاّ من رتبة طاقة دقائق الفا ، فالمظنون أن الضغط الكهربائي اللازم لجعل طاقة هذه الذرّات يفوق طاقة دقائق الفا ، سوف يظلّ بعيداً عن متناولنا

على أن الباحثيْن كوكروفت وولطن رأيا أن يستعيضا عن النقص في طاقة مقذوفاتهما ، بزيادة عددها . فكأن النواة حصن فيهِ ثغرات أو مواضع ضعف . فاذا استعمل عدد كبير من المقذوفات ولو لم تكن على جانب عظيم من الطاقة ، كان من المحتمل الرياضي ان يصيب بعض المقذوفات هذه الثغرات ، فيفعل العدد ما لا تفعله القوة . وكذلك استعمل كوكروفت وولطن ضغطاً كهربائية يقلُّ عن مليون فولط ، فاستطاعا أن يحوّلا عدداً من العناصر الخفيفة ، وفازا بنتائج على أعظم جانب من الخطر في فهم البناء الذرّي . وقد استعمل رذرفورد نفسهُ طريقتهما هذه بعد أن حسّنها

ومن الاساليب الجديدة التي كان لها أثر كبير في ارتقاء علم الطبيعة ، اسلوب الغرفة الغائمة الذي استنبطهُ الأستاذ ولسن (C. T. R.) ومبدؤها ان الهواء الرطب اذا تمدّد ، وبرد بتمدّدهِ ، تتقلّص قطيراتٌ من الماء على الذرّات والجزيئات المكهربة فيهِ . فاستعمل الاستاذ ولسن هذا المبدأ لتبين مسارات الذرّات والكهارب ، مع أن الذرّات والكهارب نفسها لا تُرى ، وليس في وسع الباحث المطلع على نواحي التقدم في علوم الطبيعة الحديثة أن يغالي في مقام هذا المعوان المبتدع على البحث

وقد اعتمد العالمان بلاكيتْ واوكياليني ، وهما من أعوان رذرفورد في كمبردج ، على طريقة ولسن هذه فأثبتا وجود جسيم مادي دقيق مشحون شحنة كهربائية موجبة وهو صنو الكهرب . وقد دعي هذا الجسيم بالكهرب الموجب (البوزيترون) وأول من قال بوجودهِ الاستاذ اندرسن من علماء معهد كاليفورنيا الذي يرأسهُ العلامة مِلِكَنْ . ومن الجسيمات المادية الجديدة التي كشفت النوترون (أي المحايد) كشفهُ الاستاذ شدِك وهو مثل البروتون كتلةً ولكنهُ لا يحمل شحنة كهربائية ما واسمهُ يدلُّ على ذلك

ومن المباحث العلمية العظيمة الشأن ، لاتصالها أوثق اتصال بتحويل العناصر ، مباحث الاستاذ

أَستُن في النظائر (Isotope) . فقد استنبط طريقة عملية تمكنهُ من معرفة وزن الذرات معرفة دقيقة بامرار تيار من الذرّات في مجال كهربائي ثم في مجال مغنطيسي ، فتبين لهُ أن بعض العناصر خليط من نوعين من الذرّات ، أو اكثر ، تتشابه في الخواص الطبيعية والكيمائية ولكنها تختلف في وزنها الذري . فوزن الكلور الذرّي ٣٥ر٤٦ وهو في الواقع خليط من صنفين من الذرّات أحدها وزن ذراته ٣٥ والآخر وزن ذرّاته ٣٧ وقد ثبت بعد ذلك أن ذرات طائفة كبيرة من العناصر هي خليط من هذا القبيل . وأحدثها ما عرف عن نظائر الايدروجين ، واهمها النظير المعروف باسم دوتيريوم في اميركا ودبلوجين في انكلترا ومنهُ يتركب الماء الثقيل (Heavy water)

وقد اتجهت مباحث الاستاذ أستن في السنوات الاخيرة الى مقدار ما تفقده الذرة من كتلتها عند اندماج اجزائها بعضها في بعض وهو بحث متصل بنظرية الاستاذ اينشتين في تحول الكتلة الى طاقة

ولا ريب في أن البحث في الذرة الذي تمّ معظمهُ في جامعة كمبردج على ايدي طمسن ورذرفورد واعوانهما من الامجاد العلمية التي يمتاز بها عصر الملك جورج الخامس

فاذا انتقلنا من الذرة ، الى البحث في الدقائق المادية التي تفوقها حجماً اي البلورات المؤلفة من ذرّات وجزيئات ، وجدنا القدح المعلى فيه للسر وليم براغ ونجله الاستاذ وليم براغ . فقد استعملا معاً قبيل نشوب الحرب الكبرى الاشعة السينية ، لتبين انتظام البناء الذري والجزيئي في البلورات . ذلك ان الدقائق المادية الصغيرة ، اصغر من امواج الضوء التي نبصر بها الاجسام فلا تنعكس عنها ولذلك لا نستطيع رؤيتها ، لاننا انما نرى الاجسام التي تعكس امواج الضوء . ولكن الاشعة السينية اقصر جدًّا من اقصر امواج الضوء ، ولذلك يمكن ان تنعكس عن الاجسام الدقيقة التي تتألف منها البلورات . ولما كانت الاشعة السينية مما لا نستطيع ان نحس به بعيوننا فاننا لا نستطيع ان نرى الذرّات والجزيئات بها ، فنستعمل طريقة التصوير الشمسي لتبين انتظام البلورات الداخلي . وقد تناول السر وليم براغ ونجله طائفة كبيرة من المواد ، بطريقتهما هذه ، منها المركبات المعدنية ، وهي بلورية صريحة في بلورتها ، ومنها مواد بلورية التركيب ولكنها لا تبدو كذلك مثل الزبدة والياف القطن والكتان والصوف . وقد استنبط الاستاذان طمسن (نجل السر جوزف طمسن) ورامان (الهندي) اسلوبين جديدين لاستعمال الضوء في تبين صفات الكهارب والذرات والجزيئات ، واحرز ثانيهما جائزة نوبل العلمية جزاء له على اكتشافهِ

اما في ميدان الكيمياء فقد كان جانب كبير من العناية موجهاً الى دراسة الجزيئات الكبيرة المعقدة التركيب التي لها شأن بأفعال الحياة . ولعلَّ اهمها شأناً من الوجهتين الكيمائية المحضة والحيوية العملية ، صنع الاستاذ ورنغتن لمادة الثيروكسين بالتأليف الصناعي ، وهي مفرز الغدة الدرقية ومؤلفة من جزيئات كبيرة معقدة التركيب . فكأن انساناً يفقد غدته الدرقية ، او طفلاً ينشأ ضامرها ، يستطيع الآن ان يستعيض من مفرزاتها بمركب كيمائي صناعي

من أندية العلم

أنباء وآراء

[لم يتسع لها باب الاخبار العلمية]

﴿سرعة الطيران الجديدة﴾ جاء في المجلات العلمية الاميركية ان خطوة عظيمة الشأن في ارتقاء الطيران تمت لما استقلَّ الطيار الأميركي ولي پوست — وهو الذي طار وحده حول العالم في أقل من سبعة أيام — طائرته القديمة «وني ماي» من لوس انجلوس متجهاً الى شيكاغو . فقد حلَّق هذا الطيار ، الى ارتفاع ٣٥ الف قدم او اكثر قليلاً حيث الهواء لطيف كل اللطف ، وليس ثمة تيارات هوائية تعيق الطائرة عن التقدم ، فبلغ متوسط سرعته بهذه الطائرة القديمة ٣٥٠ ميلاً في الساعة مع أن اقصى سرعتها على بضعة آلاف قدم فوق سطح الارض لا يزيد او قلما يزيد على ١٥٠ ميلاً في الساعة

وبعد ذلك نشط المستنبطون ومهندسو الطيران الى صنع طائرات تتوافر فيها الاجهزة اللازمة للطيران على هذا العلو او فوقه قليلاً — مثل أجهزة تكفل للسائق والركاب الدفء اللازم، ومقداراً كافياً من الاكسجين للاستنشاق حيث الاكسجين قليل هناك ، والضغط الكافي على المحرك — وعندئذٍ يمكن أن تبلغ سرعة الطائرات الطائرة على هـذا العلو ما متوسطه ٤٠٠ ميل في الساعة ، من دون تغيير يذكر في تصميم الطائرات الحالية فتجتاز المسافة بين نيويورك وباريس في نحو سبع ساعات فقط . مع أن لندبرغ اجتازها في ثلاث وثلاثين ساعة ونصف ساعة

***

﴿قلاع في الهواء﴾ يرى الاستاذ لو المستنبط والعالم الانكليزي ، ان بناء القلاع في الهواء لا بدَّ أن يكون صفة من الصفات البارزة في الحروب القادمة . وقد يسأل القارىء كيف تبنى القلاع في الهواء والاصل في القـلاع بناؤها المتين الراسخ في الارض بحيث لا تهزُّها القنابل ولا تزعزعها . فيردُّ الاستاذ لو ان الحروب المقبلة سوف تكون في الغالب ، حروباً في الجو ، وان المدن الكبيرة لا بدَّ ان تحتاج الى اسراب من الطيارات ، ترتفع من مطاراتها ، لمقابلة اسراب العدو . ولكن هذا وحده لا يكفي . فلا بد من ان يبنى في الجو ما يقوم مقام القلاع والحصون على الارض . وهذا يتم ببنائه جهاز ، يستطيع ان يطلق القنابل من مدافع خاصة اطلاقاً افقيًّا واطلاقاً عموديًّا او نصف

عمودي ، فيسددها الى الطيارات التي تحاول ان تحوم فوق المدينة لرمي قنابلها المحتوية على الغازات والمكروبات . والطائرات لا تستطيع ان تفعل ذلك لانهُ لا بد لها من الحركة الدائمة والاّ سقطت على الارض . وعنده ان هذه القلاع الجوية يجب ان تقام على اكياس صغيرة مملوءة بالهليوم . والهليوم خفيف ، يكاد يقترب من الهيدروجين في خفته ، وقد ملئت به بلونات اميركا لانه غير قابل للالتهاب . على ان الاكياس يجب ان تكون صغيرة ، لانه اذا كانت كبيرة ، واقيمت القلعة الجوية على بضعة اكياس منها ، ثم اصيب احد الاكياس بقنبلة اختلَّ توازن القلعة وهوت الى الارض . اما اذا كانت اكياس الهليوم ، صغيرة وعديدة فانثقاب احدها او بعضها لا يكون لهُ هذا التأثير

***

﴿ اوراق الكوكا والكوكايين ﴾ جاءَ من بونس ايرس عاصمة الجمهورية الفضية (الارجنتين) ان الحكومة ارصدت في ميزانيتها مبلغاً من المال غرضهُ ان ينفق في مكافحة مضغ اوراق الكوكا بين هنود البلاد . فأوراق الكوكا هذه مصدر المخدر المعروف بالكوكايين وهنود اميركا الجنوبية اعتادوا مضغها فتخدرهم ويعودون لا يحسون بالحر ولا بالبرد ولا بالتعب

بل ان اوراق الكوكا اروج بضاعة بينهم من جنوب بلاد كولومبيا الى الولايات الشمالية في جمهورية الارجنتين ومعظم محصول هذه الاوراق تنتجهُ بوليفيا وبيرو . بل ان الكوكا في بوليفيا — كالقطن في مصر — محصولها الزراعي الرئيسي

واسم هذا النبات العلمي معقد ولكن لا بأس بايراده فهو « اريثروكسيلون كوكا » وقد تعوَّد هنود تلك البلدان مضغه وهم سائرون وراء قوافلهم او وهم حاملون على ظهورهم اعباء ثقيلة يقطعون بها مسافات طويلة . بل انهم يستعملون ورقه في شكل مكمد لكل جرح او رض او الم يصابون بهِ . وعند ما يمر احدهم بمزار لاحد آلهة « الانكاس » الاقدمين يقدم له تقدمة مؤلفة من ورقة او ورقتين من نبات الكوكا

ويقول الكاتب الاميركي جون هوايت انهُ وقف مرة على نجد جبال الاندس على ارتفاع ١٣ الف قدم مرتدياً اكثف الملابس الصوفية ومع ذلك احس بالبرد ينخر عظامه . ولكنه رأى احد الهنود غير متأثر بالبرد مع انهُ كان يرتدي قميصاً من القطن . فكانت قطعانه تكسر الجليد الذي يغطي جدولاً من الجداول وهو يخوض في ماء الجليد وراءها وسبب ذلك ادمانه مضغ اوراق الكوكا فترده المادة الغروية التي فيها ضعيف الاحساس بالبرد

***

﴿ البذر بالطيارات ﴾ في سنة ١٩١٩ استعملت الطيارات في بذر البذار في الحقول وفي سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٢٧ زرع العشب الخضير في الولايات المتحدة الاميركية وجزائر هواي

بالطيارات كذلك . وفي سنة ١٩٢٩ بذرت بزور الرز في كاليفورنيا بها. ولكن هذه التجارب جميعها كانت محاولات متفرقة لم تتعدَّ مساحات محدودة من الحقول . ولا يعلم ان الطيارة قد استعملت لهذا الغرض في غرب اوربا

اما في روسيا السوفيتية فقد استعملت الطيارة لبذر البذار في مساحات واسعة من الارض في سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ وقد اتسع نطاق استعمالها لهذا الغرض في تلك البلاد اتساعاً مطرداً بعد ذلك فبذرت بها البزور سنة ١٩٣٢ في مناطق مجموع مساحاتها ١٧٠ الف فدان . وفي سنة ١٩٣٣ في مناطق مجموع مساحاتها ٣٣٢ الف فدان . وفي سنة ١٩٣٤ في مناطق مجموع مساحاتها ٣٧٠٥٥٠ فدان

وميزات البذر بالطيارة كثيرة . فبذر البزور باليد في منطقة مساحتها ٢٥٠٠ فدان يقتضي ٣٠٠٠ ساعة عمل . وبذرها بآلة يجرها حصان او بغل يقتضي الف ساعة عمل . وبذرها بآلة سيارة يستغرق ٢٠٠ ساعة عمل . اما بذرها بالطيارة فلا يستغرق اكثر من ٦٠ ساعة عمل. ثم ان محصول الفدان الواحد المبذور بالطيارة اكبر من المتوسط المعتاد لان الطيارة في البلاد الباردة تمكن اصحاب الارض من بذر ارضهم عقب ذوبان الثلج مباشرة . ومن اقوالهم المأثورة ان البذر في الطين يزيد المحصول زياده كبيرة تبلغ احياناً ٥٠ في المائة . ولكي يتمكن الفلاح من التبكير في بذر بذاره تجرب الآن تجارب غرضها اسراع ذوبان الثلج بذر مسحوق اسود على سطحه الابيض اللامع فيكثر امتصاصه لحرارة الاشعة الشمسية ويسرع ذوبانه

***

﴿ ثمن بعوضة واحدة ﴾ في فصل من فصول هذا الجزء قصة العلامة فون يورغ الطبيب النمسوي الذي كشف عن طريقة استعمال الحمى الملارية لعلاج الشلل العام الناشىء عن الاصابة بالزهري . وقد قرأنا في السيَنتفك اميركان ان حكومة اميركا عهدت الى طبيب يدعى ماين في توليد البعوض الخاص بالملاريا ليستعمل في لسع المصابين بهذا الضرب من الشلل لادخال الملاريا في اجسامهم. ولكنهُ عمل حساباً فوجد ان توليد البعوض ونقله من مكان الى مكان يحتاجان الى نفقة كبيرة تبلغ نحو ٤٠ جنيهاً للبعوضة الواحدة فارتأى ان يفعل ما يأتي : — يولد البعوض ويلوث بجراثيم الملاريا ثم يستعمله في لسع المصابين بهذا النوع من الشلل في منطقة ما ثم تنزع غدده اللعابية وهي الغدد التي تحتوي على جراثيم الملاريا ويبعث بها الى المراكز المختلفة فتستعمل جراثيمها في حقن المصابين بالشلل بعد معالجتها بطريقة خاصة وهذا يوفر على الحكومة نحو عشرين جنيهاً لكل بعوضة لان اجرة نقل الغدد اقل جدًّا من اجرة نقل البعوض في اقفاص خاصة ، ولان ستين في المائة من البعوض الحي كان يموت في خلال النقل واما الغدد فلا تصاب بتلف ما

نشأة الفن الأسلامي

والجامع الكبير بالقيروان[1]

لاحمد فكري

تكاد تكون المساجد التونسية مجهولة لعلماء الآثار جهلاً تامًّا ، فهي مغلقة في وجوههم لا يسمح لهم بزيارتها ، ولم يظهر من المسلمين من يعنى بقيمتها الفنية فيدرسها ويكتب عنها . ولكن احوالاً خاصة تركت جامع القيروان مفتوحاً لزواره من الأجانب ، وتساهل المسلمون من سكان القيروان فلم يحولوا دون زيارة معابدهم كما فعل سكان المدن الاخرى في تونس . ومع أن كتباً ظهرت حديثاً عن هندسة هذا الجامع وتأسيسه وبنائه وتاريخه فقد تبين لنا ان ما كتب عنه إما غير واف وإما لا يطابق الحقيقة أو يشوّهها . والسبب الاول في هذا أن جميع من تناولوا هذا الجامع بالبحث كانوا يجهلون المساجد التونسية الاخرى مع ما لها به من صلة وثيقة ، فهي تفسر ما غمض منه ، وتجلو ما كان فيه موضعاً للشك . وقد اتيح لنا ان نكون أول من دخل هذه المساجد منقبين عن آثارها باحثين عن قيمتها الفنية . ولما كان لجامع القيروان شأن كبير ، لانهُ اكبر الآثار الاسلامية في تونس وأقدمها ، فقد جعلنا من دراستنا له الجزء الاول من كتابنا الفن الاسلامي في تونس

وقد أسفرت دراستنا هذه عن نتيجتين : الاولى تاريخية . والثانية فنية

اتفقت آراء علماء الآثار الاسلامية على أن الجامع الذي اختطه عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة تهدم ولم يبق اليوم منه أثر . بل كان المتفق عليه أيضاً انهُ لم يبق شيء من الجامع الذي أمر ببنائه هشام بن عبد الملك على انقاض جامع عقبة . وأن جامع القيروان القائم اليوم هو من آثار زيادة بن ابراهيم الاغلبي وانه يرجع الى عام ٢٢١ هجرية . ويصعب على الكابتن كرسويل —وهو آخر من كتب عن القيروان — ان يقرر أن مأذنة القيروان ترجع الى أوائل القرن الثاني للهجرة ويقول ان الوثائق التاريخية وحدها هي التي حملته على الاخذ بهذا

واذا كان مؤرخو العرب نقلوا الينا تاريخ هذا الجامع مشوّهاً بعض التشويه او بالغوا كثيراً فيما نسب الى بعض الامراء من الاصلاحات والزيادات فيه ، الاّ ان ابحاثنا التي تتبعناها على ضوء القواعد الحديثة لعلم الآثار قد أوصلتنا الى أن نجد بقية للجامع الذي اختطه عقبة بن نافع ، وأن

---

(١) تعمق الدكتور احمد فكري استاذ تاريخ الفن بمدرسة الفنون الجميلة في دراسة فن المعمار الاسلامي وطاف بلداناً عديدة باحثاً ومنقباً وقد وضع كتابين باللغة الفرنسية أحدهما في المسجد الكبير بالقيروان أحرز مقاماً عالياً بين الثقات وهذا ملخصه وقد وضع بارشاد المؤلف وأجري على لسانه

نحقق بقاء محرابه القديم ، كما أوصلتنا الى أن نثبت ان أسوار الجامع ترجع في بنائها الى عصر هشام بن عبد الملك في عام ١٠٥ ه . لا إلى زيادة الله بن ابراهيم . وإلى هذا العهد يرجع ايضاً بناء بيت الصلاة ، واذن فجامع القيروان يعود في مجموعه الى اوائل القرن الثاني للهجرة وهو لهذا يمكن ان يعتبر من اقدم جوامع الاسلام القائمة ان لم يكن اقدمها جميعاً. وليس هذا معناه ان السنين التالية لم تترك فيه أثراً او لم تمسه بتغيير ، فقد افسح بلاطه الوسط ، وادخل على محراب عقبة محراب آخر جديد ، واقيمت امامه قبة عالية ، وكان ذلك في سنة ٢٢١ ه اي ٨٣٦ ميلادية في حكم زيادة الله . وبعد هذا التاريخ بأربعين عام في حكم ابراهيم بن احمد اضيفت الى الصحن زياداته ، واقيمت فيه قبة ثانية مواجهة للقبة الاولى على انتهاء البلاط الوسط . ولكن جامع القيروان احتفظ بعد هذا التاريخ بشكله النهائي فلم تؤثر فيه الاصلاحات الطفيفة التي ادخلت عليه في العصور التالية

واوصلتنا ابحاثنا من الوجهة الفنية الى ان نحدد الفضل الذي يعود الى المسلمين في نشأة الفن الاسلامي ونهضته وتطوره . ولما كان لا يسع البحث في دقائق هذا الموضوع الا مجلدات ضخمة واعوام طويلة فقد قصرنا بحثنا على بعض نواحي هذا الفن الهامة

ان شكل الجامع وهندسته هما اول ناحية يتشخص فيها الفن الاسلامي . وقد كان المتفق عليه بين علماء الآثار المستشرقين ان ليس للمسلمين فضل في وضع هذا الشكل . وهم مجمعون على هذا الرأي الذي يعبر عنهُ الاستاذ فان برشم حين يقول : « لم يكن لرجال الفن المسلمين ولمهندسيهم الاولين وسائل للتعبير غير تلك التي كانت متبعة وقائمة في الفنون البيزنطية او القطبية او الساسانية او الهندية ولم يكن لمعابدهم الاولى انظمة واشكال غير تلك التي اشتقت او نقلت عن الآثار القائمة حينئذٍ في الممالك التي انتشر فيها الدين الجديد بعد الفتوحات الاسلامية »

غير ان التاريخ والدين والسنة وعادات المسلمين وحالة جوهم وطبيعة بلادهم ، غير ان هذا كله يتعارض مع اقوال المستشرقين ، ويدل دلالة واضحة على ان شكل الجامع يعبر عن فكرة اصيلة غير مشتقة ، بل ان وجوهاً عديدة تثبت اختلافه عن اشكال المعابد التي سبقت الاسلام

فمسجد الرسول في المدينة هو اول مسجد بني في الإسلام . ولم يكن هذا كما ادعى (كيتاني) وكما قال الكاتب « كرسويل » منزلاً خاصاً ولكنهُ كان بيتاً للعبادة اقيم لهذه الغاية ، وليكون فيهِ للمسلمين مأوى من الشمس والمطر والرياح ، ومعزلاً من الطريق والضوضاء . واذا كان في بعض اجزاء شكله ما يدعو الى الظن في مشابهتهِ لما سبقه من الآثار ، فما هذا التشابه الا صوري لا يتفق مع الواقع ، ولا يظهر الاّ على الرسومات التي وضعها علماء الآثار بأحجام مختلفة ، يتضخم عليها ما كان ضئيلاً غير ملموس من الدقائق ، او يصغر عليها ما كان في حقيقته كبيراً

وهكذا استطاع مثلاً العلامة ديولافوى ان يقرب ما بين محراب جامع قرطبة ومحراب الكنائس فانك ترى محراب هذا الجامع اوسع حجماً في صورة مكبرة وضعها لجزء منه ، حالة انهُ لا يكاد

يظهر في القطاع العادى الكبير للجامع اذ ان عمقه لا يتعدى جزءاً من خمسين جزءاً من طول الجامع ، اذ به يتضخم في هذه الصورة المضللة ويصبح جزء من عشرة اجزاء

واذا ضربنا مثلاً آخر يتصل بجامع القيروان فقد يكفينا ان نعيد ما ادعاه كثير من علماء الآثار في اشتقاق صورة البلاط المتوسط فيه من كنائس افريقية البيزنطية. وقد يكون لهم حق في هذا الادعاء لو أنا رسمنا صورة لجامع القيروان يظهر فيها البلاط الاول مكبراً والمسكبة الاولى متسعة ، ونجرد هذه الصورة من ثلاثة ارباع بلاطات الجامع ومن صحنه ومن مأذنته ومن ابوابه وزياداته واسواره . فنخرج من هذا كله بشكل قد يتفق مع شكل احدى الكنائس . وهذه عملية تسهل على صحيفة من الورق او في خيال أحد المفكرين ولكنها لا تطابق الواقع ، ولا تجوز او لا تصلح ولا يمكن ان تتم في بناء قائم حي كجامع القيروان . واذا عدنا الى الحقيقة وجدناها صريحة لا تقبل النقض ولا تتحمل الشك . فقد بحثنا في جميع كنائس الارض علنا نعثر فيها على مسكبة طولها ٧٧ متراً او نسبة طولها الى عرضها كنسبة طول المسكبة الاولى الى عرضها في جامع القيروان او ١٣ الى واحد فلم نجد اثراً لهذا ، او لما يقرب من هذا ، بل ولا لما يقرب من نصف هذا . وما سمعنا يوماً بكنيسة من الكنائس يراد ان تتسع فيزاد في طول مسكباتها ، وانما المتبع هو ان يزاد في طول صحنها ، فالكنيسة بناء لا يقبل زيادة من اية جهة كانت ، اما الجامع فعلى عكس ذلك ، ان شئت زدته اتساعاً من جنوبه او من شرقه او من غربه او من شماله

بين الجامع والكنيسة اختلاف في الشكل ، وبينهما اكثر من هذا اختلاف في الفكرة . ولا يقتصر الامر فيما نحن بصدده على تنظيم شكل او على ابتكار فكرة ، ولكن الذي يعنينا هو اخراج هذه الفكرة الى حيز العمل ، هو هذا البناء القائم عليها . ولا شك ان بناء جامع القيروان نفسه هو اكثر ايضاحاً واشد حجة من كل ما كتبه عنه المؤرخون وعلماء الآثار

وكما ان الحاجة لا تدعونا الى وثيقة تاريخية نثبت بها ان اعمدة هذا الجامع وتيجانه رومانية قديمة أخذها العرب عن آثار مندثرة — فهي وحدها تنطق بذلك — فكذلك لا تدعونا الحاجة الى مثل هذه الوثيقة لنثبت بها الابتكار الاسلامي لما يعلو هذه الاعمدة من حدارات (impostes) وقرم (tailloirs) وأقواس ، اذ لم يسبق ان استعملت هذه العناصر في تاريخ فن العمارة في مثل الوظائف التى تؤديها في القيروان ، ولم تتخذ قبل ذلك مثل الاشكال التى اتخذتها فيه . اما اوجه الشبه التي رآها فيها علماء الآثار مع اشكال اخرى كانت موجودة قبلها فهي لا تتفق مع روح الفنون ولا تطابق تطوراتها ، إذ لا يمكننا ان نقبل ادعاء يقول بأن القوس المتجاوز — ذا حدية الفرس — كان مستعملاً في الهند وفي سوريا قبل استعماله في الفن الاسلامي لم تكن لبنَّاء جامع القيروان غاية زخرفية عند ما فكر في اقامة هذه الاقواس والعقود وانما كانت كل عنايته متجهة الى تذليل الصعاب المعمارية التي ظهرت أمامه من دفع للقوى وضغط للاثقال ومقاومتها ، ومن اضاءة بيت الصلاة ، ومن اقتصاد في مواد البناء . كل هذه مسائل كانت تشغل فكره ولم يقابلها مجتمعة بناء قبله . كانت جديدة

في حدوثهـا وكانت الفكرة التي حلت صعابهـا جديدة أيضاً . فلم يسبق في تاريخ فن العمارة ان استعملت مثل هذه الأقوس المتجاوزة على جدارات مرتفعة . وهي وعناصرها تؤدي في جامع القيروان وظائف عملية عديدة منها اقتصاد في مواد البناء ، وزيادة في اضاءة بيت عميق خال من كل الفتحات الا تلك التي تصل اليه من الصحن ، وضغط أقل على الاعمدة ، ومقاومة اكثر بطرد الانحناءات

ويجب أن لا ننسى انهُ من الخطأ أن نحكم على أثر من الآثار من ناحية واحدة فقط ، سواء كانت هذه الناحية في قطاعه السطحي وتنظيم رسمه ، أم كانت في بنيته الداخلة واقامتها ، أم كانت في كتلته ، أو في بنيته الخارجة ، أم كانت في زخرفته ومؤثرات اجزائه . واذا نحن اردنا أن ندرس أثراً من الآثار فلن تكون دراستنا مجدية ان نحن فرقنا بين ناحية وبين اخرى ، أو ان لم ندرسها باعتبار الواحدة منها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمجموع النواحي الاخرى . فاذا نحن أخرجنا منارة القيروان من الجسم التي هي عضو فيه ، فقد تتصل في شكلها الخارجي بالابراج السورية ، وقد تكون مأخوذة عنها ، كما قد تكون لقباب القيروان صلة بالقباب الفارسية ، ولدعامات أبوابه علاقة بدعامات الحصون البيزنطية ، ولكن هذه الصلة وهذه العلاقة لن تبقى قائمة اذا نحن أعدنا هذه الاعضاء إلى الجسم الذي كانت تعيش فيه ، ولن يجوز وجه للشبه بعد هذا ، وسرعان ما تتلاشى ذكرى هذه العناصر

ليس جامع القيروان عبارة عن مجموعة من الأعمدة والعقود ، ولا هو قبة ، أو منارة ، أو مدخل ، أو اسوار ، بل ليس هو كل هذه العناصر متعشقة ، ولكنهُ جسم حي وما هي الا اعضاء فيه ، اذا هو عاش بها فهي تستمد حياتها من جسمانه ، وبيانها المعنوي من كتلته

وكيف لا نشعر بذلك اذا وقفنا امام مدينة القيروان ، فكأنها تمتد فسيحة مبطحة ليظهر فيها الجامع اكثر جلالاً وأسمى عظمة . بل ان المدينة كلها تكتسب عظمتها من هذا الجامع . وهل لا تتضاءل بعد هذا ذكرى الابراج السورية امام هذه المنارة المنيعة الاساس ، القوية التوازن؟ وكم تستبهم القباب الفارسية أمام خفة قباب القيروان ورشاقة صورتها . وكم تتثاقل وتغلظ الدعائم البيزنطية اذا قوبلت بدعائم القيروان التي تمد أسواره بقوة فيها كثير من الجمال ، وتحيط مداخله برونق يحفه الجلال . لم تكن غاية دراستنا لجامع القيروان ان نصفهُ وصفاً دقيقاً في جميع اجزائه بل اردنا ان نثبت بها ان هذا الجامع كتلة واحدة لا تنفصل اجزاؤها وفكرة واحدة لا تتشعب عناصرها وان هذه الفكرة جديدة تهيأت في وسط ديني اسلامي وخضعت للبيئة الاجتماعية التي نشأت فيها ، وللوسائل المادية التي تكونت منها . وأردنا ان نحدد ايضاً الفضل الذي يرجع في ابتكار هذه الفكرة وفي اخراجها ، الى رجال الفن من المسلمين . فدلنا البحث على ان بنّائي القيروان كانوا مهندسين على علم واسع بكل دقائق الفن ، وذوق متسع لكل نواحي الجمال ، وتقدير منطقي لكل وظائف البناء وحاجيات بيت الصلاة والمصلين . وكفاهم فخراً وكفى عبقريتهم فضلاً انهم تركوا في تاريخ المدنيات صفحة جديدة باهرة ، فأقاموا اثراً معمارياً اصيلاً في شكلهِ وبنيتهِ وكتلتهِ ومؤثراتهِ

احتضار الغرب

أو فلسفة القدر الحديثة (١)

لعلي حسن الحاكم

ليست الثورة الفكرية التي أحدثها شبنجلر بالتي تتسع لها عجالة صغيرة ، وهي التي هزّت الفكر والفن منذ سبعة عشر عاماً ، وصدمت المألوف حتى في اكثره بداهة وجلاء

ولقد فرغتُ من قراءته للمرة الثالثة وبلغتين احداها لغة المؤلف . وهي اللغة التي لا مفرّ منها للوصول الى معاني شبنجلر الدقيقة وفهم العبارات والألفاظ التي صاغها لتأدية المعاني الجديدة التي ابتدعها

ومهما يكن في آرائه الفذة من الشذوذ الا أنها في مجموعها تقسرك على النظر الى الكون والحياة وتاريخ الانسانية والفنون والمجتمعات والمدنيات والثقافات نظراً كله جدة وغرابة ، ولا يخلو من لذة ليس بعدها لذة

حقـاً أن شبنجلر هو ذلك الفكر الذي حلّق في آفاق لم يكن الخيال ليحلم باحتمال ولوجها . إذ صدع فيه معاقل كانت لبداهتها وألفتها في مأمن حريز من النقد والاعتراض . نعم لقد قام بثورة قلبت أوضاع البحث الفلسفي والفنون وسائر الاتجاهات العلمية والأدبية . وعلى رأس ذلك البحث التاريخي نفسه . وكفاك دليلاً على ثورته الهائلة أنهُ اكتسح هياكل فكرية وفنية حمتها القداسة مئات بل آلافاً من السنين . من المحتمل أنهُ تاه قليلاً أو كثيراً في ميادين بحثه الجديدة . ولكن يلتمس العـذر لمن غزا فردوس عقليًا لم يطأه مفكر من قبل . يعذر أن فلت منهُ خاطر هنـا أو هناك . اذ لن يمسّ ذلك عظمة ابحاثه . وكفاك أنهُ نزع عن المنطق سلطانه المتين وعرّاه من أسلحته التي مكنت لهُ في الميادين العلمية . وأرانا كيف أن القدر هو المحرك الوحيد لاعظم الحوادث وأصغرها . كما أبان كيف أن الحضارات والمدنيات تسير في أدوار مرسومة لا مفرّ منها ، وأن الحضارة الغربية التي نشهد احتضارها الآن لا مناص لها من السقوط الذي قد بدأ . ومن العبث الانخداع بمظاهر القوة من اسلحة فتاكة واستعمار . فذلك ـ وهنا احد أوجه الغرابة ـ شأن السقوط في المجتمعات. ويستخرج لك شبنجلر من بطون الحوادث التاريخية القديمة والحديثة ما يقطع برأيه ويدعمهُ

وأن عظمة شبنجلر لا تقتصر على هذه الثورة الفذة من الآراء الهادمة . بل أنها لتتجلى ايضاً في تلك المقدرة الاعجازية التي جعلت ذهنه الجبار يتسع لتلك الجبال الضخمة من المعلومات التي ضمها

---

(١) كتب بعد قراءة Oswald Spengler وهو مترجم الى كل اللغات الحية Der Untergang des Abendlandes

ونسقها وتناولها في خفة وحذق . فهو يكاد يُلمّ بكل شيء . بمعظم اللغات الحديثة والقديمة . ثم بتاريخ كل أمة وحضارة — ثم بالعلوم والرياضيات بجميع أنواعها — ثم بالفنون الجميلة من بناء وتصوير وموسيقى وشعر وأدب — ولكل أمة وحضارة . حتى الدين والفلسفة — وفي الهند والصين والازتيك (احدى حضارات امريكا المتوسطة القديمة) — ثم — وهنا الاعجاز — قد هضم كل ذلك بقوة حتى أصبحت هذه المعلومات شطراً من نفسه وفكره . واخذ يتلاعب بتلك الكنوز ويقتنص بينها علاقات لم تخطر لذهن بشر — علاقات وارتباطات كلها طرافة وطلاوة — فيستعرض الحادث في مصر القديمة ، ويعطيك مقابله تمثالاً معيناً في مدنية اليونان القديمة ، ثم قطعة موسيقية في الحضارة الغربية الحديثة ، أو بستاناً نضراً في زمن معين من تاريخ الصين

وهو يفيض في عبارته كأنما قد عاش بين تلك المدنيات ، ثم يستقرىء سرها المدفون — كأنهُ — استغفر الله — مبدع تلك الفنون وخالق تلك الحوادث والاشخاص التي غيرت مجرى التاريخ . وهو في كل ذلك يرجع الى المنطق ليهدم المنطق . ويلجأ الى ذهنه الجبار وطريقته العلمية ليهدم بها الاسلوب العلمي المألوف

وهو قد أرغم التاريخ على أن يبوح بسره لأول مرة . فتتجلى لك أروع الحوادث بلون جديد لا أثر فيه للسببية القديمة التي تخرج من الاسباب الى النتائج وتتجاهل الالهام والصدفة والعناية الالهية

فحذار من قراءة شبنجلر ان لم تكن واسع العلم ، عميق الاطلاع . فانهُ غير مفهوم للضحضاح من المتعلمين ، والاَّ فانك مضطرٌّ للرجوع الى المراجع والمظان بين كل سطر وآخر ، بل بين كل كلمة واخرى ، والى ذلك يرجع احد الاسباب في عدم ذيوع آرائه ذيوعاً يتفق وعظمتها ، وكان يصح ان يؤلف كتاب شبنجلر في عشرة آلاف صفحة بدل الألف التي حصره فيها

واني اخشى ان يؤخذ شبنجلر على انهُ رجل فكر وخيال فحسب ويظن فيه عدم اتصال آرائه بالناحية العملية كالخلقية Ethical والاقتصادية والسياسية . فذلك وهمٌ ، اذ انهُ ضرب في كل ذلك بسهم وافر . فهو كما علمنا كيف نقرأ التاريخ فانهُ هدى الملحد الى الايمان بالله . وعلمنا كيف نفكر ونتأمل ونثق بالواقع اكثر من ثقتنا بالمعقول . وكشف لنا عن الميادين التي لا مناص من حصر المباحث العلمية والاجتماعية والفنية فيها . واليك احدى نواحيه وتحذيراته : ذلك ان الفلسفة والفن والالهام قد نزلت في هذا العصر عن عروشها . وان الفنان الآن انما يحاول المستحيل لاحلال الروح الفنية من جسم الحضارة . وانهُ اولى بالتوجيه في العلم والتربية ان يتجه الى الناحية المادية والسياسية التي هي طابع هذا الدور في المدنية الغربية الحالية كما سنبين ذلك بعد

وقد طعن الداروينية في احد اسسها الهامة وهو التطور التدريجي مطابقة للبيئة . واثبت أن الانقلابات الهامة في تطور الكائنات والمجتمعات والانظمة والفنون والعلوم بل والعقائد انما كانت فجائية املاها القضاء المحتوم كما عليها على نمو الفرد من الكائنات في تشكيل جسمه الى ان يصير تام الشكل

والتكوين . وأثبت بأدلة جلية أن هذا القضاء هو الذي فصل فجأة وطفرة لا تطوراً وتدرجاً بين الجماد والحياة وبين النبات والحيوان وبين كل نوع والآخر. وأن القضاء هو الذي حدّد حياة كل فرد وكل نوع وكل حضارة . وفسَّر بذلك عجز علم الحفريات عن الاهتداء الى هيا كل بشرية تثبت التدرج بين الانواع السفلى للانسان وبين ظهور الانسان فجأة ، وعجز علم طبقات الارض عن الاهتداء الى السر في وجود تلك الطبقات المحدودة من التكوينات الارضية وكان أولى بها بناءً على النظرية القديمة التدرجية ان تكون الطبقات المذكورة ذات تدرج غير محسوس عكس الواقع [١]

وإن ما حصل له في كيفية وضعه مؤلفه التاريخي لدليل على صدق ما اتى بهِ من ان النـاس والمجتمعات مسوقة بدورة محتمة لا تدبير فيها للارادة الذاتية والاجتماعية اذ انهُ لم يكن يرمي الى ذلك الفتح الذي اتى بهِ والذي يُقر شبنجلر نفسه بأنهُ فلت منهُ عن غير قصد او تدبير . اذ كان في عام ١٩١١ يُفكر في وضع بحث عن الموقف السياسي واحتمالاته وكان يُحس دنوّ الحرب العظمى بناءً على التقديرات . ولكن أفق البحث أخذ من تلقاء نفسه وبعصا ساحر يتسع امامه حتى خرج بهِ البحث من ميـدان العوامل المحيطة الى العوامل المشـابهة في العصور الاخرى ثم تشعب (حتى اتصـل بحضارات اخرى) واذ ذاك (تكشفت له علاقات بين الحضارات) ومشابهات في دوراتها لم يحلم بها الفكر من قبل .فأخذ يدرس العصور والحضارات بفنونها واديانها وآدابها وانقلاباتها السياسية والاجتماعية مهتدياً بضوء جديد ارسلتهُ العناية الالهية ، حتى نما شيئاً فشيئاً ذلك الصرح السحري الذي شيده شبنجلر والبناء الجديد الذي بنتهُ فلسفتهُ وابحاثه للكون بعد ان قضى على البناء القديم والاسلوب القديم الذي بنتهُ بهِ الفلسفة المألوفة

وكي تفهم شبنجلر لابد من معرفة مدلول الفاظ ابتدعها لمعنى خاص يغلب عليها المقابلة والتضاد — اي ازواجاً متضادة منها الكينونة وبالالمانية Sein والصيرورة وبالالمـانية Werden . ويرى في الحالة الاولى رمزاً للجمود والتصلب والموت وفي الثانية رمز الحركة والالهام والحياة . والفراغ في نظره عنوان الجمود والزمن عكسه — فهناك منطق الفراغ الصامت الجامد وهو المنطق المألوف ومنطق الزمن الحي النامي وهو منطق شبنجلر الذي يتصل بالقضاء والتعاقب الزمني . وفي تدليل عجيب واستعراض لحوادث التقدم العلمي والفني يُريك الادلة الناصعة على ذلك ، فالقدر في نظره يتغلغل في الديانات الميثولوجية والالهام الفني بعكس المنطق المألوف الذي تحجّر في اللغة الرياضية

وجوهر بحثهِ يدور على محور الحضارات لا الشعوب ولا الامم ولا اللغات كما بحث هربرت سبنسر من قبل وضلَّ في بحثهِ . اذ اثبت شبنجلر بالادلة القاطعة عدم وجود الفوارق الرئيسية التي ينص عليها علم الشعوب الحديث . ويرى ان (وحدة التاريخ انما هي الحضارات) ودلّـل على ان لها حياة محدودة

---

(١) اكتشف النباتي De Vries الهولندي في تجاربه النباتية ظهور نباتات بصفات جديدة لا مناسبة لها (فجأة) في حقل تجاربه . وكان ذلك دافعاً له الى تسجيل النظرية الغريبة التطورية التي سماها The Mutation Theory

وادوار معينة من ميلاد الى شباب ثم شيخوخة وموت محتم. وقد حدد حياة كل حضارة بالف سنة ، مثبتاً ذلك بأدلة قاطعة مطبقاً نظريته على سائر الحضارات المطروقة وغير المطروقة كالمصرية القديمة والهندية والصينية والعربية واليونانية والغربية (الحالية) حتى الامريكية القديمة (الازتيكية) . فقد رأى شبنجلر ان المؤرخين درجوا على سنة تقسيم التاريخ الى قديم ومتوسط وحديث متأثرين بالزمن الحاضر والمكان القريب واللغة والقومية ، قاذفين بالماضي البعيد الى نصيب ضئيل من العناية. فكان مؤرخو العرب مثلاً يرون في حاضر بلادهم من خطر الشأن ما دفعهم الى تقدير تاريخ البلاد الاخرى والماضي البعيد للبلاد العربية نفسها تقديراً ثانويًّا . وكذلك مؤرخو الفرنجة في العصر الحديث . فانهم يجمعون تاريخ الامم القديمة جميعها في حيز ضئيل تحت عنوان العصر القديم ثم يبحثون تاريخ الامم الوسطى ناظرين اليهِ نظرتهم الى المجتمعات غير الناضجة ، ثم يتناولون التاريخ الحديث كأنهُ الكل في الكل . وقد تأثرت بهذه الوجهة النظرية جميع الابحاث والمناهج الموضوعة للتدريس . كما حصل في مصر من تخصيص دروس السنة الاولى الثانوية لتاريخ الامم القديمة جميعها

***

لم يكتف شبنجلر بهدم هذا الاساس بالنسبة للماضي والحاضر بل تخطى ذلك الى معجزة التنبؤ بالمستقبل قياساً على الماضي ، لا كنتيجة لاسباب حاضرة فعالة ، بل كمراحل محتمة شأن الكائنات الحية تماماً اذ تستطيع ان تقدر ما يصيبها من تغيرات في تكوينها في اوقات معينة بحسب نوعها

ويطلق شبنجلر كلمة اوقليدسي على التقسيم التاريخي المألوف نسبة الى اوقليدس Euclid الرياضي الشهير حالة انهُ اطلق كلمة كوبرنيكي على نظامه نسبة الى كوبرنيكوس Copernicus واضع النظام الفلكي الحديث الذي فيهِ الكرة الارضية ذات شأن ضئيل في المجموعة الشمسية والنظام الفلكي عامة . وكذلك ابان شبنجلر ان العالم الانساني يصوره في تطوره حضارات متسلطة على كل العناصر الاجتماعية وان هذه الحضارات تخضع لناموس عام من النمو لا يفرّق بين حضارة واخرى الاّ في الطابع الخاص الذي يميز كل حضارة عن الاخرى كما تتميز انواع الكائنات وافرادها بعضها عن بعض . فقضى بذلك على مكانة الحاضر والتأثر بالتاريخ القومي ، تلك المكانة التي سيطرت على الابحاث التاريخية في كل العصور. وعلى هذا الاساس او قل على هذا البناء الجديد الذي شيده شبنجلر للتاريخ استطاع ان يقوم بمعجزة وضع الوان العمران بانواعها المختلفة في مكانتها الطبيعية ، فكشف لنا عن سر تقدم الفنون الجميلة في عصور معينة وانحطاطها في عصور اخرى ، كما ارانا سر التطورات السياسية والاجتماعية والعلمية غير تارك ظاهرة دون ان يزيل عنها ذلك الغموض والخلط اللذين تسلطا على الابحاث الى عصرنا هذا وهي مما لا يطمئن اليهِ الحكم والتدليل . وبذلك تكشف لنا التاريخ عن مظهر جديد ، فاذا بتاريخ الامم المنفصلة والفنون والعلوم المستقلة بعضها عن بعض اوهاماً ، وأصبح هناك فن وعلم ورياضة « Mathematics » وفلسفة خاصة بكل حضارة . وأصبح القول بتاريخ فن النحت او التصوير او

الموسيقى او البناء خرافة من الخرافات اذ لكل منها في كل حضارة روح خاصة غير متصلة بروح الحضارة الاخرى

وقد اتى باكتشاف رائع اساسه تحديد جلي للفظين لا يزالان مختلطين في ميادين البحوث وهما Culture و Civilization ودعنا نسمي الاول حضارة والاخير مدنية . فالحضارة « Culture » هي الاصل . وهي التي يطلقها على الدورة جميعها . وهي التي تُيْنع وتبلغ عز إزهارها في شباب الدورة كالمصرية القديمة في عهد الاهرام والحضارة الغربية في القرون الوسطى . اما ذلك التقدم المادي الحالي الذي يخدع المؤرخ فيتصوره اوج الحضارة ، ألا وهو العمران العظيم والتقدم الاقتصادي والاستعماري والآلي فقد دلل شبنجلر على انهُ رمز الموت والفناء وهو الذي اطلق عليهِ شبنجلر كلمة مدنية «Civilization» وهي المرحلة الاخيرة للحضارة كالحالة التي بدأت تسيطر على الحضارة الغربية من القرن التاسع عشر وستفنيها حتماً . فالحضارة الشباب، والمدنية الكهولة والشيخوخة

وفي الحضارة تزدهر الروح الفنية وتكون على اشد خصوبتها فتظهر روح الفن الاصيلة ويتجلى طابع الحضارة وتتخذ رموزها شكلها الخالد الذي يختلف بين كل حضارة وأخرى . ويكون المجتمع محوره المدن الريفية الصغيرة التي تسيطر عليها حياة الاشراف ورجال الدين مثل الرها وانطاكية في المدنية العربية وبروج ونورنبرج في الغربية . وفيها تنشأ الفنون لا كحِرَف شأن المدنية بل ينطق بها الفنانون الملهمون . أما المدنية ففيها يجدب الفن ويصبح عقيماً منحصراً في اقتراض الرموز والاساليب والزخارف التي انحدرت من عصر الحضارة بعد ان فقدت روحها واصبحت هياكل ميتة . وفي الوقت نفسه تتقوى الناحية العقلية Intellectual وتسيطر على المدنية . فتنشأ الوان المذاهب الاجتماعية المبنية على تنظيم جديد للمجتمع اساسه المصالح المادية كالاشتراكية والدولية والشيوعية . وهنا يأتيك شبنجلر من تاريخ مصر القديمة وبلاد الصين والهند بما يثبت وجود ذلك كما هو واقع الآن في المدنية الغربية . وفي هذه المرحلة تنشأ المدن الكبيرة الهائلة « Megalopolis » وتصبح الأخـلاق مادية ويضعف الايمان وتضمحل سلطة الاديان ويقضى على الميزات القومية في الفن والحياة

ويخضع شبنجلر تاريخ الامم العبرانية والعربية والفارسية والبيزنطية وسائر امم الشرق في القرون الاولى قبل الاسلام وبعده الى حضارة واحدة اطلق عليها الحضارة العربية . كما وضع تاريخ روما في مكانه الطبيعي كمرحلة المدنية Civilization المتحدة للحضارة الاغريقية التي بدأت في المـدة الواقعة بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ قبل الميلاد . وفيها نشأت الالياذة . ورأى في تاريخ روما الاخير وبيزنطة روحاً عربية . وابان كيف كان الامبراطرة الرومان والبابوات في القرون المسيحية الاولى يأتون بصناع وفنانين من الشام وبخاصة بيروت ليبنوا الكنائس في روما والقسطنطينية وبعض المدن الاخرى في ايطاليا وجنوب فرنسا وهي كنائس متأثرة بروح المساجد ذات القباب اي خاضعة للفن

العربي . وكذلك عند تحول كنيسة ايا صوفية الى مسجد لم يحصل اي تغيير وانما وجدت المدنيـة العربية ابنها المفقود !

ويرى شبنجلر ان الحضارة الغربية قد اجدبت وافرغت جعبتها الفنية كما تمخضت الحضارة المصرية عن الطريق المرسوم والمومياء وغيرها من رموز الاستمرار والخلود. كذلك تمخضت الحضارة اليونانية عن التمثال العاري. والحضارة العربية عن الكيمياء والجبر والقباب . والحضارة الصينية عن البستان والجمال في الطبيعة كرموز لروحها . ولم تكن هذه الرموز مجرد اتفاق وانما هي تعبير جلي للروح التي تغلغلت في الحضارة ونطقت عن لسانها . فهو يرى ان الحضارة المصرية حضارة بناء تسيطر عليها روح شاعرة بالزمن متجهة في خط مستقيم الى غاية معينة متشبثة بالخلود ورمزها التحنيط والهياكل الخالدة . وعلى الضدّ من ذلك الحضارة اليونانية والهندية التي تجاهلت الزمن فقضت بأعدام الاجسام حرقاً بالنار في طقوسها الدينية عند الموت ، ولم تكترث للعناية بالتنقيب عن الآثار المدفونة في بقايا اثينا عقب احراق الفرس لها ولم يعنَ باستخراجها الاّ ممثلو الحضارة الغربية في العصر الحديث . اذ ان الحضارة الغربية الحالية كالمصرية من حيث استيعاب الزمن واحترامه. ويرى شبنجلر في حضارة الغرب الاولى المتجلية في كاتدرائياتها المحلقة في الفضاء واللانهاية موسيقى متحولة الى البناء بتأثير بقايا المدنية الكلاسيكية « اليونانية القديمة » المحيطة بوطنها . وعلى ذلك يرى في الموسيقى طابع هذه المدنية الحالية وانها لم تتمكن من الانطلاق الطبيعي « اي الى الموسيقى » الاّ في أخريات حضارتها على يد الفنانين العظماء كموزار وبيتهوفن وآخرهم فاجنر . ولا يتصور احد مقدار الروعة لهذه الموسيقى لو تمكنت من الانطلاق في شبابها بدل الاختناق في ذلك الرسم البنائي Architectural

أما الفنون في عصر المدنيـة فانما هي حِرَف ، ان كان لها جمال فهو جمـال مصنوع او مركب اقرباذيني عديم الروح والسحر شأن البنـاء والموسيقى والادب في العصر الحـالي . فلا تجد طابعاً خاصـاً يميز انتاج الفنان وانما هو تشكيل من سائر الاساليب التي انتجتها الحضارات الاولى بما فيها الحضارة الحالية . خذ بناء من الابنية الشهيرة التي تشيد او قطعة موسيقية حديثة فانها تثبت ذلك وهي لن تبقى وتخلد . ومن ذا الذي يطمئن الى هذه الفلسفة التي قسرت ذلك الانتاج المتحول الذي طغى علينا في هـذا الاوان وهو انتاج عقيم لا روح ولا خلود ولا قيمة فيه ، شأن الادباء الحاليين الذين غمروا الاسواق مسوقين بدوافع الكسب والدعاية وتعروا من سموّ الالهام والعبقرية

وتتأثر الحضارات في ميلادها واثناء دورتها بالحضارات المحيطة تأثراً ماديـاً لا روحانيـاً . وكثيراً ما تدثرت بزي غريب مأخوذ من المدنيات القائمة كما تأثرت الحضارة العربية بالمدنية الرومانية « التي هي المرحلة المتممة للحضارة اليونانية كما سبق الذكر »

ولذلك كشف شبنجلر عن سرّ قد خفي الى الآن . هو ذلك التناقض الذي وقع فيه فلاسفة الحضارة العربية بعد دراستهم الفلسفة اليونانية . ذلك أن روح المـدنية العربية القائلة بالازدواج

والخفاء والروحانية لم تكن تتصور الفلسفة اليونانية الفردية المجسمة تصوراً اميناً . ولذلك كان عبثاً من الفارابي وابن رشد وغيرهم التوفيق بين آراء افلاطون وارسطو من ناحية والفلسفة العربية المحضة من ناحية اخرى لانهما لغتان غير قابلتين للترجمة . وكذلك المدنية الغربية منذ عصر النهضة الى الآن فانها لا تدرس المدنية اليونانية وانما تدرس روحاً غربية في شكل اكلاسيكي

وكما تتدثر الحضارة بزي حضارة اخرى في احدى مراحلها كذلك قد تقتل قتلاً او تبقى بحالة جامدة لا حياة فيها . فالحضارة الازتيكية كانت في عنفوان شبابها ابان اكتشاف اميركا وغزوة الاسبان لها ، ولكن جاءت تلك الغزوة فسحقت تلك الحضارة ولم تبق لها على اثر . اما تحجر الحضارات اي بقاؤها جامدة لا حياة فيها بعد عمرها المحدود فهو يصيبها في اواخر ايامها على هيئة النظام الامبراطوري اي عقب انتهاء المدنية كما اصاب المدنية الهندية والصينية والعربية التي ظلت مئات السنين في مواطنها

ويرى شبنجلر ان لكل حضارة رياضة خاصة « Mathematics » . وان الرياضة — وهنا العجب واللذة — انما هي تحجُّر للصور التي تمخضت عنها الحضارة وانها لا تتكوَّن وتستقر في صورتها الثابتة الاَّ في اول عهد المدنية . فالرياضة من رموز الموت ويرى في العدد رمز الحضارة اليونانية والهندية، وفي الجبر — اي العدد غير المحدود — رمز الرياضة العربية ، وفي حساب التفاضل والتكامل « Calculus » اي الوظيفة العددية رمز الرياضة الغربية بروحها اللانهائية

وعلى اساس هذه الابحاث اصبح شبنجلر يطلق « المعاصرة » على معنى جديد يتخطى الازمان والاحقاب وينصبُّ على مكان المعاصر في مرحلة تطور الحضارة . فهو يرى ان بوذا في الحضارة الهندية يقابل سقراط في اليونانية والكندي في العربية وروسو في الحضارة الغربية . ويحذرك من التشابه السطحي كما بين الاسكندر واغسطس قيصر اللذين يختلفان اختلافاً كبيراً . كما انه يجعل افلاطون معاصراً للفارابي في المدنية العربية وجيته Goethe في الغربية

وليس من الممكن التعرض لكل ما اتى به شبنجلر من آراء فذة في مقال بسيط كهذا . ولكن ما يمكن استخلاصه من قراءته هو انه رجل هادم لأمتن العقائد والمذاهب الفلسفية . لم يُبق على علم أو فن الاّ اتصل بأعمق اغواره ثم اخذ معوله الجبَّار وانقضَّ تهشيماً وتحطيماً فلم يترك فلسفة ولا عقيدة ولا علماً الاّ وعراها . ونزع عن المنطق سلطانه على الابحاث بعد ان اكتشف في القدر لغز الوجود ، وابان كيف يلعب القدر بالعقول والاحكام ، وكيف ان النظريات التي اتت بها الفلسفة متقيدة بالمكان والزمن ان هي الاّ اوهام . كما بين ان القوانين العلمية والاخلاقية والرياضية ايضاً اوهام تبرز في عصر المدنية . اذ ان لكل شيء بداية ونهاية يمليهما القضاء والقوة الخفية التي تحرك الكون. وكذلك بعد ان فرغ شبنجلر من تحطيم كل شيء استطاع ان ينتحي ناحية من هذا الكون المحطم وان يستضيء بالهامه فيبني كوناً آخراً على نسق لم تألفهُ العقول البشرية

تاريخ الديموقراطية

في الصحة والعلاج

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك [1]

اريد في مستهل الكلام ان ازيل لبساً قد تعلق بمعنى الديموقراطية عند استعمالها مقرونة بتاريخ الطب والصحة العامة . فقد وضعت كلمة الديموقراطية في الاصل للتعبير عن « حكم الجمهور » . ثمّ تغير المقصود منها على تعاقب العصور وبحكم الاحوال حتى صار يقصد بهِ « المساواة » في العرف الشائع . فاذا استعملنا هذا الاصطلاح في بحثنا هذا فانما نقصد بهِ « حق التمتع بالصحة والعلاج »

ولا يُنكر ان المساواة المطلقة في الصحة والعلاج تكاد تحسب في جملة المستحيلات . اذ اننا نولد على درجات مختلفة من الاستعداد الصحي ومتانة التركيب . وعلى ذلك يكون المقصود من معنى الديموقراطية هو توفير الوسائل الضرورية للعلاج وصون الصحة لمختلف افراد الشعب . وبالطبع لا يتعارض هذا مع قدرة البعض على استشارة اكفاء الاطباء واغزرهم خبرة وعلماً ، ودفع نفقات العلاج بأحدث الآلات وأنجع الوسائل في التطبيب والسكنى في اصح الجهات مناخاً وفي افخم المنازل بناءً مما لا يتيسر لعامة الناس

ان حق التمتع بالصحة هو في الواقع جزءٌ لا يتجزأ من الحرية الشخصية التي تعتبر في عصرنا هذا من الحقوق المطلقة لكل انسان . لم يتمتع الانسان الاول في فجر التاريخ بالصحة ، ولم ينعم بحق المعالجة من غير مقابل ، كما ينعم بالهواء ونور الشمس ، بل كان هذا مقصوراً على من يحبوهم رئيس القبيلة بعطفهِ ويخصهم برعايتهِ وايثارهِ ، فقد كان هو الطبيب المعالج كما كان المتصرف في الادوية . ولا يزال هذا شأن رؤساء القبائل في مجاهل افريقيا . ثم انتقل الطب من دائرة اختصاص زعيم القبيلة الى طبقات رجال الدين ، فكان هؤلاء يضمون الى معالجة الارواح معالجة الابدان والعناية بصحتها . وكانوا يبذلون خدماتهم الطبية والصحية لقاء ما يقدم اليهم من قربان وهدايا . وعلى هذا لم تكن فرص العلاج تتاح الاّ للاغنياء واصحاب السلطة والنفوذ بقدر ما كانت بعيدة عن متناول الجمهور

وفي هذا العهد كان الطب ضرباً من الشعوذة والتعاليم الدينية الساذجة وخليطاً من الصلوات والتعاويذ والتبرك بالآلهة والاصنام وتقديم القربان وما هو على سبيل ذلك

ومازلنا في وقتنا هذا نرى في الشعوب الهمجية ان التطبيب يدخل في اختصاص رجال السحر

---

(١) استاذ علم الطفيليات بكلية الطب ومدير معهد الابحاث ومستشفى الامراض المتوطنة بمصلحة الصحة . وما نشرناه هنا هو الجانب الاكبر من احدى المحاضرات التي القيت في ردهة يورت بجامعة القاهرة الاميركية

والشعوذة ... وما تزال آثار هذا العهد ملحوظة في اعرق الامم مدنية ، ففي برلين وباريس ولندن افراد يعالجون اليوم بالتمائم والتنجيم ويقصدهم افراد من ارقى الطبقات كما هو الحال في قرى مصر وفي القاهرة ، وتلك بقية من عهد بائد كان المرض فيهِ منظوراً اليهِ على اعتبار انهُ روح شريرة استولت على الجسم ، ولا يخرج هذه الروح الخبيثة غير السحر ، وبعد ذلك اتيح للطب في مصر الفرعونية ان يخرج من الظلام الى النور وينتقل من ايدي الكهنة الى رجال يحترفون مهنته ، ووضعت لهم اسس علمية ما زال الكثير منها قائماً الى اليوم . ومن مصر الفرعونية القديمة انتقل الطب الى اليونان فالرومان . وفي القرن الخامس قبل الميلاد كان نفر من الاطباء المتجولين يجوسون خلال القرى في اليونان ويعالجون من يشاء . ولعلَّ هذا اشبه بالحركة الجديدة التي فشت في السنوات الاخيرة في كثير من الممالك على صور مستشفيات متنقلة وسيارات مجهزة كأنها عيادات متحركة

وحدث ان الجماعات الممتازة الغنية في اليونان القديمة كانت تحتكر طبيباً يقيم بينها ويختص بها دون سواها . لكن الى ذلك العهد كان التطبيب مقصوراً على الاغنياء القادرين على دفع الثمن . اما الفقراء فكانوا يعالجون بطب الركة او الوصفات البلدية التي هي مزيج من التعاليم الطبية والشعوذة

واهتم الرومان بصحة عبيدهم لانهم كانوا مصدر ثروتهم . فحرصاً على دخلهم اقاموا مستشفيات خاصة بالعبيد. وقد كان سيدنا موسى عليه السلام واضع الاساس في الطب الوقائي عندما شرَّع بأن الراحة والطعام والماء والامراض المعدية هي من أهم واجبات المملكة. ثم بزغ نجم السيد المسيح عليهِ السلام ، ومن تعاليمه التي بثها « ان المرض علامة على رضى الله على عبيده » ومن اجل ذلك تبارى الاتقياء من المسيحيين في ايواء المرضى والانفاق عليهم بسخاء في معاهد خيرية

وعلّمت البوذية معتنقيها ان العطف على المرضى من صفات البررة واهل الورع . واوصى الاسلام وحثَّ على العناية بالمرضى وبذل المعونة لهم وايوائهم ومؤاساتهم . فكان من اثر هذه التعاليم المباركة من جانب جميع الاديان ان كثرت المعاهد الخيرية كما نرى في الاوقاف المحبوسة على صنوف البر والاحسان والتكايا والمستشفيات المجانية. وسار الحال على هذا المنوال متروكاً لاريحية الاتقياء البررة من اهل الديانات المختلفة الى سنة ١٨١٨ . ففي هذا العام بدأت حركة لتعميم الانتفاع بخدمات الاطباء لكافة السكان بلا تمييز . وشرح ذلك ان دوقية (ناسّو) في المانيا سنت قانوناً يقضي على الاطباء ان يرتدوا ملابس خاصة تميزهم عن بقية السكان حتى تسهل الاستعانة بهم ويتيسر الانتفاع بطبهم . ثم بدأ العلامة الباثولوجي رودلف ڤيرشو في سنة ١٨٤٨ حركة واسعة النطاق لاصلاح الطب ، وبلغ من حماسته لفكرته ان أصدر مجلة باسم « اصلاح الطب » واساس هذه الحركة هو الديمقراطية في الطب ، أي حصول كل فرد على نصيبه في العلاج كحق وليس كاحسان ، وللاسف كان الاخفاق نصيب هذه الحركة

وفي سنة ١٨٧٨ حدثت مؤامرة في المانيا على حياة غليوم الاول ادَّت الى حل الحزب الاجتماعي

الديمقراطي . لكن بسمارك رأى بحصيف رأيه ان تيار الاصلاح الاجتماعي لا تكفي الشدة وحدها لصده . فأصدر قانون التأمين الصحي الاجباري في سنة ١٨٨٣ ، فلم يصادف ما يستحقه من حسن القبول لصدوره من الهيئة الحاكمة . اذ ظنّ الجميع ان هذا القانون اريد به مقاومة نقابات العمال . لكن سرعان ما حذت الدول الاخرى حذو المانيا

وهذا القانون يضمن للعامل المعالجة وان يتقاضى مرتباً يومياً اثناء المرض او عندما يتعذر عليه ايجاد عمل . على ان هذا القانون لم يجعل تنفيذه الزامياً الاّ في سنة ١٨٨٩ . وفي سنة ١٨٨٨ سنت النمسا قانوناً يشبهه ، والمجر في سنة ١٨٩١ ، وبريطانيا العظمى في سنة ١٩١١

والقانون البريطاني يطبق على العمال بين سن ١٦ وسن ٦٥ سنة ممن يقل دخلهم عن ٢٥٠ جنيهاً في العام ، على ان يكونوا غير موظفين في الحكومة او في هيئات تدبّر لهم معاشاً للتقاعد وعلاجاً اثناء المرض . ويدفع العامل ٣٦ مليماً في الاسبوع ، وتدفع المرأة العاملة ٣٤ مليماً في الاسبوع ، وصاحب العمل ١٨ مليماً في الاسبوع ، وتدفع الحكومة تسعة مليمات عن كل عامل وعشرة مليمات عن كل عاملة في الاسبوع ، وبمقتضى هذا النظام يتمتع العامل بالفحص والعلاج مجاناً ، ويتقاضى ٧٥ قرشاً في الاسبوع اثناء مرضه في حدود مقررة ، وتأخذ المرأة ٥٢ قرشاً في الاسبوع

ويتقاضى الطبيب ٤٥ قرشاً عن كل شخص مؤمن عليه ، ومعدل ايراد الطبيب من هذا المشروع في انجلترا يبلغ ٢٥ جنيهاً في الشهر ، اذ ان عدد هؤلاء الاطباء بلغ ١٥٧٦٤ طبيباً في سنة ١٩٣٢ ، وبلغ عدد الاشخاص المؤمن عليهم ١٥٨٠٣٠٠٠ شخص

واذا درسنا الحال في اكثر البلاد ديمقراطية من الوجهة الطبية — مثل امريكا والمانيا وانجلترا — وجدنا ان هناك عناية شديدة بأفراد الجمهور على مختلف طبقاتهم ، وكان ذلك نتيجة للتطور الاجتماعي الحديث وشعور الطبقات العاملة بمكانتها في المملكة . اما في الممالك الاخرى — كالتي لم تبلغ حركات العمال وطبقات الشعب الفقيرة فيها شأواً بعيداً في المطالبة بالاصلاح الاجتماعي — فنجد ان هذه الممالك نفسها حذت حذو البلاد السابقة ، فوفرت للعامل والفقير الكثير من وسائل العلاج والمحافظة على الصحة ، ويرجع هذا الى الامور الآتية : —

اولاً — ان العناية بصحة الافراد الفقيرة من الشعب لها اكبر التأثير في كثرة السكان ، وبالتالي في قوتها الدفاعية في الحروب وغيرها ، وهذا موضع عناية القائمين بالحكم في اكثر الممالك

ثانياً — ان الامراض التي تتفشى بين الطبقات الفقيرة لا يمكن حصرها بينهم ، ولذلك فالطبقات « الحاكمة والغنية » تقاوم الامراض خوفاً من انتشارها واصابتهم بها ، ومن ذلك المحافظة الصحية على حدود المملكة حتى لا تتسرب اليها الامراض المعدية الوبائية

ثالثاً — توفير سبل العلاج للطبقات الفقيرة قبل ان تطالب به عمل حكيم لتهدئة الحركات الاشتراكية والشيوعية قبل ان تستفحل وتؤدي الى ثورة على النظم تخرج بها عن الحدود المعقولة

فالعناية بالصحة في جميع الممالك المتمدينة سارت شوطاً بعيداً في طريق الديموقراطية الحقة ، وذلك ما يتميز بهِ القرن الماضي والقرن الحاضر في تاريخ المدنية . ويتبين ذلك على الخصوص في توفير الماء الصالح للشرب ، والتخلص من الفضلات ، وتحسين المساكن ، ومراقبة الاغذية ، ومقاومة الأمراض المعدية

فالماء الذي نشربه من أهم مصادر العدوى اذا لم يكن نقيًّا جدًّا . فمياه النيل في مصر وكذلك مياه الترع ملوثة جدًّا ببراز الانسان والحيوان من آلاف الفلاحين الذين يشتغلون في المراكب فهم يتبوّلون ويتبرزون فيه عدا ما يغسل على الشواطىء من الأواني والملابس القذرة الملوثة ببول وبراز الانسان المريض والسليم ، ومن يتبولون ويتبرزون على الشاطىء ويستحمّون فيهِ ، فاذا شُربت هذه المياه على حالها كانت مصدراً كبيراً للعدوى بالأمراض خصوصاً الحمى التيفودية والزحار (الديسنطاريا) والكوليرا . . الخ فاذا ما تفشى أحد هذه الامراض في منطقة انتقل بسرعة الى جميع من يشربون هذه المياه الملوّثة

ففي المدن الكبرى في القطر المصري وفي جميع المدن والقرى في اكثر الممالك الأوربية ينقى الماء تنقية ميكانيكية وكيمائية بحيث يكون خالياً من شوائب الامراض ويوزع على جميع افراد الجمهور من دون تمييز بينهم بأجر قليل أو بالمجان ، ومن الخطأ ان يكون الماء احتكاراً للشركات التي تستغله للكسب بل يجب أن يكون من الاعمال التي تقوم بها الحكومة من الضرائب العامة

ولعلّ الرجل العادي في مدينة القاهرة لا يدرك ان الماء الذي نشربه الآن لم يتمتع بمثله الملوك والامراء في العصور السابقة ولا يتمتع بهِ الفلاح في القرى المصرية بعد . ولعلكم تعرفون ان هناك بعض الجهال في مدينة القاهرة يذهبون الى النيل لاحضار مياه الشرب مفضلينها على مياه الحنفيات ويقولون انها (مياه بخيرها) ولا يدركون ما بها من المرض ، وهذا يشاهد كثيراً في شهر رمضان حيث تباع الزلع الملأى بمياه النيل على العربات في الاحياء الوطنية ، وهذا مثل من فرض الديموقراطية على الجمهور الذي لا يقدّر فوائد هذه الاعمال

والقانون في البلاد الانكليزية يحرّم السكنى في منزل لا توجد بهِ المياه الجارية من الحنفيات فيسمَّى في عرف القانون « بيت لا يمكن سكناه » وأما في القاهرة فهناك منازل كثيرة محرومة من المياه الجارية وذلك لان قيمة اشتراك المياه اكثر مما يسع الفقير دفعه

وأما القرى المصرية فلا تزال محرومة من المياه الصالحة للشرب الذي يقي السكان غائلة كثير من الأمراض

والتخلص من الفضلات له المقام الثاني في المحافظة على صحة السكان بدون تمييز بينهم ، وهذا أيضاً من الاعمال التي تقوم بها الحكومات أو البلديات لصالح جميع أفراد الجمهور ، وخير تلك الطرق اما بنقل المواد البرازية في الحال من المساكن الى حيث تعالج حتى تستحيل الى مواد غير ضارة

أو نافعة في الزراعة أو الصناعة ، وهذا ما يشاهد في عملية المجاري

أما فضلات الأكل وما يتخلف عن كنس المنازل والطرقات فيزال بجمعهِ ونقله بسرعة ، وما زالت القرى المصرية محرومة من كل هذا ، فالفلاح يعيش بين فضلاته وفضلات المواشي في جوّ لا يطاق ، عدا خطره على الصحة ، ومن الديموقراطية الحقة ان لا يترك على هذه الحال

واما تحسين المساكن فقد جرى شوطاً بعيداً في الامم الحديثة ، فقامت الحكومات ببناء آلاف من المنازل الصحية وآوت اليها الفقراء باجر قليل فوقتهم ووقت باقي افراد الامة شر الامراض العديدة والضعف الصحي الذي ينتج عن المساكن الغير الصحية

وقد عملت تجربة من هذا القبيل في القاهرة ، فبنيت مساكن للعمال في مكان تل معمل البارود بالقرب من كلية الطب ، ولكن تبيّن فيما بعد ان العمال لا يمكنهم اداء ايجارها المرتفع ، فسكنها الآن بعض الموظفين ، وذلك لان العامل في البلاد الاوربية يمكنهُ ان يسكن في منزل صحي واذ يدفع ايجاره باعتبار الفوائد المعقولة بالنسبة لرأس المال الذي تقتضيهِ ، ولكن العامل في مصر لا يمكنهُ في الوقت الحاضر ان يقيم في منزل صحي ويدفع فوائد رأس المال الذي يتكلفهُ ، فهو لا يكسب في المتوسط اكثر من خمسة قروش في اليوم ، اما في القرى فالعامل يشتغل في الوقت الحاضر بقرشين ونصف القرش ينفق منها على جميع ضروريات الحياة له ولزوجته واولاده الصغار فلا يمكنهُ ان ينفق على المسكن اكثر من نصف القرش في اليوم اي ١٥ قرشاً في الشهر او ١٨٠ قرشاً في العام ، وهذا المبلغ يعتبر فائدة لرأس مال قدره ٦٠ جنيهاً باعتبار ٣ في المائة اذا ضربنا صفحاً عن القدر اللازم لاصلاح المنزل والمحافظة عليهِ ، ولا يمكن في الوقت الحاضر اقامة مسكن صحي بهذا المبلغ ، ولذلك لا يرجى اصلاح في مصر ما لم تُزَد اجور العمال ، ومن الخطأ اعتبار هذه المساكن منحة لساكنيها بل هي مساعدة لهم ودفعاً للاستغلال الغير المشروع عنهم

واما مراقبة الاغذية واعدام غير الصالح منها فهو عمل اساسه منع الضرر عن جميع الافراد من دون تمييز بينهم ، ومن الاسف ان تنفيذ القوانين الخاصة بذلك لا يلقى للآن العناية الواجبة في مصر وذلك لان الافراد انفسهم لا يقدرون قيمة هذا العمل بل يقبلون على شراء الاشياء التالفة من المواد الغذائية طمعاً في قلة ثمنها ولكن فاتهم مقدار الفائدة العظيمة التي تعود عليهم اذا كانت المواد جيدة خصوصاً في المواد السهلة التعفن مثل اللبن وهو قوام حياة الاطفال والمرضى والناقهين

ومقاومة الامراض المعدية والاوبئة من اجلّ الخدمات الديموقراطية التي تؤدى في الوقت الحاضر ، فقد اصبح الجدري مرضاً نادراً ، وقد كان الى عهد قريب لا تغيب ذكراه عنا لكثرة الافراد الذين تظهر على وجوههم آثاره والتي لا تزول حتى المهات ، وكذلك الكوليرا التي كانت تودي بحياة الالوف من السكان ، فكثيرون من الحاضرين لم يروا اهوالها ، وكل ذلك بفضل الاحتياطات الصحية ومقاومة الاوبئة في مبدئها بدون تفريق بين افراد الامة ، فالمرض بطبيعته لا يفرق

بين الافراد . فهناك المحافظة الصحية على الحدود وفي الموانئ وفي المطارات وفي مديريات القطر وهي على استعداد دائم للعمل حالما تظهر حالة مرض وبائي . فيتغلبون على الداء قبل استفحاله . وهناك عدد وافر من المنازل الصحية ومستشفيات الحميات والكوردونات لعزل مثل هذه الحالات والعناية بها والمحافظة على سائر الافراد من انتشار العدوى بينهم . وعلى هذا نرى ان تعاليم سيدنا موسى القيمة من الوجهة الصحية قد صار تنفيذها على شكل ديموقراطي واسع النطاق في عصرنا الحالي وقد تكللت باكبر قسط من النجاح . فكان من تأثير الاعمال الصحية الكبرى في الامم المتحضرة ان طال متوسط عمر الافراد جميعاً سنوات عديدة بدون تمييز بينهم وقلّت نسبة الوفيات بين الاطفال جميعاً لا فرق كبير بين مختلف الطبقات في ذلك ، وهذا اكبر دليل على ديمقراطية الصحة في العصر الحالي

وآخر ما وصلت اليه الحال في أرقى البلدان الأوربية من هذه الوجهة ان العناية بصحة أفراد الشعب تبدأ عند التفكير في الزواج ، فلا يصرح بهِ الاَّ اذا كان الزوجان خاليين من الأمراض التي يمكن أن تنتقل الى الذرية ، بل قد شرعت المانيا اخيراً في تعقيم افراد الشعب المصابين بأمراض تؤثر في نسلهم تخير وقاية للمجموع من انتاج نسل شرعي أو غير شرعي مصاب بآفات تجعله عالة أو مصدر خطر على باقي أفراد الشعب . فاذا حملت المرأة فقد أعدت لها مستوصفات للعناية بها ودرء ما يحدث للحامل من المضاعفات أو الحوادث . فاذا جاءها المخاض تولى أمرها قابلات أو اطباء على حساب المملكة حتى يتم الوضع وتنهض الام . أما الطفل فيتولى أمره مركز رعاية الطفل حتى يبلغ الخامسة من عمره . فيجبر على الانتظام في مدرسة ، وهناك يكون تحت رعاية اطباء المدرسة وهم عديدون على حسب اختصاصهم في مختلف فروع الطب خصوصاً الأمراض الباطنية المعدية وامراض الأنف والأذن والحنجرة والاسنان . ويستمر هناك الى أن يبلغ السادسة عشرة من عمره فيندمج في سلك العمال وهناك يكون ملزماً بالاشتراك في التأمين الصحي . الاَّ اذا كان ممن يزيد ايرادهم على ٢٥٠ جنيهاً ، فهؤلاء بطبيعة الحال يمكنهم الحصول على العناية الطبية والصحية ببذل الاجور المقررة لذلك

وعلى ذلك نجد أن الديمقراطية الطبية والصحية متوفرة تماماً في هذه الممالك . فهي تفكر في افراد الشعب قبل ان يكونوا أجنة في ارحام امهاتهم ولا تزال ترعاهم حتى يتوارون في المقابر ، ولكن الوسائل المتبعة في هذه المنشآت الطبية والصحية من الوسائل الضرورية فقط ، ولا يمكن مقابلة طرق العلاج المتبعة بما يمكن ان يحمل عليهِ الاغنياء ، وليس معنى هذا ان هناك نقصاً من الوجهة الفنية . بل الذي ينقص هو وسائل الراحة والترف والتنعم ، ويمكن ادراك هذا من حالة مريضين بالتهاب الزائدة الدودية أحدها في عنابر مستشفى قصر العيني والآخر في الدرجة الاولى في مستشفى خصوصي . فالعملية في كلا الحالين تعمل بالطرق العلمية الصحيحة ، ولكن الحجرة والغذاء والخدم و . و . الخ تختلف تمام الاختلاف في الحالتين (١)

(١) وقد وقف المحاضر الجانب الاخير من محاضرته على مشروع الالتزام العلاجي القروي وقد نشرنا فصلا وافياً فيه في مقتطف مايو ١٩٣٤ . فليراجع هناك

الفاظ التصنيف

في الحيوانات الدنيا

للامير مصطفى الشهابي

— ١ —

بينتُ في عدد شباط (فبراير) ١٩٣٤ من المقتطف اصلح الطرائق الواجب اتباعها في نقل المصطلحات العلمية الى لغتنا العربية. ومن جملة ما ذكرتهُ في ذلك المقال ان الالفاظ التي تدلُّ معانيها على صفات بارزة في النبات او الحيوان تترجم الى العربية بمدلولات تلك المعاني . فالفاظ التصنيف في الحيوانات الدنيا كلها او معظمها لها معان . فينبغي اذن الرجوع الى اصلها اليوناني او اللاتيني وبعدئذٍ توضع لها ألفاظ عربية تفيد المعاني المذكورة إما تماماً او على وجه التقريب عند الحاجة الى الإختصار . وهذا ما قمت بهِ في هذا المقال الموجز . وقد سبقني الى بعض الالفاظ الواردة فيهِ اصحاب مؤلفات الحيوان والمعاجم (أو المعجمات) العلمية . ولكن نصف تلك الالفاظ على الأقل هي من وضعي او مما لي فيهِ نظر يختلف عن نظر المؤلفين المشار اليهم . ومن البديهي ان هذا البحث انما كتب لمن يشتغلون باللغة العربية والفاظها ولاساتذة الحيوان في مدارس التجهيز والجامعات . اما غيرهم فربما ملُّوا قراءته

***

يقسمون دوحة الحيوان (مملكة الحيوان) بادىء بدءٍ قسمين كبيرين كل منهما ردف دوحة (ردف مملكة) وهما اولاً الحيوانات التي يكون فردها خلية واحدة . ثانياً الحيوانات التي يتركب فردها من خلايا عدة

فالاولى تسمى Protozoaires واصلح لفظة تقابلها « حُيَيْوينات » وسماها بعضهم دُوَيبات وأوَّليات . والثانية تسمى Métazoaires ومعناها العديدة الخلايا وقد يفيد التعبير عنها بلفظة واحدة هي « الخَلَوِيَّات »

الحييوينات

تقسم الحييوينات ثلاث شعب (قبائل ، قَبِيَل برأي من درسوا بالانكليزية خاصةً) ففي الاولى يوجد حييوينات جوهرية خليتها خالية من غشاء يحيط بها . ويكون لها نواغض تسعى بها او تلتقط بها . ويسمونها Rhizopodes اي جذرية الاقدام . فاذا لزم ان نطلق عليها لفظة واحدة قلنا

« الجَـذْرِيَّات » . وفي الشعبة الثانية تكون الجبلة الاولى من خلية الحييوين محاطة بغشاء كما يكون لتلك الخلية أهداب تتحرك بها في الماء . وهي تسمى Infusoires اي « النـقـيعيَّـات » . اما الثالثة فهي شعبة الطفيليات المسماة Sporozoaires اي « الغُبَـيْـرِيَّـات » سميت كذلك لانها تتكاثر بواسطة غُـبَـيْـرات Spores (ولا تقل بزوراً) . وتكون خلايا بعض الغبيريات محاطة بغشاء وبعضها لا غشاء لها . وجميعها خالية من اهداب تتحرك بها

***

﴿ الجذريات ﴾ تقسم شعبة الجذريات قسمين . ردف شعبة « الجذريات الفصّية » Rhizopodes lobés وردف شعبة « الجذريات الشبكية » R. réticulés وفي الردف الاول صفان (طائفتـان) وهما اولاً صفٌّ « النغّـاضات » او « المتحوّلات » Amiboides وفيهِ ابسط الحييوينات المسماة Amibes ومعناها النغّـاضة او المتحوّلة او المتبدلة . ثانياً صف « الشمسيات » Héliozoaires وجميعهـا حييوينات مائية لها نواغض دقاق تشع حول الخلية ولذا سميت الشمسيات

اما الردف الثاني ففيه ايضاً صفان اولهما « الثقبيَّـات او « المثقبات » Foraminifères وثانيهما « الشعاعيات » Radiolaires ولـكل منهما صفات ليس ذكرها من متناول هذا المقال

***

﴿ النقيعيات ﴾ في شعبة النقيعيات Infusoires صفان الاول تتحرك حييويناته بأهداب طوال غلاظ قليلة العدد يندر ان يتجاوز عددها ست هدبات في الحييوين الواحد . ويسمون هذه الاهداب اسواطاً ولذا اطلقوا على هذا الصف اسم « النقيعيات السوطية » او « السوْطيّـات » Flagellés . اما الصف الثاني فله اهداب مهتزة صغار دقاق كبيرة العدد ربما بلغت ٢٥٠٠٠ هدبة في حييوين واحد . واسم هذا الصف « النقيعيات الهدبية » او الهُـدْبيات » I. ciliés

وفي كلٍّ من صفي السوطيات والهدبيات أربع رتب . فرتب السوطيات هي أولاً « السوطيات الجذرية » Rhizoflagellés وهي ببساطتها تقرب من الجذريات . ثانياً « السوطيات الأصلية » Euflagellés وفيها أهم خصائص السوطيات . ثالثاً « السوطيات المُـطَـوَّقة » Choanoflagellés ويكون سوطها محاطاً بطوق . رابعاً « السوطيات المثانية » Cystoflagellés وفيها حييوينات تشتمل أجسامها على فصفور مشع

أما صف الهدبيات فتقسيمه رتباً يقوم على شكل الاهداب في تلك الحييوينات . ورتبه الاربع هي : اولاً « كاملة الهُـدْب » Holotriches سميت كذلك لان أهداب الحييوين تـكسو كل جسمه . ثانياً « مختلفة الهدب » Hétérotriches ويكون في أهدابها ضرب يختلف عن الاهداب الاصلية . ثالثاً « قرصية الهدب » Discotriches ولها أهـداب تقوم على صفيحة كالقرص . رابعاً « تحتية الهدب » Hypotriches وأهدابها قد زالت اجمالاً الاّ حوالي الفم

ويقسمون السوطيات والهدبيات الى فصائل عدة يطول بنا نفس الكلام اذا ما رحنا نستقصيها

***

﴿ الغُبَيريات ﴾ جميع الغبيريات طفيليات تعيش في أجسام غيرها من الكائنات . واسمها مشتق من الغبيرات لأنها تتكاثر بها . وفي هذه الشعبة صفان مهمان . اولاً « الحَبَيِّيات » Coccidiens وجميعها كروية الشكل صغيرة القد تعيش واحدتها في خلية من خلايا مضيفها من الفقاريات والرخوة خاصة . وفيها أشكال كالغبيريات الدموية Hémosporidies و« الغبيريات اللحمية» Sarcosporidies و « الغبيريات المخاطية » Myxosporidies و « الغبيريات الدقاق » Microsporidies

أما الصف الثاني فهو يسمى بلفظة Grégariniens لم اهتد الى أصلها فيما حوته خزانة كتبي من المراجع

الخلويات

اختلف علماء الحيوان في كيفية تقسيم الخلويات الى شعب ، وقد اتبعت أحد هذه التصنيفات فكان على الصورة الآتية : يقسمون الخلويات بادئ بدءٍ قسمين كبيرين كل منهما فوق شعبة وهما . « الحيوانات النباتية » Phytozoaires و «الحيوانات المتناظرة أو المتناظرات» Artiozoaires ففي القسم الاول ثلاث شعب معروفة وهي « الإسْفَنجيّات » Spongiaires و « المُجَوَّفات أو مجوفات البطون » Coeulentérés و « الشَوْكيّات أو شوكيات الجلد » Echinodermes . أما القسم الثاني ففيه شعب « الديدان » Vers و « أشباه الديدان أو وحيدة الشعبات » Vermidiens ou monomérides و « الرَخوة أو الهُلاميّات » Mollusques و « المَفصليّات » Arthropodes و « الحبليات » Cordés

***

﴿ الاسفنجيات ﴾ تعيش معظم الاسفنجيات في البحر لاصقة بالصخور شأن كثير من الحيوانات النباتية . وفي أصقالها شبكة من ألياف متشابكة يسمونها « سُنَيبلات » Spicules . وتختلف مادة هذه السنيبلات . وعلى اختلافها يبنون تصنيف الاسفنجيات فيجعلونها على صفين : « الاسفنج الكلسي » Eponge calcaire و « الاسفنج الرملي » E. siliceuse كما أنهم يبنون على شكل تلك السنيبلات تصنيف الاسفنج الرملي وتقسيمه الى رتب مثل « سداسية الفروع » Hexactinellidés و «رباعية الفروع» Tétractinellidés و«وحيدة الفروع» Monactinellidés . وهنالك رتبة « الاسفنج القرني » Cératospongiés لها اصقال مؤلفة من الياف قرنية متشابكة واليها ينسب الاسفنج الشائع

﴿ المُجَوَّفات ﴾ الجوفات أو مجوفات البطون من اكثر الحيوانات عدداً وانتشاراً في المياه . ومعظمها بحرية . ويسمونها زهر البحر لما لها من الاشكال الجميلة والالوان الزاهية ، واليها ينسب العُدار Hydre (عن معجم الحيوان) ورئة البحر أو فرج البحر Méduse واضرابهما

وتقسم هذه الشعبة الى أربعة صفوف وهي اولاً « العُدارات الرئوية » Hydroméduses ثانياً « المرجانيات » Coralliaires ثالثاً القُرَّاصيات Acalèphes رابعاً «المِشْطيَّات» Cténophores

فصف العُدارات الرئوية يحتوي على ثلاثة روادف وهي ردف صف «العُداريات» Hydroïdes وردف صف « الرئويات الخشنة او رئويات البحر الخشنة » Trachyméduses ثم ردف صف « المِمَصّيات » Siphonophores (من السيفون وهو المِمَصّ)

وفي العُداريات ثلاث رتب : « العُدارات » Hydraires و« الجُرَيسيات او الجُلجُليات » Campanulaires والعدارات المرجانية « Hydrocoralliaires

وفي صف المرجانيات بعض من الرتب وتحت الرتب مثل المُشِعَّات Actiniaires وغيرها

***

﴿ الشوكيات ﴾ تشتمل شعبة الشوكيات على حيوانات متجانسة كبيرة العدد تعيش في البحار وتتركب من جسم له شكل نجمة ذات خمس شعب إجمالاً . تقسم الشوكيات خمسة صفوف وهي اولاً « النَجميات » Stellérides وفيها نجم البحر المعروف وغيره من الحيوانات تتجلى فيها خصائص الشوكيات المهمة . ثانياً « قُنفُذيات البحر» Echinides واليها تنسب قنافذ البحر التي لا تكون فيها الشعب الخمس جلية كما هي في نجوم البحر . ثالثاً « الصِلّيَّات او أذناب الحية » Ophiurides سميت بالاسم الأخير لأن شعبها الخمس تشبه الحيات في حركاتها حول مركز الجسم . رابعاً « قِثائيَّات البحر » Holothurides وفيها خيار البحر او قثاء البحر وغيره من الشوكيات التي تشبه النبات المسمى بهذا الاسم . خامساً « النَوْريّات » Crinoïdes وشكلها ابعد الشوكيات عن شكل نجم البحر او قنفذ البحر فهي تشبه ازهاراً قائمة على اعناقها ولذلك سميت بما ذكر

***

﴿ الديدان ﴾ الدود او الديدان حيوانات لافقار لها ولا مفاصل حتى عندما يكون جسمها مركباً من اجزاء متصلة. وثمة اختلاف بين العلماء في تصنيفها شأنهم في تصنيف كثير من الحيوانات السائرة . ونحن نذكر احد هذه التصنيفات وقد لا يكون اصلحها لان غايتنا من هذا المقال وضع الالفاظ العربية لاقسام المصنفات ليس غير . تقسم شعبة الديدان ثلاثة اقسام كل منها ردف شعبة وهي «المُفلَطحات» Plathelminthes و« الحَلَقيات » Annelés و« الخَيْطيات» Némathelminthes

فالدود المفلطحات سميت كذلك لاشكال معظمها المفلطحة وان كان بعضها غير مفلطح . وليس لجهازها الهضمي مخرج او فتحة . وليس لها جهاز للتنفس ولا جهاز لدوران الدم . ومعظمها خناث

طفيليات . وفيها ثلاثة صفوف « المُهتَزّات » Turbellariés ولها اهداب مهتزة تكسو جسمها وهي تعيش في الماء الحلو او الملح . و« المُنقّطات » Trématodes وتشتمل على دود مفلطحة قصار لا أهداب لها بل لها افواه كالمحاجم . و« الشَريطيّات » Cestodes وهي طفيليات مركبة من قطع متتابعة منها الدودة الوحيدة (تينيا) المعروفة التي تعيش في جوف الانسان . وهنالك جماعة من الدود مفرطة في طولها ربما بلغ طول واحدتها ثلاثين متراً بعرض خمسة مليمترات فهي اذن اطول الحيوانات على الاطلاق ولذا سميتها « السَلهَبيات » ويسمونها بالفرنسية Némertiens وهم يلحقونها بالمفلطحات وبعضهم يلحقها بالمهتزات مع ان لجهازها الهضمي مخرجاً ومع ان لها جهازاً لدورة الدم ومع ان فيها ذكوراً واناثاً

اما الدود الحلقيات فلها اجسام طوال مجزءات قطعاً تفصل بينها حواجز . وهذه القطع او الحلقات تشتمل على زوائد يتحرك الحيوان بها وأظهرها زغب شائك . وللحلقيات صفوف ورتب منها « الهلباء » Polychètes وهي دود بحرية في الغالب يكثر فيها الزغب ولذا سميت الهلباء . ومنها « المعْراء » Oligochètes وهي على العكس من الاولى تقطن اليابسة او المياه الحلوة . زغبها قليل واليها تنسب دود الارض أي الخراطين Terricoles ودود المناقع Limicoles . ومن الحلقيات ايضاً « العَلَقيات » Hirudinées نسبة الى العلق المعروف وفي هذا الصف رتبتان « الخرْطوميات » Rhynchobdellidés و« الحنكيات » Gnathobdellidés

واما الخيطيات فلها اجسام مستطيلات او اسطوانيات او مغزليات. وهنَّ خاليات من الاهداب المهتزة . ولهنَّ رداء او جلد شفاف قاس شبيه بالذي يكون في الحشرات . ولهذا يفصلها بعض علماء الحيوان من شعبة الديدان ويجعلونها شعبة مستقلة هي اقرب الى المفصليات منها الى الديدان . وفي الخيطيات صفان مهمان وهما اولاً « الاسطوانيات » Nématodes واكثرها تعيش طفيلية في اعضاء الانسان كالصَفَر او الصَفار او الصُفار Ascaride والمعقوفة Ankylostome والهُدابة Filaire (سماها الدكتور حبيب صادر عرقة في كتابه « الامراض المعدية في البلاد العربية » ولم اجد في جملة معاني العرقة معنى لصفات الدودة المذكورة) . ثانياً « شائكات الرأس » Acanthocéphales وفيها دود تعيش في جوف الخنزير وبعض الطيور

***

✻ اشباه الديدان ✻ يسمونها ايضاً وحيدة الشعبات. وهي حيوانات لها اشكال مختلفة وصفات بعضها قريب من صفات الديدان ومنها حيوانات صغيرة هي اصغر الخلويات . وصفوفها ثلاثة . « الدوّارات او الدولابيات » Rotifères و« الطُحلبيات » Bryozoaires و« عَضُديات الاقدام » Brachiopodes

﴿ الهلاميات ﴾ يسمونها ايضاً الرخوة . ومن ابرز صفاتها وجود المحارات او الصدفات الكلسية فيها . واجسامها رخوة بلا اعضاء قاسية ولا اجزاء مفصولة . وليس لجلودها شعر ولا شوك . وهي منتشرة في انحاء الارض في البحار والأنهار والأحواض والمناقع . وعدد انواعها عظيم لكن صفوفها المهمة ثلاثة وهي اولاً « مزدوجات الصدف او ذوات الصدفتين » Bivalves ou Pélécypode ثانياً « المعديات او معديات القوائم » Gastéropodes ثالثاً « الرأسيات أو رأسيات الارجل » Céphalopodes

فذوات الصدفتين تشتمل على رتب منها « مختلفة العضل » Anisomyaires و « متساوية العضلتين » Dimyaires . والى صف ذوات الصدفتين تنسب الميدية والاستريدية ومحار اللؤلؤ وغيرها كثير

أما صف المعديات ففيه ردف صف « قُدَّامية الخياشيم » Prosobranches ومنها رتبة « وحيدات الأُذين » Monotocardes ورتبة « مزدوجات الأُذين » Diotocardes ورتبة « مختلفات الأذين » Hétérocardes

وفي صف المعديات ايضاً ردف صف « خلفية الخياشيم » Opisthobranches وفيها الرتب الآتية:

مستورة الخياشيم أو مغطاة الخياشيم Tectibranches

جُرَابية اللسان أو زِقية اللسان Ascoglosse

عريانة الخياشيم Nudibranches

جناحية الارجل Ptéropodes

وثمة ردف صف ثالث للمعديات وهو « الرئويات أو المعديات الرئوية » Gastéropodes pulmonés وفيه رتبة « ريشية الاعين » Stylommatophores ومنها البزّاق المعروف . ورتبة « دُعامية الاعين » Basommatophores وفيها أنواع كثار تشبه البزاق

واعلى صفوف الهلاميات في التصنيف صف الرأسيات المار الذكر . وأعضاء هذه الحيوانات متكاملة تشبه أعضاء الفقاريات في بعضها . وجميعها بحرية . وكثير منها يصاد ويؤكل . وفيها رتبتان « رباعية الخياشيم » Tetrabranches ومزدوجة الخياشيم Dibranches . والرتبة الثانية تشتمل على « الأخطبوطيات » Octopodes وهي ثُمانية الاقدام وعلى « عُشَارية الأقدام » Décapodes ومنها الحبّار أو السَّبيدَج وهو باللسان العلمي Sepia وبالفرنسية Sèche

هذا ما رأيت درجه في هذا المقال من أهم الالفاظ المستعملة في تصنيف الحيوانات الدنيا . ولا أدعي العصمة فيما وضعته ولا فيما عدلته من الالفاظ العربية . وانما هي محاولة حاولت فيها القاء دلوي بين الدلاء فيكون امام المسئولين عن وضع معجم المصطلحات العلمية المرتقب مادة جديدة ينظرون فيها اذا شاءوا وشاء لهم مبلغ علمهم بهذه الامور . وبقي لاتمام هذا البحث الصغير ان اذكر الالفاظ المختصة بالمفصليات وأخص منها الحشرات . ولما كان عدد هذه الالفاظ كبيراً وكان يوجد منها لديّ شيء كثير مما خلت منه المعجمات الاعجمية العربية المعروفة ارجأت ذكرها للعدد القادم

اذا استشفيت من داءٍ بداءٍ

حمى تشفي من الشلل الجنوني

بطلُ هذه القصّة ، رجلٌ يُدعى ڤاجنر يورجْ . اذا نظرتَ اليهِ حسبتَهُ أُستاذاً مسالماً ، لا ثائراً في نفسهِ روح الحرب والنضال ، التي مكّنتهُ بعد كفاح ثلاثين سنة من ان يضع في ايدي الناس،وسيلة ، تقهرشلل المجانين الناشىء عن الاصابة باكره الامراض وأشدّها فتكاً نعني الحلَق[1]

ان الميكروب الحلزوني المخيف الذي يسبّب هذا الداء من افتك الميكروبات بالانساج ، ومن ابرعها في ابتداع الوسائل للاختفاءِ عن النظر ، والابتعاد عن وسائل الاطباءِ في مطاردتهِ . والداء الذي يحدثهُ هو والسرطان من اعظم اللعنات التي اصيبت بها الانسانية . ولكن طائفة من الرجال ، الشجعان ،وقفوا حياتهم علىهذا الكفاح ، وفي مقدمتهم شجاعةً وصبراً وابتكاراً صاحبنا ڤاجنر يورجْ

كان عملهُ مقتصراً على التطبيب النفساني ، وهو من جميع فروع الطبّ ، اقلُّها فائدةً في دفع الموت . ولكن هذا الرجل المسالم ، البعيد عن عمل الطب الحقيقي ، قلب ناحيةً من تعاليمهِ رأساً على عقب ، فأثبت ان الحُمّى ، وقد كانت تحسب اعدى عداة الانسان ، ليست الاّ ناراً يشوى في اتّونها ، هذا الميكروب المخيف ، باعث الشلل الجنونيّ في الانسان

ان عملهُ يبعث على الدهش والاعجاب ? فلقد استعمل داءً عياءً لمعالجة داءٍ عياءٍ . بل انهُ مهّد السبيل لرجلٍ لا صلة لهُ بالطبّ ، فاستنبط وسيلةً لهذا النوع من العلاج ، لا تنطوي على المخاطر التي تنطوي عليها معالجة داءٍ بداءٍ

***

انقضت عليهِ ثلاثون سنة وهو يتقلّب بين الامل واليأس، بين النجاح والاخفاق ، الى ان كان يومهُ العظيم في ١٤ من يونيو سنة ١٩١٧ . في ذلك اليوم التاريخي ، جمع ڤاجنر يورج شجاعتهُ ، وحقن في وريد ممثل مصابٍ بشلل الحاق ، قطيرات من الدم تعجُّ فيها جراثيم البرداءِ (الملاريا) . كان في الستين من عمرهِ ، حينئذٍ،وكان عملهُ اقرب الى الخيبة منهُ الى النجاح ، وكان قد انقضى عليهِ ثلاثون سنة ، مذ أُلهِم ، ان نار الحمى ، تطرد من ادمغة المصابين بهذا النوع من الشلل ، غيوم الجنون

(١) الحلق استعمله امرؤ القيس ويقول الباحثون ان القرائن تدل على أنه عنى به ما يدعى في عصرنا بالسفلس

ارتدَّ بنظرك اليهِ ، وهو واقف في منتصف العقد التاسع من القرن الماضي ، امام سرير امرأة لا تزال في السابعة والعشرين من العمر ، وقد تحوّل فيها اضطراب الاعصاب ، عقب ولادتها ، الى جنون لا يشفى . كان يعلم ان جميع الاساليب في جعبة طبهِ النفساني ، لا تجديها نفعاً

وكان قد قضى ست سنوات يدرس علوم الطب ، حتى فاز بشهادةٍ ولقب . ولكن التنافس في الخفاء ، حرمهُ من منصب وُعد بهِ . فتألم ولكنهُ انطوى على ألمهِ . وقرَّر ان يهجر بلادهُ ويجيء مصر . بيد ان ضميرهُ القى اليهِ بهمسة ، مؤداها ان استزد علماً قبل ذهابك الى مصر . فلم يجد امامهُ الاَّ عيادة المجانين يقوم عليها طبيب شيخ يدعى ليدسدورف . فانيح له ان يقف الى جانب سرير هذه المرأة

هنيئاً لها انها مقبلة على الموت ! كانت قد اتت العيادة ، وهي تقول ان الشياطين تزعجها . ثم اشتدَّ بها الجنون الهائج تلتهُ فترة من الحرد والانكماش عن الناس . وها هي الآن وقد انقضت عليها خمسة اشهر وهي لم تكلّم احداً . ان وجهها صفحة لا يرتسم عليها اي اثر من آثار العقل والذكاء ، فهي والحيوان سواءٌ ، بل هي دون الحيوان في ذلك

ثم اتفق ان اصيبت المرأة بالحمى التيفودية . وكانت اصابتها حادة ، فصارت تتشنج تشنجاً عنيفاً ، وفاجنر يورج ، ملازم سريرها ، منتظراً وفاتها . ثم وقف تشنجها ، وتراخت اعضاؤها في غيبوبة ، وهو يجأر الى الله ، ان ينقذها من الالم قبل ان تفيق . ولكن المرأة افاقت ، فشفيت من الحمى ، وشفيت كذلك من الجنون

فعدل فاجنر يورج عن السفر الى مصر ! ألَمْ يتسرّع في اتخاذ هذا القرار ؟ ألم تكن عجيبة شفاءِ المرأة من الحمى والجنون اشبه بالقشة الطافية على سطح البحر ، يتعلق بها المشرف على الغرق ؟ ألم يكن رجلاً قد تلقى أساليب العلم ، فدلهُ علمهُ على أن شفاءَ المرأة من اصابتيها جاءَ اتفاقاً ؟ حتى اذا كان شفاء الشلل الجنوني مصاحباً للاصابة بالحمى التيفودية ، فمن يأذن لهُ في اقامة الدليل على ذلك ؟ من يسمح له بتعريضه عمداً للموت بالتيفودية ، على أملْ شفائه من الشلل والتيفودية معاً ؟

ولكن حادثة المرأة التي تقدم ذكرها ، تركت اثراً في نفسهِ لا يمحى . فاكبَّ على كتب المتقدمين من الحكماء . بل رجع الى ابقراط المعروف بأبي الطب . فوجد في بعض ما يعزى اليهِ من الكتب انهُ رأى مصروعين يشفون من صرعهم بعد اصابتهم بالبرداءِ ثم قرأ في مجلد آخر قديم ان الكوليرا في فرنسا اكتسحت احد البيمارستانات ففتكت بمعظم قاطنيهِ ، ولكن الذين نجوا منها ، استعادوا نعمتيْ العقل والاتزان

قصص اذا أُلقيت عليها ضوء العلم ، حكمت بأنها الى الاساطير والخرافات اقرب . ولكن فاجنر يورج ، كان يقضي نهاره يجول في اجنحة المجانين في المشافي ، وليله مكبًّا على هذه الكتب القديمة يحاول ان يتبين بين سطورها طريقاً هادياً

واذ كان يجول في احد الأيام ، رأى امرأة ، كانت أمًّا لها تسعة اولاد ، ولكنها جنّت ،

فأتي بها الى المستشفى وهي حاملٌ . واصيبت بعد الولادة بالحمرة ، وما انقضت عليها اربعة أشهر حتى كانت في دارها ، سليمة الجسم والعقل معاً

فعاد الى كتب الطب الحديثة ، لعله يستشف في صفحاتها شعاعاً يهديه ، او يفسر له ما يرى بأمّ عينه . فوجد حوادث متفرقة فملت فيها الاصابة بالتيفوس او بالنزلة الصدرية ، فعل الحمى التيفودية أو الملاريا او الحمرة . بل انهُ عثر على تجربة لرجل يدعى لودوِجْ مايَرْ . فقرأ أن هذا الرجل اخذ مرهم الانتيمون ، وجعل يفرك بهِ شواة (جلد الرأس) المصابين بشلل المجانين فتقرحت واصيبوا بحمى فشفي بعضهم من الحمى ومن الجنون . فضحك العلماء من لودوج ماير وتجربتهِ ، ونسجت عناكب النسيان ستاراً كثيفاً حولها

وكتب فاجنر يورج مذكرة بما رأى وقرأ ، واقترح ان يحقَن المصابون الذين لا يرجى لهم شفاء بالحمرة والملاريا فلم يصغ اليهِ احد في اوربا . اما في اميركا فيقول الدكتور دهكروف انهُ ذهب في سنة ١٩٣٠ الى اكادمية الطب في نيويورك لمطالعة هذه المذكرة فوجد ان صفحاتها لم تُقَصّ ؟

***

ولكن الرجل اذا اندفع بشعلةٍ من الايمان لم يُصدَّهُ حائلٌ ما . بل قد تكون المعارضة والمقاومة ، مما يذكي في الرجل الحماسة ، فيندفع في سبيل غرضه ، لافحام المعارضين وكبت اصوات المقاومين . ولكن فاجنر يورج لم يلق من يعارضهُ ، ولا من يقاومهُ . وكان الاهمال نصيب ما يقول ، والاهمال على كل حال ليس من بواعث النشاط والحماسة في الغالب

ولكنهُ حاول ان يحقن بعض المصابين المُشفين بمكروب الحمرة فلم يصابوا بالحمى ولا شفوا من الجنون . ورغب في تجربة الملاريا فلم يرَ احدٌ من الحكمة انشاء عيادة في قلب فينا ، تكون بؤرة تنتشر منها الملاريا . كان ذلك قبل ايام رُسْ وغراسي اللذين كشفا كيف تنتقل الملاريا وكيف تعالج

وكذلك مضت عليهِ ثلاث سنوات ، وهو عاجز عن التقدُّم ، حتى وجد طريقة تمكنهُ من احداث الحمى في اجسام المصابين من دون ان تكون سبباً لتفشي الاوبئة في العاصمة . ذلك ان اوربا كانت معنية سنة ١٨٩٠ كل العناية ، بمادة التوبركولين ، التي استخرجها روبرت كوخ ، اعظم غزاة الميكروب ، من باشاس الدرن . وكان الامل الذي بعثتهُ هذه المادة في النفوس قد تحوَّل الى خوف من المخاطر التي يتعرَّض لها من يحقن بها ، لان مئات من الوفيات حدثت على اثر ذلك واصبح استعمالها يُنظر اليهِ بعين الريب

ولكن فاجنر يورج اقبل عليها . فقضى عشر سنوات يجرب التجارب بها ، حتى بعد ان رُقّي الى منصب استاذ في معهد فينا الطبي . جرَّب مئات التجارب ولكنهُ لما اهلَّ القرن العشرون ، راجع نتائج هذه التجارب ، فحكم بأنها الى الاخفاق اقرب . نعم كان قد شفي بعض الذين حقنوا بهذه المادة ، من جنونهم . ولكن تجاربهُ لم تكن قائمة على اساس علميّ . ذلك انهُ حاول ان يعالج بها

جميع ضروب الجنون ، على اختلافها ، وهو لا يدري ، ان نوعاً خاصًّا منها فقط يعنو لهذه الحمى

وكان فاجنر يورج رجلاً لا يخدع نفسه . كان في وسعهِ ان يذيع النجاح العظيم الذي اصابه في بعض الاصابات فلم يفعل . بل اعترف فيما بينهُ وبين نفسه ، انهُ اخفق . فجلس يتأمل في ضروب الجنون واسبابها فتبين ان اسباب معظمها مجهولة ، الاّ ضرب واحد اتفق الثقات على تعريفه وهو الشلل العام الجنوني ، وهو مرض لا يشفى بل يدوم سنوات ثم يفضي الى العُتْه والموت

فقرر في تلك الليلة التاريخية ، انهُ لن يحاول بعد الآن ، ان يعالج بالحمى ، الاّ المصابين بهذا النوع من الجنون — أي الجنون الناشيء عن الشلل العام الذي سببهُ الحلق (السِفْلِس). وكذلك استعان في سنة ١٩٠١ بطبيب يدعى « پلكز Pilcz » فجعلا يحقنان بالتوبركولين جماعة من المجانين في بيمارستان شتينوف . كان بعضهم مصاباً بالعته وآخرون بالمالنخوليا فكانوا على وشك الانتحار ، وغيرهم بجنون العظمة والعبقرية او اضطهاد الناس لهم . لم يعرَفْ من قبلُ ان مجنوناً دخل هذا البيمارستان وخرج حيًّا لان الموت كان محتوماً على جميع المصابين طالت حياتهم او قصرت

***

ومضت بضع سنوات كشف في خلالها عن سبب الشلل الجنوني العام . كان العلماء قد ظنُّوا قبل ذلك ان هذا النوع من الشلل سببهُ ، مكروب الحلَق الحلزوني . ولكن في سنة ١٩٠٦ طبق اوغست فون ڤاسرمن الكاشف الذي استنبطه بورديه البلجيكي ، لاكتشاف مكروبات الحلق في ثنايا الجسم . وهو كاشف ڤاسرمن المشهور . وفي السنة نفسها طبق ڤاسرمن هذا الكاشف على سائل الحبل الشوكي في المشلولين (الكلام في المقال خاص بالمصابين بهذا النوع الخاص من الشلل ولذلك نكتفي بذكر المشلولين) فتبين له ان مكروبات الحلق مختفية في الدماغ . وفي سنة ١٩٠٨ تأكد فاجنر يورج ان ٩٩ في المائة من هؤلاءِ المشلولين ، يخفون في ثنايا دماغهم هذه المكروبات

وفي سنة ١٩٠٩ عقد مؤتمر طبي دولي في بودابست فقرأ فاجنر يورج رسالة امامهُ ، بسط فيها نتائج معالجة المشلولين بالتوبركلين . كان قد اخذ تسعة وستين مصاباً وحقنهم حقناً متوالية بالتوبركلين . وترك تسعة وستين آخرين من دون حقن . فكانت النتيجة ان ثمانية من الفريق الاول وخمسة من الفريق الثاني ، ظلوا على قيد الحياة . وهي نتيجة ضئيلة لا يمكن ان يبنى عليها حكم عام

ولكنهُ لم يقنط . فمضى في تجاربه ، كأنه يجري وراء سرابٍ . والانكى في كل هذا ان بعض المصابين كانوا يشفون بهذا العلاج ، فيغتبط فاجنر يورج ، ثم تمضي شهور ، واذا هم يعودون اليهِ ، فيتبين فيهم انهم على طريق القبر . فيأسف اشدّ الاسف ، من دون ان يسمح للقنوط والوهن ان يتطرقا الى نفسهِ

فلما كانت سنة ١٩١١ تبيَّن شعاعة من الامل . ذلك ان ارلخ كان قد صنع حقنته المشهورة المعروفة برقم ٦٠٦ وبعد التجربة ثبت انها تفتك بمكروبات الحلَق في ادواره الاولى ثم ظهر انهُ اذا

طال الزمن على هذه المكروبات وهي معششة في جدران الاوعية الدموية ، اصبحت منيعة حتى على حقنة ارلخ الفعّالة . فاذا هيجت استفاقت وهي افتك ما تكون ، فيكون في استفاقتها موت المصاب

فلما خاب امل فاجنر يورج في حقنة ارلخ مضى يستعمل التوبركلين . ولكنهُ حاول الآن ان يستعمله في المراتب الاولى من الشلل الجنوني . وفي سنة ١٩١٤ تتبع ٨٦ مشلولاً كان قد عالجهم في سنة ١٩٠٧-١٩٠٩ فوجد ان واحداً وعشرين منهم كانوا لا يزالون على قيد الحياة وان سبعة من هؤلاء يقومون بأعمالهم على اوفى وجه

ومن غرائب البله الانساني ، ان نتيجة كهذه لم تحدث أي اثر في دوائر الطب العالمية ، مع ان جميع الاطباء كانوا يعلمون ان اقصى مدة يعيشها مصاب بالشلل الجنوني العام قد لا تعدو سنتين!

***

واخيراً جاء يومه المشهود . كان يوم ١٤ يونيو سنة ١٩١٧ لما جاءه احد معاونيه واسرّ في أذنه ان في المستشفى جنديًّا مصاباً بصدمة القنابل وبالملاريا ، وسأله هل يعالجون الملاريا بالكينا . فتوقف ڤاجنر يورج قليلا . كان قد اشرف على الستين وهو يعلم انّ علاج التوبركلين اشبه بالسراب ، جرى وراءه ثلاثين سنة ، حتى اكتشف انهُ سراب

ها هي اساريرهُ تنقبض وتنفرج . لقد وصل الى قرار حاسم . ولكن هل يجرؤ على تنفيذه ؟ انهُ يعلم انّ الملاريا انواع منها ما هو حميد ومنها ما هو خبيث . وهو على كل حال ليس خبيراً بالملاريا . على ان الفرصة اثمن من ان تفوّت . فأسرّ شيئاً في اذن مساعده ، فانطلق هو واخوان لهُ يستخرجون من اذينة الجندي قطيرات من الدم ، حافلة بجراثيم الملاريا

ولكن ما العمل اذا اخذت الملاريا تنتشر في ڤينا وأحوال المعيشة فيها في السنة الثالثة من الحرب الكبرى اعسر من ان يضاف اليها وباءٌ مخيف ؟ ألاّ تلقى التبعة على كاهله ؟ ألاّ تسلقه الصحف بألسنة حداد ؟ ألاّ يحسب قاتلا عموميًّا ؟ ولكن ڤاجنر يورج لم يفكر في تلك الساعة في شخصه . بل رأى بعين الذاكرة ، مواكب المشاولين المجانين ، يمرّون امامهُ موكباً اثر موكب ، خلال ثلاثين سنة من الممارسة الطبية وهو يعالجهم بالتوبركلين ، فلا يقضي لبانة . اين هم الآن ؟ معظمهم قد لقي حتفه واقلهم قد شفي . أما كيف شفوا فلا يعلم الاّ الله

لذلك صمم ڤاجنر يورج في ١٤ يونيو سنة ١٩١٧ ان لا يعالج الجندي المصاب بالملاريا بالكينا . ولكنهُ مبالغةً في الحيطة ، بعث بطائفة من معاونيه يبحثون في جوار المستشفى عن البعوض الناقل للملاريا فلم يجدوه . عند ذلك اخذ الدم المستخرج من عروق الجندي ، ووضع قطيرات منهُ في خدش ممثل مصاب بالشلل الجنوني ، وقطيرات اخرى في خدش احد موظفي البريد . وأعيدت التجربة سبع مرات في خلال الشهرين التاليين . وانقضت عشر سنوات فماذا احدث في خلالها ؟ في سنة ١٩٢٧ كان ثلاثة من المصابين التسعة الذين حقنوا بجراثيم الملاريا ، يزاولون اعمالهم ،

ويكسبون رزقهم بعرق جباههم وهم اوفر ما يكونوا صحة عقلية وجسدية . كانت جراثيم الملاريا قد رفعت حرارتهم الى ما فوق الاربعين بالميزان المئوي ، وكانت القشعريرة التي تصيبهم ، تجعلهم ينتفضون في السرير انتفاضاً ، حتى لتحسب ان جنونهم قد ثار واشتدَّ ، وكانت صيحاتهم تتعالى فترنُّ اصداؤها مزعجة مخيفة . ولكن ثلاثة من تسعة خرجوا من هذا الأتون وقد صهروا فيه الادران التي جعلتهم الى الحيوانات اقرب منهم الى الانسان العاقل . ولكن ماذا حدث للباقين ؟ مات احدهم — موظف البريد — في خلال تشنج عنيف اصيب بهِ عند حلول دور القشعريرة الملارية. واما الاربعة الآخرون ، فكانوا قد حقنوا على ما يظهر بجراثيم نوع خبيث من الملاريا ، فمات ثلاثة منهم وانقذ الرابع باعطائه جرعات كبيرة من الكينا . وكذلك تعلم فاجنر يورج انهُ اذا حُقِن المصابون بالشلل الجنوني ، بجراثيم الملاريا الحميدة ، شفتهم حمّاها من اصابتهم الاولى ، ثم تشفيهم الكينا من اصابتهم الثانية . وهذه حقيقة جديدة في كفاح الانسان ضد المرض والموت

***

بيد ان الشيء الوحيد الذي عكَّر على فاجنر يورج صفو انتصارهِ ، كان انَّ ثلث الذين عولجوا بالملاريا شفوا واما الثلثان الباقيان فلقيا حتفهما . ولكن لا غرابة في ذلك لان نسيج الدماغ اذا هرأهُ مكروب الحلق لا يستطيع ان يُرمّم نفسهُ كما يفعل العظم اذا كسر او كما يفعل نسيج العضل او الكبد او غيرها من نُسُج الجسم . فكأن الثلثين من المصابين الذين عولجوا بالملاريا ، جاءهم العلاج بعد فوات الاوان

هنا شرع هذا المكافح الشديد الشكيمة ، يفعل ما يقضي بهِ المنطق . شرع يعالج المصابين بالشلل الجنونيّ العام ، عندما تبدأ الاعراض بالظهور عليهم ، اي عندما تبدو عليهم اعراض الاعياء ، وتثبت الكواشف ان مكروب الحلق مختفٍ في ثنايا ادمغتهم ولكن قبل ان يفتك بنسيجها. فكانت نتيجة هذه التجربة ، وقد وضحت له معالم الطريق ، ان ثلاثة وثمانين من مائة مقضيٍّ عليهم بالموت المحتوم ، شفوا وعادوا يزاولون اعمالهم وهم على احسن ما يكون صحة ونشاطاً

ولكنهُ لم يكتفِ بهذا . والطبيب اذا اكتشف اسلوباً من العلاج ، ينقذ بهِ ٨٣ في المائة من الموت المحتوم ، ميّال في الغالب الى التحكّم والقول بان طريقتهُ خير الطرائق . الاّ ان فاجنر يورج لم يفعل ذلك بل مضى في تجاربهِ وامتحاناته . وبعد قليل صرّح في رسالة علمية ، انهُ اذا تبعت المعالجة بالملاريا ، حقنٌ كبيرة من مركب ارلخ (٦٠٦) كانت النتائج اوفى ما يمكن ان تكون . وجعل شعارهُ في رسالتهِ هذه ما معناهُ : ليست المسألة مسألة تفضيل طريقة من العلاج على اخرى بل الوصول الى اوفى طرائق العلاج والشفاء

اما كيف تحوّل الملاريا ، حقنة ارلخ ، في هذا الدور من العلاج ، من شيءٍ لا يفيد الى شيءٍ يفيد ، فلا يزال من الاسرار . يقال ان حمّى الملاريا لا تشوي جميع المكروبات كل الشيّ . فهل

تضعف ما لا تشويه ، فتمدهُ لفعل مقذوفات الحقنة ؟ او هل تنشئ الحمى في جسم الانسان ، مكافحاً جديداً للميكروب فيجهز عليهِ ؟ او هل هي تحوّل النسيج الحائل degenerate في دماغ المصاب الى نسيج سليم ، فتعدّ الطريق لمقذوفات ارلخ الزرنيخية لتكتسح الميكروبات المختفية في ثناياه ؟

وفي سنة ١٩٢٧ كان هذا الرجل المحسن الى الانسانية ، قد بلغ السبعين . وكان على وشك ان يعتزل منصب الاستاذ في معهد فينا الطبي . فاجتمعت طائفة من تلاميذه واعوانهِ وغيرهم ممن كان مديناً لهُ بالحياة والعقل للاحتفال بهِ . وكان العالم قد اعترف بيدهِ على الانسانية لما منحتهُ لجنة نوبل جائزة نوبل الطبية . ولكنهُ كان شارد الفكر في ذلك الاحتفال ، لانهُ وحده كان يدري ، ما يزال امامهُ من الكفاح مع انهُ في السبعين !

وهل تحول السبعون دون الكفاح ؟ ان في هذا الرجل نفحة من بيتوفن ، الذي مات في التسعين من العمر ، متحدياً العاصفة الثائرة خارج داره ، وهو يلفظ نفسهُ الاخير

ان الملاريا تشفي من الشلل الجنونيّ العام ، اذا كان المرض لم يبلغ من فتكه بنسج الدماغ مرتبةً بعيدة . ولكن الطبيب الجنديّ ، يبغي ان يمنع الشلل العام . وفي هذا الميدان يرى الفائدة الصحيحة لطريقة العلاج بالملاريا . لماذا لا يعالج بها ، الذين يثبت وجود مكروب الحَلَق في اجسامهم ، قبل ان يصابوا باعراض الشلل الجنوني الاولى ؟ لماذا لا يحال بينهم وبين الشلل الجنونيّ على الاطلاق ؟

وكان كيرل Kyrle ، احد كبار الاطباء في قسم الحَلَق بعيادة الدكتور فنجر بفينا من الذين اصغوا اليهِ ، وهو يتحدّث بهذا ، ولكنهُ لم يأنس من نفسهِ اندفاعاً الى تجربة ما يقول . بيد انهُ في احد الايام في سنة ١٩٢٢ ، كان يتنزهُ مع ڤاجنر يورج فقال له انهُ قد بدأ التجربة ...

استعمل كيرل جميع وسائل الاغراءِ والاقناع ، ليحمل هؤلاء المصابين ، وهم لا يزالون في الظاهر في عنفوان صحتهم ، ان يقامروا هذه المقامرة ، بالرضوخ لهذا العلاج . فحقنهم اولاً بحقنة ارلخ الجديدة — ٩١٤ بدلاً من ٦٠٦ وهي تدعى نيوسلفرسان — ثم ادخل جراثيم الملاريا في اجسامهم وتركهم يتقلبون في نار حمّاها وارتجاف قشعريرتها ، ثم شفاهم من الملاريا بالكينا ثم حقنهم بالنيوسلفرسان ثانية . والنتيجة ... ! كانت النتيجة ان واحداً من المئات الذين عولجوا بهذه الطريقة لم يصب بالشلل الجنوني العام ، وقد انقضت نحو تسع سنوات على ذلك . بل هناك ما هو اغرب من الحيلولة بينهم وبين الشلل الجنوني . فقد اثبتت هذه التجارب ، ان هذه المعالجة ، تعدّ الجسم ، لمساعدة حقنة ارلخ الزرنيخية على قتل المكروبات . وبذلك تفسّر عجزها السابق الذي حيَّر العلماء

فلما حصل كيرل على نتائجهِ الاولى ، اندفع من غير ان يحثّهُ صديقهُ الشيخ ، ووجد كما وجد ڤاجنر يورج قبلاً ، ان التبكير في اشعال نار الملاريا في اجسام الملوّثين بهذا المكروب الخاتل ، اهدى الى النجاح . كان كيرل قد عالج ٢٥٠ مصاباً بهذه الطريقة ، وها هم قد فحصوا جميعاً ، وامتحنت دماؤهم فثبت ان دماءهم جميعاً — الاَّ ثلاثة — خالية من ميكروب الحَلَق ، على قدر ما يستطيع

العلم الحديث ان يتبيّنهُ بأدق الكواشف . ومات كيرل في سنة ١٩٢٦ ولكن المشعال الذي سلّمهُ اياهُ فاجنر يورج ، انتقل الى يد مهندس كهربائيّ في اميركا يدعى هوتني

***

القِ نظرة على احد معامل البحث في الشركة الكهربائية العامة ترَ فيه انابيب الراديو تمض وتظلم . ولكنك لا تسمع محادثة دائرة بين قارتين ، بل تشهد طائفة من الاطباء ومساعديهم وقد ارتدوا ملابسهم البيض ، وهم يحاولون ان يمتحنوا آلة جديدة الغرض منها استعمالها في علاج بعض الامراض . ذلك ان الامواج اللاسلكية القصيرة التى تنقل الاصوات بين البلدان النائية ، تؤثر كذلك تأثيراً غريباً في جسم الانسان والحيوان اذا جمِعت ووجّهت اليه ، فترتفع حرارته عند اختراقها له ويصاب بحمى عالية

افلا يمكن ان تستعمل هذه الطريقة الطريفة في معالجة الشلل الجنوني بدلاً من الملاريا ؟ فالطبيب ليس معصوماً عن الخطإِ . والملاريا اصناف منها الحميد ومنها الخبيث . فالخبيث منها مميت في الغالب . بل ان الحميد منها قد يستعصي احياناً ، يظهر آناً ويكمن آخر . والاصابات الملارية المتعاقبة تنهك الجسم وتفقر الدم . أفلا يستطيع الاطباء ان يستعملوا هذه الحمى التى تحدثها الامواج اللاسلكية ، لما استعملت له حمى الملاريا ، وتكون في الوقت نفسه خاضعة لسيطرتهم كل الخضوع ؟

جاءت الاشارة الاولى ، الى امكان استعمال الاشعة القصيرة في هذا السبيل من الدكتور وِلسْ هوتني ، مدير قسم المباحث في الشركة الكهربائية العامة في سكنكتدي نيويورك . ذلك انه وجد ان العمال المشتغلين بآلات الاذاعة اللاسلكية التي تستعمل امواجاً قصيرة ، يصابون بحمى لم يعرف لها سببٌ طبي . فوجّه طائفة من الباحثين الى البحث عن وسيلة تمكنهم من ضبط هذه الامواج ، وتحقيق اثرها في الجسم ، ومعرفة تفصيلات فعلها في احداث الحمى ، لعلّ الاطباء يهدون السبيل الى استعمالها في معالجة بعض الامراض

فبنيت الادوات الكهربائية اللازمة في معامل الشركة المذكورة وعهد الى الدكتورة هلن هُسمَر من كلية ألبني الطبية في امتحانها . فوجّهت اشعتها في احد امتحاناتها الى ضفدع صغيرة فارتفعت حرارتها ١٢ درجة . ثم جربتها في حيوانات مختلفة فارتفعت حرارة اجسامها . ثم وجهتها الى محلولات ملحية مختلفة فارتفعت حرارتها أيضاً . وللحال اصدرت تحذيراً يقضي بمنع توجيه الاشعة اللاسلكية القصيرة الى اجسام الناس قبل ان يزداد الباحثون معرفة بخصائصها وأثرها

وقد عني الدكتوران تشارلز كاربنتر والبرت پايج بصنع آلة متقنة لهذا الغرض وافلحا بواسطتها في رفع حرارة الجسم الانساني الى درجة تفيد في معالجة بعض الامراض من دون ان يصاب المعالج بضيق ما . وبعد تجارب كثيرة جرّبا آلتهما ورائدهما الحذر العظيم في معالجة بعض المصابين فوجدا ان بقاء حرارة المصاب مدة طويلة لا يعقبها أي ضرر

والآلة أشبه شيء بآلة لاسلكية عادية ولكن بدلاً من ان يكون لها سلك هوائي تنبعث منه الاشعة القصيرة في الفضاء لها لوحان من معدن الالومنيوم يدعيان « لوحا المكثف » Condenser Plates فتجمع بهما القوة الكهربائية داخل الآلة وتستعمل لرفع حرارة الجسم . وللآلة صندوق تحفظ فيهِ طوله ست اقدام وعرضهُ ثلاث اقدام وهو قائم على عجلات ليسهل نقله من مكان الى آخر في حجرة الامتحان

يُلقى المريض على ظهرهِ على رباطات قطنية متشابكة معلقة من هيكل خشبي جدرانهُ من نوع من السلولويد فكأنَّ الصندوق تحت المريض غرفة مملوءة هواءً . ويغطى المريض بلوح من السلولويد هو غطاء للصندوق فيحكم اقفاله فلا يظهر الاّ رأس المريض من احد طرفيهِ وكأنَّ المريض فيه معلق في غرفة محكمة السد . ويوضع لوحا التكثيف على جداري الصندوق كل منهما على جدار حتى تخترق جسم المريض الامواج التي تنبعث منهما . وسرعة التذبذب في هذه الامواج تتباين من عشرة ملايين موجة الى اربعة عشر مليوناً في الثانية . والمسافة بين اللوحين تتغير ولكنها تكون نحو ثلاثين بوصة عادة . ويغشى اللوحان بالمطاط منعاً لتطاير الشرر منهما . وللآلة اجزاء اخرى ولكنها ثانوية لا محل للتبسط فيها هنا . وقد تمكن الدكتور كاربنتر والدكتور پايج من رفع حرارة الجسم ٥ درجات او ست بميزان فارنهيت فوق درجة الحرارة الطبيعية وذلك في مدى ساعة الى ساعة وثلث . وبلغت درجة الحرارة في احدى الحالات ١٠٦و٥ بميزان فارنهيت ويستطاع رفعها الى اعلى من ذلك . ولكن الباحثَين ظنَّا صواباً ان الحذر يجب ان يكون رائدهما في بدء مباحثهما هذه خوفاً من تعريض الارواح لهذه الاشعة الفتاكة

ومتى بلغت حرارة الجسم الدرجة المطلوبة احتفظ بها اما بتخفيض قوة التيار او بابعاد لوحي التكثيف او باستعمال منفاخ يحرك الهواء الذي يحيط بالجسم ثم تأخذ الحرارة في العودة الى درجتها الطبيعية تدريجاً اذا ترك المعالج في الصندوق ملتحفاً بملايات من الصوف

***

فرتز شودنْ الالماني وبورديه البلجيكي وڤاسرمن الالماني كشفوا عن ميكروب الحلق الفظيع واعدّوا الكواشف لتبينه في ثنايا الجسم . ثم جاء ارلخ فأخرج قنابله الدقيقة في محلوليه ، ٦٠٦ و٩١٤ لاطلاقها على ميكروباتهِ ، فأفادت بعض الفائدة ، وتلاه ڤاجنر يورج ، فامدَّ الميكروبات بفعل الحمى العالية في الجسم فضارت اتمَّ فتكاً . وها هوذا هوتني وصحبه يجربون التجارب ، لوقاية الجسم من حمى الامراض ، مستعينين على ذلك بالامواج اللاسلكية العجيبة

ان واحداً من كل تسعة يموتون بين الاربعين والستين من العمر في نيويورك يموتون بالشلل الجنوني العام . فهل يدري مكافحو المرض والموت ، ان هؤلاء الروّاد قد وضعوا في ايدينا الوسيلة الفعَّالة للقضاء على هذا العدوّ الخاتل

الزمكان

أو اندماج الزمان بالمكان والبعد الرابع

بقلم نقولا الحداد

لكي نفهم البعد الرابع الذي كشفت عنهُ المباحث العلمية الجديدة وأخصها مباحث «النسبية» يجب أن نفهم معنى اندماج الزمان بالمكان كما يعبّر عنهُ علماء اليوم بلفظ واحد Space-time ونحن نترجمه بلفظ عربي واحد «الزمكان» مختصر «زمان — مكان» ولكي نفهم هذا الاندماج الذي يستهجنه المفاجأون بهِ ويتعذر عليهم تصوُّره يجب أن نفهم ما هو المكان وما هو الزمان أوما هو المعنى المراد منهما ؟

ما هو المكان

حتى أوائل هـذا القرن كان المعنى المراد بلفظ « المكان » الحيز الذي تشغله المادة المحسوسة أو يمكن أن تشغله . مثال ذلك هذا الكتاب الذي في يدك هو مجسم طوله ٢٥ سنتيمتراً وعرضه ١٥ وسمكه سنتيمتر واحد فقط . فالفراغ الذي يملأه هذا الكتاب بهذا المقياس يعتبر مكاناً له . فاذا أخذت الكتاب من موضعه وأبعدتهُ الى مكان آخر فهل يبقى ذلك الحيز الذي اشغله معتبراً مكاناً ؟

لا بدَّ أن تقول : طبعاً . يعتبر مكاناً ، اولاً لأنهُ يحتمل أن يشغله ذلك الكتاب كما كان يشغله قبل أن ننقله منه أو يشغله جسم آخر بحجمهِ . وثانياً لاني أستطيع أن أتصوره مشغولاً بذلك الكتاب أو بأي جسم آخر مثله . وبناءً على هذا القول جميع رحاب الفضاء التي نحسبها خالية تُعتبر أمكنة ، لأن اجرام المادة تنتقل فيها من حيز الى حيز على التوالي ، ويمكننا تصوُّرها مشغولة بالاجرام والأجسام المادية جنباً الى جنب وان كان حدوث هذا بالفعل مستحيلاً — يمكننا تصور الاجرام مالئة الفضاء هكذا بالرغم من أنها منثورة في الفضاء ومتفرقة فيه تاركة فيما بينها رحاباً سحيقة المسافات

ولما كنا نستعين بالتصور — حتى تصور المستبعد أو تصور بعض المستحيلات — في تفهُّم المكان نوغل في التصور لكي نفهم كيف يمكن أن نتصور المكان . فلنتصور اذن أن المادة اضمحلت تمام الاضمحلال من الوجود ولم يبق لها أي أثر ، ولم يبق في الوجود الاَّ عقلنا فقط يتصور ، فأي صورة تكون فيهِ للمكان ؟

قد تقول : بالرغم من تصوري اضمحلال المادة لا أزال أتصور الفضاء الخالي مكاناً يحتمل أن تشغله مادة اذا عادت المادة المضمحلة الى الوجود — أجل تتصوره كذلك لان صورة المادة ، قبل اضمحلالها ، مطبوعة في ذهنك . فيتعذر عليك أن تمحو من ذهنك صورة مطبوعة فيهِ كما فرضنا محقها من الفضاء . ولكن اذا طلبنا اليك أن تتعمق في تصور الفضاء خالياً من المادة خلوًّا

مطلقاً فهل تستطيع أن تتصوره فراغاً مطلقاً ؟ وان قلت : أستطيع أن أتصوره هكذا ، فهل تستطيع أن تتصوره بلا حدود مهما كان رحيباً ؟

هنا أراك واجماً . أراك في حيرة . لانك ان كنت تتصوره ذا حدود فالحدود هي مادة أو شبه مادة . فأنت إذن لم تفرغه في تصورك ، من المادة افراغاً تامًّا كما فرضنا . بل لا تزال تتصوره محاطاً بمادة . وحينئذٍ يمكنك أن تقيسه بين حدوده ولو كما يقيس الفلكيون الابعاد والرحاب السحيقة بواسطة سرعة النور . وحينئذٍ يمكنك أن تتصور هذه الحدود متنقلة فيه كتنقل الاجرام والاجسام . وان كنت تزعم أنك تستطيع أن تتصوره خالياً من كل شيء حتى من الحدود فأنت تتصوَّر العدم . وتصوّر العدم عدم . فاذاً أنت لا تتصور شيئاً . بل أنت غير متصوّر . أنت ساكن الذهن . والاّ فما هو العدم ؟ أو ما هو الفرق بين الفضاء الخالي والعدم

اذن ، لا تستطيع أن تتصور الفضاء خالياً من المادة . أزل المادة من الوجود — أعدم الاجرام بتاتاً ، ينعدم الفضاء أيضاً . ينعدم المكان . واذن لا معنى للمكان بلا مادة تشغله . لا معنى للفضاء بلا أجرام تحد رحابه — واذن ، منطقيًّا ، لا وجود للمكان بتاتاً لولا وجود المادة . وجود المادة قرَّر وجود المكان . المادة خلقت الحيز الذي أشغلتهُ . فاذا قلنا « المكان » أو « الحيز» أو «الفضاء» (Space) كنا نعني مادة تشغل حيزاً وتتنقل من حيز الى حيز . فذكر المكان يستلزم وجود المادة . وذكر المادة يستلزم معنى المكان . أعني أن معنى المكان مستمدٌّ من وجود المادة . وتفسير الفضاء بالحيز الخالي خلوًّا مطلقاً خطاء محض

لذلك ما نسميهِ فضاءً هو فضاء محدود بالمادة . متناهٍ . لأن المادة متناهية أي أن لها قدراً معيناً . والفضاء محدود بها . لهُ أول ولهُ آخر . ولا تسل عما قبل الاول وعما وراء الآخر. فهذا مستحيل على العقل البشري تصوُّره . دعه لعقل الالوهية . ولذلك أيضاً ، يكتسب الفضاء أو المكان أو الحيز طبيعته من طبيعة المادة نفسها . فاذا قال العلم الحديث أن الفضاء متحدّب Curved فلأن المادة التي تشغله متحدبة . وهذا بحث دقيق لامتسع له هنا . فنرجئه

فيما تقدَّم فرضنا الرحاب بين الاجرام خالية . والحقيقة انها ليست خالية الاّ من المحسوس . بل هي مملوءة من أنواع مندثرات الاجرم المُشعَّعة الثلاثة : ١ : امواج الفا وهي بروتونات ايجابية الشحنة الكهربائية : ٢ : امواج بيتا وهي الكترونات (كهارب) سلبية الشحنة : ٣ : امواج جما وهي في عرفهم فوتونات بلا شحنة . — (وفي رأي هذا الضعيف ليست الامواج نفس البروتونات والالكترونات والفوتونات ، بل هي امواج أثيرية صادرة من اندفاع هذه الوحدات المادية المتدفقة في بحر الاثير المالىء رحاب الفضاء) فالرحاب ليست خالية كما تتراءى لنا بل هي مملوءة تشععات مادية . وامتلاؤها بها جعل لها قيمة المكان أو جعل المكان قيمة بها ، أو جعل له طبيعته . هذا اذا ضربنا صفحاً عن الاثير ، (أوقيانوس المكان) الذي، وان كان لا يزال فرضاً بلا برهان امتحاني

معملي ، يعد أفضل فرض لتعليل الظاهرات الطبيعية ، ولا سيما ظاهرات التشعع الموجي . ولا مجال هنا للاسترسال في هذا الموضوع . نعود الآن الى « الزمان »

ماهو الزمان ؟

خرجنا من البحث الآنف بنتيجة صعبة التصور . ولكنها نتيجة منطقية لا مناص منها . وهي ان المكان لا وجود حقيقي له . هو العدم . وانما المادة اوجدته . فما قولك بالزمان ؟

اذا كان المكان — مستقلا عن المادة — عدماً ، فالزمان بالاحرى عدم ايضاً . او بابلغ عبارة هو أشد عدمية . المادة اوجدت المكان . وحركة المادة اوجدت الزمان . ان انتفت الحركة انتفاءً مطلقاً — ان سكن كل متحرك في الكون — انتفى الزمن معها

قد يتراءى لك هذا القول مستهجناً . ولكن اغرب منهُ القول بان الزمن (او الزمان بمعنى واحد) منتحلٌ من المكان الذي هو منتحل من وجود المادة كما سترى فيما يلي : —

كيف نفهم الزمن ، او الوقت الذي هو في اصطلاحنا جزء من الزمن ؟ — مضيت صباحاً الى عملك . ثم عدت عند الظهر الى منزلك . فكيف عرفت ان الوقت صار ظهراً ؟ — قد تقول : رأيت الشمس تكبدت كبد السماء . صارت في السمت . تقلص ظلي حتى صار تحت قدمي . وقد كانت حين مجيئي الى عملي في الافق وظلي اطول مني . فكان الوقت صباحاً ، ثم صار ظهراً

فما معنى الصباح والظهر عندك ؟ أليس معناها ان الشمس سارت من الافق الى كبد السماء — وبعبارة فلكية ان الارض اتمت ربع دورتها على محورها . فاذاً . انت قست الوقت بحركة الارض على محورها ، او بانتقال الشمس المجازي من الافق الى السمت

قد تقول : ليس ضرورياً ان ارقب الشمس لكي اعلم مواقيت النهار . ارقب ساعتي فاعلم مواقيت النهار والليل جميعاً . حسنٌ . استغنيت عن حركة الارض او مسير الشمس . ولكنك استعضت عن حركتها بحركة عقرب ساعتك . فانت تقيس الزمن بحركة عقرب الساعة . ابدلت حركة بحركة . وهو امر يثبت لك ان الزمن ليس الاَّ قياس حركة المادة فقط . وقد تقول : اني استغني عن مراقبة الشمس وعن مراقبة عقرب الساعة فاعرف ميعاد الظهر من احساسي بمجرى عملي العمومي ، اعرف اني قضيت من الاشغال ما يستغرق ٦ ساعات . فاقول بنفسي : صار الوقت ظهراً

اذن . في مقايسة الوقت او المدة لجأت الى حركتك في عملك الذي اعتدت ان تنجزه في برهة ٦ ساعات (علمتها من حركة الارض) طالما قستها بحركة عقربي ساعتك . فاذاً لا مناص لك من قياس الوقت بالحركة

قد تقول متعنتاً : يمكنني ان انقطع عن كل عمل وألجأ الى غرفتي بعد ان اقفل جميع نوافذها وتصبح ظلاماً وابقى مدة في هذه الحالة . ومع ذلك احس بمرور الوقت . وقد استطيع ان اخمّن المدة التي مرّت عليَّ في هذه الحالة

اقول ان فكرك في هذه المدة كان متنقلاً من موضوع الى آخر . وبهذا التنقل قست الوقت

قياساً تقريبيّاً . فتنقّل فكرك هو نوع من الحركة . اذن الزمن الذي احسست به هو هذه الحركة .
ولنفرض اننا خدرناك بالكلوروفورم او بأي مخدّر آخر بحيث لا تعود تشعر بشيءٍ وبحيث تقف كل حركة فكرية لك . وبعد مدة منعنا عنك فعل المخدّر فصحوتَ . فاذا سألناك : منذ متى غفوت؟ لا ريب ان تجيب : اشعر اني كنت صاحياً منذ بضع دقائق ثم غفلت هنيهة قصيرة ثم صحوت . واذا قلنا لك انهُ مرت ساعة على نومك تندهش لانك تعتقد ان وقت غفلتك كان قصيراً جدًّا ولانك لم تعد تشعر بحركة خارجية ولا داخلية ولا فكرية . فهل يبقى عندك شك بعد هذه الفروض بان الزمن لا وجود حقيقي له ، وان ما نسميه زمناً ليس الاَّ توالي الحوادث بعضها اثر بعض ؟ فلو توقفت كل حركة في الكون لم يعد للزمن معنىً بتاتاً . فكما ان وجود المكان مكتسب من وجود المادة ، كذلك وجود الزمن مكتسب من حركة المادة . وحركة المادة هي انتقال الجسم المتحرك من حيز الى حيز آخر في المكان . اذن فترات الزمان منتحلة من فسحات المكان . ولذلك نقيس الزمن والمكان بمقياس واحد

نقيس المسافة المكانية بمقياس اصطلحنا عليهِ كالمتر مثلاً وكسوره السنتي والملّي متر ، ومضاعفه الكيلو متر الخ . والمتر هو طول رقاص Pendulum يخطر ٨٦٤٠٠ خطرة كلما دارت الارض على محورها دورة كاملة . وهذا العدد هو عدد ثواني اليوم . ولذلك خطرة الرقاص المتري تساوي ثانية . فقياس المكان وقياس الزمان منتحلان معاً من حركة الرقاص

والغريب اننا نستهجن القول ان الزمن لا وجود له البتة وانهُ ليس الاَّ مقداراً معيناً من الحركة ، في حين اننا في اعمالنا اليومية نقيس الزمن تارة بالمسافة المكانية واخرى نقيس المسافة المكانية بالمدة الزمنية . فنقول مثلاً : ان القرية تبعد عنَّا مدة تدخين سيكارة ، وان المسافة بين القاهرة والاسكندرية ٣ ساعات بالسكة الحديدية . واغرب من ذلك ان بعض الناس في الولايات المتحدة يقيسون المسافة بالعملة فيقولون ان فيلادلفيا تبعد عن نيويورك ريالين ونصف ريال ، يعنون ان اجرة السكة الحديدية بينهما هذه القيمة النقدية

وحاصل القول ان الزمن او الوقت هو تعبير مجازي عن انتقال جسم من حيز الى حيز آخر بالنسبة الى انتقال جسم آخر من حيز الى حيز . جعلنا انتقال الشمس من افق الشرق الى افق الغرب ثم عودتها الى الافق الاول مقياساً للوقت سميناه يوماً . ثم قسمنا اليوم الى ٢٤ قسماً سميناها ساعات . ثم قسمنا الساعة الى ٦٠ جزءًا سميناها دقائق وقسمنا الدقيقة الى ٦٠ جزءًا سميناها ثواني . وجعلنا الثانية القياس الادنى لكل حركة اخرى . وما الثانية الاَّ جزءٌ من ٨٦٤٠٠ من دورة الارض على محورها . اي ما يقطعه هذا الجزء من محيط الارض في الفضاء . وبعبارة اخرى هو انتقال اي نقطة من خط الاستواء الارضي في الفضاء ٤٣٠ متراً تقريباً (وهو الخارج من قسمة ٤٠٠٠٠ كيلو متر محيط الارض على ٨٦٤٠٠ ثانية) . فانتقال هذه النقطة الارضية الاستوائية في الفضاء ٤٣٠ متراً يوافق انتقال الارض في فلكها حول الشمس ٣٠ كيلو متراً . وانتقال المريخ في فلكه ٢٤ كيلو متراً

وانتقال المشتري ١٣ وزحل ١٩ وكسور ونبتون ½ ٥ تقريباً . ويواقت انتقال النور في الفضاء ٣٠٠ الف كيلومتر ، وانتقال النظام الشمسي كلـهُ في قرص المجرّة ٢٠٠ كيلو متر وهلمّ جرًّا — كل هذه الانتقالات تتم معاً في هنيهة واحدة نسميها ثانية

اذن الحقيقة اننا نقيس الزمن او الوقت بمسافة مكانية كما نقيس المكان نفسه بمسافة مقرَّرة منهُ . فالقياس للاثنين واحد مقياس مكاني[1] .اذا تصورت الكون ساكناً سكوناً مطلقاً لا حركة فيهِ البتة فلا تعود تستطيع ان تتصور مجرى الزمن . لا يبقى ماض ولا مستقبل . واذا قلنا ان الارض ولدت من الشمس منذ مليون مليون سنة عنينا ان الارض دارت حول الشمس مليون مليون مرة

كيف يندمج الزمن بالمكان

مجمل ، ما عرفت مما تقدم ان المكان هو الحيز الذي تشغله المادة ، وان الزمن هو تعبير عن قياس حركة المادة في المكان ، وان هذا القياس هو مسافة مكانية ، ومقياسه الاصطلاحي انتقال اي نقطة في خط الاستواء الارضي مسافة ٤٣٠ متراً في اثناء دورة الارض على محورها ، او هو خطوة رقاص طوله متر . وقد سمي ثانية — اما وقد عرفت ذلك فصار سهلاً عليك ان تفهم كيف ان الزمن مندمج في المكان بسبب تحرك المادة

هل تستطيع ان تنتقل في المكان من غير ان تنتقل في الزمان ؟ مستحيل . لماذا ؟ لان انتقالك هو خطوات متتابعة الواحدة بعد الاخرى ، وكل خطوة هي عبور مسافة مكانية . فعدد الخطوات هو تعبير عن الامتار التي عبرتها وتعبير عن الثواني التي امضيتها ، لانه يواقت خطوات الرقاص المتري او انتقال نقطة استوائية مسافة ٤٣٠ متراً في الفضاء — اعني اذا فرضنا كل خطوة هي متر في ثانية فالمتر هو خطوة والثانية هي خطوة ايضاً . وكلاهما تعبير عن حركة الانتقال

قد تقول : اذن يمكننا ان نستغني عن القياس الزمني للحركة ونقتصر على المقياس المكاني فنقول مثلاً ان اليوم هو ٨٦٤٠٠ خطوة (او متر) لان دورة الارض على محورها مرة واحدة تواقت هذا العدد من الخطوات وبتقسيم اليوم نجعل الساعة ٣٦٠٠ خطوة والدقيقة ٦٠ خطوة والثانية خطوة واحدة . نتكلم بالخطوات ومجموعات الخطوات بدل الثواني والدقائق والساعات

اقول : نعم ونحن فاعلون مثل هذا . وما سمينا ما يواقت الخطوة ثانية والستين ثانية دقيقة الخ الاَّ اصطلاحاً . ولابد من هذا الاصطلاح لتحديد المقاس الزمني لاختلاف سرعات الاجسام .فاذا قلنا ان

---

(١) يؤيد هذا القول الحساب الرياضي : م المسافة = ت الوقت مضروباً بالسرعة س هكذا م = س ت ومنه ت = م/س - اي ان الوقت يساوي المسافة مقسومة على السرعة : مثال ذلك : المسافة بين القاهرة والاسكندرية ٢١٥ كيلو متر او سرعة الاكسبرس ٧٥ كيلو بالساعة اذاً ٢١٥/٧٥ = ٣ ساعات و ٣ × ٧٥ = ٢١٥ كيلو متراً أرى كيف دخل الوقت مع المسافة بالحساب فهما من طبيعة واحدة

النور يستغرق منذ صدوره من الشمس الى ان يصل الينا (٨ دقائق) ٤٨٠ خطوة عنينا انه كلما خطوت انت خطوة (متراً) خطا النور ٣٠٠ الف كيلومتر أي ان خطوة النور تساوي ٣٠٠ مليون خطوة لخطواتك . فترى اننا نستطيع ان نصرف النظر عن اصطلاح الثواني والدقائق الذي تعودناه كرمز زماني ونعبر عن حركة الانتقال بالامتار لان الثانية والدقيقة الخ رمز مسافة مكانية كما تقدم . فلا يمكن ان نعزل الزمن عن المكان عزلاً يجعله مستقلاً . ولذلك اكرر القول ان الزمن هو مسافة مكانية كالمكان تماماً

ولكن لان سرعات الاجسام والاجرام مختلفة عظيم الاختلاف نحن مضطرون ان نجعل اصطلاحاً خاصاً للتعبير عن هذه السرعات لكي نميزه عن الاصطلاح الخاص بالمسافات . فجعلنا الثواني والدقائق الخ لنعبر بها عن سرعة الانتقال (الحركة) وجعلنا الامتار والأميال الخ لنعبر بها عن مسافة الانتقال . ولكننا في حين تعبيرنا عن السرعات بالثواني والدقائق لا نستغني عن ذكر المسافة المكانية فنقول مثلاً ان سرعة القطار بالثانية ١٥ متراً وسرعة الارض بالثانية في فلكها ٣٠ كيلومتراً وسرعة النور بالثانية ٣٠٠ الف كيلو متر وهلم جرًّا . استنبطنا هذا الاصطلاح لقياس السرعات

رأيت مما تقدم كيف ان ما نسميه زماناً يندمج تمام الاندماج بالمكان لانه يعبر عن تحرك المادة في الحيز . كما أن المكان يعبر عن وجودها في الحيز . وبعبارة اخرى ليس الزمن الاَّ وسيلة للتفرقة بين وجود المادة وتحركها . وكلاهما في المكان

معنى البعد الرابع

بعد هذا البيان الواضح يسهل عليك ان تفهم المراد من قولهم « بالبعد الرابع » فأنت تعلم ان أي جسم او ذرة في الكون يتحدد موقعها في الفضاء بثلاثة ابعاد متعامدة فيها — ابعاد عن اجسام او ذرات اخرى . أي لا يكفي لتحديد موقعها بعدها عن جهة واحدة فقط ، ولا بعدها عن جهتين متعامدتين عندها فقط ، بل لا بد من اتجاه ثالث معامد للاتجاهين الآخرين وهي في نقط تعامدها جميعاً . هناك ينحصر موضعها . فاذا فرضنا انها سائرة (في خط مستقيم او خط منحنٍ) فالمسافة التي تعبرها هي البعد الرابع . لانه لما كنا نعبر عن عبورها هذا بالاصطلاح الزماني (الذي ينوب عن الاصطلاح المكاني للتمييز بين وجود الجسم في المكان وسرعته فيه) كما علمت صح القول بأن الزمن بعد رابع مكاني ايضاً[1] وختام الكلام : الوجود هو مادة متحركة ، من خواصها « الزمكان »

وفي مقتطف ابريل ١٩٣٣ مقال ضاف شرحت فيه قضية الابعاد الاربعة شرحاً وافياً فليراجع

---

(١) يؤيد هذا القول المعادلة الرياضية . هكذا : —

اذا رمزنا عن الابعاد الثلاثة بالاحرف ط (طول) ض (عرض) ع (علو أو عمق) م (المسافة) التي يعبرها الجسم متنقلا بابعاده (الثلاثة معه) كان لنا بحسب نظرية فيثاغورس م٢ = ط٢ + ض٢ + ع٢ باعتبار ان المسافة هي وتر المجسم ذي الابعاد الثلاثة . والمجسم هنا هو الحيز الذي يسير به الجسم المتحرك . وقد علمت في الحاشية السابقة ان م = ت س اذاً ت٢ س٢ = ط٢ + ض٢ + ع٢ فترى ان الوقت دخل في حساب المكان كضلع فيه (ت س) ولذلك عد بعداً رابعاً

لا انكر ان هذه العملية الرياضية الصغيرة تحتاج الى شرح مسهب لكي يفهم القارىء العامي المراد منها . ولكن بكل اسف ان خطة المقتطف لا تسمح بهذا الشرح الذي قد لا يلذ الا لنفر معدود من القراء

الغفران

نشيد من ملحمة له عنوانها غلواء

مضت أشهرٌ نُذِرَت للمطرْ ... وأظلم فيها المسا والسَحَرْ
وأقبل نوّارُ — عرسُ الطبيعة — يضحك في ورقات الشجرْ
يدغدغُ بالطلّ عشبَ الحقول ... ويطبع ألوانهُ في الزهَرْ
ويبني على الهضبات متاحفَ ... تسخر من هذيان البشرْ
كأنَّ عباقرةَ الجن فيها ... سكنّ وعلّقن تلك الصورْ
نخفّ الشبابُ نديَّ الحياة ... يستقبل الحُلُمَ المنتظرْ
على ثغرهِ بَسَماتُ الربيع ... وفي قلبه بَسَماتٌ أُخرْ

***

وفي يومَ عيدٍ نقيِّ السماءِ ... كأنَّ السما صفحةٌ من سُوَرْ
اطلَّ شفيقٌ على الهضباتِ ... فراءَ الشبابَ عليها انتشرْ
وأبصرَ غلواءَ بين الزهور ... كحوّاءَ بين شهيِّ الثمرْ
تسرّحُ في عدنها نظراتٍ ... عرفن ازاهيرَ خيرٍ وشرّ
وقد لبست ثوبها الزنبقيَّ ... عليهِ نسيج بلون الخضرْ
وألقت على العشب جسماً هزيلاً ... كغصنٍ من الياسمين انكسرْ
نخفَّ اليها وفيه عذابٌ ... بدا منهُ في مقلتيه أثرْ
وأثبتَ فيها عيوناً سكارى ... تجمّد فيها رحيق الخدرْ
وقال: « لقد خلعَ الحقلُ عنهُ ... رداءَ الشتاءِ وغطى الحجر
وألقى عليه الربيعُ وشاحاً ... جمالُ الطبيعة فيهِ انحصرْ
فهلاّ خلعتِ رداءَ الليالي ... والبستِ روحكِ ثوبَ البُكَرْ
وهلاّ تشبهتِ بالياسمين ... فما كاد يُحجَبُ حتى ظهرْ
لقد غسلت بسماتُ الزهور ... ذنوبَ الشتاءِ الكثيف البصرْ
وعاد العفافُ الى الهضَباتِ ... ففي كل غرسٍ «فؤادٌ غَفَرْ»

فقالت : « أُحاول أن أتناسى زماناً مضى وخيالاً عَبَرْ ... »
فقال : « وماذا يمثّل هذا الخيالُ ؟ »
فقالت : « غراماً غَدَرْ ! »
فقال لها : « أوضحي ، بالسماءِ ! .. وهذا الغرامُ ؟ »
فقالت : « دَعَرْ ! »
فقال ، وقد جحظت مقلتاه : « وهذا ؟ »
فقالت : « حبيباً هَجَرْ ! »
— وهذا الحبيبُ ؟ !
— غفرتُ له ... ويعفو إلهك عمّا بَدَرْ

غَفَرتُ كما غفرَتْ في الربيع زهورُ الربى لشتاءٍ كَفَرْ
ولكنْ بي ندماً كاللهيب يريني الحياة خلالَ الشررْ !

. . . .

وكان النسيمُ يهزُّ الغصونَ فينشر في الجوّ عِطرَ الزهورْ
كأنَّ العطورَ خطايا عذارى حلمْنَ بأثمارها في الخدورْ
ولمّا أفقْنَ اعترفنَ بها وقد هزّهنَّ الضميرُ الطهورْ
وكان المساءُ على الهضباتِ ينفثُ اشباحهُ في فتورْ
وشمس المغيب تعيرُ الظلالَ ألوانها في مطاوي الصخورْ
فقال شفيقٌ ، وفي قلبهِ رجاءٌ يموتُ وحبٌ يثورْ
« عشقتك ، يا غادَ ، عشقاً نما شقيّ الرؤى في شواطىء صورْ
وكنتِ من الداءِ في نشوةٍ تريك الحياة ظلاماً ونورْ
ظلاماً تلمّست فيهِ الفناءَ ونوراً تنشّقت فيهِ الغرورْ
وما ذاك الاّ لأنَّ فؤادك ما ذاقَ في الحب صدقَ الشعورْ
جهاتِ حقيقةَ وجهِ الهوى نخاتِ الهوى وجهَ مين وزورْ
ولما سكرتِ بكذب الأغاني وعوّدتِ قلبك تلك الخمورْ
أفقتِ فلم تجدي في الكؤوس إلاّ قذارةَ خمر الثغورْ

جهلتِ الهوى فنكرتِ الربيعَ وقد تنكرينَ نمو البذورْ
ومن لم يقدّرْ لهُ أن يشمَّ ينكرُ حتى أريجَ العطورْ ! »
فقالت : « صدقتَ ولكنني أحسُّ بقلبي جفافَ الجذورْ
فأنتَ ترى في الربيع الجمالَ وأبصرُ أزهاره كالبثورْ
وتُبصر في الزهر لونَ الحياةِ وأُبصر في الزهر لون القبورْ ! »
فقال : « ترينَ بعين القنوطِ الجمالَ الذي أيّدته الدهورْ
فهذا الربيعُ سيبقى ربيعاً وهذي الزهور ستبقى زهورْ
ولكنَّ في أعينِ اليائسينَ زجاجاً يريها نواحي الشرورْ
لئن كنتِ دنّستِ تلك العيونَ وذاكِ الفؤادَ بماءِ الفجورْ
ولم تسمعي نغماتِ العفافِ ولم تنشقي في العفاف البَخورْ
فقد كفّرَ الدمعُ عمَّا جنيتِ وصادفتِ ياغلْوَ قلباً غفورا ! »

***

وأهوى على صدرها باكياً وأهوت على رأسهِ باكيهْ
وما هي إلاَّ دقايقُ حتى تلاشت رؤى نفسها الداميهْ
فأدنت الى ثغرهِ ثغرها على مشهدٍ من تُقى الرابيهْ
على مشهدٍ من نقاءِ الزهور العذارى ومن عفّة الساقيهْ
فأحرق ثغرُ شفيقٍ على مراشفها القُبلَ الماضيهْ !

***

وإذ صعدَ البدرُ خلف الجبالِ وذابَ على الربوةِ العاليهْ
وهوَّمت الطيرُ بين الغصون لتحلمَ أحلامَها الصافيهْ
ولم يبقَ يُسمعُ في الحقل إلاّ تنهُّد شبّابة الراعيهْ
أفاقَ الحبيبانِ من سكرةِ الدموع الى سكرةٍ ثانيهْ
وظلاَّ من السُكر في نزَواتٍ تطهّرها عِفّةٌ باقيهْ
الى أن دنا موعدُ للفراقِ واصفرّتِ الأنجمُ الساهيهْ
كأنّ النجومَ الضئيلةُ في الأُفُقِ رَشحُ خمورٍ على خابيهْ
كأن النجوم زفيرُ خطايا تصعّده ليلةٌ زانيهْ !

بنيون الفنان

بين التصوير والشعر

للدكتور احمد زكي ابو شادي

(١)

بلغت حماسةُ بنيون الغايةَ من الاندماج الأدبي في محاضرته الثانية واسترعى اعجابَ المستمعين الى درجةٍ جعلت أحدَ أدباء الانجليز يقول لي مداعباً « إنّ بنيون يتحمّس للفنّ الشرقي وللفنّ الصيني خاصة تحمُّسَ صفوةِ ابنائهِ المثقَّفين حتى كاد تذوُّقهُ له يحيله صينيًّا في سماتهِ ! »

استهلّ بنيون هذه المحاضرة بأسلوب دراميّ فقال : في سنة ١٢٩٥ بلغ وطنَه (البندقية) سائحٌ من الشرق ، وكان قد تغيَّب في صميم آسيا مَدَى ستٍّ وعشرين سنة قضى معظمها في الصين في خدمة الفاتح المغولي كوبلا خان . وكان هذا السائح ماركو پولو ، وقد استُقبل في وطنه بارتيابٍ اولاً ثم بتهاليل العجب والدهشة . وقد تزعَّم بعد ذلك بقليل إحدى السفن في معركة بين البندقيين والجنويّين انتهت بأسره ، فلما كان في السجن أملَى بياناً عن رحلاته وهو المشهور الآن باسم (كتاب ماركو پولو — The Book of Marco Polo) وكان هذا الكتاب الذي اثار احلام كولومبوس ليلاً ونهاراً وألهبهُ بخواطر الوصول الى الجُزر الهندية عن طريق المحيط الغربي — كان هذا الكتاب اول كشفٍ عن الصين والصينيين لاوربا

كان الرومانيون في عهد الامبراطورية يستوردون الحرير الصيني ، ولكنهم لم يعرفوا عن أهل الصين الاّ ما نقلتهُ الروايةُ عن انهم شعبٌ ظريفٌ عجيبٌ في الجانب الاقصى من آسيا . ولكن ماركو پولو كان مبعوث سيده الى جميع انحاء الامبراطورية الصينية ، وهو بفضل ذلك يضمّن كتابه أدقّ التفاصيل عن كلِّ ما شاهد وقد كان مشاهِداً اريباً

وكانت مدينة هانج شو عاصمة الصين حينئذٍ في مبدإ انحطاطها لمّا رآها ماركو پولو ، ولكنها مع ذلك خطفت بصره وأذهلتهُ ! وهو الذي عرف البندقية والقسطنطينية يصف هانج شو بأنها اجمل وأفخم مدينة على الارض بمحيطها الفسيح وبجسورها الصخرية التي بلغت الألفين فوق قنواتها العديدة ، وبحماماتها العامة ذات الماء الساخن وقد بلغت الثلثمائة ، وبرجال شرطتها البارعين ، وباسواقها الكثيرة الحافلة بشتى المحصولات من كلّ مقاطعة ، وبأمرائها التجار الذين كانوا يعيشون ناعمين كالملوك ،

وبتلك الكائنات الانيقة الملائكية : زوجاتهم ! وكانت شواطئ البحيرة التي قامت عليها العاصمة مزدحمة بالقصور والمعابد والاديرة . وقد احتشدت في الماء القوارب والصنادل كما ازدحمت الطرقات بمواكب لا آخر لها من العربات

وما هو حال السكان في هذه المدينة العجيبة ؟ يحدثنا ماركو پولو انهم ما كانوا يحملون الأسلحة ولا يحتفظون بها في بيوتهم — وهذا هو المظهر الخارجي لحالة من المدنية الصادقة — وقد لاحظ بصفة خاصة أدبهم نحو الاجانب ورغبتهم في معاونتهم . فهذه هي جميع الامارات لا لحضارة عالية فقط بل لما نسميه عهداً «عصريًّا» ، وفي الواقع وصف حديثاً أحد كتّاب الفرنسيس ذلك العهد بأنهُ من فترات الانسانية الكاملة

(٢)

كان ذلك العهدُ الذي انقرض اثناء إقامة ماركو پولو في الصين عهدَ الدولة السّنْجيَّة . وسأتكلم بصفة خاصة عن الفنّ في ذلك العهد لان العبقرية الصينية عُبّر عنها فيهِ كما يلوح لي أوثقَ التعبير .

فأولاً يجب عليَّ ان اقول كلمةً عن السّمة الفنية للتصوير الصيني : فما عدا التصاوير الحائطية التي اندثرت جميعها تقريباً (وإن كان عددٌ منها نُقِلَ اخيراً الى اوربا واميركا ، ويوجد نموذجٌ فاخرٌ منها في المتحف البريطاني) نجد ان التصاوير الصينية منقوشةٌ عادة على الحرير أو بعددٍ اقلّ على الورق ، وتُستعمل لها الصبغات المائية أو الحبر . ولم يُستعمل التصوير الزيتي الاّ بتأثير اليسوعيين ولكنهُ لم ينل حظوة لدى الصينيين

وقد أخذ المستر بنيون بعد هذا التمهيد يعرض ألواحه المختارة بالفانوس السحري تمثيلاً لخصائص الفن الصيني وتطوُّره . فوجَّه الأنظار الى ان التصوير كان معدوداً فرعاً من الكتابة ، وكانت الحروف الصينية تكتب بالفرشاة ، وإجادة كتابتها كانت تستدعي مرانةً فائقةً و «استاذيةً» لم يظفر بمثلها الاَّ القليلون من المصورين الاوربيين

وكانت الصورةُ الاولى عبارةً عن رسم خيزرانٍ نامٍ على صخرة وقد نُقشت في القرن الثالث عشر للميلاد . فوجَّه المحاضرُ الانظار الى الجمال في ضربات الفرشاة ، والى درجات التعبير والتظليل من أعمق السواد المصقول الى الاشهب الباهت الى السنجابي الفضّي . وقد ذكر المحاضر انهُ كان يُطلب كثيراً الى النقّاش الشاب على سبيل التمرّن في استعمال الفرشاة ان يقلّد بنقشه ظلَّ الخيزران في ضوء القمر على ستار ، وكان على النقاش ان يرسم ذلك من مخيلته

وكانت الصورة الثانية عبارة عن رسم تقليديّ الموضوع وهو مشهدُ القمر فوق الأمواج الصاخبة ، وقد ذكر المحاضر انهُ عرضها ليظهر وجهاً آخر من اوجه الفنّ الصيني ، فخلافاً للمصورين الغربيين الذين قد يحاولون نقل المنظر الواقعي نجد ان المصوّر الصيني عُني بالخصائص الجوهرية اكثر من عنايته بالمظاهر الخارجية للاشياء . ففي رسمه البحر ، كانت محاولتهُ موجَّهةً الى نقل حركة

الماء الى المُشاهِد للصورة اي التفعيل النظمي (الرَّذْم) الذي خُلِقَتْ منهُ الأمواج . وهذا ما يطابق النظرية الصينية في الفن ، فمنذ القرن السادس الميلادي عُرفتْ في الصين المقاييس الستة للحكم على اي عمل في كما وضعها احد رواده ، فكانت نهاية البراعة الفنية تلك التي يهبُ وحيُها الحياة. وكان من المعترف بهِ ان حركة الحياة إذا لم تعرقلها الظروف — رتيبةً رذمية (منتظمة التفعيل او التوقيع) ، وانَّ الواجب في العمل الفنّي الحقيقي ان يشمل الرَّذمَ او التوقيع المثاليّ للحياة

وعرض المستر بنيون بعد ذلك عدداً من الصور المنسوبة الى الفنان كُوكايْ تشى الذي عاش في القرن الرابع ، وكانت هذه الصور بمثابة رسوم شرحت بها رسالة وجيزة أُلفتْ في القرن الثالث بعنوان (تنبيهات قهرمانة القصر) ، والدفتر الحاوي هذه الصور محفوظ بالمتحف البريطاني . ونحن نلحظ في صورة هذه القهرمانة او المربية ذلك الثبات المنسجم الذي ينتسب الى المدنية الصينية والذي يُعبر عنهُ كونفشيوس بقوله : « اعتمد في الحكم على التعليم والآداب الرضية اكثر من الاعتماد على القوانين والعقوبات. واذا وجدت كلمة يمكن ان تهدينا عمليّاً أثناء حياتنا كلها فربما كانت (الاحسان)». كان كونفشيوس يبشر بدين الفرد في كل شيء الى المجتمع والدولة . وقد خلبت تعاليم لاوْتزُو Lao tzu في ذلك القرن الرابع نفوساً كثيرة . ومعروف في السياسة المصرية تياران فكريان متعارضان : فثمّة الفكر الذي يعتبر النظام اثمن شيء في الدنيا ، وثمة الفكر الآخر الذي يعتبر الحرية أغلى شيء ، ولكنّ أتباع لاوْتزُو كانوا يطبقون نوعاً من المقاومة السلبية ، فلم يكونوا في كفاح مع الدنيا وانما انسحبوا منها . كان لاوْتزو يقول . « لا تفعل شيئاً . وكلُّ شيء يُفعل ! إن (لاشيء) أنعم واضعف من الماء ، ولكن لمهاجمة الاشياء الصلبة القوية لا يوجد شيءٌ في قوته مثل الماء . . . » وبمثل هذه الخواطر الذهنية ثار كثيرون من الرجال البارزين على نمط الحياة الرسمية ، وحتى على فكرة الخدمة العامة ، وانتحوا أماكن بعيدة منعزلة في الجبال لغرس الاقحوان ، ولشراب النبيذ في ظلّ الأشجار ولعزف الموسيقى !

هكذا أظهر لنا المستر بنيون ذلك التجرُّد الرمزي وذلك البحث عن المطلق ، وهو ما كان يعدُّ على ما يظهر لبَّ الطاوية taoism أو كان قريباً من عقيدة استمدّها من الهند طائفةٌ من البوذيين وهي طائفة زِنْ Zen — طائفة التأمليين — وامتزاج هذين التيارين الفكريين صبغ بلون خاص كثيراً من الفنّ في العهد السُّنجِي . وعرض المحاضر بعد ذلك صورة تمثل بوذا في سِمات أبولو . وهذا الطراز ماثلٌ في متحف لاهور . وقد تعرَّض لهُ كبلنج في قصته كِمْ — Kim

(٣)

انتقل المحاضر بعد ذلك الى الحديث عن انتشار البوذية انتشار المظفر الغلاب من الهند الى الصحراءِ الاسيوية الوسطى ، الى الصين ، الى كوريا ، الى اليابان ، والى شواطىء المحيط الهادىء . وكانت تمتدُّ خلال آسيا جميعها الطرق العظمى للتجارة حيث كانت البضائع الصينية الحريرية تنقل

الى البحر الأبيض المتوسط ، وكان التجّار من كل صنف يغدون ويروحون بين اوربا والشرق الاقصى والهند . ولكن نظراً لخذلان الجوّ والسُّقيا انقرضت حول القرن الثامن تلك الواحات التي كانت كعقد منظوم في ذلك الطريق التجاري العظيم ، وقد جاءت الحفريات الحديثة بكثير من المكتشفات الرائعة عنها ، فمثلاً في مدينة تَنْـج هُـوَانج — وهي مدينة مسوَّرة في احدى الواحات واقعة في نهاية الحدود الغربية للصين — وجدت سلسلة من الـكهوف المحفورة في الصخر وقد ملئت بالتماثيل البوذية وبنظائرها من التصاوير الحائطية . وفي احدى هذه الخزائن المقدسة اكتشف السير أورال استين في سنة ١٩٠٨ قبواً مخبوءاً كُدّست فيه مخطوطات وتصاوير حريرية بعدّ الآلاف . وقد كومت بعضها فوق بعض كوماً عمقها عشر اقدام ، معرّضة للتحطيم ، ويظهر انها خبئت هكذا في وقت ذُعرٍ عند احـدى الغارات البربرية منذ ألف سنة مضت . وكثير من هذه الصور مودع الآن في المتحف البريطاني حيث استـدعت سنين من الجهد العظيم لتنظيفها وتنسيق أجزائها ثم لصقها على نظامها الاول بعد ان كانت في حالةٍ من التمزّق والتناثر تبعث على اليأس

***

وأردف المحاضر هذا البيان بعرض طائفة من هذه الصور وكلها ذات مناظر بوذية : فظهرت في احداها صورة بوذا راكباً عربة يصحبها الجنُّ من الـكواكب السيّارة ، وفيها يلوح بوذا هنـديَّ الطراز بينما يلوح الجنُّ صينيين . وفي صورة اخرى منقولة عن عَلم صغير نرى مشهداً من الاسطورة البوذية اذ نَرى بوذا يلتقي لأول مرة برجلٍ مريضٍ ، وفي هذه الصورة نجد كلَّ شيء مترجماً الى الصينية — النماذج ، والملابس والتركيب الهندسيّ

(٤)

بدأ عهد الدولة التَنْجيَّة العظيم في القرن السابع وهو أول العهود الفنية التي تعنينا. أما العهد الثاني فالعهد السَّنْجي ، وأما الثالث فالعهد المِنْجيّ . وقد بقيت كلٌّ من هذه الدول حول ثلثمائة سنة ، فكأن الحياة الفنية الخطيرة في الصين شغلت تسعة قرون تقريباً ، اذ كان العهد التَّنجي من القرن السابع الى القرن العاشر ، ومكث العهد السَّنْجي من القرن العاشر الى الثالث عشر ، وامتدَّ العهد المنجي من القرن الرابع عشر الى القرن السابع عشر . وبين الدولة السنجية والدولة المِنجية قامت دولة قصيرة العهد هي دولة اليوانيين أو المغول وهي عهد كوبلا خان

ومن نماذج التصوير النادرة للدولة التنجية عرض المستر بنيون صورة « القـديس » وهي نموذج صادق النسبة الى ذلك العهد الذي ضاعت معظم آثاره الفنية ، ولذلك يشق علينا أن نحكم حكماً جازماً عن حالة الفن في ذلك العهد اعتماداً على الآثار الفنية الضئيلة التي بين أيدينا . ولكننا اذا اعتمدنا على ما سجله المؤرخون فاننا نميل الى الاعتقاد بأنهُ كان أعظم عصور النهضة الصينية في

القوة والسؤدد ومن أعظم عصور الفن في تاريخ الدنيا بأسرها . كانت الصين حينئذٍ في أوج سلطانها وكان حكمها ممتداً غرباً حتى بحر قزوين ، وكان ذلك العصر أيضاً عصر أرقى الشّعر الصيني

أما عن اعظم آثار التصوير البوذي فيرى المستر بنيون أنها بلا شك آثار الفنّان وو ـ تاو ـ تزو (Wu Tao—zu) اشهر الاساتذة الصينيين . وثمة قصة عجيبة متواترة عن نهاية هذا الفنّان ، فقد رسم منظراً عامّا كبير الحجم على حائط في القصر الامبراطوري . وقد أسدلَ عليه ستارٌ أُعِدَّ لِزيحهُ الفنان الى جانبٍ لكي يرى الامبراطور ذلك المنظر الجامع لمشهد الجبال والغابات العظيمة وسيول المياه المنعطفة ولجماعة المرتادين للممارّ الصخرية وللطيور السابحة في الفضاء . فدهش الامبراطور أيّ دهشة لهذا المنظر الرائع . وشخص اليه مبهوتاً ! فقال الفنان : « ولكن داخل المنظر أجمل من خارجه ! » ثم صفق بيديه فانفتح باب كهف بين الصخور الأمامية ، وحينئذٍ خطا الفنان الى داخل عمله وأغلق الباب خلفه . وبينما الامبراطور يحملق مشدوهاً كان هذا الرسم الفني العظيم يبهت ويغيب عن الحائط دون أن يبقى أي أثر منهُ . فلم يُرَ بعده وو — تاو — تزو مرة أخرى !• وهذه الاسطورة الرمزية البديعة السامية المغزى تحدثنا بأن الفنان يستحيل الى ما يخلقه ، وأن روحه تنتقل الى عمله

والمعروف أن جميع الثلثمائة من التصاوير الحائطية التي نقشها وو — تاو — تزو قد فقدت ، ومع أن قليلاً من التصاوير الحريرية تنسب اليه فمن المشكوك فيهِ كثيراً أن هذه التصاوير أصيلةٌ ، ولعلنا نقترب من حقيقة القوة الفنية والحيوية العظيمة المنسوبة الى وو — تاو — تزو عند ما نتأمل مجموعة من الرسوم الخطية المأثورة عنهُ ، وهذه موجودة بين احدى المجاميع الخاصة في اوربا ، وهي مصداق افتتان النقاد والمؤرخين بحذقه العظيم . وليست هـذه الصورة مع ذلك من ريشة ذلك الاستاذ العبقري ، وانما هي نُسخٌ من الصور الأصلية صنعها أحد الاساتذة البارعين في القرن الحادي عشر ، وربما كانت الصور الأصلية المفقودة صوراً حائطية . وهي تمثل بعض الاساطير الشعبية القديمة عن المرَدة التي تصارع الحيوانات ، ولم يعرف عن صور اخرى فاقتها في قوة الرسم الخطي وفي التعبير عن القوة في الحركة . في ذلك الوقت نشأت مدرسة عظيمة للتصوير العام للطبيعة ، وكان أحد زعماء هذه المدرسة الفنان وانج وي (Wang Wei) وقد كتب بحثاً في ذلك ، وسجلات هـذا التصوير هي أشبه ما تكون بسجلات الموسيقى في اوربا الحديثة حيث تتناول موضوعات متقاربة ومتقابلة وتعرضها بعضها إِثرَ بعض . وليس لهـذا الطراز من الرسم مثيلٌ في الفن التصويري

(٥)

انقضت الدولة التّنجية العظيمة في سنة ٩٠٥ م ، وبعد نصف قرن من الحكم بواسطة دول

قصيرة العمر دخلت الامبراطورية في عصر جديد من المجد الذهني — ذلك هو العصر السُنجيُّ الذي استمرَّ كالعصر الاول الزاهر ثلثمائة سنة

وروح التصوير في هذا العصر الجديد روح التنبيه القوي . مثال ذلك أن نرى الازهار تغطس من الخارج في داخل إطار الصورة ، وأن نجد خيال نُوَّارةٍ محجوبة عن أعيننا ماثلاً فوق الماء ، فيخلق هذا لخواطرنا دنيا من الاخيلة عَبْرَ ما نرى !

كان الجمال ينشد لذاته ، وكان يلحظ في اهون الاعمال وأحقر الحرف والصنائع كما نرى في صورة الناسك الذي يقطع الخشب . وكان مشهد النوار لشجرة البرقوق مثلاً ، او مشهد الخطمية وهي ترتعش في مجرى الريح لا يقل في دلالته المعنوية والفنية لروح الفنان عن صورة احد المعبودات او احد الملائكة !

نبغ هذا العصر اذن في فن التصوير الطبيعي العام ، وفيه وجد العصر اسمى الادوات لتعبيره الفني . فكان الجبل والضباب والجدول للفن في العصر السنجي بمثابة ما كان الجسم الانساني العاري للفن في العصر الاثيني . وهذا ما يجعل للفن في ذلك العصر شأناً عديم النظير ، اذ لم يعرف في اي عصر آخر ولا في اي مكان آخر ان المناظر الطبيعية العامة اكتسبت مثل هذا الشأن بحيث تصير موضوعاً رئيسيًّا غلاَّباً حتى كأنما تشَنْ وروبنز ورمبرانت قد وهبوا جميعاً اعمق طاقاتهم الفنية وأقوى جهودهم لا لتصوير النماذج الجسدية بل لتصوير هذه المناظر الطبيعية ! وكانت الواح الصور التي عرضها المستر بنيون اثر ذلك شاهداً صادقاً على ان هذا الشعور العميق بروعة الطبيعة وحبها مما ميز الشعب الصيني منذ اقدم العصور . كان المصور الصيني بغير تعمد يكشف في تلك الصور عن ذهنيته وعن اسلوبه في النظر الى الدنيا والى الحياة . فاذا اردنا ان نفهم عقلية الفنانين في العصر السنجي فمن الميسور ان نلج اليها عن طريق شعر وردزورث . وقد يدهش البعض لهذا القول ، ولكن في اشعار الطاويين taoists الصينيين واقوالهم نجد تطابقاً عجيباً حتى في دوران التعابير لشعر وردزورث ، فنقرأ لهم امثال هذه التعابير « ان الدنيا شغلتنا اكثر مما يجب » و « السلبية الحكيمة » و « الباصرة الداخلية التي هي نعيم الوحدة » و « اني اعتقد ان كل زهرة تتمتع بالهواء الذي تستنشقه » و « ان نفحة من غابة الربيع قد تعلمك عن الرجال وعن الشر والخير الادبي اكثر مما تتعلمه من جميع الحكماء » !

أليس غريباً حقًّا ان يتفق هكذا في التفكير رجلٌ من وهاد كمبرلاند منذ مائة سنة ، واولئك الناس في الطرف الآخر من الدنيا منذ مائة والف سنة ! ؟ أليس هذا بمثابة شهادة مدهشة على تماسك الانسانية ؟ !

وقد عرض المحاضر بعد ذلك صوراً توضيحية لهذه العناية الفائقة برسم الطبيعة ، ووجه الانظار بصفة خاصة الى احداها حيث يبدو الاهتمام بالمنظر العام فوق الاهتمام برسم الاشخاص .

وفي الواقع كان الصينيون في العهد السنجي يعتبرون الخلوات الجبلية والسيول المتدفقة رفقاء الروح ، وهذا ما نلمحه مثلاً في صورة الجبل الذي يشمخ حتى يغيب في الضباب قمة بعد قمة كأنها الأوج بعد الاوج من مقاطيع ملحمة شعرية عظيمة ، حتى لنحس بأن الطبيعة صارت مرآة الذهن الانساني ! ومثل آخر صورة «عودة الصياد» فكأننا حين نتأملها نتأمل كورو (الرسام الفرنسي الشهير للطبيعة : ١٧٩٦ — ١٨٧٥) وقد وصفت صوره بأنها عبارة عن قصائد شعرية منقوشة الواناً ، كما عدّت من اسمى النماذج في تآلف الاصباغ وانسجامها وفي روحانيتها الفنية

ولعل الروح الصادق للفن الصيني هو ما رمز اليه احد كتاب الصين في القرن الثامن حين نعت نفسه بأنه « صائد السمك المسن في الضباب والمياه » ! لقد انفق وقته في صيد السمك ، ولكن هذا نوع من الانفاق الرمزي ، اذ انهُ لم يستعمل طعماً ولم يصطد سمكاً ! وقد سأله بعضهم : لماذا يتجول هكذا شريداً ، وعرض عليه سكناً مريحاً بدل الزورق الحقير الذي يعيش فيه . ولكنه اجابه قائلاً : «ماذا تعني بجولاني وتشردي حينما السماء العلى بيتي ، والبدر الساطع رفيقي ، والبحور الاربعة اصدقائي الذين لا ينفصلون عني ! ؟ اني لأوثر ان اتبع زمّج الماء الى وطن السحب على ان ادفن نفسي السرمدية تحت تراب الدنيا ! »

ومن انفس الصور التي عرضها المستر بنيون صورة من ريشة — ما يوان Ma Yuan — ولعله اشهر مصوري الطبيعة عند الصينيين — وهي شبيهة من بعض الوجوه بصورة رمبرانت المشهورة « الطاحونة » ، ففي كلتيهما يبرز من الجانب شكل قائم هو اظهر ما في تركيب الصورة ، ولكن بينما وضع رمبرانت طاحونته القديمة تجاه الافق عند الغروب الباهت ، نزع ما — يوان الى شجر الصنوبر تلفحه الريح وقد شمخت فوقه بروج الصخور لمرّ نهر . وصورة اخرى استرعت الانظار لانها — كما قال المحاضر — شبيهة في موضوعها بصورة «جرس التبشير (Angelus) للرسام الفرنسي الشهير ميليه [1] ، وهي واحدة من ثماني صور طبيعية في روحها ومراميها مما كان يرسم مثيله كل فنان صيني على ما يظهر في وقت ما من اوقات حياته الفنية . وموضوع هذا الرسم الصيني هو « جرس المساء من الهيكل البعيد » . وهو عبارة عن رسم تقريبي بالمداد يمثل الساعة حينما يخطو السائح نحو التلال التي تمثل آخر غاية رحلته فيسمع عن بعد جرس المساء ، ويتطلع الى اعلى فيرى النهار قد انتهى ورؤوس التلال آخذة تعتم في الغسق . ولكن الفنان الصيني لا يلجأ الى رسم الاشخاص لبيان قصته ، وحتى الجرس لا يبدو في الرسم ، وانما يكتفي بالرمز اليه باظهار قبة الهيكل بعض الشيء من بين اشجار الغابة فوق التل ، مكتفياً بهذه الاشارة

ولما تقدم الفن الصيني واستكمل نضوجه ابتدع طريقة في تقسيم فراغ الصورة لم يكن لها مثيل

---

(١) هو غير سميه المولود في انتورب (١٦٤٢ — ١٦٧٩) وان كان كلاهما فرنسي الدم . ورسامنا الشهير مولود في جروش بفرنسا في سنة ١٨١٤ وتوفي سنة ١٨٧٥م ، فبينهما يفصل قرن ونصف القرن

في عالم التصوير ، تلك هي طريقة « الموازنة » وهذا النوع من « التفريغ » الذي يبدو غريباً للعين الاوروبية كان يبدو لاول وهلة هوائيًّا ، ولكنه في الواقع ناجم عن نظام فكري للطاوية (واشهر ائمة هذه الديانة الصينية كان لاو — تسي Lo—Tse في القرن السادس قبل الميلاد ومن تعاليمه ان التأمل والتفكير المنطقي واجتناب العنف واغفال الشعائر المجردة هي وسائط التجدد) ، وهكذا اصبح الفراغ لا الامتلاء وحده ذا قيمة في التعبير الفني

وعرض المحاضر جملة صور لتمثل كيف انجب الخيال الصيني الرمزين الرائعين للتنين والببر ، وهي في تأليفها مثال للاستاذية البارعة . وكانت الصور الختامية جميعها ممثلة لمشاهد الطبيعة . قال بنيون : «ان خلف جميع هذا الفن الصامت تكمن العقيدة الثابتة بأن الفن في جوهره اتصال ما بين ذهن وذهن ، واتصال خواطر وعواطف صهرت في مزاج واحد ومجال التعبير عنها لغةً . وفي طاقة المشاهد ان يبلغ الى صميم ذهنية الفنان بواسطة الاثر الفني الصادق ، ثم عن طريق هذا ايضاً الى العمق والفراغ ، الى الافق غير المحدود للحياة العالمية ، وما لم تكمل هذه السلسلة من الارتباطات فان الصورة تعد كأنها غير موجودة او غير مستكملة الوجود . وهي لا تكتسب حياتها الكاملة الاّ في اذهان من يتأملونها منا ، ولن يزهر تفكير الفنان الاّ فينا ، ولا يولد عمله الجليل الاّ في نفوسنا . ومن هذا تظهر قيمة التوكيد للنصيحة النقدية التي توجه دائماً عن اهمية استعداد الناظر وتهيئة نفسه للتأمل في العمل الفني ، وذلك باخلاء ذاته ليملأها كل الاثر الفني ، طارحاً من ذهنه جميع الفروق الدخيلة ، بحيث يدخل فكر الفنان دخول ضيف في غرفة هيئت للترحيب به »

ازاء هذه الخواطر الفياضة يمكننا ان نفهم كيف ان هذا الفن استحال شيئاً فشيئاً الى جهد لقمع المادة واذابتها في فكرة ، وللتعبير بالاشارة عن المعنى الرواغ وعما لا يمكن وصفه . والشيء الوحيد الذي عدَّ ضروريًّا للعمل الفني هو ان يجاب معه بذرة اللقاح بحيث يزهر في ذهن من يتأمله

(٦)

يتضح مما تقدم ان الهام التصوير في العهد السنجي يتنقل ما بين سر لم يبح به كاملاً ، وعواطف وخواطر لا نعرف مصادرها وانما تأتي الينا في حالات خاصة واماكن خاصة ، وذلك الامتلاء الحيوي الوقتي الذي يبدو كالاسترداد لانسجام مفقود بين الانسان والطبيعة

وحول اواخر الدولة السنجية اخذ التصوير يتحول تحولاً مدرسيًّا . والتقليد المدرسي في التصوير الغربي يعنى بالاشخاص وبموضوعات البطولة (كما توصف) وهي موضوعات معرّضة لان تصير جد متعبة ، وأما الروح المدرسية في التصوير الصيني فقد لجأت الى تحويل الرسم التقريبي التأثري بالمداد الى طابع مألوف خاوٍ وهكذا استحال الى مجرد تسلّم واطّراد

وفي الدولة اليُوانيّة التي جاءت بعدُ ثم بالاكثر في الدولة المِنجية (من القرن الرابع عشر

الى القرن السابع عشر) — بالرغم من وجود فنّانين بارعين — أخذت النزعةُ الفنيةُ العامةُ تتحوّل تحوّلاً بطيئاً غير محسوسٍ الى التعلّق بالمظاهر وبالزخرفة وبالصبغة بدل ان تكون عميقة وبسيطة. بيد اننا نجد في ادوار الفنّ الصيني الاخيرة — جنباً الى جنب مع التقليد المدرسيّ الذي تتكرر معهُ الطرائق القديمة والأغراض القديمة — نزوعاً الى الثورة

وختم المستر بنيون محاضرتهُ النفيسة بقوله : « ولكني اريد أن أختم بشيءٍ مثاليٍّ للعبقرية الصينية في مظهرها المدرسيّ (الاكاديمي) ، فلنعدْ الى العهد السنجي » . وهنا عرض صورتهُ الأخيرة التي تمثّل طائفةً من البلشون (مالك الحزين) ثلجية البياض مستولية على شجرة صفصاف وفيها يتجلّى جمال الفن الصيني في طلاقتهِ وفسحتهِ وحركتهِ وانسجام فراغهِ ، قائلاً : « وكأننا نشارك حياة تلك الطيور وهي تخرج من الصورة وتدخل فيها ! ولو حاولت أن تقتطع بعض ذلك الرسم لشعرت فوراً بالتخلخل فيه كأنما شيءٌ حيٌّ قد شُوِّهَ ! وكيفما كان قصورُ الفن الصيني — واني لم أتعرَّض الاّ لوجه او اثنين من وجوهه — فلا يستطيع أحدٌ ان ينكر صفته الفنية كفن خالص . ولكن الفن الصيني لا يعيش لزخرفته الجميلة فقط فانه مثل دنيا لم يكشف بعد الاّ عن نصفها ، حينما نظلُّ دائماً نعجب بنضارة خواطرها ومشاعرها التي تزهر منها ، هي الإيحاء والإلهام اللذان تمنحهما لأنفسنا اليوم » !

***

ولا نزاع في أن موضوع الفن الصيني موضوع مشوّقٌ جدًّا لانهُ مشبع بدراسات متنوعة متعددة ، وقد اقتصرت محاضرة المستر بنيون على ناحية التصوير في أسلوب عرضي قصصي مقارن ، ولا يجوز لعارف اللغة الانجليزية أن تفوته مقالة بنيون نفسهُ في الجزء الخامس من الطبعة الرابعة عشرة لدائرة المعارف البريطانية (ص ٥٧٥ — ٥٧٩) ولا كتابه المسمى (المصورون في الشرق الاقصى Painters in the Far East) فضلاً عن اهم المؤلفات الممتعة في هذا الموضوع واخصها بالذكر كتاب جايلز Giles في التقديم لتاريخ الفن الصيني التصويري Introduction to the History of Chinese Pictorial Art وكتاب أمورا S. Omura عن المصورين الصينيين (Chinese Painters)

لقد كان بنيون بمثابة رسول يبشر لنا بجمال الفن الشرقي ، فما احرانا بالتطلع الى روعة الشرق وان كان للغرب سحره وجاذبيتهُ [1] ، فان من ينشد متعة الجمال الفني يتقصاه في الاقطار والاجيال على تباين اللغات والاديان كما ضرب لنا المثل الحي على ذلك شاعرنا المحاضر الفنان

---

(١) راجع ما تنشره مجلة (آسيا) Asia بين وقت وآخر من بحوث عن الفن الشرقي . انظر مثلاً عدد يونيه سنة ١٩٣٤ وما ذكر فيه عن مدرسة بالك الروسية وتأثرها بالفن الصيني وعدد ابريل ١٩٢٦ عن الفن الياباني

اعظم الرحلات الجوية الحديثة

التحليق بمنطاد

الى علو ستين الف قدم

تنزل قصة غزو الانسان لطبقات الجوّ العليا من كتاب المغامرة في صفحة من اعجب الصفحات. فمن نحو ثلاثين سنة حلّق رائدان المانيان بسلٍّ مدلًّى من بلونٍ الى علو ٣٥٤٢٠ قدماً فحسب تحليقهما من العجائب. ولكن الانسان لا يستطيع العيش طويلاً حيث مقدار الاكسجين في الهواء قليل، وهذان الرائدان كادا ان يلقيا حتفهما فظلّ عملها هذا لا ندّ لهُ مدّة عشرين سنة

ولكن ارتقاء الطائرات، واستنباط اسطوانة خاصة تجهز الطيّار بالاكسجين عند ما يقلّ هذا العنصر الحيوي في الهواء، مهّدا للانسان طريقاً جديدة لغزو طبقات الجوّ العليا. فحلّق الطيار الفرنسي لوكوانت Lecointe سنة ١٩٢٣ بطيارة الى علو ٣٦٥٢٠ قدماً. ومن ثم مضت الامم تتبارى في هذا الميدان فاحرزت امم مختلفة قصب السبق فيهِ الى ان كانت سنة ١٩٣٤ اذ حلّق دوناتي Donati الايطالي الى علوّ لم يبلغهُ احدٌ قبلهُ ولا بعدهُ، بالطيارة، وهو ٤٧٣٥٠ قدماً. وكان غراي الاميركي قد حاول ان يفوق من تقدمهُ مرتين باستعمال المنطاد فاضطرّ في الاولى ان يقفز بمظلتهِ بعد ان بلغ ارتفاع ٤٢٤٧٠ قدماً ووجد في الثانية ميتاً في سلّ المنطاد وقد تعطّل جهاز الاكسجين

فلما استنبط الاستاذ پيكار البلجيكي الكرة المعدنية المحكمة الاقفال، المدلاة من البلون بامراس، تغيّر وجه هذا الضرب من المغامرة او الرياضة. ذلك ان الطيار يستطيع ان يجلس الآن داخل الكرة، بمنجى عن هبوط الحرارة وقلّة الاكسجين خارجها، معتمداً على اجهزة في الداخل تجعل جوّ الكرة جوًّا طبيعيًّا، فثمة مادة كيمائية تمتص ثاني اكسيد الكربون الذي يزفرهُ واخرى لامتصاص الرطوبة واسطوانات خاصة لتجهيزهِ بالاكسجين. فاصبح الارتفاع الذي يبلغهُ غزاة الجوّ بعد استنباط پيكار لا يتوقف على جلد الطيّار، بل على حجم البلون الذي تُدلّى منهُ هذه الكرة العجيبة

بلغ بيكار في مغامرته الاولى (سنة ١٩٣١) ارتفاع ٥١٧٧٥ قدماً وفي رحلتهِ الثانية (سنة ١٩٣٢) ارتفاع ٥٣١٥٠ قدماً وهما ارتفاعان لم تبلغهما اية طيارة بعد. وتلت محاولتي پيكار محاولتان في روسيا ومحاولة في بلجيكا وثلاث في الولايات المتحدة الاميركية. وقصب السبق في هذا الضرب من التحليق للكومندور ستل Settle والكابتن فوردني Fordney الاميركيين احرزاه في سنة ١٩٣٣ اذ حلّقا بمنطاد «قرن التقدم» الى ارتفاع ٦١٢٣٧ قدماً. ومما يؤسف له ان الطيارين الروس بلغوا في

تحليقهم الى علو ٧٢ الف قدم ولكنهم لم يعودوا احياء الى سطح الارض وعودة الطيارين احياء الى سطح الارض شرط اساسي في احراز قصب السبق

الاَّ ان التحليق الى أقصى ارتفاع مستطاع لم يكن بحد ذاته الغرض الذي رمت اليه المحاولات المختلفة في بلجيكا وروسيا واميركا بل كان المنطاد في كل حالة قد جهز بأدوات علمية متباينة غرضها الكشف عن بعض الاسرار الطبيعية التي يمنعنا عن كشفها الدثار الهوائي الكثيف المحيط بالارض

ولعلَّ القارىء يدرك ما تقتضيه محاولة من هذا القبيل وما تتجه اليه من الاغراض من وصف رحلة قام بها المنطاد الاميركي (اكسپلورَر Explorer) في صيف السنة الماضية

كان الغرض من هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر ، الكشف العلمي . ولذلك كانت الادوات العلمية التي جهز بها — وبعضها صنع له خاصة — تزن اكثر من طن . فكرة المنطاد كانت في الواقع معملاً علميًّا محلقاً في الجو . ولما كان الهواء في طبقات الجو العالية لطيفاً كل اللطف ، وضغطه هناك لا يزيد على جزء من ١٥ جزءًا من ضغطه على سطح الارض ، كان لا بد من جعل كيس المنطاد كبيراً حتى يستطيع ان يحمل بعد انتفاخه ، كرة من المعدن فيها ثلاثة طيارين عدا الادوات العلمية

فالمنطاد الذي حلق به بيكار كانت سعته ٥٠٠٠٠٠ قدم مكعبة من الغاز . والمنطاد الذي حلق به «ستل» و «فوردني» كانت سعته ٦٠٠٠٠٠ قدم مكعبة . ومنطاد الروس كانت سعته ٩٠٠٠٠٠ قدم مكعبة . اما هذا المنطاد — الاكسپلورَر — فكانت سعته ٣٠٠٠٠٠٠ قدم مكعبة

وكانت الجمعية الجغرافية القومية الاميركية بالاشتراك مع سلاح الطيران الاميركي ، قد عينت لجنة من العلماء لوضع برنامج علمي لرحلة المنطاد فحصرته في اربعة اغراض : —

(اولاً) دراسة الاشعة الكونية — (ثانياً) تحديد مكان طبقة الاوزون في الطبقة الطخرورية (Stratosphere) — (ثالثاً) تركيب الهواء على مرتفعات مختلفة من الطبقة الطخرورية — (رابعاً) المقابلة بين اقيسة الارتفاع المعيَّنة بطريقة التصوير الفوتوغرافي لسطح الارض من علٍ ، والاقيسة المعينة بالاعتماد على ضغط الهواء (البارومتر)

وقد اشتركت طائفة كبيرة من علماء اميركا في إعداد أفضل الأجهزة العلمية لتحقيق هذه الاغراض . بل أن هذه الرحلة من أولها الى آخرها آية من آيات التعاون في سبيل العلم . فالجمعية الجغرافية القومية تعهدت بتسديد نفقات الرحلة ، وسلاح الطيران الاميركي بانتداب ثلاثة من ابرع طياريه للقيام بها ، وقد اشتركت السلطات العامة والمحلية في اختيار ميدان لملء المنطاد بالغاز واعداده وتجهيزه بوسائل الاضاءة والحراسة والمخاطبة السلكية واللاسلكية والمعالجة والوقاية من النار والإنباء بحالة الجوّ

ولما تمت المعدات في ٢٣ يوليو سنة ١٩٣٤ ووردت الانباء من رصَّاد الجوّ ان الحالة الجوية على خير ما يمكن ان تكون ، أخرج كيس المنطاد من مخبأه ، وبدأ ملؤه بغاز الايدروجين في الساعة

الثامنة مساءً فلما كان منتصف الليل كان كيس المنطاد يحتوي على ٢٠٠ الف قدم مكعبة من الغاز مع أن سعته ثلاثة ملايين قدم مكعبة . وتفسير ذلك انهُ اذا أخذ المنطاد في الارتفاع ، تمدَّد الغاز . فاذا بلغ الغاز مدى سعة المنطاد من التمدُّد ، اخذ يخرج من صمامات خاصة بذلك . وكان المقدَّر أن يرتفع هذا المنطاد الى ٦٥ الف قدم . وعند هذا العلو يكون الغاز الذي فيهِ قد بلغ في تمدُّدهِ سعة المنطاد الكاملة فيشرع في التسرُّب منهُ . لذلك اكتفي بملئهِ بما مقداره ٧ في المائة من سعته التامة. ويقول الذين رأوا المنطاد عند أول تحليقهِ أنهُ كان يشبه علامة كبيرة من علامات التعجُّب !

ولما تمَّ فحص معدَّات المنطاد جميعها ، صعد الماجور كِبنر والكابتن ستيفنز والكابتن اندرسن الى الكرة ، وكان قرن الغزالة قد ذرَّ ، فأصدر الماجور كِبنر أمره باطلاق المنطاد من القيود التي تقيده بالارض . فهتف عشرون الفاً من الاميركيين كانوا قد احتشدوا هناك لمشاهدتهِ

كانت الخطة ان يتريث الطيارون قليلاً في تحليقهم عند ما يبلغون ارتفاع ٤٠ الف قدم للقيام بالارصاد العلمية ثم يتوقفون ثانياً عند ما يبلغون ارتفاع ٦٠ الف قدم . ثم بعد ذلك يرتفعون الى أقصى ما يمكن ان يبلغه المنطاد وهو ٦٥ الف قدم . وقد تمت المرحلة الاولى بحسب البرنامج المتفق عليهِ . ثم مضوا في التحليق رويداً رويداً ، حتى أتموا المرحلة الثانية ، وكان كيس المنطاد قد انتفخ فاصبح كرة عظيمة وقد تدلت منها كرة صغيرة . فتطلع أحد الرجال من ثقب في أعلى الكرة المعدنية الى الكيس الكبير ، فوجد فيهِ شقوقاً دلَّت على أن الحيطة تقضي بالاستغناء عن التحليق الى علو ٦٥ قدماً لئلا يتسع الخرق بازدياد انتفاخ الكيس. ولذلك بعد أن قضوا نحو نصف ساعةٍ على ارتفاع ٦٠ الف قدم ، اخذوا يهبطون رويداً رويداً الى ان بلغوا ارتفاع ١٨ الف قدم فخرج الرجال من الكرة — لان التنفس على هذا العلو طبيعيٌّ لطيارين مجرَّبين — الى سطحها وقد لبس كلٌّ منهم مظلته الواقية ، وراقبوا الشقوق في كيس المنطاد ، فرأوها قد اتسعت . ثم ما لبث القسم الاسفل من نسيج الكيس ان سقط على الكرة واصبح في مستطاع الرجال أن ينظروا الى داخل المنطاد ، فاذا هو أشبه ما يكون بمظلة (باراشوت) الكبيرة . ولكن وجه الخطر في ذلك ان ايدروجينهُ كان قد أخذ يختلط بالهواءِ ، وخليط الايدروجين والهواءِ ، خليط متفجر ، فلما كان المنطاد على ثلاثة آلاف قدم فوق الارض حدث انفجار نسف الكيس ، واخذت الكرة المعدنية تسقط كأنها جلمود صخرٍ منقضٍّ . ولكن الرجال كانوا متأهبين للخطر ، فقفزوا في الهواءِ معتمدين على مظلاَّتهم الواقية ، وسقطت الكرة في حقول الحنطة ووصل الرجال سالمين الى الارض

وكان الظن في البدءِ ان الادوات العلمية تحطَّمت جميعها ، وان الشرائط السينمية التي دونت عليها الارصاد تدوينًا فوتوغرافيًّا قد تلفت لتعرضها للضوءِ بعد السقوط ولكن المجلة العلمية الشهرية تقول ان جانباً كبيراً من الارصاد قد حفظ ، والمعدات تعدُّ الآن لرحلةٍ اخرى في الصيف المقبل بمنطاد تكون سعتهُ ٣٧٠٠٫٠٠٠ قدم مكعبة ويملأُ كيسه بالهليوم بدلاً من الايدروجين منعاً لخطر الانفجار

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

محمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز اذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة او الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

شجر الأراك

وهو شجيرة ملساء اوراقها متقابلة كاملة الحافات ثخينة ولها ملمس الجلد مستطيلة . واذا مضغت كان طعمها كالخردل فلا عجب اذا سماها الانجليز في لغتهم بشجرة الخردل. وزهرها صغير جدًّا ابيض مخضر يوجد في عناقيد باطراف الاغصان او في آباط الاوراق . وثمرتها اكبر من الحمصة قليلا [1]

اسمهُ العلمي (سالقادورا پرسيقا) (Salvadora persica, L) وفصيلتهُ الاراكية (Salvadoraceae) (سالقادوراسية) وبالانجليزية (The mustard-tree) وبالفرنسية (Salvadore)

وهو بري نادر في الصحاري المصرية في الارض الكلسية ولكنهُ ذائع في السودان وفلسطين وبلاد العرب وغيرها

واهل السودان يستاكون بالفروع وهذا ما يعرف عند العرب وعندنا بالسواك . ويعتصرون من البزور زيتاً اخضر. ويستعملون خلاصة ما يغلى من قشرة الشجيرة طبيًّا لامراض الجلد. ويأكلون الثمار ويقال ان الشجيرة تنتج نوعاً من الراتنج او الصمغ نافع لصنع (الورنيش)

***

شجر الأثل

ويقال له (العبل) و (الحطب الأحمر) . في بلاد النوبة والسودان (الفارق) و (العبل) و (الطرفا)

---

(١) في تاج العروس انها عند العرب الجهاض او الجهاد او البربر او المرد او الكباث

وهو شجر تتصل فروعه بعضها ببعض اتصالاً مفصليًّا وورقه ضئيل تبدو الطائفة من اغصانهِ الصغيرة كنفضة الريش المعروفة وزهره مبعثر بلا نظام في سنابل رفيعة طويلة

اسمه العلمي (.Tamarix articulata, Vahl) (تاماريقس ارطيقولاتا) وفصيلته الطرفائية (Tamaricaceae) (تاماريقاسية) وبالانجليزية (Tamarisk) وبالفرنسية (Tamaris)

والأثل موجود في مصر في الأراضي الرملية والملحية وفي السودان وفي جنوب المنطقة الاستوائية وشمال افريقية والشرق الادنى الى الهند

ينتفع بخشبه للوقود ويصنع منهُ فحم وخشبه أبيض متوسط الصلابة واذا احرق وهو أخضر تصاعدت من دخانه رائحة كريهة

وفي السودان يستعمل عفصه في الصباغة والدباغة ويسمونه (البجْم) وهو بالفارسية (كَزْمازِك)[1] ونقل الى العربية (جَزْمَازِج) أو (حَب مازِج) أي ثمرة الأثل

وتوجد من الأثل أنواع اخرى أهمها نوعان بمصر والسودان وبلاد العرب وسوريا وهما (.T. nilotica, Ehrb) (تاماريقس نيلوتيقا) وهو شجرة توجد في الأراضي الرملية وعلى ضفاف الترع اوراقها كقشور السمك وفروعها دقيقة قائمة وزهرها أبيض أو أبيض قرمزي مكتظ في عناقيد بأطراف الفروع . والثاني (.T. mannifera, Ehrb) (تاماريقس مانيفرا) شجرة تنمو على الشواطىء البحرية أوراقها كما في النوع السابق وزهرها في سنابل كثيفة

ويوجد في الهند (.T. indica, Rox. v. T gallica, L) (تاماريقس انديقا أو تاماريقس غاليقا) وفي بلاد العرب وبلاد البحر الابيض المتوسط أيضاً وينتفع طبيًّا بما يفرزه من السكر المعروف (بالمن العربي) قيل إن افرازه ناتج عن وخز حشرة (Coccus manniparus) (قوقوس مانيپاروس) وهو غير (الترنجبين) أو (التره نيابن) أو (الترانجلين) أو (المن الفارسي) الذي يفرزه نبات آخر اسمه (الحاج) المعروف في مصر (بالعاقول) أو (شوك الجمال) من الفصيلة البقلية وهو غير (الشيرخشت) أو (المن الخراساني) الذي قيل إنهُ من نوع شجر من الزيتون وغير (المن الصقلي) الذي يفرزه نوعان من شجر (لسان العصافير أو الدردار) من الفصيلة الزيتونية وغير (المن الصمغي الاسترالي) الذي يفرزه نوع من شجر (الاوكاليپتوس) من الفصيلة الآسية وغير (المنّ الكردستاني) الذي يقال بأنهُ من نوع شجر من البلّوط من الفصيلة البلّوطية الى غير ذلك من انواع المن المختلفة. هذا وكثيراً ما تسمى جميع انواع المن (بالشيرخشت) وهي كلمة فارسية نقلت الى العربية

اما المنّ الذي انزل على بني اسرائيل فقد قيل فيهِ ان كلمة (manna) الافرنجية ويقابلها (من) بالعربية اصلها مشتقة من كلمة (man-hu) العبرية ومعناها بالعربية (ما هي ؟) للاستفهام او التعجب

(١) قال الرئيس بن سينا في القانون الكزمازك حب الاثل وهي كلمة فارسية اي عفص الطرفاء ومازك بالفارسية هو العفص وكز تعريب كج وهو الاعوج وكأن تفسيره العفص الاعوج .

فاذا صح ذلك فهي دلالة على ما كان عليهِ بنو اسرائيل من الدهشة والجهل بحقيقة تلك المادة اثناء وقوع المعجزة

وعليهِ فالقول بأن منّ بني اسرائيل كان من المن العربي افتراضي محض خصوصاً وقد قيل في وصفه في بعض المراجع انهُ (كان ابيض شبيهاً ببزور الكزبرة)

وتقول بعض المصادر العربية إنهُ طل كان ينزل من السماء على شجر او حجر ويحلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ كالشيرخشت والترنجبين. وفي الصحاح المن كالترنجبين . وفي المحكم طل ينزل من السماء وقيل هو شبه العسل كان ينزل على بني اسرائيل. وقال الليث المنّ كان يسقط على بني اسرائيل من السماء اذ هم في التيه وكان كالعسل الحامس (الشديد) حلاوة . والمعروف بالمن عند الاطباء ما وقع على شجر البلوط

وقال الآلوسيّ والمشهور ان المن الترنجبين وهو شيء يشبه الصمغ حلو مع شيء من الحموضة كان ينزل على بني اسرائيل كالطل من طلوع الفجر الى طلوع الشمس في كل يوم الاّ يوم السبت وكان كل شخص مأموراً بأن يأخذ قدر صاع كل يوم او ما يكفيهِ يوماً وليلة ولا يدخر الاّ يوم الجمعة فان ادخار حصة السبت كان مباحاً فيهِ وقيل المراد بهِ جميع ما منّ الله تعالى به عليهم في التيه وجاءَهم عفواً بلا تعب واليه ذهب الزجاج ويؤيدهُ قوله صلى الله عليهِ وسلم الكمأة واسمها بالانكليزية (Truffle) من المن الذي منّ الله تعالى بهِ على بني اسرائيل

***

نبات الفوّة

الفوة عشب اخضر برّاق له ساق زاحفة تكون قصيرة احياناً وله سوق هوائية منتشرة قد تتسلق بأشواك قصيرة توجد على حافات الاوراق وعروقها او على زوايا الساق الرباعية الضلوع وعروقه الجذرية قرمزية اللون تقريباً شحمية وامتدادها في الارض اطول من السوق . وأوراقه في دوائر بكل منها اربع او ست . وورقته بيضية مستطيلة طولها من ٢ – ٣ ½ سنتيمتر ولها ذنيب (عنق) قصير جدًّا او جالسة تقريباً . وزهراته صغيرة مصفرة تميل الى الاخضرار في عناقيد ابطية او طرفية غير مكتظة اطول بكثير من الاوراق . وثماره صغيرة سودٌ . وهو من الاعشاب المعمرة

اسمه العلمي (Rubia tinctorium, L.) (روبيا تنقتوريوم) وفصيلته الفوّية (Rubiaceae) (روبياسية) وبالانكليزية (Dyers' Madder) وبالفرنسية (La Garance)

والعرب يطلقون الفوة على العروق (الجذور) وهي التي تستعمل في الصباغة للحصول على اللون الأحمر وذلك من قبيل اطلاق اسم الكل على الجزء فهم يسمون عروق النبات باسمه كما ورد في المعجمات

والفوة تزرع في بلاد البحر الابيض المتوسط وفي الهند وقد كانت تزرع في مصر ابتداء من سنة ١٨٣٣ من النباتات التي ادخلها محمد علي باشا ثم ابطلت زراعتها بعدئذ

والجذور تجفف وتسحق وتستعمل في الصباغة ويطلق عليها (فوة الصباغين) او (العروق الحمر) أو (عروق الصباغين) وتدخل في صناعة المداد المسمى (اليزارين) (Alizarin) وقد استعيض عنه بالاليزارين الصناعي المستخرج من قطران الفحم الحجري

وللفوة استعمالات في الطب ويوجد منها انواع مختلفة عديدة باوربا وآسيا وامريقة وافريقية

***

كوكب الوعر

عشب معمر اغصانه ترتفع ٢٠ سنتيمتراً وأوراقه بيضية الشكل مستطيلة تكون دوائر على الساق في كل منها ٨ اوراق وزهراته ذكية الرائحة جداً بيضاء اللون مجتمعة في نورة مشطية ثلاثية الشعب

اسمه العلمي (Asperula odorata, L.) (اسپرولا اودوراتا) وفصيلته الفويّة (Rubiaceae) (روبياسية) وبالانجليزية (Woodruff)

وبالفرنسية (Asprule odorant, hépatique etoilèe; reines de bois)

وتحوي زهراته زيتاً طياراً فيه كثير من مادة (القومارين) (Cumarin) يحضر منها شراب قرمزي اللون بألمانيا يسمى (مترانق) (Maitrank) له استعمالات في الطب

وهو ينبت في الغابات الجبلية بأوربا وآسيا وشمال افريقية

***

الغاليون الاصفر

ساقه قائمة او صاعدة خشنة اسطوانية وأوراقه منعكسة رفيعة ملساء خضراء اللون لامعة من اعلاها ومائلة الى اللون السنجابي من اسفل ووبرية وتكون دوائر على الساق في كل منها من ٦—١٢ ورقة وزهراته صفر فاقعة تكون سنبلة متفرعة طرفية . اسمه العلمي (Galiumverum, L.) (غاليوم وروم) وفصيلته الفويّة (Rubiaceae) (روبياسية) وبالانجليزية (Cheese-Rennet) وبالفرنسية (Caillet-lait jaune)

ويطلق عليه (عشب الإنفحة) من قديم لأن بعضه يخثر اللبن (يجعله جامداً) اذا وضع فيه وله استعمالات في الطب ويوجد من الغاليون انواع مختلفة عديدة باوربا وآسيا وافريقية

التربية والتعليم

عند قدماء المصريين

للدكتور حسن كمال

اكرام الاساتذة

والآن ننتقل الى موضوع اكرام اجدادنا لاساتذتهم وشدة احترامهم اياهم ومنهُ يتضح عظم تقديرهم للعلم وشدة ولعهم بالتعليم ومعاهده. ولا ادلّ على ذلك من ايراد خطاب كتبه طالب الى استاذه ورد بقرطاس انسطاسي [1] وفيهِ يتجلى الشعور الرقيق والاحترام والحب الذي كان يغمر قلوب التلاميذ نحو معلميهم . واليكم تعريبه : —

« الى الاستاذ . . لقد تعهدت تربيتي في طفولتي وكنت تضربني على ظهري حتى دخلت تعاليمك في اذني . انني الآن اشبه بالجواد المرح فلا نوم يأتيني نهاراً ولا نعاس يغشاني ليلاً وكل همي ان اقوم بما يرضي سيدي كما يخدم الخادم سيده

«اتمنى لو اشيد لك قصراً فخماً ببلدتك تحيطهُ الاشجار من كل الجهات. بهِ زرائب مملوءة بالمواشي وشونٌ ملآنة شعيراً وقمحاً .. وبهِ القمح والفول والعدس .. والكتان والخضراوات.. وفواكه تكال بالسلال

واتمنى ان يكون لك مع القصر اغنام يتضاعف عددها وكذا بقرات حبالى . وان ازرع لك خمسة افدنة بالخضراوات في جنوب بلدتك من خيار وغيره وخيرات كعدد الرمال ....

وجاءَ بقرطاس انسطاسي [2] ايضاً خطاب من تلميذ الى معلمهِ نقتطف منهُ ما ترجمته : —

«سيدي العزيز : اطال الله عمرك ووهبك الخيرات كل يوم. واسبغ عليك السرور والفلاح والرضى مرات لا تعدّ ولا تحصى. وجعل الفرح والسرور ملازمين لك والصحة من نصيب اعضائك. انت تزداد شباباً بمرور الايام ولا يعتريك الاذى وتدور احياناً بمخيلتي فأتذكر جمالك الفذّ الذي لا يضارعه جمال. عيونك تتلألأ كل يوم واذنك تنصت (لكل ما يقال). سنونك جميلة جداً. واشهرك مقرونة بالنعيم. وايامك ملآنة حياة وساعاتك كلها صحة وسلامة . الآلهة راضية عنك راغبة في كلامك . . . »

الآثار العلمية

﴿ الخط الهيرغليفي ﴾ يعتبر استنباط الكتابة في ذاته اهم ما انجبه الذهن المصري القديم من الوجهة العلمية. فبهِ تمكن اجدادنا من اثبات معلوماتهم واخبارهم نقشاً على الحجر او كتابةً على الورق.

(١) Pap. Anastase IV. 8. 7 ff (٢) Pap. Anast. III 4, 4.

فسجلوا بذلك مباحثهم الفنية واثبتوا سبقهم لسائر الامم في كل العلوم ولعمري كم من السنين صرفها القوم في ابتكار هذا الخط في احوال معاشية اقلما يقال عنها انها فطرية. وكان الخط الهيرغليفي في مبدائه صوريًّا . وبالرغم من التحسينات التي طرأت عليهِ قد حافظ على صوريته الى آخر عهده . ونسب القوم ابتكار هذا الخط الى معبودهم (تحوت) . وحوالي عام ٣٠٠ بعد الميلاد زال كل أثر للخط الهيرغليفي فبقي مجهولاً حتى عام ١٧٩٩ ميلادية لما اكتشف حجر رشيد . ومنهُ عرفنا ان الاحرف المصرية القديمة نوعان صوريٌّ وصوتيٌّ . وان الاحرف الصورية قسمان هجائي ومركب . وتمثل الاحرف الصورية الاشياء التي تعنيها . ويكتب الخط الهيرغليفي من اليمين الى الشمال او من الشمال الى اليمين او بهيئة اعمدة رأسية . ويقرأ من الجهة التي تتجه اليها اوجه الحيوانات والطيور . ولا يخفى ان هذا الخط هو مجموعة لحيوانات واشجار وادوات ذات الشكل الجذاب . لذلك استعمل كثيراً لزينة المعابد والمنازل والادوات المنزلية كالصناديق والحلى وادوات الحرب وغير ذلك . ومن هذه المصادر استنتجنا شيئاً كثيراً من معلومات هؤلاءِ القوم . والجزء الباقي وصل الينا عن طريق القراطيس البردية وروايات المؤرخين

ومن أقدم الازمنة المعروفة اختزل هذا الخط الى الخط الهيراطيقي الذي اعتاد القوم ان يكتبوهُ على الادراج البردية والتوابيت الخشبية . ويكتب عادةً من اليمين الى الشمال ووجد هـذا الخط على بعض قصاصات بردية من عهد الاسرة الرابعة (٢٧٢٠ — ٢٥٦٠ ق . م) بجزيرة الفيل باسوان واقدم سجل هيراطيقي هو المعروف باسم قرطاس (پريس Prisse) الذي يرجع تاريخه الى الاسرة الحادية عشرة (٢١٠٠—٢٠٠٠ ق . م) وهو محفوظ بالمكتبة الاهلية بباريس Bibliothèque Nationale واستمرَّ استعمال الخط الهيراطيقي حتى القرن الرابع بعد الميلاد

واختزل الخط الهيراطيقي في عهد الاسرة الخامسة والعشرين حوالي (٧١٢ ق . م) واطلق عليهِ اسم الخط الديموطيقي الذي بطل استعماله حوالي القرن الرابع بعد الميلاد

﴿علم الفلك وتقسيم الزمن﴾ من سنة ٤٢٤٢ ق.م. استعمل المصريون السنة الشمسية في توقيتهم وقسموها الى ٣٦٥ يوماً . وقد رسموا السماء وعرفوا اهم نجومها وابتدعوا الآلات التي تعرفهم مواقع النجوم . وهناك رسوم لمواقع النجوم لكل خمسة عشر يوماً على طول السنة . وأهم مراصدهم كان في طيبة ودندرة ومنف وعين شمس . وقسم القوم سنتهم الى ثلاثة فصول زراعية وكل فصل الى اربعة اشهر فصارت بذلك السنة اثنى عشر شهراً . ولم يستعمل المصريون في زمنهم وحدة اطول من السنة ولم يستعملوا الاسبوع وقسموا الليل والنهار الى اثنتى عشر ساعة . وابتكروا ساعات الظل والمزاول والساعات المائية

﴿الزراعة﴾ اهتم المصريون بالزراعة منذ اقدم العصور فقسموا سنتهم الى ثلاثة فصول فصل البذر وفصل الحصاد وفصل الفيضان . وابتكروا مقاييس النيل وفرضوا الضرائب على المساحة

المزروعة . وشادوا خزاناً بالفيوم يحجز مقداراً من الماء يكفي لري الدلتا بعد هبوط النيل . وابتكروا الشادوف والفأس والمحراث والمدراه والمنجل ومساحة الاراضي وأنشأوا الترع والجسور . واعتنوا بالحيوانات الداجنة واستوردوا الاشجار والحيوانات من البلدان المجاورة . وتفننوا في الصناعات الزراعية . ونقشوا كل ذلك على جدران مقابرهم

﴿ الهندسة والحساب ﴾ اهم ما عثر عليهِ من هذين العلمين هو قرطاس (Rhind) المحفوظ بمتحف لندرة وهو قرطاس يرجع تاريخه الى حوالي ١٦٠٠ ق . م. وجميع المسائل التي فيه عملية وتتطلب معرفة كبيرة في علمي الحساب والهندسة

مثال (١) (عملية ٣٩) مطلوب قسمة مائة رغيف على عشرة رجال بحيث يكون نصيب ستة رجال خمسين رغيفاً ونصيب الاربعة الباقين الخمسين رغيفاً الباقية

تحل هذه المسألة بايجاد العدد الذي يضرب في ٤ كي يصير حاصل الضرب ٥٠ وهو في هذه الحالة ½ ١٢ ثم ايجاد العدد الذي يضرب في ٦ كي يصير حاصل الصرب ٥٠ وهو في هذه الحالة ⅓ ٨

مثال (٢) مطلوب معرفة مساحة مثلث ارتفاعه ١٠ (خت) وقاعدته ٤ (خت). الحل : قسم ٤ على ٢ فتكون النتيجة ٢ وهو طول ضلع المستطيل الذي مساحته تساوي مساحة المثلث : اضرب ١٠ خت (وهو ارتفاع المثلث) × ٢ فيساوي ٢٠ خت مربع وهو المساحة المطلوبة

ولا يخفى على القارىء ان المقام لا يتسع للتفصيل لذلك اكتفيت بذكر ابسط مثال حسابي وآخر هندسي مشفوعين بطريقة حلها . لكن زيادة في الايضاح سأورد بياناً ببعض الاسئلة التي كانت توضع للطلبة للاجابة عليها للاستئناس بها فقط

(١) ما هو الكسر الذي يضاف الى ⅔ + $\frac{1}{15}$ كي يصير المجموع ١ صحيح (عملية ٢١)
(٢) قسم ستة ارغفة على عشرة رجال (عملية ٣) : قسم تسعة ارغفة على عشرة رجال (عملية ٦)
(٣) ما هو العدد الذي اذا اضيف اليهِ ربعه يكون المجموع ١٥ — الجواب ١٢ (عملية ٢٦)
(٤) ما هو العدد الذي اذا اضيف اليهِ نصفه وربعه يكون المجموع ١٠ — الجواب $\frac{5}{7}$ ٥ (عملية ٣٤)
(٥) ما حجم المكعب الذي يبلغ طول كل ضلع فيهِ ١٠ — الجواب ١٠ × ١٠ = ١٠٠ ١٠٠ × ١٠ = ١٠٠٠ (عملية ٤٤
(٦) هرم طول ضلعه ١٤٠ ذراعاً ونسبة ميله ¼ ٥ قبضة فما هو ارتفاعه ؟ الجواب ⅓ ٩٣ (عملية ٥٧)
(٧) ما مساحة قطعة ارض دائرية قطرها ٩ (خت) (عملية ٥٠).
(٨) هرم طول ضلعه ٣٦ ذراعاً وارتفاعه ٢٥٠ ذراعاً والمطلوب نسبة ميله (عملية ٥٦)

﴿ الطب ﴾ : برع القدماء المصريون في الطب وخلفوا لنا الاوراق البردية والنقوش الطبية العديدة وأثبتوا لنا بأجلى صورة طول باعهم في هذا العلم . فهم أول من اعتبر القلب مركزاً للاوعية . وأول من اكتشف النبض وعلاقته بالقلب . ثم أنهم أوردوا لنا رسوماً واضحة لعملية الختان وذلك

بمقبرة بسقارة ورسوماً اخرى لتجبير العظام في المقبرة نفسها. وأوضحوا لنا وجود مرض السل بالعمود الفقري ولين العظام وأمراض العظام الاخرى وذلك في صور الاشخاص المنقوشة على جدران المعابد أما معلوماتهم عن التحنيط فحدّث عنها ولا حرج فهم أول من أوجد هذه الطريقة وأتقنها واستعملوا لذلك العقاقير المتباينة و الاجراءات الجراحية الفنية المختلفة . وقد أخذ الغير عنهم هذه الصناعة حتى انتقلت الى آسيا وامريكا وغرب افريقيا واليهم يرجع الفضل في استعمال العقاقير الكثيرة في العلاج حتى عهدنا هذا . من ذلك : زيت الخروع. وقشر الرمان والحنظل. وكبرتات النحاس. والافيون وغير ذلك

التعاليم الدينية والفلسفية

﴿ التعاليم الدينية ﴾ هي اقدم ما عرف من علوم قدماء المصريين . وجدت مدونةً في عدة جهات من اهرام وتوابيت وصفائح قبور وادراج بردية وغير ذلك

واهم هذه التعاليم هي المعروفة بنصوص الاهرام [١] التي يرجع تاريخها الى الاسرتين الخامسة والسادسة (٢٥٦٠ــ٢٢٧٠ ق.م) وهي خاصة بنعيم الميت وتحوي التعاويذ الكثيرة لراحته في الآخرة وكذا الدعوات التي كانت ترتل وقت تقديم القرابين . ومن عهد الاسرة التاسعة (٢٢٤٠ ق .م) حتى الاسرة الحادية والعشرين (١٠٠٠ — ٩٤٥ ق . م) نقش الامراء هذه النقوش على توابيتهم من الداخل . وهناك تعاليم دينية اخرى وجدت مكتوبة على توابيت الموتى خاصة بالرعية القصد منها ضمان الغذاء والشراب والراحة لصاحبها والتمكن من الظهور بالشكل الذي يرغبهُ كي يتابع سروره وملذاته وتعرف هذه النصوص باسم نصوص التوابيت Coffin Texts [٢]

وهناك نصوص دينية اخرى تعرف باسم كتاب الموتى Book of The Dead هي مجموعة دعوات وصلوات وتعاويذ متنوعة وردت مدوَّنة بكثرة على الورق البردي حتى العهد الروماني

ثم كتاب الآخرة Book of what is in the underworld [٣] وكتاب ابواب الآخرة Book of Gates [٤] ودعاء الشمس Litany of the Sun [٥] وقصة ابادة البشر Destruction of Mankind E. Naville Recherche 4. I. 12 ومدائح المعبودات Hymns to the Gods مثل مدحة النيل Hymn to the Nile Maspero 1912 ومدحة امون رع Hymn to Amen Re A. Mariette Pap. Mus. Bouloque 1871—II ومدحة اتون Hymn to Aten Vol 4,6 Davies Rock tombs of El-Amarna

ولكي أظهر ما تحويه تلك التعاليم من معانٍ سامية وآداب راقية أورد هنا بعض عبارات جاءَت في كتاب الموتى يقولها المتوفي أمام الآلهة في الآخرة هذه ترجمتها : —

(١) Kurt Sethe Die Altaegyptichen Pyramiden texte 4 vols Lepzig 1901—22

(٢) P. Lacau Sarcophage anterieur au nouvele empire, 2 vols 1904. 6 also Cat. General des music du Caire

(٣) E. Lefebure Annales du Musée Guimet vol. 9, 16

(٤) Naville La litanie du Solleil 1875

لم استعمل القسوة مع انسان . لم أسرق . لم أقتل رجلاً أو امرأة . لم أخسر المكيال . لم أرتكب الغشّ . لم آخذ لنفسي حاجات الآلهة ، لم أكذب ولم اهرّب الغذاء ولم أتلفظ بألفاظ جارحة . ولم اهجم على انسان . ولم اقتل الوحوش الخاصة بالمعبودات . ولم ارتكب رياءً . ولم أترك الأراضي الزراعية بوراً ، ولم اوقظ فتنة . ولم أغتب أحداً . ولم أترك نفسي ضحية الغضب . ولم أتعرّض لزوجة بمكروه . ولم ارتكب ذنباً ضدّ العفة . ولم اسبب رعباً . ولم أتعدّ حدود الأزمنة والأمكنة المقدسة . ولم أكن غليظ الخلق . ولم أتصنع الصمم وقت سماع الحق والعدل ولم أشعل نار ثورة . ولم أسبب البكاء لانسان . ولم أرتكب الموبقات . ولم أكن أحمق . ولم أسيء الى انسان . ولم أتبع سبيل الرهبة . ولم أتسرع في اصدار حكم . ولم أنتقم لنفسي من معبود . ولم أزد في كلماتي عن الحقيقة . ولم أخن أحداً . ولم ألعن ملكاً . ولم ألوّث ماءً ، ولم أتكبر . ولم أشتم معبوداً . ولم أكن سيىء الخلق . ولم أسع لترقية . ولم أزد في ثروتي الاّ بالحلال . ولم أقصر في احترام معبود مدينتي

ومنها يتضح أن هذه العبارات التي اطلق عليها القوم اسم «الاعتراف السابي» لم تك في الحقيقة سوى تعريف مطوّل لما نسميه « مكارم الاخلاق »

﴿ حكم الفلاسفة ﴾ أقدم هذه هي حكم الفيلسوف (بتاح حوتب) حوالي ٢٥٠٠ ق.م نقتطف منها ما يأتي ترجمة المرحوم كمال باشا : اذا كان لك حاجة عند منازع . وكان يفوقك في المهارة فابسط له يديك واحن ظهرك ولا تغضب منهُ لانهُ لا يمكنك من نقض حديثه بل يسوؤك كثيراً لو ناقشته في الكلام وحينئذ يظهر عدم كفاءتك . الزم الحزم متى حدثت لك مناقشة . اذا كان لك حاجة عند شرس وكان شاذّاً في الشراسة فكن كالذي لا يتحرك لتكون أفضل منهُ (لا سيما) لو التزمت الصمت وهو في سباب . ولقد قيل في المثل خير انسان من التزم الحياد . من الصواب التعرّف بالكبار

اذا كنت رئيساً تحكم في أمور كثيرة بين العالم فابحث عن أكمل شريعة لتكون غير ملوم . ما أعظم العدل الثابت الاركان الذي لم يكدَّر صفوهُ من عهد المعبود ازوريس . التعرّض في سبيل القوانين مسلك الظلم . لا ينال الوضيع رفعة ما لم يهتد الظالم الى مسلك العدل . حدود العدالة ثابتة . هذا التعريف يأخذه كل انسان عن أبيه

لا توقع الرعب (في قلوب) الناس فان الله يجازيك . وان ظن انسان أنهُ يعيش بذلك ينزع الله العيش من فمه . وان تراءى له أن يغتني بسببه يقول له الرب استرد لنفسي (غناك) . اذا تعدّى انسان على آخرين لقتالهم انتهى أمره الى أن يصير عاجزاً . يجب ان لا يبثّ الخوف بين الناس . هذا أمر الله كما يجب وصل عيشهم في حال السلم وليقبل منهم ما يعطونه عن رغبة ولا يدعي عليهم لشيء لاخذه بالرهبة . اذا أكلت مع اناس جالسين عند أمير وكانوا اكبر منك فخذ ما يعطونهُ اياك باحترام وتواضع وانظر الى الذي أمامك ولا تحدث فيه لان الانسان يكون مذموماً ان لم يتجنب هذه الخصال . ولا تتكلم بأكثر مما تسأل اذ أنك لا تعلم ما يحتمل استقباحه . تكلم حينما تسأل .

وليكن كلامك مقنعاً . الكبير الذي عنده مؤونة لمعيشته يسلك في سيره حسبما يهوى فيفعل ما يشاء . فان قصد الراحة فعل ذلك . لان الكبير متى بسط يده فعل ما لا يتوصل الناس اليهِ . لكن لما كانت وسائل المعيشة متعلقة بارادة الله فليس من الممكن عصيانه

كن نشطاً مدة وجودك وفعّالاً لما يقال ولا تضرّ بوقت نشاطك . فالانسان المذموم هو الذي يستعجل بأوقاته استعجالاً قبيحاً . لا تضيع الفرصة اليومية ليزداد ما تمتلكه في بيتك . فالاجتهاد يأتي بالغنى والغنى لا يدوم متى (فارقه) النشاط

﴿ آراء الفلاسفة في العلم ﴾ وردت في ذلك كتابات كثيرة كلها درر ولآلئ منها ما ورد بقرطاس الفيلسوف (آني Ani)[1] الذي يرجع تاريخه الى الاسرة الثانية والعشرين (٩٤٥—٧٤٥ ق م) نقتبس منهُ ما تعريبه :—

« اذا كنت عالماً اطاعك الخلق اجمع . فهب نفسك للعلم واملأ قلبك بهِ حينئذٍ لا يلفظ لسانك الاّ كلاماً بليغاً . ألا فاعلم ان كل موظف ذي مركز علمي لا غنى له عن الرجوع الى مصنفات العلم . ان وزير المالية لا يملك تنصيب ابنه في مركزه من بعده ولا قائد القلعة يمكنهُ تعيين وريثه محله ....

ويفهم من ذلك ان المناصب الكبيرة لا تقلد الاّ للاكثر علماً وامتن ثقافة

الآثار الادبية

﴿ الشعر ﴾ وردت عدة قصائد رنّانة ضمن آداب اللغة المصرية القديمة حافلة بالمعاني السامية الخيال الرائع . نقتطف منها ما يأتي : —

قصيدة قيلت في سيزستريس الثالث (اسرة ١٢) مقسمة الى ستة أقسام منها القسم الآتي:—

أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته   وأنت كالسد العظيم الحاجز لتيار الفيضان
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته   أنت الملجأ الذي يستريح فيه الانسان متى يسطع ضوء النهار
انت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته   أنت كالحصن المشيد جدره من أحجار حادة من مدينة قسم
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته   أنت مأوى اللاجئين اليك من عبث قطاع الطريق
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته   أنت حامي الضعيف الخائف من عدوّه القوي
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته   أنت مظلة القيظ وخضرة النيل في فصل الحصاد
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته   أنت الركن الدافئ الجاف في زمن الشتاء
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته   أنت الصخر الحامي من ويلات العواصف

واليكم ترجمة أنشودة كان يترنم بها عازف القيثارة في ولائم الوجهاء : —

«ما أسعدك أيها الامير . لعلك تعلم أن هذه الحياة محتم عليها الفناء ، فالاجساد تموت وتنعدم ثم يأتي بعدها آخرون يحلون محلها. انظر الى الآلهة (أي الفراعنة) الموجودين في الاهرام من قديم

[1] Pap. Ani - Chabas 1874 in L'Egyptologie

الزمان . والى الامراء والحكماء الذين دفنوا فيها تجدهم مطروحين في الخادم (ولا غرابة) فكل من شيّد منزلاً (قبراً) زال أثره من الوجود . استمع لي فسأخبرك بما آل اليه أمر هؤلاء القوم . لقد سمعت حكم (امحوتب) و(خرزوزف) الذائعة الصيت ولكن أين هما الآن . لقد تحطمت بيوتهم وانعدمت آثارهم . فلا خبر يأتينا من ناحيتهم ينبئنا عنهم ويطمئن قلوبنا قبل أن نرحل الى ذلك المكان

تناسى تلك الأمور واصرف همك فيما ينفعك . اعمل كل ما تطلبه نفسك . عطّر رأسك بالمر واكس نفسك بالكتان الجميل المعطر بالروائح الذكية المقدسة واكثر من الفرح والسرور حتى لا يحزن قلبك

اتبع شهواتك ومسرتك وسير الامور كما تشتهيها حتى يأتيك يوم الحزن وهو اليوم الذي لا يسمع فيه قلبك الساكن ما يدور حوله من النحيب

البكاء لا يعيد للميت الحياة . فتنعم اذاً في هذا اليوم الجزل . ولا تهمله يذهب سدًى . فلا أحد يأخذ من الدنيا شيئاً معه كما أنهُ لم يرجع الى هذه الدار من ذهب الى الدار الآخرة

﴿ القصص والروايات ﴾ وصلنا منها عدد كبير نقتطف منها ما يأتي :—

روي أن اميراً شابًّا حكمت عليهِ المعبودات وقت ميلاده ان يموت بتمساح او بثعبان او بكلب فسافر الى سوريا حيث وجد قصراً تسكنه ابنة ملك النهرين وحوله الشبان يحاولون تسلقه وذلك لان والدها وعد ان يؤهلها لمن يتسلق جدار القصر . فحاول الامير المصري ذلك ونجح وبلغ الاميرة لكنه ادعى اولاً انهُ ابن ضابط مصري مخفياً بذلك حقيقتهُ . فلما علم ملك النهرين بخبره اغتاظ وامتنع عن اعطائه ابنته حتى كاد يقتله حينئذٍ اقسمت الاميرة انها تنتحر اذا أُعدم الامير فتكدر والدها من هذا القسم واخيراً سمح لها بالاقتران بهِ . وجاء ان الامير نجا من الموت من تمساح ثم من ثعبان وفقدت بقية القصة بعد ذلك والمظنون انها انتهت بموت الامير من كلب يتبعه من مصر طول رحلته الاسيوية ويلاحظ ان هذه الرواية تحوي اقدم مثال للعقيدة العالمية بأن كل شاب يتحتم عليهِ قبل الافتران بزوجتهِ ان يظهر لها ضروب الشجاعة كي يستميل قلبها

ومن قصصهم ايضاً ما تناولت امور الفلاحة وهي تعرف بقصة الاخوين تتلخص في ان اخوين عاشا معاً في كوخ بأحد الحقول وكان اكبرها متزوجاً قابضاً على زمام البيت . اما الاصغر فكان عائشاً معه كابن له فصبت نفس زوجة الكبير الى الصغير فرفض طلبها . عندئذٍ ارادت ان تكيد له فوشت في حقه عند اخيه الكبير فصمم على الاقتصاص من اخيه واراد قتله خلسة . فتحفز له وراء الباب . وفي مساء اليوم عاد الاخ الصغير بالبهائم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت احدى هذه الحيوانات الامر واسرّت الى راعيها بما يضمر له اخوه الكبير فلما علم بذلك فرّ هارباً خوفاً من القتل ثم حصلت بين الاثنين حوادث خرافية لاتتمشى مع ما جاء اولاً من مطابقتها للواقع . وبالتأمل في هذه الحكاية يجد القارىء في جزئها الاول شبهاً لقصة سيدنا يوسف الغرامية التي رواها لنا بنو اسرائيل وجاء شرحها بالذكر الحكيم والتوراة

القانون والقضاء

جرت العادة ان يرفع كل متظلم او مدَّعٍ دعواه الى الوزير كتابة ويستحسن حضور صاحب الطلب بنفسهِ . ولذلك كان قصر الوزير ملجأ يجيء اليهِ المدعون والمتظلمون كل يوم . وكانت تعقد في هذا القصر كل يوم جلسة لاصدار حكمها في تلك الدعاوي. ودلتنا الآثار ان هذه الجلسات كان يؤدي نظامها حجَّاب وكتبة . وكان الناس يدخلونها بالترتيب بعد ما يصفون استعداداً لمثولهم بين يدي الوزير . وحتم القانون على الوزير اصدار حكمه في قضايا الاراضي المتعلقة بطيبه في ثلاثة ايام من تاريخ رفع الدعوى . اما قضايا الاراضي الخارجة عن طيبة فالنطق فيها كان لا يتأخر عن شهرين . هذا كان النظام القضائي مرعيَّ الجانب لما كانت المملكة تحت اشراف وزير واحد . لكن لما عين وزير ثانٍ للشمال قُسم النفوذ والسلطان بين وزيري الشمال والجنوب وكل جرائم طيبة كان ينظرها الوزير شخصياً . اما المجرمون فيحجزون في سجون خاصة ما داموا في التحقيق فاذا صدر الحكم عليهم ارسلوا الى سجون اخرى ينفذ فيها العقاب . ولكل قضية اوراق تحفظ في السجلات الرسمية كما هو الحال لآن . ويتحتم على كاتب الوصية ان يسجلها شخصيًّا في قصر الوزير . وتحفظ صور لجميع المستندات وحدود الاراضي والعقود في ادارتي وزيري الجنوب والشمال . وكل طلب يقدم للملك يتحتم عرضه على الوزير اولاً

وزيادة على قصري الوزيرين انشئت بالارياف محاكم فرعية من رجال الادارة المتمرسين على تطبيق القانون ويعرفون رجال المجلس المحلي والقضايا الكبيرة الخاصة بالاسر الرقيقة كان يتحتم فيها ارسال مندوب من مجلس القضاء الاعلا لينفذ قرار ذلك المجلس بمعرفة رجال اقرب مجلس محلي

وكان القانون الذي يلجأ اليهِ الفقير غاية في العدالة . وجرت العادة ان ينسخ في اربعين درجاً رديًّا ويوضع على منضدة القاضي وقت انعقاد المحكمة للمراجعة وزيادة الايضاح وكان يسمح لكل شخص ان يقرأ القانون ويستفسر الغامض. ومن دواعي الاسف اننا لم نعثر على نسخة من ذلك القانون الذي لا نشك لحظة في عدالته فقد جاء في الآثار ان الوزير كان يحكم بالعدل بدون محاباة حتى كان يخرج المتخاصمان من حجرته مجبوري الخاطر . وجاء أن احد الملوك فاه امام احدى المحاكم بأن « القانون ثابت لم احدث فيه تغيير . لذلك التزمت خطة السكوت خوفاً من احداث الفرح والسرور » وبلغت العدالة حدًّا لا يكاد يصدقه العقل . من ذلك انه لما ظهرت مؤامرة لاغتيال حياة ملك لم يكتف الملك بتحقيق مختصر واصدار حكم الاعدام على الجناة بل اصدر امره بتشكيل محكمة للنظر في القضية بشرط ان لا تصدر حكماً بعقاب المتهمين الاّ بعد ثبوت اجرامهم

واليكم مادتين من قانون حور محب

(١) كل موظف او كاهن يقال عنه انه عين في القضاء ليحكم بين القضاة وهو يجني على القانون يحاكم بتهمة الخيانة العظمى » (ب) كل شرطي علم عنه انه دخل المساكن لاجل سرقة الجلود يحكم عليه ابتداء من هذا اليوم بمائة جلدة وبجرحه في خمسة مواضع ثم تسترجع منه الجلود المذكورة »

الديمقراطية والتعليم

[تابع ما قبله]

للدكتور امير بقطر

— ٦ —

﴿ الميزانية العامة للتعليم ﴾ من اركان الديموقراطية في التعليم ان تكون نسبة ميزانية التعليم الى ميزانية الدولة الباقية ، متفقة مع حاجة البلاد . ولا نستطيع ان نشرح هذه النقطة بغير ان نبين هذه النسبة في بعض بلدان العالم ومنها مصر

البلد	نسبة ميزانية التعليم لميزانية الدولة	البلد	نسبة ميزانية التعليم لميزانية الدولة
الصين	١٠ ٪	جنيف	٣٠ر٠ ٪
رومانيا	١١ر٤ ٪	بورتيريكو	٤٥ ٪
بلغاريا	١١ر٧ ٪	جزائر الفلبين وغيرها	٥٠ ٪ (سابقاً)
نروج	١٣ر٧ ٪		و ١٨ ٪ اليوم
دانمرك	١٤ر٢ ٪	مصر	٧ر٣ ٪
هولندا	١٩ر٣ ٪		

يقول الاستاذ الدكتور بول منرو صاحب دائرة المعارف (في التربية) ورئيس اللجنة التي نيط بها درس حالة التعليم في العراق ، ان كثيراً من البلدان خصصت في بعض السنوات ٥٠ ٪ من ميزانيتها العامة للتعليم ... كما يرى من الجدول السابق

وليس في هذا غرابة اذا علمنا ان الامية والجهل والانحطاط في مستوى العيش كالحمى والطاعون والهواء الاصفر يحتم على الامة قطع دابرها واستئصال شأفتها في اقرب فرصة ممكنة ، لان تأجيل القضاء على هذه الاخطار عشرين سنة مثلاً يؤخر الامة مئات من السنين

ويقول علماء التربية ان مجموع ما ينفق على التعليم يجب في الحالات المعتادة (لا في حالة الجهل والامية الضاربة اطنابها) ألاّ يقلّ عن ٤ ٪ او ٣ ½ ٪ من مجموع الدخل القومي او دخل مجموع الافراد . وعلى هذا الحساب يكون هذا الرقم من ½ ١٠ الى ١٢ مليون جنيه لان دخل مصر بحسب التقدير الذي عمله حديثاً دكتور ليفي هو ٣٠١ مليون جنيه في العام

﴿ توزيع ميزانية التعليم على درجاتها ﴾ مصر تنفق على التعليم الاولي ١٬١٥٥٬٧٣٧ من الجنيهات

من الميزانية العامة للتعليم وقدرها ٣٩٠٧٥٩١٦٠ عن سنة ١٩٣٤ — ٣٥ وحتى نعلم هذه النسبة في بعض البلدان الاخرى اقول ان مستر مان الذي انتدبتهُ وزارة المعارف سنة ١٩٢٩ لدرس حالة التعليم في مصر ذكر ان في انكلترا كل جنيه واحد ينفق على التعليم غير الاولي ، يقابله اربعة جنيهات تنفق على التعليم الاولي ، في حين ان في مصر كل جنيه يصرف على التعليم الاولي يقابله ٢ على غير الاولي

في كندا وسكانها نحو عشرة ملايين نسمة اي ⅔ سكان القطر المصري تبلغ الميزانية العامة للتعليم ٣٣ مليون جنيه مقسمة كما يأتي : —

العالي ٤ مليون جنيه والثانوي ٧ مليون جنيه والاولي ٢٢ مليون جنيه المجموع ٣٣ مليون جنيه . اي ان ما ينفق على الاولي ضعف ما ينفق على الثانوي والعالي مجتمعين

وفي ولايات اميركا المتحدة يوجد في المدارس الاولية ٢٥ مليون تلميذ وتلميذة ، وفي المدارس الثانوية ٥ ملايين وفي العالي مليون واحد . هذا مع العلم ان عدد تلاميذ المدارس الثانوية يزيد في مجموعه عن مجموع تلاميذ المدارس الثانوية في جميع ممالك اوربا وآسيا

والتعليم الأولي أهم بكثير من التعليم الثانوي والعالي كما يشاهد من الميزانية المخصصة له لأن التعليم الثانوي من الكماليات في حين ان الأولي من الضروريات ، لأن الأولي عادةً يشمل السواد الاعظم من السكان في حين أن الثانوي لا يشمل الاَّ أقلية صغيرة منهُ . وربما تستغربون اذا قيل لكم ان التعليم الثانوي في انكلترا في يد المدارس الخصوصية (الاهلية) ومجلس الولايات

انظروا ما يقوله دكتور كلاباريد الخبير السويسري الذي انتدبتهُ الوزارة سنة ١٩٢٩ عن التعليم الثانوي في مصر

« شاهدنا في المدارس الابتدائية والثانوية في مصر ما تحسده عليها الدول الاوربية في الاثاث والمعدات ، وشاهدنا طبقة من النظار والمفتشين والمعلمين من الدرجة الاولى»

نعم هذا صحيح — معامل وأجهزة وبنايات فخمة ومرتبات وكماليات ..... في المدارس الثانوية والابتدائية والعالية ولكن على حساب الفلاح البائس » على حساب المدارس الاولية التي يتمثل فيها الانحطاط والفقر في المعلمين والمعدات والاثاث . أقول في الاثاث والمباني ولا أريد أن اقول أن كبير أطباء وزارة المعارف يقول في تقريره أن التلاميذ القرويين يقضون حاجاتهم في أثناء وجودهم في المدرسة في الاماكن التي تقول مصلحة الصحة انها مرعى خصيب للبلهارسيا والانكلستوما ، لانه لا توجد بها مراحيض . ثم ارجو أن تقارنوا معلم المدارس الاولية بالمدارس الثانوية والعالية

نسبة مرتبات المعلمين في درجات التعليم

في مصر المدارس الاولية : الابتدائية من	١ : ٣ — ١ : ٦
« اوربا ١٠	النسبة واحدة

في مصر نسبة الأولية الى الثانوية من	١ : ٣ — ١ : ١٠
« اوربا « « « « «	١ : ١½ ÷ ١ : ٢
« مصر نسبة الأوليــة الى الجامعة من	١ : ١٦
« اوربا	١ : ٣ — ١ : ٤

ولا غرابة اذا كان التعليم الاولي متأخراً فأنا حديثو العهد بهِ . ففي سنة ١٩١٨ — ١٩ انفقت مصر ٤ ٪ لا غير من ميزانية التعليم على المدارس الاولية في حين أن فرنسا في تلك السنة انفقت ٧٢ ٪ من ميزانية التعليم على التعليم الاولي

وانظروا الى هــذا الجدول الذي يبين ما كانت تنفقه الممالك المختلفة على كل تلميذ أولي سنة ١٩١٣ — ١٤ مقارناً بين ما كانت تنفقهُ مصر : —

أسماء البلاد	للتعليم الاولي عن التلميذ الواحد قرشاً مصرياً	اسماء البلاد	للتعليم الاولي عن التلميذ الواحد قرشا مصرياً
اليابان	٦٠	بلجيكا	١٨٧
انجلترا	١٤٠	سويسرا	٢٠٠
بروسيا	١٤٣	ولايات اميركا المتحدة	٢٢٢
فرنسا	٧١٠	استراليا	٣٠٧

مصر ١٤ مليماً في العام عن التلميذ في الابتدائية والاولية (الوزارة ومجالس المديريات معاً)

***

﴿ ٧ — الامية والديموقراطية ﴾ من العبث اصلاح القرية، او تعويد السكان النظافة والوقاية من الامراض الرمدية والطفيلية بغير ان يتمشى التعليم الالزامي وزوال الامية مع سائر الاصلاحات الاجتماعية في آنٍ واحد . وربما كان مناسباً هنا ان نعلم شيئاً عن الامية وتاريخها في مصر وغيرها

في اوربا سنة ١٥٠٠ كان الملوك والامراء اميين — اذا استثنينا القليلين كالفريد الكبير وسنة ١٥٠٠ م كان عدد الذين يقرأون ويكتبون اقل من ١٠ ٪ وسنة ١٥٠٠ — ١٧٠٠ لم تزد النسبة عن ١٠ ٪ الاّ قليلاً وسنة ١٨٠٠ أخذ التعليم يكون الزامياً تدريجياً وسنة ١٨٧٠ اصبح ٧٥ ٪ من بريطانيا وفرنسا والمانيا متعلمين

وفي المانيا كانت النسبة سنة ١٨٤١ ٩٠ ٪ وسنة ١٨٨١ — ٩٧ ٪ (قبل الاحتلال بسنة) وسنة ١٨٩٥ — ٩٩٫٧ ٪ (اي قبل عباس الثاني بثلاث سنين)

وفي فرنسا من سنة ١٨٧٥ اصبح عدد القراء كثيراً جداً حتى ان كلاً من الـ Petit Journal والـ Petit Parisien كان يوزع من النسخ يومياً مليوناً

وهذا الجدول يبين لنا تفصيل سير التعليم في شتى البلدان

البلد	النسبة المئوية للذين يقرأون ويكتبون ١٨٣٠	١٨٥٠	١٨٨٠
انكلترا	٥٥	٦٤	٨٤
اسكوتلندا	٧٧	٨٣	٨٨
ارلندا	٤٦	٥٥	٦٧
فرنسا	٤٢	٥٧	٧٨
روسيا	١	٢	١١
النمسا	٢٨	٣٤	٤٩

البلد	النسبة المئوية للذين يقرأون ويكتبون ١٨٣٠	١٨٥٠	١٨٨٠
ايطاليا	١٦	٢٨	٤١
اسبانيا والبرتغال	٩	١٨	٣٤
سويسرا	٨٧	٨٠	٨٨
اسوج ونروج	٨٠	٨٢	٨٧
الولايات المتحدة	٨٠	٨٤	٩٠
مصر	١	٣	١٠

ولننظر الى هذه النسبة اليوم ١٩٣١ — ١٩٣٢

البلد	النسبة المئوية للاميين
بريطانيا العظمى	من صفر الى ½ ٪
المانيا	» ٪
اليابان	» ٪
ولايات اميركا المتحدة	٤ ٪
فرنسا	٨ ٪
بلجيكا	٩ ٪

البلد	النسبة المئوية للاميين
اسبانيا	٥٤ ٪
الصين	٨٠ ٪
سوريا	٨٠ ٪
فلسطين	٨٠ ٪
مصر	٨٨ ٪

خاتمة

﴿ النظام الدكتاتوري والتعليم ﴾ من الغريب ان الانظمة الدكتاتورية التي لا تتفق في الاصل والديموقراطية ، بل هي والديموقراطية على طرفي نقيض — من الغريب ان النظام الدكتاتوري الذي نراه ينتشر اليوم في كثير من بلدان العالم ، اكثر ديموقراطية في التعليم (في معظم النواحي) من البلاد العريقة في الديموقراطية . ففي تركيا ، يدير مصطفى كمال دفتها بيد من حديد ويسير بخطوات واسعة نحو نشر التعليم بين الكبار والصغار البنين والبنات ، ولا تمضي سنوات حتى تصبح تركيا من ارقى بلدان العالم في التعليم ، لانها تتبع احدث الانظمة ، وقد دعت جون ديوي منذ سنوات للانتفاع بآرائه الفلسفية الحديثة . وفي ايطاليا التي تحكمها يد الفاشزم الفولاذية وعلى رأسها الجبار موسوليني يتناول التعليم جميع طبقات الامة ، والمدارس الثانوية مثلاً سبعة انواع حتى تشمل جميع الافراد في سن التعليم الثانوي وتقوم بسداد حاجات الامة على الوجه الكامل

وفي روسيا البلشفية ، وهي آخر ما كان ينتظر ذكره من البلدان التي تراعي روح الديموقراطية في التعليم ، هذه البلاد اكثر ديموقراطية من جميع بلدان العالم من هذه الناحية ، لان ١٠٠ ٪ من جميع التلاميذ بنات وبنين بين سن ٢ و ١٤ في رعاية الدولة تعنى بغذائهم ولباسهم وتعليمهم وكثيرون من رجال التربية يسافرون كل عام الى تلك المملكة لدراسه نظم التربية هناك

انطاكية وآثارها الفخمة

ارض حضارة ضائعة

بقلم نقولا شكري

اشارت الصحف الى ان الجنود عثروا في جبل سلبيوس المطل على مدينة انطاكية على آثار رومانية نفيسة كانت مغطاة بطبقة ترابية حتى جاءها السيل فاكتسح الطبقة وجلاها . وتعد الآثار الجديدة من اخر ما خلفهُ الرومان ويقال انهُ لا مثيل لها في جميع متاحف العالم الاخرى . والى القارىء بيانها المفصل وفاقاً لما اشارت اليهِ الصحف

١ — تمثال نصفي من الرخام الابيض يمثل قنصلاً رومانيًّا ببزّتهِ الرسمية وهو دقيق الصنع سليم من التشويه كأنهُ صنع حديثاً والرأس والصدر والقاعدة منفصلة بعضها عن بعض وتتصل بركائز حديدية . وسبب هذا الاتصال هو انهُ كان من عادات الرومان نصب تمثال لكل قنصل جديد يتولى شؤون الولاية او المدينة ولما كانت البزّة الرسمية معروفة لا تتبدل قط بشاراتها ورموزها ونقوشها كانوا يكتفون بتغيير الرأس فقط وركزه فوق التمثال الجسمي وهناك في المتاحف العالمية كثير من مثل هذه النصب التامة ويفضل هذا لان صاحبهُ معروف ومتصل بهِ كما ان ما عليهِ من صور الاشكال البارزة والنقوش البديعة رائعة وجميلة جدًّا

٢ — تمثال يوناني للآلهة : فينوس (الزهرة) .. وهي نصف حاشية من الرخام الابيض ايضاً عديم الرأس وبعض الساعدين ، اما التكوين الجسمي فهو آية فنية للجمال في المرأة من الكتفين الى الصدر والعنق والنهدين والفخذين حتى والقدمين وكأن ذلك الجمال الفني سئم الدفن بين طيات الثرى فشق الارض وظهر للعيان فتنة للناظرين

٣ — تمثال نصفي لاحد آلهة اليونان او جبابرتهم ذو لحية مسترسلة وعيون تنبعث منها الهيبة والوقار وهو اضخم القطع الموجودة وسليم من التشوه ايضاً وملابسهُ بطياتها وثنياتها وتجعداتها تنم على دقة الصنع ومهارة المثالين القدماء لعدم وجود الوسائط الفنية الحديثة لديهم لنحت مثل هذه الدقائق

٤ — تمثال بارز فوق قطعة مستديرة من الغرانيت الاسود يبلغ قطرها ٨٠ سنتمتراً تقريباً يمثل امرأة عارية ونصفها السفلي يمثل حيواناً جاثماً وهي سليمة كاملة

٥ — رأس للاله باخوس بابتسامته الهازئة الساخرة وشعره المشوش وهو اقدم الآثار الموجودة بحسب رأي العارفين

٦ — تمثال طير يشبه فرخ النسر منحني العنق الى الجانب وهو جاثم فوق قاعدة من الرخام وكل ما فيهِ من ريش وتكوين بديع الصنع

٧ — رأس سيدة رومانية هو مثل الجمال الروماني بتقاطيع الوجه وتكوين سائر اعضاء الرأس خصوصاً اسلوب تنظيم الشعر وجمهُ فوق الرأس بهيئة تاج جميل حسب الزي الروماني

٨ — رأس رجل من الغرانيت الاحمر الوردي تظهر عليهِ كل ملامح الرجولة والقوة والبأس

٩ — تمثال رجل شيخ مستند الى جدار بحزن وكآبة وهو مرسل الشعر واللحية

ويقول بعض العلماء ان هذه النفائس كانت ملكاً لعظيم خاف عليها فطمرها في الجبل وظلت فيهِ لم تمتد اليها يد حتى جاءَ السيل فجرف ما كان يغشاها فظهرت الوجوه فتنة للناظرين

* * *

وبعد فقد كتبت في عدد سابق من المقتطف مقالاً مستفيضاً اشرت فيهِ الى الآثار القديمة الموجودة في انطاكية واهمها الجسر الروماني وبقايا القصور والهياكل والحمامات وميادين السباق واقنية المياه والقبور والتماثيل الرخامية والسور الروماني القديم الذي يحيط بالمدينة فلا حاجة بي للعودة الى هذا الموضوع . على انني ارى لمناسبة الاكتشافات الاخيرة ان اذكر باختصار كيف نشأت حضارة انطاكية وترعرعت ثم ضاعت

وقد لا يكون من الاستطراد الخارج عن الموضوع ان اؤيد لمناسبة الاكتشافات الاخيرة ان اشهر الآثار الرومانية في انطاكية الطرق والجسور القديمة وقد اكتشفت في سنة ١٥٠٧ خريطة رسمت عليها الطرق والدروب العسكرية في الامبراطورية الرومانية القديمة من بريطانيا الى الهند والمظنون انها وضعت في القرن الرابع للمسيح وانها نسخت عن خريطة اقدم منها بكثير

وترى الطرق في بعض ضواحي انطاكية محفوظة حفظاً عجيباً كما في الطريق الممتدة بين انطاكية وكلس فان عرضها عشرون قدماً او اكثر وهي مبلطة ومن البلاط ما طوله اربعة أقدام وعرضهُ ثلاثة وسمك الواحدة منها ثلاثة اقدام ايضاً

وفي انطاكية وضواحيها جسور رومانية كاملة وكثير من الجسور التي عقدت في القرون الوسطى وأهمها الجسر القائم عند مدخل المدينة واتفق اني رأيت هذا الجسر بعد مطر غزير سالت بهِ الاودية وجرف السيل جسرين حديثين بناهما المهندسون الفرنسيون فوقع منظر هذا الجسر وقعاً عظيماً في نفسي لثباتهِ على مقاومة العناصر الطبيعية هذه القرون الطوال واثنيت الثناء الطيب على المهندسين الرومانيين وطأطأت رأسي امام اشباحهم اجلالاً لقدرهم واعترافاً بتفوقهم في صناعتهم

واذا سأل سائل من كان سكان تلك البلاد الذين مدوا هذه الدروب المتقنة وشيدوا الهياكل وبنوا المسارح التمثيلية واعلوا القصور وزخرفوا الحمامات زخرفاً نادر المثال وسكنوا بيوتاً لا ينقصها شيء من اسباب الراحة في هذه الدنيا وثووا فاحتوتهم اضرحة رحبة لا تقل فخامة عن بيوتهم وقصورهم. اذا سأل سائل هذا السؤال قلنا له ان هذا الوصف الوجيز الذي ينطوي عليهِ سؤالك كاف للدلالة على ان حضارة انطاكية بلغت شأواً رفيعاً في ذلك العهد . وهناك ما يدل ايضاً على ان تلك الحضارة كانت في ذلك العهد لا تزال في أوجها وانها لم تكن قد مالت الى الزوال او دبَّ اليها شيء من الانحلال لما

دهمتها قوى خارجية غير منظورة ودرستها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً

وكان لاهل البلاد فنون خاصة بهم اثرت فيها الفنون اليونانية الى حين ثم نفضت عنها ذلك التأثير واستعادت رونقها الاول كصورها الاصلية ولكنها استبقت من الاثر الغريب ما زادها بهجة وطلاوة واتخذت لها طرازاً يفوق طراز سائر الفنون في ذلك الزمان . وظاهر من درس فنون اولئك السكان التي اكتشفت في آثارهم وعادياتهم ان معظمهم كانوا اذكياء واغنياء واذا قيست الحضارة بمقياس المنازل ظهر لنا ان حضارة انطاكية القديمة كانت رفيعة وان كان كثير من الكتابات التي تركوها والنقوش التي احتفروها على الآثار كثير الخطأ في التهجئة والتركيب النحوي فما ذلك الا لان الكتاب كانوا يكتبون بلغة اجنبية يعرفها العلماء المحدثون الآن اكثر مما عرفها اهلها اليونان في عصرهم

اما قولنا ان سكان تلك البلاد كانوا اغنياء في الثروة فمبني على كتاباتهم ونقوشهم التي تركوها لنا وهي تدل على انهم كانوا اهل كفاف من العيش ينفقون عن سعة وتبقى عندهم فضلة موفرة . ففي تلك النقوش ان فلاناً اهدى الى مدينته حماماً عمومياً وآخر بنى كنيسة او ديراً على نفقته الخاصة وهكذا . ومن كان اقل غنى اهدى الى قريته هدية على مقدار حاله . وكانوا اهل مسالمة ونظام ومحافظة على الامن في مجتمعهم بدليل ان كثيراً من قصورهم كانت تبنى ولا جدار او سياج حولها لحمايتها من الاعتداء . على انهم لم يكونوا من كبار اصحاب العقار بدليل قرب مدنهم بعضها من بعض وبالتالي لم يربوا قطعاناً كبيرة من الماشية ولكنهم كانوا يزرعون شجر الزيتون والكروم ويعصرون الزيت والخمر على قدر كبير بدليل كثرة المعاصر في القرى المحيطة بانطاكية . وكانت تجارة القوافل بين انطاكيه والبلاد الجنوبية ومصر وفارس واسعة النطاق ففي بعض الكتابات ان تاجراً خرج بقافلة الى نهر السند او الهند وآخر سافر بمهمة سياسية الى رومه

وربَّ سائل يسأل : متى كانت آخرة خصب تلك البلاد وآخرة مدنيتها الزاهرة وكم دام عمرانها وما هو سبب زواله ؟

ليس من ينكر ان بعض هذه المسائل يتعذر الجواب عنه ، وبعضها لا يكون الجواب عنه شافياً ولست اقصد محاولة الجواب عن تلك المسائل وانما اقصد وصف البلاد كما هي والاستدلال بالحاضر على الماضي وسيرى القارىء ان هذا الوصف يسهل السبيل الى الجواب عن بعض تلك المسائل على قدر الامكان . وتدل الآثار والنقوش والكتابات التي وجدت في تلك البقاع انها لم تكن آهلة بالسكان بعد اوائل القرن السابع للمسيح ويخيل الينا ان سنة ٦١٠ كانت تاريخ آخر مدنية الجزء الاكبر منها وهذا التاريخ يوافق تاريخ الفتح الفارسي الكبير سنة ٦١٠ — ٦١٢ واوائل الفتح الاسلامي الذي بدأ بعده بنحو عشرين سنة . ويستدل من اقدم الكتابات التي وجدت في البلاد ان العمران بلغ فيها شأواً رفيعاً في اوائل التاريخ المسيحي كذلك تدل الآثار والتاريخ دلالة قاطعة على ان ذلك العمران بدأ هناك قبل التاريخ المسيحي بنحو مئتي سنة او ثلاث مئة سنة على القليل ولكن هناك آثاراً أخرى يؤخذ منها

ان تلك البقعة اقدم عهداً ولو لم نعرف الاَّ القليل عن تلك المدينة القديمة . وتاريخ البلاد كما يؤخذ من التوراة وكتابات المصريين والآشوريين القدماء تدل دلالة صريحة على انه كان في تلك البلاد حضارة راقية في اوائل مدنية الانسان

ومن يسيح الآن في شمال انطاكيه ويهبط وادي العاصي الخصيب يرى في ذهابه شرقاً سلسلة غير منتظمة من الآكام الكلسية ممتدة الى الشمال الشرقي ومتوسط علو هذه الآكام ١٥٠٠ قدم ومنها ما علوه ٣٠٠٠ قدم الى ٣٥٠٠ فوق سطح البحر وهي آكام رمداء جرداء لا يرى فيها اثر يد الانسان من طرق مرصوفة وجدران تفصل الحقول بعضها عن بعض وارصفة هائلة الكبر ثم يشاهد خرائب مدن صغيرة مهجورة فيها ابنية كبيرة وصغيرة مبنية من حجارة كلسية بديعة النحت واذا صعد الى مرتفع هناك رأى حواليه خرائب مثل هذه الخرائب ممتدة في كل جهة واذا كان بعيداً عنها لا يصدق انها خرائب مهجورة وبعض هذه المباني لا يزال قائماً ولكن سقوفه منزوعة عنه على مر الزمن . وقد يسير المرء اميالاً كثيرة في تلك البقعة ولا يرى فيها انساناً ولا خضرة ما سوى بعض شجر البطم هنا وهناك ولا ارضاً ترابية تصلح للزرع الاَّ في اماكن بين الصخور وحول كل خربة بقايا معاصر لعصر الزيت وصنع النبيذ . اما البناء في هذه الخرائب فيمثل كل طراز معروف عند الامم العريقة في الحضارة من ذلك ابنية تدل الدلائل على انها قديمة جداً وان لم يكن عليها كتابة وهي على شكل كثير الاضلاع ولها افاريز غليظة حول سطوحها وأبوابها ومنها ابنية بنيت في القرن الاول والثاني للمسيح بينها هياكل بديعة البناء ومعظمها خرائب لان الناس جعلوا يسطون عليها لاخذ حجارة البناء منها وفي جميع تلك الانحاء بيوت جميلة بنيت في القرنين المذكورين وكنائس كبيرة وصغيرة وحمامات ومخازن واسواق وأضرحة على اشكال شتى لا عداد لها . اما كنائس القرن الرابع فأبنية خالية من الزخرف وأما كنائس القرنين الخامس والسادس فأكثر زخرفاً من جميع الابنية التي تمثل العهد المسيحي قبل العهد القوطي في اوربا . والآكام التي في اقصى الشمال غير آهلة ولكن يقصدها في بعض فصول السنة طوائف من التركمان يضربون خيامهم فيها وينزل بعض جوانبها بضع عائلات من الاكراد . وفي التلال الكلسية الى شرقي العاصي قرى صغيرة يسكنها قوم من الفلاحين يتكلمون التركية وبينهم قليل من النصيرية وهم يعتمدون في حرث ارضهم وزرعها على مطر غزير يرويها والاَّ امحلت وفي الشمال كثير من قرى الشراكسة في سفوح الآكام وقد جاء بهم السلطان عبد الحميد اليها وسلحهم وملكهم اغزر عيون تلك البقعة ليكون منهم حاجز حصين بينه وبين العرب

اما القرى التي تكتنف انطاكية فآهلة بالعلويين وهم امة مستقلة على صغرها ولغتهم العربية وهم يتزوجون زوجة واحدة وديانتهم سرية ولهم زعماء اصحاب مكانة عظيمة عندهم وسلطة كبيرة عليهم ومنازلهم كبيرة رحبة فيها جميع اسباب الراحة

بقي انه ليس من السهل ان نعرف لاول وهلة سبب انقراض حضارة انطاكية الزاهرة هذا الانقراض السريع وكل ما يخبرنا به التاريخ انه طغى على البلاد سيلان من الغزاة سيل الغزاة الفرس من الشرق وسيل الغزاة العرب من الجنوب في الثلث الاول من القرن السابع بعد المسيح وكانت عادة الفرس انهم اذا غزوا بلاداً ، ولم يقووا على البقاء فيها جلوا عنها ودمروا جزءاً كبيراً منها يفصل بينهم وبينها فيأمنون بذلك قيام البلاد المغزوة للاخذ بالثأر فلا يبعد والحالة هذه بعد اجتياحهم تلك البلاد ان يكونوا قد قطعوا ما فيها من غابات الزيتون والكروم وخربوا المعاصر وهدموا جدران الحقول ولكن حربين تسيل فيهما الدماء انهاراً ويكثر فيهما التخريب والتقتيل والاسر لا يحولان بلداً خصيباً قفراً جديباً في مثل هذا الزمن الوجيز فلا بد فوق ذلك من اضافة العوامل الطبيعية كالزلازل التي قربت البعيد وعجلت النتائج

وانطاكية موطن اميانوس مرشكينوس وارشياس الشاعر الفيلسوف الذي كان شيشرون من تلاميذه وليبيانوس والقديس لوقا والقديس يوحنا فم الذهب . وينسب اليها جماعة كثيرة من اهل العلم وغيرهم من المسلمين . وفي القرن الخامس لقب اسقف انطاكيه بطريركاً ويطلق لقب بطريرك انطاكيه على بطريرك الروم الارثوذكس وثلاثة من بطاركة الكنيسة الكاثوليكية وهم بطريرك الموارنة وبطريرك الروم الكاثوليك وبطريرك السريان الكاثوليك وما من أحد من هؤلاء يقيم في انطاكية

***

وقد ازدهرت النصرانية في انطاكية ازدهاراً كبيراً . وليس في العالم كله مدينة غير القدس مرتبطة اكثر من انطاكية بتاريخ الكنيسة الرسولية . ومما يذكر هنا اشتراك المدينتين في كثير من المسائل المتعلقة بانتشار النصرانية من ذلك أن احد الشمامسة السبعة الذين انتخبهم الرسل لخدمة الموائد كان من انطاكية (اع . ٦ : ٥) ولما تشتت النصارى من اورشليم بعد قتل اسطفانوس سار قوم منهم الى انطاكية وبشروا فيها بالانجيل (اع . ١١ : ١٩) وانحدر اغابيوس وغيره من الانبياء من اورشليم الى انطاكية وانبأوا بالمجاعة (اع ١١ : ٢٧و٢٨) ومنها ارسل برنابا وشاوول الى اورشليم للقيام بأعمال خيرية (اع ١١ : ٣و١٢ : ٢٥) واليها انحدر قوم من اليهودية وألقوا في كنيستها رجساً (اع ١٥ : ١) وبها لام القديس بولس القديس بطرس لنهجه طريقاً ساقه اليها رسل من اورشليم (غلا : ٢ : ١١و١٢) ومعظم أهمية انطاكية دينيًّا ناشىءٌ عن استظهار النصرانية فيها على الوثنية فقد قامت بها أول كنيسة للامم (اع ١١ : ٢و٢١) وبها دعي التلاميذ مسيحيين اولاً (اع ١١ : ٢٦) وقام القديس بولس بأعماله الاولى التبشيرية (اع ١١ : ٢٢ — ٢٦) وسافر منها في بدء سياحته الاولى للتبشير (اع ١١ : ١—٣) واليها رجع (اع١٤ : ٢٦) وبعد ان عقد المجمع الرسولي الذي انفذت أوامره الى الأمم المرتدة في انطاكية خاصة (اع : ١٥ : ٢٣) بدأ سياحته التبشيرية الثانية وانتهى اليها (اع ١٥ : ٣٦ و١٨ : ٢٢) ثم خرج منها حين بدأ رحلته

الثالثة (اع ١٨ : ٣٣) التي انتهت في اورشليم وقيصرية وما من شيء يدل على انهُ رجع اليها بعد ذلك غير أنها بقيت بعده مركزاً مهمًّا لتقدم النصرانية

أما بطرس الرسول فهو أول اسقف سيم لكنيسة انطاكية سنة ٤٤ فبعد أن أقام فيها سبع سنين عين افوديوس خلفاً له وقصد الى روميه . أما كنيسة القديس بابيلاس اسقف انطاكية الذي مات في اثناء الاضطهاد الذي قام به داكيوس فقد كانت في « دفنه » بجوار انطاكية واستطالت شهرتها حتى أنست الناس عظمة هيكل ابولون المقام هناك . ولما قدم بوليانوس الجاحد دفنه ليقدم قرباناً لابولون دهش جد الدهشة لانهُ لم يرَ في الهيكل الاحتفالات المعتادة وشكا في بعض كتاباته من أنهُ لم يرَ من القرابين الاَّ طيراً من الاوز قدمه رجل فقير بدلاً من التقدمات السابقة التي كان كل منها مؤلفاً من مائة ذبيحة وحملته غيرته الدينية على الاخذ بثأر ابولون فهدم كنيسة القديس بابيلاس واصدر أمره الى النصارى بنقل موتاهم المدفونين في « دفنه » الى انطاكية مع بقايا القديس بابيلاس فوضعت عظامه في مركبة ونقلت محفوفة بالنشائد والترانيم والناس من حواليها يهللون ويضجون بحماس كبير . وفي الليلة التالية اضرمت النار حول تمثال ابولون في « دفنه » فسقط وقد نسب بوليانوس ذلك الى نصارى انطاكية فعاقبهم على ذلك عقاباً أليماً وفي سنة ٣٠٣ حدث الاضطهاد الذي قام بهِ ديوكلشيانوس على انطاكية فجرى فيها من الفظائع ما تقشعر لهُ الابدان هولاً ورعباً وجرى بين الكاثوليك والآريوسيين من الشقاق ما كاد يفضي الى خراب المدينة . وفي النصف الثاني من القرن الرابع اضطربت أحوال كنيستها لتكاثر فرق الهراطقة فيها والتأم في انطاكية عشرة مجامع مسيحية من سنة ٢٥٢ الى سنة ٣٨٠ وفي أواسط القرن السادس للميلاد فتح كسرى ملك فارس انطاكية بعد ان كان يوستنيانوس قد بذل جهده في ترميمها واعادة الابنية التي هدمتها الزلازل فاضرم فيها النار فاحترقت ما عدا منطقة « ستراتيوم » والكنيسة الكبرى الاَّ أن الفرس سلبوا منها كثيراً من النفائس وكان القيصر قد انفذ الى ملك فارس سفيرين يدعى احدهما يوحنا والآخر بوليانوس فتمكنا من مقابلته وعقدا معه معاهدة صلح تقرر فيها أن يؤدي القيصر الى ملك فارس مبلغاً سنويًّا على سبيل الاعانة وعلى سبيل الجزية

وقد اتفق المؤرخون ان يوستنيانوس ساعد أهالي انطاكية مساعدات كبيرة تمكنوا بها من بناء حمامات جميلة وانشاء قصور جديدة غاية في الابداع وكنيستين كبيرتين احداها للعذراء والاخرى للقديس ميخائيل وحولوا مجرى النهر ووسعوه وبلطوا اسواق المدينة تبليطاً حسناً وجروا المياه الصالحة للشرب بأقنية ووسائل اخرى كثيرة ووزعوها على الاحياء المختلفة وحفروا آباراً خاصة للمنشآت القائمة على التلال والاماكن المرتفعة واقاموا لمياه الشتاء سدوداً متينة لوقاية البلد من أذاها. كذلك انشأ يوستنيانوس ثلاثة مستشفيات احدها للنساء والثاني للرجال والثالث للمرضى من السياح والغرباء

وفي آخر سبتمبر سنة ٥٨٩ حدثت زلزلة شديدة في الساعة الثالثة صباحاً فتساقطت الأبنية في

بضع دقائق وهدم جزء كبير من الكنيسة الكبرى غير ان قبة الكنيسة انفصلت من أصلها وسقطت على بعض الجدران فارتكزت عليه ولم تحل عنه لأنها توازنت ولم تنفصم انها كانت من المعدن والخشب ولم يعقب هذه الزلزلة من الاضطرابات ما عقب الزلزلة التي حدثت سنة ٥٢٦ غير أن شوكة سوريا كانت قد مالت الى الزوال لان الفرس كانوا يدنون من الفرات وينهبون آسيا الصغرى وفي اثناء هذه الأخطار أخذ فوكاس المغتصب يضطهد اليهود ويهددهم بالفناء ان لم يعدلوا عن شريعة موسى فثارت ثورتهم وانقضوا على انسطاسيوس الاسقف واحرقوه بالنار حيًّا فجرَّت عليهم قساوتهم هذه قصاصاً مرعباً وذبحهم فوكاس شر ذبحة وفي سنة ٦٣٨ للميلاد فتحها المسلمون صلحاً على يد ابي عبيدة بن الجراح في ايام الخليفة عمر وذكر المؤرخون الافرنج ان الذي مكنهُ من ذلك خيانة يوقنا احد قواد الروم ولم يدخلها الاَّ بعد حصار شديد . وذكر ياقوت ان ابا عبيدة سار اليها من حلب . ثم انتقل اليها قوم من اهل حمص وبعلبك منهم مسلم بن عبد الله بن حبيب بن النعمان بن مسلم الانطاكي وكان مسلم قد قتل على باب من ابوابها فهو يعرف بباب مسلم الى الآن . وفي سنة ٩٧٥ استرجعتها الامبراطورية البزنطية وذكر ياقوت ان الروم استرجعوها سنة ٣٥٣ للهجرة الموافقة ٩٦٤ للميلاد بعد ان ملكوا طرسوس واظنه غير ان الرواية الاولى هي الاصح واستمرت انطاكية في ايدي الروم الى ان استولى عليها منهم سليمان السلجوقي جد ملوك آل سلجوق في سنة ٤٧٧ للهجرة وفي سنة ١٠٩٧ للميلاد حاصر الصليبيون انطاكية ولم يكن لها حينئذٍ من القوة ما كان لها في عهد الرومانيين لان عدد سكانها تناقص غير ان مساحتها كانت لا تزال ثلاثة فراسخ وكانت اسوارها منيعة جدًّا وكان فيها ٣٦٠ برجاً للقتال وقلعة مبنية على صخر وخنادق عميقة وفي احد جانبيها نهر وفي الآخر أجمة والتلال من حواليها تقيها الهجمات . وكان المحاصرون مؤلفين من اربع امم من الافرنج فتمكنوا من فتحها سنة ١٠٩٨ للميلاد ويقال ان الذي سهل لهم ذلك خيانة رجل ارمني يدعى فيروز كان قد أسلم . وذكر ياقوت ان الافرنج استولوا عليها بحيلة وقد جعل الصليبيون انطاكية قاعدة اميرية باسمها واول من ملكها بوهيموند الترنتي وكانت مدة ملكه من سنة ١٠٩٨ الى ١١٠٨ ثم ضمت الى مملكة اورشليم واعيدت بعد ثماني سنوات الى بوهيموند الثاني سنة ١١٢٦ وفي سنة ١٢٦٨ حاصرها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ففتحها بعد حصار استمر اربعة ايام واحرق كنائسها بالنار وقتل من اهلها نحو ١٧ الف نفس وأخذ منهم مئة الف اسير . وقد انحطت قواها بعد ذلك وزال ما كان لها من الرونق والبهاء وفي سنة ١٥١٦ استولى عليها الاتراك . ومن الزلازل التي اصابتها وهي في حوزة الدولة العثمانية الزلزلة التي حدثت سنة ١٦١٥ وكادت تهدم المدينة برمتها وقد قتل فيها عدد وفير ثم الزلزلة التي اصابتها سنة ١٨٧٢ وقد بدأت في ١٣ ابريل واستمرت عدة ايام فهدمت قسماً من الاسوار وانشق الجسر الروماني القديم في عدة اماكن وتساقطت كنيسة الروم الارثوذكس وهلك الوف من الاهلين

حب الام

في أنابيب التجارب العلمية

ان حب الام في نظرنا هو روح الامومة ومجلاها لذلك نسبغ عليهِ في الناس والحيوانات على السواء، مسحة من الالوهة، ومع ذلك يقول الكاتب «رتشي كالدر» في كتابه الجديد «ولادة المستقبل» انهُ رأى حب الام في انبوب المختبر!

ذهب هذا الكاتب الى الدكتور ويسنر في معهد الوراثة الحيوانية بادنبره فعرض عليهِ انبوباً فيهِ سائل قال انهُ يحتوي على سرّ الحب في الام. فاحسَّ الكاتب عندئذٍ برعشة في يديه حتى كاد ان يفلت الانبوب منهما ويتحطم على الارض. فقد أثبت الدكتور ويسنر أنهُ يستطيع أن يولد في اناث الحيوان غريزة الامومة وفقاً لرغبته. وليس السائل الذي يحتوي عليهِ الانبوب المذكور، الاَّ غريزة الامومة هذه، وقد أفرغت في قالب مادي. فقد استخرج الدكتور ويسنر هذا السائل من الغدة النخمية المؤلفة من ثلاثة فصوص في مخفض صغير داخل الجمجمة عند القذال. ثم أثبت انهُ عندما تحقن بهِ الفئران التي لم تلد تتصف بجميع مظاهر الامومة ومنها حب الام. فكأنهُ خلق غريزة الامومة بحقنة ابرة!

والمظاهر التي تجلت في تصرف الفئران تستوقف النظر، فالامومة في الفئران تستغرق خمسة عشر يوماً بعد الولادة، تبالغ الوالدة في خلالها، في العطف على مواليدها، فتحملها وترأمها وتبني لها العشوش وتدافع عن كيانها، ثم اذا انقضت الايام الخمسة عشر، تركتها وشأنها، منصرفة عن كل عناية بها، فلا يبدو عليها بعد ذلك اي مظهر من مظاهر عطف الام على فلذات مشتقة من كبدها. الاَّ ان حقن الخلاصة المستخرجة من الغدة النخمية ولد في اناث الفئران مظاهر الامومة مع انها كانت غير قريبة العهد بالولادة. وهذا السائل يحتوي على هرمون (رسول) خاص مستخرج من الفص الامامي في الغدة النخمية، فاذا توصل العلماء الى معرفة بنائه الكيمائي، اصبح في وسعهم ان يصنعوا «حب الام» في المعمل

ان الدكتور ويسنر واعوانه معنيون الآن بالبحث في أسرار الولادة والتناسل، وقد وجهوا جانباً كبيراً من عنايتهم الى استكناه اسرار الهرمونات (الرسل الكيمائية التي تطلقها الغدد الصم) المسيطرة على العمليات الشقية (الجنسية Sexual) المعقدة في الجسم، ويؤخذ من هذه البحوث ان أعمال التناسل والولادة خاضعة لسيطرة الغدة النخمية، وان هذه الغدة بمثابة المركز الرئيسي أو مقر أركان الحرب لنظام الغدد في جسم الانسان، منهـا تنطلق الرسل (الهرمونات) في مجرى الدم حافزة بعض الغدد للعمل أو لنقل الاوامر الى ما يتصل بها من الغدد الاخرى

ومن هذه الغدد ما يصد الرسل عن سيرها، ولا يطلقها من عقالها الاَّ متى حان الوقت الموافق، والعمل كله قائم على أساس عجيب من التضافر والاتساق



ستانلي بولدوين زعيم المحافظين البريطانيين

Stanley Baldwin



قصر « ايزولا بلا » القائم على جزيرة في بحيرة ماجيوري امام بلدة ستريزا حيث عقد مؤتمر ستريزا في ١١ ابريل الماضي بحضره موسوليني ومكدونلد وفلاندان ولافال والسر جون سيمون

روح اليابان ورسالتها

زعيمها الحربي يتحدث

«كنوزنا المقدسة ، هي المرآة رمزاً للعدل ، والجوهرة رمزاً للرحمة ، والسيف رمزاً للشجاعة . هذه الفضائل هي سر روح اليابان» [الجنرال اراكي]

لما دعي الجنرال اراكي من نحو ثلاث سنوات ونصف سنة ، من قيادة فرقة محلية ، الى تقلد وزارة الحربية ، كانت الحملة المنشورية في بدئها . ولكن مكانة وزير الحربية حينئذٍ وشأنهُ الكبير في الوزارة اليابانية ، كانا مستمدَّين من خطورة الحملة في منشوريا ومن معرفة زملائه أنهُ يستطيع أن يسير فيسير الجيش الياباني وراءه . ذلك أن الجيش كان قد دبَّ فيهِ دبيب الخروج عن الطوق ، إذ رأى الدبلوماسية اليابانية في مسألة منشوريا مترددة خائفة لا تقف من الحالة موقفاً حازماً . وكان الضباط الشبان يقرأون لبعض متصوفة اليابان بأن الله لا بدَّ معيد لليابان عهد ازدهارها على يد الجيش والقواد والضباط ، فينقضي عندئذٍ عهد المتمول وعهد خادمه السياسي . وبدأ القوم يسمعون في أندية اليابان ودوائرها همساً باحتمال وقوع انقلاب في نظام الحكم ، يقوم بهِ الجيش المتمرد ، فيطرَدُ السياسيون من منصات الحكم وتنشأ حكومة عسكرية قومية

وكان التقلقل السياسي حينئذٍ على أشده ، فالوزارة السابقة كانت قد استقالت على أثر خروجها عن قاعدة الذهب ، وكانت الجمعيات السرية قد دوَّنت في قوائمها أسماء بعض الوزراء وكبار المتمولين لكي تتخلص منهم ، لأن في الخلاص منهم فائدة — في رأيها — للوطن ، وكان الضباط يمدون رجال هذه الجمعيات بالمسدسات وقنابل اليد

كانت الحالة في اليابان على ما ذكرنا ، لما دعي الجنرال اراكي لتقلد وزارة الحربية . والجنرال اراكي يحبه الشبان من الضباط ويحترمونه ويثقون به . وهو من ناحية يشاطرهم آراءهم ويعطف على ما يشكون منهُ . وكان ، وهو في منصب مدير المدرسة الحربية ، قد بسط ايمانه برسالة اليابان ووجوب تحقيقها بالحديد والنار . ففي اراكي رأى الجيش زعيماً يجدربهم أن يتبعوه . فالى أين يقودهم . . . ؟

أما الجيش في منشوريا ، فوجد في اراكي وزير الحربية الامثل ، لانهُ لما تقلد المنصب ، أصبحت الامبراطورية اليابانية بجميع مواردها وقواها ، تؤيد الجيش الياباني في مغامرته المنشورية . فاراكي كان لسان الجيش ، والمعرب عن مشيئته ، وفي ذلك ، كاد يكون مستقلاً كل الاستقلال عن الوزارة يستمد سلطته من الامبراطور مباشرة ، والامبراطور هو قائد الجيش الأعلى ، بل هو بمثابة آله في اليابان ، والسلطة التي منحها الامبراطور للجنرال اراكي ، استعملها اراكي الى أقصى حدودها

لذلك رأينا الجيش الياباني في سنة ١٩٣٢ . بعد فترة من التردد والأحجام ، في منشوريا

وقد اتخذ خطة الهجوم ، تنفيذاً للمشيئة الوطنية . فلما سارت الاعمال الحربية سيرها المرسوم ، عجز رجال السياسة عن التدخل في السيطرة عليها ، فكان اراكي وأركان حربه ، والقواد الذين في الميدان ، أصحاب الحلّ والربط الفعليين في كل ما يتعلق بمنشوريا

ويذكر القرّاء انهُ قبلما يقدم تقرير لتون الى جمعية الامم — وهو تقرير اللجنة التي ذهبت الى الصين برآسة لورد لتون من قبيل جمعية الامم لتحقيق مسألة اعتداء اليابان على الصين — اعترفت حكومة اليابان بدولة منشوكو — وهي الدولة التي أقامتها اليابان في منشوريا وأقامت عليها آخر امبراطورة المنشو الصينيين — فأعلنت بهذا الاعتراف انها اتخذت قراراً حاسماً فيما يتعلق بخطتها في شرق اسيا . وفي سبيل هذا القرار خرجت من جمعية الامم متحدية الرأي العام الدولي

والجيش الياباني الآن يعتقد انهُ قد فاز بحل المشكلة المنشورية (أو هو يظن انهُ قد فاز) بانشاء دولة منشوكو ، فاتسع المجال أمام اليابان لتعيش اذ كفل لها هذا الحل موارد زراعية ومعدنية تحتاج اليها ، وأسواقاً لبيع بضائعها ومجنَّا تردُّ بهِ روسيا . فالجيش قد اختصر الطريق الى هذا الغرض ، وصرم حبال السياسة الطويلة ، بفعل الحديد والنار ، وحقق خطة معينة في السياسة الخارجية تعتقد الأمة اليابانية عن بكرة أبيها ، انها خطة لا ندحة لها عنها اذا أرادت اليابان أن تعيش

والجنرال اراكي اليوم[1] هو رجل الساعة في اليابان ، عُيّن في وزارة الحربية ليمتطي النمر المهتاج — أي الجيش — فامتطاه على ما يهوى النمر نفسه . وفسح له المجال لتحقيق الاماني التي يرنو اليها وهو في رنوّه اليها انما يعبر عن مشيئة الامة اليابانية بأسرها

وكان بعض المشتغلين بالسياسة يتوقعون أن يقوم اراكي بعد فوزه هذا ، بقلب الحكم في اليابان ، وخصوصاً بعد الخطأ الذي ارتكبه بعض الشبان من الضباط في قتل رئيس الوزارة اينوكاي . ولكن آمالهم خابت فيما يتوقعون ، لان وزير الحربية — اراكي — لم يلبث بعد وقوع الحادثة ان أصدر أمراً قال فيه « ان الجيش افراداً وكلاًّ مندمجاً ، لا يتحرك الاّ وفقاً لأمر الامبراطور ، وان كل انحراف عن هذه القاعدة خيانة » . فأثبت انهُ دستوريٌّ ، وقضى الشهور التالية ، محاولاً أن يعيد الى اليابان استقرارها واتزانها ، وكانت قد فقدتهما على أثر التجارب والمغامرات التي هزّتها هزًّا . ثم ان اراكي رجل لا ينتمي لحزب ، ولا هو صديق للنظام البرلماني ، ولكنهُ بذل كل ما في لكي يمكن اليابان من استئناف نحو الانظمة النيابية فيها

كان قبل تقلده وزارة الحربية ، مجهولاً عند السواد من الشعب الياباني . انتظم في سلك الجيش وليس له ما يميزه من عزوة أو مال أو نفوذ . كان والداه فقيرين وبدأ هو حياته في منصب كاتب في معمل « صلصة » . وغنيٌّ عن البيان أن رجلاً بدأ حياته كاتباً بسيطاً في معمل « صلصة » ثم أصبح

---

(١) استقال اراكي من وزارة الحربية لما رأت الوزارة ان لا تمنحه كل ما طلبه من الزيادة في ميزانية الجيش ولكنه لايزال من أصحاب الحول والطول في توجيه سياسة اليابان ، وانما من وراء ستار

وهو في السابعة والخمسين « وزير الحربية » وزعيم الجيش الياباني ، كان فتىً طموحاً . ولكنهُ لم يطلب الشهرة ولا سعى اليها . فلم يظهر في ميدان الشؤون العامة في بلاده ، حتى اقتضت ذلك حوادث ما لهُ فيها يد

وليس في سيرته ما يسترعى النظر وانما في ذهنه ما يسترعي العناية . فبصفة كونه جنديًّا يابانيًّا ، شعر بوجوب وضع مبدإٍ جديد ، يسير بمقتضاه الجيش الياباني . ففي الايام القديمة اي في أيام الاقطاع كان الساموري يطيع أميره طاعة عمياء . فلا بدَّ اذاً ، من وضع مبدأ ينظر اليه الجندي الياباني كما كان الساموري ينظرون الى أمرائهم في العهد القديم . واليك ملخص هذا المبدأ : —

ان الطبيعة والقدر وضعا الشعب الياباني موضعاً تحيط به المخاطر والمصاعب من كل ناحية . تصيبه الزلازل والاعاصير والنيران وتضيق به جزائر اجداده . ولكن الشعب لا يسلم المخاطر التي تزجيها اليه الطبيعة ، ولا يجب ان يقف دون العراقيل التي تقوم في سبيل توسعه مكتوف اليدين . فالحياة « حياة خطرة » وهي مصير اليابان المحتوم . وفي دولة هذه حالتها ، تعظم التبعات الملقاة على عاتق الجيش نحو الامة

وهو يضحك من اولئك الكتاب الذين يشبهونه بكبار رجال السياسة من الاوربيين ويقول «ان اليابان لا تحتاج الى هتلر ولا الى موسوليني » ولكنه لا ينكر انها تحتاج الى اراكي . ليس في مظهره ما يدلُّ على انه قائد عظيم او امير من امراء الحرب ، فهو قصير القامة هزيل الجسم تدل اساريره على التقشف والحياة البسيطة ، ولكنهُ شديد العناية بالآراء التي تطرح عليه ، ويسرُّهُ كل السرور ان يناقشها ويجادل فيها

قابله احد الصحفيين وبادره بالقول : يا جنرال انني اريد ان أُفهم العالم من انت ، فالناس خارج هذه البلاد يعتقدون انك دكتاتور ، وكثيرون يظنون انك تمثل خطة السطو والبسطة في حياة اليابان الخارجية والنزعة الفاشستية في حياتها الداخلية ، فما هو «ركن الروح اليابانية» التي تتحدث عنها . فقال الجنرال : ان ركن الروح اليابانية كنوزنا المقدسة : هي المرآة تمثل العدل ، والجوهرة تمثل الرحمة . والسيف يمثل الشجاعة . ان ركن الروح اليابانية هو هذه الفضائل ممثلة في البيت الامبراطوري من بدء تاريخنا : هذه هي حكومتنا المثلى . ان مثلكم الاعلى في الحكومة هو قيام الحكومة على رضاء المحكومين . اما نحن فمثلنا هو وحدة الحاكم والمحكوم . فنحن ننظر الى الامة نظرنا الى الاسرة . ونحسب فن الحكومة تعاون الشعب والامبراطور على تحقيق ما فيه الخير العام . هذه الروح مناقضة للنزعة الدكتاتورية . ولما كان مثلنا السلم والوحدة في داخل بلادنا فلا بد من ان يكون روحنا الهادي مناقضاً لنزعة السطو والبسطة في الخارج . وقد مضى على الشعب الياباني ، عائشاً في ظل حكومة الامبراطرة ، القائمة على هذا الروح ، نحو الفي سنة ولكن في العقود الاخيرة تقلقلت افكارنا ، متأثرة بمثل الغرب ، وأخذ بعض شعبنا يميل الى نسيان الاغراض السامية التي وضعها

أجدادنا . فأنا لا امثل خطة خاصة بي . بل ادعو الى العودة الى مبادئنا ومثلنا القديمة

الصحفي — لقد بينت في كتابك الذي جعلت عنوانه « رسالة اليابان » ان كل آسيا تقريباً ما عدا اليابان ، إما ضاربة فيها الفوضى او هي محكومة من سلالات اجنبية وقلت ان « رسالة اليابان القومية هي رسالة بناء وفسرتها بقول الحكيم : اقيموا هذه الارض الطافية على اساس مستقر » فهل هذا يعني انه من الواجب على اليابان ان تعيد النظام الى نصابه في بلاد الصين ؟ »

الجنرال — لما استعمل ذلك الحكيم الالهي الكلمات التي اشرت اليها كان ينادي اليابانيين الى جعل اليابان بلاد نظام وسلام . وانك ولاشك تقر باننا حاولنا ، ان نحول الفوضى في بلادنا الى نظام. فاذا كنا نستطيع ان نمد يد المعونة الى الصين او الى اي بلاد غيرها حيث الانسانية تتألم وحيث الناس يقتلون بعضهم بعضاً ، فالواجب علينا يقضي بأن نفعل ذلك . ان مثلنا الاعلى النهائي هو سلام العالم ، قائماً على العدل والرحمة . واود ان تفهم ، اننا في سبيل الوصول الى هذا الغرض انتظمنا في جمعية الامم

الصحفي — ان مغوليا بلاد شاسعة مترامية الاطراف ، يقطنها نحو اربعة ملايين من السكان في مليون ميل مربع من الارض . فهل تعني يا حضرة الجنرال ان اليابان تستطيع ان تجد في هذه البلاد سعة لسكانها الفائضين ، من دون ان تعتدي او تسطو على احد ؟

الجنرال — للنوع الانساني الحق ان يعيش على وجه الارض فلنفرض ان السكان في بلاد ما كانوا قلالاً اذا قيسوا بمساحة البلاد وغنى مواردها الطبيعية . ولنفرض ان السكان في بلاد اخرى كانوا كثاراً جداً اذا قيسوا بمساحة البلاد وضآلة مواردها الطبيعية . وان البلاد الاولى تقفل في وجه سكان البلاد الاخرى الباب وتمنع تبادل البضائع بالحواجز العالية . افلا يكون هذا العمل حداً لحرية الحياة وانطلاقها . وهل يمكن تحقيق السلام العام ، والرخاء العام بهذه الوسائل ؟

أنا لا اعتقد ان السلام يمكن ان يعزز ، بالاحتفاظ بالحالة الراهنة بين الامم . فالعالم ليس شيئاً مستقراً ، والامة اليابانية ، مثل سائر الامم ، لها الحق في ان تسعى الى الفردوس على الارض على انني اشارك الاقتصاديين في ان الهجرة لا تحل مشكلة زيادة السكان . فنحن نطلب ميداناً حيث نستطيع ان ننمو نمواً طبيعياً بمقتضى القواعد العلمية (وهذه اشارة لا ريب فيها الى منشوريا)

الصحفي — ان الصين في حالة يرثى لها من الفوضى ، وتضعضع أسباب النظام . فاذا سلمنا ان على الدول جانباً كبيراً من التبعة في مساعدة جاراتها ، أفلا تكون رسالة اليابان في الصين ان تخرج بها من الفوضى الى النظام

الجنرال — ان السلام في الشرق الاقصى يجب ان يقوم على وحدة الصين القومية ، وعلى تعاون اليابان والصين ، وقد كان هدف سياستنا الخارجية من ايام الميجي (١٨٦٠ و١٩١٢) العمل على ترقية الصين والتعاون بين الصين واليابان ، وحتى الآن لم ناق جزاء لنا على صنيعنا . والصينيون من

دون تفكير وتروٍّ في اعمالهم ، هبطوا بالصين الى الدرك الاسفل من الفوضى ، ونحن جيران الصين نأسف اشد الاسف على هذه الحال السائدة هناك ، ولكننا لن نيأس ولن يدب القنوط الى نفوسنا ، وسوف لا نضن بجهد لمساعدة الصين على توطيد الامن والنظام في ربوعها

الصحفي — وكيف تعيدون الصداقة بين اليابان والصين ؟

الجنرال — إن وجود الامة الصينية ووجود الامة اليابانية يجب ان يكون وجوداً متسقاً فالامتان ليستا خصمين ولا متنافسين . والصلة بينهما يجب ان تكون وثيقة كصلة العجلة بمحورها . يجب ان يتقدما معاً والاَّ فانهما يتألمان معاً . وقد عكر صفو الصلات الودية بينهما ، أن رجال السياسة وامراء الحرب في الصين مكبُّون على نزعاتهم الخاصة ومصالحهم الذاتية ولا يعنون حقيقةً بالواجب الوطني وهو تعزيز بناء النظام في انحاء البلاد وإقامتهِ على اساس راسخ

والاساس الذي تقوم عليهِ صداقة الصين واليابان يقتضي ان يتجه الضمير الوطني المستيقظ في الصين الى الحق والعدل . ويجب على الصين ان تتخلى عن خطتها القديمة باثارة دولة ضد اخرى . فاذا ادرك الصينيون مصالحهم الحقيقية واتجهوا الى عمل البناء والتشييد ، صفت في الحال صلاتنا بهم مما يشوبها فنستطيع ان نتعاون حينئذٍ معاً على تعزيز السلام في الشرق الاقصى

الصحفي — في جزائر الفيلبين ١٢ مليوناً من السكان . ويظن المستر هوفر ان جزائر الفيلبين تتسع لستين مليوناً . فهل تقول ان اليابانيين وبلادهم شديدة الازدحام بهم يحقُّ لهم ان يهاجروا الى الفيلبين

الجنرال — الشعب الياباني شعب مجتهد . منظم . امين . فنحن ندعي اننا نصلح من الناحيتين الجسدية والعقلية ، للمهاجرة الى الفيلبين ، بل والى اي بلاد من بلدان العالم ، اذا وازنت بيننا وبين سائر الامم . وانما نحن لا نريد ان نكون ضيوفاً ثقالاً غير مدعوين . بل نطالب ان نعامل معاملة خالية من التحزب والظلم ، ونحن نأمل من البلدان غير المزدحمة بالسكان التي ترضى ان ندخلها على قدم من المساواة والحرية ، ان تفتح لنا صدرها في اول فرصة

الصحفي — وما مقام الجيش الياباني في الدولة ؟ ألا يصح ان نقول ان الجيش في اليابان ليس اداة من ادوات الحكومة ، وانما هو الابن الاكبر في الاسرة القومية — اي الامة اليابانية ؟ وقد يكون الواجب على الابن الاكبر احياناً ان يتصرف في الاحوال الاستثنائية تصرفاً تقتضيه الاحوال ويمليه عليه عقله وضميره ، فيكون في تصرفه هذا نائباً عن الاسرة ؟ أكانت هذه الروح روح الجيش اذ تقلد زعامة المغامرة المنشورية ؟

الجنرال — ان الواجب على الجيش الامبراطوري محاربة الشيطان بفضيلة الشجاعة الممثلة في السيف ، وهو احد كنوزنا المقدسة الثلاثة ، فالجيش ليس اداة في يد الحكومة ، ولا هو الابن الاكبر في الاسرة القومية ، انما هو جانب من الفضائل العظيمة التي يتصف بها الامبراطور ، اي العدل والرحمة والشجاعة . فهو في الواقع ينفذ مشيئة الامبراطور

فلما تقلد الجيش الزعامة في منشوريا لم يكن الجيش الاّ سيف الامة ، والمعبر جميع في افعاله عن مشيئتها ، فقوة البلاد وعزمنا على توطيد السلام الدائم في الشرق الاقصى — كل ذلك يبدو في الجيش الياباني في منشوريا

الصحفي — هل يقبل الجيش اوامر الحكومة المدنية ، او يدّعي الحق في تقرير الخطط السياسية في بعض الامور

الجنرال — ليس على الجيش من واجب الاّ الدفاع عن البلاد ، واظهار الهيبة الامبراطورية . فقيادته العليا في يدي الامبراطور . ومقامه في الدولة يختلف عن مقام الجيوش في الدول الاخرى التي تنفذ اغراض الحكومات القائمة . فالجيش الياباني يتصرف في صغائر الامور او كبائرها ، اذا وجب اظهار الارادة الامبراطورية و « الاودو » اي رغبة الامبراطور . فمن البداهة ان يشترك الجيش في تقرير السياسة الوطنية في ما يتعلق بالدفاع

الصحفي — اتعتقد ان الجيش يجب ان يظل مبتعداً عن السياسة ، واذا فسد السياسيون وأصبحوا مرتكبين ، وعرضوا الامة ، بحكومتها الفاسدة الى الخطر ، فهل يظل من الواجب على الجيش ان يقف مترفعاً عن الشؤون السياسية

الجنرال — لا يمكن للجيش ان يظل مترفعاً عن سياسة تنطوي على الارتكاب والفساد ، ولا يسعه ان يسكت عن انتشار الآراء الخفيفة والمتطرفة . ولكن الجيش لا يتحرك الاّ بأمر الامبراطور ، ورئيس اركان الحرب مستشار الامبرطور في ذلك

الصحفي — سمعنا كثيراً في السنة الماضية عن اثر « الضباط الاحداث » في السياسة ، ونحن لا نستطيع ان نفهم كيف يؤذن للضباط وخصوصاً الشبان منهم ، ان يتدخلوا في الشؤون السياسية . فهل تستطيع ان تفسر لي كيف فازوا بهذا النفوذ في الجيش الياباني

الجنرال — الضباط الشبان هم زهرة الجيش الامبراطوري وذخره . ان شجاعتهم في منشوريا وشنغهاي تبعث على النشوة . على ان الجنود اليابانيين لا يسمح لهم ان يتدخلوا في الشؤون السياسية وانما ينظرون الى الامبراطور كزعيمهم الاعلى . هم جنود الامة وحراسها . والجيش وحدة . والضباط الشبان ليسوا طبقة فيه منفصلة عن الطبقات الاخرى . ولكنهم لشبابهم وشجاعتهم يسترعون عناية الناس اكثر مما يسترعيها غيرهم

الصحفي — ان العالم يعجب بنظام الجيش الياباني ، لذلك صدم الناس صدمة عنيفة لما سمعوا ان ضباطاً لابسين البذلة الجندية الامبراطورية قتلوا رئيس الوزراء اينوكاي

الجنرال — عمل فظيع ! ولكن يجب ألا تحكم على الاقليم بالاعاصير والعواصف التي تثور احياناً . فلا تحكم على الجيش الياباني بهذه الحادثة التي اسفنا لها جميعنا اسفاً عظيماً

ستانلي بولدوين

السياسة بين الذكاء والخلق

رجل في السابعة والستين ، ربعة القوام حليق العارضين والشاربين ، ازرق العينين اسمر البشرة، يرتدي من الملابس ابسطها الى حدّ الرثاثة ؛ وفي يدهِ او فمهِ غليون لا يكاد يفارقهُ

هذا هو بولدوِنْ في مظهره الخارجي . بولدوِن الذي تقلّد رآسة الوزارة البريطانية مرتين وزعامة المحافظين من يوم تخلّى عنها بونارلو قبيل وفاتهِ من نحو اثنتي عشرة سنة . هذا هو الرجل الذي أُلقي على كتفيهِ وشاح دزرائيلي وساليسبري وروزبري وبلفور . تراهُ وهو يدخن غليونهُ فتحسبهُ من عامة الشعب او رئيساً من رؤساء نقابات العمال لا زعيم المحافظين البريطانيين

وقد تخطئهُ عند النظرة الاولى ، فشكلهُ اقرب الى شكل مقاولٍ معماريٍ منهُ الى اي شيءٍ آخر . ولا يصعب عليك ان تتصورهُ واقفاً على الجدار وحواليهِ العمال على الصقالة ، وفي اذنيهِ رنين المطارق وفي جيبهِ لفّة بارزة هي رسوم المهندس . قد لا يوافق هذا المقاول المهندسَ في كل ما رسم وصمّم ولكنهُ يمضي في عملهِ من دون ان يبدي اعتراضاً ، لان الاعتراض على تصميمات المهندس ليس من شأن المقاول

على ان النظرة الاولى كثيراً ما تخطئ ، لانّ وراء سكون المستر بولدون وهدوئهِ صفات عظيمة هي زينة الصفات التي يمتاز بها المشتغلون بالسياسة ، نعني حسن التقدير ورحابة الصدر . والواقع ان هـذا « المقاول » السياسي مزيج انكليزي عجيب من السريّ والمتموّل الصناعي في ناحية ، والخيالي والشاعر في اخرى . فيهِ تلتقي النزعتان، الواقعية ، وقد تلقاها من اشتغال اسرته بصناعة الحديد ، والرمانطيقية وقد اخذها من ناحية والدتهِ . اليس رديرد كبلنغ الشاعر والروائي ابن خالتهِ ؟ اوَ لمْ يقل كبلنغ في بولدوِن «انهُ اديب اسرتنا » ؟ وهاتان النزعتان تخرجان منهُ رجلاً يمثل الطبع البريطاني الاصيل اصدق تمثيل

***

يختلف بولدوِن عن اكثر الزعماءِ المحافظين الذين اشتهروا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في انهُ اتى السياسة من ناحية الصناعة . ولا يخفى ان اتجاه حياة الامم القومية والدولية الى العناية بمشكلات الاقتصاد والصناعة والنقد والتبادل والعمل والعمّال ، يفسح في الصفوف المتقدمة من الاحزاب السياسية مكاناً خاصّاً لهذا الطراز من الزعماء

ولكنَّ بولدون يختلف عن زملائهِ من رجال السياسة حتى الناشيء منهم في الاوساط الصناعية في انهُ لا يجري على المعهود المألوف من اصول التفكير السياسي. فأيُّ سياسيٍ يفكر تفكيراً سياسيًّا بالمعنى المألوف يمنح خزينة دولته خمْس ثروتهِ الكبيرة ، ثم يرفض ان يذاع ذلك عنهُ. ولو لم يعرف خبر هبتهِ اتفاقاً لظلَّ اسم بولدون واهبها مطويًّا عن السواد من الناس لا يعرفهُ الاَّ احصاء الخزينة . انهُ فعل ذلك وهو يأمل ان يقتدي بهِ اثرياء الامة الانكليزية فيمحوا بهباتهم للخزينة الف مليون جنيه من ديون انكلترا . وهذا في الواقع عمل شاعر اكثر منهُ عمل سياسيٍ

بل اي سياسيٍّ يقدم ، وهو في مستهلّ حياتهِ العامة ، على القاء خطبة يقاوم بها لويد جورج وصحبهُ امثال بركنهد وتشرشل وتشمبرلين وهم سادة بريطانيا حينئذٍ — ١٩٢٢ — واصحاب الحول والطول فيها ، بل يقاوم بها السواد من حزبهِ ، حزب المحافظين ، طالباً انفصالهم عن الوزارة الائتلافية القائمة حينئذٍ . كان من الممكن ان يفضي هذا الخطاب الى اخفاقهِ في ما طلب ، فيُقضى على آماله السياسية في مهدها ، ولكن المستر بونارلو ايَّدهُ ، وخرج من عزلتهِ رغم مرضهِ ، لتقلّد زعامة الحزب ، فهوى لويد جورج من ذروة مجدهِ ، وتفرّق ائتلافهُ ايدي سبا

***

والواقع ان ارتفاع بولدون من مقعدٍ خلفيٍّ في مجلس النواب البريطاني ، الى اعلى منصب في البلاد سوف يبقى من اخفى خفايا السياسة البريطانية في السنوات التي تلت الحرب الكبرى ، وهذا القول يذكرنا برسم كاريكاتوريٍ رسمهُ الرسّام بيربوم مثّل فيهِ بولدون الفتى واقفاً امام بولدون الكهل وهو يقول لهُ دهشاً : — « أنت رئيس وزارة ! يا الهي ! »

***

ولد في سنة ١٨٦٧ وتلقى العلم في جامعة كمبردج وتولى أعمال ابيهِ الصناعية نحو عشرين سنة ثم انتخب عضواً في البرلمان البريطاني سنة ١٩٠٨ فخطب خطبته الاولى فيهِ في موضوع يفهمهُ أدقَّ الفهم وهو « مناجم الفحم » . ولكنه ظلَّ على القواعد الخلفية ، أي من النواب الذين لا شأن لهم ، حتى كانت سنة ١٩١٦ فعين سكرتيراً لبونارلو ، ومن ثمَّ تقلّب في المناصب حتى عين وزيراً للمالية سنة ١٩٢٢ في وزارة بونارلو — بعد سقوط لويد جورج — وعقد مع الولايات المتحدة الاميركية تسوية على الدين الاميركي البريطاني . وبعد وفاة بونارلو تقلد زعامة المحافظين وما يزال زعيمهم مع أن فريقاً منهم حاول أن يتحدى زعامتهُ في موقف الحزب نحو مشكلة الهند طالباً تغليب النزعة الامبراطورية الاستعمارية على نظام الحكم فيها . ولكنه ردّهم خاسرين واحتفظ بزعامة الحزب وبوحدتهِ كذلك . وقد رأس الوزارة مرتين . وينتظر أن يتولى رآسة الوزارة القادمة اذا كانت الاكثرية للمحافظين وهو الغالب

والمرجح ان سرّ المقام الذي احرزهُ والثقة التي فاز بها ، ان أبناء قومهِ يعلمون انهُ لا يسعى

وراء مصلحة مالية او نفع خاص . وكثيراً ما يشبهونهُ في ذلك بوزيرهم العظيم وليم بت . كان بت فقيراً فلما عرض عليهِ منصب ذو مرتب كبير رفضهُ ، فأثبت لاهل وطنهِ ان المال ليس بغيتهُ . أما بولدوين فغني ، ومع ذلك لم يتعذر عليهِ ان يقيم الدليل على تجرده عن طلب المصلحة الخاصة في خدمة بلاده فتخلى سرًّا سنة ١٩١٩ عن ١٥٠ الفاً من الجنيهات للخزينة ولم تعرف هذه الحقيقة الاَّ اتفاقاً

***

وكأننا اذا تأملنا في مكانة بولدوين بين ساسة بلادهِ نراه دخيلاً على السياسة ، اقتحمها من دائرة بعيدة عن السياسة ، ليست هي دائرة الصناعة فحسب ، بل اذا أنت تأملتهُ وهو داخل البرلمان ظننت انهُ قادم من جولة في الريف ، بندقيتهُ في كتفهِ وغليونهُ بين شفتيهِ ، فلما اقبل على قصر وستمنستر ترك بندقيتهُ وغليونهُ في حجرة « الفستيبير » ومشى بملابسهِ البسيطة الى مكان الاجتماع كأقلّ النواب شأناً لولا انهُ زعيم المحافظين

اقتحم ميدان السياسة من قبل ، رجالٌ أتوها من الخارج . فبلفور جاءها من عالم الفكر الفلسفي ، وغراي من عالم الطيور ، بل يقال أن بلفور كان ينظر الى شؤون السياسة ، كأنهُ يطلُّ عليها من المريخ . وان غراي قلما حضر جلسة من جلسات مجلس النواب الاّ واسرع بعدها الى حدائقهِ في «مصري» ليعنى بدراسة الطيور وطبائعها العجيبة . ولعلَّ كتابهُ فيها أبقى على الزمن من سيرة حياتهِ السياسة الموسومة « خمس وعشرون سنة »

ولكن بولدوين دخل حلبة السياسة من ناحية الريف ، حيث يحبُّ التجوُّل والتحدُّث الى الفلاّحين والعمال، كأنهُ جارهم وخدنهم ، فيستمدُّ من أحاديثهِ هذه الافكار والآراء العملية التي يبني عليها خطتهُ السياسية . وهذا من جانبهِ — مع انهُ خريج جامعة كمبردج وصاحب المصانع الكبيرة — طبيعيٌّ لا كلفة فيهِ . ذلك انهُ من طبقة الحكام الذين ينظرون الى الصلة بين طبقتهم وطبقة العمال على انها صلة عائلية ، تهمهُ بنوع خاص ، ويوجه اليها عنايتهُ ، ولا يعرف معنى لكلمة الاحتقار فيما يختصُّ بها

بل انهُ لا يفهم القول بالعداء بين الرأسمال والعمل . فالصناعة في رأيهِ عمل عائلي ، يدار بإشراف رب العائلة . فلا العامل يطرد منهُ بوجه من الوجوه ، ولا يضرب فيه عاملٌ عن العمل ، بل انهُ يكره لفظة مستأجَر ، ويقول ان علماء الاقتصاد يخترعون لنا الفاظاً سمجة منها هذا اللفظ . فهو في انكلترا التي خرجت من الحرب الكبرى ، يمثل « جون بول » بفضائله ونقائصه ، بأمانته واستقامته وحسن معاملته وتراخيه وضعف خياله

***

ولعل مؤرخي المستقبل اذا جاءوا يكتبون سيرة بلدوين ، حكموا بأنهُ امتاز بتلك الصفات العالية التي تنبع من القلب وتسند الى الشعور ، دون الصفات التي مردّها الى الذكاء والعقل . فلم يعرف في

ميدان السياسة البريطانية رجل اكثر تجرداً منه عن المصلحة الخاصة ولا اكثر بذلا في خدمة الدولة
ولكن الناس يختلفون في المقابلة بين الذكاء المتوقد والخلق الطيب واثرهما في الحياة العامة .
وكل ما يمكن ان يقال في هذا الموضوع يلخص في كلمتين : كان الاجماع الذي اشرنا اليه في مطلع المقال لما ثار بلدوين وبونارلو على وزارة لويد جورج الائتلافية سنة ١٩٢٢، وكان ان بلدوين وبونارلو تمكنا من الفوز بتأييد صفوف المحافظين لهما فتنبأ بركنهد وهو من اعضاء الوزارة ومن اشد الانكليز ذكاء بأن البلاد تسعى الى حتفها اذ تتخلى عن ادمغتها التي من الطبقة الاولى . فردَّ عليه اللورد روبرت سسل في الحال وكان في الرد فصل الخطاب : « ان الادمغة التي من الطبقة الثانية تفضل على الاخلاق التي من الطبقة الثانية »

وفي هذه الجملة يلخص موقف الانكليز نحو كبار رجالهم . انهم لا يؤمنون بمجرد الذكاء والتوقد والالمعية ، ولا يمنحون ثقتهم في الغالب الاَّ لصاحب الخلق المتين

***

على ان الاخلاق والذكاء لا يجديان السياسي الاَّ اذا كان ذا مقدرة على الاقتناع بفكرة معينة واكتساح كل شيء في سبيل تحقيقها . وما عرف عن بلدوين حتى الآن ، يشير الى انه مقصر في هذه الناحية ، لان نزعة الشاعر تتغلب عليه احياناً ، فيميل الى التراخي . ولعل للطبقة التي نشأ فيها اثراً في ذلك . فرجل مثل المستر مكدونلد نشأ من الحضيض ، كان مضطرًّا في خلال حياة الكفاح ان يعتاض بزوجته عن سكرتير له ، فهو بحكم نشأته يهتم بتفاصيل كل شيء . ولكن المستر بلدوين الذي قضى عشرين سنة ، مديراً لاعمال صناعية كبيرة قبل ان يخوض ميدان الحياة العامة ، لم يعن في حياته قط بالتفاصيل ، فهو لا يهتم بها في منصب زعامة المحافظين فيكتفي بأن ينظر في المسائل السياسية الكبرى التي لها صلة بخطة الحزب . وقد يستطيع ان يعود المستر بلدوين ، رجلا قوي الشعور مضطرم الاحساس كأنهُ صليبيٌّ يكافح في سبيل عقيدة ، أو قد يصبح صاحب خطة معينة غير مفككة ، ولكنهُ لا يستطيع أن يوضع في مصاف الكبار من رجال السياسة ، الاَّ اذا ملك القوة المكتسحة التي تمكنهُ من تحويل خطة سياسية منسقة الجوانب ، الى حرب صليبية في سبيل الاغراض العليا

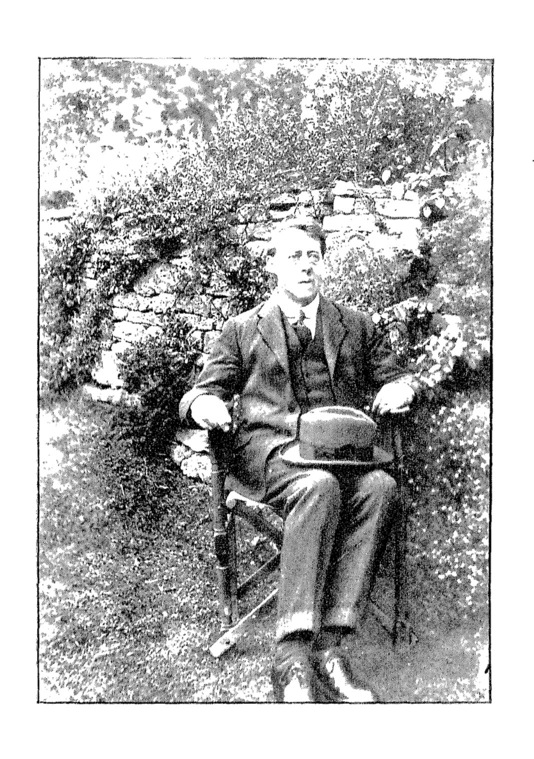
قد يجيء ذلك اليوم ، فيخرج بالحزب من سباته الحالي ، لانهُ لما حاول بعض خصومه أن يملوا عليه مشيئتهم وجدوا فيهِ خصماً عنيداً يستطيع أن يتلقى الضربات ويكيلها أشد مما يتلقاها . ولكن ما لم يخرج «بولدوِن» جديد شديد الحماسة قوي الكفاح ، يعنى بمشكلات البلاد العامة ، أكثر من عنايته بمشكلات الحزب ، يظلُّ مكانه في تاريخ بريطانيا السياسي متراوحاً بين النجاح والخيبة . قد تخلقه أيام الضيق التي تجتازها بريطانيا خلقاً جديداً ، ومن دون انتظار ، وإلاَّ فلا بدَّ من أن يخلي مكان الزعامة لغيره أو انتزعت الزعامة من الحزب بأسرهِ



فكتور هوجو في حداثته

Victor Hugo

(١٨٨٥ — ١٨٠٢)



المستر لورنس بنيون

Laurenc eBinyon

وقد صورت في حديقة منزله الريفي بانجلترا

المساكين

[مختارات من قصيدة لفيكتور هوغو — وقد احتفل بانقضاء نصف قرن على وفاته — تتلو علينا قصة رجل من الصيادين مضى كعادته الى البحر يصطاد ليحمل الى عياله القوت . وبينما كان يصاول اهاويل اليم ويدافع عاصف الريح، كانت امرأته تأوي في كوخهما طفلين لجارة لها من المساكين ماتت بالليل عنهما، فتبوؤهما فراشاً وثيراً ما وجد الصغار ليك فراشاً وثيراً. ثم جعلت ترقب أوبة بعلها وجلة تساورها الهواجس تسأل نفسها ماذا عسى يكون رأيه في صنيعها هـذا]

مناجاة الشاعر لنساء الصيادين

وارحمتاه لكُنّ يا نساء الصيادين ! ما افظع ان تتناجَي تقولين : « هناك ارواح لي. أب، حبيب ، اخوة ، ولد ، كل عزيز عندي ، هناك في هذه الفوضى ! — قلبي ، دمي ، جوارحي » . يا لله ! ان من كان فريسة الامواج كان فريسة الوحوش. يا ويلتا ! إذ نتصور ان جميع هذه الرؤوس يلهو بها اليمّ ويلعب ، من الولد الذي يتعلم الملاحة الى الزوج المعلم ، وأن الريح الهوجاء النافخة في ابواقها قد ارسلت من فوق رؤوسهم شعورها المفدودنة [1] المتشعثة . وان نظل دائماً لا نعلم تمام العلم ما هم يفعلون ، وانهم اذ يصاولون ذا الخِضمّ الذي لا قرار له ، وكل مهلكات الظلام حيث لا نجم فيها يضيء ، لا يجدون سوى حزّة [2] لوح وقطعة قماش ! همّ بغمّ ! ننطلق بين الجنادل ، ويقبل المدّ فنخاطبهُ ونصرخ في وجههِ : «ويحك ردهم الينا ! » ولكن وا أسفا ! ماذا عسى يقول بحر لا يبرح ملتطما ، لِذي بال لا يبرح في هم وحسرة ؟

وحنة ايضاً اشد حزناً وكمداً . إن بعلها لوحيد ! وحيد في هذا الليل الأليل ! وحيد تحت هذا الستار الاسود ! لا وليّ ولا نصير. انما الاولاد جد صغار — ايتها الام ! انك تقولين : « ليتهم كانوا كباراً ! ان اباهم لوحيد ! » اوهام واضاليل ! غداً حين يمسون بجانب ابيهم وينطلقون تقولين باكية : « ويلاه ! ياليتهم كانوا صغاراً ! »

في بيت الجارة الميتة

فولجتْ. واضاءَ داخلَ البيت سراجُها. بيت مظلم لا تسمع فيهِ ركزا [3] ولا نبأة [4] عند شاطىء الامواج القاصفة قد ثوى [5] وكان الماء من السقف يسيل، كأنما من عيون غربال يسيل

(١) الطويل الناعم (٢) قطعة (٣) الصوت الخفى (٤) الصوت ليس بالشديد (٥) اقام

في الصدر كان سواد يبعث الهلع مستلقياً . امرأة ساجية[1] منقلبة والقدم منها عارية . بصر منطفىء ، وهيئة مرعبة هائلة . جثة ، — من قبل ام مرحة شديدة ؟ — شبح ذات بؤس هلكت محلولة الشعر . ما يبقى من المسكين بعد طول عراك وجهاد ، وكانت قد تدلت منها بين قش الفراش البالي ذراع صفراء باردة ويد يعلوها اخضرار : وكان الذعر جاثماً بين هذا الفم المنفهق[2] الذي كانت الروح ، وهي مولية منهُ حسرى كئيبة ، قد صرخت صرخة الموت الكبرى التي تسمعها الابدية !

بجانب الفراش الذي كانت الام فيه منطرحة ،كان طفلان جد صغيرين ، ذكر وانثى ، في مهد واحد نائمين يبتسمان ، وكانت امهما ، إذ احست بدنو الموت ، قد القت على ارجلهما إتبها[3] وعلى بدنهما ثوبها ، لكي لا يشعرا ، ساعة الاحتضار اذ الموت ينتاشنا[4] بالحرارة تفترُ ، وليجدا الدفء بينما هي تبرد

***

ما أشد نومهما في مهدهما الذي يضطرب ! انفاس هادئة واسارير وجه راغدة ، وكأن لا شيء يوقظ هذين اليتيمين النائمين ، حتى نفخ الصور في يوم البعث ، اذ ، وهما الطاهران ، لا يخافان الحساب ولا الديان

والقطر في الخارج كالطوفان يهدر وينهمر . ومن السقف العتيق المتهتك الذي تنبعث منهُ الريح ، تقع أحياناً على هذا الوجه الميت قطرة تسيل منهُ على الخدين فتستحيل عبرة ودمعة . والموج له دويٌّ كدوي جرس الاستغاثة ، والميتة مصغية الى الموت لا تفقه ! إذ كأن البدن ، حين تزايله الروح المشرقة ، ينشدُ الروح وينادي مَلَكه ، وكأنما تسمعُ هذا الحوار العجيب بين الفم الذي ذبُل والعين الزائغة : ما صنعت بانفاسك ؟ — وانتِ ببصرك ؟

يا أسفا ! احبوا ، واحيوا حياتكم ، واقطفوا زهر الربيع ، وارقصوا ، واضحكوا واحرقوا قلوبكم ، واجرعوا كؤوسكم ، فكما الى البحر الخضم غاية كل نهر ، كذلك كتب القدرُ ان غاية الوليمة ، والمهد ، والامهات الواهات بأطفالهن النشء الصغار ، وقبلات المدن التي تبهتُ النفسَ وتُذهلها ، والاغاني ، والابتسامة ، وجديد الحب وحلوه ، غاية كل اولئك برودة الجَدث المحزنة !

(١) ساكنة (٢) المفتوح الواسع (٣) قميص المرأة او ثوب لها بلا اكمام (٤) انتاش . تناول اختطف

فُتح الباب بغتة على المصراعين يصرُّ صريره فولج منهُ الى الكوخ شعاع أبيض وبدا الصياد على العتبة جذلان يجر شبكة تنضح بالماء وقال : « هـذه هي الملاحة ! وقالت حنة : أو أنت ! » وعانقت بلهفة بعلها ولثمت رداءه لثمة الوله بينما كان الملاح يقول : « هاءنذا يا امرأتي ! » فترى منهُ على جبينه الذي كان أتون النار يلقي عليهِ نوره ، قلبَه الطيب الراضي الذي تلقي عليهِ حنةُ نورها.وقال : «لقد سُلِبت وضاع كدحي . انما البحر غابة — وكيف كان الجو ؟ — عاصفاً شديداً — والصيد ؟ — خاسراً رديئاً ولكن هاءنذا معانقـك وتقرُّ عيني . ما أصبت وشَلا . لقد تخرقت شبكتي.لقد كان الشيطان رابضاً من وراء الريح التي كانت تهدر. يا لها ليلة ! لقد ظننت لحظة مع كل هـذا القصيف والعجيج ان السفينة تضطجع وان المرسى قد انقطع . وما صنعتِ أنت خلال ذلك ؟ »

فعرتْ حنةَ في الظلام هزة واضطربت وقالت : «أنا ؟ عمر الله ، لا شيء خِطتُ كالعادة ، وكنت اسمع البحر كالرعد وكنت خائفة — أجل ، ان الشتاء كئيب شديد ولكن سيان» . حينئذٍ قالت ترتجف كحال من يركبون المعصية : « والحديث ذو شجون ، ان جارتنا قد ماتت . أمس قضت نحبها . وبعد ، فسيان وانما اذ مضيت أنت عشاء ، تركت هي طفليها ، وانهما لصغيران يدعى أحدهما غليوم والثاني مادلين. واحد لا يمشي والآخر لا يكاد يتكلم. لقد كانت المسكينة الطيبة فقيرة عائزة . »

فاتخذ بعلها هيئة الجد،والقى في أحد الاركان قلنسوة مكدود شقي بلَّلها الإعصار وقال وهو يحك رأسهُ : «يا عجباً ! يا عجباً ! لقـد كنا بخمسة أطفال فهاهم سبعة . لقد كنا من قبل في هـذا الفصل الرديء العاتي نتجاوز عن العشاء أحياناً ، فكيف بنا الآن ؟ ... انهما والله لصغيران ! لا يمكن ان يقال لهما : اشتغلا . يا امرأة هلمي فأتي بهما . لئن كانا قد استيقظا فلا بد يخافان مع الميتة وحدهما . ها هي امهما تقرع بابنا فلنفتح للطفلين . إنا نخلطهم جميعهم معاً وكل مساء ينشبان بحجورنا وسيعيشان معاً ويكونان أخاً وأختاً للخمسة الآخرين . . . . وأشرب انا المـاء صرفاً واضاعف جهدي وكدي.قضي الامر . هلمي فاحضريهما.ولكن ما بك ؟ أساءك هذا ؟ عادتك في مثل هذا الاعجال والمبادرة .

فقالت وقد شقَّت عن الاستار . انظر . ها هما !

الفتاة الاجنبية (١)

[يعنى صديقنا الدكتور بشر فارس الآن بدراسة اللغة الالمانية وآدابها في برلين. وهذه القطعة من بواكير ما نقله عن الشعر الالماني وهي للشاعر الالماني الابتداعي شلر (١٧٦٩ — ١٨٥٠)]

في غُرَّةِ كل سنة ، أوّلَ ما تصفِر القنابر ، كانت فتاة جميلة فتّانة تبرز في وادٍ الى رعاةٍ مُقِلّين

لم يكن الوادي مَسْقَط رأسها ، ولم يَدْرِ أحد مأتاها ، وكانت متى انصرفت عفا أثرها

السعادة كانت بين يَدَيها ، فما انفكّت القلوب تفرح بها ، غير أن جلالةً لها ، من الطَرْفِ والكفِّ جعلت تصونها

كانت تأتي بأزهارٍ وفواكه : هذه نضجت وتلك تَفَتَّحت في قرى أخر ، في أقاليم أخرى ، عند طبيعةٍ أوفرَ حظًّا

كانت تصل الرعاة واحداً واحداً : فتنيلُ هذا فاكهة وتَهبُ ذاك زَهْراً . فكان كلهم — فتاهم وشيخُهم المتوكىء — ينطلق الى داره وبين يديه تحفة

وكانت ترحب بالضَيْف جميعهم . الاّ أن عاشقَيْن دَنَوا منها ، فمنحتهما الطفَ الهدايا إذ جادت لهما بأتمّ الازاهر حُسْناً

المدمعة

[نقل هذه القصيدة من الادب البرتغالي الاديب الياس زعرور ونشرتها مجلة « العصبة » التي يصدرها في سان بولو الكاتب المعروف حبيب مسعود ويعاونه فيها طائفة من اكبر ادباء العربية في البرازيل]

في صباح يوم من ايام الربيع الدافئة ، ذرفت مقلة الفجر دمعة صافية ، اصابت ورقة من تينة يابسة على جانب طريق موحش في سبسب مقفر . دمعة نقية متلألئة تظهر للقريب كماسة برّاقة وللبعيد كنجمة لمّاعة

(١) Das Maedchen aus Jer Fremde ، وبها يرمز الشاعر الى الشعر نفسه

مرّ بها ملك يحف به الجند والاتباع ، فقال وقد راقه منها ذلك الاشعاع ، إن في تاجي من الجواهر ما لا يثمن ، وفيه من لآلىء الشرق الساحرة ما يزري بدموع غوانٍ صهرها الحب الدفين . ولكنني أتخلى عنها كلها مسروراً لو يتاح لي ان اعتاض منها بهذه الدرة اليتيمة لاجعلها شعاراً لملكي العظيم ومجدي الاثيل

سمعت الدمعة السماوية ما قال الملك وظلت شامخة ولم تحفل بتاجه ودرره

ومرّ بها صليبي مدجج بسلاحه وعلى جسمه درع ذهبية الزرد فقال وحق الصليب المقدس لا يليق بدرة كهذه الاّ مقبض حسامي فأسير بها في ساحات الجهاد من نصر الى نصر حبّاً بفادي الانام ومتى رجعت اجعلها قلادة في عنق حبيبتي فتكون عوذتي في جهاد الحروب ونصيري في امتلاك القلوب

سمعت الدمعة السماوية ما قال الصليبي وظلت صامتة يمنيها الرجاء ولم تعبأ بوعوده وعظمته

ومر بها يهودي شيخ بقافلة تحمل ما خفّ وغلا من الكنوز فصاح يا لاسرائيل ما كنت احسد ملكاً على ما حشد من اموال ولا بحراً على ما حوى من لآلىء ولكنني تجاه هذه الدرة الفريدة ارى يديّ الشحيحتين تجودان ولا اسف بكل ما املك من كنوز وتحف

سمعت الدمعة السماوية ما قال اليهودي ولم تأبه لكنوزه وتحفه

وكان تحت التينة عوسجة صغيرة ذاوية تشرئب مدلة بحقها من رحمة الله فقالت تعالي ايتها الدمعة السماوية روّي جفاف تربتي بحق الاله فكلما ضرعت اليه تزيدني شمسه جفافاً وانا بين الصخور لم اسمع زقزقة العصافير ولا لامست نعومة الاعشاش اغصاني اذ لا غصن لي يجثم عليه العندليب ولا ظلّ لي يؤمه بحبيبه الحبيب فأغيثيني ايتها القطرة السحرية ان لي بكِ غنى عن كل مال

سمعت الدمعة السماوية ما قالت العوسجة فاختلجت وسقطت منعمة صامتة

وبعد قليل من الزمن رأى الناس معجبين ان الحياة قد عادت الى تلك العوسجة الذاوية فأورقت وأزهرت زهوراً كجراح المصلوب وجاء النحل يمتص الشهد منها كما يجنيه من ازهى الورود

الخريف

لالفونس دي لامرتين

| نقلها عن الفرنسية : جورجي نصيف نيقولاوس |

سلاماً أيتها الغابة ، ، المتوَّجة ببقية من الخُضْرة ، سلاماً أيتها الاوراق الصفر المبعثرة على العشب ، سلاماً أيتها الايام الأخيرة ذات الروعة والبهاء ، فحُزنُ الطبيعة يحلو في نظري ، ويتردَّد صداه في جوِّ أحزاني

اني لاسلك ممرَّ الغابة الموحِش مفكّراً مهموماً ، ويحسن في قلبي ، ان أرى للمرة الأخيرة ، هـذه الشمس الشاحبة ، وضياؤها الضعيف لا يكاد يخترق ، تحت قدميَّ ، ظلام الغابة

أجَلْ ، في أيام الخريف هـذه ، حيث تقضي الطبيعة نحبها ، أجد في نظراتها المحتجبة بهاءً وجمالاً ، فهي وداع صديق، هي آخر ابتسامة للشفتين ، اللتين سيغلقهما الموت الى الأبد

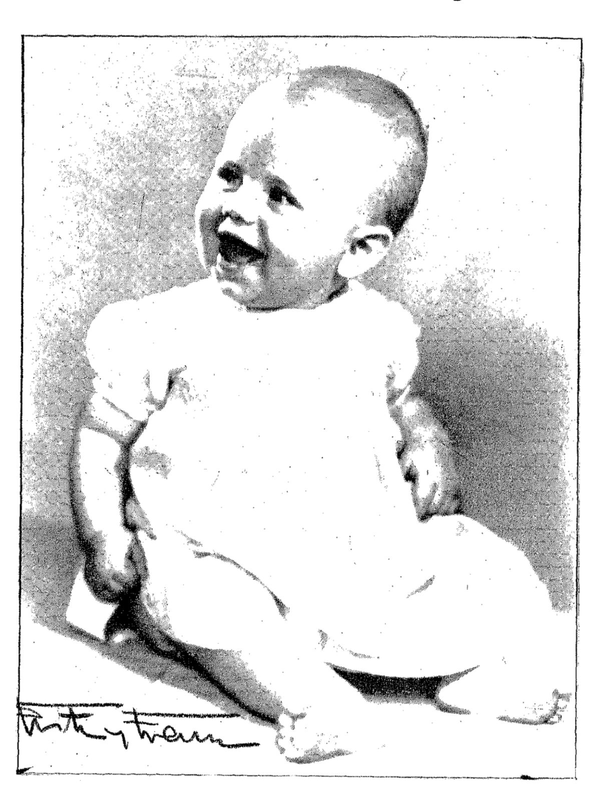
هكذا ، وقد اوشكتُ ان اغادر افق الحياة ، باكياً من ايامي الطويلة الاملَ الضائعُ التفتُ ورائي ، ملقياً نظرة اسىً وحسرةٍ ، على تلك النِعم التي لم يُتَحْ لي التمتع بها

ايتها الارض ، ايتها الشمس ، ايها الوادي ، ايتها الطبيعة الجميلة الوديعة ، اني مَديْن لكِ بدمعة على حافة قبري ، فالهواء معطر الأريج ، والنور صافٍ زامٍ ، وما اجملَ الشمس في عين الراحل المائت !

اني لأتوق الى شرب الكأس حتى الثُمالة ، تلك الكأس الممزوجة بالرحيق والمرارة ، فقد يتبقّى في ذلك القدح ، الذي اشرب فيهِ الحياة نقطةً واحدة من الكوثر اللذيذ

قد يخبّىء لي المستقبل بين ثناياه ، عوداً الى الهناء الذي فقدتَ من الامل ، وقد اجد بين الملا ، رُوحاً لا اعرفها الآن ، تفهم روحي ، فتتآلفا وتمازجا

ان وداع الزهرة عند سقوطها ، تسليمها عبيرها الى النسيم والشمس والحياة ، وأما انا فاذا قضيتُ ، تصاعدت روحي كلحنٍ حزينٍ مشجٍ



طفل يبتسم للحياة



رأس فتاة

(تصوير ايمي نمر)

في معرض إيمي نمر

اتيحت لي مشاهـدة آثار السيدة الفنانة إيمي نمر في المعرض الخاص بصورها ، فسرّني اني لم أحرم مشاهدة هـذا المعرض الفذّ وعددت من حظي الكبير ادراكه قبيل انفضاضه

فهذه سيدة شرقية ذات نصيب وافرٍ من الثقافتين العامة والفنية تبرز آثارها القوية للعيان فتستدعي حفاوة النقاد الخبيرين وبينهم ولديمار جورج وبول فيرنز وماريشال وأندريه سالمون وأندريه وارنود ولورنس بنيون ، وتثبت جدارتها بالعرض في لندن وباريز قبل العرض في القاهرة . وقد بلغت الآن بعد جهود عشر سنوات أو أكثر درجة عظيمة من الشخصية المتميزة في فنها قوامها ذوقها الخاص الى جانب نضوجها في التعبير المستقل ، فكيف لا نأبه لفنها وكيف لا نفخر بهِ ؟

لقد بدأت إيمي نمر في تصويرها الاول بالمشاهد المنبسطة والصور السطحية مع شغف بالألوان الزاهية كتصويرها لليهود في فلسطين ، ثم أخذت تتحول عن ذلك رويداً الى أن صار فنـها أخيراً بمثابة رد فعل لنزعتها الاولى ، فاذا بهِ الآن يعنى بالحجم والمتانة والضخامة ، واذا بالألوان الهادئة أو القاتمة تحل محل الألوان الزاهية القديمة ، واذا بالشخصية المرسومة من انسان وحيوان ونبات هي المسيطرة على المظاهر ، واذا بالروح وقوة التكييف غاية ما يرمي اليهِ فنـها وليست الصبغة أو الشكل . فتحس إزاء هذه العوامل بأن التعابير المرسومة التي تتجلى لك مبعثها من داخل الصور وليست مستمدة من مظاهر عرضية ، فهي تعابير ثابتة مصورة ذات روحانية محسوسة . وهذه الموهبة ليست بارزة في صورها القديمة ولكنهاملموسة ناطقةفيصورها الحديثة . وقد يلوح التشابه في كثير من موضوعاتها ، ولكنها ككل فنان أصيل تهمها كيفية التعبيرقبل أن يهمها الموضوع ، وقد يصدف غير الخبير بالفن عن موضوعاتها البسيطة في تصويرها الفاكهة مثلاً وان يكن تصويراً كلهُ قوة يكاد يجعلها تلمس وتشم وتتذوق ، ولكن سيزان Cézanne العظيم تجلى فنـهُ الرائع في تصوير الفاكهة بقدر ما تجـلى في موضوعات أخرى . وقد يمتعض بعض النظارة لتجرد الصور من الرمزية ، ولكن من عادة الفن النقي تصويراً كان أم شعراً الابتعاد عن الرمزية ، فلن يعيبها ذلك

في هذا المعرض البديع عشرات من الصور وقد قسمت الى أربعة أقسام مختلفة :

(١) صور لرؤوس آدمية (٢) صور لفاكهة (٣) صور لجموع مختارة (٤) رسوم قلمية . ولكن الروح فيها جميعاً واحدة ، فان ايمان صاحبتها بما للاشعة والظلال من قوة خالقة جعلتها تترك لها تكوين الاشكال وتجسيمها ولم تفكر لحظةً في اعتبارها اعتباراً ثانويًّا فهي عندها بمثابة الروح الذي يكيف المظهر . وإيمان صاحبتها بتجسيم الفكرة جعلها تتعلق بالضخامة في التصوير ، ثم ان ارتياحها الآن الى الالوان القاتمة جعلها تبدع في اختيار الالوان المعبرة سواء للفاكهة أو للوجوه الآدمية بازاء الارضية القاتمة وليس هـذا أمراً سهلاً بأي حال . ولعل من أبرع الشواهد على ذلك صورة

« الإعياء » في وجه السيدة المطرقة بلحظها فقد أبدعت في اختيار اللون الاخضر القاتم بصفة خاصة لإبراز معنى «الأعياء» في ما يوحيه تركيبُ الصورة . ومن الصور الفريدة تلك التي تمثل معنى الأنفة والازدراء ، فقد ظهر النور الخافت في جانب منها في قوس ممدود وقابله الظلّ في الجانب الآخر مقابلة طبيعية جميلة فكان النور والظلّ هما المكيفين للصورة ولمعناها ، ولم يكن ذلك من أثر رسم آليّ هو أبعد ما يكون عن طبيعة فنانتنا في نضوجها الحاضر وما من شك في أن الرسوم القلمية في مجملها ناطقة بحذقها ، وكأنها في بعضها تتلمذ على تجاريب ميخائيل أنجلو ، ولا عجب فان نزعتها كلاسيكية صميمة. وليس لنا أن نحاسبها على ذلك فنزعات الفنانين — لاعتبارات سيكولوجية — تختلف جد الاختلاف ، وانما تعنينا طاقتها الفنية وقوة تعبيرها الصادق . واذا كانت ايمي نمر مقتصدة في استعمال الالوان اقتصاداً كبيراً لأنها لا تحفل الآن بالزخرفة بل بالروح وقوة التعبير فقط ، فان مذهبها هذا كان ضميناً لعنايتها بالتشريح وبالجسم الانساني كما نرى بصفة خاصة في صورتين تمثلان النوم ففيهما جراءة مع صدق في التعبير وسلامة وتناسبٌ في أجزاء الصورة ، وان لحظنا الميل الى الضخامة العضلية وهو ذلك الميل المشهود في الفن الكلاسيكي . بيد أن هذه النزعة الكلاسيكية في الروح لم يصحبها عادة الاهتمام بالتفصيل ، ولو عنيت بالتفصيل البالغ لحدّت من استثارة خيال الناظر وتأملاته

الفنُّ الجميل جميلٌ والاتقانُ اتقانٌ مهما تباينت الاذواق ، والتثقيف الشخصي كفيلٌ بأن يُلهمنا مواطن الجمال حتى فيما لم نتعوده ، فليس الاعتراف بالجمال وقفاً على رضانا ، وليس عزوف ايمي نمر عن الروح الرومانطقية مما يجعلنا نبخسها حقها في صدق التعبير الفني والشخصية الفنية . وقد رسمت مشهداً في «درب الاربعين » (طريق قوافل الرقيق قديماً بين دنقلة وأسيوط) حيث العبيد وجماجم الضحايا ، وهو رسم تجريبي غير كامل ومع ذلك فهو يسترعي الاهتمام بتركيبه وغرابته وبالاعتبارات النفسية العميقة التي اوحته . وقل مثل ذلك عن شغفها بصور العبيد والسود ، فقد لا نعشق هذه الصور لاعتبارات مختلفة ، الاّ اعتبار الفن الخالص الحافل بالجهامة وظلام الحياة وآلامها ووحشيتها فانه كفيل باجتذاب عنايتنا بها . ومع هـذا ألم تستخلص لنا ايمي نمر معنى الحنان الخالص في صورة النوبية وطفلها ثم ألم تحفل ببعض الموضوعات الانجيلية بروح جميل من الايمـان ؟ فهي اذن لا تقصر فنها على تلك الموضوعات المكتئبة الغريبة لعجزها ، عن غيرها ، ولـكن اختياراً لما توحيه ظروفها ، ورد فعل لنزعاتها القديمة وتعلقاً بالنماذج القوية التي تفسح المجال لبراعتها في تكييف الانوار والظلال . وكثير من الصور الكلاسيكية نُسيت ظروفها التفصيلية ومناسباتها الفكرية والعاطفية ولـكن يبقى منها بعد ذلك الروح الفني المعبر الكشاف عن اسرارها الحيوية ، ومن اجله نمجدها

ولا نزاع في أن أمام فنانتنا القديرة ميادين كثيرة لبراعتها في المستقبل ، ولها من اقدامها وثقتها بمذهبها وبشعورها وتفاسيرها ما يكفل لها التقدم المطرد والاعتراف بألمعيتها

احمد زكي ابو شادي

الصحة والزواج

اجمع الاطباء على وجوب منع المصابين بالامراض الزهرية المزمنة من الزواج . ذلك ان فتك هذه الامراض بالمتزوجين لما يقصر عنهُ الوصف . فهي من اعظم اللعنات التي تنتاب الازواج وتذهب بهناءتهم . وكثيراً ما تضيع بهجة الحياة وتزول مسرات الزواج لما قد ينشئانهِ من الاثر في صحة المتزوجين ونسلهم وفي قواهم العقلية كذلك

فسلامة الزوجين من هذه الامراض شرط لازم . وعلى الذين يقدمون على الزواج ان يلزموا جانب الصراحة ويعترفوا بحقيقة حالتهم الصحية على وجه الاجمال سلامتهم من كل محظور ومحذور. ومن المستحسن تأييد هذا الاعتراف بشهادة من حكيم الاسرة . وفي الواقع ان القانون في بعض البلدان ينص على وجوب فحص طالبي الزواج ، لاثبات صلاحهم له من الوجهة الصحية . ومثل هذا القانون يجب نشره في جميع البلدان المتمدنة ، بحيث لا يباح لمن كان مصاباً بعاهة جسمية طارئة او وراثية او بداء السل ، او ضعف القلب او ما اشبه ان يتزوج من دون ان ينذر زوجهُ والاّ عُـدَّ خادعاً وكان زواجه عرضة للالغاء . فاذا اعترف كل من طالبي الزواج للآخر بحقيقة حاله ولم يكتم عنهُ شيئاً ثم اتضح انهما مع ذلك لا يحجمان عن الزواج فذلك شأنهما وليس لاحد ان يتعرض لهما ، مع ان بعض دعاة اصلاح النسل يرون ان هذا من شأن الامة في الامراض الوراثية ، لا من شأنهما الخاص ويجب على الامة ممثلة في الحكومة ان تمنعهُ لتمنع تكاثر المرضى والمصابين بالعاهات

ومن بواعث الاغتباط ان الامراض التي ثبت ثبوتاً قاطعاً انها وراثية ليست كثيرة . ومن فساد الرأي ان يحجم المرء عن الزواج خيفة ان يورث نسله الديابيطس (البول السكري) او حسر النظر او ضعف الاعصاب لان هذه الامراض ليست وراثية . ولكن عدد الامراض الجسمية والعقلية كثيرة جدًّا ومن المستحسن ان يستشير المقبل على الزواج طبيباً في امرها وان يبحث عن مصدرها ، وهل هي موروثة او طارئة . وقد يكون من الحكمة في بعض الحالات تعمد احداث العقم والامتناع عن النسل بحيث يكتفي كل من الزوجين بأن يعيش مع زوجهِ محروماً لذة النسل ومعتاضاً عنها ببهجة العيشة المنزلية الراضية

***

اذا طلب شاب ان يؤمن على حياته فحص فحصاً طبيًّا دقيقاً قبل ذلك . كذلك تطلب الحكومة مثل هذا الفحص ممن يطلب الانتظام في مصلحة من مصالحها . وهو عمل القومسيون الطبي هنا . وبعض الشركات الاجنبية في القطر المصري ، ومعظمها في بلدان اوربا واميركا تطلب من كل من يرغب في الانضمام اليها ان يعرض على طبيب الشركة . وليس يجد احداً في كل ذلك غضاضة او اهانة . وكذلك يجب أن يكون في امر الزواج

المرض امتحان

لقوة الرابطة الزوجية

المرض امتحان عظيم يكشف مواطن الضعف او القوة في العقد الزوجي . فاذا كان الحبُّ الذي يربط الزوجين حقيقيًّا فالمرض يقويه ويزيل جميع عوامل الخلاف والشحناء . واذا لم يكن كذلك ، اي اذا كان مؤسساً على الشهوة وحب الذات ، فان المرض يبرزه في حلتهِ الحقيقية . ومن الازواج من قد لا يكون الحب عندهم كثير الظهور ، وفي هذه الحالة يكون مرض احد الزوجين بركة لانهُ يعين على اظهار ذلك الحب الكامن . وليس غريباً ان يكون الحبُّ كامناً وان لا يقوى صاحبه على التعبير عنهُ فكأنهُ يقيم حول عواطفهِ اسواراً تحول دون الوصول اليها . وهذه الحال توهم المراقب . عن كثب ان الحبَّ ميت بين الزوجين ، فينشأ من ذلك شيء من النفور الذي يسميهِ الافرنج «سوء تفاهم» . فاذا اصيب احد الزوجين بمرض وقام الآخر بالعناية بهِ واظهار الحنان عليهِ ، ازال ذلك ما بين الزوجين من نفور وفتور

بل ان الاشخاص الممتازين باظهار ما تكنُّهُ جوانحهم من الحب ، والذين يغالون في الاعراب عنهُ قد يوثق المرض اواصر حبهم ويزيد كلاًّ منهم تعلقاً بالآخر . ولقد يتفق ان تتوالى الامراض والمحن على اسرة من دون ان يكون ثمة سبب ظاهر . فينشأ عن ذلك شيء من الضيق قد يزيد في سوء حالة الاسرة ومصائبها . فمثل هذه الحالة قد تزيد في ارتباط الزوجين وتوثيق اواصر الحب بينهما ، اذ عند الشدائد تعرف الاخوان . واذا مرض الاولاد واحتاجوا الى العناية في الليل والنهار واشتدَّ الخطر ولاح حبل الرجاء ضعيفاً ، فحينئذٍ يبرز الحب من مكمنهِ وتتجلى العواطف على اجملها . ثم ان الجهد الذي يبذل في تربية ولدٍ مصاب بعاهةٍ او علةٍ ورثها من احد والديهِ تقوّي روابط المحبة بين الوالدين . على ان الاهتمام بالولد العليل يجب ألاَّ ينقلب الى ما يشبه الشفقة . وكذلك التعاطف الزوجي يجب ان يفصل بينه وبين الشفقة . وكثيراً ما تكون المؤاساة رباطاً قويًّا بين الزوجين واما الشفقة فانها تفصل احدهما عن الآخر لانها تشعر بوجود تفاوت بين المشفق والمشفق عليه . وليس اشق عليك من ان تكسب ودّ من اشفقت عليهِ

على ان المرض لا يقوي بالضرورة الرابطة الزوجية ، بل قد يضعفها احياناً . ولاسيما اذا كان ذلك المرض مزمناً يقضي بعزل المصاب وخدمته خدمة خاصة . وقد تكون هذه الخدمة عبئاً ماليًّا ثقيلاً على الاسرة يستنزف قواها . فضلاً عن ان مرض احد الزوجين قد يحول دون اشتراكهما في الاعمال والزيارات التي تقتضيها الحياة الزوجية . وهذه الحيلولة توسع شقة الفصل بين الزوجين فيستسلم المريض منهما الى مرضهِ ويلتمس الصحيح مناهج الحياة من غير طريقة الزوجية وهذا قد يفضي به الى ادمان المسكر والميسر لالتماس القوة الكاذبة وما يليها من العواقب

هواجس فتاة جميلة

بعد اصابتها بصدمة شوهت جمالها

بين جمال الوجه وشجاعة النفس

ترى ماذا يكنُّ لي المستقبل ؟ كنت من شهر فتاة جميلة هائمة ارقص للحياة . وكنت قد فزتُ بالدعوة الى تمثيل دور صغير في شريط سينمي . لم يكن دوراً يباهى به . ولكن الكفاح الذي كافحته والجهاد الذي جاهدته قبل الفوز به جعلاه في نظري تحقيقاً لحلم من احلامي وخطوة اولى نحو هدفي وهو ان اصبح كوكباً متألقاً في عالم التمثيل السينمي . فكنت سعيدة به السعادة كلها

ولكن انظري اليَّ الآن . انني لا ادري ما اصبح وجهي بعد حدوث ما حدث. لانهم لم يسمحوا لي بعد ان انظر الى وجهي في المرآة . ولكنني اعلم ان ثغري الذي كان رطباً احمر كورقة الورد اصبح معوجًّا مشوّهاً . وفي خدي الايمن ندبة جرح عميق احسها باناملي

كنت في سيارة مع صديقي جفري عائدة من حفلة راقصة . وكنت متهللة طروبة . واذا بالسيارة تصطدم فجأة بمصباح قائم في وسط الطريق . فسمعتُ وكأنني في غيبوبة تأوه صديقي وما افقت الاّ وانا في مستشفى ورأسي مضمد بضمادات أكاد لا ارى من خلالها الاّ سقف الغرفة الابيض

ولعلي اغبط لان ساقي سليمتان فاستطيع ان امشي. ولان والديَّ حيّان فاستطيع ان اقضي دور النقه في بيتهما الريفي . ولانني ما زلت حية على كل حال

حياتي ! ما اشد الاختلاف بين حياتي بعد الصدمة وقبلها . في السنة الثالثة عشرة من عمري بدأت اعنى بشؤون الجمال . فعليَّ الآن ان انسى جميع هذه السنين وان انشأ نشأة اخرى

قال لي الطبيب الذي عالجني : يا ابنتي مضت عليك سنوات وانت تنظرين الى الحياة من نافذة ضيقة . وقد سحرك جمال ما رأيت لانك كنت في مقتبل العمر وعلى جانب عظيم من الجمال . والعالم يغدق عطاياهُ على المتصفين بالجمال لان الجمال بلسم في عالم يكثر فيهِ القبح والقتام . ولكن العالم يغدق كذلك على من اتصفوا باللطف والشجاعة والدماثة ولو لم يتصفوا بالجمال

فقلت محتجة : ولكن يا دكتور ، لم اقض ما مضى من حياتي كالفراشة متنقلة بين اطايب الروض. معتمدة على جمالي في الفوز بكل ما اريد . بل كافحت كفاحاً عنيفاً في سبيل تحقيق ما اصبو اليهِ

كنت لا ازال في السابعة عشرة لما تركت المدرسة بعد ان فزت بجائزة الجمال فيها . وانتظمت في معهد التمثيل لتعلم فنونه واساليبه . ياما وقفت ساعات متوالية امام مكاتب التوظيف اطلب عملاً . ما اكثر الساعات التي قضيتها في البرد القارس انتظر دوري لافوز بمقابلة المسيطرين على شؤون السينما وكنت عند عودتي وقد انهك البرد والانتظار قواي ، اذهب توًّا الى دروس الرقص الكلاسيكي لتكون عدتي وافية متى اتيحت لي الفرصة . فما كاد الحظ يرمقني بنظرته فيتيح لي تمثيل دور صغير في

شريط سينمي حتى نكبت هذه النكبة. هنا اضطرب صوتي واغرورقت عيناي بالدموع. فقال الطبيب: أنا اعلم يا بنتي انك كنت على اعظم جانب من الشجاعة في مواجهة الحياة وأملي ان تبقى هذه الشجاعة عدتك حتى تفوزي بالغلبة وربّت على يدي ومضى في سبيله يزور سائر المرضى. فأحسست عندها بشيء من الغبطة في نفسي. قال « املي ان تبقى هذه الشجاعة عندك حتى تفوزي بالغلبة » واعتقد انهُ عنى ما قال. أعتقد أنهُ اسف لوتر المرارة الذي ضربت عليهِ في كلامي معهُ كما آلمه ان يراني متألمة من اثر الصدمة والجروح التي اصبت بها. ولكن بوارق الامل والشجاعة تتراجع في الغالب أمام بواعث اليأس. وانني لا ازال عاجزة عن أن اتصور كيف استطيع أن أحمل كل هذا. كيف استطيع أن اصبر على نظرات الاشفاق في عيون صحبي اذ أخرج من المستشفى أو كيف احتمل تفرس الناس في وجهي عند ما أمشي في الشارع او أذهب في طلب عمل ما؟ اذ لابدَّ لي من العمل والاَّ طار صوابي

سهلٌ على الطبيب ان يقول لي أنهُ يجب عليَّ ان اكون طروباً. ولكن هناك فرق بين طرب نفس تبذل وسعها لتدرّع درع الشجاعة، وذلك الطرب الذي يصدر عفواً كتغريدة العصافير. ما أجمل الحياة اذ كنت أتلقى ثناء الشبان وازاهيرهم، اذ كنت أستطيع ان أضحك معهم وأمازحهم، من دون أن أنسى ان الحياة في الحقيقة أمر جدي وجميل معاً

يغمرني أحياناً ضياء هذه الصور الباهرة ثم أفيق فأدرك كابوس الواقع

قد اتغلب على كل هذا. فانني ما زلت في الثانية والعشرين من العمر. ولكنني اقلب رأسي الآن ذات اليمين وذات اليسار واقول يا ربي كيف استطيع ان احمل كل هذا؟ كيف؟

نصيحة لفتاة تخشى الحياة

كتبت فتاة الى محررة احدى المجلات النسائية ما يلي: انني اخشى الحياة. مات والدي من سنتين وكان اصدق اصدقائي علاوة على كونه والدي. وما كدت اتغلب على حزني حتى منيت بوفاة والدتي من نحو ستة اشهر. وأنا الآن مخطوبة لشاب ممتاز، وليس لي غيره في الدنيا. وهو يريد ان يقترن بي حالاً ولكنني اخشى ان اقبل لانني اخشى ان يسلبني الموت اياه. انا اعلم ان هذا الكلام يحملك على الضحك مني، ولكنني خائفة وجلة فماذا افعل؟

فردت المحررة ما يلي: كثير من الناس تأتي عليهم فترة في الحياة يحسون فيها بمثل ما تحسين. ويطلق الكتاب الدينيون على هذا الاحساس « ليل النفس الحالك ». ولكنني واثقة بأنك سوف تخرجين من ظلام الليل الى وضح النهار. ان والديّ كل انسان مصيرهما الى الموت عاجلاً او آجلاً. ولكن الاحصاء يثبت ان الزوجين يعيشان معاً مدة طويلة في الغالب قبل ان يدرك الموت احدهما. فيجب ان تتعلمي الثقة بالحياة، وان تتطبعي بروح المغامرة، وان تعيشي في الزمن الحاضر بدلاً من ان تحصري فكرك وهمك في مخاطر المستقبل. إنسي الماضي ودعي المستقبل لله

الاعمال المنزلية

وما تقتضيه من الطاقة والعناء

عنيت جماعة من علماء اميركا بقياس الجهد الذي تقتضيه أعمال المرأة في تدبير شؤون بيتها من غسل ومسح وكنس وكي وخياطة وغير ذلك . ومقابلة كل عمل من هذه الاعمال بالآخر . وبحالة المرأة وهي مستريحة . وصنعوا لذلك آلة سموها مقياس حرارة التنفس أو مقياس الحرارة البدنية اذا اريد المعنى العام . وهو بالانكليزية Respiration Calorimeter

والآلة مؤلفة من غرفة ارتفاعها متران وطولها متر وخمس وعرضها ٧٥ سنتيميراً وجدرانها لا ينفذها الهواء . وفيها عدة أجهزة صغيرة منها جهاز لحفظ مجرى هوائي في الغرفة يجتمع فيه بخار الماء واكسيد الكربون اللذان تخرجهما المرأة التي تجرب التجارب بها . وفيها جهاز لمقياس مقدار الحرارة التي تتولد في الغرفة عند اجراء التجارب

وقد اختير لهذه التجارب فتاة نحيفة سنها ٢٢ سنة وطولها ٥ اقدام و٤ بوصات وثقلها بملابسها ١١٠ ارطال . وقد عرضت هذه الفتاة لثلاث وخمسين تجربة وكانت توزن عند انتهاء كل تجربة ولا تتجاوز مدة التجربة ساعتين كل يوم

وقد ظهر من هذه التجارب ان الفتاة كانت تنفق من جسمها وهي تعمل الاعمال الخفيفة كالخياطة والرفء ٩ وحدات حرارية في الساعة زيادة عما كانت تنفقهُ وهي في حال الراحة . وانها كانت تنفق ٥٠ وحدة حرارية في الساعة في الاعمال التي تستدعي تعباً كالغسل والكنس وتنظيف الغرف زيادة لما كانت تنفقه في حال الراحة

***

ومن غرائب هذه التجارب انهم لما جاؤا الى تجربة الغسل أمرت الفتاة ان تجري حركات الغسل جميعها ولكن من دون استعمال الماء لان وجود البخار في الغرفة يوقع الخلل في القياس . ومثلها غرابة عند محاولتهم قياس ما تبذله المرأة من الطاقة عند العناية بطفل من حيث ارضاعه وتغيير ثيابه وغسله . فانهم استكبروا وضع طفل رضيع معها في غرفة ضيقة خيفة ان يلمّ به مكروه فأعاضوها منه دمية تشبه في حجمها طفلاً محولاً اي ابن سنة . فظهر ان العناية بالطفل تقتضي من زيادة انفاق الطاقة نصف ما تقتضيه أعمال الغسل والكنس أي ان الزيادة كانت ٢٣ ½ وحدة حرارية مقابل ٥٠ وحدة حرارية في الحالة الاخرى

وعلى ذكر الاعمال العديدة التي يجب على المرأة عملها نذكر قول الشاعر : « الرجل يعمل من الشروق الى الغروب أما المرأة فعملها لا يفرغ »

بين طفل وعنكبة

[قطعة مختارة من الجزء الثاني من قصص علمية
للاطفال تأليف كامل كيلاني وينتظر ان يصدر قريباً]

الطفل :

قد تأكل العنكبةُ العنكبا وتهلك الزّنبارَ والعقربا
وكم بعوض في حبالاتها راح اسيراً يبتغي مهربا
تخدّرت بالسّم أعصابهُ وأنشبت — في جسمه — المخلبا

***

وقد يصيد الضفدع العنكبا كما تصيد البومة الأرنبا
وتهلك القطةُ فأراً ، ولا تبقي على فرخ صغير حبا
وقد ألفنا كل هذا ، فلم ندهش له ، مهما بدا مُغرِبا
لكنّ ما حيّر البابنا ان تأكل العنكبة العنكبا

العنكبة

ان تأكل العنكبةُ العنكبا أو تأكل الام ابنها الأنجبا
أو تأكل الآباء أبناءها أو تأكل الاخت أخاً أو أبا
أو تأكل الزوجات أزواجها فليس هذا حادثاً مُغربا
أما ترى الاسماك قد شابهت في اكل ما تنجبه — العنكبا
تلتهم الكبرى صغيراتها ويأكل الحوت ابنه الاقربا

***

وانتم الناس — على رشدكم — صرتم — لأمثال الاذى — مضربا
لم ترحموا طيراً على غصنه رتّل لحناً شائقاً معجبا
ولم تغيثوا بائساً معدما ولم تقيلوا عاثراً مذنبا
وكم اكلتم لحم اخوانكم ميتاً ، ولم ترعوهم غُيّبا
فلا تعيبونا بأدوائكم فقد غدا مَنْ عابنا أعيبا

كامل كيلاني

تنظيم حياة الطفل

مبادىء جوهرية (١)

هناك عاملان جوهريان لتكوين خلق الطفل

اولاً : — يجب ألا تكبت ميوله وغرائزه ، بل يطلق له كل حرية لتنميتها وتقويتها

(ثانياً) يجب أن تساس وترشد وتدرب على كل عمل صحي يساعد على نمو الطفل . فاذا تركت هذه الميول حرة بغير قيد فان الطفل يصبح شهوانياً عنيداً ، واذا سحقت وتلاشت يصير عرضة لأمراض عقلية ، واذا ضبطت وارشدت يصير رجلاً ذا خلق قوي الدعامة . والأخلاق المتينة ما هي الاّ ثمار تهذيب الطبيعة وضبط العواطف . أما اذا حبست هذه الميول الاولى عند ظهورها فتفسد الأخلاق وتشوّه ، كالقدم اذا وضعت في قالب فانها تفقد شكلها الطبيعي وتشوّهه . واذا أنكرنا على الطفل حبنا وحمايتنا له في الطور الأول ، استولت عليهِ الكآبة وانقباض النفس (مالينخوليا) في حالة الكبر ، والطفل الذي تسحق ارادته ربما تنتابه نوبات مؤذية مثل الخوف من الأذى أو القتل . واذا حرم من العطف الابوي فانهُ قد يصاب بالهستريا أو الشلل أو الألم . وأخيراً اذا سحقت الأنانية فيهِ وانكر عليهِ استقلاله الذاتي فانهُ يصير انساناً جافاً بغير ارادة أو أخلاق . ومن ناحية اخرى اذا لم يوجد ضابط ورادع صار الطفل شهوانياً وظلّ على طوره الاول ، وفي الطور الثاني يصير عنيداً لا يكبح جماحه ويكون ضحية لشهواته وأهوائه . وفي الطور الثالث يكون ضحية الامزجة والاهواء وعبداً لارادة الآخرين. وأخيراً تتكون فيهِ صفات خاطئة واهواء ضارة يكتسبها من الاوساط البذيئة . امثال هؤلاء الاولاد يصيرون مجرمين واشقياء

وفي هذه المقالة نريد ان نبين كيف انهُ لو اعطيت الحرية الحقيقية مع ضبط النفس فان هــذه الميول الاولية تظهر وتترعرع لانها المادة الخام التي منها تتكون وتنشأ الاخلاق . اما اذا كبتت فاننا فضلاً عن تعرضنا لامراض عصبية فاننا نفتقر الى الاخلاق افتقاراً شديداً

وهاكم بعض المبادىء :

اولاً — تقوية روح الطاعة والاستسلام للوالدين

كل طفل خليق بالرعاية والعناية والعطف . انما الافراط في الحنان والتدليل يترك اثراً في النفس فيبقى طفلاً (حتى عند ما يصير رجلاً) في تصرفاته واعماله اليومية ، ولا يقدر على مواجهة الصعوبات التي تصادفهُ ولا تحمل المسؤوليات التي تلقى على عاتقه . كما ان انكار مثل هذا العطف على

(١) وهو جانب من مقال مسهب كتبه الاستاذ هدفيلد استاذ علم النفس في كلية الملك بلندن ونقله ميلاد كدواني في كتابه الموسوم (اسرار الطفولة وخفايا الشباب)

الولد (اما لانه غير مرغوب فيهِ او لتفضيل آخر عليهِ) يبقى أثره في العقل الباطن وربما يؤدي الى كآبات مضنية عند ما يصبح رجلاً . واما تربية ميول الطاعة والثقة بالوالدين تربية صحيحة فانها تؤول الى ميزات في الاخلاق ذات قيمة عظمى . وهذه الميول هي التي تتحول بعد حالة العناد الى حالة الايحاء ثم الى حالة الاستسلام . وهو ليس استسلاماً جثمانيًّا بل نزولاً على اهواء والديهِ وخططهم العقلية وعندما يكبر يسر ويغتبط بلعبه مع الاولاد الآخرين وباشتراكه معهم في رغباتهم . سواء خارج البيت او في المدرسة مع الرفاق . وبعد سن البلوغ يزج بنفسهِ في وسط الجماعة خاضعاً للقوانين التي تربطها ماديًّا وادبيًّا

وعند ما يكبر فان هـذا الميل الاستسلامي يشعره بالنقص الذي لا يكمل الاَّ في محبة الغير وفي حياة الاسرة . وأخيراً يرشده الخضوع والاستسلام الى المثل العليا التي تشاد عليها دعائم الاخلاق الفاضلة كالولاء للحق وللانسانية وللدين . وما كل هذه الميول الاَّ ثمار الاستسلام الذي يعزى الى شعورنا بالضعف وحاجتنا الى الآخرين . ومما هو مشاهد في هذا الميل في الطور الاول انهُ أناني ، قوامه حماية الذات أما الطور الثاني فيتخذ شكلاً آخر هو الغيرية . ولذا يجب أن نفهم ان ميول التضحية وخدمة الغير في الطفل ليست نتيجة التدريب على الاستقلال الذاتي ، وانما هي اشباع ميوله للاستسلام والمحبة ، فاذا اهمل اشباع هـذه الميول في الطور الاول فلا تتاح لها الفرصة للظهور في الطور الثاني وعليهِ يبقى الطفل أنانيًّا

مثال لذلك ، أب لهُ ابن وحيد يريد أن يجعل منهُ رجـلاً . فانهُ بتربيته له تربية جافة واهمال مخاوفه واعتبارها خيالية لا صحة لها ، وانكاره عليه حتى العطف والمحبة والحماية التي هي من حقوقه الطبيعية ، يحرمه من الشعور بالطمأنينة وتتربى فيه صفات الخجل والخوف من الحياة ويتصف بالجبن

أما الولد الذي تتغذى روحه بالاستقلال الذاتي وتتوافر ثقته بأبويه واستسلامه لهما فانه يحمل معه هذه الثقة في حياته العملية عند ما يشب ، ويكون قادراً على مواجهة الصعوبات والمشاكل حتى الموت

ثانياً — تنمية الميل الى ارضاء النفس

يؤول ارضاء النفس الى فرح والفرح الى سعادة لما يأتي : —

يبدأ اشباع النفس في الطفل في طوره الاول في النشاط والحركات الجثمانية مثل الرضاعة وعملية الهضم وازالة الضرورة وحركة أعضاء الجسد وبعـد ذلك — في اثناء تكوين الارادة — يشعر بفرح في التعبير الحر عن النزعات الغريزية ، المصارعة وحب الاستطلاع والبناء . وأما اذا تجاوز الاشباع الى الحد المعقول في سني الطفولة الاولى فانه يصير شهوانيًّا عصبيًّا عند ما يكبر ، وعبداً للانفعال ، ومع ذلك فان لاشباع الميول والمشاعر في الطفولة قيمة جوهرية ، لان في اشباع هـذه تكوين الوظائف الجسدية كالعادات وغيرها والفرح في النشاط الذي هو لذة الحياة . وكما أن رغبة ارضاء الحواس والمشاعر في دور الطفولة الاولى تنقضي ليحل محلها لذة التعبير عن العواطف والميول

في الدور الثاني ، فكذلك تتطور هذه الرغبة في السنة الثالثة أو الرابعة الى سعادة تتولد عن اتزان العقل وتناسقه . والسعادة — وشتان بينها وبين اللذة — تنتج عن اداء مجموعة الوظائف كاملة وليس عن هذه العاطفة او تلك . هي ثمار الشخصية كلها عاملة بكل عواطفها وميولها الى الغرض أو المثل الاعلى الذي تختاره النفس . ومن الجهة الاخرى اذا ضغطنا على ميول الطفل وعواطفه واحساسه وعودناه اللوم والتعنيف نشأ في موقف الزاهد الكاره للحياة الذي لا يشعر بأية سعادة حقة ، وفي احسن الحالات يكبر طفل كهذا انساناً كئيباً مغموماً لا يفعل شيئاً الاّ مدفوعاً باداء الواجب ليس الاّ . وأما في اسوأ الحالات فيكبر انساناً شاذاً شهوانيّاً ضالاً تسوقه تلك العواطف والميول المكبوتة إلى الانغماس في الضلالات الجنسية

ثالثاً — تنمية الارادة

يقصد بالارادة هنا طلب اشباع كل عاطفة غريزية ، مثال ذلك :

انهُ اذا اراد الطفل الحصول على شيء فلا بد ان يناله ، واذا اراد رؤية شيء او عمل شيء ما فلا مناص من تنفيذ فكرته ورغبته . ونحن نعلم حالة الطفل في السنتين الاوليين . واذا كان عنيداً بطبيعتهِ وخلقه فقد يكون سبب يأس لكثيرين من الوالدين . ومع هذا كله فلا حاجة لليأس والفزع ، ولا داعي يدعو الى معاملة الطفل بقسوة لا يستحقها ، لان هذه الحالة يتبعها الايحاء الذي يكون فيهِ مستعداً للاذعان ، وقبول رغبات والديهِ واهوائهم . والواجب في هذه الحالة ان يعامل الطفل بحزم وصبر وان تعطى البواعث والميول الطبيعية الفرص الكافية للتعبير عنها . واطلاق طفل كهذا على هواهُ يجعلهُ معتدّاً بذاتهِ عنيداً . وسحق ميوله يصيره عاصياً متمرداً ظاهراً او باطناً . وإنما الذي يفتقر اليهِ هو تنمية ميوله ودوافعه القوية . واذا اراد ان يعمل عملاً لا يليق فلا ينبغي ان تستعمل معهُ طريقة النهي كقولك « لا تعمل هذا او ذاك » لان هذه الطريقة تزيده رغبة في عمل الشيء ، بل يلزم ان تعلمهُ كيف يفعله فاذا اراد طفل في الثانية من عمره ان يستعمل سكيناً حادة علمه كيف يستعملها بان تقطع شيئاً امامه في الصحن . وأذا اراد ان يتسلق شجرة ليأخذ ثمراً منها فخذه الى شجرة لا خوف عليها من التلف ودعه يتسلقها . ففي فعل ذلك اشباع لرغباته . ولو اراد اشعال ثقاب الكبريت علمهُ ذلك . وعلى العموم دعه يعبر عن رغباته بشرط ان تعلمه الحيطة والحذر والتمييز بين المسموح وغير المسموح وبين الضار والنافع . وتكون انت في هذه الحالة قد تجنبت الخطر واعطيته فرصة لاشباع دوافعه وميوله القوية

وقد يفعل اشياء لا نستحسنها كأن يضرب الارض برجليه في حالة غضب او يتلف لعبة اخيه او اختهِ او يلحق بهما ضرراً بدنيّاً . فلعلاج ذلك إبحث اولاً عما اذا كان محقاً في ذلك او مخطئاً وربما اخته الوديعة تستحق ذلك . ولكن لنفرض أن ذلك شقاوة منهُ فكيف نطبق مبدأنا ؟ ان الطريقة الرئيسية لرفع الطفولة والصعود بها الى المستوى الاعلى انما تتأتى بطريقة اللعب . لان اللعب هو التعبير

الطبيعي لدوافع الطفل الذي سيتحول الى عمل جدي عندما يكبر . ان الطفل يريد اللعب ولكن ربما يستعمل ميوله بشدة كما مثلنا قبلاً فعلينا ان نحولها الى اللعب . خذ لذلك مثلاً : اذا اراد الطفل ان يعض اخته قل له : هاك الأسد — بدلاً من ان تقاصه — وتظاهر بالهرب من امامه عندئذٍ يتحول غضبه الى حالة اللعب . واذا نكث الارض برجله خذه من يده وارقص معهُ . واذا قلب ما شاده أخوه للعب واللهو فتظاهر بالوقوع أمامه وامرح . وفي هــذه الحالة تكون قد اعطيت شعوره بالقوة فرصة للعب بدلاً من الكبح والضغط . ولكن لا بد لهذه القاعدة من شواذ فيجب مثلاً أن يحدد وقت نوم الطفل . وعند ما يحين ذلك الوقت يجب أن يترك اللعب ويذهب لفراشه . ويستعمل معهُ الحزم والجد . وأيضاً في حالة نزول المطر الغزير لا يجب ان يخرج من البيت . في هذه الحالات وغيرها الصرامة والحزم والشدة لازمة لتربيته والاَّ فاناللين والتساهل وعدم الصرامة تنشيء فيهِ عدم ضبط النفس وعدم الاذعان لارادتك ، لانهُ كما تكون أنت معه في الصغر ، هكذا يكون هو في الكبر . وتكون ارادته من ارادتك . فلنكن على حذر مع أطفالنا

تعليم البنات في انكلترا

في سنة ١٩٠٢ كان عدد مدارس البنات التابعة لمجلس المعارف ٩٩ مدرسة زادت الى ٤٠٥ مدارس سنة ١٩٢٥ وفي المدة عينها زاد عدد المدارس التي يتعلم فيها الذكور والاناث معاً من ١٨٤ مدرسة الى ٣٦١ مدرسة وزاد عدد التلميذات من ٣٣١٥٩ تلميذة الى ١٧٣٢٧٣ تلميذة اي خمسة امثال (والكلام هنا مصبوب على المدارس الثانوية)

***

أما تعليم الصبية والصبيان معاً فتلك مسألة لا تزال موضع نزاع ومثار جدل بين الكثيرين فبعض المدارس التي يعلم فيها الجنسان قامت على اسس اقتصادية فقط في حين ان هناك مدارس اخرى يعتقد المشرفون عليها اعتقاداً راسخاً في وجوب تعليم الجنسين معاً منذ نعومة اظفارها . وعلى كل فان الشطر الاكبر من المعلمين والمعلمات ويشاركهم في ذلك معظم الشعب الانكليز مجمعون على انهُ وان صلح تعليم الذكور والاناث معاً في سني دراستهم الاولى ، ثم بعد ذلك في الجامعات ، فانهُ من مصلحة الجنسين معاً ان يعلم كل منها على انفراد في السنين تتخلل التعليم

[عن كتاب الانكليز في بلادهم]

باب المراسلة والمناظرة

إرشاد لغوى

فى كل جزء كلمة

للأستاذ عبد الرحيم بن محمود

« لفيفٌ من الأمراض بزنة فُعَال »

أهيب بحضرات الأطباء فى الأقطار العربية أن يتحفظوا الأسماء العربية للأمراض الآتية بدلاً مما يرادفها باللغات الافرنجية وأن يعملوا على إذاعتها بوسائل الإذاعة بمؤلفاتهم وبوصفاتهم وبتقريراتهم وبمجلاتهم وبمحادثاتهم وبالصحف السيارة وبالمجلات ليحيوا أوطانهم العربية بإحياء لغتهم العربية — والمجامع اللغوية تشد أزرنا وأزرهم كما نشد أزرها فلنتعاون جميعاً على إغناء لغتنا بألفاظنا التى نبعثها من رمسها اذا أحسنَّا التطبيق والمطابقة . ويعاوننى على بحثى هذا العلماء الأعلام مثل ابن سيده الاندلسى «صاحب المخصص» والشيخ ابراهيم اليازجى «صاحب نجعة الرائد» والثعالبى «صاحب فقه اللغة» وأخواى الاستاذان « عبد الفتاح الصعيدى وحسين يوسف موسى» (صاحبا الافصاح) والملاغى للفيروزبادى وابن منظور والرافعى (وهما مصريان) والزمخشرى والجوهرى ثم البستانى ولويس معلوف وجرجس همام الشويرى وهم سوريون وأصدقائى الأطباء مثل محمد عبد الحميد بك وسامى إلياس وشكرى مشرق وإبراهيم ناجى فى القاهرة

﴿ الشُّبات ﴾ مرض يمنع الانسان الحركة [1] وهذا المرض يعرفهُ الاطباء باللغة الانكليزية باسم كَتَلِبْسِي (Catalepsy)

﴿ الذُّباح ﴾ وهو ورم حارّ في العضلات من جانب الحلقوم وتلك العضلات تساعد على بلع الطعام [2] أى خُرَاجة حول اللوزة وترجمتها الى الانكليزية (Peri-Tonsillar Abcess) وينطق بها هكذا : بَرِي تُنْسِلَرْ أَبْسس

﴿ الصُّفار ﴾ دود في البطن يصفرّ منهُ الوجه [3] وهو يُحدث الصَّفَر المعروف عند الاطباء باسم (أنكلستوما) والصفر أعدى من الجرْب — ويصيب المصريين في القرى كثيراً ولذلك بُنيت له المشافى فى أمهات القرى ومن الواجب أن نطلق على كل منها مستشفى الصَّفَر بدلاً من «مستشفى الانكلستوما»

---

(١) كما فى نجعة الرائد للشيخ ابراهيم اليازجي السوري (٢) كما يؤخذ من معجم الطالب لجرجس همام الشويري السوري والخراجة كل ما يخرج بالجسم كالدمل وجمعه المكسر خراج بضم الخاء وفتح الراء فيهما وجمعه السالم خراجات (٣) كما يؤخذ من المنجد للقس لويس معلوف السوري

﴿ العُطَاش ﴾ عرض [٤] يصيب الانسان فيشرب الماء فلا يُروى ويرادف هذا بالانكليزية (ديبسومانيا Dypsomania) . ﴿ السُّلَاق ﴾ بثر صغير عند أصول اهداب العين تحمرّ له الأجفان وتتقرح أشفارها [٥] ويرادف هذا كله بالانكليزية (Ulcerative-Blepheritis)

﴿ الزُّحار ﴾ وهو المعروف عند المصريين والأطباء عامة باسم (دوسنتاريا) وقد أذاع صديقي الطبيب محمد عبد الحميد بك مدير مستشفى الملك وساعور [٦] جرّاحيه هذا اللفظ العربي في مؤلفاته الطبيّة منذ ثمان وعشرين سنة في صباح حياته الطبيّة حينما كان طبيب مستشفى قليوب

﴿ القُلاع ﴾ داء يصيب الانسان يتنفّط منه اللسان والشفتان وهذا الداء يعرف بالانكليزية باسم (أفْث) «Aphthe»

﴿ الهُدام ﴾ دُوار البحر وهو داء يصيب مركز الجهاز العصبي فلا يعي الانسان كأنه مُغمًى عليه يصحبه قيء — وأكثر ما يصيب الذين يركبون البحر أول مرة أو الذين لا يكثرون من ركوبه

﴿ الخُنَاق ﴾ داء يعسر منه نفوذ النفس إلى الرئة ويصيب الانسان وغيره كالإبل وهو المعروف بالدفتيريا . ﴿ الكُزاز ﴾ داء يصيب الانسان فيرعد حتى يموت وهو المعروف بالتّتَنس Tetanus والعامة تقول عنه تتنوس

﴿ الجُحاف ﴾ مشى البطن عن تخمة وهذا اللفظ العربي المفرد يغني عن لفظتين عربيتين يحققان معناه وهما النزلة المعويّة وقد تحدث عن تخمة كما قال الطبيب النطاسي سامي إلياس

﴿ القُلاب ﴾ وجع القلب ويقال للطبيب المتوفر على علاجه طبيب قُلابي بضم القاف مثل الطبيب القلابي أنيس سلامه ومثل الطبيب القلابي جرس جرجس الضبع بك

﴿ الكُباد ﴾ وجع الكبد . ﴿ الرُّعاف ﴾ دم يسيل من الأنف

هذا وأرجو أن نتعاون على إذاعة هذه الاسماء العربية بدلاً من الاسماء الافرنجية المرادفة لها حتى تشتهر كما اشتهرت أسماء اخرى لأمراض مثل (الكُسَاح) و(السُّعال) و(السُّلال) و(الصُّداع) و (الجُذام) و (الطُّحال) و (النُّكاس) وهو معاودة المرض بعد البرء منه

﴿ توجيه ﴾ قال الرافعي المصري صاحب المصباح المنير (المرض حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل ويعلم من هذا أن الآلام والأورام أعراض عن المرض ثم قال : قال الاصمعي : قرأت على ابي عمرو بن العلاء — في قلوبهم مَرَض — فقال لي مرْض يا غلام) بسكون الراء فعلى هذا يكون مرْض القلب بسكون الراء وغيره بالفتح ولكني أرى ان القراءتين متواترتان والفتح أكثر تواتراً (قراءة حفص)

---

(٤) أخطأ اللغويون في جعل العطاش مرضاً أي داء . والصواب انه عرض كما يرى الطبيب النطاسي شكري مشرق بالقاهرة فان العطاش يحدث من امراض — واني انتهز هذه النهزة فاقول ان كتبنا اللغوية في حاجة الى تحرير فني من الاطباء فيما يتعلق بالطب ومن النباتيين فيما يتعلق بالنبات ومن المعدنيين فيما يتعلق بالمعادن (٥) كما يؤخذ من معجم الطالب لجرجس همام الشويري (٦) ساعور يعدل اللفظ التركي البائد حكيم باشي كما قلنا في المقال السابق وقد استعمل هذا اللفظ الامام أحمد فارس الشدياق في كتابه الساق على الساق ص ١٨ فقال «ان العمامة الضخمة تخفي محاسن الوجه الكبير وتشوه الوجه الصغير فضلاً عن كونها توجع الرأس وتمنع صعود الابخرة من مسامه كما نص عليه الساعور الاكبر»

مكتبة المقتطف

الانجليز في بلادهم

تأليف الدكتور حافظ عفيفي باشا — طبع بمطبعة دار الكتب المصرية صفحاته ٤٦٧ قطع المقتطف — ثمنه اربعون قرشاً

من المأثور ان اللورد بريس (Bryce) — وقد كان سفيراً لبريطانيا في وشنطن مدة طويلة — وضع أفضل كتاب عن جمهورية الولايات المتحدة الاميركية ونظمها السياسية وحالتها الاجتماعية بوجهٍ عام . ذلك أن من كان مثل بريس مفكراً عميق التفكير ، ومؤرخاً ينظر الى التاريخ وحوادثهِ والنظم السياسية وتطورها بعين الفيلسوف الاجتماعي ،وفي الوقت نفسه غريباً عن البلاد التي يكتب فيها وانما تربطه بها روابط اللغة والثقافة والفهم، يستطيع ان ينظر الى حضارتها نظرة عميقة ومجردة عن الهوى في آنٍ واحد

قد لا يكون كتاب حافظ باشا عن الانكليز ، خير كتاب أُلّف فيهم ، ولكن الامر الذي لا يداخله الريب هو ان هذا الكتاب افضل كتاب عربي في موضوعه ، وجدير بأن يوضع الى جانب المؤلفات الغربية، فيظهر عند المقابلة انها لاتبزّهُ في شيءٍ في الناحية التي اخذ بها الموضوع . ولا بدع في ذلك . فقد قضى حافظ باشا سنوات وزيراً مفوّضاً للمملكة المصرية في بلاط سانت جيمس ، وخالط الانكليز مخالطة الصديق للصديق ، علاوة على مخالطة الوزير المفوّض لرجال الحكم في البلاد التي يمثل مليكهُ فيها . وهو الى هذا رجل كامل الثقافة ، واسع الاطلاع ، دقيق الملاحظة ، متوقد الذهن، فرأى ان اجل خدمة يستطيع ان يؤديها لقومه ، الى جانب الدفاع عن مصالحهم في بلاد الانكليز، ان يكون رسول صداقة وفهم بين مصر وانكلترا. فأخرج كتابه هذا لقومهِ ليقرأوه وينفذوا من خلال صفحاتهِ الى نظم الانكليز ونفسيتهم وطبائعهم في الحياة العامة . وحبذا الحال لو اكمل هذا العمل الجليل بالاعراب عن ضمير مصر في كتاب انكليزي يطالعهُ الانكليز فيكون حلقة اخرى في صلة التفاهم والصداقة بين الامتين

الكتاب ستة ابواب حافلة بحقائق التاريخ المتصلة بتطور الحياة السياسية والتجارية والفكرية في بريطانيا ، وقد جمع شتاتها من ملاحظاته الدقيقة ومطالعاته الواسعة النطاق . فقد اشار سعادة المؤلف في نهاية كتابه الى اكثر من ثلاثين كتاباً معظمها بالانكليزية وبعضها بالفرنسية ، طالعها وتمثلها في خلال دراستهِ للانجليز في بلادهم

فالباب الاول موضوعهُ الدستور البريطاني وهو بحث جامع بين الوصف الحالي والعرض التاريخي

جمعاً متزناً . وعندنا ان هذا الفصل هو محك الكتاب . ومطالعتهُ تثبت ان المؤلف اجاد اجادة قليلة النظير . ذلك ان الدستور البريطاني ، لا يمكن ان يفهم الاّ اذا عولج من ناحيتي التاريخ والوصف في وقت واحد . فهو ليس دستوراً مكتوباً في وثيقة واحدة ، قائماً على قواعد جامدة ، بل هو جانب من حياة الامة البريطانية في ناحية تدبير شؤونها العامة ، تسلسل معها على مر العصور وتطور بتطور حاجاتها وذهنيتها ومقتضيات العصر والحياة . فاذا حاول كاتب ان يقول لك ان القاعدة في نظم بريطانيا هي كيت وكيت فقد تستغربها وقد تستهجنها وقد تستبعدها . ولكنه اذا ارفق قوله ، بذكر مراتب التطوُّر التي مرّت بها تلك القاعدة ، وصلة ذلك باحوال العصر ، اصبح الدستور في نظرك شيئاً حيًّا ، واصبح لما تراهُ فيهِ من المفارقات مغزًى يعينك على الفهم

راجع صفحة ٤٨ وما يليها في موضوع « فصل السلطات » في الدستور البريطاني . فقد أشار المؤلف اولاً الى ما كتبهُ مونتسكيو وبلاكستون في هذا الصدد وكيف اعتبر الدستور الانكليزي احسن مثال لفصل السلطات في وقتها . ثم بيّن ان هذا المبدأ اخذ يضعف بنموّ مبدإ المسؤولية الوزارية . ولذلك خالف « باجهو » الفيلسوف منتسكيو في نظرية فصل السلطات وقال ان آثارها ضعيفة في الدستور البريطاني الآن

خذ مثلاً استقلال القضاءِ عن السلطة التنفيذية . فقد اثبت ذلك سنة ١٧٠١ بقانون . ومبدأ استقلال القضاء معمول بهِ من ذلك التاريخ ولكن قانون سنة ١٧٠١ قانون عادي ويملك البرلمان تغييرهُ كما يملك اقالة اي قاضٍ من القضاة ولو انهُ لم يستعمل هذا الحق الى الآن . بل للبرلمان ان يصدر قوانين مخالفة لاحكام المحاكم . ثم ان مجلس اللوردات وهو جزءٌ من السلطة التشريعية ، هو كذلك السلطة القضائية العليا في البلاد . ورئيس مجلس اللوردات هو رئيس الهيئة القضائية اي وزير الحقانية فهو اذن احد اعضاءِ الهيئة التنفيذية . او خذ موضوع صلة السلطة التنفيذية بالسلطة التشريعية. فقد اتجهت سياسة البرلمان الانجليزي في السنين الاخيرة ، نظراً الى كثرة اعماله وتشعبها وتعقدها ، الى تحويل جانبٍ من سلطتهِ التشريعية الى الوزارة وهو ما يسميه الانكليز « السلطة بالوكالة » Delegated Powers ثم بيّن المؤلف بعضاً من نواحي هذا التحويل وما يوجه اليه من النقد . ثم ذكر كيف اعطيت السلطة التنفيذية بعض السلطة القضائية مثل حق مصلحة الجمارك النظر في القضايا الخاصة بالتهريب . وهذه جميعها حقائق قد تربك القارىء وتشوّش ذهنه ولكن اسمع تعليق حافظ باشا عليها ، وتأمّل فيهِ تخرج من تشويش هذه الحقائق اتساقاً ييسّر لك الفهم : قال

«لهذه الاسباب يرى ان السلطات في بريطانيا ليست منفصلة انفصالاً تامًّا في الوقت الحاضر ، ولكنه ينبغي الالتفات الى ان ذلك الامتزاج التدريجي انما حصل تحت ضغط الحوادث القاهرة . لا رغبة في العدول عن مبدإ فصل السلطات . والواقع انهُ لم يحصل الى الآن في انكلترا طغيان من سلطة على اخرى مع ان الباب مفتوح على مصراعيه لاعتداء كل سلطة على حقوق الاخرى ، ويرجع

هذا من جهة الى تلك الفضيلة البارزة في اخلاق الانكليز السياسية وهي الشعور بالواجب واحترام حقوق الغير . ومن جهة اخرى الى استعداد رأيٍ عامٍ متيقظ لوضع الامور في نصابها . وقد كان من نتائج هذه المرونة في اساليب الانجليز السياسية ان زاد التعاون بين السلطات المختلفة وقلّت الشكوى من تعطيل المشروعات وتراكمها أمام مجلس العموم ومجلس اللوردات ، كما هو حاصل في جميع البلاد الدستورية الاخرى ، بعد ان صار لمجلس العموم الحق في ان يكل الى الوزارة تحت اشرافهِ عمل تشريع لاية مسألة فنية او مستعجلة . وان استمرار البريطانيين على احترام هذه التقاليد الدستورية قد جعل من هذا الدستور العتيق آلة ديمقراطية على احدث طراز لانها دائمة الاصلاح تتحرك باستمرار بدقة وانتظام فلم تقف عن العمل في اي دور من ادوار حياتها »

وحبذا الحال لو اتسعت هذه الصفحات لبيان حسنات هذا الكتاب النفيس في ما تناوله من شؤون الصحافة والتعليم والاعمال من وجوهها المختلفة . ولكننا سقنا ما تقدم مثالاً ناهضاً على ما حفلت بهِ صفحاته من الدراسات التاريخية والسياسية والاجتماعية التي نرى ان لا مندحة لنا عن فهمها وتمثلها نحن الشرقيين ، وقد اخذنا نتطلع الى النظم الديموقراطية الصحيحة لنبني على قواعدها حياتنا القومية الجديدة . وكتاب حافظ باشا في هذا الصدد دليلٌ هادٍ

اسرار الطفولة وخفايا الشباب

تأليف ميلاد كدواني — طبع بمطبعة المجلة الجديدة — ثمنه ٨ قروش
يطلب من المكاتب ومن المؤلف بالجامعة الاميركية بالقاهرة

نشرنا في باب مملكة المرأة جانباً من فصل نفيس احتوى عليهِ هذا الكتاب المفيد . ولعل افضل كلمة نقدمهُ بها للوالدين والمدرسين ما قاله الدكتور امير بقطر في مقدمتهِ :—خيل اليَّ وأنا اتصفح هذا السفر الصغير انني التمس جوهر الحقيقة في دياجير اغواره كحجر الماس لا يلتقط الاّ في ظلمات المناجم . وهل في هذا ما يدعو الى الغرابة ؟ أليست الطفولة جبارة عتية ؟ اوليست الشبيبة متضاربة النواحي ، متشعبة المعارج ؟ وكيف يتسنى لامرىء ، درس الطبيعة الانسانية واختراق حجب اسرارها بغير ان تقطع عليهِ وعورتها السبيل ؟ . . . ان الموضوعات التي طرقها المؤلف في هذا السفر الصغير ان هي الاّ نظرة مجلى القاها على الطبيعة البشرية ، وليست الاّ جولات صغيرة في ميدان الطفولة ، والشبيبة . . . . فهي ترغّب من له اتصال بجماعات الاطفال والشبان في التعمق في مثل هذه الابحاث ، واستيعاب بعض ما وصلت اليهِ الجهود العلمية من احدث النتائج وتطبيقها تطبيقاً علميًّا محمود العاقبة يتفق وطبيعة الافراد ، واختلاف نزعاتهم وميولهم . . . . »

ومن الموضوعات التي طرقها المؤلف عارضاً آراء علماءِ النفس فيها . الغيرة والبكاء واغلاط الاطفال والخوف والتأديب واختلاط الجنسين وغير ذلك من الموضوعات التي تهمُّ جميع المربين سواءٌ الوالدين منهم والمعلمين

تاريخ الصحافة العراقية

معجم مفصل لجميع الصحف والمجلات والنشرات الدورية التي صدرت في العراق منذ عهد مدحت باشا حتى اواخر سنة ١٩٣٣. عني بتأليفه الاستاذ السيد عبد الرزاق الحسني، صاحب المؤلفات والمباحث المعروفة في شؤون العراق .. وكتب مقدمته الاستاذ الفيكونت فيليب طرازي مؤلف كتاب «تاريخ الصحافة العربية» ووصف الكتاب ومؤلفه في هذه المقدمة فقال :

«اما الكتاب الذي نحن بصدده فهو خليق بالثناء من وجوه شتى، لانهُ جمع بين دفتيهِ خلاصة اخبار «صاحبة الجلالة العراقية» بدقة وافرة. وتضمن على صغر حجمه عناوين جميع الصحف التي ابصرت النور في تلك المملكة الفتاة مع اسماء منشئيها ومكان طبعها وتواريخ صدورها»

وافتتح المؤلف كتابه ببيان ما لقيه من عقبات في سبيل بحثه لقلة المراجع واهمال الحكومة واصحاب المطابع تدوين اسماء المطبوعات الدورية

ويؤخذ مما اوردهُ في مقدمته انه لم يكن في العراق قبل اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ غير ثلاث صحف كانت تنشرها الحكومة باللغتين التركية والعربية مرة في الاسبوع في كل من مراكز الولايات الثلاث : بغداد، والبصرة، والموصل

فلما اعلن الدستور، انتعشت الافكار وانتشرت الصحافة في الامبراطورية العثمانية انتشاراً عظيماً فكان العراق احد الاقطار التي شم شذاها واقبل عليها اقبالاً كبيراً. فصدرت فيهِ خلال ثلاث سنوات زهاء سبعين جريدة بين سياسية وادبية وهزلية

ثم ضيَّق الاتحاديون الخناق على الكاتبين والمحررين والمفكرين فقلَّ عدد الجرائد والمجلات العراقية

ولما استولى الانكليز على العراق اخذوا ينشرون في البلاد بعض الصحف التي تروج مباديهم وتحسن للناس سياستهم. فاصدروا جرائد: الاوقات العراقية، والاوقات البصرية في البصرة، العرب ودار السلام في بغداد والموصل والنادي العلمي في الموصل ونجمه في كركوك وسليماني وبيشكوتن في السلمانية الخ الخ

وبلغ عدد المجلات التي صدرت في العراق قبل الحرب العامة ٢٠ مجلة والمجلات التي صدرت بعد الحرب العامة الى نهاية سنة ١٩٣٣ — ٤٨ مجلة والصحف التي صدرت بعد الحرب وفي اثنائها ٦٩ جريدة بين ادبية وسياسية

والصحف التي صدرت بعد الحرب ١٤٤ منها ٦٠ جريدة اسبوعية و٨٤ ادبية. والكتاب على ما فيهِ من اجمال وابتعاد عن التفصيل لتاريخ الصحافة العراقية والمشتغلين بها والقوانين التي سنت للصحف في الوزارات المختلفة، يعد وثيقة لها قيمتها عند من يعنون بتاريخ الادب الحاضر والصحافة العربية في انحاء العالم. وثمن النسخة من هذا الكتاب ٥٠ فلساً. ويطلب من مؤلفه ومن ادارة مجلة الاعتدال في النجف الاشرف

توفيق حبيب

بحث في الطائفة الاسلامية في فنلندا

بقلم الدكتور بشر فارس

نشر الدكتور بشر فارس في مجلة البحوث الاسلاميه الفرنسية بحثاً جليلاً طريفاً عن الجماعة الاسلامية في فنلندا لم يطرقه باحث عربي من قبل لذلك رات المجلة الفرنسية الكبرى نشر هذا البحث على حدة بعد نشره في صلبها فأصدرته بشكل كراسة هي التي نعالجها الآن

يبدأ الدكتور بشر فارس بحثه بذكر تاريخ هجرة المسلمين الى فنلندا فيقرر ان اصلهم من الاتراك والتتر غادروا روسيا على اثر الثورة البولشفية وهاجروا الى الشمال فأقاموا في فنلندا وكانوا قبلاً يعرفون هذه البلاد لاتصالهم التجاري بها

ويحصي الباحث عدد هؤلاء المسلمين الذين يبلغون ٦٤٨ اي نحو من ١٠٠ عائلة موزعة في سبع عشرة مدينة وقد اعترف مجلس الشورى بتاريخ ٢٤ ابريل ١٩٢٥ بالطائفة الاسلامية رسميًّا . وتخضع الطائفة الاسلامية للشريعة القرآنية الكريمة في الاحوال الشخصية فالزواج مثلاً يعقده الامام والوفيات تسجل في دفاتره وما زال هؤلاء يعملون بالعادات الاسلامية كدفع المهر في الزواج ولوحظ ان بعضهم قد يتزوج من نصرانية ولكن بنيهم يقيدون في دفتر المسلمين . ويدرس صغار المسلمين في فنلندا القرآن الشريف باللغة العربية ويطالعون تاريخ الاسلام وتاريخ تركيا على الاخص باللغة التركية. اما اللغة العربية فلا يحسنون منها الاّ المبادىء الاولى والاّ التجويد . ولهم مدارس في القرى ويقيم ادباؤهم المحاضرات بين حين وحين . وهم متثقفون بالثقافة التركية وملتفتون نحو انقرة يعيّدون عيد استقلال تركيا ويعلقون رسم الغازي في منازلهم

وفي فنلندا ثلاثة مساجد وحيث لا مسجد لهم يجتمع المؤمنون في دار احدهم لصلاة يوم الجمعة وليس في فنلندا سوى امام واحد مأجور من المسلمين وحيث لا امام يتولى الصلاة اعرفهم باصول الدين ويقيمون الاعياد الدينية ويوزع الاغنياء العطايا والحسنات على الفقراء . والصيام عندهم غير اجباري في ايام يونيو ويوليو الطويلة ولكن يصوم من يريد في شهر آخر

وقلما حج مسلمو فنلندا الاّ واحد منهم . وتنعم المسلمة في فنلندا بالحرية نظير اختها الفنلندية ولكنها لا تراقص مثلاً فنلنديًّا وقد قال لي واحد : ان هذا الامر لن يطول

بمثل هذه التفاصيل القيمة يشرح الدكتور بشر احوال هذه الجماعة التي اكتشف مقرها وأبان ظروفها وموقفها الرسمي ازاء الحكومة وقليلون الذين كانوا يعلمون ما كتبه الدكتور عنها . وفي الكراسة رسوم وصور الاسر الاسلامية ومدارس المسلمين وانديتهم الرياضية والاجتماعية

ويزيد هذا البحث فضلاً ان صاحبه زار فنلندا بنفسه وخالط هذه الجماعة الكريمة ونزل بينها اياماً يبحث ويدقق ويتفهم ولا شك ان كشف الدكتور هذه « المستعمرة الاسلامية » في اطراف

اوربا عمل جليل يستحق من اجله كل الشكر لانه سهل للمؤرخين الذين يعنون بشؤون الاسلام مهامهم ووضع بين ايديهم وثيقة جديدة مكتوبة بصدق وامانة وعلم . وعلى ذكر ذلك نقول ان مجلة البحوث الاسلامية التي عنيت بنشر بحث الدكتور بشر فيها ثم بنشره على حدة هي لسان حال المستشرقين الفرنسيين يديرها حضرة المستشرق الكبير الاستاذ ماسينيون

قصص للاطفال

١ — قصص جغرافية — لكامل كيلاني — تولت طبعها ونشرها المكتبة العصرية بمصر
٢ — قصص علمية — لكامل كيلاني —

الحمد لله اننا بدأنا نلمس اثر الجهود التي بذلها روّاد مطالعات الأطفال في ما تنشره المطابع العربية الآن من قصص منوعة الموضوعات والاشكال غرضها ان تبعث النشوة والسرور في نفوس الصغار وتحبب اليهم المطالعة العربية : ولا تزال كتب كامل كيلاني — وقد كان سباقاً في هذا الميدان — من خيرة ما تخرجه المطابع للاطفال ، شكلاً وموضوعاً واسلوباً ، وقد سبق لنا أن اشرنا الى بعض ما صدر منها في حينهِ . وأمامنا الآن قصص جغرافية للأطفال وفيها قصة رحلة لفنجستون الى قلب افريقيا . ومن حسنات المؤلف في هذه القصة ، انهُ عمد ، وقد تقدّم الأطفال الذين طالعوا قصصه السابقة في المعرفة والفهم ، الى تقطيع حديث الرحلة الأخاذ بفصول تفسيرية بديعة تناول فيها بعض الحقائق الجغرافية والتاريخية والأدبية المقترنة بالأنهر والجبال والغابات والشلالات وغيرها مما ورد ذكره في خلال القصة . وهو اسلوب مفيد اذا احسن المربي استعماله

أما كتاب القصص العلمية فيتناول فيهِ المؤلف حقائق معروفة ومشهورة ، وهي مع ذلك لا تخلو من غرابة، في التاريخ الطبيعي من حياة الحيوان والنبات في اسلوب قصصي . وفي آخر هذا الكتاب معجم لغوي للالفاظ العربية الصحيحة الخاصة بنسل الحيوانات المختلفة واجناسها ، وفصل وقفهُ على حياة النحل ويليه الالفاظ العربية الخاصة بالنحل ثم هناك معجم آخر لاعلام الحيوان ، وهذه المعاجم مما يكفي المربي مؤونة التفتيش في المطوّلات ساعات طويلة احياناً رغبة في العثور على كلمة واحدة

ومما لا ريب فيهِ ان لمؤلف هذه القصص فضلاً كبيراً على تنشئة الاطفال المتكلمين اللغة العربية ولذلك سرّنا صدور كتيب في ٩٥ صفحة يحتوي على ما قيل في حفلة تكريمه وعلى مختارات مما نشرته الصحف والمجلات الكبيرة في وصف مؤلفاته . ولكننا والحق يقال لم نستحسن عنوان « نقيب الادباء ومنشىء الجيل » . وليس شعورنا هذا مصبوباً على هذا العنوان بحد ذاته ولكنهُ يتناول كل ما كان من قبيله من اسباغ الالقاب العامة على المؤلفين والكتّاب بحيث اذا مضينا في ذلك سنة اخرى او سنتين ، اصبحنا وكل كاتب او اديب اميراً او نقيباً او ما الى ذلك من الالقاب التي لكثرتها قد تضيع معناها ومغزاها فتختلط الاحكام وتضطرب المقاييس

شعر ابي شادي الجديد

١ — فوق العباب
٢ — الكائن الثاني

اذا تثقف عقل الشاعر من دون أن تطغى الثقافة على الشعور الدقيق والحسّ المرهف ، جلا لنا من عجائب الكون والحياة صوراً تغذي العقل وتهز النفس معاً . وهذا شأن ابي شادي ، في الغالب في ديوانيهِ الاخيرين . فالشاعر فيهما لم يكتف بترديد المعاني المطروقة في الغزل والنسيب وغيرها من أغراض الشعر ، ولكنهُ ارسل القوافي تبحث عن الجمال الاعلى في عجائب الحياة ورحاب الكون متأثراً بالنظرات العلمية الحديثة ، حتى لترى بين قصائد السفرين موضوعات تحسبها عنوانات لكتاب علميّ . ولكن أبا شادي لم يكتف — وأي شاعر يكتفي — بسرد الحقائق العجيبة التي كشف عنها العلم او انطوت عليها النظريات العلمية الحديثة ، بل دمج ذلك في الاعراب عما تركتهُ تلك المعاني في نفسهِ الشاعرة من الاحساس بالجمال والعظمة والتصوف ومعاني الانسانية السامية ، ولعلَّ قصيدة « الأشعة الكونية » التي تفضل فأهداها الى رئيس تحرير هذه المجلة بعيد صدور كتابهِ «فتوحات العلم الحديث» من أبلغ الامثلة على ما ذكرنا . فقد أشار الى نظرية مليكن في تولد هذه الاشعة بقولهِ

امن الخواءِ اتيت منح عناصرٍ ... تُبنى فكنت لها شهود عيانِ
ام من فناءِ الايدرجين تحوّلاً ... فيعود في النترون ذاك الباني

ولكن هذا التقرير لا يكفي الشاعر فيقول

من أين مصدرك الكريم الباني ... يا مأمل الأحياءِ والانسانِ
من نفخ خلاق الحياة فروحهُ ... روح الحياة وشعلة الايمانِ
ليست رحاب الكون غير رحابهِ ... والكون غير فتونهِ الفنانِ
جعل التفجّر مبدأً لفنونهِ ... كتفجر الأطياف بالألوان
فاذا انبثاق الكون يوم اول [1] ... واذا المجرّة منهُ يوم ثانِ
واذا نظام الشمس يوم ثالث ... خلقتهُ صدفة ساحر فتّان [2]
واذا الحياة قصيدة علوية ... من هذه الأيام والأوزان

ومن هذا القبيل قصيدتاه في بلوطو (السيار التاسع الجديد) وما وراء المجرّة فقال في الثانية عن السدم التي خارج المجرّة

عوالم لا تحصى ولا هي تعرف ... ويا ربما المجهول منها المعرّفُ

(١) هنا الاشارة الى رأي ليمتر وده ستر وغيرهما في تفجر الكون وتمدده (٢) الاشارة الى اقتراب شمس من شمسنا فاحدثت فيها مدًّا وان بعد احتمال اقتراب مثل هذا يجعل ما حدث من قبيل الاتفاق او الصدفة

تناهت تناهت في الفضاء الى مدًى يقصر عنهُ العالم المتلهّـفُ
فما قنصتها بؤرة[1] العـلم مرةً وان لم يفتها الشاعر المتصوّف
رأى من وراء الكون آيات غيره بخط من النور الالهي يخطف الخ

ثم قال

تشتت هذا الكون حتى فضاؤه ومن خلفه عقل دقيق ومنصف
كأن رحاب الكون وجدان شاعرٍ فكلّ فضاءٍ فيهِ حيٌّ مثقّـفُ
وفيها «كونتات»[2] الحياة أجنّةً وفيها من الذّرات ما لا يؤلّـف
ولكنما للشعر من لبناتها عوالم باللحن السماويّ تعزف

ولم يقصر الشاعر عنايته بهذه الموضوعات على الطبيعة والفلك الحديث بل تناول نواحي فتانة من التاريخ الطبيعي لايتسع هـذا الباب لدراستها جميعاً دراسة وافية . ومع ان الاندماج بين تقرير الحقائق العلمية والتعبير عن الشعور الذي توحي بهِ الى النفس لم يبلغ بعد ذروتهُ في هـذا الضرب من شعر ابي شادي ، الاّ ان الظاهرة في الشعر العربي جديدة تستوقف النظر فيسرنا أن نسجّلها

نشأة الدولة الاسلامية

تأليف أمين سعيد . مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاهُ . سنة ١٩٣٥

التاريخ الاسلامي كله لا يزال مادةً مبعثرةً منشرة ما بين كتب التاريخ التي ألفها سلَفُنا الامناء على الرواية في غير تبديل ولا تحريف وبين كتب الحديث والادب والشعر والمحاضرة وكتب الفقه الاولى كالامّ للشافعي وكتب الرجال الكثيرة . هذا على ان اكثر كتب التاريخ العربي لم تطبع بعد ككتاب التاريخ الكبير للمسعودي صاحب مروج الذهب وهوا كبر من تاريخ الطبري بكثير وفيه تفصيل للحوادث الكبرى في تاريخ الاسلام ثم ان كثيراً من امهات الكتب العربية قد ضاع كله او بعضه ككتاب أنساب الاشراف للبلاذري وغيره

أجملنا هذا لتعلم قدر ما يقاسيه طالب التاريخ وكاتبه من المشقة في تأليف مادة الحوادث التي يريد ان يجمعها ثم ينقدها ثم يؤلف بينها ثم يصل بين بعضها وبعض حتى يستوي له الوجه الذي يكتب عليه اعظم تاريخ واحفله وأروعه . ولا تنسَ ان مؤرخي العرب قد خفي عليهم ان يكتبوا كتباً مفردةً في الاجتماع العربي والاسلامي من اول عهده الى عهودهم فعلى الكاتب ان يتتبع ذلك في كلِ كلمة وحادثة من كتب اللغة الى كتب الفقه الى كتب التاريخ وغير ذلك حتى يكتب التاريخ كما يجبُ لا كما يتخيّـل

ونحن احوج الامم في هذا العصر الى الكتّـاب الذين يتولون نشر الكتب في تاريخنا الاسلاميّ

(١) أي عدسة النظارة المقربة (٢) مقادير الطاقة بحسب نظرية بلانك

العربيّ ، فان كل كاتب يؤلف من المادة التي تجتمع له كتاباً مهذباً يؤدي الى كل من يأتي بعده يداً واحساناً ، ويمهد له سبيلاً مهما اختلفت الآراء وتباعدت المذاهب بل ربما كان هذا الاختلاف هو مهد الحقيقة الثابتة فيه تنمو وتمتدُّ حتى تتكامل على الصورة البينة التي لا لبسَ فيها ولا ابهام

وهذا الكتاب الذي ألفه الاستاذ امين سعيد هو من طلائع المؤلفات الجيدة في التاريخ الاسلامي فقد رتبه فأحسن ترتيبه واستخلص من امهات كتب التاريخ مادته كما انتقاها واختارها وجرى فيه على مدًى غير مضطرب يصل اول الامر بآخره على نسق واحد متجنباً ذكر اختلاف الرواة لئلاّ يشق بذلك على القراء الذين يريدون ان يتعرفوا الى التاريخ الاسلامي كما تعرفوا الى غيره من التواريخ في غير اضطراب ولا مشقة

***

بدأ المؤلف تاريخه كما يجب ان يُبدأ بمختصر وافٍ لسيرة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وغزواتهِ وبعوثهِ وما أحدثتهُ الدعوة الاسلامية في نفوس الامة العربية . ولم يخلُ هذا الباب في السيرة النبوية من رأي صائب قد تفرد بهِ الاستاذ وأضافهُ الى الحقائق التي تعتمد فيما بعدُ في كتابة تاريخ مفصل لهذا العهد الاول وهو عهد الرسالة

ثم انتقل من ذلك العهد بفصل جيد ذكر فيه تأثير وفاة الرسول صلى الله عليهِ وسلم في جزيرة العرب حتى كان اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه للخلافة ، وهنا بدأت الطامة الكبرى التي كادت تودي بالمسلمين ألا وهي حرب الردة لولا حزم ابي بكر وعمرٍ وائمة الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد استوفى المؤلف الكلام على حرب الردة وبين وقائعها واحدةً واحدةً وبخاصة ما اتى بهِ خالد بن الوليد من دقة التدبير الحربي الذي أهله فيما بعد ليفتح العراق ثم الشام . وبعد ان فرغ من حرب الردّة أزمع أبو بكر رضي الله عنهُ ان يفتح العراق فأرسل جيشه . وهنا يبدأ جزء مهم من الكتاب هو فتح العراق وفارس استقصى فيه المؤلف ما وصل اليه من علاقة العرب بالفرس في ايجاز جميل يوضح تاريخ هذا العهد بعض التوضيح . وقد كان قطب هذا الفتح القائد العربي النابغة (خالد بن الوليد) الذي مهد للمسلمين اسباب النبوغ الحربي ، وكان كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (سيفاً من سيوف الله) وقد أحسن المؤلف في افراده ترجمة موجزة لخالد في هذا الموضع من الكتاب فان خالداً بعد ان استقرَّ به القرار وانذر كسرى فارس بالهجوم في موقعة فاصلة انتقل الى حرب الشام بجزء من جيشه بعد ان استخلف على بقية جيش العراق وذلك في خلافة عمر ابن الخطاب امير المؤمنين رضي الله عنه . وعلى هذا النسق يستمر الاستاذ امين في عرض تاريخ الاسلام عرضاً صحيحاً حتى آخر عهد عمر وقد كان عهده عهد الفتح الاكبر في دولة الخلفاء الراشدين

وننبه القارىء الى فصل جيد في آخر الكتاب فيه تلخيص أمهات المسائل التي تعرض لها المؤلف وتعليقٌ عليها « يساعد ايرادهُ على فهم كثير من حقائق التاريخ ويميط اللثام عن بعض خفاياهُ »

الادب العربي في آثار اعلامه

تأليف الاساتذة «فؤاد أفرام البستاني» و «واصف بارودي» و «خليل تقي الدين»

هـذا كتاب ألفه الاساتذة بعد تدبر وتمحيص لخير الطرق المؤدية الى تثقيف الطالب العربي وتعريفه بأدب امته، وقد وضع وفقاً لمنهاج البكالوريا اللبنانية فيهِ نصوص من الادب منتخبة للجاهلية وصدر الاسلام اي آخر دولة بني امية، وقد اختاروا في القسم الاول منهُ قصائد لامرىء القيس والنابغة وطرفة وزهير وعنترة ومن حسن الصنيع انهم اختاروا لهؤلاءِ الشعراء قصائدهم تامة الاّ ما كان لامرىء القيس من الفجور في القول، ثم اختاروا بعد ذلك قصائد في عصر صدر الاسلام للاخطل والفرزدق وجرير وعمر بن أبي ربيعة من الشعراء وقد قسّموا ما اختاروه لكلّ شاعر على الابواب المعروفة من المدائح والاوصاف والهجاء ثم اختاروا من النثر في هذا العصر بعض خطب الحجاج ورسائل عبد الحميد الكاتب

ولقد احسن الاساتذة كل الاحسان في اختيار هذه الطريقة لتدريس الادب العربيّ في مدارسهم فان الشاعر من الشعراءِ لا يجدي في معرفتهِ بيتٌ او بيتان وانما يعرف الشاعرُ حين تقرؤ قصائده بأكملها على وجهها مشروحة مفصّلة فحين ذاك يرجى ان يقدر الشاعر ويفهم شعره ثم يرجى ان تستقيم فطرة الطالب على السليقة العربية في التعبير الدقيق عن الاغراض التي يتناولها حين يكتب او ينظم

من حيّ الى ميت

بقلم توفيق حسن نادر الشرتوني، طبع بمطبعة المعرض ببيروت، ١٤٦ صفحة من قطع المقتطف

هذا الكتاب، احساسات نفسية وخواطر وتأملات في الحياة والموت، في الدنيا والآخرة، جاشت بنفس مؤلفه على اثر صـدمة عنيفة هي مصابه بفقد اخيه طانيوس حسن نادر الشرتوني فأرسلها قطعاً من الشعر المنثور في اسلوب رقيق يلونه الاسى بلون من التأمل والتفكير، وتسكب عليه لوعة المؤلف ووفاؤه لاخيه حناناً وهدوءاً يشعر بهما من يطالع هذه الرسائل كقوله: «يا اخي! يخيل اليَّ ان الانفس سواء اكانت محرَّرة من المادة او مقيَّدة بها تعمل على الدوام مجدَّة وراء رقيها وكلها تعثر تارة وتنهض احياناً ولا تنفك متجهة نحو غايتها، وما غايتها سوى رجوعها الى اصلها لانها فرع وكل فرع يعود الى اصله. فكما يحمل السحاب مياه البحر ويقذفها فوق الجبال والسهول والاودية ثم تعود المياه بحكم طبيعتها الى البحر، هكذا الى مصدر الروح ترجع الروح، والى منبع الحياة ترجع الحياة. اني اتمثل النفس كالكهرباء تشتغل مقيدة وبلا قيد. وكالرائحة العطرية تعمل في الفضاء وفي قلب الزهرة على السواء. فكما ان الارض لا تهدأ دورتها والكواكب لا تقف حركتها، هكذا الانفس لا يبطل عملها، ومجال الحياة العمل»

مفتاح العقول

انشأه وجمعه واختصر اجزاءه — نجيب نجم كرم — طبع في بيروت وثمنه ١٠ قروش سورية

حوى هذا الكتاب طائفة مختارة من حقائق العلوم والتاريخ والاجتماع واقوال وحكم مأثورة مفرغة في قالب شذور طريفة يسهل تناولها على طالب العلم الناشىء ، فتحبب اليهِ المطالعة من جهة وتوسع نطاق معارفه من جهة اخرى . والشذرة من هذه الشذور لا تتعدَّى في الغالب عشرة اسطر ولكن كل كلمة في كل سطرٍ منها لازمة لاستيفاء المعنى . فهي مثال على وضوح الفكر المقصود والايجاز في التعبير عنهُ . فتحنا الكتاب اتفاقاً عند الصفحة العاشرة فقرأنا ما يلي بعنوان « الكوبلت » : — الكوبلت معدن ابيض يضرب الى الحمرة سريع الانقصاف يقبل التطرُّق والصقل لا يصهر الاَّ بحرارة شديدة جدًّا ولا تفعل بهِ الحوامض الخفيفة الاَّ قليلاً ويذوب في الحامض النتريك بسرعة ولهُ مركبات كثيرة تستعمل في الصناعات لاجل التلوين واكثر ما يوجد في الطبيعة مختلطاً بالنكل الآتي ذكره وبالكبريت والزرنيخ . وفتحناه عند الصفحة ١٥ فوجدنا نبذة عن أعظم عظماءِ العالم كما اختارهم احد الكتَّاب وهم ارسطو في الفلسفة وارخميدس في العلم ونيوتن في الرياضيات وميخائيل انجلو في التصوير والنقش وبيتوفن في الموسيقى ودانتي وشكسبير في الشعر ثم بضعة سطور عن كل منهم تشمل اهم ما عرف عنهم . فالكتاب من أصلح كتب المختارات التي اطلعنا عليها لمطالعة تلاميذ المدارس

مجلة اوريان — باريس

اصدر حضرة الصحفي البارع توفيق وهبه مراسل المقطم في باريس مجلة باللغة الفرنسية سمَّاها اوريان باريس وقفها لخدمة الشرق في اوربا واظهار فضائله ونشر ثقافته وتعميم انباءِ حضارتهِ القديمة ونهضته الحديثة . ويعاونهُ في تحريرها نخبة من كتاب الغرب الذين وقفوا على روح الشرق ونفذوا الى صميمه في دراساتهم عنه خلافاً لاولئك الكتاب الذين المُّوا به الماماً فجاءت احكامهم مغلوطة خاطئة . ومن محرري هذه المجلة الراقية المطبوعة طبعاً جميلاً بعض وزراء فرنسا ونوابها وشيوخها مما جعل لها مكانة عالية في الاوساط السياسية والادبية

ويروقك فيها تنوع موضوعاتها ودقة بحوثها كما يستفزك منها حسن دفاعها عن الشرق وبلاؤها عن العرب وتمجيدها لحضارتهم السالفة وتنبيهها الغربيين لوجوب معاملة الشرقيين معاملة حسنة تضمن حسن التفاهم بين الجانبين . ومن موضوعاتها الاخيرة . وزارة نسيم باشا والسياسة المصرية . المرأة المسلمة وكتاب الغرب . الوفد المصري . تاريخ الصحافة المصرية . الحروف العبرانية . لمحة من تاريخ جامع باريس . الفن المصري في فرنسا . الكتب العربية . الشرق قديماً وحاضراً . ابن السعود والوهابية الخ . والخلاصة ان هذه المجلة رمز الذوق الصحفي والاطلاع العام والاندفاع المحمود والوطنية الصادقة الحكيمة



انباء زراعية مفيدة

نقلها عوض جندي

﴿ آفة الصدإ ﴾ تنتاب الحبوب طائفة من النباتات الطفيلية الدقيقة ، من فصيلة الفطريات فتحدث في محصولاتها عجزاً كبيراً . وأخص الحبوب التي تصاب بها ، القمح والزمير والشعير وقد ينجم عنها أيضاً آفات شديدة في الجويدار والفول والبرسيم والذرة المصرية والذرة العويجة «الدخن» وبعض الثمار ذات العجم « النوى » وتسطو على الخشب عند قطعه من الغاب فتحدث فيه تلفاً شديداً

ولا مراء في القول ان آفتي الصدإ والخميرة قد عمتا العالم بأسره . وهما تتولدان من جراثيم على هيئة أجسام ترابية دقيقة جداً لا تراها العيون المجردة ، وانما يتاح للمرء رؤيتها بالمجهر. وتتغذى جراثيم صدإ القمح ، في اطوارها المختلفة بصنفين من النبات يسميهما علماء النبات بالنباتات الآويةللجراثيم . ومنها الحنطة والبرباريس

ولو فحصت ورقة من اوراق البرباريس لوجدت جانبها السفلي يكنّ جماعة من جراثيم برتقالية اللون ، تختفي في شقوق صغيرة يسميها علماء النبات كؤوس العناقيد . ولما كانت تلك الجراثيم أخف من ذرات العثير ، فتستطيع الريح نقلها ، شذر مذر الى مواضع نائية حيث تسقط على سيقان القمح وهي غضة فتستكن هناك بين الخلايا الحية وتشرع في التفريخ فتنتج جماعات خيطية الشكل تعرف باسم جراثيم الفطر وهي تشبه البذور . ومتى احتلت تلك الجراثيم سيقان الحنطة واتخذتها مراعي خصبة لها ، رأيت هاتيك الخويطات (الديدان الشعبانية) تترعرع بينما نبات القمح النافع يقف نموه الطبيعي ويذوى . ثم يظهر محصول الجراثيم الصيفي ، قبيل زمن الحصاد كأنهُ خطوط أو نقط صدإ . وذلك على اوراق القمح عادة ، وقد تظهر على سوقه أيضاً . وهذا هو المرض النباتي المعروف باسم الصدإ الاحمر للقمح . ولما كانت الريح تبثّ تلك الجراثيم في كل مكان فانها تسقط على ما يصادفها من النباتات المتاخمة لها حيث تأخذ في التفريخ عاجلا وتتفشى عدواها تفشياً ذريعاً في ابان فصل النمو ، حتى اذا اوشك الصيف على الانتهاء ظهر الصدأ الاسود على سوق القمح كجماعات من جراثيم الشتاء القاتمة اللون

ومتى حلّ فصل الربيع التالي ، شرعت تلك الجراثيم في التفريخ فيتولد منها خويطات تنتج جراثيم اكثر عدداً تطيرها الريح الى أوراق

نبات البرباريس وهي مستعدة على الدوام لاستئناف كرّتها القتالة

﴿ آفة الخميرة ﴾ تتولد خميرة القمح والزمير والشعير من تلك التقاوي بجراثيمها عند بذرها فترى تلك الفطريات تسطو على النباتات الصغيرة حالما تنبت على سطح الارض وتتبعها في نموها فتختلس غذاءها فتحول دون قيامها بتكوين بذورها . وحينئذٍ ترى النبات عاجزاً وتأوى اليهِ جماعات كثيرة من جراثيم الخميرة الملوثة التي تعد بالملايين فتتحد بعضها ببعض وتعلق بالحبوب السليمة عند عمليتي درس القمح والتصرف فيهِ وهذا مصدر الضرر الذي يلحق المحصول التالي

اما خميرة الذرة الهندية فيختلف منشؤها عما تقدم وصفه لانها لا تتولد من التقاوي الملوثة بل من الجراثيم نفسها التي تكون قد انقضى عليها فصل الشتاء كامنة اما في باطن التربة واما في السماد التي تسمد بهِ الارض . ومتى حل فصل الربيع انتجت تلك الجراثيم جراثيم اخرى تنشرها الريح في ارجاء الحقول حيث تتخلل النباتات الغضة . وهناك تتكون نوامي كأنها بثور كبيرة يسودّ لونها شيئاً فشيئاً حتى تتولد « كسرى الخميرة »

﴿ اصناف الخمائر النباتية ﴾ تنقسم الخمائر النباتية الى ثلاثة اقسام وهي : اللينة والخفية والجلية . فاللينة تجعل السنابل الصغيرة مثل كتلة قاتمة اللون تعبث بها الريح فتبعثرها وتترك عيدانها مجردة . اما الخميرة الخفية فتؤثر في السنابل ولكنها تبقيها على سيقانها حتى زمن الحصاد — والخميرة الجلية تؤثر في جنين القمح وهي افتك الآفات التي تعتري القمح لانها قد تتلف نصف محصوله ، وتجعل رائحتهُ كرائحة السمك المنتن ويعلق خبراء الزراعة آمالاً وطيدة على وقاية المحصولات من آفة الصدإ باستيلاد اصناف جديدة من الحبوب تقوى على مناوأة الفطر

وقد يساعد تناوب المحصولات على علاج التربة المصابة بالصدأ كما ان فرط الازوت او الرطوبة يسهل التعرض للاصابة به . وثبت من التجارب التي جربها العلماء في هذا الموضوع ان بيئة البرباريس ليست من مستلزمات الاصابة بالصدإ على الدوام ولكنها تزيد انتشار الطفيليات

ويرى العارفون ان آفة الخمائر ايسر من آفة الصدأ استئصالاً بالوسائل العلمية الحديثة المستعملة لوقاية المزروعات . وسبب ذلك ان جراثيم الخميرة تتعلق بظواهر الحبوب فتسهل ابادتها بالمواد المطهرة قبل البذر ، وذلك بثلاث وسائل: وهي الماء السخن ، والفورمالدهيد ، وكبريتات النحاس

ثم ان البذر المبكر احتياط مفيد للوقاية من آفتي الخميرة والصدأ

﴿ الطلق يبيد خميرة الشعير ﴾ الطلق هو المادة الاساسية التي تدخل في صناعة الذرور — البودرة . وقد ظهر بالامتحان الذي قام به معهد التجارب الزراعية التابع لحكومة آيوى ان للطلق شأناً عظيماً في ميدان مكافحة الآفات الزراعية كالذي له في ميدان التبرج الصناعي اذ جعلوه قواماً لمسحوق سام مكوّن من بيكربونات الصودا وكبريتيت الصوديوم وغيرها من المواد الكيميائية

الجزء الخامس من المجلد السادس والثمانين

صفحة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

ص

٣٥ القاموس المصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « غربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الاراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله، للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « « «
٥ « « ثالث « « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (الاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

ص

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول، ١٧ جزءا (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فالمبرج، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروضة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الفلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٨ النبي (« « «)
٥ آلهة الارض (« « «)

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في القاهرة ادارة المقتطف بشارع القاصد رقم ١ — بباب اللوق
في الاسكندرية والبحيرة والشرقية مصطفى افندي سلامه في دمنهور
في القليوبية والمنوفية مصطفى افندي سلامة في دمنهور
في الغربية والدقهلية والمحافظات مصطفى افندي سلامه في طنطا
في الفيوم — الشيخ محمود مليجي بالفيوم
في المنيا — ابو الليل افندي راشد في المنيا
في اسيوط — تامر افندي سيف باسيوط
في جرجا — الشيخ عبد الهادي احمد في طهطا
في بيروت—سوريا—جورج افندي عبود الاشقر ص.ب. رقم ٩٢٩
في طرابلس الشام عبد الله الياس حصني
في دمشق — المهاجرين الاستاذ عمر افندي الطيبي
في شرقي الاردن — عمان فهمي افندي يوسف
في القدس الشريف ويافا وحيفا الخواجات بولس سعيد ووديع سعيد اصحاب مكتبة فلسطين العلمية
في حمص—سورية— الخوري عيسى سعد
في الناصرة فلسطين فريد عوده زحمط
في حلب-شارع السويقة-السيد عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية
في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال
في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في البرازيل
Snr. Miguel N. Farah
Caixa Postal 1393
Sao Paulo Brazil

في الارجنتين
Sr. Fuad Ribeiz
Cordoba 499
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. N. Arida
c/o Al-Hoda
55 Washington St.
New York. U. S. A.

